مجلد ٥ — عدد ١٧ فبراير ١٩٤٧

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصرى

شركة مساهمة مصرية

القاهرة

يوسف كرم

مدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط

كتاب يقع فى ٢٦٨ صفحة

الثمن ٥٠ قرشاً (البريد المسجل ٥٦ مليما وللخارج ٦٨ مليما)



ثلاثون جنيهاً للفائز الأول في مسابقة الترجمة

تجرى محطة الشرق الأدنى للاذاعة العربية مسابقة للترجمة يقدم لها الأدباء والكتاب قبل يوم ٢٠ فبراير ١٩٤٧ ، ترجمات تتوفر فيها الشروط الآتية :

أولا : يجب أن تكون القطعة المترجمة نثرية إما من الأدب الانجليزي ، أو من الأدب الافرنسي ، وأن تكون من أدب القرن التاسع عشر أو أدب القرن العشرين .

ثانيا : يذكر اسم المؤلف والمرجع الذي أخذ منه المترجم ، وترسل نسخة مطبوعة من الأصل المترجم عنه .

ثالثا : يجب أن لا تزيد الترجمة العربية على ألف وخمسمائة كلمة وأن لا تقل عن ستمائة كلمة .

رابعا : ترسل القطوعة مطبوعة على أربع نسخ على أن لا يذكر المترجم اسمه على هذه النسخ بل يرفق اسمه وعنوانه مكتوبين على ورقة منفصلة .

خامسا : تبقى القطع المترجمة الفائزة ملكا للاذاعة مدة ثلاثة أشهر من تاريخ إعلان نتائج المسابقة وبعد ذلك يحق لأصحابها التصرف بها .

سادسا : تقبل القطع المترجمة حتى اليوم الخامس والعشرين من شهر فبراير سنة ١٩٤٧ .

سابعا : ترسل القطع المترجمة إلى محطة الشرق الأدنى للاذاعة العربية — يافا — فلسطين ، برسم مسابقة الترجمة .

ثامنا : تعلن اللجنة القطع الفائزة بالترجمة في جلسة مذاعة يوم الجمعة ٢٨ مارس (آذار) سنة ١٩٤٧ .

تاسعا : توزع الجوائز كما يلي :

للفائز الأول : ٣٠ (ثلاثون جنيها فلسطينيا)
للفائز الثاني : ١٥ (خمسة عشر جنيها فلسطينيا)
للفائز الثالث : ١٠ (عشرة جنيهات فلسطينية)



VALEURS

CAHIERS TRIMESTRIELS DE CRITQUE ET DE LITTERATURE
PUBLIES AVEC LA COLLABORATION DES ECRIVAINS DE FRANCE
ET DU PROCHE-ORIENT.

Directeur: ETIEMBLE.

SOMMAIRE DES SEPTIÈME ET HUITIÈME CAHIERS

Octobre 1946 — Janvier 1947

ROBERT LEVESQUE
LA CLEF D'ALEXANDRIE

JOE BOUSQUET
FRILEUSES

EMILE SIMON
L'ESPRIT DU BAROQUE

GEORGE HENEIN
PORTRAIT PARTIEL DE LIL

HENRI CALET
RUDOLPH CHARLES VON RIPPER

GISELE BRELET
CHANCES DE LA MUSIQUE ATONALE

JULES SUPERVIELLE
LES B. B. V.

GEORGES LAMBRICHS
LE PARTI DU REFUS

T.E. LAWRENCE
TROIS LETTRES INEDITES

EDGARD FORTI
NIETZSCHE ET LA DECADENCE EUROPEENNE

TAHA HUSSEIN
AL-MOUTANABBI: LA GRANDE AVENTURE D'UN POETE

JEAN-PAUL SARTRE
ECRIRE POUR SON EPOQUE

MARCEL ARLAND
POUR UN VITRAIL

ETIEMBLE
DE L'ENGAGEMENT

GWYN WILLIAMS
VENUS MUTILEE

ALEXANDRE STOPPELAERE
INTRODUCTION A LA PEINTURE THEBAINE

CHARLES PICHON
DU NOUVEAU SUR LA GUERRE DE TROIE

MARCEL PROUST
CINQ ETATS DES « JEUNES FILLE EN FLEURS » (*Fin*)

ETIENNE DRIOTON, ETIEMBLE, HUSSEIN FAOUZI, JEAN GRENIER,
RENE GUILLY, BERNARD GUYON, HADJIANESTIS,
GEORGES HENEIN, FRANCIS JEANSON, HENRI EL KAYEM,
J. L., JEAN SCHERER, EMILE SIMON.

EXPOSITION DE LA TAPISSERIE FRANÇAISE;
SALON D'AUTOMNE, SURINDEPENDANTS, CHASTEL, FINI,
CALDER, DUBUFFET; SEULS LES HOMMES ONT DES AILES
(EXPOSITION MICHAUX); APOSTOLI ET DETRE;
EXPOSITION DE DESSINS D'ENFANTS EGYPTIENS;
REVUE DES LIVRES, NOTULES; REVUE DES REVUES; BULLETIN.

العقيدة والشريعة في الإسلام

تاريخ التطور العقدى والتشريعى فى الديانة الاسلامية

للمستشرق العظيم إجناس جولدتسيهر

نقله إلى اللغة العربية
وعلق عليه

محمد يوسف موسى	عبد العزيز عبد الحق	على حسن عبد القادر
المدرس بكلية أصول الدين بالجامع الازهر	المدرس بكلية الشريعة بالجامع الازهر	دكتور فى العلوم الاسلامية مدير المركز الثقافى الاسلامى بلندن

أبواب الكتاب :

محمد صلى الله عليه وسلم والاسلام — تطور الفقه
نمو العقيدة وتطورها — الزهد والتصوف
الفرق — الحركات الدينية الأخيرة
ولكل باب حواش من المؤلف وتعليقات من المعربين

كتاب ضخم يقع فى ٤٠٠ صفحة

الثمن ٨٥ قرشا (البريد المسجل ٦٠ مليما وللخارج ٧٢ مليما)



الكاتب المصرى
مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصرى فى أول كل شهر عن دار الكاتب المصرى ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعتها .

الاشتراك

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان ،
١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو ما يعادلها.
يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب المصرى . لا تقبل الاشتراكات لأقل من سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل ما يرد إليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤

الادارة : ٤٥٠٣٤-٤٧٨١٥-٥٤٢٧٣



AL KATEB EL MASRI

Monthly literary magazine published by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)

Editor-in-chief : **Taha Hussein**

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير

طه حسين

مجلد ٥



القاهرة ١٩٤٧

الكاتب المصري



ربيع الأول ١٣٦٦ فــبراير ١٩٤٧

السنـــة الثانيـــة مجلد ٥ — عدد ١٧

ما وراء النهر (١)

وأنت بالطبع عجل ، تريد أن ترى صاحب القصر . وأنا مثلك عجل أريد أن أراه ؛ لأن الأمد بينه وبيني قد بعد وأسرف فى البعد . والشاعر نفسه يريد أن يلقاه منـذ سمع من نعيم ما سمع ، وعرف من أمر الأسرة ما عرف ، وروعه من هذا الطلاق ما روعه . وهو من أجل ذلك حريص على أن يسرع الخطو ، لولا أن إسراع الخطو لا يليق بالشيوخ ، الذين أفناهم مر الغداة وكر العشى ، وعطفتهم الأيام على العصا ، وعلمتهم المشى على ثلاث ، فخطوهم متقارب ، وسعيهم بطئ . وشاعرنا حريص دائماً على أن يكون شيخاً متهالكا ، قصير الخطو بطئ السعى . وهو على ذلك كله عجل يريد أن يلقى صاحب القصر ، فيسمع منه ويقول له . وهو من أجل ذلك لا يمد الخطو لأنه لا يستطيع ، أو لا يريد أن يستطيع أن يمد الخطو ، وإنما يتعجل على أسلوبه فى التعجل ، فيسعى إلى أمام ، لا يقف كما تعود أن يقف دائماً أمام آيات الفن هذه الرائعة التى نسقت فى أبهاء القصر تنسيقاً ليس أقل منها روعة وجمالا .

والشاعر متعود ألا يمر بهذه الآيات مرًّا سريعاً أو بطيئاً ، دون أن يقف عندها ، ملقياً إليها تحيات الاعجاب والحب ، واقفاً عند هذا التمثال مطيلا إليه النظر ، مهدياً إليه الحديث ، منتظراً منه الجواب ، وواقفاً عند هذه الصورة محللا معللا ، مستوحياً مفتوناً . وواقفاً عند هذه القطعة أو تلك من قطع الأثاث الفخم القديم ، يلتهمها بعينه التهاماً ، ويداعبها بيده مداعبة رقيقة ، يصنع ذلك كل ما دخل القصر ليلقى صاحبه فى مكتبه أو فى حجرة من حجرات الاستقبال ،

(١) الكاتب المصرى عدد ١٤ و ١٥ و ١٦ (نوفبر — ديسمبر ١٩٤٦ ، يناير ١٩٤٧) .

لا يمنعه من ذلك مانع مهما يكن ، ولا يصرفه عنه صارف مهما تكن الظروف . وهو من أجل ذلك ينفق وقتاً غير قصير منذ يبلغ أرق سلم القصر إلى أن يصل إلى صاحبه ، سواء كان على موعد أم زار على غير ميعاد ، وربما ضرب لصاحب القصر موعداً للقاء فى الساعة الحادية عشرة ، ولكنه يقول ضاحكا : على أنى سأكون هنا قبل أن تبدأ الساعة العاشرة ؛ وربما نسى الموعد نسياناً تاما ، وانتظره صاحب القصر ، فلما طال عليه الانتظار خرج يلتمسه فى هذا البهو أوذاك ، فوجده قائماً أمام صورة ، أو تمثال ، أو أثاث ، وقد استأثر به إعجاب ينتهى إلى شئ يشبه الذهول . ذلك أن هذا القصر ، ليس كغيره من قصور الأغنياء المترفين ، يزدان بفخامته وضخامته ، وامتلائه بالأثاث الفاخر الكثير قد نسق على وجه يلائم الذوق أو لا يلائمه ، ولكنه يدل دائماً على ضخامة الثروة ، وكثرة المال ، وحب الانفاق ؛ وإنما هو قصر له فخامته وضخامته ، ولكنه أشبه بالمتحف منه بالقصر . فليس فيه إلا ما يروق النفس . ويلذ العين ، ويملأ القلب رضا وإعجاباً ؛ قد جمعت فيه آيات من الفن ، على اختلاف هذا الفن فى النوع ، وفى العصر والطراز : ففيه القديم والحديث وما بين ذلك ، من آيات المثالين والمصورين ، ومن آيات العصور البعيدة التى يتحدث عنها التاريخ القديم ، وفيه من طرف الأثاث ضروب وألوان ، بحيث لا يستطيع ذو الذوق المترف أن يدخله إلا لقى فيه فتنة أى فتنة ، وبحيث يستطيع ذو الذوق المترف أن يزوره مصبحاً وممسياً فى كل يوم من أيام الأسبوع ، دون أن يقضى عجبه أو إعجابه بما فيه من هذه الروائع والآيات . فاذا مر الشاعر قصير الخطو بطئ السعى بهذه الآيات والروائع ، غير واقف عندها ولا مطيل نظره إليها ، فذلك الدليل كل الدليل على أنه معجل حقًّا ، وعلى أن الذى يعجله عما أحب وما سيحب دائماً ، لا يمكن أن يكون إلا أمراً ذا بال .

ومما يدل على أن الشاعر كان معجلا حقا ، وعلى أنه كان أشد عجلة منك ومنى إلى لقاء صاحب القصر ، أنه انتهى إلى البهو الذى ينبسط أمام المكتب ، وهم أن يمضى إلى المكتب فيطرق بابه طرقاً خفيفاً ، دون أن يقف وقفته تلك الطويلة ، أو يدور دورته تلك البطيئة ، حول هذه الكتب التى نسقت أجمل تنسيق وأدقه إلى هذه الجدران العراض المرتفعة ، ودون أن يمر يده فى كثير من الحب والهيام على صفوف هذه الكتب ، كأنما يحييها بيده تحية تشبه عطف

الأب حين يمسح رأس ابنه فى كثير من الحنان . وربما أخذ منها كتاباً ، فجمع يديه حول دفتيه ، ثم فتحه ونظر فيه قائماً فأطال النظر ، ثم آثر صحبة الكتاب على لقاء صديقه ، فانحاز إلى زاوية من زوايا البهو ، وفرغ لكتابه منصرفاً إليه عن كل شئ وعن كل إنسان ، حتى يأتى صديقه ، فيفرق فى عنف أو فى رفق بينه وبين هذا الكتاب الحبيب . ولكنه فى هذه المرة لم ينظر إلى الكتب ، كما أنه لم ينظر إلى التماثيل والصور ، إلا نظرات قصاراً خاطفة ، ومضى أمامه مستأنياً ، يريد باب المكتب ليطرقه ويفتحه ويغلقه من دونه حين يسمع الاذن له بالدخول . غير أنه لم يمكَّن من الوصول إلى الباب ؛ فقد لقيه الخادم مكبراً له حفيًّا به ، ولكنه يؤذنه بأن سيده لن يلقى أحداً الآن ، لأنه خالٍ فى هذه الساعة إلى ضيف قد أقبل منذ حين .

ولست أدرى أرضى الشاعر عن هذا الحجاب أم ضاق به ، ولكنى أعلم أنه تحول فى بطء إلى صف من صفوف هذه الكتب ، فحياه بطرفه ، ثم مسحه بيده ، ثم استخرج منه كتاباً ، وانزوى فى ناحية من نواحى البهو ، وجعل ينظر فيه مقبلا عليه غير فارغ له مع ذلك ، بل رافعاً رأسه ومديراً طرفه فى البهو من حين إلى حين ، كأنما كان يترقب أن يخلو له وجه صديقه هذا الذى جعل أمره يتعقد منذ اليوم .

وما أحب أن أقتحم الباب الذى لم يقتحمه الشاعر ، وأن أدخل بك على صاحب القصر خالياً إلى ضيفه ؛ لا لأنى أخشى أن يردّنا الخادم عن هذا الباب مكبراً لنا حفياً بنا كما رد الشاعر ، أو ناهراً لنا متعللا علينا ، كما كان خليقاً أن يصنع بكل من يحاول اقتحام هذا الباب .

فأنت وأنا مطمئنان إلى أننا نستطيع أن نقتحم الباب دون أن يشعر بنا هذا الحاجب ؛ لأن الفن قد منحنا هذه القلنسوة السحرية التى تخفينا على عيون الحجّاب والرقباء ، وتتيح لنا أن نذهب حيث نشاء ومتى نشاء وكيف نشاء ، دون أن يستطيع أحد لنا ردًّا أو صدًّا ، بل دون أن يستطيع أحد أن يفطن لنا أو أن يشعر بمكاننا .

ولست أدرى لماذا لا يتنبه القراء إلى هذه الخصلة الرائعة من خصال الفن ، وإلى قدرته على أن يخفى الكاتب وقراءه على العيون والأسماع ، وسائر أدوات الحس والشعور ، بل على أن يتيح للكاتب وقرائه قدرة هائلة يلغون

بها مسافات الزمان والمكان ، وما يقوم فى الزمان والمكان من عقبات تحول بين الناس وبين أن يروا ويسمعوا ويعلموا مايريدون أن يروا وأن يسمعوا وأن يعلموا . فنحن نستطيع من غير شك أن ننسل إلى داخل المكتب دون أن يشعر بنا أحد ، وأن نرى صاحب القصر وضيفه ، ونسمع ما يدور بينهما من حديث دون أن يأذنا بدخولنا عليهما أو مكاننا منهما . بل نحن نستطيع أن نرق إلى أى عصر من عصور التاريخ وما قبل التاريخ ، فى أى قطر من أقطار الأرض ، فنرى ونسمع ونعلم ما نريد ، كما أننا نستطيع أن نسبق الزمن ، وأن نمضى فى أعماق المستقبل ، إلى حيث نحب أن نمضى فى أى قطر من أقطار الأرض ، بل فى أى نجم من نجوم السماء ، لا يحدّ قدرتنا على ذلك إلا ما نريد نحن لا ما تريد الأحداث . وبعبارة أدق : يستطيع الكاتب وحده أن يفعل هذا كله وأن ينبئ قراءه إن أراد بما رأى وما سمع وما علم ، أو ببعض ما رأى وما سمع وما علم . فأنا قادر إذن على أن أتجاوز باب المكتب ، وأشارك فى زيارة هذا الضيف لصاحب القصر . ولكنى لا أفعل لسببين : أولهما يتصل بالأخلاق ؛ فأنا لا أحب اقتحام الأبواب ، ولا التسمع على الناس حين يتحدثون ، وأبغض شيء إلىّ التطفل والوغول . ولن أغير من أخلاقى شيئاً لأرضى القراء ، مهما يكن حرصى على رضاهم ، ومهما يكن لرضاهم من خطر . والثانى يتصل بالفن ؛ فقد يحسن أن أعرِّف صاحب القصر إلى القراء ، قبل أن أدخلهم عليه ، حتى لا أفجأهم به وبضيفه وبما يديران بينهما من حديث . ذلك أجدر أن يهيئهم للقائه عن علم به ومعرفة لخصاله ، لفهم ما يصدر عنه من أعمال نابية ، وأقوال نائية عما يلائم الرشد والصواب .

والقراء بعد ذلك ليسوا خيراً من الشاعر الذى هو صديق حمم لصاحب القصر . وإذا كان هذا الشاعر قد رضى أن يُرَدّ عن صديقه ، وقبل أن ينتظر حتى يخلو له وجهه ويؤذن له بالدخول ، فليس على القراء بأس ، من أن ينتظروا كما انتظر .

والشاعر يستعين على الانتظار بالكتاب الذى ينظر فيه ، فليستعن القراء على الانتظار بما سأسوق إليهم عن صاحب القصر من حديث . وقد لا يكون هذا الحديث ممتعاً إمتاع هذا الكتاب الذى ينظر فيه الشاعر ، ولكنه سيكون على كل حال كلاماً مقروءاً . وما أكثر ما يفرغ القراء للكلام المكتوب

الذى يساق إليهم فى كل يوم ، على ما يكون فيه من سخف ، وعلى ما يكون له من قيمة و إمتاع !

ورءوف صاحب القصر شيخ تقدمت به السن شيئاً ، ولكنها لم تبلغ من قوته ولا من شباب قلبه وجسمه شيئاً ، و إنما هو رجل طوال ، يميل إلى البدانة أكثر مما يميل إلى النحافة ، وهو رائع الطلعة ، رائق المنظر ، لاتقتحمه العين ، و إنما تتصل به فتطيل الاتصال ، تجد شيئاً من اللذة فى النظر إلى وجهه الذى لا يخلو من جمال مهيب ، والذى تضطرب فيه عينان صغيرتان نفاذتان ، فيهما شئ من حدة ، ولكنهما تصوران هدوءاً ودعة وثقة ، تقرأ فيهما الايمان بالنفس ، والشك فيا عداها ومن عداها من الأشياء والناس . وتقرأ فيهما الرضا المطمئن عن النفس ، والسخط على من عداها وما عداها من الأشياء والناس . وتقرأ فيهما أن لصاحبهما ضميراً مرناً أشد المرونة ، يسيراً أعظم اليسر ، يؤثر نفسه بكل شئ ، و يرى أن الحياة لم تخلق إلا له ولم توقف إلا عليه ، وأنه إنما يحتمل مشاركة الناس له فيها احتمالا ، ويطيقها عن تفضل وتطول .

تقرأ فى هاتين العينين الأثرة فى أبشع صورها ، وفى أظرف صورها أيضاً . وهذه القراءة لا تكذبك ولا تغرك عن الحقيقة الواقعة ؛ فصاحبنا أثر كأبشع ما تكون الأثرة ، وكأظرف ما تكون الأثرة فى وقت واحد . يندفع إلى ما يريد فى غير هوادة ولا أناة ولا إسماح ، لا يقبل أن تقوم بينه وبين ما يريد عقبة مهما تكن طبيعتها ، ومهما يكن مصدرها . وهو من أجل ذلك غضوب ، جامح الغضب ، عنيف مسرف فى العنف ، لا يروض الصعاب حين تعرض له ، و إنما يحطمها أو يحطم نفسه من دونها . وهو من أجل ذلك مر حتى لا يسيغ مذاقه أشد الناس رياضة لنفسه على احتمال المكروه والصبر على الأذى ومراس أصحاب العنف والجماح .

ولكنه على ذلك تحلو شمائله ، وتحسن أخلاقه ، وترق حواشيه حين يقبل على اللذة ويأنس إلى الناس ، لا يصدر فى عنفه ولينه عن بغض للناس وحب لهم ، و إنما يصدر فيهما عن حب لنفسه و إيثار لها بما يراه خيراً ؛ يبتغى ذلك باللين ، حين يكون اللين سبيلا إليه ، ويبتغى ذلك بالعنف حين لا يكون من العنف بد . وهو على كل حال أقل الناس حظاً من القصد والاعتدال ، لاتواه يوماً

أو ساعة على خلق سواه ، و إنما هو مندفع فى الغضب حتى يصرف الناس عنه ، أو مندفع فى الرضا حتى يتهالك الناس عليه . وأصل ذلك فيما يظهر أنه كان وحيد أبويه ، قد ولد فى بيئة ناعمة مترفة ، موفورة الحظ من الثراء ، قد يسّرت لها الأمور كلها تيسيراً ، ولم يولد له إخوة يشاركونه فى حب أبويه له ، وعطفهما عليه ، وحرصهما على تدليله وتنويله كل ما تطمح إليه شهواته الجامحة أو تطمع فيه أهواؤه التى أرسلت على سجيتها إرسالا . وقد وصف الشاعر القديم بعض الممدوحين بأنه لم يقل «لا» قط إلا فى تشهده ، وبأن لاءه كانت خليقة أن تكون «نعم» لولا تشهده و إيمانه بالله . و يمكننا أن نقول إن صاحبنا هذا لم يسمع «لا» قط فى صباه ولا فى شبابه إلا حين كان يتعرض لما كان يمكن أن يسوءه أو يؤذيه . ومع ذلك فقد كان أبواه والموكلون بخدمته لا يصدونه عما يسوءه ، ولا يردونه عما يؤذيه إلا فى كثير من الرفق والاحتيال ، وفى ألوان من الترغيب والاغراء ، بحيث لم يكن يشعر أن هذه الكلمة البغيضة كلمة «لا» تقال أو توجه إليه. لم يكن يسمع هذه الكلمة ، ولكنه كان يقولها كثيراً : يقولها لأبويه ، ويقولها لخدمه ويقولها لأترابه حين يلقى أترابه ، وكان هؤلاء جميعاً يسمعون منه هذه الكلمة ، فيرضون عنها ، ويبتهجون بها ، ويستجيبون لها . ولذلك نشأ على حب هذه الكلمة حين يجرى بها لسانه هو ، وعلى بغضها حين يجرى بها لسان غيره من الناس .

وكان من الطبيعى ألا يعرف المصاعب ، ولا يمرن على رياضتها وتذليلها . وكان من الطبيعى كذلك ، ألا يفهم كيف يمتنع عليه غرض من الأغراض ، أو يفوته أمل من الآمال . كان مدللا كأقصى ما يكون التدليل ، مترفاً إلى أبعد حدود الترف ، سيئ الخلق من أجل ذلك كأسوأ ما يكون الخلق ، ضعيفاً كأشنع ما يكون الضعف ، عنيفاً كأبشع ما يكون العنف . وليس من الغريب بعد ذلك أن نلاحظ أنه ، وقد أنفق حياة فارغة ميسرة ، لم يتعلم إلا بمقدار ما استطاع ، و بمقدار ما أتاحت له هذه الحياة المدللة المترفة أن يتعلم . فهو لم يذهب إلى مدرسة ، وإنما سعى إليه المعلمون . وهو لم يذعن قط لمعلم أو أستاذ ، و إنما أذعن له دائماً أساتذته ومعلموه . منهم من وجد إلى قلبه سبيلا ، فألقى فيه بعض العلم وأودعه بعض المعرفة ، ومنهم من لم يجد إلى قلبه سبيلا ، فتملق أهواءه ونزواته ، وقنع من الجهد بما كان يتاح له من الأجر فى آخر الشهر .

وما ينبغى أن تغرك آيات الفن هذه التى نسّقت فى القصر أحسن تنسيق ،

ولا صفوف الكتب هذه التي ملأت هذا البهو العريض مما يلي مكتبه ؛ فهو لم يكسب من هذه الآيات ولم يجمع من هذه الكتب شيئاً ، وإنما وجدها فى القصر ، فلم يحفل بها أول الأمر ، ثم جعل يقف عند بعضها من حين إلى حين ، ثم فُتن بها فتنة مصدرها الغرور أول الأمر ، ثم أصبحت جزءاً من حياته ، لا يستطيع أن يستغنى عنها ، ولا يتصور أن يعيش دون أن يراها مصبحاً وممسياً.

ولم يكد يبلغ أول أطوار الشباب ، حتى استجاب لدعاء شهواته وغرائزه ، فعبث ما شاء له العبث ، وأفسد ما شاء له الفساد. وهمّ أبواه أن يكفّاه عن بعض ذلك فى تلطف ورفق ، فلم يبلغا منه شيئاً ، وإنما كان لومهما له إغراء ، ونصحهما له دفعاً إلى الغلو والاسراف . ثم أتيحت له الغربة ، ففارق القصر والربوة إلى ما حولها ، وطوف فى الآفاق الغربية ، وأقام فى العاصمة فأطال المقام ، ثم طوف فى الآفاق البعيدة ، وزار العواصم الكبرى ، وألم بمواطن الجد والهزل ، وعاد إلى أبويه فتى كامل الفتوة ، قد ردّته الحياة إلى شيء من القصد فى سيرته ملأ أبويه إعجاباً به ورضا عنه ، وأتاح له النظر فى شؤون الأسرة قليلا قليلا . ولم تمض أعوام حتى كان مستقلا بكل شيء ، متصرفاً فى كل شيء ، ملغياً أباه من كل جهد ، ناهضاً من دونه بكل عبء .

ولست أعرف شيئاً أشد تعقيداً ، ولا أكثر اختلاطاً ، ولا أعسر على الفهم من نفس الانسان ؛ فهى ملتقى المتناقضات ، وهى غريبة فيما يختلف عليها من الأطوار . لقد كان كل شيء فى صبا رءوف يؤذن بأنه سيكون فتى ضائعاً ، مضيعاً ، لا يغنى عن أسرته شيئاً ، وإذا هو يعود إليها فتى رشيداً إلى حد ما ، قادراً على النهوض بالأعباء ، نافذاً حين يتصرف فى الشؤون ، بعيد الحيلة حين يحتاج إلى بعد الحيلة . وكان هذا خليقاً أن يلقى فى روع الذين يعرفونه من قريب أنه الفتى كل الفتى ، قد جمع من أخلاق الرجال ما ينأى به عما يعيب ، ويرتفع به عن الصغائر ، ويهيئه لجلائل الأعمال . وقد كان فيه من هذا كله شيء ، ولكنه على ذلك كان ضعيفاً أمام غرائزه ، متهالكا على لذاته . يسمو إلى الجليل من الأمر ، ويعنى مع ذلك بالصغائر وسفاسف الأمور عناية مؤذية . يضبط نفسه أحياناً ، فيبلغ من ضبطها ما يريد ، ويحملها من عظيم الأمر على ما يحب ، ثم يرسل لها العنان لجاءة ، فاذا هى تتابع الهوى حتى تجور عن القصد ، وتتورط فى أعظم الشطط .

وقد التمست الأسرة لابنها الزوج التي تلائم مكانه ، وجماله ، وثراءه ، فوفقت لما أرادت . وأصهر الفتى إلى أسرة صالحة ، وسعد بحياة زوجية ناعمة ، ولكن هدوءها لم يتصل ؛ فقد كان رءوف صاحب نزوات طالما آذت زوجه ، وطالما آذته هو ، وطالما أرهقته وأرهقت زوجه من أمرهما عسراً . ويمكن أن يقال إن نعيما ابنه قد نشأ فى بيئة ظاهرها النعمة ، وباطنها النقمة . كل شئ من حوله ميسر إلا أمر أبويه ، فانه كان عسيراً أشد العسر ، ملتوياً أعظم الالتواء .

وكل قارئ يستطيع أن يصور لنفسه حياة هذه القصور التي يملؤها الترف ، ويشيع فيها النعيم ، وتفيض من حولها السعادة ، ولكنها تشتمل فى أعماقها على غرفة أو غرفتين من غرفات الجحيم ، لا يرى الذين يأوون إليهما فيهما إلا الشر كل الشر ، والنكر كل النكر ، والعذاب كل العذاب . ولم يكن قصر رءوف الذى نشأ فيه نعيم إلا واحداً من هذه القصور : سعادة ظاهرة ، وشقاء خفى . أب يلهو ما وجد إلى اللهو سبيلا ، وأم تشقى ما استطاعت المرأة أن تحتمل الشقاء ، وخصومة وعبوس حين يلتقى الزوجان ، ووفاق وابتسام حين يظهران للناس . والصبيّ بين هذا كله يرى ويسمع ويحس ، ويسجل قلبه الصغير كل ما يرى ويسمع ويحس . وهو يؤثر أمه البائسة بالحب والرحمة والرثاء ، ويختص أباه الماجن بكثير من السخط واللوم ، ولكنه يخافه أشد الخوف من جهة ، ويعجب به أشد الاعجاب من جهة أخرى . يكره سيرته مع أمه ، ويرضى عن سيرته مع الناس ، ويعجب بسيرته مع نفسه ، ويتحدث إلى ضميره ، بأنه إذا شب فسيكون أبر بزوجه من أبيه ، ولكنه سيسير سيرة أبيه فى الناس ، وسيؤثر نفسه من متاع الحياة بمثل مايستمتع به أبوه . على أن رءوفاً لم ينشئ ابنه كما نشأه أبواه ، وإنما أخذه بشئ من الصرامة والحزم ، فكان هذا أيضاً مصدراً للخصومة بينه وبين زوجه ، ومصدراً للتعقيد فى نفس الصبي الذى كان يجد من أمه اللين والاسماح ، ويجد من أبيه الصرامة والحزم ، فيرضى ويسخط ، ويحب ويبغض ، وتتعقد نفسه على مر الأيام تعقداً شديداً .

وقد كنت خليقاً أن أمضى معك فى الحديث عن حياة رءوف فى شئ من التفصيل ، وعن نشأة نعيم فى شئ من الاطناب ، لولا أن باب المكتب يفتح ويخرج منه رءوف متضاحكا ، يشيّع ضيفه إلى سلم القصر ، ثم يعود وهو لايكاد يملك نفسه من ضحك يريد أن يملأ أبهاء القصر . فيصرف الشاعر عن كتابه ،

ويصرفنى أنا عما كنت أقص عليك من حديث . وها هو ذا قد أقبل على الشاعر مغرقاً فى الضحك ، يقول فى صوت متقطع : ها أنت ذا ! لقد أطلت انتظارك منذ اليوم ، وإنى لراض عن اضطرارك ، إلى أن تنتظرنى كما انتظرتك . قال الشاعر وهو ينهض متثاقلا ، ويرد الكتاب إلى مكانه من الصف : لست أدرى أينا انتظر صاحبه ! لقد ذهبت إلى حيث تعودنا أن نلتقى ، فأنبئت بأنك تنتظرنى فى هذا المكتب . ولن أبلغ من الحمق وخطل الرأى أن أترك الجنة النضرة ، والسماء الصفو ، والجو الصحو ، والنهر الجميل ، لأحبس نفسى معك فى هذا المكتب وإن كان جميلا أنيقاً . على أنى لم أستطع حتى أن أستمتع بالخلوة إلى هذا الجمال وقتاً قصيراً ؛ فقد أقبل ابنك نعيم ، فنغص علىّ كل شئ . قال رءوف وهو يغرق فى الضحك : ابنى نعيم ! فهو إذن قد لقيك ، وقد ألقى إليك بسخافاته التى لا تنقضى ، والتى ليس لها رأس ولا ذيل . ولكن هلم ! ما قيامنا فى هذا البهو؟ أقبل ، لأحبسنك فى هذا المكتب الذى تكره أن تحبس فيه ، أقبل واجتهد فى ألا تنحنى على العصا إن استطعت ؛ فان نفسى ليست ميالة إلى شعر جرير ، أقبل واعدل قامتك إن استطعت إلى ذلك سبيلا . لعلك قد شربت قهوتك على ضفة النهر مستمتعاً بالجنة النضرة ، والسماء الصفو ، والجو الصحو ، والنهر الجميل ، أم تريد قدحاً آخر من القهوة ؟ ولكن النهار قد انتصف أو كاد ينتصف ، ولم يبق بيننا وبين الغداء إلا ساعة وبعض ساعة . ما تقول فى قدح من قهوة أخرى خير من قهوتك تلك التى احتسيتها على ضفة النهر الجميل ؟ ثم أغرق فى ضحك طويل ، والشاعر قائم واجم ينظر إليه ويسمع منه ، ولا يفهم عنه . فلما سكت عنه الضحك ، قال بصوت ضخم مرتفع : الشراب يا غلام . ثم عاد إلى ضحك متقطع ، وأخذ بذراع الشاعر وهو يقول : إعتمد على ذراعى إن شئت ، أو تعلق بها إن أحببت ، ودع عصاك لا تأخذها بيمينك ولا تنحن عليها ؛ فقد كان يقال لنا فى طور التأديب إن المهذبين من الناس لا يستصحبون عصيهم إلى حيث يستقبلون ، وإنما يتركونها فى مواضعها المقسومة لها حين يدخلون الدور أو القصور . هلم ! هلم ! ثم مضى يقود الشاعر وكأنه يحمله حملا ، ويعلقه فى الهواء تعليقاً ، حتى انتهى إلى مكتبه ، فأجلس الشاعر ، أو قل وضع الشاعر وضعاً على كرسى عريض وثير . وهمّ الشاعر أن يتكلم ، ولكن رءوفاً أومأ إليه أن لا يفعل ، وقال فى صوت هادئ بعض الشئ : لا تسألنى الآن

عن شئ ولا تحدثنى الآن بشئ ، وإنما أرح نفسك وأرحنى من الحديث والاستماع ، حتى إذا أقبل الشراب وفرغنا من القدح الأول ، أخذنا فى الحديث ؛ فأنبأتنى بما عندك ، وما أرى أنك ستنبئنى بشئ ذى خطر ، وتحدثت إليك بما عندى ، وما أرى إلا أنى سأشغلك بقية يومك . فأسلف نفسك شيئاً من الراحة ؛ فانك ستستقبل بعض العناء . ثم انصرف عنه ، وجعل يذرع الحجرة ذاهباً جائياً ، مغرقاً فى تفكير عميق .

وأقبل الخادم يحمل قواريره وأكوابه ، وهمّ أن يملأ القدحين . ولكن رءوفاً قال له فى لهجة حلوة ، وعلى ثغره ابتسامة راضية : لا تشق على نفسك يابنىّ ، فسأقوم عنك بهذا الجهد ، ولكن امنع علينا بابنا ؛ فلسنا فى حاجة إلى الواغلين . فانحنى الخادم وانصرف وأغلق الباب من دونه . وأقبل رءوف على قواريره وأكوابه فصب ومزج ، وقدم إلى الشاعر قدحه وهو يقول :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

فاشرب هذه على لذتك ، ثم أداويك منها بالأخرى .

قال الشاعر : إن أمرك لعجب منذ اليوم أتتخذ هذه الحجرة لنفسك سجناً منذ آخر الليل ، وتحظر على نفسك النزول إلى الحديقة والاستمتاع بصفاء السماء وجمال النهر ، ولا تصيب من طعامك شيئاً حتى يظن الخدم بك الظنون ، ثم ها أنت ذا الآن لا تملك نفسك ولا تضبط أمرك ، وإنما تندفع فى ضحك لعل البكاء . . . وهنا قاطعه رءوف قائلا : أن يكون خيراً منه . كلا يا سيدى كلا ! إنه الضحك الذى يصور الرضا ، والأمن ، وصفاء النفس ، واطمئنان القلب . ولكن ألم أقل لك إنا لن نتحدث حتى نفرغ من قدحنا الأول ! ثم قال بعد صمت قصير : بعداً للخدم! لاسبيل إلى أن نخفى عليهم شيئاً ، ولا سبيل إلى أن نكف ألسنتهم عن الحديث بعلم وبغير علم .

أكان الظمأ هو الذى دفعهما إلى الاسراع فى الشرب ، أم كان التلهف على الخمر هو الذى أغراهما باستنفاد ما فى القدحين ، أم كان تعجل الحديث هو الذى [illegible] إزالة ما بينهما وبينه من هذه العقبة الرائقة الشائقة التى لم يكن شئ أحب إليهما من إزالتها؟ مهما يكن من شئ فقد أقبل كل منهما على قدحه شرهاً ، فلم تمض إلا دقائق حتى ارتويا هما ، وظمئ القدحان.

ونهض رءوف فأعاد إلى القدحين ريهما ، وأعاد إلى نفسه وإلى صديقه ظمأهما ، ولكنه كان ظمأ هادئاً مستأنيا لا عجلة فيه ؛ فأقبل كلا الرجلين على صاحبه يستبقان إلى الحديث استباقاً ، وأقبل كلا الرجلين على قدحه يحسو منه فى تمهل مثل حسو الطير ماء الثماد . قال رءوف متضاحكا : أما الآن فتستطيع أن تستمع لى يا أبت أو يا بنى ؛ فسنك وانحناؤك على العصا يجعلانك لى أباً ، وسذاجتك وسلامة نفسك تجعلانك لى ابناً ؛ فلى من غير شك أن أدعوك بأى الدعاءين شئت . استمع لى إذن ، وافهم عنى ولا تعجل على ؛ فانك لن تنبئنى بشئ أجهله . لقد أنبأك نعيم بحبه ، وثورتى على هذا الحب ، وإصراره على أن يمضى فيما بدأ ، وعطف أمه عليه ، ونطقى بهذه الكلمة التى تفرق بين الالفين . وكل هذا حق . ولكن الشئ الذى لم ينبئك به نعيم لأنه لم يكن يعلمه ، ولعله لايعلمه إلى الآن، هو أن الستار قد أسدل على بعض هذه المأساة ؛ فقد اختطف الموت من نعيم هواه . ثم أطرق حيناً وأقبل على قدحه ، فحسا منه حسوة ورده إلى مكانه فى هدوء ، والشاعر واجم لايدرى كيف يقول ، كأنما سقطت عليه الصاعقة . قال رءوف : نعم ! ماتت خديجة ، قتلها أخوها انتقاماً لشرفه فيما يظهر ، كأن لأمثال هؤلاء الناس شرفاً تراق فى سبيله الدماء ، ويحتمل فى سبيله العقاب والعذاب . لقد تغيرت الدنيا وفسد الناس ، وهبت على هؤلاء البائسين من أهل القرية وأمثالهم ريح لا أدرى من أين جاءتهم ، ولكنها حملت إليهم شرًّا عظيما : علمتهم أن لهم شرفاً ، وأنهم يستطيعون أن يغضبوا لهذا الشرف ، وأن يسفكوا فى سبيله الدم ، ويتعرضوا فى سبيله للموت . ومن يدرى ! لعلها علمتهم ، أو لعلها أن تعلمهم أشياء أخرى ، ليست أشد من هذا نكراً . ولن أدهش إذا أنبئت غداً ، أو بعد غد ، بأن هؤلاء الناس يضيقون بخضوعهم لنا ، وتسلطنا عليهم ، ويرون أن لهم فى أنفسهم حقوقاً يدافعون عنها ، ويتكلفون فى الدفاع عنها مالم يتعودا أن يتكلفوا ، وأن لهم فيما تخرج الأرض من الثمرات حقوقاً أكثر مما نعطيهم ، وأن لهم فى الحياة مطامع وآمالا لم تكن تخطر لهم من قبل . كل هذا ممكن ، وكل هذا خطير سيء العاقبة . لقد كنا نرى هؤلاء الناس يسعدون السعادة كلها حين تهبط إليهم أبصارنا وحين نختصهم بشئ من العطف ، أو نلقى إليهم شيئاً من التحية . لقد كان أعظم ما يطمحون إليه أنْ يرقوا إلى هذا القصر خداماً لأهله ، فاذا رقوا إليه وظفروا بالخدمة

فيه ، فأعظمهم حظًّا من السعادة ، أقربهم مكاناً من السادة . فأين نحن من هذا الآن ! أترى إلى ابنة الحذاء يؤثرها ابن سيدها بعطفه ويختصها بحبه ، ويمنحها مكاناً من قلبه ، فتنعم وتسعد ، وترى فى هذا الايثار حلماً لم يكن يتاح لأمثالها . ولكن أخاها ينكر ، ثم يغضب ، ثم يثور فيقتل أخته ... ولو قد استطاع لقتل معها شخصاً آخر . وهنا برقت عيناه بريقاً مخيفاً ، وجرت فى جسمه كله رعدة خفيفة ، لم يلبث أن ردها إلى الهدوء ، ثم أقبل على قدحه فألقى ما فيه فى جوفه إلقاء . ثم نظر إلى الشاعر نظرة حادة وهو يقول : إنك لقليل النشاط إلى الشراب ، أفرغ قدحك كما أفرغت قدحى . ولم يجب الشاعر كأنه لم يسمع منه . قال رءوف وهو يضرب بيده على المائدة : أتسمح لى أفرغ قدحك ، كما أفرغت قدحى؟ أو قم عنى ؛ فلست فى حاجة إلى الجلساء الفاترين . وكان الشاعر يعرف صديقه حق المعرفة ، ويعلم أنه عنيف إذا غضب ، منكر السيرة إذا عربد على نديمه . فلم يكد يسمع طرق المائدة حتى هب من وجومه مذعوراً . ولم يكد يسمع نذير صاحبه حتى أسرع إلى القدح فصبه فى فمه صبا . قال رءوف وقد نهض متضاحكا : أما الآن فنعم . ثم أقبل على زجاجاته فصب ومزج ، وعاد إلى مجلسه هادئاً مطمئنًّا ينظر إلى قدحه متهالكا عليه .

قال الشاعر : لقد أنبأنى نعيم أنه أرسل فتاته أمس إلى العاصمة ، ليلحق بها اليوم فكيف . . . فقاطعه رءوف قائلا : كيف قتلها أخوها ، أو أين قتلها ؟ أدركها فى العاصمة ، وقتلها بملأ من الناس ، وأسلم نفسه للشرطة . وأكبر الظن أنه كان يرقب أخته ، وأنه كان يعلم من أمرها كل شىء ، وأنه كان يدبر هذا الشر تدبيراً . والمهم أنه فعل فعلته ، وأنه بهذه الفعلة قد رد عنا شرًّا عظيما ، ونبهنا لخطر عظيم . أراحنا من هذا الزواج المنكر ، وقطع على نعيم طريق التمرد والعصيان ، ونبهنا إلى أن فى أمثاله من أهل القرية نزوعاً إلى شىء جديد ، فيجب أن نسير معهم سيرة جديدة ، وأن نلائم بين طموحهم هذا الطارىء وسياستنا لأمورهم .

ولكن هذا حديث لم يحن حينه بعد ؛ فقد نستطيع أن نفكر ونروى متى أتيح لنا التفكير والتروية ؛ فأما الآن فقد يظهر أن لدينا ما يشغلنا من الأمر . ثم رفع القدح إلى فمه فكاد يأتى على نصف ما فيه . ثم أشار إلى الشاعر أن اشرب . قال الشاعر : إن لم تكن فى حاجة إلى عقلك ، فقد تكون فى حاجة إلى

بعض عقلى ؛ فأمهلنى ولا تشتط على . قال رءوف : أما أنا فشديد الحاجة إلى عقلى كله ، وإنك لتعلم أن الخمر أعجز من أن تذهب به . وأما أنت فلستَ فى حاجة إلى عقلك ؛ لأنى لا أريد منك روية ولا تفكيراً ولامشورة ، وإنما أريد منك طاعة وتنفيذاً للأمر وتحقيقاً لما أريد .

قال الشاعر : وعندك إذن أمر تريد أن تصدره إلىّ ؟ وما عسى أن يكون هذا الأمر ؟ قال رءوف : أتعرف لماذا حجبتك آنفاً ؟ قال الشاعر : لأنك كنت مشغولا ببعض الضيف . قال رءوف : ألم تر هذا الضيف ؟ ألا تعرف من هو ؟ قال الشاعر : لقد كنت مشغولا عنك وعنه بالنظر فى ذلك الكتاب . قال رءوف : فانه حاكم الاقليم ، قد أقبل يزورنى ، ويسألنى فى بعض حديثه عما سمع من أن نعيما معتزم أن يسافر إلى إيطاليا وغيرها من بلاد أوربا ، ليقضى عاماً أو أكثر من عام . قال الشاعر : فانى لم أسمع قط بشئ من حديث هذه الرحلة . قال رءوف : لم تسمع أنت ، ولكن حاكم الاقليم سمع ، وأقبل ينبئنى بما سمع . ويجب أن يتحقق ما سمع ، وأن يرحل نعيم إلى حيث يريد من بلاد الله ، فيغيب عن هذه الأرض عاماً أو أكثر من عام . فى هذه الرحلة تهدأ نفسه ، ويستقر قلبه بين جنبيه ، ويسترد شيئاً من صواب ، وينتفع بما تفرض الغربة على المغتربين من التجارب . أعدده إذن لهذه الرحلة ، ويسّر له أمرها ، واصحبه فيها إن شئت أو شاء ؛ ذلك أجدر أن يريح الأسرة من بعض اللغط ، وأن يرد عنها بعض الشر ، وأن يصلح بعض ما فى النفوس . ثم رفع القدح وأتى على ما فيه ، وأشار إلى الشاعر فلم يجد منصرفاً عن الطاعة ، فأفرغ قدحه . وهمّ رءوف أن يصب ، ولكن الشاعر استعفاه قائلا : لم أحتج قط إلى عقلى كما أحتاج إليه الآن . وإذا لم يكن للخمر سلطان عليك ، فان سلطانها علىّ عظيم. ثم نهض متثاقلا . قال رءوف : إلى أين ؟ قال الشاعر : إلى حيث ألقى نعيما ، ثم إلى حيث أصلح من أمرى ، ثم إلى حيث أنفذ ما تريد . قال رءوف : إن نعيما مسافر إلى العاصمة اليوم ؛ فاصحبه فى سفره ، وتحدث إليه أثناء الطريق . وما زال عندك فضل من وقت فأقم ؛ فما أريد أن أجلس وحدى إلى مائدة الغداء . ثم ضرب إحدى يديه بالأخرى ، فأقبل الخادم ، فأشار إليه أن يرفع أداة الشراب ، وقال له وهو ينصرف : إرسل إلىّ خليلا .

وخليل هذا كاتب من كتاب القصر ، أقبل بعد قليل ، فلم يكد ينحنى

ويلقى التحية حتى ابتدره رءوف قائلا : ألم أسمع أن شرًّا عظيما قد نزل ببعض أهل القرية ؟ قال خليل فى صوت خافت متهدج : هو محمود الحذاء أصيب فى ابنيه جميعاً ، قتل ابنه أحمد أخته خديجة ، وأسلم نفسه إلى الشرطة . قال رءوف : اذهب فواسه ، ويسّر له العسير من أمره ، وأعنه على الرحيل عن القرية إلى حيث يشاء إن أظهر رغبة فى الرحيل . قال خليل : الرحيل ! و إلى أين يمكن أن يرتحل ؟ قال رءوف فى صوت كاد يمتد ولكنه رده إلى الهدوء : إذهب فأنفذ ما أمرتك به . فلم يستطع خليل إلا أن ينحنى ، ويحيى ، وينصرف . ولم يكد يغلق الباب من دونه حتى قال رءوف : بعداً لهؤلاء الموظفين ! ما أعظم حظهم من الغباء !

قال الشاعر وهو يشعل سيجارة : أما أنا فان لى من الغباء حظًّا ، ولكنه ليس عظيما فيما أظن . قال رءوف : وما ذاك ؟ قال الشاعر : إن لم أكن كهؤلاء الموظفين فقد يخيل إلىّ أنك تريد أن تحدث من حولك فراغاً ، وأن تعرض أمامك لوحة بيضاء كما يقال . فلم يجب رءوف ، و إنما استلقى فى أعماق كرسيه ، وأغرق فى صمت طويل ، ثم قال فى صوت يشبه صوت النائم : لا أريد إلا أن أستريح . قال الشاعر : وتريد أن يستصحب نعيم أمه فى سفره البعيد ؟ فأشار رءوف بيده إشارة المتعب المكدود ، وقال : هيهات ! ذاك شئ لاسبيل إليه . ستبقى حيث هى ؛ فانما هو لسان هفا فسبق بكلمة لا تقدم ولا تؤخر . وما أكثر ما يهفو الناس ثم يصلحون هفواتهم !

ولبث الرجلان فى مكانهما ثابتين مطرقين لا يديران بينهما حديثاً ، ولا ينظر أحدهما إلى صاحبه . ولو قد رآهما راء لقدر أن قد استحالا تمثالين جامدين . ثم أزعجهما عن سكونهما هذا طرق الباب ، ثم ظهور الخادم يدعوهما إلى المائدة .

وما أظنك تريدنى على أن أصحبهما إلى المائدة ، ولا على أن أرافقهما بعد غدائهما لأشهد ما يجرى حولها وحول الأسرة كلها من الخطوب . فأنت تستطيع أن تقوم مقامى فى ذلك ، وأن تتصور ما يحدث لهؤلاء الناس على اختلاف أشخاصهم وأمكنتهم من الأحداث كما تشاء ؛ فليس يعنينى الآن من أمرهم إلا أن الفتى قد ارتحل إلى أوربا ، وأن أمه قد استقرت فى مكانها من القصر ، وأن الشاعر قد عاد بعد رحلة قصيرة إلى العاصمة ، فاستقر فى جناحه المقسوم له واستأنف حياته كعهده قبل أن تحدث هذه الأحداث ، يلقى رءوفاً حين يرتفع

الضحى فيتنزه معه فى الحديقة ، أو يجلس معه على ضفة النهر ، أو يخلو معه فى مكتبه ، يتحدث إليه ويسمع منه ، وينشده من شعره ، ويقرأ له ما شاء الله أن يقرأ فى هذا الكتاب أو ذاك . وقد يلقاه إذا أقبل المساء فيستأنفان حياة كحياتهما فى أول النهار . والأيام تمضى مسرعة أو مبطئة ، وأكبر الظن أنها تمضى مسرعة بالقياس إلينا نحن لأن أيام القصص مسرعة دائماً ، كما كان يقول لنا الذين كانوا يقصون علينا الأحاديث أثناء الصبا ، وتمضى مبطئة أشد البطء بالقياس إلى الذين يحيونها بالفعل ، إذا ألمت بهم النوازل أو ألح عليهم الشقاء ، وتمر مر السحاب بل أسرع من مر السحاب ، إن أتيحت لهم حياة ناعمة راضية . وقد مضت الأيام على هؤلاء الناس مبطئة ومسرعة ، ولكنها مضت على كل حال ؛ لأن من طبيعة الزمن أن يمضى دائماً ، وهو لا يعرف الوقوف كما أنه لا يعرف الاسراع ولا الابطاء ، وإنما هو يمضى على نسق واحد نراه نحن سريعاً حيناً وبطيئاً حيناً آخر .

وفى ذات ليلة جلس الصديقان فى جوسقهما ذاك على شاطئ النهر يتحدثان فى هدوء ودعة ، وقد سكن من حولهما كل شئ إلا هذا النهر الذى يجرى فى يسر ، وتصطفق أمواجه فى خفة وعذوبة ، و إلا هذه الغصون التى يداعبها النسيم ، فيسمع لأوراقها هفيف وحفيف ، و إلا هذه الضفادع التى تسكن حيناً ، ثم تنق كأنها تنتظر من الليل شيئاً ، فاذا أبطأ عليها أو التوى بما تنتظر منه جأرت بالسؤال والالحاح ، ثم ثابت إلى الدعة والسكون ، ثم استأنفت دعاءها ونداءها و إلحاحها .

ولست أدرى فيم كان الصديقان يتحدثان ، ولكنى أعلم أن رءوفاً قطع الحديث فجأة ومس كتف الشاعر فى رفق ، ثم قال له : أنظر إلى ما وراء النهر أترى شيئاً ؟ فمد الشاعر طرفه ثم رده ، ثم قال : تريد هذه النار التى تتألق على هذه القمة ؟ قال رؤوف : نعم ، متى عهدك بها . قال الشاعر : منذ أشهر . قال رءوف : ولم تكن تراها قبل ذلك ؟ قال الشاعر : لا أعلم أنى رأيتها قبل أن تلم بنا تلك الأحداث . وهنا أطرق رءوف إطراقة طويلة . ثم قال : أما أنا فأعرف متى رأيتها لأول مرة . أتذكر تلك الليلة التى أنفقتها فى مكتبى ساهراً أنتظر الصباح ! فى هذه الليلة رأيت هذه النار تتألق من وراء النهر . ولست أدرى لماذا وصلت نفسي الحائرة بين ظهور هذا اللهب المضطرب ، على هذه القمة

الساكنة ، وبين مصرع تلك الفتاة التى أغواها نعيم ، وقتلها أخوها فى العاصمة على ملأ من الناس . لقد ألقى فى روعى ليلتئذ أن هذه الفتاة قد عبرت النهر لتستقر فى حيث يستقر الذين يعبرونه دائماً ، وأن بين هذه الفتاة فى دارها النائية وبين دارنا هذه أسباباً لم تنقطع وأوطاراً لم تنقض ، فهى تشير بهذا اللهب ، الذى يخفق دائماً ، ولكننا لا نراه إلا حين يجن الليل . إلى ما بينها وبيننا من أسباب وأوطار .

قال الشاعر وهو يرفع القدح إلى فمه : تفسير لابأس به . إنك لتعلم أن ما وراء النهر أشد غموضاً من أن تنفذ إليه أفهامنا . وطالما سألت النهر عما وراءه فلم ينبئ بشئ . قال رءوف : أما أنا فما أشك فى صدق ما أحدثك به ، وإلا فما بال هذا اللهب لم يخفق ، وما بال أعيننا لم تره إلا منذ صرعت تلك الفتاة ! ولكن فى الأمر ما هو أشد من هذا غرابة وأعظم خطراً . أتعلم أنى أجد فى خفق هذا اللهب شيئاً يشبه أن يكون دعاء لى ، وأن نفسى تنازعنى إلى أن أعبر النهر ؟ قال الشاعر : حسبك! فانى أخشى على عقلك الاختلاط . ولو علمت أنك تسمع لى إن أشرت عليك ، لقلت إن حاجتك إلى الرحلة والاغتراب ليست أقل من حاجة نعيم . قال رءوف فى صوت يشبه أن يكون همساً ، وقد مال إلى أذن صاحبه كأنما يريد أن يسر إليه : فانك لا تعرف من القصة كل شئ . قال الشاعر : وفى القصة إذن شئ غير ما علمت ؟قال رءوف : نعم ، فى القصة أن هذه الفتاة كانت قد وقعت من نفسى موقعاً غريباً ، قبل أن يفتن بها نعيم .

طه حسين

[يتبع]

في أفق السياسة العالمية

حديث الامبراطورية البريطانية

تقول الأساطير الاغريقية القديمة ان البطل الأثيني ثيسيوس Theseus حين ذهب إلى قصر التيه فى جزيرة كريت متحديا ملكها ، أمسك بيده خيطا دقيقا كان يرخيه كلما تابع المسير ، وبذلك أمن العثار ، فلم تختلط عليه مسالك القصر وعرصاته ، واستطاع فى آخر الامر أن يجد لنفسه من التيه مخرجا . وليست الامبراطورية البريطانية الآن من حيث التعقيد والتنويع وكثرة الشعاب أقل من قصور التيه فى الأساطير القديمة جميعا . فما علينا إذا أردنا البحث فى موضوعها إلا أن نسير فى أحنائها ومعاطفها وبيدنا حبل من التاريخ نثبته فى نقط معينة نختارها ، حتى لا نحيد عن محجة الطريق ، ثم نمضى بعد ذلك قدماً فى بحثنا . ولتكن هذه النقط التى نختارها حول تطور حركة الاستقلال فى الأملاك الحرة داخل الامبراطورية البريطانية .

وما دعانى إلى الكتابة فى هذا الموضوع إلا أمران : الأول أن نهرو الزعيم الهندى ونائب رئيس حكومة الهند ، كان قد اقترح على الجمعية التأسيسية التى تضطلع الآن بمهمة وضع الدستور أن تعلن حكومة الجمهورية فى الهند . وقد أرجأت الجمعية بحث الموضوع مؤقتاً . وإقرار هذا الاقتراح يقتضى حتما أن ينزل ملك انجلترا عن لقب « إمبراطور » ؛ فيفقد التاج البريطانى بذلك ألمع جوهرة تزينه . ذلك لأن الملك ليس له أن يتسم بلقب الامبراطور إلا بالاضافة إلى الهند ، أما فى خارج الهند وفى انجلترا نفسها فهو الملك لا غير. فهل مقدر يا ترى أن تصبح الامبراطورية البريطانية اسما على غير مسمى ؟

أما الأمر الثانى فهو ما نلمسه الآن من تعنت الحكومة الانجليزية بشأن الجلاء عن مصر ووحدة وادى النيل . ولو تقصينا تاريخ الانجليز مع أبناء جلدتهم المنتشرين فى أنحاء العالم ، ووقفنا على الجهود التى بذلها هؤلاء فى المستعمرات التى اتخذوها وطنا ، والوسائل التى تذرعوا بها للخلاص من سلطان

البرلمان الانجليزى ونير الحكومة الانجليزية ، لأدركنا أنه ليس أوقع فى نظر الانجليز من قوة الأمر الواقع ، وأن الحقوق المهضومة لا يكسبها أصحابها برخصة أوسند من الخارج ، بل يستخلصونها بأيديهم ويستمدونها من ذات أنفسهم أولا ؛ وحينئذ لا يلبث الناس جميعا أن يعترفوا لهم باستحقاقهم لما أحرزوه .
وقد سلخ الانجليز قرابة ثلاثة قرون ونصف قرن يزاولون الاستعمار فى قارات العالم القديم والجديد ، وقد صادفهم فى أثناء اضطلاعهم بهذه الشؤون ظروف مواتية وثروات طائلة ، إلى جانب محن وأحداث وحروب وثورات ودروس وتقلبات كان من شأنها أن تكسب الحكومة الانجليزية خبرة ومرانة فى تكييف مسائل الشعوب الصغيرة والضعيفة التى تعرض لها . ولكننا مع الأسف نراها كملوك البوربون فى فرنسا فى القرن الماضى لم ينسوا شيئا ولم يتعلموا شيئا كثيراً ؛ فهى إذا تعلمت كيف تعامل أبناءها وبناتها متى شبوا عن الطوق ، نراها مع غير هؤلاء تعيد كتابة اللوح القديم من ألفه إلى يائه ، وتقف أمامهم ملوّحة بعصاها فى انتظار الناقوس الذى سيدق حتما مؤذنا بانتهاء حصة المدرس وانصراف التلاميذ إلى بيوتهم حيث آباؤهم وأمهاتهم وبنو عشيرتهم يلقنونهم دروس الحياة فى الحرية وحب الوطن .

وقد كابدت انجلترا أول دروسها فى أمريكا ، وكان تلاميذها من صفوة أبناء الطبقة المتوسطة. أولئك الذين جاهدوا بأموالهم وأرزاقهم وعزائمهم فى سبيل مبادئهم وضمائرهم ، واشتروا الحرية فى العالم الجديد بكل ما كان عزيزاً عليهم فى العالم القديم .

فهل نعموا حقا بالحرية التى تعشقوها ، ورضيت لهم انجلترا فى مقامهم الجديد بحق الاستقلال الذاتى يباشرونه بحراسة الحكومة الانجليزية وتحت إشرافها ؟ لم يحدث شىء من ذلك ، بل ظلت الحكومة الانجليزية تتدخل فى شؤونهم ، فتفرض عليهم القوانين التى يسنها البرلمان فى إنجلترا ، وتطلب أن يعرض عليها ما تقرره مجالس المستعمرات للموافقة عليه أو رفضه ، وتتدخل الكنيسة الانجليزية فى شؤون المستعمرات الدينية ، على حين أن الرواد الأوائل من هؤلاء المستعمرين لم يهاجروا من بلادهم إلا فراراً من التحكم فى ضمائر الناس ومعتقداتهم . وأخيراً أصرّ البرلمان الانجليزى ومعه الحكومة على تقرير رسوم وضرائب جديدة على أهل المستعمرات لتسديد بعض الديون التى

كابدتها إنجلترا فى حروبها ضد فرنسا . فاعترض أهل المستعمرات وقالوا إنهم غير ممثلين فى البرلمان الانجليزى ، ولا يستجيبون فى دفع الضرائب إلا للقوانين التى تصدرها جمعياتهم التى يمثلون فيها . وقد بعثوا بموقفهم هذا النظرية القانونية المشهورة التى تقول : « إنه لا ضريبة من غير تمثيل » . ومع أن الحكومة الانجليزية قد اضطرت إلى سحب بعض هذه الضرائب التى كانت قد فرضتها فان البرلمان قد أصرّ على حقه فى التشريع لجميع أجزاء الامبراطورية البريطانية . وكانت نتيجة هذا التعنت من جانب الحكومة الانجليزية أن نشبت حرب الاستقلال الأمريكى فى سنة ١٧٧٥ . وقد لاقى أهل المستعمرات فى أول الأمر محناً وشدائد عدة ؛ فقد كان يعوزهم المال والرجال ، وينقصهم حسن القيادة وهم يحاربون أقوى دول الأرض بحراً وأكثرها مالا وجاهاً . ولكنهم سرعان ما حزموا أمرهم وجمعوا كلمتهم ، فاختاروا لقيادتهم بطلهم جورج واشنجتون ، فجعل يدرّب الجيوش ويرسم الخطط ويتفق عليها مع أصدقاء أمريكا من قواد فرنسا وأسبانيا اللتين اغتنمتا الفرصة وأعلنتا الحرب على إنجلترا . وكان مندوبو المستعمرات الأمريكية قد اجتمعوا فى مدينة فيلادلفيا فى مايو سنة ١٧٧٦ وأعلنوا استقلالهم فى الوثيقة التاريخية التى قالوا فيها تأييداً للآراء الديمقراطية التى تقوم عليها حكومة الولايات المتحدة : « إن الحكومات تستمد قوتها من إرادة المحكومين ورضائهم . فاذا أخلت حكومة بذلك الأساس صار من حق الشعب أن يقوض هذه الحكومة ويقيم بدلا منها غيرها على أسس ومبادىء خليقة بأن تحقق للناس أمنهم وسعادتهم . » وكان لاعتراف فرنسا وأسبانيا وغيرهما من دول أوربا التى كانت تنقم على إنجلترا حق سيادتها على البحار أثر ظاهر فى تقوية الروح المعنوية لدى الأمريكيين ، وتحوّل الحرب من البر إلى البحر بوقوف الدولتين الاستعماريتين المتنافستين إنجلترا وفرنسا وجهاً لوجه . واستمرت الحرب سجالاً بين الجانبين إلى سنة ١٧٨١ حين انتصر واشنجتون وحلفاؤه الفرنسيون ، واضطر الانجليز إلى التسلم أمام يوركتون ، وعقدت معاهدة الصلح فى سنة ١٧٨٣ ، وبها أقرت إنجلترا استقلال الولايات المتحدة ؛ وبذلك انطوت الصفحة الأولى من سجل الاستعمار الانجليزى . ولو أن إنجلترا كانت قد سارعت إلى إجابة أبناء مستعمراتها إلى ملتمسهم برفع الضرائب والرسوم المفروضة عليهم كرهاً

والنزول عن حق التشريع لجماعات تفصلهم عنها آلاف من الأميال يقتضى طيها .فى تلك الأيام ذهاباً وإياباً ثلاثة أشهر على الأقل — لبقيت أمريكا إلى اليوم إحدى مجموعة الأمم الحرة داخل نطاق الامبراطورية البريطانية .

ولكن خيبة الأمل التى عانتها إنجلترا بضياع الولايات المتحدة من يدها قد علمتها أن تحترس وتسخو فى معاملاتها مع باقى المستعمرات التى تقوم على جهود المستعمرين من الانجليز وغيرهم من الشعوب الأوربية، فانتهجت فى كندا سياسة ما لبثت أن اتخذتها نموذجاً احتذته فى باقى المستعمرات . ففى سنة ١٨٣٧ عين لورد درهام Durham حاكما عامًّا على كندا ؛ وكان الغرض الأول من تعيينه تهدئة النفوس الثائرة ضد الموظفين الانجليز الذين كانت ترسلهم الحكومة الانجليزية لشغل الوظائف التنفيذية ، وتسوية الخلافات بين أهل المستعمرة من الانجليز والفرنسيين . فنجح درهام فى مهمته ، وقبل أن يبارح البلاد فى سنة ١٨٣٩ وضع تقريراً تاريخيا هاما فى سياسة الاستعمار ضمنه المبادىء الكبرى التى سارت عليها الحكومة الانجليزية فيما بعد . وتتلخص هذه المبادىء فى ضرورة منح المستعمرات حكومات ذاتية ، تكون مسئولة رأسا أمام الهيئة التشريعية فى المستعمرة ، وضم الأقاليم التى تتألف منها المستعمرات فى نظام فدرالى أو اتحادى شبيه بالنظام الذى سلكته الولايات المتحدة . وكان إنشاء السكك الحديدية قد بدأ ينتشر حينذاك ، فحض لورد درهام على تعمير البلاد وربط أطرافها ببناء السكك الحديدية ؛ وبذلك تأتلف الأقاليم وتندمج المصالح ويكثر العمران . وقد أقرت الحكومة الانجليزية هذا النظام ، واتبعته تدريجيًّا فى كندا ثم فى سائر أملاكها . وبعد أن كان النزاع حادًّا بين الانجليز والفرنسيين الذين استعمروا وادى نهر سنت لورنس فى كندا اتفق العنصران وائتلفت مصالحهما ، وأصبحت اللغة الانجليزية واللغة الفرنسية التى يتكلمها ٣٠ فى المائة من سكان كندا مستعملتين رسميًّا فى البلاد . وقد تمتعت كندا بالحكم الذاتى فى سنة ١٨٤٩ وتألفت حكومة الدومنيون باتحاد ولايات كندا سنة ١٨٦٧ .

وحذت أستراليا حذو كندا ، فبدأت ولاياتها تتمتع بالحكم الذاتى منذ ١٨٦٠ ثم توالت الأحداث التى جعلت أهل الولايات يطالبون بتكوين اتحاد

فدرائى ، حتى يمكن مواجهة الخطر الصينى واليابانى ، وكان كلاهما يهدد القارة الجديدة بخطر داهم . فالصينيون كانوا ينزحون بسرعة وبكثرة للعمل فى مناجم الذهب والنحاس التى استكشفت فى استراليا . واليابان كانت تعد نفسها الدولة الحربية البحرية الأولى فى الشرق الأقصى ، وكانت ترنو ببصرها نحو أستراليزيا . لذلك اتفق الاستراليون على تأليف حكومة اتحادية ، وأصدر البرلمان الانجليزى قانونا بذلك فى سنة ١٩٠٢ ، ولم يطلق الاستراليون على اتحادهم اسم « الدومنيون » مثل كندا ، بل أسموا اتحادهم « الكومنولث » Commonwealth وهى أقرب الكلمات إلى معنى الجمهورية . ولم تشترك نيوزيلندة فى هذا الاتحاد ، بل كونت حكومة ذاتية مسئولة منذ ١٨٥٢ وجعلتها صورة قريبة من شكل الحكومة الانجليزية . وأهل نيوزيلندة من أشد الناس تعلقا بالامبراطوية البريطانية وأكثرهم شبها بآبائهم وأجدادهم .

أما فى جنوب إفريقية فقد صادف الاستعمار الانجليزى من جانب المستعمرين الهولنديين الذين عرفوا بالبوير صلابة وشدة مراس ، أدت فى النهاية إلى نشوب حرب مريرة بين العنصرين . وقد آلت مستعمرة الرأس من الهولنديين إلى الانجليز فى أثناء الكفاح بين فرنسا وانجلترا فى عهد الثورة الفرنسية ونابليون بونابرت ، وكانت هولاندة خاضعة إذا ذاك لنابليون باسم جمهورية بتافيا . وقد تأيد امتلاك انجلترا للمستعمرة بمقتضى قرارات مؤتمر فيينا . ولكن الهولنديين الذين هاجر أجدادهم من بلادهم ، كما فعل المستعمرون الأمريكيون ، فراراً من الاضطهاد ، لم يطيقوا أن يخضعوا لحكم الانجليز ، فأخذوا يرحلون بين سنتى ١٨٣٥ و ١٨٣٧ بالمئات من دورهم ومعهم أولادهم ونساؤهم وماشيتهم نحو الشمال ، ضاربين فى آفاق الأرض على غير هدى ، مستهدفين لغارات القبائل الهمجية ، ثابتين لتقلبات الجو ووعورة الطرق ، حتى حط بعضهم الرحال فى إقليم ناتال على ساحل المحيط الهندى ، وتابع بعضهم السير غرباً وشمالا حتى استقروا فى إقليمى نهر أورانج والترنسفال . وكانوا يمنون أنفسهم بعد هذه الهجرة أن يعيشوا أحراراً فى مواطنهم الجديدة بعيدين عن مضايقة الاستعمار الانجليزى . ولكن أنّى لهم ذلك وقد أصبحوا مواطنين خاضعين للقانون الانجليزى ! فما زالت حكومة الرأس تتعقبهم مرحلة بعد أخرى حتى مد الأخطبوط الاستعمارى أطرافه واحتضن هذه الأقاليم جميعاً

وما جاورها . وكان إقليم ناتال أول ما امتدت إليه يد الانجليز لوقوعه على ساحل المحيط الهندى ، وإمكان تهديده لمراكز الانجليز فى مستعمرة الرأس . وعلى أثر ذلك هاجر البوير من ناتال بقضهم وقضيضهم تاركين مواطنهم للمرة الثانية سنة ١٨٤٥ ، قاصدين إلى الشمال والغرب والترنسفال والأورنج . ثم هبّت على البلاد نسمة من أريج الحرية ، كان مصدرها حكومة الأحرار فى إنجلترا ، فسمح لمستعمرات الرأس جميعاً بالحكم النيابى ، وأصبح البوير أحراراً فى جمهوريتيهم اللتين أقاموهما فى الأورنج والترنسفال . ولكن سرعان ما استكشفت مناجم الماس والذهب فى الترنسفال والأورنج . ولما كان إنتاج الجمهوريتين ، وخاصة فى الترنسفال ، لهذين المعدنين النفيسين قد فاق كل ما كان منتظراً ، فقد انجذب الانجليز من رجال الأعمال وغيرهم من الأوربيين نحو مصدر هذه السعادة الدافقة ، وبدأت الحكومة الانجليزية منذ ذلك الوقت تضع خططها لضم الجمهوريتين . فكأنما كان كشف الماس والذهب فى تلك الأرجاء نذيراً للبوير بضياع حريتهم واستقلالهم .

وقام النزاع بين الانجليز والبوير بشأن حق التمثيل فى الترنسفال ؛ إذ قصره كروجر Kruger رئيس الترنسفال على البوير دون الآخرين ، وكان على رأس حكومة مستعمرة الكاب أو الرأس مسل رودس Rhodes الذى يرجع إليه فضل توسيع النفوذ الانجليزى فى تلك الأرجاء ، وقد دبر سرًّا مع أحد أصدقائه هجوما سريعا على الترنسفال ؛ لكنه مالبث أن أخفق وكسب البوير أول موقعة من مواقع الحرب التى استعرت بين الانجليز والبوير واستمرت إلى ١٩٠٢ . وقد حالف النصر البوير فى أول الأمر ، لضعف القواد الانجليز من جهة ، ومهارة البوير فى الكر والفر من جهة أخرى ، وقد انتهز وليم الثانى إمبراطور ألمانيا الفرصة لاظهار حنقه على إنجلترا ، فأرسل برقيته الشهيرة يهنئ كروجر على انتصاره . وبدا للناس جميعا أن الانجليز لابد مغلوبون أمام صلابة البوير وحنكة قوادهم . ولكن الانجليز ، كطبيعتهم فى الحروب ، تذرعوا بالصبر وضبط النفس على رغم هزيمتهم ، وأخذوا يعدون العدة لفك الحصار عن المدن التى طوقها البوير ، وعينوا لقيادة الحرب اثنين من أكبر قوادهم ، وهما لورد روبرتس Roberts قائداً عاما . ولورد كتشنر رئيسا لأركان الحرب . وعلى أثر ذلك توالت انتصارات الانجليز وفك الحصار

عن المدن ، وآخرها مافكنج . ومن ثم سقطت بريتوريا عاصمة الترنسفال ، وجوهانسبرج الشهيرة بمناجم الذهب ، وكذلك سقطت مدن جمهورية الأورنج حليفة الترنسفال فى الحرب ، واضطر الرئيس كروجر إلى الفرار إلى أوربا حيث بقى بها إلى أن مات سنة ١٩٠٤ . ولكن البوير كشعب وجيش محارب لم يقهروا ولم يذعنوا ، بل لجأوا إلى حرب العصابات ، وأخذوا يغيرون باستمرار على السكك الحديدية ومراكز الانجليز وقواعدهم ليلة بعد أخرى ، والانجليز حائرون فى أمرهم لا يعرفون لهم مستقراً . وأخيرا لم يقو البوير على متابعة هجماتهم ؛ فقد أخذت أعدادهم تقل . وكان كتشنر الذى تولى القيادة العامة بعد روبرتس قد أمر بجمع أسر البوير نسائهم وأطفالهم فى معسكرات خاصة تحت حراسة الانجليز ؛ فلم ير البوير مندوحة من مفاوضة الانجليز للصلح . وانتهت الحرب فى مارس سنة ١٩٠٢ بمعاهدة فرينجنج Vereeniging وقد أبدى فيها الانجليز كثيرا من الكرم والمروءة ، فدفعوا للبوير تعويضا عما أصاب مزارعهم وحقولهم من التلف ، وقرروا أن يبقى تعليم اللغة الهولندية بالمدارس ويستمر استعمالها بالمحاكم ، وأن يتمتع الذين يستسلمون منهم بحرياتهم وأملاكهم كاملة . وشفعوا هذه المعاهدة بعد خمس سنوات باعطائهم حق الحكم الذاتى . وبعد ذلك بسنتين تألف اتحاد جنوب إفريقية من الولايات الاربع : الرأس وناتال والترنسفال والأورنج ، وصارت اللغة الهولندية المعروفة فى جنوب إفريقية بالأفريكان Africaans رسمية إلى جانب اللغة الانجليزية . ويبلغ عدد البوير الذين يتكلمون هذه اللغة نحو ٦٠ فى المائة من مجموع السكان الاوربيين . ولما آنسوا صعوبة فى تعيين العاصمة اتفقوا على حل طريف ، وهو أن تكون بريتوريا مقر الحكومة التنفيذية ، ومدينة الكاب مقر الهيئة التشريعية ، وبلمفتين عاصمة الاورانج مقر الهيئة القضائية العليا ، واختاروا لرياسة حكومة الاتحاد القائد البويرى بوذا Botha ومنذ ذلك الوقت أخذت الجروح التى خلفتها الاجيال السابقة تندمل . وقد اشترك اتحاد جنوب إفريقية فى الحربين العالميتين إلى جانب إنجلترا ، وكان المارشال سمطس رئيس الحكومة إذ ذاك عضواً فى وزارة الحرب فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، ولا يزال من كبار أساطين السياسة فى الامبراطورية البريطانية .

أما تاريخ إرلندة فمأساة طويلة بدأ الفصل الأخير منها سنة ١٨٠٠ حين

قرر البرلمان الانجليزى ضم إرلندة إلى بريطانيا على غير رضا الأهالى . وقد حاولوا إرضاء الشعور الكاثوليكى فى إرلندة خاصة وسائر أنحاء الامبراطورية عامة برفع القيود المدنية التى كانت تحول دون اضطلاع الكاثوليك بالاعمال الحكومية . ولكن ذلك لم يجد شيئاً ، إذ عمد نواب إرلندة فى البرلمان الانجليزى إلى عرقلة الاجراءات البرلمانية ووضع العقبات فى طريق الوزارات التى كانت تتناوب الحكم سواء من المحافظين أو الأحرار إلى أن قام الوزير الانجليزى المعروف غلادستون زعيم الأحرار ينادى بضرورة إعطاء إرلندة نظام الهوم رول **Home rule** أو الحكم الذاتى . وقد أثارت سياسته ضجة هائلة بين الأحزاب الانجليزية ، فانحاز عدد كبير من الأحرار إلى جانب المحافظين أو الاتحاديين أى الذين يحبذون بقاء الاتحاد بين بريطانيا و إرلندة ، وظل مشروع الحكم الذاتى لارلندة بين الصعود والهبوط والاقرار والرفض إلى سنة ١٩١٤ حين وافق البرلمان الانجليزى على نظام الهوم رول مع استبعاد إقليم ألستر فى شمال إرلندة من هذا النظام و إبقائه على اتحاده مع بريطانيا .

ثم جاءت الحرب العالمية الأولى فوقفت تنفيذ الهوم رول ، واشترك فيها الارلنديون بحماستهم المعهودة حتى إن الأنشودة التى أصبحت علماً للحرب وتناقلتها الألسن وتغنى بها جنود الحلفاء من كل جنس وفى جميع الأصقاع كانت تردد فى مطلعها الحنين إلى تبرارى **Tiperary** أحد أقاليم إرلندة تلك الجزيرة الزمردية الخضراء . ولكن كل هذا لم يمنع قيام ثورة مخفقة فى سنة ١٩١٦ بمساعدة ألمانيا ، ثم تكوين جماعة الوطنيين المعروفين بالسن فين **sinn fein** الذين نظموا صفوفهم تنظيما عسكرياً ، ونادوا باستقلال إرلندة التام.

فما كادت تنتهى الحرب حتى كانت إرلندة فى حالة هياج شديد ضد الانجليز. ولم يلبث أن نشب القتال بين الجانبين واجتمع فى سنة ١٩١٨ ٧٣ عضواً من أعضاء البرلمان الذين انتخبوا من حزب السن فين وأعلنوا جمهورية إرلندة المستقلة ، وكونوا وزارة لا رلندة أخذت تواصل أعمال العنف ضد الانجليز ورجال البوليس بصفة خاصة ، واستمرت هذه الحال إلى سنة ١٩٢١ حين بدأت المفاوضات بين دیفاليرا **De Valera** رئيس السن فين والحكومة الانجليزية . وعقد الجانبان «المعاهدة الارلندية» . وبمقتضاها صار لدولة إرلندة الحرة ما عدا إقليم الستر فى الشمال نظام الحكم الذاتى أو الدومنيون على مثال نظام الحكم فى

كندا . ولكن الوطنيين الارلنديين لم يقنعوا ولم يتقيدوا بهذا النظام ، وسرعان ماتخلصوا من القيود التى فرضت عليهم ، فأبطلوا تعيين الحاكم العام الذى كان يمثل التاج البريطانى ، وحلف يمين الطاعة للملك ، وأصدروا دستوراً جديداً فى سنة ١٩٣٧ أعلنوا فيه الجمهورية ، وجعلوا اللغة الارلندية اللغة الرسمية للجمهورية الجديدة التى أطلقوا عليها اسم « إيرد » Eire وأجازوا استعمال اللغة الانجليزية ولكنهم لم يذكروا شيئا فى دستورهم الجديد خاصا بالملك أو التاج البريطانى . ولما أعلنت الحرب العالمية الثانية التزمت إرلندة الحيدة إلى النهاية ، ولا يزال الوطنيون ينقمون على انجلترا فصل شمالى إرلندة عن بلادهم . ومادام الخلاف بين الشعبين يقوم على اعتبارات دينية فان الأمل فى الاتفاق بين الشعبين يبدو غير قريب .

وعلى ذلك فالمستعمرات البريطانية التى تتمتع الآن بنظام الحكم الذاتى هى كندا ، وأستراليا ، ونيوزلندة ، وجنوب إفريقية تضاف إليها إرلندة . وكان المحافظون كعهدهم دائماً كلما همت الحكومة الانجليزية باقرار الحكم الذاتى لاحدى هذه المستعمرات جاهروا بأن هذه القوانين لا بد أن تؤدى إلى انحلال الامبراطورية البريطانية وتصفيتها ، وحذروا الحكومات من المضى فيها . ومع ذلك فقد احتفظت انجلترا بتعيين حكام عامين يمثلون التاج فى هذه الأملاك ، كما احتفظت فى أول الأمر بقواعدها البحرية وحامياتها ، وبتوجيه السياسة الخارجية للامبراطورية ، وتقرير الحرب والسلم وحق الاحتكام إليها فى المسائل الثانوية والدستورية التى يختلف فيها الرأى . ولكن هذه التحفظات أخذت تتساقط واحدة بعد أخرى ؛ إذ جاءت الحرب الكبرى ومكنت المستعمرات من مزاولة الأعمال الدولية فى الحرب والسياسة ، مما قوى فى نفوس أهل المستعمرات شعورهم بالمسئولية الذاتية ، وانبنى على ذلك أنهم اشتركوا فى مؤتمر الصلح سنة ١٩١٩ لا بصفتهم تابعين لبريطانيا ولكن باسم بلادهم ، واختير أربعة منهم ضمن الدول المؤسسة لعصبة الأمم ، كما عهد إلى بعضهم ، كاستراليا وجنوب إفريقية ، بالانتداب على بعض الأقاليم والجزر التى كانت تابعة لألمانيا . وكانت الحكومة الانجليزية تنظم بين آونة وأخرى اجتماعات تضم فيها ممثلى الامبراطورية البريطانية للاتفاق على المسائل المشتركة بينها . وكان آخر هذه المؤتمرات فى سنة ١٩٣١ وفيه صدر قانون وستمنستر Westminster الذى وضع القواعد العامة التى تنظم الامبراطورية . وقد

نص فيها على أن التاج هو الرمز الذى يربط بين أعضاء مجموعة الأمم الحرة البريطانية ، وأن أى تغيير فى وراثة التاج يستلزم أخذ رأى برلمانات الدومنيون على حد المساواة مع البرلمان الانجليزى . ونص فيها أيضاً على أن القوانين التى يصدرها البرلمان الانجليزى لا تسرى على الدومنيون إلا إذا أرادت ذلك برضاها. وبذلك زال أثر القانون القديم الذى كان يجيز للبرلمان الانجليزى حق إلغاء أو تعديل القوانين التى تصدرها المستعمرات . وباصدار هذا القانون أصبحت المستعمرات فى حقيقة الأمر دولا ذات سيادة داخل مجموعة الأمم الحرة البريطانية، وصارت حكوماتها مساوية فى المركز لحكومة بريطانيا نفسها ، وصار من حقها أن تتعاقد مع الدول وأن تتبادل معها التمثيل السياسى ، ولها أن تقرر دخول الحرب التى تشتبك فيها إنجلترا أو ألا تدخلها . ومعنى ذلك أن الملك فى بريطانيا قد يكون فى حالة حرب مع ألمانيا على حين يكون هو نفسه فى حالة سلم معها بصفته ملكا على جنوب إفريقية . وقد جنح التاج أخيراً إلى تعيين الحكام العامين من رجال المستعمرات نفسها .

وقد يبدو لأول وهلة من هذه القوانين أو التصرفات أن الأملاك البريطانية المستقلة لم تعد تابعة لبريطانيا إلا بالاسم ، على أن الحقيقة التى دلت عليها الحرب العالمية الثانية هى أن توافق الأمزجة والمشاعر بين الشعوب التى تسكن هذه الممتلكات وتقديسهم جميعاً للحريات وأساليب الحكم الديموقراطى الصحيح بالاضافة إلى روابط الدم واللغة والدين التى تربط بين معظم هذه الشعوب — كل ذلك قد جعل من التاج الذى يربط الجميع خيوطاً دقيقة رفيعة هى إن دققت النظر أمضى من الصلب وأرق من الهواء .

محمد رفعت

بلاد المغرب

أحاول منذ سنوات ، بقدر وسائل بحوثى اللغوية والتاريخية ، وهى متواضعة ، أن أحدد أوضاع لفظ « المغرب » جغرافية واستعمالا ، فلم أوفق ، على ما يرضينى من دقة . ولجأت إلى من هم أكثر منى توافراً على تلك الدراسات ، ومنهم بعض الأساتذة المستشرقين والمستعربين ، فلم أحظ منهم بما يطمئن . ورجوت أن أعثر خلال رحلتى الأخيرة إلى الشمال الافريقى بين مراجع مكتباتها العامة على ما يهدى فلم أجد . وأخيراً انتهيت إلى الوقوف عند حد « المشهور » ، وهو أن العرب الذين فتحوا أفريقيا هم الذين أطلقوا الغرب والمغرب على ما وراءها نحو المحيط الأطلنطى ، وأن الاصطلاح قد جرى على نعت منطقته البعيدة عن أفريقيا بالأقصى تمييزاً لها وتعييناً ، كما يجرى عرف العامة الآن على تسمية ما بين المغرب الأقصى وتونس بالوسطى ، وهى المنطقة الوسطى من مناطق الجزائر السياسية الحالية ؛ لأن منطقتها الغربية بعاصمتها تلمسان إنما كانت دوماً من المغرب الأقصى ، ولأن منطقتها الشرقية حتى قسطنطينة كانت دوماً من أعمال أفريقيا . ولم يجر ، عند حد علمى ، استعمال « المغرب الأدنى » للدلالة على شئ بعد .

أما تحديد المغرب الجغرافى فانه يبدأ عند المصريين والمشارقة من حدود مصر الغربية ، أى إنه يشمل برقة وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش، وهو عند المغاربة فى عموم من حدود تونس الشرقية ، فلا يشمل طرابلس ولا برقة . لكن التحديد الوارد فى بعض الموسوعات وفى بعض المؤلفات فى الأجناس إنما يعتبر صحراء لوبيا الكبرى هى الفاصلة بين المشرق والمغرب ، وهى الصحراء التى تقوم من ناحية البحر المتوسط بين برقة وطرابلس، فتكون برقة ومصر وما شرقيهما إلى الخليج الفارسى بلاد المشرق ، وتكون طرابلس وتونس وما إلى غربيهما إلى المحيط الأطلنطى بلاد المغرب .

أما سكان المغرب فهم فى كثرة عظيمة من العنصر البربرى الذى استوطن

شمال أفريقيا منذ عرف التاريخ هذا الشمال . والمعتبر الآن عند المؤرخين أن البربر كنعانيون ، هاجروا مخترقين مصر ولوبيا منتسبين لمازيغ بن كنعان ابن سام بن نوح ، فدعوا أنفسهم « الأمازيغ » ، وفسروا اللفظ على أنه يعنى « السادة الأحرار » لا يتحملون الخضوع لسلطان ولا يذعنون إلا للقوة على مضض ، ولا يخالطون . وقد ذكر ابن خلدون أن البربر ارتحلوا مما بين النهرين ، وأنهم أقاموا بعض الوقت فى مصر قبل أن يقصدوا إلى شمال أفريقيا « خوفاً أو طمعاً » كما فعلت من بعد « فى دولة الحماديين جماعة عظيمة من الأعراب من صحراء مصر » . وذهب هذا المذهب البحاثة الفرنسى دوما ؛ إذ قرر أن البربر من أبناء كنعان ، وأن بينهم وبين أهل الصعيد المصرى وجوه شبه عدة . وأيد غيره هذا التقرير بأنه يوجد حتى اليوم « فى الزناقة وهى قرية فى جنوب الجزائر عند منتصف الطريق بين بنى سويف وواحة الفقيق — وهما بالجزائر أيضاً — رسم بربرى عتيق منقوش على صخر يمثل الاله المصرى آمون بصورة كبش على رأسه شمس مماثلة لصورة آمون رع المنقوشة على حجر بمعبد الكرنك الفرعونى » .

والبربر قلة فى تونس حيث العنصر العربى هو الغالب ، وقد كانت الفتوحات الاسلامية تعتبرها هى المعسكر والمستقر ، لكنهم كثرة فى الجزائر وفى مراكش. وقد تعربوا لغة فى عموم ، وأسلموا ديناً فى شمول ، بل إن الاسلام ليبدو فيهم أمتن وأدنى إلى الغلو والاغراق ، وإن كانت بينهم قبائل تريد أن تتميز ببربريتها فتحافظ على تقاليدها الخاصة فى الاجتماع . وتستند هذه التقاليد إلى نظام الأسرة ، فتكون من مجموع الأسر التى يتحد أصلها وحدة اسمها الخروبة تخضع لسلطة كبيرها الذى يشرف على حفظ النظام وفض المشاكل العائلية والقضايا المدنية ، ويرجع إليه أمر الزواج والطلاق ، ويقوم باكرام الزائرين والضيوف ، ويسير الأمور الفلاحية ويوزع أعباءها على أفراد خروبته .

ومن مجموع الخروبات تؤلف القبيلة مجتمعة حول ذكرى جد أعلى . وتعنى القبائل أكبر عناية بموضوع الحرمة أى احترام الجوار لأرض القبيلة أو القرية وشرفها، ويتحالف القبيلة مع القبائل الأخرى للهجوم أو الدفاع أو تبادل المصالح .

وللبربر مجالس عرفية هى مجالس الجماعة يجتمع فى كل منها رؤساء الخروبات والمشايخ والأعيان ويلقبون بالضمان . ويختص المجلس بالنظر فى قضايا الجنايات والجنح وفى الشؤون السياسية والمالية ، ويقوم بعمارة المسجد

والمحافظة على المقابر وتوزيع مياه الري و إضافة رجال السلطة . ويجب أن تصدر قرارات المجلس باجماع الآراء ، فان لم ينعقد الاجماع على رأى تأجل صدور القرار إلى وقت ملائم آخر ، أو جرى تحكيم أجانب عن المجلس في موضوع الخلاف، ويكون قولهم هو الفصل . وللمجلس رئيسه ينفذ قرارات الجماعة ويسهر على الأمن واحترام الأخلاق .

ويقع شيء من الخلاف على تسمية الجزء الرابع من أجزاء المغرب بعد طرابلس وتونس والجزائر : فمن قائل إنه مراكش ، ومن قائل إنه المغرب الأقصى ومن قائل إنه المغرب . ويقع هذا الخلاف في التعبير في بلاد المغرب كلها وفي بلاد المشرق أيضاً . أما في بلاد المشرق وفي تونس فيغلب استعمال مراكش للدلالة على ذلك الجزء الرابع ، ويقل استعمال المغرب الأقصى ، ويندر استعمال المغرب وحده . وأما في الجزائر فيندر استعمال مراكش ، ويتناوب القوم استعمال المغرب أو المغرب الأقصى . وفي الجزء الرابع ذاته يغلب استعمال المغرب ويتداول استعمال المغرب الأقصى ويندر استعمال مراكش . على أن بين أهل الذكر والشباب المثقف تياراً متجهاً إلى إيثار استعمال مراكش . ويستند هذا الاتجاه إلى أن التعبير بالمغرب في شموله قد قل كما قل استعمال لفظ المشرق ، وأن التعبير بشمال أفريقيا هو الذي أخذ يغلب استعماله ، أو أن التعبير بالغرب العربي مقابلا « للشرق العربي » هو الذي يدعى له الآن في بعض البيئات ، وأن النعت بالأقصى يستدعي قيام مقابلة التعبير بالأدنى والأوسط ، وشيء من هذا لم يجر به اللسان ولم تجر به الأقلام لا في العربية ولا في لغة من اللغات الأجنبية . وكذلك يستند الاتجاه الجديد إلى أن مراكش هو الاسم القديم الأصيل لتلك المنطقة ، وقد أطلق عليها أخذاً عن اسم عاصمتها على النحو الذي كان ذائعاً فيما مضى من عهود ، وأنه مركب من لفظين ، يرجع أحدهما إلى أصل عربي صميم ، و يرجع ثانيهما إلى أصل بربري ؛ فكأنه يمثل الوحدة الحالية بين فريقي السكان المتآخين ، و « مر » بضم الميم فعل أمر من مر و « كش » بضم الكاف أيضاً معناها بالبربرية سريعاً . و إلى هذا فان أصحاب الاتجاه يحسبون تحقيقه تحية منهم للاستعمال المشرق ، وهم يريدون أن تحكم الأواصر بين المغرب والمشرق . . .

ويختلف الوضع الدولى فى بلاد المغرب باختلاف هذه البلاد ذاتها . فاذا أخذنا بوجهة نظر المشارقة إلى بدء حدوده عند تخوم مصر الغربية ، فان ذلك الوضع فى برقة هو وضع إحدى المستعمرات الايتالية التى قضى مشروع معاهدة الصلح مع إيتاليا بنزول هذه الدولة عن حقوقها فيها ، وبتأجيل تقرير مصيرها سنة . وهو كذلك وضع الاقليم الذى تحتله قوات بريتانية وتتولاه إدارة بريتانية خالصة . أما الموقف من طرابلس فهو أيضاً ذات الموقف من برقة من حيث الاعتبار النظرى وتأجيل المصير النهائى إلى سنة والاحتلال بقوات بريتانية . لكنه يختلف من ناحية أن الادارة فيه معهود بها للموظفين الايتاليين الذين كانوا يتولونها قبل الحرب ، تحت الاشراف البريتانى . والوضع فى تونس وضع الارتباط بمعاهدتى حماية مع فرنسا منذ سنة ١٨٨٢ . والوضع فى الجزائر أنها تؤلف ثلاث مقاطعات فرنسية تتكون منها ولاية عامة . وأما الوضع فى مراكش أو المغرب الأقصى فرباعى المظاهر : مظهر الحماية الفرنسية فى المنطقة السلطانية الكبرى ، وعاصمتها الآن هى الرباط . ومظهر الحماية الاسبانية فى المنطقة الخليفية الصغرى وعاصمتها الآن تطوان ، ومظهر الحاق المباشر بأسبانيا فى سبتة ومليلة ، ثم مظهر الادارة الدولية فى الركن الأصغر المطل على المحيط الأطلنطى والبحر المتوسط وهو ركن طنجة . ورأس الدولة فى هذه المناطق ، إلا سبتة ومليلة ، هو سلطان المغرب الأقصى الجالس على عرشه فى الرباط ينوب عنه خليفة من بيته فى تطوان ، ويمثله مندوب فى طنجة . وإلى جانب السلطان المقيم العام الفرنسى ، وإلى جانب الخليفة المندوب السامى الاسبانى ، وإلى جانب المندوب مجلس إدارة يرأسه الآن « مراقب » برتغالى يعاونه مديرون فرنسى وأسبانى و بريتانى وأميريكى وبلجيكى وهولندى يلحق بهم فى القريب روسى . . .

وكانت الفكرة التى سادت « تدويل » منطقة طنجة إنما هى فكرة الاعتبار الاستراتيجى البريتانى ، وقد أرادت بريتانيا العظمى ألا تقابل جبل طارق — قلعتها فى الشاطىء الأوربى من مدخل البحر المتوسط — قلاع لدول قوية على الشاطىء الافريقى . أما الفكرة التى سادت فتح الجزائر فحماية تونس فحمايتى المغرب الأقصى ثم فتح طرابلس الغرب ، فكانت هى فكرة الاستعمار والاستعمار المباشر ، إذ نظم انتقال الفرنسيين والأسبانيين والايتاليين ، وكثر

بين الفرنسيين أهل الألزاس عندما استولت عليها ألمانيا بعد حرب السبعين وأهل الكورس ، كما كثر بين الايتاليين أهل صقلية ، وانضم إلى الجوانب كلها نازحون عن مالطا ، وإذ نظم بينهم امتلاك الأراضى ، وهيئت لهم أسباب الاستثمار ووسائل الفلاحة ، ودخل فى أبواب هذا التنظيم تجريد الملاك الأصليين والدفع بهم إلى الداخل ، وفك الأحباس واعتبارها من أملاك الدولة وتوزيعها على النازحين . . .

وقد نشأت عن هذه الخاصية ، خاصية الامتلاك الواسع والاستقرار الطويل من جانب عدد وفير من الفرنسيين والاسبانيين والايتاليين ومن إليهم ، حالة يتميز بها المغرب فى عمومه عن مصر وبلاد المشرق فى عمومها كذلك . فالحياة فيه حياتان ، تكاد تكون الواحدة منهما منعزلة تمام الانعزال عن الأخرى .

ولقد شهدت فى تونس والجزائر ومراكش — وهى الأقطار التى زرتها أخيراً — أن سياسة العمران مستندة إلى مبدأ الثلاثية ، فكل مدينة مؤلفة من ثلاث وحدات : المدينة القديمة ، والمدينة الجديدة ، والمدينة الأوربية . والمدينة القديمة هى الأصيلة العتيقة التى تحرص إدارة الفنون الجميلة على إبقاء قديمها على ما هو عليه مهما يكن هذا الابقاء منافياً لأصول الصحة ومستلزمات الراحة . والمدينة الجديدة تتسع الشوارع فيها عن « حارات » المدينة القديمة ، وتقوم فيها الدور التى لا بأس بها . والمدينة الأوربية تشهق فيها العمائر وتنتظم الطرقات وتتوافر فيها وسائل الحديث فى كل شيء . وقد تتصل المدينة الجديدة بالمدينة القديمة أو لا تبعد عنها إلا قليلا ، ولكن المدينة الأوربية تبعد عنهما بكيلومترات . ويقطن الأهلون المدينة القديمة والمدينة الجديدة ، ويقطن الأوروبيون المدينة الأوربية ، فتكون العزلة بين الحياتين . وهكذا أحسست فى بنزرت وفى فاس وفى الدار البيضاء .

على أن هذا التجاور بين القديم والحديث لا تقف مظاهره فى المغرب عند حد العمائر فى المدن ، بل إنه ليتجاوز إلى جميع مظاهر الحياة فى الاقتصاد والاجتماع والثقافة . فآلات الانتاج الحديثة تتاخم الآلات التقليدية العتيقة ، والمذاهب الشيوعية ، تدعو إليها أحزاب منظمة وتنطق بلسانها صحف منتشرة ، تتاخم أضرحة المرابطين ودور أرباب الطرق . ومعاهد التعليم الفرنسى الخالص على ما هو قائم فى باريس نفسها من رياض أطفال ، و « ليسيات » للتعلمين

الابتدائى والثانوى الموصلين لاجازة البكالوريا ، وجامعة كاملة الكليات ملحقة بها معاهد الدراسات العليا ، تتاخم الكتاتيب التى يجلس فيها الأطفال على الحصير و يحفظون فيها القرآن على الطريقة البالية ، و إن كان بينهما نظام وسط فيما يسمونه المدارس الفرنسية الاسلامية وما تمتاز به المدرسة الصادقية بتونس ، وما يتجلى من اتجاه إلى الاصلاح والترقى يلوح فى « الخلدونية » التى أقيمت إلى جانب جامع الزيتونة بتونس لتتم الدراسة التقليدية بالجوانب العصرية والطرائق الحديثة .

ولقد نشأ من ذلك التتاخم بين القديم والحديث — و إن كانت العزلة بينهما هى المتجلية — شيء من التفاوت فى طبائع الحركات الداعية إلى الاصلاح والتحرر فى بلاد المغرب ، وقد وجدتها هى الأخرى ثلاثية كما سجلتها بالنسبة لحركة العمران فى المدن . ففى تونس مثلا جماعة الزيتونيين ، وحزب الدستور القديم ، وحزب الدستور الجديد . وتستند الجماعة الزيتونية إلى الروح الاسلامية ، و يحرص الدستوريون القدماء على أن يظلوا فى حدود الاصلاح الاجتماعى المعتدل ، و يحمل الدستوريون الجدد طابع التقدم والعصرية . وفى الجزائر يتجلى الطابع الدينى عند جماعة العلماء ، ويستمسك حزب الشعب بالاتجاهات الايمانية الشعبية ، ويذهب زعماء اتحاد البيان إلى حدود الأخذ بالعصرية . وفى مراكش تبرز الدينية عند جماعة الخلافة ، ويقف حزب الاستقلال عند الاستمساك بتعاليم الاسلام . ويلوح لى حزب الشورى والاستقلال أميل إلى طريق التقدميين و إن كان يحرص على ألا يدع حزب الاستقلال يسبقه إلى الظهور بمظهر الاستمساك بالاسلام وتعاليمه .

و يرجع ذلك التفاوت إلى ما بين الزعماء من تفاوت بين أنواع التحصيل ؛ فيتولى الحركات التقدمية من حصلوا العلم فى المدارس الفرنسية أو بجامعة باريس ، ويتولى الحركات الاصلاحية الدينية من نشأوا نشأة دينية فى القرويين بفاس أو الزيتونة بتونس ، ويتولى التوجيه السياسى من كان وسطاً بين الاثنين . على أن حركاتهم كلها من الناحية الوطنية تهدف إلى هدف واحد هو هدف التحرر والاستقلال .

محمود عزمى

سائح فى العالم الجديد ...

[مشاهد مرّ بها الكاتب فى يوم من الأيام التى قضاها فى نيويورك فى صيف العام الماضى ، يصفها فى هذه العجالة]

حقا إنه ليوم عاصف .

لم تكن سماؤه ملبدة بالغيوم ، ولم تتطاير فيه البروق ولا دوّت الرعود ، ولم تهطل فيه شآبيب المطر ولا هجهجت الرياح .

إنه كان عاصفاً ببرنامجه الذى أعددته لنفسى ، أو بالحرى الذى أعدوه لى .

أنت الآن فى نيويورك عروس العالم الجديد حضارة وطرافة . . .

أتترك الأيام تتابع يوماً إثر يوم ، دون أن تقتحم المدينة فى عرينها الأصيل ، وفيما يحف بها من أرباض ؟

إنك لتلقى بنفسك فى الشارع تجول فيه وتصول . ولكن أليس لحياة « الشارع » من نهاية ؟

إنها لحياة رخوة على الرغم مما بها من زحمة وتدافع .

هى لا تكلفك إلا هبوطاً إلى الطريق ، وانسياباً فيه ، تزجيك أمواجه . . .

حقا أن للشارع مباهج تفعم النفس من لذة وإمتاع ، ولكنها ذات طابع واحد ، وإن تغيرت ظواهره وألوانه . . .

لقد حللتَ نيويورك منذ قليل ، وستفارقها عما قريب ، فاذا بك تعود خاوى الوفاض إلا من شارع وبعض شارع !

حقٌّ أنك لم تقدم هذه المدينة لنزهة أو طواف ، وإنما قدمت فى مهمة علاج واستشفاء . ولكنك على أية حال سائح أبيت أو رضيت ، وعلى السائح فروض يجب أن ترعى . . .

لقد اندمجتَ فى زمرة أولئك السادة الذين يسيحون فى الأرض ، ويرتادون

البقاع والأصقاع . . . فعليك أن تمثل دور هؤلاء الأبطال ، لتشبع من نفسك غرورها المنهوم !

للسائح فى كل بلد مقام ملحوظ ، فالتبجيل يكتنفه ، وتيسير سبيله حق له على كل من يتصل به .

إن الأدلاّء والتراجمة لا يكادون يلمحونه حتى تراهم يهرعون إليه يخطبون وده ، ويكرمون وفادته ، ويغدقون عليه ألقاب العزة والاعظام .

همهم الأول أن يزينوا له النزهة ، ويعدوا له الأهبة ، ويتخذوا لذلك زخرفاً من القول يبتزون به بضعة دريهمات . . . لا يعنيهم بعد ذلك أأصاب متعة أم ضل سعيه وخاب !

إن السائح فى الواقع هو الرمز الأكبر للتغفل . . . الدليل يعلم ذلك حق العلم ، والسائح نفسه يعلم ذلك حق العلم . بيد أن هذا لا يمنع أن يتحد كلاهما وأن يتصافيا وأن يسلم كل منهما عنانه لصاحبه .

لا يفوت السائح أنه مضحوك منه ، مكذوب عليه ، فى أغلب الأمر ؛ وأن ما يبديه الأدلاّء من علائم التبجيل وآيات المصافاة ليست إلا شباكا منصوبة تتصيد مغانمه . ولكنه على الرغم من ذلك يلقى قياده لهؤلاء الأدلاء ، لغير شىء إلا أن يبدو فى أعين الجماهير سائحاً . . . سيداً من السراة الأعلام ، دفع به الترف إلى أن يقدم الديار ، إبهاجاً لنفسه ، وتنعيما لناظره . . .

إنه يطمع فى أن يبرز أمام سواد الناس تحدق به العيون وتحدّق فيه ، وتشير إليه الأصابع إشارة الاهتمام . . . فيحس أنه طراز آخر من الناس أنفس وأغلى ، وطينة أخرى من الخلق أطيب وأزكى . . .

إنه فى بادئ الأمر سائح مستطلع ، فاذا غمرته موجة الحفاوات ، وأحاطت به التشاريف من كل جانب ، نسى أن ذلك كله تمثيل وتمويه ، وخيل إليه أنه حقّا أحد أولئك السراة الأعلام الذين يشار إليهم بالبنان !

بهذه الخواطر رضيت لنفسى أن أكون سائحاً بحق !

أليس لى العذر بعد ذلك فى أن أعدّ هذا اليوم عاصفاً ؟

سألت مرافقى :

— إلى أية وجهة أنت ماض بى ؟

— إلى ولدرف أستريا . . .

— وما هذا « الولدرف أستريا » ؟

— فندق نيويورك الأول ، وإذن هو فندق العالم الأول !

ومثلت أمام ذلك الصرح الشاهق العظيم فى « بارك أفنيو » أصعِّد فيه النظر . إنه ليعلو بطباقه ويتشامخ ، وإنه لينبسط يمنة ويسرة ، فاذا به يحتل بضخامته رقعة مربعة من الأرض تتفرع على جوانبها شوارع أربعة فساح . . .

ولم يطل بى التطلع ، خشية أن يعاجلنى دوار ، فاندفعنا مقتحمين بابه ، فطوانا الصرح فى جوفه طى القطرة فى صخب الأمواج ، وأخذ يرمى بنا من جانب إلى جانب ، كأننا فى قصر التيه ، ندور فى مسالك متشابكة مفض بعضها إلى بعض ، لا مدخل لها ولا مخرج .

ولبثنا نجوب هذه المتاهة ، نعرج إلى سمائها ، ونهبط إلى قاعها ، ونضرب فى أرجائها طولا وعرضاً ، تتوالى علينا الصور والمشاهد ، كأننا فى منام مضطرب تتراءى لنا فيه أضغاث أحلام .

ردهات فخمة ، مطاعم متباينة الدرجات ، مسارح ومراقص ، قاعات للمحاضرات ، أبهاء للحلاقة تعد فيها المقاعد عشرات ، مكتبات ، حوانيت ، مضخات للصوت يتعالى ضجيجها حيناً بعد حين . . . وهذه الأكداس من البشر ، تحسبها حزماً ضخمة من أوراق مالية تخطو هنا وهنالك !

وخلف هذه المظاهر المألوفة أمثالها فى دنيا الفنادق ، حياة أخرى مستورة ، لا تقل عنها ضخامة وسعة . . .

أنت إذا قرأت نبأ موقعة حربية طالعتك على الفور صورة الكتائب تلتحم وتتطاحن ، ولكن هذه الكتائب خلفها أمداد أخرى قد تفوقها عدداً هى عدّة النصر الحقة ، كتائب من العَمَلة والصنّاع الفنيين القائمين على الميرة والذخيرة والتمريض وضروب الخدمة العامة .

فذلك ما تراه ماثلا فى هذا الفندق ؛ فان وراء الردهات والقاعات والمطاعم والمراقص وغيرها تختفى حجرات وساحات تحوى المطاهى والمصانع والمغاسل ، فيها جحفل جرار من العمال الساهرين على سد حاجات تلك المدينة الحافلة التى تسمى فى نيويورك فندق ولدرف أستريا !

وسمعنا الدليل يقول خاطف اللهجة ، كأنه يلقى درساً :

« الفندق يتسع صدره لعشرين ألف طارق .

« الفندق يشرب كل يوم أكثر من سبعة آلاف لتر من اللبن .

« الفندق يهضم كل يوم ألفى كيلو من ضروب اللحم .

« الفندق يأكل كل يوم عشرين ألف رغيف .

« الفندق متأهب لأن يقدّم عند الطلب من الأنبذة ماقيمته مائتا ألف دولار .

« الفندق يحوى ثلاثة آلاف من الخدم يتولونه ، إلى جانبهم مئون من ماسحى الزجاج « البهلوانيين » مخصصون لتنظيف ستة آلاف من النوافذ .

« الفندق . . . »

قلت لصاحبي :

— حسبك !

— ألا تريد أن تعتلى السطح لتشهد منظراً لا يساميه منظر آخر عظمة وروعة ؟

— أريد أن ألتمس عظمة أخرى غير ما أشهد !

وخرجت ناجياً بنفسى من أغوار تلك المتاهة ، أحاول أن أتنسم نسيما يمنحنى الهدوء وراحة الأعصاب .

وسرت خطوات ، وقد لحت فى رأسى أطياف قريتى المتواضعة فى ريف مصر بأكواخها التى لاتناطح شجرة ، بَلْهَ سحابة ، ودارى المتخاضعة التى لاتتطلب نوافذها ألعباناً واحداً يتراقص عليها لتنظيفها ! . . .

وهممت أناجى نفسى :

— حقا أن السعة والضخامة والسموق عظمة أى عظمة ، ولكن أليس فى السذاجة والضآلة عظمة لا تقل عنها قدراً ؟

والتفتّ إلى مراقفى أقول :

— إلى أين المساق ؟

— إلى « أمباير ستيت بلدنج » كبرى نواطح السحاب فى نيويورك فهى إذن أكبر أبنية العالم أجمع !

— أما ننتهى من نواطحكم هذه ؟ إنى لأشعر بها تكاد تحطم رأسى تحطيما !

ومضينا إلى تلك الناطحة التى تربى طباقها على المائة ، والتى يبلغ علوها نحو ألف ومائتين وخمسين قدماً . . .

حقا إنها لمارد من مردة سليمان ماثل بقوامه الفارع المشيق يتعالى فرعنةً

وعتواً . . . فى مستطاعك أن تخترق جوفه بمصعد جنّى يبلغ قمته فى طرفة عين . هنالك فى رأس ذلك المارد تنظر بعينيه حولك ، فتتكشف لك نيويورك على مد البصر : جزيرة رشيقة ، شوارع منظمة ، حدائق منسقة ، أبنية متراصة ، أنهار جارية ، جبال نائية . . .

وبينما أنت تتملى خلابة هذا المنظر الجميل إذا به يختفى بين غلائل من السحاب تحاصرك من كل جانب ، فلا ترى إلا غيما ينبسط تحت ناظريك ، فيخيل اليك أن المارد قد طار بك بين أجواز الفضاء ، وأنه يخترق بك طباق السماء . ولا يلبث المارد أن يغمض عينيه ، و يجتذبك إلى جوفه ، ثم يهبط بك إلى قراره فى لحظات ، ثم يلفظك فى الطريق ، فاذا بك قد قطعت الرحلة بين السماء والأرض فى غفوة خاطفة من غفوات الأحلام ! . . .

وملت على مرافقى ، وأنا أمر بيدى على جبهتى ، أستعيد يقظتى ، فقلت له :

— ماذا بقى من برنامجك ؟ ألم ننته بعد ؟

— إننا لم نكد نبدأ . . .

— إلى أين بربك ؟

— إلى تمثال الحرية .

— وبعده ؟

— نزهة حول جزيرة مانهاتان . . .

— وبعدها ؟

— جولة مسائية فى أحياء نيويورك الأصيلة .

ووضعت يدى على كتفه فى استسلام وأنا أقول :

— قدنا حيث تريد ؛ فلقد أسلمنا أمرنا إليك و إلى الشيطان . . .

إلى تمثال الحرية .

وحشرنا فى سيارة حافلة ، جرت بنا إلى منطقة نيويورك الجنوبية : حى كأنه من أحياء أوربا العتيقة ، شوارع مسمّاة ، لم يجر عليها نظام الترقيم الجديد . طرق ليست مخططة بالمسطرة والفرجار ، هى التى تقرب من أفهامنا ونظامنا المعهود . . .

إن هذا الحى هو نيويورك القديمة ، بل إنه أمستردام الجديدة ، محط رحال الهولنديين ، حين هبطوا هذه الدنيا مستعمرين . وما زال هذا الحى يحمل من

هولندة ظلالا ونفحات . . . لقد أقاموا سوراً يحد مدينتهم ، و يحميها من العدوان ، فأصبح مكان السور طريقاً ضيقاً يحمل اسم السور . . .

فى ذلك الحى طفنا طوافاً عاجلا بمتحف لواشنجتون : طُرَف ومخلّفات ومصورات منَ عهد ذلك الرئيس الأول للجمهورية الأمريكية . . . ما برح المتحف يحمل روح العصور الوسطى ، ويتنفس أنفاس حرب الاستقلال .

إسراع إلى السيارة الحافلة . . .

هبوط عند المرفأ . . .

قيل لنا إننا فى الميناء . ولـكن أى ميناء هذا ؟ إنه ساحل مرصوف يتطاول و يمتد دون أن يدرك له انتهاء . فيه تتراص البواخر على نحو أمريكى ، كله زحمة واحتشاد . . .

هنالك زجّوا بنا فى باخرة أو شبه باخرة على الأصح ، فراحت تمخر بنا الماء إلى الجزيرة التى يقوم فيها تمثال الحرية .

أتمثال للحرية هو ؟

إنه يبدو للعين كلما اقتربنا منه كأنه إلـهة لذلك المعنى المحبوب الذى تهوى إليه أفئدة البشر !

طالعتنا تلك الالهة بوجهها الوسيم ، ورأسها المتوج ، وثوبها الفضفاض ، ومشعلها البلورى تحمله يدها الطولى . . .

لقد ارتفعت تلك اليد بذلك المشعل ، وما برحت مرتفعة مناراً للسالك ، ورمزاً لتلك الفكرة المثالية المنشودة الخالدة . . .

كرمتْ تلك اليد ، ولا زالت قبلة السلام ومبعث النور وفجر الأمل الرحيب .

هى إلـهة حقا ، ولـكنها من خلق البشر ! . . .

عبقرية فرنسية صاغتها ، ونفخت فيها من روحها . وعبقرية أمريكية أخرى صنعت لها طوداً باذخاً تعتليه لتبعث من عليائه النور على الانسانية الشقية بالظلام . . .

إن فرنسا وأمريكا لتجتمعان فى ذلك النُّصُب العظيم : فى التمثال يتجلى الفن الفرنسى الرائع ، وفى القاعدة تتجلى العظمة الأمريكية بضخامتها وجلالها . . .

نزول فى جزيرة التمثال . . .

صعود فى جوفه . . .

شرفة نطل منها على نيويورك ، فنرى شواهقها مشرقة بهيجة تتجمع متطلعة إلى إلهة الحرية ، كأنها عذارى يتزاحمن مستمدات من أمهن الرءوم روح الحياة !

فترة راحة واستجمام فى أحد المشارب .

فقول إلى المرفأ .

وهنالك ركبنا إحدى البواخر ، نستمتع فيها بضع ساعات بنزهة بحرية حول جزيرة مانهاتان . . . وما مانهاتان هذه إلا قلب نيويورك الخفاق !

رشيقة أنيقة هى تلك الباخرة ، لم يعبها إلا ذلك التكدس والازدحام ، ونظام الطوابير الذى استتب أمره فى نيويورك ، فأصبح لا غنية عنه فى كل شئ ولا معدى . . .

وتحركت بنا الباخرة يشق صدرها مجرى من الماء ليناً سهلا فى جو طيع ، كأننا فى سيارة حافلة تقطع بنا طريقاً معبداً من الطرق الفساح .

وأخذنا نشهد مايمر بنا من المبانى والحدائق ، وذلك الطريق العجيب تتعدد طبقاته وتتباين أشكاله ، وهذا الصف الممتد من البواخر والسفائن كأنها كتائب فى يوم عرض عظيم .

وتخيرنا مكاناً ينأى عن الزحمة ، يتوافر لنا فيه الهدوء . . . وما كدت أستمتع فيه بمجلسى وأتنسم نفحات البحر ، حتى علا صوت لا أدرى من أين نجم . إنه يجلجل وسط الباخرة ، وينفذ إلى أعماقها وخوافيها ، هو صوت إنسان يتحدث فى أداة من مضخمات الصوت ، أما ذلك المتحدث نفسه ، فلم أعثر له على ظل . . .

وعلمت أن صاحبنا دليل يكمن فى ركن مخصوص ، يلقى بشظاياه وهو آمن فى مكمنه مستقر . . . لقد أتوا به ليشرح لنا ما نجوز به من المعالم والمغانى .

ليته يعلم أنى أوثر الاستمتاع وحدى ، مستدلا بعينى ، مستوحياً من المعالم نفسها فيض الشرح والايضاح ، تاركا لمخيلتى أن تسبح بى فى آفاق التأمل ما شاءت أن تسبح ، غير مزعجة بمنكر من الأصوات !

ويحك من ثرثار جَهْوَرِىّ الصوت ، مصم للأسماع !

إنك صوت مجرد . . . لقد طالما بحثت عن شخصك ، فأعيانى العثور عليك .

لعلك اختراع أمريكى جديد . . . ضفدع من طراز حديث فى الصياح والنقيق .

مكانك أيتها الضفدع تستريحى وتريحى !

ولكن الضفدع لا تبرح تنق ، ولا يبرح نقيقها يأخذ على الآذان سبيل الاصغاء !

ماذا تريد أن تقول هذه النقاقة اللجوج ؟

إنها تلم بكل شئ ، وتعبر عن كل شئ ، ماهرة فى الالقاء والتعبير . . .

تارة هى شاعرة تتمدح بمفاتن نيويورك ، ثم لا تلبث أن تنقلب تارةأخرى مؤرخة عالمة تقص عليك تاريخ المبانى والمعاهد والآثار ، وتسرد لك الوقائع والأحداث ، وتشرح لك من ظواهر العمارة والتخطيط ما يدل على إحاطة . . . وهى فى هذا وفى ذلك تحاول أن تكون طلية الحديث ، فكهة الروح ، تلقى عليك النوادر والنكات مستورة حيناً مكشوفة حيناً آخر . ولكنها لا تنتظر منك قهقهة استحسان ولا صفير استهجان . . . إنها ماضية لطيتها ، كالفلم المسترسل ، أو كقرص الحاكى لا يفتأ يدور حتى ينتهى الدور !

الأمر لله أولاً وآخراً أيتها الضفدع . . .

سنشتفّ كأس لجاجتك حتى الثمالة ، طوعاً أو على كره . . .

كنا نحسبها نزهة تقرّ لها الأعصاب ، فاذا بها حرب وقودها الأعصاب . . .

وظلت الباخرة تسير ، والضفدع لا يختنق لها صوت من طول النقيق .

عن الشمال مانهاتان وعن اليمين جزائر وخلجان ، وامتداد لنيويورك العظيمة : بروكلن ، كوينز ، برونكس ، جسور شوامخ كأنها أطواد معلقة تكسوها الرهبة والجلال ، أو كأنها «هولاكات» تمددت بأجسادها فوق الماء لتصل بين أجزاء اليابسة !

وسمعت الضفدع تقول :

— أمامكم جزيرة أصدقائنا المجانين !

والتفتّ أنظر ، فاذا بجزيرة مزهرة مشمسة ، تجوس خلال خمائلها جداول رقراقة ، وفى وسطها مبنى جميل تبدو حوله أشباح تروح وتجئ فى رزانة وهدوء .

ليست جزيرة المجانين إلا جنة عدن !

وددت لو وجدنا السبيل إليها ، لنتخلص على الأقل من ضفدع الباخرة ، ولسنا نبالى بعد ذلك أن نحرم ألقاب العقلاء !

وجهر الصوت يقول :

— ها هو ذا سجن البرونكس ... لا تنسوا أن حجراته مجهزة بآلات تكييف الهواء !

يا للعجب ! . . .

نحن فى بلد يحظى بالسعادة فيه صنفان من منكودى البشر : المجانين والمساجين ! . . .

وانبرت الضفدع تسرد أنباء العالم والمشاهد ، مؤيدة حديثها بلغة الأرقام : لغة الملايين ، غير ناسية فى كل مرة أن تصف ما تصفه بأنه أعظم أمثاله فى العالم المسكون . . .

هذا معهد بلغت تكاليفه كذا مليون دولار ، و إنه أعظم معهد من نوعه فى العالم!

هذا « نُصُب » بلغت تكاليفه كذا مليون دولار ، و إنه أعظم نصب من نوعه فى العالم !

يزهى الأمريكى دائماً بثلاث ضخامات :

ضخامة المال .

ضخامة الشكل .

ضخامة الصيت .

و إنه ليؤسس مدنيته على تلك القواعد الثلاث !

وطالعتنا فى أطراف جزيرة مانهاتان غابة من أروع الغابات ، قائمة على تلال عجيبة ؛ غابة موحشة تمثّل البداوة والفطرة فى قلب الحضارة والعمران .

لكأنهم اقتلعوها من مغرسها الأصيل فى المجاهل والأدغال ، وجاءوا بها ليتخذوها طرفة وقرة عين ، كما تجتلب الوحوش من مغاورها وأجحارها ومسارحها لتسكن فى الحواضر حدائق الحيوان . . .

ودارت بنا الباخرة يسرة ، ومضينا . . . فاذا نحن أمام جسر واشنجتون العظيم ، يتلألأ بلونه الفضى فى وهج الشمس ، و يمتد بجرمه الرائع وبسلاسله الضخام ، كأنه صرح ممرد من زئبق رجراج . . .

ثم بدت نيوجرسى مختالة بمصانعها ، يحدها الشاطئ الجميل ، وتتناثر فيها المغانى أنيقة رشيقة ، وتنبسط فيها المروج بهيجة نضيرة !

وما زالت الباخرة تمخر العباب ، والضفدع توالى النقيق ، والمناظر الأمريكية كأنها ألواح فنية يحاول كل لوح منها بفتنته أن يقيد الأنظار . . .

وبلغنا غاية المطاف .

فوقفت الباخرة ، وخرست الضفدع . . .

و إذا بنا نُدفع خارج الباخرة دفعاً ، ويلقى بنا فى عُرض الطريق . . .

والتفتَ إلىّ مرافقى يقول :

— حان وقت الجولة المسائية فى أحياء نيويورك الأصيلة . . .

وما كاد الظلام يسبل أستاره ، حتى انبرت له الأنوار الألاقة تطارده ، فيرتد مقهوراً على أعقابه . . .

طرقنا أول ما طرقنا قرية جرينوتش . . .

ليست بقرية ، و إنما هى حى معروف له طابعه وروحه ، ولكن ما سمعناه عنه أكبر من مظهره . . . إنه مثابة الفنانين ، فيه نبت أكثرهم وترعرع . نشأوا فقراء فى أكنافه المتواضعة ، فلما أخذت أسماؤهم تعلو ، وصيتهم يطير ، ارتحلوا عنه إلى منطقة نواطح السحاب ، كأنهم يوازنون ويلائمون بينها وبين ما كتب لأسمائهم من علو وبعد صيت . . .

إن من بين هذه الدور الضئيلة ما هو معروف حتى اليوم باسم أصحابه الأقدمين من الفنانين الذين هجروه وخلّفوه لغيرهم من السكان المحدثين .

إن جرينوتش قرية حقا إذا ووزنت بنيويورك . . . قرية بمنازلها المتخاضعة ونواديها المنزوية حيث لا يقيم أهلها شأناً للعرف ولا للتقاليد . . . وما أشبه مشاربها ومراقصها ومغانيها بنظائرها فى مثل ذلك الحى من عواصم أوربا العجوز.

لقد جبنا أرجاء جرينوتش وقضينا فيها بعض الوقت ، ولكننا لم نفز بغير ظاهرها المكشوف ، وليس بذى بال . . . أما الخفى المستور فهو لأهلها خاصة ، لا يزاحمهم فيه واغل دخيل . . . من ذلك الخفى المستور مسارح للفن قائمة ، ولكنه الفن الوضيع فيما يرى بعض الناس ، أو جوهر الفن الحق فيما يرى بعض آخرون ! . . .

فى تلك الدمن تنبت زهرات نواضر تتفتح بين الفينة والفينة ، فإذا نزع الشوك عنها ، وأزيل الغبار منها ، كانت أهلا أن تزين صدور المجامع والمحافل وتنفحها بعطرها الفواح . . .

وطرقنا « البورى » مباءة الاجرام ، ومثوى الصعلكة والتشريد ، ووكر الفن المبتذل الرخيص .

على الطوار يستريح الصعاليك ، فاذا لمحك واحد منهم وآنس فيك مغنما تقدم إليك بجسمه الرخو وثيابه الرثة وخطواته المتسكعة وأنفه المتورم المخمور ، يمد إليك يد السؤال . . . وعليك حتما أن تجيب ، وإلا انقلب السؤال إلى وعيد وتهديد !

يا لله . . . ها نحن أولاء فى أمريكا دنيا الرخاء والثراء ، يلاحقنا ذلك الصنف من الناس ، أولئك المستجدون الذين لا ينقطع لهم سيل فى بلاد الشرق . . . ولكن المستجدى الأمريكى والمستجدى الشرقى يمثل كل منهما طابع أمته وروح وطنه . . . فالسائل فى القاهرة مثلا إذا زجرته استعان عليك بالله ، وانصرف عنك فى استسلام . وأما السائل فى نيويورك فانه يتقاضاك ما يعده حقا له بالظفر والناب ! . . .

وهذه مشارب ومراقص تكتظ على سعتها بالحشود من الأوشاب ، طلاب الدنايا من المتع ، يتجمعون حول موائد الشراب ، وقد اندست بينهم الغواني المتبذلات . . .

وبدت لنا على منصة فى أحد تلك المراقص امرأة ، بل كتلة خسيسة من لحم وشحم ، بوجه لوّنه الطلاء البشع ، وقد اكتست حلة برقشتها زوائف الزينة والوشى . وهى تصوّت أمام مضخم الصوت فى نغمة منكرة ، موهمة سُمّاعها أنها تشدو وتتغنى !

ما أشبه الليلة بالبارحة !

أليس هذا المكان هو نفسه ذلك المرقص الوضيع الذى كان يزخر بالقصاد فى أحط أحياء القاهرة إبان الحرب العالمية الأولى منذ أكثر من ربع قرن ؟

ألا فلنول فراراً من « البورى » . . .

وحثثنا الخطا . . .

إلى أين ؟

إلى مدينة الصين ، إنها منا على مقربة . . .

حياك الله أيتها الصين النائمة فى وداعة وهدوء . . . إنا ملاقوك بعد قليل ، وإن باعدت بيننا الديار ، وعز المزار . . .

وأقبلنا على ما يسمونه مدينة الصين . . .

حقا أنه حى متميز قائم بنفسه ، لا تطالع فيه إلا أشباحاً صينية فى

أزياء غريبة ، تتناثر بينها الأحاديث فى لهجة تشبه همس القططة !

ثمة حوانيت ترى على جبينها تلك النقوش والزخارف الصينية التى هى فى أغلب الظن أحرف وكلمات !

وثمة دور متواضعة متخاضعة ، وطرق ضيقة غير مستقيمة . . .

ولكن أنحن حقًّا فى مدينة الصين ؟

دخلنا مطعما نستهديه الجواب .

إنه ليحمل نفحة صينية استرعت أنظارنا بظاهرتين :

الأولى تلك الألوان الغريبة التى قدمت لنا ، فكان مذاقها مبعثاً للحيرة والعجب ، و إن الرز ليقدم بينها بديلا من الخبز ، والشاى يقدم أثناءها عوضاً عن الماء !

والظاهرة الأخرى ، ذلك النادل الصينى الذى ما كاد يبدأ خدمته لمائدتنا ، حتى انتحى ناحية عن كثب منا يلتهم عشاءه ، بعصوين تقومان مقام الشوكة والملعقة ، وهو يحركهما فى مهارة تستدر الاعجاب !

وحمدنا الله ما قدَّر ويسر ، وخرجنا وفى بطوننا خواء !

وانصرفنا نسلك الشارع الضيق ، تطل علينا من نوافذ دوره تلك الوجوه الصفر ، والأنوف الفطس ، والحواجب المشرئبة . . .

وسمعت مرافقى يقول :

— هل لكم فى زيارة المعبد ؟

— تالله إنى إليه لمشوق !

مدخل ليس فيه من روح التعبد إلا مظهر ضئيل .

واجتزنا ممرًّا ضيقاً ينتهى بنافذة ، كأنها شباك التذاكر فى دور اللهو . . .

أمعبد هذا أم مسرح تمثيل ؟

واشترينا تذاكر الدخول ، وتابعنا الخطا . . .

بهو غير فسيح تتراص فيه المقاعد ، تزين حائطه نقوش صينية ، وخرق ملونة كأنها أعلام . . . وفى صدر المكان محرابان ، أو بالحرى هيكلان مشحونان بالطُّرف والتماثيل من فن الصين ، يتميز أحدها بالعظمة والفخامة ، وما أظنه إلا تمثال بوذا المعبود . . . إنه حقا لتحفة من تحف النحت ، تدل على صبر الفنان الصينى ودقته وأناقته . . .

وكان دليلنا فى المعبد فتاة صينية على جانب من الرقة والأدب ، انطلقت تصف لنا مراسم الزواج ، وكيف تتم أمام هذا الهيكل .

وحانت منى التفاتة ، فألفيت أريكة ساذجة تتربع عليها امرأة صينية هزيلة تخطت عصر الشباب . . . وسرعان ما أدركنا أنها أم تلك الفتاة التى تقوم فى المعبد مقام الدليل . . .

لقد كانت هذه الأم تمثل فى جلستها بوذا آخر ، بيد أنه بوذا من طينة البشر، منهمك فى تقشير برتقالة ! . . .

واقتربنا من الاله البشرى نبادله إيماءة التحية فى صمت ووقار . . .

ما بال هذه البرتقالة تشوب فى هذا المكان صفاء التعبد ؟

أغلب الظن أن ذلك المبنى دار تسكنها هذه الأسرة ، وقد أحالتها مسرحاً كما نرى تمثل فيه العبادة تمثيلا لا حقيقة له ولا روح فيه . . .

إنه معبد للأجانب من الزوار ، لا للمواطنين من أهل الصين !

ولكن حسبه أنه يكفل الرزق لتلك الأسرة ، ويعينها على أعباء العيش . . فلا ضير علينا فى أن نحنى له الرأس خاشعين !

كثير من معالم المدينة يصور مظاهر من حياة الصين على الأسلوب الذى هو أقرب إلى التمثيل منه إلى الحقيقة والواقع . . .

إن مدينة الصين ، على الرغم من كل شئ ، وعلى الرغم مما قيل فيها وما توصف به ، رقعة من نيويورك لا قطعة من الصين الأصيلة . . .

أراهن على أن الصينى المقيم فى هذه المدينة قد بدأ ينسى صينيته ، ولم يحتفظ منها إلا برطانة كلمات يميز بها شخصيته ، كما يحلى حانوته ببعض الزخارف والنقوش . . . وقد يكون مثله فى ذلك كمثل الملحد الزنديق يتخذ السبحة ليحرك حباتها بين أنامله ملعبة وملهاة !

أراهن على أن صينى نيويورك لم تطأ قدمه أرض الصين يوماً فى حياته ، حتى إنه لم ير منها ظل شنغهاى مدينة الأوربيين فى الصين !

إن مدينة الصين فى نيويورك تمثل ما كان يمثله قصر المهراجا فى معرض ومبلى فى لندن . . . وأخشى أن أقول ما يمثله اليوم مسجد باريس ! . . .

محمود تيمور

أندلسية

[من ذكريات بحيرة لوجانو
السويسرية. صيف عام ١٩٤٦.]

حسنُكِ النشوانُ والكأس الرويّهْ جددا عهدَ شبابى فسَكِرْتُ
حُلُمٌ أيام وليـلات وضـيّهْ عبرتْ بى فى حياتى وعبرتْ
أنا سكرانُ وفى الكأس بقيّهْ أىُّ خمر مِنْ جَنَى الخلد عصرتُ
آه هاتى ، قرِّبى الكأس إليّهْ
واسقنيها أنت يا أندلسيه

لا تقولى أى صوتٍ مُلْهِمِ قاد روحينا ، فجئنا ، والتقينا
دَمُكِ المشبوبُ فيه من دمى روحُ ناضٍ بالهوى يهفو إلينا
أختَ روحى ! قرِّبيها من فمى إنْ شربنا أو طربنا ما علينا
آه هاتيها من الحسن جَنِيّهْ
واسقنيها أنت يا أندلسيهْ

كانت النظرةُ أولى نظرتينْ ثم صارت لفظةً ما بيننا
والهوى يعجب من مغتربين لم تَقُلْ أنتَ ... ولا قال أنا ...
وسبَحنا فوق وادٍ من لجين تحت أفْقٍ من غمام وَسَنَى
أتملاّها سِمات عربيهْ
وأنادى أنت يا أندلسيهْ

صحت يا للشمس فى ظل المغيب تلثم الزهر وأوراق الشجر
خلتها بين محب وحبيب لحظة عند وداع وسفر
فانثنت تنظر للوادى العجيب صورا يذهبن فى إثر صور
وبسمعى همسة منها شجيه
وبروحى أنت يا أندلسيه .

ونزلنا عند شط من نضار وانتحينا خلوة بعد زحام
قلت والليل بأعقاب النهار ألك الليلة فى لحن وجام ؟
ما على مغتربى أهل ودار إن أدارا ها هنا كأس مدام
آه هاتيها كخديك نقيه
واسقنيها أنت يا أندلسيه

واحتوتنا بين لحن مطرب حانة مثل أساطير الزمان
صورت جدرانها بالذهب فتن العشق وأهواء الحسان
قالت : اشرب قلت لبيك اشربى ملء كأسين فإنا ظامئان
خمرة رومية أو بابليه
إسقنيها أنت يا أندلسيه

هتفت بى ويداها فى يدى تدفع الكأس باغراء وعجب
أى قيثار شجى غرد خلته ينطق عن أسرار قلبى!
قلت طفل من قديم الأبد يمزج الألحان من خمر وحب
ملء كأس فى يديه ذهبيه
فاسقنيها أنت يا أندلسيه

ومضى الليـــلُ فنـادى بالرواحِ كلٌّ خالٍ وتعـايا كلُّ صَبّْ
وخبـا الصباحُ إلاّ كأس راحِ نورُهُ ما بين إيمـاضٍ ووثب
قد تحدَّى وَهْجُهُ ضوءَ الصباحِ فبقينـا حولـه جنبـاً لجنب
نتساقاها على الفجـر نديّهْ
وأغنّي أنت يـا أندلســـيه

يا عروسَ الغرب يا أندلسـيه بَعُـدتْ داركِ والصيفُ دنا
أين أحلامُ الليـالى القـمريه والبحـــيراتُ مُطيفاتٌ بنـا
إذكرى بين الـكؤوس الذهبيه حانةً ، يا ليتهـا دامتْ لنـا
حين أدعـوكِ صــباحاً وعشيّه
إسـقنيهـا أنتِ يا أندلسـيهْ

علي محمود طه

فصول لم تنشر من آثار الجاحظ

هذه بقايا كتاب من كتب الجاحظ التى عدت عليها عوادى الزمن ، فلم يبق منه إلا هذه الفصول القليلة ، احتفظت بها المخطوطة البرلينيــة التى أشرنا من قبل إليها ، ونشرنا عنها الرسالة السابقة (١) . وكلا الأثرين يعتبر مظهراً من مظاهر التطور فى النثر العربى ، وإن اختلف موضوعاهما ؛ إذ كان هذا فى الهجاء وذاك فى الرثاء . ولكن الهجاء — كالرثاء — فن شعرى ، استأثر الشعر به . واختص بالتعبير عنه ، حتى حدث ذلك التطور .

وليس بنا فى هذه المقدمة القصــيرة أن نحلل هذه الفصول من الناحية الأدبية ، أو أن نتعرف الخصائص التى اجتمعت لها وجمعت فيها بين روح الشعر وروح النثر ، أو أن نشير إلى بعض الصلات التى تصل بينها وبين كتاب ككتاب «البخلاء» ؛ فلهذا وما إليه موضعه الذى هو أملك به وأوسع له . ولكنا لا نستطيع أن نغفل سؤالا من أخص الأسئلة بهذه الفصول : من عسى أن يكون موضوع هذا الهجاء اللاذع ؟ وماذا عسى أن تكون شخصية الرجل الذى وسمه الجاحظ بهذا الميسم ؟

والفصول التى بين أيدينا لا تسمى ذلك الرجل ، فليس لنا بد من أن نلتمس السبل إليه . ولعل الكتاب لو وصل إلينا كاملا لم تكن بنا حاجة إلى مثل هذا التلمس ، فأكبر الظن أن الجاحظ لم يترك تسميته ، كما صنع فى رسالة التربيع والتدوير وفى معظم فصول «البخلاء» . ومذهبه فى التسمية قد ذكره فى كتاب البخلاء بقوله : « ولسنا من تسمية الأصحاب المتهتكين ولا غيرهم من المستورين فى شىء : أما الصاحب فإنا لا نسميه لحرمته وواجب حقه ، والآخر لا نسميه لستر الله عليه ، ولما يجب لمن كان فى مثل حاله . وإنما نسمى من خرج من هاتين الحالين . ولربما سمينا الصاحب إذا كان ممن يمازح بهذا كثيراً . ورأيناه يتظرف به ، ويجعل ذلك الظرف سلما إلى منع شينه » . وهذا الرجل ليس من الأصحاب ولا من المستورين ، كما يؤخذ من هذه الفصول .

وإذا كان قد فاتنا أن نعرفه من الكتاب مباشرة ، فقد أتيح لنا أن نعرفه من سبيل غير مباشرة ، بفضل اعتماد كثير من المؤلفين على كتب الجاحظ واستمدادهم منها ؛ إذ نجد عندهم ما ضاع عنده . وبذلك قدر لنا أن نعرف هذا الذى وسمه الجاحظ بكتابه وصبه عليه ، وهو محمد بن الجهم البرمكى . وقد وجدنا ذلك عند ابن قتيبة من معاصرى الجاحظ فى القرن الثالث ، فى كتابيه : «عيون الأخبار» ، و«تأويل مختلف الحديث» ، وعند أبى إسحاق الحصرى من علماء القرن الخامس فى الأندلس ، فى كتابه « زهر الآداب » ، وعند جمال الدين الوطواط من علماء

(١) الكتاب المصرى ، عدد ٩ (يونيه ١٩٤٦)

القرن السابع والثامن فى مصر ، فى كتابه « غرر الخصائص الواضحة » ؛ إذ ينقلون فقرات من هذا الكتاب ، مع النص على أنها فى صفة محمد بن الجهم هذا . كما نجد فى بعض هذه الكتب وفى غيرها كشرح الشريشى على مقامات الحريرى فقرات أخرى فى صفته ، تجرى على سياق هذه الفصول ، حتى ليغلب على الظن أنها مأخوذة من هذا الكتاب .

وإذن فمن هو محمد بن الجهم هذا ؟

هو – فيما تؤدى إلينا أخباره القليلة المنثورة هنا وهناك – عالم من سراة العلماء فى القرن الثانى والثالث ، نشأ – فيما يبدو – مولى من موالى البرامكة ، وتربى فى ظلهم ، فاتجه فى الثقافة اتجاههم . وبذلك كانت ثقافته مزاجا من الفارسية ، وهى تمثل العنصر الأول الضرورى منها ، واليونانية ، وهى تمثل ناحية الترف العقلى فيها . ومظهر ثقافته الأولى ترجمته لكتاب خداى نامه الذى ترجمه ابن المقفع من قبل ، كما ينص على ذلك صاحب الآثار الباقية . وأما مظهر ثقافته الثانية فهو هذا الذى عرف به واشتهر عنه من إقباله على كتب اليونان كأرسطو وأقليدس واستغراقه فيها ، حتى اتخذ خصومه من ذلك مادة للتندر به والتشنيع عليه ، كما نرى فى هذه الفصول ، وكما نجد صورة منه عند ابن قتيبة إذ يقول : « ثم نصير إلى محمد بن الجهم البرمكى ، فنجد مصحفه كتب أرسطاليس فى الكون والفساد والكيان وحدود المنطق ، بها يقطع دهره » .

وجملة القول أنه كان من أصحاب الثقافة الممتازة فى عصره . ولعله بهذا استطاع أن يظفر من الخليفة المأمون بالمنزلة الرفيعة التى ظفر بها لديه ، فكان أحد ولاته على الاهواز ، وكان من أصحاب مجلسه الذين يوكل إليهم أحياناً مناظرة الزنادقة والملاحدة وأهل النحل المختلفة . وقد ألف له فيما يقول القفطى – كتابا « فى الاختبارات ، قريب المأخذ صحيح العبارات جداً » . ولكن ثقافته هذه لم تتخذ – فيما يظهر – صبغة دينية ؛ فكان ذلك من أول الفروق بينه وبين المعتزلة .

ثم كان من ناحية الخلق الشخصى رجلا شديد الصلف والاعتداد بالنفس ، كبير التيه أنانى المذهب ؛ فكان لهذا مبغضاً . وقد يكون لمكانه فى القصر ، ومنافسته المعتزلة عند الخليفة ، مع اختلاف النزعة العقلية ، ما يمكن أن يعزى إليه هذا الجو البغيض الذى أحيط به وعاش فيه بين سخط المعتزلة وأهل السنة جميعا ، وكان من مظاهره — ولعله يكون من العوامل التى شاركت فى تهيئته — كتاب الجاحظ الذى نملك منه هذه الفصول التى نقدمها اليوم ، بعد أن صححنا نصها ، فى حدود الأصول العلمية للنشر .

طه الحاجرى

. . . وسأخبرك عن هذا الرجل ، من لؤم الطبع ، وسخف الحلم ، ودناءة النفس ، وخبث المنشأ ، بما يشفى الصدر ويثلجه ، ويبين عن الغدر فيه ويكشفه . وأستشهد العدول ، وأهل المخيلة والعقول ، على أنى لم أر له محتجًّا ، ولا عنه مكذِّباً ، ولا رأيت أحداً يرحمه ، أو يحفل به ، أو يمسك عنه ، أو يشفع فيه .

قلت لمعاذ بن سعيد : أدخلت عليه ؟ قال : نعم ! قلت : فكيف رأيته ؟ قال : لا يعود إليه حر .

وقلت للفيض بن يزيد : صفه لى ، فانك تعرف الأمور ؛ وقل ، فانك تحسن أن تقول . قال : يضر — والله — عنده ما ينفع عند الكرام ، وينفع عنده ما يضر عند الكرام . قلت : فكيف عِشْرته ؟ قال : فوق العذاب الأدنى ، ودون العذاب الأكبر .

وقال أبو عقِيل بن دُرُست : اللهم إنى أعوذ بك من باطن عزمه ، كما أعوذ بك من ظاهر عمله !

وقال شدّاد الحارثى : لم أر لؤماً قط إلا والدهر ينقص منه أو يزيد فيه ، إلا لومه ؛ فانه قد تناهى فى القوة ، وبلغ أقصى النهاية ؛ وعاد مُصْمَتاً لا يُدخل عليه ، ومشتبهاً لا حيلة فيه . فان كان إلى الغاية أجرى ، فقد حوى قصبات السبق ؛ و إن كان للتفرد طلب ، فقد خلا بالرياسة ، واستبد بالوحدة .

وقال سهل بن هارون : إن الحاسد والغضبان والحاقد والعيّاب ، إذا استنفدوا العيوب ، استتلوا قول الزور ، والتمسوا ما شاكل الحق وقاربه ، وأشبه ما فى المسبوب وناسبه ، و بهتوا الرجل بقرنائه . وفحشُ عيوبه ، وظهور لؤمه ، وكثرةُ الشهود عليه والقائلين فيه ، لا يحوجك إلى اليمين والشاهد ؛ فعائبه سليم من الذنب ، مُعْفى من الكذب ؛ لا يعيبه ورِع ، ولا يسفهه كريم ؛ وله عند ذامه والواصف لعيوبه أياد لا تشكر ، ونعم لا تنكر .

ووصفه آخر فقال : هو منحرف عن الجادّة ؛ يخبط خبط العشواء ، ويحكم حكم الورهاء ، ويناسب أخلاق النساء ؛ لأن المرأة لاتسمو إلى مراتب السادة ، ولا تروم منافسة القادة ، وليس لها من عقلها مادة ؛ همها قصير ، وركنها ضعيف ، وصدرها ضيق ، ورأيها منتشر ؛ وفى قوى هواها فضل على قوى عقلها ، وسخفُ رأيها غامر لرجاحة حلمها ؛ لا تعرف حدود الاعتدال ، ولامواقع الاقتصاد ، ولا التوسط فى الأمور ، ولا عواقب التدبير .

ووصفه آخر فقال : هو يظلم الضعيف ، ويقتل الصريع ، ويذفف على الجريح ، ويطلب الهارب ، و يهرب من الطالب ، ولا يعرف التقية ولا المروءة . يعق أباه ، و يحسد أخاه . العجب شقيقه ، والبذخ صديقه ، والنفج أليفه ، والصلف عقيده .

قد تمكن منه الشيطان ، فهوّن عليه سخط الرب ، وسهّل عليه عقاب الأبد ، ووعده الظفر ، ومنّاه السلامة ، ولقنه الاحتجاج بالباطل ، وزين له قول الزور ، ونظم له خلال الشر . فى أنفه خُنْزُوانة ، وفى رأسه نُعَرة ، وكأنما أنفه فى أسلوب . ومن عَظُم كبرُه اشتدعجبه . ومن أعجب برأيه لم يشاور كفئاً ، ولم يؤامر نصيحاً .

ووصفه آخر فقال : أسلمته الحال إلى القسوة ، واستفرغته الغفلة ، واستولى عليه سلطان الطَّبَع ، وكُشِف على قلبه حجاب الرَّين ؛ فلم يبق فى عقله فضل للاستماع ، ولا فى استطاعته بقية للتصرف . ينبو عنه السيف وإن كان صارماً ، وتقف عنه الحجة وإن كانت قاطعة . ولا يجد النافخ فيه لحماً ، ولا القابس قبساً ، ولا الموري زنداً .

قال معمر السلمي — وذكره مرة فى كلام له — : موكل بلوم المحسنين ، والتعجب من المُفْضِلين . يعدّ الاقتصاد جوداً ، والجود سرفاً . ويعجب من الطامع فيه ، والراغب إليه . ويضعف منْ جزع من الذم ، وهشّ للحمد . لايعد الحزم إلا المنع ، ولا العيش إلا الجمع . لم يحدِّث عن جواد قط ، ولا ندم على سوء قط ، ولا أمسك عن الاحتجاج له . ثم ماظنك بعِرْق السوء إذا تقادم ، واللؤم إذا تمكن ، والبخل إذا تفحّل ، والفحشاء إذا تمت ، والدناءة إذا كلت ! يعظِّم الغنى وإن كان غُفْلا . ومن الأدب خلواً ، ومن حلى الجود عُطْلا ؛ ويحقر المقل وإن كان أديباً ، حكيماً عليماً ، وحُوَّلاً بارعاً ، ولمجهوده باذلا . شديد الكبر على جليسه ، متهاوناً بعظيم حقه . ولو انقطع إليه أبوه ، واحتاج إليه أخوه ، وأعظم الناس عنده يداً ، وأظهرهم فضلا ، لنضحه من غريب الكبر ، ولصب على ذروته من بديع الذل ، مالا يقوم به عز ، ولا ينهض به حر ، ولركبه بما لا يحتمله الكلم ، ولا يرومه العزم . يقدِّر أن الله لم يفقر الكريم إلا ليُضرع خده ، ولا أغنى اللئيم إلا ليرفع قدره .

وقال ثُمامة بن أشرس ، فى كلام له : لم يطمع أحداً قط فى ماله إلا ليشغله بالطمع فيه عن غيره ، ولا تشفَّع فى صديق ، ولا تكلم فى حاجة متحرم به ، إلا ليلقِّن المسئول حجة منع ، وليفتح على السائل باب حرمان .

وقال أبو بكر الأصم : لم أر مثله ، بل لم أسمع ، والسماع أكثر ، بل لا أتوهم ، والتوهم أفسح . وما ظنكم بمن يمسى فى غضب الله تعالى وسخطه ،

ويصبح فى خذلان الله وتخليته من يده ! وما ظنكم بمتكلم لا يعرف قوله ، ولا يقضي على مذهبه ؛ سواء عنده التشبيه ونفيه ، والجبر وضده ، والإرجاء وخلافه، ولا يعادى الخارجي ، ولا يتولى النابتي ، ولا يحفل بالجماعي ، ولا يغضب على الرافضي .

وقال الحصين بن الحسين ، فى كلام له : إن مما يوئس من رجوعه ، و يُقنط من نزوعه ، وأن الله قد طبع على قلبه فى اللؤم ، وضرب على سمعه فى البخل ، أن البخيل الموسر ، والمنوع المثرى ، إذا كان عاقلا وبأمور الناس عارفاً ، لا يسوغ له شراب ولا يطيب له عيش ، وأنه لا يقدر على مخالطة الناس وملابستهم، ومجاراتهم ومصاهرتهم ، إلا بأن يجعل التواضع دريئة دون ماله ، والسعي فى حوائجهم جُنّة دون عرضه ، وعلى ألا يجمع بين الكبر والمنع ، وبين التنبل والبخل ؛ إلا ما كان من هذا الرجل ؛ فانه قد خرج من طباع الأمة ، ونقضَ ما عليه تجرى العادة ؛ فبلغ فى الكبر الغاية ، كما بلغ فى البخل النهاية ؛ إلا أن كبره لا يجوز إلا لعامة الرعية والحرمة . هذا مع ثقل الروح والفدامة ، والبرد والوخامة . فلو كان حلو الحديث عذرته، ولو كان حسن الاستماع أمسكت عنه . ولو تمسك بسبب من الخير و إن ضعُف ، أو رغب فى شئ من المعروف و إن قل، لأضربت عنه صفحاً ، وطويت عنه كشحاً . ولكن استفرغ اللؤم وتعرقه ، وبلغ غايته واستوعبه . وكيف ولم يسمع بمُلْحة قط ولا فهمها ، ولا ابتسم من نادرة قط ولا عقلها .

وذكره مرة أخرى ، فقال : امتنع — والله — من استحسان ما يقوله المتحرم به ، ومن استجادة ما يظهر من المنقطع إليه ، و إن حسنت معانيه ، وشرفت ألفاظه ، وسهلت مخارجه ، مخافة أن يزيد ذلك فى طمعه . ويفسح من أمله ، و يجعله حجة عليه عنده فى تقصيره به ، وحرمانه إياه .

لم يفهم عن الله شيئاً قط إلا ازدراه ؛ ولا روى أثراً ، ولا طلب شعراً ، ولا حفظ خبراً ، ولا قرأ تنزيلا ، ولا ع تأويلا . وقد رضى بكتاب المنطق بدلا من القرآن ، وبالكون والفساد عوضاً من الأحكام ، وبالعرض والجوهر خلفاً ، وبالجزء والطفرة شرفاً . إذا فكر المسلمون فى الجنة والنار ، فكر فى الدرهم والدينار ؛ و إذا فكر الكريم فى الذكر ، والعابد فى الأجر ، فكر فى الاحتيال للمنع ، وفيما زاد على الجمع . فهو نسيج وحده فى اللؤم ، وواحد عصره فى البغض ؛ وهو

الصرف فيهما البحت ، والخالص المحض . قد أصبح إمام كل لئيم ، وقائد كل دنئ . وحسبك برجل أوصى إلى العتبى ، وتفرّس الخير فى المروزى ، وقال فى وصيته ، وبحضرة جماعة من فقراء أهله : يزعمون أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « الثلث ، والثلث كثير » ، وأنا أزعم أن ثلث الثلث كثير . للمساكين حقهم فى بيت المال ؛ إن طلبوه طلب الرجال أخذوه ، وإن جلسوا عنه جلوس النساء مُنعوه ؛ فلا يرغم الله إلا أنوفهم ، ولا رحم من رحمهم !

فهذه وصيته ، والعتبى والمروزى خيرته ، وتلك سنته وطريقته .

فلا تعجل أيها السامع ، واعلم أنى مقصر فيما أتولى من وصفه . فهو رجل لا تنجع فيه الرُّقى ، ولا تنفذ فيه الحيل ، ولا يهزه المديح ، ولا يحز فيه اللوم ، ولا يتوهم أحاديث غد ، ولا يؤلمه التوبيخ ، ولا يبالى سخط الكرام ، ولا شكية الأحرار ، ولا وعيد الرجال ، ولا لزوم الحجة ، ولا إناخة العلة . وليه كعدوه ، وجاره الأدنى كالأجنبى الأقصى . رفيقه جائع ، وصديقه ضائع ، وجاره ذليل ، وناصره مخذول ، وجليسه مقموع ، وغريمه ممنوع ، وصفيه محجوب ، وخادمه مكروب ، وكلبه مهزول ، وبابه مهجور ، وأكيله فى تقية ، وشريبه فى بلية ؛ وكلهم فى جهد البلاء ، لولا راحة الدعاء .

هذا مع ظلم العباد ، وإخراب البلاد ، والخيانة الكثيرة ، والتضييع الفاحش ، والضعف عن عمله ، وابتلاء الجند على رغبته ، والحكم بالرِّشا ، والحجاب الشديد ، وضرب الخصوم ، والجبه للشهود ؛ مع الجهل بالحكومة ، وضيق الصدر فى المنازعة . لا يرحم المظلوم ؛ فاذا استرحمه ازداد عليه غلظاً . ولا يرقّ لفقير ؛ فان تعرض له قتله جوعاً .

أنا أدلك على صفة هذا الرجل :

ويل لمن ظن أنه يرجوه ، أو يطمع فيه ! وويل لمن عاد إلى تأميله ، أو طمع فى ماله ! وويل لمن أثنى عليه خيراً ، وقدّر لديه عرفاً ! وويل لمن ترك الرد عليه، ولم يرفع ذلك إليه !

لم يضمر لأحد قط حبًّا ، ولا تمنى له خيراً ؛ ولا اشتاق إلى صديق ، ولا استوحش إلى أنيس . لم يتوكل قط إلا على حيلته ، ولا فزع إلا إلى رأيه ، ولا

عرف الاستخارة والاستشارة . يسخر ممن يرى أن البركة فى المشورة ، وأن النجح مقرون بالاستخارة ، وأن الدعاء يكشف البلاء . ولا يعرف التوفيق ، ولا يثق بالتوكل .

وقال محمد المكى : قلت له مرة : جعلت فداك ! لعل إخوانك أن يجلسوا عندك فوق مقدار شهوتك ؛ فان أقمتهم استحييتهم ، وإن تركتهم ثقل عليك مكانهم . وما زالت الملوك تجعل لهذا أمارة ، وتنصب له علامة . وقد قيل هذا لمعاوية بن أبى سفيان ، فقال : آية ذلك أن ألقى الخيزرانة من يدى . وقال يزيد ابن معاوية : آية ذلك أن أستلقى على فراشي . وقال عبد الملك بن مروان : آية ذلك أن أقول : إذا شئتم . وقال سليمان بن عبد الملك : آية ذلك أن أقول : على بركة الله . فاجعل لنا آية ننتهى إليها ، وأمارة لا نجاوزها . قال : آية ذلك أن أقول : ياغلام ، الغداء !

وقال مرة : بئس الشئ الصديق : إن أعطيته أفقرك ، وإن منعته وجد عليك ؛ ومتى وجد عليك ظلماً أغضبك ، ومتى أغضبك أوحشك ، ومتى أوحشك استوحش منك .

وقال أيام ولايته بالأهواز : من وهب المال فى عمله فهو أحمق ، ومن وهب ماله بعد عزله فهو مجنون ، ومن وهب ماله من جوائز مملوكة ، أو من ميراث لم يتعب فيه ، فهو محدود ، ومن وهب من كسبه ، وما استفاد بحيلته وكده ، فذاك المطبوع على قلبه ، المأخوذ بسمعه وبصره .

واحتجب حيناً عن زواره ، ليستعدوا النفقات فيعجزوا ، وليضجروا فيذهبوا . فان أمسكوا عن ذمه فقد أعفوه ، وإن ذموه فقد منعوا الناس منه . فخرج يوماً فقاموا إليه فناشدوه ، وأذكروه الحرمة ، وقرظوه ؛ فجبههم مرة ، وحاجهم مرة ؛ بقلب جامع ، ولسان عضب . فلما رأوا ذلك انصرفوا عنه بجيد اللعن فيه والسب له .

وكيف ألام على بغضه ، وعلى إرغامه ومقته ، وأنا لو أحببته لاستوحشت من الوحدة ، وجئت فى الاسلام ببدعة ؟ وكيف أحبه وأتولاه ، وقد قال الله تعالى : «ومن يتولهم منكم فانه منهم»، وأعلم أن من أحب الناس فى الله أبغض فيه ، ومن أحب الكرم أحب الكرام ، ومن أبغض اللؤم أبغض اللئام ، ومن أحب الله أبغض من لا يحبه الله !

وبعد هذا كله ، فكيف أحبه وأقصّر فى بغضه وأفترُ عنه ، وهو يزعم أن اسم الكرم كلمة وضعها المستأكلون من العرب ، ولقنها عنهم المولدون ، وأنه لا يعرف للذمام معنى ، ولا للحرمة حقيقة ، وأن هذه الأسماء الموضوعة والصفات المصنوعة ، إنما هى خُدْعة وحيلة ، وخلابة ومكر ، ومخاريق وباطل ، وأن المغرور من غره المدح ، واستماله حب الذكر ، وهشّ للتطرية ، وفرح بالتقريظ . وزعم أن الثناء عرض والمال جوهر ، والمال جسم باق والثناء عرض فان .

وقال : ألا ترى أن ذا المال يعظَّم وإن كان غير ذى وجود ، والجواد لا يعظَّم إن كان غير ذى مال . وزعم أن الثناء أشبه شىء بالسراب المائع ، وبحلم النائم ، وبأمس الذاهب ، وبأضاليل المنى . وزعم أن مدار الأمر فى الأخبار على المنافع والمضار . وأن الصدق لا يحسن إلا لأنه ينفع ، والكذب لا يقبح إلا لأنه يضر؛ فاذا نفع الكذب فقد تحول حكمه ، وإذا ضر الصدق فقد تبدل اسمه . وليس بين نفس الصدق والعقول وَلاية ، ولا بينها وبين الكذب عداوة ؛ ولكن لما كان اتفاق النفع فى الصدق أكثر ، صار عند العوام أحمد ؛ ولما كان ما يتفق بالمضرة فى الكذب أكثر ، صار عند العوام أذم .

فماله لعنه الله ، ثم ما له لعنه الله ! كيف نصب للكرم ونهى عنه ، وتكفل باللؤم ودعا إليه ؟ وكيف اعترض على جميع المتقين ، وبلغ كيده جميع المؤمنين ؟

رأى فى ترتيب المعجم

العربى الحديث

[كتب هذا المقال أديب العراق وفقيد العالم العربى المغفور له الأستاذ طه الراوى وأراد أن يخص به مجلة «الكاتب المصرى» فأعجلته المنية عن إرساله إلينا. و تفضل ابنه الأستاذ هاشم الراوى فأرسله إلينا بعد وفاة والده الكريم ، فكان وصوله إلينا تجديدا للأسى فى نفوس لم تعز بعد وهيهات أن يدركها العزاء .

ونحن ننشر هذا المقال راجين للفقيد العظيم رحمة واسعة ولأسرته ووطنه العراق وأمته العربية صبرا جميلا .]

لما شعر علماء العربية الأولون بدبيب اللحن فى اللغة المضرية المعربة ، بسبب اختلاط بنيها بحمراء الأمم وصفرائها ، فزعوا إلى جمعها وتدوينها وضبط مشكلها وإيضاح مبهمها ، وسلكوا إلى ذلك طريقين :

الأول — يبتدئ باللفظ و ينتهى بالمعنى .

الثانى — يبتدئ بالمعنى و ينتهى باللفظ .

مثال الأول قولهم : القطار عدد من الابل مقطورة على نسق واحد . والقطر (بكسر القاف) النحاس، والقطر (بضم القاف) الجهة والناحية ، والقطر (بفتح القاف) المطر . ومثال الثانى قولهم : ولد الناقة يسمى الحوار ، وولد الفرس يسمى الفلو . وثمر النخلة عندما يصفر أو يحمر يسمى البسر ، فاذا نضج فهو الرطب ، فاذا تم جفافه فهو التمر . . . الخ .

والطريق الأول يسهل على القارئ فهم ما يمر أمام نظره وعلى سمعه من الألفاظ المبهمة ؛ فان من قرأ أو سمع كلاماً مشتملا على ألفاظ استبهم عليه معناها رجع إلى معجم مؤلف على هذه الطريقة .

والطريق الثانى يسهل على الكاتب وغيره معرفة الألفاظ الدالة على الأشياء التى تقع تحت نظره والمعانى التى تمر بذهنه ولا يحضره اللفظ الدال عليها . فاذا رأى الانسان شيئاً أو تصور معنى ولم يعرف اللفظ الدال عليهما فانه يرجع إلى الكتب المؤلفة على هذه الطريقة . ومن ثم نجد أكثر الناس انتفاعاً بهذه الكتب أولئك الذين يعنون بالترجمة إلى العربية والتأليف فى العلوم العصرية ؛ لأنهم يجدون أمامهم من المعانى ما تحتاج إلى قوالب من الألفاظ لا تحضرهم، فيرجعون إلى هذه الكتب ليهتدوا بها إلى بغيتهم . وقد رأينا أن نسمى الطريق الأول « بالطريق اللفظى » لأن البدء فيه يكون بجانب اللفظ ومنه ينتقل إلى جهة المعنى ، والطريق الثانى « بالطريق المعنوى » لأن البدء فيه يكون بجانب المعنى ومنه ينتقل إلى جهة اللفظ .

ولكل من الطريقين فروع ليس هذا موضع الافاضة فى استقصائها . وكل ما نريد أن نذكره هنا أن الطريق المعنوى هو الطريق الذى مشى عليه رجال الصدر الأول من نقلة اللغة ، فألفوا فى ضروب من المعانى مثل خلق الانسان وخلق الفرس والأنواء والنبات والنخل والكرم إلى غير ذلك من الأنواع . أما التأليف على الطريقة اللفظية فقد كان متأخراً فى الزمان عن التأليف فى الطريقة المعنوية . ويعتبر الخليل ابن أحمد الفراهيدى بن بجدة هذا الطريق حين وضع كتاب «العين» أو وضع خطوطه الأساسية على بعض الأقوال ؛ فقد وجه همه إلى ضبط اللغة وإحصاء كلها والتمييز بين المهمل والمستعمل من الألفاظ ، وتبعه أبو بكر بن دريد فى جمهرته ، ولكنه لم يتقيد بما تقيد به الخليل من الشروط الدقيقة والقيود الوثيقة معتذراً بقصور همم أهل زمانه وضعف عزائمهم وعدم صبرهم على المجاهدة والمجالدة . وقد حذا حذو هذين الامامين إمام ثالث هو أبو غالب تمام بن غالب المعروف بابن التيانى القرطبى المتوفى سنة ٤٣٣ هـ فانه وضع كتاباً أتى فيه على ما فى كتاب العين من صحيح اللغة و زاد عليه ما زاده ابن دريد فى الجمهرة وسماه « فتح العين » . وآخر من سلك هذا المسلك فى التأليف — على ما نظن — أبو الحسن على بن إسماعيل المعروف بابن سيده المتوفى سنة ٤٥٨ هـ فانه ألف كتابه « المحكم والمحيط الأعظم » . ومن أصحاب الطريق اللفظى من سلك فى تأليفه مسلكا آخر غير مسلك الخليل ومن تبعه ، فرتب الألفاظ معتبراً أواخر حروفها الأصلية أبواباً وأوائلها فصولا ، ومن أشهر سالكى

هذا المذهب الجوهرى فى كتابه «صحاح اللغة»، وتبعه مجد الدين الشيرازى فى قاموسه، وتبعهما خلق كثير. ومن أصحاب الطريق اللفظى من تنكب هذين المسلكين وسلك مسلكا ثالثاً هو أوضح معالم من سابقيه، فبوب معجمه على ترتيب حروف الهجاء، واعتبر أصول أوائل الكلم أبواباً وما يليها من الحروف الأصلية ثم ما يثلثهما فصولا، فتجد كلمة «أسد» مثلا قبل كلمة «أسر»، وهذه قبل كلمة «أسف»، وهذه كلها قبل كلمة «أشر». وأول من سلك هذا المسلك فى الترتيب — على ما أظن — أبو الحسين أحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٠ هـ فى كتابه «المجمل فى اللغة»، وتبعه الزمخشرى فى كتابه «أساس البلاغة»، وجاء بعده تلميذه ناصر بن عبد السيد المطرزى المتوفى سنة ٦١٠ هـ فألف كتابه «المغرب فى لغة الفقهيات»، وسلك فى ترتيبه مسلك شيخه فى أساس البلاغة. وممن سلك هذا المسلك أحمد بن محمد المقرى الفيومى المتوفى سنة ٧٧٠ هـ فى كتابه «المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير». وكذلك سلك هذا المسلك من مؤلفى المعاجم الخاصة أبو السعادات ابن الأثير فى كتابه «النهاية فى غريب الحديث والأثر». وكذلك فعل الراغب الأصفهانى فى مفرداته. وأتباع هذا المسلك كثيرون فى المعاجم العامة والخاصة، منهم المؤلفون من المعاصرين. والمؤلفون على هذا النمط يعتبرون من الكلمة حروفها الأصلية، فيضعون كلمة اتصل — مثلا — فى باب الواو لأنها من مادة (و ص ل) ومثلها اتأد واتسع واتكأ واتسق واتهم واتكل لأنها من (و أ د) و (و س ع) و (و ك أ) و (و س ق) و (و هـ م) و (و ك ل). ويضعون كلمة تترى — مثلا — فى هذا الباب لأن مادتها (و ت ر). وفى هذا ما فيه من العسر على الذين لا علم لهم بمبادئ اللغة وأصول تصريفها.

ولهذا رأى بعضهم أن توضع المعاجم على أسلوب تكون العبرة فيه بحروف الكلمة كلها سواء فى ذلك الأصلية والزائدة، فتوضع كلمة (تترى) مثلا فى باب التاء والتاء وما يثلثهما، وكلمة (اتقى) فى باب الهمزة والتاء وما يثلثهما، وهكذا كما فعل واضعو معاجم البلدان؛ فانك إذا راجعت معجم ياقوت فى كلمة (أسورة) مثلا تجدها فى باب الهمزة والسين وما يليهما، وإذا طلبت هذه الكلمة فى الصحاح وجدتها فى فصل السين من باب الراء، وإذا طلبتها فى المصباح وجدتها فى باب السين والواو وما يثلثهما. قالوا: وفى هذا عنت ليس بالهين.

وقد سلك واضعو معاجم الأسماء والطبقات مسلك واضعى معاجم البلدان ؛ فانك تجد فيها اسم (المعلى) مثلا فى باب الميم والعين وما يليهما ، ولو طلبت هذه اللفظة فى القاموس لوجدتها فى فصل العين من باب الواو والياء، وإذا طلبتها فى المصباح وجدتها فى باب العين واللام وما يثلثهما . قالوا : فلماذا لا يسلك اللغويون فى معاجمهم هذا المسلك على ما فيه من تسهيل المراجعة ولا سيما على أولئك الذين يتعسر عليهم تمييز أصول الكلمات من زوائدها ؟

ونحن نرى أن هذا الرأى على ما فيه من ظاهر جذاب ، غير سديد ؛ لأننا لو سلكنا فى وضع معاجم اللغة هذا المسلك لجاءت ضخمة جداً كثيرة التكرار مضطربة الترتيب والتبويب ؛ وذلك لما فى لغتنا العزيزة من الوفرة فى المشتقات والتنوع فى المصادر والجموع ؛ فاذا أردنا أن نأخذ مثالا على ذلك ما اشتق من مادة (خرج) وما يتصل بها كان علينا أن نثبت كل واحدة من الكلمات الآتية فى موضع يختلف عن موضع أخواتها :(خرج ، يخرج ، خرجاً ، مخرجاً ، مخارج ، خارج ، خراج ، خوارج ، أخرج ، إخراج ، استخرج ، يستخرج ، استخراج ، المستخرج ، أخاريج . . . الخ) . وكل كلمة تذكر فى موضع تحتاج إلى تفسير قائم بنفسه، وفى هذا ما فيه من التطويل الذى لا طائل تحته ؛ وكذلك القول فى المصادر، فرب فعل له أكثر من مصدر واحد، مثل (كتب، ومصادره كتباً وكتاباً وكتابة وكتبة) فاذا أخذنا بهذا الترتيب المقترح وجب علينا أن نفرق هذه المصادر فى مواضع شتى مع أنها فى الترتيب التقليدى تجمع فى موضع واحد . وكذلك القول فى الجموع ، فرب كلمة لها عدة جموع مثل (كاتب فانك تجمعه على كتبة وكتاب وكاتبين) ، فاذا نحن مشينا على الترتيب المقترح وجب علينا أن نفرق بين هذه الجموع فى مواضع مختلفة مع أن جمعها فى موضع واحد ألصق بحاجة المراجعين من تفريقها على مواضع شتى وتفسيرها فى كل موضع . ولنضرب للقارئ مثلا واضحاً فى هذا الباب ؛ فانك إذا راجعت كلمة (أكة) مثلا فى المصباح المنير وجدتها فى فصل الهمزة والكاف وما يثلثهما على هذا الوجه : « الأكمة تل وقيل شرفة كالرابية ، وهو ما اجتمع من الحجارة فى مكان واحد ، وربما غلظ ، وربما لم يغلظ ، والجمع أكم وأكمات مثل قصبة وقصب وقصبات ، وجمع الأكم إكام مثل جبل وجبال ، وجمع الإكام أكم بضمتين مثل : كتاب وكتب ، وجمع الأكم آكام مثل عنق

وأعناق . . . » هذه هى طريقة المعاجم التقليدية ، واذا أردنا أن ننهج منهج المعجم المقترح وجب علينا أن نفرق هذه الجموع الخمسة فى خمسة مواضع ، وأن نذكر فى كل موضع شرحاً على نمط الشرح الذى جاء فى عبارة المصباح فى كلمة (أكة) ، فنقول مثلا فى كلمة (آكام) : «إنها جمع أكم التى هى جمع الاكام التى هى جمع الأكم التى هى جمع الأكة وهى تل وقيل شرفة كالرابية وهو ما اجتمع من الحجارة فى مكان واحد ، وربما غلظ وربما لم يغلظ » . وهكذا يلزمنا فى كل جمع أن نرجع به إلى مفرده ثم نشرح معنى ذلك المفرد ، وفى هذا ما فيه من إسراف فى الجهد يمكن الاستغناء عنه بالطريقة المألوفة المبنية على الاقتصاد فى كل شئ . أما القول بأن الكثيرين من الذين يحتاجون إلى مراجعة المعاجم لايهتدون إلى أصل الكلمة فهو من المغالاة بمكان ؛ لأن الذى لا يميز بين الأصول والزيادات ولو على سبيل الاجمال لا يحتاج إلى مراجعة المعاجم ، فالمعاجم إنما توضع لأولئك الذين يملكون حظاً ولو قليلا من التفريق بين الأصول والزوائد ؛ أما الكلمات التى يتعسر على جمهرة المتعلمين معرفة أصولها فلا مانع أن تذكر فى موضع يسهل على المراجع العثور عليها ثم يشار إلى موضعها الأصلى ، فتوضع كلمة (تترى) مثلا فى موضع تأتى فيه التاء والتاء وما يثلثهما ثم يشار إلى مراجعتها فى مادة (وتر) ، وكذلك يفعل فى كلمة (اتصل) من الوصل و (اتعد) من الوعد وهكذا .

والذى نراه أن العربية محتاجة إلى معاجم تؤلف على الطريقة اللفظية على أنماط ثلاثة : مبسوط ووسيط وموجز : الأول للمتبحرين من العلماء ، والثانى لأوساط المتعلمين ، والثالث للمبتدئين منهم . وكذلك هى فى حاجة إلى معاجم على الطريقة المعنوية مبسوطة ومتوسطة وموجزة ، ليستعين بها الناقلون عن اللغات الأجنبية والمؤلفون فى العلوم والفنون العصرية . وينبغى أن تبسط العبارة فى كل هذه المعاجم بسطاً يوضح المقصود من كل كلمة ، وأن يستعان على الايضاح بالصور ، فاذا أريد إيضاح أعضاء الانسان فى المعاجم المعنوية مثلا يصور الانسان ويشار إلى العضو إشارة تجعله مفهوماً جليا ، وكذلك إذا أريد بيان خلق الفرس أو خلق الجمل مثلا ؛ وهكذا يستعان بتصوير الأشجار والأزهار والبقول وغيرها تصويراً من شأنه أن يعين المراجع إعانة تامة على فهم ما يريد فهماً لا غموض فيه ولا غبار عليه .

ولا شك أن هذه الطريقة تستلزم جهوداً متضافرة من جماعات متآزرة . وأجدر من يعهد إليه بذلك هى المجامع اللغوية التى أنشئت وستنشأ فى الممالك العربية ؛ وقد بلغنا أن المجمع اللغوى فى الكنانة مضطلع ببعض هذه المهمة . كان التوفيق حليفه .

طه الراوى

اهتماماتى ودراساتى العلمية

لما تركت مصر إلى فرنسا فى سنة ١٩٠٧ كان « التطور » من مركباتى الذهنية البارزة ، بل المركب الأول . حتى إنى حين هبطت باريس جمعت طائفة من الكتب التى تعالج هذا الموضوع ، ولكنى لم أستطع فهمها وقتئذ ؛ لأنى أسأت الاختيار فلم أقتن الكتب الابتدائية أو بالأحرى لم أجدها . فلما قصدت إلى لندن وجدت العشرات من هذه الكتب الابتدائية . وكانت جمعية « الثعلبين » تنشرها وتبيعها بأثمان التراب بسعر ٢٥ مليما لكل كتاب . فأكببت عليها فى دراسة مثابرة ، مع استخراج الخلاصات وكتابة التعليقات . وقرأت كتاب داروين « أصل الأنواع » . وليس فى هذا الكتاب شىء يشق على الفهم . ولكنه يحتاج إلى التأمل الكثير . وداروين بعيد كل البعد عن التعبير المسرحى ؛ إذ هو متواضع معتدل يكتب فى حذر كأنه يخشى أن يؤمن القارئ بكل ما يقول . وهو الضد لنيتشه فى الأسلوب ؛ فان نيتشه نارى سماوى ، أما داروين فأرضى طينى . وأسلوب نيتشه عاطفى ذاتى حتى حين يهتدى إلى الحقائق الموضوعية . أما داروين فيكتب عن وجدان وتعقل ؛ حتى لتحس أنه ينفض عن نفسه عاطفته وذاتيته كما ينفض أحدنا الغبار عن شخصه .

وليس شك أن حبى لداروين وتحيزى لنظرية التطور ، منذ نشأتى الثقافية ، قد تركا أثرهما فى أسلوبى الكتابى . فقد قيل إن الأسلوب يدل على الجانب الأخلاقى للمؤلف بل يكشف عنه : أى يدل على الاتجاه التفكيرى وإيثار بعض القيم على بعض . وأنا أوثر أسلوب داروين : أسلوب المنطق الصارم والحذر والاعتدال على أى أسلوب آخر يوصف بأنه « أدبى » . وكثيراً ما وصفنى الكتّاب فى مصر بأنى لست « أديباً » ؛ لأنهم لايجدون عندى تلك الزخارف والتزاويق المألوفة فى غيرى من الكتاب . ومع ذلك فانى لا أنكر سحر الأسلوب العاطفى . ولكنى إذا كنت ألتذ السحر أحياناً وأستمتع بما فيه من مهارة

فانى أوثر عليه أسلوب التعقل والوجدان . وأذكر أنى حين قرأت « من الأعماق» تأليف أوسكار وايلد أعجبت بسحره . حتى إنى عندما بلغت الصفحة الأخيرة عدت فوراً إلى الصفحة الأولى أقرؤه ثانية كأنى أستعيد لحناً جميلا وأنغاماً رائعة . ولكنه لم يترك فى رأسى مركبات ذهنية كتلك التى تركها « أصل الأنواع » لداروين . فقد غيرنى داروين . أما أوسكار وايلد وجون روسكين وكارليل من الكتاب الذاتيين فقد نسيتهم ؛ لأنهم جميعاً بعيدون عن الحقائق الموضوعية . وحين أقرؤهم الآن أشعر أنهم يخطبون أو يصرخون أو يتفصحون . فأجد اللذة العابرة فى أسلوبهم ولكنى أحس أنهم ليسوا مفكرين أساسيين . والمفكر الأساسى عندى هو داروين الذى يتحدث فى اعتدال وحذر . وأسلوبه هو الأسلوب الرصين . وأقرب الناس إليه فى هذا الأسلوب هو برنارد شو . وقد سبق أن قلت إن المقاييس للكاتب أن نعرف مقدار ما تركه لنا من المركبات الذهنية ؛ لأنه على قدر هذه المركبات يكون تفكيره محوريًّا أو بذريًّا ، أى إننا لا نأخذ منه المعرفة الجامدة فقط ، بل نأخذ المعرفة النامية التى تنمو وتتشعع فى الخلايا الرمادية من المخ فتتركنا ونحن نفكر ونشتبك فى اشتباكات جديدة لاتفتأ تنبهنا إلى توسع وتعمق فايناع . ومنذ ١٩٠٨ حين قرأت «أصل الأنواع» وأنا فى هذا التوسع والتعمق . فقد درست البيولوجية والجيولوجية بل سيكلوجية فرويد بحافز من داروين . كما أن داروين كان السبيل إلى التعرف إلى هربرت سبنسر . وكان داروين يصفه بأنه « فيلسوف التطور » . والحق أن سبنسر هو المسئول عن تعميم هذه النظرية ونقلها إلى المجتمع ، ولا عبرة بأنه ارتكب أخطاء كثيرة فى التفاصيل . فان الأخطاء أحياناً قد تكون منيرة مثل الاصابات ؛ لأنها تفتح كوة على ناحية لم تكن مفتوحة من قبل . فاذا كان الناظر إليها قد أخطأ الرؤية ، فان فضله لا يزال عظيما لأنه فتح الكوة . وهذا هو ما أراه فى كثير من المفكرين مثل فرويد وسبنسر بل داروين نفسه . فقد نبهنا فرويد فى خطئه عن «مركب أوديب» ، كما نبهنا سبنسر فى خطئه عن وراثة الصفات المكتسبة ، وكذلك نبهنا داروين فى خطئه عن تنازع البقاء . وكل هذه الأخطاء كانت كوات جعلتنا نفكر ونبحث ؛ لأنها فتحت لنا آفاقا جديدة . وقد انتقلنا بها من الميدان البيولوجى إلى ميادين الاجتماع والدين والاقتصاد .

ومن الكتاب البذريين الأساسيين الذين تأثرت بهم ، ومازالت المركبات

الذهنية التى خلفوها فى خلاياى المخية قائمة بل نامية ، كارل ماركس . فقد وصلت إليه عن استغراض ضده من كتّاب « الانفرادية » الذين يقولون بالمباراة الاقتصادية مثل هربرت سبنسر ، وخرجت منه على احترام له واحتقار لهربرت سبنسر . ولكن هذا الاحتقار ، فى هذه النقطة المعينة ، لم ينقص من إكبارى للقوة التفكيرية عند سبنسر . والحق أنها قوة عظيمة جدا ؛ فان نظرته شاملة وهو فيلسوف أكثر مما هو عالم ، ولكنه فيلسوف بعيد عن الغيبيات . وقد احترف هذا الرجل التفكير احترافاً . حتى ليسأم الانسان حين يقرؤه ويكاد يسائل : لماذا هذا الجد ؟ لماذا يجهد ويعرق ؟ ألا يفكر فى إجازة يستريح فيها ؟

والحق أنه لم يفكر فى إجازة . وقد أصيب لهذا السبب بانهيار عقلى تألم منه نحو سنتين . وحتى بعد ذلك كان أحياناً يطلب من ضيوفه ألا يتكلموا بل أن يبقوا فى ضيافته أو رفقته صامتين . . .

وفى هذه السنين كدنا ننسى هربرت سبنسر . ولكن كارل ماركس يزداد بمرور السنين قوة بل حياة ؛ فان نظرياته تحيا فى كل مكان فى العالم . والأزمة العالمية الحاضرة هى أزمة الصراع المنتظر ، أو الوفاق المحتمل ، بين الماركسيين دعاة الانتاج التعاونى وبين الديمقراطيين دعاة المباراة الاقتصادية . ولذلك لا يمكن أحداً أن يصف نفسه بأنه مثقف إذا كان يجهل الماركسية ولو كان يكرهها .

وقيمة الماركسية فى فهم السياسة العالمية والتطورات الاجتماعية والأخلاقية الحاضرة كبيرة جدا . ولكن لها قيمة أخرى فى فهم التطورات التاريخية . والمتعمق فى دراسة ماركس لا يتمالك من الشعور بأنه هو ، لا فرويد ، الأساس الصحيح للفهم السيكلوجى . فان ماركس أثبت أن العواطف الاجتماعية ،أى التى نكتسبها من المجتمع ،أكبر قيمة وأبعث على التغير والتطور وأثبت فى كياننا مما نسميه العواطف الطبيعية . ولذلك لا يقتصر فضل ماركس على أنه جعل الاقتصاد علماً ، لأن الحقيقة أنه جعل كذلك الأخلاق والاجتماع والسيكلوجية علوماً . ولا يستطيع أحد أن يفهم هذه الثلاثة على حقيقتها الفهم الموضوعى إلا إذا كان ماركسياً .

داروين وماركس ، كلاهما قد غرس فى رأسى مركبات ذهنية ، وجعلنى أنظر إلى الدنيا و إلى الأحياء فى استعراض علمى وتحليل اقتصادى وسيكلوجى . وعندما

أستبطن إحساسى الدينى أجد أن بؤرة هذا الاحساس هو « التطور » وهذا الاحساس الدينى هو فهم وممارسة . فانى أفهم أننا وجميع الأحياء أسرة واحدة بما فى ذلك النبات ، و أن الخلية الأولى التى نبض بها طين السواحل قبل نحو ألف مليون سنة هى عنصرنا الأول ، وأننا مازلنا ننبض ونتغير فى تجارب لاتنقطع ، وأن سُنتنا هى لذلك سنة التغير ، وجريمتنا هى لذلك جريمة الجمود . ولكن إلى جنب هذا الفهم الدينى يجب أن «نمارس» ممارسة دينية باحترام الحياة أيًّا كانت والتعرف إلى أشكالها وحمايتها من الأميين المستهترين بالطبيعة . هذه الطبيعة التى تكتسب فى ذهنى قداسة كلما فكرت فى غابات أفريقيا أو الهند وما تحوى من تحف الحياة ، أو كلما فكرت فى غياهب المحيط الهادى أو الأطلنطى أو المحيطين القطبيين وما بهما من أحياء يحاول التجاريون ، فى غير شرف، أن يبيدوها بالالحاح عليها فى الصيد .

وكذلك لا أقرأ الجريدة اليومية ولا أسمع عن خبر سياسى أو مشروع لقانون جديد إلا وأنظر إليه بالاستغراض الماركسى من حيث دلالته على النوازع المختفية التى دفعت إليه ، فى حين أن الذى يجهل الماركسية يتطوح ويتخبط فى تقديرات « شخصية » للممثلين السياسيين أو الحربيين . مع أن هؤلاء ليسوا سوى أدوات تأخذ مكانها فى دورة الآلة الكبرى ، فى حركة المجتمع الاقتصادى . ولذلك أيضاً أصبحت فكرة « البطل » فى التاريخ من الفكرات التى كانت تتقهقر فى وجدانى كلما تقدمت فى التحليل الاقتصادى . ولكن يجب أن أعترف أنها مع تقهقرها لم تنمح ، و أنه لا يزال للشخصية قيمتها فى تفكيرى .

وفرق عظيم ، بل عظيم جدا ، بين شخص قد قرأ ماركس ودرس التفسير الاقتصادى للتاريخ ، وبين آخر يجهله . لأن الأول يجد فى أخبار الجريدة اليومية من المعنى والمغزى ما لا يجده الثانى الذى يحسب أن الحوادث التافهة والخطيرة ، والاتجاهات السياسية، والتطور والثورة ، والحرب والسلام ،كلها أشياء تجرى جزافاً .

ويأتى فرويد ، بعد داروين وماركس ، فى إيجاد المركبات الذهنية التى عملت فى توسعى وتعمقى . وعندى أن « مركب أوديب » الذى يعد محور السيكلوجية الفرويدية هو خطأ . ولكنه خطأ مثير ، لأنه نبهنا ، كأنه دسيسة علمية تحركنا إلى البحث والتنقيب فى كهوف النفس المظلمة ، إلى قيمة السنين الأولى أيام الطفولة فى تكوين الشخصية . وقد وصفت أفكار فرويد بحق بأنها

« سيكلوجية الأعماق » ، وهى كذلك و إن كنا نختلف كثيراً عما نجد فى هذه الأعماق . ولولا فرويد لما كان هذا الجيش الذى يتألف من آلاف العلميين الذين يبحثون النفس البشرية فى جميع الأقطار المتمدنة . وقد جمعت بين فرويد وماركس وخرجت منهما بأزكى الثمرات . بل فطنت إلى أن ماركس هو السيكلوجى الأساسى ؛ لأنه يجعل وجدان الفرد ثمرة المجتمع .

وفى حياتنا العصرية لا يستطيع أحد أن يهمل التفكير العلمى ؛ لأن الحضارة الصناعية السائدة هى حضارة العلم . وقد دأبتُ فى دراسة العلوم التى تدور حول التطور أو الاقتصاد أو السيكلوجية أكثر من ثلاثين أو أربعين سنة ، ولذلك أستطيع أن أتناول كتاباً عن الهورمونات ، أى مفرزات الغدد الصماء ، أو كتاباً عن الايكولوجية ، أى علاقة الحى بالبيئة ، أو كتاباً عن مشكلات الوراثة ، أو كتاباً عن جنون الشيزوفرنيا ، فاقرؤها جميعاً فى رغبة وفهم ولا أجد ذلك الصدود الذى يجده غيرى ممن لم يعنوا بالعلوم .

وكل هذه العلوم هى دراستى المستقلة ؛ لأن ما حضرته من محاضرات فى لندن لا يؤبه به . ومما آسف عليه أحياناً أنى لم أجد المرشد حوال ١٩٠٧ الذى كان يستطيع أن يعين لى منهجاً دراسيا فى العلوم . ولكنى ، بعد التفكير ، أسائل : هل كان يكون أفضل لى لو أنى كنت انغمست فى دراسة علمية تجريبية معينة ؟ ألم تكن مثل هذه الدراسة مانعة بطبيعتها الاخصائية من ألوان أخرى من الثقافة الموسوعية التى أتمتع بها الآن؟ إنى لا أكاد أعرف إخصائيًّا فى علم ما ، نجح فى أن يكون موسوعيًّا ينطلق فى سهولة ويسر إلى رياض الفلسفة والأدب والاجتماع ؛ مع أن كل هذه الميادين ، فضلا عن العلوم ، قد ألفتها وجلت ، بل نقبت ، فيها وفكرت فى تناسقها ، وسرت فيها بروح المتعلم الذى يربى نفسه فى بعد عن الاغترار والزهو . فاذا اعتبرت القيم ، قيم الحياة لا قيم التخصص الثقافى ، فانى أجد أنى نجحت فى تربية نفسى أكثر مما لو كنت قد تخصصت ؛ لأن المتخصص فى الجيولوجية أو البيولوجية أو الايكولوجية قلما يفكر فى دراسة أفلاطون أو قراءة الجاحظ أو دراسة الحضارة الفرعونية . ولكنى أنا بالاتجاه الموسوعى الذى اتجهته قد درست هذه العلوم ، فى غير تخصص ، ولكن مع الاستطلاع الدائم لغيرها من الثقافة ، حتى أنى أقدّر ، مثلا ، عدد المؤلفات التى قرأتها عن حضارة الفراعنة بما لا يقل عن أربعين أو خمسين كتاباً . ولم أترك كلمة مطبوعة للجاحظ لم أقرأها .

ولذلك أستطيع أن أؤلف كتاباً عن جيته أو الاصلاح الزراعى فى مصر أو المسألة الهندية بأيسر عناء .

ولذلك يرى القارئ أنى درست ، لا للثقافة ، بل للحياة . وقد حملتنى دراستى العلمية على أن ألتفت كثيراً إلى المراحل البعيدة التى قطعتها العلوم المادية، كالطب والهندسة والكيمياء والميكانيات والطبيعيات ، مع تأخر العلوم الاجتماعية، التى حال دون التفكير الحر فيها وتغيير قواعدها ، تقاليد وشعائر وسنن وقوانين تعمل كلها لتجميد تطورنا الاجتماعى . فالاجتماع ، باعتباره علماً ، يعيش على مستوى التفكير فى ١٦٠٠ أو ١٧٠٠ ميلادية ، بل هو فى أقطار آسيا وأفريقيا يعيش على مستوى سنة ١٠٠٠ للميلاد ، فى حين أن الكيمياء أو الطب يسبقانه بنحو ٣٠٠ أو ٤٠٠ سنة ، ولذلك نحن لا نعيش المعيشة العلمية فى بيوتنا ولا يسود حكوماتنا النظام العلمى . ولو أنه كانت هناك تقاليد وشعائر وسنن وقوانين للكيمياء مثلا ، كما للمجتمع ، لبقى هذا العلم على مستواه حين كان كل همّ الكيماوى أن يحيل الرصاص إلى ذهب . كما أننا لو استطعنا التخلص من تقاليدنا ومن الاستغراضات التى تخدم بعض الهيئات والطبقات لكان فى مقدورنا أن نرتفع بالاجتماع إلى مستوى العلوم التجريبية المادية .

ولهذا أيضاً نجد أن الطالب الذى يدرس الطب نقول له فى صراحة إن الذباب ينقل عدوى الرمد أو الدوسنطاريا ،أو إن لحم البقر الذى أصيب بالدرن تنتقل عدواه إلى آكله من البشر . ولكننا لا نقول لهؤلاء التلاميذ أو الطلبة إن الأجور المنخفضة التى يحصل عليها العمال فى مصر تفشى بينهم الدرن والعمى والموت ؛ لأننا نخشى هنا الاستغراضات الامتيازية والاحتكارية الاقتصادية .

ذات يوم فى ١٩١٨ كنت قاعداً فى الريف إلى قناة صغيرة فى ظل شجرة وإلى جنبى فلاح قد بلغ الثمانين ، وكنت أتأمل يرقات الضفادع وهى تسبح . فسألت الشيخ عنها فاتضح لى أنه لا يعرف أنها ضفادع صغيرة . ثم تشعب الحديث إلى النبات فقال : «إن لكل نبتة من هذه لأعشاب التى تنمو على شطوط القنوات ملكا يحرسها .» ولما نهضت أخذت أفكر فى هذه الرواسب الثقافية التى انحدرت إلينا عن الفراعنة والكلدانيين والبابليين، وجعلتنا نعيش فى غيبيات تحملنا على النظر المخطئ لحقائق هذا العالم وتباعد بيننا وبين النظر العلمى

الموضوعي . وقلت فى نفسى : هذا الرجل غيبيّ يؤمن بأن العالم حافل بالأرواح التى تحرس الناس والحيوان والنبات . إذن هو من خصوم داروين .

ولكن هذا الفلاح المسن يمثل فى سذاجته المركزة جهل الرجل العادى والمرأة العادية . وكلاهما يعيش بذهنه على رواسب قديمة من العقائد . حتى إن فكرة « القرينة » عند الفراعنة ، لا تزال حية فى أيامنا . أجل ! لقد ذكرت الآن؛ فقد كنت طفلا لم أتجاوز السابعة أو السادسة، وكنت قد غضبت وصرخت ورفست وأنا على العشاء . فقالت لى أمى تخيفنى : « دلوقت أختك تزعل منك وتضربك » .

وكانت تعنى بأختى هذه « قرينة » الفراعنة ، وقصدت إلى الفراش ونمت بلا عشاء . وإذا بى أحلم أن فتاة قد حضرت وهى تحمل سوطاً ترفعه فى الهواء كى تتحفز لضربى ، فصرخت فى النوم ، وأقبلت إلى أمى فى فزع فأيقظتنى وحضنتنى وجاءتنى بكوب من الماء شربت منه جرعة . ثم أخبرتها عن الحلم ، فأخذت تقبلنى وهى تبكى : «حقك على يا ابنى . أنا كنت بضحك . مفيش أخت . مفيش أخت .»

ولكن مجتمعنا لا يزال فى أسر هذه القرينة أو ما يشابهها من العقائد التى تتخذ أحياناً أسلوب البحث العلمى . كما نرى مثلا فى أولئك الذين يزعمون أنهم يستجلبون الأرواح فتنقر على المائدة وتتحدث عن العالم الثانى . .. . وهذه العقائد تعيش كأنها كابوس للمجتمع تعمل على تجميده وتخويفه حتى لا يتطور . ودعاة الروح هؤلاء لا يختلفون عن تلك الأم الساذجة التى تقول عندما يعثر طفلها : « وقعت على أختك أحسن منك » تمدح الأخت وتسترضيها حتى لا تصيب طفلها بأذى . . .

وهذه القرينة أو هذه الأخت التى أفزعتنى فى نومى ، وهذه الملائكة التى تحرس النباتات عند ذلك الفلاح المسن ، هى ضباب العقل الذى يقشعه العلم . وقد انقشع أو كاد فى أمريكا وأوربا . ولكنه لا يزال يخيم علينا ؛لأن الثقافة العلمية لا تزال بعيدة عنا لم نتنفس هواءها الصافى .

وهذه الثقافة العلمية هى ما أفتأ أرجو أن أجعلها أسلوبى فى الحياة الشخصية والاجتماعية . ولكن لم أخطئ قط ذلك الخطأ المألوف بأن أجعل العلم غاية إذ هو وسيلة فقط . أما الغاية فيعينها الأدب والفن والفلسفة، أى إن غاية العلم هى الدين ، أى كيف نعيش فى مجتمعنا أصلح العيش وأروحه وأقصده وأشرفه .

وقد وضعت كتابى « نظرية التطور وأصل الانسان » ولى مأرب هو مكافحة الغيبيات الشائعة . ونشرته كله مقالات فى البلاغ قبل طبعه كتاباً ،كى أصل إلى أكبر عدد من القراء . ومن الذكريات السعيدة أنى وقفت ذات يوم إلى دكان صغير لا تزيد مساحته على ثلاثة أمتار أشترى لابنى بعض الحلوى ، فعرفنى البائع وأخبرنى أنه قرأ كتابى هذا وفهمه .

ولو أنى وجدت التشجيع لأرصدت حياتى لاخراج كتب شعبية مثل « نظرية التطور » و « العقل الباطن » ونحوهما . وكثيراً ما كنت أتحسر حين كنت أرى مؤلفات العقليين فى لندن . فان كتاب « أصل الأنواع » الذى زلزل به داروين الثقافة الأوربية يباع بأقل من خمسة وعشرين مليما .

وحوالى ١٩٣٠ وجدت أنا والأستاذ فؤاد صروف الفرصة سانحة لايجاد حركة علمية شعبية فى مصر . فعقدنا العزم على تأليف « المجمع المصرى للثقافة العلمية » . وكانت الغاية منه أن يضم جميع المهتمين بالثقافة العلمية ونشرها بين الجمهور . ونجحنا فى المشروع نجاحاً لم نكن ننتظره ، مما دل على أن المجمع أدى حاجة عضوية فسيولوجية فى مجتمعنا . وعقدنا الاجتماع السنوى الأول له وألقيت فيه محاضرة سيكلوجية عن طبيعة التفكير فى ضوء الأحلام فى قاعة الجمعية الجغرافية . ولكنى فى ذلك الوقت كنت أمارس نشاطاً سياسيا مركزاً فى مكافحة إسماعيل صدقى باشا حين ألغى الدستور واستبدل به غيره ،واتفق مع المستعمرين والمستبدين على إعادة الحكم التركى الشركسى الذى حاول عرابى أن يحطمه . وأدى نشاطى هذا فى السياسة إلى طردى من المجمع .

وكان من حظنا السيئ أننا اخترنا معظم الأعضاء من الموظفين . ولذلك حين اختير حسين سرى (باشا) رئيساً لاجتماعه الثانى أرسل إلىّ خطاباً يفصلنى من المجمع « مع الشكر » . وكان وقتئذ وكيلا لاحدى الوزارات ، فوافق جميع الأعضاء « الموظفين » ولم يشذ غير واحد ، غير موظف ، هو الأستاذ اسماعيل مظهر . وجاء فى عقب طردى الصديق زكى أبو شادى يعتذر إلى بأنه لم يجرؤ على مخالفة « وكيل وزارة » ،ولذلك أعطى صوته ضدى ووافق على طردى ، على أنه يعرف أنه ليس من حق المجمع أن يفصلنى لنشاطى السياسى . واتجه المجمع بعد ذلك وجهة إخصائية غير شعبية ، ولذلك لم ينتفع به الجمهور كثيراً .

وعندما أقارن بين الثقافة العلمية والثقافة الأدبية أجد أن القيمة العظمى

للأولى أنها تحريرية ؛ لأن التفكير العلمي يسير على نهج ارتقائى : هذا سيئ فيجب أن نبحث عن الحسن ، وهذا أحسن ولكن يجب أن ننشد أحسن منه بالاكتشاف والاختراع ، والتفكير الارتقائى هو بطبيعته تفكير علمي . وهو لم ينشأ فى أوربا إلا بعد أن اتجه الأوربيون وجهة علمية فى القرن السابع عشر . أما قبل ذلك فلم يكن هناك من يقول بأن الشعوب يجب أن ترتقى وتتغير ، وقد يردّ هنا على بأنه كان هناك طوبويون يتخيلون حالا سعيدة للبشر غير حالهم الحاضرة . ولكن الفكرة الارتقائية لم تنبت قط فى هذه التربة الطوبوية . وإنما نبتت من البذور العلمية .

والثقافة الأدبية ، إذا لم تجد الحافز من العلوم ، تركد . وقد كان هذا شأنها فى العصور الماضية . وسط زراعى راكد يعيش فى ثقافة أدبية راكدة محافظة . أما الآن فالعالم المتمدن يعيش فى وسط صناعى متحرك ، يعيش فى ثقافة علمية متحركة متغيرة .

ومن هنا قيمة التوجيه العلمي فى الثقافة العربية الحاضرة . بل يجب أن يرتفع هذا التوجيه إلى مقام الدعاية .

سلامه موسى

مسألة الهند وقضية الباكستان

سبق أن تناولنا مسألة الهند على صفحات هذه المجلة (1) ، وشرحنا بالتفصيل مراحلها المتعاقبة بصفة عامة ، والآن نعرض إلى ناحية خاصة من نواحيها برزت فى العهد الأخير بروزاً يلفت النظر ، وتكاد لدقتها وتعدد نواحيها أن تغدو قضية مستقلة بذاتها .

تلك هى مسألة الباكستان ، أو مسألة الدولة الاسلامية الهندية المنفصلة التى اتخذتها الكتلة الاسلامية بالهند شعاراً لها ، وجعلتها قبلة أمانيها السياسية .

ولقد سمعنا من السيد محمد على جنة زعيم الرابطة الاسلامية ، وهى الهيئة السياسية التى ينضوى تحت لوائها مسلمو الهند ، عند مروره أخيراً بمصر أقوالا تدلى بما وصلت إليه المسألة الهندية من الدقة ، وبما يعلقه المسلمون الهنود من أهمية بالغة على تحقيق أمانيهم فى مسألة الباكستان .

إن مسألة الباكستان أحدث عناصر المسألة الهندية ، ولم تظهر فى ميدان الصراع بين المسلمين والهندوس بصفة جدية قبل عشرة أعوام ، وكان الداعى إلى ظهورها أسبابا وعوامل سياسية واجتماعية حملت كثيراً من المسلمين المستنيرين على الاعتقاد بأن مستقبل المسلمين فى الهند الجديدة المستقلة وفى ظل الأكثرية الهندوسية الساحقة لن يكون مأموناً أو زاهراً إذا لم يكن للمسلمين أنفسهم ضمانات سياسية وطائفية خاصة تحميهم من طغيان الهندوس .

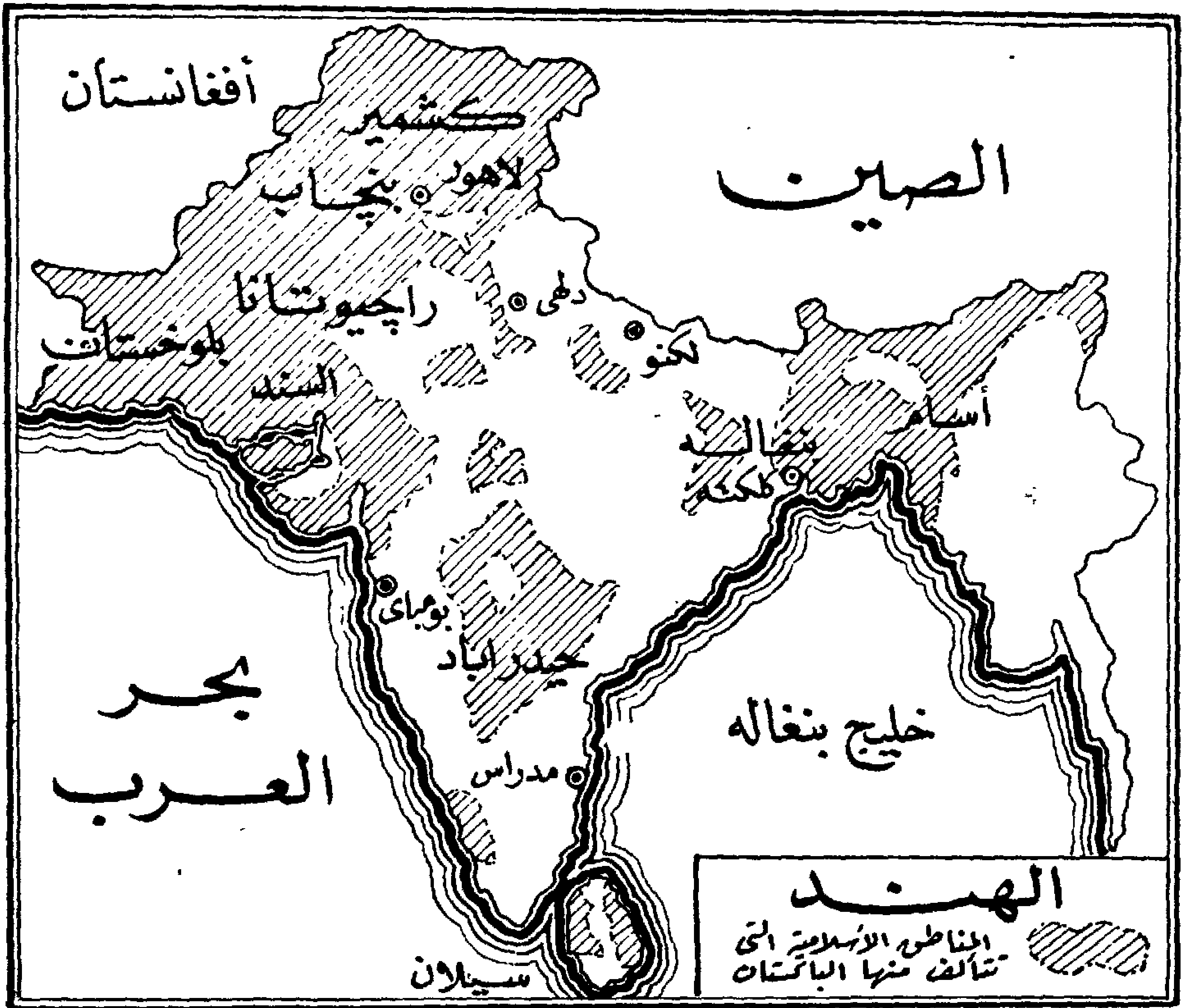
ولقد سارت المسألة الهندية وسار الكفاح القومى الهندى منذ بدايته فى أواخر الحرب العالمية الأولى على أسس قومية مشتركة وتضامن تام بين الهندوس والمسلمين . وكان السيد جنة زعيم المسلمين الذى يحمل اليوم لواء الباكستان ، فى طليعة المجاهدين يومئذ فى سبيل تحقيق الوئام الدائم بين الطائفتين

---

(1) الكاتب المصرى عدد ١٢ (سبتمبر ١٩٤٦) .

الكبيرتين . وكان ميثاق لكنو الذى عقد بين الفريقين فى سنة ١٩١٦ عنوان هذا الكفاح القومى المشترك ، وهو الذى اتخذته السياسة البريطانية أساساً لوضع الاصلاحات الدستورية التى عرفت باسم قانون مونتاجو وشلمسفورد وصدرت فى سنة ١٩١٩ كخطوة أولى فى معالجة المسألة الدستورية الهندية .

ولكن الحوادث أثبتت فيما بعد أن الأكثرية الهندوسية لا ترى فى الكتلة الاسلامية سوى طائفة من طوائف الأقليات ، وأنها تجرى فى سياستها وتصرفاتها على هذا الاعتبار ، وأن فكرة التضامن القومى التى آمن بها المسلمون حيناً لم تكن



إلا سراباً خادعاً تروج له الأكثرية تمكيناً لسلطانها الذى يدعمه تفوقها العددى الساحق . ذلك أن الهندوس يبلغون زهاء ٢٢٠ مليوناً ، ولا يبلغ المسلمون سوى ثمانين أو تسعين مليوناً .

وقد ظهرت نيات الهندوس بوضوح فى مؤتمر الطاولة المستديرة الذى عقد فى لندن سنة ١٩٣٠ لبحث المسألة الهندية ؛ فقد تمسك الزعماء الهندوس وعلى رأسهم

غاندى بالقاعدة القومية فى حل المسألة الهندية ، وأبوا الموافقة على منح المسلمين أية ضمانات خاصة ، و بذلك أخفق المؤتمر . ولما صدر قانون الهند الجديد فى سنة ١٩٣٥ وأقيمت بمقتضاه حكومات برلمانية محلية فى الولايات الهندية ، عانى المسلمون فى ظل حكومات الأكثرية الهندوسية أشد ضروب الاضطهاد والظلم ، واتخذت هذه الحكومات الهندوسية ضدهم خطة سافرة من الاضطهاد المنظم فى سائر المرافق الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، وأرغموا فى أكثر من ولاية على مراعاة بعض الطقوس الهندوسية ، وتعالت أصوات المسلمين بالشكوى من هذا الاضطهاد ، ولبث زعيمهم السيد جنة يجاهد لدى نائب الملك ولدى الحكومة البريطانية لرفع هذه المحنة ، حتى قرر نائب الملك بما له من السلطة بمقتضى دستور سنة ١٩٣٥ إلغاء هذه الحكومات الاقليمية ، وذلك فى ديسمبر سنة ١٩٣٩ وكان هذا ظفراً عظيما للمسلمين وللرابطة الاسلامية ، واعتبر يوم الالغاء عيد إنقاذ قومى يتقدم فيه المسلمون بالشكر إلى يومنا .

فى مهاد هذه الظروف والعوامل نشأت فكرة الدولة الاسلامية الهندية المستقلة . وترجع بواعثها كما رأيت إلى الخلاف الجوهرى بين المسلمين والهندوس على المبدأ الأساسى الذى يجب أن يكون عليه دستور الهند المستقلة . فالأكثرية الهندوسية تتمسك بما تسميه المبدأ القومى العام واندماج الأكثرية والأقلية فى أمة واحدة يحكمها دستور واحد ، و يطبق فيها مبدأ الانتخاب العام . وأما الكتلة الاسلامية فتتمسك بالعكس بمبدأ الضمانات الخاصة ، وهى بتعدادها البالغ ثمانين أو تسعين مليوناً لا تعتبر نفسها أقلية بل وحدة قومية وسياسية قائمة بذاتها ، ولكنها إزاء تفوق الهندوس الساحق من الناحية العددية تعارض فى مبدأ الاندماج القومى ؛ لأنه يعنى فى نظرها الوقوع تحت نير الهندوس .

هذا من الناحية السياسية . ولكن الكتلة الاسلامية الهندية ترجع أمانيها فى قيام الدولة الاسلامية المنفصلة أيضاً إلى بواعث تاريخية وأدبية ؛ فقد حكم المسلمون الهند قروناً وأنشأوا لهم بها حضارة زاهرة لها مميزاتها الخاصة ، والكتلة الاسلامية وريثة هذا التراث التاريخى تنظر بعين الجزع إلى احتمال وقوعها تحت حكم الأغلبية الهندوسية . هذا إلى أن الكتلة الاسلامية لها دينها الخاص ولغتها الخاصة ومميزاتها العنصرية والأخلاقية الخاصة ، فكيف يمكن بعد ذلك أن

تسمح هذه الكتلة لنفسها بالانزلاق إلى بحر الهندوس الخضم فيطغى عليها و يطمى سائر مقوماتها ومميزاتها !

والمسلمون الهنود لا يريدون أن يتحرروا من السيطرة البريطانية ليسقطوا بين براثن السيطرة الهندوسية ، ولكنهم يريدون استقلالهم القومى الخاص أسوة بالهندوس أنفسهم .

وقد أخذت أمانى الكتلة الاسلامية تتبلور منذ ظهورها من الناحية الجغرافية ، تبعاً لمواقع الولايات الهندية التى تسكنها أكثريات مسلمة . ومنذ سنة ١٩٣٣ أخذ أحد الزعماء المسلمين وهو السيد رحمت على المحامى ينادى بوجوب استقلال الولايات الهندية التى تضم أكثريات مسلمة فى كتلة جغرافية وسياسية موحدة . ولما كان معظم هذه الولايات يقع فى الشمال الغربى للهند فقد اصطلح على أن تسمى هذه الكتلة من الناحية الجغرافية « باكستان » وهو الاسم الذى أطلقه عليها صاحب الدعوة . ومعنى« باكستان » بلاد « الباك » . وكلمة باك بالأوردية معناها تقى أو طاهر ، وهى ترمز إلى كل ما هو مقدس ونبيل فى حياة المسلم .

وتمثل الأحرف التى يتكون منها هذا الاسم بداية أسماء الولايات الهندية الشمالية الغربية على النحو الآتى :

ب) ترمز إلى ولاية بنجاب
ا) يراد بها « أفغان » ممن يقطنون الشمال الغربى
ك) ترمز إلى ولاية كشمير ، وهى إحدى الولايات المستقلة
س) ترمز إلى ولاية سند
تان) ترمز إلى بلوخستان، والأحرف هنا فى نهاية الكلمة

وتتلخص دعوة الباكستان فى كلمة واحدة هى قيام الدولة الاسلامية المنفصلة . ومع أنها تتركز من الناحية الجغرافية فى الولايات الشمالية الغربية إلا أنها ترمى أيضاً إلى إدماج جميع المناطق الأخرى التى بها أكثريات إسلامية مثل بنغالة والولايات الوسطى فى هذه الدولة الاسلامية المنفصلة .

ولا ترجع فكرة الباكستان إلى أساس طائفى فقط بل تذهب إلى آفاق أوسع مدى . و يرى فيها الهنود المسلمون اليوم مسألة قومية أكثر منها

طائفية ، وأن قضية الهند الكبرى لا يمكن أن تحل حلا نهائيا إلا على هذا الأساس ، أعنى تسليم بريطانيا والهندوس بأن تستقل الكتلة الاسلامية كأمة موحدة فى هذا النطاق الجغرافى ، وأن يكون للدولة الاسلامية المستقلة (باكستان) نفس حقوق الدولة الهندوسية (هندوستان) ونفس الحقوق التى تتمتع بها الدول المستقلة الأخرى .

وتعتبر حركة الباكستان أول فورة للوعى القومى الاسلامى فى الهند منذ سقوط الدولة الاسلامية المغلوبة . وقد أثرت الدعوة فى عقول الشباب المستنير أعظم تأثير ، وذاعت بين جماهير المسلمين ذيوعاً عظيما ، حتى أصبحت شعار الأكثرية العظمى من المسلمين . وقد أعلنت الرابطة الاسلامية فى مؤتمر لاهور فى سنة ١٩٤٠ عزمها الذى لا يتزعزع على التمسك بميثاق الباكستان .

ويسود بين الكتلة الاسلامية الهندية اليوم شعور عميق بأنها تكون أمة مستقلة بذاتها وبخواصها ، وأن لتراثها السياسى والاجتماعى أهمية لا يمكن الاغضاء عنها ، وأن موقفها وأمانيها أضحت تكوّن عنصراً حاسماً فى أية تسوية توضع لحل القضية الهندية .

تلك هى وجهة نظر الكتلة الاسلامية الهندية فى شأن قضيتها القومية ، وتلك هى البواعث والاعتبارات التى يرجع إليها تمسكها بقيام الدولة المسلمة المستقلة .

وقد أشكل على الكثيرين فهم موقف مسلمى الهند ، ورأى البعض فى اعتراضهم على قيام الدولة الهندية المتحدة وتمسكهم بقيام الدولة المنفصلة خروجاً على الاتحاد القومى وإهداراً للمبادئ الوطنية وممالأة للاستعمار البريطانى . ولكن هؤلاء لم يفهموا المسألة على حقيقتها ، ولعلهم بعد استعراض هذه البواعث والاعتبارات القومية التى يسوقها المسلمون تبريراً لموقفهم يصححون هذا التصوير الخاطئ لفهم قضية الباكستان .

وقد اهتم الزعماء الهندوس بأمر هذه الحركة الاسلامية القومية ، وأخذوا يتوجسون شرا من عواقبها ؛ لأنها تحول دون بغيتهم فى سيطرة الأكثرية الهندوسية على مصاير الهند الجديدة ، وهم يحاولون كسب السياسة البريطانية إلى جانبهم ، وإقناعهم بأن هذه الحركة أو أية حركة مماثلة أخرى إنما هى خطر على مصير الهند المتحدة ومصالح بريطانيا ، كما أنها خطر على مصير الأقليات الهندوسية فى الولايات الاسلامية .

وقد كسب الهندوس فيما يبدو الجولة الأولى فى هذه المعركة العنصرية السياسية ، وتقدمت الحكومة البريطانية إلى الهند بمشروع التسوية الجديد فى مايو الماضى خلواً من كل ضمانة خاصة للأقليات . وخلاصته أن تؤلف فى الحال حكومة هندية مؤقتة يتولى سائر مناصبها الهنود ، وتقوم بوضع دستور الهند الجديد جمعية تأسيسية تمثل فيها الطوائف الكبرى كل منها حسب نسبتها العددية ، وأن يقوم الدستور الجديد على أساس اتحاد قومى يشمل الهند البريطانية والولايات المستقلة مع اختصاص مشترك فى شؤون الدفاع والمواصلات والسياسة الخارجية ، وأن يقوم مجلس تشريعى مشترك ، وأن تحتفظ الولايات بالاشراف على الشؤون المحلية الأخرى ، وأن تؤلف حكوماتها المحلية الخاصة على أساس القواعد الدستورية .

وهكذا استبعد مشروع الباكستان من التسوية الجديدة ، وأهملت مطالب المسلمين الانفصالية . وكان من جراء ذلك أن عارضت الرابطة الاسلامية هذه التسوية بكل قواها ورفضت أن تشترك فى تنفيذها ، وقامت الوزارة الهندية الجديدة دون اشتراك الرابطة الاسلامية فيها ، وقامت الجمعية التأسيسية أيضاً دون أن يشترك فيها نواب الرابطة الاسلامية . ويبلغ عدد أعضاء هذه الجمعية ٣٨٩ وفقاً للنسبة العددية لمختلف الطوائف ، منهم ٨٠ نائباً مسلماً . وقد افتتحت فى اليوم التاسع من ديسمبر الماضى ، ولم يشترك فى أعمالها سوى ٢٢٢ نائباً منهم ٢٠٥ من نواب حزب المؤتمر الهندوسى وستة نواب مسلمين من المشايعين لحزب المؤتمر . وعلى ذلك فلا يمكن أن يقال إن هذه الجمعية التأسيسية تمثل الهند تمثيلا صحيحاً ، وهى لا تمثل بوضعها الحاضر سوى الأكثرية الهندوسية .

وقد حاولت الحكومة البريطانية قبيل افتتاح الجمعية التأسيسية بأيام قلائل أن تبذل مجهوداً أخيراً للتوفيق بين المسلمين والهندوس ، فدعت البانديت جواهر لال نهرو زعيم حزب المؤتمر ورئيس الوزارة الهندية الجديدة والسيد محمد على جنة زعيم الرابطة الاسلامية إلى لندن ، وجرت بينهما وبين مستر أتلى رئيس الحكومة البريطانية محادثات لم تسفر عن أية نتيجة . وعرض البانديت نهرو على الجمعية التأسيسية يوم افتتاحها مشروعاً لاعلان الهند جمهورية اتحادية ذات سيادة ، وأن يشمل دستورها المستقبل كل أراضيها ، وأن يقوم على مبادىء ديمقراطية محضة ؛ فوافقت الجمعية على اقتراحه . وفى الوقت الذى يصرح فيه البانديت نهرو وزملاؤه

الزعماء الهندوس بأنهم لن يوافقوا مطلقاً على تحقيق مشروع الباكستان أو الدولة الاسلامية المنفصلة ، يصرح السيد جنة زعيم الرابطة الاسلامية بأن مشروع الباكستان قد غدا بالنسبة لمسلمي الهند مسألة حياة أو موت ، وأن المسألة الهندية لا يمكن أن تحل على أسس عادلة دائمة إلا بتحقيق هذا المشروع .

وما زال كل من الفريقين عند موقفه . على أنه يبدو أن حزب المؤتمر و إن كان قد ظفر في الجولة الأولى باستبعاد مشروع الباكستان من دستور الهند الجديد ، يقع الآن من الناحية العملية في مأزق حرج ، ولا يستطيع المضي في مهمته مطمئنا . فقد رأت الجمعية التأسيسية من جانبها وكل أعضائها الحاليين من ممثلي حزب المؤتمر ، أن ترجىء البحث في دستور الهند المستقبل إلى موعد آخر ، ليتسنى لنواب الرابطة الاسلامية والولايات المستقلة أن يشتركوا مع الجمعية في وضعه إذا شاءوا ، ومن جهة أخرى فان بعض الزعماء المعتدلين من الهندوس يشيرون إلى حل وسط يمكن الأخذ به ، وهو أن تفصل بعض الولايات الهندية المسلمة في وحدة سياسية مستقلة على أن يكون ذلك بموافقة الجمعية التأسيسية ، لا بموافقة الحكومة البريطانية ، وذلك تمشياً مع نظرية المؤتمر في وجوب الأخذ بالمبدأ القومي العام .

ولسنا نعرف ماذا يكون موقف الرابطة الاسلامية من هذا الحل الجزئي . ولكن الذي لا ريب فيه هو أن أي حل للمسألة الهندية لا يحقق فيه أماني الكتلة الاسلامية بصورة مرضية لا يمكن أن يقوم على أسس مستقرة . ومن العسير أن تغفل السياسة المستنيرة إرادة تسعين مليوناً من البشر .

محمد عبد الله عنان

جولدتسيهر أبو الدراسات الاسلامية[1]

بمناسبة مرور خمس وعشرين سنة على وفاته

فى الثالث عشر من نوفمبر الماضى تمت خمس وعشرون سنة على وفاة أجناتس جولدتسيهر المستشرق العالمى الفريد الذى عد فى آخر حياته أبا الدراسات الاسلامية المصرية . فقد قضى ج . مخلفاً تراثاً علميًّا ضخما يبلغ زهاء ٦٠٠ كتاب ومبحث[2] فى الدين الاسلامى وفلسفته ، وتصوفه وشيعته ، وتاريخ مذاهبه وفرقه ، وفى أدب العرب ولغتهم وفى مواضيع أخرى . وإنى لأشهد أنى فى كل ما قرأت لج . من البحوث العلمية لم أقع على صفحة واحدة تخلو من شئ جديد لم يسبقه إليه أحد ، ولا سيما الشواهد التى جمعها من مصادر ومظان شتى بين قديمة وحديثة . أجل ! إن كمية إنتاج ج. العلمى لجديرة بالاعجاب والتقدير . غير أن ما يخلد ذكره و يرفع مكانته بين باحثى الشرق ومحبيه ليست كمية إنتاجه العلمى بل ابتكاره طرقاً جديدة فى درس التمدن الاسلامى وتطوره . قال العلامة المستشرق ك . ه . بيكر فى رثائه لج . — وكان بيكر حينئذ وزير المعارف فى بروسية ، و رثاؤه من أحسن ما كتب عن ج.[3] — « مهما تكن التطورات والتعديلات التى تطرأ على بحث الاسلام فى المستقبل فما لا شك فيه أن هذا البحث سيقوم دائماً على الأسس والمناهج التى وضعها ج. »

---

(١) كتب هذا المقال باللغة العربية للمستشرق المعروف الأستاذ . س . د . غويطاين خاصة لمجلة «الكاتب المصرى» .

(٢) أحصى برنرد هيلر فى كتابه « مؤلفات أجناتس جولدتسيهر » باريس ١٩٢٧ ، ٥٩٢ مؤلفاً ومبحثاً . غير أن هيلر سها عن بعض البحوث ومنها المقالات التى وضعها ج. بالعبرية ، وسيأتى ذكرها فيما يلى .

(٣) رجع الأستاذ عبد الرحمن بدوى إلى ذلك الرثاء فى الفصل الذى كتبه عن ج. فى كتابه «التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية» الطبعة الثانية سنة ١٩٤٦ ، ص ٣٠٨—٣١٩ .

ولد ج. فى سنة ١٨٥٠ فى إحدى مدن المجر. غير أن أصل أسرته سفارادى أى من الأندلس. وقد هاجرت هذه الأسرة — كـكثيرات غيرها — من جنوب أوربا إلى هولندا، ومنها انتقلت فى القرن السابع عشر إلى همبورج فى ألمانيا. وفى النهاية استقر فرع منها — وهو الفرع الذى ينتسب إليه ج. — فى بلاد المجر التى كانت فى ذلك الحين جزءاً من الامبراطورية النمساوية. فلا عجب إذن أن يتقن ج. اللغتين المجرية والألمانية من صغره. ثم درس العبرية وهو طفل على معلم خصوصى أقام فى دار والديه. وقد لبث ج. يذكر هذا المعلم شاكراً مطنباً طوال حياته ويردد: إن كنت قد فزت بشئ من الأخلاق الحميدة فانما يرجع ذلك إلى اثنين: إلى مطالعتى الدائمة فى كتاب الهداية إلى فرائض القلوب (وهو كتاب فلسفى أخلاقى وضعه الحاخام بحاى بالعربية) وإلى معلمى موسى الذى كان مثالا للورع والتواضع مع أنه كان يضربنى كلما غلطت أيسر غلطة فى تلاوة التوراة. وطبقاً للمعتاد فى ذلك الوقت درس ج. اللغتين اللاتينية واليونانية وأجادهما. وقد أعانه إتقانه هاتين اللغتين كثيراً على بحثه فلسفة القرون الوسطى وسائر علومها؛ فقد تجد مراجع كلاسيكية وافرة واردة فى معظم كتبه يضاف إلى ذلك أنه كتب بحوثا خاصة لقضية تأثير الفكر اليونانى فى العالم الاسلامى، مثل مقاله الممتاز عن العناصر الأفلاطونية الحديثة والأجنوسطية فى الحديث أو بحثه عن موقف الاسلام القديم من العلوم اليونانية[1].

كان ج. ناضج العقل وهو صغير؛ فقد طبع أول كتاب له ولما يعدُ الثانية عشرة من عمره. ما رأيت هذا المؤلف ولكن من التلخيص الفرنسى الذى وضعه له البروفسير برنهرد هيلر فى كتابه «مؤلفات جولدتسيهر» يتبين أن طريقته كانت علمية محضة. وموضوعه تطور الصلاة فى الدين الموسوى وإلغاء الزيادات المتأخرة التى أضيفت إليها على مرور الزمن. نشر ج. وهو شاب يدرس فى إحدى المدارس الثانوية قطعاً مترجمة عن اللغة التركية إلى المجرية. وكذلك نقل — وهو طالب فى الجامعة — قطعاً عن اللغة الفارسية إلى العبرية. ومما يلفت النظر مقالة نشرها وهو ابن تسع عشرة سنة فى جريدة عبرية أسبوعية كانت تصدر فى باريس قابل فيها بين طريقة البيضاوى فى تفسير القرآن وطرق

---

(١) ترجم هذين المقالين إلى العربية الاستاذ عبد الرحمن بدوى فى كتاب التراث اليونانى السابق الذكر.

الشرح للتوراة فى التلمود . وأضاف إلى ذلك قوله : إن بحث هذه الطرق وعلاقات بعضها ببعض أمر مفيد جداً . ولا شك أن من يتناول هذا البحث الواسع العميق يستحق الشكر . ونحن نعرف اليوم من كان الرجل الذى تناول هذا البحث الواسع العميق . وبعد مرور أكثر من خمسين عاماً على نشر تلك المقالة أصدر جولدتسيهر فى سنة ١٩٢٠ كتابه العبقرى « اتجاهات تفسير القرآن عند المسلمين» الذى أنجز فيه وعداً قطعه على نفسه وهو شاب فى العقد الثانى من عمره.

درس ج. المشرقيات فى بودابست عاصمة المجر على فامبيرى ، وهو مستشرق يهودى الأصل اشتهر بسياحاته الجريئة فى تركستان وغيرها من بلاد آسيا الوسطى ، وبتآليفه الكثيرة عن اللهجات التركية والحياة الاجتماعية والسياسية فى بلاد الشرق . وقد أخذ ج . عن هذا الأستاذ علاقته الحية المباشرة بالشرق الحاضر . ومع أنه ما كان أحد يضاهى ج. فى كثرة المطالعة للكتب والمخطوطات القديمة ، فانه لم يزل يتتبع تطور الشرق المعاصر إلى يومه الأخير . وكثيراً ما كان يفسر ظاهرات مبهمة مذكورة فى المصادر القديمة على ضوء الحياة الشعبية العصرية فى الشرق . غير أن ج . خلافاً لأستاذه فامبيرى ما كان يتدخل فى الأمور السياسية مطلقاً ، وكان يرفض رفضاً باتًّا كل محاولة ، مهما كان مصدرها ، ترمى إلى استغلال مكانته ونفوذه لأغراض سياسية .

وفى سنة ١٨٧٠ فاز ج. بالدكتوراه وهو فى العشرين من عمره من جامعة ليبتسيك باطروحة لغوية . وفى السنين التالية لها نشر عدة كتب ومقالات عن درس اللغة عند العرب وغيرهم . ولكن اللغة كانت عند ج. وسيلة لا غاية . وما كانت عنايته الجوهرية الرئيسية إلا بالأفكار وتطورها من جهة ، والحياة — الحياة الدينية والحياة الشعبية — من جهة أخرى . وما مرت أربع سنوات على نشر أطروحته حتى وضع كتابين بشرا بأنه سيكون مؤرخ الاسلام المستقبل : كتاباً بالمجرية فى العروبة والشعوبية ، وآخر بالألمانية فى مؤلفات مذهب الشيعة والجدل بين المذهبين الشيعى والسنى . وفى ذلك الحين سنحت له الفرصة بالسفر إلى الشرق ، فزار سوريا وفلسطين ومصر ، وتوثقت عرى الصداقة بينه وبين بعض علماء دمشق وبعض شيوخ الأزهر . وقد استمرت تلك الصداقة إلى آخر أيامه . غير أنه شكا فى كتاب أرسله إلى صديق له أثناء الحرب العالمية الأولى أن أكثر أصدقائه الخصوصيين فى الشرق قد توفوا ولم يبق منهم على قيد الحياة إلا القليل .

وبعد رجوعه من هذا السفر الخصب عالج ج . موضوعاً شاقا واسع الأطراف أبعده كل البعد عن بحوثه الاسلامية ، وهو كتاب دافع فيه دفاعاً حماسيًّا عن الشعوب السامية ، ورد على أرنست رينان الذى زعم فى كتابه المشهور « تاريخ اللغات السامية » أنه ليست للساميين ميثولوجيا — أى أساطير — لأنهم عديمو الخيال الفنى . و بيّن ج. فى كتابه ضخم اسمه « الميتوس — أى الأساطير — عند العبريين » أن الميثولوجيا درجة من درجات التطور الانسانى لا بد أن تجتازها كل أمة فى حين من الأحيان . واستشهد على ذلك بكثير من قصص الكتاب المقدس وغيره من المصادر السامية مثبتاً أن الساميين كغيرهم من الأمم كانوا أصحاب أفكار خيالية ميثولوجية قبل أن تنشأ فيهم الدعوة الدينية . وقد صادف هذا الكتاب إقبالا حسناً فى وقته ، وترجم على الفور إلى اللغة الانكليزية . واليوم بعد كشف الآثار البابلية الأكادية ، ولا سيما بعد حل رموز ألواح رأس الثمرة فى شمالى سوريا ، نقدر أن نقول إن رأى ج. كان أقرب إلى الصواب من زعم رينان . غير أن ج . لم يلازم بعد ذلك هذا النوع من البحوث طويلا بل رجع إلى الدراسات الاسلامية والعربية التى قصر عليها جهوده طيلة عمره . ونظراً للعلاقات الوثيقة بين الدينين الاسلامى والموسوى واللغتين العربية والعبرية كان من طبيعة الأمور أن يجعل هذا العالم الاسرائيلى الكبير نصيباً من عنايته لبحث هذه العلاقات . نذكر سلسلة مؤلفة من أربع وثلاثين مقالة عنوانها بحوث يهودية عربية نشرت فى مجلة الدراسات اليهودية الفرنسية أثناء عشر سنوات (١٩٠١ — ١٩١٠) أو مقالته « فكرة يوم السبت فى الاسلام » أو بحوثه الكثيرة عن تأثير الأدب العربى فى الشعر العبرى والفلسفة اليهودية فى القرون الوسطى . ولكن ج . إنما كان عزمه شديداً أن يتخصص فى دراسة الاسلام والأدب العربى فقط . وفى كتاب بعث به ج . إلى صديق له شجعه على تناول مواضيع يهودية كتب ج. متفكها : إنى خلقت تحت نجم هاجر — أم إسماعيل — وكتب علىّ أن أستنفد جهدى فى أدب حفدتها العرب ودينهم .

وقبل أن نعرض لنتيجة هذا الجهد الكبير الفريد يجدر بنا أن نصف بايجاز ظروف حياة ج . الخارجية منذ رجوعه من سفره إلى بلاد الشرق الأدنى فى سنة ١٨٧٤ إلى حين وفاته فى سنة ١٩٢١ . سبق لج .أن أحرز إجازة التدريس فى جامعة بودابست منذ عامه الثانى والعشرين . غير أن نفوذ الدوائر الدينية

كان حينئذ قويا جداً فى تلك الجامعة ، ولم يكن يعين فيها حتى عالم بروتستنتى مدرساً رسميًّا إلا بعد الكثير من المتاعب ، فكيف بعالم يهودى ؟ لذلك اضطر ج . إلى أن يبحث له عن عمل خارج الجامعة ، فشغل منصب سكرتير الطائفة الاسرائيلية فى تلك المدينة الكبرى طوال ثلاثين عاماً . و بالرغم من عدم الفراغ والراحة أثناء أحسن أوقات حياته ، و بالرغم من عمله الادارى المرهق الذى يكرهه وضع ج. فى تلك السنين كتباً عديدة ومئات البحوث واشتهر فى العالم حتى صار ثقة فى الاسلام والآداب الاسلامية . وأخيراً فى سنة ١٩٠٤ عين مدرساً رسمياً فى جامعة بودابست ، وانتخب رئيساً للقسم الأدبى فى الأكاديمية المجرية ، ونال تشريفات أخرى منها لقب دكتور شرف من جامعتى كامبريدج الانكليزية وأبردين الأسكتلندية وعضوية شرف فى المجمع العلمى المصرى .

عانى ج . عناء شديداً حتى بلغ فى النهاية هذه الدرجة الرفيعة . غير أنه ما كان من المتذمرين . كان هذا الرجل صاحب توكل وصبر . وقد مهر رسائله بخاتم فيه الآية القرآنية الواردة فى سورة يوسف « فصبر جميل والله المستعان » و إنه لفى وسع كل عربى مثقف اليوم أن يقدر طرفاً من الخدمة التى أداها ج . لدراسات الاسلام بعد أن ترجم اثنان من مؤلفاته المهمة إلى اللغة العربية ، وهما : « اتجاهات تفسير القرآن عند المسلمين » وهو آخر كتاب له صدر فى حياته وكتاب « العقيدة والشريعة فى الاسلام » الذى سبقه بعشر سنوات ونشر سنة ١٩١٠ .

لقد قيل إن من المحتمل أن يكتب تاريخ الفكر الدينى الاسرائيلى بصورة وصف تطور التفسير للتوراة على مرور الأجيال ؛ لأن كل شئ فى اليهودية يبدأ من التوراة وكل شئ يرجع إليها . فأخذ ج . هذه الفكرة ونقلها إلى البحوث الاسلامية . وعلينا أن نذكر أن كتابه « اتجاهات تفسير القرآن عند المسلمين » كان آخر كتاب وضعه وهو النتيجة الناضجة لدراسات قام بها خلال خمسين سنة تقريباً . لم يدع ج . فرعاً من فروع العلوم الاسلامية إلا عالجه . أما فى آخر عمره فقد استرعى اهتمامه ذاك الأصل الذى بدأ منه كل شئ فى الاسلام و إليه يرجع كل شئ وهو القرآن وتفسيره . وأهمية التفسير : أن آراء كل جيل من أجيال الاسلام و بواعثه النفسية لا بد أن تبدو بأوضح طريقة فى شرح الكتاب الذى هو أساس الدين وحجته فى كل زمان .

ونرى ج . يقف أولا عند اختلاف القراء القدماء فى قراءات القرآن موقناً أن هذه الاختلافات فى كتابة القرآن وتشكيله ربما تعبر فى الواقع عن اختلاف الآراء والبواعث . ونراه يسهب فى الكلام عن تفسير الطبرى الكبير الذى يقع فى ٣٠ مجلداً ؛ لأن هذا الأصل النفيس يشف عن أفكار الاسلام القديم الأصلى . و يتبعه بشرح المعتزلة أهل العدل والتوحيد ، وتأويل الصوفيين الذى فيه شئ من طرق التأويل التى اخترعها فيلون الفيلسوف الاسكندرى ، كما يتحدث عن تفسير الشيعة على مختلف فروعها . و يختم الكتاب بفصل كبير عن النهضة الحديثة فى مصر وسائر البلاد العربية وتركية وفى بلاد الهند وتأثيرها فى التفسير العصرى للقرآن .

فى رسالة بعث بها ج . إلى صديق له فى آخر أيامه شكا إليه المتاعب التى عاناها فى وضع هذا الكتاب : « كم ليلة أحييت وكم سنة أبليت فى إعداد هذا المبحث الجاف » . بل لنسمع ما قاله عنه بيكر فى رثائه المشار إليه سابقاً : « كتب ضخمة عظيمة الحجم كدنا نحن نعرف أسماءها قرأتها أنت يا ج . من أولها إلى آخرها ، وحددت مكانتها من تطور الاسلام . لذلك حق لك شكرنا وشكر هذا الفرع من علوم الاسلام الذى ما كان معروفاً منه قبلك إلا القليل . »

لست أرى ضرورة إلى أن أسهب فى الكلام عن كتاب ج . الآخر الذى حظى بالتعريب ، أعنى كتاب « العقيدة والشريعة فى الاسلام » ؛ لأن هذا الكتاب من أمهات المصادر العلمية التى تجب تلاوتها على كل من يريد أن يتثقف فى شؤون الشرق . قسم ج. الكتاب ستة أقسام ، خصص أولها للقرآن وأوائل الاسلام ، وثانيها للفقه والمذاهب الأربعة الرئيسية وغيرها من المذاهب ، والقسم الثالث للالهيات والعقائد ، والرابع للزهد والتصوف ، والخامس للشيعة وللفرق الاسلامية الأخرى ، والسادس للحركات الدينية الحديثة عند المسلمين . وكان ج . قد وضع مثل هذا الكتاب باللغة المجرية فى سنة ١٨٨١ أى قبله بثلاثين عاماً ، فجاءت فيه فصول لم يكررها فى تأليفه المشهور . وأهم هذه الفصول فصل عن الآثار الفنية الاسلامية وعلاقاتها بالفكر الاسلامى ، وفيه فائدة طائلة . ترجم كتاب العقيدة والشريعة فى الاسلام إلى اللغة الانكليزية فى أميركا أثناء الحرب العالمية الأولى ، فطبعت هذه الترجمة ، وأحرقت كلها لأنها كانت زاخرة بالأغلاط . وترجم الكتاب إلى اللغة الفرنسية أيضاً . وما كانت هذه الترجمة فيما

أعرف تخلو من المآخذ كذلك . ولا أقدر أن أقول شيئاً عن الترجمتين الروسية والمجرية . أما الترجمة العبرية الأولى التي صدرت قبل عشرين عاماً فقد اضطررت أن أشهد أن الحرق كان أولى بها أيضاً (ستصدر فى هذه السنة ترجمة عبرية جديدة) . ولعل ج . شعر بأن حظ كتابه سوف يكون على هذا النحو ؛ لأنه لما بعث به إلى المطبعة كتب إلى بعض أصدقائه يقول : « يقشعر جلدى من متاعب تصليح المسودات (البروفات) ومن حماقة القراء فى المستقبل » . يدل ذلك كله على أن هذا الكتاب يحتاج إلى الدرس و إمعان الفكر مع أنه واضح العبارة جذاب الأسلوب .

وضع ج . هذين الكتابين فى أيام شيخوخته بناء على طلب تلقاه من جامعات ودوائر علمية شتى . فكتابه « العقيدة والشريعة فى الاسلام » عنوانه فى الأصل « محاضرات عن الاسلام » ؛ لأن الكتاب أعد ليكون سلسلة من المحاضرات تلقى فى أميركا . ومن جهة ثانية قبل دعوة جامعة ابسالا فى بلاد السويد حيث ألقى محاضرات أخرى أخرجها بعد ذلك بصورة كتاب « اتجاهات تفسير القرآن عند المسلمين » . فمن العجب أن ج. مع أنه خلف كما ذكرنا زهاء ٦٠٠ كتاب ومبحث ومع أنه كان أستاذاً موفقاً جداً ومحدثاً طلق اللسان — من العجب أنه لم يكن معنيا إلا بالبحث والاستكشاف والعثور على معلومات ما سبقه إليها أحد ، ولم يكن يعنيه كثيراً أن يلخص نتائج دراساته و ينشرها للجمهور . لذلك فمن أراد أن يعرف ج. حق المعرفة و يستفيد من جهده العلمى تمام الفائدة فعليه أن يكتفى بمطالعة كتابه التلخيصى الشامل عن الاسلام الذى وضعه وهو طاعن فى السن ، بل عليه أيضاً أن يرجع إلى مباحثه الاختصاصية العبقرية التى ابتكر فيها طرقاً جديدة فى دراسة الاسلام . لا تقدر أن نشير إلى هذه المباحث إلا فى غاية الايجاز . وفى الابتداء يجدر بنا أن نتكلم عن كتابه المشهور « مباحث إسلامية » الذى صدر فى مجلدين سنة ١٨٨٩ و ١٨٩٠ ، والذى عالج فيه ظواهر شتى فى الحياة الدينية والاجتماعية فى الاسلام ، منها «المروءة والدين» أى النضال العنيف بين روح الجاهلية العنصرية الأرستقراطية و روح الاسلام الداعية إلى المساواة الديمقراطية . وهو موضوع كان قد كتب عنه من قبل بالعبرية فى بحثه « العروبة والشعوبية » السالف الذكر . و إنما أردنا أن نلفت النظر إلى بحثه عن الحديث الوارد فى ذلك الكتاب لأنه مثال واضح لمنهجه المبتكر .

من المشهور أن مع الأحاديث الصحيحة الحقيقية تقلت أحاديث أخرى كثيرة شهد علماء الاسلام أنها ضعيفة أو موضوعة . فلنسمع رأى ج . فى هذا النوع من الأحاديث . صحيح أن هذه الأحاديث لا قيمة لها أو أن قيمتها ضئيلة لمعرفة عصر النبى وأصحابه . أما لمعرفة الآراء والبواعث النفسية التى كانت تسود فى العصور التى وضعت فيها تلك الأحاديث فهى أصدق مصدر وأفصحه . لأن المرء ما كان ليضع شيئاً و ينسبه إلى النبي وأصحابه إلا وهو معتقد اعتقاداً قويا أن هذا الشئ حق وفى مصلحة الاسلام . و بناء على هذه الطريقة وضع ج . تطور الاسلام فى قرونه الأولى وضعاً مفصلا كل التفصيل ، توجد خلاصة منه فى كتابه « العقيدة والشريعة فى الاسلام » .

وما عدا الحديث عالج ج. كثيراً الفقه والعقيدة . من المشهور أن تقسيم أهل الاسلام إلى المذاهب الأربعة الرئيسية إنما هو نتيجة تطور امتد قروناً عدة . فلإيضاح هذه القضية رأى ج. أن يبحث مذهباً ليس من المذاهب الأربعة الكبيرة ، وهو مذهب الظاهريين ، أى مذهب من كان يقول بظاهر الكتاب فقط ، وكان يرفض تأويل القرآن وما يستنتج منه . هذا الرأى الظاهرى له علاقة بالشريعة والعقيدة معًا . ولذلك كان كتاب ج . فى الظاهرية الذى صدر فى ١٨٨٤ بحثاً مركباً من دراستى الفقه والإلهيات . وأن هذا الكتاب أول بيان مسهب لماهية الفقه فى دين غير الدين المسيحى ؛ ولأجل ذلك أثر تأثيراً كبيراً و يعتبر إلى اليوم من أحسن ما كتبه ج. وجدير بالذكر أن علماء المسيحيين الذين كتبوا عن اليهودية و بالأخص جورج فوت مور فى مؤلفه المهم ***Judaism*** إنما كانوا يعتمدون على هذا الكتاب لإيضاح خصائص الدين الاسرائيلى . ومن بحوث ج. الأخرى فى الفقه والعقيدة كتابه (١٩٠٢) عن أبى تومرت المهدى مؤسس حركة الموحدين فى المغرب ، درس فيه خصائص الفقه المالكى وآراء المهدى الجديدة المتعلقة به ، وكتاب عن رد الغزالى على الباطنية وهى فرقة متطرفة من فرق الشيعة الاسماعيلية (١٩١٦) .

ولا بد من الاشارة إلى بحوث ج. فى التصوف . فى كتابه ***An Introduction to the History of Suffism*** وهو بحث عن تقدم الدراسات الصوفية فى أوربا حدد البروفسور اربرى مقام ج . فى هذا التقدم قائلا : إن ج. هو الذى أوضح بإسهاب الفرق العميق بين الزهد (يعنى حركة

العباد الزهاد السذج القدماء) و بين التصوف الفلسفى الفكرى الذى ر بما تأثر بالآراء الأفلاطونية الحديثة والبوذية الهندية . غير أننى أر يد أن أذكر من مباحث ج. بحثاً آخر لم يرد فى كتاب ار برى ، برهن فيه ج. على أن الحد بين التصوف القديم غير المركب والتصوف الأحدث الفلسفى ليس قطعيا ؛ إذ توجد حتى فى الحديث القديم آراء ليست بعيدة عن الأفكار الأفلاطونية الحديثة التى بدت بعد ذلك فى التصوف . وهذا المثال يدل على أن بحوث ج. بحر لا نهاية له يصعب أن يحيط به أحد . ولذلك لو قام عالم ونظم فهرساً لأهم الأعلام والمواضيع الواردة فى مباحث ج . لأدى خدمة جليلة للدراسات الاسلامية .

وهنالك ملاحظة عن شئ استغربه غير واحد ممن قرظ ج. حيا أو رثاه بعد وفاته . وهو أن ج. قد كتب كثيراً عن العلاقات بين الأديان ؛ فانه وضع مبحثين باللغة الألمانية عن تأثير المسيحية فى الحديث وغيره من أصول الدين الاسلامى ، ونشر مقالة بالفرنسية عن المجوسية والاسلام ، ومقالة بالمجرية مسهبة عن نفوذ البوذية الهندية . غير أن هذا العلامة الذى كان يشهد على نفسه أنه ما كان يمر به يوم إلا وهو يدرس قطعة من التلمود والذى جاء بمئات من المقابلات بين ظاهرات فى الاسلام واليهودية منبثة فى مباحثه ، لم يخص تأثير اليهودية فى الاسلام بمبحث على حدة . كان سبب ذلك فى رأيى رغبته فى الابتعاد حتى عن مجرد التهمة بالتعصب والإيثار . لأن ج. كان رجلا منصفاً و ربما كان يخشى أن يخل بالانصاف مبحث من هذا النوع .

ذكرت أن ج. زار مصر فى أيام شبابه ، وأن عرى الصداقة توثقت بينه و بين بعض علمائها . و بذلك تمت علاقاته بهذه البلاد . فلما أسست الجامعة المصرية فى سنة ١٩٠٨ حرص مؤسسها الكريم الأمير فؤاد — الذى تسلم عرش مصر بعد ذلك — على أن يجذب إليها أشهر المستشرقين ، فوجه إلى ج. رسائل يعرض عليه التدريس فيها ، ثم سار إلى بودابست حيث كان يقيم ج. ليفاوضه شخصيا وليحمله على قبول عرضه ، وقد جرى ذلك فى شهر أكتوبر سنة ١٩١١ .

و ج . يتحدث مراراً فى رسائل بعث بها إلى أصدقائه عن الشرف العظيم الذى أنالته إياه ز يارة الأمير المليك .

غير أن ج . الذى كان قد بلغ العقد السابع من عمره التمس من الأمير المليك أن يعفيه من هذا الشرف ، وأن يعهد بهذه المهمة الخطيرة إلى علماء أحدث منه

سناً ، ولا سيما أنه كانت لديه مواد علمية كثيرة جمعها خلال السنين الطويلة التى قضاها فى الخدمة الادارية ، وكان شديد الرغبة فى تنقيحها و إصدارها فى حياته . ومن أهم هذه المواد كتابه القيم « اتجاهات تفسير القرآن عند المسلمين » وكتب وبحوث أخرى سبق ذكر بعضها .

إن ج. لم يحظ بالعودة إلى مصر شخصيا ، بل تمكن من العودة إليها بصورة أفضل وأعظم دواماً ، إذ ترجم اثنان من أحسن مؤلفاته إلى اللغة العربية ، وقام بهذا المشروع خير من يصلح له وهم طائفة مختارة من علماء مصر والأزهر الشباب الذين أضافوا إلى ثقافتهم العربية الاسلامية العميقة ثقافة أوربية واسعة كذلك .

ويسرنى أن أورد نبذة مما استقبل به عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين صدور كتاب « العقيدة والشريعة فى الاسلام » باللغة العربية إذ يقول :

« وما من شك فى أن الذين يقرءون هذا الكتاب من المثقفين العرب لن يجدوا فى قراءته لذة ومتعة فحسب ولكنهم سيجنون من هذه القراءة ثمرات لا يستطيع كثير منهم أن يجنيها من قراءة كتبنا القديمة التى بعد العهد بينها و بين عقلنا الحديث . »

فانى لك أى ج. أن تسمع هذه الشهادة التى يشهد لك بها من هو أهل لتقدير خدماتك للاسلام والعرب . وهنيئاً لك أن يقال عن كتابك هذا الذى وضعته للمثقفين من أهل أوربا وأميركا والمتخصصين فى الدراسات الدينية بأنه يستطيع أن يكون كذلك وسيلة مجدية حتى للمثقفين العرب لفهم غابر دينهم وتاريخه . وأحسبك ما كنت تطمح أن تنال ثواباً أعظم من هذه الترجمة وهذا التقدير .

و يستطيع علماء مصر أن يجعلوا هذه الخدمة أعم إذا نهضوا لترجمة تلك الكتب التى نشرها ج. بلغات غير عالمية ولا سيا بالمجرية ، ومنها « مكان عرب أسبانيا فى تاريخ الاسلام ومقارنته بمكان عرب الشرق » و « تاريخ علم اللغة عند العرب » وفصل عن « الآثار الاسلامية وعلاقاتها بتطور الفكر الاسلامى » من كتاب بالمجرية عن الاسلام سبق ذكره . ومبحثه « فن كتابة التاريخ عند العرب » و « تأثير البوذية فى الاسلام » .

وفى الختام أحب أن أقرر بأن ج . كان يعتقد أن دراسة الأديان لا تهم المتخصصين فقط بل عامة المثقفين كذلك : لقد كان بحث الأديان ديناً له . وقد

تعرض ج. لهذا الموضوع فى كتابه « ماهية اليهودية وتاريخها » الذى صدر بالمجرية بعد وفاته وتوجد خلاصة عنه بالفرنسية فى كتاب « مؤلفات جولدتسيهر » السابق ذكره .

أجل ! لقد كان ج. المثل الأعلى للبحث المنزه الذى لا ينطق عن الهوى ولا يسأل الأجر ، إنما هو ابتغاء وجه الحق وطلب العلم ، لا العلم لأجل العلم فحسب ، بل العلم المؤدى إلى تهذيب الأخلاق وهداية الناس إلى ربهم .

س. د. غويطاين

TROUBADOURS
ET POETES HISPANO-MAURESQUES
ETIEMBLE

التروبادور وشعراء الأندلس

حينما تحدث دى بيللى Du Bellay عن شعر التروبادور قال: « ماأحقره ! دعني من كل هذه التوابل التى تفسد علينا مذاق لغتنا ، والتى ليس وراءها نفع إلا أن تكون شاهداً على جهالتنا . » وهكذا أصدر حكمه على الشعر البروفانسى فى استهانة وجور نجدهما عند نقاد القرن السابع عشر نحو هذا الشعر . وبعد أمد طويل ، فى نهاية القرن التاسع عشر، رُدّ على أناشيد الجسْت chansons de geste وقصص المائدة المستديرة وشعر التروبادور اعتبارها فى صورة مضطربة مختلطة ، وذلك تحت تأثير عامل الخوف الشديد الذى دفع الطوائف المرشدة إلى الأسف على القرون الوسطى والترحم على أيامها الجميلة . فأصبح الشعر البروفانسى فجأة شعراً فرنسيا له حكمته وقيمته . وشرع العلماء الأجانب — تحت تأثير الدافع الوطنى قبل العلمى — يكشفون عن ماض حافل لهذا الشعر ، فيرجحون تارة أنه من أصل يونانى رومانى ، ويقطعون تارة بأنه من أصل سِلْتى . ومع ذلك فالمسرفون فى العصبية القومية لم يقبلوا الاعتراف بهذا النسب . والأمر عندهم أن شعر التروبادور بموضوعه وأسلوبه ظهر فجأة ظهور المعجزة دون مقدمات ، فكأنه زهرة بغير ساق ولا جذر . (وكان الألمان — الذين اهتموا لبرتراند دى بورن Bertrand de Born أو بير فيدال Peire Vidal — يريدون أن يثبتوا العنصر القوطى . وهذا للأسف أثر من آثار العصبية القومية) . وبالرغم من كل هذا فالمفكرون المتازون منذ نصف قرن يرفضون تلك الأحكام من أساسها . فأوجين باريت Eugène Baret وآخرون بعده يؤكدون أن التأثير العربى وحده هو الذى يستطيع أن يفسر لنا السر فى ظهور هذا النوع من الشعر ، وهم فى ذلك يتفقون مع رأى كثير من النقاد الايطاليين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وخاصة باربيرى Barberi الذى كتب بحوثاً عن ازدهار الشعر العربى عند الاسبان والبروفانسيين .

ولا يستطيع اليوم أى أوربى مثقف أن ينكر ما يقال من أنه فى الوقت الذى حمل فيه الغزو الجرمانى إلى الغرب الاضطراب والوحشية كان تأسيس الخلافة القرطبية هو الذى سمح لأوربا بأن تحيا فيها الثقافة مرة ثانية . وكان من آثار ذلك أن أصبح حوض البحر الأبيض مركزاً للعلوم الرياضية والطب والفلك والكيمياء والفلسفة . ولقد قال بحق ألكسندر كوريه **Alexandre Koyré** : « إن العرب كانوا أساتذة الغرب اللاتينى ومثقفيه، ولم يكونوا مجرد واسطة بينه وبين الشرق اليونانى كما شاع القول واستفاض . فلولا ابن سينا ولولا ابن رشد لكان ظهور القديس توما أمراً مستحيلا ، وفى اتهامه مرتين بمشايعته لتفكير أحد (الوثنيين) دليل على ذلك . وأى مصير كان ينتظر المخطوطة الوحيدة من كتاب أقليدس لولا وجود العرب الذين جعلوها حتى القرن السادس عشر مرجعاً فى قرطبة يرحل إليه الراحلون ؟ ولم يكن هنالك من علم إلا العلم الذى فى الكتب العربية ، كما أعلن ذلك روجر بيكون **Roger Bacon** . ولما كانت كل الثقافات الأدبية والعلمية فى القرون الوسطى المسيحية موسومة بخاتم الاسلام وعلامته ، فيكون عجيباً جدًّا لذلك أن ينبثق الشعر البروفانسى فى أرض فرنسية فجأه وينبت من تلقاء نفسه .

لقد نشر الأستاذ روبرت بريفو **Robert Briffault** منذ عشرين عاماً مؤلفاً ضخما عن أصول العواطف والمؤسسات الانسانية . وهو اليوم يتحفنا بكتاب كبير مركز فيه البراهين على ما نميل إليه من أن شعر التروبادور إنما هو وليد الشعر العربى . قال المؤلف : « قبل أن يترنم شاعر من شعراء التروبادور بأول أناشيده فى بروفانس بنحو قرن من الزمان كان أدباء الأندلس قد تحمسوا لنوع جديد من الشعر اعتبر ظهوره بينهم ثورة أدبية » . لقد مجدوا فيه جمال المحبوب كما تغنوا بجوره وقسوته وبذلة العاشق وكآبته . ومن ناحية أخرى هنالك فى قصور الوزراء والخلفاء ، كانت النساء الجميلات — وفيهن أنشدت أشعار — قد شغفن بجمع المخطوطات ، وأولين شعراءهن الحماية والرعاية ، وكن أيضاً ينظمن الشعر (هكذا كانت ولاّدة ابنة المستكفى ، وهكذا كانت عائشة بنت أحمد). أما عن الموضوعات التى أحدث فيها هذا الشعر تجديداً فهى أغانى الصباح **L'aubade** وأناشيد الربيع . وأما ما حدث من تجديد فى الشكل فهو أنه حول القصيدة القديمة الطويلة بأبياتها التقليدية إلى مقطوعات تتألف كل مقطوعة من أربعة

أجزاء ،يشترك الثلاثة الأول منها فى قافية متشابهة، ويتخذ الجزء الرابع — وهو مايسمى بالسمط — قافية جديدة تتكرر فى آخر كل مقطوعة . ومضوا أبعد من هذا فأحدثوا تغييراً فى لغة الشعر لتتلاءم مع أنواعهم الجديدة . يشهد بذلك ديوان ابن قزمان الذى التزم اللغة العامية فيه، وتشهد بقية الآثار التى استخدمت فن الزجل .

وفى تلك العصور كانت الصلات الوثيقة قائمة بين الولايات الأسبانية (مسيحية وإسلامية) وبين ما نسميه بالعالم البروفانسى أى بروفانس وقطلونية وإمارة تولوز . وكان أمراء هذه الولاية الأخيرة يعيشون فى دائرة النفوذ الأسبانى أكثر من خضوعهم لملوك الفرنجة . ولم يكن هنالك تعصب دينى يحول بين أهل بروفانس وبين أهل قرطبة . وأكثر ملوك النصرانية إخلاصاً لدينهم كانوا لا يدّعون حين يحاربون الأمراء المسلمين إلا أنهم يريدون توحيد المُلكين تحت تاجهم ،أى الملك النصرانى والأمارة الاسلامية ، وهما ما كان يعبر عنهما وقتئذاك (بالملتين) . وكذلك كان الشأن فى حركة الاسترداد riconquista فالفرسان العرب كثيراً ما ساهموا فى تلك الحركة التى أظهرت فيما بعد على أنها النصر المبين للدين الحق على جموع الكافرين . وكان أهل بروفانس أقل من غيرهم عصبية للوطن والدين ،فكان أفرادهم فى القرن الثانى عشر يحترمون أهل قرطبة المعاصرين لهم ويتعاملون معهم .

وأول شاعر معروف من شعراء التروبادور هو جيوم صاحب مدينة بواتييه الذى ولد سنة ١٠٧١ فكان تبعاً لذلك معاصراً لابن قزمان . وكان جيوم هذا مشهوراً يتحدث عنه كل الناس . وكان فوق ذلك حليفاً لأمراء ليون ، وقد أمدهم بمعونته أحياناً . فهل يعقل ألا يتأثر رجل كهذا بأسبانيا المسلمة وهو الذى أوغل فيها حتى بلغ غرناطة وقرطبة ؟ وتأكيداً لذلك نرى أن نظام القوافى فى أغانى الصباح البروفانسية وهو ببب‌ا — حححا — اا يشبه قوافى الزجل أو هو متأثر بها مقلد لها ، وكان نظام الزجل اا — ببب ا — حححا [١] ونرى

---

(١) اختلاف حروف الهجاء يدل على اختلاف القوافى التى فى آخر الشطرات ، وعدد الحروف وترتيبها يدل على عدد القوافى وترتيبها . فحرف ال (ا) يشير إلى الأسماط التى تتكرر قافيتها فى المقطوعات وال (ب) وال (ح) إلى قسيم السمط وهو الذى يسميه ابن سناء الملك فى « دار الطراز » ، دليت ، والذى يحسن أن نسميه بالنص اقتباساً عن ابن خلدون فى مقدمته وابن بسام فى الذخيرة . والسمط يسمى عند ابن سناء الملك بالقفل . (المترجم)

أيضاً موضوعات شعر التروبادور وقواعده هى نفس موضوعات الشعر العربى وقواعده : إنهم يتغنون بعذاب الحب وآلامه ، ويتغنون بمحاسن المرأة وما يثيره جسدها من فرح ولذة . لقد رفع شعراء التروبادور منزلة الحب فوق مواثيق الزواج وعقوده . وإن قيل إنهم بذلك هونوا من شأن الأمانة الزوجية واتهموا الغيرة على العرض بأنها جلافة ، أمكن أن يدافع عنهم بأن إخلاصهم للدين على حقيقته ، أو قل — وهو الأرجح — إن إخلاصهم لتعاليم الفروسية فى الحب التى سنها شعراء الأندلس هو الذى حملهم على هذا . إن الأخلاق فى تلك كانت على جانب من التحرر والتساهل ، شكت منه الكنيسة حين قالت : «إن أكيتانيا ليست إلا مباءة واسعة للاثم والفجور » . ومعنى هذا أن العفاف الذى أرادت المسيحية أن تجعله الفضيلة العليا لم يكن محل رعاية دقيقة من الناس . حقا أن التروبادور أرغموا شيئاً فشيئاً على التوفيق بين الموضوعات والأخلاق التى أورثها لهم العالم العربى ، وبين إلحاح يزداد صرامة من كنيسة متجهمة عابسة . ولكنهم عرفوا مع ذلك كيف يحتفظون حتى فى أغانيهم المهذبة ببعض الصفات الجسدية البريئة التى ترامت إليهم من خلف جبال البرانس .

وعلى الضد مما استطاع أن يكتبه عدد من النقاد المعجبين لم يكن الشعر البروفانسى يتغنى بامرأة خيالية ، ولم يكن يجرى وراء الأشياء المقدسة . ولكنه كان يتغنى فى صراحة وفى غلظة أحياناً بلذة معانقة امرأة جميلة عارية تحيط صاحبها بذراعيها . واستطاع هذا الشعر ، استجابة لما فيه من إحساس جنسى ومن فجور أحياناً ، أن يعلن أن ليلة من ليالى الغرام تساوى فى قيمتها الجنة المفقودة . وفجأة تنعكس الأمور ، فبدلا من أن يمجد الشاعر عشيقته ويصف بياض صدرها أخذ يقدم المدائح « للعذراء » التى استقطرت ثديها العذب وقدمت لبنه الأبيض لراهب صغير كى يشفى من مرضه . فماذا حدث ؟

هذه هى القصة : كان من نتائج الاتصال بين العرب والبيئات البروفانسية أن ارتقى هذا القسم من فرنسا إلى مستوى ثقافى — حوالى سنة ١٢٠٠ — أصبحت به إمارة تولوز على رأس الممالك المتحضرة الغنية الشاعرة المزهرة . ولم يكن هذا يرضى أتباع ملك قشتالة (وهو دومنيك دى جزمان الملقب بكذاب قشتالة) . فأشار هؤلاء على البابا إينوسنت الثالث فأعلن الجهاد الصليبى ضد هذه الأراضى الفرنسية التى عرف الناس فيها كيف يحيون (لقد أعلن من قبل ترتوليان أن مملكة

السموات هى وطن الخصيان) . واستجابة لدعوة الأب المقدس (البابا) انقضّ أهل الشمال على وطن التروبادور . فكم كان صرعى الحديد والنار والعذاب ؟ إنهم عشرات الألوف ، ويحتمل أن يكونوا قد بلغوا مائة ألف . إن أبناء سان دومنيك أنجزوا ما بدأ به سيمون دى منتفورد . ومن سنة ١٢٠٩ إلى سنة ١٢٥٠ محوا كل آثار تلك الحضارة التى نضجت قبل الأوان ، والتى «كان يبدو أنها اختيرت لتقود أوربا » . فلما تمت إبادتها انتقل إلى إيطاليا شرف القيام بحركة النهضة بدلا من تولوز التى كان ينبغى أن تقوم بها . وصادر أساقفة الدومنيك أناشيد الباطل أو أشعار التروبادور ، وألقوا إلى هؤلاء الشعراء الأمر بأن ينظموا التسابيح الدينية بدلا من تلك التى قدمت طعمة للنيران . فمضى ذلك الشعر الغنائى الذى أنتجته بروفانس ، والذى تفتحت فيه عبقريتان : عبقرية العرب وعبقرية الفرنسيين وحل محله بغير حق شعر تعبدى ولد فى أحضان الخوف . وهو الشعر الذى تريد من صاحبنا جوستاف كوهين أن يعتقد بأنه قد استنزف دماء القرون الوسطى(١) وأرهقها .

هذا هو كتاب الأستاذ بريفو كما يبدو لى . وتستطيع أن تحذر ما فيه من ثروة وغنى . ويضيف المؤلف إلى ذلك أن هذا الاقتران النادر بين ثقافتين ينبغى أن نرجع الفضل فيه إلى ما كان لدى الأمراء الأمويين من حرية وشك دينى ، وما كان عليه الخلفاء العباسيون الأُوَل من ميل يقوى أو يضعف إلى مذهب المعتزلة . وفى الحق أن بروفانس أيضاً قد أصيبت بهذه المذاهب المكروهة ، وذلك قبل سنة ١٢٠٩ وهى السنة التى أعلن فيها الجهاد الصليبى ضد طائفة ألبيجوا Albigeois وضد التروبادور أهل السوء والضلال . وبفضل العقل ، الذى يعرف كيف يستفيد مما هو أجنبى ، استطاع أهل بروفانس أن يفهموا العرب وأن ينتجوا شعر التروبادور . فهل نستطيع ، مسترشدين بهذا الماضى المجيد ، أن نتآخى عقولا وأن نتعاون لنهتف يوماً ما على شواطئ بحرنا الأبيض ، الذى هو ربيب الاسلام والغرب ، بشعر جديد يتجلى فيه فن جديد من فنون الحياة !

نقلها عن الفرنسية عبد العزيز محمد الأهوانى — اتيامبل

(١) انظر — والاولى ألا تنظر — كتاب جوستاف كوهين : « الازدهار الكبير للقرون الوسطى » *Gustave Cohen, La grande clarté du Moyen-Age.*

بعد انقضاء عامين

١ — الموسيقى

يا قلبُ ، شأنُك والسَّماعَ عجيبُ ... جانبتَ مجلسه وكان يطيب
كم شاقك النغَمُ البديع كأنه ... رَجْعٌ لأفلاك الفضاء مُجيب
يعلو بهمّك ساعةً فوق الدُّنا ... ترتادُ جَنّاتِ العلا وتجوب
فاليومَ مالك ليس يعزِف عازفٌ ... —ياقلبُ— إلاّ هاج منك وجيب
لا تستخفّك نغمةٌ مجبورةٌ ... نشوى بأفراح الحياة صَخوب
إلا ذكرتَ شريكَ أنسك في الثرى ... فغصصتَ ، يعصرُك الأسى وتذوب
وزفرتَ زَفْراً كالشواظ من اللظى ... وشرِقتَ بالعبرات وهى صبيب
يا قلبُ ، لا حَرَجٌ ولا تثريبُ ... إنْ ساعةٌ مرّت وأنت طروب
فاستأنفِ الدنيا بما تحلو به ... قد سُرَّ —إن يوماً سُرِرتَ— حبيب
هيهات ! ذاك هو الرشادُ وحكمُه ... لو أنّ قلباً للرشاد يثوب

٢ — ذكرى دعاء

بسَمعى مقالٌ خافتُ الجرْس أوّاهُ ... يدوِّى إذا غشّى على البيت مُمساهُ
مقالُكِ فى التوديع آخرَ ليلةٍ ... بصوتٍ كأدنى الهمس : «باركَكَ الله»

لقد عشتِ — يازوجى — ومتِّ رضيةً بعيشٍ لنـا ما كان بالود أحلاه
دعاؤك ما أحراه منىَ بالرضا يؤدِّى إلى قلبى هـواك فأهـواه
يُعـاد على سمعى ، فأسكن برهةً إليـه ، وأستأنى مع الليـل ذكراه
وتسترسل الذكرى وتنبعث الرُّؤى تُجسّم لى الماضى وهيهـات أنساه
فأرثى لحالى اليومَ أرملَ موحَداً وقد غاب عن بيتى سناه ومَحياه
وأرثى لعيشى عاطلَ القلب من هوى فكل الهوى قد بات فى الترب مثواه
يضعضع حسّى من دعائكِ وقعُـه ويُعجز عقـلى من دعائك معناه
وأسهر ليـلى باكياً متفجّعـاً أسائل نفسى: «فيمَ بارك لى الله ؟ »

٣ — حلم شاعر

يا ضيعةً للسجايا الغُرِّ والشِّيم إن تَبلَ ذكراكِ — يازوجى — مع الرمم
وقفٌ على نشرها ما امتدّ من أجلى وجهـدُ ما بلّغتْـهُ طاقة الكلم
أطيـل تَوصافَها للشعر فى نسـقٍ جمٍّ الحيـاة غذته مهجتى ودمى
وكل همّـيَ أن تحيَىْ كما خلدَت نظائرٌ لك بين العُـرب والعجم
فما عسـانى ، أمُستولٍ على أمـلى أوْ لا ، فيابؤس لى من عيشِ منهزم
لكمْ تأملتُ فى شعرى أسـائله سـؤال منتقدٍ للشـعر متهِم :
« تراك خلّدتها — ياشعر — فى النغم ؟ تراك أنقذتها من سَطوة العدَم ؟
وتلك معجزةٌ — ياشعرُ — تعرفها فاهدف إليها بما يجرى به قـلمى
ما طاب لى بعد زوجى سَعىُ منتبهٍ فان يَطِبْ بعدها حلمٌ ، فذا حلمى »

عبد الرحمن صدقى

طبيب القرية

كنت فى موقف عصيب . فقد كان ينبغى أن أرحل على عجل لعيادة مريض ينتظرنى فى قرية تبعد منا عشرة أميال ؛ وكانت عاصفة جليدية هوجاء تحتل الفضاء الممتد بيننا ؛ وكان عندى مركبة خفيفة كبيرة العجلات ، وهى خير ما يصلح لمثل هذه الطرق فى الأرياف ؛ ووقفت فى فناء الدار ، متدثراً بمعطفى المصنوع من الفراء ، حاملا علبة الأدوات الجراحية فى جيبى ، متأهباً للرحيل . غير أن شيئاً واحداً كان ينقصنى: ذاك هو الفرس . . . فقد هلك فرسى البارحة تحت وطأة البرد . وأرسلت خادمى تطوف القرية عسى أن تجد من يعيرنا فرسه . ولكنى كنت أعلم أنه سعى مقضى عليه بالاخفاق . ومكثت بلا أمل هامداً فى مكانى ، تزداد شراييني تصلباً ، وتترا كم فوق كتفى طبقات الجليد ، حتى لمحت خادمى تقترب فارغة اليد إلا من مصباح ينير أمامها الطريق . . . وأى عجب فى هذا ؟ . . . وأين هو ذاك الذى يعير فرسه فى هذه الأيام لرحلة تمتد عشرة أميال ! وعبرت الفناء ثانية ، لا أستطيع التفكير فى شئ . وإذ أنا هكذا شارد البال معذب النفس ركلت بقدمى باب حظيرة الخنازير المتحطم ، فانفتح متخبطاً ولم تك هذه الحظيرة قد استخدمت منذ سنوات ، فدهشت للرائحة والدفء المنبعثين منها . ورأيت فى الداخل مصباحاً شاحب الضوء مشدوداً إلى طرف حبل . ثم لمحت رجلا أحدب الظهر قابعاً فى أحد الأركان يدير لى عينيه الزرقاوين ووجهه المنبسط .

واقترب منى الرجل زاحفاً على يديه وقدميه ، وسألنى :

— أتريد أن ألجمهما ؟

وكانت الخادم بجوارى ، فصاحت مازحة :

— حقا أنه لا يدرى إنسان بكل مايحتويه بيته !

وضحكنا معاً . وسمعت السائس ينادى الخيل . وسرعان ما ظهر فرسان قويان يحبو أحدهما خلف الآخر ، حتى إذا وصلا إلى باب الحظيرة طأطآ رأسيهما وانسلتا بحركة رشيقة من المنفذ الضيق المنخفض . فلما انتصبا ، بدهنى منهما فراعة القوام .

والتفتُ إلى الخادم وقلت :

— ساعدى السائس .

وسارعت الخادم المطيعة إلى اللجام تقدمه للسائس . ولكن ما إن اقتربت منه حتى أمسك بها وانقض بوجهه على وجهها . فصرخت الفتاة ولاذت بى . ورأيت خدها وقد طبع عليه باللون الأحمر صفان من الأسنان . فصحت غاضباً :

— أيها الوحش ، أتريد أن ألفعك بالسوط !

ولكنى تذكرت على التو أنى أمام شخص لا أعرفه ، ولا أعرف من أين أتى ، وأنه تقدم لمعونتى حينما تخلى عنى الجميع . وكأنما الرجل قد قرأ ما يدور بخاطرى ، فلم يحنقه وعيدى ، بل التفت إلى ، ولم يزل منهمكا فى عمله ، وقال فى بساطة :

— تفضل واركب . . .

وكان فى الواقع قد أعد كل شئ .

وتذكرت أن عربتى لم تحظ قط بمثل هذين الفرسين الرائعين؛ فصعدت مبتهجاً.

ثم نظرت إلى الرجل وقلت :

— سأمسك أنا باللجام ، فأنت لا تعرف الطريق .

فأجاب :

— بكل تأكيد . . . فلست ذاهباً معك ، بل سأمكث مع روزا .

وصاحت روزا محتجة . فلما شعرت بمصيرها المحتوم على يدى الرجل ، فرت هاربة إلى داخل المنزل .

وسمعت صوت السلسلة تشد ، والقفل يوضع وهى توصد باب المنزل . ورأيتها تطفئ نور البهو ، ثم أنوار الحجرات جميعاً ، كيما تخفى نفسها .

والتفت للسائس وقلت :

— إما أن تأتى معى أو أعدل عن الرحيل بالرغم من ضرورته العاجلة . فلست أرضى أن أدفع لك هذه الفتاة ثمنا لرحلتى .

وكان كل جواب الرجل أن صاح فى الفرسين وصفق بيديه ؛ فانطلقت بى المركبة كأنها قطعة من الخشب يحملها سيل جارف . ومع ذلك فقد سمعت باب منزلى يتحطم تحت ضربات السائس ، ثم امتلأت أذناى وعيناى بطنين تشعب وانتشر حتى استحوذ على جميع حواسى . ولكن ذلك لم يدم أكثر من لحظة . ولكأن باب غرفة المريض يطل على باب غرفتى ؛ إذ سرعان ما رأيت

نفسي قبالته . ووقف الفرسان لا يريمان . وأقبل والدا المريض تتبعهما أخته ، فانتزعونى من المركبة انتزاعاً . ولم أستطع أن أفهم شيئاً من أقوالهم المرتبكة المختلطة . وكان الهواء فى غرفة المريض خانقاً . ورأيت القلاة تحترق دون أن يعيرها أحد انتباهاً. وأردت أن أفتح النافذة ، ولكنى تذكرت أنه ينبغى أولا أن أفحص المريض . وكان الصبى ناحل الجسم فارغ العينين عارى الكتفين ، ولكنه لم يكن بارداً ولا ساخناً . وما إن اقتربت منه حتى زحف ورفع رأسه وتعلق بعنقى ثم همس فى أذنى :

— دعنى أموت يادكتور .

وتلفتُ حولى ؛ ولكن أحداً لم يسمع قول الصبى . ورأيت الوالدين واجمين مطرقين فى انتظار حكمى . وكانت الأخت قد أحضرت مقعداً لأضع عليه علبة الأدوات الجراحية . وفتحت العلبة وقلبت النظر فى الأدوات ؛فى حين كان الصبى لا يكف عن الايماء إلى بيده تلميحاً بوصيته . وأمسكت بملقاط ، وفحصته على ضوء الشمعة ، ثم أعدته إلى مكانه . وقلت لنفسى ناقماً : حقا أن الآلهة فى مثل هذه الظروف لا يضنون علينا بمعونتهم . . فهم يرسلون لك فرساً بدل الفرس المفقود ، بل يتكرمون عليك بفرس ثان كى يتيحون لك الذهاب إلىأبعد مما تريد. وهم يهبون لك سائساً بأبخس الأثمان . . .

وعندئذ فقط تذكرت روزا . ماذا أفعل ؟ كيف أنقذها ؟ كيف أخلص جسدها من وطأة هذا السائس ، وهى تبعد عنى عشرة أميال ، ولدى فرسان لا سلطان لى عليهما ؟ فرسان يرفعان عن نفسيهما اللجام ، ولا أدرى كيف يقطعان السلاسل ، ثم يطلان برأسيهما من خلال النافذة ويراقبان المريض دون أن تزعجهما صرخات الأسرة . . .

وقلت لنفسى : سأعود فى الحال ؛ كأنما كان الفرسان يدعوانى للعودة .

ولكنى مع ذلك تركت الأخت تنزع عنى معطفى . وقدموا لى كأساً من الشراب . وربّت الأب على كتفى ؛ وكأن فى تقديم هذا الكنز الثمين مايسوّغ رفع الكلفة بيننا . فأومأت بالرفض ، لا لسبب سوى أنى شعرت بنفسى أختنق إذ أدخلنى الرجل فى نطاق ذهنه الضيق . ودعتنى الأم إلى جوار المريض ؛ فأطعتها . وبينما كان أحد الفرسين يرسل صهلة عالية فى فضاء الغرفة ، وضعت أذنى على صدر الصبى الذى ارتعش لملمس لحيتى المبتلة . وما لبث أن تحول شكى

يقيناً ؛ فهذا الغلام لا داء به . وربما كان مصاباً بعض الشئ بفقر الدم ، ولكنه مع ذلك معافى البدن ، ولا أفضل له من « علقة » كى ينتصب على قدميه . إلا أنى لست من رجال التربية ولا من رجال الاصلاح ، فتركته آمناً فى فراشه . إنى أحد الموظفين التابعين لسلطات المنطقة . و إنى لأقوم بواجبى إلى آخر ما ينبغى ، بل إلى الحد الذى يوشك أن يتعدى معه ما ينبغى . فمع أجرى الضئيل ، لا أضن قط بمعونتى على الفقراء . على أن هذا كله لا ينسينى روزا . وبعدها ، فلعلنى انتصحت بالغلام وطلبت الموت أنا أيضاً . وماذا عسى أن أفعل هنا فى هذا الشتاء الذى لا ينتهى ؟ لقد نفق حصانى ، ولم أجد أحداً يرضى أن يعيرنى فرسه ، فلم يبق أمامى غير حظيرة الخنازير . ولولا أن شاءت المصادفة أن أجد خيلا فى هذه الحظيرة ، لاضطررت أن أوثق بعض الخنازير إلى عربتى ، هذا هو مجمل قصتى . وأخذت أهز رأسى حسرة وأنا أتأمل وجوه الأسرة . إنهم لا يعلمون شيئاً من كل هذا . وإن علموا به فلن يفهموا معناه . إنه من اليسير أن نحرر لمرضانا البطاقات ؛ ولكن العسير حقا هو أن نفهم الناس ، ونحمل الناس على فهمنا .

وهكذا انتهت مهمتى . ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يقلقنى الناس فيها بلا مسوغ . وقد تعودت ذلك ؛ فسكان المنطقة جميعاً لا يكفون عن طرق بابى طوال الليل وآناء النهار . ولكن الفاجع فى هذه المرة أنى أرغمت على التخلى عن روزا ، هذه الفتاة الباهرة التى عاشت كل هذه السنوات فى بيتى دون أن أعيرها إلا أقل الانتباه . . . ومس قلبى الشعور بجسامة هذه التضحية من جانبها ، حتى أوشكتُ — لولا جهدى فى ضبط عواطفى — أن أنقضّ على هذه الأسرة التى عاقتنى عن إنقاذ روزا . ولكنى بعد أن أقفلت علبة أدواتى وأمسكت بالمعطف استعداداً للرحيل ؛ ثم رأيت الأب والكأس فى يده ، والأم التى خيبتُ ظنها ، يغصان بالبكاء ويعضان شفاههما ؛ ورأيت الأخت تمد لى منشفة ملوثة بالدماء ؛ إذذاك شعرت أنى على استعداد للتسليم بأن الصبى قد يكون مريضاً . واقتربت منه ، فبادرنى بابتسامة عريضة كما لو كنت قد جلبت له أطيب الطعام . . . آه ! ها هما الفرسان يعودان للصهيل . ولا بد أن هذا الصوت قد أوحت به السماء ليسهل الكشف عن الأدواء . فالآن حقا أبصر العلة ؛ والغلام مريض ما فى ذلك شك . لقد رأيت جرحاً طويلا عريضاً فى اتساع طبق فنجان ينكشف أمام ناظرى فى الجنب الأيمن عند ارتفاع العجز . إنه قرمزى اللون ، تتعدد

الظلال الثقيلة فى وسطه ، وتخف تدريجيا عند أطرافه فى شكل حلقات متعرجة ، وتتجمع فى أقنيته الدماء بغير انتظام . هكذا كان يبدو الجرح من بعد . أما عن كثب فالأمر أدهى . ومن يستطيع أن يحدق فى هذا دون أن ينطلق الصفير من فمه ! لقد أبصرت ديداناً فى حجم الخنصر ، مخضبة بالدماء ، تتلوى أجسامها، وترفع رؤوسها الصغيرة البيضاء ، وتختلج سيقانها الدقيقة التى لا حصر لها فى قاع الجرح . . . ولكنى ، أيها الغلام المسكين ، لا أستطيع أن أفعل لك شيئاً . لقد عثرت على الجرح الخطير ، هذا الجرح الذى يفتك بك . وقد أبدت الأسرة اغتباطها إذ رأتنى مشمراً عن ساعد الجد . همست بذلك الأخت فى أذن الأم ، والأم فى أذن الأب ، والأب فى أذن زائر انسل على أطراف قدميه تحت ضوء القمر المنسكب من الباب المفتوح ، رافعاً ذراعيه حتى يحتفظ بتوازنه .

ويبدو أن هذه الحياة الزاخرة المضطربة فى باطن الجرح قد استأثرت بلب الصبى ، فتوقف لحظة عن النشيج ، وسألنى متوسلا :

— ألا تنقذنى !

وهذا هو العجيب من أمر الناس فى بلدى ؛ فهم دائماً يطلبون المستحيل من الطبيب . لقد تضعضع إيمانهم القديم القويم . وبينما يجلس القسيس عاطلا فى بيته ينسل أثوابه الكهنوتية الواحد بعد الآخر ، يطلب من الطبيب أن يأتى بالمعجزات . . . ولكم مع ذلك ما تشاءون . ولست أنا الذى قدمت لكم نفسى ، ولكنى لن أصدكم إذا ابتغيتم أن تتخذونى أداة لتنفيذ غاية مقدسة . وماذا فى وسعى أن أفعل خيراً من هذا ، ولست إلا طبيباً قروياً شيخاً ، اغتصبت خادمته ! وهاهم أولاء القوم يقبلون على بجموعهم ، أفراد الأسرة وكهول القرية ، فينزعون عنى ملابسى . على حين تحتشد أمام المنزل فرقة من التلاميذ على رأسهم أستاذهم ، فينشدون فى لحن لا أسلس منه هذه الأغنية :

جردوه من ملبسه
كى يحسن التطبيب
واقتلوه إن لم يفلح
فما هو إلا طبيب
ما هو إلا طبيب . . .

وهأنذا أقف عارياً ، أنظر فى رباطة جأش إلى وجوه القوم ، ممسكا لحيتى بيدى ، وقد مال رأسى إلى أحد الجانبين ، وكنت أشعر أنى سيد القوم جميعاً ؛ ولكن ذلك لم يُجْدِنى فتيلا . فقد أمسكوا برأسى وقدمى ، وحملونى إلى الفراش ، وأرقدونى ناحية الحائط بجوار الجرح الخطير . وبعدئذ غادروا الغرفة جميعاً وأسكتوا المنشدين ، ومرت السحب فحجبت القمر . وانبعث حولى دفء الفراش . وقد ألقى الفرسان ، كالظلال ، رأسيهما على النافذة .

وسمعت من يهمس فى أذنى ويقول :

— لا أخفى عليك أنى غير مطمئن إليك . فلقد قذفت إلى هذا المكان قذفاً ، ولم تحملك إليه قدماك . وعليك بدلا من أن تساعدنى ، أن تدفعنى إلى الانكماش فى فراش الموت . ولو تركت لنفسى عنانها ، لانتزعت عينيك من رأسك . . .

فقلت :

— هذا حق ؛ وإنه ليبعث على الخجل . ولكنى لست إلا طبيبا ؛ فماذا أستطيع أن أفعل ؟ صدقنى إذا قلت إن الدور الذى أقوم به ليس بالهين ولا باليسير . . .

— أينبغى أن أقنع بمثل هذا الاعتذار ؟ إنى مرغم للأسف على الرضا به . بل لا مفرّ لى من الرضا فى جميع الأحوال . فلقد أتيت إلى هذا العالم لا أملك غير هذا الجرح الجسيم ، ولم أجلب للعالم شيئاً سواه . . .

وأجبته قائلا :

— إن آفتك ياصاح أنك لا ترى كل ما يدور حواليك . وأستطيع أن أنبئك ، أنا الذى طفت بغرف المرضى جميعاً ، أن جرحك ليس من الخطورة كما تتوهم . لقد أصابتك فقط نقرتين من معول . وهناك آخرون كثيرون يكشفون عن جوانبهم دون أن يصيخوا باذانهم إلى ضربات المعول فى الغابة ، بل إنهم ليصيبهم الصمم إذ يقترب من جوانبهم المعول .

— أهناك حقاً مثل هؤلاء القوم ، أم أنت تخدعنى وأنا فى هذيانى ؟

— بل هناك مثل هؤلاء القوم . وخذها كلمة من طبيب حلف اليمين . بل احملها معك إلى العالم الآخر . . .

وكان أن سكت وحملها إلى العالم الآخر . ولم يبق إلا أن أفكر فى أمر نفسى . وكان الفرسان لا يزالان فى مكانهما . فهرولت أجمع ملابسى ومعطفى

وعلبتى ، جمعتها ولكنى لم أرتدها ، حتى لا تضيع لحظة من وقتى . و إذا ما ركض الفرسان بالسرعة نفسها التى أحضرانى بها ، فلسوف أقفز من هنا إلى دارى فيما لا يتجاوز غمضة عين . وقذفت بملابسى إلى العربة ؛ ولكن المعطف ذهب إلى أبعد مما أردت ، فاشتبك من كمه بقضيب العربة الخلفى . لا بأس . . . وقفزت إلى ظهر أحد الفرسين . وأخذت حطام اللجامين تسلف الأرض . وقد كاد ينبت كل رباط بين الفرس والفرس ، وبين الفرسين والعربة المتعثرة خلفنا وفى طرفها معطفى الزاحف على الجليد .

وصحت بالفرسين أن يسرعا . ولكنهما سارا فى تثاقل الكهول خلال هذه الصحراء من الجليد . وبقى صوت الأغنية الجديدة ، أغنية الأطفال المخطئين ، يترامى إلى أذنى فترة طويلة من الزمن . وكانوا ينشدون قائلين :

ابتهجوا أيها المرضى .
فها قد عادكم الطبيب .

ولم أبلغ قط دارى . وهكذا فقدت زبائنى الذين لاحصر لهم . وسوف يغتصبهم ولا شك خلفى . ولكن ذلك لن ينفعه . فالسائس اللعين يعيث فى بيتى ، وقد أمست روزا فريسته . ولست أحب إمعان التفكير فى هذا الموضوع . وهأنذا أضرب فى الأرض ، ومعى عربة من صنع البشر وفرسان خارقان للطبيعة . إنى أضرب فى الأرض وأنا الرجل الشيخ ، شريداً عارياً لا يقينى لباس من برد هذا العصر التعيس . وأرى معطفى يزحف خلف العربة ، ولكن يدى لا تبلغه . ولن يتحرك لمعونتى واحد من أولئك المرضى الأوغاد المترخين . . . لقد غدر بى ! لقد غدر بى ! وكفانى من ذلك مرة . لقد أخطأت عندما استجبت لنداء الطارقين . ولا مرد لما ارتكبت .

فرانز كفكا

نقلها إلى العربية رمسيس يونان

حول مشروع بحيرة طانا [1]

تعتبر بحيرة طانا أهم حوض من حياض المياه فى الحبشة . و يقول أصحاب الاختصاص إن تنظيم مياهها يعود بالفائدة على أراضى السودان الواسعة لتطور زراعة القطن . وقد أولت كل من الحكومتين المصرية والسودانية اهتمامها بدراسة بحيرة طانا منذ أوائل هذا القرن ، فتوضحت الفائدة التى تعود من هذا للسودان ومصر وكذلك للحبشة .

تاريخ المشروع

وقد شغلت بحيرة طانا الكاشفين والباحثين من الأوروبيين منذ زمن بعيد ، ولكن المعلومات التى جمعها هؤلاء لم تكن كافية حتى تسمح بتفكير جدى للاستفادة من البحيرة وإمكان استغلالها ؛ لذلك لم تكد الحال تستقر فى السودان بعد القضاء على ثورة المهدى سنة ١٨٩٨ حتى أرسلت حكومة السودان بعثة إلى بحيرة طانا لاستكمال دراستها وأتبعتها بثانية وثالثة .

وقد خصت بريطانيا بحيرة طانا بالعناية ووضعتها فى المكان الأول بين المسائل عند عقد معاهدات أو اتفاقات مع أتيوبيا أو مع دولة من الدول المستعمرة فى شرق أفريقيا .

ففى سنة ١٨٩١ نصت بريطانيا فى معاهدة سرية بينها و بين إيطاليا على أن تحتفظ ببحيرة طانا ، وتترك لايطاليا الحرية فى سائر بلاد الحبشة .

وفى ١٥ مايو سنة ١٩٠٢ أمضى الامبراطور منيليك معاهدة مع بريطانيا اتفق فيها على الحدود بين أتيوبيا والسودان . ولم يفت اللورد هرنجتون ممثل بريطانيا أن ينص فى المادة الثالثة بأن « يتعهد جلالة الامبراطور منيليك الثانى

---

(١) الكاتب المصرى عدد ١٦ (يناير ١٩٤٧) .

ملك ملوك أتيوبيا لحكومة جلالةملك بريطانيا ألا يقيم أى مشروع أو يسمح باقامته على النيل الأزرق أو على بحيرة طانا أو على السوباط ، من شأن هذا المشروع أن يحجز جريان الماء فى النيل ، بدون الاتفاق مع حكومة جلالة ملك بريطانيا وحكومة السودان على ذلك » .

كما نصت المادة الخامسة على أن يمنح منيليك لحكومة جلالة ملك بريطانيا وحكومة السودان حق إنشاء خط حديدى على الأراضى الأتيوبية يصل السودان بأوغندة ، وهو الخط الذى قصد به وصل القاهرة بمدينة الكاب .

وقد كان منيليك يداهن الانجليز و يلاطفهم . وقد أثرت عنه هذه العبارة : الانجليز كالقط ، إن أنت داعبته ارتاح إليك وإن أردت انتزاعه وثب عليك .

و بعد أن ضمنت بريطانيا جانب أتيوبيا وجهت همها لتسوية المسألة مع جارتيها فى أفريقيا الشرقية . وقد تم الاتفاق بين بريطانيا و إيطاليا وفرنسا فى ديسمبر سنة ١٩٠٦ ، ووافقت على نصوص معاهدة سنة ١٩٠٢ ، كما اتفق على أنه إذا حدث أى تغيير فى الحالة القائمة فى أتيوبيا فان الحكومات الثلاث تحمى المصالح البريطانية . ونصت المادة الرابعة على الاعتراف بمصالح بريطانيا العظمى ومصر فى حوض النيل و بخاصة ما يتعلق بتنظيم مياه النيل وفروعه . كل ذلك مع اعتبار المصالح المحلية ومراعاة المصالح الايطالية . كما نصت على الاعتراف بمصالح إيطاليا فى إريتريا والصومال الايطالى ووصلهما بخط حديدى . ونصت المعاهدة أيضاً على احترام مصالح فرنسا فى الصومال الفرنسى وحماية مصالحها فى ربط جيبوتى بأديس أبابا بخط حديدى .

خرجت أوربا من الحرب العالمية الأولى منهوكة متعطشة إلى القطن لترويج صناعتها ، فارتفعت أسعار القطن ارتفاعاً كبيراً ، و بدأ التنافس بين أمريكا و بريطانيا فى أسواق المنسوجات ، و بدأ كل منهما فى البحث عن الطريق إلى القطن ، فاتجهت الأنظار مرة أخرى إلى حوض النيل وبحيرة طانا . وعملت بريطانيا على التوسع فى زراعة القطن فى مصر والسودان . والتفتت إلى أتيوبيا ، فكونت فى ديسمبر سنة ١٩١٨ شركة توصلت إلى الحصول على امتيازات لزراعة القطن فى القاطعات المحيطة ببحيرة طانا . وكان غرض الشركة الحقيقى مراقبة تجارة أتيوبيا كلها . فاغتاظت فرنسا و إيطاليا لهذا واحتجتا على هذا الاحتكار . وأعارت

فرنسا أتيوبيا المال الكافى لرد ما كانت الشركة قد دفعته ثمناً للتعاقد . وكذلك أثارت إيطاليا فى مؤتمر الصلح مسألة مصالحها فى الحبشة ، وأرادت أن يفصل المؤتمر فى العقبات التى أقامها الانجليز فى تفسير المادة الرابعة من معاهدة ١٩٠٦ لأن حاكم السودان يقول إن النص على حقوق بريطانيا المائية فى بحيرة طانا يعطيها حق تنظيم مياه البحيرة كما يتراءى لها وحدها . ولم تصل إيطاليا إلى حل هذه المسألة ، فطالبت أن تعطيها الحبشة تعويضاً عن خسائرها فى الحرب.

واضطرت بريطانيا أمام الصعوبات التى أثارتها إيطاليا وفرنسا أن تحل الشركة وتبحث عن سياسة أخرى ، فحاولت أن تثير حرباً داخلية فى أتيوبيا بتشجيع ليج ياسو بالمال ، والراس سيوم بالسلاح . على أن ولى العهد الراس تفرى مكونن (الامبراطور الحالى) أحبط مساعيها . ولما لم تفلح بريطانيا فى هذا أيضاً حولت سياستها من العنف إلى اللين ، فعرضت على أتيوبيا فى ديسمبر سنة ١٩٢١ أن تنزل لها عن زيلع ميناء حرة فى مقابل أن تمنحها امتيازات على بحيرة طانا ، فرفضت أتيوبيا . وقد أثار هذا غضب بريطانيا ،فقامت بحملة على صفحات الجرائد توجه اللوم فيها إلى أتيوبيا وتندد بسياستها الداخلية وفساد الحكم فيها وانتشار تجارة الرقيق . وقد قصدت بذلك أن تنتدبها عصبة الأمم على أتيوبيا . وأفسدت عليها فرنسا خطتها ، وتقدمت بطلب إلى عصبة الأمم أن تقبل أتيوبيا عضواً فيها ، وقد أجيبت إلى ذلك فى سبتمبر سنة ١٩٢٣ . ولم تر بريطانيا بدًّا من التزام الصمت وانتظار الفرص .

وكان التنافس قد بلغ أشده بين بريطانيا وأمريكا على البترول والكاوتشوك والقطن ، وكانت أتيوبيا تبحث عن مخرج من بين براثن المستعمرين فرحبت بأمريكا عندما طلبت إليها أن تمنحها امتيازات على بحيرة طانا . وقد تم ما أرادته أمريكا سرًّا ، فشرعت فى دراسة أراضى المقاطعات المحيطة بالبحيرة لتزرعها قطناً .

ولما أيقن الامبراطور من وقوف أمريكا إلى جانبه اطمأن على بلاده ولم يعد يحسب لبريطانيا أو إيطاليا حساباً . ولذلك لم يتأثر الامبراطور لما علم فى سنة ١٩٢٥ بالاتفاق الذى تم بين بريطانيا وإيطاليا بشأن أتيوبيا . فقد تبودلت الرسائل فى شهر ديسمبر من ذلك العام بين الوزير البريطانى فى روما وموسولينى باعتباره وزير خارجية إيطاليا ، فطلبت بريطانيا مساعدة إيطاليا لها واستعمال نفوذها لدى الحكومة الأتيوبية لتتمكن من الحصول على امتيازات على بحيرة

طانا ، و إنشاء طريق للسيارات من الحدود السودانية إلى البحيرة لنقل الأدوات والعمال .

فوافقت الحكومة الايطالية ، على أن تساعدها بريطانيا فى الحصول على امتياز من الحكومة الأتيوبية لمد خط حديدى من حدود إريتريا إلى الصومال الايطالى . و بذلك أصبحت اتفاقية سنة ١٩٠٦ نافذة بعد أن صرح اللورد كير زون قبل ذلك بسنتين (أى سنة ١٩٢٣) بأنها ملغاة .

وقد قابل مشروع الخزان فى ذلك الوقت معارضة قوية من الكنيسة الأتيوبية ، وقد بينا القيمة الدينية والتاريخية للكنائس والديارات الموجودة فى الجزر ؛ إذ خافت الكنيسة أن تطغى المياه على كثير منها إذا تحولت البحيرة إلى خزان . ولم يكن لولى العهد فى ذلك الوقت (الامبراطور الحالى) من الأمر ما يكفى لاقناع الكنيسة بقبول تنفيذ المشروع .

ووضحت سياسة أتيوبيا لدى بريطانيا فى التسويف و إظهار الصعوبات التى من شأنها أن تعوق البدء فى تنفيذ المشروع . ولم يكن هذا الاتجاه جديداً فى سياسة أتيوبيا ؛ فقد عرف حكامها وشعبها فى التاريخ بتحفظهم الشديد فى معاملة الأجانب والتشكك فى أغراضهم . وهذا سر من أسرار احتفاظ أتيوبيا باستقلالها فى وجه مطامع الدول المستعمرة . وكانت ترمى سياسة أتيوبيا دائماً على ألا تمنح امتيازاً فى أرضها إلا إذا عاد عليها بفائدة مباشرة ، أو إذا اضطرتها إليه عوامل سياسية .

ظلت بريطانيا متحيرة فى موقف أتيوبيا ، حتى كشفت فى سنة ١٩٢٧ بفضل قلم مخابراتها السرية عن اتفاقية أتيوبيا السرية مع أمريكا ، فثارت ثائرتها ، كما ثارت ثائرة إيطاليا وفرنسا ، فاحتجت لدى أمريكا وأتيوبيا وذكرتهما بمعاهدة سنة ١٩٠٢ التى تعهدت فيها أتيوبيا ألا تقيم أى مشروع أو تسمح باقامته على البحيرة دون أخذ موافقة بريطانيا والسودان . فتراجعت أمريكا وأوضحت لبريطانيا بأن المشروع لم ينفذ بعد ، ومن الممكن الاتفاق على كيفية تنفيذه . وقد تم الاتفاق فى سنة ١٩٢٩ بين ممثل الشركة الأمريكية وممثل حكومة السودان و وزير خارجية أثيوبيا على أن تدرس الشركة المشروع تمهيداً لوضعه موضع التنفيذ . وقد طلبت الحكومة الأثيوبية أن يكون نقل الأدوات اللازمة للبناء عن طريق جيبوتى إلى أديس أبابا لا عن طريق السودان .

وتعهدت الحكومة أن تقوم بتعبيد طريق للسيارات يمتد من أديس أبابا إلى البحيرة . و بذلك تم للحكومة الأتيوبية ما أرادت من أن يقوم بتنفيذ المشروع دولة غير الدولة المستعمرة للبلاد المجاورة لها . وتم لبريطانيا أيضاً ما أرادت من تنفيذ المشروع على أى وضع مع عدم ارتياحها إلى الشركة الأمريكية .

ولما لم تجد أتيوبيا فى أمريكا سنداً قويا بل رأتها قد تفاهمت مع بريطانيا ، حولت نظرها إلى اليابان التى كانت فى حاجة شديدة إلى القطن لتغرق الأسواق العالمية بمنسوجاتها . فأبرمت معاهدة تجارية فى سنة ١٩٢٧ بين أتيوبيا واليابان . وأرسلت اليابان بعثة سنة ١٩٣٢ لدراسة بحيرة طانا واستئجار مناطق واسعة حول البحيرة لزراعة القطن ، وطلبت أن تعفى جميع الأدوات اللازمة من الرسوم الجمركية والضرائب . وتوثيقاً للعلاقات تمت خطبة أحد الأمراء الأتيوبيين لابنة أحد أصحاب الأعمال من اليابانيين ، وكسب اليابان كثيراً من الأصدقاء فى أتيوبيا و راجت تجارتهم فيها . فأغضب هذا بريطانيا ، وأمكنها أن تقضى على تلك الصداقة بعد سنتين من قيامها ، كما صرح وزير خارجية الحبشة سنة ١٩٣٤ بأن الزواج لم يتم بين الأمير الأتيوبى والفتاة اليابانية تحت ضغط دولة أجنبية .

وفى ديسمبر من سنة ١٩٣٤ قررت الحكومة الأتيوبية سحب الامتياز من الشركة الأمريكية . فلم يقع هذا الخبر من الناس موقع الغرابة ؛ لأن المناوشات بينها و بين إيطاليا كانت قد بدأت فى ولول فأعلنت فى الصحف أنها ستقوم بتعبيد الطريق بين أديس أبابا والبحيرة التى كانت قد وعدت بها الشركة الأمريكية سنة ١٩٢٩ . ثم لجأت إلى بريطانيا تعرض عليها امتياز تنفيذ المشروع لكى تسترضيها لتقف إلى جانبها إذا هى دخلت فى حرب مع إيطاليا . وفى سنة ١٩٣٥ دعت أتيوبيا كلا من بريطانيا ومصر والسودان لعقد مؤتمر فى أديس أبابا للوصول إلى اتفاق حاسم فى مسألة مشروع بحيرة طانا . ولكن الحكومات الثلاث طلبن تأجيل الدعوة حتى تنجلى الحالة السياسية .

وقد أظهرت إيطاليا من جهتها فى يناير سنة ١٩٣٥ للحكومة البريطانية أنها ربما تدخل فى حرب مع أتيوبيا ؛ ولذلك فانها تعطى بريطانيا ومصر الضمانات الكافية لحماية مصالحهما فى بحيرة طانا ، وقد صرحت بذلك فى عدة مناسبات ، على حد قولها .

وفى اليوم السابق لعرض مسألة النزاع بين أتيوبيا و إيطاليا فى عصبة الأمم

أعلنت الصحف فى ٢٢ مايو سنة ١٩٣٥ قرار مجلس الوزراء فى مصر بفتح اعتماد ٣٦ مليوناً من الجنيهات لتنفيذ مشروع السنوات الخمس للتوسع فى إنشاء الخزانات على النيل ومنها خزان بحيرة طانا .

وأعلنت الحكومة الأتيوبية أنها منحت شركة سويسرية امتيازاً لمد طريق من أديس أبابا إلى كورموك على حدود السودان يتم فى سنتين . ثم اقترحت على الوزير البريطانى فى أديس أبابا أن أتيوبيا مستعدة لمنح بريطانيا امتياز البحيرة لقاء دفع ثلثمائة ألف جنيه انجليزى . ولكن بريطانيا أعلنت أن الحالة السياسية لا تسمح بالمفاوضة فى مسألة مشروع طانا .

وقد عطل حرب الحبشة تنفيذ المشروع ، كما عطل بناء الخط الحديدى الممتد من أسمرا إلى مجدشو مخترقاً الحبشة لوصل القاهرة بمدينة الكاب بعد تكملة مسافات قصيرة من كسلا إلى أجوردات ومن مجدشو إلى نيروبى . وضعف أمل بريطانيا ومصر بعد جهاد ثلث قرن فى تحويل بحيرة الكنائس إلى بحيرة استغلال .

ولما استتب الأمر لايطاليا فى الحبشة أسرعت إلى إرسال بعثة لدراسة البحيرة رغبة فى استغلالها على وجه يتفق ومصالح إيطاليا فى أفريقيا الشرقية مع مراعاة مصالح البلاد التى تصلها مياه البحيرة .

والآن وقد عادت الحالة السياسية فى أتيوبيا إلى وضعها القديم ، نلاحظ أن السياسة البريطانية التى استمرت فى جهادها منذ أوائل هذا القرن لتحقيق هذا المشروع قد فترت أو تراخت أو تبدلت . فهل سبب ذلك عدم استقرار الأمور بين بريطانيا ومصر ، أو اتجاه جديد فى سياسة بريطانيا بالاضافة إلى السودان الجنوبى دون الشمالى ، أو كما يقال بأن أرض الجزيرة التى كانت أساس التفكير فى المشروع لن تستفيد كثيراً منه بحسب ما جاء فى التقارير الأخيرة ، أو يكون هناك من الأسباب ما نجهله ؟

لكن الوقائع أثبتت اتجاهاً جديداً فى السياسة البريطانية . كانت بريطانيا تحرص على ذكر بحيرة طانا فى نصوص المعاهدات أو الاتفاقات التى تجرى بينها وبين أتيوبيا أو بينها وبين الدول ذوات المصالح هناك . وقد رأينا المعاهدة الأخيرة المبرمة بينها وبين أثيوبيا فى ديسمبر سنة ١٩٤٤ أهملت ذكر بحيرة طانا إهمالا تاما ، فاتجهت اتجاهاً جديداً تعلله سياستها فى السودان الجنوبى وتحقيق فكرة الصومال الكبير .

المشروع

والت وزارة الأشغال المصرية إرسال الفنيين من الانجليز إلى بحيرة طانا منذ أوائل القرن الحالى ، فرجعوا بنتائج بحوثهم وكتبوا تقاريرهم . ومع اختلافهم فى التفاصيل أجمعوا على ضرورة إنشاء خزان بحيرة طانا للفائدة المحققة التى تعود منه على السودان ومصر . وقد أرسلت الوزارة سنة ١٩٢٠ بعثة إلى البحيرة تحت إشراف يلال وجرابهام بقيت سنة كاملة هنالك لتتمكن فى أثنائها من دراسة البحيرة دراسة دقيقة . فرجعت البعثة بنتائج باهرة وبحوث قيمة وملاحظات مختلفة ، وبخاصة من الناحيتين الجوية والمائية . وقدنشرت هذا ضمن مطبوعات وزارة الأشغال سنة ١٩٢٦ . وكذلك نشر قسم الطبيعيات بالوزارة ما يتعلق بمستوى مياه البحيرة فيما بين سنة ١٩٣١ وسنة ١٩٣٣ تحت إشراف هرست وفيلبس .

ولم تقنع بعثة جرابهام بالبحوث العلمية فحسب بل اقترحت طريقة استغلال مياه طانا ، باقامة سد يحوّل البحيرة إلى خزان لكى يمكن توزيع مياه النيل الأزرق بحسب اقتراح سابق لبعثة باكلى سنة ١٩١٥ . واقترحت إقامة سد عند منبع النيل الأزرق يرفع مستوى مياه البحيرة مقدار خمسة أمتار يحجز وراءه ١٤ ملياراً من الأمتار المكعبة تكفى لتعويض مياه النيل الأزرق فى أشهر الانخفاض .

ولما تحصلت الشركة الأمريكية على امتياز تنفيذ المشروع أرسلت بعثة على رأسها روبرتس سنة ١٩٣٠ على نفقة حكومة السودان ، ثم سنة ١٩٣٣ على نفقة الحكومة المصرية لدراسة المشروع من الناحية العلمية ولتكملة بعض المجسات والمقاييس .

وقد أسرعت إيطاليا لما آل إليها الأمر فى الحبشة بارسال بعثة يرأسها داينيلى أقامت عند البحيرة سنتى ١٩٣٧ و ١٩٣٨ ، فدرست كل ما يتعلق بالبحيرة دراسة وافية من الناحيتين العلمية والاقتصادية . وكان رائدها فى دراستها اعتبار الحبشة مستعمرة إيطالية يجب أن تستغل لصالح إيطاليا أولا . وقررت فيما قررت أن أثر خزان بحيرة طانا فى النيل الأزرق لرى السودان ومصر غير محقق ؛ لأن الغرين الخصب لا يأتى من البحيرة بل من روافد النيل

الأزرق . وقد استبعدت الحكومة الايطالية تنفيذ المشروع بالطريقة المقترحة، وادعت بأن هذا يمنع أفريقيا الشرقية الايطالية من الاستفادة من أهم مواردها المائية . ووجهت همها لاستخراج التيار الكهربائى من مراكز تبدأ عند انحدار مياه النيل الأزرق من اينجيريار ، واقترحت أن يكون مركز مثلا عند مساقط طيس وها وآخر عند انحدار رافدى الثور والثول . واقترحت البعثة مشروعاً اخر استمدت فكرته من اقتراحى دوبوى الذى زار البحيرة سنة ١٩٠٢ ، وشيسمات الذى زارها عدة مرات بين سنة ١٩٢٦ وسنة ١٩٢٩ ، وهو شق قناة من خليج زوداى جرار فى غرب البحيرة تحمل المياه إلى رافد البلاس . وينشأ عن ذلك عدة مراكز لاستخراج التيار الكهربائى وررى منطقة واسعة تصلح لزراعة القطن . ويمكن أن تستخدم القناة لخفض مستوى البحيرة ؛ وبذلك يمكن الاستفادة من الأراضى الواسعة الخصبة الناشئة عن الانخفاض .

ومما يسترعى الالتفات أن الفنيين من الطليان اعترضوا على تنفيذ المشروع ، بأن هناك عوامل وظواهر مختلفة لا تزال مجهولة أو غير مضبوطة . فالمشروع مقبول من الناحية النظرية ، ولكن هناك نقصا شائنا فى دراسة الشبكة المائية الواسعة الممتدة على النيل الأزرق من البحيرة إلى الحدود السودانية ، كما يحتاج تنفيذ المشروع إلى معرفة أحوال المياه فى النيل الأزرق معرفة دقيقة .

الفائدة

إن إقامة سد عند منبع النيل الأزرق من البحيرة سيجعل من البحيرة خزاناً يحتفظ وراءه بكمية من المياه تتجمع فى الفجوة الطبيعية المحيطة بالبحيرة . ولن يضر ارتفاع الماء فى البحيرة إلا بعض الكنائس والديارات الموجودة فى بعض الجزر .

والمقترح أن يرفع السد مستوى الماء فى البحيرة من مترين إلى خمسة ، وترتفع كية المياه من ستة مليارات من الأمتار المكعبة إلى أربعة عشر ونصف مليار يستفاد منها بنحو ١٢ مليار من الأمتار المكعبة ، أى ثلاثة أضعاف ما نحتفظ به فى خزان أسوان تقريباً .

وتحجز المياه فى موسم الأمطار من شهر يونيه إلى شهر سبتمبر ، وتصرف بحسب الحاجة فى أشهر الانخفاض الثمانية .

وستكون الفائدة المباشرة لهذا المشروع زيادة الأراضى المزروعة فى السودان ومصر زيادة كبيرة . وكذلك يمنع حجز مياه البحيرة فى موسم الأمطار خمسة فى المائة على الأقل من مياه الفيضان .

وقد رأت الحكومة الأتيوبية أن تنفيذ المشروع سيعود عليها بالفائدة . فانه من الناحية الصحية سيقضى ارتفاع الماء على المستنقعات المنتشرة هناك والتى تعتبر موطن جراثيم الملاريا . كما سيسبب تصريف المياه الكشف عن منطقة واسعة حول البحيرة مغطاة بالغرين صالحة للزراعة ، وسيعم الرخاء جميع أهالى المنطقة نتيجة لما سيصرف من المال فى دفع أجور العمال ووسائل النقل .

فالمشروع فى ظاهره وباطنه مفيد كل الفائدة لمصر وأتيوبيا ، وهو مفيد للسودان على أى حال ، لا يحتاج فى تنفيذه إلا أن تستأنف المفاوضات بين مصر وأتيوبيا ، وبخاصة بعد أن ذللت عقبة المواصلات . فقد مهد الطليان أيام احتلالهم لأتيوبيا طريقاً للسيارات يبدأ من أديس أبابا إلى أديس ألم فدبرا مرقص ، ثم يمر بغرب البحيرة متجهاً إلى مدينة جوندار فى شمالها ، ومنها إلى أسمرا فمصوع . كما مهدت طريقاً من حدود السودان إلى أديس أبابا ماراً بأديس ألم .

مراد كامل

اللحن الضائع

كان من منهاج حياتنا اليومى أن نلتقى . وكانت الندوة مقهى أنيقاً بشارع أكسفورد فى لندن . وكان للقائنا ميعاد موقوت لم نتخلف عنه طوال سنوات التحصيل الثلاث الطيبة التى قضيناها فى تلك المدينة الخالدة . وكان هو يمضى أكثر ساعات نهاره وطرفاً من الليل فى مختبر تجاربه الكيمياوية ، وكنت أنا أمضى مثل ذلك من أيام الشباب الجاد فى مكتبات الجامعة الحاشدة . وكان حرصنا على اللقاء فى الندوة المختارة عظيما ودائماً على رغم كل ما قد يستجد من الظروف . وكنا نتفق كثيراً فى مجالس السمر العامرة تلك ، وكنا نختلف كثيراً أيضاً ، وقد نمضى عنها غضاباً وقد نمضى فرحين . ولكننا كنا نعود ، فى الركن المعين والموعد الموقوت . ولم أنقطع أنا عن السعى إلى تلك الندوة منذ تعارفنا ، ولم ينقطع عن مثل ذلك صاحبى غير مرة واحدة ! وما كانت هذه المرة لتذكر لو لم تكن على النحو الذى تمت عليه . ومع بعد العهد بما قد تم وبالجو العامر بالسعادة الذى كان يغمرنا يومئذ ، فما زالت ذكراها عالقة بذهنى كأنها وقعت بالأمس القريب ! لقد انفرط بعدها عقد صفائنا ، وما أحسب أنه عائد أبداً . . .

. . . فى مساء اليوم السابق لانقطاعه كنا جلوساً على العادة فى الندى المختار . وكان الحديث يشتمل على أفانين شتى من الجد والفكاهة ، وقطع من الموسيقى المزجة تنتشر فى جو الندى ، ومن حولنا صخب الناس ، وضجيج السيارات وهمس رواد المكان . وفجأة أدارت العاملة الموكلة بالاسطوانات اسطوانة لم يلبث صاحبى عند سماعها أن وقف حديثه بغتة لأجلها ، وأنصت إنصاتاً نقله مما حوله إلى جو خاص . وأمضى فى سهومه نحواً من دقيقة تجهمت فى خلالها أسارير وجهه الأسمر ، وانعقد حاجباه واتسعت عيناه السوداوان ، وارتسمت على جبينه آثار الرجوع إلى حلم قديم . ثم أدار وجهه نحوى وقال : « اصغ . . هذه

قطعة من قطع ريمسكى كورساكوف الخالدة . هذه « شهر زاد » ؛ عروس الشرق تتهادى فى موكب زفاف غربى . »

وأنصتّ — ولم يكن لى علم كعلمه بالموسيقى — فأعجبنى ما سمعت ، واستخفتنى ألحانها ، وخيل إلى أنى فى جو علوى ، لا هو شرقى خالص ولا غربى خالص ، بل مزاج إنسانى رفيع . وأنصت أيضاً فشعرت أنى لا أسمع هذه الألحان سمعاً فقط ، ولكن حواسى الخمس جميعاً قد تمازجت فهى حس واحد واستحسان أتم لهذه الأنغام .

ونبهنى صاحبى ، قال : « اسمع هذا الترديد » وجعل يساير الاسطوانة بصفير أوقعه بحساب الموسيقى الرائعة ، هذا ترديد لليالى الألف التى قضتها شهر زاد المرأة الحكيمة مع الملك الفذ شهر يار . ومضى وقت — لست أدرى ما مداه — ثم تخافتت الألحان وتخافتت حتى غمرتها ضجة المكان . وظل صاحبى ساهماً ، يعاود صفيره بين آونة وأخرى . ولم أشأ أن أقاطعه ؛ فقد كانت تنم هيأته على استحسان ماهو فيه ، وكنت أنا أيضاً قداستحسنت اللحن فأعجبنى ترديده فسكتّ وأصغيت.

ثم أفاق صاحبى من حلمه ، وقال : « هذا اللحن كان ضائعاً — أعنى من ذاكرتى — وقد وجدته وسأجدها معه ! هذا اللحن الذى هزك هنا وسط لندن قد كان هزنى من قبل . لقد سمعته قبل ست سنين على حفافى الصحراء فى مصر الجديدة . وظل فعله يستجد فىّ كلما سمعته وأينما سمعته . وقد حفظت الترديد كما حفظت أكثر أنغام القطعة . وكان من رأيى إذا جلست وحدى أن أعيدها على نفسى . وذات مرة — وقبل أن ألقاك بعامين — كان القطار يقلنى من باريس إلى هذه الأرض ، ولم أبال الناس الذين معى أول الأمر ، فطاف بذهنى أن أردد لحنى المختار ، ففعلت ، وظللت أعيد ترديده وأنا أستطيب ذلك ، حتى ذكرت أن ذلك قد لا يطيب لمن حولى ، فكففت خجلا . وكنا ثمانية ركاب فى المقصورة : شابين مصريين وزوجتيهما وأنا وثلاث سيدات بينهن إنجليزية واحدة . وقد بادرتنى الانجليزية — وكانت أصباهن وأحلاهن — فقالت : « عفواً ، أليس هذا الترديد من قطعة شهر زاد ؟ » قلت : « بلى ! بعينه » . فردت تقول : « رائع ! » قلت : « صدقت » . واستمر الحديث بيننا ، وجر الحديث إلى معرفة ، والمعرفة إلى دعوة لبيتها ، ثم أفضى ذلك إلى صداقة لم تلبث أن انقلبت حباً آخر الأمر . وكانت شمس مصر الحبيبة لم يزل أثرها فى نفسى وقلبى ، ودفئها

الذى يبعث الحياة كنت لا أزال أنعم به ، فكان حي من أثر ذلك عنيفاً . . . »

قال صاحبي : « وفجأة ألفيتنى ذات يوم أفقد اللحن الأثير ، وأفقد دين فى ذلك اليوم نفسه ! »

. . . قال : « كنا قد اتفقنا على أن نلتقى على رصيف إحدى محطات القطار الكهربائى تحت الأرض ، وتوافينا فى الموعد المضروب ومضيت بها إلى حديقة سان جيمس ، وكان يوماً تضن بمثله الطبيعة على الناس فى انجلترا : زانته الشمس الساطعة ، وانقشعت عن وجه السماء الغيوم غير قطع صغيرة زادت زرقتها روعة . وكانت ساعة المغرب تاجاً لذلك النهار المشمس ، فقد تجمعت دكنة الغيوم وزرقة السماء وذهب الأصيل لاخراج مشهد من المشاهد النادرة فى تلك الآفاق . وكنا — دين وأنا — نستجلى ذلك المشهد فى مجلسنا فى الحديقة حتى غابت الشمس واضمحلت حمرة الشفق ، ثم لم تلبث الظلمة أن خيمت بعد أن غلبت بقايا النور فطمستها ، فأمسينا فى عتمة تتبين العين من خلالها الأشباح لا تفاصيل المرئيات . واستدارت دين نحوى وقالت : « أعجبك المشهد الجليل ؟ »

« قلت : نعم ! قالت : نعم وحسب !

«والواقع أن «نعم» وحدها لم تكن تكفى للاعراب عن شعور المرء و إعجابه بما قد رأى فى ذلك المساء ، غير أن عاملين اجتمعا بغم ثقيل على صدرى فى تلك الساعة فجاء الجواب مختصراً على هذا النحو ؛ فغلبة الظلام على النور تكرب نفسى دائماً ؛ وقد سعيت إلى التفريج عنها باللحن الأثير فضاعت كل محاولة عبثاً لاستعادته يومئذ ، لم أستطع قط أن أذكره ، وفقدته ، وفقدتها معه أيضاً كما قلت . فقد اشتد الضيق بصدرى حتى لم أكد أطيقها ، فكان كل جواب صدر منى لها خشناً ، وكل عبارة قاسية ، وكل لفظة وخزاً أليماً لنفسها الرقيقة . وقد أدهشها ذلك منى ، وتلطفت بى ، وحاولت أن تترضانى وتستأنسنى ، فلم يجد ذلك . وأمست آثار الظلماء تخيم على ، وفقدان اللحن يكربنى . وقد حاولت دين أن تذهب ما بى بمحاولات شتى من عندها ، فاقترحت أن نسير فى مماشى الحديقة الناضرة ، فقمت و إياها ، وكان الظلام قد أحكم إرخاء سدوله وشمل الحديقة كلها ، وأطبقت معه الغيوم على السماء إطباقاً ، فانتشرت كثيفة على صفحتها ، وحجبت كل نجم كان قد بدأ متلألأ فيها . وسرنا فى المماشى التى كانت تبدو كالأخاديد

السود ، وأوغلنا ونحن ساكتان وكل همى أن أستعيد لحنى الضائع لأسترد بذلك طمأنينة نفسى ، ولكن كل محاولة كانت باطلة . وبدا لى أن كل جهد أبذله فيضيع يزيد كرب نفسى ويبعدنى عن اللحن بعداً ينضاف إلىّ به هم جديد . وشعرت أنى فى ذلك الجو الذى لفه السكون والظلام حبيس، وأن رئتىّ لا تجدان من الهواء الطلق كفاية تعينهما على التنفس ، فأنا أختنق . فالتفتت إلى دين وقلت لها : « دين ! إنى تعب . جد تعب ؛ فهل تأذنى لى فى الاضطجاع على العشب خمس دقائق فقط ؟ »

« قالت وقد أخذتها الدهشة : ولماذا ؟ ولكنه مبلول وأخشى عليك البرد . فلم أجبها وأفلتّ يدى المشبوكة فى يدها وجلست متخاذلا ، ثم ما لبثت أن اضطجعت .

« كان المشهد رائعاً : ظلمات شاملة فى السماء، تتلقاها أشباح الشجر القائم عند ملتقى الأفق فى الجانب الشرقى ، ويقابلها من الغرب خط من الأنوار المنبعثة من الشارع البعيد . وكنت — وأنا مضطجع — أستطيع أن أتبين قوام دين الجميل وبعض قسمات وجهها ، وبخاصة بريق عينيها وطرف أنفها ، وكانت تطل على من عليائها ، فكأنها مخلوقة هابطة من الظلمات العلا . . أعنى السموات . وظللت مدة وأنا سادر أتأمل وأحلم ، وقد اختلطت الحقائق فى عينى بالرؤى ؛ فقد كان للظلماء التى صبغت كل شئ بلون حجابها القاتم أثر فى ذلك الخلط .

« فى تلك الضجعة على أعشاب حديقة سان جيمس فقط تبينت أن البشر خلق علوى وأن موضعه السموات . لقد رأيت الأرض نجما سابحاً فى فضاء رحب كما يصورها الفلكيون حقا . إذاً فليس بين أرضنا الأم وبين نجوم السموات من فرق فى الأصل . . كل شئ بدا لعينى يمتّ بصلة للأشياء الأخرى التى فى هذا الكون : الأرض والانسان والنبات والنجوم كلها خلق واحد ومادة واحدة .

ونبهنى من حلمى صوت دين الرقيق يقول : « مضت عشرون دقيقة . وأخشى أن يصيبك البرد فقم . » وسكتت ، فجعلت أصداء كلماتها تتردد فى أذنى وفى نفسى . وقمت فخرجنا وتعشينا وعاد إلى نفسى بعض هدوئها و إن كنت ما أزال شاعراً بأن فى قرارتها شيئاً نفيساً مفقوداً . »

قال : « ومضت على تلك الليلة قرابة ثلاث سنين . لم أذكر اللحن الضائع ولم أر فى خلالها دين . ولم أسع إلى سماع الأسطوانة التى تحفظه — وذلك

ميسور — لأن سحر المصادفة يضيع منى وتفوتنى متعته . كانت المصادفة هى التى وافقت بينى وبين دين وهذا اللحن ! وقد مضى اللحن وضاع وسط ملايين من ألحان الكون الرحب التائهة . ومضت دين أيضاً وضاعت وسط هذه الملايين من سكان لندن . وما بى من حيلة إلى خلق المصادفة ، و إن كنت قادراً على إيجاد اللحن . ولكنى أرى المصادفة قد جاءت الآن : عاد اللحن ، و إنى لعلى يقين بأنها هى أيضاً ستعود . »

فى الليلة الثالثة غاب صاحبى على غير عادته عن الندى ، وامتد أمد غيابه أسبوعاً بأكمله . وقد قلق أصحابى لغيابه ، وافتقدوه وافتقدته أنا أيضاً بأشد مما افتقدوه ، ولكن كان فى نفسى من حس الطمأنينة بالتقاء الحبيبين وعودة الصفاء بينهما ما لم يكن مثله فى قلوب الآخرين . . . وصح ما قد توهمت وأحسست ، فقدتبينت أنه نعم بصفاء لقياها طوال ذلك الأسبوع ؛ وعاد ليطمئننا ثم يستأذننا فى الغيبة من جديد . . . وكان ذلك إيذاناً بانفراط العقد ، وقد كان !

فخرى شهاب .

انطلاق . . .

[إلى الذين أرادوا شراء قلمي
فباعوا ضمائرهم]

إني اعتصرتُ مدامعي من مهجتي — وسكبتُها لخواطري قربانا
وأقمْتُ محرابي ... وكان خطيئةً — عند الورى فأحلتُه إيمانا
لي مَذْهَبُ الغرِّيد... أنشد فرحتي — وشقاوتي . وأبثها ألحانا
أنا طائرٌ مُتَفرِّدٌ بصبابةٍ — فاضتْ على أنغامه تحنانا
يا هذه الدنيا عبدتُكِ مخلصاً — وتخِذْتُ بين رياضكِ الأفنانا
لي ذلك الأفق المذهَّبُ . . والضحى — والفجرُ يخفق ... والدجى سهمانا
لي هذه الشمسُ الكبيرة أحرقتْ — سحباً همَتْ فوق الثرى إحسانا
لي ذلك البحرُ العظيمُ وما طوَتْ — أحلامُهُ فرحانَ أو غضبانا
هذي السماء تجملتْ لي فارتدتْ — عند الغروب وشاحها ألوانا
وتزينتْ لي في الظلام فنسَّقت — بالأنجم النشوى لها تيجانا
الليل ... كم أوقفتهُ مترنحاً — والنايُ قد صيَّرتهُ سكرانا
والنور . . كم أذهلتُه فتقدمت — منه بشائرُ تغمر الأكوانا
والزهر ... كم أرقصته فتفتَّحت — أكمامُه وتضوَّعت بستانا
هذي أغاريدي ... فسَلْ عنها الهوى — والحب والأفراح والأحزانا
إني وهبْتُ لكلِّ مَعنىً غنوةً — وأقمتُ تمثالا له فتَّانا
غنَّيتُ حتى للدمامة مرسلاً — في كلِّ ناحيةٍ دمى ألحانا
هذي أغاريدي ... فكيف بحبسها — وأغصُّ لا أرضى لها إذعانا

هذى أغاريدى ... فكيف بحبسها   وأرى السما قد أرهفتْ آذانا
هذى أغاريدى تفورُ بأضلعى   وتشُقّ مُنْفَسَحاً لها ظمآنا
لبيك يا قلمى مسطرَ شقوتى   ومسرتى للخالدين بَيانا
لبيك ياقلمى ... غمستُكَ فى دمى   و بثثتُ منك مشاعرى ألوانا
أنا لا أغنّى للجمادات التى   ضاقتْ بها تلك القبورُ هوانا
تمشى فتحسبها نفوساً ... إنها   كُتَلٌ تدبّ على الثرى أبدانا
هل غيَّضوا النهر المبارك سيره ؟   أم صَيَّروا هذا السحاب دخانا ؟
هل أوقفوا ركبَ الحياة ؟ وأطفأوا   شمسَ الأصيل ؟ وبدَّلوا الإنسانا ؟
هل صيروا الليل البهيمَ صحيفةً   بيضاءَ ؟ أم هل أنبتوا الكثبانا ؟
هيهات ... لن يقووا على حبس الذى   فى خاطرى متدفقاً ... هتّانا !
أنا طارحٌ عنى عباءةَ مجدهم   ولقد بُليتُ بحملها أكفانا
خلعتْ لأشواق الحياةُ قناعها   وأباحتِ السرَّ الخبئَ عيانا
وتسرَّب الوجدانُ بى متغلغلاً   خلفَ المدى متطلعاً حيرانا
ياروحَ هذا الكونِ ... إنى عابدٌ   لكَ ناثرٌ صلواته قربانا
أستقبل الدنيا وفى شبّابتى   نغمٌ يقدّس ما أرى ألحانا
وأحبُّ هذا السهل مُنْبَسطاً ، كما   أهوى الجبالَ وأعشَقُ الوديانا
وأقاسمُ الليلَ الحزين شجونه   وأساجلُ الفجرَ الجميلَ حنانا
وأطيرُ حتى أستحيل غمامةً   وأرفُّ طيراً شادياً لهفانا
قد عشتُ هذا الكون بين جوانحى   وتمثلتْه مشاعرى ألوانا
حريتى مِلْكى ولستُ مُخلفاً   إلا السجون وخلفها السجّانا !

عبد الرحمن الخميسي

الأختان

كان لى بنتان ، كبراهما سمراء ، هيفاء ، فاحمة الشعر ، باسمة الثغر ، لها وجنتان ورديتان ، وعينان دعجاوان ، وجسم نحيل . ولدتها أمها سهلة ، فجاءت إلى هذه الدنيا سهلة ، وخرجت منها سهلة . وكانت وهى رضيع كثيرة البكاء ، قليلة النغاء ، تتبرم أمها ببكائها مع أنها البكر ، وتضيق بصراخها ؛ فلما أدركها الفطام هدأت ، واطمأنت ، وألفت المناغاة ، واعتادت الابتسام . فكنت إذا دخلت البيت أقبلت علىّ ، واندفعت إلى ، وأسلمت إبطيها ليدى ، وارتفعت عليهما إلى شفتى ، فأقبلها ولا أشبع من التقبيل ، وأحتضنها وأضغطها على صدرى ، وأناغيها ، وتستغرقنى المناغاة ، حتى تصرفنى عن الطعام والشراب ، فتتبرم أمها كما كانت تتبرم ، ويسخطها نغاؤها كما كانت تسخط على بكائها ، وتضيق بفرحها الذى يصرف أباها عن زاده كما كانت تضيق بترحها .

كانت إذا جرت اندفعت ، وإذا اندفعت تعثرت ، وإذا تعثرت همت فى الحال وهبت ، واندفعت واصطدمت ، وبكت ، ثم لا تلبث أن يعاودها الابتسام. وكانت وهى دون العاشرة مثلها وقد جاوزتها حركة ، نشيطة ؛ لاهية ، عابثة؛ لا تفارقها عينى ولا حى ، ويهفو إليها فى الغيبة قلبى ، وأخشى على نحولها من عبث الأيام وعوادى الأسقام ، وأرعاها كما أرعى النبتة الرقيقة الدقيقة ، وأسقيها ماء الحياة من معين حياتى ، فهى الفراشة المتنقلة ، الطروب ، الهابطة ، الطائرة ، التى تجعل فصولك جميعاً ربيعاً ، ولا تذكرك أبداً بخريف الحياة .

وكانت روحية إذا حل الشتاء أطل وجهها النضير المستدير الجميل من فروها الوثير ، فرأيت لعينيها بريقاً يدفئ قلبك ، ولثغرها نوراً خليقاً بالاجتلاء ، ولورد خديها ناراً من وهج ذكاء ، ولطلعتها معنى يشع بالرجاء . كلها حرارة دافئة دافقة ، من نار ونور ، ونشاط وحبور ، قد قدر فى اللوح المسطور أن يكون كله نزيل القبور .

وولدت حورية بعد مولد روحية بعامين اثنين ، وتعسرت ولادتها فترة قدرية ، ولبثت أياماً لا تعرف لها هوية ، ثم أشرقت طلعتها ندية بهية ، وتفتحت

الملامح عن وجه ملئ ، وخلق هنئ ، وهدوء ملحوظ ، فكأنها خبرة الأيام اكتسبت قبل الخبرة ، ونهية المرام اكتملت قبل الحسرة .

وكانت حورية متعة أمها ، أثيرة عندها ، لا تبكى فى الرضاع على نقيض أختها ، إذ وُضعت تواضعت ، و إذا حُملت تهالكت ؛ لا تكلف أمها مشقة ولا ترهقها عسراً ، تحبو إلى غير غاية ، وتقف بلا غاية ؛ وتظل الساعات لا يسمع لها حس ، لا ترعج ولا تنزعج ، إذا أبطأ عليها الرضاع وهمت بالصياح استدركت وأسعفت . فكانت على الجملة الطفلة التى تنشدها الأم : هدوءً واستسلاماً ، ورضا وقناعة ، وسكوتاً يعينها على تصريف ما خلا الطفولة من شئون .

وكبرت حورية وا كتنزت وربت بيضاء ، شقراء ، زرقاء العينين عميقتهما ، لا يدرك لعمقهما مع الصفاء قرار ، فريدة تمثل لوناً مرهوباً من ألوان الجمال . تميل إلى الوحدة ، ولا تأنس إلى الأتراب ، وتتجنب الضيف ، وتتعرض للعتاب ، وتعود من كل ذلك بسمعة النافرة ، وسخط النسوة ، حَذِرة متسترة لا يعرفها الرجال .

ونضجت الأختان كبراهما متأخرة ، والصغرى مبكرة ؛ وتبدت فتنتهما قبل الأوان ، وتفتحت الزهرتان عن مختلف الألوان ، وتعددت فيهما الشيات ، وتعارضت السمات . وكنت أعنى بتتبع نشأتهما منذ الصغر ؛ وأرعى نموهما حتى الكبر ، فخشيت كل الخشية على روحية ، ولم ينشغل بالى من نحو حورية . وتعقبت سلوك الأولى فى السن العاتية ، فرضيت عنه واطمأننت إليه ؛ لأنه لم يعلق به غبار ، فهى سريعة الخطى لا يدركها هراء الغوغاء ، وهى ذكية الفؤاد لا يزهيها إطراء ؛ وهى فاضلة لا يميلها إغراء .

وخطبها فى الثامنة عشرة شاب من خريجى الفنون الجميلة ، وشغف بها ، وخالطت فنه ، وأذكته ، وعلق عليها وعلى مستقبله الآمال الكبار .

وجاء الشتاء كعادته لينضر خديها ، و يروى وردتيها ، فرماها على غير عادته بداء عضال ، فازداد ضرام الخدين لكنه حال لونهما ، وشابت حمرة الوجنتين صفرة فيما يليهما ، وكابد جسمها النحيل نحولا فوق نحول ، وطال اعتكافها والتزامها الفراش . وفى ساعة صافية من ساعات النهار وقف بعتبة الحجرة زائر غريب ، لا عهد للسعيد بزيارته ، أو لعله لا يزور إلا السعيد : ملك أبيض الثوب ، ناصع البياض ، مخفوض الجناح ، يمد ذراعيه إلى روحية فى حنو المشتاق ، فتسلمه الروح ! فى عمر الزهرة ، وطور الفكرة ، لم تصبح بعد

حقيقة . وتتجلى السماء من حجرة روحية ، وينشر الملك الجناح وقد ضم إلى صدره روحها الطاهرة قبسا من نور ، أو جذوة من نار ، ما كاد الملك يصعد بها حتى أظلمت الدار ، وخبت النار من الجسم الهامد الممدود .

أيها الدمع ! ما بال العين المتفجرة والسيل الجارى قد كتب على مائه أن يغيض ! ما بال الذهول والطرف الساهى قد منع الماء أن يفيض ! أيقف الجمود كذلك بالباب يطلب فريسته فلا يجد ما يتملكه سوى المحزونين ؟ أتذهب قرة العين فلا تبكيها العين ، ولا تذرف عليها الدمع السخين ؟

أيتها العين تفجرى كما غِضْتِ ! أيتها الجيوب انشقى !

ويرتفع الذهول ، ويرتفع الصياح ، وينسكب الدمع الغزير ، إلا حورية فيأبى الذهول إلا أن تكون الضحية ؛ فهى فاغرة فاها ، جاحظة عيناها ، لا حراك بها ، ولا حياة فيها ، أو لا دلالة فيها على الحياة .

وتفتقد حورية بعد ذلك فتلفى فى مخدعها مطرقة ، يزداد انزواؤها ، ويتعاظم انطواؤها ، وقد سارت من قبل هذه السيرة فلم يطمع أحد أن تتبدل سيرتها . لكن ابنة السادسة عشرة توشك اليوم أن تذبل نضرتها ، ويوشك لونها الزاهى أن يغيب ويتولاه الشحوب .

ويقع ما كان يوشك أن يقع فيجف العود ، ويسير فى البيت خيال بعد أن كان المثال ، وتنقلب العاقلة المقلة مكثارة ، والصامتة ثرثارة مهزارة ، والمتئدة متعجلة متسرعة . ويخرج الوقار المطبوع عن طبعه فتبدو الخفة وتنقشع العزلة ، وتقبل حورية على الضيف تسرف فى تحيته ، ويراها الأتراب فيبدهها العجب العجاب ، وتتساءل أحورية هذه أم روحية ؟ أيها الموت الطالع علينا فى ثوب الملك ! لقد اختطفت بدل الروح روحين ، فحملت إحداهما إلى السماء ، وخلفت الأخرى على الأرض شوهاء ، فسلبتنا كل غراء !

أيتها الروح التى فى السماء أدركى الروح التى على الأرض ، فما عاد ينفعها البقاء فى دار الفناء !

كان لى بنتان ، كبراهما توفيت ، وتنكرت الصغرى ، ولم يبق منهما سوى الذكرى . والذكرى تؤلم المحزونين ، وتنفع المؤمنين ، وترفع إلى عليين . فاللهم ألحقنا بالسابقين !

محمود الدسوقى

خطرات فى الفنون الجميلة

الفن لغة : الكثرة والأنواع والألوان ، ومنه الأفنان والفينان والأفانين والفنون . ولعل أحدث مشتقات هذه الألفاظ وأقربها إيضاحاً لتلك المعانى ما اصطلح العامة على التعبير عنه بالتفنين والتفانين . والسائر أن الفن يحمل معنى الفنون ، وأن مدلول اللفظ مفرداً لا يختلف كثيراً عن مدلوله جمعاً ، فلا غضاضة أن يقال فن الأدب وفنون الأدب . ولا فرق فى المعنى بين فن العمارة وفنون العمارة . ولكن مدلول اللفظ أخذ ينكمش من جهة و يعم من جهة أخرى . والذى أعتقده أن تفسير كلمة « الفن » قد وقف عند حد كل معرفة لم تنحصر أطرافها فى أسس محدودة ، أو أنه كل معرفة قبلت التنوع فى شكل من أشكال التجديد والاقتباس ، أو الزيادة والحذف . أى إننا إذا أردنا أن نطبق هذا المعنى بصفته العامة ، أصبحت العلوم كلها ، وأصبحت أنواع المعرفة كلها تدخل فى نطاق الفنون . ولكننا فى صدد تحديد المعنى لا تعميمه ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتمييز اللفظ أو نعته . فلنتفق على أن نميز الفنون بأبوابها ، كما اتفقنا على أن نميز العلوم بخواصها ، فنفرق بين علوم الحيوان والنبات والطبيعة والكيمياء والرياضة، كما يجب أن نفرق بين فنون الأدب والحديث والفروسية والتجميل والطباعة ، فلكل من هذه المصطلحات مدلول واضح صريح ، ولعل الأمر كذلك فيما يتصل بالفنون الجميلة .

و يبدو لى أن الذى يقصد بالفنون الجميلة هو كل معنى متجسم من خواطر الرأى والفكر التى ترمى إلى التعبير عن الجمال وعن الحسن من الأشياء . ومع ذلك فأنا مقتنع بأن هذا التفسير ناقص غير واضح ، أو أنه أكثر إجمالا مما يذهب الفكر إليه عند ذكر الفنون الجميلة . فالشعر والغناء والرقص والموسيقى والتصوير الآلى تجسيم لمعنى من معانى الجمال ، ومع هذا فالحديث فى الفنون

الجميلة لا ينصب عليها فى أغلب الأحيان ؛ إذ أن الكتاب والأدباء والعلماء قصروا مدلول الفنون الجميلة ، فى اللغات الأوربية ، على فنون العمارة والنحت والتصوير ، وهى التى يعبرون عنها فى مصطلحات تلك اللغات بما تطابق ترجمته الحرفية لفظى الفنون الجميلة Beaux-Arts, Fine Arts, Die schönen Kunste والخير أن نتبع ما اتبعه هؤلاء الكتاب والأدباء والعلماء ، وأن نتفق على ما اتفقوا عليه . أما الفنون التى تتصل بالعمارة والنحت والتصوير أو تتفرع منها فقد أطلق عليها اسم الفنون التطبيقية ، أى التى تطبق صفات الفنون الجميلة على نواحى الصناعة ، وهى فنون الخزف والأثاث والحديد المطروق والحفر على العاج والخشب والنسيج وما شابه ذلك .

وكذلك اتفق علماء الفلسفة والتاريخ فى أوربا على تفسير الفنون الجميلة بأنها كل ما يعبر عن الجمال ، مما تخرجه يد الانسان ، بعد التفكير أو الخيال ، من مادة طبيعية أو صناعية ، لها صفة البقاء والدوام . ولسنا نجد هذه الصفات كلها مجتمعة إلا فى تلك الفنون التى ذكرتها . فالشعر مثلا يفقد صفتين أو ثلاثاً من هذه الصفات . فأنت تحس بجمال الشعر دون حاجتك إلى صياغته من مادة طبيعية أو صناعية ، كما أنه ليس لليد التى تسجل شعر الشاعر أثر فيما قد ينطق به هذا الشعر من جمال . والشعر كذلك تعوزه صفة البقاء ؛ إذ أن الشاعر يستعين بأداة خارجة عن موهبته الشعرية لتحقيق هذه الصفة . وقد يبدو غريباً أننا حين نخرج الشعر من الدائرة الاصطلاحية للفنون الجميلة ، نستطيع أن ندخل فى هذه الدائرة نفسها ذلك الخط الذى ينقش به الشعر فى رسم بديع ، لأن فى الخط نفسه جمالا سجلته يد الخطاط ، بعد سعى و إيحاء وتفكير ، وأصبحت له من الحجارة أو من الجلد أو من الورق أو من القماش الذى نقش عليه صفة من صفات البقاء والدوام .

ولست فى هذا أفضل فناً على فن ، أو أقارن فناً بآخر ، ولكنى أسعى إلى تحديد معنى لمصطلح الفنون الجميلة ، وأود أن أساير اتجاه اللغات الأوربية ، فهذه المادة حديثة العهد فى لغتنا وفى آدابنا ، وجدير بنا ألا نرمى بالخلط فى الكلام عنها والبحث فى أبوابها ، مادام لنا على كل حال مخرج لكل فن فى تمييزه، وما دام علماؤنا وأدباؤنا يتحدثون عن أجيال بعيدة عن فنون الأدب والشعر والموسيقى ، وعن أنها فنون جميلة . لا نزاع فى ذلك ، ولكنى أعرف أنهم أطلقوا

عليها يوماً لفظ الفنون الجميلة ذاته ، أو لفظ الفنون مجرداً ، من غير نعت أو تمييز لكل لون من ألوانها .

ولعل فى إيضاح تلك الصفات الخمس للفنون الجميلة ما يبرر حصر مدلول هذا اللفظ على ما ذكرت من فنون العمارة والنحت والتصوير . فصفة الجمال شرط بديهى يفرضه تخصيص هذه الفنون بنعت « الجميلة » . وسنعود إلى الادلال ببعض خطرات عن الجمال . و بديهى أيضاً أن يشترط فى تلك الفنون تدخل يد الانسان فى إخراجها . فقد تبدو صخرة فى الفضاء ، عن قرب أو عن بعد ، على هيئة تمثال بديع ، تتحرك مشاعرنا لرؤيته ، ولكنها الطبيعة هى التى نحتت هذه الصخرة فأخرجت منها صورة التمثال ، فهو تحفة من تحف الخليقة ولا سبيل إلى حصره فى دائرة الفنون الجميلة . و إلى هذا فالطبيعة من حولنا كلها جمال و إبداع و إيحاء لرجل الفن ولمنتجات الفنون . أما أنها يجب أن تكون مصوغة من مادة طبيعية أو صناعية ، فذلك تفسير لصفة تجسيم تلك الفنون للجمال والمادة وسيلة التجسيم ، ولهذا عرفت الفنون الجميلة بالفنون المادية أو الملموسة .

والفكر شرط واجب لتقدير الفنون كما هو شرط واجب لتكوينها . والفكر ينصب على الكلمة فى أوسع معانيها ، فتشمل الخيال كما تشمل اللعب واللهو . فقد يلهو الطفل و يجسم عجينة من الطين أو يسطر خطوطاً على قطعة من الورق ، فتتجلى من هذه أو تلك صورة بديعة يعدها بعض الناس تحفة فنية رائعة . ولكن الصورة التى تتركها على القرطاس رقعة من حبر مسبوك ، سقط عفواً عليها وسال ، وتشكل على صورة من الصور ، ليست من الفن فى شىء ؛ إذ لم يحدد الفكر هذه الصورة ، ولم يشكلها الخيال . وكذلك قد يقطع الرجل من الجبل قطعة من الحجارة ليرص منها أساساً لبيت ، أو ليجسمها فى شكل من الأشكال ، وقد تترك هذه القطعة فى صخر الجبل فجوة أو تجعدات تتجمع منها صورة جميلة ، ولكن لم يكن للخيال أو للفكر فضل فى صياغتها ، فهى فلتة من عمل الفنان وليست تحفة من تحف الفنون .

وأخيراً تشترك فنون العمارة والنحت والتصوير فى صفة البقاء . فالبناء الذى يشيد فى مناسبة خاصة ليهدم بعد ذلك تنتفى منه صفة الفن الجميل . والتمثال الذى يصاغ من الشمع فيوقد و يسيل ، أو من الحلوى فيؤكل و يلتهم ، ليس له موضع فى متحف للفنون .

وليس الأمر أمر اتفاق على لفظ شامل لفنون جميلة ثلاثة ، إذ أن العمارة والنحت والتصوير فنون تتفق معانيها ومراميها ، وترتبط أسبابها بنتائجها ، بحيث لا غنى عن تحديد اسم شامل لها ، ولا مفر من تمييزها عن بقية الفنون بتلك الصفة البارزة وهى الجمال .



قناع رأس من فنون الكونغو البلجيكية يبين مدى اختلاف تقدير الشعوب لمعنى الجمال تبعاً لاختلاف درجة تهذيبهم وثقافتهم

وقد اختلف الناس فى تقدير معنى الجمال وتفسيره ، وكان اختلافهم هذا تابعاً لاختلاف مقدار تهذيبهم وثقافتهم . ولهذا قد يكون من الصعب تعريف الجمال تعريفاً دقيقاً . ويرى الفلاسفة أنه الانسجام بين أجزاء الشئ المختلفة ، أو النسبة المعينة بينها . أو أنه الصلة التى تربط حساسيات النفس فتحركها ،

والوحدة الوجدانية التى تجمع بين صلات مشاعرنا المختلفة ، فتدخل عليها الفرح والبشاشة ، أو الاعجاب والتقدير ، أو الراحة والطمأنينة ، أو أى شعور آخر يرفعنا عن عالم المادة .

والجمال والفنون صلة بين المشاعر والحساسية من جهة ، و بين الذكاء والفكر من جهة أخرى . وهذا هو السبب فى اتفاق تقدير الناس للجمال ، إذا استوى تهذيب أفكارهم ، وارتقى إلى درجة السمو . كما أن هذا هو السبب فى اختلاف تقدير الناس لفكرة الجمال ، وفى تطور هذه الفكرة فى مختلف الأمم على مدى العصور والأجيال .

ونضيف إلى درجة اختلاف الحساسية وتباين المشاعر ، و إلى اختلاف درجة سمو الفكرة والتهذيب التى بلغتها الشعوب ، سبباً آخر لاختلاف تقدير الجمال ، هو مبلغ الاتقان الذى وصلت إليه تجارب كل أمة فى وسائل فنونها ، ومدى الصلة التى تربط تجارب هذه الأمة بعناصرها الطبيعية و بنظمها الاجتماعية . فقد كان للعبيد مثل عليا للجمال غير المثل العليا التى تشبع بها أصحاب البشرة الصفراء من أهل الصين واليابان . وكان لقدماء المصريين فكرة فى الفنون غير الفكرة التى تعلق بها سكان بابل وآشور .

ولكل وطن من الأوطان فنون تختلف فى مادتها وفى روحها وفى أشكالها اختلاف بلاده فى طبيعتها وفى مظاهرها وفى تكوينها . فنرى السقف المسطحة تنتشر على المبانى فى بلاد صحا الجو فيها ، وأقيمت السقف منحنية أو مقوسة أو مدببة فى بلاد اشتدت الأمطار فيها وقسا البرد . ونرى بلاداً أخرجت تحفاً من الزجاج لأن طبيعتها أوحت لها ذلك وأمدتها بوسائله ، وأخرى علقت بفنون السجاد ، وأخرى مهر أهلها فى صناعة الأخشاب وفى فنونها ، وأعمدة الجرانيت الضخمة فى الفن المصرى ، غير أعمدة الرخام الرشيقة فى بلاد الاغريق . وبلاد أقامت عمائرها من الحجارة ، وأخرى أقامتها من الآجر ، وغيرهما ترفعها على عمد من الخشب . فالطبيعة عامل رئيسى من العوامل التى تشكل الفنون ، وهى لهذا من العوامل التى تؤدى إلى اختلاف تقدير معانى الجمال.

وليس الفن فحسب تقليداً للطبيعة ، ونقلا لمظاهرها ، وتعبيراً لحقائقها ، بل هو فوق هذا صورة سامية لها ، وتمثيل مجسم لصفة هامة من صفاتها ، وفكرة خاصة لظاهرة من ظواهرها تلك التى كان للفن الفضل الأول فى اكتشافها ،

والتى كان للفنان الفضل البارز فى اتخاذها وسيلة تربط الحقائق والطبيعة بالمشاعر والأفكار ، وتجعل منها مثلا عليا هى الجمال .

والديانة عامل رابع لاختلاف تقدير معنى الجمال . فالعلاقة قوية بين الفن والديانات والاعتقادات ، بل إن الفنون لم تشب وتنم وتزدهر إلا بانتشار

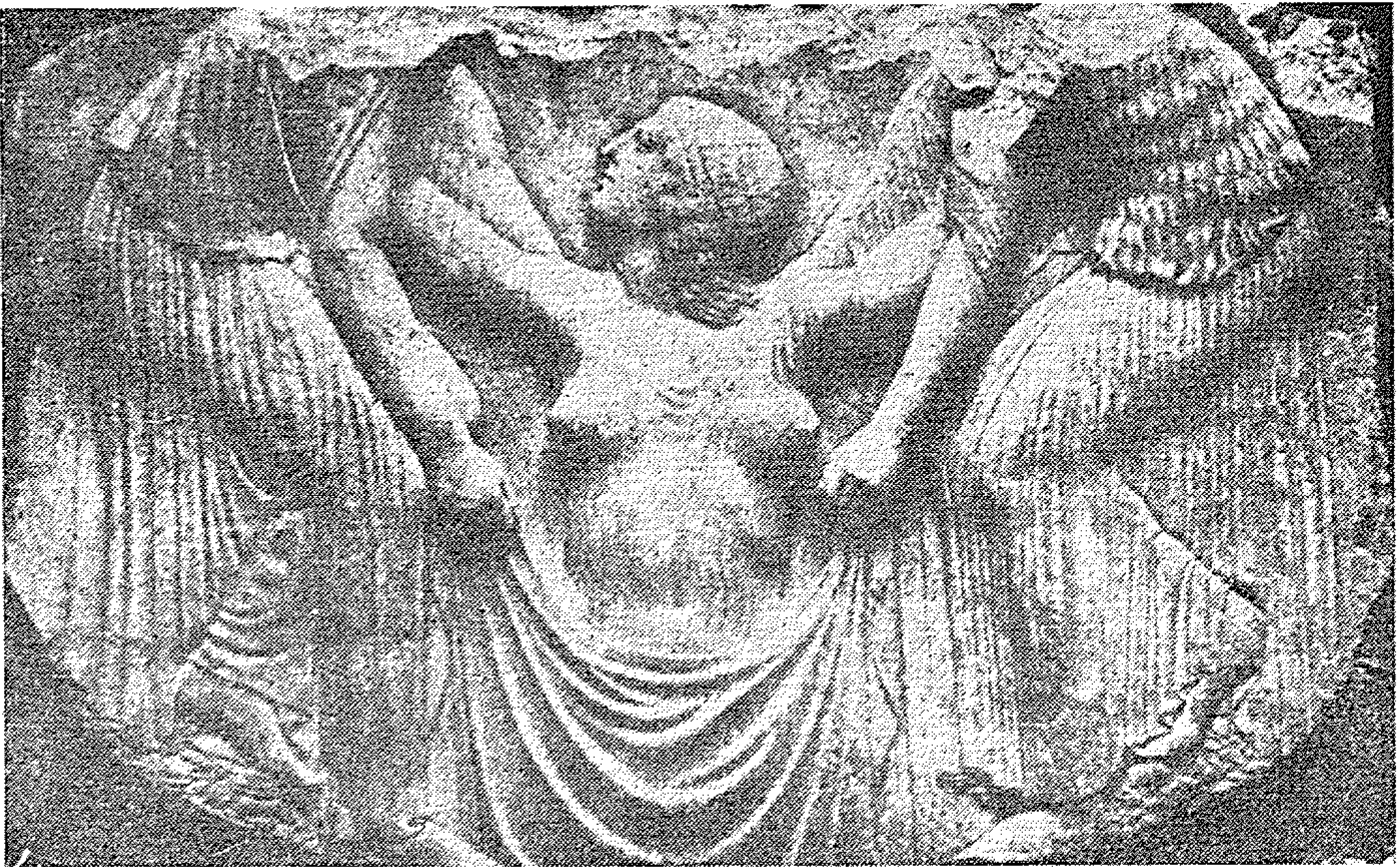


أعمدة الجرانيت الضخمة فى بهو رمسيس الثانى بمعبد الكرنك ، تجسيم للعقيدة وتحقيق لما تقدمه الطبيعة من مواد ووسائل للفنون

الديانات . وإذا كان الفن قد وصل إلى درجة عالية من السمو عند الاغريق ، فما ذلك إلا لأن الصلة كانت وثيقة الارتباط بين الفنون وبين اعتقادات الاغريق الدينية ، تلك الاعتقادات التى كانت تجعل من الطبيعة مثلها العليا ، والتى كانت تضفى الجمال على الحياة . وإنا لنلحظ مدى الشعور الدينى فى

تطور الفنون ، ونرى مدى هذا الشعور فى أعمال رجال الفن ، مهما تباينت دياناتهم ، أو اختلفت اعتقاداتهم أو أفكارهم الدينية . وإذا كان بعضهم قد نزعوا أحياناً من قلوبهم هذا الشعور الدينى ، فهم إنما استعاضوا عنه بفكرة شخصية قوية ، تخلق الصلة بين ابتكاراتهم الفنية ، وتبعث فى نفوسهم الحس والشعور.

فاذا كانت الديانة والعقائد تجمع بين أسباب التفكير فينا ، وإذا كانت الأخلاق والشرائع تقرب وسائل الارادة منا ، فان الفن هو الذى يوحد مشاعرنا ، و يوجه طريقة إحساسنا .



أفروديت إلهة الحب والجمال تولد من حوف الطبيعة ، وتنبثق من أحضانها ، تجسيد للمثل العليا فى حياة الاغريق

هذه العوامل الأربعة : الحس وما يتبعه من اختلاف المشاعر ، والذكاء وما يتبعه من اختلاف درجة التجارب ، والطبيعة وما يتبعها من اختلاف الوسائل ، والديانة وما يتبعها من اختلاف العقائد ، هذه العوامل الأربعة ، وكثير غيرها مما يدخل فيها أو يتشعب منها ، ترتبط فيما بينها ارتباطاً وثيقاً . فالدين فكرة وشعور معاً . والشعور قد ينبعث عن عقيدة ، وقد يتولد من الذكاء . والتجارب مظاهر للذكاء قد تتحكم فيها العقيدة والشعور . والطبيعة ترتبط بكل هذه العوامل ، فتحرك بعضها ، وتتحكم فى البعض الآخر ، وتلونها جميعاً بألوان من صبغها .

إذا كانت هذه الأسباب قد أدت ، كما قدمنا ، إلى اختلاف الناس فى تقدير قيم الجمال ، وفى تحديد معانى الفنون ، فانها تدلنا على أمرين : الأمر الأول أن الفن عالمى غير شخصى ، وجماعى غير فردى ، أو أنه رابطة من روابط الجماعة ، ومظهر من مظاهرها . فكل عمل فنى يكون جزءاً من مجموعة فنية تفسره وتوضحه ، وهو ليس منعزلا بنفسه ، فيصح الحكم عليه منفرداً . وقد كانت الحضارات المختلفة ، حضارة المصريين وحضارة الاغريق وحضارات الاسلام وحضارات المسيحية ، كانت هذه الحضارات تدرس فيما مضى منفصلة ، كل منها قائمة بذاتها ، فأصبحت اليوم ، بفضل تاريخ الفنون ، تظهر كأنها مقاطعات إمبراطورية واحدة ، أو كأنها أجزاء لا تنفصل من عالم فرد واحد .

ولكل فنان شخصية ذاتية ، كما أن له عادات وميولا خاصة ، تظهر فى مجموعة أعماله ، ولكن الفنان نفسه ليس منعزلا بدوره ، فهو عضو من أسرة كبيرة مكونة من رجال الفن فى الوطن الذى يظله ، وفى الزمن الذى يعيش فيه . ولهذه الأسرة كذلك ميزات وصفات فنية تنعكس فى أعمال جميع أفرادها ، وتنتمى إلى مجموعة أكثر عدداً واتساعاً ، وهى مجموعة الجمهور الذى يحيط بها ، والذى يتفق معها فى الذوق والمزاج ؛ فما رجال الفن إلا صدى نقياً لأصوات الجماهير . وليس هنالك من شك مثلا ، فى أن رجال الفن من قدماء المصريين كانوا يعيشون عيشة مواطنيهم ، فكانوا متفقين معهم فى الآراء والعادات ، وفى الثقافة واللغة ، وفى الدين وفى أسباب الحياة .

وتدلنا متابعة النظر إلى الأمم جميعاً ، وإلى العصور التاريخية المتعاقبة ، دلالة واضحة صريحة ، على أن الصلة قوية محكمة ، وأن الوفاق شامل تام ، بين رجال الفن وبين مواطنيهم . وهكذا فإن شخصية الفنان لا تتكون إلا تحت عوامل الجماعة ، ولا تظهر إلا متأثرة بالظروف التى تحيط بزمانها . وإذا اختلفت الأمزجة وتباينت المشاعر ، فان الفن وحده يجمعها ويوفق بينها ، أو يستخرج منها مجموعة متحدة الشعور والمشارب والأفكار . ولهذا كانت الفنون وسيلة من أقوى وسائل اتحاد المجتمع . وإذا توصلت جماعة ما إلى التفكير بأسلوب واحد ، فقد لا يكون هذا كافياً لأن تتحد رغباتها ، غير أن الفنون وحدها هى التى تصل بهذه الجماعة إلى الشعور بعاطفة واحدة .

والأمر الثانى أن الفن تعبير للحياة ، بل هو تعبير لأسمى نواحيها ، تعبير

للعواطف والمشاعر والذكاء ، تعبير للنفس والحس والعقل ، فهو صورة رفيعة للانسانية . وللفنون جميعاً ، مهما اختلفت ، مصدر واحد تفرعت منه ، فهى تعبر ، أول الأمر وفوق كل شئ ، عن القوى الدفينة فى طبيعة الانسان وحياته .

وعلاقة الفنون بالحياة الاجتماعية تتفرع منها ثلاثة أوجه ، من حيث مصدر هذه الفنون ونشأتها ، ومن حيث نهايتها ، ومن حيث روحها وتكوينها . والشعور الفنى شعور اجتماعى فى أدق معانيه ، هو شعور يرمى إلى النهوض بحياة الفرد ، وإلى إدماج هذه الحياة فى حياة الجماعة . فالفنون ترفع الانسان عن حياته الفردية ، لتصله بالحياة العالمية ، مستعينة فى ذلك باتفاق الحس والشعور . فقد انتقلت السيدة مونا ليزا من حياتها الخاصة إلى حياة عالمية ، وكان فن المصور الايطالى ليوناردو دافنشى هو الذى منحها هذه الحياة الخالدة . وكذلك يرتقى جميع النظارة إلى لوحة « الجيوكندة » هذه فى متحف اللوفر من حياتهم الذاتية إلى سمو الحياة العالمية .

وحواس الانسان أصدق برهان على هذا الارتقاء والسمو . فالذوق والشم واللمس حواس تتصل كلها عن قرب بالحاجيات المادية فى حياة الانسان . أما حاستا السمع والنظر ، فهما حاستان رفيعتان ، لأنهما تتصلان بالقوى السامية فى هذه الحياة . وقد تولدت عن هاتين الحاستين فنون الجمال ، تلك الفنون التى تتجه بالانسان إلى ما وراء الحواس ، وإلى ما هو أسمى منها فى القوى الدفينة من حياته ، وهى الذكاء والخيال والعاطفة .

والفنون تتحلى بالذوق الجميل ، وهى لهذا تشاطر فى تثقيف الجماهير ، وفى ربطها بصلة واحدة ، صلة تتفق فى الاعجاب ، كما تتفق فى الشعور وفى ذلك فضل اجتماعى مرجعه إلى الفنون الجميلة ، فضل تربية الذوق السليم ، وفضل توحيد الشعور بالاعجاب .

وإذا كان الانسان يقترب من الحيوان فى حاجته إلى الأكل والشرب ، وفى تحفزه إلى الدفاع عن نفسه وعن أسرته ، وفى تطلعه إلى تكوين الجماعات ، فانه يرتفع بتفكيره وحده عن منزلة الحيوان . وأوصله هذا التفكير من جهة إلى العلوم ، فوضع لها أصولا وقواعد لا يتفهمها إلا خاصة الناس ، ولا تدركها عامة الجماهير . وقاده تفكيره وخياله من جهة أخرى إلى الفنون يعبر بها عن

الطبيعة ، أسبابها ومحركاتها ، بواطنها وظواهرها ، ويستعين فى هذا التعبير بالعقل والحس معاً ، ويصل إلى ما لم تصل إليه العلوم ، من إرضاء عقول الخاصة ، وتحريك شعور العامة .

فاذا كانت مظاهر الفن ضعيفة راكدة فى شعب من الشعوب ، فذلك لا يرجع إلا إلى أحد أمرين : إما أن شعور الجماهير فيه قد انحطت مداركها إلى درجة لا تطمح معها إلى ما يهزها ، ولا تحتاج إلى ما يحركها ؛ وإما أن الأفكار السامية فى هذا الشعب قد تضاءلت إلى درجة لا حاجة لها معها إلى التعبير والانتاج .

وهكذا يجمع الفن بين تمثيل الجماعة ، عامتها وخاصتها ، ويبين التعبير عن الحياة ظواهرها وبواطنها . ولهذا لا نجد صورة لنهضة أمة أوضح من تلك التى ترتسم فى فنونها ، ولا كيلا نزن به رقيها أدق من آثار فنونها . فلم تنهض أمة إلا كان الفن أساساً لنهضتها ، أو على الأقل ، لم تتم نهضتها إلا بنهوض فنونها .

الفنون الجميلة دعامة الحضارة ، ومرآة النهضة . هى مرآة لنهضة قدماء المصريين ، وهى عنوان مجدهم وفخار عصورهم . فلا يذكر التاريخ مصر إلا تجلت ذكرى فنونها ، ولا يتحدث الناس عنها إلا تصدرت حديثهم عظمة مبانيها ، وإبداع ما خلدته آثارها من صور زاهية ، وتماثيل رائعة ، وتحف ثمينة . أما نيلها وصحراؤها وزرعها ، وأما ملوكها وحروبها وعلومها وآدابها ، فلا شك أنها محط أحاديث الناس ، وموضع إعجاب العالم ، ومرمى تمجيد المصريين ، ولكنها لا تبلغ فى كل هذا من قوة الحجة وبليغ الأثر ما بلغته فنون قدماء المصريين .

وهكذا فالآثار خير ما ينطق من وثائق التاريخ ، والفنون أصدق الشهود إجابة ، وأقواها ذاكرة ، وأفصحها تعبيراً . وهى تنقل من الدنيات أفضل ما فيها من ثمار الفكر، وأعز ما ابتكرته قرائح العبقرية . وكأن الآثار أحياء تتحدث وتنطق بلغة حقلها شاسع لا حدود له ، لغة يتفهمها الناس جميعاً ، لغة عالمية لأنها لغة الطبيعة .

والتاريخ يحدثنا عن الإغريق ، وعما احتلة الشعب الإغريقى فى العصور القديمة من مكانة سامية بين الشعوب ، وعما يدين له به العالم إلى يومنا هذا فى



نكبة الانسانية يقصها الفنان الفلمنكى بطرس بروجل فى لغة عالمية يتفهمها الناس جميعاً

ميادين العلوم والفلسفة والآداب . ولكن لآثار الإغريق الفنية من الشهرة ولها من البيان ، ما لم يبد بمثل هذا الجلاء فى غيرها من نواحى مدنيتهم . ويحدثنا التاريخ عن عصر النهضة والاحياء، وكيف بدأ العالم به مرحلة جديدة من حياته ، هى المرحلة التى تتصل عصورنا الحديثة بها . وإذا ذكر عصر الاحياء هذا بما شمله من نواحى النهضة الفكرية والعلمية والانسانية والاستكشافية والسياسية ، ذكرت نهضة الفنون فى مقدمة كل هذا ، وذكرت أسماء ليوناردو وميكيل أنجليو ورفائللو فى الصف الأول من مقدمة عظماء رجال هذا العصر .

حلقات المدنيات كلها ، ونهضات الشعوب جميعاً ، ناطقة بما للفنون الجميلة فى حياة الأمم من قوة دفينة توجه هذه النهضات ، وتحيط تلك المدنيات بإطار ربطها على ممر الزمان ، ويكسوها بلوح مصقول براق ، تنطبع فيه صورة نقية منها .

أحمد فكرى

قصة سلامان وأبسال[1]

للشيخ الرئيس أبى على الحسين بن عبد الله بن سينا

(٣٧٥هـ - ٤٢٨هـ)

٢ — تحليل شخصيات قصة سلامان وأبسال

« سلامان : إنسان من العارفين — أبسال : العقل النظرى — زوجة سلامان : القوة البدنية — أخت زوجة سلامان : القوة العملية —الجيش : القوى الحسية والخيالية والوهمية— الطابخ والطاعم القوة الغضبية والقوة : الشهوية . »

قصتنا ذات بطل واحد ، عاش مرة على ظهر الأرض ، حينما تكيفت له ظروف وجوده — ما عثرنا له على أثر فى أيونيا أو إيليا أو أثينا ؛ لأن الإله اليونانى ، كان إنسانيا بكل معنى الكلمة ، فلم تكن ثمة هوة تفصل بين الانسان والله . وابتدأ جنينا فى الأسكندرية ، ثم صار فى عنفوانه فى ظل المسيحية من جهة والاسلام من جهة أخرى . لقد عمر طويلا جدا ، وتضافرت الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، على إمداده بالحياة — والحق أن القوة الوحيدة التى استطاعت أن تصرعه هى الآلة ، بما أثارت من انقلاب فى النظام الاقتصادى والاجتماعى والسياسى . لقد ذهب سلامان إلى غير رجعة ، غير أن صورة صراعه الارادى لن تذهب أبداً ؛ لأن إرادة الانسان الحديث ، للقبض على زمام الوجود بأى معنى من معانيه ، لا تختلف عن إرادة سلامان ، إنسان العصور الوسطى ، إلا من حيث هدف الاتجاه . سنظل دائماً نحاول أن نقبض على شئ ليس فى متناول أيدينا، وهذا هو سر الإرادة ، أو سر الحياة عموماً .

كان رائد سلامان ، فى هذا الطريق الوعر ، هو العقل . إن سلامان ماض إلى الله الذى هو عقل محض ، وفكر خالص ؛ فلتكن الأداة التى تذهب

---

(١) الكاتب المصرى عدد ١٦ (يناير ١٩٤٧) .

بسلامان إلى هذا الهدف ، من طبيعة الهدف . العقل النظرى هو المركب الملائم للوصول إلى مملكة الله ؛ فليفكر سلامان ، وليكن تفكيره فى الدرجة العليا ، وما عليه من بأس إن هو تطور تطوراً طبيعيا مع درجات ذلك العقل ، فيبدأ بأن يتعود نزع الصور المجردة من المحسوسات المشخصة ، وهذه هى الدرجة الهيولانية للعقل النظرى ، ثم تنظم هذه الصور على حسب المقولات الأولى العامة كالمبادئ المنطقية ، وهذه هى درجة العقل النظرى الذى يكون فيها بالملكة ؛ و إدراك هذه الصور المجردة ، بعد أن لاءمت بينها تلك المبادئ الأولى ، هو العقل النظرى فى درجة العقل . كل ذلك طبيعى فى حركة إدراكنا للموجودات . ولكن لكى ندرك الله ، لا بد من درجة أرقى من تلك الدرجات الآنفة ، درجة تكاد تكون لا إنسانية ، وهى درجة العقل المستفاد ؛ فالعقل النظرى فى تلك الدرجة ، يكون على استعداد لتلقى الفيوضات الدينية . إنها على كل حال ، درجة من درجات العقل ، ولكنها غير معقولة . وهذا التناقض ، لا يسوّغه إلا أمر واحد ، هو المواضعات الفكرية التاريخية ، التى كثيراً ما أوجدت أشياء ليس لها وجود . من يدرى ! كم فى حضارتنا ذاتها من الموجودات التى ليس لها وجود !

هذا هو سلامان بعقله النظرى . والعقل وحده ملكة سكونية ، فهو يدرك فقط . ولكننا لكى ندرك لابد أن نريد الادراك ونتزع إليه . و إرادة الادراك ، غير الادراك لأنها مبدأ محرك — فلا بد لكى يقوم أبسال العقل النظرى بدوره ، من قوة تحرك هذا العقل . هذه القوة المحركة ، هى زوجة سلامان . والحق أن حركة العقل النظرى ، الناجمة عن تلك القوة ، ليست مباشرة ؛ لأنها فى اتجاهها الطبيعى أمارة بالشهوة والغضب ؛ إنها فى حقيقتها شديدة الشبه بمبدأ « الليبيدو » عند فرويد ، ولكن العقل النظرى ، يتحرك بأن ينفر منها ، ويوجه طاقتها إلى الخير ، أى إلى ما يضاد طبيعتها . فى كياننا تعيش تلك المرأة الفاجرة ، وهى ما تنفك تدفعنا إلى انتهاب اللذات ، وتغرينا بعبادة الحب ، وتملأ الدنيا من حولنا بارتعاشات الشهوة ، ولكن ترويضها على الرغم من ذلك ، فى حيز الامكان . إنها و إن كانت جزءا من النفس الحيوانية ، فطاقتها قابلة لأن تستقل فيما هو إنسانى بحت . وسلامان الذى عقد العزم على الرحلة إلى الله ، لا بد أن يعبئ قواه جميعاً . إنه يريد أن يعرف الحقيقة ، والحقيقة وراء الوراء ، وبعد البعد ، ودونها طريق تكتنفه الأهوال والخاطرات . وأبسال أخو سلامان ، سوف يقود

الركب ، وزوجة سلامان سوف تعوقه وتحاول تضليله ، ولكنه سيقاومها ، وسينتصر عليها ، و يمضى فى طريقه تحدوه أمانى الكشف ، وتغريه لذة الفتوحات الروحية .

سلامان وزوجه وأخوه . أترانا — لو كنا من أشياع مدرسة التحليل النفسى — نستطيع أن نلاحظ فى هؤلاء الثلاثة ، المكونات الرئيسية لعقدة أوديب ؟ أجل! فسلامان يمثل الأب ، وزوجه تمثل الأم ، وأبسال يمثل الابن ، ولسوف ينشأ الصراع الجنسى بين الابن والأم ، ولكنه لن يمضى إلى حالة يتحقق فيها حصول الابن على موضوع لذته الأولى ، و إلا كان ابن سينا يمثل حركة من الحركات النفسية الشاذة . سيخضع أبسال لمبدأ الواقع ، وينصرف إلى موضوع حب صحيح ، ذلك لأنه سيحب الحقيقة أو الله .

غير أن هذا الحب لن يستغرقه إلى الدرجة القصوى ، إن الحياة أيضاً فى حاجة إلى جزء من هذا الحب . لقد عاش متصوفة كثيرون لم يعبأوا بأمر الأرض فتحققوا بالفقر والافتقار ، ومارسوا الزهد والتقشف ، ووصلوا فى إضناء الجسد إلى درجة فوق الطاقة . أما سلامان ، إنسان ابن سينا ، فكان مايزال معنيًّا بشؤون المجتمع والحياة ، ولذلك ركب فيه ابن سينا قوة خاصة بالعمل ، هى ما يرمز لها بأخت زوجة سلامان . هذه الأخت تمثل القوة العاملة إذن (ولها اعتبار بالقياس إلى القوة الحيوانية النزوعية ، واعتبار إلى القوة الحيوانية المتخيلة والمتوهمة ، واعتبار بالقياس إلى نفسها . من كتاب النجاة) ، ولقد نص الطوسى على تسميتها بالنفس المطمئنة ؛ ذلك لأنه لم يلق بالاً لتلك الاعتبارات الثلاثة ، و إنما قصر نفسه على الاعتبار الأخير ، وفيه تكون تلك القوة العاملة بالقياس إلى نفسها ، وخاضعة للعقل النظرى . ولكننا نلاحظ أن نص الطوسى غير صحيح ، لأنها فى قصة ابن سينا سيكون لها كل تلك الاعتبارات — فلا سبيل إلى تسميتها بالنفس المطمئنة إلا فى حالة ما تكون خاضعة للعقل النظرى . إنها بالاعتبار الأول تهئ الانسان لسرعة الانفعال كالخجل والحياء والضحك . وبالاعتبار الثانى تستعمل فى استنباط الصناعات الانسانية ، وبالاعتبار الثالث ، تتولد فيما بينها وبين العقل النظرى ، تلك الآراء الذائعة المشهورة ، مثل إن الكذب قبيح والظلم قبيح . . . الخ . . . .

تلك هى المهام التى أفرد ابن سينا لها قوة خاصة فى النفس ؛ فقد كان ينظر إلى

سلامان ، من حيث أنه إنسان فى حاجة إلى التدبير والتوازن الاجتماعى ، والعناية بشؤون الواقع ؛ وهو لاهتمامه بهذا الأمر ، جعل له قوة خاصة فى النفس . إن ابن سينا ، والحق يقال ، معبر حقيقى عن روح الحضارة الاسلامية .

تلك هى الشخصيات الرئيسية فى القصة ، أما الجيش فهو يمثل القوى الحسية والخيالية والوهمية ، وهى جميعاً من أقسام النفس الحيوانية . لقد عرفنا أن زوجة سلامان تعبر عن الجانب الإرادى النزوعى لتلك النفس ، أما الجيش فيمثل الجانب الادراكى فيها ، فيحس أو يتخيل أو يتوهم . ولسوف يطول الأمر بنا ، إن نحن أخذنا فى تحليل كل قوة من تلك القوى ، وموضوعها من الدماغ ، ووظيفتها الخاصة فى الإدراك ، وإنما نكتفى هنا بأن نقول إنها جميعاً قوى تتضافر وتتفرع على الإدراك الحسى .

وهنا ينتهى تحليل شخصيات القصة ؛ لأن الطابخ الذى يمثل القوة الغضبية ، والطاعم الذى يرمز للقوة الشهوية ، ليسا فى حقيقة الأمر إلا القسمين اللذين تنقسم إليهما النفس الأمارة أو زوجة سلامان ، ولسنا ندرى على وجه الدقة لماذا أفرد لها ابن سينا دوراً خاصا فى القصة ، مع أنهما مضمران فى زوجة سلامان ، ودوريهما مضمران فى دورها . ولكن لعل ذلك كان لابراز أهمية هذه القوة بفروعها ، فلم يكتف ابن سيدا بتمثيل القوة العامة ، وإنما مثّل أيضاً فروعها الخاصة . فاللذة فى الحقيقة هى المحور الذى تدور حوله كل قوى النفس الأخرى ، ولعل ابن سينا فى ذلك غير شاذ ولا مبالغ .

ها نحن أولاء . قد استقصينا كل قوى النفس عند ابن سينا ، ما عدا النفس النباتية لأنها نفس غير ديناميكية ، فلا تصلح أن تكون فرداً من أفراد قصة تقوم على الحركة . ولعلنا لاحظنا — على الرغم من ذلك التحليل — أن النفس واحدة عند ابن سينا ؛ إن كل قوة يمكن أن ترد إلى التى فوقها ، حتى لا يبقى فى نهاية الأمر إلا سلامان . . . الانسان الحى النزاع المتحرك .

٣ — عرض قصة سلامان وأبسال

« . . . والنفوس البشرية إذا نالت الغبطة فى حياتها الدنيا ، كان أجل أحوالها أن تكون عاشقة مشتاقة . » (إشارات) .

يقول ابن سينا : « إن قوى النفس لا تخلص عن علاقة الشوق ، اللهم إلا فى الحياة الأخرى » . فأنت حى لأنك محب مشتاق ، وستظل حيا ما ظللت محباً مشتاقاً . والشوق يدفع ، ويجعل للحياة معنى بوساطة الحركة التى يغرى بها ، ويحض عليها . وسلامان مشتاق ، وسيمضى به الشوق رويداً رويداً ، إلى درجة العشق . . . والعشق عندشيخنا الرئيس ، هو الابتهاج بتصور حضرة ذات ما . فالعشق حالة ستاتيكية سكونية ؛ لأنه يكاد يكون نهاية الرحلة إلى الله — فى حين أن الشوق حالة ديناميكية حركية من شأنها أن توالى الدفع والتحريك .

والآن نجد سلامان العارف ، قابعاً فى عباءته الفضفاضة . ولعله أن يكون شاخصاً بصره إلى سماء غامضة . ومن يدرى أيضاً ! لعل بعض الموسيقى كان يطوف فى المكان . إن اللحن كان دائماً وسيلة من وسائل الصوفية ، ومعيناً لهم على إدراك الحق ، والتحقق بالوجد والعشق . ولكننا لا نريد أن نقف أنفسنا على منظر سلامان . إنه من العارفين ، وهو موصًى أن يتروّض حتى يصل إلى الحد الذى يعتريه فيه الوجد ، ويستبد به الوقت ، دون أن تظهر على وجهه دلائل الوقت أو الوجد . سنتسلل إذن إلى نفس سلامان . إنها مسرح كبير توافرت فيه كل صنوف الحركة ، وفى مكان بارز يسطع النور على امرأة . إنها فاجرة خليعة متهتكة ، وهى شهية لذيذة مغرية . . من يدرى ! لعلها أن تقوم ، وتمضى راقصة الردفين ، شماء الثديين . إنها زوجة ، ولكنها فاجرة ؛ فما عليها من بأس إن هى أغرت ذلك الشاب المليح أخا زوجها . إنها مشتاقة ، يكاد لهيب الشهوة أن يتفجر من جسدها ، فلقد أعدت العدة ، ونصبت الشرك للايقاع بهذا الشاب . قالت لزوجها : اخلطه بنا ، ودعه فى بيتنا ، فنستفيد من علمه وأدبه ، ونقوم نحن على تنظيم حياته وقضاء حاجاته . وأذعن الزوج ، وجاء بأخيه إلى بيته . فاذا بالزوجة تنهض ، تدفعها قوة الشوق لتحقيق لذتها . وإذا بها تقبل على أبسال ، وتظهر له مفاتن جسدها ، وتكشف له عن معين اللذة الذى يترقرق فى لحمها الملتهب . ولكن أبسال يرتد ، بارادة بتارة حاسمة . إنه لن يتخلى عن أخيه العارف الذى يعلم عنه أنه فى سفر شاق إلى الحقيقة البعيدة . إن (أول درجات العارفين ما يسمونه هم الارادة ، وهو ما يعترى المستبصر باليقين ، أو الساكن النفس إلى العقد الايمانى فى الرغبة فى اعتلاق العروة

الوثقى ، فتحرك سره إلى القدس ، لينال من روح الاتصال ، فما دامت درجته هذه فهو مريد . إشارات .)

ولو أتيح لنا أن ننظر فى وجه سلامان ، فى تلك اللحظات ، لرأيناه زامّاً شفتيه ، مصلوب النظرات ، لاهث الأنفاس . لقد عقد العزم على اعتلاق العروة الوثقى . وهذه الحركة من غير شك ليست عشقاً ، كما قال الطوسى ، لأننا عرفنا العشق . إن تلك الحركة فى الحقيقة نوع من شوق الإرادة الخيرة للنيل من روح الاتصال .

سلامان الآن مريد . ومن هنا ذهب يحقق واجبات المريد ، فراح ليخى ما دون الحق عن مستن إيثاره ، ويخضع النفس الأمارة للنفس المطمئنة ، ويلطف سره للتنبه .

ولنتسلل الآن مرة أخرى إلى نفس سلامان ، لنشهد مصرع الزوجة الفاجرة . أترانا نجدها مضرجة بدمائها ، وقد خمدت فيها جمرة الحياة ؟ كلا ! فانها لتجمع قواها جميعاً ، وتضم أعضاءها ضما ، وإنها لتستشعر فى ذاتها الحياة موفورة دافقة ، فاذا بها تتلوى كالأفعى ، لتوقن أن الحياة ما زالت تدب فى جسدها . وإنها لتنهض فجأة ، وفى عينها يتألق بريق عجيب مخيف ، ثم تمضى ، وكأنما تريد أن تذيب الأشياء بنظراتها النارية . . . وهنا تلمح أختها عاكفة على نوع من التأمل ، وقد ملأت البراءة عينيها ، واكتسى وجهها بقناع من سذاجة الأطفال . وفجأة تلمع فكرة فى رأس الزوجة الفاجرة . إنها تريد أن تنتقم ، ولسوف يكون انتقامها مروعاً هائلا ، ولسوف تحطم كبرياء أبسال تحطيما ، وتنال منه كل ما تشتاق إليه . فلتذهب إذن إلى زوجها تغريه بتزويجه أخاه من أختها . إن ذلك يجعله أوثق علاقة بالأسرة ، ويسبغ على وجوده معهما شرعية مأمونة . وتعرض الأمر على أبسال ، فلا يمانع فيه ؛ فانه مع تلك الزوجة الصالحة التى تعنى كثيراً بشؤون المنزل والحياة ، يستطيع أن يبلغ حياة أكرم وأيسر . إن اتحاد العقل النظرى ، بالقوة العملية ، من شأنه أن يجعل مصالح الواقع على خير حال .

ولكن الزوجة الفاجرة ، ما كانت لتدع الأمر يمضى فى ذلك الطريق الخير . ففى ليلة الزفاف راحت فى جنح الظلام تتسلل إلى فراش أختها . كان الظلام مخيما ، والسكون جليلا رهيباً ، وكانت زوجة سلامان فى فراش أخيه تلهث ،

ويكاد جسدها يتصبب شهوة ولذة . لسوف يأتى الآن أبسال ، ولسوف يظنها زوجه ، فيطلق نفسه وجسده ، يجوسان فى أحضانها الدافئة . ها هو ذا أبسال مقدم بخطاه الوئيدة ، وقد أخذت قطع الأثاث تبرز فى أنحاء الحجرة المظلمة ، وهو يتحسس طريقه بينها ، قاصداً مخدع العروس ؛ إن الشهوة فاغرة فاها ينخلع له القلب رعباً وخوفاً .

أما سلامان القابع فى عباءته الفضفاضة ، فيرتعد و يرتجف ويتصبب عرقاً . لقد راح يقدم على الشر ، ويخوض فى الخطيئة ، وهو يخدع نفسه بأنه مقدم على الخير ، وواصل إلى الفضيلة . ما أكثر ما نرتكب الشر ، لأننا قنعناه بصورة الخير ! فان شارب الخمر يقول لك إنه يتداوى بها من آلامه . والخلاص من الألم حركة طبيعية ، ولكن الخلاص منه باغراقه فى بحر من الخمر حركة خداعة ، فيها نوع من إضفاء الخير ، على ما هو شر ؛ هذا إلى ما فى ذلك من استهتار بقيمة الألم ، وزراية بجوهريته وأصالته . إن سلامان يعانى مثل تلك الأزمة ، فان عقله النظرى يكاد يهوى بين براثن القوة الشهوية ، وهو يخدع نفسه بأن ذلك حركة خيرة لا غبار عليها . إنه فى حالة سراب روحى ، لعلها أن ترجع به تلك الخطوات التى بذل الجهد الجهيد لقطعها فى طريق الله . فتراه لذلك يرفع ذراعيه إلى السماء ، يطلب العون ، ويستدر الرحمة ، وهنا فقط تتهلل أسارير وجهه بنور إلهى ، وتتألق على لحيته البيضاء أنوار قدسية . أجل ! لأن أبسال ، كان قد وصل إلى فراش عروسه ، وأوشك أن يهم بزوجة أخيه ، وكادت تلك الزوجة الفاجرة تنال مأربها وتشبع لذتها . لقد مدت إليه ذراعين عاريتين ، وأطلق لها هو جسدا مشتاقا . . . وحينما كان على حافة الهاوية انبلج برق لامع فى ثنايا الغيم المظلم فأراه وجهها ، فارتد . لقد همت به وهم بها ، لولا أن ذكر برهان ربه ، فأنقذ سلامان بخطفة إلهية سنحت له من جانب القدس .

لقد رأينا سلامان وقد وصل إلى الدرجة الأولى من مقامات العارفين ، فكان ينحّى مادون الحق عن مستن الايثار ، ويطوع النفس الأمارة للنفس المطمئنة ، ويلطف سره للتنبه ، وهو الآن يصل إلى الدرجة الثانية ؛ فانه (إذا بلغت به الارادة والرياضة حدّا ما ، عنّت له خلسات من اطلاع نور الحق عليه ، لذيذة كأنها بروق تومض إليه ، ثم تخمد عنه ، وهو المسمى عندهم أوقاتاً . . . إشارات .)

وإذن فما يزال سلامان ، سائراً فى طريقه السليم إلى الله . ولما كانت ذكرى الخطيئة التى كاد يتردى فيها ، تعذبه ، أخذ يسرى عن نفسه ، فحشد جيش الحواس ، وذهب يغزو مملكة الأرض ، ويدبر شأنها ، ويقيم ما اعوج من أمرها . فهو بعقله النظرى يستشرف السماء ، وحينما يخضع الحواس لنفسه العاملة ، وهى النفس المطمئنة لأنها خاضعة بدورها للعقل النظرى ، يستطيع أن يدبر الأرض ، فالقوة النظرية إذن ، هى ملكة تفتح السماء والأرض جميعاً ، وتخضع الشرق والغرب كليهما ؛ فلا بأس أن يشبهها ابن سينا بذى القرنين الذى ملك الخافقين .

ولسنا نريد أن نفصل الأمر مرة أخرى ، فى عودة الزوجة الفاجرة لاغراء أبسال ، فانها حركة شبيهة بالحركة الآنفة تماماً ، ولكن ذلك لا يسوغ عدم ذكر الطوسى لها . إن تلك العودة هامة للغاية ؛ لأنها تبين لنا إلى أى مدى كان ابن سينا يدرك القوة الشهوية التى تجتاح الانسان ، وهى من ناحية أخرى ، تتيح فرصة جديدة ، ليترقى سلامان ، بارتداد أبسال عن تلك المرأة ، فى سلم العارفين درجة أخرى .

وعلى أثر هذه الحركة الثالثة ، يعلم سلامان أن القوة الشهوية ما زالت تعيش ، فيقسو على نفسه فى الرياضة ، ويخضع جسده لكل صنوف الحرمان . إن الناظر إلى سلامان الآن يراه وقد هام على وجهه ، نحيلا هزيلا ، قد نضا جسده ، وكان يتجرد منه . إنه ولهان مشبوب ، والسماء من فوقه تنزاح عنها الغيوم قليلا قليلا ، وهو ما ينفك يصوب إليها بصره وبصيرته ، يريد أن يكشف السر ، ويطلع على المكنون ، ويهتك حجاب المجهول . إن الفلسفة ، كما يقول أفلاطون ، هى ممارسة الموت . إن الذى يصل إلى قمة الحياة ، يشرف على هاوية المات . ولقد ذهب سلامان يمارس الموت فعلا ، ولكن الموت الذى كان يعانيه إنما هو موت الجسد ، والبقاء بالله يكون بالفناء بالجسد ؛ ذهب لا الألم يثنيه ، ولا بعد الغاية يوئسه ويضنيه ، بل مضى وهو الانسان العاقل ، يريد أن يحصل على اللامعقول ، والحق أنه لم يكن عاقلا بكل معنى الكلمة . وكيف يكون عاقلا وقد تعطلت حواسه ، وخمدت شهوته ، واندثرت قواه العملية ؛ بل إن قوته النظرية ، تكاد تكون هى أيضاً قد توقفت . هنا فقط ، يسقط الصوفى الذى يعشق الله ، يسقط إعياء وهياماً . . . فاذا بمرضعة من حيوانات الوحش ، تبرز من بعيد ، وتهرع إليه ، وتدر بين شفتيه شراباً شهياً ، لعله أن

يكون من خمرة الألوهية . إنسان ابن سينا الآن مهزول البدن ، ولكنه مبتهج الروح ، بل هو مبتهج الروح لأنه مهزول البدن ، وهو خالص للنيل والاتصال ؛ فان فيض الكمال عليه الذى يمثله ما درت عليه تلك المرضعة من شراب ، يدل على أنه قد انتقل من مرتبة الرياضة ، حيث كان مريداً ، إلى مرتبة النيل ، (فصار سره مرآة مجلوة ، ودرّت عليه اللذات العلا ، وحينئذ يفرح بنفسه لما بها من أثر الحق ، وكان له نظر إلى الحق ، ونظر إلى نفسه ، وكان بعد متردداً . إشارات .)

أترى سلامان قد وصل ؟ لا ! فمازال له نظر إلى نفسه ونظر إلى الحق . والمحبوب يأبى أن يكون له شريك ، وألا يؤثر وحده بالحب . وعاشق الله ، هو عاشق الوجود ، والوجود هو الكل . فلا بد لسلامان من أن يمضى خطوة بعد ذلك ، فيكون نظره إلى نفسه ، لا من حيث هى نفس ، ولكن من حيث هى عاشقة ، وحينئذ لا يكون ثمة شئ إلا الله . وهنا تتحقق الوحدة ، لا نقول وحدة الوجود ، كما قال ابن عربى ، بل وحدة الشهود كما قال ابن الفارض .

ولكن سلامان ، على كل حال ، لم يكن من المتصوفين ، بل كان من العارفين ، والعارف عند ابن سينا ، تقوم حياته أصلا على العقل والتأمل ، لا على العاطفة والا رادة ، كما تقوم حياة الصوفية الخلّص . والعقل معتدل متزن ، يقبل الحلول الوسطى ؛ ولذلك أخذ سلامان ، وقد رأى حاله من اضطراب فى شؤونه الدنيوية ، وتعطيل لبقية قواه النفسية . أخذ يعنى بتلك القوى من جديد، وعاد ينظم حال رعيته ، ويصلح ما اختل من أمرها .

فى سلامان الآن عقل نظرى نهكه طول التأمل ، وأضناه الصراع الطويل مع القوى الشهوية ، وبرّح به العشق ، وأضعفه مرور الزمن . أو ليست هذه فرصة لأن تكيد له النفس الأمارة من جديد ؟ إنها ضربة أخيرة ويقضى على أبسال العنيد المتكبر ، وتنتصر الزوجة الفاجرة ، وتحقق الأمنية التى عاشت طوال حياتها تحاول تحقيقها . إنها لن تلجأ فى هذه المرة إلى أختها ، ولن تذهب بنفسها ، وإنما ستلجأ إلى أشد الناس ولاء لها ، وهما الطابخ والطاعم . وما كانت فى حاجة إلى أن تغريهما أو تمنيهما ؛ إنهما رهن إشارتها وطوع أمرها ؛ فما هى إلا أن تأمر حتى يذعنا لأمرها . وقد أمرتهما فعلا بدس السم لأبسال . لقد تعرض

سلامان لمؤامرة نفسية أخرى . أتراه يهوى إلى الخطيئة بعد أن فر منها مراراً ، ووصل فى مقامات العارفين إلى درجة النيل ؟ أترى كان ابن سينا من التشاؤم بحيث يجعل كل هذا الجهاد والصراع يذهبان عبثاً ، فيموت الانسان ، وهو مكبل بأغلال الخطيئة ؟ قال الطوسى فى شرحه للقصة ، باضمحلال أبسال نتيجة للسم الذى دسته له الزوجة بمعاونة الطابخ والطاعم . وسيكون آخر عهدنا بسلامان ، وجهاً مربدًّا ، وقبضتين تهددان السماء ، وقدمين تغوصان فى مستنقع من اللحم والدم !

كلا ! ما كان ابن سينا ليجرؤ على إنهاء القصة بتلك المأساة المروعة . إن خطة القصة موضوعة من قبل فى مقامات العارفين ، و إن السير الطبيعى لبطل القصة لينأى به عن تلك الخاتمة . لقد اضطرب الطوسى هنا ، وحسب أن الزمان محطم لكل شئ ، حتى القوة النظرية ، مع أن هذا يتعارض مع مذهب ابن سينا فى النفس عامة . لقد بلغ العقل النظرى فى درجة ترقيه ، إلى أن أصبح عقلا مستفاداً ، تشرق عليه المعقولات المحضة من العقل الفعال . وهو لأجل ذلك يصبح شبيهاً بذلك العقل الذى رمز له بحى بن يقظان . وحى بن يقظان لا يموت أبداً ، ولا يضمحل البتة . إنه (فى طراوة العز ، لم يهن منه عظم ، ولا تضعضع له ركن ، وما عليه من المشيب ، إلا رُواء من يشيب — فى أسرار الحكمة المشرقية) . لقد كان العقل النظرى الانسانى ، دائم الشوق إلى ينبوع الشباب، حيث الحسن حجاب الحسن ، والنور حجاب النور ، وحيث توجد إمكانية الخلود . إن حى بن يقظان هو الذى يفيض على أبسال العلم والخير والكمال ، وعنده ينبوع الشباب . فهل يدرك الهرم أبسالا فتقتله الشهوات ، وقد كاد يمرق إلى الدرجة الأخيرة من درجات العارفين؟ وقصيدة النفس لابن سينا ، تقول بما لا يدع مجالا للشك ، إن النفس فى جزئها النظرى ، خالدة ، لا تندثر ولا تضمحل . ولذلك فان النفس الأمارة ، بتآمرها مع القوتين الشهوية والغضبية ، على دس السم لأبسال ، لا تعنى إلا أن ابن سينا قد قدم بهذه الحركة السلبية الأخيرة ، ليتمكن من عرض الحركة الإيجابية الأخيرة . و إذن فلن يكون آخر عهدنا بسلامان ، تلك الصورة التى تكشف عنه ساقطاً فى حمأة الرذيلة ، و إنما ستكون صورة أشبه بصورته ، حينما كاد عقله النظرى : أبسال ، يخضع للزوجة الفاجرة فى ليلة العرس . وهنا يذهب سلامان يستوحى ربه ، ويستدر نوراً

يكشف له عن حقيقة تلك المؤامرة الجديدة . وهنا أيضاً ينكشف له الحق ، ويتضح له الأمر . يدرك سلامان بوحى من الله ، أنه كان مسوقا إلى الشر ، وأنه يجب أن يتخلص نهائيا من حواسه ، فلا يلبث أن يقضى عليها قضاء مبرماً . ومجرد الاستيحاء دليل على أن النفس النظرية ، ما تزال تعمل فى منتهى قوتها ؛ لأن هذا الاستيحاء الارادى هوَ درجة سامية من مقامات العارفين . لقد كانت معارفة الحق تعنّ له أحياناً ، أما وقد صارت تعن له متى شاء ، فتلك درجة سامية من درجات المعرفة الفيضية .

لقد تركنا سلامان ، فى مرتبة النيل ، يتردد بين نفسه وبين جناب القدس . أما بعد أن هزم النفس الأمارة هزيمة لا رجاء بعدها ، فلا بد أنه (يغيب عن نفسه فيلحظ جناب القدس ، وإن لحظ نفسه ، فمن حيث هى لاحظة ، لا من حيث هى بزينتها ، وهناك يحق له الوصول . إشارات .)

لقد هجر سلامان حواسه وقوتيه الغضبية والشهوية ، وفوض لغيره أمر ملكه ، أي إنه هجر استخدام قوته العاملة أيضاً ، وفرغ هو بكل قوته النظرية للوصول الذى أصبح حقًّا له . أتراه وصل ؟ من يدرى !

إن التحقق التام بالله على هذه الأرض غير ممكن . وقديماً أخبرنا الحلاج بأن الفراشات ، طفقت تحوم حول المصباح إلى الصباح ، وعاد بعضها يخبر عن نوره ، وعاد بعضها الآخر يخبر عن حرارته ، وبعضها الأخير ، ما عاد ، ولا أخبر بشئ ؛ لأنه احترق فى النور .

ما كان سلامان ، إنسان العصور الوسطى ، يعلم أن الكواكب من تراب ، وأن السماء من غازات ، وأن فكرة الله من خلقه وإبداعه . ولكن ، وعلى الرغم من ذلك ، فان إرادته الطامحة ، جديرة بالاعجاب ، لأنها إرادة حققت إمكانيتها ، وتحققت بأصالتها وطبيعتها ، فأرادت كل شئ حتى اللامعقول ، أو بالأحرى اللاموجود .

عباس أحمد

من هنا وهناك

أنستاس مارى الكرملى

[الدنيا كلها ظلمة إلا مجالس العلماء]
للحسن البصرى

هذا راحل ثالث اشيعه فى هذا المكان ولم تمض سنة . هل أدع الفطنة فى اتقاد والعلم فى مكنة والسعى فى جد يذهبن ولا أتحسر ولا أتأوى ؟

شيخ أسبل اللحية على هواها ، فانتثرت وكثفت وطوقت أسفل الوجه بهيبة ذكرتنى أول ما أخذت عينى بالجلال الذى يحف أولئك الآباء الموصوفين فى التوراة المصورين فى الكتب المسيحية الشرقية . وكان يزيد فى تلك الهيبة ثوب الرهبان الكرمليين على سذاجته وفضفضته . وكان الأب الكرملى – رحمه الله – مع جلاله وادع النفس ، حلو المعشر ، لطيف الاشارة ، كثير التندر ، إلا إذا وثب إليه غامز أو غاظه منازع ، فتراه كأنه الفارس الذى ما ترك لونا من ألوان السلاح إلا شده إلى جنبه ، فهو الضارب الرامى والطاعن القاذف . ولا تهدأ له يد حتى يسقط خصمه وحجته مفلولة .

ولعل هذا البأس انحدر إلى طبعه ، فتغلب على حاله ، من جبلة أجداده وهم أهل جبل أشداء . فقد ولد الكرملى سنة ١٨٨٦ فى بكفيا من قرى لبنان ، فى بيت لامع . ثم هبط به أبوه إلى العراق ، فأقام هناك وترهب ، وتلقى علوم الدين فى بلجيكة خاصة .

انقطع الكرملى للغته الكريمة ، فأكب على درسها حتى حذقها أى حذق . وقد صارت بصارته بمتن اللغة إلى حد ما أعرف أحداً من المعاصرين بلغ إليه . وقد اتفق لى الحين بعد الحين أن أناقفه فى هذا الباب فدلنى على أسرار ونبهنى إلى دقائق . وكان أسلوبه محكماً متيناً سليماً ، إلا أن رهافة الأديب المنشئ كانت تزايل قلمه أحياناً . وأما علمه فكان غاية فى الرسوخ ، ألا ترى إلى تحريره النصوص المطوية مثل الجزء الثامن من « الاكليل » للهمدانى (بغداد سنة ١٩٣١) ومثل الكتب الأربعة التى جمعها فى « النقود العربية وعلم النميات » (القاهرة ١٩٣٩) ومثل « نخب الذخائر فى أحوال الجواهر » لابن الاكفانى (القاهرة ١٩٣٩) . وكان إلى جنب التنقير والتحقيق فقيهاً فى أوضاع اللغة وصيغها وتراكيبها . وحسبه دليلا على ذلك كتابه الفريد النافع « أغلاط اللغويين الاقدمين » (بغداد ١٩٣٣)، فلا يقدم على معالجة مثله سوى إمام .

ومما أخرج الكرملى فوق هذا عدد وافر من المباحث والمقالات فى موضوعات شتى يتقدمها الحيوان والنبات ، نشرت فى مجلته « لغة العرب » و « المشرق » و « المقتطف » و « مجلة المجمع العلمى العربى » بدمشق ، « ومجلة مجمع فؤاد الاول للغة العربية » وذلك إلى جنب الصحف السيارة مثل « الأهرام » . وتمتاز هذه المباحث والمقالات بالطرافة والمتانة مع سعة الاطلاع وإن اتفق أن يجرى فيها الاشتقاق مجرى قد يكون مستغربا .

وكل ما أذاعه الكرملى للناس إنما يعفى

إلى تكريم اللغة العربية وتعزيزها وتكثيرها وتدبيرها أحسن تدبير. ذلك فضل عظيم، وقد عرفه ذووه يوم أوفدت بغداد الكريمة هذا الزاهد، بلحيته وثوبه ونعله إلى مصر ليجلس عن علماء العراق كافة فى مجمع اللغة العربية. ولن أنسى استنكار بعضهم لقدوم الرجل، وفى أنفس بعضهم ظلمة ظالمة.

فى ذمة أبيك الذى فى السماء ايها الشيخ الصالح! سعيت فنفعت وزهدت فظفرت. ولعل ما خلفت من نفائس مطوية أو منتثرة ينشرها ناشر ممن يعرف فضلك ويحب لغتك، أو يجمعها جامع من تلامذتك وفيهم نفر من أعلام بغداد: فقد كنت حدثتنى فيما حدثتنى عن معجمك الوافى واسمه «المساعد». وأما مخطوطاتك ومطبوعاتك ففى العراق أو فى مصر من يقدرها فيحفظها إن شاء الله... فالى رحمة ربك يا من جعل لى من نفسه موضعاً وآثرنى بعطفه وإن قطع ما بينى وبينه آخر أيامه، فحزننى مرضه... يسر العلى لك طريق أنسه!

بشر فارس

خطاب إلى الطفل الناشئ فى القرية

إنى جاوزت جانب البحر ذات نهار، وحال بينى وبينك الموج... وجاوزت وسط الحياة ذات نهار، وحال بينى وبينك النهار والليل، ولكن سبل الذكر لم تنقطع بينى وبينك... فى ما تسمع الارض من نبأ أثر من الحديث وظلال من المودة تجمع الشقيتين. والفكر الدائم الدائب يسرى بك إلى الارض التى تحملنى، وأرتد إليك بقلبى من أمل ومن إشفاق، واعتز بما حملتنى من رجاء يوم يتزل بى الكلال، وتأفل فى ليل الاعياء نجوم سبيلى... والتى لم تملك حيلة من المقادير والبعد ولم يوصد قلبها عن الدعاء والذكر، عرفت أن خير ما ينفع المحب رجاء، فأجابت حديث ذكرى بدعاء:

«ألا فليتمم عليك الله بضياء ينير سبيلك
وبأمل يدفعك إذا هيض عزمك
وبكل سعادة نزلت بقلب...

عرفت عند مرافئ الحياة أن تراث النفس إن آمنت به النفس ذكر جميل، وأمل يرسله إليك فى مجاهل الحياة قلب سليم، وحكمة تهتدى ببصيرتها عند الذى تلقى من الاحداث... ولا يدرك الذكر والأمل والحكمة بصر وهى التى يسرت كل امرئ إلى قدره.

ولم أبصر فيما تحدثنى من هذه الديار أثراً سعد به الانسان حينا من الدهر، حتى حدثتنى النفس أن آتيك به أو بأحسن منه. ولم أمعن فيما علمت الحكمة من آثار سعد بها الاحياء زماناً حتى أعددتها ذخراً أقدمه إليك... وكأن كل ما أسمع أحمله إليك... وما كان ذلك أدباً ولا كذبا من القول، وإنما هى فطرة ركبت فى خلق الأحياء... وأنا أكاد آومن أن فى الانسانية أواصر وقرابة وأرحاما لا تنقطع، حتى يجمد الانسان ما خلق الله. أو يرضى الانسان لنفسه الشقاء... وللأرض التى نمت منها كل حى رحم وقرابة.

وما ينكر منكر نعمة هذه الشجرة التى ترى والتى تهتز أغصانها من النسيم: ويغرد فى أحضانها الطير... وتسكن من حولها الاغنام والأنعام. عند هذه الشجرة يهبط فكرى، فأرى شيوخكم يتحدثون بما حفظوا من أسرار الحياة... وهل أباحت الحياة سرها لأحد!

ومنذ غدوت من أهلى أسأل عن ضميرها كل كتاب فلم يغن الكتاب شيئا ، وركبت لمعرفتها كل صعب فلم أجد على الأرض غنى ... وحسبت حين حملنى المقدور إلى ما أجهل أن أسارع إليك بما أجد من سعادة وهدى .

لا سبيل إلى أن أحدثك عن ضمير الحياة ، فان حدثك به أحد فقد عرف شيئا وغابت عنه أشياء وسيفضى إليك ببعض العلم هذا الكتاب الذى تنشر صحفه على الأحياء كل نهار ، والذى يتلقاه الأحياء سجودا فى مشرق الشمس وسجودا فى غروبها . وسيفضى إليك ببعض العلم نجوم الليل ونور النهار ، وتفضى إليك الأرض ببعض العلم حين تأخذ زينتها وحين تتجرد . ويفضى إليك ببعض العلم يقظة الصبح ونوم المساء ... ومنذ دبت على الأرض دابة نشر ذلك الكتاب على الناس ولم يقرأ الناس إلا ظاهرا لم تتجاوزه عقولهم ، وآمنوا أن من وراء ذلك يداً استمسكت بهذا الضمير لا تسلمه لأحد ...

وما علك أحد أن يتمنى لك أمنية أسعد من أن تقرأ الطبيعة عليك كتابها كل يوم ، فتعقل آثارها إبهاما ووضوحاً وأنت سليم ... وإذن لقرأت جمالا ودينا وحكمة ، وآمنت إذا اكتسبت فضيلة العمل والوفاء بما آمن به الصالحون الذين لم يقرءوا حياتهم سوى حديث الزهر والماء والأنعام ولم تجعل السماء آمالهم سوى الخير . فكانوا فى حياتهم رجالا عادلين يتقون الله ، فأنبتت لهم الأرض نباتا طيبا ، وحمل لهم الشجر ثمرا شهيا ، وروى لهم البحر بخيره ، وأحاطت بهم ذرية سعيدة طيبة .

فهل من سبيل إلى أن تعصم طفولتك من آفات الحياة ... إنه لا يحل لأمة أنبتتك وأن تسال صبيا وأنت أعز ما تملك الأمم ... ومن يعجل به الفقر منكم فينفى من الأرض التى حملته ليخدم كالعبد فى منازل الأغنياء ولا يغرس الأرض ولا يقرأ كتابها ... ومن يعجل به الحرمان صبيا إلى آفات المصانع فيفسد ترابها رئتيه ... ومن لا يعصمه منكم عاصم فيهم طفلا فى كل سبيل ... ومن تدركه هائما جائعا آفات الفساد كان إثما ارتكبته الجماعة . وبما تهذبك الجماعة إن اضطربت موازينك بالسجون ... وحينئذ يحق لك أن تذكر ضمير الجماعة بقول العرجى:

أضاعونى وأى فتى أضاعوا
ليوم كريهة وسداد ثغر

فانك ثروة إن تولت قدرها أمة رشيدة جعلت منك طبيبا وخطيبا ومعلما وجنديا ورجلا سعيداً . وباهت بعقلك وجمالك الأمم . وكم من أمة تتمنى لو كنت من أبنائها ، وإذن لآتتك خيراً وفضلا كبيراً . فلأقرانك فى بلاد أخرى حدائق أطفال . وسنت لأقرانك قوانين تحميهم من الجهل والفساد والفاقة . ولأقرانك تنافس المتنافسون من الفلاسفة والحاكمين ، وانصرفت إليهم أمم بكل آمالها . ولأقرانك فى الأساطير قديما نزل أبولون إلى الأرض ومكث راعيا بين الرعاة ، وكانوا قبلئذ جاهلين فطربوا بنايه وعلمهم جمال الزهر ودورة الفصول وما حولهم من آيات الطبيعة ، فأخذ الرعاة بفنه ، فانقلب كل كوخ موئلا للسعادة والفن والفرح ، واستأثرت بعدها هذه الأكواخ بما عز على قصور الأغنياء .

إننى أخاف عليك من حياة هذه المدنية التى لم يسعد بها قومها ، والتى زودت الانسان بقوى فنى بها الانسان ، وأمست المحبة كلمة يتحدث بها كتاب ، وأغنت الصناعة الانسان عن الانسان ، وقطعت الأرحام ، وحجزت الانسان فى حجازها ، وجعلت القرابة بين الناس قرابة رياضية بحساب ، وأمست هذه المخترعات أمة فى كل بيت ، وأمة فى كل طريق ، وأمة فى كل عقل ... وأمة تسمى

فى الأرض وتجرى فى السماء . وتعتدى هذه الأمة على الأبرياء ، وتكذب كما تكذب الاماء ، وتخدع كما تخدع الاماء ، وتنتقم انتقام الاماء ، وأملت على الانسانية سياسة الاماء .

وقد حسب الانسان يوما أنه سيد هذه الأمة يسخرها كما يشاء ، وتطيعه إن هدم بها ملكا أو غزا بها أرضا ، وتمتع بها دهراً متاع الغرور . ثم تنكرت هذه الأمة لسيدها ذات نهار فأكلته ، ولم تفرق بين صديق وعدو ، وحجرت الانسان هلعاً فى بطون الأرض .

وهذه الأمة تتزين للانسان بزينة ظاهرة من أدب ظاهر ، وحديث مصطنع ظاهر ، واختارت ثراء المال وأمسى ما آمن به الأولون حديث خرافة . ستسمع يوم تعقل قبل أن تبرح الأرض شيوخا يذكرون المروءة والدين والعدل والاحسان . ولا تعرف مدنية الصناعة من هذه الفضائل إلا ما تحدث به الكتب ، ولا يتحدث بهذه الفضائل ساسة هذه المدينة إلا حين يريدون أن يحلوا حراما أو يحرموا حلالا .

وسيكفر الانسان بما آمن به حينا ، ويفر بنفسه إلى الدين والفضائل الأولى ، وإلى الحرث والنسل ويختار سعادة الخير . وقد عرف الأولون سبيل هذا الخير فى تعليمهم . . . إنما هى حديقة يزرعها الحكيم وتلاميذه فى حر الشمس وبين يدى الماء والزهر ، وتنمو أجسامهم بالرياضة ، وعقولهم بالحكمة ، وتتغذى نفوسهم بالقول الحكيم الرصين من الشعر ، وتسمو للموسيقى بعزمهم وآمالهم . ويتعلمون أن غاية السعادة الفضيلة ، وأن الفضيلة سعادة فى نفسها ، وأن كل شرف فهو خير ، وكل عار فهو شر ، وما بينهما احداث لا يقيم لها الانسان وزنا .

إنى أخاف عليك ، بعد الآفات والجهل ، أن يعلمك الذين دانوا بدين الأمة والذين يعلمون البطالة والفراغ ، وهما مرتع خصب لسائر العلل . . . إنهم لا يرون ولا يستطيعون أن يتبينوا آثار أعمالهم . . . فهم لو يعلمون سبيلا إلى سعادة الأرواح والأبدان . . . وما ضلوا إلا أن عطلوا هذه المواهب الفطرية ، ليجعلوا من الأحياء مرتزقة لا تنزع آمالهم لشىء لا يعد من دور الحكومة ليعيشوا بين جدرها عيش البطالة والفراغ . وإذا خرجوا من فراغ أعمالهم لاذوا بفراغ القهوة وكأن من فتح مدرسة فقد فتح قهوة . وخسرت الأمة بذلك من أعدتهم لسعادتها ، وخسر هؤلاء سعادتهم . . .

إنى أتمنى لك زمانا تبرأ فيه الأرض ومن عليها من الفساد والبغى والجهل ، وأن يعلم الناس أنك سيد الأرض التى أنبتتك وأن تتولى إليك عقول هذه الأرض جميعاً وآمال هذه الأرض جميعا .

علي حافظ

شهريات

شهرية السياسة الدولية

«لا يزال العالم فى قلق رغم الجهود المبذولة فى سبيل استقراره .» هذه هى العبارة التى نستطيع أن نعقب بها على حوادث العالم فى الشهر المنقضى : ففى الصين مظاهرات تنادى بخروج الأمريكيين ، وفى الهند الصينية ملحمة بين قواتها الوطنية وجيش الاحتلال الفرنسى ، وفى أندونسيا استئناف للمقاتلة بين أهلها والهولنديين ، وفى الهند نزاع على أشده بين الهندوكيين والمسلمين ، وفى إيران اتساع لمسافة الخلف المسلح بين حكومة طهران المركزية ونظام أذربيجان المعترف بذاتيته منذ وقت قريب ، وفى العراق مشادة بين الأحزاب حول حرية الانتخاب ، وفى سوريا ولبنان وشرق الأردن عدم انسجام فى الرأى بصدد « سوريا الكبرى » والعلاقة مع تركيا ، وفى تركيا بالذات مقاومة لحركات حزبية متهمة بالاتجاه شطر الاتحاد السوفييتى واليسار ، وفى اليونان حرب أهلية سافرة تذكر ظروفها بالحرب الأهلية الأسبانية الأخيرة من ناحية موضوع الخلاف الداخلى ومن ناحية انقسام التأييد الخارجى أيضا ، وسائر بلاد البلقان محل اتهام من ناحية الانجليز والأمريكان إذ يحتجون بمذكرات على عدم حرية الانتخاب فى بلغاريا ورومانيا وعلى مواقف معادية فى ألبانيا ، وكذلك الموقف من بولونيا وتشيكوسلوفاكيا ، وفى إيتاليا حيث كان أهلها ينتظرون جلاء قوات الاحتلال هذه السنة يعلن أن هذا الاحتلال مستمر فيها إلى سنة ١٩٤٩ ، وفى فرنسا يبدأ بالكاد عند كتابة هذه السطور عهد الجمهورية الرابعة إذ ينتخب رئيسها الجديد ، او تتخذ إجراءات انتخابه ولما تصف الخلافات الجدية القائمة بين الاحزاب ، وفى ركنتنا المحدود تتطور الاحوال فى فلسطين نحو الحل الذى يراد فرضه على الجانبين ، وتتسع شقة الخلاف بين انجلترا ومصر على كيان السودان وطبيعة التحالف ، وفى برقة وطرابلس وسائر بلاد المغرب شكوى من نظام الاستعمار ومطالبة بالسيادة والاستقلال ، وفى أمريكا البعيدة عن هذا العالم القديم يميل فريق من أصحاب المكانة السياسية إلى تأليف حزب جديد يقتسم الميدان مع الجمهوريين والديمقراطيين .

وذلك كله من دلالات القلق القاطعة .

وقد جاءت الحوادث الأخيرة تزيد من مضاعفاتها ، إذ طلبت حكومة إيران من الاتحاد السوفييتى تسليم بعض زعماء الحركة الأذربيجانية الذين قصدوا إلى أراضيه ، فرفض الاتحاد السوفييتى طلب الحكومة الايرانية لأنه يعتبر أولئك الزعماء لاجئين سياسيين ، ولا يوجد بين إيران والاتحاد السوفييتى معاهدة تسليم اللاجئين ، وتريد حكومة طهران أن تعتبر الزعماء الذين تطلبهم مجرمين عاديين ، إذ قاموا فى نظرها بأعمال قتل ونهب واغتصاب أموال من أهل أذربيجان .

كذلك ضاعفت الأحوال الداخلية فى الولايات المتحدة اضطرابات فكرية وقعت لمناسبة الاجتماع الأول لمجلس الكونجرس الجديد ، وهو الذى أسفرت الانتخابات الأخيرة عن كثرة جمهورية فيه بعد أن كانت كثرته السابقة ديمقراطية فدعا هذا

الوضع إلى شيء من الشذوذ ، إذ لا يزال الرئيس ترومان هو المتولى الحكم فى الولايات المتحدة ، وهو ديمقراطى الحزبية ، وهو مطالب بأن يحكم مع كثرة جمهورية مناوئة لحزبه . وتوقع المراقبون أن تحدث أزمات عنيفة بين السلطة التنفيذية ومجلس الكونجرس وأن يقف هذا الأخير حجر عثرة فى سبيل كل مشروع يقدمه الوزراء حتى يضطروا إلى الاستقالة واحدا بعد الآخر . فاذا جاءت انتخابات الرياسة فى أول عام ١٩٤٨ لم يكن فى الوزارة غير قلة من الحزب الجمهورى . وقد بدأ شيء مما توقع المراقبون ، إذ استقال وزير الخارجية مستر بيرنز الذى أدى خلافه مع وزير التجارة مستر والاس إلى استقالته ، ومستر والاس هو الساعى الآن إلى تأليف الحزب الثالث الجديد .

ولحق غبار بصفاء العلاقات بين فرنسا من ناحية وانجترا والولايات المتحدة من ناحية أخرى على أثر الخلاف الذى قام حول انفراد الدولتين الانجلوسكسونيتين باستثمار بعض آبار البترول فى العربية السعودية ، وزعم فرنسا أن اتفاقية استثمار بترول العراق تنص على مساهمة فرنسا معهما فى استثمار جميع الآبار الواقعة فى الأراضى التى كانت جزءا من الدولة العثمانية قبل قيام الحرب العالمية الأولى ، وأراضى العربية السعودية من تلك الأراضى . وذهب الخلاف إلى حد الاتجاه إلى عرضه على القضاء .

على أن ذلك القلق البادى فى هذه اللوحة التى رسمناها لمواقف العالم خلال الشهر المنقضى يقابله مجهود يبذل فى سبيل الاستقرار ، وقد صدر أكثره عن هيئة الأمم المتحدة وعن اجتماعات وزراء الخارجية للدول الأربع العظمى ، كما صدر عن إجراءات داخلية فى الولايات المتحدة ومجاملات تتبادل بين ممثلى الجيش البريطانى والسوفييتى ، وعن مساع يبذلها رئيس الحكومة الفرنسية فى لندن بالذات . وكان من شأن اجتماعات وزراء الخارجية أن مهد السبيل لكثير من المشاكل وأصبح من المأمول أن يعقد اجتماعهم بموسكو فى شهر مارس المقبل فى جو أنقى من الأجواء التى عقدت فيها اجتماعاتهم حتى اليوم ، وأن تتقارب وجهات النظر إلى المسألة الألمانية بحيث يوقع الصلح مع ألمانيا خلال هذا العام المبتدىء . وكان من شأن عناية هيئة الأمم المتحدة أن تقرر إرسال لجنة تحقيق إلى اليونان تميط اللثام عما يقال من أن مساعدات جدية تقدم للثوار اليونانيين من جانب الأقاليم البلغارية واليوجوسلافية المتاخمة . فقد أذيع أن الثوار استعدادا للتحقيق قد نقلوا مراكز هجومهم إلى الجنوب حتى يسقطوا دعوى الاتصال بينهم وبين دول أجنبية . فاذا ثبت عدم اتصالهم عن طريق الاقناع الجديد فان شيئا من ظل الاتهام بالتحريض الأجنبى سيتقلص ، وقد يعمل هذا التقلص على الحد من مدى إساءة الظن المتبادلة بين الانجلوسكسونيين والسلافيين .

وكذلك كان من شأن التفاهم على الموقف من حكومة الجنرال فرنكو ، وهو الموقف الذى يقضى بسحب التمثيل السياسى من مدريد ، فل لحدة الخلاف الذى كان متجليا فى العلاقات بين الكتلتين الجبارتين . وقد كان عدم الوصول إلى هذا الموقف الموحد محل ذبذبة فى العلاقات الدولية طوال العام المنقضى .

ولا شك أن ما قد أعلن حتى اليوم عن الاتجاهات البادية فى لجنة تنظيم الطاقة الذرية فى هيئة الأمم المتحدة مما يسجل فى قائمة الجهود الخيرة المبذولة فى سبيل الاستقرار العالمى .

ولعل زيارة الجنرال مونجومورى رئيس هيئة أركان حرب الجيوش البريطانية لموسكو ومقابلته للمارشال ستالين ذاته وما تبودل خلال الزيارة من مجاملات بين رؤساء الجيشين السوفييتى والبريطانى مما يزيد فى تأييد تفاؤل

للمتفائلين الذين تلوح لهم العلاقات بين الكتلة الانجلوسكسونية والكتلة الصقلبية الآن أقل توتراً مما كانت عليه أثناء انعقاد مؤتمر الصلح فى باريس .

ولعل استبدال الجنرال مارشال بمستر بيرنز فى وزارة الخارجية الأمريكية يعين على دعم قول القائلين بأن الظروف منتهية إلى إملاء خطة التفاهم مع روسيا على الدولتين الانجلوسكسونيتين . فابعاد مستر بيرنز يخفف فى ذاته من وطأة ذكرى للمواقف المريرة التى وقفها من الرفيق مولوتوف طوال مؤتمر الصلح فى باريس ، والعودة إلى الرئيس الأعلى لهيئة أركان حرب الجيش الأميريكى أثناء الحرب توجه إلى إعادة ذكرى الوئام الذى كان سائداً طوال تلك الحرب بين الثلاث العظميات جميعاً .

أما سفر رئيس الحكومة الفرنسية إلى لندن فمحاولة لتسوية الخلاف الناشئ عن مساهمة فرنسا فى بترول العربية السعودية وما إليها . ورئيس الحكومة الفرنسية الحالى هو مسيو بلوم ، ولشخصه مكانة بين حزب العمال المتولى الآن الحكم فى انجلترا . وعلى هذا الاعتبار يعتمد بلا ريب فى محاولته التسوية ، وإن كان يغلب أن يداعبه اعتبار آخر هو أن نجاحه فى التسوية يعينه على نجاح آخر فى السياسة الفرنسية الداخلية ، يقاوم به العقبات التى سيضعها الشيوعيون فى سبيل إعادة تأليفه الوزارة الجديدة من الاشتراكيين وحدهم .

ميل إلى التفاهم يبدو إذن فى أفق السياسة الدولية خلال الشهر المنقضى ، بفضل ما بذل فى مختلف البيئات من مجهود جبار فى سبيل التوفيق بين عديد وجهات النظر ، ولكن يتاخم هذا الميل إلى التفاهم جانب غير قليل من القلق لا يزال يصر على مساورته مالا يزال عالقا بنفوس الناس من ضعف الثقة المتبادلة بينهم .

ورجاؤنا أن تعمل حوادث العام الجديد . بل تعمل تطوراتها على دعم الميل إلى التفاهم . فيقل القلق وتزيد الطمأنينة ، وتستند العلاقات الدولية إلى المستقر من الاعتبارات ، فيصح على الأقل ذلك التصريح « المتواضع » الذى صدر أخيرا عن رجل الدولة العالمى الكبير الرئيس بنيش رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا . وقد جاء فيه :

« إن العالم لن يعرف الحرب خلال الخمسين سنة المقبلة » .

محمود عزمى

شهرية المسرح

الموسم الغنائي التمثيلي في دار الأوبرا الملكية

عند ما وقع نظري في صحيفة من الصحف اليومية على خبر قدوم فرقة إيطالية لتمثيل الروايات الغنائية المعروفة بالأوبرا، على المسرح الملكي بالقاهرة، انتابني شعور هو مزيج من الجذل والابتهاج الكبير. ذلك أني بدأت أشعر أن أزمان المحنة قد انتهت. وبدأت أشعر حقا بأن العالم دخل في فترة السلام. وهو شعور لم أجده عند تسليم بعض المتحاربين للبعض الآخر تسليما نهائيا، ولا زلت أفتقده فلا أجده حتى الآن لما يحيط بنا في هذا العالم من قلق وعدم استقرار.

وأي برهان على السلام أكثر من انتقال فرقة غنائية من إيطاليا للتمثيل في المسرح المصري، بعد أن حيل بينها وبين زيارة هذه البلاد نيفا وست سنوات، كان فيها المسرح الملكي الذي أنشأه العاهل المصري العظيم للأوبرا خاصة بعيدا عما أنشئ له. كان في تلك السنوات مقفرا إلا من التمثيل العادي وهو لم ينشأ لذلك. وكان مقفرا إلا من فرقة عابرة أرسلت لتسلية الجنود المحاربة المقيمة في هذه البلاد وإرضاء أذواقهم الخشنة. وكان مقفرا إلا من فرق الهواة التي تألفت لأغراض خيرية بعضها عظيم الفائدة وبعضها مشكوك في فائدته.

لقد أقفر المسرح الملكي للأوبرا من تمثيل تلك الروايات الغنائية المسماة بالأوبرا. وهو لم ينشأ إلا لها، ويجب ألا يخلو منها موسم من مواسمه. أقفر المسرح الملكي حتى خشي ألا تعود إليه الأوبرا مطلقا.

واليوم عادت إليه الأوبرا. وعاد التمثيل الغنائي إلى داره، ولم تكن تلك السنوات المظلمة الماحلة إلا غمامة انقشعت، ولم يبق ثمة شك في أن الادارة المصرية التي تتولى أمر هذا المسرح الملكي تعلم حق العلم واجبها نحو هذا المسرح، ونحو تاريخه، ونحو غرض منشئه العظيم.

كم سمعنا وكم قيل لنا في معرض الحديث والنقاش: مافائدة الأوبرا! كأن الشيء لا يمكن أن تكون له فائدة إذا لم تترجم هذه الفائدة بالدرهم والدينار. الواقع أن أكبر مظاهر الحضارة، وأن الأمور الجديرة بأن يقطع الانسان من أجلها مرحلة هذه الحياة، لا تقوم عادة بالمال، فهي في مظهرها عديمة القيمة المادية؛ ولكن الواقع أن قيمتها المعنوية عظيمة. وهذا ما أعتقد أن العاهل العظيم فكر فيه عندما أقام هذه الدار، وقد أراد أن تكون بلاده جزءا من أوربا، وأوربا تعرف التمثيل والموسيقى، وتعرف تلك الروايات التي جمعت بين التمثيل والموسيقى، وهي خلاصة الحضارة الاوربية، فليكن في وطنه إذن دار تكون دائما علما على اتصال الحضارة.

قد يقال إن هذه الدار لا يؤمها من المصريين إلا قلائل. ولكن هذا العيب في رأيي ليس عيبا في هذا المعهد نفسه، ولا هو عيب في الجمهور، وإنما هو عيب في الذين يعملون على ثقافة الجمهور وتربيته التربية الموسيقية الواجبة. ونحن نعلم أن المصريين يزيدون في الاقبال سنة بعد سنة على التصوير، ويزيدون في الاقبال سنة بعد سنة على النحت. ونعلم أن القائمين بتثقيفهم في هذين

الفنين ينحون نحو الأوربيين فى التعليم ، فلماذا نراهم لا ينحون هذا النحو فى التعليم والتثقيف الموسيقى ؟

لندع هذه الآراء التى تطغى علينا جانبا ، ولنعد إلى اغتباطنا بالفرقة الايطالية وحضورها إلى مصر ، بل حضورها إلى مصر بالطائرة فى بضع ساعات ، مما يبشر بزيادة الاتصال والارتباط بأوربا . ولكن هذا الاغتباط لم يكن خاليا مما يشوبه ، ذلك أنه كان من الطبيعى أن نتطلع ونتطلع إلى البرنامج ، وإذا بهذا البرنامج يعلن الينا ، فماذا نجد فيه ؟

أسماء كبيرة حقاً فى عالم الموسيقى . هذا ڤردى بثلاث أو أربع من رواياته ، منها ريجولتو وتراڤياتا وعائدة . وهذا بوتشينى بثلاث من رواياته منها توسكا ومدام بترفلاى . ثم دونزيتى بروايتين أو ثلاث منها لوشيا دى لا مرمور . وجوردانو بروايته أندريا شينييه وروسينى بحلاق إشبيلية ، وكارمن وهى الرواية الوحيدة التى لحنها موسيقى فرنسى .

فكأن الروايات التى اختارتها الفرقة الايطالية أو اختارها لها متعهد الفرقة إنما اختيرت لتمثيل الفن الموسيقى الايطالى الحديث ، ولكن لا لتمثله فى خير مظاهره . وقد يعترض على بأن ڤردى هو أكبر مؤلفى الأوبرا من الايطاليين فى العصر الحديث . وهذا مالا أريد إنكاره ، ولكننا إذا أردنا أن نختار ما يمثل ڤردى فى خير مواهبه حقا وما جعله جديرا بالمجد حقا ، فلا نختار ريجولتو أو تراڤياتا ، وربما لا نختار عائدة ، ولكننا نختار شيئا آخر .

أغلب الظن أن متعهد هذه الفرقة أحب أن يختار من الروايات ما يروق فى نظره لدى الجمهور ، والويل للجمهور من ادعاءات المتعهدين . ومع ذلك نغتفر نحن له هذه المرة عدم التوفيق فى اختياره ، ونحمد له مجرد تمكنه من تدبير إحضار هذه الفرقة لتشعرنا بالسلام .

على أننا نأمل كثيراً فى الادارة المصرية الحاضرة فى دار الأوبرا ، بما نعهده فى رئيسها ووكيلها من الذوق السليم ، أن تحذر اختيار المتعهدين ، وألا تأخذ برأيهم إلا بعد مراجعة ؛ فقد عرفت دار الأوبرا فى ماضيها ليالى باهرة ، وشهد الناس فيها فنا عظيما . فانا لا ننسى أننا قبل هذه الحرب الأخيرة سمعنا فيها موسيقى ڤاجنر فى تانهوزر ولوهنجرن وزيجفريد من فرق إيطالية وفرنسية ، وسمعنا فيدليو رواية بتهوفن الخالدة ، وأكثر من رواية من روايات موتزارت من فرقة نمساوية ، وسمعنا بوريس جوادونوف ، للموسيقى الروسى مسورجسكى من فرقة لا أتذكر أهى كانت فرنسية أو إيطالية . بل سمعنا بلياس ومليزاند تلك الرواية التى هى فى رأيى المتحيز خير الأوبرات الحديثة .

فلا ينبغى للادارة المصرية أن تنسى هذا الماضى ، ولتذكره ولتعمل على التفوق عليه سريعاً ، ولتذكر أيضا ونتقلب سجلات ماضيها ، لتذكر أنه كان يطلب إلى المتعهدين دائما أن يقدموا فضلا عن الروايات المعروفة ، عدداً من الروايات التى لم يسبق تمثيلها على المسرح الملكى . فلترجع الادارة المصرية إلى تلك الخطة المحمودة ، ولتوسع أفقها فتستعين بعشاق للموسيقى على تدبير البرامج واختيارها وتبحث عن الفرق الممتازة فى مختلف الأقطار دون التقيد باللغة . فالناس يذهبون إلى الروايات الموسيقية للموسيقى ولا يهمهم فهم اللغة . وقد تستعين برجال الدبلوماسية من مختلف الدول فى تدبير هذه الفرق ، فما أحب التأثير بالفن ، وما أكرم الدعاية بالفن .

لم نر حتى كتابة هذه السطور من روايات الفرقة غير عدد قليل ، ولكننا نستطيع أن نحكم من الروايات التي شهدناها على أن هذه الفرقة ممتازة ، وهي تمثل مستوى عاليا في الغناء الايطالي . ولا غرو فان الاعضاء جمعوا من أكبر مسارح الأوبرا في إيطاليا من لاسكالا ذي التاريخ المجيد في فن الأوبرا بميلانو ، وريالي المسرح العتيد بروما ، ودار الأوبرا بنابولي — وهم يمثلون التمثيل الغنائي في إيطاليا بمحاسنه ومعايبه أيضا . فلقد سمعنا مثلا كنيليا في صوتها الرنان البديع ، وحسن غنائها في دور توسكا ، وصفقنا لها طويلا ، ولكننا نكون خاطئين إذا أخذنا عليها ، كما أخذ عليها صديق ، أنها لا تحسن التمثيل . فأية مغنية إيطالية تحسن التمثيل ، وترى أن من واجبها أن تمثل الدور حين تغنيه إلا في القليل النادر ! فلنكتف إذن بما نجد من سحر في الغناء . وما ألفت الاوبرات الايطالية وما وضعت المواقف فيها إلا للغناء ، لا للموسيقى وحدها ولا للتمثيل مطلقا . وإن أردت أحد هذين أو اجتماع هذين فالتمس ذلك في غير فرقة إيطالية ، وعليك في الغالب أن تدفع ثمن ذلك قليلا في أن تنزل عن شيء من الابداع في الغناء ، والتلاعب بالصوت كيفما شاء المغنى أو المغنيـة . .

ومع ذلك ليس لنا أن نشكو ؛ فلقد رأينا في بعض السنوات ، وعلى مسرح الاوبرا نفسه ، فرقا جعلت أبداننا تقشعر . وأذكر في دور توسكا ذاته مغنية إيطالية بلغ من سوء ادائها ، أن أقسمت ألا أشهد تلك الرواية لسنوات عدة ، وبررت بقسمي نحو عشر سنين .

إذن لم يبق لي إلا أن أعود إلى الثناء على القائمين بأمر المسرح الملكي لتدبير هذا الموسم الغنائي ، وألح في أن يكون في كل موسم جانب ، وجانب كبير للتمثيل الغنائي ؛ فما أنشيء هذا المسرح إلا من أجله .

حسين محمود

شهرية السينما

أحمر شفايف (أفلام الريحانى)

ما هو ذا الأستاذ الريحانى يوالى نشاطه السينمائى وينتج لنا فيلما آخر أسماه « أحمر شفايف » . ومن يقرأ هذا العنوان ويكون من الذين يتتبعون إنتاج الأستاذ الريحانى المسرحى والسينمائى ، يعتقد أنه سيشاهد ملهاة ظريفة عن أحمر الشفايف ودوره فى حياة المرأة . ولكن أحمر الشفايف لم يوح بكوميديا مضحكة ، وإنما أوحى بقصة أراد مؤلفاها أن تكون مبكية أحيانا فلم تبك ، وأرادا أيضا أن تكون مضحكة أحيانا أخرى فلم تضحك . والمشاهد يجد نفسه فى حيرة إزاء هذه القصة : أكان يشاهد كوميديا وفاته أن يضحك ، أم كان يشاهد دراما ففاته أن يتأثر ويبكى . إن القصة التى ساقها إلينا هذا الفيلم تختلف عن القصص التى شاهدناها فى مسرح ريتس أو فى « لعبة الست » أو فى « سلامة فى خير » ، تلك المسرحيات الفكهة التى لا تخلو من نقد اجتماعى لاذع مصوغ فى قالب ساخر . فليس مسرح الريحانى إلا مدرسة للشعب ، يتعلم فيه كيف يعالج مشكلاته الاجتماعية ، وكيف يعالج عيوبه الشخصية . ولم يرد الريحانى هذه المرة أن يتخلف عن أداء هذه المهمة التى أخذها على عاتقه وهى إصلاح ما اعوج من أخلاق المصريين فى أسلوب فكاهى حلو ومر فى واقت واحد . لقد واصل أداء هذه المهمة ، ولكنه لم يصطنع الأسلوب الذى اعتدناه، بل ألقى علينا هذه المرة عظة كأنه الخطيب على المنبر . ولعل فى إلقاء العظات ما يكون سبيلا إلى إرضاء الجمهور . فكم سمعنا فى قاعات العرض من تهامس ينم عن إعجاب . ولكن هل للريحانى أن ينزل عن فنه ليرضى الجمهور ، وهو بهذا الفن يحتل المكان الأول فى المسرح المصرى ؟

على أنك تجد فى القصة بعض نواح جديرة بالتقدير ، ففى الجزء الأول صورة صادقة لحياة الأسرة المصرية الهادئة ، ولعقلية الموظف المتوسط الحال وما يشغله فى حياته من توافه الامور. ولا ننسى أيضا أن نذكر له سخريته فى لباقة لا تثير دهشتنا وإن أثارت إعجابنا من طريقة فى الغناء يسجد لها الشرقيون . ولكن القصة تتعثر وتضطرب حينما تبتدىء الامور تتعقد : الزوجة تظن أن زوجها يخونها مع الخادمة ، ودليلها على ذلك آثار من لون أحمر على منديله ظنته أحمر للشفاه مع أنه لم يكن إلا بقعا من قلم أحمر للكتابة . وينفصل الزوجان رغم ولوع كليهما بصاحبه وييأس الزوج وتيئس المرأة من العودة إلى حياة هانئة لما تثيره فيها الغيرة من الغيظ . وتدوم الحال هكذا حتى استطاعت الزوج أن تميز بين أحمر الشفاه وأحمر القلم .

ولم يجمع الأستاذ الريحانى حوله من الممثلين تلك العناصر القوية التى كنا نراها فى مسرحه وأفلامه ، بل اجتمع لأداء القصة من هم دون فن الأستاذ الريحانى فى التمثيل، حتى لقد لاحظت تفاوتا كبيراً بين أدائه وأدائهم ولعل ذلك يكون من الأسباب التى عاقت القصة عن الوصول إلى النجاح المطلق . لقد مثلت السيدة زوزو شكيب دور المرأة المصرية بكل

ما يقتضى هذا الدور من ثقل وفتور . وقامت سامية جمال بدور الخادمة اللعوب بكل مالها من مؤهلات لهذا الدور ؛ ولكنها فى رقصاتها الشرقية لم تصل إلى رضا الجمهور رغم ما فى هذه الرقصات من خلاعة ترضى جمهورنا . أما الأستاذ الريحانى فقد أتقن تمثيل شخصية الموظف المتوسط الحال ،وأبدع خاصة فى أدائه حينما افتقر وأخذ يطوف الشوارع طالبا ما يسد رمقه . فتمثيله فى منظر المطعم الذى يدخله ليأكل من الطعام ما يساوى عشرة القروش التى يملكها واضطرابه حينما فقد هذا المبلغ يدلان جليا على مقدرته على التعبير الصحيح الذى لا يشوبه أى غلو .

وكنا نود أن يكون إخراج هذه الرواية مناسبا لما ألسناه فى إخراج ماسبق من روايات، وألا نشعر بأن ما يجرى من حوادث فى القصة إنما يجرى فى استوديو بين مناظر شيدت للتمثيل . لقد كان على الاخراج أن يمحو هذا الأثر ويصبغ القصة بطابع واقعى يناسبها .

ومهما آخذنا القصة والتمثيل والاخراج ، فلا ينبغى أن ننسى أن الأستاذ الريحانى من القليلين الذين جاهدوا فى سبيل إحياء المسرح المصرى ووصلوا به إلى درجة فنية رفيعة ، وأن له الفضل الأكبر فى وجود الملهاة المصرية . فهل من الوفاء والتقدير أن نؤاخذ رجلا له هذا الماضى الفنى المجيد بتلك الهنات ؟

ذات الشهرة السيئة (شركة ر . ك . و) (١)

إن الشركات السينمائية الأمريكية متى لمست في ممثل من ممثليها أنه وصل إلى الشهرة وأصبح محبوبا إلى الجمهور لا تتورع من أن تظهره فى أفلام ضعيفة قصة أو إخراجا أو حوارا . ذلك لأنها تعلم أن الجمهور يسعى إلى دور العرض وقد جذبه إليها اسم الممثل الذى يعرف عنه الكثير لا القصة أو عنوانها اللذان لا يعرف عنهما إلا القليل . ومن العجيب أن الممثلين الأمريكيين لا يأبون أن تستغل أسماؤهم فى دعاية رخيصة لفيلم رخيص . فالممثلة أنجريد برجمان لم ترفض أن تشترك فى تمثيل ثلاثة أفلام فى موسم واحد ليست ذات شأن مطلقا : لقد قامت بالدور الاول فى « المسحور » وفى « مغامرة سراتوجا » وفى « ذات الشهرة السيئة » والأفلام الثلاثة سقيمة ضعيفة من جهة القصة .

و « ذات الشهرة السيئة » فيلم عن الجاسوسية إبان الحرب الاخيرة يسوق إلينا مغامرات فتاة ألمانية استخدمها قلم المخابرات الأمريكى للكشف عن مؤامرة جواسيس ألمان فى ريو دى جانيرو . ويصطنع المؤلف الاسلوب المألوف فى حبك قصص الجاسوسية. فالفتاة تقع فى غرام شاب أمريكى من قلم المخابرات وهو المكلف بارشادها فى مهمتها . ثم تقع فى شراك الجواسيس الألمان، فيحاول عشيقها أن ينتزعها من مخالبهم ، ويتم له ذلك فى ظروف مستحيلة ، ولكن لمؤلف القصة القدرة على أن يخلص شخصياته من أى موقف مهما كان وعرا ، وعلى المشاهد أن يرضى عن سلوك المؤلف أو لا يرضى .

أما إخراج الفيلم وتمثيله فكانا متقنين حتى أنسيانا معايب قصته . فبفضل الاخراج المتقن شهدنا مناظر جميلة خلابة مصورة تصويرا جديرا بالاعجاب. غير أننا نأخذ على المخرج المغالاة فى مناظر القبلات التى احتلت الثلث الأول من

(١) Notorious (*R.K.O.*)

الفيلم . وقد جمعت هذه الرواية ممثلين شهيرين ، هما أنجريد برجمان وكارى جرانت اللذان قاما بالدورين الرئيسين خير قيام .

والآن وقد انتهت ظروف الحرب التى اضطرت الشركات إلى إنتاج رخيص لعدم توافر العناصر اللازمة من ممثلين ومصورين ومخرجين، هل لنا أن نتمنى على المنتجين الأمريكيين أن يراعوا ذوق الجماهير ، وألا يفرضوا علينا هذه القصص الضعيفة التى سئمنا مشاهدتها طوال سنى الحرب الست ؟

مشرف كامل

من كتب الشرق والغرب

صور من العنف والقسوة فى الأدب الأمريكى

تبدو أمريكا لعيان الزائر العابر أو القارئ المتطفل نعيما يسبح أهله فى رخاء شامل ويرتع نزلاؤه فى بحبوحة من العيش لا يعكر صفوه منغصات الحياة التى يشقى بها سكان العالم القديم. فأمريكا موطن الاختراعات الحديثة ونبع المبتكرات الخلابة التى ترفه عن النفس. وأمريكا بلد الثراء الطائل، والحرية التامة التى ترنو إليها عيون كل من أهدرت حقوقه على وجه الأرض، وهى تستهوى ألباب الشعوب المتعطشة إلى السعادة والهناء. وطفق الأمريكيون يدوون فى الأبواق ويروجون بدعاياتهم الماهرة إلى بهرج الحياة الأمريكية وما ينعم به المواطن فى ولاياتهم من عز وجاه وترف، حتى نسجوا غشاء كثيفا من الخداع ظنوه يستر عن الأبصار النافذة حقيقة أمرهم وطبيعة عيوبهم ورذائلهم، ومنها ما هو عام يشمل بنى البشر أجمعين، ومنها ما هو خاص بهم ينجم عن خصالهم وطرق معيشتهم واقتصادهم وتفكيرهم.

لقد وصلت أمريكا إلى مرحلة من الحضارة الزائفة دفعت منذ بضع سنين كثيرا من خير كتابها ومفكريها إلى أن يحاولوا تمزيق حجب الزيف والخداع، وجلاء ما خفى وراء الظواهر البراقة من بؤس وشقاء ويأس وبكاء. فتسلطت على بعض أدباء أمريكا المعاصرين نزعة تحليل وتمحيص لمقومات الحياة الأمريكية الحديثة، وجنحوا إلى سبر غور نفس الأمريكى العادى للوقوف على آماله وأحلامه وأفكاره ونوازعه، فجاء جلهم بصورة قاتمة حالكة صاغوها فى قصصهم بعبارات عنيفة كل العنف وبأسلوب عار عن كل زخرف وتنميق. وقد بلغ بعض هؤلاء الكتاب الواقعيين فى وصفهم الحياة الأمريكية حدا من القسوة لم يبلغه سلف، ونظروا إليها بمنظار أسود لا سبيل معه إلى بارقة أمل، وقد فاقوا أحيانا ما وصل إليه الأدب الروسى السابق للثورة من تشاؤم وزهد فى الحياة. وأخذت موجة العنف والاقذاع فى القول تجتاح الأدب الأمريكى إلى درجة خطيرة أدت إلى تدخل السلطات العامة لوقف تدفق أفكار يخشى معها أن تودى بسمعة البلاد، ولاسيما أن كثيرا من هذه القصص المثيرة للعواطف كان يتكالب عليها مخرجو السينما لعرضها على الشاشة البيضاء ولا يخفى ما فى هذا العمل من دعاية ضارة لأمريكا وتلويث لسمعتها. ولا يفوتنى فى هذا المضمار أن أذكر ما أقدمت عليه الرقابة الأمريكية للسينما من حظر إصدار قصتين خالدتين للكاتب الشهير ستاينبك Steinbeck إلى أوربا وهما رواية « عنب الغضب » *The grapes of wrath* ورواية «جرذان وبشر» *Of mice and men* إذ تصوران أبشع مناظر الحياة الأمريكية رغم انهما آيتان رائعتان من الوجهة الأدبية ومن وجهة فن التصوير الصادق؛ هذا فى حين تغمر تلك الرقابة نفسها أسواق العالم بأفلام لا أثر للفن فيها، ولكنها تروج للدعاية الوطنية التقليدية الزائفة ألا وهى أن أمريكا فردوس تجرى من تحته الأنهار وجنة الله فى أرضه.

وقد لاقت قصص إرنست همنجواى Ernest Hemingway معارضة قوية من فئة

من القراء فى أمريكا أقذعهم اسلوبه اللاذع ووصفه بعض الحانات الرخيصة حيث يحتسى فيها روادها الخمر حتى تلعب برءوسهم ويفوهون بألفاظ أو يرتكبون أعمالا لا تستحى منها نفس القارئ الأمريكى الوديع .

ولا يخفى على الأديب أن أمريكا تلجأ كل يوم إلى مصادرة كتاب أو منع نشر مؤلف أو القبض على قصصى ومحاكمته بتهمة الاعتداء على الأخلاق القومية وزجه فى السجن حتى يتأمل مغبة عمله ويدرك أن حرية القول فى ذلك البلد محاطة بأسوار شائكة ومقيدة بأغلال ثقيلة . ولم يغرب عن البال ما آل إليه الكاتب الانجليزى الشهير جيمس جويس James Joyce إذ أقيمت عليه الدعوى العمومية ووجهت إليه أشد التهم خطورة ، واستقر الرأى على مصادرة كتابه المعروف « أوليس » *Ulysses* وأخيرا وافتنا الصحف بأنباء تفيد مصادرة كتاب الشابة الأمريكية النابهة كاتلين ونسور المعنون *For ever Amber* .

لذلك عمد كثير من المؤلفين الأمريكيين الذين لم يأنسوا فى بلادهم قسطا من حرية التفكير يؤهلهم للتعبير عما يجيش فى صدورهم من أفكار قد لا تروق أولى الأمر إلى مغادرة العالم الجديد والهجرة إلى بعض أصقاع العالم القديم ، حيث حرية الفكر مكفولة موفورة ، وحيث لا يعوقهم عن الافصاح عن خوالجهم أى عائق من قانون أو عادات أو طباع . وغنى عن القول أن أولئك الكتاب لم يرحلوا إلى بريطانيا العظمى أو روسيا السوفيتية حتى لا يستجيروا من الرمضاء بالنار ، وإنما يمموا شطر فرنسا مؤئل الحرية الفكرية فى العصر الحاضر بعد أن نفضت فرنسا غبار الماضى ونسيت محاكمة فلوبير لأجل قصته الخالدة « مدام بوفارى » أو الشاعر الموهوب بودلير لأجل مجموع ديوانه الشعرى الرائع *Les fleurs du mal* .

والآن أبدأ بعرض موجز وتحليل مقتضب لقصتين لكاتبين أمريكيين نشرتا أخيرا فى باريس حيث ظهرت تواً ترجمة فرنسية لهما ، على حين لم تنشر إحداهما فى أمريكا إذ لم يجرؤ أى ناشر على طبعهما . وقد راجت القصتان فى باريس رواجا لا مثيل له ، وتناولهما النقاد الفرنسيون فى الصحف والمجلات الأدبية بالنقد والتحليل بين محبذ لهما مولع بهما أشد الولع وبين ساخط عليهما مستهجن لهما أشد الاستهجان . وقد أثارت القصتان جدلا عظيما بين من ولع التحدث عنهما وأوقدتا نقاشا مرا احتدم بين أدباء فرنسا احتداما لم يخف سعيره للآن .

أما القصة الأولى فعنوانها « سوف أبصق على قبوركم » *J'irai cracher sur vos tombes* (éd. du Scorpion, Paris) لمؤلفها ڤرنون سليفان Vernon Sullivan وقد نشرت حديثا فى باريس فى شهر نوفمبر سنة ١٩٤٦ ولم تنشر بلغتها الأصلية الانجليزية للآن ، وهى قصة عنيفة مقذعة فتاكة قصد بها مؤلفها الانتقام للزنوج فى أمريكا لما يسامون من ألوان العذاب على أيدى الرجال البيض . أما ڤرنون سليفان فهو من أولئك البيض المنحدرين من سلالة سوداء عريقة فى السواد ، اختلطوا منذ القدم بنساء بيض فتلونت بشرتهم على مر الحقب والأزمان ، حتى انتهى بهم الأمر إلى أن ابيضت تماما بحيث يتعذر تمييزهم عن البيض الأصليين . وفى كل عام تقوم الحكومة بإجراء تعداد لهم توطئة لنقل قيد أسمائهم من قائمة السود إلى قائمة البيض . وهذه العملية يعبر عنها فى أمريكا باصطلاح طريف « اجتياز الخط » .

وقد كان ڤرنون سليفان ممن حظوا بنعمة الابيضاض الرسمى فى أمريكا . وهى نعمة لا يقدرها حق قدرها إلا الزنوج المناكيد

ولكنه رغم هـذه المنحة لم يكن لأترابه السابقين السود أى شعور بالازدراء أو التعالى عليهم، ولم يعرب لرفاقه البيض الجدد عن أى شعور بالامتنان ولم يستول على نفسه تيه ولا زهو لمآله الأخير، وإنما ظل حاقدا على الجنس الأبيض ناقما عليه مبيتا له نية التشفى منه. ولذا أقدم على وضع قصته وخلع عليها ذلك العنوان المفترس « سوف أبصق على قبوركم ». وقد رمى من ورائها إلى إظهار قسوة الأسود عندما تختمر فى رأسه فكرة الانتقام لبنى جنسه.

أما هذه القصة فيرويها شاب يمت إلى تلك الفئة من الزنوج الحديثى عهد بالابيضاض وسيم الطلعة أشقر لا يبدو على سيماه أى أثر لأصل أسود، وطد العزم على الانتقام من الجنس الأبيض بعد أن حز فى نفسه قتل أخيه الصغير لتجرئه على مبادلة الحب مع فتاة بيضاء. وقد أتاحت الأيام للراوى أن يوثق أواصر الصداقة مع أختين يافعتين تنحدران من أرومة كريمة وتمتان إلى أسرة من البيض عريقة النسب، وما فتئ يحوك حولهما الحبائل زاعماً أنه مدله فى حبهما حتى وصل إلى ضالته المنشودة واستأثر بقلبيهما الواحدة أثر الأخرى. ولما أن جاءته إحداهما فى يوم من الأيام تنبئه أنها حملت منه سفاحاً، رأى الفرصة سانحة للأخذ بثأر أخيه الصغير الذى مات شر ميتة على أيدى الرجال البيض، فدبر لها فخاً شيطانيا واستدرجها إلى جهة نائية منعزلة، ثم انقض عليها انقضاض الوحش الكاسر وأوسعها لطماً وضرباً وركلا، حتى لفظت النفس الأخير، فتركها جثة هامدة، ولم شعثه وقفز فى سيارته وسار حثيثاً حتى بلغ مكانا آخر عينه للأخت الصغرى للقائها، فاستدرجها أيضاً إلى جهة أخرى ليعيد الكرة ولما يجف دم ضحيته الأولى من يديه المخضبتين، فبندرته المسكينة تذكره بوعده إياها بالزواج فلم يجبها، وإنما أسرع السير حتى وطئا بقعة مقفرة، فانهال عليها ضربا وأخرج مسدسا وأرداها قتيلة، ثم اغتصبها وهى جثة دافئة زايلتها الحياة وقد ظل الراوى طريد العدالة إلى أن دهمه رجال الشرطة فأفرغوا فيه رصاصهم وأردوه قتيلا. ولما علم أهل القرية أنه من أصل أسود علقوا جثته على شجرة وشنقوه.

وقد روى فرنون سليفان قصته بأسلوب توخى فيه الإفحاش عن عمد، ولم يتورع عن وصف مناظر بشعة وصفا تقشعر له الأبدان، كما أنه صور العراك الوحشى الذى دار بينه وبين ضحيتيه تصويراً أمعن فى بيان تفاصيله حتى الغثيان. وهذا اللون من الأدب العنيف لا قبل للنفس المرهفة الحس على احتماله، ولكنه يدل على أن موجة القسوة تطغى على مشاعر بعض الكتاب لهول ما رأوا من العذاب الذى يتجرعه بعض أفراد الناس لغير ما سبب اللهم إلا اختلافهم فى البشرة أو العقيدة أو المبادئ السياسية.

أما الكتاب الثانى الذى أعرضه اليوم فقد ظهر فى صيف سنة ١٩٤٦ فى باريس أيضا، وهو للمؤلف الأمريكى الشهير هنرى ميلر Henry Miller وعنوانه «مدار الجدى » *Tropique du Capricorne* (éd. du Chêne, Paris) وهو يكمل كتابا آخر لنفس المؤلف ظهر منذ حوالى عشر سنين اسمه « مدار السرطان ».

أما هنرى ميلر فهو كاتب أمريكى من أصل ألمانى ذاع صيته فى أوروبا، إذ استوطن فرنسا وعاش فيها ردحا من الزمن يصدر فيها مؤلفاته متمتعاً بحرية تامة بعد أن نبذه بنو وطنه. وتعد جميع مؤلفات ميلر من المحظورات فى أمريكا، فلا يجرؤ أحد على نشرها أو تداولها رغم ما فى هذا الحظر نفسه من دعاية غير مقصودة لهذه المؤلفات. لذا لاقت بعض النسخ القليلة التى تسربت خلسة إلى داخل

القارة الأميريكية إقبالا اشديداً من جمهرة القراء وتهافتا على اقتنائها . ولا غرابة فى ذلك فكل محظور مرغوب . وقد توخى هنرى ميلر فى كتبه كيل الصاع صاعين لأمريكا التى حرمته حرية القول والفكر حتى تقطعت عليه سبل العيش فيها ؛ لذا خصها بأمضى ما فى جعبته من سهام ، وشهر عليها حربا شعواء شحذ لها أشكى سلاح ألا وهو قلمه الذى ينفث الحقائق المحرجة بأسلوب مسرف فى الاقذاع كما تنفث الأفعى السم الزعاف .

أما مؤلفه الأخير « مدار الجدى » فهو كتاب ضخم يحوى خمسمائة صفحة كثيفة لا تتخللها فصول أو أبواب ، وكأنه لفظه دفعة واحدة حتى ينتهى من أمره ويتنفس الصعداء . ويتعذر على القارئ أن يستخلص من خضم الالفاظ التى يزخر بها الكتاب أى موضوع متماسك ؛ فهو لا يعدو كونه سلسلة من الأحاديث الطويلة عن شتى الحوادث التى مرت بالراوى . ولكن حديث ميلر ذو شجون فهو بينما يسرد عليك شعوره فى مطعم أو مرقص مثلا يأخذ عليك السبيل فجأة وينقلك معه على أعنة ذاكرته إلى عالم صباه ، فيسترسل فى وصف والده وطباعه ، أو يبين لك خواطر أخته البلهاء أو يروى حياة أترابه الصغار ومميزات كل منهم ، وهو يمعن فى إيراد أدق التفاصيل عنهم . ثم يستطرد فى الحديث إلى أن ينقلك مرة أخرى دون أى إنذار أو تمهيد سابق إلى الخوض فى مناظرة فلسفية عميقة عن الروح أو الموت أو الاله . ثم يجذبك عنوة إلى شوارع نيويورك فيذرعها معك فى الليل أو فى النهار ، ويرتاد معك أوضع الحانات حيث يكب على احتساء المدام حتى يثمل . وهكذا دواليك مما يدعو القارئ إلى السؤال عند الفراغ من قراءة الكتاب : ألم يكن يستمع إلى هذيان محموم يعالج سكرات الموت ؟

ويبدو أن هنرى ميلر مولع أشد الولع بارتياد الشوارع فى نيويورك ، وهو يكلف كلفا شديداً بالتأمل فى المنازل التى تحدها من الجانبين ، وفى القطارات التى تجرى على معابر الجو ، وفى مهرجان النور واللافتات المضاءة بالكهرباء ، وفى قافلة السيارات التى تجوب أرجاء المدينة بلا انقطاع ، وفى مواكب المارة على اختلاف أجناسهم وأشكالهم ولبوسهم . وله فى التعبير عما يختلجه من الاحساس الذى تثيره فى نفسه هذه المشاهد صفحات رائعة لعلها خير ما كتب فى هذا الشأن . استمع إليه يصف ناطحات السحاب لمدينة نيويورك ، وقد أرخى الليل عليها سدوله :

« عند ما يكسو الجليد شوارع نيويورك ويخيم عليها صمت رهيب ، ينبعث من قبح مبانيها نغم حزين ممض مميت يهتز له البدن . إنى لا أرى قالبا من هذه القوالب المتراصة أقيم فوق القوالب الأخرى عن رغبة أو إجلال . لا أرى شارعا من هذه الشوارع خط للرقص أو الجذل ، وإنما أضيفت أشياء إلى أخرى وسط فوضى اختلط فيها الحابل بالنابل لغرض واحد ألا وهو ملء البطن . لذا فالشوارع تشتم منها رائحة البطون الخاوية والبطون المليئة والبطون المليئة إلى النصف . والشوارع مليئة بأريج طوى لا دخل له بالمحبة . تنبعث منها رائحة بطون لا تعرف الاكتفاء ، لها رائحة الأعمال التى أنجزتها بطون فارغة ، وهذه الأعمال نفسها ليست إلا فراغا وعدما . »

لا غرو أن الكاتب عبر تعبيراً فريداً غريباً عميقا عن نوازعه إزاء مشهد الشوارع الزاخرة بالمتناقضات . وقد يمر بها عابر مرورا عاجلا فلا يحفل بها ويمضى فى سبيله قدما وقد يمر بها رجل يذرعها عندما يجثم على صدرها صمت الليل فيقف متأملا غارقا فى تفكيره مستلهما أسرار الصروح الشاهقة التى يأوى

إلى ساعات محدودة قوم غافلون أو راضون و قانعون أو حانقون . فالشوارع روعة لا يدركها إلا من قصد استيضاح حقيقة أمرها مثل هنرى ميلر .

ولهذا الكاتب صيحات مؤثرة تدوى فى جنبات القارئ وتستوقفه لشدة الحسرة التى تولدها ثم ترددها بين ضلوعه . ولا بد أن ميلر شعر فى أعماق قلبه بتلك اللهفة الممضة اللاذعة التى وفق للافصاح عنها بألفاظ بسيطة كل البساطة لها وقع أليم يحز فى النفس كالرجع الحنون . ان ميلر ثائر فوضوى وتلك أخص مميزاته ، ثائر على كل شئ ، ناقم على كل شئ ، حانق على الحياة ، حاقد على الانسان شاعر بنقصه ، حائر تائه يسير فى الحياة لا يلوى على شئ ، وإنما يحياها لأنها فرضت عليه فرضا ، لا يكترث لمال أو عمل أو زوج أو نسل ، يواصل السير فيها وهو يتخبط بين جدران أسرار الكون والفناء ، لا يستبين حلا مرضيا لمشاكلها يحس بمرارة العاجز عن إدراك سر غامض لا سبيل إلى جلائه ولا إلى تبيان كنهه . فهو ثائر لا تخمد له ثورة ، ينهال على الحياة سبا وقدفا ، يمطرها وابلا من اللعنات فاقد الأمل فى المستقبل ، شاعر بحنين غريزى إلى الماضى إلى البداءة . لذلك فهو لا ينفك يصيح ويصرخ ويرغى ويزبد فى أسلوب من نار يقذف القارئ فى أحضان تيار جارف لا قبل له بمقاومته وسط عباب متلاطم من الألفاظ الفظة الخشنة ، بل وسط طوفان من الذكريات والاستعارات والصور والرموز التى تتمخض عنها مخيلته الخصبة المريضة . ثم يسترسل بلا رحمة ، لا يدع لك سبيلا للتنفس أو التنهد ، حتى ينتابك دوار فتقف ذاهلا مشدوها متعبا .

استمع إليه مثلا يحدثك عن فلول المجهولين الذين يلتقى بهم فى مكتبه كل يوم وهم من المتذللين الذين يبحثون عن عمل ، وقد نيط به عرضهم جميعا لانتقاء من أنس فيه الكفاية وطرد الباقين رغم إلحاحهم . يقول ميلر :

« خرجت من مكتبى ثقيل الرأس وما زالت مشاهد اليوم التى مرت على ناظرى عالقة بذهنى . كنت أتخيل ذلك الجيش من الرجال والنساء والأطفال . كنت أتخيلهم وهم يبكون ويصلون ويتوسلون ويستعطفون ويحلفون ويصفقون ويغضبون ويهددون . كنت أراهم وهم يتسللون خلسة قطارات البضاعة . كنت أرى الأكواخ القذرة التى سيأوون إليها والأهل العراة ودلو الوقود الفارغ وعرق الحوائط والصراصير المتسابقة ، كنت أراهم وهم يقفزون كالأقزام أو يهوون على الأرض . كل هذا على حين يستوى السادة الرؤساء على مقاعدهم الوثيرة فخورين بصلابة منطقهم مدللين مسلحين بازدرائهم واحتقارهم متقمصين تعاليهم وخيلاءهم ، أقدامهم على المكاتب وفى أفواههم سيجار ضخم » .

وكثيراً ما يتملك ميلر الشعور باليأس والقنوط وتفاهة ما يبذل من جهد للتعلق بحطام دنيا لم يقرها ولم يلتمس دخولها ، فيسأم الحياة وقد ألفاها مملة مضنية لا معنى لها وتساوره أفكار مظلمة قاتمة ممضة كالندم ، يشعر أنه لن يبلغ نفسه أبدا ، ويرغب عن الكفاح ويزهد فى الدنيا وينكشف له العدم ويردف مناجيا نفسه فى حيرة مؤثرة :

« لم ذاهب أنا إلى عملى ؟ فيم أرغب هذه الليلة ؟ لم لا أهرب إلى بلاد آلاسكا للبحث عن الذهب ؟ لم لا أنزح إلى الغرب فأصبح من رعاة البقر ؟ لم لا أغادر القطر حتى لا أعود أدراجى إلى الوراء ؟ أأقفز فى النهر لا لأنتهى لأخوض فيه ، لأغوص فيه ، لا تردى فيه حتى القاع إلى أن يتلوث جسمى بطين القاع بين الأسماك التى تحوم حولى تقضم أعضائى وتنهش فيها . وغداً أحيا حياة جديدة . أين ؟ فى أى

جهة ؟ ولكن ما الفائدة من تكرار نفس الشيء دائماً أبداً ! الفناء الموت هو الحل الوحيد . ولكن صبراً . ولم لا أمنح نفسى مهلة يوماً واحداً ؟ ومن يدرى ! ربما يتغير حظى ، وجه جديد ، صديق جديد ، حظ سعيد . ما زلت فى مقتبل العمر ساعة يأس إنك لا تدرى مرادك ، وعلى العموم فان الناس لا يبالون بك على أى حال أحييت أو مت . . . »

لا يسعنى إلا أن أحجم على مضض عن إيراد نبذ أخرى من كتاب «مدار الجدى» حتى أعود إلى تحليل نفسية المؤلف ومأربه النهائى للوقوف على مشربه الروحى .

لا يخفى على القارئ أن فلسفة هنرى ميلر فلسفة فاتكة هادئة ، ولكن ميلر لا يلجأ إلى المعول كى يقيم على الانقاض شيئاً جديداً ، إذ ليست له أية أفكار إنشائية وإنما هو يكتفى بالهدم والافناء . ويحس المرء أنه أينما سار ميلر ترك وراءه الفراغ والعدم ، فهو لم يبق شيئاً ولم يضن بشئ وإنما هاجم المبادئ والعادات والتقاليد والأخلاق ، والثورات المنظمة المحكمة ، والأديان هاجمها بعنف شديد وجعل منها تراباً وسط جلجلة ملحمة دامية وضوضاء صراع مميت . وهو لا ينى ولا يكل حتى يقضى على ما يدعى مدنيـة ، ويتركنا حيارى جزعين مبلبلى الافكار تجاه أنقاض دارسة وعدم لا خلاص منه .

ولا يفوتنى أن أشير إلى نبذة قصيرة من كتاب آخر له عنوانه « الربيع الاسود » لما فيها من دلالة واضحة على ما استنبط من عقليته .

« من الجائز تماماً أن يقضى علينا وأن لا سبيل لنا إلى أى أمل البتة لأى شخص منا . ولكن ما دام الأمر كذلك فعلينا أن نصيح صيحة مدوية ، صيحة أخيرة ، صيحة المبرح تثلج الدم فى الشرايين لنصرخ صرخة تحد تقطع الاوصال صرخة حرب . »

ويعد هنرى ميلر على حق فريداً فى نوعه ، إذ شق طريقه فى الادب ولم يسر على درب السابقين . وهو بين الحين والحين ينشر كتاباً أو مقالا أو بحث كما يلقى الفوضوى قنبلة . ولا يدانيه فى أسلوبه وآرائه فى اعتقادى إلا الكاتب الفرنسى لويس فرديناند سيلين L. F. Céline فى كتابه الشهير «رحلة إلى أقصى الليل *Voyage au bout de la nuit* » وقد أحدث ضجة واحتدم الجدال حوله كما يحتدم اليوم حول جميع مؤلفات ميلر . وقد شبه الناقد الفرنسى المعاصر موريس بلانشو M. Blanchot فى مقال له ظهر فى مجلة «لارش» *L'Arche* هنرى ميلر بشاعر فرنسى غامض عاش فى القرن الماضى وهو الكونت دى لوتريامون Comte de Lautréamont مؤلف كتاب « أغانى مالدورور » *Les Chants de Maldoror* وعكف على المقارنة والمفاضلة بينهما ، فأبان مثلا أن الشاعر الفرنسى كان أرق حسا منسجماً فى حديثه لا يبدو مشتت الفكر زائغه كما هو الحال بالنسبة لميلر ، على أنهما من جهة أخرى التقيا فى صعيد واحد وهو اللجوء إلى قسوة وإقذاع وعنف يندر أن يعثر الباحث على مثلها فى كتب الأدب الحديث أو القديم .

وقد أجمع النقاد على تجريح ميلر بسبب جنوحه إلى الأدب المفضوح واستعماله ألفاظاً نابيـة وإمعانه فى وصف تفاصيل مواقف غرامية من الناحية الجنسية وصفاً تشمئز منه النفس الرقيقة . ويلوح لكثيرين منهم أن الأمور الجنسية متسلطة على عقل ميلر وتفكيره تسلطا يفسد عليه أروع صفحات كتبه ويدع القارئ يسائل فى شيء من الغرابة أيرمى المؤلف بتوغله فى المسائل الجنسية إلى إحراجه فى حياته . ولم يفت بعض النقاد المناوئين لهنرى ميلر أن يتذرعوا بهذا العيب للقسوة حيناً متنددين باسفافه وإباحته وفحشه

المتعمد الذى ينزل بادبه إلى مرتبة الأدب الرخيص المبتذل . ولـكن ميلر رد عليهم فى مقال طويل نشرت مجلة « فونتين » الفرنسية ترجمته وأشارت إليه مجلة «الكاتب المصرى» فى عدد شهر يناير سنة ١٩٤٧ .

ويلوح لى أن الأدب المعاصر عامة يزداد ميلا إلى العنف والقسوة ، لأنه وليد حروب وثورات وقلاقل فهو مرآة تنعكس فيها نوازع نفوس حائرة مزعزعة متشككة تبحث عن أوضاع متينة وقيم ثابتـة تتلمس السبيل إلى الاتزان والبقاء ، فتطوح بهـا الأحداث إلى العدم والفناء .

فؤاد وصفى أبو الذهب

من وراء البحار

الموسيقى فى ألمانيا

إنه لما يسر المحبين للانسانية أن يسمعوا بأن الألمان أخذوا يستيقظون تدريجيا من آثار الهزيمة . ففى عدد ديسمبر من مجلة «القرن التاسع عشر» الانجليزية وصف للحياة الموسيقية فى ألمانيا بقلم جاك بورنوف. ومن هذا الوصف يتبين لنا المجهود الذى يبذل للعودة إلى الحياة العادية . ويصف الكاتب بنوع خاص ما يجرى فى منطقة الاحتلال البريطانية . على أنه يحذرنا فى بدء مقاله من اتخاذ مظهر الألمان وإقبالهم على مؤلفات موسيقية خاصة دليلا على اتجاه جديد . فقد اعتاد الألمان فى مدى اثنى عشر عاماً أن يلقنوا الآراء التى يبدونها . وهم لا يزالون إلى حد كبير معتادين ذلك ، وليس من السهل إقلاعهم عن هذه العادة . فهم يؤثرون أن يتجهوا اتجاهات صاحب السلطان فى ميولهم . ولذلك نرى أن مؤلفات الموسيقيين البريطانيين صار لها مكان بارز فى المنطقة البريطانية ، بسبب رغبة السلطات فى ذلك ، وبسبب رغبة الألمان فى إرضاء هذه السلطات .

لقد وقفت الحياة الموسيقية فى ألمانيا وقوفا تاما أثر التسليم ، بسبب تدمير أكثر دور التمثيل الموسيقى والحفلات الموسيقية . وانصراف الناس إلى تدبير الضروريات لحياتهم . ولكن الموسيقى الآن استيقظت بأكثر مما يتناسب مع الحياة الاقتصادية . والسبب فى هذه اليقظة يرجع إلى عوامل ثلاثة : أولها المساعدة التى يلقاها هذا النشاط من القوات المحتلة فى المناطق الأربع . ثم نشاط الألمان ودأبهم كدأب النمل فى عمله . ثم إخلاص الألمان للموسيقى وتعلقهم بها .

وصارت همبرج الآن مركز النشاط الثقافى فى المنطقة البريطانية ، وقد أقيمت فيها أول حفلة موسيقية عامة بعد خمسة أسابيع من الاحتلال أقامتها فرقة فيلهرمونيك بهمبرج فى قاعة كبيرة لم يصبها شئ من الدمار . وكثيراً ما أشيع فى الخارج يومئذ أن الاحتلال شرد الكثير من الموسيقيين ، والواقع غير ذلك . ولم تفقد الجوقة الموسيقية من أعضائها أكثر من بضعة عشر موسيقيا . وهذا هو السبب فى المستوى الرفيع الذى ظل محتفظاً به بين العازفين الألمان فى هذه الحفلة ، وإن كان قائد الجوقة ضعيفاً . وما انتهى خريف ذلك العام حتى كانت تعمل فى همبرج فرقتان موسيقيتان ، وهما فيلهرمونك والأركسترة السنفونية لشبكة محطات الراديو فى الشمال الغربى لألمانيا ، وهى فرقة أنشأتها السلطات البريطانية .

على أن همبرج تأخرت عن المدن الاخرى فى المنطقة البريطانية وفى غيرها من مناطق الاحتلال فى تمثيل الروايات الموسيقية «الاوبرا» ، ومع ذلك استأنفت هذا النشاط فى شهر يناير الماضى ، وهو مما لا يكاد يصدق إذا لاحظنا الأحوال التى كانت سائدة عندئذ ؛ فقد احترق قسم الجمهور من مسرح الأوبرا الحكومى ، ولكن القسم الباقى فيما وراء الستار الحديدى ، وهو الخاص بمسرح من أكبر المسارح الاوربية ، وفيه معدات من أحدث ما يستعمل ، ظل سليما . ولما كانت مواد البناء قليلة فقد تعذر بناء قسم وقتى للجمهور مع استعمال ما سلم من المسرح . وعلى ذلك أقيم فى الجانب الاخر مكان يسع

ستمائة متفرج ، ومكان الجوقة الموسيقية يسع نحو ستين عازفا . ومن الغريب أن هذا البناء الخشبي كان آية فى نقل الصوت .

ومما يدل على نهضة الحياة الثقافية فى همبرج أن أقيمت فى يونية الماضى سلسلة حفلات موسيقية ومسرحية ، وكان المستوى فيها عاليا بحيث تعتبر حدثا جديرا بالذكر فى أى وقت من أوقات السلم . وعزفت قطع موسيقية مختلفة ، ومثلت روايات موسيقية عدة منها رواية برسل الموسيقار الانجليزى القديم : « ديدو وإنياس » ، والرواية الراقصة للموسيقار الألمانى هندمث : « الخيال النبيل » ولعل المانيا لم تشهد فى السنوات الأخيرة ما يماثل برامج هذه الحفلات فى حسن الاختيار .

ولا يقتصر النشاط فى المنطقة البريطانية على همبرج وحدها ، ففى كولونى مدينة نهر الراين ، حيث تهدم أكثر الدور ، استعملت القاعة الكبرى فى الجامعة للحفلات الموسيقية وتمثيل « الأوبرا » ، وأعيد تأليف فرقة « جورزنيخ » الموسيقية ، وإن كانت القاعة الشهيرة التى استمدت الفرقة منها هذا الاسم قد دمرت . وفى برنسفيك نشط المدير الموسيقى هانز شتروهباخ فأخرج بعض المؤلفات الحديثة .

والحال فى المناطق الأخرى لا تقل عن المنطقة البريطانية ؛ ففى مونيخ عزفت عدة مؤلفات موسيقية كبيرة ، من بينها السنفونية الثانية من تأليف ماهلر ، وهى تحتاج لفرقة موسيقية وجوقة غنائية . وفى برلين استأنفت كل من فرقة الأوبرا الحكومية ، وهى واقعة فى المنطقة الروسية ، وفرقة أوبرا شرلوتنبرج الواقعة فى المنطقة البريطانية ، نشاطهما فى مسارح أخرى . وخسرت فرقة فيلهرمونك ببرلين بعض أعضائها بسبب نظام التطهير من النازية ، ولكن مستواها لم يزل عن عادته . ومما هو جدير بالذكر أن السواد الأعظم من مهرة العازفين لم يكونوا من النازى إلا بالاسم . وأكبر قواد هذه الفرقة الشهيرة هو الآن شاب رومانى اسمه سرجيو سليبداك . ولكن الناس يلحون فى عودة فورتفانجلر .

ولقد قوبلت سياسة تشجيع الموسيقى من الموسيقيين الألمان بالترحاب ؛ لأنهم استطاعوا الآن أن يتنفسوا ريح العالم الخارجى . وهم منصرفون إلى تعرف المؤلفات الموسيقية التى كانت محرمة عليهم فى عهد النازى ، واكتشاف المؤلفات التى كانت مهملة ، ولقد أبدى أحد مشاهير العازفين على البيانو حماسة كبيرة فى العودة إلى أناشيد شومان المسماة « حب شاعر » وكانت هذه الأناشيد محرمة ؛ لأن صاحب الشعر هو هينى الشاعر الألمانى اليهودى . وتعزف الآن فى كل الأماكن قطعة مندلسوهن للكمنجة وهى أيضا كانت محرمة بسبب أصل مؤلفها . ومما يلاحظ بهذه المناسبة أن نسبة الذين يجيدون العزف على الكمنجة من اليهود كبيرة . ولذلك لم يبق فى ألمانيا من مشاهير العازفين على هذه الآلة الموسيقية غير قلائل . ومما يلاحظ أيضا أن ألمانيا لم تحدث حدثا جديدا فى التأليف الموسيقى أثناء السنوات العشر الأخيرة ، وأن المؤلفين المعاصرين متأخرون عن أقرانهم فى البلاد الأخرى ، ما عدا الموسيقار ريكارد شتراوس ، الذى بلغ الآن الثانية والثمانين من العمر ، وهو يشرف على تقلبات الحياة الألمانية من عل . لذلك قابلت الدوائر الموسيقية مؤلفات الموسيقيين الألمان الذين عاشوا خارج ألمانيا باهتمام . ويتوجه هذا الاهتمام بصفة خاصة إلى هندمث ، فمؤلفاته تسمع فى كل مكان . وقد دعى إلى برلين ليتولى إدارة الأكاديمية الموسيقية . واهتم الموسيقيون أيضا بمؤلفات سترافنسكى ، ويهتمون أيضاً بمؤلفات المعاصرين من الروس .

والظاهر أن السلطات المحتلة فى جميع المناطق تتبع طرقا واحدة فى تشجيع النشاط الموسيقى ،

والخلاف بين هذه السلطات أقل فى هذا الناحية منه فى نواح أخرى . على ان فكرة تطهير الحياة الموسيقية من النازى قد بولغ فيها فى بعض المناطق . ولذلك نجد مثلا أن المنطقة البريطانية طردت جماعة من أمهر العازفين وهم الآن يبدون نشاطا موسيقيا كبيراً فى المنطقة الفرنسية ، فى حين أن الروس احتفظوا بجميع مشاهير المغنين فى دار الأوبرا مع أنهم كانوا مشهورين بميولهم النازية . والأمريكان أيضاً يعملون على إبعاد الموسيقيين الذين شغلوا مركزاً هاما فى زمن النازى . ولقد تضايق الألمان من إبعادهم للموسيقار فورتفانجلر مع أنه نال شهرته حتى قبل عهد النازى ، ولا تزال شهرته كبيرة حتى الآن ، ومع أنه اظهر شجاعة فى أول عهد النازى حين رفض أن يفصل اليهود من أعضاء فرقته الموسيقية ، واستقال من منصب ثقافى كبير فى سبيل الدفاع عن الموسيقى هندمث . وإذا كان قد شغل فيما بعد مكانا بارزاً فى حياة الموسيقى فى عهد النازى ، فذلك بسبب كفايته الممتازة ، ولا يعرف عنه أنه اهتم بالسياسة .

وهكذا نرى الألمان فى محنتهم لم ينسوا الموسيقى وما لها من تأثير كبير فى حياتهم اليومية .

فن الحديث الصحفى

كتب إميل لدفيج الكاتب الألمانى الشهير مقالا ممتعا فى مجلة « ريفى دى بارى » ــ عدد ديسمبر سنة ١٩٤٦ ــ عن فن الأحاديث الصحفية وهو يرى أن هذا الفن من أمتع الوسائل الصحفية و ظرفها ، وأنه ليس مجرد نقل حديث كما قيل حرفيا بل إنه يحتاج إلى فن وأسلوب أكثر مما يعتقده القارىء العادى .

وأول خطوة فى هذا الفن هو إظهار البساطة ، وذلك ما يمتاز به الصحفيون الأمريكيون . فان مشاهير الرجال يؤثرون بأحاديثهم للصحفى البسيط على الرجل المتعالم الذى يناقشهم القول .

وذكر الكاتب أمثلة من حياته عندما كان صحفيا مبتدئاً أثناء الحرب العالمية الأولى ، إذ عهد إليه فى التحدث إلى عدد كبير من الأمراء والقواد ورجال السياسة ، وكان قليل العلم بأمور السياسة ، فكان يوجه إليهم فى بساطة أسئلة يتحاشاها عادة العالم بالامور . كان يسأل أحدهم لماذا تصرف أمس مثل هذا التصرف ، فكان بمثل هذه الأسئلة البسيطة يفتح له القائد أو السياسى قلبه .

ويقول لدفيج إن من الواجب على الصحفى أن يدرس أخلاق العظيم الذى يريد أن يتحدث إليه بكل الوسائل الممكنة . والصور الفوتوغرافية هى ضرورة أساسية ، ففيها تظهر خصائص الرجل على وجهه بالرغم من إرادته .

ومن الواجب على الصحفى أن يجذب إليه اهتمام المسئول ، فلا يقنع بمجرد السؤال والجواب ، إذ من الخير فى هذه الحالة أن نفضل الأسطوانة الحاكية . فليس الغرض أن يذكر المتكلم آراءه ، بل الغرض الحقيقى هو طريقة الحديث وحالته العقلية عند الافضاء بالحديث . فقد لا يهمنا سؤال مركونى مثلا ماهى عواطفك عند اكتشافك التلغراف اللاسلكى ، بقدر مايهمنا سؤاله كيف حدث أن قضيت أنت وغيرك من العلماء سنين عديدة إلى جانب هذا الاختراع .

وذكر لدفيج أنه استطاع أن يمضى عدة أيام فى حديث مع أديسون المخترع الشهير

وأخذ منه أجل الاجابات ، وذلك لأنه لم يمس قط الجانب الفني . وقد وجد فيه رجلا ذا شعور حساس ، تكفي مجرد الاشارة ليفتح كنوز عقله . ففي ذات مرة كان يتحدث إليه في وحدات ليبنتز وشبهها بما كان من أمر فاوست . وعلى حين فجأة أمسك بيد امرأته التي كانت جالسة إلى جانبه وقال ضاحكا : « وهذه هي مرجريت » .

ويجب ألا يتحدث الصحفي إلى المثرى الكبير في أمر قيمة النقود ، بل يدفعه إلى الكلام في هذا الأمر بوسيلة أخرى . وروى لدفيج أنه دفع روكفلر مرة إلى هذا الحديث بأن قص عليه مسامعه قصة صغيرة . وتحدث لدفيج مرة إلى ميلون المثرى الصموت وصاحب البواخر العديدة ولقبه في أثناء الحديث بتاجر البندقية ، فكأنه فك بذلك عقدة لسانه وسمع منه أبدع القصص عن بواخره وثروته .

وكان يتعشى ذات مرة في نيويورك مع عشرين من كبار الرجال ذوى النفوذ في أمريكا ، وكان هو الوحيد بينهم الذي لا يملك مالا ، وقد أراد أن يصل إلى قصص ارتقائهم ، فروى كيف قام ذات مرة في سويسرا برحلة لارتقاء الجبل الأبيض الشهير ، وكيف بلغ القمة بعد تعب كبير ، ولكن الجو كان بارداً والهواء لافحاً ، فنزل في أسرع وقت . ووجه إليهم الحديث سائلا هل هذا شأنهم في علوهم الآن ؟ فنظروا إليه وكأنما كانوا ينظرون إلى معتوه ، ثم أخذ الواحد منهم بعد الآخر ، ومنهم شواب وكاهن ولورز ولامونت ، يروى كيف تسلق قمة المجد في صعوبة وتعب ، ولكنه حين بلغها ، وجد الدفء والسماء الصافية . وكانوا بعد ذلك يفتحون له قلوبهم في كل فرصة .

فالواجب إذن على الصحفي المتحدث أن يظهر شيئاً من البساطة بل الغفلة . وقد حدث للدفيج ذات مرة أن دفع هنرى فورد القليل الكلام إلى النطق بعبارة تسترعي النظر . فقد كانا سائرين في الطريق ، فرأى لدفيج سيارة صغيرة فأخذ يمتدحها ، ولكنه سأل سؤال المتجاهل : « أظن هذه السيارة أكبر بعض الشيء من النموذج الذي تخرجه مصانعك ؟ » فاستولى على فورد شعور الأم التي ترى تجاهل أبنائها فتحركت عيناه حركة خاصة ، وقال : « إنها إحدى سياراتي . لقد أخرجت ١٤ مليوناً مثلها » وفي هذه العبارة القصيرة وصف حياة جد طويلة ودل على خيال واسع .

ومن الطرق التي يراها نافعة للصحفي المتحدث إذا أراد مقابلة عظيم أن يتعرف إلى خصومه ، والغرض من ذلك لا تصديق أقوالهم فيه بل معرفة ما لديه من المسائل الحساسة التي تثيره وتدفعه إلى الرغبة في الحديث ويجب ألا يشتم العظيم رائحة الخصوم ، بل يجب الحذر غاية الحذر في هذا الأمر ، فقد حدث أن قابل صحفي ألماني موسوليني وسأله « ماذا يحدث يا صاحب السمو بعد وفاتك ؟ » فانتهت المقابلة عند هذا الحد .

ولعل الصحفي الذي خبر التأليف للمسرح يكون في يده سلاح قوى ، فالكتابة للمسرح تقتضي إدارة الحوار في مهرة وبطريقة نفسانية ، وإن كان المتحدث لا يذكر الحوادث الماضية كما يفعل المؤلف المسرحي . فقد ذهب لدفيج ذات مرة إلى لندن خاصة ليحادث لورد جراى وزير الخارجية البريطانية عند ما أعلنت حرب سنة ١٩١٤ على ألمانيا ، واجتمع به في حفلة غداء ، ودار الحديث على جلسة مجلس العموم في اليوم السابق . وقد جاء فيه ذكر خلاف برز بين الوزراء ، وأخذ لورد جراى يشرح الموقف ، فقال لدفيج وكأنه يتحدث لنفسه : « هذا شبيه بموقف يوليه سنة ١٩١٤ » وقال هذه العبارة في صوت خفيض ولكنه مسموع ، وإذا باللورد بعد الغداء ينتحى به

ناحية ويتكلم فى إسهاب ليسوغ موقفه فى تلك الفترة الخطيرة ، وكيف أنه لم يكن ليستطيع منع سير الحوادث إلى الحرب . ولو ان لدفيج ذكر هذا الخلاف رأساً للورد على صورة سؤال لتلقى ردا قصيرا فاتراً ولما استرسل اللورد فى الحديث .

وكثيراً ما تكون العبارة القصيرة التى تلقى إلقاء أبلغ اثراً من الأسئلة الطويلة فى اجتذاب الحديث . ولذلك ربما كان الصحفى الصموت أقوى الملاحظة انفع من الصحفى الذرب اللسان الذى لا يلاحظ الظروف والواقع أن الأذن تخطىء أكثر من العين . ولقد لاحظ لودفيج ذات مرة كانتين رئيس الجمهوريات السوفيتية فى مأدبة فخمة فيها ألوان من الطعام الشهى يكتفى بحساء بسيط ، مما يدل على ان هذا المزارع اصلا لا يزال محافظ على التقشف . كما راى تروتسكى ذات مرة يغلق نافذة فى عناية بالغة مما يدل على أنه رجل عمل قبل أن يكون رجل نظريات وفلسفة . ولاحظ أيضا أن جميع الدكتاتوريين تكون ايديهم عادة ناعمه ومعتنى بها بالرغم من انهم قضوا زمن عمالا ، وذلك يدل على انصرافهم للتفكير أكثر من العمل . وفى سنة ١٩١٦ كان حاضراً وليمة عشاء ، فلاحظ نظرة القائد الجنرال فون سيكت الألمانى على رئيسه فون ماكنزن ، ومن هذه النظرة عرف أنهما على غير وفاق ، وظهر عداؤهما سافراً فيما بعد .

ومن الصعب إيجاد الاتصال الواجب إذا كان المتحدثون من ذوى المراكز العالية . فستالين مثلا كانت تترجم له أقوال محدثيه وذلك مما يجعل الاتصال الشخصى يكاد يكون مستحيلا . أما الملك فيكتور عمانويل ملك إيطاليا السابق فقد حادثه لدفيج باللغة الايطالية ولكنه ظل متحفظاً ، ودار الحديث على بسمارك الوزير الألمانى الشهير ، فقال الملك : « إنه عمل كل شىء بمفرده » ، وحينئذ قال لدفيج إن الفضل للامبراطور غليوم الأول الذى اختاره . فسأله الملك فجأة : « هل اختاره حقا ؟ » ومن هذا السؤال عرف الصحفى مركز الملك من وزيره موسولينى .

وفى سنة ١٩٣٢ أراد لدفيج أن يضع كتاباً عن موسولينى ، فظل مقيما فى روما واستأذن الدكتاتور فى أن يلازمه بعد الظهر مدة أسبوعين ويحدثه مرات ، وكان قد أعد سلسلة من الأسئلة والاجابات المحتملة عنها ، وكان يسجل كل عبارة وكل تغير فى ملامحه أو إشارة من يده ، وكان موسولينى يجيبه إجابات واضحة . وقد شعر بالتعب من هذه الجلسات أكثر مما ظهر على الزعيم الايطالى . وكان الزعيم يقبل معارضته له فى بعض المسائل بسعة صدر على أن لدفيج كان لا يعارضه فى حضرة ثالث .

ومما يرتاح له الدكتاتوريون أن يقارن بينهم وبين نابليون وقد تمكن لدفيج بمثل هذه المقارنة من أن يجتذب إليه الزعيم التركى كمال باشا ، فانطلق لسانه فى الحديث وأخذ يشرح بعض نقائص نابليون وكيف تمكن اجتناب مصيره .

وقابل لدفيج فى سنة ١٩١٥ زعيما تركيا آخر هو أنور باشا وأراد أن يجرى تجربة معه ، فبينما هو يتحدث إذ بالصحفى يضع يده فى جيبه فجأة ، فاذا بالزعيم يفعل مثله . وكان من الظاهر ان الزعيم قبض على مسدس فى جيبه إذ خشى الاعتداء عليه . وقد جرب الصحفى مثل هذه التجربة مع ستالين وموسولينى ولكنهما كانا ثابتى الجنان مع أنهما يحملان سلاحا بلا ريب ، ولكنهما كانا من النباهة بحيث فهما أن الصحفى إنما أقدم على تجربة .

وسأله ستالين سؤالا عجيبا ذات مرة بعد أن قضى معه ثلاث ساعات . فقد قال له : أحب أنا أيضا أن أوجه إليك سؤالا هاما . إنك سترجع نقوداً بفضل هذا الحديث . فهل أنت على استعداد لهبة شىء من المال الذى

تربحه للأطفال الألمان الموزين ؟ وقد دفع لدفيج بعد ذلك ، إذ ربح شيئا من المال ، جزءاً منه لجمعيات الأطفال ، وارسل الايصال للزعيم الروسى .

ويقول لدفيج إن قداسة البابا هو آخر زعيم يحتفظ بتقاليد الماضى ، إذ يجب لمقابلته الذهاب فى سترة سوداء عند الظهر والركوع والانتظار حتى يسمح لمحدثه بالقيام إذا رغب فى ذلك . وكان البابا السابق يترك محدثه راكعاً ، وبذلك كان الحديث يكاد يكون مستحيلا . أما البابا بنديتو الخامس عشر فهو سياسى قدير وسيد كبير . كان يتحدث بحماسة فى الموضوع السياسى الذى يثار بقوة وحرارة .

وكان روزفلت طبيعيا فى حديثه ويحب الفكاهة والنكات . ولكن يجب أن يظهر المتحدث لباقة ، فقد لمح أحد الحضور ذات مرة بين يديه إلى فضائح تعزى إليه فى شيكاغو عند ما رأى تبسطه فى الحديث فامتقع لونه امتقاعا شديدا .

ويعتبر هنرى والاس الآن من خيرة رجال الولايات المتحدة ، وهو أيضا من الذين يحبون الفكاهة ، وهو يستطيع التحدث إلى الفلاحين وعامة الناس والاختلاط بهم فى بساطة .

والجنرال باتون يكلف بالتصنع ، ومع ذلك لا يتحرج من السخرية من نفسه ، فقد روى لدفيج ذات مرة أنه عند ما عبر نهر الراين فى سنة ١٩٤٤ ارتمى على الارض كما فعل سيبيون القائد الرومانى ، وقال إنه فعل ذلك تقليداً للأسطورة .

وحدث للصحفى لدفيج ذات مرة حادث غريب ، وهو أنه قابل هنرى بوردو الكاتب الفرنسى المعروف ، وكان الحديث ظريفاً طبعا ولكن عندما خاضا فى السياسة أبدى الكاتب الفرنسى تحفظا فأفهمه لدفيج أنه لا ينوى نشر هذا الحديث السياسى وخد لدفيج يكلمه فى بساطة . وبعد بضعة أيام يجد هنرى آراءه منشورة فى إحدى المجلات الباريسية ، فاذ بالرجل الذى ظنه خائفاً قوعده أن لا ينبئ بشىء قد خدعه وأخذ منه حديثا .

ظهر حديثا

الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط للأستاذ يوسف كرم (دار الكاتب المصرى)

لقد بدأ الأستاذ المؤلف سلسلة مباركة عام ١٩٣٥، فأرخ للفلسفة اليونانية فى كتاب عد — ولا يزال — من أدق وأكمل مصادرها الحديثة فى العربية. وبقينا نتوقع أن يتابع الخطى ويستمر فى السير، خصوصاً وفى الحلقة الأولى ما يشوق إلى حلقات تليها وترتبط بها. وها هوذا يحقق رجاءنا، ويقدم لنا «تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط» فأضاف حلقة أخرى فى تكوين السلسلة الذهبية التى ينشدها لتاريخ الفكر الفلسفى.

وقد قسم كتابه هذا إلى مقدمة وأربعة أبواب: فعرض فى المقدمة للفلسفة المدرسية فى خصائصها ومميزاتها، وحاول فى الباب الأول أن يبين أساتذتها وأصولها، وفى الباب الثانى أن يشرح عوامل تكوينها، وفى الباب الثالث أن يوضح مظاهر أوجها واكتمالها، ثم انتهى به المطاف فى الباب الرابع إلى وصف مظاهر انحلالها وتلاشيها. وهكذا بدت هذه الفلسفة على يديه فى صورة كائن حى مر بأدواره الطبيعية: من نشوء وتكون، إلى كمال ونضج، ثم إلى تدهور وانحلال.

ولسنا فى حاجة أن نعرف بمؤلفنا فى أسلوبه ومنهجه؛ فقد امتاز بالضبط والدقة التى لا تعرف الحشو مجالا ولا تترك للتردد محلا، دقيق اللفظ مضبوط العبارة، فى غير ما غموض ولا تعقيد، وما أحوج العلم إلى ألفاظ دقيقة تؤديه وعبارات مضبوطة لا تشوه معالمه. وأما منهجه فتطبيق للمنهج التاريخى فى صدق ونزاهة، فلا يصدر إلا عن المنبع الأول، ولا يحكم على فيلسوف إلا فى ضوء ما قال وما كتب. وهو فى كل هذا مرتب منسق، يقسم الباب إلى فصول، والفصل إلى أعداد، والعدد إلى فقرات؛ تبويب محكم وسير منظم.

وليس بيسير أن نرتب الفلسفة المدرسية المسيحية ونبوبها، لأنها تصدق على مرحلة طويلة من الزمن، فتبدأ من القرن الرابع الميلادى وتمتد إلى القرن الرابع عشر. عشرة قرون أو تزيد تتلاحق فيها الآراء والأفكار، وتتشابه الشخصيات والمدارس، وقل أن نحظى فيها بعبقرية ممتازة، أو تجديد بارز يخرج على القديم المألوف؛ وفى هذا مايحول دون وضع الفواصل المحكمة بين جيل وجيل، ولا بين مدرسة وأخرى.

ومفكرون هذا شأنهم لا يأنفون من أن يقفوا طويلا عند الدارج والمألوف، ولا ينفرون من بعض الغريب والمستهجن. وكثيراً ما يردد بعضهم بعضا ويكررون ويعيدون، أو يجمعون ويلفقون. وليس شىء أثقل على المؤرخ من أن يجاريهم فى سيرهم ويحاول أن ينقل صورة صادقة عنهم، ومهما لخص واستخلص ونتح وهذب فللأصل عليه دون نزاع تأثير.

ولعل هذا هو السر فيما نلحظه لدى مؤلفنا من وقفات كنا نود لو قصرت، وأسماء ربما كان الأولى أن يمر عليها مر الكرام. ويظهر أن متابعته للقرون فى تلاحقها تقى

عليه بأن يسرد فى كل قرن طائفة من أسمائه ، كيفما كان وزنها ونوعها . وأخشى ما أخشاه أن تطغى مدارس وأشخاص من الدرجة الثانية أو الثالثة على تلك التى تعد فى الدرجة الأولى . وعلى كل يشعر القارئ بأنه كان فى حاجة إلى بيان أتم وتوضيح أكثر للخصائص العامة والمميزات الرئيسية للجيل أو المدرسة ، بدل تتبع بعض الأفراد فى حياتهم ومؤلفاتهم. ولا شك فى أنه يفيدنا أن نقف على حركة بعض الآراء والنظريات الكبرى ، لا ان نضل فى ثنايا بعض التفاصيل والجزئيات .

ومهما يكن من أمر هذه الملاحظات ، فان «تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط» لوحة مستوعبة للفلسفة المسيحية ، وقد سد نقصا كنا نحس به جميعا فى اللغة العربية . وسيجد فيه طلاب الفلسفة الاسلامية مجالا لمقارنات وموازنات كثيرة، وسيدركون أكثر من ذى قبل أن فلسفة القرون الوسطى — مسيحية كانت أو إسلامية أو يهودية — تخضع لعوامل متقاربة ومتشابهة . وكم نود لو وقف مؤلفنا الفاضل عند أوجه التشابه والتقارب هذه ، ولو قليلا، ولكنه آثر نماظهر أن يرجئها إلى حلقة أخرى من سلسلته المتصلة .

وإنا إذ نقدر ونسجل مجهوده الحالى نرجو له دوام العافية والتوفيق ليتحفنا بثمار جهوده المستقبلة .

ابراهيم مدكور

أقوالنا وأفعالنا للأستاذ محمد كرد على (دار إحياء الكتب العربية — القاهرة)

وهذه أيضاً طائفة من المقالات ولكن بينها وحدة جامعة ، فالكتاب كما قد يدل عليه عنوانه يتحدث فى موضوع واحد ، فهو يصف العادات والأخلاق فى بلاد العربية ، والحال العامة فى الأقوال والأفعال كما رآها رأى العين أو رأى العقل فى هذه البلاد . وهو فيما يصف من تلك الحال يقصد إلى الاصلاح والنقد فى أسلوب صريح قد يجد فيه بعض القراء لونا من العنف أو نوعا من الاسراف ، ولكن رجلا فى مثل مقام الأستاذ محمد كرد على قد اجتمع له ما اجتمع من التجارب ومر به ما مر من الأحداث وشاهد ما شاهد من الصور — من حقه أن يعنف فى النقد وان يسرف فى الملامة ، وألا يصطنع المجاملة فى الحديث .

ولقد يخيل إلى — وإن لم عرف الأستاذ محمد كرد على معرفة الصاحب والعشير — أنه رجل صريح الرأى فى الناس ، لا يكاد يخفى على أحد رأيه فيه وإن أغضبه ذلك الرأى وساءه . عرفت ذلك من بعض ماقرأت فى هذا الكتاب من صور الناس ؛ فانه ليصف بعض أصحابه صفات أحسبها لا ترضى أحداً منهم لو عرف ، وهو مع ذلك لا يحاول أن يلقى على بعض من يصف حجاباً يحول دون معرفته باسمه ورسمه ؛ فلو شاء القارئ لوضح اسم كل منهم بازاء صفته . على أن الكتاب إنما يتناول موضوعات عامة وإن جاءت هذه الصفات التى أشرت إليها فى بعض الحديث للشاهد والدليل .

ويخص المؤلف مصر والشام بما يقصد من الحديث عن «أقوالنا وأفعالنا» وإن أوهم العنوان عموم البلاد العربية ، أو لعله لم يقصد إلا الحديث عن سورية وإن لم يكد يغفل مرة واحدة عن ذكر مصر ، حباً لها

وشعورا بما يربطه إليها من أواصر القربى ؛ بل إن حبه لمصر ليحمله أحيانا على الاسراف فى حسن الظن بها وبأهلها ، فلا يكاد يذكر من « أقوالها وأفعالها » فى معرض الموازنة إلا ماراه حسناً يذكر وقدوة تحتذى . وما أريد أن تخدعنى مصريتى فأؤيده فى كل ما ورد من محاسن المصريين ؛ فلعله لو نعم النظر فى مواطن كثيرة لحمد قومه !

على أنى لاحظ فى هذه المناسبة أن المؤلف بقدر ما أسرف فى لوم المشارقة لبعض ماراه منهم ، قد أسرف كذلك — فى مواطن عدة — فى الثناء على الغربيين واعتدهم المثل والقدوة ؛ حتى لكاد يزعم أنهم أقرب من المسلمين إلى الاسلام ! ولست عند نفسى بالمنزلة التى تسمح لى أن أذكر للسيد الجليل مقالة ابن خلدون عن الغالب والمغلوب !

وقد أهدى الأستاذ محمد كرد على كتابه « لحضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول صاحب المملكة المصرية أيده الله » ، إذ كان للمؤلف قد حظى فى السنة الفائتة بشرف المثول بين يدى جلالته ، « وكان من جملة ما تفضل وتحدث به أخلاق بعض المصطنعين من الرجال » .

والكتاب بضعة وثلاثون فصلا فى ثلاثين وأربعمائة صفحة ، تناول فيها كل ما يمكن أن يقال عن ذلك الشرق فى أيامه الحاضرة : ففيه الوصف ، والنقد ، والتاريخ ، والتعليق ، وفيه لأسباب والنتائج ، وفيه العلم والسياسة ، وفيه الأمانى والآلام ؛ وهو بكل ذلك صورة نفسية لهذا الشرق كما ترتسم فى مرآة شيخ من أهل العلم والتجربة عانى بنفسه ودرس واختبر ومثل بعض أدوار الرواية . . . فهو كتاب اليوم والغد ، ولعله — على ما فيه — أحفل كتاب ظهر حتى اليوم فى تاريخ الشرق الاجتماعى .

مسند الامام أحمد أخرجه الشيخ أحمد محمد شاكر (دار المعارف ـ القاهرة)

روى أن الامام أحمد بن حنبل لما اجتمع له هذا المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال لابنه عبد الله : « احتفظ بهذا المسند ، فانه سيكون للناس إماما » . وقد حقت كلة أحمد بن حنبل هذه فصار مسنده إماما له خطره واعتباره . فلولا أن أحمد بن حنبل من أصحاب الرأى وله مذهب فى الشريعة ، ولولا ذيوع مذهبى أبى حنيفة والشافعى دون مذهب ابن حنبل ، لاشتهر مسنده فى الحديث وأخنى ذكر البخارى ومسلم وانفرد دون سائر كتب السنة .

وقد طبع مسند أحمد فى مصر لأول مرة منذ قرابة أربعين سنة ، طبعه السيد أحمد البابى الحلبى فى ست مجلدات كبار ، فيها نحو ثلاثة آلاف صفحة كبيرة ، بحروف صغيرة ، وكان قد طبع منه قبل ذلك جزء صغير فى الهند ، ثم لم يطبع بعد ، على شدة الحاجة إليه وكثرة طلابه .

وقد تهيأ للشيخ أحمد محمد شاكر منذ بضع وثلاثين سنة ان ينظر فى هذا المسند ، فحبب إليه ان يستوعبه درسا وقراءة ، فوجده كما يقول « بحراً لا ساحل له . . . تتقطع الأعناق دونه ، بأنه رتب على مسانيد الصحابة ، وجمعت فيه أحاديث كل صحابى متتالية دون ترتيب ، فلا يكاد يفيد منه إلا من حفظه ، كما كان القدماء يحفظون وهيهات . . . »

وخطر للشيخ منذ شبابه ذاك أن يعكفه

عليه . لا ليستظهره بل ليخرجه للناس مبوبا مرتبا ، محققا تحقيق أهل الحديث ، معرفا برواته تعريف أهل السند ، مفهرسا فهرسة كتب العلم ، إلى غير ذلك مما ييسر النفع به للخاصة والكافة ، ويجعله إماما كما أراده جامعه — عليه رضوان الله — أن يكون .

ووقف عليه الشيخ وقت فراغه منذ ذلك التاريخ البعيد ، حتى وفق لما أراد ، أو لكثير مما اراد ، فدفعه إلى دار المعارف لتعينه على طبعه و نشره . وهذا هو الجزء الأول منه .

خمسمائة صفحة وبضع وعشرون صفحة تضمنت سبعة وعشرين وخمسمائة حديث ، مبوبة مذكورة بسندها ورقمها ، مضبوطة بالشكل مقسمة تقسيما واضحا ييسرها لكل قارئ ، مذيلة بتحقيقات في المسانيد وشروح في متن اللغة ، إلى خمسين ومئة صفحة كالمقدمة لهذا الجزء ؛ فجملته تقرب من سبعمائة صفحة .

ولقد يحق لي في هذه الصفحات المخصصة للتعريف بما ظهر حديثا من الكتب ، أن أعرض لهذا العمل الكبير بما هو أهله . أما متن الحديث وروايته ومسانيده فاني أدعها للمختصين من اهل هذا الفن ، لا أقحم نفسي عليهم فيما لا طاقة لي بالتعمق فيه ؛ وحسبي في هذا الشأن ان أشير إلى مكانة الشيخ شاكر بين علماء الحديث وأصحاب الرأي . وأما الاخراج العلمي للكتاب فحسبي في الاشارة إلى توفيق مخرجه أنه حبب إلى هذا النوع من القراءة ولم يكن لي على مثله صبر ولا إليه ابتعاث .

على ان هذه المقدمات التي صدر بها المسند ، والتي سماها . أو سماها له بعض أصحابه « طلائع الكتاب » جديرة بالتقدير حقا ؛ فلم يكتف مخرج الكتاب بما روى من قصته معه ، وطريقته في العمل به ، بل اهتبلها فرصة لينشر كتبا أربعة ، أو خمسة ، تتصل ؛ ضوء الكتاب وصاحبه ؛ فجعلها كالمقدمات للمسند نفسه ، هذه الكتب هي :

١ — « خصائص المسند » للحافظ أبي موسى المديني المتوفى سنة ٥٨١ هـ .

٢ — « المصعد الأحمد في ختم مسند الامام أحمد » للحافظ شمس الدين الجزري المتوفى سنة ٨٣٣ هـ .

٣ — «القول المسدد في الذب عن المسند» للحافظ ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ هـ .

٤ — « ذيل القول المسدد » للمحدث قاضي الملك محمد صبغة الله المدراسي من علماء الهند في القرن الماضي .

وكان لا بد مع ذلك كله من التعريف بجامع هذا المسند الامام والترجمة له . فكانت الفرصة لنشر الكتاب الخامس ، وهو ترجمة الامام أحمد مأخوذة بالنص من مخطوطة الحافظ الذهبي «تاريخ الاسلام» . وتقع هذه الترجمة وحدها في بضع وسبعين صفحة ، وتطبع في هذا الكتاب لأول مرة .

وقد اقتضاه طبع هذا الجزء من « تاريخ الاسلام» للذهبي ان ينشر إلى جانبه فصلا في بضع صفحات لتعريف بهذا التاريخ ومؤلفه .

على انه لم يكتف في الترجمة لأحمد بن حنبل بهذا الجزء الذي نشره من تاريخ الذهبي ، فذكر ثبتا حافلا بأسماء الكتب والموسوعات العربية التي يمكن الرجوع إليها للتزود بأكثر مما ذكر الذهبي من تاريخ صاحب المسند ، وعدتها تسعة عشر كتابا مذكورة بأرقام صفحاتها ، إلى ثبت آخر بالمراجع لترجمة عبد الله بن أحمد ، والقطيعي ، اللذين رويا ذلك المسند .

فاذا فرغ من هذه التراجم عقد فصلا بعنوان « أصح الأسانيد » لبيان ما يعنيه أهل الحديث بهذه العبارة ، ثم أورد بعد ذلك ثبتا بالأسانيد الصحيحة وعدتها ستة وستون سندا .

وقد ألحق بهذا الجزء « جريدة المراجع » من طبع المسند لينشرها مستوفاة فى خاتمته .
مرتبة على حروف المعجم فى بضع صفحات ، ذلك جهد حقيق بأن يذكر فى تاريخ
ثم فهرس للموضوعات العامة ، مرجئا سائر علم الحديث ، نسأل الله أن يتم به .
الفهارس اللفظية والعلمية إلى حين الفراغ

محمد سعيد العريان

فى مجلات الشرق

شكيب أرسلان

لا تزال مجلات الشرق تردد سيرة فقيد العروبة الكبير المرحوم شكيب أرسلان الذى غالته المنون فى ٩ ديسمبر الماضى ولما يمض على مقامه فى بلاده إلا شهراً وبعض شهر ، بعد سنين متطاولة قضاها فى منفاه البعيد جزاء كفاحه المستمر لحرية العرب ومجد العروبة .

وقد نشرت مجلة « الأديب » البيروتية ، فى عدد يناير فصلا ضافيا عن الأمير شكيب أرسلان بقلم أمين محمد أبو عز الدين تحدث فيه عن آل أرسلان منذ أوليتهم فوصل نسبهم بالنعمان بن المنذر اللخمى ، ثم تحدث عن أمرائهم فى الاسلام منذ عهد الخليفة العباسى الثانى أبى جعفر المنصور حتى انتهى إلى الأمير شكيب. فذكر جهاده الوطنى منذ كان حتى وافاه الأجل وقد تجاوز الثمانين ، ثم تحدث مجملا عن مكانته فى الأدب ومنزلته بين اهل الفن وما ترك من الآثار الأدبية ، مطبوعة وغير مطبوعة ، وأشهرها : الحلل السندسية ، الابتسامات اللطاف ، غزوات العرب فى أسبانيا ، حياة السيد رشيد رضا ، لماذا تأخر المسلمون . ومن آثاره المترجمة : آخر أيام بنى سراج ، أناطول فرانس فى مباذله ، حاضر العالم الاسلامى ؛ وله على هذا الكتاب الأخير تعليقات ضافية وفصول لها اعتبار كبير فى ميزان أهل الأدب . وقد أحيا إلى ذلك طائفة من الآثار الأدبية القديمة ، مثل المختار من رسائل أبى إسحاق الصابى ، الدرة اليتيمة لابن المقفع ؛ إلى رسائل ومخطوطات لا يكاد يبلغها الحصر .

عبيد !

وفى هذا العدد من مجلة « الأديب » ، مقال للدكتور نقولا فياض بهذا العنوان يقول فيه :

« منذ القدم . . . لم يكن الانسان فى زمن من الأزمان أكثر عبودية مما هو الآن ! »

ويمضى الدكتور فى تأييد دعواه هذه بما يورد من الأمثلة ، فيذكر الحرب الأخيرة وما جرته — وتجره — من ويلات ، فيراها مظهراً من مظاهر عبودية الطمع ، « فما دام الانسان معلقا بالرجاء يدفع به حيث يشاء وله فى الحياة مآرب لابد منها وحاجات لاغنى عنها فمن المستحيل أن يكون حراً » .

ثم يتحدث عن مظهر آخر من مظاهر العبودية التى يرسف فى أغلالها أهل هذا الزمان ، فيذكر العلائق الاجتماعية بين الناس وماتتطلبه من المداهنة والرياء وإحراق البخور لكل ذى مال أو سلطان وحب التشبه والتقليد . ثم يذكر الحياة العائلية فى المجتمع الحاضر ومايفرض من زيارات وأعياد وحفلات وولائم وغير ذلك مما لا يتحقق به للانسان معنى الحرية ثم يسترسل فيما يصف من حياة الأسر فى هذه الأيام حتى ينتهى إلى أن يقول :

« أجل ! إن حكم التقاليد والعادات لاتتقى

قيودا من حكم أتيلا وجنكيزخان ؛ لأنها تملك على الانسان تفكيره وتدبيره ولا تدع له مجالا للتبصر ولا فرصة للتروى ، فهو محكوم عليه أن يمشى بلا انقطاع كاليهودى التائه ، وكلما أراد الوقوف أهاب به صوت يقول له سر وإياك أن تقف ، اذهب من زيارة إلى زيارة ، ومن حفلة إلى حفلة ، ومن سهرة إلى سهرة إلى أن تموت . . . وهكذا ترى ان اهل اليسار » والبسطة في العيش أكثر عبودية من سواهم . . .

ليت شعرى ، أينكر الدكتور فياض هذه العبوديات أم ينكر هذه الحضارة وإنما هما أمران متلازمان لا سبيل إلى الفصل بينهما .

ومن أين للانسان أن يكون حراً وهو الذى اصطنع هذه الحضارة بقيودها فراراً بنفسه من العبودية للطبيعة ، والطبيعة أقوى سلطانا على الحى من المدنيـة بقيودها وعاداتها وما اصطنعت من التقاليد ورسوم الاجتماع !

إن إنسان الغابة ليس أكثر استمتاعاً بالحرية من ابن المدينة ما دام في نفسه الظمأ والجوع والخوف والرغبة ، فهو عبد لأن له رغائب ومخاوف وشهوات ، وهو عبد لأنه ليس أقوى ما في الغابة من الكائنات ، وهو عبد لأن الطبيعة تمنحه ما تشاء لا ما يشاء ، وتفرض عليه أسلوب العيش الذى يستطيع لا اسلوب العيش الذى يرجوه ؛ وهو بكل ذلك عبد وإن كان يملك الغدو والرواح حين يشاء الى حيث يشاء . ثم لم تكن الحضارة من بعد إلا محاولة إنسانية للتخلص من التعبد للطبيعة والخضوع لبعض ضروراتها ؛ فاذا كانت هذه الحضارة قد تعقدت من بعد حتى عادت لوناً من ألوان العبودية ، فذلك لأن الانسان — على الأرض — لا يمكن أن يملك الحرية المطلقة وهو إنسان ، فانما الحرية اعتبار لا حقيقة ما دام الانسان جزءاً من كل وفرداً من جماعة .

إخوان الصفاء

ويحاول الأستاذ جبور عبدالنور أن يثبت صلة ما بين الصابئة الوثنية و بين إخوان الصفاء ، فينشر بحثاً ممتعاً في ذلك العدد من مجلة « الأديب » عنوانه « معالم الوثنيـة في رسائل إخوان الصفاء » ، فيتتبع تلك الرسائل تتبعاً علمياً دقيقاً في أناة وصبر وملاحظة واعية منهياً بالمقدمات إلى نتائجها المنطقية حتى يخلص إلى ما يريد ، فيزعم « أن إخوان الصفاء كانوا من الصابئـة أو أى نوع آخر من عبدة الكواكب السيارة ، وأنهم لا يصرحون في الرسائل العامة بما يضمرونه من عقيدة وثنية ، وإنما يشيرون إليه إشارات خفيفة لا يمكن تبينها إلا باعمال الروية والاستنتاج والمقابلة بين نص وآخر والموازنة بين فكرة وفكرة . »

ويسترسل في افتراض هذا مستنداً إلى ما بين يديه من براهين ، ملاحظاً ما بين رسائل إخوان الصفاء ومباحث جابر بن حيان من تشابه واتفاق ، ثم يتتبع حياة جابر في غموضها وما يكتنفها من الريب . فينتهى إلى افتراض آخر ، وهو أن جابر بن حيان هذا قد يكون شخصية خرافيـة أسطورية ، ثم يسائل عن الحلقة الجامعة الخفيـة التى تصل هذه الشخصية الأسطورية باخوان الصفاء الذين يتشابه وإياهم فكرة وأسلوبا وملامح وغاية وإضماراً للوثنية !

وكأنما أحس الباحث في خاتمـة القول بخطورة ما وصل إليه من النتائج ، فهو يتريث حذراً ليسـأل : « أبين إخوانه (إخوان

جابر) وإخوان الصفاء قرابة ؟ أيؤلفون جماعتين تدافعان عن فكرة واحدة، وتسعيان لغاية واحدة في زمانين متباعدين ؟ ما حقيقة جابر بن حيان ؟ ... كل هذه الأسئلة لا تمكن الاجابة عليها في الوقت الحاضر بما يطمئن إليه التحقيق العلمي، ولكننا نطرحها على بساط البحث آملين أن يتصدى لها من يجيب عليها إجابة مرضية . »

أنصار الأديب

هذا عدد من مجلة «الأديب» ـ ككل عدد من مجلة «الأديب» ـ غني بما فيه من ألوان الأدب والفن والبحث العلمي الناضج ؛ فلو اتسع لي المجال لنوهت بكل مقالة فيه، عرفانا بحقه، ولا يزال لبنان وأدباء لبنان في الصف الأول من قادة الفكر العربي وأساتذة فن الصحافة . وإنما أقولها اليوم، وما قلتها من قبل، لمناسبة كلمة قرأتها في هذا العدد وقرأت مثلها في العدد الذي سبقه، عنوانها « في سبيل رسالة الأديب » تتحدث فيها أسرة التحرير في هذه المجلة التي أتمت خمس سنين من عمرها المديد — إن شاء الله — دائبة على نهجها الرفيع — عما تلقى من ضيق مادي يحملها على أن تتوجه إلى أنصارها بالرجاء أن يعينوها على أداء الرسالة التي تنهض بها منذ نشأتها . وفي سبيل التماس هذه المعونة من أنصارها جعلت الاشتراك فيها على نوعين : اشتراكا عاديا، واشتراك الأنصار — أنصار الرسالة الواعية والفهم القومي — وجعلت اشتراك الأنصار — لمن يشاء منهم أن يؤازرها فيما هي بسبيله — ١٤ جنيها مصريا ؛ لتتمكن بما يجتمع لها من اشتراك الأنصار، من متابعة سيرها في أداء رسالتها .

يا لها معابة في وجه قراء العربية في مختلف أقطارها، أن تكون مجلة مثل « الأديب » من أنفسهم بالمنزلة التي تحملها مكرهة على أن تتقدم إلى قرائها بمثل هذا الرجاء لتلتمس أسباب الاستمرار ! وكم مجلة في العربية مثل الأديب، على حين تعيش في بحبوحة مئات من المجلات لا أسميها ولا أصفها !

ولكني آمل أن يكون عند قراء العربية من الوعي ما يحملهم على أداء واجبهم لهذه المجلة التي تذكر في طليعة المجلات العربية حين يبدو لنا أن نباهي بما بلغنا من المنزلة في الصحافة الأدبية الراقية .

مكتبة الإسكوريال

في عدد يناير من مجلة « المسرة » التي تصدر عن إدارة المرسلين البولسيين بلبنان مقال بعنوان « الاسكوريال في أسبانيا » للفيكونت فيليب دي طرازي يتحدث فيه عن دير الاسكوريال ومكتبته وما تشتمل عليه من المخطوطات العربية التي آلت إلى أسبانيا من خزائن الأندلسيين والمغاربة، وتبلغ عدة هذه المخطوطات نحو ألفي مجلد، هي كل ما بقي بعد الحريق الذي شب في الاسكوريال منذ ثلاثة قرون .

ولا شك أن أكثر هذه المخطوطات أو كثيراً منها معدوم النظير في المكتبات

العربية ، فهي ولا شك ذات صلة بماضينا العلمي والفني ، تفرض علينا العناية بالاطلاع عليها ومعرفة محتوياتها والنظر فى أوجه الاستفادة منها ، وحسبنا ما ضاع من تراثنا العلمي فى عصور الجهل والانحطاط ، وما نكبتنا فيه الحروب والغارات فى التاريخ القديم .

لست أعنى أن نطمع فى الحصول على ما تضم هذه المكتبة من نفائس المخطوطات العربية بغير حقه ، فاننا نملك وسائل أخرى للانتفاع بهذه المخطوطات فى نهضتنا العلمية الحاضرة بإيفاد بعثة من المتخصصين لاستنساخ هذه النفائس أو تصويرها ، واستنساخ مثلها فى خزائن الفاتيكان وغيرها فى عواصم أوربا ، حتى لا نظل جاهلين أبداً بتراثنا العلمي الذى تضمه تلك الخزائن البعيدة ونحن نزعم أننا قد بلغنا من الوعى العلمي المبلغ الذى يحملنا على المباهاة والفخر .

ويجرنى هذا الحديث إلى حديث آخر يمت إليه بسبب ؛ فان بعض المخطوطات العربية التى لا تزال بين أيدينا لم تزل حتى تتسرب شيئاً بعد شىء ، إلى مكتبات الاوربيين الذين يتصيدونها من المكتبات العتيقة فينقلونها إلى بلادهم ونحن أولى بالاحتفاظ بها . فهلا شرعنا قانونا يمنع تسرب هذه الآثار العلمية إلى خارج البلاد على مثال القانون المفروض لحماية سائر الآثار ! وإلا فماذا يجدى علينا أن نطالب بما ليس فى أيدينا والذى فى أيدينا لا يكاد يبقى لنا !

وقد قيل إن اللجنة الثقافية فى جامعة الدول العربية بسبيل عمل من هذا النوع فما أحراها أن تجد جدها لفرض مثل هذا القانون والعمل على أن تضم مكتبات الشرق كل تراث الشرق المبعثر فى بلاد المتحضرين وغير المتحضرين على السواء !

سمر الليالى

وفى العدد نفسه من مجلة « المسرة » الحلقة الثانية من سلسلة قصصية ممتعة عنوانها « سمر الليالى فى القلمون » الخورى نقولا دهبر ، يقص فيها قصة بدوية مما يجرى على ألسنة السامرين ، فيها وصف حى لبعض عادات أهل البادية فى أسلوب ممتع ، وحوادث مسلسلة فيها إمتاع ولذة وفيها علم ما لا نعلم من أخبار سكان الوبر .

العقل والله !

قرأت الأبيات الآتية للشاعر الصافى النجفى ، فى مجلة « الاعتدال » التى تصدر فى النجف ــ العراق :

إذا طغى العقل على ربه فالعقل معناه هو الجهل
يعترض العقل على خالق من بعض مصنوعاته العقل !
إن بان فضل العقل فى صنعه فصانع العقل له الفضل
عبدته لم أدر ما كنهه والجزء هل يعرف ما الكل ؟
لم أدر إلا أنه خالق وأننى لشمسه ظل

وضعنا الاجتماعي

وتوجهت مجلة « المعرفة » التي تصدر في دمشق إلى فريق من قرائها تسألهم : « ما هي الظاهرة الاجتماعية التي تعوق تقدمنا الاجتماعي »

فأجاب الدكتور صبحي أبو غنيمة :

« أنا لا أعتقد أننا لم نتقدم اجتماعيا من حيث العلم . . . نحن ماشون في قافلة البشرية . ولكننا نتقهقر أخلاقيا مع هذا العالم المتقهقر اخلاقيا ، ولعله — في نظري لم يمر على البشرية دور هوت فيه إلى الدرك الأخلاقي المنحط كهذا الدور ، ونحن مع الأسف نسير أيضا في القافلة . . . فهي هي نفس الظاهرة التي تعوق تقدمنا الاجتماعي . وفي زمن ما كان الأنبياء يقيلون عثرة البشرية كلما تدنت ، وهم لن يعودوا ؛ ولكن أنبياء الفكر لن يفقدوا من البشر ! »

أما الأستاذ فؤاد الشايب فيقول إن الظاهرة التي تعوق التقـدم الاجتماعي هي السياسة . « من حيث الاشتغال بهـا ، والاعتماد عليها ، والانصراف إليها ، والتسلق على جذوعها ، والامتصاص من جذورها ، والتطحلب على حفافيها ، والنشوة بما تهيئه من أسباب « الاستحمام في الجماهير » والاسفاف إلى مستوى الغرائز . »

ويمضي في تفصيل ما أجمله من أثر السياسة في تعوق التقدم الاجتماعي وضرب الأمثلة وتفريق الفروع تدعيما لرأيه .

وأما الأستاذ روحي فيصل ، فينسب ذلك إلى جهل المرأة وإغفالها :

« فما أشك أنا مطلقاً في أن تحرر المرأة هو نقطة البداية في موضوع التقدم والرقي والقوة . . . وإذن لو قدر للمرأة أن تتثقف الثقافة النسوية والأخلاقية والعلمية أيضاً ، ثم أن تدرك أنها في عبودية فرضتها هي على نفسها ولا أقول فرضها الرجل عليها ، هنالك تستطيع أن تشرك نصفها الآخر في شتى ميادين العمل وأن تقوم بنصيبها من الخدمة العامة . . . »

ركود الشعر

ويتحدث الأستاذ حسني فريز في العدد ٣٤ من مجلة « الغد » بالقدس عن ركود الشعر بالقياس إلى ما كان عليه في العصور الخوالي . حين كان الشاعر يفرض رأيه على الجماعة ، وحين كانت الجماعة تسمع لرأي الشاعر وتطيع ، فيصف من أسباب هذا الركود ما يرى من صور الحياة الجديدة التي من شأنها أن تصرف الناس عن الاستماع إلى شعرائهم . ثم ينتهي إلى أن يقول :

« ليس الذنب ذنب النـاس ، إنه ذنب الشعراء الذين لا يعرفون ماذا يريدون أو ماذا تريد الأمة وماذا يتطلب العصر . إن ألف ديوان مزوق بالتصاوير العـارية كديوان « فلان » لا يستطيع أن يرفع من شأن الأمة قيد أنملة . بل هو إلى غير ذلك أميل ، بل هو إلى غير ذلك كان . . . . . .

« قلت إن الشعراء مقصرون ، وأقول كذلك إن الناس مقصرون ، لأنهم لا يريدون أن يفهموا الشاعر الذي يغنيهم من آلامه ويشجيهم من تاريخهم الحاضر والمستقبل وينساقون وراء الترهات والأضاليل . وهنا نصل إلى عقدة ، هي أيهما الذي يثقف الآخر ، أهو الشعب الجاهل المسكين ، أم الشاعر الذي يخترق حجب الماضي وظلال الحاضر ليشق لهم فجرا إلى المستقبل السعيد ؟ »

فى مجلات الغرب

من موسكو

« مجلة الأدب السوڤيتى » . فى هذه المجلة دائما رغما عن عنوانها طائفة لا بأس بها من المقالات التى تهتم بالآداب الأجنبية ؛ ولنلاحظ أولا أن أكثر هذه المقالات يتجه إلى الأدب الانجليزى .

فى العدد الرابع والخامس من هذه المجلة (أبريل — مايو ١٩٤٦) مقال قيم ، أو قل إنه دراسة مفصلة لشكسبير ، بقلم إسكندر أنيكست (١) . قسم الكاتب مقاله إلى ثلاثة أقسام ، ويفسر فى مقدمة قصيرة غايته وكيف يريد أن يبلغها ، فقال : « إن آثار شكسبير جزء مقوم من أجزاء الثقافة الروسية منذ زمن بعيد . وقليل جدا مما كتب المؤلفون الروسيون لا يرد إلى شكسبير على وجه ما ... ولضيق المكان الذى لا يسمح أن أعرض بالتفصيل بحوث الروس عن مسرحيات شكسبير وتمثيلها ، يكفى أن أبين أثر هذا الشاعر المسرحى العظيم فى الحياة الثقافية الروسية . »

يعرض علينا ا. أنيكست فى القسم الأول من مقاله تاريخ ترجمة شكسبير فى روسيا أو ، بعبارة أصح ، تاريخ علم شكسبيز فى روسيا . ويخبرنا بأن الشاعر العظيم وصل إلى الجمهور الروسى فى وسط القرن الثامن عشر حين مثلت مسرحية « هامليت » *Hamlet* فى مدينة بيترسبورج Saint-Pétersbourg سنة ١٧٥٠ . وقد ترجم هذه المسرحية الكاتب الكلاسيكى ا. سوماروكوف Soumarokov سنة ١٧٤٨ . يقول صاحب هذا المقال عن هذه الترجمة : « إنها غيرت المسرحية حتى لم يعرفها أحد ... وعرضت مكانها مسرحية تشبه « السيد » *Le Cid* لكورنى Corneille أكثر مما تشبه المسرحية الانجليزية . » ولم يعرف الجمهور الروسى شكسبير حقا إلا فى سنة ١٧٨٧ حين قدم إليه نيكولاى كارامزين Nicolay Karamzin (المؤرخ القصصى الشاعر) ترجمة قصة « يوليوس قيصر » منذ ذلك الوقت أخذ الأدباء ينقلون مسرحيات شكسبير ، وأصبحت ، بطبيعة الحال ، هذه الترجمات أصح وأدق حتى نصل إلى الوقت الحاضر حين نجد مدرسة جديدة فى فن الترجمة . « وبينما كان المذهب القديم يجهل نظام الوزن والانسجام فى شعر شكسبير ، حقق المترجمون السوڤيتيون هذا النظام فى شعر روسى معادل لشعر شكسبير فى النسق والعدد والوزن . »

وخصص القسم الثانى من هذا المقال لتمثيل مسرحيات شكسبير فى روسيا . ويلاحظ الكاتب أن المذاهب الأدبية الروسية قد وضعت طابعها على طرائق تمثيل شكسبير كما طبعت ترجمته . فكان هذا التمثيل « كلاسيكيا » ، ثم كان « رومانتيكيا » إلى أن كانت الموقعة ذات يوم من القرن التاسع عشر بين المذهبين الكلاسيكى والرومانتيكى حين مثلت مسرحية « هامليت » فى موسكو وفى مدينة بيترسبورج فى وقت واحد .

---

(١) *Shakespeare in Russia*, by Alexander Anikst.

وبقى الجمهور منقسما حتى ظهر فى أواخر القرن التاسع عشر مذهب جديد فى فن التمثيل ، وهو مذهب الوقعيين الذى لا يزال متفوقا فى روسيا إلى الآن .

أما القسم الثالث فيدرس فيه ا. أنيكست كتب نقد شكسبير التى نشرت فى روسيا . ويقول فى أول هذا القسم الأخير من مقاله إن إحصاء ما كتب الروسيون فى نقد شكسبير يحتاج إلى كتاب كامل ؛ ميعرض لنا الكاتب آراء أهم النقاد فى تاريخ الادب الروسى . ولنقف عند رأى بوشكين Pushkin الشاعر الروسى العظيم فى القرن التاسع عشر : « إنى لواثق بأن الواقعية الشعبية فى مسرحيات شكسبير توافق موفقة شاملة مسرحنا . » وكانت واقعية شكسبير تعجب الشاعر الروسى الذى شبها بالمذهب الكلاسيكى عند موليير Molière . والظاهر أنه كان يفضل طريقة الشاعر الانجليزى . على الأقل فى هذه الأسطر : «إن الأشخاص التى خلقها شكسبير ليست كرموز موليير التى تمثل بعض الشهوات والعيوب ، بل هى مخلوقات حية . قد أفعمتها شهوات مختلفة متباينة ، وهى تكشف نواحيها المتنوعة للنظارة أثناء التمثيل . »

وقد أصبح أدب شكسبير موضوعا للدرس فى الجامعات الروسية فى أوائل القرن التاسع عشر . وكلنا يعرف مايراه جوته Gœthe من ضعف شخصية هامليت وضآلتها . وقد عارض الناقد الروسى بيلنسكى Belinsky هذا الرأى قائلا : « إن هامليت رجل قوى بطبعه » . وقد ثارت خصومة أخرى بين النقاد الروسيين والألمانيين فى نفس هذا القرن حين عارض الناقد الروسى تشرنيشفسكى Chernychevsky وهو مشايع لمبادئ فلسفة الفن المادية ، مبادئ فلسفة الفن المعنوية التى كان الالمانيون يكلفون بها . وعارض تشرنيشفسكى على الخصوص النظرية التى تبين أن أشخاص المأساة يجدون عقوبتهم فيما يرتكبون من جرائم ، فثبت أن هذا قد يصح غالباً لا دائماً ؛ واستشهد بشخصية دسديمونا Desdemona فى قصة « عطيل » ؛ فهى لم ترتكب جريمةولم يكن موتها عدلا ، وإنما هى بريئة السيرة والضمير . وناقش تشرنيشفسكى هيجل Hegel وفيشر Fisher أكبر انصار هذا الرأى . وتابع الناقد ستوروچنكو Storozhenko (١٨٣٦ — ١٩٠٦) تشرنيشفسكى فى آرائه الفنيـة فى كتبه . وكان عنوان كتابه الاول « سباق شكسبير » وكان كتابه الثانى عن حياة روبرت جرين Robert Green أحد سباق شكسبير . وكان بحث الأستاذ نيكولاى ستوروچنكو أول رسالة عن هذا الكاتب ، فترجمت إلى الانجليزية ، وانتخبت « جمعية شكسبير الجديدة » صاحبها نائباً لرئيسها .

وفى آخر هذا المقال يعرض لنا ا. أنيكست بحوث النقاد الروسيين التى ظهرت بعد ثورة أكتوبر . وقد اتجه النقاد ، بطبيعة الحال ، اتجهات اخرى فى نقد آثار هذا الشاعر العظيم . فهناك تصدر كتب يحاول فيها أصحابها أن يطبقوا طرق التحليل الاجتماعى على آثار شكسبير . فبعضهم يرى أن قصص شكسبير تدافع عن حياة الأشراف ، وبعضهم يرى أنها تمثل ثقافة الطبقة الوسطى فى عصر النهضة . وهذا الرأى الأخير هو الذى انتصر الآن على غيره فى روسيا السوفيتية . ونقول أخيراً مع صاحب هذا البحث الدقيق إن : « جهود النقد الروسى القديم والحديث فى دراسة شكسبير خليقة أن تعرف وتذاع . »

من باريس

على أننا حين ننتقل من موسكو إلى باريس لا نفارق شكسبير؛ فكلنا يعرف أن ترجمة جديدة لقصة « هامليت » مثلت (وما زالت تمثل فيما أظن) فى العاصمة الفرنسية. وصاحب هذه الترجمة الجديدة هو أندريه جيد André Gide. وقد نهض بدور أمير الدانمارك الممثل المعروف جان — لويس بارو Jean-Louis Barrault. وقد أثار تمثيلها على النحو الجديد مقالات كثيرة فى جميع صحف باريس اليومية ومجلاتها الادبية. نقرأ فى « مجلة الانسان والعالم » La Revue Hommes et Mondes. فى أول شهرية المسرح، رأى الفيلسوف المعروف جبريل مارسيل Gabriel Marcel فى تقديم شكسبير على مسرح ماريني Marigny. ونلاحظ فى أول المقال أن جبريل مارسيل لا يقول شيئا عن الترجمة نفسها. لماذا؟ نلاحظ أيضا أنه يمدح ج. ل. بارو لا لأنه مثل تمثيلا حسنا فقط، بل لأنه لم يخطيء (فى ظنه) الخطأ الذى أخذ عليه، أى: أولا أن الجلال ينقصه، ويرى ج. مارسيل أن هذا الدور لا يحتاج إلى جلال. وثانيا أن ج. ل. بارو عرض على النظارة شخصية فرنسية لهامليت لا الشخصية الدانماركية التى تعلمت فى ڤيتنبرج Wittenberg فقد كان الممثل فى ظن بعض النقاد يحتاج أن « يتألمن » شيئا ويظهر عليه أثر العلم بما بعد الطبيعة. فيقول ج. ل. مارسيل: « إن هامليت الذى نراه قد يكون فرنسياً، وقد يكون فى بعض الاحيان من فتيان فلورانس. فهل يجب أن نأسف لهذا؟ كلا، فيما أرى. لقد قلت فى غير هذا الفصل إن هذه القصة تلقى ضوءا ساطعا على شكسبير تلميذ مونتينى Montaigne » ويلقى هنا ج. مارسيل النقاد الروسيين السوڤيتيين الذين يرون أن شكسبير كان يمثل ثقافة الطبقة الوسطى فى عصر النهضة.

أما فى مجلة « لانيف » La Nef فقد حظيت قصة « هامليت » بمقال أو بجزء من مقال أطول قليلا مما كتبه ج. مارسيل. ونلاحظ أولا أن ج. ج. رينييرى J. J. Rinieri (صاحب هذا المقال عن المسرح فى باريس) خصص للترجمة نفسها أول نقده. فقال فى عمل جيد: « إن ترجمة « أنتوان وكليوباترا » أظهرت لنا مهارة أ. جيد الفائقة فى الترجمة، ولكن هذه المهارة تحس أكثر مما ينبغي؛ لأن قصة شكسبير من الثروة والسعة بحيث يجد أ. جيد فيها بعض الحرج لطبيعته التى تميل إلى التحفظ والقصد. أما قصة « هامليت » فهى على عكس ذلك ملائمة لمزاجه الخاص. فالمهارة هنا إيجاز والتكلف يتحول إلى إبتكار مستمر، والروعة والفكاهة معا منقولتان على أكمل وجه. فلم يضح المترجم بشئ من أشد دقائق النص عسرا. فتكاد الترجمة لذلك أن تكون إنشاء. وإذا طلب النظارة رؤية المنشئ فى الليلة الأولى من ليالى التمثيل فقد كان هذا تسجيلا لنجاح باهر نادر. »

أما التمثيل نفسه فيقول فيه ج. ج. رينييرى: « من أجل أن تحتفظ القصة بروعتها كلها يجب أن تظهر صورة هامليت فى أفق رائع بطبعه ... ولكن التمثيل الجديد ينقصه بعض العظمة: كأن المسرح ليس على قدر القصة، فهو يظهر خاليا حينا ومزدحما حينا آخر. ونحن نرى ج. ل. بارو وحده مالكا أمره. » ويختم الكاتب عرضه هذا بنقد حاد للملابس والمناظر، فيقول إنها كانت « فى غاية القصور. »

في نفس هـذه المجلة تحت عنوان « ملاعب باريس » ، مقـال قصير عن المحـاضرات . لا يعرض فيه صاحبه إلا المحاضرات التي ألقاها السفراء أو ألقيت في الأونسكو U.N.E.S.C.O. ويلخص الكاتب ما قال جان-پول سارتر Jean-Paul Sartre في محاضرة عنوانها « مسئولية الكاتب » . وقد بين المحاضر أولا إلى من يوجه الكاتب حديثه . وقد رأى ان المستمعين لهذا الحديث إنما هم أصحاب الارادة الحسنة من أهل الطبقة الوسطى ، ثم أخذ في تحليله الوجودي يشرح للمحاضرين غاية الكاتب حين يكتب وهي الحرية للجميع . والوسائل إلى هـذه الغاية مهمة لأن احتقـار القيم الخلقيـة يضيـع الغـاية . وختم ج . پ . سـارتر محاضرته قائـلا : « إذا وقعت الحرب فـلا ينبغي أن يقال : إنهم شهدوا تقدم دنو أعظم كارثة تصيب الانسان وسكتوا . » واستطاع الجمهور في باريس أن يسمع لكاتب آخر من أعظم كتاب فرنسا وهو أندريه مالرو André Malraux وقد سأل المحاضر نفسه عن الانسان أحي هو أم ميت ؟ ولخص ج. ل. دوما جواب أ. مالرو على هـذا السؤال في هذه الأسطر الأخيرة من مقاله : « في اعتقاد أ. مالرو أننا لسنا فى أرض الموت ولا أمام حظ موروث ، وإنما نحن أمام نظام من الارادة . ويمجد أ. مالرو الجهاد ، وإن كان يائساً أو مجديا ، ضد القضاء ، فيعلن أن من الممكن تحقيق ثقافة إنسانية ، وأن الانسانية الجزعة وحدها هي التي تشعر بالتبعات . »

من لندن

يظهر أن للموت أصبح موضوعا محببا إلى كل من يريد أن يصور ويعد موضوعا للرقص في عصرنا هذا . أهي الحرب التي سببت هذا ؟ من يدري !

شهد بعضنا في باريس في الصيف الماضي مرقص « الفتى والموت » للشـاعر الفرنسي الكبير جان كوكتو Jean Cocteau وها نحن أولاء نقرأ في مجلة « الحياة والأدب » *Life and Letters* عدد ديسمبر ١٩٤٦ موضوع لتمثيلية راقصة ذات ثلاثة فصول عنوانها : « فرحة الموت » (١) لفريد مارنو Fred Marnau ويقـول المؤلف في بدء تفسيره للفصل الأول : « إن غاية هذا المرقص تحريرنا من خوف الموت » . وفي الحق أن في هذه الفصول الثلاثة شعورا فنيا وذوقا رفيعا في ترتيب موقف الأشخاص ومظـاهرهم ولا سيما إذا أضفت إلى ذلك عمق المعنى .

واقرأ في نفس هذا العدد مقالا عن المصور الاسباني جويا Goya وعنوان هذا المقال : « عود إلى زيارة جويا » يريد فيه صاحبه دونالد ج . ماكرى Donald G. Macrae أن يسجل مفكرا إحدى الوظائف لنوع من أنواع الفن وهي تصوير الاعتقاد أن في الحرب عنفا ماديا وهولا وتدميرا ، ثم تصوير ما يكون لهـذا كله من رد الفعل في نفس الانسان . وينظر الكاتب هنا إلى رسوم جويا التي سماها « كوارث الحرب » (٢) وحسبي أن أنقل هذه الأسطر : « إن سلسلة الرسوم المسماة

(١) *The Merriment of Death.*

(٢) *Los desastros de la guerra.*

في غير تصنع « كوارث الحرب » تجمع البراعة ودقة الحس وشدة العنف فتؤثر في أنفسنا المتقبضة مباشرة . »

« مجلة السلافية وأوربا الشرقية »(١)

وهي تتخصص بشعوب أوربا الشرقية وتاريخها وانتشارها الاقتصادي ودراسة لغاتها وآدابها . فاقرأ فيها (عدد نوفبر ١٩٤٦) بحثا جيدا للأستاذ أ. مازون André Mazon باللغة الفرنسية . عنوانه : « القصص الحربية في الأدب الروسي في القرن الخامس عشر . » (٢)

وهي دراسة دقيقة بارعة ينقل أ. مازون في أول مقاله الدعاء الذي يفتتح إحدى هذه القصص ، قصة « حياة إسكندر نيفسكي » والقراء يعرفون بالطبع أن السينما السوفيتية أخرجت من هذه القصة الممتعة فيلما يكاد يعتبر من أجل الأفلام التي ظهرت في هذا النوع من القصص التاريخية . ونلاحظ أن هذا الدعاء يجمع بين قوة الوطنية وروعة الفن . وهذه ترجمته : « أيتها الأرض المشرقة المنيرة المسلحة في روعة بكل فنون الزينة ، أي أرض روسيا ! »

والغرض من هذا المقال أن يبين أن القصص الحربية التي يعرضها لنا الكاتب هي لون أدبي يخبرنا عن تكون الشعور الوطني « الذي هو قوة الشعب الروسي اليوم ، كما كان قوته منذ خمسة قرون . »

واقرأ في هذا العدد أيضا بيانا قيما مفصلا للكاتب نفسه عن الدراسات السلافية في فرنسا (٣) .

أمينة طه حسين

(١) *The Slavonic and East European Review.*

(٢) *Les récits de guerre dans la littérature russe du XVe siècle.*

(٣) *Slavonic Studies in France,* by André Mazon.

مجلد ٥ — عدد ١٨ مارس ١٩٤٧

الكاتب المصرى

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير: طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصرى
شركة مساهمة مصرية
القاهرة

يوسف كرم

مدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط

كتاب يقع في ٢٦٨ صفحة

الثمن ٥٠ قرشاً (البريد المسجل ٥٦ مليما وللخارج ٦٨ مليما)





الكاتب المصرى
مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين
سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصرى فى أول كل شهر عن دار الكاتب المصرى ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعتها .

الاشتراك

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان ، ١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو ما يعادلها . يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب المصرى . لا تقبل الاشتراكات لأقل من سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل ما يرد إليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة
تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤
الادارة : ٣٤-٤٥٠١٥-٤٧٨١٥-٥٤٢٧٣



AL KATEB EL MASRI

Monthly literary magazine published by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)
Editor-in-chief : **Taha Hussein**

الكاتب المصري



ربيع الثانى ١٣٦٦ | مارس ١٩٤٧

السنة الثانية | مجلد ٥ — عدد ١٨

فرانز كفكا

مرَّ بهذا العالم مرًّا سريعاً ، فلم يعش فيه إلا أربعين عاماً . أنفق جزءاً غير قليل منها فى الطفولة والصبا ، متأثراً بما حوله غير مؤثر فيه ، متلقياً ما ينحدر إليه من أبويه اللذين منحاه الحياة ، وما يقدم إليه أبواه أثناء التربية من ألوان التصور للأشياء ، والتقدير لها ، والحكم عليها ، والوقوف أمامها ، قابلاً حيناً ورافضاً حيناً آخر . متلقياً كذلك ما تقدم إليه بيئته الخاصة التى تحيط به وبأسرته فى مدينة براج ، فى أواخر القرن الماضى ، من ألوان الحضارة وفنون الحياة التى كانت الطبقة الوسطى تحياها فى ذلك الوقت .

ثم أنفق بعض هذا الأمد طالباً فى المدارس الثانوية ثم فى الجامعة ، مندفعاً بميله الأول إلى العلم ، ثم متحولا عن العلم التجريبى إلى الفقه والقانون ، حتى إذا أتم دراسته التمس عملا يكسب منه القوت ، ليظفر بشئ من الحياة المستقلة ، فوجد هذا العمل فى شركة من شركات التأمين . وهو فى أثناء ذلك يتكلف أسفاراً قصيرة فى وطنه وفى ألمانيا وسويسرا ، وإيطاليا وفرنسا . ثم لا يكاد القرن العشرين يتقدم قليلا ، حتى يقضى عليه الموت سنة ١٩٢٤ ، وقد ولد سنة ١٨٨٣ .

فحياته العاملة الظاهرة كما ترى قصيرة جدًّا ، بسيطة جدًّا ، ليس فيها عوج ولا التواء ، وليس فيها تكلف ولا تعقيد . ومع ذلك فلم يعرف التاريخ الأدبى كثيراً من الأدباء تعقدت حياتهم النفسية ، والتوت بهم طرق الاحساس والشعور والتفكير ، كهذا الأديب والذين يدرسون حياته النفسية . هذه فى آثاره الكثيرة ، يردون تعقيدها إلى طائفة من المؤثرات ، قريبة فى نفسها ، ولكنها

بعيدة أشد البعد فيما نشأ عنها من ضروب الشعور والتفكير . فقد كان أديبنا من أسرة يهودية تعمل فى التجارة ، متأثرة أشد التأثر ، وأيسره فى الوقت نفسه، بالتقاليد اليهودية المتوارثة ، فى شرق أوربا ووسطها ؛ فهى محافظة أشد المحافظة على هذه التقاليد السطحية التى يحافظ عليها اليهود . وهى فى الوقت نفسه متهاونة أشد التهاون فى حقائق الدين ودقائقه . ترى أنها قد أدت الواجب على وجهه إذا اختلفت إلى المعبد فى أوقات معلومة ، فسمعت ما يسمع الناس ، وقالت ما يقولون ، وأتت من الحركات والأعمال ما يأتون ، دون أن يتجاوز شئ من هذا كله أطراف اللسان وأعضاء الجسم ، إلى دخائل النفوس وأعماق القلوب فدينها ظاهر من الأمر ، كدين غيرها من عامة النـاس ، صور أشكال لا تمس الضمير ، ولا تؤثر فى السيرة اليومية ، ولا توجه الحيـاة الداخلية والخارجية إلى وجه دون وجه ، وإنما الحيـاة الداخلية والخارجية موجهتان دائماً بما وجه حياة الناس ، على اختلاف أديانهم وعقائدهم ، من هـذه الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، التى تدفع الناس إلى العناية بمنافعهم القريبة العاجلة ، أكثر من العناية بحقائق الدين ودقائقه ، وبتعمق الحيـاة وما يكون فيهـا من الأحداث ، وما يمكن أن يكون لهـا من الأغراض العليـا والغايات البعيدة . ولذلك لم يلبث أديبنا أن ضاق بهذه الحياة الدينية الظاهرة المتكلفة ، التى تقوم على النفاق أكثر مما تقوم على الايمان . فجحد دين الأسرة والشعب اليهودى أولا ، ثم جحد الدين نفسه بحقائقه ودقائقه بعد ذلك ، وأقام حائراً لا يستطيع أن يعود إلى دين آبائه ؛ لأن عقله لا يطمئن إلى هذا الدين ، ولا يستطيع أن يستغنى عن حيـاة دينية صادقة تعمر القلب وتملأ الضمير ثقـة واطمئناناً . فهو ينكر من جهة أشد الانـكار ، ويسعى من جهة أخرى أشد السعى ، إلى أن يجد ما يؤمن به قلبه ، وترتاح نفسه إليه .

وهـذه المحنة القاسية التى امتحن بهـا فى إيمانه ، قد نشأت عنها محنة أخرى ليست أقل منهـا قسوة وعنفاً ، وليست أيسر منهـا تأثيراً فى حياته الداخلية ؛ فقد امتحن أديبنا فى الصلة بينه وبين أبيه . أنـكر سيرة أبيه فى الدين ؛ لأنه لم ير فيها صدقاً ولا إخلاصاً . ثم أنـكر سيرة أبيه فى الأسرة ؛ لأنه رآها تقوم على التسلط والاستطالة وعلى القوة والقهر أكثر مما تقوم على الرحمة والحب وعلى البر والعطف والحنان . ثم أنـكر سيرة أبيه فى تدبير منافعه التجارية

المختلفة ؛ لأنه رآها تقوم على الحرص والأثرة وانتهاز الفرص ، أكثر مما تقوم على القصد والعدل والانصاف . فنظر إلى أبيه على أنه طاغية مخيف ، ولم يستطع أن ينظر إليه إلا على هذا النحو ، وأقام الصلة بينه وبين أبيه على الاشفاق والخوف ، ثم على المصانعة والمداراة ، ولم يستطع أن يقيمها على شئ آخر من هذا التعاطف الرقيق الرفيق الذى يكون بين الأبناء والآباء .

فهو إذن منكر للدين وسلطانه ، وهو فى الوقت نفسه ضيق بالأبوة وسلطانها . وهو لا يلبث أن يوحد بين هذين النوعين اللذين ينكرهما من السلطان ، سلطان الدين وسلطان الأبوة ، فيقف منهما موقفاً قوامه القلق والفزع والهول . وهو يشقى بهذا الموقف حياته كلها ، قد حاول ما وسعته المحاولة ، أن يخلص من الشك إلى الثقة ، ومن الخوف إلى الأمن ، فلم يجد إلى ذلك سبيلا .

ثم تنشأ من محنته فى الدين وفى الصلة بينه وبين أسرته ، محنة أخرى ليست أقل منهما قسوة ولا تعقيداً ، وهى المحنة التى تمس حقه فى أن يحيا حياة الآباء ، فيتخذ الزوج و يمنح الوجود للولد ، كما اتخذ أبوه الزوج وكما منحه ومنح إخوته الوجود . فهو يشعر بأنه مدين لأبيه بوجوده ، لا يشك فى ذلك ، ولايشك فى أن الدين يجب أن يؤدى ، ولايشك فى أن الوسيلة الوحيدة إلى أن يؤدى الابن ما عليه لأبيه من الدين إنما أن يمنح الوجود الذى تلقاه من أبيه لأبناء يتلقونه منه و يمنحونه بعد ذلك لأبنائهم . فاذا اتخذ الزوج ورزق الولد ، فليس عليه لأبيه دين . هو يؤمن بهذا كله ، ولكنه فى الوقت نفسه يقف من هذه القضية موقفاً يشبه موقف أبى العلاء فى البيت المشهور :

هذا جناه أبى علىّ وما جنيتُ على أحد

ذلك أنه يرى الحياة التى تلقاها من أبيه شرًّا لا خيراً ، لأنها لم تمنحه رضا القلب ، ولا هدوء النفس ، ولا راحة الضمير ، ولا هذه الثقة الباسمة التى تنشأ عنها كل هذه الخصال . فهو مدين لأبيه بالوجود ، ما فى ذلك شك . وليس أحب إليه من أن يؤدى ما عليه من الدين ، ولكن بشرط ألا يكون أداء الدين مصدراً للشر ، ولا سبيلا إلى الأذى ، وبشرط ألا يجنى على أبنائه ، ما جنى عليه أبوه من هذا القلق المتصل ، والخوف الملح ، واليأس المقيم ، و إلى جانب هذه المحن الثلاث ، فى الدين والأبوة والزواج ، تضاف محنة أخرى

لعلها أن تكون هى التى أسبغت لونها القاتم على محنه الأخرى كلها ، وهى محنة المرض ، المرض الذى لا يظهر فجاءة ولا يثقل على المريض ثقلا طويلا ، وإنما يداوره ويناوره ، ويسعى إليه سعياً خفيًّا بطيئاً متلكئا ، يدنو منه لينأى عنه ، ويلم به ليفارقه ، ويقفه من الحياة موقفاً غريباً لا هو باليأس الخالص ولا هو بالأمل الخالص ، وإنما هو شئ بين ذلك ، يملأ القلب حسرة ولوعة ، ويملأ النفس شقاء وعناء ؛ حتى إذا استبان أنه قد نهك فريسته وكلفها من الجهد أقصاه ولم يبق فيها قدرة على المقاومة ، أنشب فيها أظفاره ، وصب عليها آلاماً ثقالا وأهوالا طوالا ، ثم قضى عليها الموت فى ساعة من ساعات الليل أو من ساعات النهار .

فأنت ترى أن أديبنا عليل قد ألحت عليه العلة ، وأن علته معقدة أشد التعقيد ، بعضها يتصل بالدين . وقد عجز أطباء اللاهوت عن علاجه ؛ فهو قد قرأ التوراة وتعمق دراسة التلمود ، ودرس المسيحية ودرس فلسفة الفلاسفة المؤمنين والملحدين ، فلم يجد لعلته الدينية هذه طباً ولا شفاء . وبعضها يتصل بالوراثة والصلة بين الابن وأبويه . فهو إلى علم النفس التحليلى أقرب منه إلى أى شئ آخر . وقد عجز علم النفس التحليلى عن علاجه ، فلم يستطع أحد ولم يستطع شئ أن يصلح رأيه فى أبيه ، أو يصلح العلاقة بينه وبين أبيه ، وإنما ظل طول حياته واقفاً من أبيه موقف الطفل الخائف المروع الذى يرى تفوق أبيه وتسلطه ، ويحاول أن يخلص من سلطانه فلا يستطيع ، ويحاول أن يحبه وأن يظفر منه بالحب فلا يستطيع . وبعضها يتصل برأيه فى الحياة ، وموقفه منها ، ورغبته فى أن يحياها كما تعود الناس أن يحيوها ، وخوفه مع ذلك من العجز عن احتمال أثقالها ، وخوفه بنوع خاص من أن يحمِّل هذه الأثقال قوماً آخرين ، أبرياء لم يجنوا ما يستحقون من أجله احتمال الأثقال ، وهم الزوج والولد . وبعض علته جسمى يتصل بالفسيولوجيا ، وقد عجز الأطباء عن علاجه ؛ فمازال السل يداوره ويناوئه حتى قضى عليه آخر الأمر . فاذا قدرنا هذه المحن كلها ، وقدرنا أنها لم تصب على رجل عادى ، وإنما صُبّت على رجل ممتاز له من القلوب أذكاها ، ومن العقول أصفاها ، ومن الأذواق أرقها ، ومن المشاعر أدقها ، ومن الحس أشده إرهافاً ، وله بعد ذلك إرادة حازمة صارمة ، وقدرة مدهشة على الملاحظة ، وعلى ملاحظة نفسه أكثر من ملاحظة غيره من الناس ، وبراعة

خارقة للعادة فى أن يجعل نفسه موضوعاً للدرس والبحث والتحليل ، وأن يكون هو الدارس الباحث المحلل ، وأن يسجل ما ينتهى إليه درسه وبحثه وتحليله ، فى آثار مكتوبة طوال وقصار — أقول إذا قدرنا هذا كله ، لم نر غريباً أن يكون أديبنا هذا بهذه المنزلة التى شغلت الناس ، ويظهر أنها ستشغلهم وقتاً طويلا .

وربما كان أخص ما يمتاز به فرانز كفكا أشد الامتياز ، أنه كان أصدق الناس لهجة ، وأشدهم إخلاصاً ، وأبغضهم للتكلف ، وأبعدهم عن التصنع ، وأعظمهم حظا من التواضع الذى يأتى من معرفة الانسان قدر نفسه بعد الدرس المتصل والاستقصاء العميق . وهو من أجل ذلك كان يكتب لنفسه ؛ أكثر مما كان يكتب للناس ؛ فقد كان من أشد الناس زهداً فى نشر آثاره ، وأعظمهم إخفاءً لها وضنّا لا لأنه كان يكبرها أو يغالى بها ، بل لأنه كان يزدريها كما كان يزدرى نفسه . وقد نشر قليل من آثاره أثناء حياته فى المجلات ، ولم ينشر فى أكثر الاحيان إلا على كره منه . كان صديقه ماكس برود يختطف هذه الآثار اختطافاً ، ويدفعه إلى نشرها دفعاً . فلما أدركه الموت وقرئت وصيته ، تبين أنه قد اختار صديقه هذا ، (ماكس برود) وصيّا ، وأنه يطلب إليه أن يحرق آثاره كلها . وألا ينشر منها فى الناس شيئاً . وقد وقف الوصى من هذه الوصية موقف الحيرة التى لم تتصل ، فشك غير طويل ثم خالف عن أمر صديقه ، وأخذ فى نشر آثاره ملتمساً لذلك ما شاء من العلل والمعاذير . وقد مات فرانز كفكا سنة ١٩٢٤ ، ولم تمض على وفاته أعوام حتى كانت آثاره بعيدة الانتشار فى ألمانيا ، بل فى أوربا الوسطى كلها ، ثم تجاوزت حدود أوربا الوسطى إلى أوربا الغربية ، فتلقاها الفرنسيون لقاء غريباً .

وربما كان من طرائف الأشياء ، أن آثار فرانز كفكا ، كانت تستقبل أحسن استقبال فى غرب أوربا ؛ وينكل بها أبشع تنكيل فى أوربا الوسطى ؛ فكان الفرنسيون والانجليز يترجمونها ويفسرونها ، على حين كان الألمانيون الهتلريون يحرقونها جهرة فى الميادين .

وقد يكون من الخير أن نلاحظ ، قبل أن نتحدث عن آثار فرانز كفكا ، أن ظروف الحياة الأوربية كانت ملائمة كل الملاءمة لظهور هذه الآثار . فقد بدأ كفكا يشعر ويفكر قبيل الحرب العالمية الأولى ، فكان كل شئ من حوله يؤذن بالكارثة ويدفع إلى البؤس واليأس . ثم مضى فى تفكيره وإنتاجه أثناء الحرب العالمية الأولى ، فكان فى تلاحق الكوارث والفواجع من حوله ما يزيد إمعانه

فى البؤس واليأس . ثم نظر ذات يوم فاذا كل شئ من حوله ينهار : فامبراطورية النمسا والمجر تتفرق أيدى سبا ، والامبراطورية الألمانية العظيمة تلقى السلاح وتركع متلقية شروط المنتصر ، فلا يزيده هذا كله إلا إيغالا فى البؤس واليأس . ثم يمضى فى تفكيره و إنتاجه . وقد تم الصلح ، ولم تلبث الانسانية بعد إمضائه أن استشعرت خيبة الأمل وكذب الظن ، فلم يتحقق العدل الذى قيل إن الحرب أثيرت لتحقيقه ، و إنما عادت الانسانية بعد الحرب ، كما كانت قبل الحرب ، بائسة يائسة ، متخبطة لا تدرى إلى أى وجه تتجه ، ولا فى أى طريق تسير .

حياة خاصة كلها نكر وشر ، وحياة عامة كلها بؤس ويأس ؛ فأى غرابة فى ان يكون الأدب الذى ينتجه فرانز كفكا فى هذه الظروف كلها هو الأدب الأسود بأدق معانى هذه الكلمة وأشدها سواداً وحلوكا . وواضح جدًّا أن هذا القلب الذكى ذا الحس المرهف والشعور الدقيق ، لم يصور الحياة كما رآها من حوله فحسب ، و إنما صور هذه الحياة، وصور آثارها القريبة ؛ فكان فى أدبه هذا المظلم ، شئ من التنبؤ المزعج ، بما ستتعرض له الانسانية من الكوارث والأخطار . وكان من أجل هذا بغيضاً إلى الذين كانوا يريدون أن يعيدوا الحرب جذعة ، مثيراً للشوق وحب الاستطلاع عند الذين كانوا يخافون الحرب ويشفقون من أن يدفعوا إليها كارهين . ومن أجل هذا كانت آثار فرانز كفكا فى وقت واحد ، تترجم فى باريس ، وتحرق فى برلين . والآثار الأدبية التى تركها فرانز كفكا كثيرة منوعة ، لم تنشر كلها بعد ، و إنما نشر أكثرها . وأظهر ما تمتاز به من الخصائص أنها تصور القلق الذى يوشك أن يبلغ اليأس ، وتصور الغموض الذى يضطر القارئ إلى حيرة لا تنقضى ، ويدفعه إلى كثير من المذاهب فى فهم هذه الآثار وتأويلها ، وحل ما تشتمل عليه من الألغاز والرموز . فقد كان فرانز كفكا أشد الناس صراحة وأعظمهم إخلاصاً فى حياته اليومية ، وفيما كان ينشأ من الصلات بينه وبين أصدقائه وذوى معرفته ، وفيما كان يسجل لنفسه من الخواطر والمذكرات فى يومياته المتصلة ولكنه بعد هذا كله كان أبعد الناس عن الصراحة وأناهم عن الوضوح ، فيما كان ينتج من القصص الطوال والقصار .

وليس المهم أن نلتمس العلل المختلفة لهذا الغموض ؛ فالأدب الرمزى

فى نفسه ظاهرة سائغة طبيعية، ليست فى حاجة إلى أن تلتمس لها العلل والمعاذير، وإنما هى أثر من آثار بعض الأمزجة، ولون من ألوان الفن، فى كثير من الآداب القديمة والحديثة، على اختلاف البيئات والعصور. فقل بعد ذلك إن فرانز كفكا قد أمعن فى درس التلمود، وتعمق ما فى آداب إسرائيل من الأسرار والألغاز، وتأثر بهذا كله فى فنه؛ فهذا حق من غير شك، ولكنه ليس كل شىء، فما أكثر الأدباء الرمزيين الذين يستمدون رمزيتهم من مزاجهم الفنى وحده، لا من دراسة التلمود، ولا من تعمق الأسرار والألغاز فى أدب إسرائيل!.

والغموض فى أدب فرانز كفكا من نوع خاص. فالرجل المثقف حين يقرأ هذا الأثر أو ذاك من آثاره، لا يشعر بالغموض لأول وهلة. وإنما يخيل إليه أنه يقرأ شيئاً يسيراً سائغاً قريب الفهم، لا يتكلف فى تذوقه جهداً ولا عناء. ولكنه لا يلبث أن يحس شيئاً من الغرابة، أو قل شيئاً من الغربة فى هذا الذى يقرأ؛ لأنه يرى أشياء مسرفة فى البساطة مألوفة أشد الالف، ليس من شأنها أن ترتفع إلى حيث تكون أدباً ينتجه الفن الرفيع، وإنما هى من هذه الأشياء التى يراها الانسان فى كل يوم وفى كل مكان، وفى الطبقات الساذجة العادية من الناس؛ فيسأل القارئ نفسه، أو قل يقنع القارئ نفسه، بأن الكاتب لم يرد إلى هذه البسائط، وإنما اتخذها وسائل قريبة لغايات بعيدة. وهنا يدفع القارئ إلى التماس هذه الغايات، فيذهب فى التماسها كل مذهب، ويسلك إلى استكشافها كل سبيل. وقد يصل إلى شىء يحسبه الغاية التى قصد إليها الكاتب، ولكنه لا يكاد يفكر ويروّى، حتى يشك فيما انتهى إليه، وحتى يسأل نفسه ألا يمكن أن يكون الكاتب قد أراد إلى غاية أخرى أو إلى غايات أُخر، غير هذه التى انتهى هو إليها؟ وكذلك تستطيع أن تقول إن قارئ فرانز كفكا، معلق دائماً، يخيل إليه أنه يفهم ما يقرأ، وهو يفهم معانيه القريبة من غير شك، ولكنه يشعر شعوراً قويًّا بأن هذا الذى يفهمه ليس هو الذى قصد الكاتب إليه.

وإلى جانب هذا الشعور بالتعليق المتصل يجد القارئ أثناء قراءته حرجاً مرهقاً وضيقاً شديداً لأنه يرى نفسه فى بيئة مهما تكن قريبة فى ظاهر الأمر فهى غريبة فى حقائق الأشياء. وهو من أجل ذلك لا يحس يسراً؛ ولا سهولة ولا سعة، وإنما هو يشعر بضيق الصدر وقلق النفس وهذا الجهد العنيف

الذى يفرض على العقل . فقارئ فرانز كفكا فى الدنيا وليس فيها ، هو فى عالم غريب ، لا هو بالواقعى ولا هو بالوهمى ، وإنما هو شئ بين الواقع والوهم يملأ النفس حيرة وشوقاً وسأماً وإلحاحاً فى وقت واحد .

تأخذ فى قراءة القصة فيفجؤك قربها وتدهشك غرابتها ، وأنت لا تكاد تطمئن إلى هذا القرب اليسير المألوف ، ولو قد اطمأننت إليه لتركت القصة وأعرضت عن الكتاب ، ورأيت أنك لست فى حاجة إلى تكلف الجهد لتفهم ما لا يحتاج إلى فهم . وأنت لا تطمئن إلى هذه الغرابة ، ولو قد اطمأننت إليها لتركت القصة وأعرضت عن الكتاب يائسا من القدرة على الفهم ، ضنينا بوقتك وجهدك على إنفاقهما فيما ليس إلى فهمه سبيل . فأنت إذن معلق بين الوضوح الذى يملأ نفسك سأماً ، وبين الغموض الذى يملأ نفسك شوقاً . وما تزال فى هذه الحال المعلقة منذ تبدأ الكتاب أو القصة إلى أن تفرغ منهما .

وأغرب من ذلك أنك حين تفرغ من القراءة ، لا تنتهى إلى ما يحسن الاطمئنان إليه والسكوت عليه ، وإنما أنت معلق بعد الفراغ من القراءة ، كما كنت معلقاً فى أولها وفى وسطها . ذلك لأن الكاتب لا يتم قصته ، وإنما يقتضبها اقتضاباً ، وينتهى بها إلى شئ لا يصلح أن يكون غاية لقصة أو كتاب . ومصدر ذلك فى أكبر الظن أن الكاتب نفسه لا يعرف لنفسه غاية يقف عندها أو أمداً ينتهى إليه ، وإنما هو يمضى بقصته فى طريقها ما وسعه المضى ، حتى إذا أدركه الاعياء أو انتهى إلى بعض الطريق ، وجد أمامه سدا منيعاً لا يستطيع أن يتجاوزه ، فوقف حيث ينتهى به السعى ، واستأنف السير فى طريق أخرى ، وانتهى من هذه الطريق الأخرى إلى مثل ما انتهى إليه فى الطريق الأولى ، فوقف ثم استأنف السير فى طريق ثالثة . وما يزال كذلك يبدأ الطرق ولكنه لا ينتهى منها إلى غاية ؛ لأنه هو فيما بينه وبين نفسه يائس من الغاية أو كاليائس منها .

فخذ مثلا قصصه الثلاث الكبرى ، وهى القضية ، والقصر ، وأمريكا . فستراه يبدأ قصته الأولى بدءاً قريباً كل القرب ، غريباً كل الغرابة ، فيفرض عليك أن تصحبه فى هذه الطريق التى يريد أن يمضى فيها : فهذا رجل لم تتقدم به السن ، ولكنه قد جاوز الشباب شيئاً ، يفيق من نومه ذات صباح ، وينتظر أن تحمل إليه الخادم طعام الافطار . ولكن الخادم لا تحمل إليه شيئاً ، بل لا تدخل

عليه ، وإنما يدخل عليه رجلان يزعمان له أنهما يمثلان الشرطة ، وأنهما قد أقبلا للقبض عليه . وهما يدعوانه فى شئ من العنف إلى أن ينهض من سريره ويدخل فى ثيابه ، ويلحق بهما فى غرفة مجاورة ليبدآ معه التحقيق . وهو دهش لهذا الحادث منكر له ، ضيق بهذين الشرطيين ، ولكنه مع ذلك مضطر إلى أن يطيع . فاذا لحق بالشرطيين فى الغرفة المجاورة وجدهما قد أكلا طعامه غير حافلين به ولا آبهين له . ثم تُلقى عليه أسئلة سخيفة لا خطر لها ، ثم ترد إليه حريته ويقال له : إنه يستطيع أن يذهب إلى حيث يشاء ، وأن يمارس عمله فى المصرف الذى يعمل فيه ، ولكن عليه أن يعلم أنه متهم ، وأنه سيدعى ذات يوم للمثول بين يدى القضاة ليسألوه عن التهمة الموجهة إليه . والشرطيان ينصرفان عنه ، ويثوب هو إلى نفسه ، حائراً أول الأمر ، ثم ساخطاً ، ثم منكراً لهذا التصرف ، ولكنه قلق يريد أن يتبين جلية هذه القصة . وهو يسأل نفسه فيطيل السؤال دون أن يظفر بجواب ، وهو يقبل على عمله كما تعود أن يفعل ، ولكن قلقاً قد استقر فى نفسه ، إن أمكن أن يستقر القلق فى النفوس . والشئ الذى لا شك فيه أنه يسعى قليلا قليلا إلى الثقة بأنه متهم ، وبأن من الحق عليه ومن الحق له أن يدافع عن نفسه . وفى ذات يوم يدعى إلى التليفون ، فيقال له : إن عليه أن يحضر إلى المحكمة يوم كذا ، ويدل على مكان هذه المحكمة ، وهو مكان غريب لا صلة بينه وبين الأماكن المعروفة للمحاكم ودور الشرطة . فاذا كان اليوم الموعود ذهب إلى حيث طُلب إليه أن يذهب ، فرأى عجباً أى عجب : رأى داراً كبيرة قذرة متداعية ، تكثر فيها السلالم والدهاليز ، ولا يهتدى الناس فيها إلى طريقهم إلا بعد جهد شديد ، وهى على ذلك دار مسكونة كغيرها من الدور التى يسكنها الفقراء وأوساط الناس . وما يزال يسأل ويبحث ويستقصى ، حتى يصل إلى غرفة المحكمة ، فيرى جمهوراً من الناس غريباً ، ويرى جماعة من الموظفين قد جلسوا مجلس القضاء ، فيقول لهم ويسمع منهم ، وهو لا يفهم عنهم ، كما أنهم لا يفهمون عنه ، وكما أن النظارة لا يفهمون عنه ولا عن هؤلاء الموظفين . ثم ينصرف وقد استقر فى نفسه أنه متهم وإن لم يعرف طبيعة التهمة . وقد استقر فى نفسه أن من الحق أن يبرئ نفسه أمام القضاة . ولكنه لا يعرف من هؤلاء القضاة ، ولا أين يكونون ، ولا كيف يصل إليهم ؛ لأنه لم ير فى المحكمة إلا جماعة من صغار الموظفين . وهو ينفق

حياته فى محاولات شاقة مرهقة ليعرف تهمته وليدافع عن نفسه ، فيتصل بكبار المحامين وصغارهم ، وبقوم آخرين ليسوا من المحاماة فى شئ . وأولئك وهؤلاء يعدونه بالدفاع عنه وتبرئته إن وجدوا إلى تبرئته سبيلا ، ولكن أحدا منهم لا يبين له طبيعة تهمته ، ولا يدله على مكان القضاة ، ولا يلمح له بطريقة الدفاع عنه ، وإنما هو أمل يتبعه يأس ، ويأس يتبعه أمل ، وحيرة مهلكة للنفوس . وفى ذات مساء يقبل عليه رجلان فى زى رسمى دقيق ، يدعوانه فيستجيب لها ، وهو لا يعرف لماذا أقبلا عليه وإلام يدعوانه . وقد خطر له — لا أدرى لماذا — أنهما مغنيان ، وهو يخرج معهما على كل حال ، فيأخذه كل منهما من إحدى ذراعيه ويمضيان به لا يلويان على شئ . حتى إذا تجاوزا المدينة دفعاه إلى مقطع من مقاطع الأحجار ، ثم طرحاه على الأرض ، ثم أقبلا عليه فذبحاه ، وهو يرى ذلك لا يقاوم ولا يحاول المقاومة ، حتى إذا أحس وقع الخنجر وعرف أنه الموت قال هذه الجملة التى تنتهى بها القصة : « كما يموت الكلب . »

ولم أعرض عليك شيئاً من تفصيل القصة ، وإنما عرضت عليك خلاصتها فى كثير جدا من الايجاز . ولو قد عرضت عليك تفصيلها لتنقلت بك من شئ سخيف إلى شئ سخيف ، ولتنقلت بك فى الوقت نفسه من لغز غامض إلى لغز غامض ومن رمز خفى إلى رمز أشد منه خفاء . وبطل هذه القصة رجل لا نعرف من اسمه إلا حرفاً واحداً هو « الكاف » التى هى الحرف الأول من اسم الكاتب نفسه . فاذا سألت عما أراد إليه الكاتب بقصته هذه الرائعة ، فأكبر الظن أنه إنما أراد إلى أن يصور الانسان الخاطئ الذى لا يشك فى خطيئته ، ولكنه لا يعرف طبيعة هذه الخطيئة ، ولا يعرف كيف دفع إليها ولا كيف تورط فيها ، ولا يعرف كيف يخلص منها ، ولا أمام من يستطيع أن يحاول الدفاع عن نفسه . فهو موقن بأنه خاطئ ، وموقن بأن هناك قاضياً يستطيع أن يعاقب على الخطيئة كما يستطيع أن يبرئ منها . وموقن أن هناك قانوناً ينظم تبعة الخاطئين وما يترتب عليها من عقاب . ولكنه يجهل طبيعة الخطيئة ، ويجهل طبيعة القانون ، ولا يعرف المكان الذى استقر فيه القاضى ، ولا يجد الوسيلة التى توصله إليه . وبعبارة واضحة إنما أراد الكاتب إلى أن يصور الانسان البائس اليائس الذى أجبر على الحياة دون أن يريدها ، وأجبر على الموت دون أن يريده ، وخيل إليه أنه حر بين ذلك ، وانقطعت الصلة الدقيقة الأمينة بينه وبين الإله الذى

يدخله فى الحياة ويخرجه منها ، ويحمّله ما يحمله من الأوزار والتبعات ، لا يؤامره فى شئ من ذلك ولا يشاوره ، ولا يتيح له حتى أن يلقاه ليستعفيه من التبعة ، ويطلب إليه الصفح والمغفرة .

فكاتبنا إذن لا يجحد الاله ، ولكنه لا يعرفه ولا يعرف السبيل إليه . وهو مشوق أشد الشوق إلى أن يعرفه ويعرف السبيل إليه ، وهو يبذل فى سبيل ذلك الجهد كل الجهد دون أن يظفر بشئ . أترى إلى أننا لسنا بعيدين من حيرة أبى العلاء على اختلاف ما بين الرجلين فى الزمان والمكان والبيئة والثقافة والوراثة !

فاذا تركت هذه القصة ، وعمدت إلى قصة أخرى وهى القصر، انتهيت إلى نفس النتيجة المؤسة التى انتهيت إليها فى القصة الأولى . ولكن الكاتب يسلك بك إلى اليأس طريقاً أخرى ؛ فبطل هذه القصة الثانية رجل لا نعرف من اسمه إلا حرفاً واحداً هو « الكاف » التى هى الحرف الأول من اسم الكاتب . وهو قد أقبل من مكان مجهول إلى قرية مجهولة ، يشرف عليها قصر ضخم فخم ، وهو يعتقد ويقول للناس إنه قد دعى إلى هذه القرية بأمر من القصر ليشغل فيها منصب المساح . وهو يريد أن يتصل بالموظف المختص فى القصر ليتسلم عمله ، ولكنه لا يجد سبيلا إلى هذا الاتصال . يحاول أن يتصل من طريق التليفون فلا يسمع إلا أصواتاً غامضة لا تدل على شئ . ويحاول أن يتصل بالعمدة ، فلا يجد عنده علماً بهذا المنصب ولا باختياره له . ويحاول أن يسعى إلى القصر فلا يجد سبيلا إليه ، ويحاول أن يتصل بالقصر بوساطة السعاة الذين يسعون بين سادة القصر وبين القرية ، فلا يظفر بشئ . وإنما هو الخداع يتبعه الخداع ، والحيرة تتبعها الحيرة ، والعناء المتصل والشقاء المقيم . وتنتهى القصة إلى غير غاية كما ترى : أنفق صاحبنا حياته فى القرية ، لاهو بالموظف فيتسلم عمله ويعيش مع أهل القرية كما يعيشون ، ولا هو باليائس فيعود من حيث جاء ، وإنما هو معلق بين اليأس والرجاء حتى يدركه الموت .

ولم أعرض عليك تفصيل هذه القصة ، كما أنى لم أعرض عليك تفصيل القصة الأولى ، وإنما اكتفيت هنا كما اكتفيت هناك بهذه الخلاصة اليسيرة التى تصور لك ما أراد إليه الكاتب من تصوير الانسان غريباً معلقاً لا يدرى من أين جاء ، ولا إلى أين يمضى ، وإنما يخيل إليه أنه قد دعى ، وأن له عملا ينبغى أن

يؤديه ، ثم يحال بينه وبين هذا العمل ، وتضيع حياته فى هذه الجهود المجدبة التى لا تغنى عن أصحابها شيئاً . ولو قد استطاع أن يصل إلى القصر ويتحدث إلى من فيه ، لعرف جلية الأمر . ولكن الأسباب متقطعة بينه وبين القصر، فهو لايستطيع أن يصل إليه . القصر موجود ، مافى ذلك شك . يسكنه أهله وسادته، ما فى ذلك شك . وهو يدبر أمر القرية والمقيمين فيها والطارئين عليها ، ما فى ذلك شك ، ولكنه يدبر هذا الأمر من بعيد ، ولا يتيح للمقيمين ولا للطارئين أن يتصلوا به أو يراجعوه فى قليل أو كثير . فموقف الكاتب هنا كموقفه هناك، لاينكر وجود القوة القاهرة المدبرة ، ولكنه لايعرف كيف يتصل بها ، ليتبين جلية أمره ، وليعرف لماذا يجب عليه أن يفعل ، ولماذا يجب عليه أن يترك ، ولماذا يحتمل ما يحتمل من التبعات .

أما القصة الثالثة « أمريكا » فلعلها أن تكون أقل إحراجاً وإرهاقاً من هاتين القصتين ، ولكنها على ذلك لا تخلو من الحرج والضيق والألم ، وهى كذلك لاتنتهى إلى غاية . ويستطيع ماكس برود ، صديق الكاتب ، كما يستطيع غيره من النقاد أن يرى فى هذه القصة شيئاً من أمل ، وأن يظن أنها تدل على أن الكاتب قد ثاب إلى الثقة قبل أن يموت . أما أنا فلا أرى من ذلك شيئاً ، وكل ما فى الأمر أن بطل القصة صبى لا يتجاوز السادسة عشرة من عمره ، فأمره رفيق بعض الشئ ، ولكنه منته إلى مثل ما ينتهى إليه أمر غيره من هذا الغموض الذى لا غاية له . واسم هذا الصبى كامل غير منقوص ، وهو كارل روسمان ، وأوله « الكاف » كما ترى ، وقد سخط عليه أبواه ؛ لأن خادماً أغوته فنفياه من أوربا إلى أمريكا . وفى أمريكا تختلف عليه الأحداث ، فمن نعيم ويسر ، إلى بؤس وعسر ، ومن استقامة ووضوح ، إلى التواء وغموض . ثم ينتهى الأمر به بعد كثير من الخطوب إلى أن يقبل عاملا فى فرقة تمثيلية غامضة أشد الغموض ، وقد وضع مع زملائه فى قطار يذهب به إلى غير غاية معروفة .

فأنت ترى أن المذهب هو هو ، لم يتغير : هذا الصبى عبثت به خادم ، وقسا عليه أبواه فنفياه ، وتلقته أحداث غامضة مبهمة متناقضة مضادة لأخلاقه وآماله . ثم هو يوضع آخر الأمر فى قطار يمضى به إلى مكان مجهول ، ثم نحن لانعلم من أمره بعد ذلك شيئاً . أتراه وصل إلى المدينة التى أرسل إليها أم لم يصل ؟ وما عسى أن يكون عرض له من الأحداث أثناء السفر قبل أن ينتهى القطار

إلى غايته إن كان قد انتهى إليها ؟ أتراه قد قبل حقاً فى هذه الفرقة التمثيلية ؛ فقد كان قبوله الأول مبدئيا ، أريد به إلى التجربة لا إلى الاستقرار . كل هذه أمور مجهولة يخيل إلينا الكاتب أن جهلها ناشئ من أنه لم يتم القصة ! ولكن لمَ لمْ يتم القصة؟ لأنه لم يعرف كيف يتمها . وهو لم يعرف كيف يتمها لأنه لا يعرف كيف تتم قصة الانسان مهما يكن أمره ومهما تكن الظروف التى تحيط به ، ولأنه لا يعرف كيف تتم قصته هو ؛ فهو غير مطمئن إلى أن الموت يختم قصة الانسان ، ولكنه لا يعرف عما يكون بعد الموت شيئاً . وهو غير مطمئن إلى أن هذه الحياة التى نحياها لم يقصد بها إلا إلى هذه الأغراض اليومية التافهة التى نحاول تحقيقها فنحقق أقلها ونعجز عن تحقيق أكثرها . ولكنه لا يعرف عن الأغراض العليا التى يمكن أن تكون الحياة وسيلة إليها شيئاً . محنته الكبرى ومشكلته التى لم يجد لها حلا ، هى أنه لم يستطع أن يستكشف الصلة بين الانسان وبين الالـٰه . وما مصدر العجز عن استكشاف هذه الصلة ؟ إن الانسان يشعر شعورا قويًّا متصلا بوجود الالـٰه ، ويحاول محاولة مستمرة ملحة أن يسمع كلمته ويتلقى أمره ليصدع بهذا الأمر ، فيبرأ من الاثم ، ويخرج من الخطيئة ، ويتخفف من ثقل التهمة التى ألقيت عليه ، فلا يجد إلى ذلك سبيلا . أمصدر ذلك أن الانسان أعجز من أن يرقى إلى الالـٰه ؟ أم مصدر ذلك أن الالـٰه لا يريد ، عن عجز أو عن عمد ، أن يهبط إلى الانسان ؟ أم مصدر ذلك قصور فى الانسان وفى الالـٰه نفسه عن أن يلتقيا ؟ وإذن ففيم التهمة وفيم التبعة وفيم العقاب ؟

هذه هى المشكلات الكبرى التى فرضت على فرانز كفكا منذ امتحن فى إيمانه فجحد دين آبائه ، ولم يستطع أن يهتدى إلى دين غيره يرد إليه هذا الايمان . وهى فيما أعتقد نفس المشكلة التى فرضت على أبى العلاء ، لافرق بين الرجلين إلا هذه القرون العشرة التى أتاحت للمعاصرين ضروباً من العلم وفنوناً من الفلسفة وألواناً من الحرية لم تتح لشيخ المعرة . ومع ذلك فقراءة اللزوميات ، وقراءة الفصول والغايات فى تعمق واستقصاء ، تنتهى بك إلى نفس الموقف الذى تنتهى بك إليه قراءة «القضية» و «القصر» و «أمريكا» . فشيخ المعرة يرى كما يرى فتى مدينة براج أن للعالم خالقاً حكيما ، لا يشك أحد منهما فى ذلك ، ولكنهما لا يفقهان حكمة هذا الخالق ولا يعرفان إلى فقهها سبيلا . وهما من

أجل ذلك يمتنعان عن الشر أو عما يريان أنه الشر ما استطاعا ، ويقبلان على الخير أو على ما يريان أنه الخير ما استطاعا : يكفان أذاهما عن الناس ، ويتجنبان السعى إلى مخالطتهم والاضطراب معهم فيما يضطربون فيه ، ويحرمان على أنفسهما الزواج والنسل ، ويشقيان بقلبين يريدان الايمان ويحاولان الوصول إليه ما أطاقا المحاولة ، وبعقلين يعترفان بما فرض عليهما من الضعف والعجز والقصور . لا يستسلمان إلى اليأس المطلق ، ولكنهما لا يطمئنان إلى الأمل ، وإنما يعيشان فى هذه الدار عيشة معلقة بين الرجاء والقنوط . وهما ينظران إلى العالم من حولها يريدان أن يفهماه ويستكشفا دقائقه وعلله ، فلا يبلغان من ذلك شيئاً . لا يرضيهما موقف العالم المتواضع الذى يستكشف قوانين الكون فيسجلها وينتفع بها وينفع بها الناس ، ولكنهما يريدان أن يعرفا علة هذه القوانين . وبينهما وبين معرفة هذه العلة ، آماد بعيدة لا يستطيعان لها عبوراً وهما من أجل ذلك ينكران العلة الغائية ، ولا يطمئنان إلى ما تعود الناس أن يطمئنوا إليه من أن العالم لم يخلق عبثاً ، ومن أن لكل ما يحدث فى هذا العالم غاية بينة أو غامضة . وليس معنى ذلك أنهما يجحدان حكمة الخالق وما يمكن أن يكون لها من غايات ، ولكن معناه أنهما لا يعرفان هذه الحكمة ، ولا يستطيعان أن يعرفاها ، ولا يقبلان هذه العلل الغائية التى يقبلها الناس ، وإنما يجيزان أشياء كثيرة لا يراها الناس جائزة ولا ممكنة ؛ لأنها تخالف ما ما تواضعوا عليه من العلل والغايات .

فأبو العلاء يرى أن من الممكن أن يشم الانسان بغير أنفه ، ويرى بغير عينيه ، ويذوق بغير لسانه ، ويمشى على غير قدميه ؛ ذلك كله ممكن لأن الذى خلق الانسان على هذا النحو الذى نعرفه ، وصوره فى هذه الصورة التى نألفها ، يستطيع أن يخلقه على نحو آخر ، ويصوره فى صورة أخرى ، ويمنحه مزاجاً آخر ، ويركب حسه فى حيث يشاء من أعضائه .

وفرانز كفكا يحدثنا فى قصة المسخ عن هذا الفتى الذى أفاق من نومه ذات صباح فلم ير نفسه كما رآها قبل أن ينام ، وإنما رأى صورته قد مسخت إلى حشرة قذرة كأبشع ما تكون الحشرات ، وهو على ذلك محتفظ بشئ من عقله وقلبه ، يفكر ويشعر ويحس ، ويميز بين الخير والشر ، ويقدر اللذة والألم ، ويعرف الرضا والسخط ، وهو يرى مكانه بعد المسخ من أهله ومن الناس ، يقدر

قسوة أبيه ، وحنان أمه ، وعطف أخته ؛ ثم ما يزال يلاحظ ازدياد القسوة فى نفس أبيه ، وفتور الحنان فى قلب أمه ، وتناقص العطف فى قلب أخته ، وقد سعى السأم إليهم جميعاً من هذه الحياة المرة البائسة المخزية ، حتى تتمنى الأخت لو تخلصت الأسرة من هذا العبء الثقيل ، ويقرها أبوها فى صراحة ، ولا تجرؤ الأم على أن تقول نعم أو لا . ويبلغ منه هذا كله حتى ينتهى به إلى موت سخيف حقير . وما الذى يمنع أن يمسخ الانسان إلى حشرة قذرة ، أو إلى حيوان جميل ؟ فالذى ركب العقل فى هذه الصورة الانسانية التى نراها ، يستطيع أن يركب العقل فيما شاء من الصور الجميلة والقبيحة ، الحية وغير الحية . ومن يدرى ! لعل الانسان كما هو أن يكون حشرة بشعة ، بغيضة بالقياس إلى كائنات أخرى فى هذا العالم لا نعرفها ، أو فى عالم آخر لا نعرفه . بل من يدرى ! لعل الانسان بالقياس إلى نفسه العاقلة التى تفكر وتقدر وتحصى وتستقصى ، وتطمح إلى الحق والخير والجمال — لعل الانسان بالقياس إلى نفسه العاقلة هذه أن يكون حشرة بشعة بغيضة ، حين يرضى حاجاته الطبيعية على اختلافها وتباينها . ففى الانسان كثير من طباع الحشرات ، وفيه فى الوقت نفسه شئ آخر يرفعه عن هذه الطبيعة الدنيئة .

ولو قد خلص الانسان لاحدى هاتين الطبيعتين من دون الأخرى لما أحس شقاء ولا بؤساً ، ولما ذاق طعم الخطيئة ، ولما احتاج إلى أن يبرئ نفسه من هذه التهمة التى لا يعرفها أمام هذا القاضى الذى لا يصل إليه . لو خلص الانسان لطبيعة الحشرة وحدها ، لما فرق بين الخير والشر ، ولا بين الاساءة والاحسان . ولو خلص لطبيعة العقل المجرد لما احتاج إلى أن يفرق بين الخير والشر ؛ لأنه فى حاله تلك لا يعرف إلا الخير ، ولا يطمح إلا إليه . فالمحنة كل المحنة هو هذا الازدواج بين طبيعة الحشرة القذرة ، وطبيعة النفس الممتازة العاقلة .

وهنا أيضاً يلتقى فتى براج فرانز كفكا ، وشيخ المعرة أبو العلاء . والنقمة الكبرى عند أبى العلاء هى الحياة ، والنعمة الكبرى ، هى فقدان الحياة . والذى يجعل النقمة نقمة ، هو هذا العقل الذى ركب فى هذه الصورة الانسانية فرأى الشر من قريب ولم يستطع أن يخلص منه ، ولا أن يتخفف من أثقاله ، ولا أن يتصور حياة إنسانية عاقلة تبرأ من التبعات .

فأنت ترى إلى الآن أن أدب فرانز كفكا يقوم ، أو قل يدور حول هذه الأصول الثلاثة : وهى العجز عن الاتصال بالاله من جهة ، والعجز عن فهم الخطيئة والتبرؤ منها مع الثقة بالتورط فيها من جهة ثانية ، والعجز عن فهم العلل الغائية لما يكون فى العالم من الخطوب والأحداث من جهة ثالثة .

وأنت إذا قرأت هذه الآثار الكثيرة التى نشرت لفرانز كفكا على اختلافها فى الطول والقصر ، وتفاوتها فى الوضوح والغموض ، رأيتها كلها تدور حول هذه الأصول . وقد يلح هذا الأثر أو ذاك فى تجلية هذا الأصل أو ذاك ، ولكن مجموعتها تنتهى بك دائماً إلى هذه الخلاصة القاتمة السلبية ، التى تجعل حياة الانسان كلها عجزاً وقصوراً ويأساً أو شيئاً قريباً جداً من اليأس .

ومن أجل هذا وصف أدب فرانز كفكا كما وصف أدب أبى العلاء بأنه أدب قاتم حالك ، يفل العزائم ويثبط الهمم ، ويصد الانسان عن العمل ويرده عن الأمل ، ويدفعه إلى نشاط عقلى عقيم ، يدور حول نفسه أكثر مما يدور حول غيره ، ولا يحفز الناس إلى طمع أو طموح ، وإنما يمسكهم فى لون من الخوف المنكر ، الذى لا أمن معه ولا اطمئنان . ومن أجل هذا حرقت كتب كفكا فى برلين أثناء الحكم الهتلرى . ومن أجل هذا أيضاً كان اليساريون فى فرنسا يبغضون هذه الكتب أشد البغض ، ويودون لو يحال بينها وبين الشباب ، ويعبرون عن هذا كله بهذه الجملة التى كثر حولها الحديث فى فرنسا أثناء الصيف الماضى : « يجب أن يحرق فرانز كفكا » .

وواضح جداً أن هذه العبارة ليست إلا رمزاً ؛ فتحريق الكتب لا يغنى شيئاً ، ويكفى أن تحرق الكتب ليزداد انتشارها ، وإنما المهم هو أن هذا الأدب القاتم مثبط لهمم الشباب ، فلا ينبغى أن يخلى بينه وبين الشباب .

والقارئ العربى يعرف حق المعرفة أن آثار ابى العلاء تعرضت لمثل هذا الشر الذى تعرضت له آثار فرانز كفكا . ولكن الشرق قد يكون أعظم تجربة من الغرب فى بعض الظروف . وقد رأى الشرق العربى أن آثار أبى العلاء على غلوها فى التشاؤم والحلوكة لم تثبط الهمم ، ولم تفل العزائم ، ولم تصرف عن العمل ، ولم ترد عن الأمل ، وإنما منحت النفوس خصباً وفطنة وذكاء ، وحالت بين العقل الانسانى وبين الغرور الذى يطغيه ويدفعه إلى كبرياء عقيمة مهلكة فاضطرته إلى أن يضع نفسه حيث وضعه الله ، فلا يسرف على نفسه

بالبغي والطغيان ، ولا يزعم لنفسه القدرة على فهم كل شئ والنفوذ إلى دقائق ما فى الكون من أسرار .

وسواء رضى الناس أم سخطوا ، فان التشاؤم ظاهرة طبيعية فى حياة العقل والشعور تبدو فى ظروف معينة ملائمة لها ، كالظروف التى أحاطت بفرانز كفكا ، وما زالت تحيط بكثير من كتاب الأدب المظلم فى أوربا وأمريكا ، وكالظروف التى أحاطت بحياة أبى العلاء منذ عشرة قرون . ولعل القراء يلاحظون أن أدب أبى العلاء قد نشأ فى عصر فساد وفتنة واضطراب ، وأنه كان تنبؤاً بكوارث خطيرة لم تلبث أن صبّت على العالم الاسلامى حين أغار عليه الصليبيون ، وأن أدب فرانز كفكا قد نشأ فى عصر فساد وفتنة واضطراب ، وكان تنبؤاً مروعاً بكوارث خطيرة لم تلبث أن صبّت على العالم باعلان الحرب العالمية الثانية .

وقد احتفل العرب منذ أعوام بالعيد الألفى لأبى العلاء . وأكبر الظن أن الأوربيين لن ينتظروا ألف سنة ليحتفلوا بفرانز كفكا ، ولكنهم سينتهزون أقرب الفرص للاحتفال به . وسيتبينون ، إن لم يكونوا قد أخذوا يتبينون بالفعل أن أدب فرانز كفكا قد كان من الخصب والقوة بحيث أخذ يترك فى الآداب العالمية آثاراً بعيدة عميقة ، ليس إلى محوها من سبيل .

طه حسين

فى أفق السياسة العالمية

الحركة الوطنية فى ليبيا

لما اشتدت الأزمة السياسية فى إيطاليا وأثيوبيا فى سنة ١٩٣٥ ، عرض أحد مندوبى الصحف الأمريكية على مسولينى حلاً يقترح فيه اقتطاع جزء صحراوى من أثيوبيا لايطاليا لعله بذلك ينصرف عن نية إعلان الحرب التى كان يبيتها حينذاك ضد الأحباش . فرمق مسولينى محدثه بنظرة حادة كلها سخرية وزراية وأجابه قائلا : « ومن قال لك إنى من هواة جمع الصحارى فى العالم ؟ » يشير بذلك إلى أنه يكفى إيطاليا أن تكون لها ليبيا وهو الاسم الذى أطلقه الطليان أخيراً على إقليمى برقة وطرابلس جميعاً .

والحقيقة أن هذه البلاد ما هى إلا جزء من الصحراء الكبرى المشهورة التى تمتد فى شمال إفريقية من النيل شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً ، ومن ساحل البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى نهر النيجر جنوباً . ولشدة طغيان الصحراء فى هذه البلاد اقتصر العمران فيها على طائفة من المدن الساحلية الصغيرة القليلة العدد والسكان مما دعا القدماء إلى أن يطلقوا عليها اسم « تريبوليس » أو طرابلس ومعناها المدن الثلاث . ولما كانت الزراعة فى هذه البلاد مقصورة على بعض الواحات وأجزاء من السهول الساحلية التى تجود عليها الرياح الغربية أحياناً بفيض من أمطارها فى فصل الشتاء ، فقد انصرف معظم الأهالى إلى الرعى وتربية الماشية . ولكن عدداً كبيراً من سكان هذه البلاد وما جاورها من شمالى إفريقية قد برموا بحياة الفاقة والشدة والامحال التى تفرضها عليهم طبيعة بلادهم الصحراوية ، فانصرفوا من الصحراء وولوا وجوههم نحو البحر لعلهم واجدون فيه وعلى سواحله رزقاً طيباً ؛ وما لبثوا أن انتظموا فى سلك قراصنة البحر وقطاعه من جبابرة الملاحين الأتراك والروم من أهل جزر بحر إيجه الذين اعتنقوا الاسلام واتخذوا البحر المتوسط مهاداً ومعاشاً ، وسعوا فى مناكبه بالبطش والجبروت ، فكانوا يفرضون سلطانهم على السفن التى تمخر عبابه ، ويقررون على أصحابها من الأوربيين الجزية

والضرائب والعطايا يدفعونها صاغرين ، وإلا سلبت تجارتهم وأسر مواطنوهم ويبعوا بيع الرقيق ودمرت سفنهم تدميراً . وقد ظل سلطان قراصنة البحر قائماً فى شمال إفريقية منذ القرن السادس عشر ، وبلغ أشده وعنفوانه فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . ثم أخذ يتناقص شيئاً بعد شئ حتى احتلت فرنسا بلاد الجزائر فى سنة ١٨٣٠ ومن ثم بدأ أثر القرصنة يزول فى تلك الأرجاء .

كان طورغود القائد البحرى التركى أول من أقام للقراصنة دولة فى طرابلس فى منتصف القرن السادس عشر ؛ فقد خلص البلاد من حكم الفرسان الصليبيين سنة١٥٥٣ وأتبعها الدولة العثمانية ، وجعل يبنى السفن ويسلحها و يحصن القلاع والمرافئ حتى شيد لطرابلس أسطولا بحريًّا من سفن القرصنة أنزل به الرعب فى قلوب الملاحين والتجار من شعوب أوربا . وقد أصبحت التبعية التركية بعد طورغود اسمية وآل أمر حكومة البلاد إلى أيدى رؤساء الجنود من الانكشارية الذين جاءوا مع طورغود وأثروا من الأسلاب والغنائم التى كانوا يستولون عليها. وظل زعماء الانكشارية هؤلاء يتنافسون ويقتتلون فى سبيل الحكم حتى تسلم كبيرهم أحمد القرمنلى حكومة البلاد فجعلها وراثية فى أسرته منذ سنة ١٧١١ معتمداً فى موارده على ما تصيبه الحكومة من أموال القرصنة ، وما كانت تدفعه بعض الحكومات من الرسوم والعطايا لتأمين تجارتها وسفنها التى كانت تمر فى شرق البحر المتوسط ، فكانت حيناً تتفق مع حكام طرابلس — أو الدايات كما كانوا يعرفون — فى معاهدات تعقدها معهم رأساً دون حاجة إلى الرجوع إلى القسطنطينية ، وأحياناً ينشب النزاع بين هؤلاء الحكام والحكومات الأجنبية ، ويشتد التشاحن حتى يصل إلى لون من ألوان الحرب . وقد سيرت الولايات المتحدة ذات حين طائفة من بحارتها لاحتلال ميناء درنة فى أوائل القرن التاسع عشر، وحاصروا طرابلس وضربوها بالمدافع ، وفقد الأمريكان حينذاك إحدى سفنهم الحربية ، وأسر بحارتها . ولما لم يطق الأمريكيون صبراً على الاقامة فى درنة آثروا أن يتفقوا مع الحاكم بعد أن افتدوا أسراهم بمبلغ عظيم من المال. وهكذا كانوا كلما اشتط الحاكم معهم فى تقدير الضريبة التى يدفعونها أرسلوا إليه سفناً من أسطولهم ترغمه على قبول مطالبهم .

وقد امتد سلطان أسرة القرمنلى على الساحل من غربى ميناء طرابلس إلى بنغازى ، وكانت الحكومة العثمانية تحتفظ بها كاحدى قواعدها فى البحر المتوسط .

أما القبائل التى كانت تقيم فى داخل البلاد فلم تتأثر كثيراً بنظام الحكم ، وظلت مشتغلة بمنازعاتها الداخلية فيما بينها على ما عرف عنها إلى الآن . وقد طبعت القراصنة أخلاق أهل البلاد بصفات المخاطرة والجلاد والكفاح مع الأعداء والمنافسين أيّاً كانوا ومهما نالت منهم الخطوب والأحداث .

ولما ضعف سلطان تركيا فى أواخر القرن الثامن عشر ، وتعاقبت انهزاماتها أمام روسيا وأمام ولاتها فى البلقان وفى الشرق ، طمعت الدول الأوربية فى ضم أجزاء من الامبراطورية العثمانية إلى أملاكها ، فكانت حملة بونابرت على مصر ، وأعقبتها بعد عشرين عاماً ثورة الاغريق ، ثم تجاسرت فرنسا وأرسلت حملتها لاحتلال بلاد الجزائر فى سنة ١٨٣٠ . فكانت هذه الأحداث جميعاً سبباً فى كسر شوكة القراصنة فى شرقى البحر المتوسط و إضعاف دايات طرابلس ، كما كانت عاملا قويا فى تنبيه الباب العالى إلى ضرورة التيقظ للاحتفاظ بالبقية الباقية من نفوذ تركيا فى شمالى إفريقية . لذلك انتهز السلطان محمود الثانى فرصة تفاقم النزاع فى طرابلس بين المطالبين بالحكم من أسرة القرمنلى فأرسل فى سنة ١٨٣٥ قوة بحرية مكونة من ٢٢ سفينة وعليها والٍ من قبله لتسلم الحكم فى ولاية طرابلس الغرب ، وقد عرفت بالغرب لتمييزها عن طرابلس الشام وأصبحت تركيا منذ ذلك الوقت تحكم البلاد رأساً . وكأنما أحست بأن هناك دولا أوربية ترنو ببصرها نحو طرابلس وتطمع فى السطو عليها ، فجعلت تستميل الأهالى إليها بانشاء المدارس ، و إصلاح شؤون القبائل والادارة ، وتعيين بعض أهل البلاد فى وظائف الحكومة ، وأخذت تقوى الثغور والحصون وتسلحها ؛ حتى إذا أعلنت فرنسا حمايتها على تونس فى سنة ١٨٨١ ، واحتل الانجليز مصر فى سنة ١٨٨٢ لم يبق شك فى أن إيطاليا تعد عدتها للانقضاض على طرابلس لتحوز نصيبها من الغنيمة وهى البلاد التى بقيت فى شمالى إفريقية بل فى إفريقية كلها عدا الحبشة غير خاضعة لسلطان إحدى دول أوربا .

وكان بسمرك المستشار الألمانى قد ارتضى أن ينصرف اهتمام فرنسا وتفكيرها عن الالزاس واللورين إلى شمالى إفريقية ليوقع الشقاق بينها وبين انجلترا من جهة وبينها وبين إيطاليا التى كانت لها مطامع فى تونس من جهة أخرى . وأرادت فرنسا بدورها أن تشترى سكوت إيطاليا فاتفقت معها سرًّا على أن تكون لها طرابلس مقابل عدم اعتراضها على مشروعات فرنسا فى مراكش . وعلى ذلك

باتت إيطاليا تترقب الفرصة المناسبة للنزول بأرض طرابلس ، وقد سنحت لها الفرصة فى سنة ١٩١١ وكانت تركيا إذ ذاك قد دخلت فى طور جديد من حياتها الدستورية والسياسية على أثر ثورة جمعية الاتحاد والترقى فى سنة ١٩٠٨ و إقصاء السلطان عبد الحميد عن عرشه ، و إثارة الشعور الاسلامى فى العالم أجمع حول الخلافةالعثمانية ضد أوربا . وكان وليم الثانىإمبراطور ألمانيا إذذاك يشجع حكومة تركيا بالمال والرجال ، و بمعونتها على تنفيذ المشروعات الاقتصادية الكبرى وفى مقدمتها مشروع السكة الحديدية من برلين إلى بغداد ، ومد فرع منها إلى الحجاز . فخشيت إيطاليا لو انتظرت أكثر من ذلك أن يقوى مركز تركيا فى طرابلس على الأيام بمساعدة ألمانيا، ويستعصى عليها بعد ذلك إخضاع البلاد التى سمحت الأقدار بأن تكون نصيبها من التركة . لذلك سارعت إيطاليا فى سبتمبر سنة ١٩١١ بارسال إنذار نهائى إلى تركيا بشأن طرابلس ، وأعلنت الحرب بعد ٢٤ ساعة من تسلم الانذار . ولم يجد الأسطول الايطالى صعوبة تذكر فى إخضاع المدن الساحلية : طرابلس وبنغازى ودرنة ، ولكن القوات الايطالية لم تجرؤ على التوغل فى الداخل على حين قد تسرب الضباط الأتراك بين القبائل ووحدوا صفوف الأهالى وقادوهم ضد الطليان كلما لاحت لهم فرصة للهجوم . وقد حاولت إيطاليا فى أول الأمر أن تضغط على الأتراك فتهاجم أسطولهم البحرى فى شرقى البحر المتوسط ، وتخترق المضايق . ولكن النمسا كانت لها بالمرصاد ، فأنذرتها بعدم الاقتراب من مياه البلقان ، فلم يسع إيطاليا سوى إرضاء حليفتيها النمسا وألمانيا ، واكتفت باحتلال جزيرة رودس وسائر الجزر الاثنتى عشرة أو الدوديكانيز . ثم أرادت أن تتعجل بالنصر إرضاء للرأى العام الايطالى من جهة وخوفاً من اكفهرار الجو الدولى من جهة أخرى ، فأرسلت أمداداً برية جديدة إلى طرابلس أحرزت بعض انتصارات على قوات المقاومة . وكانت دول البلقان تستعد لتوحيد كلمتها وجمع قواتها ضد تركيا ، فسارعت هذه باجراء مفاوضات الصلح بينها وبين إيطاليا فى أوشى لوزان بسويسرا فى أكتوبر سنة ١٩١٢ ونزلت تركيا عن سيادتها على طرابلس إلى إيطاليا ووافقت على إخلائها من قواتها ، على أن تبقى لها السيادة الروحية . وقد أراد الأتراك قبل مغادرتهم البلاد رسميا أن يداروا خجلهم أمام الأهالى ، فأعلنوا أنهم رغبة منهم فى إعادة الطمأنينة والسلام إلى البلاد ، قد خولوا الأهالى حق التمتع بالاستقلال الذاتى . وكان هذا التصريح

من أهم العوامل التى ساعدت على تثبيت أقدام المجاهدين فى حركتهم فصمموا على المقاومة إلى النهاية .

وهنا لا بد لنا من الاشارة إلى فضل الحركة السنوسية التى جمعت شمل القبائل ، وجعلت منها وحدة قوية خشيتها إيطاليا وفرنسا وانجلترا ، وهى الدول التى كانت تشترك مصالحها فى الصحراء الكبرى والسودان الغربى .

ولم تكن الحركة السنوسية فى مبدئها إلا طريقة من الطرق الصوفية التى تدعو إلى تقوى الله والعمل الصالح والعودة بالاسلام إلى سابق مجده وقوته ، بالسير على سنن السلف الصالح ، ونبذ الخرافات والبدع المستحدثة . ولكن أهميتها جاءت عن طريقين : الأول مراكز التبشير ونشر الدعاية السنوسية . فقد أنشأ مؤسس الطريقة السيد محمد على السنوسى ، الذى استقر به المقام فى بنغازى سنة ١٨٥١ كثيراً من الزوايا فى مختلف البقاع لتكون مراكز للعبادة والتعليم ، وكان على رأس كل منها شيخ يجمع حوله الأهالى ويقضى بينهم فى منازعاتهم ويرشدهم ويبصرهم بشؤونهم الدينية والدنيوية ، وكان عليه أن يجمع رسوماً محدودة يصرف منها على الزاوية والمدرسة ، وما يعود على الجماعة بالخير وعلى البلاد بالعمران ، كحفر الآبار وزراعة الأشجار ، ويحتفظ بجزء منها ثم يرسل مايفيض بعد ذلك إلى الشيخ الكبير ، فكان نظام السنوسيين فى مراكزهم شبيهاً بحكومة داخل حكومة ، وهو مايطلق عليه الغربيون ***imperium in imperia***.

أما الطريق الثانى الذى زاد أهمية الحركة السنوسية فهو انتشار الطريقة من برقة وتحولها فى عهد السيد المهدى السنوسى الذى خلف أباه فى سنة ١٨٥٩ من حركة دينية صرفة إلى حركة نظامية تكاد تفرض لها سيادة إقليمية فى بعض المناطق . ولا شك فى أن ضعف تركيا فى ذلك الوقت قد ساعد على اشتداد ساعد هذه الطريقة وذيوع سلطانها ، لا فى برقة وطرابلس فحسب بل كذلك فى الصحراء الغربية كلها ، وفى السودان الغربى ووسط أفريقية ، فانتشرت زوايا السنوسيين بين بلاد المغرب الى اسطنبول ودمشق ومصر والهند . ومع ذلك فان السنوسيين لم يعمدوا إلى العنف والقوة فى أول أمرهم وتجنبوا كل أسباب العداء والاصطدام بتركيا خاصة وبغيرها من الدول عامة . فلما بدأت تركيا تتوجس خيفة منهم انتقل السنوسى الكبير من بنغازى إلى واحة الجغبوب جنوبى سيوه الغربى بمقدار ٣٠ ميلا ، وفى سنة ١٨٩٤ ترك المهدى السنوسى جغبوب إلى واحة

الكفرة التى تبعد بمقدار ٧٠٠ ميل جنوبى بنغازى . وكان ارتحال السنوسيين جنوباً وتوغلهم فى أعالى السودان واتفاقهم مع سلطان وادأى شرقى بحيرة تشاد سبباً فى اصطدامهم مع الفرنسيين الذين كانوا يعملون على تثبيت نفوذهم فى تلك الأقاليم . وقد أدى ذلك الصدام إلى استعمال القوة بين الجانبين فى سنة ١٩٠٠ وقد انهزم السنوسيون ومات المهدى السنوسى سنة ١٩٠٢ بعد أن تعلم السنوسيون دروسهم الأولى فى الحرب وأساليب القتال الحديثة . وكأنما كانت هذه المعركة الحربية الأولى تدريباً عملياً للسنوسيين ليستعدوا لمواجهة الأحداث التى كانت تنتظرهم . فما كاد شيخ السنوسيين يعود بهم إلى مقرهم فى الكفرة حتى واجهت البلاد الغزو الطليانى ، فكان السنوسيون روح المقاومة ومضرمى نارها وخاصة فى إقليم برقة الذى كانت لهم فيه السطوة والعصبية . وكان الأتراك حتى بعد عقد معاهدة أوشى لوزان قد تغلغلوا داخل البلاد واعتصموا مع المجاهدين فى مكامنهم وواحاتهم ، فلم تستطع إيطاليا نشر سلطانها إلا على المدن والسواحل . حتى إذا قامت الحرب العالمية الأولى ودخلت إيطاليا الحرب إلى جانب الحلفاء بعد تسعة أشهر من نشوبها ، تشجع الأهالى فى طرابلس وجاءتهم المؤن والذخيرة من تركيا بواسطة الغواصات الألمانية ، فقاموا وأعلنوا استقلالهم وكونوا جمهورية اختاروا على رأسها أحد زعمائهم ، واتخذوا مصراتة عاصمة لهم ، وكذلك أرسلت تركيا أميراً عثمانيا عينته قائداً عامًّا على شمالى إفريقية ، ولم يسع إيطاليا حينذاك إلا سحب قواتها من البلاد مكتفية باحتلال بعض الموانى وأهمها طرابلس وحمص .

ولكن سرعان ما دب الخلاف فى صفوف المقاومين ؛ إذ كان فريق كبير على رأسه السيد أحمد الشريف السنوسى زعيم السنوسيين بعد وفاة عمه يؤازره الأتراك والألمان وبعض رجال العرب الذين انضموا إلى صفوف المقاومة — يريد انتهاز فرصة الحرب لمهاجمة الانجليز فى مصر من ناحية حدودها الغربية على حين كان فريق آخر يتزعمه السيد محمد الادريسى بن المهدى السنوسى وخليفة الشيخ الكبير ، وكان يقيم بمصر — يعارض فكرة الهجوم على مصر حرصاً على مودة الانجليز الذين كان لهم فضل إيواء السنوسيين وحمايتهم من مهاجمة الفرنسيين لهم فى السودان والصحراء الغربية . و بمساعدة الألمان تغلب فريق الهجوم ، فقامت فى أكتوبر سنة ١٩١٥ قوة صغيرة مؤلفة من ٥٠٠٠ من السنوسيين ونحو ألف جندى تركى وجماعة من البدو يقصدون غزو مصر من الغرب من ناحية

السلوم وواحة سيوة . وكان الانجليز قد أرسلوا معظم قواتهم إلى تركيا للاشتراك فى حملة غاليبولى ، ولذلك اضطروا إلى إخلاء السلوم وركزوا قواتهم فى مرسى مطروح . وتقابل الفريقان فى عدة معارك أهمها فى سيوة وقرب السلوم . ولم يكن يرجى للمهاجمين نجاح لضآلة عددهم واستعداداتهم من جهة ، ولانقسام الآراء بين صفوفهم من جهة أخرى . ولذلك انتصر الانجليز رغم حرج مركزهم وخاصة فى مصر ، واضطر الجيش المهاجم إلى الارتداد إلى برقة . أما السنوسيون فقد احتفظوا بالواحات مدة قصيرة إلى أن تألفت وحدات حربية جديدة مزودة بالسيارات المصفحة والجمال ، فاستردت الواحات سنة ١٩١٧ وبذلك تفرقت جموع السنوسيين وضؤل شأنهم ، واضطر السيد الشريف السنوسى إلى مغادرة البلاد إلى تركيا ثم الحجاز تاركا زعامة السنوسيين إلى ابن عمه السيد إدريس السنوسى وهو الزعيم الحالى ، وقد تفاوض مع الطليان بعد الحرب وكانوا فى حال لاتسمح لهم باستئناف القتال مع أهل البلاد ، فاتفقوا معه على أن تكون له السلطة داخل إقليم برقة وتكون له الامارة أيضاً بلقب صاحب السمو بشرط أن يعترف لهم بحق السيادة ، فتم الاتفاق فى سنة ١٩٢٠ ، وقام أهل طرابلس فى سنة ١٩٢٢ يدعونه لزعامتهم أيضاً ؛ وبذلك جمع فى شخصه وحدة برقة وطرابلس، وبدا للناس أن كلمة البلاد قد توحدت فى النهاية وأن زعيما وطنيًّا مجاهداً من أهلها سيقود البلاد فى كفاحها ضد الغاصب الأجنبى . ولكن ما كادت هذه الآمال تلمع فى الأفق حتى جدت عوامل عجلت بخيبة الأمل ؛ فقد عارضت إيطاليا فى حركة البيعة التى جاء بها الطرابلسيون للسنوسى ، ورجعت عن اتفاقها السابق معه وعادت تحارب حركة المقاومة بالايقاع بين الزعماء تارة وبالغدر حيناً وبالجيوش والدبابات والطائرات أحياناً . ولذلك لم يلبث السيد السنوسى أن غادر البلاد بعد بيعته إلى مصر وبقى متصلا بحركة المقاومة عن طريق أخيه الرضا أولا ثم بوساطة الزعيم عمر المختار الذى قاد الحركة بعد رحيل السيد ، واتخذ من الجبل الأخضر على ساحل برقة قاعدة له ومعقلا حصيناً لأتباعه من المجاهدين الذين جاءوا إليه من كل فج وصدقوا على ما عاهدوا الله عليه من بيع أرواحهم رخيصة فى سبيل الله والوطن .

وكانت الحكومة الفاشية بزعامة مسولينى قد وليت أمر إيطاليا فى خريف سنة ١٩٢٢ وفى مقدمة أغراضها السيطرة على حوض البحر المتوسط و إحياء مجد

الامبراطورية الرومانية القديمة ، وأن تعيد إلى حوزتها أملاكها وولايتها القديمة ومنها طرابلس ، حتى يجد أهل إيطاليا الذين ضاقت بهم بلادهم فى هذه المستعمرات الجديدة متسعاً كافياً لجهودهم ولذراريهم التى كان مسوليني يباهى بها أمم أوربا جميعاً . لذلك نشط الايطاليون فى العمل على استتباب النظام وإخضاع داخلية البلاد . ورأوا أن خير طريقة لقمع حركة المجاهدين أن يضيقوا عليهم الحصار من كل ناحية ، فطالبوا الحكومة الانجليزية بتحقيق وعودها لهم بشأن تعديل حدود ليبيا شرقاً ومساعدتهم لدى الحكومة المصرية فى إدماج واحة الجغبوب قرب سيوة فى المنطقة الايطالية فتم لهم ذلك فى سنة ١٩٢٥ . وكانت الجغبوب من أهم قواعد السنوسيين ، وفيها قبر منشئ الطريقة السيد محمد على السنوسى ، وباحتلالها تمكن الطليان من حراسة الحدود الشرقية وامتنع تسرب المؤن إلى المجاهدين ، وأقفل الطريق فى وجه اللاجئين منهم إلى مصر . وقد أحكم إغلاق الحدود بعد ذلك بوضع الأسلاك الشائكة على امتداد ٣٠٠ كيلومتر من البردية على الساحل إلى الجغبوب . أما جنوبى ذلك فقفار ووهاد لا سبيل إلى اختراقها أو عبورها إلا بالطائرة .

وأخيراً عين القائد الايطالى المشهور جراتزيانى حاكماً عامًّا على برقة وطرابلس ، وأخذ يعمل على إخضاع حركة المقاومة نهائيا بترغيب طائفة من السنوسيين وإرهاب طائفة أخرى بمختلف وسائل التعذيب ، ومن أقساها وأشدها وحشية أخذ المجاهدين فى الطائرات والتحليق بهم فى الجو ثم إلقاء جثثهم فوق مواطنهم على مرأى من ذويهم وقبائلهم . وأخذ الطليان يخضعون الواحات واحدة بعد أخرى حتى وصلوا إلى واحات الكفرة ، وتقع جنوبى بنغازى بنحو ألف كيلومتر . وفى هذه الواحات كان السنوسيون قد أنشأوا قرية التاج وزاويتها ، وهى تعتبر أكبر معقل للسنوسيين وفيها شيدوا دورهم ومخازنهم ، فسير الطليان إليها أكبر حملة اخترقت صحراء برقة فى العهد الأخير ؛ إذ كانت تتكون من نحو ثمانية آلاف جمل وعشرين طائرة محملة بالقنابل . واشتبك الأهالى مع القوة الايطالية فى معركة دامت بضع ساعات تمكن فى أثنائها المجاهدون من التسلل وحداناً وجماعات فى الصحراء ميممين شطر مصر والسودان شرقاً ومعهم نساؤهم وأطفالهم وما خف من متاعهم ، ومضوا مشاة وركباناً يتخبطون ذاهلين من أثر الصدمة ناكسى رءوسهم مما أصابهم من الهزيمة ، يرافقهم الجوع ويتعقبهم العدو بطائراته وقنابله

ويتخطفهم المرض والموت ، فكانوا يتساقطون على طول مسالك الصحراء وشعابها كأوراق الشجر أذواها الخريف . حتى إذا قاربوا حدود مصر وصل رائد منهم إلى الواحات الداخلة فى مصر ، وقص على مسامع أهلها وحكامها حكاية هؤلاء التعساء المنكودين ، فسارعوا بانقاذ من أمكن إنقاذه منهم بعد مسيرة نحو شهرين قمريين .

وكان احتلال الكفرة كالصاعقة نزلت على رءوس المجاهدين ، فأيقنوا بقرب مصيرهم . وأراد الطليان أن يسدوا فى وجوههم جميع المسالك ، فأقاموا الأسلاك الشائكة على الحدود الشمالية الشرقية ، فانقطعت أمام السيد عمر المختار وأصحابه أسباب الاتصال بالخارج وأصبحوا مضيقاً عليهم من جميع الجهات . وذات يوم من ربيع سنة ١٩٣٢ وقع السيد عمر أسيراً فى أيدى الطليان فسجنوه ثم حاكموه عسكريا ونفذوا فيه حكم الاعدام ، فارتكبوا باعدامه إثماً لا يزال عاره يلطخ صفحة استعمارهم إلى اليوم . و بموته انطفأ آخر بريق لحركة المقاومة فى ليبيا . وأخذ الناس يتناقلون فى جميع أنحاء العالم العربى أحدوثة البطولة التى اضطلع بها أهل برقة وطرابلس مدة عشرين عاماً ، والتى تمثلت فى جهاد السنوسيين واستشهاد عمر المختار ومن سبقه من المجاهدين والشهداء ، وقد راح ضحيتها نحو ثلث شباب برقة ونحو تسعة أعشار ماشيتها ؛ فلم يبق من سكان البلاد اليوم أكثر من مليون نفس . وقد ظن الطليان أنهم بقضائهم على حركة المقاومة قد مكنوا لحكمهم وتيسر لهم استعمار ليبيا . ولكن سرعان ما خاب ظنهم ؛ فقد انتثر عقد المجاهدين حقا ولكنهم انتشروا بين الشعوب العربية فى كل صقع يرددون مأساتهم ، وما اقترفه الطليان فى بلادهم من ألوان الجور والغدر والوحشية ، حتى أضحى الحكم الفاشى فى نظر الأمم العربية مبعث الخوف والشقاء ، وجرثومة الفساد والانحلال التى يجب أن تستأصل إن كان مقدوراً للشعوب أن تعيش وترتقى فى مدارج المدنيــة .

وما كادت الحرب العالمية الثانية تنشب وتدخلها إيطاليا إلى جانب حليفتها ألمانيا ، حتى تجلت روح الكراهية والسخط ضد إيطاليا فى شمالى إفريقية ، وتقدم السيد إدريس السنوسى وأخطر الحكومتين المصرية والبريطانية باستعداده لمعاونة الحلفاء . وعلى أثر ذلك تألفت فرق القوة العربية الليبية من متطوعى برقة وطرابلس وأمدتهم انجلترا بالذخيرة والمؤن وبعض الضباط . وقد أبلى الليبيون بلاء حسناً

فى المعارك التى تتابعت جيئة وذهاباً فوق أديم أرضهم ، فتارة كان يتقدم الطليان فيصدهم الحلفاء ، وأخرى كان يرتد الطليان ويتقدم الحلفاء ، وآونة كان يزحف الألمان ومعهم الطليان ثم يردهم الحلفاء . وكانوا كلما ارتد الانجليز وحلفاؤهم وعاد الطليان إلى قواعدهم آثروا بمقتهم وغضبهم أهل ليبيا ، واختصوا من بينهم من كانوا يتعاونون مع الحلفاء فأنزلوا بهم سوء العقاب .

وفى ديسمبر سنة ١٩٤٢ خرج الحلفاء ظافرين من موقعة العلمين وأخذوا يطاردون فلول المحور غرباً حتى قذفوا بهم إلى البحر ، فثبتت قدم الانجليز فى ليبيا وبدءوا يقيمون حكومة مدنية يشترك فيها أبناء البلاد . وكان النزاع القديم بين القبائل فى برقة وطرابلس قد بدأ يتحرك ، ولكن أحداث الحرب الأخيرة قد أوثقت الصلات بين الجانبين وتوحدت كلمتهم فى القرار الذى أصدروه فى أكتوبر سنة ١٩٣٩ ، ثم أيدوه بعد موقعة العلمين باعترافهم جميعاً بالأمير السنوسى زعيما لهم، وبأن له وحده أن يتكلم بلسانهم فى مختلف شؤونهم . وقد أعلنت الحكومة الانجليزية من جانبها بلسان وزير خارجيتها عقب انهزام قوات المحور تصميمها على عدم السماح بعودة الحكم الايطالى إلى برقة أو قرنيقيه بأية حال ولكنها لم تصرح بشئ عن نيتها نحو طرابلس حيث يكثر الطليان وتشتد المنافسة .

وقد نبتت عقب انتهاء الحرب الأخيرة مقترحات مختلفة بشأن إدارة البلاد ؛ فقد طالبت روسيا بدون جدوى أن تكون لها الوصاية على طرابلس حتى تحل محل إيطاليا فى حوض البحر المتوسط وتخرج من عزلتها فى البلقان إلى مياه البحر المتوسط ، ولتشرف على شؤون الشرق الأوسط من كثب بعد أن أصبحت هذه المنطقة أشد مواطن العالم تنافساً بين الدول وأكثرها خطراً . وتقدمت مصر تقترح أن تتمتع ليبيا باستقلالها السياسى ، وإن كان لا بد من وضعها تحت الوصاية فترة من الزمن فان روابط الجوار واللغة والدين تجعل حق مصر فى ذلك أولى من غيرها .

وقد مضى الوقت الذى كانت مصر فيه مؤمنة بمناعة حدودها من ناحية الصحراء الغربية معتبرة خط الطول رقم ٢٥° درجة شرقى جرينتش آخر حدودها الغربية خطاً وهمياً ؛ فقد ذللت الصحراء للسيارات والدبابات وتقدم الطيران فألغى مسافة الصحراء زماناً ومكاناً ، وأصبح جدبها وقيظها ووعثاؤها كل أولئك أموراً لا يحس بها العلم الحديث ولا تعترف بها السياسة . لقد أصبحت الصحراء

عنصراً مهما فى جسم السياسة ، العالمية وزالت عنها إلى غير رجعة تلك الحصانة الحربية الماضية . فقد أظهرت الحرب الأخيرة كيف استطاع العدو أن يتخذ من صحراء ليبيا ومن واحة الجغبوب التى اغتيلت منا حين كانت بريطانيا لا تزال تحسن الظن بايطاليا — أن يتخذ منها قاعدة حربية يحشد فيها قواته ويثب منها على حدودنا . ولو لم تكن بريطانيا محتفظة وقتئذ بتفوقها فى البحر المتوسط والبحر الأحمر لاستطاع العدو أن ينفذ خطة « الكماشة » الحربية التى دبرها ضد مصر والسودان بتسيير قواته شرقاً من ناحية ليبيا وغرباً من ناحية أرترية والحبشة .

من أجل ذلك كان فى مقدمة ما طلبته مصر فى مؤتمر الصلح الذى انعقد فى باريس فى صيف سنة ١٩٤٦ إعادة واحة جغبوب إلى حدود مصر كما كانت .

والناس فى برقة شديدو التمسك باستقلالهم ، وللسنوسيين بينهم مقام مرموق فلهم علمهم الخاص وتجمع الضرائب وتصدر المنشورات باسمهم ، وزعيمهم يجمع بين السلطتين الدينية والزمنية . أما فى طرابلس فالحال غير مستقرة ، وللطليان فيها قضاة وأطباء وفنيون منتشرون فى البلاد ، والانجليز لايزالون يحتلون البلاد حراساً على أموال الطليان ، وذلك إلى أن يصل الحلفاء إلى قرار حاسم بشأن مصير ليبيا . وقد قرروا أخيراً إرجاء بحث المسائل الاقليمية الخاصة بمستعمرات إيطاليا إلى مابعد انقضاء عام على توقيع معاهدة الصلح مع إيطاليا ، وقد وقعت المعاهدة فى ١٠ فبراير سنة ١٩٤٧ .

ولا تزال إيطاليا تطمع فى أن يجود عليها الحلفاء بشئ فى طرابلس ثمناً لمعاونتها لهم فى المرحلة الأخيرة من الحرب ضد ألمانيا واستمالة لها إلى جانب كتلة الدول الغربية . ولكن يبدو أن انجلترا تريد أن تبقى مضطلعة بسياسة البلاد العليا سواء كان ذلك بطريق الوصاية أو بالاتفاق مع حكومة وطنية تتولى أمر البلاد بمعاونة مستشارين من الانجليز ، ويكون شأن ليبيا حينذاك كشأن مملكة شرق الأردن .

وتواجه ليبيا بعد الحرب الأخيرة أزمة اقتصادية اجتماعية على درجة عظيمة من الخطورة ؛ فقد أرسلت إيطاليا إلى ليبيا عشرات الآلاف من الطليان وأقطعتهم الضياع والمزارع من الأراضى التى صادرتها من أرض المجاهدين ومن أراضى الزوايا السنوسية . وكانت الحكومة الايطالية تمد المستعمرين لهذه الأراضى بالماشية والعدد والبذور مما جعل الحكومة المحلية فى ليبيا تهمل الاقتصاد العام

للبلاد ، حتى بلغت قيمة وارداتها فى سنة ١٩٣٨ ثمانية أضعاف صادراتها ، وباتت البلاد بعد الحرب فى حاجة شديدة إلى رءوس الأموال و إلى الرجال الفنيين الذين يعالجون ما سببه الطليان من مغارم على البلاد وهى الفقيرة فى المعادن والزراعة.

ولما جلا الطليان عن البلاد غادرها كثير من مستعمرى تلك الأراضى . ولكن ما كادت تنتهى الحرب حتى ضجر أولئك بمقامهم فى إيطاليا وسئموا اضطراب الأحوال فيها ، وحفزهم الحنين إلى ضياعهم وسابق رغدهم فى ليبيا ، فبدءوا ينسلون إليها سرًّا وعلانية كما ينسل اليهود إلى فلسطين ، بعد أن أصبحت ليبيا لأهل إيطاليا عامة ولأهل صقلية بصفة خاصة « أرض المعاد » . وسيؤدى وجودهم حتما إلى مشكلة اجتماعية خطيرة . فلعل بريطانيا وهى القائمة بشؤون الحكومة مؤقتاً أن تبادر بأخذ الحيطة حتى لا يشهد العالم حركة صهيونية جديدة تقوم فى ليبيا .

وأمام أهل برقة وطرابلس جميعاً واجب قومى يدعوهم فى أثناء فترة هذا العام إلى التضافر والعمل يداً واحدة على مناهضة كل حركة ترمى إلى إعادة مأساة الاستعمار ثانية بين ظهرانيهم . ومما يدعو إلى التفاؤل أنه قد عاد أخيراً إلى البلاد رجال من الليبيين كانوا قد نشأوا وتثقفوا أثناء الاحتلال الايطالى فى جامعات ومدارس مصر وغيرها من بلاد الشرق العربى ، وقد حملوا معهم جميعاً إلى ليبيا أمانى الجيل الجديد وأهدافه نحو الاستقلال فى ظل الجامعة العربية . وإنهم وأيم الحق بهذا لجديرون .

محمد رفعت

من مشاهدات سائر فى نيو يورك

الأبيض والأسود ... وقصص أخرى !

تتناثر فى نيويورك الأحياء الخاصة بالأجناس المتباينة ؛ فهذا حيّ الايطاليين ، وهذا حيّ الإيرلنديين ، وهذا حيّ الإسبان ، وهذا حيّ الروس ، وتلك أحياء أُخَر لأجناس أُخَر . . .

وإن تلك الأحياء لتبتلعها المدينة وتؤمركها ، فتتضاءل على مر الزمن ، كأجناس هذه الأحياء تربطهم جامعة أمريكية واحدة وإن تفرقت بهم المناسب والأصول . . .

تتحلل أحياء الأجناس فى بوتقة المدينة ، كما تتحلل الأجناس أنفسها فى بوتقة الأمة الأمريكية . . .

ولكنْ ثمة حيّ لا أدرى كيف يتحلل فى بوتقة نيويورك وكيف يتحلل جنسه فى بوتقة الأمة ، ومتى يتم هذا وذاك ؟ إنه كالحجر الصلد لا يلين للأحماض المذيبة ، ولا ينصهر فى أتون النار المتقدة . . .

ذلك هو حيّ الزنوج ، أو مدينة هارلم ، كما يسمونها هنالك . . .

إنه أبعد أحياء نيويورك صيتاً ، وأوضحها تميزاً . ومرجع ذلك إلى قوة المقاومة فى جنسه ، وما يحيط به من ملابسات تعين على احتفاظه بجوهره . . .

إن الأجناس الأخرى ليسرع إليها التحول والاندماج ، حتى لتكاد تنسى أصولها العريقة . أما الزنجى فإنه وإن استمسك بأمريكيته واعتز بها واكتسب كثيراً من مظاهر الحياة فيها ، فهو ما برح يعد نفسه غريباً فى أمريكا . . . غريباً فى وطنه !

إنه ليشعر بأن جنسه هدف للضيم والاضطهاد ؛ ولذلك يتحصن خلف أسوار حيه ، يكاد يحظر دخوله على غيره ، بل يكاد يقيم عليه باباً لا يستطيع اقتحامه أحد . . .

وإنه لمن عجيب المفارقات أن تجد جنساً لا يعرف له وطناً إلا أمريكا التى

يسكنها ، وهو مع ذلك يتأبى الاندماج فى هذا الوطن ، أو لعله لايجد السبيل إلى هذا الاندماج . . .

تجول فى هارلم ، فاذا بك فى حى كسائر أحياء نيويورك فى ظواهر العمران ... إلا فى السكان !

مستعمرة سوداء لا ترى فيها الأشباح البيض إلا لماما . . .

إن الأبيض يطرق هذا الحى وهو عليم بأنه إذا توغل فلن يأمن على نفسه الغوائل . فكأين من كلمة أثارت شغباً وأججت حرباً ، وكأين من إيماءة أقامت قتالا وأورثت وبالا . . .

إن هذه الوجوه السود لتقلّب فيك نظر المستريب ، فاذا رجعت إليها البصر تحفزت لك مستوفزة متنمرة . . .

إن قصة الأبيض والأسود قصة تتجلى فيها الطرافة ، و إن شئت قلت الغرابة والشذوذ . . . إنها مأساة دامية ، بل وصمة فى جبين التحضر الأمريكى الناصع !

كادت قصة الأبيض والأسود تقوّض بناء الجمهورية الفتية وتفصم عراها ، فتتفكك دويلات ضئالا ضائعة الشوكة والسلطان ؛ ذلك لأن قديساً من البشر ، مثالىّ الفكرة ، تعمر الانسانية قلبه ، أبى أن يكون فى الجمهورية الجديدة أرقاء من السود يباعون بيع السلع ، فمنحهم حق الانسان ، حق الحرية والمساواة ... ذلك هو لنكولن العظيم الذى كانت روحه فداء لفكرته ، فما كاد يرفع راية العدالة ، ويقضى على الثورة حتى خر صريعاً بيد رجعية آثمة ، وراح شهيد مثله الأعلى . . .

لقد وضعت الحرب الأهلية أوزارها ، وعفّت الحقب آثارها ، ولكن ثمة حرب أخرى ما برحت مستعرة الأوار ، فى الخفاء !

لقد محا القانون معانى الرق والاستعباد ، ولكنها لما تزل عامرة بها الصدور . . . الأسود والأبيض سيان أمام القانون ، وأمام فرص الحياة الرسمية فى كل منحى من مناحى الاجتماع ، ولكن نصوص القانون فى واد ، وفهم القانون والانطباع به فى واد آخر بعيد . . . فاذا عرفت أن عقلية الأبيض لا تسيغ بأية حال شخصية ذلك الأسود المنبوذ ، تسنّى لك أن تعلم كيف يفهم الأبيض ذلك القانون ، و إلى أى مدى يجرى تنفيذه فى المجتمع الأمريكى الذى نعده معقل الديمقراطية وملاذها الأمين !

ربما تحدث الأبيض إليك عن الأسود بروح لنكولن العظيم ، روح الإخاء والمساواة ، ولكنه حين يمارس شؤون الحياة ، ويلابس ذلك الأسود فى هذه الشؤون ، فسرعان ما تتبدل الحال غير الحال ، فاذا الأبيض ينظر إلى الأسود نظرة الأحرار إلى العبيد ، ويعامله معاملة السيد للمسود !

لا ألفة بين الأبيض والأسود فى أمريكا ؛ فبينهما حاجز تكاثفت طبقاته وتحجرت على ترادف الأيام . ومنشأ ذلك أن الأبيض ما زال بواعيته الخفية ينظر بعين أجداده ، فيرى الأسود عبداً رقيقاً ، له أن يبيعه وأن يشتريه وأن يسخره فيما يبغى من الأعمال ، فكيف يراد الأبيض اليوم على أن يساويه أولئك العبيد الأرقاء ؟

ومن ناحية أخرى نرى الأسود قد استنار عقله ، واستبان له حقه فى أن يعيش حرًّا على قدم المساواة بينه وبين سائر الناس . . . وإذا كان قد اتخذ أمريكا وطناً له فشأنه فى ذلك شأن الأبيض سواء بسواء . . . وفوق ذلك فهو يرى بواعيته الخفية أن البيض القدماء قد استعبدوا أجداده ظلماً وعدواناً ، فهو يحفظ لأخلافهم البيض ثأر الجدود . ومن ثم تشهد فى الأسود المعاصر عنجهية وخيلاء ، وتلمح فى عينه نظرة الثائر المحنق ، فيزيد ذلك من حفيظة الأبيض عليه ، ويوسع بينهما هوة الشقاق . . .

ومن أضاحيك المفارقات أن الديمقراطية الرحبة التى هى شعار الجمهورية الأمريكية قد أعانت على التفرقة بين الأبيض والأسود دون عمد . . . فهذه الديمقراطية تمنح الهيئات والأفراد حرية التصرف فى الأنظمة والإجراءات واتخاذ الخطط التى تيسر سبل النجاح ، وكان من أثر ذلك أن عمدت طائفة كبيرة من المعاهد والمؤسسات ونحوها إلى إقصاء الأسود عن رحابها ، مستخدمة فى ذلك حقها فى أن تقبل من تشاء وتأبى من تشاء . . . فلم يجد الأسود بدًّا من أن ينشئ لنفسه معاهد ومؤسسات خاصة ، فاشتدت بذلك الفرقة ، وتلظت البغضاء ، وتقطعت أسباب التواصل والاندماج . . .

ستظلين يا هارلم كما أنت ، لايعفى عليك الزمن إلا إذا انقلب الأمريكيون البيض جميعاً أشباهاً للنكولن خلقوا من طينته ، وأُشربت قلوبهم فكرته ، وكانوا كمثله قديسين ، نصب عيونهم مثله الأعلى فى الإنسانية والأخاء !

ولكن أمن الخير للأمة الأمريكية أن تكون على غرار لنكولن مثالية

قديسة ، فيندمج العنصران النقيضان ، وتتزاوج العقليتان المختلفتان ؟

أم الخير كل الخير فى أن يظل للأسود ميدانه ودنياه ، وللأبيض حضارته يمضى بها طوع هواه ، ويطبعها بعقليته ومنحاه ؟

مهما يكن من قول ، فان فى سريرة الغد جلاء ما تضطرب فيه الظنون ! . . .

ما كان لنا وقد ذرعنا شوارع نيويورك وتدسسنا إلى أحيائها إلا أن نخرج من عزلة المدينة ، متخطين أسوارها فى نزهات قاصية بين الضواحى والأرباض . . .

و إنك لتحسب نفسك فى نزهة حول المدينة ، فاذا بك تعلم أنك قد اقتحمت حدود ولاية أخرى ، وبدأت تجوب مدائنها ، وتطرق عاصمتها . . .

تحاط نيويورك بضواح طريفة ، سمّها كما شئت ولايات أو مدائن أو مقاطعات، لها جميعاً طابع واحد ، فما أشبه بعضها ببعض : البالساد ، بيرماونتن ، وست شستر ، لنج بيتش ، كونى أيلند ، وما إليها . . .

دساكر وبقاع تتجلى فيها مفاتن الريف جمعاء ، ولكنه الريف فى مظهر مثالى شائق . . . إن هذه الدساكر لتعد قرى هنالك ، ولكن أية قرى هذه ؟ تلك وسائل الحضارة فى هذه المدن الريفية مستكملة مستوفاة تحيلها حضراً له مزايا الريف . . .

للناس فى نيويورك عادة ألفوها ، هى أن يخرجوا إلى تلك البقاع فى أيام الآحاد والعطلات ، و إن بعضاً من الناس ليتخذونها مستقرًّا ومقاماً ، يفزعون إليها انتجاعاً للراحة ، ونجاء من الزحمة والضجيج . . .

و إن لأهل نيويورك نزعة قوية إلى طلب الراحة ، ينشدونها ويسعون إلى تحقيقها ما وجدوا إليها الخلاص . . .

ترى أكثر كلماتهم دوراناً على ألسنتهم هى كلمة « ريلاكس » . . . يتناقلونها فى كل مناسبة ، فهى فردوسهم المفقود ، ونعيمهم الموعود . . . إنها « التراخى » . . .

وحق للأمريكيين أن يحلموا بهذه الرخاوة ، يهيمون بها حبًّا ، ويتحرقون إليها شوقاً . ولكن هذا الفردوس عزيز المنال على أولئك المساكين الذين دارت بهم الآلة ، وضغطتهم الزحمة ، وجهدهم التكالب على الكسب والاغتنام !

إنهم لا يخرجون من رَهَقٍ إلا إلى رهق ، ولا يخلصون من مجهود إلا إلى مجهود . . .

إلى أين يقصدون ؟

ألى سفوح الجبال ، حيث تجول يد الفنان فى مجالى الطبيعة فتحيلها جنات بحق : حدائق وغابات ، جسور معلقة ، وهاد ونجاد ، جداول و بحيرات للسباحة والجدف ، ملاعب تحت الخمائل ، مقاصف بين الأيك والغصون ، إلى غير ذلك من محاسن تقرُّ بها العيون ، وتثلج لها الصدور؟ . . .

ولكن كيف السبيل إلى الاستمتاع بهذه المجالى الفاتنات ؟

ليس ثمة من سبيل إلا أن ترهق نفسك وتزحمها بين الكتل البشرية فى البواخر والقطارات والسيارات الحافلة ، فاذا استخلصت جسمانك من بين الجموع فى آخر المرحلة ، ورأيت نفسك قاب قوسين أو أدنى من تلك الجنان الزاهية ألفيت شياطين الزحمة ، وأنظمة « الطوابير » قد سبقتك هنالك ، ووقفت لك بالمرصاد ، تعكر عليك الصفو ، وتسلبك أملك فى«الريلاكس» فتنشد مع الشاعرالعربى قوله:

المستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

إن نشدان الراحة فى مظان الراحة هنالك معضلة من جسام المعضلات !

ولذلك تجلت أمنية « التراخى » فى مظاهر شتى من الأدب الأمريكى والفن الأمريكى ، ولا سيما الفلم السينمائى . . .

تراهم يصورون حياة الطبيعة الفطرية تصويراً بالغ الروعة ، ويشيدون بمفاتن المواطن غير المتحضرة إشادة ظاهرة . وليس ولعهم بذلك التصوير وتلك الإشادة إلا إرواء لظمأ نفوسهم إلى الراحة والرخاوة . . .

ما أكثر المتنزهات الخلوية ، وما أحفلها بالمتع المتنوعة تواتى كل امرئ بما تصبو إليه نفسه ! . . . وما أروع الطرق التى تصل بعض هذه المتنزهات ببعض ! . . . إنها طرق فسيحة معبدة ، أخليت مضماراً للسيارات تنتهبها وحدها انتهاباً . وقد يتحول الطريق جسراً عظيما يمتد أميالا طوالا ، ثم ينقلب نفقاً هائلا يتغلغل فى جوف الأرض متسللا تحت أعماق الماء ، ثم تخرج منه تستقبلك المروج الخضر والغابات المشتبكة وتلك المغانى الفاتنة تبدو فى فن بنائها كأنها لعب مكبرة أو نقوش ملونة . . .

أما الشواطئ الخاصة بالاستحمام ، فلكل بقعة منها نصيب ، فإن ضنت الطبيعة به خلقوه لها خلقاً ، وأنشأوه إنشاء !

ولعل أكبر ما يميز تلك الشواطئ حفولها بتلك الملاعب التى نسميها : « لونابارك » . . .

ما أنس لا أنس ملعب كونى أيلند . . . رقعة واسعة تحوى كل عجيب غريب من الألعاب التى تأخذ بمجامع الألباب . . .

و إنها لظاهرة تسترعى النظر ، تلك الرغبة التى تمتلئ بها نفوس الأمريكيين فى ارتياد أماكن التسلية الطفولية العامرة بالصخب والضجة والمخاطر . . .

ر بما كانت علاجاً يفزعون إليه شفاء لأعصابهم المنهوكة ، على نحو ما كان يشفى به نفسه أبو نواس إذ يقول :

دع عنك لومى فان اللوم إغراء وداونى بالتى كانت هى الداء

إنهم يعبون من تلك الخمر الكاوية للأكباد ، لينسوا ما نهكهم من جهد ومشقة . . .

إنهم ليترامون فى ذلك الصخب والضجيج ، يتركون أنفسهم على سجيتها منطلقة تمرح وتلعب . . .

هى رغبة فى التحرر من الأغلال : أغلال العمل الدائب ، وأغلال النظم الصارمة !

فى هذه الملاعب يحاولون أن يحطموا هذه الأغلال ، فتجد الرجل الناضج قد اهتز طرباً وهو يعتلى صهوة حصان من خشب يسابق به الريح ، أو ضج مرحاً وهو يترنح على مقعده فى ذلك القطار الأهوج الذى لا يفتأ فى صعود وهبوط ، أو انبعث ضاحكا والرحى السحرية تدور به دورتها الحمقاء ، ثم تلفظه لفظ النواة؛ فلا تراه قد ترك لعبة إلا مقبلا على أخرى طلباً للمزيد من الضحك والمرح !

فى تلك الملاعب الثائرة تتجلى المخاطر فى صورة واضحة ، ولكنها مخاطر مأمونة العقبى . . . و إن الانسان ليولع بها إرضاء لنزعة أصيلة فى أغوار نفسه . هذه الحضارة على وجه عام قد أمّنت عيشه ، ومهدت طريقه ، فأصبح يحيا حياة أمن لا تكلفه جهداً ذاتيا فى المغامرة ومجالدة المخاوف ، ولا تتطلب منه أية جرأة أو جسارة ، لا كما كان يعيش أبوه الأول ، يصارع ويصاول ، تعتاقه فى

كل طريق عقبة ، ويخشى فى كل خطوة أن يقع فى شرك ، فاذا ذلل العقبات ، وتخطى الأشراك ، أحس قوة الشخصية وكبرياء الفتوة وزهو الغلب . . .

أما هذا الانسان الحضرى فانه قد أُحيط بما يؤمّنه حتى مل الأمن الشائع حوله ، فهو تواق إلى أن يستعيد حياة الفزع ومجابهة الأهوال ، ولو ساعة فى مجال تتناثر فيه ألعاب الصبيان !

ومن ثم يرمى بنفسه فى تلك المخاطر المصنوعة ، ويخرج منها سالماً يوهم كبرياءه أنه الفارس المغوار ، والبطل المقدام . . .

طال بنا التجوال يوماً فى هذه الشواطئ العامرة بالملاعب والمسابح والمقاصف ، حتى آذنت شمس النهار بالمغيب ، فاذا بى أسمع صوتاً يقول :

— هلاّ رافقتمونى إلى مغنى فكتور نقضى فيه هزيعاً من الليل ؟

فالتفتّ صوب الصوت ، فواجهنى صديق كريم ، سمح المحيا ، طلق الأسارير ، فقلت له على الفور :

— وما هو مغنى فكتور ؟

— مثابة فى إحدى الضواحى القصوى ، إن شئت سميتها مطعما ، وإن شئت سميتها منتدى تستمتع فيه بجلسة صافية . . .

فقلت له :

— لبيك !

وأقلتنا سيارته الرشيقة ، فانسابت فى طريق من تلك الطرق الفساح ، تمر بنا المروج والغابات والضياع ، يتلو بعضها بعضاً ، فى جو رخى الأنسام ، حتى شارفنا مغنى فكتور . . .

حديقة طيبة ، وبركة أنيقة ، يتوسطهما مبنى جميل ، كل ما فيه يشعرك بالألفة ومظاهر الحياة العائلية . . .

لستَ فى مطعم أو مشرب ، وإنما أنت فى بيت غطريف سرى من أمراء الطليان له فى الحياة ذوق فنى مصفى ، تخير هذه البقعة النائية ليحيا مع ضيوفه ورواد مغناه فى دعة وطمأنينة وصفاء ، يقدم لهم أفخر الطعام وأطيب الشراب فى تأنق وسخاء . . .

وتوخينا معزلا هادئاً بجوار الشرفة ، وأمضينا فترة هانئة . . . لا موسيقى ولا رقص ، لا حركة ولا جلبة ، لا شئ مما تحفل به مقاصف الليل !

إن انتزاح هذه المثابة عن قلب نيويورك وقيامها على أطراف الأرباض ، وخلوها من المغريات الشائعة ، جعلها مهوى أفئدة أولئك الذين يبتغون تذوق المتع الغالية الرفيعة فى سكينة وهدوء . . .

وتلفتّ حولى أقول :

— أين ربّ البيت السيد فكتور ؟

فعلا صوت ضخم رددت أصداءه أبهاء المغنى ، وقد شاعت فيه نغمة حفاوة وترحيب ، تصحبها ضحكة رنانة لا يجيد إطلاقها إلا من كان خالى البال . . .

فملت على صديقى أقول :

— قسما إنه السيد فكتور !

فاعتاض الصديق عن الجواب بالابتسام . . .

وهرع بعض قصاد المغنى إلى مصدر الصوت فى بشاشة وإيناس ، وأهاب بنا الصديق أن ننهض كما نهضوا ، فتبعناهم ، فاذا بنا أمام قفص لطيف تقف على إحدى دعائمه ببغاء رشيقة تصوب فينا النظر وتصعده بعينين حادتين . . .

فهمست فى أذن صديقى :

— من يكون هذا السيد الظريف ؟

— إنه الخل الوفى والصديق الودود لرب الدار . . .

— حقًّا إنه لخير من يؤدى حق الضيافة !

ولبثنا حيناً يحيينا هذا السيد ونحييه ، ويفاكهنا ونفاكهه ، وقد توثق بيننا الود ، واتصلت أسباب الألفة . . .

ولكن القصاد تكاثروا حول القفص ، وتكاثفت الحلقة ، فاذا بهذا السيد الظريف ينقلب عفريتاً من الجن يصخب ويثور ، ويسلقنا بلسان سليط ، فتراجعنا عنه مقهورين !

لقد استجبنا لنداء هذا الزعيم الحبيس ، فلم ندع صيحته تذهب مع الريح ، ولكنه ما كاد يحس عظمته تتجلى ، ويرى مكانته تتسامى ، حتى أشر وبطر ، وحسب نفسه زعيما بحق ، وانبرى يثور على من استجابوا له ! . . .

ذلك صنيع حيوان .

أتراه محاكياً يفصح عن طبيعة الإنسان ؟

وشرع صديقى يروى لى قصة السيد فكتور . . .

إنه طلياني تَأَمْرَكَ ، طلياني فنان فى روحه وذوقه ، احتل هذا المغنى بحديقته وبركته ، فأقام هو فى الطبقة العليا ، وجعل الطبقة الدنيا مطعما ومثابة للوجهاء المترفين . . . وإنه ليتفنن فى كل ما يقدمه من مأكل ومشرب ، وما تقع عليه العين من أثاث ومتاع . . .

ولقد استغل الحديقة ، فاتخذ منها حظيرة للدواجن ، ومزرعة للخضر والفاكهة ؛ ولذلك يقدم لك من ثمر المزرعة ما هو يانع جنى ، ومن نتائج الحظيرة ما هو منتقى شهى . . .

كل ما عندك أيها السيد فكتور — أو على الأصح أيها السنيور فيتوريو — طريف شائق حتى هذه الببغاء المتمردة الشغوب !

لقد تفتقت عبقريتك عن عمل فنى يدل على أن للطليان القِدْح المعلَّى فى حب الجمال !

حقًّا لقد ظلمكم زعيمكم الراحل موسولينى أيها الطليان ، إذ حاول أن يخلق منكم جبهة حرب وضرب ، وكر وفر ، وما أنتم إلا أمة فن جميل ، وذوق رفيع . . .

وهل تقل عظمة الفن والجمال عن عظمة القتال والصيال ؟

محمود تيمور

الفلاح المصرى يشكو اضطهاد طبقة الموظفين

كما دونها حكيم مصرى قديم على بردية منـــذ اثنين وأربعين قرنا

[ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . . .
إعدلوا هو أقرب للتقوى]

سعيدة الأمة التى خلفت وراءها ماضياً مجيداً ، وتراثاً خالداً ، وتاريخاً حافلا، تستمد العون من معين عظاته ودروسه الخالدة ، عندما يقلب الدهر لأبنائها ظهر المجن ، وتتقطع بهم أسباب المعونة ، ووسائل الخروج من المآزق الحرجة ، و إذا كان لأمة من أمم العالم القديم أن تفخر بمالها من تراث تُليد ومجد مؤثل فى الحضارة العالمية ، وبخاصة فى نشر المثل العليا فى الاجتماع والسياسة ، وسبل الحياة الحقة التى بنيت على العدالة الاجتماعية منذ انبثاق فجر التاريخ ، كان لمصر بلا نزاع لها قصب السبق فى ذلك المضمار ؛ إذ لا يعرف التاريخ حتى الآن حضارة مدونة محفوظة تضارع الحضارة المصرية فى القدم ؛ فقد انبثق فجرها منذ ٣٤٠٠ ق.م. تقريباً فى فترة من الزمن كان جل العالم الذى نعيش فيه لا يزال فى سبات عميق غارقاً فى لجة من ظلمات الجهل التى لم يفق منها إلا بعد أن أفاضت عليه مصر من نورها وعرفانها .

ولا غرابة إذن فى أن يقال عن مصر إنها المعلم الأول لدول العالم القديم ، على أن تاريخ المدنية المصرية يرجع إلى عهد أقدم بكثير من تاريخ ظهور مدنيتها المدونة ، وهذا العهد كان عهد حكم الآلهة كما زعم المصريون وعلى رأسهم الإله الأعظم الذى كان يمثل فى الشمس ، وكان عهده نموذجاً للحكومة العادلة التى قوامها الحق والصدق والمساواة . ولما انتقل الحكم إلى أيدى البشر ساروا على نهج الإله الأعظم فى حكمه العادل الذى كان رائده الحق للحق مدة طويلة من الزمان تبلغ نحو ألف سنة أو تزيد . وهذه الفترة يطلق عليها فى التاريخ المصرى عهد الدولة القديمة أى من ٣٤٠٠ إلى نحو ٢٤٠٠ق.م. تقريباً ؛ غير أن عامل

الفساد كان قد بدأ يسرى فى جسم الدولة وئيداً فتنحى حكامها عن العدالة الاجتماعية ، فكان ذلك نذيراً بانحلال وحدة البلاد حتى رجعت سيرتها الأولى قبل توحيدها على يد مينا ، فصارت إقطاعات مستقلة عن العرش تقريباً . وقد أدى ذلك الانحلال إلى سقوط الدولة القديمة ، ومن ثم فشا الخراب ، وعمت الفوضى ، وقامت طبقة الفقراء والمضطهدين فى البلاد بثورة طاحنة أتت على الأخضر واليابس ، مطالبين بالعدالة وكشف الضر عنهم . وقد ظلت البلاد مقسمة إقطاعات مستقلة إلى أن قامت أسرة عريقة فى « إهناسية المدينة » وأسست حكومة ملكية ؛ غير أن سلطانها لم يكن يمتد على البلاد كلها إلا اسماً .

والواقع أن حكم الإقطاع الغاشم كان متفشياً فى ذلك العهد إلى حد بعيد ، وكانت مظالمه واقعة على الفلاح والعامل بدرجة شائنة غاشمة . ولقد رأى رجال الفكر فى ذلك العصر الحالة المحزنة والظلم الفاحش ، والاضطهاد الشائن ، الذى كان يئن منه الفلاح وغيره من أهل الطبقة الدنيا ، ثم قرنوا تلك الحالة بما كانت عليه حكومة البلاد قبل أن يدب فى جسمها الفساد ، وتذكروا عهد حكومة الإله العظيم أيام كانت العدالة هى قانون البلاد ، وكلمته العليا . ولذلك تطلعوا إلى ذلك الماضى المجيد ، فكانت ذكرياته وما فيه من مثل عليا حافزاً لهم على المحاربة بأسنة أقلامهم الملتهبة حماسة بسبب ما وصلت إليه حالة البلاد من الخراب وانقلاب النظم الاجتماعية ، التى نشأت من ظلم طبقة الأغنياء للفقراء ، واستئثارهم بالثروة ، ووضعهم الفلاح والعامل فى مرتبة الحيوان أو أحط منزلة منه . غير أن بعض أولئك الكتاب كانوا يرجون ويؤملون صلاح هذا المجتمع الفاسد الذى انقلبت فيه الأوضاع الإنسانية ، وأخذ الفقراء ينقمون من أصحاب الثروة والجاه الذين ساموهم سوء العذاب . والواقع أن بعض أولئك الكتاب المفكرين كان مقتنعاً بإمكان السير نحو عهد جديد على أساس إيجاد جيل من الموظفين الأمناء العدول .

وطائفة أخرى رأت أن تحقيق ذلك قد يأتى على يد ملك عادل مخلص مجدد للمجتمع ، فعندما فحص رجال الطائفة الأولى الحياة رأوا وجوب التمسك بالمبادئ العملية للحياة الحقة ، التى يمكن أن تطبق على الحياة اليومية بانتقاء طائفة الموظفين على أسس متينة . وهؤلاء المفكرون هم الذين كانوا لا يزالون يؤمنون بوجوب سيادة الحق والعدالة الخالدة ، وهى التى كان يعبر عنها المصرى القديم

بكلمة « ماعت » . وقد استمروا على التمسك بأهداب ذلك الأمل ، ووجوب سيادة العدالة لأنها استطاعت السيطرة على الحياة المصرية قديماً .

وهذه الآراء قد عبر عنها فى مقال يمكننا أن نسميه الفلاح الفصيح ، أو شكاوى الفلاح المظلوم . ولحسن الحظ قد وصلت إلينا نسخة من هذا المقال الرائع كاملة غير منقوصة ، والبردية التى تحتويه موجودة الآن فى متحف برلين وكاتب هذا المقال جندى مجهول .

وقد وضع المؤلف بين أيدينا فى ذلك المقال الممتع مناقشة فى هيئة قصة رائعة جعلها فى شكل سلسلة من البحوث المؤثرة المسرحية عن خلق الموظف المستقيم ، وما انطوت عليه روحه ، وما ينجم عن ذلك من إقامة العدالة الاجتماعية والادارية نحو الفقير المهضوم الحقوق ، فى ذلك العهد الذى طغى فيه الأغنياء حتى إن الرجل الفقير لم يكن ليجد قوة تحميه ممن هم أقوى منه . وقد كان ضمن المقترحات التى أشار بها أحد حكماء هذا العصر لعلاج طبقة الموظفين ، أن يجعل لكل موظف راتب عال وفير .

وسنرى فيما يلى أن هذا العلاج كان غير ناجع بمفرده ؛ لأننا سنجد فيما سيأتى ذكره أنه حدث بمشهد من القصر الملكى بجوار « إهناسية المدينة » عاصمة الملك إذ ذاك ، اضطهاد غاشم أقدم على ارتكابه موظف فاسد الأخلاق فى ضيعة مدير أملاك الفرعون فى ذلك الوقت . وهذا الحادث يدل دلالة قاطعة على أن الوظيفة ذات الراتب الضخم لا تغرس فى نفس صاحبها العدالة، ولن تغنى الفقير شيئاً من اضطهاد رجال الحكومة له ، والعبث بالشىء القليل الذى يملكه .

ومما هو جدير بالذكر أن ترى ذلك المفكر القديم الذى كتب قصة الفلاح الفصيح ، وهو يجاهد ليظفر بالتغلب على تلك العقبة الكأداء ، عقبة الاضطهاد القائمة أمامه التى صارت منذ ذلك العصر من أعقد المسائل فى بلادنا بل فى الشرق ، حتى إن الأوربيين قد استساغوها لأنفسهم فى معاملتنا .

والواقع أنها مسألة لم يستطع حلها حلا مرضياً إلى الآن فى مصرنا الحديثة .

ومجمل هذه القصة أن فلاحاً من أهالى الفيوم فى منطقة وادى النطرون ، كان يقطن قرية تسمى « حقل الملح » وقد وجد أن مخزن غلال أسرته قد أشرف على النفاد ، فحمل على قطيع صغير من الحمير حاصلات قريته وسار به نحو العاصمة ، وكانت وقتئذ « إهناسية المدينة » ، وكان غرضه أن يستبدل غلالاً بحاصلاته هذه .

وكانت الحالة تحتم عليه أن يمر من طريق به منزل رجل يدعى تحوتى نخت ، وهو موظف صغير من موظفى شريف يدعى رنزى وكان يحمل لقب « المدير العظيم لبيت الفرعون » . وعندما لمح تحوتى نخت حمير ذلك الفلاح تقترب منه سولت له نفسه تدبير حيلة لاغتصابها بما عليها ، فأرسل على الفور أحد الخدم إلى منزله ، فجاء بصندوق مملوء بنسيج الكتان فأخرجه ونشره على الطريق العامة حتى غطاها كلها من حافة حقله الذى كان وقتئذ مزروعاً قمحاً إلى حافة الترعة التى كانت تقع على الجانب الآخر من الطريق . وكان ذلك الفلاح البرئ ، كما تقول القصة ، يتقدم فى سيره على الطريق العامة التى يسير فيها كل الناس ، وهى التى سدها تحوتى نخت المذكور بنشر النسيج عليها — ويلاحظ هنا أن العبارة الأخيرة تشف عن غضب الكاتب وحنقه مما حدث — ولما كان الفلاح يخشى السير فى الماء اضطر أن يمشى فى الجهة الأخرى فى شريط ضيق لم يكن قد غطاه نسيج هذا الموظف بجوار حقل القمح .

وفى أثناء السير التقم أحد الحمير بضع سيقان من القمح ، وبذلك تهيأت الفرصة لتحوتى نخت الماكر للوصول إلى مأربه وكان يترقب ذلك عن كثب . وفى هذه اللحظة تقدم الفلاح إلى تحوتى نخت مقدماً له الاحترام والخضوع بألفاظ لا تحط من كرامته . فما كان من تحوتى نخت المذكور إلا أن قبض على الحمير واستاقها إلى منزله ، وكان الفلاح وقتئذ يصيح ويستغيث محتجا على ذلك الفعل فى أدب واحتشام ، ثم أردفه باحتجاج شديد، وانبرى يقول له : إن طريقى مستقيمة ، غير أن أحد جانبيها قد سد ، فمن أجل ذلك سرت بحميرى على تلك الحافة .

أتغتصب حميرى لأن واحداً منها التقم ملء الفم من سيقان قمحك ؟ إنى أعرف رب هذه الضيعة ، فهى ملك رنزى المدير العظيم لبيت الفرعون، وأعرف أنه هو الذى يقضى على كل سارق فى هذه الأرض . فهل أسرق فى ضيعته ؟ فلما أحفظ تحوتى نخت من جسارة هذا الفلاح انتزع فرعاً من شجرة أثل وأخذ يضرب به الفلاح بدون رحمة ولا شفقة غير مبال بصياحه واحتجاجاته المتكررة، واستاق كل الحمير إلى منزله ؛ واضطر الفلاح الشقى أن يمكث أربعة أيام يرجو فيها رد الحمير إليه بدون جدوى ، وكان يذكر له طول مدة بعده عن أسرته التى أشرفت على الموت من الجوع ، وهو لا يأبه لحاله . فلما رأى الفلاح المذكور منه ذلك صمم على رفع شكواه إلى المدير العظيم لبيت الفرعون نفسه ، وهو الذى

حدث فى ضيعته ذلك الاعتداء الصارخ . وزادِ الفلاح شجاعة فى رفع شكايته إليه ما اشتهر به من حبه للعدل حتى صار مضرباً للأمثال فى عدالته . وبينما كان الفلاح يقترب من المدينة إذ قابله لحسن حظه مدير البيت العظيم المقصود خارجاً من باب ضيعته الواقعة على النهر وهو سائر فى طريقه ليركب فى قاربه الرسمى . وعند ذلك استطاع ذلك الفلاح بما أوتيه من أدب جم وسيطرة على أساليب البيان ، وتوجيه للأقوال الحسنة التى يليق التفوه بها فى مثل هذا المقام ، أن يسترعى أذن ذلك الرجل العظيم حتى يصغى إليه بضع لحظات فى أثناء مسيره لركوب قاربه ، فأرسل أحد خدمه لكى يعرف قصة ذلك الفلاح . فلما رجع ذلك الخادم وأخبر المدير رنزى بتلك السرقة التى ارتكبها تحوتى نخت لم يسعه إلا أن يبسط ذلك الأمر على موظفيه ليقولوا كلمتهم فيه ؛ فكان جوابهم على تلك السرقة هو الغرض الذى قصد إليه مؤلف هذه القصة ؛ فإنه يضع أمام القارئ صورة واضحة للمعاملة الشائعة التى كانت تتبع فى مثل شكاية ذلك الرجل الفقير فى الدوائر الحكومية ؛ إذ نجد زملاء مدير البيت العظيم قد انحازوا إلى جانب مرءوسهم تحوتى نخت السارق ، ولذلك كان جوابهم على المدير رنزى جواباً ملؤه الفتور قائلين : إن القضية يحتمل أن تكون قضية فلاح قد دفع ما يستحق عليه من الضرائب إلى رئيس أعلى خطأ ، وأن تحوتى نخت قد استولى على ما يستحقه من الضرائب بحق من هذا الفلاح . ثم تساءلوا بغضب : هل يعاقب تحوتى نخت بسبب أخذ قليل من النطرون والملح ؟ وعلى أكثر تقدير فى موضوع كهذا يصدر إليه الأمر بإعادتها وهو بلا شك معيدها إليه .

ومما يلفت النظر هنا فى طبقة أولئك الموظفين أنهم تجاهلوا الحمير التى سرقت كلية ، وهى التى كان ضياعها معناه موت ذلك الفلاح وأسرته جوعاً . وفى ذلك الوقت نفسه كان الفلاح واقفاً على مقربة يسمع بضياع ماله وخرابه المحتم . وهكذا تغاضى عنه رجال السلطة وتجاهلوا أمره . (أليست هذه الصورة المخزية تمثل الواقع الآن ؟)

وفى تلك الأثناء كان مدير البيت العظيم جالساً يفكر فى صمت . والواقع أن هذا المشهد يمثل لنا باختصار عصوراً من التاريخ الاجتماعى فى بلادنا . فمن ناحية يصور لنا طائفة الموظفين الليّنى الجانب المتملقين وهم فى ذلك يمثلون

الطراز الغالب فى طبقة الموظفين . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى نشاهد صورة ذلك الفلاح المنكود الحظ الذى لا صديق له ينصره ، وقد اغتصب متاعه ، ثم يتمثل فيه صورة الصيحة التى كانت أول مظهر لطلب العدالة الاجتماعية فى ذلك الوقت السحيق الذى يرجع إلى نحو خمسة وأربعين قرناً مضت .

وهذا المشهد الذى وضعه هذا الكاتب أمامنا فى صورة قصصية يعد من أقدم الأمثلة التى تدلنا على المهارة المصرية فى تصوير المبادئ المعنوية فى شكل مواقف ملموسة ، وهى التى صورت بشكل مدهش فى أقوال عيسى عليه السلام التى جاءت بعد ذلك بقرون عدة .

غير أن الفلاح لما رأى أن مدير البيت العظيم لم يحر جواباً على كلامه حاول مرة أخرى أن ينجى نفسه وأسرته من الموت المحقق الذى كان يتهددهم جميعاً بسبب الجوع ، فتقدم خطوة إلى الأمام وخاطب بفصاحة مدهشة ذلك الرجل العظيم الذى كانت قصته الآن بين يديه متمنياً له سياحة طيبة عند نزوله فى قاربه ، ثم لهج بشهرة مدير البيت العظيم فى فعل الخير . وذلك ما كان يعلل به نفسه عندما رفع قضيته إليه ، فكان يقول له :

« إنك والدا ليتيم ، وزوج الأرملة ، وستر من لا أم له . دعنى أضع اسمك فى هذه الأرض فوق كل قانون عادل . يأيها القائد الذى لا يشوبه الطمع ، ويأيها الرجل العظيم الذى يتجنب الصغائر ، ويحطم الظلم ، ويثبت الحق ، أجب للصيحة التى ينطق بها فمى . فاذا تكلمت فعليك أن تسمع . أقم العدل ! أنت يا من قد مدحت ويا من يمتدحه الممدوحون . إكشف عنى الضر . أنظر إلى ! فانى أحمل أثقالا فوق أثقال ، حقق شكايتى فإنى فى حيرة ! »

وقد كان مدير البيت العظيم يشعر بسرور عظيم من لباقة الفلاح الخارقة للعادة ، إذ كان يعبر بحسن منطق وفصاحة لسان ، حتى لقد تركه دون أن يفصل فى قضيته برأى ، وذهب على الفور إلى البلاط حيث قابل الفرعون وقال له : «يا سيدى ! لقد عثرت على أحد أولئك الفلاحين ممن يحسنون القول بحق» . فسر الفرعون سروراً عظيما ، وكلف مدير البيت العظيم هذا أن يصحب الفلاح معه دون أن يفصل فى قضيته برأى طمعاً فى أن يرتجل له الفلاح خطباً أخرى . وكذلك أمر الفرعون بتدوين أقوال هذا الفلاح بدقة ، وأن يقدم له الطعام وكل ما يلزم لأمر معاشه ، وأن يرسل خادماً إلى قريته ليتحقق من أن أسرته ليست فى حاجة

لى شئ خلال تلك الفترة التى سيكون الفلاح فيها بعيداً عن مسقط رأسه .

وقد كانت نتيجة ذلك أن أخذ الفلاح يلقى على أسماع رنزى مدير البيت العظيم مالا يقل عن تسع شكايات .

وعند هذه النقطة تنتهى هذه المقدمة التمثيلية ، وقد كان الغرض منها أن تضفى على ذلك المقال الاجتماعى الذى كان هدفه الإصلاح ثوباً يجعله فى صورة قصة . وبعد ذلك تبتدئ الشكاوى أو الخطب التسع التى يتألف منها جميعاً ذلك المقال الاجتماعى . وهذه الخطب تكشف لنا أولاً عن خيبة الأمل المحزنة التى صادفها الفلاح فى اعتقاده بشهرة ذلك الرجل العظيم التى كان يعرف بها ، وهى أنه لا يحيد عن العدل . فنجد الفلاح يبتدئ خطبته الثانية بالتقريع اللاذع فيقاطعه « رنزى » مهدداً إياه . أما فى خطابه الثالث فانه يعود إلى مدائح كالتى ذكرها أول رفع شكواه إلى رنزى . فاستمع لما يقول :

« يا سيدى إنك رب السماء فى صحبة حاشيتك ، و إن قوام بنى الإنسان منك ؛ لأنك كالفيضان وأنت « جعبى » (أى إله النيل) ، الذى يجعل المراعى خضراء ، و يمد الأراضى القاحلة . ضيق الخناق على السارق ، ودافع عن الفقير، ولا تكونن كالسيل ضد الشاكى ، واحذر من قرب الآخرة ، وارغب فى أن تعيش طويلا ؛ لأن المثل السائر يقول : إن إقامة العدل هو نَفَسُ الأنف ، وأوقع العقاب على من يستحق العقاب . وليس هناك شئ يماثل استقامتك . هل الميزان يتحول ؟ وهل يميل لسانه إلى جهة ؟ . . .

« لا تنطقن كذباً ، فانك الميزان ، ولا تنكمش ؛ فانك الاستقامة . تأمل ! إنك على مستوى واحد مع الميزان فان انحرف انحرفت أيضاً . ولا تحيدن ، بل أدر السكان ، واقبض على حبل الدقة . ولا تغضبن ، بل اعمل ضد المغتصب ، وذلك العظيم ليس عظيما ما دام جشعاً . إن لسانك هو ثقل الميزان ، وقلبك هو ما يزن به ، وشفتيك ذراعاه . فاذا سترت وجهك أمام الشرس ، فمن ذا الذى يكبح الشر ؟ » وهذه الموازنة بين أخلاق مدير البيت العظيم رنزى وبين الميزان تظهر مرات متكررة فى خطب ذلك الفلاح .

أما العبرة التى تؤخذ من تلك الخطب فواضحة ؛ إذ أن مفتاح طريق الحق كان بأيدى الطبقة الحاكمة ، فاذا أخفقوا فى اتباعها ففى أى مكان آخر يمكن الحصول عليه ؟ إذ كان المرجو منهم أن يوازنوا بين الحق والباطل ثم يفصلوا

فيه بقرار عادل كالموازين الدقيقة التى لا تخطئ . ومن ذلك نعلم أن الموازين كانت تؤلف رمزاً أصبح شائع التداول فى الحياة المصرية، حتى إن كفتى الميزان كانتا على ما يظهر قد صارتا بمثابة وسيلة دقيقة لتصوير محاكمة كل روح فى عالم الآخرة .

ولسنا مبالغين إذا قلنا إن الموازين قد وجدت لأول مرة فى ذلك المقال فى تاريخ الأخلاق ، وقد بقيت مستعملة فى يد العدالة المطلقة إلى يومنا هذا . وترجع نشأة هذا الرمز إلى الظهور أولاً بين رجال الفكر فى العهد الإقطاعى بمصر، أى منذ ما يربى على أربعة آلاف سنة مضت . ولم يكن الأمر مقصورا على استعمال الميزان بوجه عام بمثابة رمز للاستقامة فى ذلك العهد الإقطاعى فحسب بل كانت أجزاؤه كذلك تستعمل على الدوام لذلك الغرض أيضاً .

ويجب أن نلاحظ هنا كذلك أن الفلاح كان يذكر مدير البيت العظيم بضرورة ظهوره أمام محاسبة الميزان الذى لا يتحيز إلى جهة ؛ إذ يقول له : « احذر قرب يوم الآخرة » . وهذا المثل من الأمثلة القليلة التى يلجأ إليها تحذيراً من الظلم وإشعاراً بما يتعرض له الظالم من المسئولية أمام الله فى الحياة الآخرة .

وقد صارت الآن تهديدات الفلاح لمدير البيت العظيم وهو يلقيها واقفاً أمام القصر فى شدتها أكثر مما يمكن احتماله ، حتى لقد أرسل خادمين ليجلدا ذلك التعس . ولكنه على الرغم من ذلك انتظر قدوم رنزى كرة أخرى بقلب ثابت لا يزعزعه خوف الضرب أو التعذيب . وعندما وقع بصره عليه واجهه بخطبة رابعة ثم تلاها بخطبة خامسة . وبالرغم من أنها كانت أقصر خطبه كلها فانها كانت ألذعها فى الاتهام . فاستمع لما يقول : « لقد نصبت لتسمع الشكاوى ، وتفصل بين المتخاصمين ، وتكبح جماح اللص ، ولكن ما تفعله هو أنك تتحالف مع اللص . والإنسان يضع ثقته فيك ، ولكنك أصبحت معتدياً . لقد نصبت سدًّا للفقير ، فاحترس خوف أن يغرق . ولكن تأمل ! إنك تياره السريع ، وفيضانه الجارف ! »

ولكن رنزى كان لا يزال ملازماً الصمت ؛ من أجل ذلك اضطر الفلاح أن يبتدئ خطابه السادس لاجئاً من جديد إلى عاطفة العدالة التى اتصف بها مدير البيت العظيم ، وإلى ما اشتهر به من الرأفة . فاستمع لما يقول :

« يا مدير البيت العظيم ، يا سيدى ! . . . إن كل محاكمة حقة تدحض الباطل ، وتعلو بالصدق ، وتشجع الحسنة ، وتمحو السيئة ، كالشبع عندما يأتى يقضى على الجوع ، وكالكساء يقضى على العرى ، وكالسماء تصفو بعد العاصفة الشديدة ، وتدفئ كل من شعر بالبرد ، وكالنار التى تسوى النئ ، وكالماء الذى يطفئ الظمأ ، أنظر بعينيك ! إن الحكم متلاف ، والمصلح موجد للفساد ، ومهدئ الخلافات خالق للآلام ، والمغتصب يحط من قدر العدالة . »

ولما لم يجد الفلاح جواباً من رنزى على استعطافه اهتاج من جديد وأخذ يقول : « إنك متعلم ، وإنك ماهر ، وإنك عادل ، ولكن ليس فى النهب والسرقة . والآن مثلك مثل كل بنى الانسان ، كل أعماله ملتوية ومفسد الأرض كلها يمشى مستقيما إلى الأمام (لا يرى أمامه اعوجاجاً) ، وزارع الشكر يروى حقله بالأعمال الخاطئة حتى يجعل مزرعته تنمو بالكذب ، وبذلك يرى المتاعب إلى الأبد ! »

ومع ذلك فان هذه الاتهامات لم تحرك ساكناً عند مدير البيت العظيم . ولذلك أخذ الفلاح التعس يفتح فمه بصوت عال ، وألقى شكواه السابعة . فيبتدئ كالمعتاد بمدح مدير البيت العظيم ، فيقول له : « إنك سكان البلاد قاطبة ، والأرض حسب أمرك ، وإنك معادل للإله تحوت (إله العلم والمعرفة والمواقيت) تقضى دون أن تنحاز إلى جانب . يا سيدى ! كن صبوراً حتى يمكن الإنسان أن يستغيث بك لقضيته العادلة . ولا تجعلن قلبك جموحاً ، فان ذلك لا يليق بك ، فان الرجل البعيد النظر يكون حليما . » ثم ترى الفلاح يرجع فجأة على الفور إلى وصف حالته التعسة فيقول : « حقًّا ! إن جوفى لملآن ، وقلبى لمفعم ، وقد طفح من جوفى تقرير عن تلك الحالة . لقد كان صدع فى السد فتدفق منه الماء ، وقد انفتح فمى للكلام . » غير أن استمرار تغاضى ذلك الحاكم وعدم اكتراثه مع ما هو مشهور عنه من عدالة ورأفة بالضعفاء ، قد زاد فى غيظ ذلك الفلاح التعس إلى حد جعله يتخذ من صمت مدير البيت العظيم عنه شاحذاً لعاطفته ، ويرى فيه دافعاً يطلق عقال ألسنة أكثر الناس لكنة وعيًّا ، فيقول مقرعاً إياه : « إن خمولك سيضلل بك ، وشراهتك ستغشك ، وإن عدم اكتراثك سيولد لك أعداء . ولكن هل يمكنك أن تجد فلاحاً آخر مثلى ؟ وهل الشاكى يقف على باب بيت الخامل ؟ على أنه لا يوجد إنسان صامت قد أنطقته ،

ولا نائم قد أيقظته ، ولا مكتئب قد نشطته ، ولا إنسان فمه مغلق قد فتحته ، ولا جاهل قد جعلته يعرف ، ولا غبي قد علمته . ومع ذلك فان الحكام هم الذين يقصون السوء ، وأرباب الخير هم أصحاب فن ليصنعوا أى شيء كائن ، ويصلوا الرءوس التى قد فصلت عن أجسامها ! » .

ولما لم يكن فى مقدور ذلك الفلاح أن يكبح جماح غضبه وشدة حنقه ؛ أخذ يلقى خطابه الثامن ، واستمر فى تهديد رنزى إذ يقول : « يأيها المدير العظيم يا سيدى ! إن الناس يتحملون السقوط السحيق بسبب الطمع ، والرجل الجشع يعوزه النجاح ، ولكنه ينجح فى الخيبة ! إنك جشع وذلك لا ينسجم معك . وإنك تسرق وذلك لا يفيدك ، أنت يامن يجب عليه أن يسمح للإنسان أن يشرف على قضيته الحقة . ذلك لأن ما يقيم أودك فى بيتك ، ولأن جوفك قد ملئ . . . آه ! أنت يا من يجب عليه أن يقضى على اللص ، ويا من يقصى الحكام وقد نصبوا ليدرءوا السوء ، وهم حمى الساخط . والحكام قد نصبوا ليكبحوا الكذب . . . إنك تملك حقلك فى الريف ، وضياعك التى وهبها لك الملك ، وخبزك فى المخبز ، والحكام يعطونك ومع ذلك تغتصب ! هل أنت لص ؟ هل يحضر إليك بجنود لتصاحبك عند تقسيم الحقول (المسروقة) ؟ »

ومع كل ما وجهه هذا الفلاح من تقريع واتهامات لاذعة إلى هذا الحاكم فانه لم ين عن المطالبة بتحقيق العدالة ؛ ولذلك يعود من جديد مطالباً بها فى أعظم فقرة فاه بها فى ذلك المقال العظيم ؛ إذ يقول : « أقم العدل لرب العدل ، والذى عدل عدالته موجود . وأنت يأيها القلم ، وأنت يأيتها البردية ، ويأيتها الدواة ويا تحوت (رب العلم) ابتعدوا عن عمل السوء ، وعندما يكون الحسن حسناً فالأمر إذن حسن . غير أن العدل سيكون إلى الأبد ، ويذهب مع من يعمله إلى الجبانة ، وسيدفن وتطويه الأرض ، أما اسمه فلن يمحى من الأرض ، بل سيذكر للخير . وهكذا القانون التى رسمته كلمة الله العليا . »

على أن السؤال الذى ينشأ عن ذلك طبعاً بعد إلقاء هذه الكلمات الخارجة من الأعماق هو : ألا يزال هناك مجال للظلم بعد ذلك ؟ ولقد أخذ الفلاح يسأل هذا السؤال . فاستمع إليه وهو يسأل :

« هل هو ميزان ؟ إذن لا يميل . هل هو لسان الميزان ؟ إذن لا يحيد إلى جانب (لايزن غشا) . » ثم يستمر قائلا : «وإذا احضرتُ أو حضر غيرى فخاطبه

ولا تجيبين كانسان يخاطب رجلا صامتاً، أو كانسان يهاجم من لا يمكنه أن يهاجم ... إنك لا تظهر الرحمة . . . إنك لا تعطيني مكافأة على تلك الخطب التي تخرج من فم الاله نفسه . انطق بالعدل ، وأقم العدل ، لأنه خطير وعظيم ويعيش طويلا ، والثقة به قد عرفت ، فهو يؤدى إلى العمر الطويل المحترم . هل الميزان يحيد؟ فاذا كان الأمر كذلك فان ذلك يكون بسبب كفتيه اللتين تحملان ما يوزن . ولا يجوز وجود الظلم مع القانون . »

ولما لم يفه رنزى بجواب على هذه الكلمات السامية ، رفع الفلاح صوته عالياً للمرة الأخيرة وألقى مرافعته النهائية عن قضيته اليائسة ، وهى خطبته التاسعة التى يذكر فيها مدير البيت العظيم بخطر الكذب والغش إذ يقول : « وإذا مشى الكذب فى الخارج فانه يضل ، ولا يعبر فى قارب التعدية ، ولن يتقدم قيد أنملة . أما من تنمو ثروته به فلن يكون له أطفال ، ولن يكون له وارث على الأرض . ومن يسيح به فيتخذه بضاعة فلن يصل إلى بر . ، وسفينته لن ترسو على مرفأ . . . » ثم يختم الفلاح خطبته بالكلمات التالية :

« لا تكونن متحيزاً ، ولا تصغين لقلبك ، ولا تسترن وجهك من إنسان تعرفه ، ولا تتعامين عن إنسان قد رأيته ، ولا تردن إنساناً يشكو إليك ، واترك هذا الخمول حتى يمكن أن تروى حكمتك القائلة « افعل الخير لمن يفعله لك » وأن تصل إلى مسامع كل الناس ، وحتى يرجع إليك القوم فيما يتعلق بالمطالبة بالحق . والأصم عن العدل لا رفيق له . والرجل الجشع لا فراغ لديه . وذلك الذى يوجه إليك التهمة يصير رجلا فقيراً ، والفقير يصير شاكياً ، والعدو يصبح ذابحاً للفلاح . تأمل ! إنى أشكو إليك ، وأنت لاتسمع شكواى ، فسأذهب وأشكو إلى أنوبيس . »

ولما كان أنوبيس هو إله الموتى ، فان الفلاح كان يقصد من ذهابه إليه أنه سينتحر . وعندئذ يرسل مدير البيت العظيم خادمه على الفور ليجئ بالفلاح أثناء عزمه على الرحيل . وإذذاك تبادلا معاً بعض العبارات المبهمة فى المتن . على أن رنزى فى الوقت نفسه كان قد دوّن فى بردية أخرى كل شكايات الفلاح حسب تواريخها .

والمفروض أن ما انحدر إلينا من تلك الوثائق هو نسخة من تلك البردية . ولكن مما يؤسف له أن خاتمتها كانت ممزقة كل ممزق . ويمكننا أن ندرك أن

لفائف البردى التى أعطاها أمناء أسرار رنزى إياه هى التى حملها رنزى هذا إلى الملك . وقد وجدها الملك سارة لقلبه أكثر من أى شئ فى البلاد ، وبعد ذلك يأمر الفرعون مدير البيت العظيم أن يفصل فى قضية الفلاح ، و إذذاك يحضر المختصون بهذا العمل سجل الضرائب الذى يحدد ممتلكات ذلك الفلاح الرسمية ، ويبين موقفه القانونى والاجتماعى ، وعدد أفراد أسرته ، ومقدار ثروته ، ثم يعقب ذلك فى البردية بعض كلمات مفتتة يقل عددها عن اثنتى عشرة كلمة ، يمكننا أن نفهم منها على وجه التقريب أن تحوتى نخت قد عوقب ، وأن ممتلكات ذلك الموظف الجشع المغتصب قد أعطيها الفلاح .

ولأمر هام نجد أن أشراف رجال البلاط الفرعونى منذ ما يربى على أربعة آلاف سنة مضت مهتمون بما فيه الكفاية لإسعاد حال الطبقات الدنيا ، حتى إنهم كانوا يكلفون أنفسهم مشقة تدوين مثل تلك المقالات والاعتناء بحفظها، وهى لم تكن فى الواقع إلا دعاية لنظام قوامه العدل والشفقة بالفقراء . وأمثال أولئك الرجال كانوا حملة أقلام لاعلان حرب مقدسة مطالبين فيها بالعدالة الاجتماعية . وقد جعلوا ذلك المقال بالذات ممتعاً فى قراءته لطبقة الأغنياء الموجه إليهم ذلك المقال . وبالرغم مما يجده الأثرى من الغموض المستمر فى لغته وأسلوبه البليغ ، واستعاراته القوية ، وتشبيهاته القريبة مما صير فصاحة ذلك الفلاح غامضة المعنى فى أذهان عالمنا الحديث ، فان ذلك المقال قد اكتسب مكانة جعلته أدباً من الطراز الراقى فى عصره . ولا شك فى أنه كتب بالأسلوب الذى كان مستحسنا عند أهل ذلك العصر؛ على أن ذلك التهكم اللاذع الذى يبدو فى نواحيه كان مما يزيد فى شهرته الأدبية عند قدماء المصريين الذين كانوا محبين بطبيعتهم للتهكم ، ولكنه مع ذلك كان أدباً يرمى إلى غرض خلقى . وقصة ذلك الفلاح الفصيح تعد تصويراً حيًّا ناطقاً عن عجز أولئك الموظفين الأمناء إذ لم يكن يشد أزرهم ملك عادل حازم رءوف عليم بخبايا الأمور يعرف ما يجرى فى مختلف بقاع بلاده من أصدقاء أوفياء لا موظفين متملقين يصورون له الحقائق مقلوبة ويعرضونها كما تشاء أهواؤهم وتتفق مع مصالحهم ومصالح من يلوذ بهم . والآن نسائل هل أعطى الكاتب الاجتماعى القديم درساً لمصرى الجيل الحاضر ؟

سليم حسن

إلى فتاة

فيضُ أهواء العيون		تَنشد المرمى اللطيفْ
خاف جسّاتِ الجفون		تحصر الوهم الرهيف
فرّ هفّافَ الجنون		نحو أبراج الطريف
يجتلى ما قد يكون		بعد منظورٍ كثيف
عاد من قطب الظنون		من سنا أوجٍ عفيف
مثل زهوٍ فى الغصون		لم يروّضه الخريف

بصّرينى يا « وضوحْ »		ثروةَ القطب الخطيرْ
أنا فى وهْج الفتوح		يقظٌ لكن حسير
خفَّ بى كشفٌ طموح		وكبا فهمٌ كسير
فسَرَت فَوحاتُ روح		فى غيابات الضمير
لمحاتٌ قد تبوح		بخفيّات الأثير
ويْهَ جودى بالشروح		يسّرى أنس الغرير

بشر فارس

ذكريات الحرب الكبرى الأولى

١

كانت الحرب الكبرى فى ١٩١٤ متوقعة ، وكان أساسها المباراة العظيمة بين الانجليز والألمان . فانهما كانا على تقدم صناعى عظيم يحتاج إلى المستعمرات والمواد الخامة والأسواق . وكان الانجليز حاصلين على كل هذا ، ولم يكن الألمان حاصلين على شئ يؤبه به . فكانت الصناعات الانجليزية تمتاز بالمواد الخامة الرخيصة التى تحصل عليها من الهند وجاوة ومصر وغيرها ، فتستطيع بيع مصنوعاتها بأثمان منخفضة . ثم فى الوقت نفسه كانت تجد التفضيل فى الأسواق فى هذه الأقطار وغيرها ، و إذا لم يكن هذا التفضيل بالامتياز الجمركى الصريح ، الذى يجعل مصنوعاتها تدخل هذه الأقطار بسهولة ، فانه يكون بألاعيب أخرى تؤدى إلى التفضيل ، ويقوم بها موظفو المستعمرات لخدمة طبقة الصناعيين والتجاريين فى بريطانيا .

ولم يطق الألمان هذه الحال ، أى أن يثرى الانجليز بأوضاع اقتصادية عالمية غير عادلة ، ويبقوا هم فى تخلف اقتصادى . وشئ من هذه الحال كان أيضاً بارزاً فى مقدمات الحرب الكبرى الثانية التى دعت اليابان فيها إلى « الرخاء المشترك » .

وكانت الشرارة الأولى للحرب قتل أحد الأمراء من أسرة الامبراطور فرانز جوزيف ، وكان إمبراطوراً هرماً على إمبراطورية هرمة ضعيفة . ولم تمض إلا أيام حتى كان العالم كله مشتعلا ، وأخذ الجمهور فى مصر على دهشة .

وكنت أصدر مجلة المستقبل فى القاهرة . فدعيت إلى تعطيلها فى إدارة المطبوعات . ثم شرع الانجليز فى اعتقال من يتوجسون فى اتجاهاته . ولبثت بعض الشهور وأنا أعمل مع مى فى جريدتها ، أى جريدة والدها ، المحروسة . ولكنى سئمت الرقابة التى لم تكن تسمح بنشر خبر صحيح إلا بعد أن تزيفه حتى تخرج الهزيمة التى كانت تقع بالحلفاء كأنها انتصار رائع لهم .

ورحلت إلى الريف ، ورأيت كيف كان يسلط الانجليز علينا الموظفين المصريين من مأمورين ومديرين وحكمدارين وشرطة لخطف محصولاتنا . وكانت الجمال

والحمير بل الرجال يخطفون أيضاً كما لو كانوا فى قرية زنجية على خط الاستواء قد كبسها النخاسون لخطف سكانها وبيعهم فى سوق الرقيق . وكان المنظر يهين النفس كما يفتت القلب . فكان الرجل يربط بالحبل الغليظ من وسطه ، وخلفه أمثاله ، ويسيرون على هذه الحال صفًّا إلى أن يبلغوا « المركز » فيحبسون فى غرفة المتهمين ثم يرّحلون إلى فلسطين . وكنت أنجح أحياناً بالرشوة فى استخلاص بعض هؤلاء المساكين . وذات مرة سمعت صراخاً ودخلت علىّ نسوة فى فزع ونحيب . وعرفت أن ثلاثة ممن يزرعون أرضنا ألقى القبض عليهم وهم يحرثون فى الحقل . فخرجت ووجدتهم مربوطين بالحبال بحراسة أحد الشرطة . أما سائر الشرطة فقد تركوهم كى يغزوا قرية أخرى . واستطعت بمساومات مع الشرطة أن أحصل على الافراج عنهم . ولكنى لم أكن أنجح كل مرة ؛ ففى ذات يوم قصدت إلى المأمور فى الزقازيق أطلب منه إطلاق اثنين من الفلاحين . فتأملنى ثم قال : أنا عايز أرّحلك أنت لفلسطين . فتركته إذ لم تكن الظروف وقتئذ تأذن بالتحدى .

وفى تلك السنوات السود أثرى كثير من العمد ثراء فاحشاً ؛ فقد فرضوا ضرائب على جميع الشباب من سن العشرين إلى الخمسين كل على مقدار مايملك . فهذا يؤدى خمسة جنيهات ، وذاك عشرة جنيهات ، حتى يعفيهم من الاعتقال وبعثهم إلى فلسطين . وعرفت عمدة كان يملك ستة أفدنة فقط جمع نحو خمسة آلاف جنيه بهذه الطرق . وكان الفلاحون يجوعون كى يجمعوا هذه الغرامة ويؤدوها .

وقد استمتعت بعد ذلك بالشماتة عندما رأيت هذا الشقى وقد قبض عليه الانجليز بعيداً عن قريته وأجبروه على النزول فى ترعة يبحث عن أحد قضبان الخط الحديدى لشركة الدلتا . فقد فوجئ وهو على حمار قاصداً إلى الزقازيق فأنزلوه وضربوه وأجبروه على العمل فى ترميم الخط الحديدى الذى كان الفلاحون قد نزعوه فى ١٩١٩ . وعرفت بعد ذلك أنه تورط فى معاكسات ومشاجرات بينه وبين الأهلين فضاع كل ما جمعه ؛ فقد تعقبوه بالشكايات جملة سنوات وتمسكوا عليه بمخالفات خطيرة جعلته ينفق فى الرشوة وأجور المحامين كل ما جمعه من هؤلاء الفلاحين المساكين .

وكان معظم النقل فى الحرب الكبرى الأولى على الخيول الاسترالية ، وكانت ضخمة يعلف الحصان منها بضعف ما يعلف به حصان من خيولنا . ولذلك كان التبن والشعير يخطفان من الريف . وقد قام عمالنا المصريون ، وهم من الفلاحين ،

بخدمة الحملة الانجليزية فى فلسطين . وكانوا يعدون بعشرات الألوف مات أكثرهم وعمى بعضهم . ومع ذلك عندما انتهت الحرب واشتعلت الثورة فى مصر فى سنة ١٩١٩ وقف السفير البريطانى فى واشنطون ينتقص من قيمة خدمتنا فى الحرب كى يحول دون العطف الأمريكى على قضية استقلالنا ، فقال إن جميع من قتلوا فى الحرب من المصريين لا يزيدون على ثلاثة أشخاص .

وكثير من الفلاحين يتركون الأرض إلى المدن لما يلاقون من قسوة المالكين الذين يعصرونهم بالايجارات والمحاسبات . ولكن الريف لا يزال معموراً بل مزدحماً بالفلاحين على الرغم من جميع ما يلقى هؤلاء فيه من مصاعب . وظنى أن بعض السبب لذلك أن فى الأرض فتنة تسحر الفلاح وتربطه بها مهما قل كسبه منها . فانه يستيقظ قبل الشروق ، ويخرج إلى حقله ترافقه بقرته وحماره وعنزته أو نعجته . وهو يحس برفقة هذه الحيوانات ويجد فى هذه الرفقة لذة تسمو على الاعتبارات المالية . وهو يتشمم الأرض عقب حرثها حين تنفح التربة الهواء بروائحها التى توحى الرخاء والبركة . بل هو يبكر أحياناً كى يتحقق من النمو الجديد فى الذرة أو القمح . وفى الشتاء حين يكسو الندى البرسيم تبدو الدنيا فى بهاء لا يعدل الانسان به أى جمال آخر .

وقد وجدت هذه الفتنة فى السنوات التى قضيتها فى الريف مدة الحرب . وكنت كثيراً ما أتأمل الفلاحين وهم يكدّون من الفجر إلى الغروب ، ثم يعودون مرحين يتغنون بالمواويل خلف البهائم إلى بيوتهم . وهذا الحب للأرض وللنبات وللحيوان يلصق الفلاح بالريف ويجعله يرضى بالمعيشة الضنينة من حيث الطعام واللباس والمسكن ، بل يرضى بقسوة الايجارات والمحاسبات ، بل إن الفلاحة أيضاً تجد من الاهتمامات بتربية الدجاج والبط والحمام ما يجعلها مفتونة بهذه الطيور فتعنى بها كما لو كانت تؤدى هواية لذيذة . وكثيراً ما رأيت إحدى الفلاحات تخاطب البقرة التى عزفت لسبب ما عن الطعام بقولها : يا حبيبتى ، يا أختى ، ثم تمسحها بيديها كما لو كانت طفلا تدلله .

ثم يجب ألا ننسى القمر فى الريف؛ فانه يسكب سحره على كل شئ ، وأبناء المدن الذين يرون القمر من خلال المبانى لا يعرفون فتنة هذا الكوكب فى الريف.

وغيرى يعدّ الريف منفى ، ولكنى أعتقد أن أحسن سنى حياتى هى تلك التى

قضيتها فى الريف . فقد أتاح لى الدراسة الجدية كما أتاح لى الاستمتاع بالطبيعة . ولم يكن يمر علىّ يوم دون أن أستيقظ فى الساعة الرابعة أو الخامسة من الصباح وأسير فى الحقول وهى مبللة بالندى فى هدوء الطبيعة الرخيم أنتظر بزوغ الشمس فأحييها وأتأملها كأنى فى صلاة . وهناك آلاف من الناس لم يعرفوا قط هذه الصلاة ولم يحسوا هذا الاحساس الدينى فى الاتصال بالطبيعة فى خلوة الحقول التى تنمو كل نهار بحياة جديدة . والسائر فى الحقول فى هذه الساعات الأولى من النهار تغمره نشوة حقيقية حتى ليجد خفة فى نفسه لا تختلف من تلك التى يحدثها الكئول ، ولكن دون تخدير للوجدان .

والريف يوهم التجزؤ والانفصال . هذا نبات ، وهذا حيوان ، وهذا مسكن ، وهذا حقل ، بل هذا إنسان وهذا بهيم . ولكن المتأمل يجد الترابط والتكافل ، كأن كل هؤلاء وحدة حية .

وقد كان داروين يقول على سبيل الفكاهة إنه يستطيع أن يقدر عدد العوانس فى قرية (فى انجلترا) بملاحظة حقول البرسيم المحيطة . فاذا كان البرسيم مزدهراً ناجحاً فانه يدل على أن العوانس كثيرات فى القرية . ذلك لأنهن يربين القطط . والقطط تأكل الفئران . والفئران تأكل النحل . والنحل هو الذى ينقل إلى البرسيم لقاحه من زهرة إلى زهرة . . . فاذا قلت العوانس قلت القطط وزادت الفئران ، وقل النحل ثم قل ازدهار البرسيم .

ونحن نرى هنا بالطبع فكاهة . ولكن لها مغزاها ، وهو أن النبات والحيوان يعيشان فى تضامن سمبيوزى أى إن كلا منهما يخدم الآخر ؛ فحياة هذا تتوقف على حياة ذاك . وقد كنت أبتهج بالتأمل فى الريف لهذه الروابط بين النبات والحيوان . وكثيراً ما كنت آسف وأنصح بشأن البومة ؛ فان الفلاحين قد ورثوا عقائد غيبية عنها إذ يقتلونها لأنهم يتشاءمون منها ، مع أنها تأكل الفئران التى تقتات بذراهم وخبزهم . ثم إن تكاثر الفئران يؤدى إلى تكاثر الثعابين التى تقتات بها . بل إن للذئاب والثعالب فى ريفنا قيمتها السمبيوزية أيضاً لأنها تنظف القنوات من الرم .

وقد كنت ، وما زلت إلى الآن ، أجد لذة واهتماماً فى أن أتابع فراشة بل أجرى وراءها كالصبى حتى أمسكها وأتأملها وأبحث عن أعضائها ، ثم أطلقها . وسلوكى هذا كثيراً ما كان يبعث الابتسامات بين الفلاحين الذين يعتقدون

أن مثل هذا العبث لا يتفق والوقار . وما زلت أحلم بأن أقضى السنة الأخيرة من عمرى فى الريف .

وريفنا الذى صنعته الطبيعة ، ريف الحقول والزهر والشجر والطير والفراش، هذا الريف يتلألأ بالجمال ويبعث الحياة تنبض فى عروقنا حين نشرب من هوائه ونشم منه خضرة البرسيم أو الذرة التى تغمر نفوسنا . ولكن الريف الذى صنعه المجتمع المصرى ، ريف المساكن الكالحة المبنية من الطين المجفف ، ريف الايجارات والمحاسبات والحرمان للفلاحين ، هذا الريف لا يوحى إلينا الصلاة بل يوحى الغضب واللعنة وكراهة الحياة فى مصر . فان المالك يعامل أحياناً الفلاحين بروح تجارى لا يبالى هل هو يجوع أو يمرض بسبب الايجارات العالية التى يفرضها عليه .

وأذكر أن أحد الفلاحين فى عزبة غير بعيدة قدم إلىّ ذات صباح فى ١٩١٥ وعرض علىّ أن ينتقل إلى عزبتنا ، فقبلت . وقبيل الغروب حضر هو وزوجته التى كانت تحمل ابنتها على صدرها ، وكان هو يحمل جرة بها « مخلل » . وكانت هذه الجرة كل ما يملك من متاع فى الدنيا . فقد حاسبه صاحب الأرض وأخرجه خالصاً لا عليه ولا له . وفاحت رائحة كريهة من الجرة . فكشف عنها أحد الحاضرين وصب منها على الأرض ، وما زال يصب حتى فرغت . وكان هذا « المخلل » الذى ذكره هذا المسكين لا يتجاوز هذا السائل الكريه يبلل به هو وزوجته خبز الذرة ثم يبلعانه . وكان الهزال واضحاً فى الثلاثة . وكان أوضح فى الطفلة التى كانت تتعلق بصدر أمها كأنها خرقة بالية معلقة . وقد ماتت هذه الطفلة بعد نحو أسبوعين .

وقص علىّ على ، وهذا اسمه ، مأساته . فقد دخل تلك العزبة قبل ست سنوات ومعه بقرة وحمار ، وكان لزوجته صندوق ولحاف وحصير ومخدة . ولكن المالك كان « يحاسبه » كل عام ، فيخرج مديناً . وباع بقرته وحماره فى تسديد الدين . ثم باعت زوجته كل أمتعة البيت كى تشترى الذرة .

وذات مساء أقبلت على العزبة فوجدت علياً مبطوحاً على بطنه وهو يصرخ صرخات عالية . وفزعت عندما رأيته على هذه الحال ، وظننت أنه قد تسمم أو أن وباء الكوليرا قد نقل إلى مصر مع بعض الجنود الهنود . ولكن المسكين سكت خجلا عندما رآنى . وذهبت به فى اليوم التالى إلى الزقازيق لأحد الأطباء .

فقال إنه مريض بالبلاجرا ، وهو مرض ينشأ من النقص الغذائى ، فذكرت الجرة التى جاء بها وصببنا منها المخلل على الأرض . . .

وتفاقمت حاله ، وظهرت عليه أمارات البلاهة . وتركته زوجته وتزوجت غيره . ثم حدث حريق فى بهنباى بعد ذلك بسنين ، وكان هو فى أحد أزقتها . فخانه ذكاؤه الذى تقهقر من البلاجرا فعجز عن التخلص من النار ومات بالحريق .

وفى الريف المصرى الجميل ، آلاف من هذه المآسى التى تعود إلى الروح التجارى فى محاسبة الفلاحين وزيادة الايجارات حتى يموتوا فى بطء لقلة الطعام . وأغلب المسئولين عن هذه القسوة هم من المالكين الذين يعيشون فى المدن ويستغلون غيابيا أرضهم ، فلا يستطيع وكلاؤهم التسامح ، ولا نقول الرحمة ، مع المأزومين والفقراء ، بل أحياناً يبرهن هؤلاء الوكلاء على إخلاصهم واجتهادهم للمالكين بزيادة الايجارات على هؤلاء المساكين .

وكنا نقرأ الأخبار كما يحب الانجليز أن نفهمها . ولذلك كانت الرقابة صارمة شاملة . فقد اشتركت فى بعض المجلات الأمريكية كى أصل عن طريقها إلى الأخبار الصحيحة . فكانت إما تمنع من الوصول إلىّ وإما تقص أوراقها التى تحمل أخباراً غير ملائمة للانجليز . ولكن حتى بين المحررين المصريين من كان يستطيع أن يروى الخبر بحيث يجوز ظاهره على الرقيب ويدرك قارئه ما بين سطوره ، مثل :

« جاء فى التلغرافات أن هزيمة الألمان عند فردناش كانت فادحة ؛ إذ تقدموا بعد جهد كبير عشرة كيلومترات . ولكن ارتد عليهم الجنود الانجليز والفرنسيون فانتزعوا منهم طاحوناً . وقد أحدث هذا المنظر فرحاً عاما فى قيادة الحلفاء . »

وكان الرقيب ينخدع بهذه اللهجة وينسى المعانى الواضحة .

وكان إعجاب الجمهور بألمانيا يفوق الوصف . وبعض هذا كان يعود بالطبع إلى الشماتة بالانجليز المحتلين لوطننا . وكنا نهجس أحياناً بأمل الاستقلال إذا انهزمت بريطانيا أو على الأقل لم تنتصر . وكان هذا الأمل قوياً فى بداية الحرب وبقى إلى أن دخلت أمريكا فى صف الحلفاء . ولم تكن الطائرات عنصراً خطيراً فى الحرب الكبرى الأولى . ولم تزرنا فيها غير طائرتين : الأولى ألقت قنبلة بالقرب

من البنك الأهلى . والثانية ألقت قنبلة فى حى الفجالة ، وكان التلف صغيراً . وأيضاً أرسلت ألمانيا بلوناً عبر جوّنا ، ذهاباً وإياباً ، من أوربا إلى المستعمرة الألمانية فى أفريقيا الشرقية . ولم يلق أية معارضة من الانجليز . وكان على ارتفاع بعيد حتى لم يسمع أحد بأزيز موطراته .

وقد كانت براعة الألمان فى القتال عظيمة ، ولكن إخفاقهم فى السياسة كان عظيما أيضاً ؛ إذ لم يستطيعوا أن يتوقوا انضمام الأمريكيين إلى أعدائهم . ولذلك صحت كلمة لويد جورج رئيس الوزارة الانجليزية عندما قال : « الألمان يكسبون المعارك الآن . ولكنا نحن سنكسب الحرب » .

وكان تشرشل بطل الحرب الكبرى الثانية بطلا أيضاً فى الحرب الكبرى الأولى . فقد كان يتهم الألمان بأنهم يصنعون الصابون من جثث القتلى أى يستخرجون الشحم من هذه الجثث ويصنعون منه الصابون . وقال أيضاً إن الألمان يبعثون جنودهم إلى المدن لتلقيح النسوة بلا زواج . . . وكانت هذه التهم بالطبع غير صحيحة . ومما قام به تشرشل فى تلك الحرب أنه زيف ملايين النقود الورقية وبعث بها عن طريق سويسرا إلى ألمانيا حيث أفسد قيمة النقد الألمانى . وتشرشل أيضاً هو المسئول عن الحصار الذى ضربه الانجليز على ألمانيا أحد عشر شهراً بعد إعلان الهدنة . فلم يكن يدخل ألمانيا شئ من الأغذية التى يحتاج إليها السكان ، وكانوا قد بلغوا حالا بشعة من القحط . وقد عم الكساح أطفالهم لهذا الحصار .

وارتفعت الأسعار والأثمان إلى أربعة أضعاف بل خمسة أضعاف ما كانت عليه قبل الحرب . ولكن الرخاء كان عاما ، لأن الانجليز بعد أن كانوا قد حددوا أثمان القطن فى السنتين الأوليين من الحرب تركوها حتى وصلت إلى ٤٠ و ٥٠ جنيهاً للقنطار . وكان أردب القمح يصل إلى ٧ أو ٨ جنيهات . وبقيت إيطاليا مدة طويلة وهى محايدة ، فكانت تموننا بكثير من المصنوعات . ولذلك لم يزد قط ثمن البذلة على ٨ أو ٩ جنيهات . وأحدثت أثمان القطن المرتفعة هوساً عاما فى الريف حتى بلغ ثمن الفدان خمسمائة جنيه وإيجاره ٤٠ أو ٥٠ جنيهاً . وبدهى أنه فى مثل بلادنا حيث منع الانجليز تأسيس المصانع يجب أن ترتفع أثمان الأرض كلما زاد النقد المتداول ؛ إذ ليس هناك شئ آخر لاستغلال النقد الفائض . وأعرف اثنين شقيقين فى الريف كانا يتجران بالقطن فى ١٩١٩ . وقد عمهما الهوس بشأن

الزيادة المستمرة فى أثمانه ، فصارا يجمعان منه ويكنزان حتى أصبحت ثروتهما كلها قطناً لا يملكان شيئاً غيره . وكان يعرض عليهما الثمن العالى فيرفضان انتظاراً لارتفاع الثمن إلى خمسين أو مائة جنيه . وهما فى هذه الآمال والأحلام وإذا بالثمن يهوى إلى أقل من أربعة جنيهات . فجن أحدهما ومات الآخر . وكثر الانتحار بين المضاربين على أثمان القطن فى بورصة الاسكندرية . وفى أثناء هذه الحمى كانت الثروات الضخمة تتكون فى أيام أو أسابيع ؛ فقد كان هناك تجار يشترون البيض أو الزبد أو يتجرون فى البهائم ، فلما رأوا أن القطن يصعد إلى السماء أقبلوا عليه . فلم يكن يدور العام على أحدهم ، فيما بين ١٩١٨ و ١٩١٩ ، حتى كان يملك عشرين أو ثلاثين ألف جنيه مع أن كل ما كان يملك فى بداية تجارته لم يكن يزيد على مئتى جنيه . وكان بعض هؤلاء يتناسى قديمه ويزعم أنه أصيل عريق فى الثراء . وبعض آخر كان يتبجح بعصاميته وأنه جمع ثروته بذكائه ، أو كما كان يقول بذراعه . وكلاهما كان كاذباً ؛ لأن كل ما فى الأمر أن الحظ رفعهم كما خفض غيرهم .

وكانت الحرب تسير فى سلحفة بطيئة خالية من الاقتحامات ، حتى كاد الناس يعدونها شيئاً مألوفاً ليس هناك ما يدعو إلى أن يتغير . فقد حفرت الخنادق ، من الجانبين ، فى الاقليم الشمالى من فرنسا وجهزت بالأثاث والمصابيح الكهربائية ، ونظمت بينها المواصلات وحصنت بالأسمنت . وعم الجبهة الغربية ركود حتى صارت عبارة « كل شئ هادئ فى الميدان الغربى » من العبارات الرمزية نقولها عندما لا نجد خبراً جديداً . وهنا الاختلاف بين الحرب الأولى والحرب الثانية فى ١٩٣٩ . فان الغارات الجوية التى وصلت إلى مدننا جعلت هذه الثانية متحركة نشيطة بالمقارنة إلى سكون الأولى فى الخنادق . وحاول الألمان أن يحركوا الجبهة الغربية بالهجوم الكبير على فردان . ولكنهم لم ينجحوا إلا فى قتل عشرات الألوف من شباب الألمان والفرنسيين . والواقع أنه لم يكن فى أخبار الحرب الأولى ، بعد الهجوم البرقى الألمانى الأول ، مما بقى أثره سوى ثلاثة أشياء هى دخول أمريكا فى الحرب ، ثم انفصال روسيا بنظامها الجديد . وأخيراً شروط ولسن التى أحسسنا بها كأننا نفتتح عصراً جديداً للسلام والعدل . وكان أهم ما فى هذه الشروط حق تقرير المصير للشعوب التى يستعبدها الاستعمار . وكانت « عصبة الأمم » إحدى ثمرات جهاد ولسن للسلام العام .

وقد ظهر ولسن بمذهبه الجديد كما لو كان نبيا . فان العالم الذى كان يئن من الامبراطورية البريطانية استروح نسيما منعشاً من هذه المبادئ الجديدة التى تقول بالمساواة والحرية وتقرير المصير . وعلقت هذه المبادئ بأذهاننا ، وصرنا نلهج بها ونفكر فيما نستطيع أن ننتفع به منها . وكان الساسة الانجليز يتململون من هذه المبادئ ولكنهم لم يستطيعوا منعها وإنكارها . وقد عادوا إلى مثل هذه الحال فى الحرب الكبرى الثانية عندما دعا الرئيس روزفلت إلى ميثاق الأطلنطى والحريات الأربع . فقد قبلوا مبادئ ولسن ثم مبادئ روزفلت بالقول مع نية نقضها بالفعل .

وكان ولسن يسير فى أوربا ويتنقل من عاصمة إلى أخرى والجماهير تحتشد له وتتلقاه فى خشوع دينى ، حتى كان بعضهم يجثو على الركب على أرصفة المحطات . وكان الكاتب الفرنسى رومان رولان فى فرنسا التى غادرها احتجاجاً على الحرب . وقد كتب له خطاباً مفتوحاً قال فيه :

« أنت وحدك ، أيها الرئيس ، بين جميع أولئك الذين يحملون الواجب الرهيب لقيادة الأمم ، أنت وحدك تستمتع بسلطة روحية عالية . فانك توحى الثقة العامة .

« أجب نداء هذه الآمال الحارة . وتناول هذه الأيدى التى بسطت إليك فاجعلها تصافح بعضها بعضاً . . . لأن الأمم إذا وجدت أنها خذلت فى هذه الوساطة فانها ستتفرق وتهيم فى فوضى ثم لا بد أن تتحطم فى الشطط . وعندئذ تنغمس الشعوب فى الدماء وتنكفئ الأحزاب القديمة إلى رجعية دموية . . . أيها الوارث لجورج واشنطون وإبراهام لنكولن هلم إلى الراية وهى ليست راية حزب أو راية أمة وإنما هى راية العالم كله . وادع نواب الشعوب إلى برلمان البشرية . وارأس أنت هذا البرلمان بالسلطة الكاملة التى هى حقك لمالك من وجدان روحى سام ، ولما لأمريكا من مستقبل عظيم . تكلم . تكلم إلى الجميع . لأن العالم متعطش إلى صوت يعلو ويغمر تخوم الأمم وطبقاتها . كن الحكم للأمم الحرة ، حتى يعرفك المستقبل بأنك كنت المصالح . . . »

وليس شك فى أن مبادئ ولسون الأربعة عشر كانت من أكبر العوامل لثورتنا فى ١٩١٩ . وكان ولسون يحاول تغيير العالم ، وكان يؤمن برسالته فى جد وشرف . ولكن الرجل فى شرفه وسذاجته لم يقدر عتوّ اللؤم والخسة

فى الامبراطوريين : كليمنصو رئيس وزارة فرنسا ، ولويدجورج رئيس وزارة بريطانيا . فقد سايره هذان الاثنان وأوهماه بالموافقة التامة على مبادئه كى يلتى بكل القوة الأمريكية فى كفة الحلفاء ضد ألمانيا . حتى إذا تم الانتصار بفضل هذه القوة للانجليز والفرنسيين تنكر هذان الاثنان له . وكان من الفكاهات التى يتنادر بها الفرنسيون فى حمق ورعونة قول كليمنصو وقت المفاوضات : إننى فى مأزق ، فعن يمينى نابليون وعن يسارى المسيح . وهو يعنى بنابليون لويد جورج فى زعمه أنه بطل ، وبالمسيح ولسون فى زعمه أنه مصلح للعالم . ونحن الآن فى ١٩٤٧ عندما نذكر هذه المفاوضات فى ١٩١٩ ندرك أن ولسون لم يكن فقط الرجل البار بالبشر بل كان أيضاً الرجل البصير . أما هذان الاثنان فكانا أحمقين ، طربا للانتصار ورضيا بالنظر القصير . ولو أن مبادئ ولسون عمت العالم لما وقعت الحرب الكبرى الثانيـة .

وعلى كل حال ربح العالم من ولسون « عصبة الأمم ». وصحيح أن الامبراطوريين من الانجليز والفرنسيين أفسدوها وأحالوها إلى هيئة ميتة عندما أيقنوا أنها تعارض المذهب الامبراطورى . ولكن هذه العصبة نبهت الأذهان ، وبقيت ماثلة أمام العالم نحو عشرين سنة وهى تشهد ، حتى بضعفها وفشلها ، على ضرورة إقامة منظمة عالمية تشرف على مصالح البشر . وقد كانت هى الباعث بعد ذلك لايجاد « منظمة الأمم المتحدة » و « مجلس الأمن » .

والحق أن هاتين الحربين قد أنجبتا بطلين عالميين فقط ، كلاهما أمريكى هما ولسون وروزفلت . وكلاهما دعا دعوة عالمية فعبر عن أسمى الأمانى وأنضر الآمال فى السلام والعدل والشرف بين البشر . وفى العالم الآن ثقافة عالميـة بشرية جديدة تختمر . وعن قريب ستتبلور . ثم سوف تتجوهر مبادئ عامة نؤمن بها جميعاً ونقول بها إن هذا الكوكب هو وطننا ، هو قريتنا التى يجب أن نجوب شوارعها ونعرف أزقتها ، فى القطب الشمالى أو جبال هملايا فى الصيف ، وفى صحارى أفريقيا أو آسيا فى الشتاء . وطن عالمى جديد كبير يلغى هذا العالم المجزأ أو هذه الأوطان القديمة .

وكثير من الفضل فى هذا الاتجاه يعزى إلى ولسون وروزفلت .

سلامه موسى

الصحافة فى عصر اسماعيل

حقائق وذكريات مطوية

كان عصر اسماعيل على قصره من أحفل عصور مصر الحديثة بالحوادث والتطورات السياسية والاجتماعية ، وكان أهم ما يميز هذا العصر تعدد نواحيه ، وتنوع اتجاهاته ؛ ففيه تمتد النهضة إلى سائر النواحى ، وتتغلغل فى مختلف جوانب الحياة العامة . وكانت النهضة الأدبية والثقافية التى وضعت أسسها فى عهد محمد على ، وألفت ميدانها الخصب فى مختلف البعوث العلمية والأدبية ، قد أخذت تتفتح وتزدهر . وحفل عهد اسماعيل بجمهرة من الأدباء والكتّاب الذين درجوا فى مهادها . وكانت الصحافة الشعبية تبدو يومئذ بدعة أدبية محدثة تتأهب لأن تخطو خطواتها الأولى . ذلك أن الصحافة المصرية لبثت حتى عهد اسماعيل تتركز فى جريدة الحكومة الرسمية ، وهى الوقائع المصرية ، وتتركزحركة الطباعة والنشر فى مطبعة بولاق الأميرية . وكانت هاتان المؤسستان العظيمتان ، وهما أيضاً من غرس محمد على ، قد وهبتهما الحكومة فى عهد سعيد باشا لأحد الموظفين ، وآل أمرها إلى التدهور والخراب ؛ فشاء القدر أن يفتتح اسماعيل عهده بانقاذهما إذ قرر شراءهما ودفع ثمنهما من ماله ، وردّتا بذلك إلى حظيرة الرعاية الرسمية . ودل اسماعيل بهذا التصرف المحمود على ما يكنه نحو المنشآت العلمية من تقدير ، وهى عاطفة ظهر أثرها فيما بعد فى فرص ومناسبات عديدة .

وكان مولد الصحافة الشعبية المصرية فى بداية عهد اسماعيل ؛ ففى سنة ١٨٦٥ أنشأ الدكتور محمد على باشا البقلى والشيخ ابراهيم الدسوقى كبير مصححى المطبعة الأميرية مجلة اليعسوب الطبية ، فكانت أول صحيفة مصرية خاصة ظهرت بعد الوقائع المصرية ، ولكنها احتجبت بعد زمن وجيز .

وفى سنة ١٨٦٧ صدرت أول صحيفة أدبية سياسية إخبارية ، وهى جريدة وادى النيل التى أنشأها الشاعر الأديب عبدالله افندى أبو السعود ؛ فكانت أول

جريدة مصرية من نوعها ، وكانت تصدر فى شكل المجلة مرتين فى الأسبوع ، وكان لها مطبعة خاصة تقوم إلى جانب طبع الجريدة بطبع بعض الكتب الأدبية القديمة . واستمرت وادى النيل فى الظهور حتى عطلت بأمر الحكومة سنة ١٨٧٢ . وكان عبدالله افندى أبو السعود من نوابغ الكتاب والصحفيين ومن أنجب تلاميذ رفاعة بك وأرسخهم قدماً فى التحرير والترجمة ، وله عدة مؤلفات فى التاريخ وديوان شعر حسن ، وتولى فى عهد اسماعيل رياسة قلم الترجمة وتدريس التاريخ فى دار العلوم ، ثم عين قاضياً بمحكمة الاستئناف وتوفى سنة ١٨٧٨ .

ولما عطلت وادى النيل أنشأ محمد بك أنسى نجل عبدالله أبو السعود افندى مكانها جريدة « روضة الأخبار » ، ثم غير اسمها إلى « النيل » فى سنة ١٨٧٨ ، واستمرت تصدر بهذا الاسم حيناً .

وتلا جريدة وادى النيل فى الظهور مجلة « نزهة الأفكار » الأسبوعية أنشأها فى سنة ١٨٦٩ ابراهيم بك المويلحى ومحمد بك عثمان جلال ، وكلاهما من أساطين الأدب والبيان فى ذلك العصر ؛ بيد أنها لم تلبث أن عطلت بأمر الخديو بعد ذلك بقليل .

وفى سنة ١٨٧٠ ظهرت مجلة روضة المدارس الشهيرة . أنشأها العلامة على باشا مبارك وقت أن كان ناظراً للمعارف ، وكانت مجلة حكومية تتولى نظارة المعارف إصدارها والإنفاق عليها وتعنى بالشئون الأدبية والعلوم العصرية . وكانت فى هذا العصر الذى ازدهرت فيه النهضة الأدبية روضة حقة ، تحفل بثمار جمهرة من الأقلام البارعة ؛ وتولى رياسة تحريرها فى البداية العلامة رفاعة بك الطهطاوى يعاونه ولده على بك فهمى رفاعة ؛ وكان يساهم فى الكتابة فيها على باشا مبارك ، وعبدالله باشا فكرى ، والشيخ حسين المرصفى ، ومحمود باشا الفلكى ، ومحمد قدرى باشا ، وأحمد بك ندا ، والسيد صالح بك مجدى ، وعبدالله أبو السعود افندى ، والشيخ حسونة النواوى ، والشيخ حمزة فتح الله ، وغيرهم من أعلام البيان فى ذلك العصر . واستمرت روضة المدارس تصدر بانتظام ثمانية أعوام ، وكانت تصدر مرتين فى الشهر وتوزع على التلاميذ مجاناً ، وكان لها أثر كبير فى خدمة النهضة الأدبية فى ذلك الحين .

وصدرت فى الوقت نفسه مجلتان رسميتان للجيش المصرى ، تسمى إحداهما

«جريدة أركان حرب الجيش المصرى» ، والأخرى «الجريدة العسكرية المصرية» ؛ يتولى تحريرها ضباط الجيش ورجاله الفنيون. وصدرت مجلة «أركان حرب» شهرية فى سنة ١٨٧٣ واستمرت تصدر أعواماً ، وكانتا تطبعان فى مطبعة الجيش التى ضمت فيما بعد إلى المطبعة الأميرية .

وأنشأ سليم الحموى من الأدباء اللبنانيين النازحين جريدة بعنوان «الكوكب الشرقى» بالأسكندرية فى سنة ١٨٧٣ ، ولكنها لم تلبث أن احتجبت ، فأنشأ بعدها مجلة أسبوعية تسمى «الاسكندرية» فى سنة ١٨٧٨ ولكنها احتجبت بعد أعوام قلائل .

وقد كان اسماعيل يقدر بذكائه وبعد نظره ما للصحافة يومئذ من الأثر العميق فى تكييف الأفكار والاتجاهات السياسية والاجتماعية ؛ ولهذا لم يضن عليها بعطفه وإغداقه . بيد أنه يلاحظ أن الصحافة المصرية الحقيقية لم تكن قد نشأت يومئذ ؛ وبذا استأثرت بنفحات اسماعيل وصلاته طائفة من الصحف الأجنبية المحلية والخارجية .

وتدل الأوامر العالية والوثائق المختلفة التى استعرضناها فى هذا الشأن على أنه كانت ترصد كل عام فى عهد اسماعيل اعتمادات شتى لمعاونة الصحف ووكالات الأخبار الأجنبية فى كثير من العواصم الأوربية ، وكذلك لبعض مكاتبى الصحف . وكانت هذه الاعتمادات تصرف أحياناً بصفة ثابتة منتظمة ، وبعضها يصرف بدلا لاشتراك الحكومة فى عدد كبير من هذه الصحف ، والبعض الآخر يصرف كإعانات وهبات لأسباب وبواعث سياسية أو شخصية يصعب استجلاؤها .

فمثلا نقرأ فى إرادة صادرة لناظر المالية فى سنة ١٨٦٣ بأن يصرف المبلغ المرتب سنوياً لصاحب الجرنال المستقل البلجيكى (وهو فيما نعتقد جريدة *Indépendance Belge*) وقدره ستون ألف قرش من خزينة نظارة المالية ورفعها لطرف الديوان .

وصدر أمر المالية فى صفر سنة ١٢٩٢هـ (١٨٧٥م) بصرف مبلغ العشرة آلاف فرنك مرتب الجرانيل المطالب بصرفه مسيو دومارتينو ، وكان يصرف سنويا مقدماً لأخيه يصرفه بمعرفته إلى جرانيل تليانى .

وصدر فى ربيع الأول سنة ١٢٩٢هـ (١٨٧٥م) أمر للمالية بأن يدفع مبلغ

٢٣٨ ليره و ٦ شلنات قيمة سنوية (اشتراك) مائة نسخة من الجرنال المسمى المالية (وفى اعتقادنا أنه جريدة ***Finance***) من ابتداء ٢١ أكتوبر سنة ١٨٧٤ ، ومبلغ ١٣٦ ليره سنوية مائة نسخة من الجرنال المسمى رفيو لنفس المدة .

وصدر أمر فى ربيع الثانى سنة ١٢٩٢هـ (١٨٧٥م) بالموافقة على صرف مبلغ ثلاثين ألف فرنك ، صرفت إلى مسيو وينكر محرر جرنال لوفات هيرالد بالإستانة ؛ وصدر الأمر فى نفس التاريخ « برفع الاعانة السنوية التى كانت تدفع إلى جرنال فينانسه التليانى من خمسة آلاف فرنك سنوى إلى عشرة آلاف ، وذلك ابتداء من سنة ١٨٧٥ » .

وفى سنة ١٢٩٣هـ (١٨٧٦م) صدر للمالية أمر « بصرف مبلغ ١٢٦,٧٥٠ قرشاً إلى مسيو ما كدن الكتاتب بلونده ما يعادل ١٣٠٠ ليره أسترلينية منها ألف ليره مرتبه سنة كاملة ، والباقى نظير مصاريف أجرى صرفها » .

وصدر فى نفس العام أمر « باعتماد مبلغ ١٩,٥٠٠ قرش قيمة ٢٠٠ ليره أسترلينية نظير مصاريف جرانيل بمدينة فينا مدة ثلاثة شهور مقدماً ابتداء من يوليو إلى سبتمبر سنة ١٨٧٦ ، تدفع إلى مسيو بلوم ناظر البنك النمسوى » .

ويتضح من مراجعة ميزانية الجرائد (أو مرتبات الجرانيل كما توصف) فى سنة ١٨٧٧ أن حكومة الخديو كانت تصرف مبالغ كثيرة إلى صحف أجنبية عديدة فى لندن وباريس وإستانبول وفينا وغيرها ، وأنها كانت تؤدى إلى وكالة رويتر إعانة قدرها ٢٤٦,٢٥٠ قرش وإلى وكالة هافاس إعانة قدرها ٢٣,١٠٠ قرش . وكان هذا منشأ الإعانة الرسمية التى استمرت من ذلك الحين تصرف إلى هاتين الوكالتين الشهيرتين ، والتى ما زالت تؤديها الحكومة كل عام إلى وكالة رويتر حتى يومنا .

كذلك كانت حكومة الخديو تدفع إعانات ضخمة للصحف الأجنبية المحلية ، . مثال ذلك أنها كانت تؤدى سنويا إلى صاحب جريدة « الفارد الكسندرى » ، وهو محام يونانى مبلغ خمسين ألف فرنك سنويا (نحو ألفى جنيه) مقابل اشتراكها فى عدد من نسخ الجريدة كان يرسل إلى دواوين الحكومة ، وذلك بمقتضى عقد لمدة خمسة أعوام ابتداء من يناير سنة ١٨٧٥ .

وكانت تصرف بعض الإعانات أيضاً إلى بعض الصحف العربية ،بيد أنها كانت تصرف على الأغلب إلى الأدباء النازحين . وكان اسماعيل فى سعة أفقه يشمل برعايته كل مشروع أدبى أو صحفى عربى ولو كان خارج حدود مصر . من

ذلك أنه صدر أمر للمالية فى سنة ١٢٩٢ﻫ (١٨٧٥م) بصرف مبلغ ١٠٠٠ جنيه «إلى سليم افندى البستانى كدفعة من ثمن ألف مجلد من كتاب دائرة المعارف الجارى طبعه بطرفه ببيروت». وقد رفعت هذه الاعانة فيما بعد إلى ثلاثة آلاف وخمسمائة جنيه نظير استلام الحكومة مائتى نسخة من الموسوعة المذكورة[١] وأنه كانت تؤدى إعانة سنوية إلى جريدة «الجنان» البيروتية التى كان يصدرها سليم افندى المذكور، وأنه كانت تدفع إلى أحمد فارس الشدياق صاحب جريدة الجوائب إعانات مختلفة، هذا عدا ما كان يدفع إليه نظير اشتراك الحكومة فى نسخ الجوائب وقد بلغ فى سنة ١٨٧٦ وحدها مبلغ ٣١,٥٩٠ قرش.

وورد فى ميزانية الصحف (مرتبات الجرانيل) فى هذه السنة ما يدل على أن مجلة روضة الأخبار المصرية لصاحبها محمد افندى أنسى كانت تستولى على إعانة قدرها ٢٧,٧٧٤ قرش، وهى الجريدة المصرية الوحيدة التى ورد ذكرها فى قائمة الصحف التى تحظى بعون الحكومة[٢].

وقد يبدو أن فى هذه المبالغ الكبيرة التى كانت تخصصها حكومة الخديو لإعانة الصحف الأجنبية والمراسلين الأجانب نوعاً من الاسراف الذى امتاز به هذا العهد. ولكن يجب أن نذكر أن السياسة المصرية كانت تجتاز فى أواخر عهد اسماعيل مرحلة دقيقة، وأن الخديو كان يحاول بهذه الهبات أن يتقى قدر الاستطاعة شر الدعايات المغرضة.

هذا وقد كانت كلمة جرنال وجرانيل تستعمل طوال القرن الماضى للاشارة إلى الصحف والصحافة، وذلك منذ أنشئ ديوان «جرنال الخديو» فى أوائل عهد محمد على، واستعملت أيضاً غير مرة للإشارة إلى «الوقائع المصرية» وظهرت فى كثير من الأوامر الرسمية المتعلقة بالصحف الداخلية والخارجية حتى قيام الثورة العرابية، وكذلك استعملها قانون المطبوعات المصرى الصادر فى سنة ١٨٨١، واستعملت أيضاً فى الأوامر الرسمية كلمة الغازيتات إلى جانب كلمة الجرانيل، واستعملت كلمة «صحيفة» فى أحيان قليلة ولكن بدون أن يكون لها نفس المعنى الصحفى الواضح الذى تدل عليه اليوم.

---

(١) هى «دائرة المعارف» التى وضعها المعلم بطرس البستانى والد سليم المذكور.
(٢) اعتمدنا فى تلخيص الأوامر المتقدمة على ثبت الأوامر الخديوية الذى أورده المرحوم أمين باشا سامى فى «عصر إسماعيل».

ولم تظهر كلمة جريدة وجرائد بصورة منتظمة إلا فى أواخر القرن الماضى ، ثم تلتها كلمة صحيفة وصحف وصحافة ، بمعناها الحديث ، واختفت كلمة جرنال وجرانيل نهائيا من الوثائق الرسمية واللغة الثقافية الرفيعة ، وأضحت كلمة الصحافة ومشتقاتها هى الكلمة المفضلة اليوم .

وفى أواخر عهد اسماعيل وقع حادث صحفى ذو شأن هو صدور جريدة الأهرام ، وكان صدورها فى أوائل أغسطس سنة ١٨٧٦ بثغر الأسكندرية على يد منشئيها الأخوين سليم وبشاره تقلا اللذين نزحا إلى مصر قبل ذلك بقليل . وفى ملف الجريدة الرسمى بوزارة الداخلية صورة التصريح الصادر من الخارجية إلى ضبطية الأسكندرية فى يوم ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٧٥ بالترخيص باصدار الأهرام ، وقد جاء فيه : « إنه تقدم انهى من الخواجه سليم تقلا يلتمس التصريح له بانشاء مطبعة حروف تسمى الأهرام بجهة المنشية بالاسكندرية يطبع فيها جريدة تسمى الأهرام تشتمل على التلغرافات والمواد التجارية والعلمية والصناعية والمحلية وألا تتعرض للمسائل البوليتقية . . . »

وصدرت الأهرام منذ يوم السبت ٥ أغسطس سنة ١٨٧٦ أسبوعية ، وكانت تصدر كل سبت فى أربع صفحات من قطع الصحف النصفى . ونمت الأهرام وتقدمت بسرعة ، وصدرت يومية بعد ظهورها بقليل . وغضب الخديو اسماعيل على الأهرام لتعرضها لبعض تصرفاته فأمر بتعطيلها والقبض على محررها سليم تقلا فى أوائل سنة ١٨٧٩ ، وتقديمه للمحاكمة . ولكن تدخل قنصل فرنسا فى الأمر انتهى بالعفو عنه والعدول عن محاكمته . واستمرت الأهرام تشق طريقها قدماً ، وهاجمت الثورة العرابية بعنف ، ثم عمدت بعد ذلك إلى معارضة الحكومة الخديوية وعطلت من أجل ذلك غير مرة ، بيد أنها استمرت فى طريقها ثابتة راسخة القدم ، ونقلت إدارتها إلى القاهرة منذ سنة ١٨٩٨ ، واشتد ذيوعها فى مصر والعالم العربى كله ، وأضحت اليوم من أعظم الصحف العربية نفوذاً وانتشاراً .

وفى أواخر سنة ١٨٧٧ ظهرت جريدة « الوطن » القبطية أسبوعية سياسية ، وكانت فى بداية أمرها مصرية وطنية النزعة وناصرت الثورة العرابية ، ولكنها جنحت فيما بعد إلى مقاومة الدعوة الوطنية التى يحمل لواءها مصطفى كامل وإلى مناصرة الانجليز ، وقامت بعد ذلك بدور لا يحمد فى إثارة النعرة الطائفية .

وصدرت فى نفس هذا العام بالقاهرة جريدة « مصر » الأسبوعية لصاحبها أديب إسحاق ثم عطلت بعد عامين . وأنشأ أديب إسحاق وسليم نقاش فى سنة ١٨٧٨ بالاسكندرية جريدة « التجارة » يومية سياسية ، وكان الشيخ محمد عبده والسيد جمال الدين الأفغانى يخصانها ببعض رسائلهما ، ولكنها لم تلبث أن عطلت فى سنة ١٨٨٠ .

وفى نفس هذا العام الحافل بالنشاط الصحفى أعنى سنة ١٨٧٧ ظهرت بالقاهرة صحيفة من نوع خاص هى مجلة « أبو نضارة » الهزلية لمنشئها ومحررها الكاتب الاسرائيلى الفكه الشيخ يعقوب صنوع ، وكانت أول مجلة نقدية فكاهية من نوعها بمصر . وكان الشيخ صنوع إسرائيليا مصريا تلقى ثقافة واسعة فى مصر وأوربا ، وأنشأ فى سنة ١٨٧٠ أول مسرح عربى بالقاهرة بمساعدة الخديو اسماعيل ، ثم اتصل بالسيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده ، واتفقا معه على أن يصدر جريدة عربية هزلية لانتقاد أعمال الخديو وحكومته ، فأصدر مجلة « أبو نضارة » وكان يحررها بلغة دارجة نصف عامية ، بأسلوب فكه لاذع ، وينشرفيها بريشته صوراً رمزية مسلية . وذاع أمر هذه المجلة بسرعة . وغضب الخديو لتطاولها على نقده ، فأوعز إلى قنصل إيطاليا بنفى صاحبها إذ كان محتمياً بايطاليا فأبعد عن القطر وسافر إلى باريس واستأنف هناك إصدار مجلته . وصدرت مجلة « أبو نضارة » فى باريس فى أغسطس سنة ١٨٧٨ ، ويعرضها محررها الكاتب الفكه فى عددها الأول على النحو الآتى : « رحلة أبى نضارة زرقا الولى من مصر القاهرة إلى باريز الفاخرة بقلم جيمس سانووا (يعقوب صنوع) محرر جريدة أبى نضارة زرقا الباهية والدة النظارات المصرية » .

وكانت هذه المجلة الفكاهية تصدر يومئذ أسبوعية مكتوبة بخط اليد ومزينة بطائفة من الصور الرمزية ومحررة بأسلوب فكه ممتع ، وبها محاورات بين شخصيات مختلفة بلغة دارجة مضحكة ولكن قوية لاذعة ، وفيها حملات مرة على الخديو وتصرفاته ، ونكت وأزجال بلدية ، ورسائل رمزية على لسان شخص يدعى الشيخ يوسف الشفغاوى يستعرض فيها مثالب الحكم القائم إلى غير ذلك من الحملات والدعايات المرة(١) . ومنعت أبو نضارة بالطبع من دخول مصر ولكن الشيخ صنوع كان يحتال فى تسميتها وإرسالها سرًّا إلى مصر ، فكان يسميها

(١) تحتفظ دار الكتب بمجموعة من أعداد « أبو نضارة » التى صدرت فى باريس .

بأسماء مختلفة مثل « أبو زمارة » « وأبو صفارة » و « الحاوى » . واستمر الشيخ صنوع فى منفاه يتابع الكتابة و إصدار الصحف التى تعنى بشئون مصر ، هذا عدا ما ينشره فى كبريات الصحف الفرنسية من مقالات ممتعة . ولما وقع الاحتلال الانكليزى اشتد فى الحملة عليه واشتهر فى باريس بين الشرقيين قاطبة ، وكان له فى قلوبهم منزلة رفيعة لرفيع ثقافته ولأذع دعابته . وتوفى فى باريس سنة ١٩١٢ وكان مجهوده فى الصحافة الرمزية والهزلية أول مجهود من نوعه فهو المؤسس لهذا النوع من الصحافة بمصر .

وكان يصدر فى عهد اسماعيل بمصر عدة صحف أجنبية فى مقدمتها جريدة « الفار دالكسندرى » *Le Phare d'Alexandrie* التى أنشئت بالاسكندرية سنة ١٨٧٤ ، وجريدة « البروجريه اجيبسيان » *Le Progrès Egyptien* وهى من الصحف المعارضة لإسماعيل ، وجريدة الريفورم ثم الاجيبشيان غازيت ، وقد ظهرت بالاسكندرية منذ سنة ١٨٧٨ . وكانت تصدر بالقاهرة جريدة « البوسفور المصرى » *Le Bosphore Egyptien* صدرت أولا بالفرنسية ثم نشرت فيما بعد قسما بالعربية للدعاية لفرنسا ، وما زالت توالى الصدور حتى عطلت سنة ١٨٨٥ . كذلك كانت تصدر باليونانية أكثر من جريدة فى الثغر والقاهرة . وكانت هذه الصحف الأجنبية على الأغلب حرباً على مصر وعلى الخديو وحكومته ، وكانت شديدة التعصب للمصالح الأجنبية ، وقد لعبت فى تعكير الجو بين مصر والدول الأجنبية دوراً لا يحمد .

هذا استعراض سريع للحركة الصحفية فى عهد اسماعيل . ومما يلفت النظر أن الصحافة المصرية الوليدة التى نشأت مع بداية هذا العهد ، قد استطاعت أن تصل فى أواخره فى ظرف خمسة عشر عاماً فقط إلى ذلك المدى من التعدد والقوة والنفوذ . ولكن الطموح من خواص عصر اسماعيل ، وقد كان الجديد فى كل شىء يسير نحو التقدم فى وثبات سريعة .

محمد عبد الله عنان

CONDORCET

ALEXANDRE KOYRÉ

كوندرسيه

منذ ١٥٠ عاما مات فى سجن بور - لا - رين جان أنطوان نيقولا كاريتاس ، مركيز كوندرسيه سابقا والسكرتير الدائم لأكاديمية العلوم وعضو الأكاديمى فرانسيز وممثل الشعب فى المؤتمر الوطنى ، وكان قد أدين وصدر الأمر بالقبض عليه من تلك الجمهورية الفرنسية ذاتها التى كان هو بين أوائل من تمنوها وطالبوا علنا بتأسيسها ، وبذهابه ذهب عصر بأكمله .

وصدق بريور[1] حين عبر خير تعبير إذ قال : « يشغل كوندرسيه مكانا فريدا فى تاريخ الفكر الفرنسى . فهو آخر « الفلاسفة » والوحيد منهم الذى اشترك اشتراكا فعليا فى الثورة . ولم يضع مذهبا خاصا به حقا ، وإنما جمع كل نظريات سابقيه . وإنا لواجدون لديه آراء من فولتير ومن روسو ومن تورجو ومن هلفيسوس ومن كوندياك ، وقد تشكلت شيئاً فشيئاً فى وحدة منسجمة آخر مايعبر عنها كتابه « الوجيز » وهو نوع من الملخصات الفلسفية للقرن الثامن عشر[2] .

وليس للقرن الثامن عشر ولفلسفته سمعة طيبة ، فهى بما فيها من مزيج من العقلية الديكارتية ومن المذهب التجريبى الحسى[3] تبدو آخر الأمر متناقضة غير ثابتة . فما يؤخذ عليها ، ومما أخذ عليها بصفة خاصة فى القرن التاسع عشر ، أنها فلسفة متطرفة فى فرديتها ، سطحية فى مذهبها العقلى ، ساذجة فى تفاؤلها . كما أخذ عليها إنكارها للحقائق العميقة ، وعلى الأخص إنكارها للتاريخ وإيمانها بالتقدم .

---

(١) راجع كوندرسيه : ملخص لوحة تاريخية لتقدم العقل الانسانى . طبعة بريور ، باريس ، بوڤان ، ١٩٣٣ . المقدمة .

(٢) كانت حياة كوندرسيه رجل الرياضة والاقتصاد والفلسفة والسياسة ، ملخصا لكل وجوه التطور الفكرى فى القرن الثامن العشر والتحول من النظريات إلى الواقع والعمل .

(٣) فيما يتعلق بالمذهب الديكارتى فى القرن الثامن عشر عموما ولدى كوندرسيه خاصة راجع كتاب ف . بوييه : تاريخ الفلسفة الديكارتية ، مجلد ٢ ص ٦٤١ .

وليست كل هذه المآخذ خاطئة . فمما لا شك فيه أن فلسفة القرن الثامن عشر قد تبدو قليلة العمق ، قليلة الحياة بالقياس إلى ما سبقها أو ما لحقها من مذاهب فلسفية كبرى . ومن المؤكد أيضا أن القرن الثامن عشر قد تفاءل أكثر من اللازم ، وقد آمن بقوى العقل أكثر مما يجب ، وأنه أخذ مأخذ الجد ذلك التعريف القديم للانسان بأنه حيوان عاقل . وأنكر قوة العناصر اللاعقلية ، أو بتعبير أدق أنكر الأساس اللاعقلي لطبيعة الانسان . كما أنه لم يعترف بالأهمية الاجتماعية والدور الرئيسي لما كان يدعوه الآراء السابقة (أي الآراء الصادرة دون فحص) ، وباستغراقه في العمل على هدم بعض « الآراء السابقة » السائدة في ذلك الوقت (الآراء السابقة الاجتماعية والدينية) مستخدما نور العقل ، تراه قد قلل من تقديره لقوتها وغاب عنه أن الانسان قادر على أن يستبدل بالآراء السابقة المنهدمة ، « آراء سابقة » جديدة . وهذه المآخذ حقة ، ولكنها في رأيي أقل خطورة مما يقال وبالأخص مما قيل (١) ولا يجدر أن تؤدي بنا إلى نسيان أن فلسفة القرن الثامن عشر قد أقامت مثلا أعلى إنسانيا واجتماعيا وأن ذلك المثل سيبقى أمل الانسانية الأوحد . ولقد رأينا ما تخسره فلسفة القرن الثامن عشر إن تركت الحرية والمساواة والاخاء في سبيل الرغبات العميقة لطبيعة الانسان اللاعقلية . . . إن ما يفسر قلة التقدير التي هبط إليها القرن الثامن عشر ، هو أنه قد انهزم (٢) والهازمون هم الذين يكتبون التاريخ . وإن ممثلي الرجعية ، الرجعية الرومانطيقية ، والرجعية الرومانطيقية الألمانية بنوع خاص ، هم الذين حددوا أحكامنا التاريخية بل هم الذين عينوا لنا معنى التاريخ . وهم أيضاً الذين أقنعونا أن القرن الثامن عشر قد أنكره .

ويبدو لي أنه ما من خطأ أعظم من الزعم بأن القرن الثامن عشر قد أنكر التاريخ ، وهو زعم لا يمكن الدفاع عنه إلا بالموافقة على المعنى الرومانطيقي للتاريخ . فاذا لم نفعل ذلك وجدنا أننا على العكس مدينون

(١) يبدو أن تغيرا في الرأي قد حدث مؤخرا . راجع مؤلفات ج . ر . كاريه «فونتنل أو بسمة العقل» باريس ١٩٣٢ ، و«تركيب ڤولتير الفيلسوف»، باريس ١٩٣٨ . وراجع أيضاً ا . كاسيريه : *Die Philosophie der Aufklärung*, Tübingen, 1932.

(٢) راجع Bréhier, *Histoire de la Philosophie*, Vol. 2, Paris.

للقرن الثامن عشر ، مدينون لمونتسكيو (١) ولفولتير (٢) ولمونتيكلا ولجبون باكتشاف التاريخ أو إذا شئت بالكشف عنه ثانية ، كما أننا مدينون للقرن السابع عشر، مدينون لسبينوزا ، وبيل ومابيون باكتشاف المعرفة التاريخية والنقد التاريخى .

ومما لا شك فيه أن رجال القرن الثامن عشر لم تكن تنطوى قلوبهم على احترام وعبادة وتقديس للتاريخ كما سيفعل الرومانطيقيون .

ومما لا شك فيه أيضاً أنهم لم يقدسوا المعرفة التاريخية ، وأنهم كثيراً ما كانوا يجهلون تفاصيل الماضى (بل أكثر من التفاصيل) . ذلك لأنه لم يكن لهم ما كان للرومانطيقيين من حنين إلى الماضى وألم عليه . وإنما على العكس كانت أبصارهم متجهة إلى المستقبل . والتفكير الرومانطيقى (وكل مذهب تاريخى قد ورث شيئاً من التفكير الرومانطيقى) تفكير «نباتى» ، كما يقول بحق جوستاف هوبنر وهو يعمل فى حيز سام مستخدماً استعارات عضوية وبالأخص استعارات نباتية . فتراهم يتكلمون عن النمو والجذور ، ويقارنون بين المؤسسات التى تكونت نتيجة لنمو طبيعى **natürlich gewachsen** وتلك التى تكونت صناعيا **kunstlich gemacht** . أى إنهم يواجهون عمل الجماعات الانسانية الذى تم بطريقة لاشعورية وغريزية بعملها الشعورى الارادى ، أى يقارنون بين التقليد وبين التجديد الخ ...

وهذا الفهم للتاريخ أو هذا الاتجاه الذى ينظر إليه كأنه شىء ينمو بطريقة شبه ذاتية والذى لا يرى فى الانسان عاملا مؤثرا وإنما يعده محصولا للتطور التاريخى وللقوى اللاشخصية فيه أو للقوى التى تمر به ، هذا الاتجاه لايرتبط بالضرورة بفلسفة سياسية أو بفلسفة تاريخية رجعية ؛ فليس النمو جمودا ، وليست الشجرة جذراً ولا الزهرة برعما (٣) . . .

ولكن النمو النباتى عملية بطيئة ، وفى الغالب ما يحتفظ النبات فى صورته

---

(١) إن مونتسكيو هو الذى أعطانا فكرة القوانين التاريخية المتغيرة والخاصة بمختلف الصور الاجتماعية للجماعات الانسانية .

(٢) لقد جدد كتابا : «قرن لويس الرابع عشر» ، «بحث فى العادات» تأليف التاريخ تجديداً تاما .

(٣) إن الفلسفة الهيجلية للتاريخ ، وهى التى تنظر إليه باعتباره عملية نمو ذاتى وتكوين ذاتى للعقل ، تدعو فى نفس الوقت ، إلى تفسير محافظ وإلى تفسير ثورى .

الجديدة بصورته القديمة . وكذلك ترى فى المذهب الرومانطيقى اتجاها إلى المحافظة بل إلى الرجعية . ولما للتقاليد من قيمة كبيرة لدى الرومانطيقيين تجد مذهبهم يؤدى إلى معارضة التغيير وإلى السمو بالماضى بل إلى تخيل الكمال فيه . . .[1] ومهما يكن من أمر فيكفينا القول بأن فهم الرومانطيقيين للتاريخ يتضمن رفع قدر الماضى ، ذلك الماضى الذى يتحقق فى الحاضر ويمتد إلى المستقبل .

والأمر جد مختلف فيما يتعلق بفهم فلاسفة القرن الثامن عشر للتاريخ . فليس التاريخ لديهم قوة لاشخصية تتحقق فى الدنيا ، وإنما هو على العكس محصول عمل الانسان ونشاطه الذاتى . وليس التاريخ شيئا يصنعنا وإنما هو شئ نصنعه نحن ، أى إنه جماع ماصنعه الناس وما يصنعونه وما سيصنعونه أو ما سيستطيعون صنعه . ونتيجة لهذه النظرة العملية ، تجد المؤرخ لايرنو ببصره إلى الماضى وإنما يتطلع إلى الأمام ، ويرى أنه ما من شئ أجدر بأن يقص ولا أقمن بأن يدرس من تاريخ التقدم ، أى تاريخ تحرر العقل الإنسانى تدريجيا ، تاريخ كفاحه قوى الجهل والخرافات التى تكبته أو التى كبتته ، تاريخ النصر الذى ناله الإنسان شيئا فشيئا باستيلائه على قوى النور والحرية .

والتاريخ بهذا المعنى يبدو لنا كأنه تاريخ كفاح ، تاريخ معركة ضد القوى اللاعقلية التى تعوق تقدم الإنسان ، تاريخ الثورة على الماضى فى سبيل المستقبل . وإذن فلا يجب الاحتفاظ بآثار الماضى ولابالتقاليد والعادات البالية بل يجب على العكس هدمها فى أغلب الأحيان . ومن هنا يدخل التاريخ — أو على الأصح المؤرخ — فى المعركة . فهو عند ما يكشف عن الأصل البسيط للتقاليد وللمعتقدات المقدسة المبجلة يرينا عدم جدواها فيقتلعها من جذورها ، ويمهد الأرض ويهيئها لبناء جديد ، بناء سيؤسس على العقل فى هذه المرة .

وإنه لمن مفاخر فلسفة القرن الثامن عشر أنها لم ترد تفسير الدنيا فحسب وإنما أرادت تغييرها أيضاً . بل كانت تؤمن أنها قادرة على تغيير الدنيا بتفسيرها ، أو بعبارة أخرى كانت تعتقد أنه يكفى أن تبين للناس أين تستقر

(١) ومثال ذلك السمو بالعصر الوسيط واعتباره مثلا أعلى .

الحقيقة وأين يكون الخطأ حتى يسيروا — ولا محيص لهم عن ذلك — نحو الحق . وكانت تشعر أن التاريخ يؤيدها فى إيمانها بقوة الحقيقة والعقل . ويبين لنا كوندرسيه أن الإنسانية قدحققت رقيًّا دائماً رغم العقبات التى كانت تعوق سيرها إلى الأمام . أوَليس من الحق أن سير التقدم منذ زمن ما ، منذ اختراع الطباعة ومنذ الثورة التى شنها ديكارت ، قد زاد بشكل جد محسوس ؟ أوليس من الحق أن انتصار النور فى أيامنا فى الحضارتين العظيمتين الفرنسية والانجليزية ، يبدو كأنه قد حمانا من خطر الانتكاس كما حدث فى سالف الأيام عند ما أعقبت بربرية القرون الوسطى الحضارة اليونانية العظيمة الباهرة[١] ؟

وهكذا نرى أن تفاؤل كوندرسيه إنما هو تفاؤل مبنى على العقل وعلى التجربة . وليس التقدم شيئاً مقدرا لابد منه ، ولكن تاريخ الإنسانية يبين لنا حقيقته . أوليس من المعقول أن نعترف بأن الإنسانية ، التى عرفت كيف تحصل على الحرية العقلية ، وعلى الحقيقة العلمية ، بل الحرية السياسية لن تدع هذه الغنائم تفلت من يديها ولن تتحول عن نور العقل[٢] ؟

* ولن نحاول هنا أن نعرض لكتاب كوندرسيه « الوجيز » ، ولا أن نحلل فى تفصيل « العصور » وهى الدرجات المتتابعة التى ارتقى عليها الإنسان ليصل من البساطة الخشنة فى حياته البدائية إلى نور الحضارة العلمية والحرية السياسية . وحسبنا أن نعلم أن كوندرسيه يقسم تلك العصور إلى عشرة ، وأنه يعد ديكارت خاتم العصر السابع الذى يمتد « من اختراع الطباعة حتى ذلك العهد الذى استطاعت فيه العلوم والفلسفة أن تتخلص من نير السلطة » . ويقول إن العصر التاسع يمتد « من ديكارت حتى تكوين الجمهورية الفرنسية » وأن العصر العاشر يشمل « تقدم العقل الانسانى فى المستقبل[٣] . »

والمكان الذى عينه كوندرسيه لديكارت مكان مميز حقا . ولم يكن ديكارت

(١) وتلك نبوءة حقة ، لأن انتشار النور والمبادئ الديمقراطية فى البلاد التى تتكلم الفرنسية والانجليزية ، هى التى انقذت العالم من انتكاس يرجعه إلى البربرية .

(٢) لم يتنبأ كوندرسيه بذلك الاندفاع نحو العبودية . وبذلك البعد عن التفكير الانسانى اللذين نراهما فى أيامنا .

(٣) معرفة الطبيعة وقوانين العقل الانسانى تمكننا ، فى رأى كوندرسيه من معرفة تطورات المستقبل فى مجموعها ، لا فى تفاصيلها بالطبع .

العقلية الوحيدة التى زعزعت نير السلطة ، فقد سبق « أن كشف باكون Bacon عن الطريقة الحقة لدراسة الطبيعة ولاستخدام الأدوات الثلاث التى وهبتها لنا لنتعمق أسرارها ألا وهى الملاحظة والتجربة والحساب . . . ولكن باكون — وهو الذى امتلك ناصية الفلسفة إلى حد بعيد — لم يجمع بينها وبين العلوم ، وأعجب الفلاسفة بطرقه لاكتشاف الحقيقة التى لم يعط عنها أى مثل — ولكنها لم تغير قط من سير العلوم .

«لقد سبق لجاليليو أن زاد تلك الطرق باكتشافاته المهمة الباهرة . وكان، على سبيل المثال ، قد علم الناس الوسائل التى تسمو بهم إلى معرفة قوانين الطبيعة ... ولكنه وقد اقتصر فقط على العلوم الرياضية والطبيعية لم يستطع أن يطبع فى عقول الناس تلك الحركة التى كانوا ينتظرونها .

« ولقد بقى ذلك الشرف ليحرزه ديكارت الفيلسوف العبقرى القدام . ولقد أوتى عبقرية عظيمة فى العلوم ، وجمع بين القول والفعل حين أبان لنا النهج لايجاد الحقيقة ومعرفتها . . . وكان يريد أن يمد طريقته ليستخدمها فى كل نواحى العقل الانسانى ، فكان الاله والانسان والكون ، على التوالى ، موضوعا لتأملاته . . . وكان إقدامه ، حتى فى الخطأ ، معوانا على تقدم النوع الانسانى ، ومحركا للعقول التى لم تستطع حكمة منافسيه أن توقظها . وطلب إلى الناس أن يرفعوا عن كاهلهم نير السلطة وألا يعترفوا إلا بما يمليه عليهم العقل . ولقد لقى آذانا صاغية لأنه استخدم إقدامه وحماسته . ولم يتحرر العقل ولكنه علم أن تكوينه يعده لذلك ... ومنذ ذلك الحين استطاع الناس أن يتنبأوا أن أغلال العقل لا بد محطمة عما قليل [1] . »

وكبار العباقرة الذين بزغوا فى العصر التاسع ، ذلك العصر الذى سمح فيه أخيرا باعلان حق طالما أنكر ، ألا وهو حق إخضاع كل الآراء للعقل ، أى استخدام الوسيلة الوحيدة التى منحناه لفهم الحقيقة ومعرفتها [2] ، هم فى رأى كوندرسيه — نيوتن الذى يرجع إليه الفضل فى أن يعرف المرء أخيرا ولأول مرة

---

(١) أنظر *Essai* ص ١٤٣ .

(٢) ص ١٥٩ من *Essai* : لقد تعلم الناس أن الطبيعة لم تكتب عليهم أن يؤمنوا بكلام الآخرين . وهكذا اختفى من الجماعة الانسانية التطير القديم ، وخضوع العقل أمام المعجزات ، اختفى ذلك من الجماعة الانسانية كما اختفى من الفلسفة .

أحد القوانين الطبيعية للكون . . . وهو اكتشاف فريد ما زال للآن يعد مجدا لمن وجده[1] ، ثم «لوك الذى أبان أن التحليل المضبوط الدقيق للآراء — وذلك باختزالها إلى آراء أكثر قربا من الأصل وأكثر بساطة فى التكوين — إنما هو الوسيلة الوحيدة لكى لا نضل السبيل فى فوضى الأفكار غير التامة ، التى لاوحدة بينها ولا تحديد فيها ، والتى قدمتها لنا المصادفة بلا نظام وتلقيناها نحن بلا تفكير[2]» ، ثم روسو الذى أصبح بفضله مبدأ المساواة الطبيعية بين الناس «وهو المبدأ الذى دافع عنه سدنى بدمه، والذى أضفى عليه لوك قوة من اسمه.» أقول أصبح بفضله « فى عداد الحقائق التى لم يعد سبيل إلى إنكارها ولا إلى محاربتها[3] » وكان ذلك العصر فى الواقع هو العصر الذى وصل فيه الكتّاب السياسيون إلى أن يعرفوا أخيرا حقوق الانسان الحق وإلى أن يستنبطوها من تلك الحقيقة الوحيدة ، وهى أنه كائن حساس قادر على التفكير وعلى اكتساب آراء خلقية .

« ولقد رأوا أن الاحتفاظ بتلك الحقوق هو الغرض الوحيد من اجتماع الناس فى جماعات سياسية ، وأن الفن الاجتماعى يجب أن يكون فن الاحتفاظ بتلك الحقوق مع تحقيق المساواة التامة . ولما كان من الضرورى أن تخضع الوسائل لضمان حقوق الأفراد لقواعد عامة ، وجب لذلك ألا تكون السلطة فى اختيار تلك الوسائل ملكا لأحد اللهم إلا لكثرة الأعضاء فى الجماعة . لأن أى فرد لن يستطيع أن يتبع رأيه الخاص فى ذلك الاختيار دون أن يخضع الآخر له ، فرغبة الكثرة هى وحدها التى يمكن للجميع قبولها دون مساس بالمساواة[4] .

« ويمكن كل شخص أن يتعهد مقدما بالانضمام إلى رأى الكثرة فيصبح رأيها رأى للكل . ولكنه لا يستطيع أن يضم إلا نفسه فقط . ولا يمكن أن

---

(١) فى نفس المؤلف ص ١٧٥ ، يذكر كوندرسيه اسم دالمبرت إلى جانب اسم نيوتن، ولو أنه يضعه فى مرتبة أدنى منه بكثير ، ودالمبرت هو مكتشف القاعدة التى تسيطر على كل أعمال الانسان .

(٢) نفس المؤلف ص ١٥٥ .

(٣) نفس المؤلف ص ١٥٢ .

(٤) من المهم أن نرى كيف يبعث كوندرسيه روح العقل فى مبدأ خضوع الفرد للكثرة فليس فى ذلك خضوع الارادة الخاصة للارادة العامة ، وإنما خضوع الرأى الفردى لرأى الكثرة .

يتعهد — حتى نحو تلك الكثرة — إلا بالقدر الذى لا تمس به حقوقه الشخصية المعترف بها .

« تلك هى حقوق الكثرة على الجماعة أو على أفرادها وحدود تلك الحقوق . وذلك أصل الاجماع الذى يلزم الجميع ماتراه الكثرة ؛ وهو إلزام تبطل مشروعيته عند ما ينتهى وجوده بتغير الأفراد . ومما لا شك فيه أن رأى الكثرة فى بعض الأمور كثيرا مايكون فى جانب الخطأ وضد المصلحة العامة . ولكن للكثرة — حتى فى هذه الحالة — أن تقرر الأمور التى لا يجب أن يرجع فيها رأسا إليها ؛ ولها أن تقرر من تنزل له عن حقها فى إبداء الرأى ، وأن تبين الطريقة الواجب عليهم اتباعها ليصلوا إلى الحقيقة بطريقة أسلم . وليس لها أن تنزل عن إبداء الرأى فى قراراتهم لترى أهى أضرت بالحقوق العامة للأفراد أم لا[1] .

«وهكذا اختفت إزاء هذه المبادئ البسيطة فكرة وجود عقد بين الشعب ورؤسائه ، ذلك العقد الذى لا يلغيه إلا اتفاق متبادل على إلغائه أو خيانة من أحد الطرفين المتعاقدين . كما اختفى أيضا ذلك الرأى ، الذى يعتبر أقل عبودية ولكنه ليس أقل خطأ من سابقه ، ألا وهو ربط الشعب بالدساتير متى أقرت ، كأن الحق فى تغييرها لم يكن أول الضمانات لسائر الحقوق ، وكأنما تلك المؤسسات تستطيع أن تعيش إلى الأبد ، وهى مؤسسات من صنع الانسان وهو عمل بالضرورة ناقص وقابل للتحسن كلما استنار الناس . وهكذا اضطر القوم إلى ترك السياسة الخادعة الخاطئة التى نسيت أن للناس حقوقا واحدة بطبيعتهم ، فأرادت حينا أن تحدد لهم الحقوق على حسب اتساع أراضيهم ، أو درجة الحرارة فى بلادهم ، أو صفاتهم الوطنية ، أو ثروة الشعب ، أو درجة تقدم التجارة والصناعة لديهم ؛ وأرادت حيناً آخر أن تقسم تلك الحقوق تقسيما غير عادل بين طوائف الناس المختلفة وفقاً لأصلهم أو ثروتهم أو مهنهم ، وخلقت بذلك مصالح متعارضة وقوى متضادة لتقيم بعدئذ بينها توازناً أصبح وجوده ضروريا بموجب تلك المؤسسات ، ولكنه توازن لا يزيل أثرها الخطر[2] .

« وهكذا لم يعد يجرؤ أحد على تقسيم الناس إلى سلالتين مختلفتين ،

---

(١) ومن هنا ضرورة الخضوع لقرار أو لقانون يعتبره المرء خاطئا أو سيئا .

(٢) انا لنرى هنا هوبز ومونتسكيو .

إحداهما لتحكم والأخرى لتطيع ، إحداهما لتَخدع والأخرى لتُخدع . واضطر القوم الى الاعتراف بأن للجميع الحق فى أن يتبينوا مصالحهم ويعرفوا الحقائق جميعا ، وبأنه ليس لأية سلطة — حتى التى أقامها الناس على أنفسهم — أن تخفى عنهم أية حقيقة(١) . »

هذه الصفحة الرائعة التى اقتبسناها آنفاً تلخص تلخيصاً وافياً معتقدات كوندرسيه بل إيمانه الديمقراطى الجمهورى . وليس ذلك إيمان كوندرسيه وحده ، و إنما هو إيمان القرن الثامن عشر بأكمله كما يقول لنا كوندرسيه نفسه ، إيمان ذلك العصر المجيد بين العصور جميعاً « عصر تكون أثناءه فى أوربا طبقة من الرجال وقفوا أنفسهم على متابعة الخرافات إلى معاقلها حيث أداها وحماها رجال الدين والحكومات والمدارس والنقابات القديمة . رجال وضعوا مجدهم فى هدم الأخطاء الشعبية ، أكثر مما اهتموا بتوسيع نطاق المعارف الانسانية ، وتلك طريقة لخدمة التقدم الانسانى ولو أنها غير مباشرة إلا أنها ليست أقل الطرق فائدة أو أقلها خطراً(٢) . »

كان حب الانسانية وبغض الظلم يملأ نفوس فلاسفة القرن الثامن عشر . ولهذا كونوا « جماعة فوق الأحزاب يربط أعضاءها رباط قوى ولمكافحة الأخطاء وكل أنواع الاستبداد . ولما كان شعور الصداقة العالمية يجمع بين أفرادها كانوا لذلك يكافحون الظلم حتى وهو ناء عن بلادهم لا يستطيع أن يصيبهم بأذى ، وحتى لو كان وطنهم هو المسىء إلى شعوب أخرى . ويقومون فى أوربا ضد جرائم الجشع التى تدنس شواطئ أمريكا وأفريقيا وآسيا(٣) . » .

وأعلنوا « مذهباً جديداً كان جديراً أن يقضى القضاء الأخير على البقية الباقية من الخرافات : ذلك هو مبدأ قابلية تحسن النوع الانسانى إلى حد لا نهاية له . وهو مبدأ كان أشهر رسله ورواده هم : تورجو ، بريس ، بريستلى(٤) . »

---

(١) Essai ص ١٤٩ — ١٥١ .

(٢) نفس المؤلف ص ١٥٠ .

(٣) نفس المؤلف ص ١٦٥ . كان الفلاسفة يكونون جماعة من الكتاب لا تخون رأيها أبداً . ويرى كوندرسيه أن أجدرهم بالذكر هما ڤولتير وديدرو .

(٤) نفس المؤلف ص ١٦٦ . كان أثر تورجو فى كوندرسيه عظيما جدا ، فقد أخذ عنه آراءه الاقتصادية .

وكان كوندرسيه يضع ذلك المذهب فى العصر العاشر، عصر تطور العقل الانسانى وعصر المستقبل . ولهذا مايسوّغه ؛ فانذلك المذهب ، مذهبالتقدم ، هو الذى يعبر خير تعبير عن النظرة الجديدة للتاريخ التى تكلمنا عنها آنفاً ، ألا وهى تفضيل المستقبل على الماضى ، وتفضيل العمل على الميراث ، والعقل على التقاليد .

وهذه النظرة هى التى بدت فى الحركتين العظيمتين : الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية ، وهما اللتان تمثلان أو تحققان — فى رأى كوندرسيه — نصر الفلسفة على الخطأ الشائع ونصرالحرية على الاستبداد .

ومن المهم أن نرى الطريقة التى يحكم بها كوندرسيه على الدور الذى قامت به كل منهما وعلى أهميتهما التاريخية . فالثورة الأمريكية قد أظهرت للعالم « لأول مرة شعباً عظيما قد تحرر من أغلاله ، وأقام لنفسه دستوراً وقوانين اعتقد أنها خير ما يوصله إلى السعادة » ، وهو دستور وقوانين « جمهورية أساسها الاعتراف الكامل بحقوق الانسان الطبيعية . » وكان الأمريكيون راضين عن القوانين المدنية والجنائية التى جاءتهم من انجلترا . ولم يكن لديهم نظام ضرائبى فاسد يستحق التغيير ، ولا استبداد إقطاعى ، ولا فروق وراثية ، ولا نقابات غنية قوية ذات امتيازات ، ولا نظام دينى عديم التسامح . ولهذا اقتصروا على إقامة سلطات جديدة بدلا من التى كانت الأمة البريطانية تمارسها لديهم[١] . »

ولهذه الأسباب كانت الثورة الأمريكية أقل كثيراً فيما أحدثته من انقلاب من الثورة الفرنسية التى جاءت نتيجة مباشرة حتمية لها .

« كان على الثورة فى فرنسا أن تهتم بالاقتصاد جميعه وأن تغير كل العلاقات الاجتماعية وأن تنفذ إلى آخر حلقات السلسلة السياسية . . .[٢]» ولهذا كانت الثورة الفرنسية ثورة حقيقية ، وبعثاً حقيقيا ، وبناءً جديداً للهيكل السياسى والاجتماعى . ولهذا يرى كوندرسيه أن « البادئ التى بنى عليها الدستور

---

(١) نفس المؤلف ص ١٧١ . أما فى فرنسا فقد كانت القوانين المدنية والجنائية غاية فى السوء ، وكانت العدالة زائفة بسبب شراء الوظائف .

(٢) نفس المؤلف ص ١٧١ .

والقوانين فى فرنسا أكثر نقاءً ودقة وعمقاً من المبادئ التى ألهمت الأمريكيين . . . فقد كان تخلصها من آثار المعتقدات الشائعة أعظم . . . ولم تترك المساواة فى الحقوق مكانها قط لما يدعى المصلحة العامة وما هى فى الحقيقة إلا خدعة . . . وأقيم مبدأ تحديد السلطات بدلا من ذلك التوازن الذى لا قيمة له والذى طالما أعجب به البعض . . .[1] فلأول مرة وفى أمة عظيمة متفرقة بالضرورة ومنقسمة إلى العديد من المجالس المنعزلة ، جرؤ القوم أن يحتفظوا للشعب بحقه فى السيادة ، وبحقه فى ألا يخضع إلا للقوانين التى تصدر بموافقته المباشرة عن طريق ممثليه ، والتى لو مست حقوقه أو مصالحه فانه يستطيع تغييرها بما له من سيادة[2] .

وكان لا بد للثورة الفرنسية أن تكون ثورة جذرية (راديكالية) أو هى قد نجحت بالفعل فى أن تكون كذلك . وبفضل جذريتها هذه كان لها أهمية عظيمة جدا فى تاريخ الانسانية : فهى تختم تاريخ التحرير ، وتبدأ تاريخ الحرية . ففى الثورة الفرنسية وبالثورة الفرنسية استطاعت الانسانية أو استطاع العقل أن يمتلك زمام نفسه تماما . فمنذ ذلك الحين ، أصبح المرء سيّد نفسه، وسيّد عمله ، وسيّد مستقبله ، سيّد المستقبل الذى يعدّه هو ويقرره هو بمحض إرادته وفكره . ولهذا كان العصر العاشر من تاريخ الانسانية ، وهو العصر الذى ندخل فيه ، عصر تفضيل المستقبل ، أوكما يقول كوندرسيه عصر التقدم الذى ننشده بارادتنا .

تقدم فكرى وخلقى ، وكوندرسيه لايفصل أحدهما عن الآخر ، بل هو وكل معاصريه يعتقدون أن الفصل بينهما مستحيل ، وأن التقدم الفكرى يتضمن التقدم الخلقى ويهيىء له . ولهذا تراه يرسم لنا صورة مشوقة لعالم متقدم فى الصناعة والطب والزراعة بفضل تقدم العلوم التى تجدد مناهجها باستمرار لتزداد تعمقا فى معرفة الحقيقة[3] عالم عممّ التعليم ووضع للضرائب والتأمينات نظاما عادلا ، فتخلص بذلك مما كان فيه من تفاوت اجتماعى أساسه التفاوت فى

---

(١) وكتلميذ لروسو لا يرى كوندرسيه تقسيم السلطات ولا يوافق على اعجاب مونتسكيو بالدستور الانجليزى .

(٢) نفس المؤلف ص ١٧٢ .

(٣) برهن كوندرسيه على بعد نظر عظيم حينما أعلن أن محصول لمنهج علمى إنما هو شىء محدود وأن على العلوم أن تغير مناهجها باستمرار .

الثروات . . . عالم ترى فيه رجالا يدفعهم حب العدالة والحقيقة إلى أن يحملوا مشاعل النور إلى الشعوب التى ما زالت غارقة فى ظلمات البربرية (١) . . . عالم يختفى منه الرقّ أولا ، ثم ينعدم فيه استغلال شعوب المستعمرات ؛ لأن الناس سيجدون فى الشعوب الملونة إخوانا لهم ورجالا لهم حقوق مثل حقوقهم . . . وعندئذ ، لن تشرق الشمس فى ذلك العالم الرخىّ المسالم السعيد إلا على رجال أحرار لا يعترفون بسيادة عليهم اللهم إلا سيادة العقل . . . أما المستعبدون والعبيد ، ورجال الدين وآلاتهم من منافقين وأغبياء فلن ، يظهروا بعدئذ إلا فى التاريخ وإلا على خشبات المسارح . . . ولن يهتم أحد بهم إلا ليرثى لضحاياهم وللمخدوعين فيهم ، أو ليتحدث فى روع عن جرمهم ليبقى الناس على حذر وليعلمهم كيف يعرفون ويخمدون بقوة العقل بواكير ما قد يظهر من جراثيم التطير والاستبداد ، ذلك إذا اجترأت على الظهور مرة أخرى (٢) .

[يتبع]　　　　　　　　　　الكسندر كواريه

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

---

(١) شعوب المستعمرات وشعوب آسيا وغرب أوربا .
(٢) *Essai* ص ٢١٠ .

من فلسطين إلى السودان

جولة موظف بريطانى

قد لا تكون الكتب التى تبحث فى السياسة أحب الكتب إلىّ ، وقد لا أراها تجتذبنى وهى معروضة لدى بأئعى الكتب ، كما تجتذبنى كتب الفنون والتاريخ . ولكن هذا الكتاب الذى أعرض له اليوم استرعى نظرى ، لا بعنوانه فعنوانه الذى هو «جولة الواجب»(١) لا أجد فيه جاذباً خاصا ، ولكنه استرعى نظرى باسم مؤلفه سير ستيوارت سيمز . فهذا الاسم قد لا يكون غريباً علىّ و إن كنت نسيت أمره لأول وهلة ، ولكنى مالبثت أن تذكرت أنه حاكم السودان فى عهد قريب . وكلمةالسودان فى هذه الأيام تثير شعور كل مصرى ، ولعلها تثير اهتمام غيره من العرب . لذلك لم يكن عجيباً أن أخذت الكتاب فى لهفة وعكفت على قراءته .

ليس للكتاب أهمية خاصة ؛ فهو لا يمتاز بأناقة فى الأسلوب ، ولا هو أخاذ بحسن السرد ، ولا بنظامه فى ترتيب الموضوعات . و إنما خير ما يمتاز به الكتاب صراحة صاحبه ؛ فالرجل ، كما تستبين من كتابه ضيق الأفق فى السياسة ، لا يسائل فيما يؤمر أن ينفذه فى عمله ، ولكنه واسع الحيلة فى تنفيذ هذه السياسة ، يعرف كيف يصل إلى غرضه ، يساعده على ذلك اعتدال فى طبعه ، وصراحته أو مظهر صراحته ؛ فهو يرى فى هذه السياسة واجباً يؤديه ، لذلك أسمى كتابه « جولة الواجب » .

كانت حياة ستيوارت سيمز سلسلة منتظمة من أداء الواجب ، منذ التحق بخدمة حكومته ضابطاً صغيراً بالهند فى أول هذا القرن ، إلى أن ترك هذه الخدمة حاكماً للسودان فى سنة ١٩٤٠ . ويظهر أن حكومته عرفت فيه الاخلاص للواجب ، كما عرفت فيه خير من ينفذ سياسة من السياسات بدون مساءلة أو

---

(١) *Tour of Duty*, **by Sir Stewart Symes. Collins, London, 1946.**

تردد ، فصار ينتقل من عمل إلى عمل ويترقى من عمل أصغر إلى عمل أهم ، حتى استطاع أن يشغل عملين نرى أنهما فى المكان الأول من الأهمية : أولهما عمله بفلسطين بين سنتى ١٩٢٠ ، ١٩٢٨ ، حين كان حاكماً لإحدى المقاطعات فى السنوات الأربع الأولى ، ثم سكرتيراً عاما بالقدس فى السنوات الأربع الأخيرة . أما العمل الثانى الذى له أهمية كبيرة فهو منصبه حاكماً للسودان بين سنتى ١٩٣٤ ، ١٩٤٠ ، ثم اعتزل العمل ، وظل ست سنوات فى عزلته حتى أخرج لنا كتابه ، الذى أردنا أن نعرض بعض صوره ، ناقلين آراءه فى هذا ، وفى بعض الأحيان عباراته نفسها .

فى هذا الكتاب نجد صوراً عن حياته الأولى فى السودان وفى غير السودان كبلاد الهند ومصر . وفيه نرى ذكراً لكتشنر وأيامه فى السودان ، وكرومر وونجت وسير غورست الذى خلف كرومر ممثلا لبلاده فى مصر . ونجد وصفاً لمصر فى عهد وزارة مصطفى باشا فهمى ، ووصفا لمن فيها من شخصيات بارزة . ولكنه فى ذلك الحين كان أقرب إلى المشاهد منه إلى الرجل الذى يشترك فى تسيير الأمور . أما فى فلسطين ، لا سيما فى الفترة التى شغل فيها منصب السكرتير العام الادارى ، فقد كان مسئولا عن تنفيذ سياسة مرسومة ، وكان هو يعلم ذلك حق العلم ، ويعلم أن حكومة تلك البلاد تمثل فى صورة مصغرة جميع المشاكل التى تعترض بلاد الشرق والغرب معاً . ولقد عهد إليه بين سنتى ١٩٢٠ ، ١٩٢٥ فى إدارة مقاطعة تمتد من الخليل إلى سمره . ولم يكن هذا الإقليم معقد المشاكل مثل إقليمى القدس ويافا ، على أن فيه ميناء كبيراً ، هو حيفا ، وبلدة نامية هى نابلس ، وأهله مزيج يغلب فيه المسلمون ، وقد قامت بينهم الحركة الصهيونية فرأوا فيها نذيراً ، وتغلبت على ما عداها من اختلافات محلية .

وكان الموظفون الإداريون على الغالب غير خبراء بأعمالهم ولكن كانت عند كل منهم الرغبة فى العمل . وكانوا يتلقون تثقيفهم على يد الجمهور ، وعلى يد رؤسائهم .

وكان المندوب السامى عندئذ سير صموئيل هور وهو إسرائيلى ، وصادف أن النائب العام كان إسرائيليا أيضاً ؛ فكان العرب يشكون فى عدم تحيز الحكومة . وقد حدث فى ذلك الوقت أن أريد عقد اجتماع للغرف التجارية فى حيفا يرأسه المندوب السامى ، ورأى العرب مقاطعة هذا الاجتماع ، فالتجأ المؤلف إلى أحد

أصدقائه من العرب المتحمسين ، وعمل على إقناعه حتى وافق على أن يحمل زملاءه على الحضور ، ولم يفعل ذلك إلا رغبةً فى إرضاء صديقه .

وانتهت مدة خدمة سير صموئيل هور ، كما نقل عندئذ ألبرت كليتون الذى كان سكرتيراً عاما لحكومة فلسطين ، فاذا بسيمز يعين فى مكانه ، ولم يكن ينتظر هذا التعيين . وظل ثلاثة أشهر يحكم البلاد ، إلى أن حضر المندوب السامى الجديد ، وهو فيلد مارشال لورد بلرومر . وكان يومئذ فى السبعين من عمره ، يدل مظهره على النشاط والعزيمة ، وفى عينيه بريق أشبه ببريق الشباب ، وكان يسأل عن الأمور ، ولكنه على غير عادة الحكام كان يصغى إلى الجواب فى اهتمام .

وقد أراد سيمز أن يتركه وشأنه حتى يصدر حكمه على عمله الجديد . فاذا به بعد أيام شاقة يقول إن هذه البلاد لا تخلو مما يسترعى النظر . وكان سيمز قد انتدب ليحضر اجتماع جمعية الأمم ليتكلم عن الانتداب . وجاءت وفود العرب واليهود يقابلون المندوب السامى ، كل يدلى بآرائه ، فاذا بالمندوب يقول لسيمز بعد مقابلة هذه الوفود إن كلا منهم ينتظر أن تمثل آراؤه المتعارضة فى جنيف .

ولقد ذهب سيمز إلى جنيف ثم لندن ثم عاد إلى فلسطين ، ووثق أن سياسة الحكومة الانجليزية قد رسمت ؛ فالحلم الذى بناه العرب بانشاء إمبراطورية ، والفكرة الكبيرة عن التآلف بين الدول العربية ، بحيث تكون كل منها مستقلة فى ذاتها ولكنها متحدة فى سياستها ، لم تستطع أن تعيش إلى جانب الحقائق الخشنة للسياسة التى تنتهجها الدول العظمى ، وللخلافات بين العرب وعدم التنظيم . وكذلك ذهب مع الفكرة الكبيرة ، ذلك الأمل فى أن يتقدم أمير صهيونى ملىء الجيب بالأموال ليخطب فلسطين عروساً له ، ويدخل فى خدمة مجموعة كبيرة من الدول العربية أو السامية . ولقد عرف الحلفاء و بريطانيا خاصة فى أثناء الحرب ، كيف يتقاضون من اليهود مساعدة مكنتهم من الاستيلاء على فلسطين . وتقدم العالم اليهودى يطلب تحقيق الوعد فى الدولة الجديدة ، ولكن بريطانيا أمة من التجار الحذرين لها آراء ديمقراطية ، ولها إمبراطورية تحتوى على ملايين من المسلمين ، فأخذت تعالج الأمر بالتجارب والمناقشات والمفاوضات دون أن تصل إلى نتيجة ، ولم يبق أمامها إلا الوقوف والانتظار .

وقد ظن سيمز أن شكوى العرب قائمة من مطالبهم وحاجاتهم الاقتصادية ، ولذلك أخذ يدرس نظا للاصلاح ، وتحدث مع زعماء كل من العرب واليهود ، فوصل إلى اتفاق غير مكتوب بينهما بأن يلزم كل فريق جانب السكينة . وقد وفى الفريقان بهذا العهد طوال المدة التي قضاها لورد بلومر حاكماً على فلسطين ، وبهذا الاتفاق استطاع أن يسرح رجال الشرطة من البريطانيين ، وأن يوفر الكثير من النفقات .

وقد روى سيمز حادثاً ذا مغزى عندما كان مديراً لاحدى المقاطعات ، يمكن أن يفهم منه مركز الموظفين البريطانيين ، وما تعهد إليهم السياسة البريطانية من عمل . ذلك أنه دعى إلى اجتماع مع غيره من المديرين لمقابلة سير صموئيل هور المندوب السامى ، وكان موضوع بحث الاجتماع ثورة خواطر العرب من أجل الهجرة اليهودية ، وما أدى إليه ذلك من وقف الهجرة مؤقتاً مراعاة لعواطف العرب من جهة ، وحرصاً على سلامة المهاجرين من جهة أخرى ، وكانت مظاهر السخط فى تلك الأثناء قد هدأت ، ولكن العداوات قائمة فى القلوب . وكانت المسألة التى طرحت للبحث هى : هل من الممكن استئناف قبول المهاجرين بعد وقف الهجرة مؤقتاً ؟ وكان من رأى رجال الاستعلامات الذين حضروا هذا الاجتماع أن يظل المنع قائماً . ولما سئل سيمز عن رأيه ذكر أن هذا الاجراء هو إجراء ضرورة وانتهاز للفرصة ، وأنه بهذا الوضع لا يليق بالحكومة أن تستمر فيه . ووافق المندوب السامى على رأيه ، وسأله بصفته مديراً لمقاطعة يدخل فيها ميناء حيفا الذى هو أحد الميناءين الهامين فى البلاد ، هل هو على استعداد لتحمل مسئولية قبول المهاجرين فى الحال وفتح الميناء لهم ؟ وكانت العيون ترمقه فى شئ من الشك عندما أجاب بالايجاب . ولكنه اشترط شرطين : أن يخبر بمجئ المهاجرين قبل أسبوعين من وصولهم ، وأن تطلق يده فى إخبار أهل المدينة بهذا الأمر قبل وصولهم .

وعاد إلى منصبه فى حيفا . وتناثرت أخبار هذا الاجتماع ، فجاء زعماء العرب وجاء زعماء اليهود يستطلعون الخبر . فلم يتردد فى الافضاء إليهم بالحقيقة ، وطلب إليهم أن يعملوا لهدوء أنصارهم قبل حدوث أية هجرة ، وأنه سيطلعهم على الحقيقة إذا ما جاءته أنباء عن مهاجرين .

ولكن حدث أمر لم يكن يتوقعه ؛ إذ دق بعد ذلك بأيام جرس التليفون

من القدس فى داره فى ساعة متأخرة من الليل ، وأبلغ فى لهجة الاعتذار ، أنه وصلت سفينة تحمل بضع مئات من المهاجرين الذى طافوا البحر الأبيض بأجمعه، وحاولوا أن ينزلوا مرتين فى يافا فرفضوا ، وأن بينهم مرضى وعجزة ، وقد صرح لهم من قبل بدخول فلسطين ، وحال دون دخولهم منع الهجرة المؤقت ، وقيل له إن شروطه معروفة ، ولكن هل يستطيع فى سبيل الانسانية أن يقبلهم إذ أن السفينة ستدخل بهم ميناء حيفا بعد ست وثلاثين ساعة ؟ طلب مهلة نصف ساعة يفكر فيها ، ثم وافق على هذا الطلب على أن يرسل إليه كتيبة من الفرسان البريطانيين .

وفى الصباح التالى أرسل إلى زعماء العرب مسلمين ومسيحيين ، وأطلعهم على الخبر فى صراحة ، ولقد حافظوا على سكينتهم ومجاملتهم ، و إن أخبروه علانية بأن هذا الخبر سيؤدى إلى اضطراب كبير ؛ فالناس ثائرو الخواطر لمجرد الإشاعة ، فاذا علموا بأن حيفا ستقبل مهاجرين رفضهم الوطنيون فى يافا ، فان ذلك مما يبلغ بالأمور درجة الغليان ، وقد يؤدى ذلك إلى الاضطراب و إراقة الدماء ، وأبى الزعماء أن يتعهدوا بأى شئ يتحملون تبعته فى هذا الأمر .

فأفهمهم سيمز أنه يعلم ما يساورهم من قلق ، وقال لهم إن تبعة الاحتفاظ بالأمن هى على كل حال من واجبات الحكومة ، وكل ما يرغب إليهم فيه هو بذل مجهود فى هذا الاتجاه بقدر ما يستطيعون .

وقابل سيمز بعد ذلك وفداً من اليهود ، ومن الطبيعى أنهم وافقوا على غرضه ولكنهم كانوا يرهبون ما قد يتعرضون له من أخطار ، فهل يستطيع أن يضمن السلامة ، لا للمهاجرين وحدهم بل للعدد الكبير من السكان اليهود فى أرواحهم وأموالهم ؟ وأجاب بأنه لايضمن شيئاً ، ولكنه سيبذل كل جهد مستطاع . وطلب إليهم أن يحتفظوا بمظهر السكينة بألايغلقوا حوانيتهم ، وأن يستمروا فى أعمالهم مهما يحدث من الأمور .

كانت مشارب القهوة فى اليوم التالى ، و إلى ساعة متأخرة من الليل ، تطن بالحديث بين غاضب وخائف . وأبدى قائد الشرطة مخاوفه من تجمهر الناس . فأمره المدير بأن يعمل ما فى وسعه لحفظ النظام ، إذ هو لايرغب فى الالتجاء إلى معاونة الجنود البريطانيين إلا عند الضرورة القصوى .

وفى اليوم الموعود امتطى المدير جواداً ، وسار فى شوارع المدينة الضيقة ومعه تابع ، ورأى فيها جماعات من الناس كالعادة ، ورأى الحوانيت تفتح فى شى

من التردد ، ورأى الهدوء مستتبًّا أكثر مما يجب . وقد اخترق بعض شوارع أحياء المسلمين فظهرت على أهلها الدهشة ، وكانوا يردون على تحيته فى شئ من التردد . وفى ساحة صغيرة وجد جماعة من الرجال الأشداء يتناقشون فى عنف ، وفى أيديهم هراوات ثقيلة ، وحدث حينئذ أن تجاوب صوت يشبه عدة طلقات ، فارتعد أصحاب الحوانيت وبدا على وجوههم القلق ، ولم يكن ذلك إلا صوت دراجة ميكانيكية .

عاد المدير إلى مكتبه ، فأخبره كاتم أسراره أن السفينة تقترب من الميناء ، وأنه اتخذت الاحتياطات من رجال الشرطة ، وأن الناس يتجمعون غاضبين حول خطباء يلقون خطباً نارية ، وأنه حدثت بعض حوادث ، وفى الوقت ذاته أعلن بوجود زعيم دينى كبير من المسيحيين جاء لمقابلته ، وهو يرغب أن يراه فى الحال . كان هذا الزعيم ، على وصف المدير ، رجلا مهيب الطلعة ، يقال إن صورته طبعت على بطاقات وبيعت فى فرنسا ، لجمع أموال للأعمال الخيرية ، فلقيت نجاحاً كبيراً ، لما فيها من شبه للمسيح كما يصوره المصورون فى القرون الوسطى ، وكان يلعب دوراً هامًّا فى الأمور المحلية ، وكان سياسيا متحمساً ، وفى بعض الأوقات يبلغ به التحمس أن يصير خطراً .

قابله المدير ، وأخذ الزعيم الدينى يتكلم فى لغة عربية بليغة لم يكن المدير يفهمها حق الفهم ، فأخذ الزعيم يشرح رأيه بلغة فرنسية طلقة ، وكان يطلب إلى المدير حرصاً على مصلحة المدير نفسه ، ومصلحة العرب واليهود وسائر العالم ، أن يعدل عن السماح للمهاجرين بالنزول من السفينة إلى البر ، وأن يردهم من حيث أتوا . وظل يشرح رأيه ويبدى ويعيد فى أقواله دون ملل ، ولم يقطع تدفق الحديث حتى صوت التليفون وهو يدعو المدير ، وحتى حديث المدير فيه . وقد استمر فى بيانه بالرغم من أن المدير كان بين آن وآخر يصغى إلى محادثة تليفونية . وبعد آخر محادثة نظر المدير إلى ساعته ، فاذا الزعيم قد مضى ساعتين فى شرحه . وعندئذ وقف المدير معتذراً لكى ينهى المقابلة ، وقال الزعيم فى رقة إنه يرجو أن لا يذهب توسطه هباء ، وأن أية محاولة لنزول المهاجرين ستكون ذات شأن خطير . فأخبره المدير فى وداعة وصراحة ، أن المهاجرين قد نقلوا من السفينة إلى معسكر يقيمون فيه ، وأن قائد الشرطة حين أبلغه هذا الخبر تليفونيا قال له إن ذلك جرى فى سكينة حتى إنه لم ينبح كلب واحد .

وهكذا نرى صراحة المؤلف فى وصف الدور الذى كان يقوم به فى فلسطين ، ويقوم به مئات من أمثاله من الموظفين البريطانيين حتى اليوم .

عندما عين سير ستيوارت سيمز حاكماً للسودان المصرى الانجليزى فى سنة ١٩٣٤ ، لم يكن السودان غريباً عليه ، فقد عرفه وخدم فيه فى مبدأ حياته العملية ، وعاشر فيه كتشنر ونجت ، وخبر السياسة التى كان يكنها أولئك البريطانيون الذين سلمت إليهم إدارة البلاد بعد أن أعيد فتحها ، ليمثلوا مصر وبريطانيا فى تلك الأرجاء ، على أن يكونوا مخلصين لما أسموه بالحكم الثنائى . وهو رجل ، كما أشرنا من قبل ، يؤمن بالسياسة التى وضعتها حكومته ، وينفذها فى دقة وإخلاص . وهو كذلك رجل صريح ، فهو يتكلم فى بساطة متخذاً وجهة نظر بريطانية صرفة ، لا يناقش شيئاً ولا يجادل شيئاً .

ولقد قابل تعيينه حاكماً بالسودان بالسرور ، لأنه كان يعرف دخائل الادارة فيه ، ويعرف الرجال الذين سيعملون معه ، وهم على قوله رجال من خريجى المدارس العامة مثله ، أى ليسوا من الجامعيين ، ولكنهم قديرون فى الأعمال الادارية ، يرمون إلى الغرض فلا يخطئون إصابته . ويرى أنهم نجحوا فى نقل السودان من حالة التوحش إلى المدنية ، وأنهم أوجدوا فيه الرخاء ، حتى صار الأجنبى يستطيع السياحة فى أرجاء السودان دون أن يحمل سلاحاً ، وينتقل فى البلاد فيقابل من الأهالى المحليين مقابلة الصديق ، وأن الانجليزى بنوع خاص يعتبر ضيفاً كريماً ، وأنه لا توجد فى السودان حوائل اللون ؛ فالسودانيون والانجليز كل يحتفظ بعاداته وعقائده دون أن يقوم بينهم خلاف على حق التقدم .

والسودان مساحة واسعة ضخمة ، يسود فيها جو مرهق ، ويسكنه ستة ملايين من الناس .

وقد يستطيع المرء أن يكوّن فكرة عن مساحته واختلاف سكانه ، إذا قام برحلة جوية فوق الملايين من الأميال المربعة التى تتألف منها مساحته . فالسائح الذى يسافر جنوباً من خط العرض الثانى والعشرين إلى خط العرض الرابع فوق خط الاستواء ، يستطيع أن يرى مجرى النيل وفروعه الكبيرة ، فيرى شريطاً ضيقاً من خضرة ماء النهر تتعرج فيما يبدو صحراء لا نهاية لها ، حتى خط العرض الثالث عشر ، ثم يدخل هذا الشريط إلى أرض تغطيها الأحراش المنتثرة

ثم يمر بعد ذلك على مستنقعات منبسطة ، وهى المنطقة التى تعرف بمنطقة السدود. ثم يدخل المديرية الاستوائية . ويمكن هذا السائح أن يتعرف الأحوال إذا نزل فى عدة أماكن ؛ فيرى أن السكان الذين يعرفون بالجنس البربرى عند وادى حلفا يزداد لون بشرتهم سواداً حيث يرى الزراع فيما يجاور الخرطوم . وإلى جانبها عند أم درمان يرى خليطاً من الأجناس التى تمثل شمال إفريقية ، تعداده مائة ألف رجل وامرأة . وفى الملاكال على بعد خمسمائة ميل إلى الجنوب ، يرى نوعاً من سكان النيل ، نحيلا عارى الجسد . وهؤلاء يحيون حياة بسيطة ، ولهم عادات لا يألفها سكان شمال السودان ، وبعد ذلك تأتى مساحة تسكنها قبائل زراعية لغتها تشبه لغة بعض سكان شرق إفريقية ووسطها .

والسائح الذى يسافر من الشرق إلى الغرب ، أى من البحر الأحمر إلى إفريقية الفرنسية الاستوائية ، وهى سياحة ألف وخمسمائة ميل ، يجد أيضاً مثل هذا التنوع . فهو يبتدئ من ميناء بور سودان الحديث إلى التلال التى تسكنها قبائل البجا منذ آلاف السنين ، ثم يصل إلى كردفان وما فيها من أهل التلال الوثنيين الذين صاروا الآن من زراع القطن . ثم يصل إلى دارفور التى كانت سنة ١٩١٦ ولاية وطنية ، وقد احتفظت إلى الآن ، بعد أن صارت تابعة لحكومة السودان ، بحياتها الخاصة ؛ فتجد الجمالة فى الشمال والبقارة فى الجنوب ، ولايزال لها ملوكها وفرسانها الذين يلبسون الدروع فى الاحتفالات و يمتطون الجياد المسومة .

وهو يقول إنه بالرغم من هذا الاختلاف فى سكان السودان أتيح للسودان فرصة أمن وهدوء بعد القضاء على حكم الدراويش فى سنة ١٨٩٨ ، وكان الفضل فيها للضباط الحربيين من البريطانيين ؛ يعاونهم زملاء مصريون قديرون . وكان عملهم فى الأيام الأولى ثقيلا جدًّا ، وكان مفتاح هذه السياسة الابتعاد عن المركزية ، واستخدام القوى الأهلية فى إدارة السودان . واعترف فى هذا النظام بالأقسام التاريخية للبلاد ، وبقوة العلاقات التقليدية ، مما مكن من إيجاد هيئات أهلية تتعاون فى النهضة الاقتصادية . وقد أريد قيام فريق من الأهالى بالاشتراك فى الحكم لكى تنمو الهيئات التى تؤدى للحكم الذاتى . ولا ريب أن الحالة كانت تحتاج فى بادئ الأمر إلى أن يحال بين الأهالى الحاكمين وسوء استعمال سلطتهم . ولذلك كان الموظفون السياسيون حذرين كل الحذر ، وهم يراقبون انتقال النظم التى تقوم على تقاليد القبيلة إلى نظم حديثة .

ومما ساعد على الرخاء أنه أنفق مالا يقل على عشرين مليوناً من الجنيهات على الأعمال النافعة . وتقوم مصر بالنفقات الأساسية ، أما القروض السودانية التى تمت أخيراً فكانت بضمان الخزينة البريطانية .

على أن مشاكل السودان ليست بالقليلة ؛ فهو مساحة واسعة يسكنها عدد قليل من السكان موزعون . والبلد زراعى ، ولكن كثيراً من أراضيه غير خصب والأمطار غير موزعة توزيعاً حسناً ، وهى خفيفة فى مناطق عديدة . وتقوم ثروة السودان على التجارة الصادرة فى منتجات أولية تختلف أثمانها اختلافاً بيناً بين سنة وأخرى حسب الانتاج المحلى والأسعار العالمية . أما المنتجات المعدنية فقليلة جدًّا .

وتختلف الأحوال العامة فى شمال السودان عنها فى الجنوب ؛ ففى الشمال تعتبر اللغة العربية هى اللغة المعروفة من الجميع ، والآراء الاجتماعية والثقافية العربية هى معروفة لدى الجميع . والسكان من مسلمين ومتعربين ، الذين يعيشون إلى شمال خط العرض الثانى عشر ، تطل نوافذهم السياسية على مصر والبحر الأبيض ، وتطل من الشرق على منبع دينهم . ولكن إلى الجنوب من ذلك الخط نجد خليطاً من القبائل لها لغات وعادات مختلفة ، لا يربطها رابط عاطفى غير الحاجة الأولية إلى الطعام والنسل والدفاع .

وقد أخذ فى تنظيم هذه الجماعات الجنوبية ، وهذا هو الغرض مما سمى بسياسة الجنوب ؛ فهى سياسة تعترف بأن الجنوب إفريقى ينتمى كلية إلى الجنس الأسود .

ويقول سير سيمز إن من المشاكل التى تقوم فى السودان مشكلة الطبقة المتعلمة . وقد حرصت الادارة على ألا يزيد عدد المتعلمين تعليما كتابيا عما تحتاج إليه الأعمال العامة . ومع ذلك فان جميع الوظائف الصغيرة يشغلها سودانيون . أما الوظائف الكبيرة التى تحتاج إلى تعليم فنى فان عدد السودانيين فيها قليل جدًّا ، ولكن ظهر فى ميدان العمل أخيراً عدد من ذوى المؤهلات الطبية والقانونية من السودانيين ، وهذا فأل حسن للمستقبل .

ولم يقترح سير سيمز فى أثناء حكمه إجراء أية تعديلات دستورية . وهو يرى أن الوصاية البريطانية ضرورية للاحتفاظ بمستوى الخدمات العامة ، ولكن قد يمكن السير خطوات نحو الاستقلال الذاتى ، وحتى فى شمال السودان يجب أن يمضى بعض الوقت قبل إيجاد المنشآت النيابية لحكومة مسئولة .

وهنالك فضلا عن العقبات المحلية اعتبار آخر يجب مراعاته ، وهو حقوق

ومصالح شريك ثالث هو مصر. فان هذا الشريان القديم الذى هو نهر النيل ، يؤيد و يربط حظوظ ثلاثة عناصر متباينة من الجنس البشرى ، وهو ذلك الخليط من السكان الذين يعيشون فى جنوب السودان وأغلبهم وثنيون ، ثم العرب المسلمون فى شمال السودان ، ثم فلاحو الصعيد والدلتا . ولكل فريق من هذه العناصر مصلحة قائمة فى النهر . وللفلاحين الأسبقية فى القدم وفى الأهمية المادية والسياسية . وهذا كان الباعث الأساسى الذى أدى إلى التدخل الحربى المصرى فى السودان فى أوائل القرن التاسع عشر ، ثم إعادةفتح السودان بالجيش المصرى البريطانى فى نهاية ذلك القرن . وهذا هو الذى دعا إلى تأليف الحكم الثنائى . ولقد أدى الاضطراب الوطنى فى مصر إلى إخراج الجيش المصرى منه ، و إحلال قوة الدفاع السودانية محله ، وعزل طائفة من الموظفين والضباط المصريين . ولكن هذه الحوادث أثارت فى نفوس المصريين ناراً مشبوبة . وظلت المسألة السودانية جرحاً لا يندمل بين مصر و بريطانيا ، وظل النفوذ المصرى مبعداً عن السودان مدة عشر سنوات أو أكثر .

ثم حدث الاعتداء الايطالى على الحبشة ، وهدد المحور سلامة البحر الأبيض والعالم ، فخلق ذلك موقفاً جديداً أرغم أشد الوطنيين المصريين تحمساً ، بزعامة النحاس باشا الرشيدة ، أن يعيدوا النظر فى موقفهم .

ومع ذلك فمشكلة العلاقات بين مصر والسودان ، لا سيما المسلمين من سكانه فى الشمال ، لا تزال وستبقى مشكلة شائكة . ولا يمكن الوطنى المصرى فى اهتمامه بمسائل مياه النيل والعلاقات الدينية مع السودان أن يقلع عن اهتمامه بمستقبل تلك البلاد ، ولا يمكن فى أى ظرف أن تقبل حكومة فى السودان تكون غير صديقة أو غير بادية الكفاية .

ولعل الخطر فى السير بسفينة الادارة فى السودان فى رأى مؤلف الكتاب ، هو ألا يقدر البريطانيون الطبيعة المعقدة للمشاكل السياسية فى السودان ، وألا يقدروا روح الوطنية المصرية ، وألا يقدروا الروح الوطنية فى شمال السودان ، فبين هذه الصخور المعترضة يجب أن تسير السفينة . وفى رأيه أن خير حكمة تنطبق على حالة السودان ، هو العمل بقول القائل : العجلة من الشيطان .

حسن محمود

على قيثارة الحياة

اللحن الأخير

[هأنا أعزف لحنى وهو اللحن الأخير]
الشاعر الحائر

لست أدرى أيها القلب أأبكى أم أغنّى
فأنا أقضى حياتى بين يأس وتمنٍّ
تملأ الأفراحُ كأسى ويُريق الكأسَ حزنى
عَجَبٌ حالى مع الدنيا وما أغربَ شأنى

أشتهى الموت على رغمى وأشتاق الحياه
ويهز الشك قلبى ثم أفنى فى الصلاه
إنه اليأس الذى يغمر أيامى دُجاه
إنه الحرمان مما تفتن القلب رؤاه

آه لو مرت حياتى نسمة تسرى رُخاءَ
آه لو عشتَ بقلبى كيفما شئتُ وشاء
لملأتُ الكون شدواً وهتافاً وغناء
وملأت العمر أفراحاً وأحلاماً وضاء

اه لـكنى شريد وغريب فى حيـاتى
ماتت الأفراح فى قلبى ، فماتت أغنيـاتى
وطغى اليـأس على عمرى فغشّى أمنيـاتى
فتعلتُ من الدنيـا بطيـف الذكريات

يا حيـاتى إننى وحدى على الدنيا شريدُ
عـذب الحرمان أيامى ولـكنى أريـد
وأذلّ السجن قلبى وطوت روحى القيـود
من أنا يأيهـا الدهر ويا هـذا الوجود

أنا طيـف يقطع الأيام حـيران شقيّا
أسـتر الحزن وأخفى دمع عينى بيـديّا
وشـعاع الشمس يؤذينى ويغشى مقلتيّا
ليتنى ما كنت طيفا ! ليتنى ما كنت حيا

أنا قيثـارة أنغـام فمـالى لا أغـنى
عبث اليـأس بأوتارى وأنغـامى وفـنّى
أيهـا اليـأس ألا تذهب بالأحزان عـنى
إننى ألقيتُ آمالى فخذها . . . ثم دعـنى

أنا لحن والهُ الأنّات مشبوب البـكاءِ
جاء من قيثارة الله إلى هـذا الفضـاء
هو فى الفجر حنـين وأنين فى المسـاء
ليتنى عدت لقيثـارك يا رب السـماء

أنا قلبٌ حائر الأشواق فى دنيا الغوانى
يشتهى قلباً عميق الحب فيَّاض الحنان
يصطفيه بهجة العمر وأفراح الزمان
و يناجيه بسر الحب فى ظل التدانى

أنا روحٌ هائم بين عيون ونهود
حالم بالنشوة الكبرى من الحب الفريدَ
إنها إشراقة العمر و إشعاع الوجود
ليتها تحرق روحى ثم أحيا من جديد

فى دمى شوق إلى الحب وفى قلبى حنين
و بأيامى صَبابات وفى عمرى فتون
جُنَّ قلبى بالهوى العذرى والحبُّ جنون
وأنا المحروم أيامى شكاة وأنين

أيها الروح الذى أبحث عنه فى زمانى
أيها الروح الذى يدعوه روحى وكيانى
ليتَ شعرى يا حبيبى أنت فى أى مكان
أقريب من حياتى أم بعيد كالأمانى

أنت لا تعلم ما بى من شجون وعذاب
أنت لا تصغى لأنَّاتى من القلب المذاب
أنت لا تدرك أنى حائر فوق اليباب
أنت لا تعرف أنى ظامىء بين السراب

إننى أصبحت أحيــا فى زمانى مســتطارا
ثائر الأحزان ليــلا حائر القــلب نهارا
ذاهل اللب اصطبارا ذاهب الفكر انتظارا
لا أرى إلا خيــالاتى وأوهامى حيــارى

أنا قد طوّفت فى الدنيا وفى كفّىَّ كأسى
أطلب الرِّىَّ لروحى—وهى ظمأى—ولنفسى
وأغنى لحن أشــواق وتغــريدة حسى
ثم ماذا ؟ . . . هأنا عدت لأحزانى و يأسى

أنت يا قلبى أما يكفيك شجوى وانتحابى
أنت يا قلبى أما يكفيك يأسى واغــترابى
هأنا أدفن أحــلامىَ فى هــذا التراب
فعزاء يا حيــاتى وعزاء يا شــبابى

يا فؤادى إنما الحب سراب فى حيــاتى
يتراءى دافق الأمــواج رَحب الجنبات
فاذا سرت إليــه راح يسرى فى الفــلاة
واللظى يُحرق روحى والضنى يقتل ذاتى

خلّنى وابحث عن الحب إذا رمت المحــالا
واطلب الظلَّ من الرمضاء واستسق الرمالا
فأنا ودَّعت أوهامى وشيعت الخَيــالا
وأنا جافيت آمــالىَ نوراً وظــلالا

لن ترانى أشتهى الغيد وأشتاق العذارى
لن ترانى أقطع العمر حنيناً وادكارا
سوف أحيا مثلما يحيا غدير فى الصحارى
رفرف الطير عليه ساعة . . . ثم توارى

لا تحدثنى عن الماضى الذى ولّى وضاعا
ذهب الماضى وما نملكُ للماضى ارتجاعا
فدع الأيام يذهبن من العمر سراعا
وكفانا أيها القلب حنيناً والتياعا

نحن ضيعنا الليالى فى الأمانى والخيالِ
وتركنا النور يا قلبى وهِمْنا فى الظلالِ
وغفَوْنا فرأينا الكون فى أبهى مثال
ثم لمّا أن صحونا لم نجد غير الرمال

أيها اللائم فى يأسى وشجوى وانتحابى
لا تلمنى حين أبكى . . . إننى أبكى شبابى
لا تلمنى حين أشكو . . . إننى أشكو لمابى
أنت لا تعرف أسرارى ولا تدرى مصابى

محنتى أنى تغرّبت عن الدنيا بقلبى
محنتى أنىَ ظمآن ولا ماء بقربى
محنتى أنى أريد الحب . . . لكنْ أىّ حب
محنتى أنى نداء لم يجد سمعاً يلبّى

لو قضيتُ العمر أبكى ما شفى نفسى البكاء
إنمـــا عمرى فضـــاء فيه أيامى هبـــاء
لم يعـد يخـدعنى الوهم و يُغـوينى الرجاء
وهمومى ليس يجـــدى الصـــبر عنها والعزاء

هأنا أُمســك قيثارى ولى قلبٌ كسيرُ
هأنا أعزف لحنى وهو اللحـــن الأخـــير
إنه رعشــة غصن ســوف تطويه الدّبـو ر
إنه أنّات محزون ســتخفيه القبـــو ر

ابراهيم محمد نجا

LES ORIGINES DE L'EXISTENTIALISME

ROGER ARNALDEZ

أصول الوجودية

الوجودية بالمعنى الخاص لهذا اللفظ تدل على فلسفة للوجود . وإذا كان هذا التعريف المشتق من اللفظ بعيداً عن توضيح ما تنطوى عليه ، فان له على الأقل مزية ، وهى أنه يذكر بتمييز أساس يعتمد عليه كل تاريخ الحركة الفكرية فى الغرب ، وهو التمييز بين الماهية والوجود . ونرجو أن نتمكن على ضوئه من أن نرسم حدوداً للحركة الفكرية موضوع دراستنا .

والوجودية منتهى ما بلغته الحكمة المعاصرة . على أن التفكير فى الوجود ليس حديث العهد ، ولا يرجع إلى أيامنا هذه . فمنذ أفلاطون أخذت هذه الفكرة تظهر وإن كان ظهوراً مضطرباً غامضاً لأنها ما زالت ممتزجة بفكرة الماهية. فما الماهية ؟ هى ما يجعل كل كائن هو ما هو ولا شئ سواه ، أو هى لولاها لأصبح أى شئ لا قوام له خاضعاً لجميع الأحداث ولأشد أوضاع الوجود تناقضاً. والماهية لا تقتصر على تعيين الكائنات ، ولكنها تحدد أيضاً الميدان الذى يجوز أن تلحق الفرد فى داخله ألوان من التحول دون أن يفقد ذاتيته . فقد يكون الرجل أبيض اللون أو أسوده أو أصفره ، وقد يكون موسيقياً أو طبيباً ، أصلع أو غزير الشعر الخ ... ولكن لا يجوز أن يكون له ريش الطير أو زعانف السمك. وعلى أى وجه ينبغى أن ننظر إلى تلك الماهيات ؟ هل يجوز أن نرفض لها الوجود فى حين هى مبدأ الوجود فى الكائنات ؟ يجيب أفلاطون : لا ، بلا شك . فالماهية هى بالذات الوجود . وهذا المذهب الذى يزداد قوة فى الأفلاطونية الحديثة التى ذهب إليها بلوتان Plotin سيسود طبقة واسعة من المفكرين أشهرهم سبينوزا وهجل . فهؤلاء المفكرون يرون أن التمييز بين الممكن والواقع ليس حقيقيا ، فاذا كانت جميع الماهيات موجودة فكل ممكن واقع . والممكن يفقد النفس الانسانية أحد أبعادها فى الحيز الفكرى الذى تجول فيه . فانها لا تستطيع أن تجدد أو أن تنشئ ، ولا تستطيع أن توجد فى العالم آثاراً مبتكرة حقا . وقواها

الحية تكتظ من فرط الامتلاء . وكل شئ يأتى فى حينه ، وكل شئ يتلقى اتجاهاً معيناً ويشارك فى تكوين الواقع العظيم الضخم . فأيسر آهة وأضأل ابتسامة يندرجان فيما قرر لهما من مكان فى نسيج العالم .

على أن لوناً آخر من ألوان التفكير أخذ يظهر بظهور أرسطو . فما كان عند أفلاطون عالماً حقيقياً أو مجموعة من الماهيات المتدرجة فى المراتب المؤسسة على حظها من الوجود ، أصبح عند تلميذه سلماً منطقياً بحتاً للأجناس والأنواع . ولم يعد يتبوأ قمة هذا الجدول الكائن أو الحيز أو المبدأ المشترك لكل واقع مهما كان اسمه . فما زالت هذه تصورات منطقية ، وهى الأجناس الأولى : المادة والكم والكيف الخ . . . ولا يمكن أن يجمع بينها أى جامع مشترك . فالماهيات التى تشملها مسميات الأجناس والأنواع هذه تؤلف إذن عالماً مجرداً على هامش العالم الموجود . وليس لها وجود بذاتها ؛ فانها لا توجد إلا فى الكائنات الواقعة أو فى الأذهان التى تفكر فيها . فالرجل بمعناه العام ، أى ماهية الرجل لا توجد إلا فى كالياس أو فى سقراط أو غيرهما وهم رجال ، أو فى ذهن الفيلسوف الذى يفكر فى الطبيعة الانسانية .

وسنلاحظ بهذا الصدد ملاحظات أربعاً :

أولا — أن هذا الهامش بين الواقع والماهية يحدد ميدان الممكن . فجائز أن ماهية لا توجد إلا فى ذهنى . أما فى ذاتها فهى إذ ذاك ممكن بحت . فالأثر الفنى الذى يفكر فيه الفنان ، والدستور الذى يحلم به المشرع ، ومشروع المهندس واقتراحات الاقتصادى، هى كلها ممكنات بحتة قبل أن تتحقق . ويجوز أن تطرأ أحداث غير متوقعة تمنع تحقيقها ، ولكن ينبغى المخاطرة ، ينبغى الارادة والمجازفة ، ينبغى أن نثق بالانسان وبالحياة وبالله . هذا أساس فكرة الالتزام التى تتميز بها الوجودية .

ثانياً — غير أنه من ناحية الفكر لا يوجد أى فارق بين الممكن وبين الواقع . كان كانت يقول : لا فرق بين مائة ريال ممكنة ومائة ريال واقعة . صحيح أن المائة الواقعة لا تزيد بواقعيتها ريالا أكثر ، والفرق بين المائتين ليس فكرياً ، بل هو من نوع آخر ، فانا أوثر مائة ريال واقعة على مائة ريال ممكنة على الرغم من أن المقدار واحد ؛ فعصفور فى اليد خير من عصفورين على الشجرة ، ولكن القيمة التى تظهر هنا مخالفة قطعاً للقيمة المالية لهذه المائة .

والموضوع الهام الذى يعرض أمامنا هو أن نعرف أتدخل هذه القيمة فى النطاق الشخصى البحت لمجرد أنها تختلف عن القيمة المحددة موضوعيا على قطع العملة . ومع ذلك فمن ذا الذى لا يلمس فرقاً واضحاً بين إيثار الحقيقة الواقعة ، وبين ألوان الايثار الشخصية البحتة ، كأن أوثر لحم البقر على الضأن ، أو الجبل على البحر ، أو اللون الأزرق على اللون الرمادى . . . و إيثار الواقع ينطوى على شئ من الموضوعية بسبب تعدد وقوعه واتساع مداه ، بل أكثر من ذلك فانه يبدو قرينة لتركيب بشرى معين ، قرينة لنوع بشرى خاص . وهذا يظهر جلياً إذا سلمنا إلى جانب ذلك الايثار للواقع بايثار للأحلام ولغير الواقع. هل يوجد إذن ميدان خاص للقيم يحتل لنفسه مكاناً بين القيم الموضوعية البحتة التى يستطيع الفكر أن يزنها ، وبين القيمة الشخصية البحتة التى تقاس بشعورنا وميولنا ؟

وفى الحق أن اشتمال الضمير البشرى على مشاعر لا ترد إلى لون من ألوان الايثار العاطفى ، ولا تفقد ما تتسم به إلى حد ما من طابع شخصى ، ولكنها مع ذلك تبدو أمامنا بحيث تنتظم فى الموجود ، ولها إذن كيان وجودى ، ذلك ما أوضحه مذهب هوسرل **Husserl** . فان مشاعر مثل التعاطف والوفاء والايمان والهلع ، على الرغم من الاحساس بها فى أعماق النفس ، فانها تفترض و إلى حد ما تضع ، لا مجرد أفكار تنشئها ، بل حقائق واقعة تتصل بها ؛ فاننا لا نؤمن بمجرد شئ ممكن ، ولا نحتفظ بهذا الايمان لكائن لم تبق منه إلا الذكرى . واستمرار الوفاء لصديق بعد وفاته يكفل امتداد حياته ويدل عليها. وعلى ذلك فمثل هذه المشاعر يستطيع الانسان أن يدعى لنفسه مقدرة على استكشاف الموجودات و إظهارها . فالبخل أو أى لون آخر من ألوان التعلق العاطفى هو الذى يدلنا على وجود مائة ريال ، على حين يغيب وجودها من الفكر وهو متجه نحو الماهية مركز فيها .

ثالثاً — والوجود يختلف اختلافاً تاماً عن الماهية . فالماهيات تبدو إذن بالقياس إلى الوجود إما على أنها عنصر شكلى يكيف الوجود بهذه الكيفية أو تلك ، و إما على أنها عنصر مثالى يحاول إخراجه إلى الواقع على أكمل وجه مستطاع . وبعبارة أخرى فان الماهية تستعمل لغرضين : أولها المعرفة ، وهى بذلك تعرف طبيعة ما هو موجود . والثانى العمل ، وهى بذلك تلهم بما يجب إخراجه إلى

الوجود . على أن العمل نفسه يعرض مشكلة : أليس من شأن الاخراج إلى الوجود أن يغير حتى من طبيعة الماهيات ؟ ألا يخيب أمل الكاتب بالمؤلف الذى كتبه؟ أليست الصورة التى فى الخيال أروع بكثير من تلك التى تمثل أمام أعيننا؟ و إذا كان هذا الأمر صحيحاً ، أفلا نستطيع أن نعمم الحكم على الماهية بصفة إجمالية ، حتى باعتبارها وسيلة من وسائل المعرفة ، فلا فارق بين ماهية الدائرة والدائرة الحقيقية الواقعية المرسومة علىاللوحة! نعم لافارق بينهما إذا كانت هذه الدائرة تامة وبالقدر الذى يمكن أن تكون الدائرة فيه تامة . ولكن ليس فى الطبيعة دائرة يبلغ إتقان رسمها حد الكمال حتى إذا رسمت بالبركار . أليس ذلك حال ماهياتنا دائماً؟ فهى تبدو كاملة ، ولكنه كمال غير واقعى ، كما يتضح ذلك فى نظرية الغازات الكاملة ، بل فى تسميتها نفسها ، تلك النظرية التى يؤدى إليها قانون ماريوت جاى لوساك **Mariotte-Gay Lussac** . ولكن لاتوجد غازات كاملة . وحتى بالقياس إلى الريالات المائة ، فالفكرة المجردة وحدها هى التى تقرر أن هناك توافقاً تامًا بين ماهيتها البحتة وماهيتها المحققة . ولكنى أستطيع بمائة ريال ممكنة أن أتخيل شراء أشياء عجيبة ، فى حين إذا كانت هذه الريالات المائة واقعية فانها تتبخر فى شراء أشياء عادية .

ونستطيع أن نستخلص من ذلك أنه حتى فى ميدان المعرفة فان الماهيات لا تعطينا إلا علماً مقارباً يبتعد عن الواقع بمقدار ما يقترب من الكمال . فالمعرفة الدقيقة المحددة ، والتفكير الهندسى الرياضى الذى يتغذى بالماهيات ، تقابلهما معرفة أخرى أشد اتصالا بمنعرجات الواقع والوجود ، وهى المعرفة التى يحكمها التفكير الحاذق اللبق . يبدو إذن باسكال على أنه المفكر الذى استخلص فى وضوح النتائج الناشئة عن فلسفة للوجود . والركن الأساسى فيها هو تعارضها الجوهرى لنوع من الفكر المفكر الذى يمتد على هامش ظروف الحياة . وعلى ذلك فالوجودية تتجه مضادة للعقلية .

رابعاً — والغرض من الملاحظة الأخيرة لفت النظر إلى مقابل حتمى للوجود حين ننظر إلى ميدان الممكن ، وهذا المقابل هو العدم . فالممكن هو الذى يجوز أن يوجد كما يجوز ألا يوجد . والوجود يكتنفه العدم وينجم من اللاوجود . وأل « من لا شئ » *ex nihilo* الذى تقوم عليه عقيدة الخلق يكتسب معناه ومغزاه هنا . وقد اتخذت هذه الفكرة أوضح تعبير لها فى كتاب القديس

توما الاكوينى « عن الخلق » . فهذا كائن أمامى ، وأنا أستطيع أن أرد كل خاصة من خواصه إلى سبب : فعيناه الزرقاوان ورثهما عن أمه ، وأنفه الأقنى عن جده ، وبشرته النضرة ناشئة عن صحته التامة . وعلى ذلك فقوانين الوراثة والانتقال تفسر لى ما هو هذا الرجل . ولكن لا شئ يفسر لى وجوده . وبعبارة أخرى فالخواص الأساسية المميزة لكائن هى نتائج لأسباب ثانوية يمكن البحث عنها والافاضة فيها . ولكننا لن نجد فى هذه الأسباب كلها السبب فى وجوده . ومن ناحية فلسفة الماهية ، يبدو الوجود على أنه مركز التقاء لمجموعة لا حصر لها من الأسباب ، حتى إن حظنا من فرصة الوجود يساوى فى الواقع صفراً . وليس وجودنا إلا مصادفة وحدثاً عارضاً وأمراً تافهاً لا خطر له خليقاً بالاهمال . فمن أراد أن يكسب ذلك الوجود الاحتمالى معنى — وهذا هو غرض القديس توما — فسبيله إلى ذلك أن يرده إلى السبب الأساسى الأول وهو الله الذى يخلق من العدم ، على أن بروزنا من اللاشئ يبقى دائماً معرضاً للفناء . وعلى ذلك نستطيع أن نلمس فى كل أوضاع الحياة البشرية هذا القرب الفاجع بيننا وبين الفناء .

كما أنه من الممكن إنكار الله ووجوده المحتوم . وهنالك نستطيع أن نمعن النظر فى الوجود فلن نرى فيه إلا السلطان المطلق للاحتمال واللاعقلية والعبث . بذلك يبدو الاتجاهان الأساسيان فى الوجودية : من ناحية الوجودية الدينية ، ومن أنصارها : كيركجارد **Kierkegaard** ، وجاسبرس **Jaspers** ، وجابرييل مارسل **Gabriel Marcel** ، ومن ناحية أخرى الوجودية الملحدة ، ومن أنصارها نيتشه **Nietzsche** ، وهايدجر **Heidegger** ، وسارتر **Sartre** .

والملاحظات الأربع التى ذكرناها عن نتائج التفرقتين الماهية والوجود ، تدلنا على أن للوجودية المعاصرة أصولا بعيدة ترجع إلى عصر الفكر الكلاسيكى . على أن هذه ليست وحدها أصولها . فان الوجودية (وهذا مدعاة الغرابة) تستمد أصولها أيضاً من الماهية فى مظهر من مظاهرها ، ولا سيما من مذهب ديكارت الذى لا تقبله كما هو ، ولكنها تستوحيه وتغيره فى نفس الوقت تغييراً عميقاً .

ومعلوم أن الحجة الكونية التى تقوم على استمداد الوجود من الماهية هى

من صميم فلسفة ديكارت فى الميتافيزيقا . فلا يقتصر ديكارت على أن يثبت وجود الله مستمداً هذا الاثبات من ذات الله ، بل هو يذهب إلى أبعد من ذلك ، فيصل عن طريق عبارة : « أنا أفكر و إذن فأنا موجود » **Cogito ergo sum** إلى أن يثبت فى حدس عقلى وجود ال « أنا » باعتباره متصلا بالفكرة ومشمولا بها . فالواقع أن الأولية فى هذا المذهب للماهية . ولكن إذا لم نقتصر على الوقوف على عبارة « أفكر فأنا موجود » وعلى الحدس الأكثر عموماً الذى قوامه : « أفكر وإذن فالله موجود » **Cogito ergo Deus est** وهما من حدود دراسة الميتافيزيقا ، بل استقرينا الحركة الفكرية كلها ، خرجنا من هذا الاستقراء بشئ آخر .

فما الذى يؤدى إلى عبارة « أفكر فأنا موجود ؟ » أليس هو الشك ؟ فقيمة هذه العبارة هى إذن نتيجة لما للشك من قوة . ولكن كوننا نشك معناه أننا نريد الشك ، أى أننا أحرار . فمذهب ديكارت العقلى معتمد فى أساسه على إرادية تخرج الحرية عن نطاق العقل ، كما حاول أن يثبت ذلك الأستاذ جان لابورت **Jean Laporte** من ناحية تاريخية بحتة . ولنقل إذن إن الوجود لا يبرز من الماهيات ومن الفكر والآراء إلا بالاضافة لكائن يستعمل وجوده استعمالا حرًّا ، أى لكائن يريد ويشعر ويؤمن ويشك ، لكائن يتخذ لنفسه مركزاً أمام نفسه وأمام المشكلات التى تقلقه وتثقل عليه .

كذلك الحال إزاء المذهب الذى كثيراً مايردَّد والذى قوامه أن حدس الحقائق فجائى فى رأى ديكارت . فان جان لابورت كثيراً ما يورد نصوصاً من الأحاديث التى جرت مع بورمان **Burman** ، ومن بينها ملاحظته أن الفكرة نفسها تمتد فى الزمن . كما أن كثيراً ما يورد جميع النصوص المتعلقة بوظيفة الذاكرة . ينتج من كل ذلك أن مجهودنا الفكرى له تاريخيته الذاتية ، بل له تاريخه الخاص ، فما عسى أن يكون المحرك الفكرى الذى يجعلنا نتمسك بسلسلة معينة من الحقائق دون غيرها ؟ هذه هى المشكلة التى نضعها موضع البحث . ولكن كل مشكلة حقيقية ، أى تلك التى تكسب الفكر صحة ، هى فى ذاتها مشكلة شخصية راسخة فى كياننا الخاص . وهذا ما يقرره النص الرائع للقاعدة الثالثة عشر :

« لست أدرج فى عداد المشكلات الأسئلة التى تصدر عن الآخرين فحسب ،

فمشكلة سقراط كانت متصلة بجهله الخاص أو ، بالضبط ، بشكه . وما دام قد أخذ ، أثناء اجتهاده فى حل هذه المشكلة ، يبحث أهو يشك حقيقة فى كل شئ .

وهذا التفسير لمذهب ديكارت ينتهى بنا إلى الفكرة الآتية : إذا أردنا أن نظفر بموجودات وراء الماهيات ينبغى أن نواجه هذه الماهيات على أساس موقف حقيقى نتخذه فى الحياة إزاء صعوبات نشعر بها نحن أنفسنا . فالفيلسوف هنا الرجل الذى يواجه قبل كل شئ مشكلته الخاصة لا أحجية مسلية من تلك الأحاجى التى تعرضها صحيفة أو مجلة ، الذى يواجه مشكلة حقيقية داخلية تعطى معنى للتصرفات الفكرية فتكسبها قيمة ووجوداً ، ويعتبر كل شئ عداها لغواً بالألفاظ .

على أن الفلسفة السابقة على الوجودية حتى حين تعترف للوجود بالطابع الخاص ، وحين تفسح مكاناً للممكن ومجالا للحرية ، فهى مع ذلك مدينة للماهية لسبب بسيط جداً ، وهو أنها تبحث عن « معرفة » الحقيقة باعتبارها غاية العقل وأثراً من آثار هذا العقل. إلا أن الوجود فى جوهره أعسر من أن يدركه العقل، وعلى ذلك أصبح حتما أن يبقى على الهامش . وقد بقى على الهامش بفضل الحيلة التى قوامها أن كل حقيقة الوجود ترد إلى الماهية ، وبأن ما يتجاوز ذلك عارض يمكن وصفه بأنه مجرد وسيلة من الوسائل التى تظهر بها الماهية .

ولم يكن بد من قيام ثورة فى الفلسفة حتى تنشأ الوجودية التى أخذت على نفسها — على عكس المذاهب الفلسفية السابقة — أن تتمسك بهذه التفاصيل الزائدة المميزة للوجود ، وأن تحاصر الماهية ابتداء من الوجود . وقد قامت هذه الثورة ، وهى ثورة مذهب كانت . وإذا لم يكن كانت وجودياً فقد مهد لنشأة الوجودية وجعل ظهورها ممكناً .

وقوام فلسفة تحديد المعرفة النظرية المجردة . فقد حصرها فى نطاق التجربة المحسوسة والعلم ، لذلك حين يسائل الانسان : من أنا ؟ يمكن أن يرد إليه بجوابين : فمن حيث هو كائن موجود فى الزمان والمكان قابل لأن يكون موضوعاً للتجربة ، أى بالقياس إلى الوجود النوعى الذى يكون المعرفة التجريبية ، يجب أن يتجه بسؤاله إلى علم الحياة وعلم النفس . ولكن هذا الجواب مهما يكن علميا ، بل لأنه علمى ، لا يمكن أن يرضى الانسان؛ لأن هذا الانسان يلحظ نفسه من عل من حيث هو كائن معنوى حر تميزه حريته على أساس فكرة مطلقة

للخير ، لهذا الخير الذى لا نجد له أى تحقيق فى العالم الحسى . وهو بهذا الاعتبار يشعر بوجود خارج من عالم الظواهر ، أى بوجود لا يبدو كغرض مسلم به فى التجربة الموضوعية ، ولا يكشف عنه إلا الفعل الخلقى ، ولا يبرز إلا عن طريق الحرية ، وفى داخل حدودها .

وعلى الرغم من الخطوة الواسعة التى تمت فما زلنا بعيدين عن الوجودية ؛ لأن قانون الحرية لا يزال كانت يؤديه عن طريق أصول عقلية عامة . ولكن الأمر الخطير هو أنه خارج نطاق « الطبيعة » تحدد نطاق « للحرية » ، أى نطاق للوجود الأعلى ، وهذا الميدان الأخير لا يمكن الوصول إليه عن طريق العقل بل عن طريق الايمان الخلقى . ولنلاحظ أن هذا الايمان ليس ولا يمكن أن يكون من نوع هذه العقائد التى تنشأ من ميل إلى الاعتقاد وهو شكل من أشكال الرغبة ، ولا هو من نوع التعلق العاطفى ببعض القيم . فما هو إذن على وجه التحقيق ؟ هنا تعرض مشكلة ينبغى للوجودية حلها . وهى مشكلة أوضاع وجودنا ، تلك الأوضاع التى تقع فى ميدان ضميرنا والتى لا تصل إلى أن تكون علماً ولكنها مع ذلك تزيد على أن تكون مجرد تعلقات عاطفية شخصية . أما علم الظواهر phénoménologie فيحل هذه المشكلة عن طريق نظرية الشعور القصدى la théorie des sentiments intentionnels التى أشرنا إليها حين تحدثنا عن الوفاء .

أما وقد مهد كانت السبيل ، فلم يبق على الوجودية إلا أن تنشأ . ومؤسساها ، على حد قول الفيلسوف الوجودى كارل جاسبرس Karl Jaspers هما كيركجارد ونيتشه .

وقد ألقى جاسبرس محاضرة فى جامعة جرونتج الملكية بين فيها أوجه الشبه الانسانية العميقة التى تجمع بين هذين المفكرين . فكل منهما يشرع فى تفكيره على أساس حالة هذا القرن التاسع عشر الذى يعيش فيه .

لذلك كان تفكيرهما معاصرا جدًّا لقرنهما بسبب الحكم الذى أوحاه إليهما هذا القرن وكان فى الوقت نفسه غير معاصر على الاطلاق لهذا القرن لما امتازت به وجهة نظرهما من جدة مستحدثة تتعارض كل التعارض مع وجهة نظر معاصريهما . فكيركجارد يعيش فى وسط يعتبر نفسه مسيحيا ، ولكنه ليس مسيحيا إلا بالقول . فكيف يستطيع ذلك الأسقف الذى يتحدث عن تضحية إبراهيم

أن يعرض هذا النبي على أنه شخصية ينبغى الاقتداء بها ؟ هل يجترئ على أن ينصح جميع الآباء الذى يستمعون إليه بالقيام بعمل مماثل لعمل إبراهيم ؟ لا يوجد مسيحيون . ولكن إذا لم يكن للمسيحية معنى فلن يكون لشئ معنى ؛ لأنه ليس فى علم الأخلاق ولا فى علم الجمال فى هذا العصر الرومانتيكى ما يرضى الانسان . وقوانين الجمال والخير تتجه إلى مجموعة الأفراد ، وهى تحث على التقليد ، بل تنصح به . وهى لا تزال فى ميدان الأحكام العامة . وقواعد العصر الكلاسيكى من باب أولى محصورة فى هذا الميدان بما تدعيه لنفسها من العموم والاطلاق . ولكن الانسان كائن فردى . ولكل إنسان سره الداخلى الذى لا يمكن البوح به ، والذى لا يخضع للعقل ولا للمنطق ، ولا معنى له إلا فى صميم حياة واقعة . وهذا المصير الشخصى توليه المسيحية الاعتبار الذى يستحقه ، تلك المسيحية التى تنطوى على الايمان بالله بغض النظر عن كل حساب أو تدبير ، عن كل قاعدة أو تفكير ، تلك التى تقول بعلاقة غير قابلة للوصف تصل الانسان بالله ، والتى تجعل من الحياة الانسانية شيئاً آخر غير الوجود الحيوانى أو النباتى العديم الذاتية . ولكن أين المسيحى الصحيح فى عصرنا ؟

يميل الانسان إلى ضرب من السبات ، و إلى اطمئنان ناعس إلى الأحكام العامة المقررة ، ويأبى إعادة النظر فيها ، والمسيحية وحدها تستطيع أن توقظه فتجعله يوجد حقًّا لأنها دين اليقظة . ويتجه الذهن إلى كلام باسكال عن سر المسيح : « قام المسيح بانقاذ تلاميذه وهم نيام ، قام بذلك نحو كل من الرجال الصالحين فى العدم قبل أن يولدوا ، وبالقياس إلى خطاياهم منذ ميلادهم . » وفى فقرة أخرى : « سيبقى المسيح يعانى سكرات الموت إلى آخر الدهر ، فلا يجوز لأحد أن ينام فى هذه الأثناء . »

ونيتشه بدوره يثور على هذه المسيحية اللينة الطرية،وعلى الاشتراكية الناشئة التى صدرت عن الدين المسيحى ، والتى تقصر همها على أن تنزل على الأرض مثلا أعلى تافهاً للجنة وللسعادة المصنوعة المقررة . ولكنه يبحث فى الدين المسيحى نفسه عن مصدر هذا الانحلال الذى تعانيه الجماعة الحديثة . ويسائل ما مصير الانسان ، وبصفة خاصة ما مصير الأوربى ؟ هل ترضى الارادة الأوربية هلاكه ؟ ويضيف نيتشه إلى ذلك : « حذار من التدابير الوسطى . خير من ذلك الهلاك ! »

والواقع أن نيتشه ، مثل كير كجارد ، يهاجم القيمة المقررة ، يهاجم الايمان بكائنات مستقرة مكونة تكويناً نهائيا يعتمد الانسان عليها كأنه أدرك هو نهاية نموه وبلغ منتهى ما فى إمكانه . يجب هدم هذا العالم الصناعى المنطوى على حقائق مزيفة والتى يظن القرن أن يعيش على أساسها . وهذا الهدم يقوم به كير كجارد باسم مسيحية لا يمكن أن تمثل فينا إلا عن طريق أعمال سلبية منها تعليل النفس بالنفس ، والاستشهاد . أما عن نيتشه فالهدم على أساس مبدأ الرجعة الأبدية .

على أنه إذا أردنا أن نفهم الأساس الفلسفى لضرورة الهدم هذه وجب قبل كل شئ أن نعرف النقد الأساسى الذى يوجهه كل من كير كجارد ونيتشه إلى الفكر الانسانى . عيب هذا الفكر هو وضع أنظمة محددة . يجب أن نقرر ، خلافاً لما يذهب إليه هجل ، إن العقل لا يستطيع أن ينشئ أنظمة يحصر فيها الانسان . فمجموع الواقع البشرى ، أى مجموع العالم الذى يضطرب فيه الانسان ، لا يمكن حصره على وجه التحديد ؛ لأنه ليس مكتملا فى أية ناحية من نواحيه .

والفيلسوف ذو الأنظمة المحددة يبنى قصراً لا يسكن فيه ، إنما يعيش فى كوخ ، على حين يجب على الانسان أن يعيش فكره . لكن الفكر الانسانى تروية غير محدودة فى وجوده وفى حالته . يجب إذن أن يتعمق فكره إلى غايته ، ولا يترك هذا الفكر يمضى وحده . فان ذهبنا بأنفسنا إلى النهاية فان كياننا الوجودى سيبطل ما ينشئه الفكر البحت من قيم زائفة ومن أشباح وأصنام . والنظريات التقليدية عن الحق والخير والشر ستهوى على اعتبارها أبنية فاسدة للفكر المجرد .

إلى هذا الحد يحدث الانقلاب فى القيمة سواء عند كير كجارد أو عند نيتشه . فتهدم قيم العموم وتقوم مكانها القيمة الخاصة التى تتصل بالفرد . وانهزام الأخلاق عند كير كجارد يقابله تجاوز الخير والشر عند نيتشه . وما وراء الأخلاق عند كير كجارد هو النطاق الدينى الذى يشيع فيه الوجود الشخصى . وما وراء الخير والشر عند نيتشه هو عالم إرادة القوة . ولكن هذين الوراءين يشبه كل منهما الآخر ؛ إذ يشتركان فى نفى القيم العامة المقررة النهائية .

والآن نستطيع أن نفهم ما هو « العبث » **l'absurde** باعتباره المميز

للسلوك الديني عند كير كجارد . وما هى « الرجعة الأبدية » l'éternel retour باعتبارها أساس إرادة القوة عند نيتشه .

ليس العبث هو الانكار البحت لكل ما هو منطقى عقلى، وليس هو عكس المنطق والعقل . بل هو ما لا يستطيع العقل التعبير عنه ، هو ما يقرر وجوده الخاص الذى لا يندمج بحال فى كل ما هو عام شامل . وليس العبث أساس قانون خلقى جديد ، بل هو يقاوم وضع كل قانون جديد .

وكذلك الرجعة الأبدية ليست فكرة تكفل الانتظام لأحداث العالم ، وإنما هى الفكرة الباهظة المضنية التى قوامها أنه لايوجد هدف على الانسان أن يدركه ، ولا عالم مثالى ينفذ إليه ، وأنه لا يوجد استقرار فى أى من الأمور ولا أجل له . بل هناك موج الحياة غير المنقطع الذى يجب أن يقبله كل إنسان لنفسه ، وفى معيشته الخاصة ، ويستجيب لهذه القوة الهائمة العاصفة وهى قوة الحياة .

هذه هى الأصول البعيدة والقريبة للوجودية . وحتى تشعر هذه الفلسفة بنفسها شعوراً كاملا ، وتعتبر وسيلة من وسائل التفكير التى لا يمكن بحال الملاءمة بينها وبين فكرة الماهية ، لم يكن بد من قيام الثورة التى أتى بها مذهب كانت ، هذا المذهب الذى استعان بملكات عقلية أساسها الخوف من الواقع .

هذا ما يفسر لنا الحالة الراهنة للوجودية . ولكن إذا طرحنا جانباً القيمة العامة الدائمة ، فان البحث الفلسفى ينتهى إلى دراسة « حالات » فردية على حدود الحالات المرضية ، لأن الحالة الفردية تتكشف بصفة خاصة فى الأمراض النفسية لا سيما إذا تمسكنا بمحتوياتها أكثر من تمسكنا بشكلها العلاجى ، كما فعل ذلك الدكتور منكوفسكى مثلا الذى انطبع تفكيره انطباعاً عميقاً بالمذهب الوجودى . ومهما يكن من شئ فان تصور الفلسفة على هذا الأساس كان لا بد من أن يزدهر فى الأدب . وهذا ما يبدو فعلا فى آثار جابرييل مارسيل وسارتر .

على أنه فى هذه المرحلة من مراحل التطور لا يمكن أن نمنح مثل هذه الآثار من القيمة أكثر مما هى تدعيه لنفسها ، فهى ليست إلا تحليلا لحالات خاصة . وعلى أقصى تقدير ترفع هذه الحالات إلى مرتبة الصنف والنموذج . حقًّا أنه يستطيع كل إنسان أن يرى نفسه فى كل شخص من أشخاص القصص . ولكن ما فائدته من ذلك ؟ إذا كان كل إنسان يسلك طريقه الخاص فما يضيرنا أن نقول إنه إذ يلتزم

هذه الطريقة يلزم بها جميع الرجال ؟ ما القيمة التى تبقى لفكرة أن كلا منا يعتبر نسخة من نسخ البشرية ، إذا لم يوجد بيننا جميعاً اشتراك فى الانسانية ؟ ولكننا إذ نذكر الاشتراك نذكر بذلك العموم .

و إذا لم تكن فكرة الانسانية قوة محركة شديدة الدفع ، و إذا كان المذهب الانسانى البحت يعتبر مذهباً خلقيًّا ضعيفاً معسراً ، أفلا نجد فى التعرف على الطبيعة الانسانية قوة عظيمة ، قوة تولد الحب ؟ لأنه إذا كان الحب لا يخضع للعقل ، و إذا كان يتعلق بأشخاص فردية تحيا حياة كاملة فى فرديتها ، أفلا نتبين أن هذه المعرفة التى تصحبها بمثابة المكبر للصوت الذى يزيد من رنينه ؟

ومن مزايا الوجودية الحديثة أنها تظهر ما فى المذهب الفكرى البحت من مغالاة و إسراف . ولكنها تترك مشكلة الانسان الأساسية كما هى دون أن تمسها . فاذا امتاز الانسان بعقله وبعلمه الناشئ عن هذا العقل ، فما مكانة العقل والعلم فى حياته ؟

وهذه أيضاً مشكلة من مشا كل الوجودية لم يصل الوجوديون الحديثون إلى حلها ، لأنهم يمتنعون عن التعرض لها .

روجيه أرنالديز

نقلها عن الفرنسية توفيق شحاته

الشاعر رابندرانات طاغور

يجد الناقد مشقة ، عندما يحاول أن يشرك غيره فى تذوق أدب غريب ؛ فالأمزجة الفنية تختلف باختلاف الشخصيات والميول ، ولا تتفق إلا فى نطاق ضيق جدا على عناصر ضئيلة لا اختلاف فيها . ومن هنا كانت الاحتجاجات المرة والتذمر الملح والآراء القاسية التى نصادفها فى بعض ما نقرأ لكتاب الغرب أمثال بلزاك ، وفلوبير ، وأندريه جيد ، وبول فاليرى ، وأوسكار وايلد ، والشاعر الألمانى رلكيه ، إذا أتيح لهم أن يعرضوا لمسألة النقد الأدبى .

وقد ذهب بعض هؤلاء الكتاب إلى القول بأن النقد شئ يؤسف له ينمو على أنقاض آراء عتيقة بالية ، لا صحة لها ولا طائل تحتها ، كمشكلة الفكرة والصورة . وكان فلوبير من أشد الساخطين على النقد والنقاد ، وقد هاجمهم بشتى الوسائل منددا تارة بتأثيرهم السئ فى عقول القراء ، ومترحما تارة على الأدب الذى ذهب مع الريح لكثرة ما تعرض له النقاد بأساليبهم الفاسدة .

ونحن نفهم هذا كله ونسلم به ، ولكن هناك نوعا من النقد سمته الأجيال بأسماء مختلفة ، فوصفته مثلا بالنقد الموضوعى ، وبالنقد العرضى ، الذى لا يخرج عن إطار الأثر الأدبى الذى يعالجه ، فيقدمه الناقد للقارئ ليشجعه على مطالعته ، تاركا له الحرية الكاملة فى استحسان ما يقرأ ، أو الاعراض عنه . فالناقد فى هذا الوضع يكون مرشدا لا حاكما ، ومشيدا لا هادما . غير أنه من الحمق ألا نعترف للناقد بالحق فى أن يبسط رأيه فى صراحة تامة ، يميز بين الجميل والقبيح ويشير إلى مواضع الضعف والقوة ، ويشرك القارئ فى الفائدة التى جناها من مطالعته ، والعبرة التى خلص بها من تلك الرواية أو ذلك الديوان ، وهو فيما يقدم للقراء يعالج الأثر الفنى من « الداخل » كما يقول الشاعر رلكيه ، ويذهب إلى صميم ما أراد الشاعر أو الكاتب من قصيدته أو قصته ، لا إلى صميم ما يريد أن يجد فى الكتب التى ينقدها من إذعان للمذاهب السائدة ، والقواعد المتبعة .

ونحن نريد أن يكون بحثنا عن رابندرانات طاغور شاعر الهند الخالد ، حديثاً موجزاً بسيطاً عن أغراض الشاعر ، وعما دفعه إلى هذا اللون من الفن ، أو إلى هذا المذهب فى الكتابة والتفكير .

لا بد لنا قبل الوصول إلى صميم شعر طاغور واعتبار خصائص هذا الشعر والرسالة البشرية التى يحملها إلينا ، من أن نعطى القارئ فكرة عابرة عن حياة الشاعر وبعض مؤلفاته . ويرجع الفضل الأكبر فى هذه البيانات إلى المقالات التى نشرها الأستاذ محمود المنجورى على صفحات « المقتطف » سنة ١٩٤٢ ، وإلى بعض ما عثرنا عليه فى المراجع الانجليزية والفرنسية . وقد دهشنا فى بادئ الأمر لنقص هذه العناصر الأولية فى مقدمات أندريه جيد سنة ١٩١٤ ، وييتس سنة ١٩٤٢ ، « للقربان الشعرى » ، ومقدمات وديع البستانى ، وكامل محمود حبيب ، لديوان طاغور وعنوانه « البستانى » ، والمذكرة التى ذيل بها كاليداس ناج وبيير جان جوف ترجمتهما إلى الفرنسية لديوان « البجعة » ، والبحث الذى صدر به الكاتب الفرنسى رومان رولان ترجمة مادلين رولان لكتاب عنوانه بالبنغالى « كاتورنجا » .

وإذا أمعنا النظر فيما أسميناه نقصاً وجدنا أن الحق بجانب هؤلاء الكتاب جوالمترين ؛ فانهم أهملوا ، لا شك فى ذلك ، ناحية ربما كان لها شأن فى تاريخ الأدب الذى نقرؤه فى الكتب والبحوث العلمية التى لا تذكر اسما أو عنواناً حتى تزوده بالتواريخ والمذكرات المختلفة ، ولكنهم فطنوا إلى حقيقة أرفع من التعلق بالتواريخ الدقيقة ، وهى أن شاعراً مثل طاغور لا تحده السنة التى ولد أو مات فيها ، ولا بلاد عاش بها ، لأنه يجاوز زمنه ، ولا يجوز لوطن أن ينفرد به ، فهو شاعراً ومفكراً أكثر منه فيلسوفاً عالمياً ، وهو معاصر لكل فرد يطلب الجمال ويسعى للوصول إليه ، ليستمد من رسالته قوة وأملا .

ومهما يكن من الحاجة إلى التواريخ والبيانات الخاصة بحياة طاغور ، فقد وفقنا لبعضها ، ومنها أن رابندرانات طاغور - وبعض الناس يكتب اسمه بالتاء «تاغور» ، ويقول أندريه جيد إنه يجب أن يلفظ « روبندرونات طوغور » - ولد فى مدينة كلكتا سنة ١٨٦١ ، وكان أبوه فيلسوفاً يعيش متقشفاً ، وتوفيت أمه فى حداثته ، فنشأ طفلا محروماً عطف الأم وحنانها . أرسله أبوه إلى المدرسة ، ولكنه

لم يتردد إليها طويلا ، فاضطر والده إلى أن يحضر له الأساتذة فى البيت . وعهد التلمذة هو من الأمور التى تترك عادة أثراً عميقاً فى نفسية الفرد ، ومن هنا كانت أهمية ما نقرؤه لطاغور إذ يقول : « كنت أتألم مدة طفولتى من شعورى أن نظم التربية فى المدرسة لا صلة لها بالعالم . » وفى سنة ١٨٧٧ رحل طاغور إلى بريطانيا العظمى حيث أتقن اللغة الانجليزية وآدابها ، حتى استطاع فيما بعد أن ينقل بعض مؤلفاته من البنغالية إلى الانجليزية . ثم عاد إلى بلاده وتزوج سنة ١٨٨٣ وبعد عامين ذهب إلى الريف ليشرف بنفسه على ممتلكات والده ، وقد كتب فى الريف أكبر قسط من مؤلفاته ، وبقى هكذا إلى سن الأربعين إذ فجع فى غضون بضعة شهور بوفاة زوجه وابنته الكبرى وأصغر أبنائه . تلقى شاعرنا هذه التجارب القاسية المتلاحقة بصبر وشجاعة و إيمان وهو يقول : « إن عاصفة الموت كانت على نعمة ورحمة » .

وقد أنشأ فى سنة ١٩٠١ فى مدينة بلبور على مقربة من كلكتا مدرسة للاطفال أطلق عليها اسم «شانتى نكتال» أى «دار السلام» . وقد استبدل باسمها فى سنة ١٩٣١ اسم « صفا بهاراتى » ووسع نطاقها فأصبحت معهداً للتقارب والتعارف بين الشعوب .

وقد بدأ من سنة ١٩١٢ سلسلة رحلات ، استأنفها فى سنة ١٩٢١ ثم فى سنة ١٩٢٦ ، فزار انجلترا وفرنسا وألمانيا واليابان وأميركا وروسيا السوفيتية والصين وجنوب إفريقية والعراق وكندا وتركيا و إيطاليا ومصر ، وكان دائماً موضع حفاوة وتقدير و إعجاب .

وفى سنة ١٩١٣ منحه مجمع ستوكهلم جائزة نوبل فى الآداب ، وفى سنة ١٩١٥ أنعم عليه ملك الانجليز بلقب « سير » وفى سنة ١٩١٩ لأسباب سياسية اعتذر طاغور من الاحتفاظ بهذا اللقب ، وفى سنة ١٩٣٠ عهدت إليه جامعة أكسفورد ببعض المحاضرات يلقيها على طلبتها ، وفى سنة ١٩٤١ منحته الدكتوراة الفخرية فى الآداب .

ولما بلغ طاغور الثامنة والستين ، عكف على الرسم ، وقد عرضت آثاره فى لندن ، ثم فى برمنجهام وموسكو و برلين ومونيخ وباريس ونيويورك ، وتوفى فى ٧ أغسطس سنة ١٩٤١ .

ليس من شك أن للآثار الفنية لشاعرنا الفذ شأناً عظيما إذا نظرنا إلى ضخامتها و إلى الموضوعات التى عالجتها .

وإذا استثنينا آلاف الأناشيد التي تركها طاغور كان عدد مؤلفاته الشعرية يبلغ الستين ، وله في النثر ، قصص وروايات و بحوث ومقالات وعظات وذكريات لا تحصى ، نقل معظمها من البنغالية إلى سائر اللغات ، غير أننا لم نقرأ في العربية سوى « البيت والعالم » ترجمة طانيوس عبده (مطبعة الهلال سنة ١٩٢٠) ، ومختارات عن « البستاني » مترجمة نظماً ونثراً ، بقلم وديع بستاني (مطبعة المعارف) ؛ وترجمة للديوان نفسه من محمد كامل محمود حبيب (مطبعة المقتطف سنة ١٩٤٠) . ومن أهم ما قرأنا له شعر مترجم إلى الفرنسية ، نخص بالذكر « القربان الشعرى » و « قطف الثمار » و « البستاني » و « الهلال » و « البجعة » .

إن الشيء الرائع الذي نجده في شعر طاغور هو محاولته تصوير الانسان أمام ربه ، والفرق الشاسع بين الخالق والمخلوق من جهة ، والتقارب الغريب وعدم الكلفة بينهما من جهة أخرى . ولتلك الفكرة أهميتها الكبرى في فلسفة الهند .

يذكر طاغور الانسان في شعره ، فيشبهه بكأس دقيقة قابلة للكسر السريع ، وبناى صغير من القصب في يد الخالق . ولكن الشاعر يرى أن هذه الكأس وذلك الناى ، يكبر شأنهما إذا أراد الله أن يملأهما حياة متجددة ، وموسيقى أبدية ، في ذلك الحين يتسع قلب الانسان ويبتهج ، ويكاد يذوب فرحاً ، وتصبح يداه قادرتين على أن تتلقيا أكثر مما أتحفهما به الخالق .

و يرى طاغور أن السبب الذي يصل الانسان بربه ، هو قدرة الانسان على الغناء ، فما الحياة وما بها من شدة ورخاء أو حزن وفرح ، إلا هذا النشيد الذي يصعد من الطبيعة ومن الكائنات ومن الجمال ، والطرب الذي يختلج له قلب المغنى فينسيه نفسه ومقامه الحقيقي ، فيدرك حينئذ أن صداقة تربطه بربه . والشعر الذي ينشده ويقربه شيئاً ما إلى الموسيقى الفياضة التي تتدفق من السماء ، وتشيع النور في العالم .

ويدور عدد وافر من قصائد طاغور ، حول أفكار محدودة ، حتى ليصيب القارئ شيء من الملل ، إن لم يترك وقتاً كافياً بين قراءة وأخرى . وقد يندر أن تقرأ صفحة من « القربان الشعرى » مثلا ، دون أن تصادفك عبارة من الموسيقى ، أو إشارة إليها . فالشاعر يحس تارة بسرور ، لأنه تمكن أن يجرد غناءه من كل

ما يثقله من زينة أو بلاغة أو إطناب . وهو يعترف تارة أخرى ، فى حسرة ويأس ، أنه حاول عبثاً الاهتداء إلى اللحن الموسيقى الذى يقصده ، فنجده ساخطاً على صوته السجين ، البعيد كل البعد عن الكلمات التى يدعوها فلا تجيب ، وينتظرها فتخيب أمله .

و إذا تركنا الموسيقى وما إليها من تشبيهات واستعارات ورموز شعرية فى مؤلفات طاغور ، و بحثنا عن ألوان أخرى من التفكير ، وجدنا الشاعر عاكفاً على تحليل شخصيته وما تشمله من أمزجة وميول ، وانفعالات وطموح إلى الجمال وافتقار إلى الخير ، وسخط و إشراق ، وعبوس وأمل ، وهو فى كل لحظة ، وعند كل محط لفكرة ، يتوجه إلى الخالق ليسمع له وليساعده على تحقيق مساعيه ؛ وليرشده إلى الجمال والكمال فى الشعر وفى الحياة .

وفى موضع آخر من شعره يعلن الشاعر أن حاجته ماسة إلى عفة الجسم ، وطيبة القلب ، وازدهار الحب والأعمال ، وأن هناك ساعات عصيبة تمر به ، من حين إلى آخر ، فيشقى لها ويشكو منها ، فتزيد رغبته فى الراحة التامة ، وفى أن ينعم نظره فى محاسن الطبيعة وجمالها .

والطبيعة كما يبدو للقارئ من أول وهلة ، تزهو وتفوح فى قصائد طاغور ؛ وصفحة الطبيعة كما يقول : « إنما هى لوحة متجددة الجمال ، يرقبها الشاعر بمنظار إلهامه ، ثم يفصح عنها بترنيم وتلحين وموسيقى ، دون استعمال أصباغ وألوان » . وللقارئ أن يطوّف بشعر طاغور ما طاب له التطويف ، فانه سيخرج من هذه الجولة وقد امتلأ بصره بألوان الزهر وازدحمت ذاكرته بأسماء السوسن واللوتس والصندل والزعفران وحقول الخردل وغابات المانجو ، ويصور القمر وهو يغازل الزنبق والاقحوان تارة ، و يحبو متكاسلا فى دلال بين الشجر تارة أخرى ، والسحب التى تنعقد فى السماء ، أو تتكاثف مثقلة بالمطر فوق هامات الشجر ، أو تسحب ذيولها على الكواكب ، و برقة النسيم يعبث بأفنان شجرة الخيزران .

وقد أثرت فى نفس الشاعر وحواسه فصول السنة ، بل شهورها ، وحركات الضوء والظل والريح والماء . وهو يدين للطبيعة بتشبيهات رائعة ، مما نجدها فى أحسن الشعر الفرنسى الرومانتيكى . ولا يسعنا إلا أن نذكر بعضها : « إنما يداك زهرتان ناضرتان من زهرات اللوتس » و « دعج عينيك أشد حلوكة من سواد

السحابة المثقلة بالمطر » و « ستشع خواطرك من عينيك السوداوين كما يطل طائر من عشه » و « إنك تختفين كأنك نجم توارى خلف التلال » و « أنت سحابة السماء التى تسبح فى سماء أحلامى » الخ . . .

والطبيعة تحدث الشاعر وتناجيه ، وتصرفه عن الأمور الخارجة ، والمصالح المادية . فيفطن لأهمية ما يقع عليه نظره ، و يهيئ نفسه لتلقى درسها ، والانتفاع به ، وربما دفعه إعجابه بالكائنات الطبيعية ، التى لم تعبث بها بعد يد الانسان ، إلى شئ من الغلو والتطرف ، فيهجر العالم ومن فيه ، ويصبو إلى حياة هادئة بريئة ، لينصت إلى همس دفين فى قلبه ، عندما تغيب الشمس ويشعر الانسان بجمال الطبيعة ، وجلال الحياة .

وهنا تبدو للشاعر عناصر من الفكر ، لم يكن له بها من قبل ذلك عهد ، وتتجلى له معان للحياة تزيد من معرفته وطاقته على إدراك أسرار الكون والمخلوقات ، وتساعده على التأمل فى الأسباب الوثيقة التى تصله بالطبيعة وبالانسانية ، وتجعل منه حلقة ضرورية من حلقات البشر ، وعاملا أساسيًّا لانسجام العالم . ومن هنا كانت الناحية البشرية ، فى شعر طاغور . وهو يثق كل الثقة أن الأفكار التى تجول بنفسه ، والألفاظ التى يرددها لسانه ، والموسيقى التى تجمع بين الكلمات وتكسبها بهجة وتزيد من تأثيرها فى العقول ، كل هذا وليد السكينة ، وغاية كل تأمل أو تفكير صادق .

ولكن الشاعر لا يعيش لربه ولنفسه فحسب ، فهناك قوم يترقبون حركة شفتيه ليتلقوا رسالته ، ويستقوا منها ما يرد عنهم شبح اليأس والقنوط ، ويعاونهم على الاقدام والصبر والشجاعة . ولا يجد طاغور فى بعض الأحيان ، متسعاً من الوقت ، ليتأمل فى الحياة ، وليقف فى خلوة عند الأفكار التى تجول بخاطره ؛ لأن هناك أصواتاً ترتفع فى الليل وقلوباً شابة ، ونظرات كلها حب ، تنطلق وتطلب الموسيقى ، فيسأل الشاعر : « من ذا يستطيع أن ينسج أغانيها إن انزويت أنا على شاطئ الحياة ؟ لا أستشعر فى نفسى سوى الموت والحياة الأخرى » . ونحن نلمس هنا ناحية للنضال والخصومة بين مظهرين من مظاهر الحياة ، نرى الشاعر الذى يسعد بقدرته على التفكير فى أمور تهمه من جهة ، ومن جهة أخرى نرى الشاعر الذى لا بد له أن يشغل نفسه بالذين يغدون و يروحون أمامه وهو « لا يستطيع لهم دفعاً » .

هذا وليس فى نيتى ، ولا فى استطاعتى ، أن ألم بأطراف المعانى المختلفة المبثوثة فى دواوين طاغور التى حصلت عليها مترجمة إلى العربية والفرنسية والانجليزية . وما الآراء التى بسطتها ، إلا الجزء الضئيل مما ينبغى أن يقال فى شاعر ، لم يترك فكرة إلا وذكرها وشعوراً إلا وعبر عنه ، فى أسلوب أخاذ موسيقى .

ومن المسائل التى اهتم بها طاغور ، والتى ربما أتيح لنا أن نعرضها فى مقال آخر ، مشكلات الحب والحرية والموت .

ونريد أن نشير ، فى نهاية هذا البحث الوجيز ، إلى حقيقة لا ريب فيها ، وهى أن طاغور نال هذا الكمال فى آثاره الفنية ، لأنه سما بالفن إلى مرتبة العقيدة ، وله مؤلف قائم بذاته عنوانه « دين الشاعر » . وقد لمسنا فى بعض فصوله سر جمال شعر طاغور . وما ينتظره من هذا الدين ، هو أن « يساعد الضمير على التخلص من نير المادية » ، وأن يذكر الشاعر ومن يتلقى رسالته ، فى ساعات الجهد والاضطراب ، بأن هناك « ترنيم البلبل » وجمال الزهر . ويقول طاغور : « ليس هذا الدين جواباً على سؤال بل هو موسيقى تسلينا عن أفكارنا كلما امتلأت بها نفوسنا » .

وجاء شعر طاغور دليلا قاطعاً ، وبرهاناً صادقاً ، على ما يقوله فى كتابه ، ورسالةً فكرية وخلقية من أعظم ما جاد به الشعراء على الانسانية .

ميمونه فرنسيس

ROGER CAILLOIS
THEORICIEN D'UN CLASSICISME NEUF
ETIEMBLE

روجيه كايوا يضع نظرية مذهب كلاسيكى جديد

كان هذا الكاتب نصيراً قديماً من أنصار مذهب السريالزم ، ثم فارق بريتون زعيم هذا المذهب بعد أن جهز قضية العقل فى الفن ، وكان عضواً بمدرسة باريس لعلم الاجتماع (مع جورج بتاى ، المدير الحالى لمجلة « كريتيك » وميشيل ليريس مؤلف كتابى « أفريقيا الشبح » و « عصر الانسان » وغيرهما . . .) قد فتن هذا الكاتب وقتاً ما بنزعات الفوضى والطغيان . كان العصر يقتضى ذلك . وما يزال بين الناس من يتهمه بأنه شديد الميل إلى هؤلاء الأقوياء الذين تجمعهم و إياه وحدة الآراء ، وأنه ينظر إلى الجماعات السرية وأعمالها فى كثير من التسامح والعطف . ولو قد خير بين الفوضى والطغيان ، لكان من الجائز أن يختار كايوا الأمر الثانى مستجيباً للأخلاق وعلم الاجتماع . ولكن كايوا لا يريد أن يتورط فى هذا الاختيار ؛ لحرصه على الدقة لا يعدله إلا حبه للحرية . ومن مفارقات الحرية أن نعمتها القيمة لا تنال إلا ممزوجة بالضغط ومحالفة له . ولا سبيل إلى ضمان نصيب قيم من الحرية الكريمة إلا إذا ضحينا منها بهذا الجزء اليسير الذى يوشك أن يكون اختلاطاً واضطراباً . «فهذه التضحية تثبتها وترفع قدرها ، على حين يهدمها الضغط الخارجي ويغض من قدرها الاسراف فى الميل إلى السهولة . » يظهر من هذا النص وعشرة من أمثاله أن سوء النية وحده هو الذى يستطيع أن يتهم كايوا بحب الطغيان . ومن الحق أن عصراً يمتاز بسياسة عامة تقوم على الاهمال والتراخي وترك الأشياء تمضى كما تشاء ، يتعرض فيه كل من يحاول أن يكون ذا ضمير وذا خلق وذا إرادة للاتهام والريبة أكثر مما يتعرض للاحترام ، وللبغض أكثر مما يتعرض لعرفان الجميل . فالكسالى والجبناء يبغضون كايوا لأنه يعرض عليهم صورة سيسفوس وهو يدفع صخرته أمامه .

فمنذ عاد من الأرجنتين حيث كان يدير أثناء الحرب «الآداب الفرنسية» ، نشر كايوا طائفة من الكتب : « تصافى الأقوياء » و « أكاذيب الشعر »

و «مناسبات» و«صخرة سيسفوس» ، وكلها كتب رائعة اللغة ، يقول فيها جايتون بيكون : إنها تدل على امتلاك للفن لا يطمع فيه الآن إلا أمثال أندريه جيد وجان بولون . وقد أضاف إلى آثاره هذه أخيراً كتاباً جميلا وهو « لغة الجمال » : «قرأت نقد الكتب التى كانت تظهر ، أو ناقشت فى قيمتها الهواة الذين أقدر أحكامهم ، فلاحظت أنى كثيراً ما كنت أوافق على الصفات التى كانوا يختصونها بها ؛ ولكنى كنت اخالف غالباً فى القيم التى تضاف إلى هذه الصفات . فاذا وصف أثر بأنه صادق أو طريف، كنت أوافق على هذا الوصف، وكان النقاد يرون هذا مدحاً على حين كنت أراه أنا عيباً . وكذلك لم ألبث أن لاحظت أن لى آراء تناقض أشد المناقضة ما شاع الاتفاق عليه حين يذكر الفن للفن ، والأدب المهذب ، والقواعد ، والصورة والمادة ، والتحديد ، واستعمال الصور فى الشعر ، وقيمة مالا سبيل إلى وصفه ، وتصور التاريخ الأدبى . »

وفى إطار من نوعين من التأمل فى الطبيعة وفى الفن عرض كايوا لغة للجمال حلل فيها القاعدة والحرية ، والنظام والصدق ، والفن للفن والأخلاق ، تحليلا يقوم به عقل من أعظم العقول صفاء فى هذه الأيام . فالطبيعة عدو للعدل والأسلوب . ولايستطيع أحد أن يجادل فى هذا الغرض الذى هو أساس من أسس الحضارة . وكايوا يعرف ذلك كأحسن ما تكون المعرفة ؛ لأنه فكر فيه على ساحل باتاجونيا : « إن الانسان الذى يأخذ أثناء الحياة بحظه من غفلة الحيوان ، ويعجز عن أن يفكر فى الأشياء وقتاً أطول مما تسمح له به الأقدار ليكسب قوته ، مضطر إلى أن يعود إلى الطبيعة فى غير مشقة ولامهل ، ويصبح نهباً مقسما بين الشمس والموج . وهيكله المهمل فى غير عناية والذى لا يلقى من الرعاية أكثر مما يلقى الحيوان ، يذبل كما يذبل الحيوان ويفنى فى نفس السرعة التى تفنى فيها هذه الأحياء التى تشاركنا فى الحياة والتى تستأنف حياتها فى غير انقطاع وهى لم تحتفل بموتاها .

« إن الانسان حين يحتفر قبراً لجثته يضع الأساس لطمعه فى المستقبل . . . ويثبت كذلك أنه يعرف كيف يذكر وكيف يعدّ . ينشئ استمراراً . ومن حيث إنه يضيف جهوده إلى جهود معاصريه، فهو يوحد على غير شعور منه بين هؤلاء المعاصرين وبين جماعات كثيرة مضت وجماعات كثيرة أخرى لا تزال فى ضمير الغيب . وهو بذلك يشارك فى إقامة بناء خفى لا يعرف رسمه ولاأبعاده..

وكذلك يضع الخزّاف والشاعر شيئاً فشيئاً قواعد فنيهما . . . وعلى هذا النحو تظهر الحضارة . »

وقد استطاع الانسان وحده أن يفرض الأسلوب والعدل . ولو قد أعرض عنهما لكان لنفسه منكراً . وكل واحد منا مدين لنفسه (وللذين سبقوه والذين سيلحقونه من أمثاله) بأن يدفع أمامه صخرته المشبهة بصخرة سيسفوس ، وبأن يضيف إلى الكنز المشترك « بفضل مايبذل من جهد وما يتاح له من توفيق، نصيباً ضئيلا ليدخر فيه » . وبدلا من هذه الآثار المحاكية للطبيعة التى تموت وتحيا « فى شىء من الاختلاط البشع الذى لا يعرف نظاماً ولا غاية ، هذه الآثار التى تقلدها الرومانتيكية اللاواقعية والتى يحاول الاختلاط تنظيمها ، ينشىء الفن آثاراً تأتيها قيمتها مما تهدف إليه من غاية وما تعتمد عليه من نظام . « وفى أعماق هذا العالم البشع الذى يأتلف من اللحم والمهل والصديد ، وفى أثناء هذا التعفن الكدر المنتشر، يجرى دم حار يبعث الحياة فى قوة إلـٰهية نشيطة، طامحة إلى ما هو فوق الفناء متعجلة براءتها من كل ما هو بشع قبيح » ومن كل ما هو مشترك بينها وبين القوى الطبيعية .

فكايوا لا ينكر إذن حظنا من هذه المادة الطبيعية التى تجنح إلى الفوضى ، وهو يعلم أن لا سبيل إلى البناء المتين إلا على الطين ، وأن مدينة مكسيكو التى تقوم على مستنقع تستطيع من أجل هذا أن تثبت للزلزال . ومع ذلك ألم يكن بد من تجفيف الوحل و إقامة البناء ؟ ومن هنا يريد فرويد أن الآيات التى ينتجها العقل لا تسمو إلا إلى أن ترتفع بحاجاتنا العضوية . ومع ذلك فقد يجب أن ترتفع بها ، أى أن تفرض على هذه الشهوات وعلى هذه القوى الغامضة « مقاومة وحواجز » ، وأن ترسم لها « قواعد دقيقة» ، وتستكشف لها « قيوداً محددة » ، فتذلل بذلك إسرافها فى الاضطراب «حتى يصبح الجموح نظاماً ومعرفة . » هنالك يكوّن الوعى والحرية ما يسمى أسلوباً يختص بمزية توشك أن تكون مكافئة له ، وخلاصتها قدرته على أن ينتج آثاراً «لايمكن أن تختلط ولا أن تشوه » كما تختلط وتشوه الآثار التى تفرزها الطبيعة فى غير وعى ولا شعور .

حرية ، ولكننا قد قلنا إن الحرية يجب أن تفهم على وجهها ، وهى التى تعرف كيف تخلق لنفسها « قيوداً جديدة » ؛ فان « فى النص الذى يلاحظه الكاتب ملاحظة دقيقة شاملة ، و يخضع كل لفظ من ألفاظه للنقد والتدقيق، حرية

أكثر مما في النص الذي يفلت من الكاتب إفلاتاً » . ومن هنا كان أشد أنصار الفوضى اندفاعاً إلى الفوضى سراعاً إلى نسيان مذهبهم كله حين يقبلون على الأثر الفني . وانظر إلى فكتور هوجو الذي هو ، إذا صدقناه ، قلنسوة حمراء وضعت على معجم قديم . كأنه لم يتخير الألفاظ في شعره تخيراً دقيقاً فيؤثر منها النقي الممتاز ويهجر الشائع المبتذل . وزعيم السريالزم ، ذلك الذي كان يريد أن يقلب كل شيء رأساً على عقب ، تستطيع أن تهمل قليلا من شعره — وهو أقله حظا من الجودة — فسترى بعد ذلك أن كتب أندريه بروتون ، ولا سيما « الحب المجنون » ، تمثل الآن أجمل النثر الفرنسي ، نثر بوسويه ، والرائع من نثر شاتوبريان . ولم يزد كايوا في حقيقة الأمر على أن قال جهرة ما يقوله كثير من الآثار التي تنكر مذاهب أصحابها ، وهو أن قواعد الشعر لها أسبابها وقيمتها ، وأن الشعر المطلق لا يوجد إلا بالقياس إلى الشعر المقيد ، وأن نظام المأساة لا ينبغي أن يتأثر بما يغض من قدر السياسيين الذين يحرصون على أن يحتفظوا بما يلائم أهواءهم من الاضطراب ، وأن الحرص على الطرافة مهما يكن ثمنها يدل على شيء من الهمجية ، و« أن المهم ليس هو أن تبتدئ جديداً ، وإنما هو أن تتقن ما تحدث من الآثار » ، وأن الشعر ، كما كان يقول مالرميه ، يأتلف من الألفاظ لا مما لاسبيل إلى التعبير عنه ، وأنه لا يكفي لجمال الصورة أن تكون مفاجئة ، وأن الخير في ذلك أن يلائم الكاتب بين البداهة والفجاءة ، وأن الفن للفن وهو نوع من لهو الفنانين « لا يستطيع أن يرضي إلا هذه الجماعة الضئيلة التي تراها غاية الغايات » ، وأن الفن خليق بتقدير أوسع وأشمل بحيث يستطيع أن يمس كثرة الناس وأن يبلغ من الانسان « أيسر مشاعره وأكثرها إلفاً » ، وأن الكتاب إذا حسن أسلوبه ، وهذا هو الشرط الأساسي لكل أدب مثقف ، فليس ما يمنعه بعد ذلك من أن يكون شديد الملاءمة للخلق ، معيناً على إصلاح القيم .

وعلى الجملة « لا بد من التعليم في الآداب وفي الحياة كما في العمارة ، ولا سبيل إلى إيجاد الأسلوب إلا من طريق البناء والتأليف » . ونحن نعرف هنا هذه المقتضيات التي تفرضها اللحظات السعيدة حين يعمل العقل في مادة مصهورة مرنة ، فينشئ منها آثاراً نادرة يقيمها التوازن في مكان مقسوم بين الصور الهندسية الجافة والانتاج الطبيعي المختلط ، وهي لحظات الانتاج الكلاسيكي .

اتيامبل

فى صحراء الأقدار

الأقدار العاتية ، هائجة مائجة ، تهبّ على رجل فى الحلقة السادسة يحمل حياته على كتفين هزيلتين ، قد برت الأيام ما كساهما من قوة الاحتمال . والحياة على كتفيه قلقة متفززة ، يخب بها تارة ويضع تارة ، ويترجح من وقرها إلى أمام ووراء . والأقدار تطوح به ذات اليمين وذات الشمال ، وتميل به فى صحرائها كل مميل ، وتهيله على حسكها كل مهيل ، وتلطمه اللطمة تلو اللطمة وتنكيل . حتى إذا لاحت فى تلك الصحراء الهائلة واحة — والأقدار تترفق بالواحات ، وتدفع إليها فى الشدائد والملمات — كان الرجل قد تخاذلت قدماه ، فبدا له أن يضع العبء على الأرض ويتأمل الحياة .

إنه يجدها شوهاء نكراء ، لا منفذ فيها لرجاء ، اللهم إلا تانك العينان اللتان تنكران فيها إلى الوراء ، وتانك العدستان التى تقربان منها البعيد .

ويقبل عليها يطل من عينيها على الماضى ، ومن عدستيها على الذكرى ، وهى من ورائهما فسيحة الأرجاء ، طليقة الرحاب ، قد أسدل فيها ستار على كل باب ، وعهد الزمن إلى أبنائه بتلك الأبواب . ويزيح له الصبا ستاراً من تلك الأستار ، فإذا طفل على صورته فى الثالثة من عمره ، تحمله امرأة ليست بأمه ، وحولها مأتم قائم ، وعويل صاخب دائم . ويكتنف الطفل الغموض فلا يدرى على التحقيق ما يداخل الطفل من مأتم أبيه ؛ فقد تركه فى الثانية من عمره ، وكان اليوم تمام العام على موته .

ويرى الطفل بعد ذلك فى كنف أمه ترعاه ، وتحت سلطان الأكبر من إخوته يهمله ؛ الأم تضربه لتؤدبه ، والأخ يضربه ليعذبه . الأم تدخر له لتعلمه ، والأخ يبدد ما تدخره له . والطفل فى تلك الأثناء ينمو على صورة ما ؛ إذا جاء أمه باكياً من عبث الصغار انتهرته ، فتعلم ألا يبكى من العبث ؛ وإذا

قصد إلى أخيه ليقضى له أمراً ، منعه إياه ، وألحق به أذاه ، فتعلَّم كبت الشهوات ورياضة النفس على الحرمان .

ويتأمل الرجل من عدستى الحياة ويطيل التأمل وقد أهمته سيرة الصبى ، فيجده يخدم أخاه الأكبر على المائدة ولا يؤاكله ، وأخوه الأكبر يتزود من الأطايب بالنصيب الأوفر ، ويدع لأخويه الصغيرين والأم النصيب الأصغر . وتقطع الأم ولديها نصيبها القليل ، فيعتاد الطفل الرضا بالقليل ، وألا يطمع فى غير عطف الأم وهو جد كثير .

ويرى الطفل ذاهباً إلى المدرسة خالى الجيب ، ليس فيه مما يشتهى الأطفال قليل أو كثير . ويعود الطفل من المدرسة فيلزمه أخوه البيت بحجة المذاكرة ، فينشأ قعيد البيت ، أليف ما يتردد عليه ، قريباً من بنات الجيران ، حبيبات إليه .

ويروع المتأمل أن يرى طفله يعرج فى ساحة الذكرى على منعطف الأوزار ، فيقف بالغريزة وهو بعد صبى فى العاشرة ، وهى امرأة قوية شديدة البأس . ويراها تداعبه وتحتضنه ، وتلقى به إلى بناتها يتلقفنه وهن بعد غرار ، فيعبثن به ويعبث بهن وهن وراء الأستار . وتدعوه إحداهن فيستجيب لها ، وتغريه كبراهن فيسىء الاختيار ، وينصرف عن المذاكرة إلى المعابثة ، ويحسن من الدرس علم الكلام ، ويرهف من الحس عاطفة الهيام .

ويتابعه المتأمل فى الثانية عشرة إلى المدرسة ، فيلفيه المختار بين الصغار ، والمتحدث الذى لا يشق له غبار . ويقدم إلى الشخصيات العظيمة ليلقى كلمة الترحاب ، ويقف فى مواقف الكلام ملء الإهاب .

فيغتبط المتأمل بمرأى طفله ومشهد ماضيه ، ويرتد عن عدسة الحياة إلى تأمل الحياة ، فيجدها هذه المرة باسمة ، ويجد ما كان تشوه منها قد برئ من العيوب والأسقام ، ويجد الرجاء يطل من عينيها وفى يده خيط يربط ماضى الغلام فى الثانية عشرة بحاضر الرجل فى الخمسين ؛ فيحتملها عن الأرض يكاد لا يحس لها وزناً ، ويضعها على كتفيه لا تحسان لها وقراً . ويسير منتصب القامة والحياة أمامه ووراءه ، وعن يمينه وعن شماله ، مرحة ضاحكة ، لاهية لاعبة . ويبلغ الواحة والأقدار ساهية ، ويدخلها والآمال فيها حوض من زهر يسقى من كوثر ، فيطيب له الجلوس على حافة الحوض الأزهر ، وتنقلب حياته فراشاً زاهياً يتنقل بين هذه الأزهار ، ويتغذى بآمالها الكبار والصغار . ويفيض الشعر من حوله

جدولا منساباً ، وغديراً وثاباً ؛ وتنسجم مشاعره فهي رائحة غادية ، مختالة متهادية . وينفسح خياله ليتلقى العرائس الهابطة السابحة ، والحياة تضم هذا كله ولا تفلته، وتلمه ولا تشتته .

ويتعب الخيال من كثرة ما جاب في واحته فينام ، و يرى الحقيقة فى منامه فيحاول اللياذ بالفرار ، فهى عدوته من قديم الزمان ، ولها عليه سلطان ، يغمره آناً وينحسر فى أكثر الأحيان . فتعاجله الحقيقة بوخزة من إبرتها فتهبط فقاعته ، وتركد حركته ، و يزول سلطان الخيال عن الرجل الجوال ، الساكن إلى نعمى الآمال . وتقص الحقيقة ذلك الخيط الذى ربط به الرجاء ماضى الغلام بحاضر الرجل ، ويتحول الفراش الخفيف إلى هولة ثقيلة ينوء بها كاهله ، و يحس نشوب أظفارها فى تينك الكتفين اللتين عاودهما الهزال ، وعاودت عليهما الحياة الربوض والإثقال .

و يرتد الرجل إلى صحراء الأقدار تتنكر له من جديد ، وتصطف أمامه الهموم للهجوم ، وتضرب حوله نطاقاً من نار وحديد . إنه يعود إلى دنيا الحقيقة : دنيا الحنظل والأشواك ، ويحس حياته فوق كتفيه مرهقة مرهَقة . ويتمثل له العمل الذى يزاوله يصطدم فيه بعقد النفس ومركبات النقص ، وينغص عليه العيش . وعمله بين هذه الهموم يزامله فيه أصدقاء شر من الخصوم ، همهم الكيد له فى الصميم ؛ كلهم يبسم له ، وكلهم يسقيه فى ابتسامته شراباً من حميم . يعلم سبلهم ويعفّ عن انتهاجها ، و يرى مكرهم ويأبى أن يمكر بهم .

ويتبين بين الهموم همًّا يحاول أن يخرج عن الصف ويشب عن الطوق ليخنقه : هو تلك الطفلة التى رباها صغيرة ورعاها كبيرة ، وكانت أنسه وغبطته . تلك التى أبقت عليه شبابه ، فلما فارقته أحس دبيب الكهولة يسرى فى عظامه ، والأرق يقتحم عليه كل ليلة منامه ، والذكرى تطغى عليه فتثير آلامه . يراها بعين القلب حين يأوى إلى فراشه ، فتشتد لوعته ، ويفيض حنينه ، ويظل الساعات يتقلب على جنبيه والنار تلهب جوانحه ، وتكوى ضلوعه . وقد يظل الليل بطوله على هذه الحال ، فاذا نهض من نومه تمثلها بعين الخيال ، فتظل الساعات فى البيت وفى الطريق وفى المكتب ، ثم فى البيت ثانية نصب عينه ، ومرمى فكره ، وشغله الشاغل . فهي سهومه ووجومه ، وهي يأسه القاتل ، بعد أن باتت أمله الزائل .

وبين الهموم هم يحاول ألا ينخرط فى هذا السلك ، وأن يشيع فى الظلماء النور ، وفى الدهماء الحبور . إنها امرأته التى تزوجها صغيرة دون العشرين ، غريرة لم تبلغ الرشد ، نحيلة عليلة ، هادئة قانعة ، لا تكلفه مالا يطيق ، وتحتمله وقت الضيق .

كانت دون ما يطلب وفوق ما يستحق . لم يدر حين تزوجها أيحبها أم لا يكترث بها ، أتسعده أم يشقى بها . وما يزال بعد عمر طويل يسأل نفسه هذا السؤال ، ولا يدرى ما المآل .

تخلص له ، وتتعهد حاجاته ، وتماشى رغباته ، وتضحى فى ذلك بالكثير من راحتها ، وتذلل العصىّ من مشيئتها ، وتهيئ له من أسباب الهناء ما هو خليق أن يهنئه ، فلا يهنئه .

رزقها الله منه ببنت شد ما اشتاقت أن تعززها بولد ، فشاءت الأقدار أن تحرمها البنت ، وتحبس عنها الولد . ولم يعزّها أنه يذكر من ماتت ويبكيها ، ويعزف عن كل من لعله يعوضه منها فينساها .

ترفع فى بيته مشعلا من الإخلاص تعصف به الأيام بين الحين والحين ، فتذبذب شعلته فلا تستقيم . لكن شيئاً لم يستطع أن يطفئه رغم ما عمل على إطفائه ، ولم ينفع هبوب الأقدار عليه إلا فى اتساع شعلته وانتشار ضيائه .

وبين الهموم ما يخطف على خاطره كالبرق فلا يضيئه ، بل يسدد سهمه إلى فكره فيدميه ويشيع الاضطراب فيه . فهذه حاشية تعرض له فى حاضره كما يعرض الشريط : هذا أخ ينهش فى لحمه فيجرّحه ، وهذا صديق يأخذ من ماله ووفائه فينكر كليهما : المال والصديق . وهذه أخت حنا عليها ، وصان أصغريها ، ولم يدع مناسبة إلا سعى إليها ، وتذكر أعيادها فأهدى إليها الهدايا ، وأعرست وأنجبت فأجزل لها العطايا ، وأساء وأساءت فما أسر لها حفيظة ؛ حتى رآها تتغير ، وبدا عليه أنه تغير وما تغيَّر ، فما هى إلا أن تصطدم مصلحة لها حقيرة ، بمصلحة له جليلة ، حتى تنقلب أفعى تلدغ ، ونمِرة تنهش ، وحتى يمتد لسانها عليه ، فلا ينقطع من الخجل قبل وصوله إليه ، فيبهت كالذى كفر وما كفر ، ولكن كفرت وما بُهتت .

ونفسه التى بين جنبيه أشد همومه ، فهو محبوب مكروه : يحبه من يحبه فيسرف فى حبه ، ويكرهه من يكرهه فيسرف فى كرهه . لا يعرف مبغضوه ألاّ

يكترثوا له ، ويعرف هو دائماً ألا يكترث لهم . لايمس إحساس أحد ، ويغضى عن كثير ، ولا يتعهد علاقة ، ولا يقطعها بيده ؛ ويحيط نفسه بسياج من التحفظ لا يقرِّب أحداً منه ، ويرفع أحياناً ستار التحفظ فيعلقه من يقربه ، ثم لا يلبث حين يسدل الستار أن يفلته . يعيش مع نفسه لغيره أكثر مما يعيش لنفسه ، ويحفظ غيبة الناس ، والناس لاتحفظ غيبته . يتكدر ويصفو ، فلا يحتفظ بعد الصفو براسب الكدر ، ويبدو له الغل والسخيمة فلا تفوزان منه بغير العذر ، ويفطن إلى السيئة الخفية فيثور ثورة القدر . رقيق الحاشية ، شديد التهذيب ، لا يلقى مع ذلك إقبالا ، دقيق شديد التدقيق ، لا يشجع اتصالا .

مايزال الرجل في صحراء الأقدار يخب فيها ويضع ، ويترجح إلى أمام ووراء . وما تزال تلك الهولة المهولة المسماة بالحياة رابضة فوق كتفيه ، يهولها تربص الهموم فتزداد تشبثاً بالكاهل ، ويزداد ضغطها عليه . لكن الرجل يسمع من بعيد وقع عكاز ، فيلتفت فيرى عجوزاً تدب . إن بينه وبينها شقة ما تزال بعيدة ، وهذه العجوز من دأبها أن تسير ببطء ، لكنها هذه المرة تغذ السير وتحجل كالغراب . إنها تحاول أن تدركه لتزامل الحياة على كتفيه ، وقد تنتظر الحياة حتى تدركها الشيخوخة ، وقد تخطفها الهموم قبل الأوان .

لقد زهدت الإقامة فوق كتفى الرجل على كل حال ، وقد لا يطول المقام بها فوق ما طال ، فالحياة لا بد مفارقة .

محمود ا. الدسوقى

الأثر الأخير لزعماء الفن

إن تعاقب الأساليب — بحيث يدل كل منها على فكر فني خاص بل على موقف مختلف من الحياة — ظاهرة يمتاز بها العالم الغربي . فالاتجاه الفلسفي والفني في الأسلوب الغوطي **gothique** يناقض كل المناقضة اتجاه عصر النهضة ، ومن جهة أخرى لا يقل هذا اختلافاً عن اتجاه العصر التالي أي نحو الشذوذ **le baroque** . فليس هنالك نمو منطقي أو نضج لفكرة واحدة قد يمكننا تتبعها في مختلف مراحلها . ذلك أن تلك الأساليب تخلو في الواقع من أي رباط داخلي ولم يستقر كل منها إلا بضعة أجيال .

هذه التقلبات — وكثيراً ما تكون فجائية تتناقض في معظم الأحيان تناقضاً حاداً — تحملنا على الاعتقاد أنه في ميدان الفكر كما هو الأمر في العالم الطبيعي يلعب قانون الفعل ورد الفعل دوره . ومع ذلك فالحضارة الصينية لا تعرف إلا أسلوباً واحداً وهو الأسلوب الصيني ، وتتجه في تنقلاتها البطيئة المطردة نحو غاية واحدة دون غيرها ، مظهرة بذلك القانون الدفين في كل كائن عضوي وهو قانون الحياة . ومثل ذلك يحدث في الفنين الفرعوني والعربي . فكل انقلاب فجائي يفسر هنالك بتدخل عناصر خارجية كطروء جنس جديد من الناس أو تغير في الموقع الجغرافي .

غير أنه فيما وراء هذه الأساليب المتنوعة المتباينة التي يخضع لها منشئو هذا العصر، بل فيما وراء ما يمكن أن يوجد من أسلوب شخصي قد يستطيع الانسان ، سواء كان سابقاً لعصره أو متنبئاً ، أن يبتكره معارضاً للأسلوب المقرر ، ومستقلا عن التيارات والنماذج الفنية المتوارثة ، فيما وراء هذا كله نلقى من حين إلى حين أسلوباً يتجاوز كل هذه المقتضيات . في هذه الظاهرة تصطدم عوامل بيولوجية باتجاهات معنوية بحتة . وتحملنا هذه الظاهرة على الاعتقاد أن كل فنان ، سواء كان غوطياً أو شاذاً ، شاعراً أو موسيقياً ، يتخذ في بعض أطوار حياته أسلوباً خاصاً وثيق الارتباط بسنه . وكذلك يظهر التناقض بين التوقيت الذي يعرضه المؤرخ ،

والتوقيت الذى تعرضه الحياة ، وتصبح دقات القلب مقياساً لا يستطيع علم التاريخ إنكاره .

تبدو القرون للمؤرخ مغمورة بضوء متساوٍ ، خالية من الأيام والليالى والفصول ، ويوضع فيها الناس وبينهم المنشئون وضعاً متشابهاً دون أى اعتبار لظروفهم الانسانية . غير أن مقاييس الزمان هذه ، وهى حدود ضرورية بالرغم من جمودها ، ليست إلا نتيجة الخيال . فليس لنا بد من الاعتراف بأنه إذا كان عصر من العصور مجرد زمن محدد نميل إلى اعتباره واقعة ثابتة ، فانما يكونه أناس ذوو حيوية متنوعة وأسنان مختلفة . و إذا كان الوجه الذى يضيفه إلى عصر من العصور ينعكس على المبتكرين من أهله — ولكل من الأجيال لونه وملامحه — و إذا كان توقيت الميلاد والوفاة يطوق فى آن واحد نظاماً من النظم السياسية و يحدد لحظة تاريخية بعينها ، فان معرفة سن المبتكر عند ابتكاره يعين كثيراً على تفهم الأثر وسره . وفى الحق أننا بهذا نعرض للجبر تأثيراً لا يخلو من الغلو ونغض فى الظاهر من حرية الفنان . ولكن إذا قبلنا أن الفن متأثر بنظام يأتلف فيه الجنس والعصر والموقع الجغرافى والظروف الاجتماعية فى توازن لا يكفله إلا تضامن تلك العناصر جميعاً ، فان إضافة المؤثر البيولوجى عند الفرد لن يزيد من قوة هذا الجبر كثيراً . فالفنان يتأثر بسنه وبتجربته فى هذه السن ، كما يتأثر بجماعته الروحية و بجنسه وعصره . وهكذا يظهر عامل جديد يجدر بنا أن نتعمقه كل التعمق .

فاذا عرضنا على هذا النحو لآثار رانبرانت **Rembrandt** أو ميكيل أنجلو **Michel-Ange** أو بيتهوفن **Beethoven** أو تولستوى **Tolstoï** أو جوته **Gœthe** أو سيزان **Cézanne** ، تلك الآثار التى ابتكروها فى الثلاثين من أعمارهم ، فسنجد عناصر متشابهة لا تظهر فى الآثار التى ابتكروها حين تقدمت بهم السن . فهذه العناصر نتيجة مباشرة لسن الفنان ولتصور حياته و إلى ما له فى هذه السن من تجارب . و إذا أتيح للفنان أن يبلغ بحياته السن التى قدرتها الطبيعة عادة للانسان ، هنالك يظهر فى الآثار التى أنشأها فى الستين من عمره أسلوب ترتسم فيه خصائص متشابهة معينة بحيث يمكننا أن نتحدث عن أسلوب للشيخوخة . إذا أنشأ الفنانون آثاراً فى أواخر حياتهم ، مهما تباعدوا فى الزمان والمكان ، فان هذه الآثار تتشابه تشابهاً غريباً فى حرصها على الأشكال المقررة وفى تناول الموضوع . ومن الواضح أن هذه الظاهرة لا ترى عند هؤلاء الفنانين ،

الكثيرين ، الذين فارقوا الحياة وهم شبان سواء كان ذلك عن مرض أو موت عنيف .

إن التحليل المنطقى الذى نحاوله لنعرف أسلوب الشيخوخة أمر يسير جداً فى الفنون التشكيلية **Arts Plastiques** كالنحت والتصوير ، ولكنه عسير فى الموسيقى . ذلك أن طابع هذه الفنون نفسه مادى ، وأن الفنون نفسها أقرب إلى المادة من سائر فروع الفن ، ولأننا كثيراً ما نرى الفنان يتناول الموضوع نفسه مراراً أثناء حياته . ففى هذه الحال تكون المقارنة منتجة . فان اتحاد الموضوع يبرز بوضوح مظاهر لتعديل الآثار التى تتأثر بها القيم المختلفة للأثر .

ويقدم لنا ميكيل أنجلو جميع عناصر المقارنة . فقد تناول الفنان موضوع التقوى ***La Pietà*** والأم الثكلى ***Mater Dolorosa*** مرات ثلاثاً : الأولى فى سن العشرين والثانية فى سن الخمسين والثالثة فى العام الثامن والثمانين من عمره . ثلاثة مراحل سلكها الفنان وثلاث محاولات لموضوع واحد تقوم فى هذه المراحل مقام الأعلام ، وفى كل منها ملامح لمظهر نفسى عند رجل ذى نضج خاص .

والمحاولة الأولى (سنة ١٤٩٩) وهى الآن فى كاتدرائية القديس بطرس بروما ، من آثاره الأولى . وقد صنعها بناء على طلب خاص . وهذا مهم إذ يحق لنا أن نتساءل أكان ميكيل أنجلو فى عمره هذا قد يختار عمداً مثل هذا الموضوع . فى الواقع أن ذلك الموضوع ، أى الأم الباكية على جثة ابنها الذى أنزل من على الصليب والذى يرقد للمرة الأخيرة على حجر أمه قبل أن يودع القبر ، نادراً ما يرى فى إيطاليا لطابعه المؤثر . فقديكون بطبيعته هذه أعظم حظاً من ملاءمة طبع الشعوب الجرمانية التى تميل إلى المأساة . ولم يتأثر ميكيل أنجلو إطلاقاً بالتقاليد . فله للموضوع حر شخصى وملائم لمزاجه . إن أهم الأمور للفنان شأناً ، وهو الذى يوجه إليه كل جهده الفنى ، هو إنشاء مجموعة يجب أن تضم شخصين . وهذا أمر قاس من ناحية النحت وشاق فى نفس الوقت إذ أنه يجب أن يوازن حركتين متناقضتين وهما : حركة العذراء الجالسة فى وضع عمودى ، وحركة الجثة الراقدة على حجرها فى وضع أفقى . وقد حل ميكيل أنجلو هذه المشكلة بعبقرية فذة . فبواسطة الملابس وانحناء خفيف فى جذع العذراء والتواء فى جسم المسيح تنسجم هاتان الحركتان فى قالب واحد ، يسوده توازن تام وانسجام بديع ، بحيث يمكن أن يطوق هرم متساوى الأضلاع هذا الهيكل النقى للمجموعة ، وتصبغ عليه

القاعدة الواسعة من الاستقرار الهادئ والاتزان الكامل ما لا يمكن أن ينال منه أى تعبير متألم أو معذب . أما الأشخاص فقد سما ميكيل أنجلو بها،ولكنه راعى فى أشد الدقة الحقيقة الطبيعية . فتناسب الأعضاء ونظام الطيات والملابس التى تستجيب فى حركاتها لقانون الثقل وخصائص النسيج ، كل ذلك أنجز بعناية ودقة رائعة . فلم يبتعد الفنان مطلقاً عن النموذج بل على العكس أطنب فى التفاصيل مثل العروق الناتئة على يدى المسيح اللتين تتدليان هامدتين ، والأثناء الدقاق على قرطق العذراء ، كل ذلك أنجز بشغف بالغ لعله أن يعرض الناحية الروحية لبعض الخطر .

إن ثروة العالم الطبيعى وتنوع ما فيه من صور يجتذبان الفنان الشاب اجتذاباً عظيما ، فمذهبه الطبيعى الواقعى بما فيه من مراعاة لجميع التفاصيل ناتج عن ذلك . ألم تعنه القيم الروحية والدينية ومظهر الحزن على وجه العذراء فى هذه اللحظة المؤثرة ؟ ألم تؤهله بعد تجاربه الشخصية على فهم ذلك ؟ مهما يكن من شئ ، فوجه العذراء التقليدى (الكلاسيكى) الهادئ لا تغير فيه أى علامة من علائم الحزن .

وقد لوحظ دائماً أن هذا الحزن أبىّ لا يعبر عنه إلا باشارة اليد ، هذه التى تبسط لتدل على إعياء قد بلغ أقصاه .

وبعد سبعين عاماً تناول ميكيل أنجلو نفس الموضوع،ولكنه فى هذه المرة قد قاده إليه الاختيار،بل كان الفنان قد خصص ذلك الأثر بضريحه هو ، وهو آخر ما نحتته يده . ولنلاحظ أن ميكيل أنجلو تناول هذا الموضوع قبل ذلك بعشر سنين ولكنه لم يتمم هذه البييتا ، وهى الآن فى كنيسة سانتا ماريا نوفللا Santa Maria Novella بفلورانس . وكثرت الأساطير حول هذا الأثر ولكننا لم نعرف ماهو الباعث الحقيقى الذى حمل الفنان على ترك هذا العمل . ولعله لم يجد نفسه بعد قادراً على ذلك ، فكان كل عذر كرداءة المادة مثلا كافياً لصرفه عنه . غير أن كثيرا من تخطيطاته تدل على أن هذا الموضوع كان يشغله منذ عهد بعيد . و إذا نظرنا إلى المراحل المختلفة نراها تعبر عن تحول فى موقف الفنان من تصوير الموضوع . فهو يترك الوصف التقليدى للأم التى تبكى ابنها ، وشيئاً فشيئاً يظهر تعبير جديد يصور الألم فى نفسه ، بل اليأس المطلق .

وكذلك يظهر الاختلاف بين المحاولة الأولى والمحاولة الأخيرة فى كل عنصر

من عناصر الأثر . فالمظهر الغريب من مظاهر التمثال يترجم عن أسلوب جديد ويحدثنا بلغة فنية تخالف كل المخالفة لغة التمثال الذى أنشئ سنة ١٤٩٩ . وقد استبدل الفنانَ بالهرم القديم ، وهو رمز توازن ورصانة لا شخصية لها ، صورة طويلة نحيفة متداعية كأنها عمود مثير للحزن لا حركة فيه إلا إلى أعلى كما يتحرك اللهب فى ارتفاع مطلق . ومثل هذا ما يرى فى التماثيل الغوطية حيث تتحد جميع عناصر الانشاء فى اتجاه واحد ، أى اتجاه واحد نحو الارتفاع ، وهو رمز السمو الفكرى .

وفى إثر سنة ١٤٩٩ تبدو العذراء شابة جميلة ، أما فى إثر ١٥٧٠ فوجهها ذابل وجسمها نحيل وحركاتها منقبضة . ولم يعنَ الفنان باظهار معالمها ، فالأسلوب فى غاية الايجاز ، فهو يبسط ويوحى ، وهو ليس فى حاجة إلى أن يفسر أو يعلل وصفاً قد يكون فى الواقع محالا . وليست هناك فائدة من الوقوف عند تفصيل الوجه والملابس والأوضاع .

وقد اكتفى فى النحت رسم الخطوط الكبرى ، فأصبح الأثر وكأنه تجرد من كل المظاهر التى تصل بينه وبين العالم الواقعى . بناء رقيق بحيث لا توجد الصورة إلا لتكون وسيلة إلى التعبير ، وقد سمت المادة حتى برئت من كل كثافة وصلابة . وقد أهمل ميكيل أنجلو القيم الحسية إن لم يكن قد ألغاها ، وسلط على أعصابنا سحراً خلاباً فأثبت فى هذا الأثر مظهره الجديد . كل شئ فيه يعين على وصف الألم و إعلان اليأس . وهنا كذلك يرتفع ميكيل أنجلو بموضوعه إلى عالم آخر . فاذا كان كل ثنى وكل ظل وكل انحناء فى الحجر يصور الألم ، فليس المراد هنا ألم العذراء ولا تصوير مأساة بعينها ، و إنما البييتا التقليدية تعلة يتوسل بها إلى إنشاء صورة للألم فى أبعد أعماقه . وكذلك يرفع الفنان الشيخ ، وهو على حافة القبر ، يرفع قصة بعينها إلى حيث تصبح رمزاً إنسانياً ، فقد فهم المعنى الدقيق لحادثة بعينها . أعانته على هذا الفهم حياته بما ملأها من التجارب القاسية . ونحن نعلم أن هذا الوثنى الملحد قد صار فى آخر حياته إلى التصوف ، تدل على ذلك المقطوعة التى يهديها إلى صديقته الكبيرة فتوريا كوللونا **Vittoria Collona** التى تصور الايمان وتصور معه الأذعان للألم .

فاعراضه عن العناية بالتفصيل وازدراؤه لكل مذهب طبيعى ، ليس إلا نتيجة لتغير دقيق داخلى يلتمس لنفسه تعبيراً جديداً . وكذلك يتحقق الافتراق

بين مادة العالم الواقعى وطبيعة العالم الروحى ، ويصبح من غير المفيد تصوير الغلاف الخارجى . وللتعبير عن الفكرة يجب الاعراض عن كل اتجاه طبيعى والاتجاه إلى اختراع أسلوب جديد مجرد . ومن ناحية أخرى يجب أن يمتنع الفنان عن كل تعبير شخصى إذا أراد أن يصور فكرة عامة ، هنالك تظهر هذه الصورة المجردة العارية كأنما كشفت عن عمد لتشمل الفكرة البحتة ،والخلاصة الأخيرة لكل حياة إنسانية .

ونلاحظ الظاهرة نفسها عند رامبرانت . ولنختر بين آثاره التى استحدثها فى الشباب عودة الابن الضال . فقد أنشئت سنة ١٦٣٦ إذ كان الفنان فى الخامسة والعشرين من عمره . و إذ كان قد خلق الأثر خلقاً جديداً فى السنة التى مات فيها ، فقد نستطيع أن نقارن بين هذين الأثرين كما قارنا بين أثرى ميكيل أنجلو . فالصورة الأولى تطابق نص الكتاب المقدس مطابقة توشك أن تكون حرفية . وقد عرض المنظر فى أمانة وهو ممتلئ حياة ومرحا ودهشة . لقد حدث حدث خطير . أتعرفه ؟ لقد عاد الفتى . ونحن نسمع الجيران والخدم يتساءلون ، ونراهم يستبقون إلى النوافذ والأبواب لينظروا إلى هذا الذى كان يظن أن غيبته كانت منقطعة . وهو يصعد السلم ويدخل البيت القديم ، وعليه أسماله وفى يده عصاه المعقدة التى اعتمد عليها فى سفره الطويل . وهو يرى منزل الأسرة وجدرانه المتصدعة . وأبوه أمام الباب قائماً لاستقباله . يقص علينا رامبرانت هذا كله ويشركنا فيما يثير من الفرح والدهش واضطراب الأشخاص . لم يترك من ذلك شيئاً . وهو يعكف على كل تفصيل من كثير فى الحب حريصاً على ألا يفوته شئ ونحن نقرأ فى ملامح الوجوه وفى الثياب وفى الضوء ، ونمس الصدوع فى جدران الدار . وثروة من الأقاصيص تمد النظر الذى نريد أن نحيط به المنظر . ولهذه الثروة بيئتها المحدودة، فنحن نرى سعتها وحدودها بحيث نجد فى الصورة وصفاً أميناً كاملا .

ويعود رامبرانت إلى هذا الموضوع حين يبلغ الستين ، وهو شيخ فقير وحيد . يعود إلى هذا الموضوع فى آخر حياته التى أنفقها كلها فى إخلاص مطلق وفياً لنفسه ، يعود إليه بعد أن تناوله حين كان نشيطاً فى عنفوان الشباب . واللوحة التى تصور عودة الابن الضال ، والمحفوظة فى متحف الارميتاج بسان بطرسبرج ، مع صورته الأخيرة المحفوظة فى متحف ميونيخ ، تعد من أروع الآثار

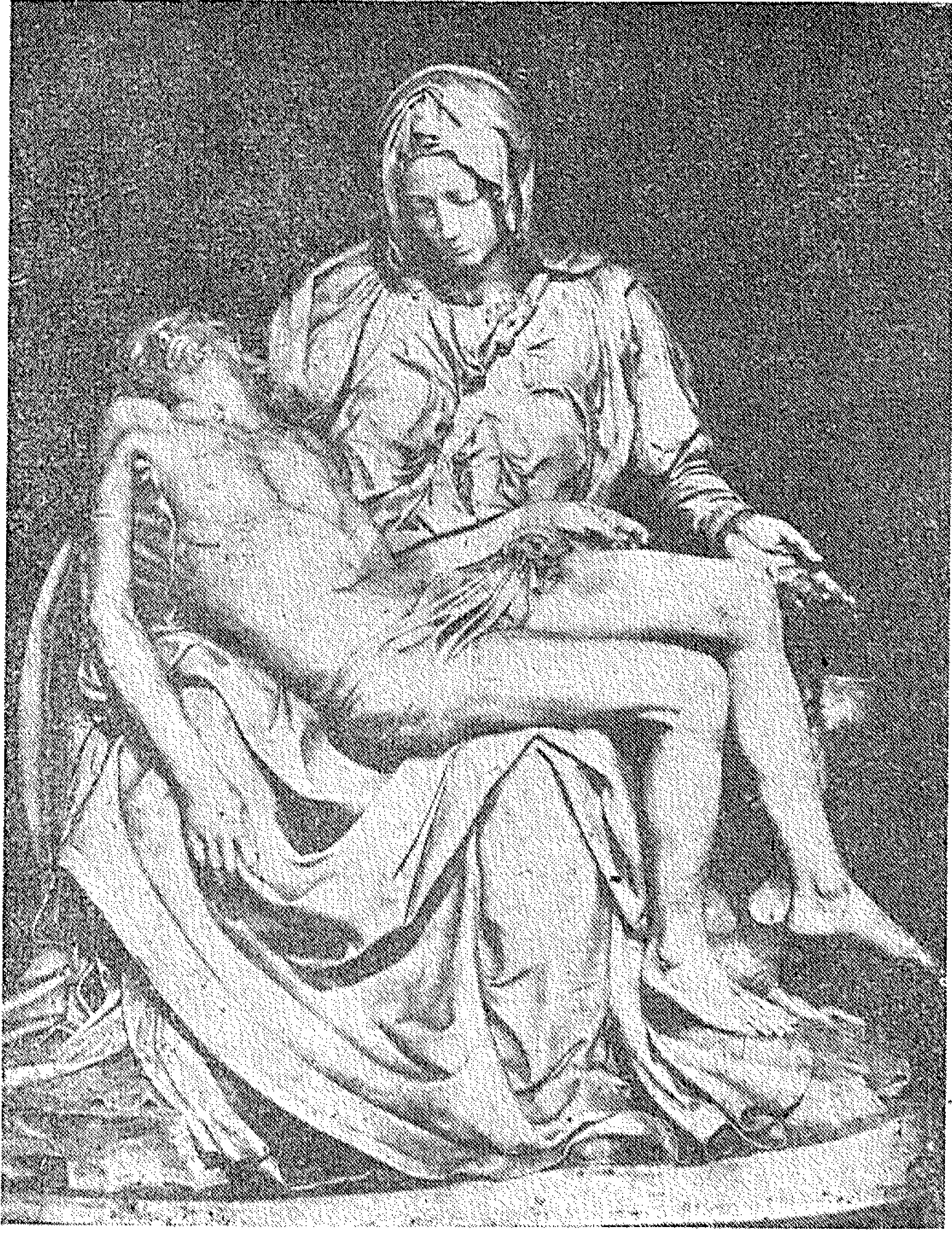
الفنية التي أهداها إلينا النبوغ . وقد بقي الموضوع كما كان ، ولكن طريقة التعبير وسعت المنظر الذي رواه الكتاب المقدس فجعلته صورة للعفو والفهم وما يضطر الانسان إليه من الوحدة والانفراد . وقد تغيرت البيئة تغيراً تاماً ، وتغير معها الجو . فلسنا أمام الدهش الأول والابتهاج بالعودة . وإنما اختار رامبرانت هذه اللحظة الرائعة التي يلتقي فيها الأب وابنه والتي تنتهي فيها المغامرة إلى غايتها . والمكان غامض غير واضح الأعلام فليس له خطر . إنما هي حجرة نتوهمها ويلمح لنا بجدرانها ومعالمها تلميحاً خفيفاً . كل شيء يغمره ظل كثيف مذهب ولكن الوجوه والأيدي التي تشرق بنور داخلي تنشئ في هذا الليل الشفاف من الظلال سمات واضحة . ليس في المنظر حركة عنيفة ولا اضطراب ملحوظ . والأشخاص قائمون صامتون في شيء من المهابة ، والأب قائم يرى مواجهة في الجانب الأيسر من اللوحة وابنه جاث بين يديه . وفي الجانب الأيمن رفاق شيوخ يشهدون في صمت رهيب وقوع حدث لانظير له . لايدار بينهم حديث ما ، فكل حديث في هذا الظرف لغو ، لأن الشيوخ يتفاهمون بغير اللفظ . وهذا الفهم يتجاوز تبادل المعاني بين الناس ويبلغ أعمق دخائل الضمير . وهو يؤدي بالحركة التي تصدر عن الأب وحده حين يضع يديه على كتفي ابنه معبراً بذلك عن عفو لا تحفظ فيه ، هذه الحركة التي توشك أن تقول : إني لأعلم أنك لم تكن تستطيع شيئاً ، فكلنا مضطر إلى هذه الحال . وهؤلاء الرجال الخمسة الصامتون الذين تلوح أشباحهم أكثر مما تظهر قد امتزجوا بالفضاء وقد غمرهم ظله المذهب حتى أنهم ليكونون معه شيئاً واحداً . لا يعملون شيئاً وإنما يخضعون كما يخضع الفضاء لقانون غامض لا سبيل إلى مخالفته ؛ فهم مذعنون لقضاء محتوم .

وكذلك يذهب رمبرانت في آخر حياته مذهب ميكل أنجلو فيعرض عن المذهب الطبيعي الدقيق في أسلوب شبابه ، ويترك ناحية الأقاصيص كما يترك كل استمتاع بالفن . كان في أول أمره قاصاً أميناً لحادث بعينه ، يعرضه في أدق تفصيل وفي طريقة موضوعية . كان في ذلك الوقت ثنائي الشخصية : يأتلف من الفنان والعالم الواقعي الذي لايشارك هو فيه ، وإنما هو يترجم عنه في صدق ، ويتحدث عنه حديث الغائب كما يتحدث القصاص عن أشخاص القصص . ويستطيع أن يدعونا كما يدعو القصاص قراءهم ليشعرنا بأنه يتحدث إلينا حديث المؤرخ . ولكن النابغتين حين يتناولان الموضوع نفسه في آخر حياتهما ، نلاحظ

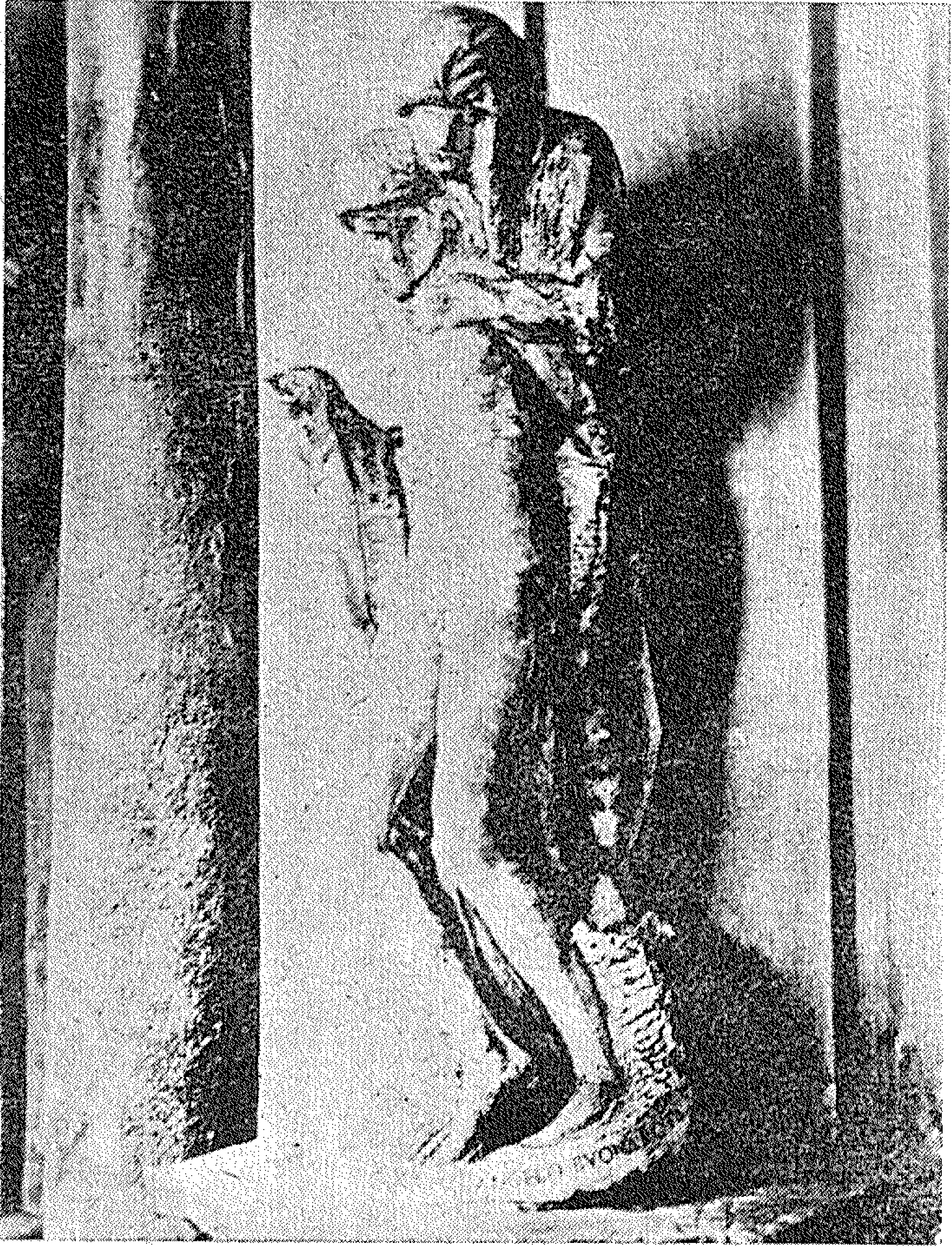
أن طريقتهما فى الانشاء تتغير تغيراً تاماً . وعلى ما بينهما من اختلاف فى الزمن يوشك أن يبلغ القرن ، ومن اختلاف فى الجنس ، فان هذا التغير يشعر بتحول واحد داخلى فى نفسيهما جميعاً . فليس واحد منهما يحاول أن يصور أو يقص نصاً من نصوص الكتاب المقدس . وهذا النص نفسه أليس رمزاً ؟ ولكن النابغتين فى طور الشباب لم يكونا ناضجين فى أكثر الظن ، أو لعلهما لم يحفلا بالرمز ، و إنما الذى كان يعنيهما هو الامكان التصويرى الذى كان النص المقدس يشتمل عليه . ولكن الزمن يمر ويتيح لها الفهم . وقد فقدت ظواهر الأشياء جاذبيتها ، وخلت حوادث المنظر نفسها من قيمها الأولى . وأصبح المهم الآن شيئاً آخر هو الفكرة العامة التى توحى بها الحوادث ، والذين تجرى الحوادث على أيديهم مهما تتابع القرون . فلسنا بازاء عودة الابن الضال كما أننا لسنا بازاء حزن العذراء . كل ذلك رمز ، وترجمته الموضوعية ترتفع إلى حيث تصبح حقيقة خالدة . أ كان الذين سطروا الكتاب المقدس شيوخاً كهؤلاء الذين يعطون الرمز معناه الحقيقى ؟

ونحن نجد عند رامبرانت فى شيخوخته ، كما وجدنا عند ميكل أنجلو ، هذه الآثار العارية التى لم يترك فيها مكان للمذهب الطبيعى ولا للتفصيل . ذلك أن الترجمة عن فكرة عامة وعن المأساة التى تتصل بحياة الانسان تحتاج إلى أسلوب مجرد . وكذلك نلاحظ التعارض بين الشباب والشيخوخة ، كما نلاحظ التعارض بين التركيب والتجريد .

ونستطيع أن نمضى فى هذا البحث ، وأن نمد السلسلة ، ونتبع هذه الآثار لنرى الحياة تعمل بنفسها ، فتنشئ الصلة الدقيقة بين الأثر والدم الذى يجرى فى عروق منشئه . ولسنا نريد أن نضع قانوناً دقيقاً ، ولكن الشئ الذى لا شك فيه أن هذا النجم الفريد الذى هو الفنان يبقى حتى فى آخر الآثار التى يتركها لنا . ولكن لا يوجد الفنان الذى يستطيع أن يفلت من هذا السيل الجارف الذى يكتسح كل شئ ويغمر كل شئ ، وهو الزمن . وأى تحول دقيق لا يظهره لنا تيزيانو Le Titien فى إحدى لوحاته الأخيرة ، وهى تصور موضوعاً محبباً إليه إمرأة عارية مستلقية ومعها عشيقها . وهو موضوع من موضوعات الأساطير تناوله الفنان غير مرة فى حياته الفنية الطويلة . أى سلم من سلالم الشعور



« البيتا » لميكل أنجلو (عام ١٤٩٩)



« الأم الثكلى » لميكل أنجلو (عام ١٥٧٠)

لم يعرض فى هذا الموضوع ؟ ولكن حين نقارن بين لوحة من أسلوبه فى أثناء الشباب ، وهى لوحة دنابيه[١] تحت الغيث الذهبى المحفوظة فى متحف فين ، مع لوحة من أسلوب الشيخوخة محفوظة فى المتحف نفسه « النامف [٢] والراعى » نلاحظ نفس التحول : فجسم المرأة واحد تقريباً فى اللوحتين اللتين تشتركان شيئاً ما فى لون مذهب ، ولكن دنابيه تستقبل الغيث الذهبى فى سرير العرس . فيخيل إلينا أننا نسمع هفيف الحرير اللامع ورنين القطع الذهبية وصيحة الدهش تدفعها الخادم المروعة . وكأننا نحس حرارة الجسم النقى ، و برد الذهب ، وكل هذه الجماعة من الاحساسات التى تتصل بالأذن واللمس والعين ، هذا النعيم النقى الذى تنقله إلينا هذه الأجسام الملساء الناعمة المعدنية التى تتكون من مواد متباينة ، حتى إن السحر ليداعب كل حواس الناظر إلى اللوحة . فاذا عاد تيزيانو بعد خمسين عاماً إلى هذا الموضوع الذى يؤثره احتفظ بمواده . فهى امرأة متجردة مستلقية و إلى جانبها عشيقها ، ولكن الجو يتغير تغيراً تاماً . فلسنا أمام الغرفة المترفة قد قام فيها السرير الواسع عليه كلة من القطيفة ، و إنما يقوم مقامها منظر من مناظر الأحلام : مغرب الشمس التى تلهب أشعتها الأخيرة السماء بحمرة قانية حيث ينشر الليل أستاره ، وشجرة جرداء ترفع عودها الملتوى ، وشىء حزين مروع كأنه الانتظار يضطرب فى الجو . والنامف ترى مستدبرة وهى تلتفت إلى الراعى وقد جلس عند قدميها . لقد لعب بالمزمار وأتم اللعب وهو يمسك المزمار فى يده . واللحن ما زال يضطرب فى الهواء . وفى هذا الصمت الكثيف تسمع المرأة ويسمع الرجل ، اللذين لم يبقيا عاشقين ، لشىء قد مضى .

أيجب أن نعيد ما قدمنا ؟ فان تيزيانو فى شيخوخته كغيره من الفنانين قد ترك إغراقه فى الاحساس ذلك الذى ينطق به كل مادة أثناء الشباب ، وترك كما ترك غيره كل القيم التى كانت تروق العين وتتملق الحواس . أين تألق الألوان ؟ أين المواد الغنية المتموجة ؟ لقد ابتكر جواً جديداً عارياً شديد الكثافة ، فأضفى عليه واقعية مخالفة تلك التى كانت تتجه إلى الحواس .

وفى عصرنا هذا تعرض سيزان للتجربة التى تعرض لها سابقوه . فنحن نعرف أسلوبه الشاذ العنيف فى آثار الشباب ، والألوان الحارة والحركات الملتوية ، وكل

(١) فتاة من فتيات الأساطير أحبها كبير الآلهة فتصور لها غيثا ذهبيا .

(٢) جيل من الالهات العذارى كان يعيش فى الماء والريف حسب الاساطير اليونانية .



« عودة الابن الضال » لرامبرانت (عام ١٦٣٦)



«عودة الابن الضال» لرامبرانت (نحو عام ١٦٦٨)

هذا الجو الحسى المثير الذى يصور الفنان يصارع شيطانه . ولكننا إذا قارنا آثاره الأولى مع آثاره التى ابتكرها بعد ذلك ، لاحظنا اختلافاً عظيماً يضطرنا أن نسأل أنفسنا أصدرت هذه الآثار المختلفة عن فنان واحد . وقد يصل سيزان أكثر من غيره بتخفيف الخصائص الطبيعية فى تصويره إلى درجة من التعرية والتجريد توشك أن تتجاوز طبيعة الانسان تجاوزاً تاماً . ومع أنه يحتفظ بالموضوع فان التصور لم يصل قط عند غيره إلى هذا الحد من التجريد . ولعل مصدر ذلك أن تصوره للواقع الطبيعى فى الطور الأول من حياته كان قوياً عنيفاً .

فاذا حاولنا أن نعرف أتنطبق هذه الملاحظة على فنون أخرى غير النحت والتصوير ، فقد نرى أن أسلوب جوته يمتاز فى شيخوخته بصفاء خاص . هذا النابغة الممتاز الذى تمتزج حياته وآثاره امتزاجاً تاماً دقيقاً قد وعى على التقريب مراحل حياته كلها . كان نموذجاً لطبيعة قوية متصلة أدق الاتصال بدور الحياة العالمية ، فكان نموه كأنما يعكس الأحوال والفصول التى تأتلف منها حياة الانسان . هذه الحياة الرائعة الصافية المتوازنة تعبر كل المشكلات وكل التجارب ملائمة فى ذلك بينها وبين ما يختلف عليها من الأطوار . وهى بحدتها وقوتها البالغة توشك أن تكون تصويراً دقيقاً لهذه الحال .

فحركة تفكير جوته تصدر عن حرارة دمه ونحن نرى الأطوار الثلاثة التى تأتلف منها حياة الانسان ، وهى الشباب والكهولة والشيخوخة ، ترتسم فى آثاره كما ترتسم فى تفكيره الفلسفى واضحة خلابة . وأكثر من هذا أن جوته قدفصل بين هذه الأطوار . وكما أنه أنشأ آثاره الفنية ، فهو قد أنشأ قصة حياته الرائعة نفسها . فهو فى شبابه متأثر بأنا كريون فى اندفاعه واضطراب عواطفه . وهو يختم هذا الطور بالذهاب إلى قصر ويمار . هنالك يصبح محافظاً بعد أن كان ثائراً متصوفاً ، وقد هدأت حياته واتخذت لنفسها غاية هى تنظيم دولة على نحو السياسة التى رسمها أفلاطون . وجوته فى هذا الطور وزير قبل كل شئ . فهو ينظر إلى الحياة من نواحيه المادية المركبة ، ونشاطه مقصور على مسائل عملية ، فهو معنى بتنظيم العلاقات بين الناس . ولكن هذا الطور الذى يحياه جوته فى قوة وعنف ينتهى إلى غايته ، ويدخل الكاتب فى الطور الأخير من أطواره . وفى هذا التنظيم الذى يهيئ نوعاً جديداً من الحياة ، ولكنه يبدأ بهدم الحياة الأولى ، نشهد أزمة خطيرة ، فكل شئ ينهار قبل أن يستقر توازن جديد . ونفس أعظم

الناس تصبح فريسة لزوبعة عاصفة تهدم كل القيم والآراء التى كانت مقررة إلى الآن . وهذه الأزمة التى تفصل بين هذين الطورين من حياة جوته هى أعنف الأزمات التى نعرف أنها عرضت له . ولأجل أن يحرر جوته نفسه، ينزع نفسه من كل شئ ومن كل إنسان . يتخلص من كل الصلات التى كانت تربطه بويمار ، صلات الصداقة وصلات الحب، ويلغى كل ما كان ادخر ، حتى إذا وجد الحرية سافر كأنه هارب يمضى أمامه حتى يعبر الألب . وكما أن سفره إلى ويمار قد بدأ طوراً جديداً من حياته ، فسفره إلى إيطاليا قد بدأ طوراً آخر . وفى الحق أنه فى ظل الطبيعة الايطالية الصافية قد أخذ يجمع بين استقصاء كل القيم . وبعد امتحانها وتعديلها يصل إلى توازن جديد، ويقف من مشكلات الحياة موقفاً جديداً، ويستحيل من وزير إلى عالم . وأصبحت المشكلة التى تشغل هذا الطور من حياته هى مشكلة المعرفة ، معرفة القوانين المستقرة فى الصور المختلفة وقوانين التناسق التى يقوم عليها العالم . وهو يعنى بعلم النبات ، وبالتشريح ، ويصل إلى نتائج تجعله ممهداً لأصحاب التطور ، وهذا النشاط هو الذى يميز طور هذه الأزمة فى حياته . وهو يعود إلى ويمار ولكن مظهره بعد هذه العودة يكسب شيئاً من الجلال الذى يمتاز به هذا الكلاسيكى الفذ . ثم هو يرقى بقوة نشاطه العجيب إلى قمة من العظمة والكمال حتى يصبح جوته الشيخ رمزاً كما كان جوته الشاب .

ومع ذلك فهو كغيره من النابغين الذين انتهوا إلى الشيخوخة يترك الاتجاه الطبيعى الحاد والأوصاف الدقيقة المضطربة التى تتجه إلى الحواس كلها — وقد كان جوته مصوراً — كما يترك استقصاء العالم الطبيعى وسرعة الحركة ، ويعنى مكان هذا كله بالتفسير والتعليل . وتتغير لغته التى كانت غنية بالصفات والأفعال، فتصبح كلفة بالأسماء المجردة. ويدل ذلك على تحول يشبه التحول الذى لاحظناه عند غيره من الفنانين . ومنذ ذلك الوقت يصبح المعنى الخالص أعظم خطراً عند جوته من الظواهر ، وتقل فى آثاره الأوصاف التى كانت أثناء الشباب تملأ إنتاجه تشويقاً . يقوم مقامها تأمل الحكيم . وهنالك تغير فى نظره إلى نفسه . فألمه ولذته لم يبقيا إحساساً حياً ناشئاً عن حادث معين ، وإنما تتسع الأحداث وتعظم حتى تصبح فكرة عامة تحدث آثارها فى أعماق نفسه . وقد تستحيل الصور إلى شئ من الروحية يقوى من يوم إلى يوم حتى يصبح فى هذا الطور من أطواره رمزاً عقلياً لا حقيقة واقعة .

وهاتان المقطوعتان اللتان نريد أن نوازن بينهما قد صورتا عن حادث واحد محزن . فهما مرثيتان يبكى فيهما شخصاً عزيزاً . والموازنة بينهما تظهر التحول الذى كنا نترقبه . فأما الأول فيرثى فيها ممثلة شابة ، وأما الثانية فيرثى فيها صديقه شيلر . ففى المقطوعة الأولى يستحضر جوته صورة الفقيدة العزيزة : سحرها وجمالها وتفوقها . وهو يبكى فقدها ، ويرثى للذين لن يجدوا عنها عزاء . وأما مقطوعة شيلر فتبتدئ باستحضار نبوغ الفقيد . وبينما رثاء الممثلة يصور شخصية الشاعر والذكرى التى استبقاها ، نرى رثاء شيلر ، وهو أبلغ أثراً ، يرتفع إلى أسلوب مثير ولكنه لا شخصية فيه . وهو لا يشيد بملامح شيلر ولا بخصائصه المميزة له ، وإنما يشيد بالخصال التى جعلت منه مثالياً ممتازاً . فيصبح شيلر مشخصاً للرجل الكامل النبيل ، ففقده يسوء الانسانية كلها لأنها تفقد فيه رمزاً للنقاء . ثم يمضى الرثاء إلى لون آخر من الحزن ، فيندب قصر الحياة وسوء مصير الانسان ، ويصبح موت شيلر رمزاً للمأساة الانسانية كلها .

أنضيف كذلك قبل أن نختم هذا الحديث شيئاً عن الأسلوبين المختلفين على تخصصهما اللذين يعرف بهما بتهوفن ؟ أنقابل بين هذه الموضوعات الانسانية الحادة الحارة مع خصائصها الشكلية وتناسقها الفنى فى اعتدال ونقاء ، وبين هذا التفوق الممتاز الذى يتصف به أسلوبه المجرد فى شيخوخته ؟ وأسلوبا تولستوى ؟ أنوازن بين قصة « القوزاق » هذا الأثر القوى العنيف وبين قصة « البعث » حيث يظهر الايمان المسيحى للتائب العظيم حتى فى عنوان القصة ؟ لقد كنا نريد بعض الأمثلة ونظن أن ما قدمناه يسمح لنا بالانتهاء إلى النتيجة : وهى أن هناك مؤثراً حيوياً يتصل بطبيعة المنشئ نفسه ، ويجب أن يضاف إلى قوانين الانتاج الفنى على ما فيها من التواء وتعقيد . ونحن نعلم أن مزاج الفنان وطبيعته قد لا يلائمان الأساليب المقررة ، بل قد يكون بينها وبينهما تعارض وتناقض ، وهنالك يمتنع الذوق العام على أثر الفنان ويقاومه حتى يتم لهذا الذوق العام نضجه. ولكن إلى جانب هذه الظاهرة التى تصور لنا حركة الزمان توجد ظاهرة أخرى تتحقق فى كل حال وفى كل فرد على حدة. فمهما يكن مكان الفنان وزمانه ، فهو إنسان من لحم ودم له قلقه ومطامعه . فاذا تقدم الانسان إلى آخرته وهم أن يصور مأساته فى صورها الأخيرة ، تضاءل تأثير الزمان والمكان والبيئة الاجتماعية. كان عالم شبابه مفعما بما كانت حواسه تحمل إليه من اللذات

والآلام ، كان صاخباً مندفعاً وكان حبه للاستطلاع يدفعه إلى التحليل . فأسلوبه كله يصور هذه الخصائص . ولكن وقتاً يأتى يفلت فيه الفنان من كل هذه الحدود بحيث تصبح آثاره الأخيرة ، على احتفاظها بنفس الخصائص التى امتازت بها آثار الشباب ، صورة لهذا الطور الذى يفرغ فيه الفنان بعد حياة العناء والجد والاستمتاع ، للتفكير والتأمل والتجريد . فيستكشف وراء الظواهر حقائق المأساة الانسانية التى لا مخرج منها إلا الايمان .

وكذلك يسيطر توقيت الحياة ويصبح الأثر الأخير من آثار الفنان معبرا فى هدوء وأناة عن هذه الشهادة الفنية الانسانية التى يسجلها المبتكرون .

هيلدبر زالوشر

الدكتور على ابراهيم باشا

كان أول عهدى به منذ أكثر من ربع قرن حين جلست منه مجلس الطالب المبتدئ من أستاذه الضخم ، حيث يباح للطالب أن يسرف فى الاعجاب باستاذه ؛ وآخر عهدى به قبيل وفاته بساعات حين جلست منه مجلس الصديق أشير عليه بما يخفف عنه بعض ألمه . فما كان حبى له وتقديرى إياه فى العهد الأول بأكثر منه فى العهد الأخير ، ولم يزدنى طول خبرتى به إلا إعجاباً . ومن الناس من تراه أعظم مايكون عن بعد، تتضاءل معه هفوات الرجال، ومنهم من لاتتبين طيب معدنه إلا عن قرب . وكان على ابراهيم فى كلتا الحالين موضع إجلال أقرب الناس إليه وأبعد الناس عنه .

ولعلى لا أجد وصفاً له أكثر دلالة عليه من أنه كان بناء ، فقد شيد كثيراً وكأنما عاهد على أن لا يترك شيئاً مما تفخر به البلاد الحديثة إلا أنشأ له شبيهاً فى مصر . وكان يرى أن ينشئ أولا وأن يترك للتطور الطبيعى أن يتم ما أنشأ . وقد عيب عليه ذلك ، ولكنه لم يكن يؤمن بالطفرة . وكان يرى أن الأمور يجب أن تبدأ صغيرة ، وأن علينا أن نبدأوعلى الزمن أن يستكمل النقص . وكانت فيه صفات تدق على غير البنائين ، فكان يضع نصب عينيه غايته لا يحيد عنها لأى أمر من الأمور ، وكان يرى أن الانشاء أهم كثيراً من المبادئ والنظريات . وكان أقدر الناس على التدبير الممتد لا تزعجه العقبات ؛ فان لم يستطع تذليلها احتال لها حتى لا تقف دون غايته ، و إن بعدت . فهو مثل حىّ لنوع من العقليات العملية التى لم ينتج الشرق منها الكثيرين إلا أخيراً ، وأنموذجاً للتفكير الموضوعى البحت الذى اعتاد الناس أن يروه أكثر ما يكون فى الأمم الشمالية ، حتى كاد يعدّ صفتهم الأولى .

وأكبر ماشيد على ابراهيم فى مصر الطب الحديث؛ فكلنا مدينون له بما هيأ لنا من وسائل إتقان ذلك العلم . ولكنا اهتدينا بهديه واحتذينا طريقته ، ولم يكن

له هو مثال يحتذيه ، بل اختط لنفسه سبيلا مبتكراً وحملنا عليه ، فلم يشذ أحد منا عنه حتى الآن . ثم أحكم صلتنا بالعلماء الغربيين ومهد السبيل للكثيرين منا حتى لا نقل عن هؤلاء علماً وعملا ، وحبانا بكل ما أوتى من وسائل التشجيع ، وضرب لنا مثلا حياً لما يجب أن تكون عليه صلاتنا بهؤلاء العلماء . فقد كان أحب الناس إلى كبار الجراحين العالميين لما شاهدوه من علمه وفنه وحدبه على رقى الطب والأطباء . وله الفضل الأول أن أصبح الطب فى مصر مصرياً .

وهو عندنا جراح قبل كل شئ ، وجراحته صورة من نفسه . فكانت طريقته فى الجراحة طريقة الفنان : كل عملية له عملا فنياً جميلا . وكان يكره أن تلهيه صغار الأمور عن كبارها ، وكان لا يريد السرعة و إن كان سريعاً ، ولا يريد أن يدل على المهارة و إن كان ماهراً ، ولا يتوخى إلا الوصول إلى غايته من أسهل الطرق . وعنى عناية خاصة بجراحة البلاد الحارة ، وله فيها مبتكرات لم تزل عندنا المرجع الأكبر لهذه الأمراض .

وكلية الطب كلها من إنشائه . وعهدى بها وهى صغيرة مبانيها ، ضئيلة معاملها ، فقيرة فى الرجال والمال . وهى اليوم من أكبر المؤسسات ، ومعاملها ضخمة ، ورجال العلم فيها عديدون ، و إنتاجها كثير . ثم أنشأ الجمعية الطبية ورأسها طول حياته . وبنى دار الحكمة وأنشأ مجلتها وجعلها ندوة الأطباء . ثم أحكم الصلة بينها وبين البلاد العربية ، فأصبحت مؤتمراتها حدثاً علمياً لا يعدله حدث آخر فى الشرق الأدنى كله . ثم أنشأ نقابة الأطباء وبذل فى ذلك جهداً مضنياً . وقامت دونه عقبات كبرى مدى عشرات السنين ، فلم يهن له عزم ، وساوم الهيئات المناوئة له كثيراً حتى تم له ما أراد من تنظيم طائفته ، وكانت من أعز أمانيه عليه .

ثم وجه همه إلى النواحى العلمية الأخرى ، وانتخب عضواً فى أكثر المجامع العلمية فى مصر . وكان له النصيب الأكبر فى تكوين الجامعة ، وكان يعدها عمله الأول . وكان حريصاً على أن لا يقف دون رقيها شئ ، ولم يبخل عليها يوماً بجهد أو مال ، وما زال بها حتى أصبحت ما هى عليه الآن . وكان فخوراً بها غاية الفخر . وله النصيب الأكبر فى الدعوة إلى إنشاء جامعة فاروق وتكوينها ، ولو امتدت به الحياة لدعى إلى جامعة أسيوط .

ثم شغل بالحياة الاجتماعية ، ورأس عدة مشروعات غايتها الاصلاح

الاجتماعى . وكان رأيه فى ذلك أن أى عمل ، و إن قل ، فهو كسب لبلاد لم تعهد من قبل عناية بالأمور الاجتماعية ، و إن إحياء الوعى الاجتماعى أمر يجب أن نعنى به جميعاً . فهذه المؤسسات الصغيرة لها دلالة كبرى ، وأثر يفوق كثيراً ما تؤديه من خدمات .

أما المؤسسات الكبرى التى رأسها فأهمها جمعية الهلال الأحمر . وأول صلته بها حين كان جراحاً موفداً من قبلها مع بعثة كبيرة إلى تركيا فى حرب البلقان ، ولم تنقطع صلته بها حتى أصبح لها رئيساً ، فأحياها وأصبحت من مؤسسات القطر الناجحة نجاحاً تاماً . ولم تكن هناك مؤسسة اجتماعية لها صلة بالطب إلا وهو رأسها المدبر : فقد حمل عبء مستشفى الجمعية الخيرية الاسلامية إلى أن قامت الحرب ، وساهم فى إدارة جمعية الاسعاف .

هذا ماخدم به الطب والعلم والاجتماع ، أما مانحن مدينون له به شخصياً فكثير جداً . وليس فى مصر طبيب لم يجد فيه الصديق الأوفى والأب الناصح ، وليس منا من لم يلجأ إليه فى شدة ، فوجد منه العطف والنصح السديد . وكنا جميعاً نعلم حين يجد الجد أن عنده الرأى الأسدّ .

وكان فوق ذلك الصديق المرح الذى تتلقفه المجالس لظرف حديثه وسرعة بديهته ، حاضر النكتة ، وكان أسرع الناس تفكيراً وأخصبهم ذهناً فى غير عنف ، تواتيه الآراء الصائبة فى غير جلد ولاعناء . وكانت نفسه كريمة صافية من كل ما يشوب صغار الناس ، خالية مما اصطلح الناس على تسميته العقد النفسية . وكان همه أن ينتج وأن يقوم بما يستطيع من خير ما دام له إليه سبيل .

أما الناحية الأخرى من حياته فهى حبه للفنون الاسلامية ، فقد جمع من السجاجيد القديمة والخزف القديم مايعد من خير المجموعات التى لدى الأفراد ، وكانت مصدر سرور له فى حياته وموضع شكواه فى مرضه الطويل ، ولم يكن فى مصر معرض فنى إلا وله فيه نصيب كبير .

وليس ذلك كل ما يقال عن أعماله ، فهى كثيرة يقصر دونها الحصر ، وفى بعضها ما يكفى أن يضعه فى الطبقة الأولى ممن خدموا بلادهم خدمات ستبقى على الزمن عنوان نهضتها وأساساً ثابتاً لرقيها .

محمد كامل حسين
أستاذ الجراحة بكلية الطب

مصطفى عبد الرازق

كان أحب شئ إليه المهل ، وأبغض شئ إليه السرع . كان مستأنياً إذا قال ، مستأنياً إذا فكر ، مستأنياً إذا عمل ، مستأنياً إذا سعى . وكان يؤثر بيتين من شعر أبي العلاء في رثاء أبيه ويكثر إنشادهما ، ولعله كان يفضلهما على شعر أبي العلاء كله ، وهما قوله :

فيا ليت شعرى هل يخفّ وقاره   إذا صار أحدٌ فى القيامة كالعهن
وهل يرد الحوض الروىَّ مبادراً   مع الناس أم يخشى الزحام فيستأنى

ذلك إلى أنه كان وقور العقل والقلب والجسم ، وكنا نعرف منه ذلك ونداعبه به ونتندر بوصوله متأخراً فى كل موعد . وكنا إذا ارتبطنا معه بموعد أواجتماع قدرنا دائماً أنه سيصل متأخراً دقائق تكثر أوتقل . ليس لهذا كله مصدر إلا أنه كان مستأنى الطبع لا يحب العجلة فى شئ . وقد كان لهذه الأناة أثر بعيد فى حياته كلها ، فكان أقل الناس تورطاً فى خطأ لفظى أو عملى ؛ لأنه لم يكن يتكلم إلا عن تفكير ، ولم يكن يعمل إلا عن روية ، ولم يكن يحكم إلا عن بصيرة .

ويمكن أن نلاحظ أثر هذه الأناة فى صلاته بالناس . فما أعرف أن أحداً شكا منه أو أضمر له شرًّا أو احتفظ له فى نفسه بموجدة أو ضغينة ؛ لأنه كان مكفوف الأذى عن الناس جميعاً ، مبسوط الخير للناس جميعاً . وأكثر ما يسئ بعض الناس إلى بعض حين يعجلون فى الرأى والقول والعمل . ولم يكن يعجل فى شئ من هذا ؛ فلم يكن يسئ إلى أحد . وقد كان الناس يعجلون عليه فيلقونه بالكلمة النابية أحياناً ، ولكنه كان يعرف كيف يستأنى بهم ويحلم عليهم ويردهم إلى الحياء منه بل إلى الحياء من أنفسهم قبل أن يستحوا منه . وفى الطبيعة الانسانية شر كثير ؛ فقد كان بعض الناس يكيدون لهذا الرجل الذى برئت نفسه من الكيد ، ولكنه كان من طهارة القلب وصفاء النفس ونقاء

الضمير بحيث لا يؤذيه كيد الكائدين ، أو قل بحيث لا يبلغه كيد الكائدين . كان يرتفع عن الصغائر كلها ، وأى شئ أصغر من الكيد ! كانت صلاته بالناس كلها صفواً . وكان هذا الصفو يأتى منه أكثر مما يأتى من الناس ؛ وكان هذا الصفو يأتى منه لأنه كان يستأنى بالناس دائماً ولا يعجل عليهم فى شئ .

وأذكر أنه فى ذات عام من الأعوام تعرض لبعض الشر فى منصبه الذى كان يشغله بوزارة العدل ، فلم يعجل ولم يسرف على نفسه ولا على أحد بقول أو عمل ، و إنما ابتسم للمكروه حين أقبل عليه ، وابتسم للمكروه حين أدبر عنه ، ولم يصرفه هذا المكروه لحظة عن حياته النقية الصافية ، وصلاته الأبية الكريمة بالناس .

كان ثروت باشا رئيساً للحكومة، وكان الخلاف عنيفاً بين الحكومة والوفد ، وكان سعد بعيداً عن مصر فى منفاه فى أقصى الشرق أو فى أقصى الغرب، لا أذكر، وكانت أسرة مصطفى عبد الرازق مؤيدة للحكومة مخاصمة للوفد ، ولكن صلات قديمة كانت تصل بين سعد وبين أسرة عبد الرازق ، فلم تستطع الخصومة على عنفها أن تبلغ هذه الصلات فى قلب هذا الصديق الكريم . وقرأ الناس فى الصحف ذات يوم أن مصطفى عبد الرازق مر بدار سعد وترك بطاقته لمناسبة عيد من الأعياد ، فلم ينكر أصدقاء مصطفى من ذلك شيئاً . ولكن أيام العيد تنقضى ويستأنف مصطفى عمله فى وزارة العدل . و إنه لفى ذلك و إذا الوزير يدعوه فيسأله : أفى الحق أنك ذهبت إلى دار سعد ؟ قال مصطفى : نعم . قال الوزير : أتعلم أنك موظف ، وأن الموظفين لا ينبغى أن يسعوا إلى الدار التى تخاصم فيها الحكومة ؟ قال مصطفى : لا أعلم إلا أن بينى وبين سعد صلات مودة قديمة ، وأن أيسر الوفاء لهذا الود يفرض علىّ أن أمر بداره أيام العيد . قال الوزير : فانك منقول إلى أسيوط . فلم يزد مصطفى على أن ابتسم وانصرف .

وكان ثروت باشا غائباً عن القاهرة ، فلما عاد وصل إليه النبأ، فتقدم إلى وزير العدل فى أن يلغى هذا الأمر السخيف ؛ لأن ثروت باشا كان كمصطفى عبد الرازق يقدر صلات المودة بين الناس ، ويعلم أن لهذه الصلات حقوقاً لا يقصر فيها الرجل الكريم .

وأشهد لقد سمعت ثروت باشا يقول متضاحكا: سامح الله وزير العدل ! يريد أن يعاقب رجلا على مروءته .

وقد مضى مصطفى على هذه السيرة حياته كلها ، لم تعجله السياسة ولم تعجله

المنافع الخاصة ، ولم تعجله الظروف مهما تكن عن رعاية الحقوق كما ينبغى أن ترعى ، وعن الوفاء للناس كما ينبغى أن يكون الوفاء .

كان خلقه يرفعه عن الصغائر حتى ينزله منازل النجوم . وكان خلقه يهبط به إلى حيث حاجات الناس وآلامهم ومصالحهم ذات الخطر وغير ذات الخطر . فلم أر رجلا كان أرفع منه نفساً وأشد منه تواضعاً فى وقت واحد . وهل يكون التواضع إلا لأصحاب النفوس الرفيعة !

إن الذين يألمون لفقد مصطفى من أهله وذوى خاصته ومودته من الأصدقاء الأقربين ومن الذين وصلت بينه وبينهم شؤون الحياة الاجتماعية لقليلون جداً بالقياس إلى هؤلاء الناس الكثيرين الذين لا يعرفهم أحد أو لا يكاد يعرفهم أحد ، والذين كان مصطفى يتلقاهم كما كان يتلقى أرفع الناس قدراً ، ويسعى إليهم كما كان يسعى إلى أرفع الناس قدراً ، ويرفق بهم كما كان يرفق بأقرب الناس إليه وآثرهم عنده ؛ لا يتكلف ذلك ولا يشق على نفسه به ، وإنما يراه شيئاً طبيعيا لا يحتاج إلى جهد أو عناء . كان يصنع ذلك حين كان طالباً فى الأزهر ، يسمر إذا أقبل الليل مع أرفع المصريين مكاناً فى داره ، ويسعى إذا أقبل النهار مع الطلاب من جميع الطبقات ، يسعى بينهم كواحد منهم لا يجدون منه كبراً ولا شيئاً يشبه الكبر . وكان يصنع ذلك بعد أن أصبح عالماً من العلماء وأستاذاً فى مدرسة القضاء . وكان يصنع ذلك طالباً فى أوربا مع رفاقه من المصريين والفرنسيين جميعاً قبل أن تثار الحرب الأولى وبعد أن أثيرت . وكان يصنع ذلك بعد أن عاد من أوربا وقد شغل المناصب المختلفة فى الأزهر ووزارة العدل وفى الجامعة بنوع خاص ، فى الجامعة حيث يسعى الفقر والغنى مصطحبين ، يظهر الغنى نفسه فى كثير من القحة، ويخفى الفقر نفسه فى كثير من الحياء. فى الجامعة حيث يذهب بعض الطلاب فى السيارات وإن قربت الدار ، وحيث يذهب بعضهم سعياً على الأقدام وإن بعدت الدار . فى الجامعة حيث تؤدى قلة قليلة أجور الدرس عن سعة ، وحيث تشقى كثرة كثيرة بالعجز عن أداء هذه الأجور . فى الجامعة لا يكون الأستاذ الصالح أستاذاً صالحاً لأنه يلقى الدرس على وجهه ويعلم الشباب كما ينبغى أن يتعلموا فحسب ، وإنما يكون الأستاذ الصالح أستاذاً صالحاً حين يتفقد شؤون هؤلاء الشباب فى أناة وخفة ورفق ، وحين يعلم من خفى أمرهم ما يعلم ، فيصلحه بالحب والعطف والعون الذى لا يصدر عن تفضل ولا عن

تطول ، و إنما يصدر عن محبة ومودة ، لا يكاد يشعر به من يبذله ، ولا يكاد يشعر به من يتلقاه .

وأشهد لقد كان مصطفى أصلح الأساتذة جميعاً فى كلية الآداب من هذه الناحية التى لا يكون الأستاذ أستاذاً إلا بها .

هذا بعض آثار الأناة فى الصلات بين مصطفى وبين الناس . ولكن للأناة آثاراً أخرى فى حياته الخاصة ، فى حياة مصطفى الأديب الذى لم يكن يحب التعجل بما يكتب ولا بما يقول ، و إنما كان يختار اللفظ ويلائم بينه وبين المعنى ، يبذل فى ذلك أعنف الجهد وأقساه ، يخلو إلى ذلك حين يتفرق عنه الناس أى حين يتقدم الليل . يقتطع لذلك من وقت راحته ومن الوقت الذى كان ينبغى أن يختص به نفسه وأهله . يحكم المعنى ، ويحكم اختيار اللفظ لهذا المعنى ، ولا يكفيه ذلك حتى يلائم بين اللفظ واللفظ وبين المعنى والمعنى ، وحتى يخرج القطعة الأدبية كأنها قطعة الحلى قد صيغت كأحسن ما يصاغ الحلى على أدق أصول الفن وقواعده . وما أعرف أن أديباً معاصراً أتيحت له الاجادة الفنية كما أتيحت لمصطفى ، ومصدر ذلك أنه كان يستأنى بانتاجه ، ولا يعجل به .

وللأناة أثرها البالغ فى حياة مصطفى الأستاذ ، وفى حياة مصطفى الباحث ؛ فلم يكن يحب أن يتعجل بالدرس قبل أن يتقن إعداده كأحسن ما يكون الاتقان، ولم يكن يحب أن يتعجل تلاميذه بالفهم عنه ، و إنما كان يأخذهم بالأناة فى القراءة وفى الفهم وفى التفسير كما كان يأخذ نفسه بها . ومن أجل هذا كان له تلاميذ بأدق معانى هذه الكلمة بين الشباب الجامعيين . وكان يستأنى ببحثه عن أى مسألة من مسائل العلم ، يستقصى ما وسعه الاستقصاء ، ويحلل ما وجد إلى التحليل سبيلا ، ويقلب النص على كل وجه من وجوه التقليب ، ولا يتعجل بعد ذلك باصدار الحكم ، و إنما يضع أمامك النصوص ويعينك على فهمها واستخراج الحقائق منها .

ومن أجل هذه الأناة كان مصطفى أديباً مقلا ، وعالماً مقلا . وربّ قليل خير من كثير .

لست أدرى أفرغ الناس من هذا الحزن العنيف الذى يصدم النفوس فيمنعها من التفكير والتأمل . وأكبر الظن أنهم لن يفرغوا من هذا الحزن العنيف على فقد مصطفى قبل وقت طويل جدًّا . ولكن الشئ الذى أحققه هو أن الحزن

العنيف على فقده يمنعهم الآن من تقدير النكبة فيه . إنها نكبة فى الخلق ؛ فقد كان مصطفى آية فى الخلق الكريم . وما أقل الآيات فى الأخلاق ! إنها نكبة فى الأدب ؛ وقد كان مصطفى مؤمنا بكرامة الانتاج الأدبى . وما أقل المؤمنين بكرامة الأدب ! إنها نكبة فى العلم ، فقد كان مصطفى أعرف الناس بحقوق العلم على العلماء . وما أقل العلماء الذين يعرفون ما للعلم عليهم من حقوق ! إنها نكبة فى الاصلاح بأوسع معانى الاصلاح ؛ فقد كان مصطفى أحسن خليفة ممكن للأستاذ الإمام ، ورث عنه علمه وطموحه إلى الخير ، وأضاف إلى هذا التراث من العلم بالحضارة الحديثة شيئاً كثيراً . وأتيح له منذ تولى أمر الأزهر مالم يتح لأستاذه من السلطان . فكان خليقاً أن يمضى بالاصلاح الدينى والعلمى والخلقى فى البيئة الأزهرية إلى أبعد الغايات . وأشهد لقد كان يعمل لذلك جادًّا ، ولكن فى أناة ورفق .

رحم الله مصطفى ! وأعزز علىَّ بأن أملى هذا الدعاء . رحم الله مصطفى ! لقد كانت الأناة أخص صفاته ، ولكن الأناة ليست من صفات الموت . ليت الموت استأنى بمصطفى ليتم ما يسر له من الخير . ولكن الموت لايستأنى بأحد . وربما كان أبغض شىء إلى الموت أن يستأنى بالأخيار من الناس .

طه حسين

من هنا وهنالك

كلمة عن آدم بيد وقطعة مختارة منها

جورج إليوت هو اسم القلم الذى أطلقته مارى آن إيفانس على نفسها . وقد ولدت الكاتبة فى أكسبورى عام ١٨١٩ وعاشت فى تلك الناحية ثلاثين عاماً .

ويقول هربرت سبنسر — فى سذاجة العلماء — إنه فكر فى الزواج من جورج إليوت ، ولكنه لم يفعل ذلك لأنه يرى أن المرأة يجب أن تكون على شئ من الملاحة والوسامة .

واتصلت حياتها بحياة فيلسوف آخر من أصحاب المزاج البوهيمى ، هو جورج هنرى لويس ، وعاشت معه إلى أن مات . ثم تزوجت بعد ذلك رجلا آخر .

وقد تكون قصة « آدم بيد » أو إن شئت فقل قصة هيتى سوريل أحسن ما خطه يراعها . وهى قصة تمت إلى الواقع فى بعض أجزائها . وهى تذكر القارئ بقصة مرجريت فى رواية « فاوست » وهى فتاة ساذجة خلبت لبها المظاهر وخدعتها ، فأودت بها وأسلمتها إلى اليأس وإلى العيش المرير وإلى العذاب .

وإن آدم ذلك الرجل الشريف الصعب القيادة ، والفنان الجليل الخطر ، قد اتخذ هيتى بنت أخت المزارع بويزر ، صديقة له وخليلة . ولكنهما تقاطعا وتدابرا عند ما مالت إلى الكابتن آرثر دونتهورن ومال إليها . وكان هذا شاباً حسن الصورة لطيف الخلق وسيم القسمات .

وفى رواية « آدم بيد » أشخاص غير هؤلاء يقومون بأدوار مهمة . والرواية ملأى بالتيارات المتعارضة ، ومشاكل الحياة المعقدة . وكذلك هى ملأى بومضات من الفكاهة مما يجعل هذه الرواية أثراً أدبياً له جلاله وله خطره .

وإليك الصورة التى رسمتها الكاتبة للعالم الذى كانت تعيش فيه هيتى سوريل :

لقد اعتادت هيتى التوهم أن الناس يحبون النظر إليها ، وهى لم تكن غافلة عن أن لوك بريتون قد جاء من بلده إلى بلدها ودخل الكنيسة فى أصيل يوم الأحد على أمل أن يراها ،

وأنه قد كان من الممكن أن يفسح المجال لآماله فى حبها لو لم يصده خالها . ولو لم يوص هذا الخال امرأته بألا تبدى له أى لون من ألوان المجاملة .

وكانت هيتى تعلم كذلك أن مستر كريج الجنائنى كان مدلها فى حبها ، وقد أقام الدليل الذى لا ينقض على حبه بما كان يرسله من هدايا التوت المفرط فى الحلاوة .

وكانت هيتى تعلم أكثر من ذلك أن خالها كان يسره أن يرى آدم بيد كل ليلة ، وكان يقول عنه : إن آدم على علم بطبيعة الأشياء أكثر من أولئك الذين يظنون أنهم أكثر منه دراية ومعرفة .

وكانت هى تعرف أن آدم هذا الذى كان دائماً مقطب الوجه والذى لم يكن يعرف كيف يجرى وراء الفتيات يخفق قلبه لو أنها نظرت إليه أو كلمته .

وكانت تعرف أن آدم هذا قد يكون شيئاً مذكوراً إذا قيس إلى أهل الضاحية من الفلاحين .

وكانت تعلم علم اليقين أن عمها يريد أن يشجع آدم وأنه يسره أن تتزوجه .

وفى تلك السنين لم تكن هناك حدود بينة المعالم تقوم بين الفلاح والمزارع وبين الفنان . وهناك فى المنزل بجوار الموقد كانا يلتقيان ، كما كانا يلتقيان فى الحانة حيث كانا يراهما الراءون يشربان كوباً من البيرة معاً.

ولم يكن مارتن بويزر من رواد الحانات ، وكان يفضل أن ينعم بالحديث مع صاحب من أصحابه وهما يشربان كوباً من البيرة المصنوعة فى البيت .

وكان من دواعى سروره أن يفسر القانون لجار جاهل لا يعرف كيف يدير أمر غيطه . وكذلك كان من دواعى غبطته أن يتعلم شيئاً من رجل ذكى كآدم بيد .

ولذلك ظل آدم بيد ثلاث سنوات يلقى كل ترحيب بين أفراد أسرة مارتن بويزر ، وبخاصة فى ليالى الشتاء حيث كانت تجتمع الأسرة كلها : السيد والسيدة والأطفال والخدم فى غرفة المطبخ الواسعة الأرجاء وهم من النار المتقدة على أبعاد متناسقة .

وقد اعتادت هيتى فى السنتين الأخيرتين على الأقل أن تسمع خالها يقول :

قد يكون آدم بيد يعمل الآن من أجل الأجر ، ولكنه سوف يكون سيداً وجيهاً يوماً ما . وإنى على ثقة من هذا الأمر كثقتى بأنى جالس على هذا الكرسى الآن. ثم أضاف إلى ذلك قوله:

إن مستر برج لعلى صواب فى رغبته مشاركته وفى ترويجه بنته إذا صح ما يقولون ؛ فانه صفقة رابحة لمن تتزوجه . وكانت امرأته تقول كلما سمعت هذا القول : آمين . . .

ولقد كان من المحتمل أن تنظر هى وزوجها إلى هذه المسألة نظرة تختلف عن هذه النظرة لو كانت هيتى بنتهما ، ولكنهما كانا يرحبان بتزويج آدم من بنت أخت لها لا تملك درهماً .

ومن كانت تكون تلك الفتاة فى مكان آخر غير خادمة، لولا أن اجتباها خالها ورباها لتكون لخالتها عوناً فى خدمة المنزل .

ولكن آدم بيد لم يلق يوماً من الفتاة هيتى شيئاً من التشجيع ، بل لم تكن تفكر فى أن تقبله زوجاً ، حتى فى الساعات التى كانت فيها تحس بتفوقه على الآخرين المعجبين بها .

وكان يلذ لها أن تحس أن هذا الرجل القوى الماهر فى صناعته هو طوع بنانها ، وأنه سوف يكون موضع سخطها لو أبدى أى ميل للتخلص من سطوة طغيانها ، ذلك الطغيان الذى يبعثه الدلال . وكذلك لو أبدى ميله لأن يصل حبله بحبال مارى برج اللطيفة الظريفة التى كانت تتمنى نظرة عجلى منه فتقابلها بموفور الثناء .

ولكن أن تتزوج هيتى آدم فهذا شئ مختلف جداً . . . ولم يكن شئ فى الدنيا يغريها أن تفعل ذلك ، ولم تكن تحس إذا رأته بما يحس به المحبون من حمرة فى الخد وخفقة فى القلب وآهة فى الصدر .

ولكنها كانت تحس بالنصر البارد لمعرفتها أنه يحبها ، وأنه لا يعنى بأن يلقى نظرة على مارى برج .

وهو لم يكن يثير فيها النشوة الحلوة للحب فى عنفوانه أكثر مما تستطيع الشمس أن تثيره من حركة فى العصارة المائية التى تجرى فى ألياف النبات .

وكانت تنظر إليه نظرتها إلى رجل فقير يعول أهله الفقراء الذين لا يستطيعون حتى فى زمن بعيد مقبل أن يجعلوها فى رغد من العيش كذلك الرغد الذى تلقاه فى بيت خالها ؛ فقد كان رغد العيش مادة أحلامها فى الليل والنهار .

وكانت تقول فى مناجاتها : لو كان آدم غنياً لأحببته ثم لتزوجته .

ثم مضت بضعة أسابيع وإذا بطائف جديد يطوف بخاطر هيتى ، طائف غامض ، طائف فى الأفق ، قد اتخذ لنفسه صورة الأمل المرجو وكان له فى نفسها تأثير الخدر ، وقد جعلها

تمشى على الأرض وتغدو إلى عملها وتروح ، وهى فى شبه حلم روحى لا يعرف وزن المادة ، وهو يضفى على الأشياء كلها نقاباً سائلا شفافاً وكأنها كانت تعيش فى دنيا المادة التى قوامها القرميد والحجر .

وقد علمت هيتى أن مستر آرثر دو نتهورن يتجشم كل مشقة ويركب كل صعب فى سبيل رؤيتها ، وأنه يغدو إلى الكنيسة ليراها وهى جالسة وليراها وهى واقفة ، وأنه كان يفترص الفرص للقائها وسماع حديثها .

وكان لا يخطر ببالها أن ذلك السيد ذا الجاه والثروة والشباب يمكن أن يكون يوماً ما محباً لها مدلهاً فى حبها . مثلها فى ذلك مثل تلك الفتاة الجميلة ابنة الخباز التى ابتسم لها إمبراطور شاب ابتسامة الاعجاب ، فلم تصدق أنها سوف تصبح إمبراطورة . فذهبت ابنة الخباز إلى بيتها وهى تحلم بالامبراطور الجميل الشاب ، وربما طففت وزن الدقيق من فرط الذهول .

وكذلك مرت بهيتى ثلاثة أسابيع على الأقل لا يشغل عقلها شاغل غير ذكريات من كلمات آرثر ونظراته . وكان صدى كلماته يتردد فى مسامعها ، وحلته الجميلة تتراءى لعينيها ، ورائحة الطيب تملأ الجو حولها .

وإلى يومنا هذا لم يكن أشهى لديها من ترقب عودة الكابتن دونتهورن أو ترقب يوم الأحد التالى لكى تستمتع برؤيته فى الكنيسة . ولكنها اليوم تفكر فى احتمال مجيئه إلى الصيد غداً ، وفى احتمال تحدثه إليها وسيره إلى جانبها وقد غاب الرقيب . وهو ما لم يكن قد حدث إلى تلك الساعة .

ولكنها اليوم أيضاً لا يتعقب خيالها الماضى بل يفكر فيما يحدث غداً ، وفى أى مكان سوف تلقاه ، وفى أى مكان من شعرها سوف تضع الشريط الوردى الجديد الذى لم تشتره بعد . وما الذى سوف يقوله لها ليجعلها تجاوب نظرته إليها بنظرة منها إليه ، تلك النظرة التى سوف تستمتع بها بقية النهار . . .

وبينما كانت يدا هيتى تعملان فى لف الزبد فى الورق ، وبينما كان رأسها تملأه صور الغد المأمول ، كانت تداعب خيال دونتهورن آمال مرجوة غير واضحة ، آمال كامنة فى عقله . وقد صحا من غفوة خياله على صوت صاحبه مستر أورين وهو يسأله :

— ما الذى فتنك وأعجبك يا آرثر فى مصنع ألبان مسز بويزر ؟ أأصبحت تهوى المكان الرطب وتحب صحاف القشدة ؟

وكان آرثر يعرف أورين ، ويعرف أن المراوغة لا تجدى معه . ولذلك قال فى صراحته المعهودة :

— إنما ذهبت لأرى صانعة الزبد الجميلة هيتى سوريل، وهى التى تشبه عندى إلهة الشباب فى الأساطير القديمة ولو كنت فناناً لصورتها . وإنه ليثير العجب أن يرى المرء ذلك الجمال الفاتن بين البنات الريفيات ، وآباؤهن هم أولئك المهرجون .

فقال له وارين : لا اعتراض لى على أن تفكر فى هيتى على ضوء الفن . ولكنى لا أود أن توقد جذوة الغرور عندها ، وأن تملأ رأسها الصغير بالقول الذى يوهمها بأنها آية من آيات الجمال . يفتتن بها الشباب المترفون . إنك إن فعلت أتلفت فيها الزوجة المقبلة لرجل فقير ، كالرجل الطيب كريج مثلا الذى رأيته ينظر إليها نظرة الاعجاب .

ويبدو أن تلك البنية الصغيرة قد ملأها الغرور ، وأن زوجها سوف يكون تعساً شقياً وفقاً للقانون الطبيعى الذى يجعل الرجل الفقير — إذا تزوج الحسناء الجميلة — يتلظى فى لهب السعير .

وعلى ذكر الزواج أرجو أن يكون قد تم لصاحبنا كل شئ . فقد مات الرجل الهرم ولم يبق لصاحبنا من يعوله غير أمه . وإنى لأظن أن حبل الود متواصل بينه وبين تلك الفتاة اللطيفة المتواضعة مارى برج وقد عرفت ذلك من فلتات الحديث الذى دار بينى وبين الهرم يوناثان . ولكنى لما ذكرت القصة لآدم بدا عليه القلق وغير مجرى الحديث . وفى ظنى أن الود بينهما لا يجرى مجرى سهلا ، أو أن آدم يؤجل الأمر حتى يصبح فى رغد من العيش ، وهو رجل مستقل الرأى عظيم الكبرياء .

وسوف يكون هذا الزواج زواجاً طيب الثمر . وسوف تتوثق الصلة بين آدم وبين الهرم برج . وإنى لأود أن أرى آدم عظيم المكانة بيننا . وسأشد به أزرى وأشركه فى أمرى . وعندئذ سوف يمتد أفق آمالنا فى التعمير والاصلاح . وإنى لم أر الفتاة من قبل، أو على الأقل لم أنظر إليها .

فقال له محدثه : أنظر إليها يوم الأحد المقبل فى الكنيسة . إنها تجلس عن شمال المنبر . إنك إن نظرت إليها فلن تجد بك حاجة إلى النظر إلى هيتى سوريل . وإن المرء إذا عقد العزم على ألا يشترى كلباً من الكلاب الجميلة فانه يغض الطرف عنه . ذلك لأننا لو نظر كلانا إلى صاحبه نظرة ود ، إذن

لفعلت النظرات فعلها وأحدثت أثرها ، و إذن لاشتد العراك بين علم الحساب وبين الميل والهوى . و إنى لأفاخر يا آرثر بحكمتى التى كسبتنى إياها السنون ، و إنى لأضفى عليك ثوباً من هذه الحكمة .

فقال له آرثر : أشكر لك هذا الصنيع . وسأشد بهذه الحكمة يوماً ما أزرى ، ولو أنى لا أرى بى حاجة إليها الآن .

وبعد — فلنرجع إلى آدم بيد . فقد كان موت والده غرقاً نكبة عليه . و إذ هو مستغرق فى حزنه ، أيقظ حاسة الفضول عنده وقع أقدام خفيفة تتخذ طريقها إلى البيت . ورأى بعين خياله وجهاً تزينه النونات وتجمله عينان دعجاوان ، وثغراً يفتر عن ابتسامات خبيثة ماكرة .

ولكن ما مر بباله لم يكن سوى فكرة خاطئة . فلم تكن هيتى التى جاءت لتعزية أهله ، ولكنها دينا تلك الواعظة الصغيرة التى يحبها أخوه Seth ولأول مرة أصبح آدم مشغولا بها معنياً بأمرها . وقال لأخيه : لست أعجب من حبك إياها فانها قد أوتيت وجهاً جميلا هو بزهرة الزنبق أشبه .

ثم يمر الزمن وإذا بآرثر دونتهورن يغازل هيتى سوريل . هما يسيران بين أشجار الغابة . فوقعت عينا آدم على شبحين يخطوان أمامه ، فوقف جامداً فى مكانه كالتمثال وامتقع لونه . وكان الشبحان يقفان ووجهاهما متقابلان وأيديهما متشابكة وكل منهما يهم بتقبيل صاحبه . ثم افترقا بغتة وجرى أحدهما وسار الآخر متلكئاً إلى ناحية آدم الذى عرف الآن كل شئ . وعرف كل السر فى جفاء هيتى و برودها .

وفى ثورة من ثورات الهوى الذى يعمى ويصم سب آدم خصمه ومزاحمه دونتهورن وأغلظ له فى القول . ثم تعاركا عراكا وحشياً كأنهما نمران . وخر دونتهورن مغشياً عليه بين الحشائش وكأنه فقد الحياة . ولكنه لم يمت فان القدر يخبئ له فى مستقبل أيامه مصيبة أخرى . فلما أفاق كتب رسالة إلى هيتى يودعها فيها ثم ارتحل .

ثم أصبح آدم شريكا لمستر برج فى عمل من الأعمال ، وخطب هيتى لنفسه . فلم تنطق هيتى بكلمة . ولكن آدم قرب وجهه من وجهها ووضعت هى خدها لصق خده كأنها قطيطة تريد أن تدلل ، وكأنها تريد أن تحس أن آرثر كان معها مرة أخرى .

وتملك هيتى رعب شديد فسارت مرتحلة تريد فى ظاهر الأمر زيارة دينا ، ولكنها اختفت . وفيما يلى وصف لما

تتابع من حوادث مبتدئة بالحديث الذى دار بين آدم وبين إروين :

«أنت تريد التحدث إلى يا آدم .»

قال إروين ذلك القول فى صوت هادئ هدوءاً مقتسراً ، وكأنما لجأ إلى هذا الهدوء المقتسر ليكبت ما فى نفسه من ثورة وهياج . ثم قال له : «إجلس» وأشار إلى كرسى أمامه .

فجلس آدم وقد أضاف البرود الذى لقيه من إروين صعوبة جديدة تمنعه من الافاضة بمكنون صدره . ولكن آدم وقد أجمع أمره على الافضاء بسره ، لم يكن بالرجل الذي ينكص على عقبيه إلا لأسباب قاهرة .

وقد بدأ حديثه مع إروين بقوله :

إنى ألجأ إليك يا سيدى كرجل نبيل هو عندى فوق الناس كلهم . وإنى لمنبئك بأشياء تحز فى نفسى . أشياء قد يؤلمك سماعها كما يؤلمنى ذكرها . وإذا رأيتنى يا سيدى أتكلم عن مساوئ الناس وأخطائهم فاعلم أن الدافع لذلك دافع قوى .

فهز مستر إروين رأسه متمهلا .

واستمر آدم فى حديثه وهو يرتجف قائلا : لقد كان موعد زواجى بهيتى سوريل يا سيدى اليوم الخامس عشر من هذا الشهر . وكنت أظنها تحبنى ، وكنت بذلك الظن أسعد مخلوق .

ولكن ضربة قاصمة قد نزلت بى ، ومصيبة كبرى قد ألمت بساحتى .

ولكن هيتى قد ذهبت ولست أدرى أين استقر بها النوى . فقد قالت إنها ذاهبة إلى سنوفيلد يوم الجمعة . ومضى على يوم الجمعة هذا أسبوعان . وقد ذهبت يوم الأحد الماضى لأعود بها ، ولكنها لم تكن هناك . وقيل لى إنها استقلت عربة إلى ستونيتون وبعد ذلك لم أعرف أين ذهبت . ولكنى اعتزمت اليوم سفراً طويلا لأبحث عنها. ولن أستطيع أن أفضى بهذا السر إلى أحد سواك .

فقال له مستر إروين : وهل تعرف سبب هروبها ؟

— يبدو أنها كانت لا ترغب فى الزواج منى . وقد هربت عندما اقترب الموعد . ولكنى أشك فى أن هناك شخصاً ثالثاً قد بدا فى الأفق .

فبدا السرور على وجه مستر إروين فى تلك اللحظة وكأنما أزيح عن صدره هم ثقيل .

ثم استأنف آدم حديثه قائلا : أنت تعرف يا سيدى ذلك الرجل الذى حسبته أصدق صديق لى ، والذى كنت أفخر بأنى سوف أقضى حياتى أعمل لأجله وكانت هذه أمنيتى منذ كنا صبيين ...

وعندئذ أمسك مستر إروين بذراع

آدم ، وكأنما فارقه وقاره وشد عليها وقال فى صوت متهدج : أرجو ألا تقول هذا . . .

فذهل آدم لما انتاب مستر إروين من انفعال وندم على قوله وجلس وقد تولاه صمت من أصابته مصيبة .

ثم ارتمى مستر إروين فى كرسيه وقال لآدم : قل كل شئ فلا بد لى أن أعرف كل شئ .

فقال آدم : إن ذلك الرجل قد خلب لب الفتاة وسلك نحوها سلوكا لا حق له فى سلوكه مع فتاة فى مثل مركزها فى الحياة ، وأهدى إليها الهدايا واعتاد أن يذهب لملاقاتها فيسيرا جنباً إلى جنب . ورأيتهما معاً قبل هروبها بيومين وهو يقبلها قبل أن يغادرا مكانهما فى الغابة . ولم يدر حديث بينى وبين هيتى يومذاك ، ولو أنى كنت أحبها منذ زمن وكانت هى تعرف ذلك . وقد عنفته وزجرته على أخطائه ثم تبادلنا الشتائم واللكمات، ولكنه قال لى بعد ذلك فى خشوع الرجل التقى إن الأمر بينهما لم يكن إلا عبثاً ، ولم يخرج عن حد الغزل . ولكنى جعلته يكتب خطاباً ينبئ فيه هيتى أنه لم يكن يعنى شيئاً ، ذلك لأنى رأيت جملة أمور ما كنت أستطيع يومئذ أن أفهمها . فقد ملك قلبها حتى لقد أصبحت به مغرمة ، وحتى لقد أصبحت عن حب من يرغب فى زواجها معرضة . ثم أعطيتها الخطاب فتظاهرت بقبوله كما كنت أتوقع . ثم حنت على حنواً كان يزداد ساعة بعد ساعة . ولعل المسكينة لم تكن تعرف حقيقة أمرها ساعتئذ . ولكنى لا ألومها ؛ ذلك لأنى لا أستطيع أن أظن أنها قد أرادت خداعى وغشى . وكان عندى ما يشجعنى على الظن أنها تحبنى . وأنت تعرف الباقى يا سيدى . ولكن لا يبرح من ذهنى أنه كان كاذباً معى وأنه أغراها بالهرب ، وأنها ذهبت لتلحق به وإنى ذاهب الآن لأرى . ذلك لأنى لن أستطيع أن أعود إلى عملى قبل أن أعرف مصير تلك الفتاة .

وبينما آدم يقص قصته كان مستر إروين قد استعاد رباطة جأشه على الرغم من الأفكار القلقة التى طافت به يزدحم بعضها بعضاً . وكانت ذكرى مرة الطعم . إذ تذكر أن آرثر قد تناول الفطور عنده هذا الصباح ، وكان يبدو عليه أنه يريد أن يفضى إليه باعتراف. والآن قد تبين لمستر إروين ما كان يريد أن يفضى به آرثر .

ثم عاد مستر إروين فألقى يده فى رفق فوق ذراع ادم التى كانت على المائدة وقال فى خشوع :

— يا صديقى العزيز آدم : لقد مرت بك تجارب قاسية فى الحياة . وإنك لقادر على أن تحتمل الحزن كما يحتمله الرجال ، وكذلك أنت قادر على أن تعمل عمل الرجال . فالله سبحانه يريدنا أن نكون كذلك . وإن هناك حزناً ثقيلا فى طريقه إليك ، وهو حزن أشد من كل ما مر بك من أحزان . ولكن الذنب ليس ذنبك . ثم اعلم أن من الناس من ترجح كفهم فى الحزن كفتك وهؤلاء لهم الله .

ونظر كلاهما إلى صاحبه وقد امتقع لونهما . وكان يخامر آدم قلق يهزه هزاً، كما كان يخامر مستر إروين إشفاق يخالطه التردد ، ولكنه استمر فى حديثه يقول :

— لقد جاءنى هذا الصباح خبر عن هيتى فهى لم تذهب إلى صاحبك بل هى فى ستونيتون .

فنهض آدم من كرسيه وكأنه قد خيل إليه أنه يستطيع أن يطير إليها فى تلك اللحظة . ولكن مستر إروين قد أمسك بذراعه مرة أخرى وقال : انتظر يا آدم . انتظر . ثم استطرد يقول : إنها فى موقف لا تحسد عليه . ذلك الموقف الذى لو رأيتها فيه لساءت الأمور بينكما أكثر مما كانت يا صديقى المسكين ، بل لكان الأمر أسوأ مما لو كنت فقدتها إلى الأبد .

فارتجفت لذلك القول شفتا آدم . ولكنه لم ينطق بكلمة ، ثم تحركت شفتاه مرة أخرى لتهمسا بقوله : « أنبئنى » .

— إنها مقبوض عليها . إنها فى السجن . وكأن ذلك القول كان لطمة قوية أحيت فى آدم روح المقاومة وصعد الدم إلى وجهه وقال فى صوت عال : وما جريمتها ؟

— إنها جريمة كبرى . إنها قتلت طفلها . فصاح آدم : هذا مستحيل . وقام من كرسيه متوجهاً إلى الباب ثم عاد . ثم نظر إلى مستر إروين وقد بدت عليه وحشية الغضب : ذلك مستحيل . . . إنها لم ترزق طفلا قط . وهى لذلك لا يمكن أن تكون مجرمة . ومن ذا الذى يقول ذلك القول ؟

— إنى أدعو الله يا آدم أن تكون بريئة .

— ولكن من قال أنها مذنبة ؟ قل لى كل شئ .

— هذا خطاب من قاضى التحقيق الذى ينظر فى أمرها . ورجل البوليس الذى تولى القبض عليها جالس الآن فى غرفة المائدة . وهى مصرة على ألا تبوح باسمها ، وأن لا تدل على بيتها . ولكنى أخشى أن ليس هناك شك فى أنها هى هيتى . فان الوصف ينطبق

عليها ، لولا شحوب ألم بوجهها ، ولولا سقم نزل بجسمها . وقد وجدوا فى جيبها دفتراً كتب فيه اسمان : واحد فى أوله وهو هيتى سوريل من مدينة هاى سلوب واحد فى آخره وهو دينا موريس من مدينة سنوفيلد . وهى ترفض أن تقول أى الاسمين اسمها ، وهى تنكر كل شئ ، وهى لا تجيب على الأسئلة. وقد طلب إلى أن أعمل على التحقق من شخصيتها . ذلك لأنهم يرون أنه من المحتمل أن يكون الاسم الأول هو اسمها .

— ولكن أى دليل عندهم عليها لو كانت هى هيتى؟ قال ذلك والانفعال يهز جسمه هزاً عنيفاً . لن أصدق هذا. ولا يمكن أن يكون هذا قد وقع ولم يعلم به واحد منا .

— إنه دليل مزعج على أنها كانت تحاول ارتكاب الجريمة . ولكننا نرجو ونأمل أنها لم ترتكب هى تلك الجريمة وإليك هذا الخطاب فاقرأه يا آدم .

فأخذ آدم الخطاب بين يديه المرتجفتين وحاول أن يثبت ناظريه فيه. وخرج مستر إروين ليأمر أمره فى بعض الأمور . ولما عاد كانت عينا آدم لا تزالان مثبتتان فى الصحيفة الأولى . وكان — لفرط ذهوله — لا يستطيع القراءة ولا يستطيع أن يفهم مدلول الكلمات ، ورمى بالخطاب إلى الأرض آخر الأمر ثم ضم قبضة يده .

ثم قال : إن هناك جريمة فهى جريمة آرثر . ومفتاح الجريمة عنده ، لا عندها . فقد علمها الخيانة والغش وقد خدعنى أنا أول من خدع . فليقف معها جنباً إلى جنب عند المحاكمة . وسأخبر القوم كيف اغتصب قلبها وكيف أغراها على فعل السوء . فهل يظل هو حراً طليقاً ، وتلقى هى العقاب وحدها وهى لم تزل صغيرة مهيضة الجناح ؟

ثم قدمت هيتى إلى المحاكمة . وبعد أن صدر الحكم دوت فى قاعة الجلسة صرخة تصم الآذان وكانت الصرخة صرخة هيتى . فوقف آدم على قدميه ومد ذراعيه إلى ناحيتها . ولكن المدى كان بينهما بعيداً . ثم سقطت هى وقد انتابتها نوبة إغماء . ثم أخرجت من دار المحكمة إلى السجن انتظاراً ليوم التنفيذ . وقد أصرت هيتى إصراراً تاماً على الانكار أثناء المحاكمة وبقيت على إصرارها فى السجن . وقد خرجت عن صمتها نزولا على رجاء صاحبها دينا وقالت والندم يهز كيانها ، وقد انفرجت شفتاها وهى تبكى بكاء صادراً عن القلب: « يا إلهى إننى أجرمت » .

ثم طوقت عنقها بذراعيها وقالت :

سأتكلم . سأنبئك بكل شئ . ولن أخفى شيئاً .

ولكن العبرات كانت تخنقها . فحملتها دينا فى رفق وأجلستها على الحصير مرة أخرى وجلست إلى جانبها، وتماسكتا باليدين . وأخيراً همست هيتى قائلة :

— لقد ارتكبت الجريمة يا دينا . ولقد دفنته فى الغابة . . . وأعنى به الطفل الصغير . . . وقد بكى . . . وقد سمعته يبكى طول الليل . . . ورجعت أدراجى لأنه كان يبكى .

ثم توقفت . ثم عادت إلى الكلام فى صوت عال ، وفى لهجة فيها معنى التوسل . وقالت :

— وظننت أنه لن يموت . فقد يلتقطه بعض الناس . ولم أقتله أنا . . لم أقتله بيدى . . . إنما ألقيته على الأرض . وجعلت فوقه غطاء . ولما عدت لم أجده . . . وكان ذلك لأنى جد تعيسة يا دينا . ولم أعرف أنا إلى أين أسير . . . ولقد حاولت قتل نفسى فلم أستطع ثم حاولت الموت غرقاً فلم أقدر . . . فذهبت إلى وندسور ثم هربت كما تعلمين . وقد ذهبت أفتش عنه لكى يعنى بأمرى ، ولكنه كان قد رحل . . . وعندئذ ضاقت بى السبل ولم أجرؤ على أن أعود إلى البيت ، ولم تكن بى قدرة على أن أنظر لأى مخلوق مخافة تحقيرى و إذلالى .

ثم توقفت مرة ثانية كأنما الاحساس بالماضى كان أقوى مما تحتمله الكلمات ثم عادت إلى حديثها فقالت :

— ثم توجهت إلى ستونيتون وبدأت أحس بالرعب يدب فى قلبى تلك الليلة ؛ لأنى كنت قد اقتربت من البيت . ثم ولد الطفل الصغير فى وقت كنت لا أتوقع فيه ميلاده . . . ففكرت فى التخلص منه ، وفى العودة إلى البيت . وقد خطرت لى الفكرة بغتة وأنا مستلقية فى الفراش ، ثم بدأت الفكرة تقوى وتشتد . . . واشتقت أن أعود مرة أخرى . . . ذلك لأنى كنت لا أحتمل العزلة . ثم ألفيت فى نفسى القوة وصحة العزم والقدرة على أن أرتدى ملابسى ، وأحسست أن ذلك واجب مفروض على . . . وتمنيت أن أجد بركة ماء فى ركن من أركان المزرعة . ثم فكرت فى الخلاص من أسباب البلاء وفى العودة إلى البيت . على ألا أحيطهم خبراً بأسباب هروبى . « خرجت مع البازى على سواد » والطفل تحت كسائى . وأسرعت الخطى حتى أبعدت . فلقيت جمعاً من الناس ثم أعطيت شيئاً ساخناً لأشربه ثم كسرة من خبز . . . ثم غذذت

السير . وكنت أخفف الوطء ثم أضاء القمر وقد تولانى الخوف منه يا دينا ، عندما نظر إلى من خلف السحاب . ولم أعهد فى القمر تلك النظرات من قبل ثم عجت إلى الحقول . ذلك لأنى كنت أخشى أن ألقى أحداً من الناس والقمر يطل على . ثم ألقيت بنفسى على العشب اليابس أطلب الدفء وأحاول أن أنام . . .

وكانت هناك فرجة وسط العشب حيث اتخذت فراشى وحيث نمت نومة أحسست فيها بطعم الراحة . وكان الطفل فى دفء وهو بجانبى وأظننى قد نمت نوماً طويلا . ذلك لأنى لما صحوت كان الوقت صباحاً وإن يكن النور لم يعم الكون بعد . وكان الطفل يبكى . ثم رأيت غابة على مدى غير بعيد ، وظننت أن قد تكون هناك بركة ماء أو أخدود . . . وخلت أن فى الوقت فسحة ، وأننى أستطيع أن أخبئ الطفل وأن أبعد فى سيرى قبل أن يستيقظ القوم ، وأن أركب إلى البيت وأنبئهم بأنى كنت أبحث عن عمل وأن مسعاى لم ينجح . . . وكم تاقت نفسى إلى هذا يا دينا . كم تاقت نفسى إلى أن أعود إلى البيت سالمة . أما شعورى نحو الطفل فلم أكن أتبينه . فقد كان يبدو لى أنى أكرهه .

وكان كأنه حمل ثقيل شد إلى عنقى . ومع ذلك فان بكاءه كان يبكينى . وما كانت بى قدرة على النظر إلى وجهه وإلى يديه الصغيرتين . ولكنى مشيت قدماً إلى الغابة وجبت أنحاءها ولكن لم أجد ماء . . . ثم ارتجفت هيتى وظلت صامتة بضع ثوان ثم استأنفت حديثها وهى تهمس همساً :

— وجئت مكاناً يكسوه العشب وقطع الأشجار ثم جلست أفكر فيما سوف أفعل . ثم لاح لى بغتة حجر تحت شجرة من شجر البندق وبدا لى هذا الحجر كأنه قبر صغير ، وخطر لى فى مثل سرعة البرق خاطر أن أقذف الطفل فى هذا الجحر وأن أغطيه بالأعشاب وقطع الأشجار . وما كنت أستطيع قتله بطريقة أخرى غير هذه الطريقة . وقد فعلت ذلك كله فى دقيقة واحدة ، وقد علا صراخه يا دينا حتى لم أستطع أن أثقل عليه الغطاء . وظننت أن قد يمر به أحد الناس فيعنى به ، وينجو من الموت . ثم أسرعت الخطى وأنا أغادر الغابة ولكنى كنت أسمع بكاءه وقتاً طويلا . ولما بلغت الحقول كنت كأننى سمرت فى مكانى فلا أستطيع حراكا . فجلست على العشب لأنظر هل يقبل أحد من الناس .

وكان الجوع قد بلغ منى . ولم يكن عندى غير كسرة من خبز ، ولكنى لم أستطع المضى . وبعد لحظة حسبتها دهوراً ، جاء الرجل ذو القباء ونظر إلى نظرة ألقت الرعب فى قلبي فذعرت وأسرعت الخطى . ولقد ظننت أن وجهته الغابة ، وأنه قد يعثر على الطفل ، ثم مضيت قدماً حتى جئت قرية على مدى بعيد من الغابة وقد اجتمع على الجوع والتعب والمرض . ولقيت هناك شيئاً آكله ثم اشتريت رغيفاً . ولكن الرعب كان يمنعنى البقاء . فقد كنت أسمع بكاء الطفل ، وكان يخيل إلى أن الناس كلهم فى جميع أقطار الأرض يسمعون بكاءه . فاستأنفت المسير ، ولكنى كنت جد متعبة . وكان الليل مقدماً ، وهناك فى ناحية من نواحى الطريق لقيت «شونة» بعيدة عن مكان البيوت . وهناك اختبأت واتخذت من القش حصيراً ، ثم رقدت ثم غلبنى النعاس ولكن بكاء الطفل كان يوقظنى . ثم صحوت وكان الصبح قد بدا ، ثم دفعتنى قدماى إلى العودة من حيث أتيت ، ولم أستطع يا دينا لهذه الرغبة دفعاً . وكان بكاء الطفل هو الدافع لى . ومع هذا فقد كان الخوف يزلزل أقدامى ، وظننت أن الرجل ذا القباء قد رآنى وأنه يعرف أنى خبأت الطفل هناك . ولكنى بالرغم من ذلك كله قد سرت فى تلك الطريق ، وتخليت عن فكرة العودة إلى البيت بل انتزعتها من مخيلتى انتزاعاً . ولم يكن أمام ناظرى إلا ذلك المكان فى الغابة حيث دفنت الطفل... وإنى لأراه إلى هذه الساعة يا دينا ... فهل سأظل أراه إلى يوم تقوم الساعة؟

ثم تعلقت هيتى بأذيال دينا ثم ساد السكوت بينهما ، وقتاً طويلا قبل أن تستأنف حديثها ، ثم قالت :

— لم ألق أحداً . ذلك لأن الوقت كان مبكراً ثم وصلت إلى الغابة . . . وكنت أعرف الطريق إلى المكان . . . المكان الذى يقابل شجرة البندق . وكنت أسمع بكاء الطفل فى كل خطوة . وكنت أظنه حيا . . . ولست أعرف أكان هذا الخاطر يرعبنى أم كان يبعث إلى نفسى السرور . . . ولست أعرف الشعور الذى أحسست به . وكل ما أعلمه أنى كنت فى الغابة وأنى سمعت بكاء الطفل ولم أتبين شعورى حتى رأيت أن الطفل ، قد ذهبوا به .

وإنى عندما وضعته هناك خيل إلى أنى أتمنى أن لو التقطه أحد لينقذه من الموت . ولكنى لما رأيته قد ذهبوا به طار لبى من الفزع . وقد أوهن ساعدى الخوف فلم أستطع حراكا ،

وخلت أن كل من نظر إلى يعرف شيئاً عن الطفل . ثم تحجر قلبي فبقيت فى مكانى لا أتمنى شيئاً ، ولا أحاول أمراً . وخيل إلى أنه أصبح حتما على أن أبقى هناك حتى يقضى الكتاب أجله ، وأن شيئاً من الأشياء لن يناله التبديل والتحويل . ولكنهم جاءوا وذهبوا بى . . .

ثم سكتت هيتى ثم عادت ترتجف كأن عندها للحديث بقية فى الزاوية ووقفت دينا موقف الانتظار . ذلك لأن الحزن كان قد لاع قلبها وأشرقها بدمعه ، ثم انطلقت هيتى تقول، وقد جاشت فى صدرها غصص الهموم :

— أتظنين يا دينا أنى وقد بحت بكل شئ أن الله سبحانه سوف ينسينى ذلك البكاء ، بكاء الطفل ، وذلك المكان المعهود فى الغابة . . .

ثم يزور آدم هيتى فى الساعات الأخيرة التى تسبق تنفيذ الحكم . ثم تبدأ الخطوات الأخيرة فى سبيل التنفيذ ثم يجئ صباح يوم تنفيذ الحكم بالاعدام . . .

وكان منظراً من مناظر الحزن التى يذكرها الناس أكثر مما يذكرون أحزانهم وهمومهم . ذلك المنظر الذى رآه الناس فى صباح ذلك اليوم الصافى الأديم عندما جاءت العربة تقل المرأتين فى سن الشباب . وقد شاهدها عن بعد ذلك الجمهور المترقب وهى تشق طريقها ، ووجهتها المشنقة . تلك الصورة الشنيعة البشعة للموت المفاجئ الذى يسبقه الاصرار والعمد . . .

وكل الناس فى ستونيتون قد سمعوا عن دينا موريس تلك الواعظة الشابة التى ألجأت تلك المجرمة المصرة على الانكار أن تعترف . وكل الناس كانوا فى شوق إلى أن يروها ، وأن يروا تلك الشقية هيتى .

ولكن دينا كانت عن الجمهور فى صمم . وعندما وقع نظر هيتى على الجمهور أمسكت بدينا وهى ترتجف . فقالت لها دينا : أغمضى عينيك . ولنتوجه إلى الله الغفور الرحيم بدعائنا وصلاتنا .

وفى صوت خفيض نطقت بدعائها — الذى كان كآخر سهم من سهام التوسل — لتلك المخلوقة المرتجفة . التى كانت تنظر إليها كآبة على الاشفاق والحب .

ولم تكن دينا تعرف أن الجمهور ينظر إليها فى شئ من الخشوع . بل لم تكن تعرف مدى ما بينها وبين ذلك المكان المشئوم مكان المشنقة ، حتى وقفت العربة ، وانتفضت هى فزعة مرعوبة لدى سماعها صرخة مزعجة

كأنها إحدى صرخات الشياطين . ثم اختلط صراخ هيتى بتلك الصرخة ثم أمسكت كلتاهما بصاحبتها من فرط الذعر المشترك بينهما .

ولكنها كانت صرخة مبعثها الانفعال لا القسوة . إنها صرخة هياج مفاجئ بعثها ظهور فارس يمتطى جواداً يشق الصفوف وهو فى أقصى سرعة . وكان راكب الجواد يتطاير الشرر من عينيه وكأنه قد جن جنونه . . . وانظر إليه . . . أنه يحمل فى يده شيئاً . . . وكان يرفع يده كأنه يشير إلى شئ . . .

وكان العمدة يعرفه — إنه آرثر دونتهورن يحمل فى يده ذلك الشئ الذى نجا من الموت بأعجوبة . . .

مبارك ابراهيم

(عن الانجليزية)

شهرية السياسة الدولية

محاولات الاستقرار

يصح أن نسمى الشهر المنقضى فى ميدان السياسة الدولية شهر « محاولات الاستقرار » ؛ فقد انتهت فيه فرنسا إلى إعلان جمهوريتها الرابعة وختمت بهذا الاعلان عهد حكومتها المؤقتة ، ولفرنسا فى الميدان الدولى مكانة كان العالم قد حرم الافادة منها طوال الحرب ، وكان يترقب عودتها إليها سليمة ثابتة كى يعود هو إلى الافادة من تعاليمها التى خرجت من « الثورة الكبرى » وتميزت بروحها « العالمية ». وتم فيه التوقيع على معاهدات الصلح مع إيتاليا وفنلندا ورومانيا وبلغاريا والمجر ، وهى الدول التى وسعت من رقعة الحرب بانضمامها إلى ألمانيا العاتية ، فبدأ بهذا التوقيع إجراء من أهم إجراءات العودة إلى حالة السلم العادى ، وزاد النشاط من جانب بريتانيا العظمى وفرنسا وروسيا فى سبيل إحكام العلاقات بينهن بالبحث فى سبيل عقد محالفة بين فرنسا وانجلترا من ناحية ، وتعديل بعض أحكام المحالفة المعقودة بين انجلترا وروسيا من ناحية ثانية ، ثم إصدار تصريح ثلاثى منهن جميعاً بتضامنهن لأجل السلام ؛ وأخذت لجنة التحقيق الدولية تقوم بمهمتها فى بلاد اليونان توطئة لاقرار العلاقات بين هذه الدولة وجاراتها البلقانية من ناحية ، ولاقرار السلام الداخلى فى اليونان ذاتها من ناحية ثانية .

وبدأ مجلس الأمن عرضه للخلاف البريتانى الألبانى متلمساً تسوية لما نشأ عن إصابة بارجتين بريتانيتين فى قناة كورفو بقذائف تقول السلطات البريتانية إنها ألبانية ؛ كما انتهى الأمر فى قضية فلسطين بتقرير بريتانيا العظمى عرضها على هيئة الأمم المتحدة بعد أن أخفقت فى الوصول إلى حل يرضى به العرب واليهود معاً .

الجمهورية الرابعة

وكانت إجراءات إقرار الدستور الفرنسي الجديد قد تمت عن طريق الاستفتاء الشعبي ، وكانت الانتخابات العامة قد أجريت للمجلسين الجديدين المكونين للبرلمان الفرنسي الجديد ، مباشرة للجمعية الوطنية التي تقابل مجلس النواب في نظام البرلمان القديم، وعلى درجتين لمجلس الجمهورية الذي يقابل مجلس الشيوخ في ذلك النظام ، وكان متبقياً أن يجتمع أعضاء البرلمان الجديد لينتخبوا رئيس الجمهورية ، فتبدأ الجمهورية الرابعة و يزول كل مظهر من مظاهر « الحكومة المؤقتة » ، وتكمل عناصر السيادة الفرنسية المنظمة . ولم يكن انتخاب الرئيس الجديد بالأمر الهين والبرلمان مؤلف من ثلاث كتل كبرى متعادلة العدد أو قريبة التعادل ، لا تحظى واحدة منها بالكثرة العددية منفردة ، ولكل منها مطالب قد يتعارض بعضهاوبعضها الآخر ، وللأحزاب الثانوية كذلك مواقف لا يسهل التوفيق بينها ولا بين بعضها وبعض تلك الكتل الكبيرة ، ولا سيما إن اتصلت تلك المواقف جميعها بفكرة توزيع الرياسات الثلاث بين الأحزاب الكبرى الثلاثة : رياسات الجمهورية والوزارة والجمعية الوطنية ، بين الحزب الشيوعي والحزب الاشتراكي والحركة الجمهورية الشعبية ، في حين أن بين أعضاء الأحزاب الثانوية شخصيات لها مكانتها في السياسة الفرنسية ، ولها مواقفها الوطنية أثناء الكوارث التي انتابت فرنسا على أثر انكسارها الحربي ؛ وراح المعقبون السياسيون يقترضون المضاعفات ، وينتظرون على الأقل أن تطول جلسة فرساي ؛ لأن الانتخابات لن تسفر عن « كثرة مطلقة » يفوز بها واحد من المرشحين في الدور الأول . لكن « البصيرة » الفرنسية قد انتهت بمفاجأة أولئك المعقبين جميعاً إذ تمت الانتخابات في أقصر وقت ممكن ، و إذ نال الكثرة المطلقة مرشح الاشتراكيين منذ الدور الأول ، وكان هو مسيو مارسل أوريول — الذي كانت الجمعية الوطنية قد انتخبته رئيساً لها قبل ذلك بأيام — فأعلنه البرلمان الفرنسي الجديد بلسان رئيس اجتماعه ، وهو نائب شيوعي ، رئيساً للجمهورية الجديدة ؛ فعاد إلى باريس بموكبه الرسمي ونزل

بقصر الاليزى الذى كان قد ظل شاغراً منذ غادره الرئيس ليبران آخر رؤساء الجمهورية الثالثة فى سنة ١٩٤٠ . وانتخبت الجمعية الوطنية رئيسها الجديد — وهو ثانى الرؤساء فى فرنسا الجديدة — مسيو أريو زعيم الرادبكاليين الاشتراكيين ، وكلف رئيس الجمهورية شخصية من شخصيات الحزب الاشتراكى ، مسيو راماديه مهمة تأليف الوزارة ، فتقدم إلى الجمعية الوطنية على حسب أحكام الدستور الجديد ببرناجه فنال ثقتها ، ثم ألف وزارته ونال عليها الثقة أيضاً ، فاكتملت بذلك كل عناصر بروز الجمهورية الرابعة .

وليس لاكتمال هذه العناصر فعل الاستقرار الداخلى بالنسبة لفرنسا وحده ، بل إن لها لفعلا آخر بالنسبة للميدان الدولى كله أيضاً . ذلك بأن فرنسا التى انهارت فى ميادين القتال قد بقيت محتفظة بملكاتها السياسية الدولية ، وذلك بأن التطورات الدولية التى جاءت على أثر انهيارها وعلى أثر وقوف رحى الحرب عامة ، قد جعل العالم فى حاجة إلى تلك الملكات ، كما جعل فرنسا ذاتها تحس هذه الحاجة وتحاول سدها بمواقف وتوجيهات وتوفيقات فى الميادين الدولية والدبلوماسية عرفتها لها الشدائد والأزمات .

وقد راحت تلك التطورات فى سبيل تقابل الكتلتين الأنجلوسكسونية والسلافية ، فكانت المواقف التى وقفتها فرنسا فى بعض اجتماعات هيئة الأمم المتحدة وفى بعض جلسات وزراء الخارجية حائلة دون التصادم الذى كان يحسبه البعض محتوماً ، وموفقة فى كثير بين مختلف التيارات .

معاهدات الصلح

وكذلك عادت إلى باريس صفة من صفاتها الدولية التقليدية ، وهى صفة المكان المفضل للاحتفال بالأحداث الدولية الهامة ، أو على حد تعبير بعض الكتاب الفرنسيين ، صفة « عاصمة التوقيعات » . ففى العاشر من شهر فبراير احتفل فى وزارة الخارجية الفرنسية بالتوقيع على النسخ الأصلية لمعاهدات الصلح مع حلفاء ألمانيا السابقين ، وهى المعاهدات التى كان قد وقع عليها من قبل مستر بيرنز وزير الخارجية الأمريكية فى نيويورك

وهو يحضر آخر اجتماع له فى مجلس الأمن قبل أن يقدم استقالته ، والرفيق مولوتوف فى موسكو ، ومستر بيفن فى لندن . وقد تلت هذه التوقيعات السابقة توقيعات مسيو بيدو وزير الخارجية الفرنسية وسائر ممثلى الحلفاء ثم توقيعات ممثلى الدول المقهورة .

وبهذا الحادث ، بل بهذا الحدث تعتبر حالة الحرب مع الدول الموقعة على هذه المعاهدات قد انتهت . على أن خمساً من هذه الدول ، بينها اثنتان من غير « الأعداء السابقين » ، قد أوصلت إلى رئيس الحفل كتباً من وزراء خارجيتها قصد إبلاغها إلى سائر الموقعين يعرضون فيها الأسباب التى تدعوهم إلى اعتبار المعاهدات التى يوقعون عليها غير مرضية لدولهم .

وقد أجمعت المجر وبلغاريا ورومانيا على عدم عدالة بعض أحكام المعاهدات ، وعلى أن النصوص الاقتصادية الخاصة تكلفهم تكاليف باهظة . وإلى هذا فان المجر تشكو من أن الحقوق الأساسية لأبنائها العائشين خارج حدودها غير مضمونة ، وتوجه شكواها فى هذا الصدد بخاصة إلى تشيكوسلوفاكيا التى لم تحترم اتفاق تبادل السكان المعقود معها فى شهر فبراير سنة ١٩٤٦ وهو الذى يقضى بتبادل فرد بفرد .

وأما بلغاريا فتشكو من عدم اعتبارها شريكة فى الحرب مع أنها شاركت فيها إلى جانب الحلفاء بنصيب منذ سبتمبر سنة ١٩٤٤ ، وهى تحتج على أنها لم تنل مخرجاً إلى بحر إيجه ، وأن تراقيا الشرقية لم ترد إليها . وهى تئن من ثقل عبء التعويضات المفروضة عليها ، وتطالب بامهالها سنتين كاملتين قبل أن تبدأ فى تسديد أقساط تلك التعويضات ، ولا سيما أنها لم تحظ بمساهمة فى التعويضات المفروضة على ألمانيا .

وأما رومانيا فلا تتردد فى إظهار سرورها لما أصابها من تصحيح حدودها من ناحية ترانسلفانيا ولكنها تشكو إقصاءها هى الأخرى عن المشاركة فى التعويضات الألمانية ، وتعلن أنها ستتولى المفاوضة المباشرة مع جاراتها قصد تنسيق الأحكام الاقتصادية للمعاهدة .

وكذلك شكت يوجوسلافيا وشكت اليونان من أحكام المعاهدات . وتحتج يوجوسلافيا على طريقة تسوية مشكلة تريستا ، وتسجل مخاوفها بشأن اليوجوسلافيين الباقين فى المناطق التى أبقتها التسوية داخل الأراضى الايتالية ، وتعلن أنها لا تنزل عن المطالبة بهذه المناطق اللازمة لكيانها لزوماً «فنيا» .

وتحتج اليونان على أنها لم تفز بأى تعديل لتخومها فى حين تخرج بلغاريا وقد أضيفت إليها مناطق فى دو بروجه . كذلك تعلن احتفاظها بالمطالبة فى المستقبل بأقاليم ابيروس الشمالية من ألبانيا ، كما تأسف لعدم النص صراحة على نزول إيتاليا عن بعض جزر مجاورة للجزر « الاثنتى عشرة » المعروفة .

والمفروض أن تلك الشكاوى لن تكون محل نظر إلا إذا تطور أمرها مع الزمن فهدد الأمن أو أوجد نزاعاً يكون من اختصاص مجلس الأمن أن ينظر فيه . و إلى وقوع هذا التطور فان التوقيع على معاهدات الصلح قد جعل السلم الرسمى هو الحالة الراهنة فى أوربا ما عدا النمسا وألمانيا اللتين ستعالج أمور الصلح معهما فى مؤتمر وزراء الخارجية الذى سيعقد بموسكو ابتداء من اليوم العاشر من شهر مارس المقبل .

بين انجلترا وفرنسا وروسيا

كذلك تجلى خلال الشهر المنقضى نشاط فى سبيل عقد تحالف بين فرنسا وانجلترا . وكانت انجلترا تطمح إلى هذا التحالف من زمان . وطالما سعى مستر تشرشل إلى تحقيق مشروع الحلف الغربى بضم انجلترا وفرنسا وبلجيكا وهولندا . وقد سبق له أن حاول تحقيقه أيام كان الجنرال ديجول على رأس الحكومة الفرنسية المؤقتة . لكن قيل فى بعض الدوائر إن محاولته لم تنجح لأن روسيا كانت قد عارضت الفكرة إذ لمحت فيها شيئاً قد يكون موجهاً ضدها . وكان مسيو بلوم وهو فى رياسة الوزارة الفرنسية قد سافر إلى لندن للتحدث فى أمر التحالف الفرنسى البريطانى ، وقد قيل فى ذلك الوقت إنه قد نجح فى وضع المبادئ العامة التى يقوم عليها . وقد تبودلت خلال الأيام الأخيرة مذكرات بين الحكومتين انتهت بابلاغ الحكومة البريطانية حكومة فرنسا مشروعاً للتحالف المنشود. فلاحظت عليه فرنسا ملاحظات أهمها أنه يقصر المعونة الحربية المتبادلة على حالة وقوع اعتداء مسلح فعلى من جانب ألمانيا فى حين أن تاريخ الحربين العالميتين الأخيرتين يدل على أن انتظار وقوع الاعتداء الفعلى المسلح من ألمانيا يكون معه التعاون متأخراً بعد أن يكون قد صدر عن ألمانيا من الأعمال ما تقضى المصلحة العالمية

بوقفه فى الحال . وضربت فرنسا لذلك مثلا فى أمر تجاوز ألمانيا عن التزاماتها إزاء منطقة السار ، ولو كان ذلك التجاوز قد قابله عمل مشترك من فرنسا وانجلترا معاً لما أعانت الظروف ألمانيا على إعداد الحرب العالمية الثانية .

وكانت انجلترا قد أخطرت روسيا باعتزامها عقد محالفة مع فرنسا حتى لا يتكرر منها موقفها من المحاولة الأولى مع الجنرال ديجول ؛ فانتهزت روسيا الفرصة وطالبت بتعديل بعض أحكام المحالفة القائمة بينها وبين انجلترا ، وتبودل الرأى بين الجانبين لكنهما لم يصلا بعد إلى موقف نهائى .

على أن فرنسا تود لو انتهى الأمر لمناسبة عقد محالفتها مع انجلترا وتعديل المحالفة الانجليزية الروسية إلى صدور تصريح ثلاثى يؤكد الصداقة بين الثلاث المتحالفات ويؤكد تضامنهن فى سبيل توطيد السلام . ولعل فرنسا تقصد بذلك إلى إبعاد كل ريبة عن تحالفها مع انجلترا . ولعلها تقصد كذلك بعث الاتفاق الثلاثى من جديد تحيط أطرافه بألمانيا من جميع الجهات .

وقد يؤيد هذا الاتجاه الأخير سعى فرنسا إلى عقد تحالف مع بولونيا وتحالف آخر مع تشيكوسلافاكيا على غرار التحالف القائم بين روسيا وانجلترا . ولقد كان مثل تلك المحالفات قائماً قبل الحرب العالمية الثانية .

التحقيق الدولى فى اليونان

وكانت اليونان قد تقدمت إلى مجلس الأمن شاكية وصول المساعدات المادية من أراضى الدول المجاورة إلى الثائرين فى وجه الحكومة اليونانية القائمة ، وطلبت فى سبيل ذلك تحقيقاً ، فألف مجلس الأمن لجنة وعهد إليها بأمر التحقيق فى اليونان ، وبدأت اللجنة أعمالها ورغبت هيئة « ايام » الثائرة أن تستمع لجنة التحقيق إلى أقوالها . وكان أحد أعضاء مجلس العموم البريتانى قد قابل القائد العام لجيش تلك الهيئة ، فحمله القائد كتاباً إلى أعضاء لجنة التحقيق الدولية يدعوها فيه إلى زيارته ، ويبلغها استعداده للذهاب بنفسه إلى مقرها ليوضح شخصياً وجهات نظر جيشه الذى يسميه الجيش اليونانى الديمقراطى . وقد قررت اللجنة إرجاء اتخاذ قرار فى شأن هذه الدعوة إلى أن تعقد جلساتها فى سلانيك خلال الأسبوع الأخير

من شهر فبراير . وفى انتظار انتهاء التحقيق وظهور نتائجه أعلنت الحكومة البريطانية أنها ستسحب قواتها العسكرية من بلاد اليونان قبل اليوم الأخير من شهر مارس إلا فرقة واحدة .

الخلاف بين بريتانيا وألبانيا

وقد أخذ مجلس الأمن ينظر شكوى بريتانيا من ألبانيا ، وقد اتهمتها بأنها « تعمدت سرا » بث الألغام التى نسفت مدمرتين بريتانيتين فى مضيق كورفو فى الثانى والعشرين من اكتوبر لسنة ١٩٤٦ ، وذهب ضحية هذا الحادث أربعة وأربعون من البحارة البريتانيين ، وجرح من جرائه اثنان وأربعون بحاراً آخرون ، كما راحت ضحيته إحدى المدمرتين . وحضر مجلس الأمن ممثل ألبانيا وهو وزيرها المفوض فى بلغراد ، كما حضره وفد بريتانى بحرى كامل برياسة الأميرال تيلر ليؤيد مندوب بريتانيا الدائم لدى مجلس الأمن . واستند الاتهام البريتانى إلى أن قناة كورفو طريق دولية معترف بدوليتها ، للسفن البريتانية حق المرور فيها قانوناً ، وإلى أن الألغام المبثوثة كان بعضها على مسافة ثلاثمائة ياردة من الشاطىء الألبانى ، وإذن فيستحيل بثها دون علم الألبان . واستند الدفع الألبانى إلى أن ألبانيا لم تعترف يوماً بدولية قناة كورفو ، وإلى أنها لم تعرف شيئاً عن اللجنة المشتركة للتقاط الألغام ، وإلا كانت هى عضواً من أعضائها وهى مطلة على المياه التى تكتسح منها الألغام . وإلى ساعة كتابة هذه السطور ، لم ينته مجلس الأمن من النظر فى الخلاف .

قضية فلسطين

وقد انتهى مؤتمر فلسطين الذى كانت قد دعت إليه انجلترا وحضره مندوبون عن الدول العربية وعن عرب فلسطين ، انتهى إلى الاخفاق إذ رفض العرب المقترحات البريتانية ، وهى فى نظرهم قاضية بتهيئة أسباب الكثرة اليهودية فى فلسطين وبتشجيع إنشاء الدولة اليهودية بحيث تبتلع فلسطين كلها على الأيام .

وكانت الحكومة البريتانيةتتصل بالصهيونيين أثناء انعقاد المؤتمر وتعرض عليهم مقترحاتها كذلك ، وقد قابلوها بالرفض هم أيضاً ورأت الحكومة الانجليزية أن تعهد بالمشكلة الفلسطينية إلى هيئة الأمم المتحدة بعد أن يئست من مساهمة الحكومة الأمريكية فى تحمل أعباء المحافظة على الهدوء والنظام فى فلسطين . وترمى انجلترا بذلك إلى سبق الدول العربية إلى الهيئة الدولية العالمية ، وقد كانت هذه الدول مقررة فى مجلس جامعتها ببلودان أن ترفع الأمر إلى هيئة الأمم المتحدة شاكية انجلترا على اعتبار أنها صاحبة الانتداب ، فاستمهلتها انجلترا حتى هيأت لنفسها ظروف التقدم إلى الهيئة ذاتها ، لكن لا بصفة المشكو منها بل بصفة الحائر فى أمره من لغز فلسطين .

وقد نسيت انجلترا أنها هى خالقة هذا اللغز بما سبق أن وزعته من وعود متناقضة للعرب ولليهود : وعد الاستقلال العربي الشامل للحسين بن على ، ووعد بلفور للصهيونية العالمية .

محمود عزمى

شهرية المسرح

الموسم الفرنسى للكوميدى

تارتيف أو الدجال تأليف موليير(1)

افتتح الموسم الفرنسى للكوميدى بدار الأوبرا الملكية هذا العام بمسرحية من مسرحيات موليير . وهذا هو المتوقع المرتقب من فرقة على رأسها جان مارشا من الأعلام الفحول الراسخى القدم فى المسرح الذين عركوا قديمه وحديثه واضطلعوا فى الحالين بتأدية رسالته الخالدة .

والناظر فى ثبت الروايات المزمع تقديمها فى هذا الموسم يلمس الحرص الشديد على أن تنعكس فيها صور الفن المسرحى على اختلاف سماتها فى مختلف العصور على قدر ما يسمح به الزمن المحدود . وهذا الحرص الشديد مرجعه بلا ريب إلى شعور الفرنسيين بأن الفن المسرحى هو بين سائر وجوه الثقافة عندهم أغناها باللون وأنطقها بالتعبير ، وأنه عصاهم السحرية وأداة ذيوع شهرتهم الأدبية فى العالم عامة وفى الشرق العربى خاصة . ومن ثمة احتشدت فى برنامج الشهر الواحد جملة صالحة من أعيان التأليف المسرحى . وفى هذا الحشد الكبير ترى موليير ، وموسيه ، وكلوديل ، وجيرودو ، وأنوى ، وفايدو ، وجيرالدى وسالاكرو وغيرهم يحمل كل منهم إلينا آية من روائع آياته الكبرى .

وقد اختص — ولاجرم — بمكان الشرف فى صدر الموسم بين هؤلاء أجمعين جان باتيست الملقب بموليير العظيم . فهو — غير منازع — مبدع فن الكوميدى الحديث . ولقد كانت الكوميدى من قبله حكاية للمهازل الايطالية التقليدية ، وهى فى أكثر الأحيان غليظة الدعابة فاحشة المجون ، وإن كانت على الدوام كثيرة النوادر حافلة بالمضحكات . ومعلوم أن هذه المهازل التقليدية كانت تدور على ما اصطلح القوم عليه من شخصيات هزلية بعيدة عن الحياة الواقعية ؛ فلم يلبث موليير أن عدل بها عن ذلك ، وعمد إلى تقريب فن المهزلة من الواقع ، وتوجه إلى خلق مسرح هزلى جديد قريب من الحياة فى بيئته وزمنه ، بل قريب من الحياة الانسانية الخالدة فى كل مكان وفى كل زمان .

وقد وقع الاختيار من روايات

---

(1) Molière, *Tartuffe* ou *L'Imposteur*.

موليير على « تارتيف أو الدجال » لافتتاح الموسم بها . وهى الرواية التى « أثارت حولها ضجة كبيرة واشتد النكير عليها أمداً طويلا » على حد قول المؤلف عام ١٦٦٩ .

والواقع الذى لا خفاء به أن إضافة وصف « الدجال » إلى عنوان الرواية شهادة ناصعة ودلالة قاطعة على أن المؤلف إنما يقصد إلى المرائين الذين يحترفون التقوى ويتجرون بالدين.

ورواية « تارتيف » أشهر من أن نعرض لها بالتعريف ؛ فليس بين قراء الأدب من لم يقرأها فى أصلها أو فى إحدى تراجمها فى مختلف اللغات . ورواد المسرح المصرى يعرفون تارتيف ممصراً فى مسرحية «الشيخ متلوف» للمرحوم عثمان بك جلال الذى نقل شعرها الفرنسى فى كثير من التصرف إلى زجله الحى اللطيف.

وليس دور مدعى التقوى الزائف تارتيف من البساطة بحيث يقع الاتفاق على طريقة تأديته ؛ وذلك أن شخصية تارتيف مركبة معقدة يجتمع فيها التظاهر بالورع والشهوة المكبوتة وحب الرياسة والسلطة ، فنحن بازاء مزيج من الدناءة الخلقية المهينة والفطنة الذهنية العظيمة والقوة النزوعية العارمة . ومن ثمة كان دور البطل فى هذه المسرحية الهزلية مضحكا وفى الوقت نفسه رهيباً.

وقد اضطلع جان مارشا بهذا الدور فأحاط بجميع خصاله وأظهر سائر ألوانه وظلاله . وقد أجاد الممثلون أجمعون ، وعلى الأخص جان بول مولينو فى دور صاحب الدار المضيف فى سذاجته وطيبة قلبه وسرعة تصديقه وحسن اعتقاده . ولقد كان لماريون دلبو الوصيفة أثر ظاهر فى إشاعة المرح فى جو القصة و إثارة الضحك بين النظارة .

ومما يجدر ذكره والاشارة إليه حرص الفرقة على محاكاة المسرح فى عهد موليير نفسه . فقد أقامت على خشبة المسرح الفسيحة مسرحاً صغيراً تنير حافته الشموع أو على أصح القولين أشباه الشموع من المصابيح الكهربائية ، كما توخت البساطة فى معدات المنظر وستائره . وعلى هذا المسرح الصغير الأنيق بدت ملابس العصر بديعة الألوان لطيفة الهندام فى أجمل رونق وزينة .

وقد أبى على جان مارشا أدبه الجم و إدراكه لرسالة الفن فى تقريب الشعوب إلا أن يرتجل قبل تمثيل الرواية كلمة فى التنويه بالعلائق الثقافية بين فرنسا والشرق أشار فيها بموقف العطف الذى وقفته مصر تجاه فرنسا فى هزيمتها وفى أثناء مجهودها للنهوض من كبوتها ، وأعرب عن

يقينه الجازم بأن موقف مصر من فرنسا باق على حاله مهما تبدلت الأحوال . ثم ختم الممثل الكبير كلمته بانشاد قصيدة وطنية للكاتب الشاعر الكبير بول كلوديل . وكان جان مارشا يلقى كلمته وخلفه منظومة من الحسان هن كواكب فرقته فى أبدع ما أخرجته دور الأزياء من حلل السهرة .

وهكذا كانت حفلة الافتتاح جامعة بين الفن المسرحي والشعر الحماسي والمناظرات الثقافية ومعارض الأناقة الباريسية .

ولا غرو أن يكون ذلك كذلك ؛ فتلك هى الروح الفرنسية .

لو أنى أردت تأليف بول جيرالدى وروبرت سبتزر(١)

هذه مسرحية من اللون المكفول سلفاً عند الكافة من المتفرجين نجاحه ورواجه ، وحظوته لديهم وحسن موقعه منهم . فهى تدور أولاً وآخراً حول ذلك المخلوق العجيب الحبيب : « المرأة » . ثم هى تدور حول المرأة لا بالمعنى الفلسفى التجريدى ، بل بالوضع الغريزى والمعنى الطبيعى .

فهذا زوج وزوجته — فيليب وجرمين — يعيشان فى مغناهم الريفى الأنيق ، وقد مضى على زواجهما نيف وعشر سنوات فى صفاء ودعة وسكينة ، يعيش كل منهما لصاحبه ، مطمئنا إلى هواه ، مستريح البال من ناحيته حتى ليكاد أن ينساه .

وفى ذات ليلة رائقة مقمرة من ليالى الصيف يهبط على البيت فى ساعة متأخرة ، وعلى غير موعد ولا انتظار ، صديقة لربة البيت هى مارسيل على نية المبيت وقضاء بضعة أيام .

وكانت جرمين من ذوات العقل والرصانة بقدر ما كانت صديقتها من خفاف الأحلام .

وهنا فى سكينة الريف ، وفى ركن هذا البيت الناعم القرير ، يدور بين المرأتين هذا الحديث الخطير .

تقول جرمين فيما تقوله تؤنب صاحبتها : « هذا فظيع يا صغيرتى المسكينة ! فظيع هذا الذى تقولينه ! حسبتك قد نزعت عن جهلك وراجعت رشدك . لم تكونى مع زوجك سعيدة وقد انفصلت عنه بالطلاق ، فأنت اليوم حرة طليقة . ولكن ، ولكن يجب مع ذلك أن تتدبرى ما تأتينه . لقد تورطت منذ ذلك الحين فى مغامرة

(١) Paul Géraldy et Robert Spitzer, *Si je voulais.*

غرامية أولى ، فلم أواجهك بكلمة لوم . تذكرين ؟ ولكن ، هذه أخرى . يجب أن تفكرى فيما أنت صائرة إليه . سوف ينتهى الأمر بك إلى التدهور ، إلى سقوط الحرمة فى أعين الناس . ماذا يظن الناس بك؟ ماذا هم قائلون عنك؟ حتى أحباؤك لن يجدوا سبيلا للدفاع عنك ! » .

وتدافع مارسيل عن نفسها فتقول فيما تقوله : « أنت — يا عزيزتى ! — غير مستطيعة فهمى . أنت تختلفين الاختلاف كله عنى . وماذا تريدين منى؟ ليس الأمر فى يدى ، ولا الذنب ذنبى ، إذا أنا رقت فى أعين الرجال . صدقينى . لست أتعمد ذلك ولا أفكر فيه ولا أنشده . ولكنها ميزة فىَّ . هى فتنة ، سحر ، أو ما شئت فسميه . ولكن ، أنت لا تفهميننى . ليست كل امرأة جميلة بالتى تروق فى أعين الرجال . تقولين إنك لا محالة تروقين فى عين فيليب ، وأنا معك فى هذا ، ولكن فيليب زوجك . آه ، إنى شئ آخر ، إنى أروق فى أعين الرجال جميعاً ... »

هذا الحديث أو ما فى معناه دار بين المرأتين الشابتين . وجرمين زوجة شريفة عاقلة ما فى ذلك ريب . ولكن المرأة مع ذلك قد تعرض لها حال من الأحوال فى لحظة من اللحظات تفقد فيها اتزانها بعضه أو كله . وهذه الحال عرضت لجرمين فى صورة الشك فى حظها من الحظوة فى أعين الرجال ومبلغ قدرتها على الفتنة واهتياج الشوق لو أنها أرادت !

هذه هى نقطة البداية فى الرواية ومحور موضوعها ومدار حوادثها .

وتسلطت هذه الفكرة الواحدة على جرمين ، وتربعت فى خاطرها ، وركبتها واستبدت بها وأخذت المذاهب عليها ، حتى وقر فى نفسها أن الفصل فى هذا الأمر هو الحكم على حياتها ، المؤتة بالنجاح أو الخيبة .

ولاشك فى أن هذا المعنى الذى أورده المؤلف مروع فى ذاته ، ولكن روعته لاتمنع من صحته ، إن كان صحيحاً .

ومؤلف الرواية بول جيرالدى من أشهر شعراء الغزل المحدثين عند السواد الأعظم من الفرنسيين بديوانه الموسوم « أنت وأنا » . وهو كاتب مسرحى مقل،فلا يزيد عدد مسرحياته على أصابع اليد الواحدة ، بما فى ذلك المآسى والملاهى ، وقد اشترك معه فى الآخيرة صديقه الحميم سبتزر، وقد كان النجاح حليفها جميعاً . والرواية التى نحن بصددها ملهاة لطيفة لذيذة . ومؤلفنا بول جيرالدى يجيد تصوير دخائل الحياة الخصوصية الغرامية ،

ويؤثر تناول القلب الانسانى من نواحيه الضعيفة الرقيقة، ولا سيما قلب المرأة. وهو شديد الحرص عامة على الصدق، ولكنه أشد حرصاً على النسق الزخرفى الشائق والحوار الشعرى الرائق. وقد أظهر فى هذه الرواية براعة فى الالمام بالمعانى الجريئة بعبارة ملفوفة غير مكشوفة، متصونة غير متبذلة. وفى الرواية عاصفة كان يمكن أن تكون الجائحة الكاسحة، ولكن التعقل والحكمة كانا عند المؤلف لحسن الحظ من الخصال المحببة الغالبة. ومن ثمة كان ما اختاره لروايته من النهاية السعيدة.

لقد تعرضت الزوجة يوماً كاملا لمواقف دقيقة وأزمات عصيبة، فيها سخف وألم، ولكنها تلقت آخر الأمر الجواب على سؤالها من غير أن تقع فى الخيانة الكبرى لزوجها.

ولا يسعنا وقد شهدنا تمثيل الرواية بعد قراءتها إلا أن نقرر أنها فازت بالنجاح الذى قدرناه لتوافر عوامل النجاح فيها، وأنها فازت بأكثر مما قدرناه من النجاح الباهر بفضل الممثلين الفنانين واقتدارهم على أدوارهم وحذقهم الأداء وإتقانهم المحكم للتمثيل. ونذكر فى الطليعة جان مارشا. فما ندرى ماذا كان يمكن أن يكون فيليب الزوج غير ذلك فى سجاحة خلقه، وسخاوة طبعه، وخلوص نيته، وصدق مودته وأريحيته، واستقامة وجهته وصراحته. ثم جان ألفا فى دور الزوجة الشابة المحبة، الحائرة العاقلة، الثائرة المتماسكة. وإلى جانبهما جيزيل كساديسو، فى دور مارسيل، خفيفة الظل بقدر ما هى خفيفة العقل طياشة، يسكرها الاطراء لجمالها فيدار برأسها إلى حد تسليمها فى نفسها. ثم لوسيان باسكال، فقد أبلى البلاء الحسن فى دور صديق الأسرة برتييه الذى يجرى جريه وراء متعته دون أن تضعف مروءته، ودون أن يفقد الايمان بالفضيلة والاعجاب بها. وأخيراً أنطوان فليرى ابن عم الزوجة فى حماسة شاعريته، وقد تعمد الفنان الخروج بها إلى باب الهزل فأتى بما أضحك الحاضرين جميعاً وصادف هواهم وكسب رضاهم.

وخلاصة القول إن الرواية قوبلت منذ أول ليلة لتمثيلها فى عاصمة الديار المصرية كما قوبلت أول تمثيلها على مسرح الجمناز فى عاصمة البلاد الفرنسية بأحسن القبول وأخر مظاهر الاستحسان والتقدير.

عبد الرحمن صدقى

شهرية السينما

الحسناء والوحش (انتاج أندريه پولڤيه)(١)

هذا فيلم آخر يضيفه مسيو جان كوكتو إلى إنتاجه السينمائى وينال به استحسانا عاما — لأنه عندما يقوم بأثر فنى يعكف عليه ، فما يزال به حتى يخرجه كاملا محققاً لغايته . ولذلك قلما نجد فى فيلم من إنتاج غيره مانلمسه فى إنتاجه هو من جهة التصوير أو الاخراج . وهو يجتهد حينما يعمل للسينما أن يبتعد عن الأسلوب المعتاد فى الاخراج ليأتى بشئ جديد . وهو لا يعتمد فى ذلك إلا على خياله من حيث هو شاعر ، وعلى ذوقه الفنى من من حيث هو رسام . وتمده الخدع السينمائية بكل مايحتاج إليه من وسائل لتحقيق غرضه .

يطلب منا كوكتو عند ابتداء عرض فيلم « الحسناء والوحش » أن نشهد حوادثه فى سذاجة الأطفال ، تلك السذاجة التى حملتنا ، ونحن فى السابعة من عمرنا ، على الاعجاب بقصص الأعاجيب . فلم يكن ثمة سبيل إلى تذوق الجمال فى أثر كوكتو الفنى دون هذه السذاجة ؛ لأنه عرض علينا قصة خرافية طالما شغفنا بها فى طفولتنا. وسرعان ما تساءلنا والمشاهد تمر أمامنا ألا يزال ثمة شئ من سذاجة القصة التى تكوّن مبعث الجمال فيها بعد أن لجأ إلى كل الحيل السينمائية لاخراج هذا الفيلم . إن الشاهد ليشعر بغضاضة من تلك المناظر ؛ لأنه يعلم تمام العلم أنها نتيجة خدع المصور وخدع المخرج وخدع المؤلف فينمحى الجمال ولا يبقى إلا إعجاب بتلك الصناعة السينمائية الماهرة .

إن الخيال هو خير معاون للأثر الفنى ، وخاصة إذا وجد السبيل إلى الجموح . أى إن على المؤلف أو المصور أن يترك للمشاهد أو القارئ فرصة أن يتمم الأثر الفنى بخياله . فهناك تعاون بين المؤلف والقارئ أو بين الفنان والمشاهد . فالقارئ يجد عند مطالعة قصة مجالا يسبح فيه بخياله ليكمل ما عجزت عن تصويره الكلمات ، فيشيد قصراً من خياله ، ويؤثثه من خياله، ويصبغ الأشياء بالألوان التى تروق له. والقصص الخرافية خاصة ترسل العنان لخيال القارئ فيملأها بما يروق له من

(١) La Belle et la Bête (*Production André Paulvé*).

أعاجيب . ولهذا تصادف تلك القصص هوى فى نفوس الأطفال . فعندما قام كوكتو باخراج قصة « الحسناء والوحش » أزال كل فرصة للشاهد أن يترك خياله على سجيته ، وصور لنا الأشياء كما يراها هو لا كما نراها نحن أو كما رأيناها عند قراءة هذه القصة . فأفقدنا ذلك الحلم اللذيذ الذى طالما سبحنا فيه ونحن أطفال ، والذى لا نود أن ينهار بشهود ما حققه لنا كوكتو فى هذا الفيلم من حوادث تلك القصة الشائقة .

ومهما يكن من أمر فان فيلم كوكتو ليس بالعمل الذى ينقصه شئ . فانه إنتاج فنى رائع يظهر فيه جلياً مجهود منتجه ليصل إلى الكمال فى التصوير والاضاءة . وقد رفع من شأن هذا الانتاج تمثيل جان ماريه فى دورين مختلفين هما دور عشيق الحسناء ودور الوحش . وقد أظهر رغم النقاب فى دور الوحش قدرة على التعبير المعتدل وعظمة فى إيماءاته ومشيته . أما جوزيت داى فقد مثلت دور الحسناء بكل ما يتطلب هذا الدور من وداعة ورقة .

رسائل غرامية (فيلم برامونت) (١)

هذه قصة غرام ساذج نقى نشأ بين شابين جمعت بينهما الرسائل التى يتلقاها كل منهما من الآخر . لم يكد يجمعهما الزواج حتى دب بينهما الشقاق، فقد وجدت الفتاة زوجها ذا عقلية تختلف عن العقلية التى لمستها فى رسائله . وفى الحقيقة أنه لم يكن هو كاتب تلك الرسائل ، وإنما كان يعهد بها إلى صديق له . فهى إذن لم تقترن بمن أحبت وإنما بمن غرر بها وحملها على الاعتقاد بأنها تحبه . فثمة شخص آخر سلبها لبها وامتلك نفسها . وها هى ذى فى محنتها تعود إلى قراءة تلك الرسائل لعلها تجد سلوى؛ ولكن الزوج تدفعه الغيرة إلى أن ينتزع منها تلك الرسائل التى تنقل إليها عبير غرام شخص آخر. وتحدث بين الزوجين مشادة تنتهى بمصرع الزوج فى ظروف غامضة . تصاب الزوجة بفقد الذاكرة حينما ترى زوجها صريعاً أمامها ويديها مخضبتين بدمائه . ثم تجمعها الأقدار بصديق زوجها كاتب الرسائل دون أن تعلم عن حقيقته شيئاً ، وهو لا يحاول أن يظهر لها حقيقته لما فى ذلك من صدمة

(١) Love Letters (*Paramount Picture*).

عنيفة قد تذهب بقواها العقلية . تهيم بالفتى وتتزوج منه ويعيشان معاً عيشة هنيئة ، غير أن الأقدار تعكر هذا الهناء بعض الشئ ، ثم تعود به إلى صفائه الأول . ففى ظروف عصبية مؤلمة تعود إلى الزوجة ذاكرتها ، ويتضح لها أنها لم تقتل زوجها الأول . يعود إليهاصفاء النفس بعض الشئ ، وتهم بالخروج للبحث عن ذلك الذى أحبت ، فتلتقى بزوجها وقد أخذ يعيد إليها جملا من الرسائل التى كان يكتبها لها .

والقصة كما نرى تقوم على ذلك الغرام الذى نشأ بين الشابين من الرسائل ،وتوشك أن تنتهى بموت الزوج والتقاء العاشقين . ولكن هناك عنصراً آخر أدخله المؤلف ليؤخر من حل العقدة وهو مرض فقد الذاكرة وما يستتبعه من دراسة تحليلة لحالة الفتاة المريضة . وهذا هو الاتجاه الجديد الذى نلمسه فى العدد الأكبر من إنتاج السينما الأمريكية فى الموسم الحالى. وقد يعتبر هذا الانتاج انتاجاً موفقاً لما فيه من دقة وأمانة فى التحليل النفسى ومن حسن و إتقان فى الأداء . كان يقوم بدور الفتاة الممثلة الناشئة جنيفر جونس . فكان النجاح حليفها .

وقام الممثل جوزيف كوتن بدور الفتى العاشق فى توفيق ونجاح .

عطلة الاسبوع المفقودة (فيلم براموونت) (١)

عرض لأول مرة فى مصر فيلم من من الأفلام التى حازت جائزة مهرجان كان ، وهو فيلم « عطلة الأسبوع المفقودة ». وعرض أيضاً فيلم «الحسناء والوحش » الذى لم يظفر بجائزة رغم أنه يستند على إخراج متقن وتصوير فنى بارع وقصة ساحرة لا تخلو من جمال ؛ أمافيلم «عطلة الأسبوع المفقودة» فلم تجتمع فيه كل هذه العناصر لتمهد له السبيل إلى النجاح . فليس له قصة كما يجب أن تكون القصة ، ولم يطغ فيه الاخراج المتقن على التمثيل . و إنما استندفى نجاحه على التمثيل البارع العجيب وعلى الصورة الواقعية التى ساقها إلينا. قدم لنا هذا الفيلم ثلاثة أيام من حياة شاب امتحن بداء الخمر حتى إنه لم يكن يستطيع أن يمضى دقيقة واحدة دون أن يتناول الخمر . لقد حاول أخوه وخطيبته أن يرداه عن تلك العادة القاتلة ، ولكن فى غير جدوى . فهو

(١) The Lost Weekend (*Paramount Picture*).

يعرف كيف يخفى عنهما زجاجات الخمر وراء كتب المكتبة ، أو فى الثريا ، أو مدلاة خارج النافذة . و إن منعت عنه النقود فلا يعوقه شئ عن تبديد نقود الخادم العجوز ، أو نشل حقيبة جارته فى الحانة أو التوسل إلى صاحب الحانة ليتكرم عليه بكأس صغيرة .

كان ينوى أن يقضى عطلة الأسبوع مع أخيه فى الريف ، غير أن السكر أنساه ميعاد القطار ، فبقى فى المدينة يتنقل من حانة إلى حانة يستأنف فى كل منها تناول الشراب . ثم يعود إلى المنزل ليستأنف الشراب أيضاً . أصبح لا يعيش إلا بالخمر وللخمر ، حتى انتهى به الأمر ، وقد مضى عليه بضع ساعات دون أن يتناولها فأعياه ذلك إعيــاء شديداً ، إلى مستشفى مدمنى الخمور . وهناك رأى مآل هؤلاء القوم التعساء ، فنفر من ذلك المصير المحتوم وولى الأدبار ليستأنف الشراب . وأخيراً لما خيل له أن نهايته قد دنت صمم على الانتحار ليخلص من محنته هذه . ولــكن خطيبته تحول بينه وبين ما يريد ، وتقدم له الخمر لترجعه عن عزمه ، فينفر فجأة من الكأس . لقد أنقذته من تلك المحنة مغامراته فى عطلة الأسبوع المفقودة .

وقوة القصة فى تحليلها الدقيــق الصادق ، و إن لم تكن نهايتها تتفق والمنطق . فليس ثمة من سبب يشفى هذا المدمن من دائه بعد أن عانى منه ماعانى ست سنوات ، وأصبح ينفر من الطعام فلا يتناول شيئاً منه . إن هذا الشفاء لا يأتى إلا بعد علاج طويل يتطلب إرادة قوية من المريض ، وينجح حيناً و يخفق أحياناً . وهذه القصة تفتح عهداً جديداً فى السينما . فللآن لم نر مثل هذه الأفلام التى لا ترتكز على قصة جذابة قوية ، و إنما تقوم على الدراسة والتحليل .

وقد يبدو أول وهلة أن هذا النوع من الأفلام لن يجد سبيلا إلى رضا الجمهور ؛ فالمناظر قليلة حتى لا تطغى على القصــة ، والقصة خالية من المفاجآت وليس هناك إلا ممثل واحد نراه لمدة ثلاث ساعات متتالية . ولكن فى الحقيقة وجد فيلم « عطلة الأسبوع المفقودة » سبيلا إلى النجاح لطرافته أولا ، ولبراعة ممثله راى ميلاند ثانياً . فهذا الممثل الذى يثير بتعبيراته الصادقة انتباه الشاهد طول عرض الفيلم هو ممثل ذو مواهب خارقة . لقد كان أداؤه على درجة من الاتقان حتى لخيل إلى من شاهده أنه يطالع فى كتاب تحليلا بارعاً لنفسية مدمن الخمر .

رشدى كامل

من وراء البحار

أدباء الألمان فى الوقت الحاضر

يرى هاينريخ فيشر ، كاتب المقال الهام الذى يبحث فى أدباء الألمان فى الوقت الحاضر ، وهو مقال نشر فى مجلة « هورايزن » الانجليزية فى عدد يناير ١٩٤٧ ، أن منظر ألمانيا فى الوقت الحاضر ، وهو منظر دمار وانحلال ، يدل دلالة بارزة على انحلال التفكير الانسانى فيها ، وهو نتيجة ست سنوات بل اثنتى عشرة سنة قضتها ألمانيا فى حرب ورعب . لذلك كانت الحياة الأدبية فيها الآن حياة فوضى غريبة ، حتى إنه لم يعد من السهل أن يعرف أكان الكتاب فى ألمانيا شركاء لهتلر أم هم ضحية له . لذلك يجب لكى يكوّن المرء فكرة عامة عن هذه الحال ، أن يحاول تبين خصائص الحياة العقلية فى ألمانيا .

فمن أول مميزات هذه الحياة ، وهى التى تبعث الدهشة لدى الأجنبى الذى يريد استكشاف الآداب الألمانية ، صفة تشاهد حتى قبل عهد هتلر ، وهى أن الأدباء الألمان قابلون للتحول عن آرائهم يوماً بعد يوم . ففى البلاد الأخرى نجد الأدباء هم الذين يخلقون الآراء التى يعتنقها الناس ، فى حين نجد الكتاب فى ألمانيا يسيرون وراء الآراء التى يخلقها الجمهور ؛ إذ نجد بين كتاب الألمان من أقدم على تغيير ، لا رأيه السياسى فحسب ، بل أسلوبه ونظرته إلى الأدب والحياة أيضاً ، ولم يتغير مرة بل ثلاث مرات أو أربع مرات . ونجد أمثلة كثيرة على ذلك بين كتاب الألمان من جرهارت هادثمان إلى هانز كانوسا . ولقد كانت هذه الظاهرة من العلائم السيئة فى الأدب الألمانى . وقد اعتاد الجمهور الألمانى ألا ينتظر من أدبائه الاستمرار على فكرة والمحافظة عليها . وصار الأدب مجرد شعور ذاتى حتى لدى الأدباء الذين يصبون مؤلفاتهم فى قالب أخلاقى أو سياسى . فاذا كان هتلر قد استولى على السلطة فليس ذنب الكتاب أنهم لزموا الصمت بما يدل على الرضا ، إذ الواقع أنه لم يرتفع صوت احتجاج واحد داخل ألمانيا ، بل إنهم انقلبوا أنصاراً للاشتراكية الوطنية ، ورأوا فيها اتجاهاً أدبيا

ناجحاً يستطيع الأديب أن يسير فى تياره فيصل إلى الشهرة فى أقرب وقت.

وقد يكون من المغالاة أن تقول إن هذا المظهر لم يكن إلا نوعا من انتهاز الفرصة ؛ إذ الواقع أن الاشتراكية الوطنية كانت توافق جانباً من تفكير الأديب الألمانى الحديث ، وهو إدارة ظهره عمداً لحقيقة الحياة . فقد أخذ الكتاب الألمان منذ عهد ستيفن جورج ينفصلون عن العالم الذى يحيط بهم ، ويخلون إلى أنفسهم . وإن الأسماء الكبيرة فى عالم الأدب فى الأربعين سنة الأخيرة لتدل على ذلك؛ فكارل ريلكى وفرانز كفكا والشاعرة الكبيرة لاسكار شويلر ، والشاعر النمساوى جورج تراكل ، كلها أسماء تبرهن على صحة هذا القول . وهذه الرغبة النفسية تظهر فى الكتاب حتى عهد هتلر ، وقد لحظها الناقد الألمانى ياكوب فاسرمان .

فاذا ما سقط النظام الذى أقامه هتلر ، كان على عالم الأدب أن يجيب على أسئلة عدة : كيف يقابل الأدباء الحرية التى ردت إليهم ؟ وكيف يواجهون الظروف الجديدة ؟ وماذا يعملون فى سبيل الاتجاهات الأدبية ؟ وإنها لفرصة كبيرة وصفها الكاتب كارل بارت بقوله: « إن ألمانيا هى الآن معسكر ضخم لأسرى الحرب ، والألمان هم الأسرى داخل البلاد وخارجها . ولكن لألمانيا اليوم ميزة ليست لغيرها من البلاد ، وهى أنه لم يبق لها إلا أن تبتدئ حياتها من البداية . » ومعنى ذلك فى عالم الأدب أن تعود إلى الحقيقة ، وأن تخرج من تصوفها وعزلتها وأن تسلك طريق المسئولية الشخصية ، بعيدة عن الأعذار التى تنتحلها .

ويمكن أن يقال إن بعض الأدباء عرفوا واجبهم ؛ فالروائى أرنست فيشرد، الذى كان معادياً لنظام هتلر واعتقل فى إحدى المعسكرات ، أصدر من بضعة أشهر نداء للشبيبة الألمانية يدعوهم فيه إلى مواجهة الحقائق . ولكن الأصوات التى ارتفعت فى هذا الاتجاه كانت قليلة ، وظل السواد الأعظم من الأدباء والموسيقيين ورجال المسرح ملتزمين الصمت ، فى الأشهر الأولى بعد التسليم ينتظرون فى قلق ما يحل بهم من عقوبة . على أن هذه العقوبة لم توقع إلا فى النادر . وعلى ذلك أخذ أبرز الكتاب فى عهد هتلر يتجهون نحو الصحف التى سمحت قوات الاحتلال بظهورها ، وابتدأت مقالاتهم بأنواع من الاعتذارات وبأقبح الذم فى نظام هتلر ، وبأكبر المبالغات فى تمجيد انجلترا وروسيا وأمريكا . ومن الأمثلة البارزة على ذلك

أن إميل يانئجز الممثل المشهور فى عهد الفوهرر أعلن أن جدته يهودية ولدت فى روسيا . وأن دكتور كارل شارينج ، الذى كان من أوفى المذيعين لجوبلز ، كتب رسالة إلى الاذاعة البريطانية يطلب إليها عملا . وأن أيرك إبرمير تقدم لخدمة الأمريكان فى بافاريا فعين محافظاً لاحدى المدن ، فما كان من إحدى الصحف الألمانية إلا أن نشرت له رسالة كتبها فى سنة ١٩٤٢ يفخر فيها بعلاقاته مع جوبلز وجورنج . وقد كتب أحد الكتاب الذين اشتهروا فى عصر النازى ، وهو أوتو فليك ، نداء إلى الأدباء الألمان يعتذر فيه عن ضعفهم بأنهم اتبعوا مثل جيته ، والفيلسوف الصينى ثاو ، الذى قال إنه يجب على الانسان أن ينحنى ولا ينكسر بل عليه أن يعيش .

ولقد أدت هذه المحاولة التى أقدم عليها الأدباء الألمان بلا خجل إلى مواقف عجيبة ؛ فقد أعلن فى إحدى الصحف الألمانية أن روايات هانز فلادا قد سحبت من المكتبة العامة ببرلين لما فيها من اتجاهات نازية ، وظهر فى العدد نفسه من الصحيفة حديث مع هانز فلادا يعلن فيه أنه شرع يضع مؤلفاً ضخماً يستنكر فيه مبادئ النازية ، إذ يرى أن من واجبه أن يربى الشبيبة الألمانية !

ولكن المثل الأكبر لهذا الميل ، الذى ظهر فجأة فى الكتاب الألمانيين لتسويغ عملهم ، هو ما دار من نقاش حول موقف توماس مان .

لم يكن توماس مان بعيداً عن أخطار العزلة الفكرية التى كانت من نصيب الكتاب الألمان قبل أن يتسلم هتلر زمام السلطة ، وكانت هذه العزلة نوعاً من الاتجاه إلى تقليد الأدب الكلاسيكى . ولكن توماس مان صبّت عليه المحن فى عهد هتلر ، فتعلم من هذه المحن الاعراب عن خواطره بقوة والاتجاه نحو الحقيقة . وكان ذلك السبب فى أن إذاعاته للألمان كانت مليئة بالحياة فتأثر بها كل من سمعها ، و إن لم يكن لها الا صدى ضعيف عند الكتاب الألمان ، ولعلهم كانوا ينتظرون منه أن يمتطى جوداً أشهب ، ويدخل إلى برلين منتصراً على أثر جنود الحلفاء ، ليفتح صدره للأدباء الألمان ويعانقهم بعد القطيعة .

ولقد نشر كاتب من كتاب القصص التاريخية اسمه وولتر فون مولو رسالة مفتوحة الى توماس مان فى الصحف الألمانية ، دعاه فيها إلى العودة فى أسرع وقت إلى ألمانيا ليتزعم الحركة الأدبية . فرد عليه توماس مان رافضاً هذا العرض . وقام حول رفضه جدل

عنيف . ومن أهم ما جاء فى رسالة توماس مان قوله :

« لقد سرنى طبعاً أن ألمانيا تريد عودتى ، ولكنى أجد فى هذه الدعوة شيئاً مقلقاً ومثيراً ، ولا أقول غير منطقى أو ظالم ، أو على الأقل لم يدرس جيداً . فانك تعلم أنه من العسير نصح ألمانيا ومساعدتها اليوم بعد الكارثة التى لا مخرج منها، والتى جرها الشعب الألمانى على نفسه . إنى هرم وقد أثرت الأزمنة المثيرة التى عشنا فيها فى عضلات قلبى . فهل أستطيع أن أساعد مساعدة جدية إذا جئت إلى تلك البلاد بجسدى ؟ وهل أستطيع أن أقيل من عثرة أولئك الذين سقطوا إلى الأعماق ؟ إنى أعتقد أن ذلك مشكوك فيه . هل يمكن محو هذه السنوات الاثنتى عشرة وما حدث فيها من الذاكرة كأن هذه السنوات لم تكن ؟ إنك يا سيدى لم تعرف قط ما يكتنف قلب المنفى من ضيق ، وما يشعربه من مخاوف وعزلة وما يتوقعه من مفاجآت ، ذلك الرجل الذى لا مأوى له . لقد مضت علىّ أزمان كنت فيها حانقاً للمزايا التى ظللت أنت تتمتع بها ، وبدا لى أن ذلك إنكار للتضامن بيننا . ولو حدث فى مبدأ الأمر أن كل رجل وامرأة له اسم فى عالم الفكر بألمانيا قد ثار ورفض تلك الذلة ، ولو حدث أن كل مفكر انضم إلى إضراب عام وهجر ألمانيا ، لكان لذلك شئ من التأثير فى البلاد وخارج البلاد . ولو أننا جميعاً عملنا ذلك لما كان ما حدث من بعد . . . لقد كان من وسائل العذاب العديدة لدينا أن رأينا الفكر الألمانى والفن الألمانى كيف يتطوعان لخدمة الدمار . فكيف يظن امرؤ أنه يقوم بخدمة شريفة إذا عهد إليه فى تصوير رسوم لروايات فاجنر كى تمثل هذه الروايات فى بايرويت فى عهد هتلر ؟ إنها لحالة عجيبة يخيل لى أنها تدل على عيون عمياء وقلوب من حجر ؛ إذ نرى رجلا يسافر إلى المجر أو أية بلاد أوربية أخرى ، وفى جيبه جواز موقع عليه من جوبلز ليلقى بعض المحاضرات الشيقة ، كى تكون دعاية ثقافية للدول الهتلرية . لا أقول إن هذا العمل فضيحة ، ولكنى أقول فقط إنى لا أفهمه وأشعر بالارتباك عندما أفكر أنى قد أقابل مثل هؤلاء الأصدقاء مرة أخرى . . . لست أفهم لماذا لم تمنع رواية « فيدليو » ، من تلحين بتهوفن فى هذه السنوات الاثنتى عشرة فى ألمانيا . لقد كانت هذه الرواية جديرة بافتتاح الموسم فى يوم تحرير الألمان لأنفسهم . ومن الفضيحة أن تكون هذه الرواية أخرجت قبل ذلك

إخراجاً جيداً ووجدت مغنيين يغنون أناشيدها ، وعازفين يعزفون نغماتها ، وجمهـوراً يصغى إليها . ما أقسى الرجال الذين حضروا رواية « فيدليو » فى ألمانيا الخاضعة لهملر ، دون أن يغطوا وجوههم بأيديهم ودون أن يتركوا دار الأوبرا مسرعين متألمين . . . إنى لتواق لمعرفة كل ما أستطيع معرفته عما يحدث فى ألمانيا بأية وسيلة ، فأنباؤها تسترعى عينى قبل أية أنباء أخرى من العالم الواسع ، ذلك العالم الذى أخذ يشعر بنفسه دون أن يفكر كثيراً فى ألمانيا ، وفى هذا ما يدلنى يوماً بعد يوم على الرباط الذى لا ينفصم والذى يصلنى بتلك البلاد القديمة التى طردتنى من عداد أبنائها . هل أنا أمريكى ومواطن من مواطنى العالم ؟ أجل ! هذا ما صرت إليه ، ولكن كيف أنكر الجذور التى نبتّ منها ؟ وبالرغم من الجرائم التى ارتكبها أولئك الذين جروا وراء آلهة غريبة كيف أنكر التقاليد الألمانية التى كانت فيها نشأة عملى وحياتى ؟

« لن أعدل عن اعتبار نفسى كاتبا ألمانيّا . ولقد كنت أمينياً على اللغة الألمانية حتى فى السنوات التى كانت كتبى فيها لا ترى ضوء الشمس إلا فى ثوب انجليزى . وليس ذلك لأن السن تقدمت بى حتى صرت لا أستطيع أن أتخذ لغة جديدة فحسب ، بل لأنى كذلك كنت أعرف أن لمؤلفاتى مكانها المتواضع فى تاريخ الأدب الألمانى . . . إن ألمانيا لم تمنحنى قط ساعات راحة : لقد كنت أتعذب معكم ، ولم أكن مبالغاً حين كتبت فى رسالتى إلى جامعة بون على القلق والحزن والعذاب الذى حاق بأفكارى وبحياتى جميعها ، ولم تنج منها ساعة من ساعات السنوات الماضية فى حياتى . وهذه هى المحن التى كان علىّ أن أقاومها فى عنف لأشق طريقى بوصفى فنانا خالقا » .

أثارت هذه الرسالة جدلا عنيفاً بين الكتاب الألمان . ولا ريب فى أن مسألة المهاجرين وعودتهم جديرة بالمناقشة . ولكن الكتاب الذين ردوا على هذه الرسالة كانوا من أولئك الذين لعبوا دوراً فى العهد الزائل ، وأرادوا أن يحتفظوا بمركزهم فى العهد الحاضر. من بينهم أديب اسمه فرانك تيس اخترع عبارة الهجرة الداخلية التى لجأ إليها هو وأمثاله فى عهد هتلر ؛ فهم على قوله كانوا مهاجرين سريين . هـذا مع أن كتبهم كانت تدر عليهم الأموال والشهرة . قد يكون هـذا الوصف منطبقاً على بعضهم ، ولكن السواد الأعظم منهم

لا ينطبق عليه هذا الوصف .

فاذا كان واجب الأدباء الألمان أن يتصلوا بالحقيقة ، وقليل منهم ويا للأسف يعمدون إلى هذا الاتجاه ، فان هنالك طريقين حاول بهما هؤلاء القلائل الاتصال بالحقيقة . أول هذين الطريقين الارتباط عمداً بالحياة العقلية فى غرب أوربا . والطريق الثانى العودة عودة حقيقية إلى التقاليد الألمانية ، لا اتخاذ هذه التقاليد على أنها زى جديد كما فعلوا فى عهد هتلر . ونجد فى أماكن مختلفة فى ألمانيا وبين المهاجرين من اتبعوا هذين الطريقين . ففى عهد هتلر نجد داخل ألمانيا الكتاب الكاثوليك هم الذين أزالوا الغشاوة عن أعينهم . ومن أشهر هؤلاء تيودور هيكر الذى توفى فى العام الماضى ، وقد ترجم كتب كيرجارد وكردنيال نيومان وبيلوك وفرانسيس تومسون ، ولكنه لم يكن مجرد ناقل بل كان كاتباً من الطبقة الأولى بين كتاب المقالات. وتعتبر كتبه « ما هو الانسان ؟ » عن بول كلودل، وكتابه الأخير : «عن الجبال» مثلا صحيحاً لما سمى بالهجرة الداخلية .

ومن بين أقرانه نجد المؤلفة الروائية جرترود فون لفورت والشاعر شنيدر والكاتب إرنست جوينجر مؤلف قصة « على تلال الرخام » .

ولقد حافظ الشاعر ديتريش بونهيفر على نزعة أدت به إلى الاتهام بالخيانة فى سنة ١٩٤٣ ، ثم قتل فى المعسكر الذى اعتقل فيه قبل أن تصله جيوش الحلفاء .

أما المهاجرون فمنهم ، فضلا عن توماس مان الذى عاد إليه شبابه ، ماكس هرمان نيس الذى مات بلندن فى غارة جوية سنة ١٩٤٠ ، وقد ترك مجلدين من الشعر فيهما وصف للريف الانجليزى ومخاوف الغارات والوحدة التى يجدها المهاجر .

ومن الكتاب المهاجرين برتولد فرتل الذى كتب بالألمانية عن الحياة فى انجلترا وأمريكا ، وبيرت درخت الشاعر ، والكاتب المسرحى انريجو بك الذى يعيش فى سويسرا ، وقد جمع بين وصف المناظر الألمانية والأسبانية .

فهل تجتمع هذه القوات المختلفة فتدب الحياة فى الأدب الألمانى من جديد ؟ كل ذلك سيتوقف على ظروف خارجية وعلى أحوال ألمانيا الاجتماعية ، وعلى تعقل لجنة المراقبة للحلفاء .

ظهر حديثا

مائة سنة من الحياة السويسرية فى القاهرة[1]

أخرج الأستاذ فيشتر ، مدرس اللغة الفرنسية بجامعة فاروق الأول ، كتاباً ذهبيا بمناسبة مرور عشرين سنة على ظهور جريدته السويسرية التى يصدرها فى الاسكندرية لمواطنيه فى مصر والشرق الأدنى ***Journal Suisse d'Egypte et du Proche-Orient.*** وهذا الكتاب الضخم ، الذى يحوى أكثر من ثلاثمائة صفحة مصورة من الحجم الكبير ، يعبر قبل كل شئ عن مظاهر السعادة والوداعة التى أسبغها السويسريون على حياتهم فى مصر ، وعلى مظاهر الوئام والتعاون التى طبعوا بها علاقاتهم ، سواء فيما بينهم أو بينهم وبين المصريين .

والكتاب سجل للنشاط الفائق الذى قام به رجال هذه الجالية الأجنبية فى القاهرة منذ مائة سنة فى مختلف نواحى الحياة المصرية ، صناعية وزراعية وتجارية ، واجتماعية وثقافية ، سجل لا يملك المتصفح لأبوابه إلا أن يرمقها بالدهشة والاعجاب ، ويمتلك المصرى الذى يطلع عليه شعور بالتقدير مختلط بنوع من الأسف . وهذا الأسف لا يرجع إلى أن هذه الجالية النشيطة الوثابة قد أفلحت وأثرت وأثمرت ، ولكنه أسف على أننا ، نحن أبناء مصر ، لم نهتد بعد إلى إخراج سجل مثل هذا الذى أخرجه السويسريون عما قام به أجدادنا وآباؤنا ، وعما قمنا به نحن أنفسنا من أعمال مجيدة فى سبيل تحقيق نهضتنا الشاملة لمختلف نواحى الحياة ، مادية وفكرية . جميل أن نعرف ما يقوم به الأجانب فى مصر ، وأجمل منه أن نعرفهم مانقوم نحن به سواء بمفردنا أو بالتعاون معهم ، وأن نرسم لهم صورة واضحة براقة لمجهوداتنا المثمرة .

وقد لا يتسع المجال هنا لايضاح ما يحويه الكتاب الذهبى السويسرى من أبواب وفصول ، فهو بحق دائرة معارف « إقليمية » ، إن صح لى أن أختلس هذا التعبير لحصر ما تشعب فى هذا الكتاب من مقالات وأبواب .

---

(١) *Cent ans de vie suisse au Caire.*

نقرأ فى مقدمتها قصة الحياة الرسمية السويسرية وتاريخ العلاقات السياسية التى ربطت سويسرا بمصر ، وفى أبواب أخرى أبان لنا المسيو فيشتر أطوار معاهد التعليم والرياضة والفنون والدين والصحة والسياحة التى أنشأها أفراد هذه الجالية وجمعياتهم فى القاهرة . ونمر فى أبواب أخرى بمؤسسات شركاتهم الصناعية والمالية والزراعية ، وبغير ذلك مما يزداد وضوحاً بالأرقام والصور والرسوم البيانية .

وفى الكتاب فصل كبير عن حياة عظماء الرجال الذين صرفوا شطراً كبيراً من حياتهم فى مصر لخدمة العلم والأدب والفن ، من بينهم رحالون جاءوا مصر واستوطنوها . ولعل يوحنا بوكارت هو أكثرهم شهرة وأشدهم مغامرة . وقصته لا شك جديرة بالنشر، مثيرة للعواطف ، وهو ذلك الفرنجى المعمم ، والمسيحى المسلم ، والأديب المستشرق الذى اختطفه الموت فى ريعان شبابه ، والذى ما زال قبره قائماً بين مقابر المسلمين ، تطل عليه مآذن القاهرة ، ويقرأ على شاهده «هذا قبر الشيخ الحاج إبراهيم المهدى ابن عبد الله بوركارت اللوزانى » .

ومن عظماء الرجال هؤلاء ، علماء فى الطبيعة وفى علم طبقات الأرض ، وأطباء وقضاة وأساتذة ، ومستعربون ومستشرقون ، يكفينا أن نذكر منهم إدوارد نافيل **E. Naville** وما كس فان برشم **Max Van Berchem** . أما الأول فقد عكف على دراسة التاريخ المصرى القديم ، وتفرغ للبحث عن حلقاته والكشف عن آثاره . وأما الثانى فتصدى للدراسات العربية ، وشهرة بحوثه فى اللغة وفى التاريخ وفى الآثار الاسلامية أوسع من أن يشار إليها فى مثل هذا العرض الوجيز .

يخيل إلى بعد أن قرأت كتاب « المائة سنة من الحياة السويسرية فى القاهرة » أننى أقرأ فى الوقت نفسه صفحات مجيدة من الحياة المصرية ، هذه الحياة التى اتسعت آفاقها فاجتذبت فى كل ناحية من نواحيها رجالا غرباء ، فطوتهم تحت كنفها وغرستهم بين زرعها ، فباتوا وأصبحوا من خيرة أبنائها .

أحمد فكرى

تراجم اسلامية : شرقية وأندلسية للاستاذ محمد عبد الله عنان (دار المعارف — القاهرة)

اختص الأستاذ محمد عبدالله عنان منذ بعيد بالغوص فى موسوعات التاريخ الاسلامى لاصطياد لآلئه وجلائها على أعين القراء فى إطار بديع من أسلوبه ومن فنه ، ليقرب إلى هؤلاء القراء سبيل البحث والدرس ويكشف لهم من صور ذلك التاريخ لوحات رائعة لعلها لو لم يجهد الأستاذ عنان لكشفها ونفض غبار التاريخ عنها كانت حتى اليوم خبيئة تحت الركام لا تنفذ إليها العين ولا تخلص لها النفس . وقد نشر الأستاذ عنان وأذاع طائفة من هذه الصور لطائفة من حوادث التاريخ الاسلامى ورجاله أو نسائه كأنه بما جلاها وكشف عنها قد أنشرها من موت وردها إلى الحياة .

وهذه المجموعة التى تنشرها له اليوم دار المعارف بالقاهرة تصور حلقة من هذا الجهد المتصل الذى يبذله الأستاذ عنان لازاحة الأنقاض المتراكمة عن أمجد صور البطولة فى التاريخ العربى والاسلامى ؛ وقد ترجم فيها لثمانية عشر من أعلام هذا التاريخ فى الشرق وفى الأندلس ، بين رجال ونساء لا تزال أسماؤهم على مر القرون تتردد على شفاه القوم وإن لم يعرف على التحقيق أولئك الذين تتردد هذه الأسماء على شفاههم ماذا كان شأن أصحاب هذه الأسماء ومتى ابتدأت حياتهم وأين كانوا وما أحدثوا فى التاريخ أو أحدث بهم التاريخ ! فليس كل فضل الأستاذ عنان أنه يكتشف هذه الصور وينشر هذه التراجم ، ولكنه إلى ذلك يضع لهذه الأسماء الدائرة على الأفواه مسمياتها ، وهو جهد مشكور لمكافحة « الأمية التاريخية ، »فى هذه الأمة التى تطلب المجد بغير أسبابه !

بلى ، فان على الشفاه أسماء هرون الرشيد ، وست الملك ، وشجرة الدر ، وصقر قريش ، وعبد الرحمن الناصر وما شئت من أسماء بلا مسميات ولا معان ؛ يباهى بها من يباهى ولعله أن يذكرها فى مقام الاحتجاج مفاخراً بأمجاد الماضى فاذا سألته البيان عىّ وانقطعت حجته ، وفى مثل هذا الكتاب الحجة الموصولة والبيان الذى ينشده .

على أننا نغمط الأستاذ المؤلف حقه إن تركنا القارئ يظن أن كل جهده فى مثل هذا الكتاب هو « اكتشاف»

الصورة وجلاؤها فى إطارها ، فانه مطلب يسير على كل من يرصد له جهده ولكن ثمة التحقيق والبحث والتنقيب والدرس والرجوع إلى المصادر المختلفة فى كتب الشرق والغرب ، المطبوع منها والمخطوط ، للنقد والموازنة والاستنباط واستخلاص الحق من الباطل واستيلاد الصواب من الخطأ ؛ وهو جهد لا يقدر عليه ولا تتهيأ أسبابه إلا للقليل من أهل التحقيق والرأى والاطلاع المنبسط العميق . وهو الجهد الذى يبذله الأستاذ عنان لوجه العلم ليقدم لقرائه مثل هذا الكتاب .

الأساس فى تعليم القراءة للأستاذين ابراهيم أنيس وابراهيم الشربينى (مكتبة الجيزة)

روضة الطفل ، دار المعارف ، بمعاونة الأساتذة أمينة السعيد ويوسف مراد وسيد قطب .

قصص المدرسة للأستاذين أمين دويدار ومحمود زهران (مكتبة نهضة مصر)

أيقتضينى المقام أن أقدم المعذرة لقرائى قبل أن آخذ فى الحديث إليهم عن هذه الكتب التى أخرجتها المطبعة المصرية فى هذه الأيام للصغار من أبنائهم وبناتهم لا للكبار من قراء هذه الصحيفة الخاصة بالكبار؟

قد يكون من حق القراء أن أعتذر إليهم قبل أن آخذ فى هذا الحديث ؛ لا من أننى أعرض عليهم هذه الكتب الطفلية وكانوا ينتظرون ألا أعرض عليهم فى هذا المكان غير ما يعنيهم من كتب الكبار ، بل من أننى لم أعرض عليهم قبل اليوم مثل هذه الكتب الطفلية. وكان من حقهم على — أو على المؤلفين وأصحاب الأقلام — ومن حق أبنائهم وبناتهم كذلك أن أعرض عليهم كل ما تخرجه المطبعة العربية من كتب الصغار ؛ أليس الطفل — كما يقولون هو أبا الرجل وأمه ؟ فمن أين ننتظر أن يكون فى العربية غدا جيل من القراء والقارئات يلتمسون فيما يقرءون منفعة ولذة إذا لم نعود أطفالنا منذ اليوم أن يقرءوا وأن يلتمسوا فى القراءة منفعة ولذة ؟

إن الصيحات لتتوالى من كل جانب بالشكوى من قلة إقبال متعلمينا على القراءة ، و إن المعنيين بشئون الأدب والتربية ومستقبل الثقافة العربية

ليشفقون من سوء المصير لقلة هـذا الاقبال على القراءة ولا يكادون يلمسون أسبابه ؛ أما أنا فأزعم أنني قد عرفت السبب والنتيجة ؛ فما قل إقبال متعلمينا على القراءة إلا لأنهم لم يعودوها منذ الطفولة ، ولو قد عودهم معلموهم ومعلماتهم ، أو آباؤهم وأمهاتهم ، أن يقرءوا منذ الطفولة ، لوجدوا لـذة القراءة فتعودوها فالتمسوا لذتهم منها كباراً كما كانوا يلتمسونها صغاراً ؛ و إذن فمن هنا كان أول النقص فى التربية ؛ ولكن ماذا يقرأ أطفالنا ؟ ماذا نقدم إليهم نحن المعلمين والمعلمات أو الآباء والأمهات من فنون المقروء لنغريهم بما فيه من المتاع واللذة على تعود القراءة ؟ هذا هو السؤال الذى لا أكاد أجد جوابه ؛ فما أظننى أكون غالياً فى القول إن زعمت أن المطبعة العربية ، أو أن المؤلفين العرب ، لم يقدموا للطفل حتى اليوم شيئاً ذا بال يستطيع أن يضمه إلى مكتبته الصغيرة ليقول مباهياً إن لى كتاباً أخلو إليه ساعة من النهار كما يخلو أبى إلى كتابه!

بلى ، هناك محاولات فى أدب الطفل العربى قد أصابت حظاً من التوفيق ، ولكن ذلك ليس شيئاً بالقياس إلى ما نريد . إن الطفل فى أول مراحل التعليم أشره إلى القراءة من أبيه وأمه ، لأنه فى هذه السن أفرغ وقتاً وأقوى رغبة فى المعرفة ، ولأن أحب شىء إليه أن يقلد ، وأن يطلع ، وأن يحاول الوصول إلى أسباب المعرفة وحده . تلك حقيقة يعرفها كل معلم وكل أب ؛ فلو أننا أخذنا بالقياس لكان علينا أن نقدم إلى الطفل من الكتب أكثر مما نقدم إلى الآباء والأمهات قبل أن نزعم أن بين أيدى أطفالنا ما يقرءون ! و إذن فنحن لم نقدم حتى اليوم للطفل ما يقرؤه ، لأن هذا القليل النادر مما أخرجته المطبعة العربية من أدب الأطفال ليس شيئاً — من حيث الكم على الأقل — إلى ما ينبغى أن نقدم إليه ؛ و إذن فان من حقى أن أغتبط ، أنا الأب القارىء ، حين تقدم إلى المطبعة كتاباً أستطيع أن أدفعه إلى ابنتى ، أو إلى ابنى ، ليقرأه فى ساعة من ساعات فراغه الطويلة ؛ و إذن فليس من واجبى أن أعتذر إلى الكبار من قراء هذه المجلة من أننى أعرض عليهم اليوم هذه الكتب الطفلية ؛ فقد كان الأمثل أن أعتذر ، أو أن يعتذر المؤلفون وأرباب الأقلام ، لأنهم لا يتيحون لمثلى أن يعرض على قرائه فى كل عدد من أعداد هذه المجلة كتاباً أو طائفة من كتب الأطفال ؛ لأن مؤلفينا وأرباب الأقلام فينا لا يعترفون بما

عليهم من حق لهؤلاء الأطفال ولا يزالون مع ذلك يجأرون بالشكوى من قلة إقبال الكبار على القراءة !

والآن ما هذه الكتب التى أسلفت أسماءها فى صدر هذه الكلمة ؟

أما أولها « الأساس فى تعليم القراءة » فكتاب جديد فى التهجى — وكتب التهجى كثيرة فى أيدى التلاميذ والمعلمين — ولكن هذا كتاب له منهاج ؛ فقد استن فيه المؤلفان سنة جديدة يريانها أسرع بالطفل إلى التعلم ، بعد تجربة طويلة — كما يقولان — على التلاميذ الأجانب فى كلية فيكتوريا ؛ وقد أتاحت لهما هذه التجربة أن يضعا أساساً أو منهاجاً بسطاه بإيجاز فى المقدمة وجعلا هذا الكتاب تطبيقاً عليه .

وأما الثانى « روضة الطفل » فسلسلة من القصص الطفلية الظريفة مفننة مصورة ملونة أخرجت منها دار المعارف حلقتين ، إحداهما قصة « أرنبو والكنز » ، والثانية قصة « كتكت المدهش » ووعدت بإخراج غيرهما ؛ وقد دفعت الكتابين إلى ابنتى — وهى طفلة دون السادسة ولم تزل فى الفرقة الثانية بالروضة — فقرأتهما فيما دون الساعة وجاءت تقصهما على وتطلب المزيد . . .

وأما الكتاب الثالث « قصص المدرسة » فمجموعة من الأقاصيص الصغيرة للأطفال فى المدرسة الابتدائية أنشأها مؤلفاها وفاء بحاجة تلاميذ المدرسة الابتدائية إلى هذا النوع من الحكايات ، فجاءت بأسلوبها وفنها وصورها وافية بالغرض إلى الحد الذى حمل وزارة المعارف على تقريرها لتلاميذ وتلميذات السنة الأولى بالمدارس الابتدائية .

ليت أدباءنا ومؤلفينا يعرفون ما عليهم من حق لأطفالنا الصغار فيفرضها كل منهم ضريبة على نفسه أن يقدم فى كل عام كتاباً للصغار إلى جانب الكتب الكثيرة التى تؤلف للكبار فلا يقرؤها الكبار ولا الصغار !

محمد سعيد العريان

فى مجلات الشرق

فن الكذب

فى العدد الثالث من مجلة «المعرفة» التى تصدر فى دمشق ، مقال بهـذا العنوان للأستاذ عزت النص ، يريد فيه أن يبرهن لقرائه على أن « أعذب التاريخ أكذبه ! » فاذا كان الشعر — أو الأدب — هو فن الكذب السافر فان التاريخ — فيما يراه — هو فن الكذب المستتر !

وفى سبيل دعم هـذا الرأى ، ثم فى سبيل الارتفاع بمرتبة الكذب بين الفنون — ينقل الكاتب كلاماً للأديب الأمريكى مارك توين فى الدفاع عن « فن الكذب » يسوقه مساق الفكاهة وإن لم يخل من مغزى جدى صارم . فاذا فرغ من سياق هذا الحديث أخذ فى حديث آخر عن كذب التاريخ ، وراح يناقش بعض أكاذيبه المروية ، ويعرض للأسس التى يعتمد عليها المؤرخون لما يروون من أخبار التاريخ ، فينقضها أساساً بعد أساس ؛ فهل هنالك إلا شهادات الشهود وقصص الرواة وحكايات الاخباريين ؛ « فهل هؤلاء كلهم موضع ثقة ؟ . . . » ثم هنالك المخلفات المادية ، الصامتة والناطقة ، من أوابد وأنصاب وتماثيل ورسائل . « أكل حجر منقوش وإن صح نسبه واتصل سببه ، ثبت صدقه ووجب تصديقه ؟ . . . »

« وما العمل إذا انعدمت الوثائق أو صمتت ؟ . . . هنالك فى سلسلة الحوادث التاريخية حلقات مفقودة يعمد المؤرخون إلى إيجادها بالاجتهاد العقلى ؛ فما هو نصيب هذا الاجتهاد الفرضى ؟ »

ويمضى الكاتب فى نقض تلك الأسس على طريقته حتى ينتهى إلى ما يريد ليلفت الأنظار إلى « نسبية الحقائق التاريخية » ، ثم إلى ما تجمع كتب الأخبار والتواريخ من تناقض ومعارضة يؤكدان أن كتب التاريخ ، إن لم تكن كذباً خالصاً ، فانها على أى أحوالها ليست صدقاً خالصاً ! . . .

بريطانيا فى الشرق

ويحرص الأستاذ خالد بكداش فى عدد يناير من مجلة « الطريق » — بيروت — على أن يعرض لقرائه «السياسة البريطانية فى الشرق العربى» وحالة بريطانيا من القوة أو الضعف بعد الحرب العالمية الثانية ، وهو يرى أن هذه الحرب قد انتهت ببريطانيا إلى الضعف وأبرزت تجاعيد الهرم والشيخوخة فى هيكلها المتداعى . . .

« وفى الحق كم جهد عمال الامبراطورية ودعاتها وكم اخترعوا ولفقوا لاقناع الناس بأن أمهم على شيخوختها ما تزال فى تمام العافية ، ولكن الناس لم يصدقوا شيئاً من صحة العجوز ! . . . »

ثم يحاول الكاتب فيما يلى أن يصف أثر ذلك الضعف وتلك الشيخوخة فى سياسة بريطانيا فى الشرق ، وكيف أخفقت فى كل ماتحاول ، وعجزت عجز الضعيف عن تنفيذ ما كانت تعتزم من فنون سياستها الاستعمارية ، فيصف ما كان من أمرها فى سوريا ولبنان ، وكيف بيتت النية لسلخهما عن فرنسا لتستأثر فيهما بالنفوذ والقوة من دون حليفتها ، فباءت بالخيبة وأخفق تدبيرها واستقلت سوريا ولبنان عن فرنسا وانجلترا جميعاً ، وعاد البلدان لأهلهما حرين مستقلين .

ثم كيف أفلت العراق — فيما يرى — من القبضة البريطانية الهاشمية ، فأصبح الجلاء هو الشعار الأول للحركة الوطنية العراقية ، وقوى معناه فى كل نفس حتى لقد أحجمت بريطانيا عن طلب تعديل المعاهدة العراقية القديمة — كما كانت تأمل — لئلا يكون ذلك سبباً إلى تنبيه العراقيين إلى المطالبة بالجلاء !

ثم يصف الموقف البريطانى من قضية وادى النيل ، وكيف أخفقت السياسة الانجليزية إخفاقاً ذريعاً فى الوصول إلى شئ مما حاولته بشتى الأساليب لخداع المصريين عن حقهم فى الجلاء ووحدة الوادي على كثرة المحاولة والمطاولة والحيلة واصطناع الأنصار .

ويعرض بعد ذلك لقضية فلسطين والصهيونية ، ولم يكن إخفاق بريطانيا فيها أقل منه فى غيرها من البلاد التى تحاول إخضاعها لسلطانها بالقهر أو بالخداع والحيلة ، بل لعل إخفاقها فى هذه القضية كان أذل وأخزى .

ولا يفوت الكاتب أن يعرض لسياسة بريطانيا فى شرق الأردن وما تأمله من بعث أسطورة « سوريا الكبرى » لتضم تحت جناحها الدار والجار ، وتجد سبباً آخر إلى ما عجزت عنه فى سوريا ولبنان وفلسطين . . .

ويستمر الكاتب فى إيراد الشواهد على ضعف سياسة بريطانيا وعجزها وضعف أسباب حيلتها بعد الحرب حتى ينتهى إلى ما يريد لينبه حكومات الشرق العربى وشعوبه إلى الفرصة المواتية لهم ليستخلصوا حرياتهم ويحققوا لبلادهم معانى الاستقلال .

مؤتمر الأدباء العرب

ويتساءل الأستاذ سامى الكيالى محرر مجلة « الحديث » — حلب — فى عدد يناير الماضى: لماذا لا يتداعى أدباء العربية فى مختلف أقطارها إلى مؤتمر عربى عام يداولون فيه الرأى حول ما يعنيهم من شئون الأدب ، وحقوق التأليف ، ووسائل نشر الثقافة وترقية الفكر العربى ؟

ويرى أن الأدباء كانوا أحق الطوائف بأن يكون لهم السبق فى الدعوة إلى مثل هذا المؤتمر العام ؛ لأنهم — قبل غيرهم — كانوا دعاة هذه الجامعة المؤتلفة ، ومن صدى هتافهم كان هذا الوعى المستيقظ فى نفس كل عربى .

« أفلا يجدر بهم أن يتنادوا لعقد مؤتمر دورى كل عام يدرسون فيه مشاكل الأدب وحقوق الأدباء والمؤلفين وموقفهم من بعض الحكومات التى تطغى أحياناً بتصرفات تتنافى وكرامة الأدب ، وغير ذلك من الأمور التى تتصل بحياتنا العقلية . . . فهم أقل الناس استفادة من مجهوداتهم الضخمة، فلا تزال حقوقهم مهضومة ، وجهودهم غير معترف بها ؛ ولاتزال بعض الهيئات الرسمية تنظر إليهم نظرات غير جديرة بالمكانة اللائقة بهم . . . »

ثم يردف بعد تفصيل فكرته :

« إن « الحديث » تدعو إلى عقد مؤتمر أدبى تدرس فيه كل مشاكل الأدب ، فلدينا عدة قضايا هامة تستوجب اجتماع كبار أدباء العرب لبحثها : حالة الأدباء ، موقف الحكومات من اتجاهات الأدب ، حقوق المؤلفين ، حرية التفكير ، الأدب القومى والأدب الانسانى ، الجوائز الأدبية ، تشجيع

المؤلفين ، التأليف والترجمة والنشر ، الصحافة الأجنبية التى تصدر بلغة الضاد . . . على أن يكون هذا المؤتمر التمهيدى الركيزة الأولى لمؤتمرات عديدة تشترك فيها المجامع العلمية والجامعات والصحافة ودور النشر ، لوضع خطط واضحة لازدهار الأدب العربى وتعزيز مكانة الأدباء ، ووضع خطط ومناهج واضحة لسير الأدب العربى فى مجرى التطور العالمى » .

الأدباء كسالى

ويتناول الأستاذ رئيف خورى فى العددين ٤٤٧ ، ٤٤٨ من مجلة « المكشوف » — بيروت — موضوعاً طريفاً جعل عنوانه « الأدباء والكسل والعزلة » ، فيتحدث عن طائفة من الأدباء أو المعروفين بالأدب يؤثرون الكسل والبطالة واعتزال الناس مكتفين بما بلغوا من حظ كبير أو ضئيل من الشهرة . فاذا سألتهم لماذا آثروا البطالة والاعتكاف احتجوا بضيق نطاق الحرية أو بسوء تقدير الجمهور وقلة التشجيع أو الضيق بالناس، إلى غير ذلك من المعاذير التى لا تعفيهم مما عليهم من تبعات وما يقتضيهم الأدب من حقوق .

ويرد الكاتب هذه الظاهرة بألوانها المختلفة إلى أن فى مزاج أكثر أهل الفنون نوعاً من النفور يبتعد بهم عن الناس ، وهى ميزة ، أو عاهة ، واسعة الانتشار فى أدباء العرب شأنهم فى ذلك شأن معظم أدباء الأمم . ثم يقول :

« وأكبر الظن أن هذا النفور من الناس فى مزاج الأدباء يرجع بعضه إلى دلال وكبرياء قل من الأدباء من تخلو نفسه منهما أو من أثر لها . يعتقد الأديب — بمجرد ما يكون أديباً — أن فيه سرا يضع مرتبته فوق الناس ، وأن له على الناس حق الخدمة والاعزاز ، فيلبث مكتوف اليدين يتوقع منهم تلك الخدمة وذلك الاعزاز . . . ولكن الناس منهمكون فى مشاكل حياتهم لا يلتفتون إليه ، فيأخذه الحنق عليهم ، ويدفعه الحنق إلى التيه والتجنى على الناس ثم إلى الاستخفاف بهم ، وهو لاعتقاده بأن له حقا عليهم لا يغفر لهم أن يسيئوا إليه مهما أساء إليهم . . . »

في مجلات الغرب

لانيف *La Nef* (عدد يناير ١٩٤٧)

في السياسة — اقرأ مقالا كتبه روبير آرون « الاشتراكية عند كارل ماركس » وهو النص الكامل للبحث الذي عرضه صاحب المقال في المؤتمر الدولي للفلسفة الذي عقد في روما في ١٨ نوفمبر سنة ١٩٤٦ . وعنوان البحث : « تعقيل [١] الاشتراكية عند كارل ماركس » . ويتعرض روبير آرون في أول مقاله لمشكلة الفكر الملتزم la pensée engagée ، وهي مشكلة ذات شأن في أيامنا هذه . فهو يقول : « إن كل فكرة نظرية مهما تكن ظاهرة التحكم ، فهي ملزمة دائماً بشرط أن تكون مبتكرة وجديدة . » وهذا الرأي يمكن أن يقارن برأي آخر لاحظناه عند كاتب روسي [٢] ، فالرأيان متحدان تقريباً . وهذه المقارنة مجدية لولا أن هذا الرأي بديهي . ثم يقسم روبير آرون الملتزمين ، أي المفكرين ، إلى قسمين : أحدهما قسم الذين يلتزمون عن إرادة ، والآخر قسم الذين يلتزمون عن غير إرادة . وهؤلاء هم الأكثرون . وهم يذيعون رسالتهم (وهي كلمة أنشأها البدع الحديث) دون أن يعرفوا من هم الذين سيتلقون هذه الرسالة ولا في أي ظروف سيتلقونها . كذلك نلاحظ «تأثير المفكرين المعنيين في الدقة والفلاسفة المؤثرين للتشدد في تطور بعض المذاهب السياسية وفي الاشتراكية خاصة . وهذا التأثير يكون مباشراً يصدر عنهم أو غير مباشر يتم بوساطة تلاميذهم . » وهذه هي المقدمة التي يصل فيها الكاتب إلى موضوعه . فيقول : إن الفكرة الاشتراكية كانت تتجه اتجاهاً حسياً قبل كارل ماركس طامحة إلى العدل في الاجتماع وإلى الحرية في السياسة . ولكن المنهج يتغير بظهور كارل ماركس فيقوم الاتجاه العقلي مقام الاتجاه الحسي . وصاحب المقال يحاول في بحثه أن يدرس هذا الانتقال من الاتجاه

(١) استعمل هذه الكلمة الأستاذ أحمد أمين بك ، كما استعملت من قبل كلمة التأميم .
(٢) الكاتب المصري عدد ١٦ (يناير ١٩٤٧) .

الأول إلى الاتجاه الثانى . فيلاحظ ويؤيد بأمثلة قاطعة أن «أخص ما كانت تمتاز به الحرية فى الاشتراكية قبل كارل ماركس ، إنما هو التنوع والاجتناس » بحيث كان ذلك يقتضى فى بعض الأحيان شيئاً من الاختلاط فى بادئ الأمر . وهذا الاختلاف نفسه كان يحرص عليه بعض الاشتراكيين من أمثال برودون ، وهو الذى يفرق بينهم وبين ماركس . « ويجب أن نلاحظ أن الافتراق بين ماركس وبرودون يدور قبل كل شئ حول الاختيار الذى يجب أن نعتمد عليه أو أن نتجنبه بين اتحاد الفكر والشعور أو اختلافهما . » والكاتب بهذه المناسبة يستعير جملة من الرسالة (١) التى أصدرها ماركس والتى كانت مصدر الفرقة بينه وبين برودون . وماركس فى هذه الجملة يسخر من عجز برودون عن تكوين فكرة عامة حاسمة . يقول ماركس : « إن مسيو برودون برغم خوفه الشديد من التصعيد إلى أعلى درجات المذاهب ونقائضها ، لم يستطع أن يصعد إلا إلى أرقى هاتين الدرجتين ، وهما درجتا التعميم والتناقض البسيطين . وهو لم يصعد فيهما إلا مرتين ، خر فى إحداهما صريعاً .» ثم يتتبع تطور التفكير المركسى من المثالية إلى المادية التاريخية . وفى هذا التطور نلحظ التناقض فى تفكير ماركس . فقد حاول أن يصطنع وسائل مذهبية جماعية ليصل إلى غاية لا يمكن أن تكون مذهبية ولاجماعية .

ويرى الكاتب أن ماركس حين عقل الاشتراكية ، لم يستطع أن يفلت من المذهبية ؛ « فهو قد أقام مقام المذهب المستقر قبل هيجل مذهباً متحركا؛ ومكان المذهب الجامد الموقوف على لحظة ما من الدهر مذهباً آخر يمتد مع الزمن ويستعمر التاريخ . لم يعدل عن المذاهب المنظمة، وإنما فضله أنه أتاح لهذه المذاهب أن تعمل . »

ثم يختم الكاتب مقاله بعد أن بين تطور المذهب الاشتراكى بهذه الأسطر: « بعد هاتين الفترتين اللتين حاولت تشخيصهما من تاريخ الاشتراكية : فترة الحس وفترة العقل ، أرجو أن نصل إلى طور جديد نسمى فيه الأشياء بأسمائها ويكون طور التحقيق . »

كل عدد من أعداد « لانيف » يعرض على غلافه وفى فهرسه عنواناً أو موضوعاً داخل إطار يكاد يشعر بأنه عدد خاص . فمرة يختار عنوان

(١) عنوان الرسالة : « فلسفة البؤس » *La philosophie de la misère*

« الصلات بين فرنسا وبلجيكا » ، وتارة يختار « لوتريامون » . أما هذا العدد فقد اختير سياسى عظيم من رجال الجمهورية الثالثة ، وهو ريمون بوانكاريه الذى يدور حوله البحث والحديث . وقد خصص له ثلاثة فصول : الأول كتبه إيمانويل بيرل واختار له اسم ريمون بوانكاريه عنواناً وإن لم يعرض فيه إلا للجمهورية الثالثة ، ولكن درسه كان من الدقة والوضوح والصدق بحيث لم يكن يصلح له إلا هذا العنوان ؛ لأن ريمون بوانكاريه ، كما يقول الكاتب ، هو أصدق ممثل للجمهورية الثالثة . ومزايا هذا النظام، بل هذا الرجل ، هى مزايا الطبقة الوسطى فى فرنسا إذا لاحظنا أحسن مقوماتها . وقد كان الجيل المعاصر للجمهورية الثالثة من الطبقة الوسطى الفرنسية بحيث يعيش متأثراً بذكريات الهزيمة طامحاً إلى الثأر مشغوفاً بالثقافة حريصاً على الأمانة . « ومن هنا كانت أخص الصفات التى اشتهر بها بوانكاريه ؛ فهو من غير شك ، منذ روبسبيير ، السياسى الذى آمن معاصروه إيماناً قوياً بنزاهته . » وإذا كان بوانكاريه قد امتاز ، كما امتازت الجمهورية الثالثة بهذه الخصال ، فانه قد اتصف واتصفت معه الجمهورية ببعض العيوب : خاف من أن يتجاوز النزاهة ويتورط فيما لا يليق ، فخاف من كل التزام . ولنذكر أن بوانكاريه تردد كثيراً قبل أن يكوّن لنفسه رأياً فى قضية دريفوس . وخصلة أخرى من خصال ساسة هذا العصر تأتى من تكوينهم القانونى الذى كان يدفعهم « إلى الأيمان الساذج بقوة ما يسمعون من حجج » . ثم يعرض إيمانويل بيرل الأزمة المالية التى أصابت فرنسا سنة ١٩٢٦ والتى حلها بوانكاريه بطريقة ساحرة . ثم يضيف : « أكان يظن أنه فقد شهرته . ولكن هذه الظروف أظهرت أن فى فرنسا نوعين من الشهرة ، تأتى إحداهما من الحب ، وتأتى الأخرى من الاعتبار . »

القال الثانى عن بوانكاريه يأتلف من مختارات أخذت من كتاب تحت الطبع عنوانه « تبعة دول الطبقة الوسطى » ومؤلفه ا . بو دى لومينى[1] وعنوان المقال : « كيف صار بوانكاريه اللورينى العظيم » . والمقال تاريخ دقيق للمناورات السياسية التى انتهت ببوانكاريه إلى رئاسة الوزارة سنة ١٩١٢ ، ثم إلى رئاسة الجمهورية سنة ١٩١٣ ويظهر من هذه المناورات التى جرت من وراء الستار أن المؤثر الأول فى فوز

(١) E. Beau de Loménie, *Responsabilité des dynasties bourgeoises.*

بوانكاريه قد كان اريستيد بريان الذى «خاب أمله لأنه لم ينل الفائدة الذى كان ينتظرها من إسقاط كايو Caillaux ، فخطر له أن يدفع بوانكاريه إلى الرئاسة ليظفر بثقته ويكفل اعترافه للجميل » . والذين يعنيهم أن يتتبعوا دقائق الكيد السياسى لتحقيق الأطماع الخاصة يجدون ما يرضيهم فى قراءة هذا المقال .

ولكن القراءة التى تلذ حقا أكثر من أى شئ آخر هى قراءة المقال الثالث ، وهو أثر من آثار بوانكاريه نفسه . وهى طائفة من خواطر الشباب أسرها إلى دفتر أحمر فى السابعة عشرة من عمره ، واختار موريس بورشيه Maurice Pourchet بعضها فى هذا الفصل . وفى هذا النص مزاج ممتع من عبث الأطفال والنضج المبكر ، وهما الخصلتان اللتان تمتاز بهما مذكرات الشباب . وانظر كيف يختم بوانكاريه مقدمة دفتره بهذه الجملة : « والآن أيها القارئ عم صباحاً إن شئت أن تقرأ ما وراء هذه الصفحة ، وعم مساء إن أردت أن ترد هذا السفر إلى حيث كان . »

وقبل أن نختم حديث السياسة فى « لانيف » يحسن أن ننبه الذين يعنون بالسياسة الحية إلى مقال بقلم جورج إيزارد Georges Izard « الخاسرون هم الراجون » ، وهو يعرض السياسة الفرنسية الداخلية وبنوع خاص قضية الأحزاب وتعاون الأحزاب الثلاثة فى الحكم ، وإلى مقال آخر فى السياسة الدولية بقلم بيير دنوابيه Pierre Denoyer يدرس فيه العلاقات بين الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا السوفيتية دون أن يصل إلى نتيجة معينة . وعنوان المقال : « أيمكن الاتفاق بين الولايات المتحدة وروسيا » . وهذان الفصلان قد كتبا فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٤٦ ، فجائز أن يفقدا قيمتهما لمرور الوقت وإن كان التفكير فيهما أصدق من أن يغيره مرور الزمان .

فى الأدب — اقرأ فى « ملاحظات على الكتب » صفحة ونصف صفحة بقلم إدوارد دوليان Edouard Dolléans عن كتاب «صبى الحرفة» *L'apprenti* لريمون جيران . وأخص ما يمتاز به هذا الكتاب فى رأى الناقد حرص الكاتب على أن يكون وصفه صادقاً لا تهاون فيه ولا لين . ويجب أن يكون الكاتب على حظ موفور من الشجاعة ليؤثر بفنه الحق على كل شئ .

في المسرح — يحدثنا ج . ج . رنييرى **J.J. Rinieri** عن المسرحيتين الأخيرتين لجان بول سارتر اللتين أسرع إليهما أهل باريس جميعاً وظفرتا على ذلك بنجاح خاص : الأولى « أموات لا قبور لهم » مشتقة من المقاومة الفرنسية ، يقول عنها الناقد إنها مسرفة في التفكير العقلي . فالأشخاص لا يكفون عن التساؤل ولا عن عرض ما يصلون إليه من تحليل ، فلا يبقى للنظارة شيء ، وليست الحركة في القصة إلا إسرافاً في إقامة البراهين . أما التمثيل فيود الناقد لو أن الممثلين آثروا الكلام على الصياح . ثم يختم نقده بأن لهذه القصة قيمتها ، وكانت خليقة أن تكون قصة عظيمة .

أما القصة الثانية «المومس المطيعة» فقد ظن بعض الماكرين أن جان بول سارتر إنما اختار عنوانها هذا البشع ليثير استطلاع النظارة . ويظهر أن ج . ج . رنييرى مفتون بهذه القصة . وموضوع القصة اضطهاد البيض للسود في أمريكا ، وما يرى الكاتب في النظام الأمريكي والخلق الامريكي من نفاق عميق . والقصة رسالة في هجاء عنيف .

ويظهر أن القصة الجديدة لمسيو ج . نوفو **Georges Neveux** وعنوانها « شكوى ضد مجهول » قصة ناجحة . وهي تعرض مسألة خطيرة تختلف فيها آراء المعاصرين فيما يقول الناقد وآراء الناس في مختلف العصور فيما نظن ، وهي مشكلة السعادة . فنفر من الناس قد استكشفوا أن ليس هناك ما يدعوهم إلى أن يحيوا حياة ثابتة مستقرة ، وأن صفاء العقل يهدم السعادة . فهم يذهبون إلى النائب العام ليقدموا إليه شكوى ضد الاله قبل أن ينتحروا ، والنائب العام يحاول صرفهم عما أرادوا . فاذا يئس من ذلك تركهم وذهب إلى حفل موسيقى . وفي أثناء ذلك تتغلب طبيعة الحياة ، فاذا عاد النائب العام أقنع هؤلاء الناس باسترداد شكواهم . ثم يخلو إلى نفسه ، فلا يلبث أن يتبين أنه قد حصر حياته في حدود ضيقة ، وإذا هو يستكشف أن سعادته غرور ، وإذا هو ينتحر . فأنت ترى أن هذا موضوع من موضوعات اليأس ، ولكن يظهر أن الكاتب قد أحسن تصويره . وتنتهي هذه الشهرية بمظهرين من مظاهر الاعجاب يندفع إليهما الكاتب ، تدفعه إلى أولها مسرحية جديدة هي « البورلادور » *Le Burlador* وهي تستعير عنوانها من الكاتب التمثيلي الاسباني العظيم تيرسو دى مولينا **Tirso de Molina** . وصاحبة هذه

المسرحية هي سوزان ليلار ، وقد عرضت فيها حديث دون جوان . أما المظهر الثاني من مظاهر إعجاب الناقد فموضوعه تمثيل « الملك لير » لشكسبير ، وقد قامت بهذا التمثيل فرقة أولد فيك . ويظهر أنها وفقت فيه توفيقاً عظيما وظفرت باعجاب باريس.

فونتين *Fontaine* (نوفمبر ١٩٤٦)

في الأدب — يبتدئ هذا العدد بمقطوعات لم تنشر للشاعر الفرنسي العظيم ملرميه رئيس الرمزيين . وهذه المقطوعة مهداة إلى وليم بونابرت وايز ، حفيد لوسيان بونابرت ، وهو إرلندي فرنسي في وقت واحد . وإليك ما تقوله إيلين سوفران في تقديم هذه المقطوعة في « فونتين » . « وهذه المقطوعة تعرض لموضوع من أشد الموضوعات التي عرض لها ملرميه إلحاحاً ، وهو شعر الرأس . وأول ما يفجأ القارئ أن ملرميه يتناول هذا الموضوع على طريقة بودلير و إدجار ألان بو . فشعر الرأس يذكر مع الأستار والأكفان والعدم والموت . » ويختم تقديم المقطوعة بجملة من كتاب كتبه ملرميه إلى وليم بونابرت — وايز وهي تصور حياة الابتكار التي كان يحياها ملرميه إذذاك في السادسة والعشرين من عمره سنة ١٨٦٩ إذ يقول : « إني أحيا دائماً في الفكرة المطلقة وأعرف بعض الأشياء . »

واقرأ في الشهريات مقالا بقلم جايتون بيكون Gaëtan Picon وعنوانه « عصريات أندريه جيد » . وهذا المقال خليق أن يسمى دراسة . وقد قال الكاتب في الحاشية ، على هامش «ثيسيوس» والمجلد الأخير من « اليوميات ١٩٣٩ — ١٩٤٢ » . وبعد أن لاحظ في أول مقاله أن ما يشع في شخص ثيسيوس من محضر قوى لم يفقد شيئاً من سلطانه القديم يضيف الكاتب : « إن من أخص مميزات الآثار الكبرى أنها تستطيع ، مع أنها لا تعنى إلا بنفسها ، أن تحقق ما كنا ننتظر منها . ومن أسرارها التي لا تحاكى أنها على عكوفها على نفسها دائماً تكفل لنا ألا نسألها عبثاً . » ثم يعارض الكاتب بين وجهة النظر التي يتوخاها جيد والوجهة التي يتوخاها الأدب المعاصر . فالأدب المعاصر يرى أن الانسان لم يبق كما كان يراه جيد كائنا له حياته الداخلية القوية . ذلك أن الأدب

المعاصر لا يعنى الآن « بتحليل الضمير الانسانى وإنما يعنى بتحديد مركز الانسان . فالانسان هو موضوع الدرس دائماً ، ولكن تفكيره فى نفسه يحل صورته بدلا من أن يجليها » . ثم يستعرض الكاتب خصائص أدب أندريه جيد والمشكلات التى يثيرها . وإذا لم ير فى « ثيسيوس » آية أندريه جيد ، فانه يرى فى هذا الكتاب أصدق صورة لمنشئه . وربما كان أهم ما يدعو الكاتب إلى تفكير عميق هو عصرية ، أو بعبارة أدق، لاعصرية آثار أندريه جيد . فهو يقول : « إن الذى يؤثر فى نفوسنا ويملؤها إعجاباً أمام جيد هو الشعور بأننا أمام آثار لن ينتج الأدب مثلها ، أمام ثمرات متأخرة لذيذة لثقافة قد جعلت تتلون بلون العصر الذهبى . » ويقول : « وليس من شك فى أن أكثر هذه الآثار يعيش مصاحباً للاعصرية ، وهذه اللاعصرية تصور قيمة عظيمة فى مستقبل ممكن دائماً» . ثم يقول الكاتب :«إذا كنا نحيا بتجاوز أنفسنا ، فان وقتاً يأتى من غير شك نشعر فيه بأن هذا التجاوز أشبه شئ بالرجوع إلى الماضى . »

ويخيل إلينا الكاتب أن من الممكن أن نعود فى وقت قريب إلى العناية بالمشكلات التى شغلت أندريه جيد . ذلك لأن أندريه جيد لم يتقطع عن أن يعرض علينا مثلا مستمدة من الحقائق الثابتة الأساسية ، ولأنه أثبت فى قوة لم يبلغها أحد غيره فضيلة الحرية .

فى الفلسفة — واقرأ فى هذا العدد دراسة بقلم برنارد جروتويزين **Bernard Groethuysen** الذى توفى أخيراً موضوعها « مونتسكيو وفن تحرير الانسان » . وقد قدمت المجلة بين يدى هذه الدراسة صفحة مؤثرة فى رثاء الكاتب بقلم جان فال **Jean Wahl** أحد أساتذة الفلسفة فى السوربون . ولست أدرى أترك الكاتب مقاله تاماً مستوفى أم ألفته يد صديق من مذكرات متفرقة. ولكن الشئ المؤكد أن فى المقال شيئاً من التردد بل نجد فى آخره نصوصاً قد كررت بحروفها . ومع ذلك نحن نقرأ فى هذا المقال جملا كثيرة لمونتسكيو نسيت إلى الآن وجمعها صاحب المقال على نحو مبتكر . وكل هذه الجمل تتحدث عن الحرية .

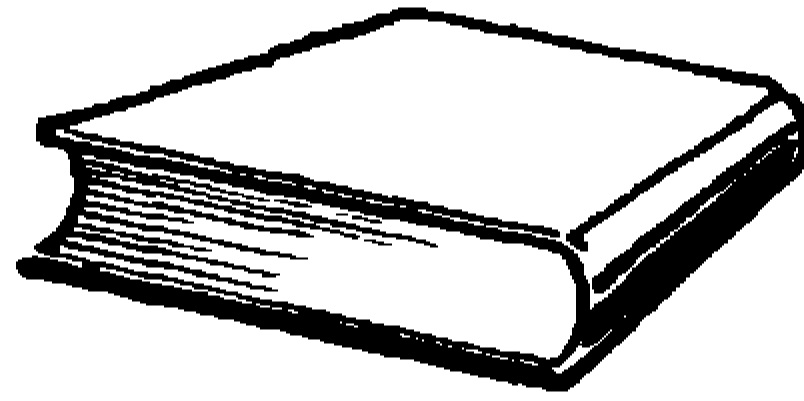
من موسكو

مجلة الآداب السوفيتية Soviet Literature

في الأدب — لا شك في أن الآداب الانجليزية تعني المثقفين من الروسيين في هذه الأيام . فهذا العدد السابع (يوليو ١٩٤٦) من الآداب السوفييتية يحمل إلينا مقالا عن جورج برنارد شو كتبه ألجيني المازوف ويريد أن يخيل أنه يهدى هذا المقال إلى برنارد شو لمناسبة العيد المئوى الثالث لمولده . والمقال يمضي على هذا النحو من الدعابة الحلوة ، ولكن هذا لا يمنع من أنه دراسة دقيقة كاملة للكاتب التمثيلي العظيم . ولننقل هذه الجملة الساخرة التي يعبث فيها الكاتب بالنقاد الأديبين « وكما كانت الحال في العصور الماضية ، فبعض هؤلاء النقاد لا يفهمونه ولكنهم يقرونه ، وآخرون يفهمونه ولكنهم من أجل ذلك نفسه يرفضونه . فهو بالقياس إلى بعضهم مهرج وبالقياس إلى بعضهم نبي . »

وتعلن المجلة إلينا ترجمة جديدة للشاعر اللاتيني لوكريس . فقد نشر فيودوربتروفسكي Fedor Petrovsky ترجمة « لطبيعة الأشياء » عليها تعليقات بقلم فافيلوف عضو المجمع العلمي . وتشتمل هذه الطبعة على النص اللاتيني والترجمة الروسية وسبع عشرة لوحة محفورة على الخشب من صنع الفنان بيلوف Belov وبهذه المناسبة يبين المترجم الأسباب التي من أجلها يعنى الروسيون بهذا الشاعر الفيلسوف : « فشهرة لوكريس في روسيا تأتي أولا وقبل كل شيء من أن آثاره قد حملت إلينا أثناء ألفي سنة أرقى نمو للفلسفة المادية في العصر القديم . فقصيدته التعليمية مثل نادر للملاءمة التامة المنسجمة للصورة الشعرية الراقية والموضوع الفلسفي العميق . »

أمينة طه حسين



مدونة جوستنيان

في الفقه الروماني

ألفه فقيه القياصرة في قسطنطينية

الأمبراطور جوستنيان

ونقله الى العربية امام القضاة في مصر

معالى عبد العزيز فهمى باشا

أخرجته

دار الكاتب المصري

في طبعة ممتازة

وتجليد أنيق

الثمن
١٥٠ قرشا



البريد المسجل ١٠٠ مليما
وللخارج ١١٢

مجلد ٥ — عدد ١٩ أبريل ١٩٤٧

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصري
شركة مساهمة مصرية
القاهرة

محمد عبد الحليم عبد الله

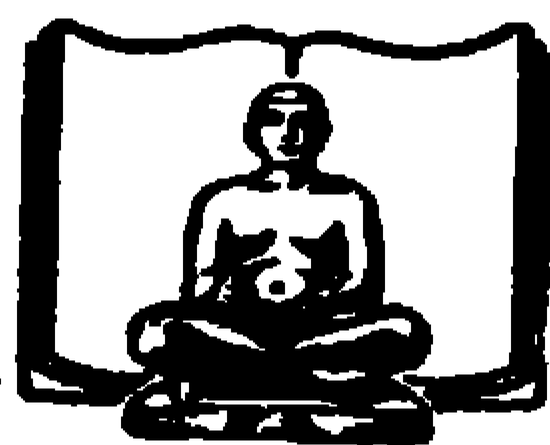
لقيطة

قصة

جائزة فاروق الأول للقصة

من مجمع فؤاد الأول للغة العربية

ظهر حديثاً



٢٥٠ صفحة
الثمن ٢٥ قرشاً
البريد ٢٤ مليماً

فرنسوا مورياك

والدة

تعريب محمد عبد الحميد عنبر و عبد المجيد عابدين



ظهر حديثاً



١٧٥ صفحة
الثمن ٢٠ قرشاً
البريد ١٦ مليما

صورة

دوريان جراي

تأليف أوسكار وايلد

تعريب لويس عوض

صورة الصراع بين الإثم والضمير ونقد الحياة الاجتماعية الانجليزية فى مزاج من الهزل والجد .

طبعة مزينة بصور مختارة من فيلم

« م . ج . م . »

٣٠٠ صفحة

الثمن ٣٠ قرشاً (البريد ٢٤ مليما)

شبح كانترفيل

تأليف أوسكار وايلد

تعريب لويس عوض

سجل للمحن الطريفة المضحكة التى تلم بشبح قصر كانترفيل وموازنة بين العقل الانجليزى المحافظ والعقل الأمريكى المجدد .

طبعة مزينة بصور مختارة من فيلم

« م . ج . م . »

١٢٨ صفحة

الثمن ١٨ قرشاً (البريد ١٦ مليما)

المقامر

تأليف فيدور دستويفسكى

تعريب شكرى محمد عياد

قصة شاب ممتحن بداء القمار لقى من هذا الداء فى حياته شراً عظيما . وهى قصة عنيفة تستأثر بحاجة القارئ إلى الاستطلاع .

١٦٩ صفحة

الثمن ١٨ قرشاً (البريد ١٦ مليما)

الحب الأول

تأليف إيفان ترجنيف

تعريب محمود عبد المنعم مراد

قصة ساذجة تصور قلب شاب ناشئ يندفع إلى الحب فى غير احتياط ولا تحفظ وما يصيبه من يأس حينما يعلم أنه كان يحب عشيقة أبيه .

١٠٤ صفحة

الثمن ١٥ قرشاً (البريد ١٢ مليما)

الكاتب المصرى
مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصرى فى أول كل شهر عن دار الكاتب المصرى ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعتها .

الاشتراك

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان ،
١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو ما يعادلها.
يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب المصرى . لا تقبل الاشتراكات لأقل من سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل ما يرد إليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤

الادارة : ٤٥٠٣٤-٤٧٨١٥-٥٤٢٧٣



AL KATEB EL MASRI

Monthly literary magazine published by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)

Editor-in-chief : **Taha Hussein**

الكاتب المصرى



جمادى الأولى ١٣٦٦ — ابريل ١٩٤٧

السنة الثانية — مجلد ٥ — عدد ١٩

رفيق

١

كان ذلك فى ساعة من ساعات الضحى ، حين كان النهار يحب أن يبطئ فى سعيه ، ليحبس الصبية والشباب من أهل الكتّاب ، و يمسكهم فى حياتهم تلك التى كانت تخضعهم لعنف سيدنا ومكر العريف ، ويؤخر عنهم هذه اللحظة السعيدة التى يؤذن لهم فيها بالانطلاق ليصيبوا غداءهم ، والتى كانوا ينتظرونها متشوفين إليها ، لا ليرضوا حاجتهم إلى الطعام ، بل ليرضوا حاجتهم إلى الحرية واللعب . وكان الصبية والشباب من أهل الكتّاب يستبطئون ارتفاع الضحى وزوال الشمس ، و يخدعون أنفسهم عن هذا الانتظار الشاق البغيض ، بنشاط غريب مفاجئ ، ترتفع فيه الأصوات بالقراءة وتكثر فيه حركة الأيدى التى تمسح الألواح لتزيل منها ما حفظ أمس ، وتكتب فيها ما سيحفظ بعد الغداء . وكان الكتّاب فى ذلك الوقت أشبه شئ بخلية النحل ، كله حركة ، وكله نشاط ، وكله دوى يرتفع حتى يسمع من بعيد جدًّا ، على ما فيه من تباين الأصوات واختلافها ، بين أصوات الصبية النحيلة الضئيلة العالية التى لم تثبت بعد ، وأصوات الصبية التى أخذت تمتلئ لأن أصحابها قد تقدمت بهم السن شيئاً ، وأصوات الشباب التى كادت تشبه أصوات الرجال وكادت تستوفى حظها من الامتلاء . وكانت هذه الأصوات المختلفة المنطلقة فى وقت واحد ، تحمل إلى الآذان شيئاً حلواً رائقاً ، فيه كثير من الملاءمة والانسجام ، يشبه ما تحمله إلى الأذن الأدوات الكبيرة للموسيقى حين يشتد اختلافها فى طبيعة الجرس ،

وينشأ عن ائتلاف مختلفها جمال يسحر السمع ، و يملأ النفس روعة وطرباً .

فى هذه الساعة من ساعات الضحى ، وفى ساعة أخرى من ساعات النهار ، حين كان المؤذن يوشك أن يدعو إلى صلاة العصر ، كانت حماسة الصبية والشباب من أهل الكتاب تبلغ أقصاها . ولم يكن من اليسير أن يظفر سيدنا أو العريف بردهم إلى السكوت ، دون أن يصفق تصفيقاً قويا ، ويخرج من حلقه صوتاً كأنه الرعد يقرع الآذان ويفجأ النفوس، فيعقد الألسنة عن النطق، ويكف الأيدى عن الحركة ، ويعلق التلاميذ فى صمت أبله ، وسكون أحمق ، ووجوم غريب .

فى ساعة من تلك الساعات ، وقف على عتبة الكتّاب بين شقى الباب رجل قد تجاوز الشباب ، ولكنه لم يمعن فى الشيخوخة . وعليه مظهر الثروة وارتفاع المنزلة ، يعرف ذلك من لباسه الأنيق ، ووجهه الذى تشرق فيه الثقة وتظهر عليه الكبرياء . وكان الرجل مرتفع القامة مهيب الطلعة ظاهر النعمة ، يدل منظره على أنه راض عن نفسه كل الرضى ، مستقر فى الحياة كل الاستقرار ، لا يخاف شيئاً ، ولا يشك فى شئ ، ولا يعرف التردد ولا الاضطراب . وأكبر الظن أنه كان ضابطاً من ضباط الجيش وقتاً ما ، ثم تحول عن الحياة العسكرية إلى الحياة المدنية ، فانتقل إلى هذه الحياة الجديدة محتفظاً بعاداته وتقاليده العسكرية كلها أو أكثرها . وأكبر الظن أنه لم يكن مصرى الأصل ، و إنما كان تركيًّا تمصر هو أو تمصرت أسرته ؛ فقد كان يحمل فى وجهه وفى شكله كله شيئاً لا أدرى ما هو ، ولكنه يبين أنه ليس من المصريين ، ويباعد بينه وبين المصريين مباعدة ما ، ويثير فى نفوس المصريين إذا رأوه من قريب شيئاً غريباً فيه إكبار له ، وفيه استخفاف به .

وكان هذا الرجل حين وصل إلى الكتّاب ، قد أعطى كلتا يديه لصبيين يكتنفانه ويسعيان معه سعياً رفيقاً . فأما أحدهما عن يمينه ، فقد كانت على وجهه سحابة رقيقة من حزن . وأما ثانيهما عن شماله ، فقد كان باسم الثغر مشرق الوجه يكاد يخرج من جسمه قوة ونشاطاً . فلما بلغ باب الكتّاب ومن حوله هذان الصبيان ألقى تحيته ، فسمع أهل الكتاب صوتاً لم يسمعوا مثله قط فى قريتهم ، صوتاً ضخما عريضاً ممتلئاً ، أغنى سيدنا وأغنى العريف عن التصفيق والزئير ؛ فقد قرع آذان التلاميذ ، وفجأ نفوسهم ، وعلقهم فى هذا السكوت

الأبله ، وفى هذا السكون الغريب ، ووثب بسيدنا كأنما دفعه دافع ؛ فاذا هو قائم على دكته قد أعجل حتى عن أن يقوم كما تعوَّد أن يفعل فى مهل وأناة ، وقد رد التحية على صاحبها فى شئ من وجل ، ثم دعاه إلى أن يتفضل بالجلوس ، وتنحى له عن موضعه فى صدر المكان . وشكر الزائر لهذا الشيخ احتفاءه به ودعاءه له إلى الجلوس ، ولكنه أبى أن يدخل ، وأبى أن يجلس ، وقال فى صوته ذاك المهيب المخيف : « إنى حديث عهد بهذه المدينة ، لم أصل إليها إلا منذ يومين . وقد عرفت أن كتابك هو خير ما فيها من الكتاتيب ، فأحببت أن أقود إليه ابنىَّ هذين ، وأن أكل إليك تعليمهما . فاما أحدهما وهو هذا — وقدم الصبى ، الذى كان قد أعطاه يده اليمنى — فقد فقد بصره إلا قليلا ، فهبه كل عنايتك وأحفظه القرآن ، فانى قد وهبته للأزهر . وأما ثانيهما فعفريت ما أراه يصلح إلا للمدرسة ، فأمسكه فى الكتّاب حتى لا ينسى من الكتابة والقراءة ما تعلم ، وأحفظه شيئاً من القرآن ، وخذه بالشدة إن أبى إلا أن يكون عفريتاً فى الكتاب كما هو عفريت فى البيت . » ثم دفع من فمه ضحكا عريضاً ، ما أظن إلا أنه روّع بعض القلوب فى صدور أولئك الصبية الصغار . ثم تقدم خطوة وأخذ بيد سيدنا فوضعها على كتف أحد الصبيين وقال : « هذا هو الأزهرى . » ثم رفع يد سيدنا عن كتف هذا الصبى ووضعها على كتف الصبى الآخر وهو يقول متضاحكا : « وهذا هو العفريت » . ثم قال لسيدنا : « فأما الأزهرى فاسمه عثمان وأما العفريت فاسمه محمود . أتريد أن أتركهما لك منذ الآن ؟ أم ترى أن أعود بهما اليوم على أن يستأنفا سعيهما إلى الكتّاب إذا كان الغد ؟ » وهم سيدنا أن يجيب ، ولكن الرجل لم يمهله ، وإنما قال : « سأستصحبهما اليوم وسيسعيان إلى الكتاب منذ غد . ولا تطلقهما للغداء فسيحمل إليهما غداؤهما كل يوم ، ولا تطلقهما إذا صليت العصر حتى يأتى من يصحبهما إلى الدار ، فانهما غريبان لا يعرفان طرق المدينة بعد ، وليست الدار قريبة من الكتاب . » ثم ألقى تحيته بصوته ذاك المروع المخيف ، وأدار ظهره منصرفاً لم ينتظر أن تردّ عليه تحيته . وما أحسب إلا أنه قد سمع هذا الضحك الذى اندفع الكتّاب كله فيه ، والذى لم يستطع سيدنا ولا العريف أن يكفا عنه التلاميذ إلا حين أذنا لهم بالانطلاق ليصيبوا غداءهم ، على أن يذكروا أن من تأخر منهم عن موعده فلن تعفى رجلاه من هذا النصيب المعلوم من العذاب الذى لم يكن يقل عن خمسة سياط وربما بلغ عشرين سوطاً .

وقد رضى سيدنا ورضى معه العريف عن يومهما ، وعما ساق الله إليهما من الخير فيه ؛ فقد كان هذا الرجل موظفاً كبيراً طرأ على المدينة منذ أيام ، ولم يكن شك فى أنه ضابط تركى قديم من ضباط الجيش ، يظهر ذلك فى حديثه ، وفى عربيته التى تبرأ من الرطانة والتكسر ، ولكنها لا تمضى مستقيمة إلى غايتها ، وإنما يثقل بها لسانه ، ويتعثر بها منطقه . بل زعم العريف أن زوجه تركية خالصة لا تتكلم العربية إلا فى مشقة شاقة وجهد شديد . وهى إذا أتيح لها أن تتكلم العربية التوى لسانها بها التواءً شديداً . وهى تؤنث المذكر ، وتذكر المؤنث ، وتفعل ببعض الحروف العربية الأفاعيل ، وزعم العريف أن لهذين الصبيين أختين قد بلغتا طور الشباب ، وظفرتا بحظ من جمال لا يتاح إلا للترك أو من يشبههم أو يقاربهم من الأوربيين . وقد سمع سيدنا لكل هذا الكلام غير حافل به ولا آبه له . وآية ذلك أنه لم يرد على العريف إلا بقوله : « ما أظنه يدفع أقل من عشرين قرشاً فى الشهر أجراً لتعليم ابنيه . »

وكان فى الكتّاب صبى لم ينطلق مع التلاميذ ليصيب غداءه ؛ لأنه كان من الذين يحمل إليهم الغداء فى الكتاب ، وقد سمع حديث الأب إلى سيدنا وسمع حديث سيدنا والعريف عن الأب وابنيه وعن الأسرة كلها ، فوعى هذا كله فى صدره وحفظه فى نفسه ، ولم يكد يبلغ داره بعد أن صلّيت العصر حتى أعاد إلى أمه ما سمع من حديث ، وسألها عن هذه الأسرة. فقالت باسمة : «إنها أسرة المأمور الجديد ، وستزورنا السيدة وابنتاها بعد حين ، فاحذر أن تقع عين إحداهن عليك .»

٢

ولم يرتفع الضحى من الغد ، حتى كان الصبى قد تعرف إلى زميليه فى الكتّاب عرّفه إليهما سيدنا ، لأنه كان يحب أن يؤلف بين أبناء الأسر التى تستمتع بحظ من امتياز ، ولأن هذا الصبى كان حافظاً للقرآن مجوداً له . فلم يتردد سيدنا فى أن يكلفه إقراء الصبى الأزهرى . وقال له وقد أخذ بيده الصغيرة فوضعها على لحيته الغزيرة : «لقد وكلت إليك ذقنى ، فأحفظ هذا الصبى ما حفظت وأجد إحفاظه ، ولا تفضحنى عند أبيه الموظف الجديد الكبير . وقدّر أنى وكلت إليك عملا كنت خليقاً أن أنهض به أنا ، أو أن أكله إلى العريف.» وقد وجد الصبى فى نفسه

شيئاً من الكبرياء ؛ فقد أصبح معلماً بعد أن كان متعلماً ، وأصبح مقرئاً بعد أن كان قارئا ، ووجد فى نفسه شيئاً من الفرح والابتهاج لاتصال الأسباب بينه وبين هذين الزميلين المترفين اللذين يلبسان اللباس الأوربى ويضعان على رأسيهما الطربوش ، ولا يلبسان هذه الثياب الفضفاضة القذرة التى كان يلبسها التلاميذ من أهل المدينة ، واللذين ينتميان إلى أسرة تركية ولا يتحدران من هذه الأسر التى تأتلف من التجار والفلاحين . وقد أقبل الصبى على عمله ، فطلب إلى تلميذه أن يتلو عليه ما حفظ من القرآن فى القاهرة ، ثم اتخذ هذا نفسه سبباً للسؤال عن كتاتيب القاهرة كيف تكون ، وعن سادة هذه الكتاتيب كيف يسيرون مع التلاميذ ، وعن مذاهب هؤلاء السادة فى تأديب تلاميذهم ووسائلهم إلى هذا التأديب ، والأدوات التى يصطنعونها فيه . وكان الصبى يسمع أحاديث تلميذه كلفاً بها متهالكا عليها ، يكاد ينسى فى سبيلها ما وكل إليه من إقراء هذا التلميذ لولا أنه كان يذكر من حين إلى حين يده الصغيرة فى اللحية الغزيرة ، وصوت سيدنا الغليظ وقد تكلف الرقة والرفق . وهو يلفته إلى أنه يكلفه عملا خطيراً كان خليقاً أن ينهض به هو ، أو أن يكله إلى العريف . فكان ذلك يردّه إلى القصد و يحمله على أداء الواجب . وكان النهار يمضى ساعة للقراءة ، وساعة للحديث ، ثم ازدادت الأسباب بين الصبى وزميليه متانة واتصالا ، فكان الثلاثة يخرجون من الكتاب إذا صليت العصر ، فيذهبون معاً إلى بيت الصبى قليلا و إلى بيت الزميلين غالباً . وكان هذا البيت أنيقاً مترفاً فى نفس الصبى يملأ قلبه حين يدخله روعة وكبراً . كان قائماً على القناة ليس بينه وبين الماء إلا هذه الطريق الضيقة التى يسعى فيها الناس ودوابهم بين المدينة والقرية ، وقد انبسطت من وراء سوره المرتفع الذى تكسوه الأغصان الخضر والزهر النضر حديقة عميقة مترامية الأطراف ، عن يمين وشمال ، تقوم الدار من ورائها مطمئنة لا ترتفع فى السماء إلا قليلا ، ولكنها تمتد فى الفضاء وتكثر فيها الحجرات . وكان الذى يفجأ الصبى من أمر هذه الدار و يملأ قلبه رضا و إعجاباً أنه كان إذا عبر إليها الحديقة العميقة ودخل الدهليز الذى ينبسط بين الحجرات ، لم يمش على أرض من تراب ، و إنما مشى على أرض قد بسط فيها البلاط . و كثيراً ما راعه أنه كان يرى الخادم تغسل هذه الأرض غسلا وتنقيها تنقية ، ولا ترش عليها الماء رشاً ليستقر ترابها فلا يثور . وكان مما يملأ قلب الصبى رضا و إعجاباً

أنه كان لا يكاد يدخل الدار مع زميليه حتى ينعطفوا إلى يمين ، ويأووا إلى حجرة خاصة لايسكنها أحد من أهل الدار ، ولا يطرقها أحد غير هذين الصبيين ، قد خصصت لها يلعبان فيها، وجمعت لها فيها أدوات كثيرة مختلفة غريبة للعب ، وأسندت إلى جدرانها كراسي ومجالس يستريح عليها الصبيان ومن يلاعبهما من الرفاق . فهما لم يكونا يجلسان على الأرض ولا يلعبان فى الفضاء المنبسط أمام الدار ، ولا يتعرض لعبهما لضحك الكبار منه أو مشاركة الواغلين من الأطفال فيه . كان لعباً مترفاً فى حجرة مترفة ، ليس للصبي بمثله عهد . وكان ثلاثتهم إذا وصلوا إلى الدار لا يكادون يستقرون فى حجرتهم تلك حتى تلم بهم ربة الدار وآنسة من الآنستين ، فيكون الحديث الرفيق والحنان الرقيق والدعابة العذبة . ثم يخلو الصبية بعد ذلك إلى لعبهم ، فينفقون فيه ما شاء الله من وقت يقصر أو يطول .

وكانت ربة الدار سيدة كريمة ، قد تقدمت بها السن شيئاً ، ولكنها كانت حلوة الشمائل ، عذبة الحديث ، فى لهجة عربية ضعيفة أشد الضعف ، ملتوية أعظم الالتواء . وكان حديثها ذاك الملتوى المتعثر البطئ يسحر نفس الصبي و يملأ قلبه فتوناً . فأما الآنستان فقد كانت كبراهما (تفيدة) رائقة الحديث ، شائقة الدعابة ، متكسرة اللفظ ، تتكلم فيخيل إلى السامع أن عهدها بالنوم غير بعيد ، وكانت على ذلك ماكرة حديدة اللسان ، لاذعة النكتة ، بطيئة الحركة ، قليلة النشاط . وكانت أختها الصغرى (إقبال) جذوة من نشاط لاتنقطع لها حركة ولا يستقر لسانها فى فمها ، وهى على ذلك حلوة المحضر ، مشغوفة باللعب ، لو أطلقت لها حريتها لما فارقت الصبية ولا زهدت فى لعبهم . ولكن الدار كانت منظمة أدق النظام وأشقه ، فلم يكن يتاح لهاتين الآنستين إلا قليل من فراغ بين حين وحين . وقد نعم الصبي بهذه الحياة وقتاً لا يذكر أطال أو قصر . ولكنه يرى ذات يوم فى الدار حركة غير مألوفة ، ويخيل إليه أن فى الجو شيئاً لا يلبث أن يعرف ما هو ؛ فقد خطبت تفيدة ، وما هى إلا أسابيع حتى يقبل قوم من القاهرة ، وحتى تقام فى الدار أعياد ، ثم يعود الزائرون من حيث أتوا ، وقد استصحبوا تفيده ، ففقدت الدار من جمالها و بهجتها شيئاً غير قليل .

والحياة مع ذلك ماضية فى طريقها فى هدوئها المتصل واطرادها الممل ، والصبي ناهض بواجبه ، يحفظ زميله القرآن ، ويشاركه فى اللعب ويخوض

معه فى فنون الحديث ، ولكن محمودا يتحول من الكتاب إلى المدرسة المدنية ، فيفقد الكتّاب بانصراف العفريت عنه من بهجته شيئاً غير قليل . ويخلو الصبى إلى زميله وتلميذه عثمان يعلمه ويلاعبه . ولكن السأم يسعى بينهما ، وإذا الصبي ينصرف عنه قليلا قليلا ، ويشغل شيئاً فشيئاً برفاق آخرين من أهل المدينة ، يعرضون عليه فنوناً جديدة من اللعب ، ويلقون إليه ألواناً طريفة من الحديث، ويقرءون معه كتباً لا عهد لأبناء الكتاب بها ، ولا إرب لهم فى قراءتها . والصبي مع ذلك يلقى رفيقيه المترفين فى داره حيناً وفى دارهما حيناً آخر . ثم يسمع ذات ليلة أبويه يتحدثان فى شيء من الحزن وفى شيء من السخرية أيضاً بأن هذا الضابط التركى القديم من ضباط الجيش قد سافر إلى القاهرة ، فأقام فيها أياماً ، ثم عاد ومعه سيدة تركية لم تبلغ الثلاثين بعد ، لها حسن رائع وجمال بارع ، وفتنة فاتنة ، وتسلّط على الضابط الشيخ عظيم، وأن تلك الدار المترفة الأنيقة التى كانت جنة من جنات النعيم ، قد أصبحت مستقرا للحزن والبؤس والشقاء ، قد أصبحت جحيما تصلى فيه أم البنين نار الحزن ولوعة الغيرة ، ويشقى فيها هؤلاء الثلاثة بما يرون من حزن أمهم وبؤسها وبكائها المتصل واعتكافها فى حجرة لا تبرحها إلا أن تكره على ذلك إكراهاً ، كما يشقون بهذا النعيم العظيم يستمتع به الضابط الشيخ وزوجه الشابة فى طرف من أطراف الدار . كانا يستخفيان بسعادتهما أول الأمر ، فينعمان من وراء الأبواب المغلقة والأستار المسدلة . ولكن السعادة جمحت بهما حتى تجاوزا القصد . وأكبر الظن أن شقاء الأشقياء ، هو الذى أذكى سعادة السعداء . وكأن الزوجين السعيدين قد رأيا فى اعتكاف تلك المعتكفة وبكائها المتصل . وفى هذه الوجوه العابسة الكئيبة من حولها ، وفى خفوت تلك الأصوات التى كانت تملأ الدار فرحاً ومرحاً ، وفى سكون تلك الحركات التى كانت تملأ الدار بهجة وسروراً ، كأنهما رأيا فى هذا كله احتجاجاً على ما أتيح لها من سعادة ، وإنكاراً لما سيق إليهما من نعيم ؛ فقبلا التحدى ، وأظهرا ما كانا يضمران ، وأعلنا ما كان يسران ، وظهرت سعادتهما وقحة ، مسرفة فى القحة لا تتحفظ ولا تحتشم ولا ترجو لشيء وقاراً . فالقُبَل تختلس فى هذه الزاوية أو تلك فى غير احتياط أول الأمر ، ثم هى لا تختلس ولا يستخفى بها ، وإنما يتهاداها الزوجان أمام هذه الكاعب البائسة ، وبمنظر من هذين الغلامين الشقيين ، وغير بعيد من هذه الأم التعسة

المحزونة . ثم تتجاوز القحة حدودها ، ويتعمد الزوجان المفتونان إيذاء هذه المرأة الكئيب، فينتهزان الفرص ليظهرا لها سعادتهما بشعة ليس لها حظ من تحفظ أو استحياء . ويتحدث الناس ذات يوم بأن هذه الأم البائسة عليلة لا تخرج من حجرتها ولا تترك فراشها . ثم يأتى النبأ ذات صباح بأنها قد فارقت الحياة ، فأراحت واستراحت وتركت فى قلب أبنائها سعيراً أى سعير . وقد استقرت هذه الأم البائسة فى قبرها المتواضع من وراء النهر . وجلس صاحب الدار للمعزين يستقبلهم كما تعوّد الناس أن يفعلوا . وقد مرت الليلة الأولى كما تعودت ليالى العزاء أن تمر . أقبل المعزون فسلموا وجلسوا وسمعوا القرآن، وانصرف فوج منهم ليخلفه فوج آخر، ثم ختمت القراءة حين أوشك الليل أن ينتصف . ثم أقبل اليوم الثانى وأقبل معه القراء يتلون القرآن ، وأقبل الناس يعزون ويستمعون ويخوضون فى مختلف الأحاديث . وإنهم لفى ذلك بعد أن صليت العصر ، و إذا امرأة شابة تخرج من الدار وتتوسط جمع الناس هادئة مطمئنة رزينة الخطو سافرة لم تلق على وجهها نقاباً، وقد اتخذت فى إحدى يديها حقيبة صغيرة . فلما توسطت الجمع وجم الناس ، وهمّ صاحب الدار أن ينهض ولكن الوجوم أخذه هو أيضاً فأثبته فى مكانه ، وارتفع صوت تفيدة هادئاً رزيناً فقطع المقرئ قراءته واستمع لها الجمع كأن على رءوسهم الطير ، و إذا هى تقول : «من ظن منكم أنه أقبل للتعزية والمجاملة فليغير ذات نفسه ودخيلة ضميره ، فليس هذا حفل عزاء و إنما هو حفل فرح وابتهاج . إن هذا الرجل الذى تعزونه قد قتل امرأته ، وابتهج بموتها ، لم يرع حرمتها ولم يرع حياء ابنته الكاعب ، ولم يرع صبا غلاميه الصغيرين ، و إنما ازدرى هذا كله فى سبيل سعادته بزوجه الجديدة ؛ فكان يداعبها ويلاعبها ، وينال من مداعبتها وملاعبتها فى الجهر مالا يناله الرجل الكريم ذو المروءة إلا سرًّا . وكنت فى القاهرة لا أعلم من ذلك شيئاً ، فلما أقبلت لدفن أمى سمعت، فأنكرت أذناى ولم يصدّق قلبى ، ولكنى أشهد وأشهد كم أنى رأيت ورأى إخوتى، وفيهم كاعب وصبيان، هذا الرجل يداعب امرأته الشابة ويلاعبها راضياً مغتبطاً مسروراً ولم يمض على دفن أمنا إلا يوم وبعض يوم. فان رأيتم بعد ذلك أن هذا الرجل محتاج إلى تعزيتكم فأقيموا وإلا فانصرفوا راشدين. »

ثم تحوّلت عن الجمع فلم تدخل الدار ، و إنما أخذت طريقها إلى المحطة لتركب القطار الذى يحملها إلى القاهرة . ولست أدرى ماذا كان من أمر الجمع

المحتشدين بعد هذه الفضيحة ! ولكنى أعلم أن استقبال المعزين لم يبلغ أيامه الثلاثة ، وأن هذا الضابط التركى القديم من ضباط الجيش لم يستطع أن يقيم فى المدينــة إلا ريثما يدبر أمر سفره ، وأنه ارتحل ذات يوم بما كان يحيط به من نعيم وجحيم ، فانقطعت بينه وبين المدينة الصلات والأسباب ، لم يسمع أهل المدينة عنه شيئاً ولم يسمع هو عنهم شيئاً .

٣

ومضت الحياة فى طريقها هادئة مطمئنة ، تعبث بالناس ويعبث الناس بها ، ويعفى مايقبل من أحداثها على آثار ما أدبر من الخطوب . وقد هاجرت أسرة الصبى من المدينة إلى أعلى الأرض ، وهاجرت أسر أخرى إلى أدنى الأرض ، وشغلت كل أُسرة بنفسها عن غيرها . وشغل كل واحد من أبناء الأسرة الواحدة بشأنه الخاص عن شؤون أهله وذويه . ومضت أعوام تبعتها أعوام ، وبلغ الصبى طور الشباب بعد أن خاض إليه غمرات الخطوب ، ولكنه يحس ذات مساء بين درسين من دروس الجامعة القديمــة يداً تمس كتفه وصوتاً يمس أذنه ، وتقع فى نفسه هذه الجملة : «ألاتذكرنى ! لقد كنت معك فى الكتّاب أنسيتَ العفريت ؟ »

بلى ! لم أنس العفريت وهيهات أن أنساه . وقد استأثر من قلبى ذاك الناشئ بمكان ممتاز لم يبلغه أحد من إخوته كما لم يبلغه أحد من رفاق الصبى أولئك الذين عرفتهم فى الكتّاب ، أو عرفتهم خارج الكتّاب أولئك الذين اتصلت بينهم وبينى أسباب المودة أيام الصبا ، فكانت عشرتى لهم طويلة أو قصيرة ، بلى ! لم أنس العفريت . ولقد حدثت نفسى غير مرة حين هبطت إلى القاهرة ، لأطلب العلم فى الأزهر الشريف بأن من الممكن أن ألقاه أو ألقى أخاه فأجدد من أسباب المودة ما رثّ ، وأصل منها ماانقطع ، وأنقل من صباى فى المدينة إلى القاهرة طرفاً أستبقيه وأنميه ، وأجد فى استبقائه وتنميته رضا القلب ومتعة النفس وسعادة الضمير . ولكنى اختلفت إلى الأزهر أعواماً وأعواماً ، وعرفت فيه كثيراً من الصبية والشباب والشيوخ دون أن ألقى العفريت أو أخاه أو أسمع عنهما قليلا أو كثيراً . ولم أبح لنفسى أن أسأل عنهما أحدهما أو كليهما . ولو قد سألت

لكان من الممكن أن أصل إلى هذا الأزهرى الذى كنت أحفظه القرآن أيام الصبا ، وأن أصل من طريقه إلى أخيه العفريت . لم أبح لنفسى أن أسأل . وما أقل ما كنت أبيح لنفسى السؤال ! وما أكثر ما صرفنى الحياء عن السؤال والاستقصاء !

ثم أنفقت فى الجامعة عاماً وعاماً وعاماً ثالثاً ، ولقيت من الطلاب من درس فى الأزهر ومن تعلم فى المدارس المدنية على اختلافها ، وخطر لى غير مرة أن أسأل عن العفريت ما خطبه وأين يكون ؟ ولكنى لم أبح لنفسى السؤال فحفظت فى قلبى من ذكر العفريت ما كنت أردده على نفسى حيناً بعد حين ، أختصها به ولا أظهر عليه أحداً من الناس ، حتى أقبل علىّ العفريت ذات مساء فمست يده كتفى ومس صوته أذنى ، ومست نفسه نفسى ، واستأنفنا فى الشباب حياتنا كما ألفناها فى الصبا . كان حديث عهد بالجامعة يدخلها فى أول العام الذى كنت أريد أنا أن أتركها فى آخره ، فكنا نجتمع وجه النهار لا فى داره تلك ، وأين كنا من داره تلك ! ولكن فى تلك الحجرة المتواضعة التى كنت آوى إليها أثناء الطلب . ولم يخطر له قط أن يدعونى إلى داره ولم يخطر لى قط أن أسأله عن هذه الدار . ولقد هممت أن أسأله عن إخوته فأجابنى من طرف اللسان ، فلما استزدته راغ عنى بالجواب وانتقل إلى حديث آخر . فأحسست أنه يستحيى من أسرته فلم أسأله عنها بعد ذلك . كان قد تخرج فى إحدى المدارس الفرنسية ، وظفر بشهادته الثانوية والتحق بالجامعة . وكنت أنا أحاول أن أتعلم هذه اللغة الأجنبية وأبذل فى ذلك جهوداً مختلطة أشد الاختلاط ، منها الموفق ومنها غير الموفق ، وكان هو مشغوفاً بالترجمة من هذه اللغة إلى اللغة العربية ، فكان يقرأ علىّ بعض ما كان يترجم ، وكان يقرأ لى بعض ما كنت أريد أن أعرف من الأدب الفرنسى . وقد أنسى أشياء كثيرة ، ولكنى لن أنسى أنه قرأ لى أساطير لافونتين وقصة «كانديد» . وأحاول أن أذكر كيف قضينا أول الليل بعد خروجنا من الجامعة ذات يوم وأين قضيناه ، ولكنى لا أجد إلى ذلك سبيلا ، وإنما أذكر أنى صرفت خادمى وبقيت معه على أن يردنى إلى دارى بعد أن نفرغ مما أردنا إليه . ولست أعرف ما هذا الذى أردنا إليه . ولكنى أعرف أن الليل بلغ نصفه وأنا كنا بعيدين عن دارى قريبين من داره فى حى من الأحياء الوطنية المتواضعة ، فقال لى فى صوت متكسر : «لننفق سائر الليل معاً فنقرأ ما أطقنا السهر ، ثم تعود

إلى دارك فى ضحى الغد.» وقد أجبته إلى ما أراد، فدرنا فى حارات ملتوية وانتهينا إلى دار متواضعة حقيرة ، وأوينا من هذه الدار إلى حجرة بائسة قد ألقى عليها حصير بال ، وألقى على الحصير وسادة ولحاف ، فى هذه الحجرة قرأ لى جزءاً عظيما من «كانديد» ولم نتم إلا بعد أن جاوز الليل ثلثيه . فلما كان ضحى الغد عدت إلى دارى واستبقيته معى إلى آخر النهار . وفى تلك الليلة فهمت مصدر هذا الحياء الذى منعه أن يتحدث إلى من أمر أسرته بشئ .

ومضت أشهر الصيف التى يفترق فيها الطلاب ، وأقبلت أشهر الخريف التى يلتقى فيها الطلاب ، ولقيت صاحبى فيمن لقيت ، ولكنه كان لقاء قصيراً . فقد سافرت إلى فرنسا فى خريف ذلك العام ، وودعت صاحبى فى القطار. وأشهد ما نسيته أثناء ذلك العام الذى قضيته فى فرنسا . وأشهد لقد عدت إلى مصر حين دعتنا الجامعة إلى أن نعود قبل أن نتم الدرس وفى نفسى أنى سأجد عند صاحبى هذا عزاء عن هذا الدرس المقطوع . ولكنى أصل إلى القاهرة ، وأسأل عن صاحبى ، فأعلم أن حمى التيفوئيد قد أسلمته إلى الموت أثناء الصيف .

وما أريد أن أصور للقارئ ماوقع فى نفسى من حزن ولوعة ؛ فانى لم أكتب هذا الحديث لشئ من هذا ، و إنما أذكر أنى شعيت مع رفيقين لى ذات يوم بعد أن صليت العصر إلى قرافة المجاورين حيث قيل لى إنه قد دفن ، وأنى أنفقت مع رفيقى وقتاً طويلا وجهداً ثقيلا نلتمس قبره لنهدى إليه التحية ولنضع عليه شيئاً من زهر ، فلم نهتد إلى هذا القبر . فعدنا يائسين وقد ألقينا التحية إلى قبور القرافة كلها ، وألقينا الزهر على قبر ما فى قرافة المجاورين . وكنت كئيباً كاسف البال مظلم النفس معقود اللسان ، وكان أحد رفيقىّ يهون علىّ وينشدنى قول الشاعر العربى القديم :

لقد لامنى عند القبور على البُكا ... رفيقى لتَذراف الدموع السوافكِ
فقالَ أتَبْكى كلَّ قـبْرٍ رأيتَـهُ ... لقبرٍ ثوى بين اللوى فالدكادك
فقلت له إن الشجى يبعث الشجى ... فدعنى فهذا كله قـبرُ مالك

طه حسين

صفحة دبلوماسية خلال قراءات

الكونت سفورزا وزير لخارجية إيتاليا ، حالى وسابق ، وسفير لها فى باريس يوم استولى موسولينى على الحكم ، فلم يتردد لحظة فى الإبراق باستقالته ، وآثر الإقامة فى باريس ، بعد زيارة قصيرة لروما ، يتردد على أوساطها الدبلوماسية وينشر مقالات دورية فى جريدة « لاديبيش دى تولوز » صحيفة سارو والراديكاليين ، ومبادئهم أقرب ماتكون إلى مبادئه وهو من زعماء الأحرار الإيتاليين . فلما احتل الألمان فرنسا غادرها مع من غادر من زعماء إيتاليا السابقة للفاشية أمثال نيتى إلى الولايات المتحدة . ولما ساهمت إيتاليا فى الحرب إلى جانب ألمانيا أسس جماعة « إيتاليا الحرة » ودفع بها إلى المناداة بالجمهورية الإيتالية . وعندما عقدت الهدنة بين الحلفاء وإيتاليا عاد إلى بلده حاملا لواء الجمهورية فى عنف غير مكتف بنزول الملك فيتوريو أمانويل عن العرش بل ملحا فى إلغاء النظام الملكى جميعاً حتى جاء الاستفتاء محققاً لميوله .

وقد وضع الكونت سفورزا عن السياسة الإيتالية كتاباً سماه « إيتاليا كما رأيتها » ، وعهد إلى دار نشر «برنار جراسيه» فى باريس باخراج طبعته الفرنسية، التى لم تصل بعد — لا هى ولا طبعته الإيتالية — إلى مكتبات القاهرة . لكن مجلة « العالم الفرنسى » قد نشرت منه فصولا فى أحد أعدادها الأخيرة ، وقد تضمنت هذه الفصول صفحة دبلوماسية انطوت على كثير من المعلومات المتصلة بمؤتمر الجزيرة سنة ١٩٠٦ الذى تحددت فيه مواقف الدول الأوربية من مراكش والذى اعتبره سفورزا — وقد كان سكرتيراً للوفد الإيتالى فيه — مؤذناً بدلائل قيام الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ .

ويقدم سفورزا لمؤتمر الجزيرة بمفاوضات « التحالف الثلاثى » بين ألمانيا والنمسا وإيتاليا ، التى لم تفز فيها إيتاليا من بسمارك سنة ١٨٨٢ بمساعدة ألمانيا فى سبيل « الاحتفاظ بالتوازن فى البحر المتوسط » ، فاضطرت للبحث عن ضمان

هذا الاحتفاظ فيما بعد لدى انجلترا ولدى فرنسا باتفاقات خاصة بتونس سنة ١٨٩٨ وبليبيا ومراكش سنة ١٩٠٠ . لم تعترض ألمانيا عليها كما لم تعترض من بعد على الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا سنة ١٩٠٤ وإن كانت قد فوجئت به قبل توقيعه بأسبوعين اثنين ؛ إذ قصد سفير ألمانيا بباريس إلى وزير الخارجية الفرنسية دلكاسيه واستأذنه فى أن « يوجه إليه سؤالا فيه جرأة على السر هو هل صحيح أن اتفاقاً على وشك التوقيع بينكم وبين انجلترا ؟ » فأجابه دلكاسيه : « إن فرنسا تريد أن تحتفظ فى مراكش بالحالة السياسية الحاضرة ولكن مع تحسينها . على أن الحرية التجارية ستظل محترمة فيها احتراما تاماً مهما يكن شكل المساعدة التى تلجأ فرنسا إلى تقديمها للسلطان » ، ورأى السفير الألمانى أن هذه التصريحات « طبيعية جدًّا ومشروعة تماماً » .

لكن الموقف الألمانى قد تغير فجأة بالنسبة لمؤتمر الجزيرة سنة ١٩٠٦ إذ شاءت أن تضفى على حضورها وحضور إيطاليا إياه صفة التحالف الثلاثى فتتوحد خططهما وتنزل فيه إيطاليا منزلة التابع ليس غير . ولذلك فقد تولى برلين الغضب عندما عرفت بارحة المؤتمر أن وزير الخارجية الإيتالية الجديد قد عرض على الماركيز فيسكونتى فينوستا أن يكون رئيس الوفد الإيتالى إلى مؤتمر الجزيرة بدل سفير إيتاليا بمدريد سلفستريلى الذى كان مشهوراً بميوله لألمانيا والذى كان قد اختاره لتلك الرياسة وزير الخارجية السابق . وقبل المركيز المهمة على شرطين اثنين : الأول ألا يحمل من التعليمات إلا ما كان « مستمداً من محالفات إيتاليا ومنبعثاً من مصالحها » . والثانى ألا يصحبه إلا سكرتير سياسى واحد ، مع ابنه الذى يقوم له بدور السكرتير الخاص .

وكان الشاب سفورزا هو هذا السكرتير السياسى الأوحد .

وقد مثل فرنسا فى المؤتمر بول ريفوال يقول عنه سفورزا إنه محام راح يترافع فى قضية . ومثل ألمانيا أحد سفرائها القدماء يعاونه تاتنباخ الذى يصفه سفورزا بأنه «ألمانى أكثر منه دبلوماسى» . وكان سر أرثر نيكولسون ممثل بريتانيا العظمى الأول ، ومن الصعب فى نظر سفورزا أن يكون المرء أكثر منه تردداً وأكثر قسوة حسب الأحوال . أما مندوب أميريكا فكان هنرى وايت الذى يراه سفورزا « عشيراً من الطراز الأول وموفقاً بين مختلف الآراء بالتعريف » ، كما يرى سكرتيره « ممتعضا لجهل رئيسه بمسائل البحر المتوسط » . وكان رئيس

المؤتمر هو الوزير الأسبانى دوق المودوفار الذى يقول عنه سفورزا إنه « أكثر عروبة من الثمانيني محمد الطربس الذى كان يتولاه « القرف » إذ يضطر لأن يمضى أيامه الباقية مندوباً أول لمراكش فى ألفة جمع من المشركين » .

ويقرر سفورزا إن الذين حضروا الأسابيع الأولى لمؤتمر الجزائر قد لاحظوا أن مايقال عن دقة النظام الألمانى أسطورة من الأساطير . فقد كان لألمانيا على ماتقدم مندوبان رئيسيان . وكانت تصل إلى كل منهما تعليمات من شعبتين متنافستين فى وزارة الخارجية ببرلين . وكان الفرنسيون أول الأمر يرجعون اختلاف التعبيرات التى يلجأ إليها الممثلان الألمانيان إلى الإغراق منهما فى الخداع ، ولكنهم انتهوا إلى تعرف الحقيقة خلال ما وقفوا عليه من إفضاءات المساعد الألمانى فى بعض البيئات المحايدة ، فكثيراً ما كان يقرر فيها أن ألمانيا لا تريد الحرب حقا ولكنها إذا اضطرت إليها اضطراراً فانها « ستفعص الفرنسيين كالبق » .

وجاء يوماً هذا المساعد تاتنباخ إلى المندوب الإيتالى الأول ووجه إليه اللوم إذ يلتزم موقفاً قريباً من الحياد . وأخذ يلقى عليه درساً فى السياسة الأوربية ، فاستمع إليه المركيز — وهو تلميذ مازينى وصديق كافور — فى صبر طويل ، ثم توجه إليه بالسؤال : « هل لك أن تقول لى أيها الكونت العزيز أأنت تشرفنى بهذا الحديث بناء على تعليمات من حكومتك ؟ » فاعترف تاتنباخ بالنفى ، فاستوى له المركيز وأنهى حديثه الطويل بقوله : « إنى فى سن أبيك يا عزيزى الكونت ، ولذلك فانى أسمح لنفسى بملاحظة أن الفكرة التى تتصور بها المفاوضات الدبلوماسية هى أن تمسك بعنق خصمك وأن تطرحه أرضاً وأن تدوسه بالأقدام لتقول له بعد ذلك : هيّا بنا إلى الاتفاق ! وأن طريقة كهذه لو عممت فى بلادكم لجلبت عليكم الشرور » .

وكان سفورزا حاضراً ذلك الحديث . وقد قال له المركيز بعد انصراف الكونت الألمانى : « إنه على حق ! فلنذهب الآن لنتسلى . إذ لو أرسلنا بما دار برقية لعرضنا الأمور إلى أن تؤخذ أخذ مأساة . »

ويرى سفورزا أن شخصية هذا المندوب الألمانى — وهى شخصية سمجة — كان لها أكبر الأثر فى تضامن الفرنسيين والانجليز ؛ إذ انتهى المندوب البريتانى الأول إلى تأييد المندوب الفرنسى الأول فى كل اتجاهاته مع ماكان بينهما من تفاوت فى الطبائع ؛ فقد كان سر أرثر نيكولسون قليل الكلام متحفظاً ، وكان أول الأمر

يحس امتعاضاً من ذلك المحامى الفرنسى ذى الحديث المتدفق المزدهر .

ويقرر سفورزا أن الموقف الألمانى قبل أن تعمل الظروف على عزله كان يلقى فى روع المجتمعين كلهم أن الحرب قريبة ، وأن ألمانيا هى التى ستنتهى إلى إعلانها . ولم تعمل الظروف على محو هذا الخوف إلا بفضل تفصيل من التفصيلات الإجرائية . فقد عرضت مسألة تأجيل المؤتمر لأن التقارير الخاصة بالبنك الراكشى لم تكن معدة ، والألمان لم يكونوا ليريدوا أن تتناول المناقشة مسألة البوليس قبل أن ينتهى بحث موضوع البنك . فاقترح المندوب البريتانى — وقد نالت منه الالحاحات الألمانية الطويلة — بما أنه ليس من اليسير درس مشروع البنك بسرعة ، أن تخصص جلسة اليوم التالى لدراسة نظام البوليس . فوافق المندوب الروسى فى الحال ، وأقر المندوب الفرنسى الاقتراح ، فتم بذلك — على حد قول سفورزا — تجنيد الاتفاق الثلاثى بعد أن ظل الخوف من ألمانيا حائلا طوال المؤتمر دون ذلك . فغضب المندوب الألمانى ووقف ملحا فى الانتهاء من درس مسألة البنك قبل العرض لمسألة البوليس . فأعلن الرئيس الأسبانى أنه سيلجأ لأخذ الأصوات ما دام أمامه اقتراحان متناقضان . ولم يكن له بصفته رئيساً إلا أن يفعل ما فعل . فأخذت الأصوات بترتيب أسماء الدول المؤتمرة باللغة الفرنسية . فأصر المندوب الألمانى على رأيه ، وانضم إليه بعد تردد مندوب النمسا ، وأعلن مندوب بلجيكا أنه منضم إلى رأى الكثرة إذا يتبين . وانضم المندوب الأمريكى إلى الرأى الانجليزى الفرنسى الروسى . وذكر المندوب الانجليزى أنه صاحب الاقتراح فأيده .

وجاء إذن دور المندوب الايتالى ، فعاود المندوب الألمانى الأمل . ذلك بأنه إذا أيد الاقتراح الألمانى فان مندوبى هولندا وسويسرا سيتبعانه ، وإذن فان ستة أصوات سينالها الاقتراح البريتانى وستة أصوات ستكون ضده ، فلا يعمل بصوت بلجيكا إذ لا تكون هناك كثرة ينتمى إليها . لكن مندوب إيتاليا « اقترح تخصيص جلسة لتبادل الرأى حول مسألة البوليس » فكان بهذا نجاح الاقتراح « الاتفاق » إذ تبع سائر المندوبين هذا الاتجاه وظهرت ألمانيا فى عزلة لم يؤيدها فى الرأى إلا النمسا ومراكش .

وفقد مؤتمر الجزيرة منذ تلك اللحظة أهميته السياسية ؛ إذ انكشف ستر ألمانيا التى كان يخشاها المؤتمرون جميعاً ، وتكتلت الأصوات ضدها إلى أن انتهى المؤتمر .

لكن ألمانيا « المنعزلة » قد قررت من تلك اللحظة الاستعداد للحرب حتى تنال بها ما لم تستطع أن تناله عن طريق الدبلوماسية ، فكان تدبيرها للحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ .

وبعد فتلك صفحة دبلوماسية نرجو أن يفيد الدبلوماسيون المصريون والعرب مما عمرت به من ملابسات إذا ما كتب لهم أن يعالجوا أمور بلادهم فى الخطائر الدولية .

محمود عزمى

كيف تلهو نيويورك . . .

عود إلى لغة الأرقام .

لا عجب فى أن أتخذ هذه اللغة بين الفينة والفينة ؛ فانى ما برحت نزيل أمريكا ، أتنسم هواءها ، وأحيا فى مغانيها . وليس لأمريكا معنى إلا أنها أرقام وأرقام . . .

أرقام متكاثرة متعالية . . .

نواطح سحب أخرى ، قوامها الأعداد لا الأحجار !

ليس ذلك بمقصور على ميادين العمل المختلفة ، ولكنه يتعداه إلى الملاهى وما إليها من ضروب المتع .

تضم مدينة نيويورك سبعمائة مبنى بين مسرح للتمثيل ، ودار للسينما ، إلى جانبها ثلاثمائة وألف من أندية الليل ، تلك التى يسمونها بالفرنسية « الكباريهات » ، ولعلنا لا نخطئ إذا سميناها : المساهر .

هذه المواطن ، على اختلاف أنواعها ، بمثابة متنفس لسكان مدينة التزاحم والضجيج . . . هؤلاء الآدميين الذين لو انتقلوا من عقال مدينتهم لكانوا أحرياء أن يعمروا أقطاراً شواسع .

تعمل تلك المسارح والمساهر وما إليها فى هذه المدينة عمل النوافذ للحجر والرئات للأجساد .

إنها مثوى راحة ، ومثابة استجام ، لذلك الآدمى الذى ينهمك فى عمله ، رغبة فى الدولار ، كما كان ينهمك عمال السخرة فى الزمن القديم ، رهبة من العقاب .

وبديه أن تكون تلك المتنفسات موفورة الحظ من أسباب الدعة والتسلية وإمتاع النفوس ، وإلا انعكست الآية ، فازداد قصادها رهقاً على رهق ، وشقيت أعصابهم بعذاب جديد .

وطوعاً لذلك الغرض المنشود حرصت تلك الدور على أن تقدم لروادها من نتاج الفن ثمرات دانية المنال ، أخاذة المظهر ، وشراباً قريب المنهل ، سائغ المذاق ، وأن يكون فيها من عناصر التفكهة والمرح ما يملأ النفوس من اغتباط ، وينسيها ما يثقلها من أعباء المعاش .

ومن ثم كان الروح الغالب فيما يعرض بتلك الدور هو روح التسلية المحضة .

على أن التسلية ألوان ، و إن منها لما يصدف عنه الرجل المهذب الذى علت ثقافته وصفا ذوقه ، فلم تعد نفسه تبتهج بالرخيص من التسليات . ولذلك تعددت ألوان المسارح والمراقص والمساهر ، لكى تواتى مطالب الأذواق والأهواء .

وعلى الرغم من أن روح التسلية تسرى فى هذا النتاج الفنى وتتدانى به أحياناً إلى درجات التفاهة أو الانحراف ، فان ذلك النتاج بمجموعه فى المستوى الذى يلائم بلداً متحضراً ، أهلوه على حظ ملحوظ من الثقافة وسلامة الذوق .

خرجت يوماً لأشهد حفلة موسيقية فى « ستاديوم كونسير » أستمع فيها إلى عازف على البيان أحسبه بولونى الجنس ، اسمه روبنشتاين . . . وبينما كنا نجتاز الطريق إلى المثابة المنشودة ، اعترضتنا زحمة هائلة اضطرب لها نظام المرور . وتناهى إلى أسماعنا أن وقائع دموية تجرى ، وأن رجال الشرطة يعالجونها ضبطاً للأمن . . .

وبعد حين استبانت لنا جلية الأمر ، فاذا بنا نعلم أن الزحمة لم تكن إلا إقبالا من الجمهور على شراء تذاكر لمشاهدة الملاكم لويس ينازل خصما كبير الخطر .

وكان الطريق على رحابته وامتداده يموج بتلك الجموع التى تتناقل الحديث والنقاش ، بين مشايع للملاكم العالمى ، وبين مناصر لخصمه الذى تصدى له .

فأذكرنى ما أرى مجالس « شاعر الربابة » فى العهود القريبة ، حين يتحلق الناس حوله ، يستمعون إلى ما يقصه من أساطير الزناتى خليفة ودياب بن غانم وما كان بينهما من حرب ونضال ، فاذا المستمعون فريقان : مشايع لهذا ، ومناصر لذلك . وربما أدى الخلاف إلى شجار بين الفريقين حامى الوطيس .

ما أشبه الآدمى بالآدمى ، مهما تختلف بهما الثقافة والتحضر !

ليس من فارق بين المعركة القائمة حول مجال الملاكمة ، وتلك المعركة التى كانت تقوم حول « شاعر الربابة » . . . إلا أن الجمهور الأمريكى تدور

معركته حول أبطال فى عالم الحقائق ، والجمهور الشرق تدور معركته حول أبطال فى ذمة الأساطير وعالم الخيال .

ولقد انتقلت عدوى التحدث والمجادلة فى شأن هذه الملاكمة إلى ساقة السيارات ، فاندمج سائق سيارتنا فى غمار المتحدثين والمجادلين ، حتى خشبنا أن تحدث مشاجرة نكون من وقودها دون أن نجنى ذنباً !

لقد كانت السيارات وهى تجتاز الطريق ، كأنها مراكز إذاعة متنقلة ، مراكز استقبال وإرسال فى شأن هذه الملاكمة الخطيرة .

وبعد لأى بلغنا « ستاديوم كونسير » فى سلام ، ولم نكد نطأ أرضه حتى ألفينا أنفسنا بين حشود من الناس يختنق بهم المكان .

إن « ستاديوم كونسير » رحبة فياحة مكشوفة للهواء الطلق ، ملئ نصفها بكراسى مصفوفة ، وأقيم فى نصفها الآخر مدرج عظيم . . . إنها ساحة للألعاب الرياضية على طراز رومانى ، يتخذونها أحياناً مثابة للفن ومسرحاً للموسيقى .

كانت هذه الآلاف المؤلفة يموج بها المكان ويرتج ، فما إن جعلت الموسيقى تطلق أنغامها ، حتى عم السكون ، فاستحال المكان كعبة عبادة يخيم عليها الخشوع .

ولما تجلى العازف البولونى يصافح البيان بأنامله ، راحت هذه الجموع الحاشدة تهيم معه فى آفاق روحية رائعة .

وانتهى العزف ، فاذا الجمهور المتعبد الخاشع ينبعث متهللا مرحاً ، يعلن حفاوته فى حمية بين التصايح والتصفيق .

يميناً إن الفنان فى روحه الانسانية السامية ليلقى من حفاوة الأمريكيين وتكريمهم مالا يقل شأناً عما يلقاه بطل الحرب وزعيم السياسة !

ولقد أثار انتباهى إقبال الجمهور الأمريكى بوجه عام على نوعين مختلفين متضاربين ، يستنفد فيهما وقت فراغه : أحدهما مجالات الملاكمة والصراع ، والآخر أندية الموسيقى والغناء .

ظاهرتان قد تبدوان على تناقض : نزعة إلى الوحشية تسايرها عاطفة رقة وحنان !

ليس ثمة من تناقض .

إن الطبيعة قوامها هذان العنصران من خير وشر، من شدة ولين . وما زالت الانسانية بخير ، إذا استوفت نصيبها من هذين العنصرين على درجة سواء .

فان لم تتوافر السلامة والاتزان بينهما ، فطغى أحدهما على الآخر ، صار الأمر إلى فساد .

والدول فى ذلك كالأفراد ، بتكامل هذين العنصرين فيها ، تتصف بالاعتدال .

وليست فورات الشعوب فى الغارات والحروب ، إلا اختلالا فى أنسجتها الحيوية ، أفقدها ما بين العنصرين من توازن ووفاق . . .

إنها طغيان لعنصر على الآخر . . .

وما أقربه شبهاً بثوران بعض الأنسجة فى الأبدان ، ذلك الثوران الذى يحدث أوراماً سرطانية تورد صاحبها موارد الحتوف !

والمسرح فى نيويورك على تباين أنواعه لا يختلف كبير اختلاف عن أمثاله فى أمهات المدائن المتحضرة ؛ فما يعرض فيها على مسرح « متروپولتان أوبرا » تصادف مثله فى أوبرا باريس و « كوفنت جاردن » فى لندن . وما يعرض فى مسهر « كوبا كابانا » لا يزيد على ما يعرض فى مسهر « الليدو » فى باريس .

وقد تجد الرواية الفنية تمثل أعواماً تباعاً على أحد مسارح نيويورك فتذكر أن ذلك يجرى أيضاً على هذا النحو فى مسارح لندن . . .

وإذا ذكرت المسرح الثلجى المسمى « أيس شو » فى نيويورك طالعك على الفور قصر الجليد فى باريس المسمى « باليه دوجلاس » .

فان أبيت إلا أن تلتمس بينها بعض الفروق ، لم تجد إلا تلك الفروق المظهرية بين بلد وبلد ، من حيث الطابع المحلى ، والذوق الشخصى .

ولكن ثمة فى الفن الأمريكى ظاهرة خليقة بالذكر ، وإنى لأحسب أن أمريكا قد تفردت بها ، أو لعلها سبقت غيرها إلى تجويدها .

هذه الظاهرة وليدة فكرة يسمونها « تيسير الفن للجميع » وغرضها تحبيب الجمهور الكبير فى الفن الرفيع ، بعرض نماذج شائقة منه يستسيغها مستوى الذوق العام .

وقد تكفل مسرح « رديوستى هول » بتحقيق هذه الفكرة . . . وهو فى الحق مفخرة البناء المسرحى ، وآية إعجاز بين دور التمثيل .

إنه ليرحب بستة آلاف ومائتين من النظارة ، على مقاعد فسيحة وثيرة ،

لا تقل فخامة ولا روعة عن المقاعد فى أمهات دور الأوبرا فى العالم المتحضر .

فأما الأجر الذى يؤديه المتفرج ، فهو زهيد تافه ، بالنسبة للأجور الغالية فى الدور الرفيعة للتمثيل .

والبرنامج فى هذا المسرح يبدأ منذ الصباح ، ولا ينتهى إلا بعد منتصف الليل ، فهو فى تكرار خلال هذه الساعات الطوال . وإنه لبرنامج طريف نستطيع أن نعده وافياً بالغرض من تسلية الذهن وتغذيته . . . إنه يماثل وجبة من الطعام خفيفة الهضم ، مستوعبة عناصر الغذاء الصالح . ولو ألقيت نظرة على أى برنامج من برامج هذا المسرح ، لوضحت لك تلك الفكرة فى غير عناء .

البرنامج عدة فصول :

عرض رواية سينمائية من المشهورات . فحفلة موسيقية قوامها ستون عازفاً يؤدون قطعة عالية متعارفة . فغناء تقوم به جوقة يرأسها مطربات ومطربون ممن لهم مكانة ملحوظة وصيت بعيد . فعرض موسيقى غنائى راقص قوامه أسراب من الفتيات يؤدين رقصات شعبية ، وأخرى فنية فى مشاهد جميلة رائعة تتميز بالطرافة فى الإضاءة والإخراج .

أو لست ترى من تضاعيف هذا البرنامج أن الهدف الأول هو تقديم نماذج طيبة لا تنزل إلى مستوى التهريج الرخيص ، ولا تسمو إلى الفن الذى قد يستعصى على سواد الناس ؟

قيل إن الأوبرا محاولة لجمع فروع الفن فى إطار واحد : التمثيل والغناء والموسيقى والتصوير والبيان نثره وشعره .

وإنى لأرى أن « رديوستى هول » هو محاولة أخرى ، وإن تكن فى حداثة عهدها ، لجمع مناحى الفن الحديث فى دائرة واحدة . وقد تنمو هذه الفكرة على الأيام وتتطور حتى تلم شتات الفن على نحو جميل .

وعلى أية حال ، فان هذا المسرح يطمح إلى أن يجعل الفن ديمقراطيا ، وأن يخلع عنه رداء الأرستقراطية التقليدية التى طال عليها الزمن .

ولكن هل يمكن حقا أن تطوى الديمقراطية تحت جناحها روح الفن الرفيع ؟

إن هذا الفن الرفيع فى معناه الأصيل أرستقراطى فى كل ناحية من نواحيه ، فهو سموّ فى التفكير ، وعلو فى الذوق ؛ إنه أرستقراطية الذهن الذى يتفتق عن عبقرية ونبوغ .

ولا نزاع على أن العباقرة فى كل أمة وفى كل عصر نفر قليلون ، وأن ولائد قرائحهم ستظل بمعزل عن المستوى الشعبى الذى ينتظم أفهام السواد .

و إذن فبون ساشع بين أرستقراطية الحياة التى هى فى متناول التغيير والتبديل لقيامها على أسس من الماديات ، وبين أرستقراطية الفن التى هى عصية ممتنعة ، لقيامها على أسس من مواهب خفية ليس إلى اجتلابها من سبيل .

وثمة ظاهرة أخرى فى الفن هنالك ، لا يحتاج التدليل عليها إلى بيان ، تلك هى عظمة الفلم الأمريكى وتفرده بالغلبة ، وسموه إلى القمة .

وجلىٌّ أن هذا الفلم يكاد يستوعب مظاهر النشاط الفنى جميعاً ، فيه تتلاقى الجهود الفنية المختلفة الألوان ، و إليه تجند المواهب والعبقريات فى شتى مناحيها .

ولا مرية أن ملابسات دولية فى الحرب العالمية الأولى ، أتاحت لأمريكا فرصة التجويد فى هذا الفن ، وتزويد الأسواق به ، على حين أن الأمم الأخرى كانت فى شغل بأثقال الكفاح ، فتخلفت فى هذا المضمار . . .

على أنه لو لم يكن الزاد الأمريكى الفنى ثمين الجوهر ، لما أعانته تلك الملابسات الدولية على التغلب والظفر .

ولو ذهبنا نتقصى العوامل التى أبرزت الفلم الأمريكى ، وجمعت حوله الأهواء ، وجعلته فنا عالميا تنفسح له جوانب الأسواق ، لألفينا العوامل يتقدمها عامل الإخراج وما يكتنفه من معدات .

إن المخرج فى الفلم الأمريكى هو روحه وقوامه ، و إن هذا المخرج قد تفطن إلى لب الحياة وزاول من تجارب صناعته وتفهم جمهوره ما بصّره بوسائل النجاح . فهو إذا عرض عليك إنتاجه ، حاول أن يضع تجاه نظرك قطعة حية من دنياك التى تعيش فيها ، لا تزيين ولا تزييف ، فسرعان ما تستجيب نفسك لما تشهد ، وسرعان ما تتم بينك وبينه الألفة ، وتحس بأنك تغايش من ترى من الناس ، وتزاول ما يدور من المشاهد والأحداث .

لقد توارى فى الفلم الأمريكى ما كنا نشهده قبلا من مبالغة فى الأداء ، وتلفيق فى الصور ، وتزوير على ما تراه العيون ، وتستشعره النفوس فى دنيا الناس . . .

لقد أصبح فن الفلم الأمريكى هو فن الحياة !

محمود تيمور

بين العلم والسياسة

[عاد كاتب المقال من المؤتمر الافريقى لدراسات ما قبل التاريخ الذى انعقد بمدينة نيروبى فى شهر ينـاير ١٩٤٧ ، بعد أن مثل فيـه جامعة فاروق الأول . وهو يسجل هنـا بعض انطباعات وملاحظات عابرة عن المؤتمر .]

يقال فى محافل العلماء وفى دور البحث والدراسة إن العلم ينبغى أن يطلب من أجل العلم ، وإن طلاب العلم والباحثين عن المعرفة ينبغى أن يخلصوا فيما يطلبون وفيما يبحثون ، فلا تـكون لهم غاية تفسد ما يسعون إليه ، ولا غرض يهدف بهم ويوجههم فيما ينشدون . ويقال أيضاً إن العلم ينبغى أن يرتفع بأهله فوق الغايات ، وأن يتنزه بهم عن كل الأغراض ، فلا يبتغون من ورائه غير وجه الحق ووجه الله . وهو إن انتهى بالناس فى بعض الأحيان والحالات إلى غاية فانما ينتهى إلى ما يهذب النفس ويصقل العقل ويرقى بالفرد والجماعة إلى مراتب الإنسانية التى لا تعرف من الغايات والأسباب إلا ما يخرج بالناس من الضلالة إلى الهدى ومن الجهالة إلى النور . بل يقال أكثر من ذلك إن العلم الصادق ينبغى أن يكون خيراً للإنسانية كلها ، لا يسخَّر من أجل جماعة من الناس دون أخرى ، ولا ينتفع به فريق من الخلق دون فريق ؛ فالعلم شعاع من نور الله وقبس من ناره ؛ وما دام الله للخليقة جميعاً فالعلم ينبغى أن يكون وأن يبقى للناس أجمعين .

هكذا علّمنا أشياخنا فى مصر وفى غير مصر ؛ وهكذا كتب العلماء وتحدث المتحدثون عن العلم فى مختلف العصور ؛ فقالوا إن العلم لا وطن له ، وإن العالم الحق من ضاق به موطنه الصغير فاتخذ من العالم كله وطناً له ، وإن اتساع العقل ورحابة الفكر وبعد المعرفة وعمق الثقافة لا بد أن تنتهى كلها بطالب العلم إلى أن تـكبر نفسه ويتسع قلبه ، فيجمع فى ذاته بين خير ما يستطيع أن يجمع

إنسان من ثقافة العقل وأدب النفس وحياة الضمير . . . ولعله أن يبلغ بذلك أرفع ما تستطيع أن ترقى إليه الإنسانية ، وأقرب ما يستطيع أن يكون عليه إنسان من الله .

ومع ذلك فالذى يدرس تاريخ العلم والعلماء منذ بدأ الانسان يبنى تراثه فى العلم والمعرفة ، لا يستطيع أن يقول فى إنصاف إن العلم كان فى وقت من الأوقات خالصاً لوجه الله كما أراد له العلماء ، وهو لا يملك إلا أن ينتهى إلى أن هذا الكلام الكثير الذى ردده حملة العلم عن رسالتهم كان أدنى إلى التمنى والرجاء منه إلى الحقيقة والواقع . بل إن الذى يدرس تاريخ العلم يكاد ينتهى إلى أن ما تمناه العلماء كان فيما يبدو أبعد من أن تستطيعه نفس إنسان . وما دام حملة العلم من بنى الانسان ولا من الملائكة ، فلا سبيل إلى أن نجرد العلم من « إنسانيته » ، بكل ما تحمل هذه الكلمة الأخيرة من معنى . وإذا كان بين البشر من حقق ما هدى إليه العلماء ، أو قارب أن يفعل ذلك ، فأولئك صفوة مختارة لا تمثل أبناء العلم فى جملتهم ، أو هم فلتة من فلتات الطبيعة لا يصح أن يعتد بها فى الحكم على طبيعة العلم والعلماء .

وفوق ذلك فنحن إن رجعنا إلى تاريخ الثقافة والمعرفة وجدنا أن الإنسان قد نزع أول ما نزع إلى إشباع حاجاته الروحية ، وأنه قدم تلك الحاجات على حاجاته العقلية . ولذلك فان جانب الدين سبق جانب العلم فى تراث الانسانية الثقافى . بل إن الروح سخرت جوانب الثقافة الأخرى فى الفن واللغة والعلم ، فسعت كلها فى أغلب أعصر التاريخ لتشبع نزوع النفس إلى الروحيات . ولئن كان العلم قد سعى فى العصر الحديث لأن يستقل بنفسه عن ثقافة الروح فانه لم يجاوز حتى الآن محاولاته الأولى فى أن يقف بذاته ؛ بل هو قد تجاذبته نزعات أخرى فى الحياة الجديدة ، منها النزعة القومية التى تأبى إلا أن تسخر كل شئ من أجل حياة الأمة بين غيرها من الأمم . ومنها النزعة الدولية التى همّت بنفر قليل من العلماء ورجال الفكر إلى أن يقحموا العلم فيما لا راحة للعلم والعلماء أن يقحموا أنفسهم فيه من نظم الجماعات ونظريات الحكم وتنظيم العلاقات الدولية فى عالم يضطرب ويتطور من يوم ليوم ، أو فى القليل من جيل لجيل . بل منها النزعة العقلية ذاتها ، وقد قسمت علماء الجيل فرقاً وأشياعاً فيما ينبغى أن يهدف إليه العلم والبحث العلمى من غاية أو غايات تتصل بالمادة وتلزمها حيناً ، وتجاوزها وتمتد إلى

ما وراءها حيناً آخر . وذلك كله إن دل على شئ فعلى أن العلم يصعب جداً ، أو يستحيل فيما يظهر ، أن يأتى مجرداً أو خالصاً لذاته . وما ذلك إلا لسبب بسيط جدا وهو أن العقل البشرى لم يخلق منزهاً عن الغاية أو مجرداً من الغرض، أو حتى خالصاً لوجه الحق أو وجه الله .

وقد ينفعنا أن نذكر هذا كله وأن نتمثله واضحاً جليا عندما نعرض لحياتنا الحاضرة وبعض ما يتصل بها أو يترتب عليها من مشكلات . فالعلم فى عصرنا الحديث قد تدخل فى حياة الناس والجماعات إلى حد بعيد ؛ والحياة القومية أصبحت لا تقوم على أساس مكين إلا إذا وجهها العلم ورسمت لها الخطط العلمية . والعلم ذاته قد غدا فى خدمة المجتمع فى كل جماعة تدعى لنفسها الرق ، بل فى الحياة الدولية بعد أن اتسمت بطابع التوجيه العلمى فى غير قليل من الأشياء . لذلك كله لم يعد العلم خالصاً ولا مستقلا عن الحياة القومية والدولية . وكلما ازدادت الحياة القومية تعقداً والحياة الدولية تشابكاً برزت صلة العلم بأسباب الحياة العملية ومصالحها النفعية فى صور وأشكال جديدة . ولعل أغرب ما تتجلى فيه تلك الصلة بعض المحافل التى يجتمع فيها نفر من العلماء ، يتذاكرون تقدم العلم والمعرفة ، ويعرضون خطواتها بين حين وحين . ففى هذه المؤتمرات يجتمع العلماء من أركان الأرض ، يمثل كل فريق منهم أمة من الأمم ، ويباهى بما لها من نصيب موفور — أو يجب أن يكون موفوراً ! — فى تقدم العلوم ، ويحاول كل منهم أن يكسب لأمته ما استطاع من علم جديد أو منفعة مترتبة على علم جديد . وبعض هذه المؤتمرات دولى عالمى يشمل أمم الأرض جميعاً ، وبعضها الآخر يقتصر على قارة بالذات ، ويدرس شؤون العلم المتصلة بها . ومن هذا النوع الأخير مؤتمر عقد أخيراً فى نيروبى عاصمة كينيا بشرق إفريقية ، ودعيت للاشتراك فيه دول القارة الافريقية وبلدانها مستقلة وغير مستقلة ، وكذلك عدد من الدول المهتمة بشؤون القارة أو بالدراسات المتصلة بها . وكان المؤتمر خاصا بعصرما قبل التاريخ، ونشأة الحضارات وتطورها فى القارة المظلمة قبل أن يبزغ فجر التاريخ ؛ أى إنه كان فى ظاهر الأمر بعيداً كل البعد عن أوجه النفعية التى قد تتصل بحياتنا الحاضرة . ومع ذلك فان هذا المؤتمر ، على بعد ما بيننا وبين العهد الذى انعقد من أجل دراساته ، قد مس السياسة الحاضرة مساساً تجلى فيه ما يمكن أن يكون بين السياسة والعلم من أسباب لا يضعفها بعد الشقة فى الزمان

ولا يقلل من قيمتها ارتباط العلم أحياناً بالماضى السحيق من جهة ، وارتباط السياسة غالباً بالحاضر أو المستقبل من جهة أخرى . . . إذ الواقع أن ليس بين العلم أيًّا كان ميدانه وزمانه وبين السياسة فى هذا العصر الذى نعيش فيه حجاب لا تخترقه الغايات !

والذى يدرس شؤون القارة المظلمة فى الجيلين أو ثلاثة الأجيال الماضية يعرف أن ظلمة هذه القارة لم تمنع أعين العالم الأوربى من أن تتطلع إليها ، وأن تمعن فى التطلع ، علها أن تصل إلى قلب القارة المظلمة من أى طريق . وقد سبقت بريطانيا غيرها من الأمم الأوربية فتطلعت إلى إفريقية السوداء من الشمال ومن الغرب ومن الجنوب ومن الشرق ، وراح الجوّالون والمستكشفون البريطانيون من أمثال لفنجستون وستانلى وسبيك وغيرهم يرتادون القارة ويتوغلون من الساحل إلى الداخل ، يضيفون إلى العلم والمعرفة ما لم يسمع به الرجل الأبيض من قبل عن أرض يقطنها المتوحشون والبرابرة من الزنج وأنصاف الحاميين . ثم راحت الجمعيات العلمية تعنى بنتائج هذه الرحلات ، وتذيع عنها بين الناس ما حفز همة الراغبين فى الإفادة مما أتى به الرحالون من علم ومعرفة ؛ فتكونت شركات التجارة ، وتقدم أهل المشروعات ومن ورائهم الحكومة آخر الأمر — أو قل أوله — بل تقدم نفر متزايد من أهل الدين ورجاله وحملوا مشعل المدنية المسيحية إلى قلب القارة الذى لم يعرف عن الأديان السماوية إلا ما انتهى إليه من قبل عن الإسلام أو عن المسيحية الشرقية خلال بعض أطراف إفريقية البيضاء أو السمراء . وهكذا تداخلت المصالح المشتركة بين أهل الرحلة وأهل التجارة وأهل المشروعات وأهل الدين وأهل السياسة ؛ وانتظمت جهود هؤلاء وهؤلاء فاتخذت صبغة العمل الحكومى الذى استحال آخر الأمر — أو قل أوله أيضاً — إلى عمل عسكرى صحبه أو ترتب عليه قيام الاستعمار الحكومى الحديث فى صوره وأشكاله المعروفة .

وقد يعنينا فى صدد مؤتمر الدراسات الإفريقية لعصر ما قبل التاريخ أن نستشف ما قد يكون من وراء تنظيمه من سبب أو أسباب . فبريطانيا ، أو إحدى مستعمراتها الشرقية ، هى التى نظمته ودعت إليه . وليس من شك فى أن علماءها كانوا مخلصين وجادين فى الأمر حين دعوا أو تقبلوا ما هيئ لهم من دعوة المؤتمر للانعقاد والدراسة فى إحدى مستعمرات الإمبراطورية . ولكن

المؤتمر قد سبقه تفكير علمي سياسي — أو سياسي — علمي إن شئت — فقد كان من ورائه فيلسوف الإمبراطورية وقائدها الإفريقي المرشال سمطس ، وهو الذي يعرف ما للدراسات والبحوث العالية من قدر وخطر ، وما يكون لها ويترتب عليها من نفع قريب أو بعيد ، وهو في الوقت نفسه راسم كثير من خطط الإمبراطورية السياسية ، وخير من يعرف أن روابط العلم قد لا تقل عن روابط السياسة ، وأن الخطة السياسية ينبغي أن تسبقها دراسة علمية ؛ فقد يزكي العلم والمعرفة السياسة بأكثر مما تزكيها القوة والسلطان ، وقد يكون العلم طريقاً إلى الربط بين بقاع من الأرض وأشتات من الخلق لا تقوى السياسة بمفردها على أن تربط بينها برباط مكين أو وثاق أمين ، بل قد يكشف العلم عن روابط خفية لا تراها عين السياسة بغير منظار العلم الذي كثيراً ما يخترق الحجب في الزمان وفي المكان .

وسينفعنا هنا ولا شك أن نذكر أن الإمبراطورية البريطانية كانت تسعى في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن إلى أن تربط بين أقاصي القارة في الجنوب والشمال . فقد تقدم مستعمروها ، وعلى رأسهم سيسيل رودس ، من جنوب القارة في العشرة الثامنة وما بعدها من القرن التاسع عشر نحو ما عرف فيما بعد باسم روديسيا و إفريقية الشرقية ؛ وتلا ذلك تقدمهم في العشرة التاسعة وما بعدها إلى أرض مصر ووادي النيل . ولاح في الأفق مشروع ربط مدينة الكاب بمدينة القاهرة بطريق حديدي أو طريق آخر يربط أقصى الجنوب بأقصى الشمال ويفتح السبيل أمام أبناء الإمبراطورية فينفذون من أحد طرفي القارة إلى طرفها الآخر ، بعد أن تكالبت أمم أوربية أخرى على غير هذين الطرفين من القارة فسدت المنافذ أمام بريطانيا وقطعت عليها السبيل في أن تنفذ من الشرق إلى الغرب ، وفي أن تتصل أملاكها بين ساحلي القارة على المحيطين الهندي والأطلسي . واستمرت الحال على ذلك حتى تحينت بريطانيا الفرصة ، وتم لها ما أرادت في خلال الحرب العالمية الأولى ، فاتصلت أملاكها والأراضي الواقعة تحت حمايتها بين أقصى الجنوب وأقصى الشمال . وكانت بريطانيا قد عنيت عناية خاصة منذ القرن الماضي بأن تكون لها السيادة على حوض النيل كله ، أو بأن يمتد سلطانها على الأقل بين مصب النيل في البحر المتوسط ومنابعه في الهضبة الاستوائية التي تقع على طريق الكاب والقاهرة . كذلك عنيت بريطانيا عناية خاصة بأن

تضيق الخناق على ألمانيا فى توسعها الإفريقى ، بأن تطردها وتحل محلها فى مستعمرة تنجانيقا عندما شبت الحرب العالمية الأولى . فلما تم لها ذلك زالت آخر عقبة فى سبيل اتصال أملاك الامبراطورية ومناطق نفوذها فى الشرق الافريقى.
وقد يسأل القارئ ولماذا اختارت بريطانيا شرق القارة دون غربها سبيلا للاتصال بين الجنوب والشمال ؟ والجواب على ذلك عند أهل الجغرافيا وأهل السياسة ! ففى شرق القارة هناك وادى النيل وخيراته التى تحدث عنها التاريخ ؛ وهناك الهضبة الاستوائية المرتفعة حيث يطيب المناخ وتصلح المرتفعات لهجرة العناصر البيضاء واستقرارها بصفة دائمة ؛ وهناك البحر الأحمر وهو الطريق إلى البحار الدفيئة و إلى الهند ؛ ثم هناك المحيط الهندى ذاته وهو طريق الامبراطورية إلى الشرق الهندى وما وراءه حتى استراليا . وكل هذه مغريات طبيعية وغير طبيعية، يضاف إليها أن غرب القارة قد شاركت فيه دول أخرى كثيرة ، منها أسبانيا وفرنسا وألمانيا وبلجيكا والبرتغال بل أمريكا ذاتها ، فكثرت هناك أيدى الدول الأخرى ، ووجدت بريطانيا مجال التوسع فى الشرق أدنى منالا وأبعد عن المشاحنات من ميدان التكالب الدولى العنيف على شواطئ القارة الغربية .

من أجل هذا كانت عناية الامبراطورية بشرق القارة أشد من عنايتها بغربها. ومن أجل هذا حاول البريطانيون أن يعرفوا عن الشرق الافريقى مايعينهم على رسم خططهم فى استعماره واستغلاله على أساس علمى . ومن أجل هذا أيضاً عنى قادتهم فى الفكر الاستعمارى بهذا الجانب من القارة أكبر العناية . . . وقد لا نبعد كثيراً عن الحق إن استنتجنا أن هذا كان من عوامل اهتمام بريطانيا بهذا المؤتمر بالذات ؛ واختيار نيروبى وأرض كينيا فى قلب إفريقية الشرقية لتكون مقرًّا لأول مؤتمر إفريقى يعقد لتنظيم الدراسات الجغرافية والأثرية القديمة وغيرها من بحوث عصر ما قبل التاريخ ، ثم دعوة المؤتمر ليعقد دورته القادمة فى جوهانسبرج باتحاد جنوب إفريقية بعد أربع سنوات . . . بل ربما كان هذا هو الدافع إلى إصرار فريق من علماء الإمبراطورية فى أن يكون تنظيم المؤتمر على نمط يغاير من بعض الوجوه ماجرى عليه العمل فى المؤتمرات الدولية العالمية ، ومحاولة فريق منهم أن يضمن للمؤتمر أن يكون رئيسه وسكرتيره العام من البريطانيين ، لولا أن انتبه فريق آخر من غير البريطانيين ، فاختير للمؤتمر رئيس فرنسى واحتفظ للدولة الداعية بالوظيفة الأخرى . . . إلى غير ذلك من تيارات ظاهرة وأخرى خفية ،

أزيد بها فيما يبدو أن يتجه المؤتمر وجهة يصح بحق أن يقال فيها إنها تقع على هامش السياسة !

وهكذا اتضح منذ البداءة أن العلم والسياسة كثيراً ما تتجاوب بينهما الأصداء ولو من بعيد ؛ فتنتصر السياسة للعلم وتردد أحاديث ما ينبغى من رعاية للعلماء ، ويتغنى العلم بأنه فى خدمة المجتمع ، أو أنه فى القليل يخدم مصالح الإنسانية عن طريق خدمة المصالح القومية . . . ولكن الشئ الغريب أن السياسة فى هذا المؤتمر سعت إلى أن يكون لها شئ من التوجيه عن طريق الرعاية ؛ كما أن العلم لم يقف عند الاستجابة لدواعى الخدمة القومية ، وإنما كاد ينحرف ويميل ، لولا بقية من روح العلم ، وتخوفاً من جانب العلماء أن يجرفهم التيار أو أن يميلوا كل الميل . . . . بل لولا تلك الرقابة المتبادلة التى اعتادت فرق العلماء وأحزابهم أن يفرضها بعضهم على بعض ، وأن يتلقوها جميعاً بكثير من الخوف والحذر ، أو قل من المخافة والاشفاق !

ومن الغريب أيضاً أن فريقاً من العلماء البريطانيين فى المؤتمر تعصبوا تعصباً ملحوظاً أو غير ملحوظ لإبراز قيمة شرق إفريقية فى تطور الحضارات البشرية عامة والحضارات الإفريقية خاصة ؛ فقالوا إن بلاد كينيا وتنجانيقا وبقية الهضبة الاستوائية الشرقية ربما كانت موطن الحضارات الأول ، وإنها فى ذلك يجب أن تعتبر أعرق من غيرها من مناطق إفريقية بما فى ذلك مصر أم المدنيات ! وهم قد حاولوا أن يسندوا حجتهم بمختلف الأسانيد ، وأرادوا أن ينتزعوا من هذا المؤتمر الدولى اعترافاً ضمنيا أو تسليما بأن هذه المنطقة أهم المناطق فى إفريقية بل ربما فى العالم كله ، رغم ما قد يبدو فى ظاهر هذه الدعوى من إغراق وإغراب . . . وقد بدا كأن هؤلاء العلماء والباحثين البريطانيين إنما يقصدون من وراء دعواهم هذه وجه الحق دون سواه ، وأنهم إن عملوا على إقناع بقية علماء المؤتمر بوجاهة حجتهم فلن يكون ذلك إلا إظهاراً لما لإفريقية عامة من فضل على الانسانية فى بناء تراث حضارتها الأولى قبل أن يطلع فجر التاريخ ؛ كما أن بعض هؤلاء الباحثين البريطانيين قال إنهم إذ يرفعون صوتهم فى المؤتمر ويرجون منه تسجيل هذا الصوت لا يهدفون إلى أن يفاخروا بما كان لإفريقية من ماض مجيد — فذلك الماضى ليس ماضيهم ، كما لمح بعض العلماء الفرنسيين فى كثير من دهاء العلماء ! — وإنما هم يهدفون إلى إبراز قيمة هذه المنطقة للعالم

عامة وللعالم البريطانى خاصة ، فيزداد اهتمام الجمهور والهيئات العلمية بتشجيع البعوث الدراسية التى يصح أن تقوم بالبحث والتنقيب فى هذه المناطق الاستوائية . . . وهذه حجة ولا شك وجيهة ؛ ولكنها تنحرف بالعلم والعلماء إلى ما يجب ألا ينحرفوا إليه ؛ كما أنها كانت فى أغلب الظن تخفى وراءها وتطوى فى باطنها من أفكار السياسة وأهدافها المرسومة أكثر وأعمق كثيراً مما ينطوى عليه الغرض العلمى الظاهر . فسياسة النابهين من دعاة الإمبراطورية وبُناتها فى القرن الماضى قد هدفت كما ذكرنا إلى زيادة اهتمام أبناء الامبراطورية بشرق إفريقية عن طريق إيفاد الرحالين، وإذاعة المعلومات وأنباء الاستكشافات الإفريقية عن طريق الجمعيات العلمية وغيرها ، مما انتهى به الأمر إلى أن سعت بريطانيا حكومة وشعباً ، أو شعباً وحكومة ، إلى أن تستعمر الشرق الافريقى ، وتوطد أقدامها فى أراضى المستعمرات فوق الهضبة الاستوائية . واليوم يشعر مفكرو الإمبراطورية وحفظة تراثها وميراثها ، وفى طليعتهم المرشال سمطس ، أن اهتمام الإمبراطورية وأبنائها بهذا الجانب من إفريقية ينبغى أن يشحذ من جديد، إذا قدر لشرق إفريقية أن يصبح نقطة ارتكاز هامة فى الامبراطورية ، ومنطقة تجمع للقوى والقوات الإمبراطورية تنفذ منها إلى الشمال أو إلى الشرق وقت الحاجة على نحو ماهو مرسوم . وليس غريباً فى هذا الصدد أن يسعى مفكرو الامبراطورية وراسمو الخطط فيها إلى أن يلفتوا نظر مواطنيهم فى أرجاء الإمبراطورية إلى ما لشرق إفريقية من قيمة وخطر عن طريق أحد المؤتمرات الدولية ؛ فالامبراطورية ووسائلها فى الدعاية والتعريف ينبغى أن تلائم الزمن؛ وما كان يصلح فى القرن الماضى من استخدام الرحالين والمستكشفين والإذاعة عن طريق الجمعيات العلمية ليس يكفى فى جيلنا الذى نعيش فيه بعد أن تم استكشاف مجاهل إفريقية السوداء بصفة عامة ، وبعد أن غدت شهادة مؤتمر دولى كهذا الذى عقد أخيراً فى نيروبى أرفع قيمة وأبعد أثراً من شهادة جمعية علمية أو عدد من الجمعيات العلمية ، مهما كان لتلك الجمعيات من سند ، ومهما ذاع لها من صيت .

ومع ذلك فقد تنبه المؤتمر لخطورة هذا الجانب مما عرض عليه من بحوث . وكان على مصر وعلى أنصارها من القائمين بالدراسات المصرية والمعجبين بما سبقت به مصر وشمال إفريقية إلى بقية القارة خاصة و إلى العالم عامة من فضل

كبير فى نشأة الحضارات وتطورها . . . كان عليهم أن يقرعوا الحجة بالحجة وأن يقدحوا البرهان بالبرهان حتى برز الحق . . . أو حتى عاد إلى البروز وضاء منيراً بعد أن أزيل ما أثير حوله من غبار!

ولكن الأغرب من هذا كله أن أراد منظمو المؤتمر والداعون إليه أن يهدفوا إلى تقسيم إفريقية إلى ما يمكن أن نسميه « مناطق دراسية » ، تشمل كل منها عدداً من الدول أو المستعمرات الإفريقية ، يوحد التمثيل بينها فى حفلة افتتاح المؤتمر وفى تكوين لجانه العلمية ، وتنسيق خطط الدراسة المتصلة بكل منها . ولم يبد فى هذا الاقتراح ما يثير الريبة أو المخافة فى نظر كثير من المؤتمرين ؛ ولكن الذين خبروا ماهدفت إليه بريطانيا فى العهد الأخير من تشجيع الاستجابة المتبادلة بين أهل العلم وأهل السياسة ، كان لهم العذر كل العذر فى أن يتوجسوا قليلا وأن يترددوا كثيراً قبل أن يتقبلوا هذا الاقتراح . وقد تحقق ماخشوه وما ترددوا فيه عندما عرض الاقتراح البريطانى فى صورة محدودة ، فتبين أنه يرمى إلى أن تعتبر مصر بمفردها أو بالاشتراك مع سواحل إفريقية الشمالية منطقة قائمة بذاتها ؛ ويعتبر السودان جزءاً من منطقة تمتد فى شرق إفريقية إلى روديسيا ؛ ويعتبر جنوب إفريقية وجنوبها الغربى منطقة ثالثة؛ والكونغو ومعه إفريقية الاستوائية المنخفضة منطقة رابعة ؛ ثم السنغال وسواحل إفريقية الغربية منطقة خامسة . . . ويهمنا من هذا التقسيم المقترح — أو الذى كان مقترحاً — أنه يرمى إلى فصل مصر عن السودان ، فتمثلان فى الحفلة الرسمية لافتتاح المؤتمر تمثيلا مستقلا ، وتعتبر كل منهما داخلة ضمن منطقة دراسية مستقلة ، ويفصل بينهما فى التمثيل فى اللجان ، ويبدو كأن المشكلات العلمية والدراسية فيهما لا ترتبط ولا تتداخل ، وحتى المصطلحات العلمية وأسماء الحضارات القديمة والسابقة للتاريخ فى كل منهما تكون مستقلة عن الأخرى... ولم يكن ليهم أصحاب الاقتراح فى ذلك أن تبقى مصر منفردة أو أن ترتبط ببقية إفريقية الشمالية فى الغرب ؛ ولكن كان يهمهم بصفة خاصة أن يسجلوا فى هذا المؤتمر الدولى أن السودان متصل بشرق إفريقية فى مشكلاته الدراسية وفى تاريخ حضاراته ، وأن حوض النيل لا يمثل وحدة إقليمية ولا دراسية . وهم بالطبع لم يجاهروا بشىء من ذلك فى قول صريح ، وإنما تجاهلوا هذا الهدف المستتر ، كما تجاهلوا الدافع إليه ؛ بل تجاهلوا أن يكون إليه دافع ما غير تبسيط

إجراءات التمثيل والدراسة فى أقاليم إفريقية ومناطقها ! وهنا أيضا كان على مصر أن تقف فى المؤتمر وقفة قوية تدافع عن حقها الذى هو حق العلم من غير شك . ولم يكن عسيراً على مصر لحسن الحظ أن تؤلب معها عدداً كبيراً من العلماء وأعضاء المؤتمر من غير البريطانيين ؛ فليس هناك شك فى أن جميع الأدلة القائمة تحتم اعتبار مصر والسودان منطقة واحدة ، تتداخل فيها المشكلات والمسائل العلمية ، سواء فى ذلك منها ما يتصل بنهر النيل وتطوره الطبيعى ، وما يتصل بنشأة الحضارات وتطورها خلال أعصر التاريخ . . . ولم يكن عسيراً على مصر أن تثبت ذلك أو أن تبرز روعته فى المؤتمر من جديد ؛ فبدت وحدة الوادى فى شؤون العلم والبحث والدراسة بما لا يدع مجالا لمكابرة ؛ وأقر المؤتمر هذه الوحدة ، وتقرر آخر الأمر أن يعتبر وادى النيل فى شمال شرق إفريقية وحدة دراسية قائمة بذاتها ، لها تمثيلها الموحد فى افتتاح المؤتمر الرسمى وفى لجانه العلمية ، ولها دراساتها المتشابكة التى تبرز هذه الوحدة وتجلوها للباحثين والمتعلمين . . . أما شرق إفريقية فقد انكمشت منطقته واقتصرت على أملاك بريطانيا وحماياتها وأراضى انتدابها فى شرق القارة .

هذا طرف من حديث ذلك المؤتمر الإفريقى . وهو حديث قد لا يخلو من دلالة لمن أراد أن يستدل ، وقد لا يخلو من عبرة لمن أراد أن يعتبر . ولعل أول ما يدل عليه أن ماتجرى به ألسنة العلماء من أن العلم ينبغى أن يأتى خالصاً لوجه الله ووجه الحق، إنما هو قول كغيره مما تجرى به ألسنة البشر من غير العلماء ! فطبيعة البشر ليست مما يغيره العلم ، وليس العلم مما تتغير معه طبيعة البشر . وخير لنا جميعاً أن ندرك ذلك وأن نتمثله فى أعمالنا وأقوالنا ؛ وأن نكون فى ذلك كله صرحاء مع أنفسنا وصرحاء مع الناس . ولئن كانت هذه الحقيقة قد تمثلت فى هذا المؤتمر بالذات ، فانها تتمثل ولا شك فى مؤتمرات أخرى كثيرة . . . تتمثل ظاهرة أو خفية ، سافرة أو محجبة ، وغاية ما هناك أن الأعضاء البريطانيين فى هذا المؤتمر كانوا أشد حاجة وأكثر تلهفاً من غيرهم على أن يخدم المؤتمر أغراضهم الخاصة ، وعلى أن تسعفهم هذه الخدمة فيما هم بسبيله من إعادة تنظيم لشؤون الامبراطورية فى إفريقية . وقد لا يملك المنصف إلا أن يرى المعاذير للعلماء والباحثين فى هذا العصر إن هم كانوا فى خدمة السياسة القومية ؛ فنحن

خارجون من حرب ضروس ، سخرت فيها الأمم أبناءها فى مختلف ضروب الخدمة الوطنية ، فاشتغل العلماء — والبريطانيون منهم خاصة — خلال الأعوام السبعة أو الثمانية الأخيرة فى أعمال تمتّ كلها أو جلها إلى الحرب أو السياسة بسبب قريب أو بعيد ؛ وقد اكتسبوا فى هذه الفترة عادة النظام والطاعة والتفانى فى الخدمة القومية . ولعل هذا أن يكون من ورائه ما بدا من ميل أعضاء المؤتمر البريطانيين إلى الاتجاه به ، حسب خطة مرسومة ، فى نطاق سياسة عامة لا يملك العلم والعلماء أن يحيدوا عنها أو يخرجوا عليها . وسواء أصح هذا الافتراض أم لم يصح ، فلابد أن ننتظر فترة قد تطول أو تقصر قبل أن يتخلص العلماء فى العالم كله من عصبيتهم القومية التى أكرهتهم عليها ظروف الحياة ومقتضياتها خلال هذه السنوات الأخيرة . ولكن الشيء الذى ينبغى أن نعيه تماماً وأن يتمثله القائمون على شؤون البحث والدراسة فى مصر خاصة هو أنه من الخير لنا أن نحاول الاهتمام بهذه النزعات التى تسيطر على العلم والعلماء فى غير مصر ، وأن نكون على حذر مما قد تجرنا إليه تلك النزعات التى قد تأتى من جانب بريطانيا على وجه الخصوص ، ولكنها قد تأتى من جانب غيرها من الأمم . فالعلم فى هذا الزمن أصبح أقرب إلى حياة الأمم مما يبدو فى ظاهر الأمر ؛ ومحافل العلماء ومؤتمراتهم تزيد هذه الحقيقة جلاء ووضوحاً فى كل يوم . . . يستوى فى ذلك ما اتصل منها بعلوم المادة والحياة اليومية ، وما اتصل منها بفنون من المعرفة لا تمتّ إلى حياة اليوم وحضارته بسبب ظاهر . . . ومن واجب مصر وأمثالها من الأمم التى تقوم فى قلب العالم ، وتتصل لدراسة حضارتها بل حياتها الحاضرة بكثير مما يتدارسه العلماء فى هذه المحافل والمؤتمرات القارية والعالمية . . . من واجبها أن تشارك بكل ما يسعها فى هذه الدراسات ، وأن تسعى ليكون تمثيلها قويا فى هذه المحافل والمؤتمرات ، مهما بدا ذلك بعيد النفع قليل الفائدة عند من لا يتعمقون الأمور ولا ينظرون إلى بعيد . ولن يكون من الخير بالنسبة لنا أن ننطوى على أنفسنا فى هذا العصر الذى اتصلت فيه أسباب الحياة بين الأمم ، وفى هذا العالم الذى لا تنتهى فيه العزلة والانطواء ، إلا إلى ذبول وفناء .

سليمان حزين

هواة الموسيقى الغربية

أعرف منهم حسنين وحسيناً ومحمودين ويوسف . تجمعنا صداقة ثابتة الجذور وإن فرقت بيننا الأيام .

محمود من المحمودين اختصر الطريق من أوله ، واكتفى بهواية السماع . وأغلبنا انتهى إلى ما انتهى إليه محمود الأول الذى بدأ كما بدأنا بدراسة آلة موسيقية على الطريقة الغربية . وكانت فيما يختص به البيانو ، وفيما يختص ببقيتنا الكمنجة . وهو وإن انتهى إلى أستاذ بريطانى محترم فقد اختار فى أول أمره أستاذاً من الأقطار الشقيقة يعطى دروسه فى حانوت لتصليح الآلات الموسيقية . ولم ينجح هذا الأستاذ حتى فى إصلاح البيانو الذى يعطى دروسه عليه . شعاره « هنا الفن » ، كثير التكرار للنطق به بلهجة بلاده هكذا : هنى الفن . يجلس إلى البيانو المتداعى يوقع ما لا أنزل الله به من سلطان النغم ، فتخونه أصابعه مرة، وتخونه أصابع البيانو مرات . إما لأن مطارقها تهوى على غير أوتار ، أو لأن مطارقها لا حشية فيها ، فتقرع الأسلاك قرعاً يخرج منه صوت الأوانى المعدنية تنظف فى المطبخ . فاذا هوت المطارق على فراغ ، التفت إلى تلميذه محمود وقال له « تخيل أنها مى بيمول . . . تصور هنا دو . . . الفن كله خييل (خيال) . . . هنى الفن هنى الفن . . . » واستمر يقرقع ما تخيله مطلع سونات « ضوء القمر » للمظلوم لودفيج فون بتهوفن .

ومحمود الثانى أعجبنا فى هواية الموسيقى الغربية ؛ لأنه على خلاف أغلبنا بدأ بالكمنجة العربية والشدة الشرقية ، وكان محبا لموسيقى « ولاد العرب » كما يقول — وينطق العرب نطقاً بلديا قحًّا أقرب ما يكون إلى نطق كلمة **arab** — وقد بدأ دروسه على أستاذ من الأقطار الحبيبة فى حانوت ، أو حق ، بشارع غيط العدة . لم يكن الحانوت يسع غير الأستاذ ونصف التلميذ ، وللنصف الآخر أن يتصرف بالقوس أو برأس الكمنجة ورقبتها على قارعة الطريق المزدحم بالمارة .

ويقسم الأستاذ الكمنجاتية إلى ذوى الأصابع الحصرم — ينطقها محمود الثانى حسرم — وذوى الأصابع الناضجة . ولا تنضج الأصابع قبل عشر سنوات دراسة متوالية . ومن المؤكد أن أصابع هذا الأستاذ قد نضجت ، بل حمضت ، منذ زمن طويل . فقد عرفت حانوته وأنا غلام صغير حتى نهاية الحرب الأولى . وما مررت به إلا ورأيته إما بسبيل إلقاء دروسه ، أو هو يسلى نفسه وعمال معمل الطرشى القريب بالعزف على الكمنجة شتى الدواليب والبشارف والتقاسيم .

بلغ محمود الثانى من إتقان الكمنجة العربية مبلغاً يحسده عليه المحترفون . وكان يقتنى كثيراً من الأسطوانات الشرقية قبل عهد التسجيل الكهربائى ، أيام كانت الأسطوانة تبدأ بصوت يخرج من النفير كأنه الزبد حين « يطش » على النار ، ثم ينطق نوع من الببغاء أو القراجوز معلناً « إسطوانات . . . افون » ويعدد الصوت أثناء الإيقاع أو الغناء مطيباً الفنان : « الله الله يا ست منيرة » أو « أهو كده يا سى سهلون » .

تعرف محمود الثانى على الموسيقى الغربية عند تاجر الأسطوانات . وقد أدرك تمام الادراك كية المهارة التى تبدو فى الإيقاع الأفرنجى ، فراح يقتنى أسطوانات كريسلر وميشا إيلمان وهايفتز ويان كوبليك . ثم انتهى إلى تغيير شدة الكمنجة وانطلق يدرس على الطريقة الأوربية دراسة عنيفة ساعدته عليها حياة الوحدة التى كان يعيشها .

ولا أظنه اليوم مواصلا دراسته هذه ، وأعرف منه أنه تابع هوايات فنية أخرى من الأويما إلى النقش على النحاس ، وأخيراً إلى تركيب الروائح العطرية .

وحسن الأول عرفته فى آخر الحرب الأولى يجلس خارج مقهى بشارع عماد الدين ومعه كتبه ، ولا يشرب غير الكونياك مع قطعة من السكر . أقربنا جميعاً إلى الأوربيين تربية وثقافة واستعداداً . بشرته بيضاء مشربة بحمرة ، هادئ بطئ الحركة ، شاعر بكل معنى الشاعرية . يضع نظارات سميكة باطار من الباغة ، تطالعك من ورائها عيون رائقة كلها طيبة و إنسانية . عرفته أول هوايتى للموسيقى واطلاعى على أدبها ، فاذا بى أتخيل أمامى . . . فرانز شوبرت بعينه . ولم يخطئ خيالى فيما أظن . فالشبه بين هذا الحسن وشوبرت يتناول الملامح والأخلاق والطباع جميعاً .

أولنا فى دراسة الكمنجة . بدأها على يد أستاذ إيطالى شيخ ، طويل عريض

الأكتاف ، أحمر البشرة فى زرقة نشأت عن كثرة شربه للنبيذ . له شارب كثيف وخطه الشيب ، من نوع الشوارب التى كانت سائدة قبل الحرب الأولى ، والتى كان المرحوم الشيخ سلامة يقتنى زوجاً منها يحتفظ به حتى فى دور هاملت ، إلى حد أن زميلا لنا من الظرفاء كان يقول : «يا خويا الشيخ عليه شنب مش بعلى أبو هاملت » . وكان حسن يذهب إليه فى شقته ليتلقى دروسه فيجده جالساً إلى فياسكو من الكيانتى ، يجرع الجرعة ثم يقوم إلى الكمنجة ليطلع حسن على دقائق الفن ، ويعود إلى قنينته البيضاوية المترعة بعصير كروم توسكانا .

أكثرنا ثقافة موسيقية . عرف حياة الموسيقيين وتاريخ الموسيقى ، ودرس توزيع الأوركبستر وأنواع آلاته . ولكنه لم يسلم من ألسنتنا يوم بدأ ينشر المقالات فى الموسيقى الغربية ، وتحذلق فى ترجمة « السيريناد » سرناتة ، وال harpe الأربا ، وهكذا .

أما حسن الثانى فهو أحسننا إيقاعاً وأقربنا إلى المزاج الفنى الخالص ، هو شعلة من الفن ، ولعله إلى اليوم أشدنا صلة بالفنون ؛ لأن عمله الأصلى لم يخرج عن مملكة الموزى التسع — أو الموزى الثمان كما كتبت فى ذلك الزمان ، مصرًّا على حذف موزى التاريخ ، فكنت موضع سخرية صاخبة محبوبة من المرحوم محمد تيمور . بدأ دروسه على شيخ مضعضع يلعب الكمنجة فى آخر صفوف أوركستر بوليا كين ، لعله لفت نظر حسن بصلعته المشرقة . ولم يلبث الشيخ المسكين أن أصيب بالفالج ، وذهبنا حسن وأنا لنزوره فى أحد المستشفيات الأجنبية بالعباسية فاذا بأهله مجتمعين هناك لتشييع جنازته . وأذكر أن حسناً تقدم لورثته فى ذلك اليوم ودفع ما عليه من أجر الدروس التى قطعها مرض الشيخ فجأة .

وعزمنا أن نتلقى دروساً على أستاذ إيطالى نحيف رقيق ، سحر بكمنجته رواد محل صولت القديم بشارع بولاق (فؤاد الأول حالا) . وكان أجره أكثر مما يحتمله مصروفنا ، فاتفقنا أن نشترك فى درسين أسبوعيا ، وهى وسيلة عملية جعلت كلاًّ منا يستفيد فعلا بالساعة الكاملة ، إذ ينصت إلى درس زميله فى نصف ساعته .

ويوسف لا أعلم عن دروسه الأولى شيئاً . وقد عرفته كمنجاتيا رقيقاً يعزف تقاسيم هادئة حزينة ، ويقتنى كمنجة تقول « من الهواء دبنا » ، صور له من باعها أنها واحدة من كمنجات كريمونا تم صنعها منذ بضع قرون قبل الميلاد أو بعده

لا أذكر ! وما من شك فى أنها كانت أحسن الكمنجات فى أيدينا جميعاً ، كما كانت كمنجتى أوحشها . وما أصدق قولَ حسن الأول فيها : « يتحمس لاعبها ما شاء له الحماس ، فلا يخرج عن وترها الرابع إلا صوت يقول واح واح » .

وانتقل الحسنان واليوسف والمحمودان والحسين إلى أستاذهم الجديد . نمساوى يقطن شقة متواضعة قرب شارع دوبريه ، جاء إلى مصر عقب الحرب ، وقد سبقته إليها سمعة أستاذه الكبير سفتشك .

لم يلق هذا النمساوى الناعم نجاحاً يذكر إلى جانب الأساتذة المقيمين ، فلم أعرف له تلاميذ غير جماعتنا المصرية . وكان اسمه ساندى . وكلما سألناه عن ديانته أجاب بأن الله رب الجميع . ففهمنا أن يهودى عوّدته الحياة فى إمبراطورية النمسا والمجر الحرص فى التصريح بديانته .

وكانت له زوجة جميلة لا أرق منها غير رقة حالها وحال زوجها واولادها . باعهم المطرباز بضع قطع من الأثاث تتهاوى كالنجوم فى ليالى أغسطس . وكان يحذرنا من الجلوس عليها ، ويؤكد لنا أن من مستلزمات الدراسة إجراء التمارين وقوفاً . وهذا صحيح بصرف النظر عن حكاية تحمل الأثاث أو عدم تحمله .

كان لساندى أكبر الأثر فى تعليمنا الموسيقى جميعاً . فقد قوّم بطريقة أستاذه سفتشك طريقتنا فى العزف والأداء . وكان يحب تلاميذه المصريين حبا جماً ، نبادله إياه ، ونتألم لعدم نجاحه وسط الايطاليين المقيمين الذين استحوذوا على كافة تلاميذ الكمنجة فى مصر . وقد غادر البلاد بعد قليل ، ولم نسمع عنه خبراً . حتى إذا كانت سنة ١٩٢٩ وقد أخرت سفرى من فينا خصيصاً لأحضر افتتاح الأوبرا ، وإذ جال بصرى بين أعضاء الأوركستر يعزفون افتتاحية « شعراء نورمبرج المغنين » رأيت ساندى أستاذى القديم يشارك الكمنجاتى الشهير روزيه فى الدرج الموسيقى الأول !

وذهبت بعد الحفلة أنتظر بباب الأرتست خروج ساندى . وقد تلقانى بعيونه الباسمة وشعره المنتثر على جبينه . . . سعيداً برؤيتى . يذكر بالخير تلاميذه المصريين ، ويسألنى عنهم واحداً واحداً . وعرفت منه أنه فيما عدا أوركستر الأوبرا يعمل بالراديو الفيناوى ، وأن له عدداً طيباً من التلاميذ . هذا هو الرجل ، فى عاصمة الموسيقى الرفيعة ، الذى لم تعرف له القاهرة وزناً ، وغلبت عليه كمنجاتية القهاوى ومشارب البيرة !

عجيب أمر هذه الجماعة التى انصرفت فى أوائل هذا القرن إلى دراسة الموسيقى الغربية . ولم تصل فى دراستها إلى شئ كثير مع الأسف ، عدا واحداً ثابر وتخصص فأصبح مؤلفاً للمقطوعات السمفونية .

ولا يمكننى أن أتكلم عن نوازع زملائى وأصدقائى . وكل ما أستطيعه هو التكلم عن نفسى ، مستعيذاً من الشيطان . ولم أعرف أن المراضع والمربيات الأجنبيات تعهدننى حتى أنشأ محبا للموسيقى الغربية ، فقد ولدت على قيد خطوات من مسجد الحسين الذى أحمل اسمه كما حمله جدى من قبل .

وأظن أن لوالدى الأثر الأول فى توجيهى إلى الغرب . فقد كان مؤمناً بأن مستقبل مصر رهين بتقدمها فى طريق الحضارة الغربية . ولعل هذا ما يميز جيل أبى عن الجيل الحاضر . كان الجيل القائم بتربيتنا يكره المحتل ، ويدعو بالنصر للسلطان فى الآستانة ، ويؤازر الحزب الوطنى وينادى بـ « الدستور يا أفندينا » . ولكنه لم يكن يتردد فى الاعتقاد بأن أسس نهضتنا يجب أن تنشأ على مقومات الحضارة الغربية ، ولم تحوله اتجاهاته الدينية ، وميوله الشرقية عن منارة العرفان فى الغرب .

أما اليوم ، فيظهر أن كثيراً من الناس شباناً أو غير شبان ، يجدون الكفاية وأكثر من الكفاية فيما نقلنا عن الغرب ، وينادون بوقف تيار الحضارة الغربية للاتصال بتيار حضارات شرقية مهما كان أمرها وخطرها وواجبنا حيالها ، فهى صفحة مجيدة من صفحات التاريخ فحسب ، نستوحيها أو نمجدها إذا أردنا ، ولكن على أن نذكر دائماً أن حضارة اليوم هى مجموعة حضارات الشرق والغرب ، أضفت عليها شعوب أوربا الناهضة منذ عصر الإحياء تلك العناصر الأساسية فى حياة العالم اليوم شرقه وغربه ، وأن مآل من يقصر عن حضارة اليوم هو الرجوع إلى الظلام والغيبوبة .

المهم فيما يختص بموضوعنا أن عيونى تفتحت على صور من الحضارة اشرأبت إليها أعناق الجيل الذى قام على تربيتنا . والمهم أيضاً أننى كرهت موسيقى التخت منذ الصغر ، لأسباب مادية كما يظهر . منها أن التخت يبدأ متأخراً جدا فى الأفراح ، حين يبدأ النوم فى مداعبة أجفاننا الصغيرة . ومنها أن أعضاء التخت يصرفون فى إصلاح أوتارهم وقتاً طويلا . فاذا بدأ الغناء تلقاه الجمهور بضروب من الحماس والـ « سمع هس » والتعلق بالتخت الخشبى ، ونوع من

الهوس العاطفى يؤكدون لى بأنه ما زال معروفاً إلى اليوم فيما لم يعد يسمى التخت وهو وليده . وكنت أفضل على موسيقى التخت الموسيقى النحاسية ، خصوصاً الأميرية منها ، لنظامها وترتيبها ، ولأن أدوارها طبعاً خلو من التأوه والتكرار المضنى يتداوله المذهبجية والمطرب « بس لو يرضى الحا ... يـ ... ـى ... ب ، رى دو سى لا. بس لو يرضى الحابيب» أو «يا لاى تلوم دا شئ... بالعقل... دا شئ . . . بالعقل » الخ .

وتنبهت فى مراهقتى إلى الموسيقى الوترية بقاعات السينما الصامت ، فأحببتها من البداية ، وتبينت من بينها على الخصوص رخامة صوت الفيولونسل . وقد عنيت دور السينما باختيار الأدوار الموسيقية التى تلائم عرض الفيلم . كما قدمت فى أعقاب الحرب الأولى فيلم « مدام بترفلاى » وصحبت العرض بكثير من موسيقى أوبرا بوتشينى . وسمعت مرة « سونات إلى كرويتزر » تؤدى كاملة فى موضع من أحد الأفلام .

ولم يكن لى ذوق موجه تماماً ، إلا من الناحية السلبية ، كأن أكره موسيقى الرقص الأفرنجى بقدر كرهى لموسيقى التخت .

وتبدأ معرفتى الجدية بموسيقى الغرب فى قاعتين من قاعات القاهرة اختفتا الآن ، هما قاعة سينما كليبر ، وقاعة الكورسال ، كان يعزف فيهما صباح كل أحد فى الخريف والشتاء أوركستران أحدهما بقيادة بوليا كين ، والآخر بقيادة بونومى. وأذكر كأنه بالأمس أول سماعى للموسيقى السمفونية بقاعة كليبر . فقد وجدتنى أمام نحو خمسين رجلا منهم أكثر من النصف يلعبون الرباعى الوترى (الكمنجات الأولى والثانية والفيولات والفيولونسلات والكونترباسات) والآخرون موزعون بين الآلات الخشبية والنحاسية والناى الفضى . وأحدهم يوقع على نوع من الطبول (الطنبال) لم أكن أعرفه قبلا إلا فيما يشبهه من الطبول التى توضع على ظهور الجمال فى مواكب المحمل ، أو فى طليعة موسيقى الفرسان .

كانت أول مقطوعة سمعتها هى «السمفونية السابعة» لبتهوفن. وما زلت أذكر نوعاً من الخشوع استولى على والمايسترو يستعد بعصاه، ثم تنطلق كل هذه الآلات فى « زخمة » فجائية يتبعها لحن بطئ . ثم تنهمر السمفونية نغمات راقصة تشبع فى الجو نشوة من الفرح . وكانت تلك القاعة المستطيلة الخسيسة يعبق جوها

بالألحان التى جعلت تنعقد هنا وهناك صوراً صوتية تختلط فيها حرارة الآلات الوترية بلهيب الآلات النحاسية يطفئها خرير النايات الفضية ، ثم تضفى عليها الآلات الخشبية أشعة زرقاء أو خضراء ، مائعة ناعمة .

واصلت الذهاب صباح كل أحد إلى كونسيرات بولياكين وبونومى بالتوالى ، فسمعت أهم أعمال الموسيقيين الخالدين . وكنت فى ذلك الوقت أقرب إلى فهم الموسيقى ذات البرنامج « كالسمفونية الريفية » (بتهوفن) « وليلة على الجبل الأجرد » (مسورجسكى) « ورقصة الموت » و « فيتون » (سان صانس) و « الصياد الملعون » (فرانك) و « شهر زاد » (رمسكى كورساكوف) الخ . ولكنى كنت أيضاً أتذوق الموسيقى لذاتها إلى درجة أننى كنت أخرج الساعة الأولى بعد الظهر من هذه الكونسيرات فى شبه نشوة من الهناء والسعادة تلازمنى طول اليوم حتى آوى إلى فراشى ناعماً .

ولقد سمعت بكونسير بولياكين الكمنجاتى أنطون تشيهوف الأستاذ بكونسرفتوار تل أبيب فيما بعد . وقع كونشرتو مندلسون باصطحاب البيانو لا الأوركستر مع الأسف . ومع أنى أدركت فيما بعد سطحية موسيقى مندلسون ، ما زلت حتى هذه اللحظة أعتبر هذا الكونشرتو أحسن ما كتب مندلسون ، بل من أجود الأعمال التى ألفت للكمنجة . فيه حرارة وحياة هوجاء ، مع الرقة والسهولة اللتين تميز بهما ذلك الموسيقى المترف الذى عاش عيشة رخاء ويسر .

وكانت هذه الأوركسترات تعزف مؤلفات بعض الموسيقيين العصريين أمثال ديبوسى ورافيل ، فلم أتمكن من فهمها لأنى كنت أجهل الاتجاهات الفنية التى قامت عليها . ولا شك أيضاً أنها لم تكن تؤدى كما يجب ، فضلا عن خلو تلك الأوركسترات من بعض الآلات الهامة . وقد عرفت عضواً من أعضاء الأوركستر كان يضع كل الموسيقى العصرية فى جوالق واحد ويطلق عليها الموسيقى المستقبلية !

وسمعت أيضاً فى ذلك الوقت موسيقى الأربعيات [1] (الكواتيور) من فرقتى هرش وسقتشك — لوتسكى .

كنا أقل من عشرة مصريين نتابع هذه الكونسرات . ولم نكتف بالسماع ودراسة العزف بل رحنا نطالع ما وقع بأيدينا من كتب عن الموسيقى والموسيقيين . ونكتب المقالات فى التبشير بالموسيقى الغربية ، والمطالبة بالتجديد فى الموسيقى

(١) تمييزاً لها عن الرباعيات quatrains التى جرى بها العرف فى الشعر .

المصرية على أسس غربية . ونادينا بتوجيه البعثات الموسيقية ، ووضع ثلاثة منا تقريراً لوزارة المعارف بما نراه من أوجه التجديد .

وأنشأ برجرون الكونسرفتوار الذى يحمل اسمه ، وسعى للاستعانة بوزارة المعارف ، وسعينا لإلحاقه بتلك الوزارة . ولكنها اكتفت بأن تعهد إليه بتعليم بعض النشء . ولا أدرى ما انتهى إليه أمر هؤلاء ، و إن غلب على ظنى أن التيار الرجعى جرفهم ، فصاروا موسيقارين بالمعنى المتداول الآن ، والله خير حافظاً !

وتتلمذت بمعهد برجرون على أستاذ يزاول مهنته إلى اليوم بمصر ، وما زلت أعتبره من أفضل أساتذة الكمنجة ، حتى بعد أن عرفت بعض كبار الأساتذة فى أوربا . وقد التقيت به مصادفة فى أول إقامتى بفرنسا ، فكان خير دليل إلى ارتياد الكونسيرات الباريسية الكبرى . ولعله أول من نبهنى إلى فضائل أعلى التياترو فى سماع الموسيقى ، وهى فضائل فنية . . . واقتصادية أيضاً .

وكشفت لنا الموسيقى عن ناحية جديدة علينا فى الفنون الغربية ، وهى ناحية الرقص « الباليه » . عرفناها أول الأمر فى الأوبرا ، ثم أدركنا مداه البعيد حينما طلعت علينا تلك المرأة العبقرية الفذة برقصاتها الخالدة ، أعنى أنا بافلوفا ! وقد خاب ظن بعض مواطنينا الذين حسبوا أنهم سوف يطلعون على أنواع من رقص الحانات يثير غرائزهم الدنيا ، فخرجوا بين القلق والسخط على تلك المناظر التى لم تشبع شبقهم ، ولم تجد فى نفوسهم التربة الصالحة لفهمها . أما جماعتنا فقد سحرت بهذا الفن الرفيع الذى يجمع بين الموسيقى العالية وحركات الجسم الانسانى الكامل فى صور خلابة كلها شعر و إحساس .

وحين عرفت بوجود بافلوفا فى باريس أول عام لى بمدينة النور ، منعت نفسى قسراً من مشاهدتها وسط معامع الفن الأوربى ، إبقاء فى نفسى على أثرها الأول ، أثر الظمآن يرد الماء السلسبيل ، والمسافر عبر الصحراء يحط الرحال بالواحة الخضراء .

وليس غريباً أن أشير هنا إلى « الباليه » ؛ فقد كان موضع دهشتنا حقا أن نرى كثيراً من المقطوعات الموسيقية التى كنا نسمعها باعتبارها موسيقى بحتا ، تصبح أساساً لرقص الفرد والجماعة . وكانت فكرة الرقص عند ثقافتنا الضيقة وجونا المقفل محدودة بالرقص الشرقى فى خلاعته ، أو الغربى فى سوقيته .

فهذه موسيقى شوبان ألفها للبيانو ، تتحول إلى الأوركستر موسيقى لرقص رومانتيكى ، وهذه موسيقى شوبرت وتشايكوفسكى وبورودين تصور لنا فى قصص صامتة ، بلاغتها جسم الانسان فى كماله وقدرته على تأدية حركات توحى بالجمال العلوى والشعر العميق .

وكانت بافلوفا . . . ولكنى لست بعرض الباليه ولا بافلوفا ، وقد أعود إليهما فى وقت آخر .

إنما أنا أعيش إذ أكتب هذه الكلمات فى جو من الأحلام ، كأنى طائر يحمله الهواء ، أو مخلوق سابح فى أعماق الماء . والحقيقة أننى أسبح بروحى فى جو من النغمات . فهأنذا فى قاعة من قاعات الموسيقى ، ولتكن بالقاهرة أو فى باريس أو لوندره أو فينا أو برلين . وقد دخل الموسيقيون أفراداً وجماعات يحتلون المقاعد أزواجاً أمام أدراجهم ، ويأخذ كل منهم فى تمرين أصابعه على آلة موسيقية . وصاحب الطبل (أو الطنبالى) يشد طبوله ويضبط نغمها فيسمع لها هزيم كالرعد البعيد . ثم يرتفع صوت الكلارينت بنغمة « لا » فتتبعها جميع الآلات لتحقق التوافق التام . وتعود الجلبة الموسيقية متنافرة ، ولكنها محببة إلى نفس كل موسيقى ، لأنها تخلق فينا جوّ الترقب ، وتعد أوتار قلوبنا أيضاً للتوافق التام . ويدخل الكمنجاتى الأول ليحتل مكانه فى الصدارة إلى يسار منصة رئيس الأوركستر .

ثم تخفت الجلبة فجأة لأن المايسترو بدأ يخترق الصفوف إلى منصته . قد يكون من العظماء الذين يقوم لهم أفراد الأوركستر إجلالا ، أو هو ضيف عليهم فى هذه الحفلة يحيونه وقوفاً . ويستعد كل موسيقى للنواتت الأولى فوق درجه ، وتطفأ أنوار القاعة ، فتبدو المجموعة الموسيقية وحدها فى إطارها النورانى . و يمسك المايسترو بعصاه الرفيعة ويدير نظره فى أفراد الأوركستر ، ثم يرفع ذراعه اليسرى ويقرع بعصاه الدرج مرتين أو ثلاث مرات إيذاناً بالاستعداد . . . ثم يبدأ بتحريك ذراعيه فتنطلق النغمات يمنة ويسرة ، صعوداً وهبوطاً ، قوة وضعفاً ، وقد اختفى كل شئ عن ناظرى فى جو مسحور من الألحان، تصور ماتصور مما قد تدركه بعين خيالك دوائر ومربعات ، أو طرقاً ملتوية وسط الأحراج ، أو أبنية إغريقية ذات درج وأعمدة وفرنتونات . أو أنت تحسه فى أعماق مشاعرك ، فتندمج فى الألحان كأنك روح علوى يتنقل هنا وهناك بين نغمات الرباعى الوترى

وأصوات الناى والأوبوا والكلارينت والآرب والآلات النحاسية : طفل يستمع إلى صوت الأم الرءوم ، أو حبيب ينصت بروحه إلى حبيبة الروح ، مجاهد يجتاز ظلام اليأس والمحن إلى نور الأمل والظفر ، أو أنت المتنزه بخطوات الحائر بين الزهور ، الراقص بخطى الفرح بين الشموع ، المشرف على آفاق البحر والجو والسحاب !

وهناك شعور شبيه بهذا يعرفه من اشترك فى عزف الأوركستر . وقد سعدت زماناً بهذا الاشتراك فعرفته . ويختلف الشعور شيئاً نتيجة الجهد الذى تبذله كعضو من أعضاء الأوركستر . فأنت غارق فى بحر النغم الخضم أكثر من المستمعين، وأعصابك أشد إرهافاً ، وعيناك متطلعتان إلى المايسترو الذى يؤثر فيك وفى زملائك كأنه الساحر . يدك ممسكة بالقوس، والكمنجة على كتفك، وأصابع يدك اليسرى فى تأهب . ثم هى إشارة من الساحر لتبدأ ، وإذا بك وبمجموعتك تغوصون فى ذلك العباب الموسيقى . عيناك مركزتان فى النوتة أمامك ، وأذناك تستمعان لموسيقى مجموعتك وللمجموعات الأخرى . وأنت ترى من طرف جانبى ذراع المايسترو يوقع لك الوحدة ، ويشير إليك بالابطاء أو الاسراع ، بالهدوء أو القلق ، بالحنين أو الحماس . ولست بحاجة — ولا أنت مستطيع — أن تنظر إليه مواجهة ، فعينك تركزت فى النوتة فوق درجك تترجم رموزها أنغاماً . ولكنك تشعر بروح يسرى فى أعطافك من روح ذلك الساحر . وإذا انتهت فقراتك الموسيقية تخلفت أنت وجماعتك إلى حين ، تستريحون بقدر ما أمامكم من علامات السكوت ، فان كانت قصيرة اضطررت لعدها عدا ، لا بقدمك بل بقلبك ووعيك . وإن كانت طويلة فدليلك إلى دخولك القادم هو أولا شعورك بموضعك من النغم المحيط بك ، وثانيا عين المايسترو ويده تشير إليك بالمسير .

هذه لحظات لا تنسى ، لا يعرف قدسيتها إلا رجال الفن حين يؤلفون أو يصورون أو يوقعون ، وإلا الشعراء والكتاب يصوغون الشعر والنثر . لحظات ملك إنسانية عليا ، وعالم لا مادى .

ويتساءل الكثيرون ممن لا يعرفون عن فائدة رئيس الأوركستر ، وقد يعتبرون دوره كالساعة الدقاقة ، أو كالمصفق للراقصين . والواقع أن المايسترو هو سيد الآلاتية طرا ؛ فهو لا يعزف على بيانو أو أرغن ، إنما هو يوقع على أوتار

القلوب العديدة التى يتكون منها الأوركستر والخورس ، وقد تبلغ المئات .

وهذا أيضاً شعور لا يدركه تماماً إلا من اشترك فى الأوركستر . عرفته فى جمعية « شارل بوردم » ذلك النادى الموسيقى الذى كنت أذهب إليه ليلتين فى الأسبوع للتمرن على المقطوعات التى نستعد لها فى حفلات الجمعية . هناك اشتركت فى إيقاع أوراتوريو « المسيح » لهيندل ، و « يهوديت » لهونيجر ، و « استشهاد سان سباستيان » لديبوسى . وعرفته فى أوركستر السوربون حين كنت أتوجه ليلة فى الأسبوع إلى قاعة من قاعات المحاضرة ، وأجتمع بزملائى لنشترك برئاسة أحد أساتذتنا فى إيقاع سمفونيات بتهوفن وشوبرت وموتسارت ومندلسون .

فهذا رئيس جمعية « شارل بورد » يدربنا شهرين على أوراتوريو « يهوديت» الأوركستر فى ناحية والخورس فى ناحية أخرى ، ثم يجمع شملنا لتكتمل الهارمونية ويزعق فينا بأعلى يافوخه ، يصب علينا التعنيف واللوم بلا جدوى . وينتهى بأن يقف التوقيع ليقول : « بدأتم هادئين حقا ، ولكنكم متى استقر بكم القرار فى الصوت المرتفع ، وما أسرعكم إليه ، صعب على أن أعود بكم إلى الخفوت . لكأنى فتحت أبواب الجحيم ! »

ونبدأ مرة ثانية وثالثة لنقع فى نفس المحظور ، وليعود الرئيس إلى قرع درجه بعصاه ليقفنا ، وليزعق ويؤنب . ماذا تستطيع يا سيدى الرئيس مع جماعة من الهواة المساكين ، قدرتهم من التأدية محدودة ! إغفر لهم يا سيدى الرئيس فقد أحبوا الموسيقى كثيراً .

وذات يوم يعلن لنا أن المؤلف آت ليقودنا فى ثلاث أو أربع تجارب ، وفى ليلة الحفلة . هونيجر نفسه جاء ليقودنا ، هونيجر الذى سمعت له فى باريس « الملك داود » و « القاطرة باسفيك » و « باستورال الضيف » و « الرجبى » ! هونيجر أحد أعلام الموسيقى الحديثة جاء ليقودنا ، بل جاء ليقود « يهوديت » لأول مرة فى فرنسا !

ويسلط علينا الرئيس بعض المحترفين قبل اليوم العظيم . فيرأس الكمنجات الأولى الأستاذ الأول بكونسرفتوار تولوز ، والكمنجات الثانية مساعده . وهكذا نحاط بالمحترفين كما يحاط العصاة بالجندرمة . ثم يجئ أرتور هونيجر فنتأمل رأسه الغضنفرى ، وشعره الأسود الكثيف ، ونعجب بشبابه ثم بهدوئه ،

فهو لا يزعق فينا ولا ينهر ، إنما يبدى ملاحظاته فى هدوء ودماثة . وها هو ذا يوجه كلامه إلى أعضاء الخورس من الرجال : « يا سادة ! لا تنسوا أنكم تنشدون لحن الموقعة التى ينهزم فيها جنود أوليفرن أمام جنود يهوديت . بعضكم أصيب فى بطنه بطعنة سيف ، والبعض الآخر دق عنقه هاوياً من فوق رأسه ، وثالث سحق رأسه بحجر . » يقول كل هذا باسما ساخراً . ولكن ملاحظته بلغت الصميم منا جميعاً . واستنارت الموسيقى بضوء جديد ، واندمجنا فيها ، وفى روح مؤلفها اندماجاً غريباً !

لى صديق مداعب حكيت له حكايتى هذه متفاخراً بعد عودتى إلى مصر ، فنظر إلى منكراً أن يكون هونيجر قد رضى عنا تمام الرضا إلا أن يكون قد طأطأ رأسه بعد أول تجربة وقال : «لا بأس يا سادة ، لولا أن هناك هذا المصرى ذا الشعر الأجعد ، الذى أرجو إبعاده حالا لأن إيقاعه أفسد كل موسيقاى ! »

عدت إلى مصر بعد غياب خمس سنوات ، فوجدت حركتنا الموسيقية تحت الثرى ، وقد طلعت فى سماء الفن كواكب « الطرب » تعود بنا إلى عهد ألمظ والحمولى وعبد الحى .

حسن الأول غارق فى كتبه وصحفه ، وحسن الثانى فى مشروعاته المعمارية ، ومحمود الأول يعيش فى جو فنى قوامه المثلات ، ومحمود الثانى يمزج عطوره .

ودعيت ذات يوم إلى قاعة الاحتفالات بالجامعة ، قاعة الآلات . و إذ بمائة أو مائتين من الناس انتثروا هنا وهناك ، جاءوا يسمعون يوسف يقود الاوركستر فى إحدى سمفونياته .

خرج علينا يوسف فى البونجور ، بزة المايسترو التقليدية ، وقد تضافرت السنون والفنون العبقرية على نتف شعر القمة من رأسه ، وتركت له شعراً كثيفاً أسود فى الفودين ومؤخر الرأس . بدا يوسف فى جسمه الممتلئ وقامته المديدة كأنه مزيج بالزبد من جوته وجرهارت هاوبتمان . وقاد الأوركستر قيادة متزنة، أسمعنا فيها مقطوعات من ألحانه ، أقل ما فيها الدلالة على حسن استيعاب لدراساته الطويلة المضنية ، وقدرة على التعبير السمفونى .

هذه نهايتنا إذن ، نحن النبت الشيطانى ، وقد انصرف عنا الناس !

ولا ألومهم ، فالموسيقى التى أعنيها ، والألحان التى بذل نفسه يوسف فى

وضعها ، لا تلك القامة التى تهال على رءوسنا فى الحانات ، هى أرفع ما يصل إليه الادراك والشعور الغربى . ويخطىء من يحسب كل الغربيين من هواة هذه الموسيقى . إنما هى النخبة المثقفة وحدها ترتاد قاعات الكونسير السمفونى . ويمكننى تقسيم أهل الغرب من هذه الوجهة إلى طبقة العوام ، وهؤلاء يكتفون بأغانى الأزقة والحانات ، وقد يرتفعون أكثر ما يرتفعون إلى . . . موسيقات الجيش فى الحدائق العامة ، أو إلى الأوبرات البسيطة من أعمال الايطاليين ومن إليهم . وطبقة الخواص وهؤلاء يرتادون دور الأوبرا لسماع أرقاها وأعمقها من أعمال موتسارت وفاجنر وريشارد شتراوس ومسورجسكى وديبوسى . ومن طبقة الخواص نخبة تفضل الموسيقى السمفونية البحت إلى درجة أنهم يؤثرون سماع الأوبرات العظيمة فى قاعة الكونسير ، حيث يلقى المغنون أدوارهم وقوفا أمام الأوركستر بملابسهم العصرية دون حركة أو تمثيل . وقلة من بين الخاصة تستمع إلى الأربعيات الوترية ، وفيها خلاصة الفكر الموسيقى فى أرق تعبيره ، أى حين يرتفع إلى مرتبة التجرد والتصوف .

وليس هذا تقسيما بالمسطرة . كما أنه ليس من الضرورى أن يتفق مع التقسيم الاجتماعى للطبقات . فقد نجد فيما تسمى نفسها الطبقة العليا أجلافا صعاليك لا يرقون إلى أكثر من موسيقى الحانات ، كما نجد من بين الطبقة العاملة أكثر الناس تفقهاً وفهماً للأربعيات الوترية . إنما يتبع تقسيمى إلى حد ما مقدار الثقافة العامة فى الأفراد ، بصرف النظر عن حسابهم فى المصارف .

والآن إذ أستعرض فى مخيلتى صور زملائى الأعزاء ، ولكل موقف وطريقة فى حبه للموسيقى الغربية وأدائه لها ، أرى يوسف يقود الأوركستر بقاعة الاحتفالات بالجامعة فى سمفونيته المصرية . وصورته تلقى ظلها على المستقبل البعيد حينما يتاح لحفدتنا أن يستمعوا إلى موسيقانا المصرية وقد تحررت من سلطان الفطرة والغريزة ، وتطورت حسب قواعد الموسيقى الرفيعة ، وراحت تردد ألحانها فى أنحاء العالم المتمدن ، لا كتحفة غريبة فى معرض ، بل كما تسمع موسيقى الشراكسة والأوزبك والكرج والأسبان والتشك فى قاعات الكونسير شرقا وغرباً ، بفضل أولئك الوطنيين العباقرة من أمثال بالاكيريف ورمسكى كورساكوف وبورودين وسميتانا وألبنيث وجرانادوس .

حسين فوزى

حماية حقوق التأليف

تجوز الحركة الفكرية فى مصر منذ نحو نصف قرن نهضة زاهرة شملت سائر ضروب الكتابة والفنون . وقد غدت الملكية الأدبية والفنية حقيقة ملموسة بتوالى الإنتاج الأدبى والفنى القيم ، وقيام الهيئات العلمية والأدبية المختلفة ودور النشر المنظمة . ومع ذلك فان مصر لم تظفر حتى اليوم بتشريع خاص يحمى حقوق التأليف ، وهو تشريع حرصت على إصداره سائر الأمم المتمدنة .

على أن ذلك لا يعنى أن المشرع المصرى قد أغفل هذه المسألة ، فهو لم ينس فى الواقع أن الملكية الأدبية كأية ملكية أخرى تقتضى حماية خاصة ، ولم ينس أن يشير فى القانون المدنى الصادر فى سنة ١٨٨٣ فى باب « الملكية » إلى هذا النوع الخاص من الملكية ، فنص على أن يكون الحكم فيما يتعلق بحقوق المؤلف فى ملكية مؤلفاته وحقوق الصانع فى ملكية مصنوعاته على حسب القانون المخصوص بذلك (المادة ١٢) . و إذن يكون المشرع المصرى قد اعترف بحقوق التأليف بصفة عامة فى وقت مبكر جدا و إن كان يحيل فى الوقت نفسه إلى قانون خاص يرجع إليه فى هذا الشأن ، وهو قانون لم يصدر مع الأسف حتى يومنـا .

وقد كان لهذه الإشارة العابرة لحقوق التأليف قيمتها من حيث المبدأ؛ إذ لم يك ثمة شك فى أن الشارع المصرى يقصد بهذا النص إلى حماية الملكية الأدبية والصناعية . ومع أن القضاء لم يجد أمامه نصوصاً خاصة يطبقها فى هذه المسألة فانه لم ير مانعاً من أن تستلهم نصوص القانون العام ومبادئ العدالة كلما عرض عليه نزاع من هذا النوع .

وعلى ذلك فقد جرى قضاؤنا المصرى على تطبيق هذه النصوص والمبادئ فيما يتعلق بحقوق التأليف، وتعددت أحكام المحاكم الوطنية والمختلطة فى تقرير مبدأ حماية الملكية الأدبية والفنية ، والحكم بالتعويضات المناسبة عند الاعتداء عليها .

والظاهر أن إصدار التشريع الخاص بحقوق التأليف كان أمنية تساور المشرع

المصرى باستمرار . ويبدو ذلك فيما قرره فى قانون العقوبات المعدل من المعاقبة على الاعتداء على حقوق التأليف . فاذا طبع شخص بنفسه أو بواسطة غيره كتباً « على خلاف اللوائح والقوانين المتعلقة بملكية تلك الكتب لمؤلفيها فانه يرتكب جنحة تقليد يعاقب عليها (المادة ٣٤٨) . وكذا يعاقب كل من باع أو عرض للبيع كتباً أو أشياء مقلدة وهو عالم بحالها (المادة ٣٤٩) . وكل من قلد أشياء صناعية أو ألحاناً موسيقية مختصة بمؤلفها (المادة ٣٥٠) . وكل من غنى علناً بنفسه بألحان موسيقية أو حمل غيره على التغنى بها أو لعب ألعاباً تياترية أو حمل غيره على اللعب بها إضراراً بمخترعيها » (المادة ٣٥١) .

وهذه محاولة شاملة لحماية حقوق الملكية الأدبية . بيد أن قانون العقوبات يحذو حذو القانون المدنى فى الإشارة إلى التشريع المتعلق بتنظيم هذه الملكية دون أن يكون لهذا التشريع وجود ، وأخيراً عقد المشرع المصرى النية على إصدار هذا التشريع المرتقب والذى طال أمد انتظاره منذ سنة ١٨٨٣ فوضع فى سنة ١٩٢٧ مشروع قانون شامل لتنظيم حقوق التأليف ونشر يومئذ فى الصحف واستقبل بكثير من الترحاب والرضا ، وأبديت بشأنه آراء وتعليقات كثيرة . ولكن الأمر وقف عندهذا الحد وقبر مشروع القانون الجديد فى المهد ، وذلك بالرغم من رصانته ووضوحه واسترشاده بأحدث المبادئ الدولية المرعية فى هذا الشأن . ولم تتضح لنا يومئذ بواعث العدول عنه وذلك بالرغم مما كان واضحاً من مساس الحاجة إليه .

والآن وقد انقضت عشرون عاماً أخرى تبذل محاولة جديدة لإصدار تشريع يحمى حقوق التأليف ، وتجئ المحاولة هذه المرة عن طريق اللجنة القانونية لجامعة الدول العربية التى تضم ممثلى مصر والدول العربية ، فتقدم إلينا مشروع قانون جديد فى هذا الشأن .

ومن المعقول أن يكون مثل هذا التشريع من حيث التطبيق شاملا لسائر الأمم التى تتكلم العربية ؛ إذ هو خاص بتنظيم الحقوق الفردية ، فى التراث الأدبى والثقافى المشترك ، وهو تراث التفكير العربى الذى تتنافس مختلف الأمم العربية فى صونه والعمل على إغنائه وتدعيمه بكل طارف وجديد من منتجات أبنائها . ومن المرغوب فيه أن تمتد حماية حقوق المؤلفين الذين يكتبون بالعربية إلى سائر

البلاد العربية ، وهذا يكفله تبادل هذه الحماية أو تطبيق التشريع المشترك الخاص بها .

وأمامنا نص مشروع القانون الجديد . وهو مشروع مفصل يشتمل على أربعة أبواب تضم أربعاً وستين مادة . ويتناول الباب الأول أنواع المصنفات التى تشملها الحماية ، والباب الثانى مدى حقوق المؤلف ، والباب الثالث الجزاءات التى توقع فى حالة المخالفات ، والباب الرابع بعض الأحكام الختامية . وهو يستلهم فى كثير من نصوصه نفس المبادئ التى أخذت بها معظم التشريعات المماثلة . بيد أنه يختط فى بعض المسائل خطة خاصة وقد يجاوب أحياناً بعض المبادئ الدولية المتفق عليها .

ولا شك أن حقوق التأليف وحمايتها ومدى هذه الحماية هى لب القانون . وقد أخذ المشروع الجديد فى مدى هذه الحماية بالرأى الأكثر اعتدالا ، فجعلها مدى الحياة وثلاثين عاماً بعد وفاة المؤلف (المادة ٢٣) . والواقع أن معظم الدول يأخذ فى ذلك بمدد أطول ، ففى انجلترا وفرنسا والسويد والنرويج والدانمارك والبلجيك تمتد الحماية مدى حياة المؤلف وخمسين عاماً بعدها ، وفى إيطاليا تطبق الحماية مدى حياة المؤلف أو لمدة أربعين عاماً من تاريخ النشر ثم لأربعين عاماً أخرى بعد ذلك . وفى أسبانيا تمتد الحماية مدى ثمانين عاماً بعد الوفاة . وفى هولنده تمتد إلى أطول الزمنين حياة المؤلف أو خمسين عاماً . وفى أمريكا تمتد إلى ثمانية وعشرين عاماً من تاريخ النشر ، وتجدد لمدة أخرى مما يجعل مدى الحماية ستة وخمسين عاماً . وأما الدول التى تأخذ بمبدأ الثلاثين عاماً بعد الوفاة فهى ألمانيا والنمسا وسويسره واليابان . والظاهر أن اللجنة القانونية لجامعة الدول العربية تأثرت فى تفضيل هذا المبدأ بالظروف المحلية ، فلم ترد أن تبالغ فى حبس الانتفاع بالإنتاج العلمى والأدبى لمدة طويلة فى بلاد لا تزال فى بداية نهضتها الفكرية . بيد أن اللجنة نسيت أن استثمار المنتجات الفكرية لم يصل لدينا بعد إلى درجة من الازدهار تمكن المؤلف من التمتع بثمار إنتاجه على نطاق واسع وفى مدى قصير . والثلاثون عاماً التى تمتد إليها الحماية بعد وفاته قد لا تكفى لإصدار طبعة أو طبعتين من مؤلفاته ، وبذلك يقع الغبن على ورثته . وكان الأفضل فى رأينا أن تأخذ اللجنة بمبدأ الخمسين عاماً بعد الوفاة ، على أن تضع لذلك بعض التحفظات على نحو ما يأخذ به القانون الإنجليزى حيث يجوز

نشر المؤلف بعد مرور خمسة وعشرين عاماً على وفاة المؤلف إذا وجدت لذلك مبررات عملية واتبعت إجراءات خاصة .

ويأخذ المشروع الجديد بمبدأ أشد فيما يتعلق بالشخص المعنوى ، فيجعل مدى الحماية لحقوق التأليف ثلاثين عاماً فقط من تاريخ النشر (المادة ٢٥) وفى ذلك إجحاف ظاهر بحقوق الهيئات العلمية والأدبية التى تشتغل بالنشر بل فيه ما يهدد كيانها .

وفيما يتعلق بالمؤلف الذى ينشر على أجزاء يجعل احتساب مدى الحماية بالنسبة لكل جزء على حدة كأنه مؤلف مستقل (المادة ٣٠) وفى ذلك تجزئة للحماية بالنسبة للمصنف الواحد يترتب عليها اضطراب فى مزاولة الحقوق .

ومن المسلم به أن الترجمة هى جزء لا يتجزأ من حقوق التأليف ، وهذا ما يقرره مشروع القانون فى مادته العاشرة . ومع ذلك فان المشروع يحاول أن يضع حلا خاصا لمسألة الترجمة إلى اللغة العربية بالنص على سقوط الحق فى حمايتها بعد مرور عشر سنوات على تاريخ أول نشر للمؤلف أو إذا انقضت سنة من تاريخ طلب الترخيص بترجمتها من المؤلف أوصاحب الحق (المادة ١١). وقد تشعبت الآراء فى هذه المسألة حسبما يبدو من محضر أعمال اللجنة . والظاهر أن الاتجاه الذى غلب على اللجنة هو أن المبدأ الذى وضعته الاتفاقات الدولية فى برن و برلين وهو أنه لا تجوز الترجمة إلا بإذن صريح من المؤلف أو صاحب حق النشر يعتبر مبدأ قاسياً بالنسبة للبلاد العربية ؛ إذ الواقع أن الآداب العربية تجوز اليوم فترة نهوض وانتقال ، والترجمة عن المصنفات الغربية عنصر من أهم عناصرها . وقد صرح مندوب مصر فى اللجنة بأن قسوة النص الخاص بمسألة الترجمة فى اتفاق برن هو الذى حمل مصر على التردد فى الانضمام إلى اتحاد برن الدولى . ولهذا رأت اللجنة أن تضع هذا النص التمهيدى بحماية حق الترجمة لمدة عشر سنوات فقط على أن تبدى كل دولة من الدول ذات الشأن رأيها فى ذلك .

ونحن مع تقديرنا للبواعث التى حدت اللجنة إلى اتخاذ هذا الموقف بالنسبة لمسألة الترجمة ، ومع تسليمنا بأن الترجمة ما تزال من أهم العناصر فى تدعيم الآداب العربية ، فإنا نخالف اللجنة فى هذا الاتجاه ، وذلك لأسباب أدبية بالأخص . ذلك أنه لا يسوغ لنا أنّ نستحل تراث التفكير الغربى بهذا اليسر والتساهل

فى تقدير حقوق الغير . وعلى ذلك فإنه يحسن بنا أن نحترم المبدأ الدولى فى هذا الشأن إذا كنا نعتزم بعد إبرام التشريع المقترح أن ننضم إلى الاتحاد الدولى الخاص بحقوق التأليف لكى يتمتع المؤلفون فى البلاد العربية بحق الحماية المتبادل فى الدول الأخرى المنضمة إلى الاتحاد ، أو يجب علينا على الأقل أن نحدد لحماية حق الترجمة أجلا أطول كخمسة عشر عاماً مثلا على أن يكون ذلك بطريق التبادل إذ يتاح نقل المصنفات العربية أيضاً إلى اللغات الأخرى . وقد دلت التجارب على أى حال أنه لم تقم إلى اليوم فى سبيل الترجمة إلى العربية عوائق خطيرة ، وأن المؤلفين والناشرين الغربيين يرحبون على الأغلب بإجرائها دون مقابل أو نظير مقابل معقول .

ومن جهة أخرى فقد نص مشروع القانون فى المادة السابعة عشرة على أنه يجوز للصحف والمجموعات الدولية أن تنقل المقالات العلمية أو الأدبية أو الروايات المسلسلة والقصص الصغيرة التى تنشر فى الصحف والمجلات والمجموعات الأخرى ما لم ينص على عدم جواز النقل . وهذا النص يناقض المبدأ المعمول به فى اتفاق برن الدولى وفى جميع قوانين البلاد المنضمة إليه . وتنص المادة التاسعة من اتفاق برن على أنه مع استثناء الروايات المسلسلة والقصص الصغيرة يجوز لأية صحيفة أن تنقل مقالا نشر فى أية صحيفة أخرى على شرط أن تقرن النقل بذكر المصدر ، هذا إلا إذا كان النقل ممنوعاً بنص صريح . وعلى ذلك فإن مشروع القانون الجديد يرفع الحصانة عن الروايات المسلسلة والقصص الصغيرة ، وهى اليوم من أعظم عناصر الإنتاج الغربى ، وقد أخذت تغدو أيضاً عنصراً هاما فى إنتاجنا المحلى . وربما كانت بواعث الميل إلى هذه الإباحة هى نفس البواعث التى حدت بواضعى المشروع إلى التساهل فى أمر الترجمة . ومما يجدر ذكره أن المشرع المصرى قد اتبع فى المشروع الذى وضعه فى سنة ١٩٢٧ أحكام التشريعات الأوربية المماثلة ونصوص اتفاق برلين ، فنص فى المادة السادسة عشرة على حظر نقل المقالات العلمية والأدبية والروايات المسلسلة التى تنشر فى الصحف فى صحف أخرى دون إذن مؤلفها . واعتبر هذا الإذن ضمنيا فيما عدا الروايات المسلسلة والقصص الصغيرة إلا إذا اشترط منع النقل بصورة واضحة . وهذا النص أفضل فى روحه ومبناه من نص المشروع الجديد ، وهو فى الواقع أكثر تمشياً مع قواعد العدالة والإنصاف .

وقد نصت المادة العشرون من المشروع على إباحة النقل من الكتب المعدة للتعليم وفى مؤلفات النقد والتاريخ وفى المصنفات العلمية ، وذلك فى حدود الاعتدال « على ألا يشمل هذا النقل كل المصنف » . ومع التسليم بإباحة النقل خدمة للأغراض التعليمية والثقافية فإن هذا التعميم فيه تجاوز و إسراف ، ومن المستحسن أن يقرن ببعض التحفظات التى تحول دون الإجحاف بحقوق المؤلفين .

ولم يخل المشروع الجديد مع ذلك من بعض المبادئ المستحدثة ؛ فهو مثلا يعطى المؤلف الحق فى المطالبة بجزء من الأرباح التى تنتج من استثمار مصنفه وذلك علاوة على ما يكفله له الاتفاق الخاص بذلك إذا تبين أن فى هذا الاتفاق غبناً له أو لم تراع فى وضعه ظروف لم تكن فى الحسبان وقت وضعه (المادة ٤٨) كما يعطى المؤلف الحق فى سحب مؤلفه من التداول إذا طرأت أسباب أدبية خطيرة تدعو إلى ذلك أو إذا رغب فى إدخال تعديلات جوهرية عليه ، وذلك بالرغم من تصرفه فى حقوق امتيازه (المادة ٥١) .

وأما فيما يتعلق بأحكام الباب الثالث الخاص بالجزاءات فنلاحظ فيما يختص بمصر أن الاعتداء على حقوق التأليف أو إصدار الكتب المقلدة أو بيعها هى جرائم تناولها قانون العقوبات المصرى (المواد ٣٤٨ وما بعدها) . و إذاً فلا داعى لتكرارها فى القانون المتعلق بحقوق التأليف . وفى نظرنا أن ما ورد فى المادة الثانية والخمسين تكرار لا محل له . وعلى أى حال فمن الواجب أن يكون التناسق تاما بين القانونين فيما يعرض له كل منهما من أحكام متماثلة .

ونلاحظ أخيراً أن مشروع القانون يشير فى مادته الستين إلى حرمان المصنفات الأجنبية التى تصدر فى بلد أجنبى من الحماية إلا إذا تمتع رعايا الدول العربية بمثل هذا الحق بالنسبة لمصنفاتهم فى هذا البلد الأجنبى والبلاد التابعة له ، أو بعبارة أخرى يعترف المشروع بأهمية الحماية الدولية . ومتى كان الأمر كذلك فقد وجب أن يكون المشروع فى أحكامه الجوهرية متمشياً مع أحكام التشريعات الدولية المماثلة ، وهو ما لم يتوافر فى كثير من نصوصه حسبما أسلفنا .

هذه بعض ملاحظات أثارها مشروع القانون الجديد لحماية حقوق التأليف . وقد اقتصرنا فيها على ما تعلق منه بالناحية العلمية والأدبية . أما ما يتعلق بالناحية الفنية فقد تركنا الكلام فيه إلى ذوى الاختصاص . وفى رأينا أنه يجب إعادة النظر فى كثير من أحكامه وخصوصاً ما كان منها معارضاً للمبادئ الدولية

المعمول بها . ذلك أن الحماية التى نسبغها على حقوق التأليف تكون ناقصة إذا لم تكن حماية عامة شاملة تتناول سائر البلدان . ولا يقوم التبادل فى الحماية إلا على قاعدة التماثل فى المبادئ العامة . وقد أصبحت مصر والدول العربية الآن أعضاء فى هيئة الأمم المتحدة وفى لجانها الفنية والثقافية . ومن المتعذر عليها أن تنفرد فى الأخذ فى هذا الموضوع بمبادئ وأحكام لا تتفق تمام الاتفاق مع ما يقتضيه روح التضامن الدولى فى الشئون العلمية والثقافية .

محمد عبد الله عنان

فى الفن

وقفة خالدة

كان لاوكوون راهباً يونانياً ، عرف بحبه لابنيه وحدبه عليهما ، كما عرف بحبه لأثينا و إخلاصه لها مدى الحياة . وكان هذا الراهب يعبد الإلـهة منيرفا ، عبادة خالصة ، ولكن تحول عن عبادتها إلى عبادة إله البحر بسويدون . فأرادت منيرفا أن تنتقم منه فسلبته نور عينيه ، ثم أمعنت فى عذابه بأن سلطت أفعيين هائلتين على ابنيه فافترستاهما ، ولم يستطع الوالد المتفانى فى حب ولديه أن يدفع عنهما شر الموت . فكان هذا الصراع العنيف الذى جاهده ، ثم هذا الإخفاق الحزين الذى آب به مضرب المثل فى انتقام الآلهة ممن كفر بها .

وفجرت مأساة هذا الراهب الذى كفر بإلـهته فانتقمت منه وحى الشعراء والمثالين ، فصوروا المأساة بطرق مختلفة صوراً عديدة ، لم يصلنا منها إلا صورتان خالدتان . أما الأولى فهى الأبيات التى خصها فرجيل فى أنيادته بهذا الراهب وقصته . وأما الأخرى فتمثال رائع لمثال يونانى لم يعرف اسمه محفوظ فى الفاتيكان .

وجذب هذا التمثال الرائع أنظار زائرى المتحف ، فكتبوا عنه واصفين معجبين محاولين تحقيق تاريخه فى كثير من الإمعان . ولكن الزمن لم يخلد لأحد من هؤلاء الزوار وقفته أمام هذا التمثال ؛ حتى كان منتصف القرن الثامن عشر ، عندما وقف أمام تلك الآية الخالدة من آيات الفن القديم ، رجل هزيل الجسم ، قد خط الحزن على جبهته سطوراً كثيرة عميقة ، لو قد امتد الزمن بصاحبها أكثر مما امتد لازدادت عدداً وعمقاً ؛ فلقد كان من هؤلاء الذين كتب عليهم أن يلموا بالحياة إلمامة قصيرة مفعمة بالأحداث الحزينة ، حتى إذا رحل عنها لا يملك من هذا الكد المتصل العنيف مايكفل لجسد دفناً محترماً ، صحا الناس فجأة فتنبهوا إلى علو مكانته وما كان يجب له من سعادة ، بل من تشجيع و إكرام و إجلال فى هذه الحياة التعسة القصيرة التى حييها .

وقف الناقد الروائى العظيم جوتهلد إفرايم لسنج أمام تمثال لاوكوون يوماً

فى الفاتيكان وقفة خلدت اسمه فى عالم النقد ، ورفعته من روائى ممتاز وأديب كبير إلى ناقد عبقرى فذ . فلقد وقف أمام التمثال وأخذ يتأمل ويتأمل . وعاد إلى ذاكرته ماقد حفظ من شعر لاتينى ، فى وصف مأساة هذا الراهب ، وأخذ عقله المتعب اليقظ يقارن ويسائل ويحاول أن يصل إلى أشياء لم يكن يتبينها ، ولكنها كلها تصب فى نهر واحد . لماذا اختلفت صورة لاوكوون حجراً عنها شعراً ؟ أنقل الشاعر عن المثال ، أم المثال عن الشاعر ، أم نقلا عن مصدر مشترك ؟ وهل هذا الفرق ينطبق فى جوهره على سائر ماعرف عن تماثيل صور بها أصحابها ما قد جاء فى شعر هوميروس من قصص ومآس ؟

وما كادت الشعلة تتقد فى رأس لسنج حول هذه الآية من آيات الفن ، وما يمكن أن تمثل من فرق يبين فنى الشعر والنحت ، حتى علا لهيبها وعم نورها وانتشرت نارها ، وكثرت الأسئلة وتزاحمت . وعاد لسنج فى هذا اليوم إلى مكتبه مكدوداً تعبا ، يحاول أن يصور من هذه الأسئلة التى تلح على رأسه شيئاً فلا يستطيع . ومرت أيام وأيام ، وكتب لسنج شيئاً ونسى أشياء ، وعاد وكتب شيئاً ونسى أشياء ، حتى استوت الفكرة آخر الأمر قائمة ، وحتى استطاع أن يخرج إلى عالم النقد نظرية قوية ثابتة لم تعارض إلى اليوم . بل إننا نتمادى فنطبقها على أوسع مما اشتملت عليه ، فتستمر صحيحة قوية تنير لنا أشياء كثيرة نحسها فى عالم النقد ، ولا نجد أحياناً مايفسرها أو يعبر عنها .

ولما اجتمعت لدى لسنج جملة مقالات فى هذا الموضوع أخرجها لنا كتاباً إن يكن متوسط الحجم فهو عميق الفكرة متسع الأفق ، يشمل كثيراً من النقد القيم حول شعر هوميروس وما قد تفجر عنه من تماثيل خالدة ، بل قد يشمل أيضاً شيئاً من شعر المحدثين وآيات فنهم هم أيضاً .

وماذا أراد لسنج أن يقول بكل هذا ؟ إنه لم يرد أن يقول شيئاً كما يعترف . وإنما هى خواطر عديدة متفرقة خطرت له نأخذ فى تدوينها ، لا يتبع نهجاً ولا يسير على خطة . وإذا الفكرة آخر الأمر تقوم بنفسها وحدها كما ينبت النبات الوحشى الجميل . إن الفرق الذى لفت نظره بين لاوكوون فى تمثال هذا الفنان المجهول وبينه فى شعر فرجيل ، لهو فرق يأتى من طبيعة الفنين : فن النحت أو التصوير ، وفن الشعر أو القول .

وقديما حاول النقاد محاولات عدة أن يفرقوا بين الفنون . فلقد أحس اليونان

قبل الميلاد بقرون وقرون ، أن لهذه الفنون ميادين مختلفة ، يوم نصبوا لكل فن منها آلهة ترعاها . فلم يكن عبثا جعلهم للفنون سبعة آلهة ، كل منها اختصت برعاية فن دون غيره . ولكنا فى القرن الخامس قبل الميلاد وعند أرسطو فى كتاب الشعر ، نجد نضوجاً قويا للاحساس بهذه الفروق . فلقد سجل أرسطو أن هناك فنوناً شكلية لها جسد وكيان خارجى ، وفنوناً ليس لها فى عالم الواقع شكل أو جسد : وجعل أساس التفرقة بين النوعين من أنواع الفن لا ما امتاز به كل منهما من الآخر ، ولكن ما اتجه إليه كل منهما من حاسة فى الانسان . فهذه فنون يتلقاها البصر ، وتلك أخرى يتلقاها السمع ، والشعر من الأخيرة . ولم يحاول أرسطو ولا من جاءوا بعده لنحو عشرين قرناً أن يجدوا لهذه الحقائق نتائج تتبعها لها أثر فى طريقة إخراج الفنين .

وما أخذت النهضة فى أوربا تعم بلدانها وتزحف مشرقة نحو ألمانيا ، حتى تصدى لمثل هذه المسائل التى شغلت أذهان الناس نقدة ألمان عرفوا بما عرف به شعبهم من القدرة الفائقة على التحليل واستخلاص النتائج ، حتى إنهم ليبعدون فى ذلك إلى حد الإفساد أحياناً . و إذا كلام يدور حول الجمال وتحديده ودرسه ، وماذا تحقق الفنون على اختلافها من ظواهر ، وماذا تستطيع الفلسفة أن تكشف عن جوهره ، و إذا كلام عن آيات الفن اليونانى القديم ، يكثر فى المجلات والمجالس والكتب ، يمثل آثار النهضة فى مثل هذه الميادين ، وكلما سار الزمن بهؤلاء النقدة نضج تفكيرهم و كثرت استعانتهم بالأمثلة من شعر هوميروس وفرجيل ، والمقارنة بين صور الشعر وصور النحت لهذا التاريخ الفنى اليونانى القديم . ويقرأ لسنج هذه الكتب ، ويسمع لهؤلاء الناس ، فلا يجد فيما يقولون بغيته ، حتى يقف فى هذا اليوم المشهود أمام تمثال لاوكوون فى الفاتيكان .

وكان أول ما أثار تفكيره عن الفرق بين الصورتين أن أثرهما فى النفس يختلف . فالراهب فى شعر فرجيل رجل عظيم ، ولكنا ننسى عظمته إلى حين فى هذا الموقف بالذات من مواقفه ؛ لأننا نرى أمامنا آدميا يتعذب مثلنا ويصرخ من الألم ، حتى ليملأ صراخه جنبات الوادى السحيق . إن راهب فرجيل كان مبصراً لا يرى صراع الأفعيين مع ابنيه ، ولكنه يصارعهما هو نفسه لأنهما سلطا عليه وعلى ابنيه معه . وهو يصرخ هذا الصراخ المدوى ، فنحس نحوه بالألم والشفقة ، بل إنا لنكاد نبكى معه من فرط مايلقى من عذاب . أما الراهب

حجراً فهو يثير فينا شعوراً آخر . إنه يألم ، ولكن فى صمت وصبر وجلد وثبات إنه الرجل العظيم الذى يقهر الآلام الانسانية فى عظمة وجلال ووقار وهيبة . وإذا نحن نألم له على نحو آخر ، إننا نألم لألمه والاعجاب يملأ نفوسنا من ثباته وجلاله ، بل إنا نكاد نصفق له بدل أن نبكى معه .

قال لسنج : من أين أتى هذا الفرق بين الصورتين ؟ ترى لو قد أراد المثال أن ينقل إلينا صورة راهب فرجيل ، أميناً مخلصاً فى تفاصيلها ، أكان مستطيعاً ذلك ؟ أكان يمكن أن يصور هذا الراهب فى لباسه الكهنوتى ؟ كلا ! فان هذا اللباس وحده كان كافياً لإخفاء معالم الجسد كلها . والجسد فى التمثال كل شئ . إن أجمل لباس فى الدنيا لا يمكن أن يعدل جمال هذا الجسد الانسانى العارى ؛ لأنه قادر على التعبير ، وليس اللباس بمستطيع شيئاً إلى جانبه فى هذا الميدان . أنظر إلى البطن وقد دخل فأوحى بالكبت والألم . وانظر إلى عضلات الصدر وقد عبرت عن جهاد فظيع لألم مروع . وانظر إلى الأفاعى نفسها ، إنها قد انتحت عن هذا الجزء الأعلى من جسد الراهب ، لتترك لتلك العضلات حريتها فى التعبير . فما كان لوصف فى الوجود أن يعادلها فى قوة التعبير عن غاية الألم . ثم هذه الأذرع الممتدة وقد شدت عضلاتها وظهرت معالمها واضحة لترينا قوة الراهب فى هذا الصراع المميت . وراهب التمثال لو قد صرخ كما صرخ راهب الشعر ما تجلت قدرة هذه العضلات جميعاً فى التعبير عن الثبات والتجلد ، والشدة والمعاناة ، بل إنه لو قد صرخ لفتح فاه ولكانت هذه الفجوة السوداء فى هذا الوجه المعبر عن أقصى درجات الألم تشويهاً وانتقاصاً من جمال الخطوط الفنية ، التى تسير فى تناسق وتناسب ، من قمة الرأس إلى أسفل القدم . ولو قد أراد المثال أن يكون أميناً فى نقل صورة الشعر لجعل هذا الراهب يحاول أن يعدو ويقفز من الأفعيين ليتخلص منهما ، ولكنه فى الحجر واقف ، ولا يمكنه إلا أن يكون واقفاً . ولكن المثال لا يصوره واقفاً بلا سبب ، فيناقض الموضوع إخراجه ، أنه أوجد لوقفته الفنية السبب . فلقد التفت الأفعيان بقدميه التفافة قوية ، منعته ومنعت ابنيه عن يمين وشمال من أن يتحركوا جميعاً منعاً قويا .

إن المثال لا يستطيع أن يصور الحركة بالحجر ؛ لذلك هو يختار جزءاً من الحركة أو وقفة منها ، ليعبر بها عن كل ما يريد من حركة وحياة . وفنه يتجلى

فى اختيار تلك الوقفة بالذات أو هذا الجزء المعين من أجزاء الحركة . ولا بد أن يكون هذا الذى اختاره يعبر عن كل ما قد سبق من حركات ، وما سيلحقه أيضاً منها . أنظر إلى تمثال السبع حارس النيل المحفوظ فى المتحف البريطانى ! إنه بوقفته يوحى بغاية اليقظة ، بل بالقفز أيضاً ، لأنه يكاد يقفز بالفعل ، ولو قد صور هذا الأسد شعراً لقفز وافترس من تعدى على حرمة ما يحرس ولفعل كل ما أراد ، دون أن يحرج الشاعر أو يجعله يقف ليختار شيئاً من أفعاله بالذات .

إن طبيعة الحجر وطبيعة فن النحت الذى يتخذ الحجر مادته ، هى التى جعلت لاوكوون عند المثال ثابتا متجلداً بطلا خالداً ، ولاوكوون عند الشاعر آدميا يصرخ صراخاً يملأ جنبات الوادى ، لأنه فى أشد المواقف مدعاة إلى الصراخ والتألم ، وإذا نحن فى الشعر نكاد ننسى أنه بطل من أبطال اليونان ، ووطنى عظيم من مواطنيها .

والحجر معرض للنظر الدائم المستمر الطويل ، لذلك لا يمكنه أن يمثل قبحاً ، بل هو ملزم بأن يومئ لنا بالجمال . لأننا لا نستطيع أن نعاود النظر إلى قبيح ولا أن نستوحى تشويهاً . لذلك لم تكن عبثاً تلك القوانين التى كانت تسنها الحكومات قديماً فنسخر نحن الآن منها ، وننظر إليها على أنها عبث الطفولة الانسانية . إن هذه القوانين كانت أصدق فهماً لطبيعة الفن مما نظن . لقد كانت تحرم على المثالين ألا يعرضوا على الناس إلا كل ما هو جميل ، والمثال الذى يعرض القبح يعاقب عليه عقاب من يخالف قانوناً من قوانين الدولة .

إن الشاعر يستطيع أن يصور القبح لأننا لا يمكن أن نرى هذا القبح كله دفعة واحدة ، وإنما بحكم مادته سنراه على أجزاء متفرقة ، على دفعات تتلوها دفعات ، نرى آخر جزء وقد بهتت ظلال الأجزاء الأولى منه . لذلك لن يبلغ فى التأثير منا من حيث قبحه ما يبلغه فن النحت أو التصوير ، حينما نراه كله دفعة واحدة بكل بشاعته وبكل ما ينفر من إعادة النظر إليه ، بل إن صورته حجراً تظل عالقة بأذهاننا زمناً طويلا ومعها آثارها السيئة التى تحدثها فى النفس.

إن الشاعر أكثر حرية من المثال . لأنه يستطيع أن يصور القبح والجمال ، وهو أقدر منه فى تصوير الحركة بنوع خاص ؛ لأن مادته تعينه على ذلك . فمادته كلام يظهر ليختفى ، يسمع أو يقرأ ليأتى غيره ثم غيره ، وهكذا ، كالحركة فى تتابع أجزائها واختفاء كل جزء بظهور ما يليه . ولكن الشاعر لا يستطيع أن

يصور صورة كاملة بكل أجزائها مهما حاول ذلك . إنه لا يستطيع أن يوحى لنا بالكل دفعة واحدة ، ولا بد له من رسم الأجزاء جزءاً جزءاً . أليست مادته الخام كلمات لا يمكن أن تقال كلها دفعة واحدة ، ولا يمكن للسمع إلا أن يتلقاها مجزأة ! فاذا حاول شاعر أن يصور وقفة جميلة أخفق فى إشعارنا بجمال التناسب والتناسق بين كل هذه الأجزاء التى تؤلف الوقفة الساكنة . ولذلك نرى الشاعر الحق لا يصور لنا منظراً جامداً و إن بدا فى ظاهره كذلك . إنه يصور لنا الحركة والحياة من وراء هذه المناظر الصامتة . ألست ترى إلى هوميروس وهو يصف درع البطل اليونانى أشيل وصفاً بارعاً ، لا يحاول حتى أن يوحى لنا بصورة هذه الدرع ، كما لو كنا نراها بالفعل ، مادة جادة . كلا إنه يصفها عن طريق وصف كيفية صنعها . فهذا هو الحفار الماهر وقد جلس إلى الدرع جلسة الفنان ، يصور منظراً منظراً من مناظرها . ما ينتهى من منظر ، بل من جزء منه حتى ينمحى ، ويبدو جزء آخر فى حركة وفن وحياة .

و يحدثنا لسنج فى سياحة طويلة شائقة عن كثير من صور الشعر والنحت ، التى رسمت صور التاريخ اليونانى الخالد ، مقارناً بين الصورة نفسها فى الفنين ، خالصاً آخر الأمر إلى هذه النتيجة المؤثرة فى تصورنا الفنين وتقديرنا لها ، بل نقدهما أيضاً . وهى أن الكلمات أصوات تلقى فى الفضاء لا يمكنها أن توجد دفعة واحدة ، ولا يمكنها إلا أن توجد فى أذهاننا صوراً متعاقبة مسلسلة ، ننسى إلى حد ما أولها عندما نكون نتصور فعلا آخرها . ولذلك كان الشعر باعتباره فنا صوتيا أليق الفنون للتعبير عن الحركة عن هذا الذى يوجد مثله مجزأً على دفعات . أما الحجر الذى يوحى لنا بالأجزاء كلها دفعة واحدة وفى لحظة واحدة ، ولا بد لذلك من أن يتوافر فيه شرط التناسق والجمال ، فهو أقدر على التعبير عن وقفات بعينها ، توحى لكثرة النظر إليها بالمعانى الكثيرة المتوالدة ، وهو أقدر أن يوحى لنا بالخلود ، وأن يطبع الصور فى أذهاننا بحيث لا تبرحها أبداً . ومن هذا الفرق بين طبيعة المادة الخام فى الفنين وما يحيط بتلك المادة من ظروف ، نستطيع أن نتبين دقائق الاتجاهات فى كل من الفنين ، بل أن نفهم تاريخهما ونتذوق آثارهما فى ضوء يجعل لهذا التاريخ عمقاً ما أحسسناه من قبل ، ولهذا التذوق طعماً ما لسنا أسبابه من قبل .

ترى لو قد طبقنا نظرية لسنج إلى أبعد مما قد سار بها صاحبها فى عالم الأدب

وحده ، ألسنا نخرج من هذا التطبيق أشد اقتناعاً بسلامتها ؟ أنظر إلى المادة الخام وكل ما يحيط بها من ظروف فى عالم الفنون الصوتية ، ثم فى عالم الفن القولى بالذات ، تجد سلامة هذا التطبيق ومعونته فى الوصول إلى نتائج طيبة . فالموسيقى أصوات ، ولكنها أصوات لا نجد لها معنى متعارف عليه . فليس بين أنغامها نغم يمكن أن يثير فى نفوس الناس صورة مشتركة لشئ بعينه ؛ لذلك كانت الموسيقى أليق من فن القول فى التعبير عن الحركة الغامضة ، حركة العواطف والانفعالات العنيفة ، على حين أن وجود المعنى المتعارف عليه لصوت الكلم يجعله أقدر فى التعبير عن الحركة المادية أو المعنوية المتضحة شيئاً ما . أو لسنا نجد الأديب نفسه كلما قويت عاطفته أُرتج عليه فلا يستطيع إلى وصفها بالكلام سبيلا ! و إذا هو يستعين بالموسيقى ليصور بغموضها هذا الغامض الذى يحسه ، و إذا كلامه يخرج لنا موزوناً مقفى ، يخرج لنا شعراً تغلب عليه الموسيقى فلا نجد لكلامه رونقاً إلا بها . فاذا خمدت العاطفة قليلا واستنارت أمام الأديب سبل التفكير فاتضحت له معالم ما يريد أن يصور ، وَفَى الكلام المحدود بمعنى متعارف عليه بما يريد من غرض . بل إنه كلما نامت العاطفة وصحا العقل عمد إلى أكثر هذه الكلمات تحديداً فى معناها ، ليدلنا على فكرته . وهكذا يظهر لك جوهر الاختلاف بين الشعر والنثر ، لمجرد التزام نظرية التفرقة بينهما على أساس المادة الخام . وما يقال فى التفرقة بين الشعر والنثر ، يقال فى التفرقة بين القصة والخطبة ، والمقال والمسرحية وهكذا . سائل نفسك دائماً ما هى المادة الخام ، وما الظروف المحيطة بها ، وماذا تستوجب تلك الصفات من آثار فى الصورة التى يخرج عليها الفن ، فلن تجد لهذه النظرية شذوذاً فى النقد ، بل إنك لواجد منها خير معين ، لا فى تصور هذه الفنون القولية وما بينها من اختلاف وتشابه ، فحسب ، ولكن فى تذوق تلك الفنون أيضاً وفى الحكم عليها آخر الأمر وأنت تحاول أن تبين مواطن الجمال فيها والقبح .

لقد فطن النقاد قديماً إلى أطراف كثيرة من هذا الكلام ؛ فانا نجد كلاماً مثلا حول الخطابة وما يميزها من سائر فنون القول ، على أساس أنها تقال لجماهير فى مكان عام ، وكلاماً حول ما تمليه هذه الظروف على الخطيب من طرق فى التعبير دون سواها . ولكن الذى أذاعه لسنج فى عالم الفن لم يكن نضوجاً لتلك الفكرة المبعثرة ، بل إنه فكرة جديدة تؤدى إلى نتائج أعظم من هذه

ويصب فيها هذا القديم لأنه يتمشى معها . وفى ذلك مجرد إثبات للنظرية . ذلك أن القدماء نظروا إلى الموضوع من زاوية بعيدة عن الزاوية التى نظر إليه منها لسنج . إن نظرية المادة الخام وما تطيق هذه المادة من أنواع التعبير بحكم طبيعتها وما يحيطها من ظروف ، فكرة يجب أن نعترف للسنج فيها بفضل الكشف الجديد . فان تداخل فيها شئ مما قد سبق إليه فان ذلك يزيد من قيمة الكشف ولا يقلل منها لأنه برهان على صحته ، كما يكون ذلك فى سائر الكشوف العلمية والعملية التى نعرفها .

و بهذه النظرية ، نظرية التفرقة بين الفنون على أساس ما بين موادها الخام من فروق ، خلدت تلك الوقفة التى وقفها لسنج منذ أكثر من قرنين ، أمام هذا التمثال الرائع من تماثيل متحف الفاتيكان .

سهير القلماوى

جيوش كسرى أنوشروان

لم تهدأ حماسة الشعب ، ولم تسكن خفة طربه الجامح الذى تولاه منذ استوى عاهله كسرى أنو شروان على إيوانه . فقد ظل سبعة أيام تتدفق وفوده صوب القصر الكسروى هاتفة للشاه الجديد هتافاً ما زال يشتد ويتقد حتى خرج بها عن وعيها .

وجلس كسرى على عرشه فى تلك الليلة يحتفل بمرور أسبوع على أسعد حادث قديقع لانسان ، وقبع إلى يمينه عمه الأكبر ، وإلى يساره عمه الآخر . وامتدت أمامه حلقة دار بها رقص القيان الحسان ،وأحاط بالحلقة العازفون والزمارون يذكون الرقص بأنغامهم الشجية ، ومن وراء هؤلاء جلس أعيان البلاد وسراتها .

أخذ كسرى ينظر إلى ما حوله نظرة الحالم ، وازدحمت فى رأسه الخواطر التى ظلت تهيمن عليه طوال الأيام السبعة . كانت هذه الخواطر تدور حول معنى واحد ، هو أنه صار مالك الملك والمتحكم فى رقاب أولئك الناس الجالسين حوله ، والمزدحمين أمام قصره ، والمنتشرين فى أرجاء مملكته . ولما كان الجشع يزداد بازدياد الغنى ، فانه طفق يحلم بتوسيع رقعة ملكه ، ومضاعفة عدد رعاياه، ثم زخرف له الوهم أمانى حسبها قريبة المنال ، وهى أن يخضع العالم بأسره لسلطانه الشامل .

وفى أثناء الفترة التى توقف فيها العزف ليستأنف العازفون دوراً جديداً ، ملأ الغرفة هتاف السابلة بحياة سيدهم الجديد . وتقدم الوزير فى خشوع إلى مليكه ، وتوسل إليه أن ينزل فيتفضل على عبيده المتشوفين فى الطريق إلى اجتلاء طلعته الملكية باطلالة قصيرة من نافذة قاعة العرش ليثلج صدورهم ، ويمتع نواظرهم . ونزل الشاه الخطير وقبل الرجاء ، وتهادى بين صفّى الساجدين له إلى النافذة ، فقوبل بصيحات طرب تصم الآذان ، وجازى الصائحين على إخلاصهم بابتسامة تنم عن رضاه السامى . رأى من خلال أغصان الأشجار

ألوان المصابيح ذات الورق المكور المكسر ، واستطاع أن يتبين على ضوئها ذلك الحشد الزاخر الذى ضاق به شارع القصر على اتساعه ، واطمأنت نفسه إلى دلائل ولاء رعيته . ثم خاض بين الساجدين فى وقار عائداً إلى سدته العلية .

ولكنه لم يكد يطمئن فى أريكته بعد عودته حتى توقف هتاف السابلة فجأة ، وساد الشارع صمت رهيب أعقبه هرج ومرج . وأسرع الوزير إلى النافذة ليتبين ما حدث ، فانخلع قلبه إذ رأى فلول الجماهير تولى الأدبار متوارية فى الأزقة المظلمة ، و إذ سمع الكلمة الرهيبة تتهدج كالحشرجة فى أفواه الجازعين : « الثوار . . . الثوار » .

وهبّ الشاه واقفاً وقد أفقده الجزع وقاره ، وجالت عيناه ذات اليمين وذات اليسار . وتقدم خطوتين ثم نكص فى ارتياع على عقبيه . وجرى بعض الحضور من علية القوم إلى النافذة يستزيدون من أخبار ما يجرى خارج القصر . وتردد بعضهم الآخر لا يدرى أيظهر للشاه عطفه وعزمه على الدفاع عنه حتى الموت فيتعرض لسخط الثوار فى حالة فوزهم ، أم يعرض عنه فيتعرض لسخطه فى حالة إخفاقهم .

وخاب أمل الشاه فى شعبه بعد أن كان موقناً منذ برهة من ولائه له . وتقوض على حين فجأة صرح آماله الباسق ، ولم يعد يملأ رأسه فى تلك اللحظة إلا خاطر واحد ، هو الاهتداء إلى مخرج من حرج المأزق الذى وقع فيه .

ولم يجرؤ وزيره الذى نعم بآلاء أبيه على التخلى عنه وخذلانه فى محنته ، فأسرع إليه واقتاده إلى باب النفق السرى الذى أُعد من قديم لمثل هذه المناسبة المنكودة . وهرول وراءهما الأميران اللذان كانا يزينان العرش منذ برهة بجلوس أحدهما إلى يمينه والآخر إلى يساره . وقال الوزير لسادته وهو يهم باغلاق الباب السرى وراءهم : « سينتهى بكم هذا النفق إلى بئر مهجورة ذات سلّم صاعد إلى وجه الأرض ، وستجدون هناك ثلاثة جياد لن يعجزها قطع المسافة القائمة دون الحدود . . . وأتمنى لكم التوفيق » . ورجع الوزير أدراجه ليعد الجياد الثلاثة و يرسلها إلى البئر المهجورة . أما السراة والأعيان الذين خذلوا مليكهم، فقد استعدوا فى قاعة العرش لاستقبال الثائر بهرام ، وللمناداة به شاها على بلاد الأكاسرة . وبينما كان هذا الأخير يستقبل حياة جديدة حافلة بالعز والمجد والرفاهية ، كان كسرى يستدبر مثل تلك الحياة ، ويودع كافة أمانى الدنيا

إلا أمنية واحدة . كان يتمنى أن تكتب له النجاة ، وأن تتاح له حياة لا يشترط لها شروطاً ، بل يرضى بها ولو كانت أتعس من حياة أتعس رعاياه . . .

تنكّب الشاه وعماه اللذان صحباه الطريق السوى ، ولاذوا بالطرق الجبلية الوعرة يقطعونها تحت أستار الظلام ، ويأوون إلى الكهوف المعتمة طوال النهار ، فكان نهارهم أسود كليلهم سواء بسواء . ولم يكل الشاه ولم يتعب ، ولم تهدأ ثائرة خوفه . وكانت حوافر خيله التى تنهب الأرض تزعجه لأن الوهم أدخل فى روعه أن الثوار قد يسمعون وقعها ، فكان يكبح جماح جواده ويطلب إلى رفيقيه تخفيف سرعة العدو . ولكن سرعان ما كان الوهم يصور له من جديد أن أعداءه فى أعقابه وعلى وشك اللحاق به ، فيختلف رأيه ، ويلهب ظهر جواده بسوطه ، ويندفع بين الصخور الزلقة التى قد تكون أشد خطراً عليه من ملاحقة الثوار .

ومر على الطريد الشريد ورفيقيه أسبوع لشد ما اختلف عن سابقه . أسبوع جزع وشدة وقنوط ، على حين قد امتلأ الأسبوع السابق بألوان الدعة والرفعة والأمل البراق . وأدرك عندئذ أولئك الهائمون على وجوههم أنهم صاروا بمنجاة من طائلة الثوار ، فأخذوا يتخيرون النجعة المناسبة للالتجاء إليها . وأشار الأميران بالتوجه إلى الجنوب صوب الحجاز أو اليمن منوهين بما جبل عليه العرب من حسن الضيافة و إغاثة الملهوف ، ومتوجسين خيفة من الروم الذين تأصلت كراهية الفرس فى نفوسهم . ولكن الشاه الذى بدأ يطمئن على حياته لم يشاركهم فى رأيهم ؛ لأن سراب الأمل عاد إلى مداعبته ، وأوحى إليه أن إمبراطور الروم قادر من دون العرب على إسداء يد المعونة إليه ، و إمداده بجيش يمكنه من استرداد ملكه . وغرّب الركبان الجياع الواهنون فى اتجاه بلاد الروم لأن أمر الشاه مكتوب له النفاذ ولو كان صاحب الأمر مخلوعاً منبوذاً .

ولم يلبثوا أن اعترضت سبيلهم ربوة لم يكادوا يتبوءون قمتها حتى أشرفوا على مدينة رومية تقع على الحد الفاصل بين بلادهم وبلاد الروم . وخفقت قلوبهم وتنزّت بين جوانحهم لاقتراب الساعة التى سيتقرر فيها مصيرهم . وشطح بهم التخمين ورجّحهم بين اليأس والأمل . والتمس كسرى الخلاص من عذاب خواطره المضنية باعداد الحديث الذى سوف يلقى به بين يدى العاهل الذى يقصده ، و إحكام الحجج التى سيدلى بها إليه ليقنعه بضرورة معاونته على إخضاع

مغتصبي عرشه . ولم يشعر ثلاثتهم ، وهم فى شغلهم الفكرى الشاغل ، بطول المسافة التى قطعوها إلى تلك المدينة ، ولم يفيقوا من سبحات فكرهم إلا وهم وقوف على باب السور الكبير .

رحب بهم حاكم المدينة وأكرم مثواهم . وقد أدهشهم أن يعلموا منه أن نبأ الثورة وما أعقبها من انتصار بهرام وهروبهم وصل إلى علمه منذ يومين ، وأنه أرسل إلى إمبراطوره رسولا يستطلع رأيه فى شأنهم لأنه توقع مرورهم بمدينته. وضاقت الدنيا فى وجه كسرى وثقلت عليه خطوات الزمن وهو ينتظر قرار عدوه فى شأن مصيره .

وحان الفرج بعد شدة الحرج ، ووصل وفد من قبل الامبراطور موريق إلى هيرابوليس ، وهى المدينة التى نزلها كسرى وقضى بها حقبة عسيرة لم يعرف خلالها أهو أسير مقيد أم ضيف مكرم . وسمع هذا اللاجئ الحائر ، وهو لا يكاد يصدق أذنيه ، من رسل قيصر الروم ، أن سيدهم سعيد بالتجاء عاهل الفرس إلى بلاده ، وأنه يود أن ينعم بلقائه فى القسطنطينية ليظهر بنفسه مبلغ اغتباطه بهذه الزيارة الميمونة .

وانتشر بين الناس نبأ قدوم الشاه إلى بلادهم وترحيب قيصرهم به ، فخرجوا فى كل مدينة مر بها وهو فى طريقه إلى القسطنطينية لاستقباله ، وأظهروا له من دلائل الابتهاج بمقدمه ما أثار عجبه . ولو اطلع على ما يدور بأخلادهم لهاله أن يعلم أنهم أملوا من وراء وقوعه فى أيديهم أن يتخذوه وسيلة لتغلغل جيشهم إلى قاعدة ملك أعدائهم . وبعد رحلة طويلة هوّنت عليه مظاهر إجلاله وإكباره مشقتها ، وصل إلى شاطئ البسفور حيث استطاع أن يلمح فى شاطئه المقابل معالم القسطنطينية التى كان يطمع فى القدوم إليها غازياً ، وما ابتعدت السفينة التى استقلها لاجتياز المضيق عن الشاطئ قليلا حتى أمكنه أن يتبين أعلام الزينة التى نصبت فى عاصمة بلاد أعدائه احتفاء بمقدمه إليها .

رست السفينة إزاء حديقة القصر الامبراطورى ، وكان سيد القصر واقفاً بين وزرائه وكبار رجال حاشيته لاستقبال زائره . وما التقيا حتى طوق كل منهما الآخر فى عناق حار ، وبدا الخصمان اللدودان كأنهما صديقان حميمان . وافتر ثغر كل منهما عن أعذب البسمات ، فى حين لم يفكر كلاهما إلا فى أمثل طريقة يستطيع أن يستغل بها صاحبه .

ولم يعن كسرى بما حوى قصر بيزنطة الفاخر من روائع التحف التى ترامى إليه صيتها وهو لم يزل فى بلاده النائية ؛ فقد شغل عنها فى هذه الآونة العصيبة بتهالك نفسه على معرفة النية التى يبيتها له مضيفه . وبعد جولة فى أنحاء ذلك القصر الفاخر جلس الضيف والمضيف فى شرفة شرقية تطل على القرن الذهبى حيث تبرجت الطبيعة عن أروع فتنها . وما وقع لمخلوق أن رأى تلك الفتن إلا بهر بها وأُخذ أخذاً . ولكن نصيبها من اهتمام كسرى لم يكن أوفى حظًّا من نصيب التحف والرياش البيزنطية التى مر بها منذ هنيهة وألقى عليها نظرات شاردة .

أخذ يتحدث إلى جليسه فى أمر استعادة ملكه . وقال له فيما قال إن الكارثة التى أصابته لا تتعلق به وحده ، لأن كل ذى سلطان معرض لمثلها ، فهى تتعلق بالملوك جميعاً . ومصلحتهم تقتضى التكاتف والمعاضدة فى حالة نزول أية ملمة بأحدهم ، حتى يطمئن كل منهم إلى حصوله على العون نفسه فيما إذا احتاج إليه ، وحتى لا يحدث أى طامع فى الملك نفسه بالثورة على مليكه . وتكلف قيصر الروم العطف على المستعين به ، وتظاهر بأنه اقتنع كل الاقتناع بالآراء السديدة التى أدلى بها ، وعاهده على أن يجيش له جيشاً جراراً يضعه تحت تصرفه . ووقع كسرى فى الغفلة التى يقع جل الناس فيها ؛ لأنه لم يفطن إلى أن موريق قد يكون مثله فى طمعه وفى تحرقه إلى بسط سلطانه على بلاد غيره من زملائه الملوك .

اطمأنت نفسه ، وشاعت الغبطة فى كيانه ، وسرّح طرفه فى ألوان الطبيعة المتلألئة أمامه ، فرأى جمالا لا يطيف مثله بخيال الشعراء ، وتعاون الأمل الجديد المنبثق فى نفسه مع حسن المناظر المتجلية له على تهيئة جو حوله من السعادة لم يعرف مثله حتى أيام تتويجه السعيدة .

وجاء الليل بخواطره السود ، وأقض مضجع كسرى التفكير فى أولئك الثوار الذين أزعجوه وشردوه ، وجعل يتخير لتعذيبهم أبشع الوسائل ، ويفتر ثغره عن بسمات رهيبة وهو يفكر فيما يفكر فيه . ولم تحدث له فكرة استرداد سلطانه بعض النعيم الذى أحدثه شعوره بقرب إشباع شهوة انتقامه .

ولم يضيع موريق هنيهة من الوقت عبثاً . وأشرف بنفسه على الاستعداد لغزو البلاد التى طالما حلم بضمها إلى أملاكه . ولكن كسرى القلق المتبرم

كان يستبطىء ذلك الاستعداد متهماً الروم بعدم المبالاة بأمر تلك الحملة التى تورطوا فى تجريدها لمجرد مرضاته . وبعد انتظار مضن مشحون بلواعج الضجر والسأم تم له ما أراد . وسار ملك الفرس على رأس جيش أعدائه ليفتك بجيشه و يرغم أنف رعيته .

توغلت كتائب الروم فى أراضى الجارة المخوفة ، ولولا قيام الشاه على رأس الغزاة لقهرهم الجزع قبل أن يقهرهم أعداؤهم . ومر يوم بعد يوم دون أن يظهر للخصم المرتقب أثر . وعاود الشاه المتعطش لسفك الدماء ضيقه وتململه ، وزاده هذا الضيق والتململ حرصاً على التشفى والأخذ بالثأر . وفى عشية أحد الأيام جاء المستطلعون الروم بنبأ وضع حدًّا لذلك الانتظار الممل . قالوا : إن جنود الفرس يرابطون على شاطىء نهر الزاب القريب .

طاف ترسيس قائد الروم فى صحبة الشاه بفصائل جيشه متفقداً مبلغ أهبتها للالتحام بالعدو . ولم يغب عن الجند أن سيد الفرس كان أكثر لهفة على قهر بلاده من قائدهم . وخيم الليل وسجا ، واعتل نسيمه ، وانتثرت نجومه ، وأتاحت الطبيعة للقوم نعمة الاستمتاع بسحرها . ولكنهم انصرفوا عن هذا النعيم إلى التفكير فى نار الجحيم التى سوف يصلونها فى الصباح التالى . وانقضت ليلة رهيبة اختلجت فيها القلوب ، واضطربت الأعصاب ، وبات الجميع يذكرون الموت الذى يترصدهم إلا كسرى الذى لم يكن يفكر إلا فى استرداد عرشه ، وفى الانتقام من أعدائه .

وما كاد فجر اليوم التالى يرسل أشعته الأولى حتى مشى كل من الجيشين إلى الآخر فى حذر وتهيب . ولم تلبث الواقعة أن وقعت ، والتحم الفريقان فى قتال بذل أحدهما فيه دماءه ليحتفظ بهرام بعرش الأكاسرة ، وبذلها الآخر ليشبع موريق مطامعه ويوسع رقعة ملكه . ولولا وصول الشاه سالماً إلى بلاد الروم واستعانته بعاهلها لما أُريقت تلك الدماء ، ولا بذلت تلك الأرواح .

ولم يشترك كسرى أنو شروان فى المعمعة ، ولم يُزج الصفوف تحت الدِّرَفْس كما ظهر فى نقوش أنطاكية ، ولكنه وقف مع عميه على ربوة عالية يرقب المعركة التى كانت تدور على آخر مرمى بصره ، ويغتلى غيظاً لقصور نظره عن تمييز ما يعتورها من كرّ وفرّ . وكان يزعجه بين حين وحين صهيل الجياد الثلاثة التى أُعدت لهربه مرة أخرى إذا دعت إلى ذلك حاجة .

وجرى لبهرام أثناء المعركة ما جرى لكسرى فى قاعة عرشه أثناء الثورة ، إذ خشى أنصاره انتقام الشاه فى حالة اندحارهم . وفكر كل منهم فى أن يسبق غيره إلى الاستسلام والاستغفار عما سلف . ولم يلبثوا أن تباروا فى هذا المضمار ، وطفقت جماعة من الزعماء تلقى سلاحها بعد جماعة ، وسعوا إلى الأسر صاغرين. ثم توسلوا إلى نرسيس قائد الروم أن يقودهم إلى الشاه ليقدموا إليه فروض الطاعة . وعندما هلّ عليهم المليك الذى ثاروا عليه سجدوا له والتمسوا المغفرة . وتفقد كسرى بينهم الثائر بهرام ، فلما لم يجده وعلم أنه ولى الأدبار ، وعد أن يغفر لمن يأتيه برأسه .

وجرى الذين عاونوا بهرام على الثورة فى كل اتجاه ، باحثين عن زعيمهم المنكود . ومنّى كل منهم نفسه بأن يتمكن من قتله ليعود إلى الشاه المنتصر برأسه ويفوز برضاه . ولم يلبث بعض المحظوظين منهم أن فازوا بما أملوه ، وعادوا بالرأس المقطوع تقطر منه الدماء ، وقدموه وهم يصيحون صيحات الطرب إلى العاهل الغاضب . وما افتر لهم ثغره عن ابتسامة الرضا حتى سجدوا له وتمسحوا فى التراب .

وتبدلت حظوظ سراة فارس ، واختلفت أقدارهم ؛ فحظى بالعطف السامى كل من أصابته نقمة فى العهد الغابر ، كما أصاب التنكيل كل من نعم برضا بهرام . وأُخرج وزير كسرى القديم من غيابة السجن واقتيد إلى قصر سيده وقد أعشى عينيه ضوء الصباح . وجرت الأمور من جديد فى مجراها القديم . ولم يتغير إلا قلب كسرى الذى زادته ثورة الثوار ثم العصف بقادتها عنتاً وخبث طوية ، وإلا مجلسه فى قاعة العرش إذ احتل نرسيس قائد الروم المقعد القائم إلى يمين كرسى الملك .

ولم يهتم أحد بهذا التغير الأخير الطفيف إلا الوزير المسن ؛ فقد كره القائد الرومى من صميم قلبه ، وازداد له على توالى الزمن كرهاً ؛ لأن ذلك الأجنبى لم يجلس إلى جانب كسرى صورة كما كان يجلس عم هذا الأخير من قبل ، بل كان يتدخل فى كل حديث يجرى بين العاهل وبين كبار رجال حاشيته أو كبار حكام الدولة . وكان يبدى رأيه فى كل شأن من شؤون الحكم ، ويصر على أن يحمل رأيه دائماً على أنه أمر واجب الطاعة .

لم يطق الوزير الصبر على هذه الحال . وفاتح كسرى فى أمر هذا الدخيل

المتهجم على سيادة الدولة ، وعلى حق صاحب الأمر والنهى . ولكن صاحب الأمر والنهى كان مشغول البال عن مثل هذه الترهات بتوزيع رضاه وسخطه بين عباده وفق أهوائه المتضاربة . وطال الزمن وقائد الروم ما يزال سادكاً بمقعده إلى يمين الشاه ، وجيش الروم ما يزال مرابطاً بمعسكره إلى جانب قاعدة الملك .

وجرؤ الوزير على سيده ونبهه مرة أخرى إلى ما فى بقاء تلك الحال على ما هى عليه من مساس بعزة الدولة وكرامة العرش ، وأشار عليه بأن يكتب إلى إمبراطور الروم مطالباً بأن يستدعى هذا الأخير قائده نرسيس ، ويسحب جيوشه التى فرغت من المهمة التى كلفت بها . وما طرقت أذن كسرى عبارة سحب الجيش الرومى حتى ثارت ثائرته ، واشتد حنقه على وزيره ، ورماه بالحمق وأفن الرأى .

وعوّل الشيخ المحنك على أن يحقق غايته بحسن السياسة ، فصبر على مضض متحيناً الفرص . واستطاع بما جبل عليه من دهاء ، وما اكتسب طوال إقامته فى قصر سادته من طول باع فى الحيلة والمكر والخداع أن يوغر على مر الزمن صدر كسرى على القائد الذى أعاد إليه ملكه ، وأن يحمله على الكتابة إلى موريق فى أمر مسلكه النابى . وأملى الشاه على وزيره شكواه إلى الامبراطور ، واقتصر على المطالبة باراحته من ذلك الممتن عليه . فلما أعاد الوزير الكرة وأشار عليه بأن يطالب كذلك بجلاء جيش الاحتلال عن بلاده ، غضب كسرى من جديد ، ورماه بخيانة عهده وعدم مبالاته بسلامته وسلامة عرشه من طمع الطامعين فيه ، وتحمس فختم رسالته بأن ذكر لموريق أنه اتخذ الجيش الرومى الذى وطد له ملكه حرساً له .

وحقق له صديقه الطامع فيه رغبته . وأرسل القائد جرمانوس ليحل محل نرسيس ، وقال فى رسالة أنفذها إليه إن المحافظة على حياته الغالية التى هى أثمن شئ فى الوجود لا تقوّم بعوض ، وهو لذلك لا يقتضى منه ثمنها كاملا ، ولكنه يكتفى باقتطاع البلاد الفارسية الواقعة بين التخوم الشرقية لدولته وبين نهر الرس ، ويضمها إلى أملاكه . ولم يجد كسرى فى طلب نصيره أى ضير . فما هى قيمة البلاد والعباد إذا قيست بسلامة رأسه الغالية ! وقبل أن يجيب الطلب المتواضع كان جيش موريق قد غمر تلك المقاطعات السحيقة ونفذ رغبة سيده دون انتظار موافقة من صاحب الشأن عليها .

وصبر سراة الفرس مرغمين على تلك المعرة التى لطخت بلادهم ، وسكتوا على رضا صاحب العرش بالضيم وصبره عليه . ولم يشذ إلا الوزير الذى اعتاد أن يرى سادته أقوياء الشكيمة شمّ الأنوف . وصارح مليكه بأنه يفضل غيابة السجن على وضح النهار الذى تجرى فيه هذه الخطوب . وتناسى كسرى أياديه عليه ، وأخذه بقوله ، وأعاده إلى الغرفة المظلمة التى اختارها له بهرام فيما مضى .

ولم يكن جرمانوس أقل جوراً على سلطة الشاه من سلفه نرسيس ، ولكنه كان أكثر منه توخياً للكياسة واللباقة فى تحقيق مراميه . وجرت الأمور فى هوادة على منوال واحد ، ولم يعكر صفو كسرى معكر وهو يغترف وسعه من متع حياته المترفة وملذاتها ، حتى ترامت إليه أنباء مثيرة عن أحداث جسام خطيرة العواقب حدثت فى بلاد الروم ، إذ وقع موريق فى محنة أشبه بالمحنة التى وقع هو فيها من قبل ؛ فقد شق عليه فوكاس عصا الطاعة ، وألب عليه شعبه ، واندفع على رأس جحفل جرّار من الثوار صوب بيزنطة ليثل عرشه .

دار الفلك دورته ، وأخذ نجم موريق يأفل على حين أخذ نجم كسرى يتألق من جديد . ونفض هذا الأخير عن نفسه الذلة والمسكنة ، وعصفت فى نفسه عواصف العزة المكبوتة إذ شعر بأنه يستطيع اليوم أن يرد مثل اليد التى أسديت إليه ، وأن ينقذ منقذه ويحمى من حماه . ونشط إلى إعداد جيشه ، وجهز منه العدد العديد والعدة الوفيرة . واعتدل فى هذه المرة على ظهر جواده ، وسار على رأس جيشه الجرار ميمماً شطر جارته الثائرة . وكان كل جندى من جنوده يتحرق لهفة على الانتقام من الروم وغسل الإهانة التى لحقت بلاده منهم بالدم المراق . وعب عباب ذلك الجيش وسال على بطاح أرمينية فغمرها . وشد ما اختلفت حاله اليوم عن حاله بالأمس حين انحسر عن بلاده أمام جيش نرسيس كاليم وقت جزره ، أما اليوم فهو يطم ويربى على البطاح كاليم إبان مده . ودلت الأنباء المتواترة على خطورة الحالة فى بيزنطة حيث وصل الثائر فوكاس إليها ، وضيق الحصار على الإمبراطور وأسرته وهم قابعون فى قصرهم . وبينما كان كسرى يستعد لاقتحام آسيا الصغرى إذ وصل إلى سمعه النبأ الفاجع ، وهو مقتل موريق وأولاده فى قصرهم الإمبراطورى .

ونبتت فى ذهن الشاه من جديد تلك الفكرة التى خلبت فيما مضى لبه ، وهى ضم الإمبراطورية الرومانية الشرقية إلى أملاكه . ولكنها لم تكن فى هذه المرة

وهماً يتوهمه حين يشطح به الخيال ، بل كان تحقيقها فى متناول يده ، لا سيما بعد أن اغتيل موريق ، وشاعت الفوضى فى أرجاء تلك البلاد ، وتخاذل حماتها أمام قواته الزاحفة كما تخاذل الفرس من قبل أمام قوات نرسيس . وقسم جيشه قسمين ، وجّه أحدهما إلى بيزنطة والثانى إلى الشام .

وبينما هو ينتظر تسليم مدينة أنطاكية بعد أن طال حصاره لها إذ جاءه جرمانوس يبشره بأن هرقل والى ليبيا الذى زحف بجيش عرمرم إلى القسطنطينية بأمل إنقاذ الامبراطور ، اشتبك بجيش الثوار ودحرهم ، وتمكن من دخول بيزنطة والانتقام لمليكه بقتل فوكاس وأشياعه . وظن جرمانوس أن كسرى سيغتبط بهذا النبأ الذى سيكفيه مؤونة مواصلة القتال ، ويتيح له العودة إلى بلاده لاستئناف حياة المرح واللهو الماضية . ولكن الشاه الذى لم يشبع من إراقة الدماء صارحه بعزمه على مواصلة القتال متذرعاً بأنه يريد أن يتحقق بنفسه من أنه لم ينج أحد من المعتدين على صديقه الراحل من القصاص .

تولى خوريام قيادة شطر الجيش الفارسى المتجه شرقاً . وما آنس من خصمه الضعف حتى انطلق بجنده فى أعقابه من غير هوادة ، يدك حصونه ، ويتلف عدته ، ويشتت شمله ، ويلاحق فلوله . ولم يزل به حتى أوهن عزمه ، وقلقل البقية الباقية من نخوته وشجاعته ، ولم يجد بعد ذلك مشقة فى القضاء عليه قضاء مبرماً . وسقطت دمشق وقيصرية فى يده كما تسقط الثمار اليانعة ، وواصل زحفه حتى وصل إلى بيت المقدس فضرب حوله الحصار .

ولم يجهل الفرس مناعة أسوار تلك المدينة ، ووطّنوا النفس على احتمال طول الحصار . ولكن الحظ الذى واتاهم منذ ابتداء حملتهم لازمهم كعادته حتى النهاية . فثار جماعة من المضطهدين فى المدينة على حكومتها . وتناحر أصحاب الملل والعقائد المختلفة . وهب اليهود فى وجه المسيحيين مطالبين بدم شهدائهم الذين نكل بهم هؤلاء . وشاعت الفوضى فى البلد المحاصر ، واختل فيه الأمن ، وعمه النهب والسلب ، فنفدت المؤونة قبل الأوان . وتمكن الساخطون الثائرون من فتح أبواب الأسوار المنيعة ، فتدفق منها جحفل الفرس كالسيل الجارف .

ولم يوطد الغزاة النظام بل زادوه اختلالا . وأخلى لهم اللصوص الميدان ، فحلوا محلهم ، وأتوا على البقية الباقية من مال أهل المدينة ومتاعهم . ثم أعملوا

السيف والنار ، فقتلوا من صادفهم من السابلة ، وأحرقوا الدور . وزادهم توقد النار وتدفق الدم جنوناً ، فلم يتورعوا حتى عن قتل النساء والأطفال ، وعن إحراق الكنائس والمعابد . وأعدت بذلك مدينة بيت المقدس أفخم إعداد لاستقبال الشاهنشاه المنتصر .

لزم فتى من طلبة العلم نافذة غرفته الحقيرة القائمة على دار متوارية فى أحد الأزقة ، وأخذ يرقب فى هلع واضطراب ما يحدث فى الطرق المكشوفة له . وكانت عيناه تشخصان وتتسع حدقتاهما كلما تتبع حادثاً من الحوادث الرهيبة التى لم تكف عن الوقوع على مرأى منه ، ثم تدوران فى أثر مشهد آخر لا يقل رهبة عن سابقه . رأى المذبحة منذ بدء نشوبها حين جرت الجماهير فى الطرقات وهى تصيح صيحات وحشية : « دخل العدو المدينة . . . العدو فى أثرنا » . ثم سمع الصراخ والعويل والأنين يتصاعد و يمتزج فيؤلف نغماً مؤلماً أشبه بموسيقى الجنازة . ولم تلبث شوارعُ المدينة أن أقفرت إلا من جثث القتلى والجرحى الملقاة فى عرضها . وما هى إلا هنيهات أخرى حتى ظهر الفرس الذين كانوا يطاردون ضحاياهم ، و يرشقونهم بالنبال . وكثر جريهم يمنة ويسرة ، واقتحامهم الحوانيت ، وملء أيديهم مما وقع تحتها من خيرات . وحاول بعضهم دخول المنازل فأخذ يدق أبوابها دقًّا عنيفاً ثم يبذل جهده فى سبيل خلعها . ولكن القوم المحتمين فى عقر دورهم بذلوا هم كذلك قصارى جهدهم ليدفعوا عنهم غائلة أولئك المعتدين . فوضعوا كافة ما يمتلكون من أثاث وراء تلك الأبواب ، وقابلوا دفعها من الخارج بدفع مثله من الداخل . واستماتوا فى الدفاع عن مساكنهم لأنهم لم يجهلوا المصير الذى كان ينتظرهم فى حالة انخذالهم .

وما نشر المساء إهابه الأسود على المدينة حتى وقعت الطامة الكبرى . فقد طاف حملة المشاعل من جنود العدو بالأبواب الموصدة وأضرموا فيها النار . وهب نسيم السحر العليل فأجج اللهب المشتعل ، وارتفعت الألسنة الحمر متوهجة . وشاهد طالب العلم المروع على ضوئها تفتح الأبواب الموصدة ، وتدفق المناكيد منها ، ووقوف الفرس لهم بالمرصاد ، وانهيالهم عليهم طعناً وضرباً . وسمع ولولة النساء وهن يجرّرن ممزقات الثياب ، مطوقات بالأذرع المفتولة العضلات ، وعبثاً كن يحاولن منها الانفكاك . وكثيراً ما لمح الفتى المروع أناساً يجرون صارخين وقد شبت النار فيهم ، وزادها جريهم تأججاً .

كان المسكين يحس كأنه يلفظ روحه كلما شاهد روحاً تلفظ ، وكأن جلده يحترق كلما أبصر النار تمسك باطراف محترق . كان يموت ويحيا فى كل طرفة عين ، ويعلم علم اليقين أن مصير هؤلاء ينتظره بين لحظة وأخرى . وكثيراً ما أيقن أن تلك اللحظة الأخيرة حانت فعلا . فقد كان يطرق أذنيه وقع أقدام تصعد فى السلم حتى السطح ، فيغمض عينيه ، ويحبس أنفاسه ويستسلم للموت الوشك على افتراسه . ولكن الأقدام الصاعدة فى السلم كانت تعود أدراجها ، وكان يسمع وقعها أثناء نزولها وهو يتنفس الصعداء .

ولم يطق البقاء على هذه الحال المفزعة . فقد كان على يقين من أن العدو سيصل إلى غرفته لا محالة ، وسيظفر به ويقضى عليه دون أن تتاح له فرصة للهرب . فاذا عوّق العدو فى مجيئه فستلتهمه النار التى كانت تقترب من داره شيئاً فشيئاً . ولم يزل فى هذا الاضطراب والعذاب حتى زاغ بصره ، وخيل إليه أن الغرفة تضيق به ، وأن حوائطها يقترب بعضها من بعض ، فصرخ من هول ماهو فيها ، ووثب صوب السلم ، ونزل درجاته قفزاً ، وخرج من الدار لاهثاً . وما وصل إلى الطريق حتى سرت فى بدنه رعدة جديدة من الخوف . فقد ذكر ما شاهده وهو يطل من نافذته على شوارع المدينة . فتوارى مسرعاً فى الأزقة المظلمة ، مبتعداً على قدر إمكانه من الأحياء التى شبت فيها النار .

وقادته ساقاه المرتجفتان اللتان كانتا تخوران وتلتويان تحته إلى غرب المدينة . ووجد نفسه فجأة إلى جانب سورها الكبير . ورأى وهو يحسب ما يراه وهما ، أشباحاً تنسل من فجوة فى السور أحدثتها أحجار مجانيق الفرس قبيل سقوط المدينة . واستطاع حين ثاب إلى رشده أن يدرك أنه يرى أناساً أسعفهم الحظ مثله ، وقادهم كما قاده إلى طريق النجاة .

ألفت المحنة بين أولئك المهاجرين الذين انضم إليهم الفتى طالب العلم . وعطف بعضهم على بعض ، وساعد قويهم الضعيف وهم يقطعون الفاوز والسهوب متخبطين فى جنح الظلام ، متلهفين على الوصول إلى ساحل بحر الروم . وأشرق الصباح ، ثم توسطت الشمس عرض السماء ، وهؤلاء المنكودون يغذون فى السير دون توقف . واقتسموا فيما بينهم الزاد الذى استطاع أقوياء الأعصاب منهم أن يفكروا وقت هربهم فى حمله معهم .

واصلوا السير يوماً آخر ، وهانت عليهم مشقة السفر فى وهج الظهيرة كما

هان عليهم سرى الليل ؛ لأنهم كانوا يشعرون بعد كل خطوة يخطونها أنهم صاروا أكثر بعداً من الهول الذى خلفوه وراءهم . وفى صباح اليوم الثالث هبت عليهم نسمات البحر فأنعشت أجسامهم الخائرة القوى . ثم انبسط أمامهم الأزرق الرجراج الممتد إلى غير حد . فهبت عليهم نسائم الحرية والحياة الآمنة الرغدة .

استقلوا سفينة سارت بهم فى طريق الاسكندرية ، وحدثهم الربان وهم فى عرض البحر عن ذلك الثغر التاريخى الذى ثبت لأشد الغزاة خطراً ، وردت أسواره الضخمة أعنف هجماتهم . ورشفت أذن الفتى طالب العلم هذا الحديث العذب وارتوت منه نفسه . وأخذ يحلم بيوم الوصول إلى ذلك الثغر المنيع ، غير عابئ بالبحر الذى زاد اضطرابه حتى أقلق بال جميع الركاب . وألقت السفينة مراسيها بعد أيام على شاطئ السلام والأمان . وتفتح للفتى مجال اغتراف العلم من مناهله الأصيلة ، وبدد بعد الشقة بينه وبين بيت المقدس كل أثر للوهم والجزع اللذين طالما انتاباه . وتوطدت طمأنينته توطد أسوار الثغر الضخمة . ومرت الأيام حتى كاد مرورها ينسى الفتى الأهوال التى وقعت تحت بصره فى البلد المنكود الذى خلفه وراءه .

ولكن سوء الطالع أبى إلا أن يلاحق الفتى حتى بعد اعتصامه بنجعته النائية الحصينة . فوصل إلى علمه فى يوم نحس نبأ تناقلته الألسن عن اقتحام الفرس مدينة بلوز القائمة على حدود مصر الشرقية ، وانحدارهم مع فرع دمياط إلى مدينة منف . ثم توالت الشائعات عن دورانهم حول رأس الدلتا ، وصعودهم مع فرع رشيد إلى الأسكندرية . ولم تفزع هذه الأنباء الفتى فحسب ، بل كذلك ملأت قلبه يأساً ؛ فقد أيقن أن حتفه يلاحقه ، وأن أسوار الأسكندرية لن تحول بينه وبينه ، بل إنه لا بد لاق هذا الحتف على يد الفرس ولو اعتصم بكبد السماء .

وخرج يوماً من داره فرأى الناس صفر الوجوه مرتعدى الفرائص . وسأل عما حدث فعلم أن حراس أسوار المدينة شاهدوا عن بعد طلائع الجيش الفارسى زاحفة صوبهم . وبعد ساعات مليئة بالجزع والخور سمع أهل الاسكندرية همهمة الغزاة متصاعدة من وراء الأسوار ، وشاهدوا جنود الدفاع تعتصم بأماكنها المنيعة فى فجوات الحصون والقلاع .

وأعادت تلك الهمهمة المتصاعدة من وراء الأسوار إلى ذهن الفتى ذكرى

المذبحة الرهيبة التى توشك أن تقع من جديد ، وظهرت له صورها قوية واضحة حتى لكأنها تتكرر أمامه ثانية . فانتفض كما كان ينتفض أمام نافذته فى ذلك اليوم المشئوم . وحمل رأسه بين يديه ، وجرى فى الطرقات كالمخبول ، وصاح فى الناس يحذرهم بطش الفرس ، ويستنزل اللعنة على كل من تحدثه نفسه بخيانة المدينة وخذلان الدافعين عنها . ولولا الكرب الذى ملأ كل قلب لشبع سامعوه فى ذلك اليوم سخرية منه ومفاكهة .

وشغل نفسه بالطواف المستمر بالأحياء المجاورة للأسوار ، يراقب قطانها . ويتجسس أخبارهم خشية أن يكون بعضهم قد بيت النية على فتح أبواب المدينة لحاصريها كما فعل الخونة فى بيت المقدس . وكان كلما حدث الناس عن وساوسه ، وقص عليهم نكبة بلده القديم أجابوه بأن أهل الأسكندرية يضعون مصلحة ثغرهم فوق كل خلاف خاص بنحلهم ومذاهبهم ، وأن كل واحد منهم أيا كانت عقيدته يؤثر الموت على أن تطأ قدم الغازى أرض وطنه .

ولم يهدأ الفتى ولم يطمئن باله ، ولم يكف عن الطواف طوال النهار بالأحياء التى اشتبه فى أمرها ، وعن التقلقل أثناء الليل فى فراشه ، والتقلب فيه كل هنيهة على جنبيه . وكثيراً ما كانت أعصابه المضطربة تصور له وهو على تلك الحال من التقلقل والتقلب أن الفرس تمكنوا من دخول المدينة ، وأن حملة المشاعل يضرمون النار فى المتاجر والمنازل . فكان يحس ما أحسه فى غرفته القديمة من خوف ويوقن أن بقاءه محصوراً بين الجدران الأربعة سينتهى به إلى الوقوع فى قبضة السفاحين أو فى لهب النيران دون أن تتاح له فرصة للهرب . وكان يقفز من فراشه كلما انتابته هذه الوساوس ، ويدخل ملابسه فى مثل خطف البرق ، ويهفو إلى خارج الدار ليعود إلى طواف المراقبة والتجسس .

وبينما كان يجول ذات ليلة مثل هذه الجولات المسائية على أثر وقوعه فريسة لأوهامه ، قادته قدماه إلى شاطئ البحر ، واستهواه لألاء القمر المائج فوق سطح الماء ، فجلس على الرمال يرقب المنظر الساحر الذى خفف عنه عبء الوهم الجاثم على صدره ، ورأى القمر يغيب فى أحضان اليم ، ولاحظ اكفهرار الأفق وتجهمه بعد غيابه . ولم يطل أمد ذلك الاكفهرار والتجهم ، ونسيت البسيطة قمرها الراحل ، وأخذ الأفق الشرقى يتورد استعداداً لاستقبال الشمس المؤذنة بالطلوع . ولم يلبث الفتى أن غفل عن نفسه ووسواسها وهو يتأمل الطبيعة التى بدأت

تكشف النقاب عن قسمات حسنها الساحر . ورأى فيما رأى خطاً قاتماً يرين على الأفق البعيد ، حيث يلتقى الماء بحافة السماء ، وحسبه بادئ الأمر سحابة تساقطت على صفحة اليم وتراكمت هناك . ولكنه لاحظ بعد قليل أن ذلك الخط يقترب من الشاطئ ، وسرعان ما ازداد ضوء الفجر سطوعاً ، وصرخ الفتى صرخة مدوية إذ تبين حقيقة ما رأى . وحاول الهرب من الشاطئ فخانته قدماه ، وسقط على الرمال فاقد الوعى . وفتح عينيه بعد قليل فوجد نفسه محاطاً بأناس أقبلوا على صراخه . وطن فى أذنه لغطهم وتساؤلهم عما به . ودارت عيناه إلى البحر . وأيقن فى هذه المرة أن ما رآه لم يكن وهماً . فالبحر ملئ بآلاف المراكب القادمة إلى الشاطئ ، وسرت فى جسمه رعدة اصطكت لها أسنانه . وخرج من حلقه المرتعد صوت أشبه بصوت وحش مذعور ، وأشار بيده إلى ناحية البحر ، واستطاع الملتفون حوله أن يميزوا من قوله كلمة « الفرس . . . الفرس » . وقهقه بعضهم ضاحكين لدى سماع هذه الكلمة ، وأقبل بعضهم الآخر عليه مشفقاً . وقال له رجل منهم وخط الشيب لحيته : « ليس هؤلاء القادمون إلى الشاطئ فرساً . ولكنهم صادة الأسماك ، يقضون ليلهم فى رمى الشباك . ويعودون بصيدهم عند طلوع الفجر . »

ولم يهدأ روعه إلا عندما نزل الصيادون المصريون الشاطىء واستوثق بسمعه وأذنيه من حقيقة أمرهم . وسار إلى داره مضعضع الحواس . ودخل غرفته وارتمى على فراشه منهوك القوى . وظل باله مشغولا بذلك الخط الذى اكتمل به الأفق فى الصباح . وإذا به يستوى جالساً على حين فجأة فى فراشه ، وإذا وجهه يمتقع ، وأطرافه تبرد وترتعد ؛ فقد خطر له خاطر رج كيانه رجا : خطر له أن الفرس قد يلجأون إلى الحيلة ، فيرتدى بعض جنودهم ملابس صادة الأسماك . وينزلون الشاطىء دون أن يستلفتوا الأنظار ، ويقصدون إلى الأبواب فيقتلون حراسها ويفتحونها على مصاريعها ، ويتدفق جيشهم منها إلى المدينة ، وتتكرر مأساة بيت المقدس .

ظل ينتفض فى فراشه ، وجحظت عيناه من شدة الرعب . ولكن خاطراً جديداً خطر له كالتماع البرق ، فهدأ فجأة ، وانبسطت أساريره ، وقرت عيناه . وشعر بعد الاضطراب المضنى بهدوء عجيب . خطر له أن ينسل تحت جنح الظلام إلى معسكر العدو ، ويقابل كسرى فيبسط له تلك الحيلة التى

تيسر له مهمته ، وتمكنه من فتح المدينة التى استعصت على جبابرة الفاتحين .

وبعد يومين نزل الفرس شاطىء الأسكندرية فجراً فى ثياب الصيادين المصريين وفتحوا أبواب الأسوار . وأخذ الجيش المصرى على غرة ، فانهزم أمام الخدعة غير المتوقعة ، بعد أن عزت على أعدائه هزيمته عنوة .

وظل الفتى فى معسكر العدو خارج المدينة لا يجرؤ على دخولها . ولم يذق طعم الهدوء والاطمئنان كما توقع ؛ لأنه شعر بأنه يشارك كسرى هذه المرة فى تحمل وزر المذبحة التى أقامها الفرس هذه المرة على شاطىء عروس بحر الروم .

وصل جيش الشام فى مده إلى آخر المطاف . ولو تبصر كسرى وفطن إلى أن صرح المجد الذى يبنى على العدوان لا يلبث أن ينهار ، لاستطاع أن يرى ما يخبئه الغيب ، وأن يعلم أن أوان الجزر قد آن ، وأن جيشه سيجلو عن الأصقاع التى احتلها ، وينهزم أمام الأمم التى هزمها ، وسيتقلص سلطانه ، وسينكمش حتى يقبع فى دياره من جديد .

محمد مفيد الشوباشى

CONDORCET

ALEXANDRE KOYRE

كوندرسيه[1]

وعمل كوندرسيه السياسي يتفق تماماً والمبادئ الفلسفية التي رأينا تفصيلها في كتابه « الوجيز » . ولم يكن تفكير كوندرسيه في تلك المبادئ واعتناقه لها في آخر حياته ، وإنما قد أحس منذ بدء حياته الفكرية بحب لا يقهر للعدالة[2] وآمن منذ أمد طويل ، وخاصة منذ معرفته لترجو Turgot ، بالنور والتقدم وبقابلية النوع الانساني لتحسن دائم ، وبواجبنا في استحثاثات ذلك التقدم ، وهو واجب يمنحنا من ناحية أخرى أعظم ما نشتهي من رضا .

ولهذا نشر في سنة ١٧٧٣ بامضاء مستعار « خطاب من أحد رجال الدين إلى مؤلف قاموس القرون الثلاثة » دفاعاً عن الفلسفة والتسامح وحرية الضمير ضد الاضطهاد والتعصب ، كما نشر في عام ١٧٨١ تحت اسم الدكتور شوارتز « آراء عن استعباد السود »[3] ومقطوعات عن « حالة البروتستانت في فرنسا » وفيها يدافع عن حرية المعتقدات .

---

(١) الكاتب المصري عدد ١٨ (مارس ١٩٤٧) .

(٢) أنظر : *«Un ermite de la forêt de Sénart»*, dimanche 22 juin 1777 dans le *Journal de Paris* No. 173.

« سئل ديموستين : ما أول مزايا الخطيب ؟ فقال : العمل . فقيل له : وما ثاني مزاياه ؟ فقال العمل — وما ثالثها فقال : العمل . وأنا كذلك أجيب ، لو سئلت : ما أول القواعد السياسية ؟ هو العدل . وما ثانيها ؟ العدل . وما ثالثها ؟ هو العدل أيضاً . »

أنظر : Buisson, *Condorcet* . ص ٥٣ . إن كوندرسيه هو الذي أوحي إلى فولتير ذلك الاحتجاج الشهير على حادث تنيب الفارس دولابار . وفي عام ١٧٨٦ نشر آراءه في قضية معروفة حينذاك ، وبهذا أنقذ حياة ثلاثة فلاحين كان برلمان باريس قد حكم عليهم ظلماً بالتعذيب . وأول ما يأخذه كوندرسيه على مونتسكيو هو إهماله للعدالة .

(٣) في نيوشاتل سنة ١٧٨١ وفي باريس سنة ١٧٨٦ . الجزء السابع من مؤلفاته ص ٧٠ .

ولقد سار بالطبع من الرياضيات البحتة[1] أول الأمر ، إلى الاقتصاد السياسي[2] ثم إلى السياسة بعد ذلك . ونستطيع أن تقول إنه قد بقي رياضيا سواء في السياسة أو في الاقتصاد السياسي . ومنهجه عام ؛ فهو يضع القاعدة ويبين شروط تطبيقها ، ويستنتج النتائج المترتبة على ذلك ؛ أو هو بالعكس يحدد المشكلة ثم يبحث عن حل لها ينطبق مع القاعدة . ونستطيع أن نقول إن كوندرسيه قد عالج موضوع الدستور الواجب وضعه لفرنسا كما يعالج إحدى مسائل حساب التكامل.

والنظرية أو البديهية التي تسيطر على علم السياسة في رأى كوندرسيه ، والتي يجب أن تسيطر على عملنا وأن توجهه ، هي تعريف الانسان بأنه « كائن حساس قادر على القيام بتعليلات منطقية وعلى اكتساب أفكار أخلاقية » . فهو كتلميذ لفولتير[3] ولوك Locke يرى « أن الآراء عن الحق والعدالة والواجب ، والآراء عن الخير والشر، إنما تولد من تفكيرنا في أنفسنا وفي علائقنا بالآخرين. وليست هذه الآراء التي تحددها طبيعتنا ، آراء مبهمة ولا غامضة .وللحقائق التي موضوعها هذه الآراء نفس التأكيد ونفس الدقة التي للحقائق في كل العلوم النظرية. وإذا تعمقنا بعدئذ في قلوبنا فسنجد أن ما للعمل الطيب من جمال ، وما للعمل السيء من شناعة وما يتبعه من تأنيب الضمير ، إنما هو نتيجة ضرورية لتكويننا الخلقي . »[4] وبما أن التكوين الفكرى والخلقي للانسان هو واحد لدى جميع

---

(١) امتدح دالمبرت ولوجرانج كثيراً من مؤلفات كوندرسيه الرياضية وهي :
Essai sur le calcul intégral (1756), *Essai d'analyse* (1767-1768).

(٢) لم يكن الاقتصاد السياسي في رأى مؤلفي القرن الثامن عشر مقصورا على دراسة ، الحقائق الاقتصادية ، وإنما كان يشمل العلوم السياسية والاجتماعية برمتها . ولما كان كوندرسيه تلميذاً لتورجو فقد اعتنق مذهبه الذي يعتبر الأرض مصدر الثروة الوحيدة ، وحاول أن يطبق الرياضة على العلوم الاجتماعية . قارن :

Essai sur l'application de l'analyse à la probabilité des décisions rendues à la pluralité des voix (1875).

Tableau général de la science qui a pour objet l'application du calcul aux sciences politiques et sociales (publié par le *Journal de l'Instruction Sociale* en 1795).

(٣) إن ما يفسر أثر لوك Locke في القرن الثامن عشر هو — إلى حد ما — تصريح ڤولتير في خطاباته السياسية بأنه من أنصار لوك . وإنا لنرى أثر لوك في كتابات ڤولتير .

(٤) راجع أوراق كوندرسيه الخاصة (١٧٨٩) بمكتبة المعهد :
Papiers personnels de Condorcet (1789) Bibl. de l'Institut.
وراجع : F. Quinson, *Condorcet* p. 37 . .

أفراد النوع الانسانى ، فينتج عن هذا إذن مساواة أساسية بين الناس بصفتهم أناساً. ولكن هذه المساواة لا تنفى بالطبع كل اختلاف فيما بينهم ولا سيا الاختلافات الطبيعية والاجتماعية ؛ فليس الناس متساوين فى المواهب الطبيعية ولا فى نعم هذه الدنيا[١] ، ولكنها تتضمن أيضاً ملكية لا تفقد لنفس « الحقوق الطبيعية » التى لا يستطاع حرمان أىّ كان من التمتع بها دون ارتكاب الظلم .

وهكذا نراه منذ عام ١٧٨٧ على لسان « مواطن من الولايات المتحدة » ، يوضح للفرنسيين أنه إلى جانب الأمان والملكية ، توجد المساواة . « وليست المساواة أقل أهمية منهما فى كونها أحد الحقوق الطبيعية للانسان فالناس يولدون متساوين ، وقد أقيمت الجماعة لتمنع عدم المساواة القهرية — وهى الوحيدة التى تأتى من الطبيعة — من ارتكاب أى ظلم دون أن تنال العقاب عليه »[٢] ؛ وأعلن كوندرسيه فى عام ١٧٨٩ تحت اسم فيلولاوس أنه « لا وجود للقانون ، ولا وجود للسعادة الحقة إلا مع المساواة المطلقة بين كل المواطنين ».[٣]

وهذه « المساواة المطلقة » تتعارض بالطبع مع الفوارق الوراثية بين مختلف المواطنين ، وتتعارض مع وجود طبقة الأشراف بل مع الملكية . وهى تتطلب دستوراً ديمقراطيا وجمهوريا للدولة حيث إن حرية المواطنين والمساواة بينهم مشتقة من حقهم المتساوى فى العمل على إقامة قوانين تنظم الدولة . وهكذا يقول

---

(١) يرى كوندرسيه أن إلغاء الامتيازات الوراثية ونشر العلم سيخففان بالضرورة ، من عدم التساوى فى الثروة ، وذلك شرط لابد منه لقيام ديمقراطية حقة ، إذ أن هذه تتنافى مع الثروة العظيمة والفقر الشديد .

(٢) Lettre d'un citoyen des Etats-Unis à un Français sur les affaires présentes, *Œuvres* IX, p. 102, Buisson, p. 31.

لما كانت حقوق الناس الطبيعية بصفتهم بشراً هى واحدة بالنسبة للجميع فينتج عن ذلك أن القوانين الأساسية لكل الجماعات الانسانية يجب أن تكون واحدة . فما هو حسن بالقياس إلى رجل فرنسى هو حسن كذلك بالقياس إلى أمريكى أو إلى روسى . وظروف التطبيق هى وحدها التى تتغير بتغير الجو والأعمال . . . الخ ، ولكن المبادىء لا تتغير . وأما أولئك الذين يقولون بالفروق وفقاً للتاريخ والعادات والدين فهم فى الواقع حماة الأخطاء ومعارضو التقدم . ومن هنا يستنتج فلاسفة القرن الثامن عشر احتمال التشريع للجنس البشرى بأجمعه .

(٣) راجع : Première lettre d'un gentilhomme à M. du Tiers-Etat, *Œuvres* IX, p. 227, Buisson p. 32.

كوندرسيه حتى من قبل الثورة فى كتابه « حياة تورجو » : « الدستور الجمهورى هو خير الدساتير » .(١)

ويكاد هـذا أن يكون أمراً شائعـاً ؛ ففلاسفة القرن الثامن عشر — ماعدا فولتير — لم يتشككوا إلا نادراً فى إمكان الكمال فى الدستور الجمهورى(٢) . وأما ما تشككوا فيه فهو إمكان تحقيقه فى دولة كبيرة . ويبدو أن التاريخ ، قديمه وحديثه ، تاريخ روما وتاريخ انجلترا ، قد أيد الشك لديهم .

وأما كوندرسيه — ولم يكن فريداً فى ذلك كما نعلم — فيرى أن التجربة ، الأمريكيـة تثبت عكس ذلك ، حيث ظهر أن النظام الجمهـورى ، ولو فى صورة « فيدرالية » ، أمر ممكن فى دولة كبيرة .

وربما استطاع المرء أن يذهب إلى أبعد من ذلك . ولـكن الديمقراطيـة المباشرة أمر مستحيل أما إذا كان المقصود بكلمة « ديمقراطية » دستوراً ينتخب فيه المواطنون جميعاً نواباً مكلفين بتمثيلهم وبالتعبير عن إرادتهم أمام مجلس عام يمثل الأمة : أما إذا كان الأمر كذلك ، فمن السهل أن نرى أن مثل ذلك الدستور يلائم الدول الـكبرى ، و يمكننا أن نطبقه حتى على أوسع الامبراطوريات بتكوين عدة مجالس تمثيليـة . و بهذه الطريقة نهيئ لتلك الامبراطوريات كياناً لم تستطع إحداها أن تناله حتى الآن ونهيئ لها فى نفس الوقت وحدة فردية فى الاتجاه ، وحدة لا يمكن تحقيقها بوساطة الدساتير « الفيدرالية » .(٣)

وستقل الصعوبات التى تعترض إقامة نظام جمهورى لو اكتفى — بدلا من الجمهورية الديمقراطية — باقامة نظام جمهورى غير تام تماماً ، يكون فيه حق الانتخاب مقصوراً على الملاك من المواطنين . و إن فى هذا التضييق لمنافاة للحق

---

(١) راجع : Vie de Turgot, *Œuvres* V, p. 209. Notes sur Voltaire, *Œuvres* IV, p. 393.

وفيه يقول : « مامن أحد يقول أن الملكية خير من الجمهورية . اللهم إلا إذا كان الرجل من الرقيق . فنى الجمهورية يتمتع النـاس بقوانين حسنة أساسها حقوقهم الطبيعيـة وفى ذلك النظام يكون الناس فى حمى أى استبداد خارجى » .

(٢) وحتى مونتسكيو نفسه يرى أن الدستور الجمهورى خير الدساتير . ولـكنه للأسف قام على مبدأ الفضيلة السياسية ، أى على حب المواطن لبلده ، مما لا يمكن تطبيقه فى دولة كبيرة .

(٣) Notes sur Voltaire, *Œuvres* IV, p. 393. — Assemblées provinciales, *Œuvres* VIII, p. 127.

الطبيعي بمعناه الحرفي [١] . ولكن التجربة التاريخية تدلنا على أن طبقة العمال في المدن ، ولا سيما في المدن الكبرى ، هي التي كانت دائماً عماد الديكتاتورية والاستبداد . وهنا أيضاً نجد المثل في التجربة الأمريكية . ونرى كوندرسيه يعطي هذا التحذير للفرنسيين باسم بورجوازي من نيوهفن : « لو أعطيتم حق التصويت للمواطنين جميعاً فقراء وأغنياء ، فان نفوذ الأغنياء سيكون أظهر وأعظم في المجلس الناتج عن ذلك مما لو كان في مجلس أقل عدداً انتخب أعضاءه مواطنون من ذوي الثروات المتوسطة لا المعدمون » [٢] .

وإذن فقصر حق الانتخاب على الملاك بشرط أن يكون معدل الثروة منخفضاً انخفاضاً كافياً ، سيأتي في آخر الأمر بالفائدة لعديمي الملكية . ذلك لأن الطبقة المتوسطة ، لا الفقيرة جدا ولا الغنية جدا ، هي صاحبة المصلحة الكبرى في أن يسير الحكم في الدولة سيراً حسناً .

وضرورة الامتلاك ، والحذر من قتل الجمهور في المدائن . هي ملامح عامة نراها لدى كتاب ذلك العصر [٣] فليست هي بأي حال مما يميز أفكار كوندرسيه . وأما ما يميزه فهو تقديره ليوم ١٤ يوليه ، وهو القائل : « عندما استولى شعب باريس على الباستيل أثبت نضجه السياسي وحبه للحرية . وبذلك أصبحت الجمهورية احتمالا ملموساً بعد أن كانت مثلا أعلى بعيد التحقيق . وأصبح بعدئذ من المعقول أن

---

(١) Assemblées provinciales, *Œuvres* VIII, p. 127

«حق المواطن ، هو الحق الذي تهبه الطبيعة لكل رجل يسكن بلداً ما في أن يشارك في وضع القواعد التي يجب أن يخضع لها السكان . »

(٢) Lettres d'un bourgeois de New-Haven, *Œuvres* IX, p. 12

راجع أيضاً : L. Cahen, *Condorcet et la Révolution Française*, Paris, 19, p. 138.

(٣) الديمقراطية لدى چيفرسون La démocratie Jeffersonienne هي ديمقراطية ملاك . ويرى الفيزيوقراطيون (القائلون بأن الارض وحدها هي منبع الثروة) أن مالك الارض هو أساس البلد لأنه هو الذي يجعلها تعيش . وأما الفقراء والمحتاجون فهم لا يساهمون في حياة البلد . ثم إنهم مستعدون لبيع أصواتهم لمن يدفع فيها أغلى ثمن ، وذلك اعتبار لا يخلو من وجاهة . وبالاختصار ليس للرجل الذي يعتمد على آخر ليعيش الحرية الكافية ليمارس حق الانتخاب ، أي حق السيادة .

راجع : D. Mornet, *La préparation intellectuelle de la Révolution Française*, Paris 1933.

يعمـل المرء لإقامتهـا (١) بوضع دستور لفرنسا يكون ديمقراطيـا من أساسه » .

ولن نبسط هنا عمل كوندرسيه السياسي بالتفصيل ، ولا نصيبه فى حوادث الثورة ؛ إذ لو فعلناهذا لذهبنا بعيداً جدا . ويكفينا بضع كلمات وبضع وقائع نختارها بقدر ما تكشف لنا عن فكره .(٢)

لم يكن كوندرسيه عضواً فى الجمعية الوطنية — فقد كانت آراؤه تسبق بكثير آراء ناخبيه — ولم يقدر هو أعمالها ، وانتقد بشدة روحها المشوبة بالخوف والمضادة للديمقراطيـة (٣) ، وبطئها فى إعلان حقوق تصريح الانسان ، بل انتقد ذلك التصريح ذاته(٤) والدستور الذى وضعته لفرنسا ، ذلك الدستور الاقطاعى . ورغم ذلك فأمام الفوضى المتزايدة ، وأمام انحلال الدولة ، وأمام أعمال الرجعية التى كانت تعود إلى الظهور شيئاً فشيئاً ، قرر كوندرسيه أن يدافع عن الجمعية التأسيسية ، وأن يدعو الوطنيين للالتفاف حولها ؛ إذ لو فقدت ثقة الأمة لضاع كل شئ . ولن تستفيد الجمهورية من الفوضى — وليست فرنسا للأسف ناضجة للديمقراطية ، فهى ملـكية وليست جمهورية — و إنما سيعود الاستبداد . ولهذا نشر بالاتفاق مع سييس **Siéyès** ، قبـل هروب الملك عنـد فارين ، منشوراً عدد فيه ما تتعرض له الحرية من أخطار ، ثم دعا الوطنيين إلى أن يعلنوا خضوعهم — بمحض إرادتهم — للدستور الفرنسى . . .

---

(١) راجع : **L. Cahen, p. 138**

(٢) **L. Cahen, *Condorcet et la Révolution Française*. Allendy, *Condorcet, guide de la révolution*. H. Sée, Condorcet, ses idées et son rôle politique, *Revue de Synthèse Historique*, 1905.**

(٣) وأخذ عليها هو و **Siéyès** رغبتها فى منع النظر فى تغيير الدستور لمدة عشر سنوات وذلك خطأ لا يغتفر ، فليس لأحد أن يشرع للمستقبل .

(٤) ويرى كوندرسيه كما يرى صديقه جفرسون **Jefferson** أن إعلان حقوق الانسان أهم من الدستور نفسه فهو ليس مقـدمة له وإنما أساس له . ولذلك فهو يصر على صفـة العلنيـة لذلك الاعلان : فهو إعلان لحقائق واضحة ، يعمـل بها من ذاتها . وهو ليس بمرسوم أو قانون يعبر عن إرادة أحد ، وإنما هو تعبـير العقل عن نفسه . وعندما يؤكد ذلك الاعلان القول : « نرى من الواضح . . . » فانه يحدد ما يقول به العقل . وأولئك الذين لا يرون هذا الوضوح فانهم غير جديرين بأن يتمتعوا بالحقوق التى يقول بها ذلك الاعلان .

ولم ينجح المنشور ، إذ قوبل مقابلة سيئة من أحزاب اليمين ومن أحزاب اليسار . ومن جهة أخرى ، فقد قنب هروب الملك — وقد عرف فى باريس فى ٢١ يونيو سنة ١٧٩١ — الموقف رأساً على عقب ، وأمسى العرش خالياً وبقيت فرنسا قرابة شهر بلا ملك . وعد كوندرسيه ذلك فرصة نادرة للتخلص من الملك ولتحويل الأمر الواقع إلى أمر قانونى . فأعلن كوندرسيه[١] أن الملك قد فسخ العقد الذى كان يربطه بالأمة ، وقد حنث فى اليمين التى حلفها بالاخلاص للدستور . بل لقد ارتكب الخيانة بمحاولته مغادرة فرنسا والانضمام إلى أعدائها . وإذن فهو قد نزل عمليا عن العرش ، وقد أحل فرنسا من كل واجب حياله (وحيال الدستور الملكى) . ففرنسا حرة إذن فى اتخاذ نظام جمهورى ، أى نظام تكون فيه السلطة التنفيذية مسئولة أمام الأمة . وذلك أمر ممكن التنفيذ جدا . ألا يوجد أمامنا الدليل الواقعى على أنه من الممكن الاستغناء عن الملك — وذلك أن يتفق فى نفس الوقت « مع العقل ومع الكرامة الانسانية » ، على حين أن الوراثة وعدم مسئولية السلطة هى اعتداء على الشعب وعلى حقوقه ، وكل ما يقال للدفاع عن الملكية إنما هو أدلة خادعة ؛ « فيقال مثلا إن الدولة فى حاجة لملك ليحمينا من وجود طاغية ، ولكن الشعب الحر يعرف كيف يدافع عن نفسه . ومن ناحية أخرى ففرنسا واسعة جدا ، وإذن فليس هناك مايخيفنا من أن يتحول معبود العاصمة إلى طاغية فى الأمة » . أما عن تنظيم السلطات فليس علينا إلا أن نجعل الشعب ينتخب وزراءه ويجعلهم مسئولين أمام المجلس . وبهذا لا نخشى أن يجمع المجلس كل القوة فى يده ؛ كما يمكن ضمان الاستقرار وقوة السلطات بانتخاب الوزراء لمدة طويلة — عشر سنوات مثلا — مع تقرير عدم إقالتهم إلا كل سنتين (وكل مجلس ينتخب جديداً يعطى تصويتاً لكل وزير) وإذا لم نرد هذا النظام فبمقدورنا أن نجد غيره وليس ذلك يستعصى.[٢]

ومن المعروف أن فرنسا لم تصنع إلى نصائح كوندرسيه ، فقد كانت فرنسا ملكية وبقيت كذلك . وأعيد الملك إلى العرش فى شهر يوليه ، وكان ذلك خيبة أمل لكوندرسيه ودرساً له لن ينساه .

---

(١) راجع : **Avis aux Français sur la Royauté, N° 1 du *Républicain*, juillet 1791; Buisson p. 74.**

(٢) راجع : **F. Allendy; L. Cahen** (سبق ذكره) .

ولما انتخب كوندرسيه عام ١٧٩١ عضواً فى الجمعية التشريعية أعلن إخلاصه التام للدستور . وهو دستور غير كامل بلا شك . ولقد أخطأت الجمعية التشريعية باصدارها حكماً على المستقبل ، إذ منعت تعديل الدستور لمدة عشر سنوات. ولكن الأمة قد قبلته ، و إذن فهو القانون، وهو المعبر عن إرادتها العامة (١) وتجب له الطاعة ، وليس لأحد أن يرفض ذلك الواجب . ومن ناحية أخرى فليس الدستور شراً كله ، إذ هو يضمن حقوق المواطن ويسمح بالقيام بذلك العمل الضرورى الذى لا تقوم الديمقراطية بدونه، ألا وهو تنظيم التعليم العام . فبتأسيس المدارس وبتعليم الشعب نستطيع إذاعة النور وهدم الخرافات . و بهذا نعد الأرض لاقامة الجمهورية .

ومن المعروف أن مشكلة التعليم العام هى من أهم ما شغل أفكار رجال القرن الثامن عشر . فلقد آمن « الفلاسفة » بنعم التعليم وقوته . ويقول ديدرو « تعليم أمة هو تحضيرها . . . والجهل هو نصيب الرقيق والمتوحشين »(٢) « إنه لكفر منا أن نترك أحداً من إخواننا فريسة للجهل المفروض عليه » . هكذا يقول ميرابو إلى مارجراف دى باد وهو يبين له أن « التعليم العام هو أول وأهم الواجبات على الحاكم العادل » ، وأنه من مصلحة الدولة طبعاً نشر التعليم . ومن ناحية أخرى فان المساواة المدنية تتضمن تعليم الشعب . فهذا التعليم إذن واجب على الدولة وحق للمواطن ، بل إنه حق « لكل مخلوق إنسانى . . . فانه يحصل على حق التعليم عندما يمنح الحياة » . ولهذا يجب أن نفتح أبواب التعليم للجميع « لكل أبناء الدولة » كما يقول ديدرو ، لا للأغنياء فحسب .(٣)

و إذن فكوندرسيه لا يأتى هنا بجديد . فلم يكن الدور الذى قام به ، كما رأينا ، دور المبتكر لآراء جديدة ، و إنما دور من ينظم و يجمع ويبوب مذاهب عصره ، ثم يدفع بها إلى خاتمتها المنطقية . هو لا يأتى بجديد عندما يعلن فى مذكراته الخمس عن التعليم العام التى نشرها فى سنة ١٧٩٠ فى مكتبة « الرجل

---

(١) يؤمن كوندرسيه بهذا أشد الايمان . فليس لأحد الحق فى أن يثور ضد الأمة ، وإرادة الأمة ، حتى ولو كانت خطأ ، هى القانون . ولهذا فهو ينقد بمرارة حزب الجبل فى ثورته على المؤتمر الوطنى .

(٢) Diderot, Projet d'une université, *Œuvres* III, p. 429-30

(٣) راجع : L. Cahen p. 326 (سبق ذكره) .

العام »[١] وفى « تقرير ومشروع قانون عن التنظيم العام للتعليم العمومى مقدم إلى الجمعية الوطنية »[٢] عام ١٧٩٢ أن « التعليم العام واجب على الجماعة نحو المواطنين »[٣] « واجب تقتضيه العدالة وتفرضه المصلحة العامة للجماعة بل للانسانية بأكلها » ، وأن الغرض منه أن يهيئ لكل مواطن « المقدرة على تحسين صناعته ، والمقدرة على القيام بالوظائف العامة التى من حقه أن يعين فيها ، وأن ينمى فيه كل المواهب الطبيعية . و بهذا يقيم بين المواطنين مساواة حقيقية ، و يجعل المساواة السياسية المعترف بها فى القانون أمراً واقعيا »[٤].

ويعترف كوندرسيه اعترافاً صريحاً بالصلة بين الحق فى المساواة والحق فى التعليم فى « مشروع عن تصريح بالحقوق الطبيعية المدنية والسياسية للناس » عام ١٧٩٣ ويأتى فيه الحق فى التعليم فى مكان جليل بعد الحقوق الطبيعية وهى « الحرية ، المساواة ، الأمن ، ، الملكية ، الضمان الاجتماعى ومقاومة الاضطهاد »[٥] يجب أن يتساوى « أبناء الأمة » أمام التعليم وأن يتمكنوا جميعاً من التعليم . وليس معنى هذا أن يحصلوا جميعاً على تعليم واحد ، ولكن شيئاً من التعليم ضرورى للمواطن . و يجب لهذا أن يكون إجباريا . ولكن ليس من الضرورى بل ليس من الممكن تعليم الناس جميعاً تعليما ثانوياً أو تعليما علمياً عالياً . فهذا النوع الأخير من التعليم لا يناسب بطبيعته إلا صفوة من الناس امتازوا بمواهب خاصة . وهذا التفريق الذى لا معدى عنه لا يمس المساواة الأساسية بين الناس على شريطة أن يكون الاختيار ، ولا سيا فى درجات التعليم العليا ، متوقفاً على

---

(١) مكتبة « الرجل العام » هى مجموعة كتب فى تحليل أشهر المؤلفات الفرنسية والاجنبية ، الخاصة بالسياسة عامة ، وبالتشريع والشؤون المالية والزراعة والتجارة ، والحق الطبيعى والعام بصفة خاصة . . . وكانت تصدر فى باريس لدى الكتبى Buisson . وكان ينشرها كوندرسيه بمعاونة de Peysonnel قنصل عام سابق لفرنسا فى سميرن ، وبمعاونة Le Chapelier نائب فى الجمعية الوطنية . وتشمل تلك المكتبة ثمانية وعشرين مجلداً .

(٢) فى يومى ٢٠ و ٢١ أبريل سنة ١٧٩٢ .

(٣) Mémoires sur l'instruction publique, *Œuvres* VII, p. 169
وراجع نفس الكتاب صفحة ١٧٠ وفيه : « عدم التساوى فى التعليم هو أحد الأسباب الرئيسية للاستبداد . »

(٤) Rapport, *Œuvres* VII, p. 449-451

(٥) المادة ٢٣ : « التعليم هو ضرورة للجميع وهو دين للجماعة نحو كل أعضائها »
راجع : *Œuvres* XII, p. 417-22. Buisson, p. 109

الكفاية لا على المركز الاجتماعي أو المادى للتلاميذ أو لذويهم . وبعبارة أخرى يجب أن يمكّن كل تلميذموهوب من الوصول إلى أعلى درجات التعليم مهما كان حال ذويه . ومن هنا وجب أن يكون التعليم مجاناً فى كل درجاته ..

وخطة تنظيم التعليم العام التى وضعها كوندرسيه(١) ، وهى خطة غاية فى الجرأة والاقدام (٢) ولم يتحقق منها إلى اليوم إلا بعضها ، مؤسسة من ناحية على معانى الحق والواجب ، حق الفرد وواجب الجماعة . وقد لخصناها آنفاً ، ومن ناحية أخرى على فكرة الاختيار والتقدم : اختيار المواهب المبعثرة فى الأمة حتى نوجهها لخدمة التعليم وتقدمه وهو صنو التقدم العام . ففى المدرسة وبالمدرسة نستطيع تهيئة المستقبل ، ذلك المستقبل الذى يراه كوندرسيه فى الجمهورية الديمقراطية العادلة التى تتجه بكليتها إلى التقدم أى إلى المستقبل .

وهذا الاهتمام بالمستقبل ، وهذه الرغبة فى تركه مفتح الأبواب هى التى أوحت إلى كوندرسيه مشروعاته الدستورية ؛ إذ أخذ يقتنع بالضرورة القصوى لوجود مؤسسات دائمة فى الجمهورية ، وللعمل على إقامتها بأقصى ما يمكن من السرعة مما يضمن استقرار الجمهورية . وبعبارة أخرى اقتنع بضرورة وضع دستور جديد نهائى ، كما آمن أيضاً باستحالة إبقاء ذلك الدستور كأنه نص مقدس . فالماضى

---

(١) يرى كوندرسيه وجوب إنشاء خمس درجات للتعليم :

ا — تعليم ابتدائى إجبارى للجميع .

ب — تعليم ثانوى «للأولاد الذين يستطيع آباؤهم الاستغناء عن عملهم مدة أطول» .

حـ — المعاهد التى يكون التعليم فيها كاملا ويتخرج فيها معلمو المدارس الثانوية والابتدائية (وهى توازى الآن مدارس النورمال) .

ء — الليسيه « حيث تدرس جميع المواد مع التبحر فيها . وفيها يتخرج العلماء والأساتذة » (وهى تماثل الآن الكليات ومدرسة النورمال العليا) .

هـ — الجماعة الوطنية للعلوم والفنون وهى مؤسسة للبحوث أو أكاديمية تعمل على تقدم العلم وتكون فى الوقت نفسه الشبان الذين يصبحون فيما بعد أعضاء الأكاديمية .

(٢) ينصح كوندرسيه بجعل التعلم حديثاً وبالاهتمام خاصة بالعلوم واعتبار الغرض من التعليم تنمية الذكاء وملكة النقد لدى التلاميذ بدلا من إعطائهم علماً ومجهزات . ولا يفرض شئ كأنه العقيدة حتى إعلان حقوق الانسان . ولا يدرس الدين مطلقاً بالمدارس العامة ، فالدين مسألة خاصة بالمواطن وليس للدولة أن تتدخل فيها . وتترك التربية للأسرة إلا فيما يختص بالتربية الوطنية التى تهدف إلى تنمية الاحساس بالواجب نحو الوطن ونحو الانسانية ، وإلى تنمية معنى المساواة والشعور بالاخاء وضرورة العدالة .

لا يسيطر على الحاضر ، والحاضر لا يسيطر على المستقبل . وليس لأحد أن يشرع لأبنائه . ولهذا كان مشروع الدستور المسمى «الدستور الجرونديني » — وهو الذى قام بوضعه بمعاونة توماس بين (١) — وقدمه إلى المؤتمر الوطنى فى ١٥ فبراير سنة ١٧٩٣ ، متضمناً مواد تسمح باعادة النظر فيه كل عشرين سنة .

وكان كوندرسيه جد فخور بعمله . «وضع دستور لبلد شاسع (مساحته حوالى ١٢٠,٠٠٠ كيلومترا مربع) ، ويسكنه نحو ٢٥ مليون نسمة ، دستور مؤسس على مبادئ العقل والعدالة وحدهما مما يضمن للمواطنين تمتعهم التام بحقوقهم ، ثم تنظيم أجزاء الدستور بحيث تسمح ضرورة الطاعة للقوانين وخضوع إرادة الفرد لارادة الجماعة ، بوجود سلطة الشعب ووجود المساواة بين المواطنين كما تسمح بممارسة الحرية الطبيعية ، تلك كانت المشكلة التى وجب علينا حلها » (٢) وهى المشكلة التى يفخر بأنه حلها .

ولكن دستوره الكامل لم يكن عمليا للأسف ؛ فهو بما فيه من حق أخذ رأى الشعب بالاستفتاء ، وهو حق لا حد له عملياً ، و بما فيه من توازن بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية ، وهو توازن يتسلل إلى الدولة بدعوى المحافظة على سلطان الشعب (فالشعب ينتخب الوزارة مباشرة ولا تستطيع الجمعية التشريعية إقالتهم إلا باحالتهم إلى محكمة وطنية) ، غير ممكن التطبيق ، ولو نفذ لجعل فرنسا كلها نادياً دائماً للمناظرات **debating club** . وليس من العجيب إذن أن يرفضه المؤتمر الوطنى ، وأن يفضل عليه الدستور الذى وضعه حزب الجبل .(٣) ومن ناحية أخرى كان من الضرورى أن يرتفع صوت كوندرسيه عالياً بالاحتجاج الشديد(٤) إزاء الانقلاب الحكومى الذى قام به حزب

---

(١) كان أثر **T. Payne** فى كوندرسيه عظيما للغاية . ولقد درس **M. G. Chinand** أثر الأمريكيين والآراء الأمريكية فى فرنسا . تراجع مؤلفاته .

(٢) **Exposition des motifs, *Œuvres* XII, p. 335**

راجع أيضاً: **L. Cahen (p. 471)**

(٣) وهو دستور لا يفضله من الوجهة العملية إلا قليلا ، ولهذا لم يطبق قط . وقد قرر المؤتمر الوطنى عام ١٧٩٣ « أن حكومة الجمهورية هى حكومة ثورية ويجب أن تبقى كذلك » .

(٤) راجع ***Lettre à la Convention Nationale*** «عندما لايكون المؤتمر حراً ، فان ما يصدره من قوانين لا تلزم المواطنين . »

الجبل ، وهو احتجاج كان كوندرسيه أول من يعلم أنه يوقع به وقيعة اتهامه .

ومنذ ذلك الحين لم يكن له من عاصم إلا الهرب ، وكتب كتابه الرائع « الوجيز » الذى تكلمنا عنه طويلا ، وهو هارب مختف مهدد بالموت . وذلك الكتاب هو فى الوقت نفسه وصيته وصك إيمانه ، إيمان رجل مخلص لفكره إيمان فيلسوف ، فى العقل وفى التقدم .(١)

و« الوجيز » ، كما رأينا ، نافذة مفتوحة على المستقبل ؛ وهل كان يرجى أن يكون غير ذلك ؟ أليست النظرة إلى المستقبل أو توقع المستقبل ، هى ما يميز التفكير الانسانى ؟ أليس تحديد الانسان للمستقبل . وتحديده لنفسه هو ما يميز عمله؟ وهكذا أبانت فلسفة القرن الثامن عشر فى شخص كوندرسيه ، أن المرء ، ذلك المخلوق العاقل ، حين يفضل المستقبل على الحاضر فانه يؤكد حريته ويحققها .

ألكسندر كواريه

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

---

(١) ولكن القوم رجعوا إلى الحق ، ففى يوم ١٣ جرميناك من السنة الثالثة للجمهورية «قدم دونو Daunou مشروع مرسوم يصرح للمؤتمر بالحصول على ثلاثة آلاف نسخة من كتاب كوندرسيه الذى نشر بعد وفاته» ، وقد ووفق عليه بالاجماع وقال وهو يقدم مشروعه لقد ألف كوندرسيه كتابه فى حال بلغ فيه نسيانه لنفسه ولآلامه درجة أن لم يتأثر كتابه بشىء منها ، فلا شىء فى ذلك الكتاب يشعر بالأحوال المروعة التى كتب فيها . وهو لا يتكلم فيه عن الثورة إلا بكل حماسة . وإنا لنرى أنه لم ينظر إلى اضطهاده الشخصى إلا باعتباره كارثة شخصية يكاد منعها يكون مستحيلا فى مثل تلك الحركة العظيمة التى جلبت الخير للجميع » . راجع كتاب Buisson عن كوندرسيه ص ١٩ Paris, Alcan . ولقد كان دونو على حق : فان كارثته الشخصية ، بل كوارث الثورة كلها لم تهدم إيمان كوندرسيه وثقته . ومات كما عاش فيلسوفاً .

ثوبان أسودان

ثوبان أسودان يلبسهما بعض الناس . فأما أولها فيلبسه آباؤنا الرهبان والقساوسة . وأما الآخر فيلبسه علماؤنا من أساتذة الجامعة . . . وهذان الثوبان يتشابهان فى الكثير من الصفات ، فى لونهما الأسود ، وفى بسطتهما وسدولها واتساع أكمامهما . . . لكن أقرب ما يجمعهما فى الحقيقة صفة متميزة غالبة ، فكلاهما يستبد بصاحبه حتى ليحيله فى بعض الأحيان إلى إنسان آخر !

وقد شاء القدر أن يرتدى صديقان من أصدقائى هذين الثوبين ويظهرا بهما بين الناس ، حين صار أحدهما قسيساً والآخر أستاذاً فى الجامعة . والحق أنى دهشت لهذا ، فقد كنت أظن أن كل شئ يجوز أن يقع إلا أن يكون صديقى فلان هذا قسيساً وصديقى علان ذاك أستاذاً . . . لكن هكذا حدث لنقول حين نرى هذا الصديق الأستاذ وهو فى ثوبه الجامعى إن الله سبحانه قد ملأ صدر هذا الرجل بالعلم فعكف عليه حتى اتخذه مهنة ، ولنقول حين نرى هذا الصديق القس إنه سبحانه وتعالى أنزل التقوى على هذه النفس فاتقت ، وأودعها الرضا فرضيت ! . . .

رأيت صديقى الأستاذ ورأيت صديقى القس فى ثوبيهما هذين الأسودين ، فابتسمت ثم تألمت وقلت : لشدّ ما يغالب كل منهما نفسه ويشدّ عليها ! أما أستاذنا فكما عرفته ليس فى طبعه وقار العلماء وإخلاصهم للعلم ، لكن وظيفته اضطرته إلى الوقار الذى يصطنعه العلماء وإلى البحث والتقصى كما يصنع العلماء ، وهكذا رأيته بعد حقبة طويلة من الزمن فرقتنا . . . لم يكن فى طبعه الابتعاد كثيراً عن الناس ، لكن مركزه قد ارتقى به بحيث أصبح يصطنع مايصطنع كبار الأساتذة الذين لا يختلطون كثيراً بالناس ، والذين تفرد لهم حجرات خاصة حتى لا يعكر الناس عليهم هدوءهم ويصرفوهم عن الاستغراق فى التفكير والتأمل فى

البحث ! لقد أصبح لا يضحك إلا بقدر ، ولا يتحرك كذلك إلا بقدر ؛ لأنه دائماً مهموم بحياته العقلية . . . بل رأيته أقلم ملامحه — إن صحّ أن الملامح تؤقلم — لأن البيئة العلمية التى يشغل فيها مركزاً ممتازاً تحتاج إلى مثل هذه الملامح العلمية ، بحيث أصبح لا يبدو للناس إلا مفكراً أو شبه مفكر . وأعجب من هذا وأكثر قسوةً عليه وعلى الناس أنه اضطر ليؤلف بعض الكتب لأنه بغير هذه الظاهرة العلمية لا يستطيع أن يكون أستاذاً فى مثل هذا المركز الممتاز ! والحق أنى أشفقت عليه حين رأيته يعكف على القراءة الكثيرة المتصلة ، ويضطر لتأليف كتابين طبعهما طبعة متقنة . . . وللعلماء لون خاص من ألوان العيش يصطنعونه فى حياتهم المنزلية ؛ فشدّ صاحبنا على نفسه فى اصطناع هذا اللون ، فملأ الجدران بالكتب ، وظل طول ليله يقلب فيها . أى مغالبة وأى إرهاق ! أعلم أنه يود لو كان هناك بدل هذه الكتب بعض الصور التى يهواها قلبه . . . أعلم أنه يود لو قضى ليله فيما تشتهيه نفسه ، لكن هذا الثوب الجامعى الأسود اللون مستبد به كل الاستبداد حين اضطره أن يبتعد كثيراً عن المجتمع ، وحين اضطره أن يقيد من حركاته ومن نزعات قلبه . . . بل لقد بلغ من استبداد هذا الثوب الجامعى الأسود أن كاد يحيل صاحبه إلى إنسان آخر غير هذا الانسان الذى فى نفسه وتحت قميصه ! . . .

قلت له حين رأيته : أراك صرت أستاذاً كبيراً ! . . . قال : نعم . قلت : أسعيد أنت بهذه المهنة ؟ قال : إنه مركز ممتاز يا صديقى . . . لكنى مع ذلك لا أكتمك شيئاً ، فان هذا الروب الجامعى على جلالته ورحابته قد أفسد علىّ الحياة ، وضيق على قلبى الخناق ! وأنت تعلم أن ظروف الحياة قد تدفع الانسان منا نحو غاية لا تشتهيها نفسه . . . وهل كنت تقدر أنت أو أقدر أنا أننى سأصبح أستاذاً فى الجامعة ؟ كل ما فى الأمر أن يداً ما دفعت كرة من الكرات نحو جهة ما ، فاندفعت هذه الكرة وصارت تتدحرج وتتدحرج ! . . . ولا بد أن ستقف هذه الكرة من نفسها أو بقوة خارجة عنها ، ستقف هذه الكرة يوماً ما أو ساعة ما ، غير أنى لا أعلم متى . . . أليس كذلك ياصديقى ؟ ألسنا فى الغالب نشغل وظائفنا فى الحياة مدفوعين بمؤثرات مختلفة ، فنسير أكثر ما نسير فى حياتنا بهذا القصور الذاتى ؟ قد تعرف أنى رجل لا صبر لى على هذا التحقيق العلمى الدقيق ، لكنى مع ذلك أحقق وأدقق . . . وقد تعلم أنه لا صبر لى على

هذه الحياة العلمية المنزلية بين هذه الكتب التى تطلق عليها المراجع ! لكنى مع ذلك ألفت هؤلاء الأصدقاء الثقلاء ، وفهمت قول المتنبى :

ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى عدوًّا له ما من صداقته بُدّ

والذى يغيظنى حقا أنى لا أستطيع أن أقنع نفسى بترك هذا العمل إلى غيره ؛ لأن مركزه كما تعلم مركز ممتاز . . . وماذا تقول لو عرفت أن هذه الناحية العلمية التى برزت فيها يوماً ما والتى أقوم بتدريسها الآن فى الجامعة ، إن اتسع لها عقلى وأحبها ، فقد طالما ضاق بها قلبى وأراد الخلاص منها ! وإنى لأعلم أن قوماً آخرين من زملائى يشقون بمثل ما أشقى به لكنهم لا يتصارحون ! أرأيتنى وأنا أدخل الكلية ! أرأيتنى وأنا أضع هذا الروب على كتفى ! أرأيتنى كيف أتركه فى بعض الأحيان يتهدل على جسمى دون أن أظهر العناية به لأنه لا ينبغى لرجل العلم أن يعنى بغير الفكر ! لشد ما يزعجنى يا صديقى حين أعلم أن الحياة بالنسبة لى لم تعد إلا معهداً للتمحيص والدرس ! لكن الكرة لا تزال تجرى قوية سريعة ، وربما سبقت غيرها من الكرات ، لا لشئ إلا لأن طاقتها الذاتية المادية قوية ! ثم سكت صديقى الأستاذ كأنه لم يشأ أن يصارحنى بشئ أكثر من هذا .

فأما صديقى القس فثوبه هو الآخر ثوب فضفاض ، ولكنه فى الحقيقة يضيق على نفسه الخناق ! وما أكثر ما أشفقت عليه حين رأيته يصطنع من أجل هذا الثوب ما يصطنع ! . . . عرفته طروباً مرحاً يستخفه اللهو ويملك عليه أمره فى بعض الأحيان ، لكن حياته الدينية أصبحت لا تسمح له أن يأخذ من هذا الطرب أو هذا المرح بكثير أو قليل . . . رأيته يسير فى الطريق بتؤدة هادئة جدا ، وما كان يعرف التؤدة فى شئ . . . ورأيته يضع فى يده كتاباً صغيراً ، وكنت أراه يقبل على قراءة كثير من الكتب إلا هذا الكتاب الصغير الذى أصبح لا يفارق يده . . . ورأيت الزنار يلف خصره . . . فأما قسمات وجهه فقد أشفقت عليه حقا حين رأيته يروضها على هدوء يشبه الجمود ! أقسم أنه لا يحب هذا الثوب الأسود الكنسى الذى يعوقه عن الحركة الخفيفة السريعة ، والذى لا يقدمه للناس إلا فى صورة الرجل الزاهد فيما فى الدنيا من متاع وجمال ! وأستطيع أن أقسم أيضاً أنه ضيق الصدر بهذا الكتاب الصغير الذى لا يفارق

يده ! . . . وهذا الزنار الأبيض المتدلى من خصره ، فلقد كان يود من صميم قلبه أن لو كان ذراعاً ملساء بضّة ! نعم ، ما أكثر ما أُشفق على صديقى القس هذا حين أراه يفتح عينيه الوادعتين فيرى ماتهفو إليه نفسه ويخفق له قلبه ، لكنه يسارع فيغض من عينيه ؛ لأن هذا الثوب الأسود يرده إلى ما ينبغى أن يرد إليه ... لقد كان صديقى القس هذا يتحدث إلىَّ فى كل شئ إلا حديث الدين ، فها هو ذا لم يعد يرغب من الحديث إلا فيما يتصل بالدين ... أين تلك الحياة الفنية التى كان يحياها هذا الفتى قبل أن يصبح قسًّا ؟ أين لهوه وعبثه ! بل أين ذهب عنه شيطانه إن كان حقا ذهب !

قلت له : أتصدقنى ؟ قال : ماذا تريد ؟ قلت أسعيد أنت بهذه الحياة الدينية التى تحياها ؟ فنظر إلى نظرة وادعة هادئة وقال : نعم ! قلت ولكنى أعلم أنك كنت تفكر فى كل شئ إلا أن تكون عليك هذه المسوح . . . قال : ومن قال لك إن الانسان مخيّر ؟ قلت : أو ما يهفو قلبك حيناً إلى شئ مما كان يهفو إليه قديماً ؟

فابتسم صديقى القس وقال : دعنا من هذا . . .

محمد عبده عزام

الهجاء السياسى فى مسرحيات أريسطوفان

من الأمور التى تتردد عادة على خاطر المشتغلين بالأدب كلما عرض متحدث أمامهم لكاتب من الكتاب المعاصرين التساؤل عن آثار هذا الشاعر أو القصصى أفيها مايضمن لها شيئاً من البقاء والتأثير فى نفوس الأجيال المقبلة ؟ وليس من الغريب أو النادر أن نرى النقاد يتحدثون عن بعض الكتّاب قاطعين بثقة أن مؤلفاتهم ذاهبة دون شك مع سيرتهم . ويمر الزمان بالناقد فيظهر صدق حكمه أو كذبه ، وتأتى الأيام أحياناً بعكس ما كان يتوقع البعض ، فيكف الناس عن قراءة كتب كان المعاصرون يخالونها خالدة ، ويتهالك الناس على مؤلفات كان الجميع يتحدثون عنها يوم نشرها فى شئ من الاستخفاف والاحتقار . وأقطع مثل لذلك فولتير الذى كان يظن ويظن معه الناس أن رواياته المسرحية هى أحسن ماأنتج ، وأن قصصه الفلسفية ليست إلا مداعبات فنية أراد فولتير أن يشغل بها أوقات فراغه ليلهو بها القارئ ويستريح إليها من التفكير المضنى . والواقع أن مسرحيات فولتير لا يقرؤها اليوم إلا الباحث فى أدب القرن الثامن عشر عامة ، وفى آثار فولتير بنوع خاص ، على حين تتعاقب طبعات قصصه الفلسفية ويتسابق الفنانون إلى إخراجها فى أناقة مزينة بالصور والرسوم .

وإذا كان الشعر من الآثار الفنية التى تبقى حية لما فيها من وصف خالد للشعور ، ومن صور لتجارب إنسانية يعانيها كل فرد ، ومن إيحاء إلى آمال وأحلام ملازمة لكل عصر ولكل جيل ، فالمسرحيات والهزلية منها بنوع خاص تقل فيها تلك العناصر . وقد استنبط برجسون فى كتابه — وعنوانه «الضحك» — الأسباب التى تدفعنا إلى الضحك ، وخصص ناحية من بحثه للإيحاء ووصفه بالعنصر الأساسى للضحك . وقد يضطر الكاتب فى أكثر من مناسبة ليثير الضحك (ومن الكتاب من ينسى أن الضحك على أنواعه هو الغرض الأخير لكل المسرحيات الهزلية)

إلى استغلال حوادث تاريخية أو أوضاع اجتماعية أو شخصيات سياسية يكفى أن يشير إليها ليضمن لروايته النجاح وللمتفرجين السلوة والمرح .

وفى مسرحيات أريسطوفان إشارات لا نضحك لها إلا بعد الرجوع إلى البيئة التى عاش فيها والوقائع التى يسخر منها أى — بعبارة أخرى — بعد الرجوع إلى التاريخ اليونانى فى القرن الخامس قبل الميلاد ؛ فتكشف لنا وقتئذ الكلمات عن معان كنا نجهلها ، وتثير العبارات ضحكا كان يردّنا عنه جهلنا لما تحتويه من دوافع إلى الضحك . وقد نشأت فكرة هذا البحث عن حرصنا على ألا تفوتنا فرصة للضحك ، وعن اطلاعنا على بعض المراجع مثل تاريخ الأدب اليونانى « لألكسيس بيرون سنة ١٨٩٤ والجزء الثالث من تاريخ الأدب نفسه لألفريد وموريس كروزيه سنة ١٩١٣ ودراسات فى أدب أريسطوفان لإميل ديشانيلى سنة ١٨٧٦ والمقدمة لآثار أريسطوفان فى مجموعة بوديه **G. Budé** بقلم فيكتور كولون ، والتعليقات على كل رواية بقلم فان ديل سنة ١٩٣٤ ، وأخيراً الكتاب القيم عن أريسطوفان والأحزاب فى أثينا بقلم موريس كروزيه سنة ١٩٠٦ » . ولما كان الهجاء على اختلاف أنواعه من ضروب الأدب الفردى المتصل بحياة الكاتب ، فسنحاول أن نعطى القارئ فكرة وجيزة عن أريسطوفان وعن بعض مؤلفاته .

من الأجزاء التى تتكون منها المسرحيات الهزلية اليونانية جزء يسمى « الاستطراد » **parabase** وهو عادة فى آخر النصف الأول من المسرحية ، يتجه فيه الشاعر مباشرة إلى مستمعيه . وهو فى أغلب الأحيان حديث يفتخر فيه تارة صاحبه بما أقدم عليه من عمل جرئ فى محاربته أو نقده لحاكم أو زعيم ، وتارة أخرى يؤاخذ الحاضرين على سوء إدراكهم لرواية سابقة ، أو يطلعهم على ما يجول فى نفسه من شك أو أمل أو قنوط كلما فكر فى هذا الزعيم أو ذاك من المستبدين بالشعب المسيطرين على عقله المزدرين لشعوره . وسيرة أريسطوفان التى نقرؤها فى التراجم القديمة وفى الكتب الحديثة عن الأدب اليونانى نجد تفاصيلها منتشرة فى المسرحيات التى وصلتنا فى صفحات الاستطراد الذى أشرنا إليه .

وكذلك نعلم أن أريسطوفان ولد فى نحو سنة ٤٤٥ ق.م وكان أبواه فيليب وزينودورا من أحرار الأثينيين . وكان لأسرته فى مدينة إيجيين حيث استقرت سنة ٤٣٠ أرض تستغلها وقد يتعذر علينا أن نعرف بدقة المبادئ التى شب عليها

أريسطوفان والعوامل الثقافية التى أثرت فى تكوين عقله . ولكن هناك أمراً لاريب فيه ، وهو أن عبقرية أريسطوفان ظهرت جليا وهو فى الثامنة عشرة من عمره فى مسرحية نال بها الجائزة الثانية فى مسابقة سنة ٤٢٧ وفى العام التالى مثلت له مسرحية « البابيليين » وهى عبارة عن نقد عنيف لسياسة عهده وهجاء لاذع يقذف به الزعيم كليون . ولم يغفر له كليون هذه الجرأة بل قدمه أمام مجلس الشيوخ لمحاكمته . ولم يكن أريسطوفان من الذين تهزهم المحن أو تثبط هممهم . ففى سنة ٤٢٥ قدم مسرحية « الأكرنيين » ثم « الفرسان » سنة ٤٢٤ وهى أكثر مسرحياته شجاعة وأشنعها هجاء . ومع شهرته الواسعة فانه لم يحصل فى سنة ٤٢٣ إلا على المرتبة الثالثة بمسرحية « السحاب » التى عرض فيها لأساليب التربية الجديدة ، كما أخذ يسخر سنة ٤٢٢ من داء القضاء فى مسرحية عنوانها « الزنابير » وقد تبعتها مسرحية « السلم » سنة ٤٢١ و «العصافير» سنة ٤١٤ و «ليزيزترات» سنة ٤١١ و«بلوتوس» سنة ٤٠٩ . وفى سنة ٤٠٥ لأول مرة فاز بالمرتبة الأولى بمسرحية « الضفادع » وهى خير ما أنتج فى الهجاء الأدبى ونجد فيها مقارنة بين أوريبيدوس و إسكيلوس .

وفى ذلك الحين حدث انقلاب فى أثينا عندما قهرها ليزندر ، فهاجت الحياة واضطر الشعب أن يلجأ إلى العنف والحرب الأهلية ليخلص من نير « الثلاثين » وليعيد نظام الديمقراطية . كل هذا أضعف الدولة وصرف الجماهير عن اللهو البرىء وعن إقامة الحفلات . وأول من فطن لهذا التغيير هو أرسطوفان ، فتمشى مع الروح الجديدة وساير معاصريه ، فلم يتحفهم بمثل المسرحيات الخالدة التى أشرنا إليها ولم يطرق باب الهجاء السياسى كما ألفه فى أول عهده بالمسرح ولكنه لم يكف عن الإنتاج الأدبى . ففى سنة ٣٩٢ مثلت له مسرحية « جمعية النساء » وهو يسخر فيها من النظريات الشيوعية التى كانت موضع جدال فى المدارس الفلسفية. وعاد سنة ٣٨٨ إلى مسرحية «بلوتس» فعدّل فيها وبدل، وهى أيضاً من القصص الاجتماعية الخطيرة عن مشكلة توزيع الأموال . وينقطع هنا عهدنا بأرسطوفان ولا نجد فائدة من ذكر المسرحيات التى لا نعرف منها إلاعناوينها أو بعض أشعار ضئيلة. وحسبنا أن نعرف أن عدد مسرحيات أريسطوفان على أقل تقدير ٤٤ مسرحية ، وأن من بين المؤرخين من يعتقد أنه ٥٤ مسرحية. وعلى كل حال فقد بلغتنا إحدى عشرة منها .

ولما كان أريسطوفان ينشر مسرحياته بعد زمن قصير من تمثيلها ، فالنص الذى تقرؤه اليوم صورة للنص الأول الذى أشرف المؤلف على نسخه .

مما يقرب المسرحيات الهزلية إلى الحقائق الواقعية اتجاهها نحو الهجاء . وهناك ثلاثة موضوعات حاول الكتّاب أن يعالجوها فى مؤلفاتهم ، وهى الأخلاق والعادات من جهة ، والسياسة من جهة أخرى ، والآداب من جهة ثالثة . وشاعر مثل أريسطوفان ترك لنا فيما ترك من مسرحيات نقداً شاملا لعصره من النواحى الثلاث التى ذكرناها . ونحن لا ننظر اليوم إلا فى مسرحياته السياسية مع ملاحظة أن الهجاء السياسى ، و إن كان العنصر الجوهرى فى بعض مسرحياته ، متكرر فى أغلبها على شكل إشارة أو تلميح . وقد اضطر أريسطوفان كغيره من الشعراء الذين سبقوه إلى أن يثير العواطف القومية السائدة فى عصره — تلك التى كانت لا تمس حتى يجأر الشعب بسخريته ونقده وتهكمه . ولابد من هذا الانسجام بين الجمهور والكاتب ، وبين موضوع الرواية والأمور التى تشغل بال الجمهور ، ليجوز الضحك ويستساغ الهجاء .

ولقد تواترت مسرحيات أريسطوفان وتلاحقت معها أساليب من الهجاء انفرد بإبداعها وبرع فى استعمالها ، فجاءت مرآة صادقة لما كان يتردد على ألسنة الأثينيين ويغلى فى قلوبهم من غضب وبغض واستنكار . وربما صادفوا من أريسطوفان هجاء يمسهم فيما ألفوه من عادات ودأبوا عليه من آراء ؛ غير أنهم كانوا يقبلون نقده وسخريته لما كانوا يعترفون له به من الإصابة فيما بينهم وبين أنفسهم وهم المشهورون بحدة ذكائهم وحسن إدراكهم للأمور . ونحن عندما نعكف على دراسة الهجاء السياسى عند أريسطوفان تستوقفنا تفاصيل ربما كان الأثينيون يمرون بها مسرعين ، وتضيف إلى مشاعرنا أغراضاً ربما لم يعرض لها إلا مصادفة ، ونعجب لآراء جريئة ربما صدرت عنه عفواً ، ولا نمعن النظر فى ألوان من النقد ربما كان يعتبرها هو ومعاصروه أقوى ما فى المسرحية من عتاب وهجاء . وإليك نبذة عن الروايات التى يعتبرها النقاد الذى قرأنا بحوثهم واقتبسنا منها الكثير فى صميم عالم السياسة .

ليست مسرحية « الاكرنيين » أول محاولة لأريسطوفان فى باب الهجاء السياسى . وقد أشرنا فيما تقدم إلى مسرحية عنوانها «البابيليون» نقد فيها الشاعر

كليون نقداً مباشراً منددا بالزعيم المتملق للشعب العابث بأموال الدولة . أما مسرحية «الأكرنيين» التى تهمنا الآن فاننا نفهم من سياق الحديث أنها كتبت تحت تأثير الغضب والأخذ بالثأر؛ لأن كليون أبى إلا أن يقابل غلو الشاعر فى النقد بشئ من العنف . والمسرحية دفاع عن السلم ؛ فقد طال النزاع وسفك الدماء والعذاب ، ولم يتوقع فرد نهاية للحرب بين أثينا وسبرتا ؛ فقد عجز الأثينى ديكابيوبوليس عن حمل هيئة الشعب على درس شروط الصلح ، فلجأ إلى توقيع هدنة شخصية مع العدو ، فلم يستجب له أحد بادئ الأمر بل تهافت الجميع على لومه . ولكنه لم يضطرب لما شنوه عليه من عداء ، بل أخذ يثبت لهم أن الحرب بدعة بعض الساسة الطامعين فى المال واللذة حتى بلغ منهم قصده . واقتنعوا أن أقطع دليل على حسن تفكيره السعة التى كان يعيش فيها على مقربة من أناس يقاسون مر الحياة وبؤسها .

أما مسرحية « الفرسان » سنة ٤٢٤ فهى أول مسرحية يتقدم بها أريسطوفان باسمه . نرى خادمين ديموستين ونسيلس وهما يتظلمان إلى سيدهما ديموس (وهو يمثل شعب أثينا) من تصرفات البفلجونى (كليون) منذ دخوله البيت . وهما ذات يوم يستغلان نشوة زميلهما و إغراقه فى النوم ويسلبان نص التنبؤات التى كان يقرؤها من حين إلى حين على سيده لاستمالته ، فيقع بصرهما على نص يشير إلى قهر كليون وإذعانه لغالبه وهو بائع . . . ويمر بهما البائع ويعلم منهما مافى الغيب من خير يخصه ومن مرتبة عالية سوف تسند إليه . ويحضه الخادمان على مطاردة كليون بمعاونة الفرسان وأهل الجاه . ثم يقبل كليون وهو يتأجج غيظاً ويفوه بالتهديد والنذير ، فيستعين ديموستين بالفرسان فيذيقه الفرسان ألواناً من الضرب لم تكن تخطر بباله . ويتشجع بائع المقانق فينشأ بينه وبين كليون نزاع شديد يخرج معه كليون مغلوباً ، ولكن يأبى إلا أن تكون له الكلمة الأخيرة ، فيطلب إلى منافسه أن يرفعا أمرهما إلى ديموس ليفصل بينهما . ويصغى ديموس إلى ثنائهما ويتقبل ما يجودان عليه من هدايا ، ثم يؤثر بائع المقانق على كليون ، ويعينه ناظراً على بيته ومدبراً لماله . ويأسف ديموس على ضلاله القديم ويقطع على نفسه عهداً بأن يعوض ما ضاع ويصلح ما فسد . وأخيراً يحكم على كليون بأن يرتدى ثوب بائع المقانق وبأن يتخذ حرفته ليبيع اللحم على أبواب المدينة .

ثم يستصحب ديموس فتاة جميلة (وهى تمثل هدنة ثلاثين سنة) ليعيش معها فى الريف .

هذا ، ولا بد أن نرجع إلى تاريخ اليونان لندرك معنى رواية « السلم » ، فقد فاز كليون بثقة الديمقراطيين واستأنف القتال ضد سبرتا، ولكنه لقى حتفه فى معركة أنفيبوليس . وقد شعرت أثينا وسبرتا بعد حين بحاجة ماسة إلى السلم والسكينة . فجاهد كل من ملك سبرتا ونسياس زعيم الحزب المعتدل لإعادة الطمأنينة إلى النفوس ، واتفق الفريقان على توقيع الصلح على أن يرد كل فريق للآخر الأقطار التى استولى عليها أثناء الحرب مع احتفاظ أثينا بميناء فيسيا ، فدعت سبرتا حلفاءها للتشاور فوافق بعضهم على شروط الصلح واعترض عليها البعض لأسباب قومية واقتصادية . فكتب أريسطوفان مسرحيته ليشجع البعض على التمسك بنزعاتهم السلمية ولدعوة الآخرين إلى شئ من التأنى ، وهو من أجل ذلك لا يجادل فى السلم أهو مأمول أو محال ، وإنما يمثل عودة الحياة السهلة الهنيئة ليغرى بها قلوب الجميع .

ونستطيع الآن أن نلخص موضوع المسرحية فى كلمتين : يمتطى المزارع تريجيه دابة ويرتفع بها فى الهواء إلى أن يصل إلى الأولمب وقد هجره الآلهة تاركين مكانهم لعملاق يجسم الحرب ولرفيق له يهيئ نفسه لسحق المدن المتحاربة فى مهراس ضخم ، وآلهة السلم كامنة فى قاع محفر على شكل كهف . ويجدّ اليونانيون على اختلاف ألوانهم لإخراج السلم من عزلتها ، وبعد مشقة وعناد يظهر تمثال السلم ، ويقدم الجميع الذبائح والقرابين ، وتنتهى المسرحية بالولائم والطرب .

وأخيراً يمكن اعتبار مسرحية « ليزيزترات » آخر محاولة من أريسطوفان لوقف القتال بين شعبى أثينا وسبرتا . قد منيت أثينا بالهزيمة فى صقلية وكان أجيس ملك سبرتا يحتل مدينة ديقلى على مسافة أربعة وعشرين كيلومتراً من أثينا فارتاع ، الشعب وفطن إلى ضرورة المقاومة . وفى أثناء ذلك تعاهدت سبرتا مع بلاد الفرس وضمنت ما كانت فى حاجة إليه من المال والأساطيل . فكتب أريسطوفان مسرحيته راجياً باسم البشرية أن ينصرف الجميع عن القتال ليدفعوا عن بلادهم شر الخضوع للأجنبى عدو المدنية ، ولا يهتم الشاعر بتحديد المسئولية وهو لا يريد شيئاً إلا أن يذكر أولئك وهؤلاء أنهم من أصل واحد ويربطهم

دين واحد ، وأن لهم حقوقاً كما أن عليهم واجبات ، وأن الأفضل أن يقدر كل واحد خطورة الموقف ويعمل على تصفية الجو والضمائر . فوجه أريسطوفان كلامه إلى نساء البلدين من زوجات وأمهات . وليوفق بين غرض كله جد وبين أصول المسرحية الهزلية اخترع الشاعر الموضوع الآتى :

« دعت ليز يزترات من النساء من يمثلن المدن المعادية ، وطلبت إليهن أن يتمردن على أزواجهن حتى يتم الصلح . فاحتجت واحدة منهن فى أول الأمر وكادت الفكرة تخفق لولا مهارة زعيمتهن . اقتنعت النساء شيئاً فشيئاً حتى قبلن وأقسمن ألا تلين الزوجة أمام زوجها أو على الأقل ألا تخضع له إذا لجأ إلى القوة إلا مضطرة ، ثم تحتل النساء وعلى رأسهن ليزيزترات حصن الأكروبول . وهنا تقدم جوقة الشيوخ لتصد النساء عن مقاومة لا طائل فيها وعن تشبث مضحك ومحزن فى آن واحد . ولكنهن يظهرن ثباتاً و إلحاحاً لا حد لها و يهددن الشيوخ . وأخيراً يأتى الرجال من كل صوب من حلفاء وأعداء ساخطين تارة ومستعطفين تارة أخرى ومتظلمين على كل حال من قسوة تلك المعاملة ومن ذلك الامتناع الذى لا طاقة لهم به ولا صبر لهم عليه وازدراء زوجاتهم لهم . وهم مستعدون أن ينفذوا كل ما تشير به أزواجهم وأن يأتوا بالمعجزات فى سبيل ما يبتغون من عطف وما يطلبون من وصل . فتبدأ فعلا المفاوضات وتنتهى إلى الصلح والوئام والطرب . »

إن الهجاء السياسى فى المسرحيات التى ذكرناها واضح كل الوضوح . وهدفه الأول والأخير هو كليون الرجل المتشبع بمذهب الديمقراطيين من سكان المدن ، وهو الشاغب الذى ندد أريسطوفان بخلقه السيئ و بميله الآثم إلى القسوة والعنت وبعده عن الروح اليونانى الخفيف . انشق على بريكليس أيام حرب البلوبونيز . وفى سنة ٤٣٠ عندما ثار الشعب على حاكمه كان كليون فى صف المتهمين ليفوز بثقة الشعب وعطفه . يلومه أريسطوفان على عنف الأساليب التى كان يتبعها لإقناع الشعب ، وعلى سوء سياسته الداخلية إذ أنه حاول بجميع الطرق هدم آراء الطبقات الراقية والغض من قدرها ومحو أثرها ، وهو فى سبيل هذا الغرض لا يترك غريزة خسيسة إلا استغلها . وهناك غرائز تذهب بالأفراد ، فكيف بالجماعات ، إلى حيث لا تريد . فهو تارة يرفع أجر القضاة ليبلغ رضاهم ، وتارة

يتهم الناس ويقودهم أمام المحاكم ليظهر للشعب أنه الزعيم الوفى الأمين الساهر على مصالحه .

وبسط أريسطوفان هجاءه على سياسة كليون الخارجية ؛ لأنه كان دائماً يحض أثينا على الطموح الباطل ، فلم يقنع بالسيادة على البحار بل كان يغرى الشعب بأحلام استعمارية خلابة . وكان يعالج الشؤون الخارجية التى تطلب مهارة وحكمة ودقة بمثل ما كان يبديه من استبداد وتطرف وانفراد فى الرأى والعمل . وكانت أنفته البغيضة تحول بينه وبين التروى والتفكير الطويل . وكان أريسطوفان يمقته لمعارضته التى لا هوادة فيها لأى مشروع صلح . وكان الشاعر يعلم ما للحرب من ويلات ولا يفهم كيف يشجع امرؤ على متابعتها .

وكان النضال يثير غضب الشعب ، وبنوع خاص من اشتد عليه الدهر من الريفيين الذين هجروا منازلهم خشية اكتساح العدو لأراضيهم وتساقطوا على أثينا من كل صوب ليأمنوا فيها ، لكنها ضاقت بهم وازدحمت مساكن الأهل والأصدقاء ، فلجأوا إلى المعابد والقلاع ،وهم عرضة لحرب ضروس ولأمراض فتاكة ، وقد نشأت عن هذا الضيق بالحياة ثورة على أعدائهم ورغبة ملحة فى مطاردتهم بكل ما أتيح لهم من القسوة والشجاعة . وأصبح إذ ذاك حديث السلم من الشجاعة التى ليس بعدها شجاعة . والجرأة من صفات الكاتب الحر الذى يقدر قداسة فنه و يرفع من شأنه غير مكترث بما تخلق له تلك الحرية من مشقة وهم . وكان أريسطوفان يعلم لكثرة ما جربه فى حياته أن الضحك دواء نافع ناجع يجد فيه الانسان شيئاً من التسلية والعزاء والنسيان ، ومخدراً لأعصاب متوترة ، وحلا هيناً لصعاب يعجز الجد عن حلها . وربما فكر فرد غير أريسطوفان أن يأتى بالبراهين الدقيقة والأدلة القاطعة والاعتبارات النظرية ليقنع سامعيه بوجاهة رأيه . ولكن أريسطوفان شاعراً أكثر منه فيلسوفاً . لذلك تراه اتخذ فى رواياته السياسية طريقة الهجاء والتهكم ومحاربة المسئولين عن الحرب وعلى رأسهم كليون . فصور أهل عصره وقد أعياهم القتال ونهك قواهم وأفسد عليهم الجو ودس الاضطراب فى نفوسهم وأثار الانشقاق بينهم . فمنهم من يرغب صادقاً أن تعود أيام الهناء ، ومنهم من يعارض الفريق الأول ، ومنهم من لا يقدم على عمل ولا يفكر فى حل بل يكتفى بمشاهدة غيره وتشجيعه بالكلام حيث لا تنفع إلا الأعمال .

هجا أريسطوفان كليونُ لشدة ما بين نظريتهما السياسية الجوهرية من تناقض

وما أبعد ما كان الأمد بين مؤيد للديمقراطية المعتدلة المحافظة على التراث الأدبى والخلقى القديم ، وبين رجل مثل كليون وأين ! كان السبيل إلى الوفاق بين كاتب يكره التعسف والغرور والطموح المسرف ، وحاكم لايحرص على طمأنينة الشعب وغضارة عيشه واحترام حريته !

كان كل منهما فى عالم مختلف لا تجمع بينهما إلا تلك الساعات المضحكة كلما أتيحت للشاعر مناسبات النقد والهجاء .

ريمون فرنسيس

LIFE IN A NEUTRAL COUNTRY
IN SWEDEN TODAY
HENRY BAERLEIN

الحياة فى بلد محايد
فى السويد اليوم

[زار الكاتب مستر بيرلين المعروف برحلاته الوصفية بلاد السويد منذ شهور مندوباً لنادى القلم البريطانى ، للمؤتمر الذى عقد فى تلك البلاد . وكتب المقال التالى خاصة للكاتب المصرى .]

عندما كانت الحرب قائمة ، كنا نسمع كثيراً عن البلاد المحايدة السعيدة ، وتنظر إليها البلاد المحاربة فى شئ من الحسد؛ ولكن تلك البلاد كانت لها متاعبها التى ربما لا نشعر بها شعوراً كافياً . والآن ما هى حالها ؟ لننظر إلى السويد التى تعتبر من أهم البلاد المحايدة .

كانت بلاد السويد فى أثناء الحرب تشعر بالقلق الذى ينتاب عادة شعباً صغيراً يحيط به محاربون أقوياء . وقد ظل أهلها حتى سنة ١٩٤٣ لا يكادون يستطيعون الدفاع عن حدودهم الأرضية الطويلة إذا ماغزاهم الألمان من جهة بلاد النرويج . وفى سنة ١٩٤٣ كانت قواهم مسلحة جيداً بأسلحة أكثرها ألمانى ، إذ أجبر النازى على أن يبيعوها هذه الأسلحة، كى يظلوا على علاقة حسنة مع الدولة التى يستمدون منها أكثر الحديد الخام .

والآن قد لا يكون من المبالغة أن نقول إن الجيش السويدى هو خير جيش شتائى فى العالم . ولقد وقفت السويد جهودها زمناً طويلا على معالجة المشاكل الخاصة بحرب الشتاء ، فعسكرت قوى كبيرة من جيشها عدة شهور فى الغابات وفى العراء أثناء شهور شتاء كان قاسياً برده ، إذ كان البرد يبلغ درجة ٢٥ تحت الصفر بمقياس سنتيجراد . ومما يدل على مقدرة هؤلاء الجنود فى التغلب على صعوبات الشتاء ، أنه لم يحدث أن أصيب جندى واحد إصابة ناشئة عن الجليد

والآن تستطيع السويد فيما يتعلق بمواد الحرب أن تعتمد إلى حد كبير على تصميماتها وعلى مصانعها . ويكفى أن نذكر فيما يتعلق بصناعة البنادق مصانع بوفورس التى ظلت تتمتع من زمن مديد بشهرة عالمية ، وصنعت سيارات مصفحة ودبابات من خير الأنواع . وأخرجت مصانع السفن السويدية للبحر سفناً جديدة خفيفة تسير فى سرعة فائقة ، وتسلمت البلاد الكثير منها وبخاصة الغواصات . وكانت البلاد تعتمد فى الطيارات على الاستيراد من الخارج أو البناء حسب نماذج أجنبية أكثرها بريطانى أو أمريكى ، أما الآن فقد قامت صناعة حديثة للطيران داخل البلاد . وأخبرنى ضابط أمريكى للطيران منذ أيام أنه يعتبر الطيارين السويديين لا نظير لهم ، فهم مهرة فى فنهم . ومما يستحق الذكر فى هذا المجال أن الخطوط الجوية السويدية تستخدم عدداً من قواد الطيارات البريطانيين والأمريكيين والنرويجيين . والسبب فى ذلك أنه لم يسرح من قوة الطيران الحربية السويدية عدد كافٍ للعمل فى خطوط الطيران ، ولا يسمح لقائد الطيارة المدنى أن يقوم بالعمل إلا إذا بلغت مدة طيرانه ١٥٠٠ ساعة .

لم تكن السويد لتستطيع المحافظة على حيدتها فى أثناء الحرب مع العدد المحدود لسكانها ، أمام أى مهاجم محتمل ، بالاعتماد على التفوق العددى . فبذلت كل جهد للوصول إلى أسمى ماتستطيع الوصول إليه من حيث النوع . ويعتبر المجندون السويديون من خيرة المجندين فى العالم . ولذلك لا يرفض فى السنوات العادية من بين الشبان اللائقين للجيش بسبب حالتهم الصحية أكثر من خمسة فى المائة . وتجرى للمتقدم للخدمة العسكرية اختبارات نفسانية معدة إعداداً جيداً ، كى يتبين ماتتجه إليه ميوله ويصلح له من فروع الخدمة العسكرية . ويشعر أفراد الشعب بأن اللياقة الجسدية هى الهدف الذى يجب أن يصلوا إليه .

ومع ذلك ليس كل شئ فى الحديقة السويدية جميلا . فقد تظهر الصورة لامعة أمام عينى السائح ، فالحوانيت مليئة بالسلع الجذابة والطعام كثير ، منه فواكه كالأناناس والموز ، وتجد أطناناً من الشكولاتة ، والبيض كمياته وافرة ، والأضواء فى كل مكان ، والعلامات الملونة تضئ فى الليل بما يذكرنا بليالى ما قبل الحرب تماماً ، وتجد قطارات كهربائية مريحة — والسويد استفادت من أنهرها الجبلية التى لا عداد لها ، وهى أكثر بلاد العالم استعمالا للكهرباء — والمواصلات

بالسيارات ميسرة (فالسائح القادم من الخارج يسمح له بحمل سيارته إلى السويد من غير أجرة) والعمل ميسور كل اليسر . ولكن هذه الصورة ، خداعة بعض الشئ ؛ فوراء مظهر الرخاء أهراء الفحم الخاوية . وتدل الأرقام الرسمية على أن واردات الفحم كانت فى السنة الماضية كلها ٤٤٠ ألف طن ، وهذا أقل من عشر الواردات مدة الحرب ، وهذه كانت نصف واردات السلم . ومن المستطاع الاستمرار مادام هنالك شئ من الفحم المختزن الذى احتفظ به فى السنوات السابقة العجاف . ويمكن أن تبقى الصادرات وقتاً ما فى مستوى عال بفضل هذا الفحم المختزن لهذه الفترة الانتقالية . ومن غير الفحم يستحيل الإنتاج إلى أقصى حد فى صناعات مثل الأخشاب وعجينة الورق والورق ، فلاينتظر تسليم كميات من هذه الصادرات بالمقدار الذى بلغته فى سنة ١٩٤٥ . وقد يكون من العجيب أن يتوقف إنتاج الخشب على الفحم ، ولكن العلاقة فى الحقيقة بسيطة . ففى الظروف الحاضرة يستخدم العمال فى قطع الخشب للوقود . ولاتجد طواحين نشر الأخشاب حاجتها من القطع الخشبية . وكذلك مصانع عجينة الورق يتوقف جزء من العمل فيها على الفحم الذى يسير آلاتها . وقد وضعت الدولة يدها على بعض أخشابها من أجل الوقود . ومن الراجح أن السويديين بعد أن فتحت أمامهم واردات الزيت يستطيعون أن يسدوا حاجتهم لسنة أخرى فى تدبير أمورهم المنزلية بكميات الفحم القليلة التى تصل إلى بلادهم من الولايات المتحدة وبولونيا . ولكن هذا العمل غير اقتصادى للغاية ، وهم فضلا عن ذلك لا يقنعون به ؛ إذ هو لا يمكنهم من القيام بدورهم فى سد حاجة أوربا الملحة إلى صادرات الأخشاب لإعادة تعمير البلاد .

ولكن الأنباء عن شركة كيرونا للحديد الخام أحسن من ذلك . وهذه الشركة هى صاحبة المناجم التى تخرج أجود نوع من المعدن الخام فى العالم . وهى تملك ميناء نارفيك وأبنيته ، وهو الميناء التى سمعنا عنه كثيراً منذ سنوات.

على أن الكثيرين قد يتطلعون إلى زيارة بلاد مثل السويد ، غير أن الوصول إليها عن طريق أوربا ليس سهلا ، ومع أن هنالك خط سيارات منظم يقطع الطريق من باريس إلى استوكهلم فى ثلاثة أيام أو أربعة . إلا أن السويديين يحملونك بحراً وجوا فى خير ما يمكن من الراحة إذا كنت تجئ عن طريق بريطانيا . وتوجد طبعاً خطوط جوية تصل السويد بجهات عديدة فى القارة الأوربية . وكان من

المنتظر أن تبنى أفخم باخرة من بواخر الخطوط البحرية السويدية فى بريطانيا ، ولكن عدل عن ذلك بسبب الحرب ، وبنيت هذه الباخرة التى سميت « ساجا » فى جوتنبرج ، وكان كاتب هذا المقال أحد ركابها عندما قامت برحلتها الأولى فى طريق العودة من انجلترا إلى بلادها . وكانت الرحلة من تلبرى وهو الميناء الذى يصل إليه المرء فى ساعة من لندن بالسكة الحديدية . واستغرقت الرحلة اثنتين وأربعين ساعة ، وينتظر أن تستغرق فيما بعد خمساً وثلاثين ساعة فقط عندما يطهر بحر الشمال من الألغام . وتشغل آلة ديزل فى هذه السفينة الجميلة الصنع نحو خمس المكان الذى تشغله هذه الآلة فى غيرها من السفن . ولذلك تجد فيها أماكن فسيحة لثلاثمائة وتسعين راكباً وتسعة وتسعين من رجال السفينة . وفيها أماكن إضافية ذات أسعار معتدلة جدا لهيئات الشباب .

لم نسمع كثيراً عن طيارات السويد أثناء الحرب ، ولكن الألمان كانوا على علم بما تبذله السويد فى نقل أشياء ثمينة مثل القذائف الحربية إلى بريطانيا ، ومغامرات الطيارين السويديين الذين يحملونها إلى اسكوتلنده . فما انتهى القتال حتى كانت خطوط الطيران المدنى السويدية أول الخطوط الأوربية التى اجتازت الأطلنطى ، وهى الآن تطير إلى جهات كثيرة فى العالم . وتستغرق الرحلة الجوية من لندن إلى ستوكهلم نحو ست ساعات ، ولا تنزل الطيارات فى غير جوتنبرج . وفى كل نصف ساعة أو ما يقرب منه يرسل قائد الطيارة الذى يعلن اسمه للمسافرين بطاقة يذكر فيها الارتفاع والسرعة والوقت المحتمل للوصول وما شابه ذلك . وقد اهتم السويديون أيضاً بالنقل الجوى الداخلى . والسويد بلاد طويلة وضيقة ، والمسافة بين طرفى شمالها وجنوبها شاسعة ؛ ولذلك كانت المواصلات الداخلية كبيرة الفائدة . ثم هنالك الاتصال بجزيرة جوتلند الجميلة فى بحر البلطيق ، وعاصمتها فيزبى . وهى مدينة محتفظة بطابع القرون الوسطى ، يحيط بها سور لا يزال متيناً ، يبلغ طوله ميلين ونصف ميل ، وبين مبانيها القديمة بيت لأحد الأشراف من القرن الثالث عشر هو الآن أجمل مكتب للطيران فى العالم . ولقد مضى وقت كان محتوماً فيه على السفن الانجليزية والروسية وغيرها من السفن التى تتاجر فى بحر البلطيق أن تخضع لقوانين فزبى البحرية . وقد بنى تجار تلك الأيام الكثير من كنائس جوتلند التى تبلغ تسعين كنيسة ، أحدثها أنشئ

سنة ١٣٦٠ . ويقال إن الكثير منها بنى بنقود لإرضاء الضمير ، أى للتكفير عما جناه التجار من ربح غير مشروع . وأكثر هذه الكنائس الآن بلا أسقف وصارت جزيرة جوتلند تعرف الآن بأنها جزيرة الخرائب والورود . فإذا ذهبت إليها بين شهرى يونيه وديسمبر فان الورود تحييك فى كل مكان . وفيما عدا ذلك من أشهر السنة تجد الحواجز مغطاة بزهور الليلق من النوع العادى ومن النوع الأبيض الجميل .

وبماذا نصف أهل تلك البلاد الجميلة ؟ مثل واحد يكفى لبيان رقتهم . فقد حدث ذات مساء فى ستوكهلم أن كنت ألاحظ رجلا يقترب من مواطن له ضرير ، جلس مسنداً ظهره إلى حائط ، وفى حجره وعاء من صفيح لوضع مايقدمه الناس من نقود ؛ وقد تقدم الرجل ووضع شيئاً من النقود فى الوعاء وعند استئنافه السير رفع قبعته تحية للضرير . والغريب بعد هذا أنى عندما ذكرت هذا الحادث لبعض السويديين لم تأخذه الدهشة .

هنرى بيرلين

نقلها عن الانجليزية ز . ى . ع .

مقطوعات من الشعر

كلما زاد للأنام اقترابي زاد عنهم تباعدي واغترابي
إذ بدا كنههم لعيني وكنهي فبدا الفرق داعياً لاجتنابي
خدعتنا قشورنا فاجتمعنا وافترقنا لدى ظهور اللباب
وإذا جئت تطلب الري تبصر فارق الماء عن خداع السراب
فتوخيت غير صحبيَ صحباً أخدع النفس في جديد الصحاب
أنعش القلب في خداع جديد وأعزيه بالأماني الكذاب
أجعل الجهل لي وسيط ودادي لأناس حتى انقشاع السحاب

لقد تغربت حتى نسيت كل قريب
فإن رجعت لأهلي رجعت مثل الغريب
سلكت كل الدروب ألفت كل الكروب
فغربة الدار داري والأهل صحب الدروب

نروم لحاق الغرب لو ظل واقفاً بألف من الأعوام نقطعها وثبا
فهل صار أهل الغرب ناساً بعلمهم وعلمهم أفنى الذي دب أو هبا
أنعدو وراء الغرب دهراً لنغتدي وحوشاً كأهليه ! دعوا علمهم جنبا
إذا العلم لم يصلح سريرة أهله فما هو إلا الجهل قد لبس الكتبا

يعظمني الفذ العظيم بعقله فذا قد سما منه إلى فضلي الفضل
ويفهمني الشعب البسيط بروحه فيكبرني مهما يسد عقله الجهل
وينكر فضلي ناقص العلم إذ غدا مضاعاً فلا روح لديه ولا عقل
كذا يتلاقى ساكن الأرض والسما وبين السما والأرض أجوف مختل

تعجّب صاحباى من انكماشى وخالا فىَّ غطرسة فضلا
فقلت ومن أعاشر خبّرانى أريد عواطفاً وحجًى وفضلا
وما ألفى بأهل العقل عطفا ولا ألفى بأهل العطف عقلا

سرت دهراً ولم أزل فى مكانى أترانى أسير فى دوران
درت حيران واهتدى بى أناسٌ وأنا قد ضللت فى عرفانى
وكذا النجم يُهتَدَى بسناه وهو باق يدور كالحيران

باتت لهدم كيانى معاول الدهر تترى
ما يهدم الدهر منى للأرض يسقط شعرا
كأن نفسىَ شعر مبلور صيغ قصرا
يهوى على هادميه ناساً وعصراً ودهرا

احمد الصافى النجفى

المرأة فى الأندلس

للمرأة فى الأدب العربى أثر واضح لا يقل عن أثرها فى الآداب الأخرى .

ففيه من روحها سمو ، ومن وحيها إلهام ، ومن مشبوب العاطفة ضرام .

تمثلت فى خيال الشعراء واستولت على مشاعر الأدباء ، فأنطقتهم بروائع الشعر وطرائف الأدب هياماً بها وحنيناً إليها وافتناناً فى وصفها وتصويراً لمحاسنها .

ولم تقنع هى بأن يكون حظها منه التغنى بها ، فلا يكون له صدى من نفسها وتجاوب من حسها . . . بل شاركت الرجال فى أدبهم مؤثرة فيه ومتأثرة به . فنقلت عنهم ورووا عنها ، ونظمت الشعر ، وأجادت الغناء ، وطلبت كل ما يصقل العقل ويهذب النفس ويرق الشعور ، خصوصاً فى عصر ازدهار الحضارة العربية ، وما أتاحته من حرية عقلية واسعة .

فبعث ذلك فى الأدب العربى من فجر نهضته حياة زاخرة بالقوة ، على تعاقب العصور واختلاف البيئات ؛ فكان لكل إقليم طابعه الخاص ولونه الواضح من أقصى المشرق إلى أقاصى المغرب .

ذلك شأن المرأة فى العالم العربى ، تستوى فيه الحرائر والجوارى . . . وإن كان أدب الجوارى فى المشرق أكثر وضوحاً وتأثيرهن فيه أشد ظهوراً .

فقد كان تأديب الجوارى حرفة ، وتثقيفهن صناعة ، وتهيئتهن لإمتاع العقل والروح وسيلة مقصودة وغاية مطلوبة .

فاتجهت الرغبة إليهن والسعى فى طلبهن ، ليسر اللقاء فى غير خشية أو حرج . وهل كن إلا متاعاً من أنفس المتاع أو طرفة من أمتع الطرف يقتنيها من أتيح له فضل من مال ، ويتهادى بها ويغالى كل ذى جاه أو سلطان !

لقد أفدن من الأدب إقبالا عليهن وإعزازاً لهن . وأفاد منهن الأدب شعراً رقيقاً ووصفاً دقيقاً وذخيرة ممتعة تفيض بالحياة وتنبض بأدق خفايا الشعور وخلجات النفس . .

ولم يكن حظ الحرائر بأضعف من حظ الجوارى فى الحرص على التزود من المعرفة ، ولم يحل الرجال بينهن وبين أن يبلغن من العلم والأدب ما يردن .

ولئن حرم الرجال من مجالستهن ، ولم يؤثر عنهم سعى ظاهر إليهن أو اندفاع نحوهن ، فما كان ذلك رغبة عنهن أو عزوفاً عن حديثهن ، ولكن الظروف قل أن واتتهم ، فلم يكن اللقاء ميسراً فى كل آن ، فهن أسيرات بيئة محافظة غالباً وتقاليد مرعية وحفاظ من الرجل يصونهن عن التبذل والابتذال .

فهن قريبات إلى قلوب الرجال بعيدات عنهم . ولعل الكثيرات إن تحدثن فمن وراء حجاب ، و إن خالطن ففى رفق وعلى استحياء .

هذا فى المشرق . أما فى أقصى المغرب فقد كان حظ المرأة فى الأندلس من التحرر أكثر من أختها بالمشرق ، وتحللها من القيود أبعد غاية ، ونشاطها المثمر أعم وأقوى ، بعد أن فك عقالها وأصبحت طليقة من أسر موهوم ، وتفتح قلبها للحياة الحلوة ، واستمتعت بما فيها من جمال فغردت على كل فنن ، وشدت ماطاب لها أن تشدو ، لم يحل دون ذلك حائل ولم يمنع منه حجاب .

أُعجب الرجل بكل هذا واطمأن له ولم يجد فيه شذوذاً ، فسعى إليها وأقبلت عليه ، و إذا بغذائه الروحى غذاؤها ، ونشاطه الأدبى من وحيها وفى ظلها ، والانتاج العقلى شركة بينهما .

وليس هذا فى واقع الأمر بعجيب ؛ فللبيئة أثرها ، ولامتزاج الأجناس نتائجه ، وللمؤثرات الاجتماعية ضروراتها .

لقد كانت الأندلس درة فى تاج الإمبراطورية العربية تتلألأ فى جبين الدهر .

وكانت طبيعتها الضاحكة تجلو صدأ النفس وتذهب بأكدار الحياة ، وتلهب الشعور وتذكى الخيال وتسحر الألباب . وفى جوها تنفست الحضارة العربية وازدهرت ، وفى أحضان هذه البيئة الغنية شيدت القصور ، ومن حلاها ازينت فأبدعت زينتها .

وقد انعكس سحر الطبيعة على أهلها أخلاقا عاطرة من عبيرها ، ورقة ذوق من جمالها ، وخفة روح من نسيمها . فاتسموا بالظرف وعذوبة المنطق ورشاقة التعبير والتأنق فى الملبس والتفنن فى أسباب المتعة وانتهاب المسرات .

ثم إنها أفادت من المشارقة الفاتحين طيب عنصر وكرم عرق .

فاجتمع لأهلها عزة المشرق وسحر المغرب ، وابتسمت لهم الدنيا فرتعوا

فى خيراتهـا وارتووا من النعمة ، واستمتعوا بألوان من الترف دونها غاية التمنى .

كذلك يسرت لهم الحضارة أسباب الرقى العقلى والنشاط العلمى .

فأتيح للدولة الفتية فى المغرب أن تسامى دولة المشرق فى سلطانها وتنافسها فى جاهها ، و إن كانت تستمد من معينها وتغترف من بحرها ، ثم تنفخ فيه من روحها فتحيله أدباً جديداً وفنا طريفاً ، بفضل هذا الامتزاج بين خير ما فى الشرق من روح وعقل ونشاط ، وما فى الغرب من فتنة و إبداع وأسباب ثراء .

فكنت تراها موئل العلماء وملاذ الشعراء ، ومهد الفن ومرتع الظباء .

احتلت المرأة من كل هذا مكاناً ممتازاً وظفرت برعاية كريمة .

فحفلت مدن الأندلس بالكثير من الأديبات المشهورات ، وازدانت مجالس الأدب بكرائمهن ، فكانت الجرائر أو العربيات كما كن يسمين زهرة النوادى .

ولسنا بسبيل الإحصاء إن ضربنا بعضهن مثلا ولا علينا إن تجاوزنا بالحديث عن الجوارى إلى هؤلاء العربيات فهن قصدنا .

ولندع قرطبة حاضرة الحواضر وغرناطة عروس المدائن إلى حين ، لنلقى :

فى المرية منهن أم الهناء بنت القاضى أبى محمد عبد الحق ، فقد كانت «حاضرة النادرة سريعة التمثل بالشعر ، من أهل العلم والفهم والعقل » ، ولم يحل بينها وبين هذا النشاط والشهرة أن أباها كان قاضى المدينة !

وهل يتعارض وقار القاضى ومرح الأديب ؟ لقد اجتمعا فى الأندلس .

وفى وادى آش شاعرة مشهورة كانوا يطلقون عليها خنساء المغرب ، هى حمدة (أو حمدونه) بنت زياد ، إن كان فينا من يجهل اسمها فلعل الكثير منا يحفظ هذه الأبيات ويتمثل بالأخير لنوع من البديع :

ولما أبى الواشون إلا فراقنـا ... وما لهم عندى وعندك من ثار
وشـنوا على أسماعنـا كل غارة ... وقل حماتى عند ذاك وأنصارى
غزوتهم من مقـلتىّ وأدمعى ... ومن نفسى بالسيف والسيل والنار

ولئن قيل إن هذه الأبيات لمهجة بنت عبد الرازق الغرناطية دون حمدونة فلا ضير فهى أندلسية على كل حال ، وكلتاهما شاعرة مشهورة مذكورة .

أماقرطبة وغرناطةفما أكثر من احتفلت لهن المجالس ، وعمرت بهن النوادى !

وهل يجهل أحد ولاّدة إذا ذكرت قرطبة؟ أو يجوز إهمال نزهون أو حفصة إن تحدثنا عن غرناطة؟

أما قصة ولاّدة بنت المستكفى وابن زيدون فهى أشهر من أن نفيض فى ذكرها . . .

ألم تكن بنت خليفة ساء حظه وخبا نجمه بانقضاء دولته وقيام حكم بنى جهور ، فما حال ذلك دون أن يلمع فى سماء قرطبة نجمها وأن يفتن الناس بها .

كانت ذات جمال بارع ، وحسن فاتن ، ودل وتيه عرفته من نفسها وأحست إعجاب الناس بها فأعلنت ذلك التيه والدلال ، فكتبت بالذهب على طراز ثوبها الأيمن :

أنا والله أصلح للمعالى وأمشى مشيتى وأتيه تيها

وكتبت على الأيسر :

وأمكن عاشقى من صحن خدى وأعطى قبلتى من يشتهيها

وكانت خفيفة الروح حلوة النكتة واسعة الاطلاع فى الأدب مشغوفة بنظم القريض ، تتذوق الغناء وتحسن صنعته .

وكان ناديها كعبة الأدباء والأشراف والأعيان ومجلس السمار ، يغشاه ويحرص عليه أبو عبد الله البطليوسى من سادة العصر ، وابن عبدوس من كبار قرطبة وأعيانها ، وذو الوزارتين أبو الوليد بن زيدون كاتب ذلك العصر وشاعره . وكانت ولادة واسطة العقد ، وتزينه درة أخرى هى مهجة القرطبية صفية ولادة وتلميذتها فى الأدب ومنافستها فى الجمال والاستئثار بالقلوب .

كانت ولادة مصدر إلهام لفريق ومثار حسد وغيرة لآخرين ، وكلهم يحنّ إليها ويتهافت عليها .

ولها معهم نوادر وحوادث ولها بهم صلات . . . أنطقت ابن زيدون بأروع الشعر ، وأثارت فى نفسه أرق العواطف ، وأوقعت بينه وبين ابن عبدوس أبغض فرقة .

وكان ذلك مصدر عبث ودعابة تارة ، وتهكم لاذع وهجاء مر تارة أخرى . وما كانت رسالة ابن زيدون الهزلية التى عبث فيها بابن عبدوس وتهكم عليه إلا من وحيها وهى التى دفعته إلى تحبيرها .

ألم تكن هى أيضاً تنتهز الفرصة للتهكم به ومداعبته دعابة قاسية ؟

لقد مرت بابن عبدوس وهو جالس أمام داره يملؤه الكبر والعجب وحوله جلاسه وأمامهم بركة تجمعت فيها مياه الأمطار وتلوثت بالأقذار .

رأت ولادة هذا المنظر القبيح يجمع بين قذر المجلس وخيلاء الجالس ، فالتفتت إليه وقالت يا ابن عبدوس ! فابتهج للنداء وأقبل عليها بسمعه وبصره ، فما زادت على أن أشارت إلى البركة وتمثلت ببيت أبى نواس :

أنت الخصيب وهذه مصر فتدفقا فكلاكما بحر

فبهت لسماعه وخجل من جلاّسه وارتد كسير النفس زائغ البصر .

أما هى فقد انصرفت مزهوة بما أتيح لها من إذلاله .

أرأيت كيف أحسنت الاقتباس و برعت فى قلب المعنى من المدح إلى الذم !

وهل نعجب لهذا وهى الأديبة الشاعرة التى تتصرف فى كل فن وتضرب فيه بسهم ! فقد كان نظم القريض لها طبيعة ، وتراسلها به عادة ، وعدم الحرج من ذكر ما تشعر به أو يجول بخاطرها من العواطف والأهواء سجية .

وأى حرج فى أن تفصح عن هواها ومكنون عاطفتها ، فتكتب إلى ابن زيدون وقد ظل يرقب رؤيتها بعد طول تمنع :

ترقب إذا جن الظلام زيارتى فانى رأيت الليل أكتم للسر
وبى منك ما لو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر

وهل ترى غريباً أن تذكر الفراق ولوعته وساعة الوداع وحرقتها ! فتروى عنها هذه الأبيات المشهورة :

ودّع الصبر محب ودّعك ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن زاد فى تلك الخطا إذ شيعك
يا أخا البدر سناءً وسنا حفظ الله زماناً أطلعك
إن يطل بعدك ليلى فلكم بت أشكو قصر الليل معك

فاذا صحت نسبتها إليها فلا عجب ، نقد كان ذلك مألوناً شائعاً فى الأندلس .

وما أكثر ما أفصح النساء عن هواهن بأصرح من هذا .

لقد جمعت ولادة إلى بارع الجمال بارع الأدب ، والتصرف فى فنون القول : تشكو إذا أحبت ، وتعتب إذا هجرت ، وتهجو إذا أبغضت ، وتفحش فى الهجاء أحياناً حتى لتكاد تبذ ابن الرومى فى إفحاشه ، وهى مع كل ذلك حبيبة إلى كل قلب قريبة من كل نفس .

وبعد فهذا لون من حرية القول وصورة من أدب النساء عرضنا عليك طرفاً منه فى شخص ولادة .

ولا يذهبن بك الظن إلى أنا نتجنى عليهن أو نسرف فى تعميم الحكم حين نسوق الرأى ؛ فالمقَّرى نفسه يقول فى حديثه عن ولادة : « وكان لها مجلس يغشاه أدباء قرطبة وظرفاؤها ، فيمُر فيه من النادر و إنشاد الشعر كثير لما اقتضاه عصرها من مثل ذلك ! »

فهذا حديث ولادة فى قرطبة ، وقد عاشت فى القرن الخامس حتى نيفت على الثمانين . أما غرناطة وشاعرتها نزهون القلاعية فما أقوى الشبه بين الأديبتين وأقرب التوافق بين الشاعرتين فى المزاج وخفة الروح ورقة الشاعرية وما أتيح لكل منهما من الحظوة ودواعى الشهرة !

وليس بينهما من فرق إلا أن ولادة كانت بنت خليفة من خلفاء الأندلس . أما نزهون فلم تسعد بذلك أو لم تنكب به نكبة ولادة فى أبيها ، بزوال سلطانه وضياع ملكه .

ولعلها كانت بنت عالم أو أديب ، وقد تكون ابنة أحد الأشراف أو الأعيان . فما نعلم عنها إلا أن اسمها نزهون بنت القلاعى . ولا يعنينا هنا تقصى حسبها ونسبها . و إنما يكفى أن نعرف أنها كانت من الفتيات اللاتى نهض بهن أدبهن وظرفهن وجمالهن ، فاحتضنتها غرناطة وهيأت لها كل أسباب الظهور .

فقد اجتمع لها — إلى جمالها وظرفها — حس مرهف ونفس شاعرة وبديهة حاضرة واطلاع واسع أعانها على الامتياز فى المسامرة والجلد على المساجلة ، فوق مقدرتها على نظم القريض ، فأعجب بها الشعراء وناظرها الأدباء وهام بها الأشراف فسعوا إليها ، فاستمعت لهم وتحدثت إليهم وجادلتهم فخلبتهم وغلبتهم .

وكانت هى الأخرى فى غرناطة كولادة فى قرطبة درة المحافل وزهرة المجالس .

ولئن كان ابن زيدون هام بولادة وشقى بحبها كما سعد بقربها ، فلعل

نزهون لم تكن أقل منها شأنا ولا أضعف حظاً . فقد فتن بها الوزير أبو بكر ابن سعيد فتنة جعلته لا يطيق لها فراقاً ، وهو أديب شاعر ، فهو بجمالها مسلوب الفؤاد وبأدبها وظرفها مفتون . إن غابت عنه راسلها ، و إن سعى إليها أو زارته طارحها الشعر وبثها مكنون النفس .

وكم كانت لها مجالس معجبة مع ابن سعيد ضمت أمثال أبى بكر الكنتدى الشاعر وابن قزمان الأديب وأبى بكر المخزومى الأعمى وغيرهم ، وجرت فيها النوادر المستملحة والطرف المستعذبة ، ومطارحة الأشعار ، والاستمتاع بأعذب الغناء .

وكانت نزهون تشارك فى كل هذا ، فتسامر وتداعب ، وتنقد وتقسو فى النقد .

ولعل فى رواية مجلس لها مع المخزومى ما يكشف عن دقة ملاحظتها وميلها إلى الدعابة ولو خرجت عن حدود الوقار المرسوم .

وذلك أنه وفد يوماً على غرناطة ، فدعاه الوزير أبو بكر بن سعيد إلى مجلس من مجالسه وقد عطر بالند والعود — وكانت نزهون حاضرة — فلما استقر به المجلس وأفعمته روائح الند والعود والأزهار وهزت عطفه الأوتار — كما يقول نفح الطيب — طرب وأنشد :

دار السعيدى ذى أم دار رضوان ... ما تشتهى النفس فيها حاضر دان
سقت أباريقها للند سحب ندى ... تحدى برعد لأوتار وعيدان
والبرق من كل دن ساكب مطراً ... يحيى به ميت أفكار وأشجان
هذا النعيم الذى كنا نحدثه ... ولا سبيل له إلا بآذان

فلاحظ أبو بكر على الشطر الأخير ملاحظة عابرة .

وأما نزهون فكان لها موقف آخر مع المخزومى أدق وأشق ، ولم ترهب سلاطة لسانه فقد كان شديد الشر معروفاً بالهجاء مسلطاً على الأعراض . قالت : وتراك يا أستاذ قديم النعمة بمجرد ند وغناء وشراب فتعجب من تأتيه وتشبهه بنعيم الجنة وتقول ما كان يعلم إلا بالسماع ولا يبلغ إليه بالعيان . . .

ثم إنها لم تسكت عند هذا ولعلها حرصت على إثارته و إن كانت ستتقاضى جزاءها على التعرض هجاء مرًّا وطعناً بذيئاً . . . فهى تستدرك على ملاحظتها وتعتذر عن نقدها بما هو أقسى وآلم فتقول :

ولكن من يجئ من حصن المدور وينشأ بين تيوس وبقر من أين له معرفة

بمجالس النعيم . . . كانت مفاجأة للمخزومى لم يتوقعها ، فتنحنح وتهيأ للجواب وكأنها أرادت أن تهيجه ليخرج عن حده فقالت : ذبحة .

ولكنه تمالك أول الأمر وقال : من هذه الفاضلة ؟

فتعمدت إثارته وقالت : عجوز مقام أمك ! فما بقى فى قوس الصبر منزع ، وأجاب : كذبت ، ما هذا صوت عجوز ، إنما هى نغمة . . . تشم روائح ها هنا على فراسخ . . . وأراد الاسترسال . . . فعمل الوزير أبو بكر بن سعيد على تدارك الأمر وقال : يا أستاذ هذه نزهون بنت القلاعى الشاعرة الأديبة .

فأجاب : سمعت بها لا أسمعها الله خيراً ولا أراها إلا . . .

وتطاول ، وتبادلا هجاء مقذعاً وطعناً مراً . . . لعل أهونه قوله :

على وجه نزهون من الحسن مسحة ... وتحت الثياب العار لو كان باديا
تواركِ نزهون قواصد غيرها ... ومن قصد البحر استقل السواقيا

ونضرب صفحاً عما أجابت به أو قاله مما جعل ابن سعيد يحلف ألا يزيد أحدهما على الآخر كلمة هجاء . . . ثم أصلح بينهما .

فهل سمعت فى حديث النساء مثل هذه الصراحة والجرأة فى المساجلة ولو انحرفت عن السبيل على نحو ما رأيت ؟

إن كان هذا قليلا أو نادراً فى المشرق فما أكثر ما نراه فى المغرب . . . وإن دل على شئ فانما هو مظهر لهذه الحرية الواسعة فى الحديث ، ونتيجة لهذا التسامح الذى أباح للأندلسية ما لم يكن يُرضى عنه أو يُطمأن إليه لمثلها من الحرائر فى المشرق .

وشاءت المصادفة أو قضت البيئة بأن تكون نزهون كولادة فى سرعة الخاطر وحلاوة النكتة وتصيد الفرصة للفكاهة والمداعبة .

فاذا سمعت ابن قزمان يتحدث فى مجلس ابن سعيد — وقد أضافه — ويطول الحديث والنقاش والمباراة ، فيعجبها منه ذلك ، ويغريها به جبة صفراء كانت يتزيا بها على هيئة الفقهاء فى ذلك العصر ، فتقول : أحسنت يا بقرة بنى إسرائيل إلا أنك لا تسر الناظرين . . . فيرد عليها بجواب لاذع فيه فحش أيضاً .

وكذلك هى فى حضور بديهتها فقد كانت تقرأ على المخزومى (أطرافاً من الأدب وفنوناً من الشعر) وقد عاد الصفاء بينهما ، فدخل عليهما الكتندى .

وقال يخاطب المخزومى :

لو كنت تبصر من تجالسه

— وانتظر أن يجيزه فأفحم . . . وما وجد شيئاً فأسعفته نزهون وأجازت : —

لغدوت أخرس من خلاخله
البدر يطلع من أزرّته والغصن يمرح فى غلالته

كانت شاعريتها وظرفها سبباً فى أن يفتن ابن سعيد بها، ويشقى ببعدها فيعاتبها على تجنيها أو توهمه هجرها و يرسل إليها :

يا من له ألف خل من عاشق وصديق
أراك خليت للناس منزلا فى الطريق

فتكتب إليه لتنفى عنه الوهم وتبين منزلته عندها :

حللت أبا بكر محلا منعته سواك وهل غير الحبيب له صدرى
و إن كان لى كم من حبيب فانما يقدم أهل الحق حب أبى بكر

وليس يهمنا ضعف الأسلوب ولا أن نشير إلى ما فى الشطر الأخير من استغلال لطيفة ، لاشتراك ابن سعيد والخليفة الأول أبى بكر الصديق فى الكنية فتستعير رأى جماعة المسلمين فى تقديم الصديق على غير ما يراه الشيعة من تقديم الامام على ، لتسجل به حب أبى بكر بن سعيد و أنه أولى بالتقديم فى رأى أهل الحق . . .

لقد أردنا من ذكرهما بيان ما فى شعرها من صراحة فى القول و إفصاح عن مكنون العاطفة تدفعها إلى تذكر حنينها إلى اللقاء وتغنيها بأوقاته . . . ولعله كان فى الليل أكثر منه فى النهار، وربما كانت ليلة الأحد هى الحبيبة. ألا تراها تقول :

لله در الليالى ما أحيسنها وما أحيسن منها ليلة الأحد
لو كنت حاضرنا فيها وقد غفلت عين الرقيب فلم تنظر إلى أحد
أبصرت شمس الضحى فى ساعدى قمر بل ريم خازمة فى ساعدى أسد

هذه نزهون وتلك ولادة ، قد ذكرنا طرفاً يسيراً من أخبارهما . ولولا الاسراف فى الطول لأتبعناهما بثالثة لا تقل عنهما حظا فى الجمال إن لم تزد عنهما إمتاعاً فى الحديث وتحللا من القيود وإفصاحاً عما تريد ، حتى لقد كتبت إلى بعض أصحابها :

أزورك أم تزور فان قلبى إلى ما تشتهى أبداً يميل
فثغرى مورد عذب زلال وفرع ذؤابتى ظل ظليل
وقد أملت أن تظما وتضحى إذا وافى اليك بى المقيل
فعجل بالجواب فما جميل إباؤك عن بثينة يا جميل

وهذه هى حفصة بنت الحاج الركونية .

وقد لا نعدو الحق أو نتجاوز الواقع إن رأينا فى هؤلاء صورة صادقة للعربيات فى الأندلس . فما كان الأمر مقصوراً على واحدة أو اثنتين فيوسم بالشذوذ وينبو عنه القياس .

ولم تكن قرطبة أو غرناطة وحدهما منبت هذه الزهرات ومسرح أنس هؤلاء الأقوام ؛ فكل مدينة — كما قدمنا — تستمد من نفس المنبع وتفيض بماء الحياة الدافق فتروى هذه النفوس الظائمة .

وبعد أفلا ترى معى أن المرأة العربية فى الأندلس قد نالت من الحرية الأدبية فوق ما نالته المشرقية ؟ ألم تستمتع بمجالس وتتحلل من قيود ما كانت لتظفر بالفكاك منها لو كانت فى المشرق ؟

لعل هذه البيئة المرحة الطروب ، وهذا الامتزاج وتزاوج الأجناس ، وهذه الحياة الاجتماعية الجديدة ، هى التى سوغت كل هذا وأعانت عليه ، فأصبح ضرورة من ضرورات ذلك العصر .

عبد العزيز أحمد

ليلة العيد

ذهبت لزيارة خالتى أم علىّ عجوز القرية عندما لبيت دعوة صديقتى المعتادة، لقضاء إجازة عيد الأضحى . فقد كنت أجد عندها أحدث الأخبار والأقاويل ، وأكثرها تشويقاً . وكانت تحدثنى دائماً أحاديث طويلة مضحكة لا أظنها إلا من نسج خيالها . وكانت أم على خصبة الخيال ، غزيرة المادة ، تعبر عما يجول بخاطرها فى طلاقة وقوة تدعو إلى الدهشة ، كما كانت تنحو نحواً خاصا عند قصها الحكايات والأخبار . وكانت حكاياتها تدور حول شبابها وحول جمالها الفتاك ، الذى أصبح أثراً بعد عين ، والقلوب التى غزتها والمعارك التى كانت تقوم بين شباب القرية حولها . وكنت أحب الاستماع إليها لخفة روحها التى كانت تنسينى قبح شكلها ، بالرغم من أنى كدت أحفظ عن ظهر قلب كل ما كان عندها من حكايات .

دخلت عليها هذه المرة وحييتها فى حرارة ، غير أنى لاحظت أن أمراً أصابها . فهى لم تستقبلنى بالمرح والحرارة اللذين ألفتهما منها ، فهممت بالانصراف . وكأنها لاحظت منى ذلك ، فأسفت على ما فعلت ، وسرعان ما تغيرت وعادت إلى طبيعتها المرحة ، وهبت واقفة ترحب بى بالعبارات المعتادة التى كنت أشتاق إلى سماعها منها . ولكن ذلك لم يكن ليخفى الألم الذى كنت قد لاحظته عليها أول الأمر .

وقالت معتذرة :

— لا تؤاخذينى يا بنتى ! لقد سمعت قصة آلمتنى . وكم أود لو أستطيع لهذا الاشكال حلاً .

فقلت لها :

— هات ما عندك يا خالة ، لعلّى مهتدية إلى حل إشكالك .

وهنا اتجهت بنظرها إلى ناحية من الغرفة ، وكنت إلى ذلك الوقت لم ألحظ أن فى الغرفة غيرها ؛ إذ شغلنى ألمها البادى أول الأمر عن ملاحظة أى شئ

آخر . فرأيت فى أحد أركان الغرفة الرحبة امرأة ترضع طفلا عمره نحو سنتين . وتأملت فى وجه الفلاحة فاذا بى أمام جمال يعجز القلم عن وصفه مهما أوتى من قدرة ؛ وجه كله فتنة فطرية ، فيه سذاجة وبراءة طبيعية ، لا نجدها إلا فى الريف ؛ وجه صبوح يبعث الراحة والهدوء ، وثغر باسم و إن كنت قد لاحظت شيئاً لم أدرك كنهه وراء هذه الابتسامة الخلابة . واستوقفنى جمال عينيها والروح التى تنبعث منهما ، ففى نظراتها حزن عميق ، وألم دفين ، وأسرار غامضة ، خيل إلىّ أنها تعود إلى سنين مضت . وشعرت صاحبتنا بعينىّ لا أرفعهما عن وجهها ؛ فحاولت إخفاء شئ عنى ، كأنها تريد ألا تشعرنى بما يجول فى خاطرها فيؤلمها ويقلقها ، فابتسمت تلك الابتسامة الجميلة ، ثم حنت رأسها على طفلها كأنها تهمس فى أذنيه بشئ ما .

وذكرتنى وهى فى هذا الوضع بصورة مريم العذراء والسيد المسيح . وكم وددت لو كان ميكل أنجلو إلى جانبى ليرسمها على لوحة تبقى مدى الدهر ويتمتع بها محبو الفن . غير أن خالتى أم على لم تتركها طويلا تسبح فى عالمها ، فحدثتها عنى بما جعلها تطمئن إلى وتأنس بى ، فرفعت رأسها وتفرست فى وجهى بضع ثوان ثم ابتسمت ثانية ابتسامة عبرت عن رضا تام وثقة كبيرة . وهنا كررت على أم علىّ سؤالى ، فقالت :

— المسألة مسألةً الشيخة فاطمة ، وقد سمعتها منها فأثرت فىّ . كم أكون مسرورة يا بنيتى لو استطعت مساعدتها . لقد أطلق عليها أهل قريتها لقب شيخة بعد ما وقع لها . . .

فقلت ضاحكة :

— لعلها تتنبأ بخير يأتينا قريباً أو بعيداً .

فقالت أم على :

— بالله عليك لا تضحكى . وأمامك أم فقدت أعز ما تملك ، وهى على حافة الهاوية مرة أخرى . إن مشكلتها كبيرة تحير الألباب ، لم أر مثلها فى حياتى . حقا أنى لست بعجوز ، ولقد مر بى كثير من الأحداث .

وكانت هذه عادة أم على أن تذكرنا بأنها لم تهرم بعد ، و إن كان سن الشباب قد ولى . ورجوت الشيخة فاطمة أن تقص علينا قصتها ، فقالت : إنها تزوجت من ابن عمها ، وكانت موفقة كل التوفيق فى زواجها . وفى نهاية السنة الأولى من زواجها ، وضعت طفلة لم تقابل بالترحاب ؛ لأن الزوج كان يأمل

أن يولد له غلام . غير أنه سرعان ما نسى شوقه إلى غلام ؛ لأن زينب ملأت عليها البيت بضحكها وصراخها ، وخلقت فى البيت جوا من البهجة والمرح . كما كانت مشغوفة بأبيها لاتتركه طويلا . وسرعان ما مر الزمن ، و إذا بها تبلغ العامين من عمرها ، ووالدها فى راحة وهناء قلما يتمتع بهما الناس ، ولكن . . . دوام الحال من المحال — ثم أغمضت فاطمة عينيها ، وتنهدت بألم ، وعضت على شفتها كأنها تود أن تبعد من مخيلتها صوراً وذكريات ، ورأيت دمعة تسقط من عينيها المغمضتين ، حاولت هى إخفاءها بمسحها بيدها . فأردت أن أروح عنها بألا أتركها تكمل حديثها ، ولكنها صممت على متابعة كلامها وقالت :

— انتظرى قليلا ، فما حدث بعد ذلك هو موطن دائى . فى ليلة عيدالأضحى جلست أخيط ثوب ابنتى الذى كانت ستلبسه أول يوم العيد . وما انتهيت من الثوب حتى آثرت أن آوى إلى فراشى لكى أدفأ ، إذ كان الشتاء فى تلك السنة شديد البرد ينفذ إلى العظام . وسمعت طرقاً خفيفاً على الباب فى منتصف الليل ، ففتحت عينى وأنصتّ ، ولكنى لم أسمع سوى المطر المنهمر ، وكأن أبواب السماء تفتحت عيون كبيرة ، يتدفق منها الماء تدفقاً هائلا . وكنت أسمع صوت الرعد قويا وأرى البرق الخاطف ينير غرفتنا الصغيرة من آن لآخر . ورأيت زوجى نائماً نوماً عميقاً بعدعمله الشاق فى الغيط . ولما لم أجد ما يزعج تركته ينام حتى يستقبل العمل فى اليوم التالىموفور النشاط . ثم حاولت النوم ، غير أنه لم تكد تمضى بضع دقائق كنت قد استغرقت فىالنوم أثناءها حتى سمعت الطرق على نحو أعنف، ففتحت عينى ثانية ، وجعلت أنصت إلى صوت آخر إلى جانب صوت المطر الذى كان قد اشتد . وشعرت أنى منقبضة النفس ، كأنى أنتظر حدوث مكروه . إن ثورة الطبيعة العنيفة خيلت إلى أن هذه هى نهاية العالم وفناء من عليه . فحاولت أن أسرِّى عن نفسى بقراءة الفاتحة وبضع آيات من القرآن اعتدت قراءتها كلما شعرت بخوف أو اضطربت . وهممت بأن أوقظ زوجى ، ولكن قلبى لم يطاوعنى ، إذ تذكرت العمل المضنى الذى يقوم به من طلوع الشمس حتى غروبها . كل هذا وصغيرتى تنام بجانبى نوماً هادئاً . وحاولت أن أنام ، فلما لم أستطع قمت من فراشى وتوضأت وصليت ركعتين لله تعالى . لعله يسرِّى عنى ويزيح هذا الكابوس الذى أشعر به . وكأن الصلاة بعثت فى نفسى الراحة المنشودة فنمت ، ولكن نومى لم يطل إذ استيقظت على الطرق لثالث مرة ، وقد اشتد حتى خيل إلىّ أن

باب الغرفة كاد يقلع . فصرخت قائلة : من ؟ من هنا ؟ ولما لم يجبنى أحد ، أيقظت زوجى وقصصت عليه ما سمعت . فقال وهو نصف نائم : هذا صوت المطر يا فاطمة ، نامى ولا تنزعجى . غير أنى لم أستطع أن أنام ؛ فقد كنت لا أزال أسمع الطرق . وأخيراً وأنا بين اليقظة والنوم رأيت الباب يفتح بكل لطف وسكون ، ثم رأيت شبحاً طويلا يلبس ملابس بيضاء ، يدخل الغرفة ويقترب منى شيئاً فشيئاً حتى وقف إلى جانبى . وانعقد لسانى من شدة الخوف ، فلم أقو على الكلام أو الصراخ . وكأنه فطن إلى ما أردت فعله ، فقال بهدوء : لا تخافى منى لا أريد إلا زينب الصغيرة . وأخذها من جانبى ، ومسك يدها ، وخرج بها من الغرفة. فصرخت صرخة خرجت من أعماق قلبى ، استيقظ على أثرها زوجى وابنتى ،وأخذت أتلمس ابنتى فاذا بها ما زالت إلى جانبى ، فأخذتها وضممتها إلى صدرى فى قوة وعنف ، وصرت أقبلها بشغف ولهفة ويدى تتحسس جسمها الصغير وتتلاعب بشعرها لأجد فى لمسى إياها الراحة التى كانت تملأ جوارحى كلما فعلت ذلك . ولكنى لم أستطع ، فبكيت بكاء مرا واضطربت أعصابى ، حتى خيل إلى زوجى أنى قد جننت ؛ ومازال بى يلاطفنى ويهدىء من روعى ، حتى استطعت الكلام . فقصصت عليه ما وقع ، ولكنه سخر منى وقال ضاحكا : لا تخافى شيئاً إننا مؤمنون ، ولن يسيئنا الله فى أعز ما نملك . هذا كابوس لأنك أكلت كثيراً ليلة أمس ، ثم نمت بعد العشاء مباشرة وساعد على الكابوس الطبيعة الثائرة . ارقدى إلى جانبى ، لقد بدأت الديكة تصيح ، وعما قريب تبدد الشمس ظلمات الليل ، ويذهب معها كل خوف .

لم أترك ابنتى تبتعد عنى طوال اليوم التالى ؛ إذ استمر يساورنى شعور مبهم من الخوف على وحيدتى . ولم يكد ينتصف النهار حتى قربت منى ووضعت رأسها على صدرى ، ثم ضمتنى إليها بحنان وقبلتنى كعادتها وقالت : « أمى هنا واوا » مشيرة إلى عنقها . خفق قلبى وتذكرت الليلة الماضية ، فمادت الأرض تحت قدمى، ولو أن الأرض انشقت وابتلعتنى فى تلك اللحظة ، لكان أهون على من رؤية ابنتى وهى تشكو . أرسلت أحد الغلمان لنداء زوجى فحضر مسرعاً ؛ إذ لم تكن من عادتى أن أناديه أثناء عمله . فأخبرته بما وقع ، فأشار على بوضع كمادات دافئة على عنقها ، وأخذ حرارته وذهب لاستدعاء طبيب المركز . وخيل إلى وأنا فى انتظاره أن الزمن لا يتحرك وأن غيابه طال . ولم تلفظ زينب كلمة واحدة رغم كل الجهود التى كنت أبذلها معها . وأخيراً حضر الطبيب مع زوجى . وما كاد يفتح فمها

حتى هز رأسه كمن لا حيلة له أمام إرادة الخالق ، وقال : الطب لا يجدى ولا ينفع . تشجعوا فالموت علينا حق وأنتم ما زلتم صغار . . .فقطعت عليه كلامه بصرخة حادة ، إذ كنت أرى طفلتى العزيزة وهى فى أشد الألم تعانى سكرات الموت . وأخيراً أسلمت الروح ، وصعد مَلَكٌ صغير إلى السماء . فقطعت عليها كلامها ، وسألتها : ألم يخبرك الطبيب بأى شئ ماتت . قالت : نعم ، سألته فقال إنه مرض من أخبث الأمراض التى تصيب الأطفال ، إنه الخناق .

ومرت فترة كدت أنسى فيها هذه الحادثة ، لأن الله أنعم علىّ بطفلة أخرى . وعملت بنصيحة أهل القرية هذه المرة ، فتناسيتها أول الأمر ، ثم بعتها بمليم إلى أم عندها تسعة أولاد . واستحوذ على عقلى أحد المشايخ ، فأنفقت كثيراً من مال زوجى ، وبعت بعض الحلى فى صنع التعاويذ و إطلاق البخور ؛ فلقد كنت أخاف عليها أشد الخوف . ولكن كان هناك هاتف يهتف فى أذنى دائماً : انتظرى لم يحن الوقت بعد . لا تخافى الآن . وأخيراً حان ميعاد الزيارة المنتظرة ، وفى ليلة العيد زارنى الشبح زيارة تشبه الأولى ، ومرت أيام العيد دون أن يحدث شئ ، فكدت أطير فرحاً ، وبدأت أشعر بأن قلقى على طفلتى هو الذى أوحى إلىّ هذا الحلم المزعج. ولكن فى نهاية الأسبوع خرجت طفلتى تلعب مع سائر أولاد الجيران ، وعاد الجميع إلى أمهاتهم ، ولكنها لم تعد . وبحثنا عنها فى كل مكان فلم نجد لها أثراً ، وأخيراً وبعد أيام انتشلت جثتها من الترعة . وذاع الخبر عند أهل القرية ، فأطلقوا علىّ اسم الشيخة فاطمة . وحاولوا محاولات عدة لعلى أتنبأ لهم بشئ ، كما تنبأت بموت طفلتى ، ولكنى لم أستطع .

لم أطق صبراً بعد ما حدث لى ، فاعتزمت الرحيل وخاصة عندما أيقنت أنى أحمل بين أحشائى طفلا . وكنت لا أستقر فى مكان حتى أرحل عنه . ووضعت فى هذه الأثناء مولوداً ذكراً هو هذا . وأخيراً وصل بى المطاف إلى هذه القرية . وسمع الجميع بقصتى ، وكنت قد عزمت على الرحيل من هنا بعد يومين من وصولى ، ولكن ما لقيته من عناية ورعاية جعلنى أطيل إقامتى ، وخاصة عند خالتى أم على . فقد أشفقت علىّ وحاولت أن تسرّى عنى بحكاياتها المسلية .

قلت لها :

— لا تيأسى من رحمة الله . إن المؤمن مصاب والله يمتحنك .

فأجابتنى والدمع يترقرق فى عينيها :

— لقد امتحننى بما فيه الكفاية . لقد وهب لى طفلتين جميلتين ، ولم أكد أتمتع بهما حتى أخذهما منى ، ولا أدرى لذلك سببا . . . ثم قالت فجأة :

— إن عيد الأضحى بعد يومين ، سأمضى اليوم هنا عند خالتى أم على لتروح عنى ، وتبعد عن مخيلتى الخواطر المزعجة ، سأمكث عندها حتى مطلع الفجر . ثم أرحل إلى قرية بعيدة لا أعرفها ، ولا أعرف من أهلها أحداً . . . . قرية بعيدة لا يستطيع الطيف أن يصل إلى فيها . إن الخوف يقلقنى ولا يريحنى لا ليلا ولا نهاراً ، ومصير ولدى محمد المعلق يذهب بعقلى . أرى خيوط الأمل فأتعلق بها ، ثم يعاودنى اليأس القاتل فلا أستطيع الهدوء . لقد فقدت بنتين ولكن . . . محمد . . . إنى لا أستطيع فراقه ، ولا أطيق البعد عنه لحظة من لحظات حياتى .

وأخذت تبكى فى حرارة بكاءً مرًّا أليماً ، وكانت الزفرات تخرج من بين جوانحها فتهز مشاعرى . ولكنى تركتها تبكى أول الأمر حتى تزيل شيئاً مما بها ، وتريح أعصابها المحطمة ، فالبكاء فى هذه الحال علاج نافع . وأخيراً بدأت أحدثها حديثاً طويلا عن رحمة الله الواسعة ، وأذكرها بعطفه على عباده ، وأنه لا شك سيوليها من رحمته وعطفه الشئ الكثير ، وسترزق أولاداً ينسونها ما مرت به من شقاء وبؤس . وهكذا مر الوقت وأنا ألاطفها حتى رأيت الدمع يجف من مقلتيها ، وأعدت الابتسام إلى ثغرها . وقد كان لحديثى بعض الأثر ، فرأيت نوراً من الأمل إلى جانبَ ما كنت قد رأيت من ألم .

وتركتها بعد ذلك وعوامل اليأس والأمل تتنازعها . إن الموت نهاية كل كائن حى . ولكن من منا يستطيع أن يزيل عن أم آلامها ويجعلها تنظر إلى الموت نظرة فلسفية ! ولم يسعنى بعد تركها أن أتم زياراتى المعتادة فقد كنت مرهقة الأعصاب حزينة النفس ، فآثرت أن أنضم إلى صديقاتى .

مضى أسبوع العيد وحان ميعاد رجوعنا ، فذهبت لزيارة خالتى أم على لأستطلع أخبار فاطمة البائسة ، وإذا بها تستقبلنى ضاحكة كعادتها . ولما سألتها عما كنت أودّ أن أعرف قالت :

— سافرت قبل العيد كما قالت ، ولا ندرى عنها شيئاً الآن . لقد حاولت أن أخفف عنها ، ولكن . . . ثم هزت كتفيها ، وقالت ضاحكة : ماذا من موت طفل أو اثنين أو حتى ثلاثة ، إننا هنا فى الريف نلد فى سرعة ، وأولادنا أكثر من النمل من عاش عاش ومن مات مات . هه ! إنها عصبية دعينا منها ، إنى لا أحب أن

أفكر كثيراً فيما يحزننى ، ولهذا حافظت على جمالى ! ثم بدأت تسرد قصصها الشيقة المعتادة .

لقد حاولت كثيراً أن أعرف أخبار فاطمة بعد ذلك ، ولكن تلك العجوز المرحة ، كانت مفتاحى الوحيد إليها ، وقد فقدت فى أخبار فاطمة كل لذة وشوق ،إنها معنية بأحاديثها هى . ترى أين ذهبت يا فاطمة ؟ وماذا أصابك ؟ ألا فليلطف بك الله فلكم تألمت !

راجية فهمى

فى رثاء الأستاذ طه الراوى

أيا موت يكفينى فقد طفحت كأسى ... و إن كنت لا تعيا فقد سئمت نفسى
لقد دب حزنى فى دمى ، فى تأملى ... وفى شعرى الباكى ومن ثمّ فى لبسى
أنوح على الأمس الكئيب بلوعة ... وما عشت لن أنسى النياح على أمس
فبالأمس ولّى من أحبُّ وها أنا ... أجرّعُ ألواناً من الهم والبؤس
تيتمتُ مالى مَنْ ألوذ بعطفه ... توحدت فى دنيا الخديعة والدس
مضى الوالد الحانى وَخُلِّفْتُ بعده ... لألقى سهام النائباتِ بلا ترْس
وأبعدَ قسراً عن أكفٍّ حبيبة ... فبات رهين الترب فى ظلمة الرمس

وجئت إلى بغداد أنشد سلوة ... وقلتُ يموت الهمُّ فى روضة الدرسِ
ولكنها الأقدار! تأبى سوى الأسى ... ويحلو لها أنى مطأطئة رأسى
فجعتُ بأستاذى غداة قصدته ... لأروى صدى فكرى فصدّقنى حدسى
وذلك أن النحس لا شك صاحبى ... فان رمتُ سيراً سار فى موكبى نحسى

أتيتُ أُلقّى الدرس من ثغر ربه ... فوا حسرتا قد مُتّ ياصاحب الدرس
رجوتُ بك النصر العزيز على الأسى ... فخاب رجائى ، فاستكنتُ إلى يأسى
عرفتُك لم يُكْحَلْ بمرآك ناظرى ... ولا غرو—نشر الروض ينبى عن الغرس
فأحببتُ فيك الفكر بالعلم زاخرا ... وأكبرت فيك النبل ياطيب النفس
وما أنا وحدى قد رُزئتُ وإنما ... مصيبة رب العقل فاجعة الجنس

عجبت لقلبي صار للحزن موئلا ... وكان مدى الأيام في بهجة العرس
عجبت لأيام السرور تصرَّمتْ ... ولم تبقَ غيرَ الذكريات من الأُنس
وأعجبُ من هذا أناسٌ تباهلوا ... يقولون يا هذي اتركي ما مضي وانسي

أتيت أغنّي الفجر أشجُي ملاحني ... وعدتُ كبومِ القفر في مغرب الشمس
فيا طفلة تلهو لقد صرتِ شيخة ... بدا جذعها من شدة الحزن كالقوس
فلا تبخلي بالدمع ما ساعف البكى ... فليس لدمع حين ينهلُّ من حبس
ويكّي لنا نحن الضعاف فدأبنا ... غرور وكيد واعتراك على الفلس
ونحن عبيد للفناء يسوقنا ... فنصبح في دار وفي غيرها نمسي

طيبة عباس عمارة

شهريات

شهرية الفن

المعرض الدولى للفنون الجميلة المعاصرة

القاهرة — مارس ١٩٤٧

إذا لم يكن هذا المعرض العظيم دوليا بأدق معانى الكلمة (لأن بعض الدول ولا سيما الممتازة فى الفن كايطاليا وأسبانيا لم تمثل فيه) فهو رمز قوى جدا للتعاون الفنى بين الدول ووعد حسن للمستقبل بحيث يكون المعرض المقبل دوليا حقا .

أما الذى نلاحظه فى المعرض الذى أقيم فى السراى الكبرى بالجمعية الزراعية الملكية بالجزيرة ، فهو وفرة بعض الأقسام ، لا أعنى وفرة المعروضات فقط ، بل وفرة المزايا الفنية أيضاً . ومن الأقسام التى تمتاز ، القسم البلجيكى . ففى هذا القسم معروضات كثيرة العدد ، كثيرة الاختلاف ، شديدة التنوع . ينقسم كتالوج هذه المعروضات على حسب الأجيال أولا . فالباب الأول هو الباب المخصص للماضى ، فيه آثار للتصوير ، والرسم ، والنحت . والباب الثانى مخصص للفنانين الأحياء فيه آثار التصوير والرسم والنقش والنحت ، وفيه نقود ، وقسم صغير مخصص « للتصوير البلجيكى الحديث » .

أما الباب الثالث والأخير فيجمع تحت عنوان « الصنائع الفنية » صمغ اللك ، والخزف ، والبللور ، والطراز ، والكتب . وفى أسماء الفنانين الأحياء اسم يوجد أكثر من مرة ، فى التصوير والنقش ، وهو اسم الرسام المعروف جيمز إنسور James Ensor ونحن نعترف بكل تواضع أننا نفضل نقوش هذا الفنان على اللوحتين المعروضتين علينا . فى نقوشه شئ من السخرية ومن المرارة . فى اللوحات لاحظنا لبول فرونييه ، «الميناء القديم فى مارسيليا»(١) فيه دعوة البحر الجذابة ، وإن لم ير البحر ، فالدعوة فى سوارى المراكب ، وفى الجو الصافى الناضر ، وفى هذه الألوان الرقيقة المتنوعة . هناك لوحة أخرى استوقفت عنايتنا هى لوحة فرانز

(١) Paul Frognier, *Le vieux port à Marseille* (gouache) [121]

ماسيريل ، عنوانها « المرأة الغاسلة »(١) تختلف هذه الصورة عن الصورة التى كنا نتكلم عنها — فاذا كانت الأولى واضحة منيرة فى الرسم والألوان ، فالثانية تعجب لقوتها فى التعبير وثبات تكوينها . أما الألوان ، فهى عميقة الإشعاع ، حازمة التعارض . ولنقل كذلك شيئاً عن لوحتين لفنانين مختلفين ولكن موضوعهما واحد ، وهو « حديقة بروكسيل » — الأولى لجستون برتران [٤٧٠] Gaston Bertrand وقد تكون « كلاسيكية » (بالقياس إلى المذاهب المحدثة ، بالطبع) يكاد الناظر إليها يميزها بكلمة الاستقرار ، استقرار الجو ، قبل كل شئ . فالسماء هنا ثقيلة ، واطئة ، تغمر كل شئ بضوء غائم ، تسطره الأشجار بسوقها السود قد نشرت بينها بسط العشب الأخضر. أما اللوحة الأخرى فتكاد تميز بكلمة الحركة ، لا تظهر فيها السماء وإنما يعرف الناظر أنها غائمة أيضاً ، ولكن هذا لم يمنع الفنان من استعمال الألوان فوجود اللون ملحوظ قبل كل شئ ، فقد عارض الرسام إميل ماهى [٤٧٧] Emile Mahy فى لوحته هذه بين اللون الأحمر الوردى (وهو أرض الحديقة) واللون الأصفر الفاقع فى أعماق اللوحة واللون الأخضر (العشب) . وعارض كذلك بين سطور سوق الأشجار وسطور السياج الحديدى .

ولا سبيل إلى وصف كل المعروضات فى هذا القسم ، ولا حتى وصف كل المعروضات الممتازة فى الأقسام المختلفة . وحسبى لأختم الملاحظات عن القسم البلجيكى ، أن ألفت إلى الخزف والزجاج المزخرف ، وبوجه خاص إلى المرايا ذات اللمعان الأخاذ بفضل حواشيها القاتمة .

والزائر الذى يتتبع سياق الأقسام يبلغ القسم الفرنسى بعد أن زار القسم البلجيكى ، فيجد فيه كل ما وجده فى سابقه من تفنن وتنوع . وبلجيكا تعطى عن فنها فكرة شاملة رائعة ، ولكن ليس فى معروضاتها ما يميزها تمييزاً قاطعاً من جملة الفن الأوربى . وفى الحق أن فى فرنسا دائماً « ميلا ظاهراً ثائراً إلى التجديد واحتفاظاً قويا مطمئنا بالتقاليد» كما يقول المسيو ر. ل. دوبوى R.L. Dupuy ، القوميسير العام للقسم الفرنسى فى الكتالوج الذى طبع بالعنوان الآتى : «فنون فرنسا الجميلة» . إن زيارة القسم الفرنسى تثير فكرتين : الأولى أن فرنسا ما زالت وطن الفن الخالد . والثانية أن فنها متنوع ،

(١) Frans Masereel, *Femme à la lessive* [150]

مختلف أشد الاختلاف ، ولكنه فى نفس الوقت واحد مؤتلف أشد الائتلاف . فى هذا القسم يستطيع الزائر أن يرى أثاراً لأعظم الفنانين فى العالم ، ويستطيع أيضاً أن يرى آثار الفنانين المحدثين الذين يتبعون الطرق التى فتحت لهم بعد جهاد العظاء الماهرين . ويجب أن نهنئ القوميسارية الفرنسية باتقان الكتالوج ؛ فقد وضعت إلى جانب كل اسم من أسماء الفنانين نبذة قصيرة واضحة عن حياته ومذهبه ومنهجه . فلنبدأ بالتصوير . لجروبير لوحة « فى انتظار العاصفة »(١) ضرجتها مأساة الحياة ، إن صح هذا التعبير ، بحمرة فاجعة ، فيها امرأة متهالكة على سرير أحمر ، من هذه الحمرة الأرجوانية المشرقة تحت أشعة الشمس ، ولكنها تظهر هنا قاسية صارمة فى هذا الضوء الباهظ الذى يغمر كل شئ . ولنلفت الزائر أيضاً إلى لوحة لأندريه لوت « ميناء بوردو »(٢) وفى هذا الميناء ولد منشئ نظرية «الكوبيسم». وهناك لوحة أخرى تستحق الالتفات فى هذا الكنز الثمين صاحبها لوتيرون « السين فى باريس »(٣) ولكنا نعرف أن مناظر باريس التى رسمها لوتيرون كانت من أسباب شهرته الواسعة . والذين يعرفون باريس من الزائرين ، وخاصة باريس فى وقت البرد والضباب ، سيعجبون بألوان هذه الصورة الرقيقة التى فيها انعكاسات الرمادى والأزرق الصافى والأبيض . ويجرى النهر هادئاً بطيئاً ، بين شاطئيه الفاتنين . ولنختم هذا الفصل القصير السريع ناصحين للقراء أن يقفوا لحظة غير قصيرة أمام رسم بيكاسو الوحيد الذى يعرض علينا وهو يمثل رءوس ثلاثة رجال(٤) . وقد قيل عن هذا الرسام العظيم ، الذى يعتبر بدون شك أشهر رسام فى العالم الآن ، كل الذى يمكن أن يقال . ولكنى أريد أن أعبر عن دهشى أمام هذه الرءوس الثلاثة . فهل من الممكن أن أثراً فنياً يجمع هذا القدار من السذاجة والدقة وبعد المعنى فى وقت واحد ؟ فرسم بيكاسو هذا عبارة عن خطوط

---

(١) Francis Gruber, *L'attente de l'orage* [15]

(٢) André Lhote, *Port de Bordeaux* [21]

(٣) Lotiron, *La Seine à Paris* [24 bis]

(٤) Picasso, *Trois têtes d'homme* [153] نأسف لأن الزجاج وضع على هذا النقش بطريقة ساءت إليه ، فقد التقى طرفا الزجاج فى وسط الرسم فشطراه شطرين .

دقيقة رسمتها يد صناع ماهرة ، فهى ثابتة مستقرة قد تحقق فيها التوازن بين براعة التأليف وقوة التصرف . ويلى قسم التصوير قسم آخر يمتاز بروعته وثروته العظيمة من الاختراع والإبداع مع الوفاء لما لهذا الفن من جمال موروث ، هو قسم الطراز ، وهو من أهم الفنون التى تفوقت فيها فرنسا منذ عهد بعيد . ويجب أن نقول شيئاً عن تاريخ هذه الوسيلة للتعبير الفنى . وقد استعرنا هذه المعلومات البسيطة التالية من نشرة صغيرة أذيعت عن معرض « الطراز الفرنسى » فى باريس (يونيو—يوليو ١٩٤٦)(١) فأصل الطراز الفرنسى يرجع إلى القرن الثالث عشر ، على الأقل ، ولكن ليس من الممكن تحقيق مصدر هذه الحرفة القديمة . وقد مرت بالطراز الفرنسى أوقات مجد وأوقات خمول . وقد جمد هذا الفن فى القرن الثامن عشر، فلم يكن إلا تقليداً دقيقاً للتصوير. وقد أغلقت دور الطراز أثناء الثورة . « وتحرك القرن التاسع عشر (كما يقول المسيو بيير فيرلى Pierre Verlet فى النشرة التى أشرنا إليها) غير موفق وإن حاول المهارة محاولة دائمة، لأنه لم يفهم الأسلوب الصحيح للطراز ولم يكن بد من انتظار وقتنا الحاضر لنشهد نهضة قيمة لهذا الفن . » وقد ردت رسوم لورسا Lurçat وكوتو Coutaud ومارشان وغيرهم من الفنانين الفرنسيين إلى الطراز جلاله القديم . وفى معرض القاهرة أمثلة عجيبة للكمال الذى وصل إليه الفنانون المحدثون . لمارشان طراز عنوانه «بنات البحر »(٢) عارض فيه بين ازدهاء الألوان و بروز الأجسام . وقد امتدت إحدى بنات البحر فى أعلى الطراز وجلست الأخرى فى شماله ، ومن حولها فى الحاشية الشهباء خصائص البحر فى ألوانها المختلفة . وطراز آخر لسافين Savin « الصيد » يذكر بالطراز القديم فى تركيبه وألوانه المطفئة . ولا نريد أن نصل إلى القسم البريطانى دون أن نسجل إعجابنا بالشطرنج ذى اللونين الأخضر والوردى .

يمتاز القسم البريطانى بالتصوير والكتب . أما التصوير فلحظنا فيه لأجستس جون Augustus John صورة ديلان توماس [١٣] Dylan Thomas

---

(١) *La tapisserie française du moyen âge à nos jours* (Editions des Musées Nationaux, Paris)

(٢) A. Marchand, *Les Néreides*

القسم الفرنسى
٦٥ — «أورفيوس وآلهة الشعر»
للوسيان كوتو



القسم الفرنسى
أنموذج جميل من الخزف الفرنسى

القسم الانجليزى ٣ — « صورة ستيفن سپندر » لروبرت بهلر

القسم الانجليزى ٤ — « متخيرى الثمار » لمارك جرتلر

القسم الأمريكى

٦ — « بائع يانكى متجول » لكاتون وودفيل

القسم الأمريكى

٤٧ — « أبى وأمى » لجون ستيوارت كارى

القسم المصرى ١٢٠ — « الدعوة إلى السفر » لمحمود سعيد



القسم المصرى ١٥٧ — « على باشا ابراهيم » لمختار

ويؤثر فى نفسنا من هذه الصورة قوة النظرة ودقة الألوان . ولمارك جرتلر لوحة سماها « متخيرى الثمار »(١) وهى لوحة غريبة فيها مزاج عجيب من مذهب المحدثين وذكريات من سذاجة القدماء . وفى الحق أن هذا المزاج فاتن . أمّا الذى يروع الزائر حقا فى القسم البريطانى فهى الكتب والنقوش والرسم . ولا شك أن قسم « المجلس البريطانى » للكتب المصورة قد بلغ غاية الجمال وانتهى إلى قيمة عالية جدا فنية . . . وغير فنية أيضاً! وهذه المعروضات تستحق من هذا المقال جزءاً أطول من الأسطر التى بقيت لنا. ونحن نعتذر إلى القراء المعجبين بالمطبوعات الثمينة من إيجاز هذه الملاحظات .

تكلمنا عن الأقسام التى عرضت علينا آثاراً قيمة جدا فى تاريخ الفن الحديث . أما الأقسام الأخرى فقد عرضت علينا مثلا للفن كما هو الآن فى بلادها . وقد لاحظنا فى القسم الصينى رسوماً دقيقة غريبة ، تملؤها قوة الإدراك للطبيعة الهادئة استوقفت عنايتنا فى القسم الأمريكى لوحة روبرت جواثمى Robert Gwathmey « آخر النهار » [٥٤] وهى تمتاز بتوازن أجزائها وتنوع الألوان الداكنة تضيئها ألوان أخرى زاهية .

أماَ القسم السوفيتى فهو يمتاز فى النقوش والرسوم وبوجه خاص رسوم قصة « همليت » و « دون جوان » *Don Juan* للورد بايرون وقد رسم الأولى ب. فافورسكى **B. Favorsky** والثانية إتشيئيستوف **Etchéistov** ولاحظنا فى الزخارف صندوقاً صغيراً من العظم د. م. سولوفتزوف **M. Solovtzov** وسكيناً ذا نصاب منقوش لنيجوديائيف **Negodiaev** .

ويظهر أن اليونان ما زالوا أوفياء للفن الذى برع فيه آباؤهم وهو النحت. ولهذا سنتكلم عن النحت اليونانى ونترك التصوير لأنه لم يجئ بشئ جديد بالنسبة إلى ما رأيناه فى الأقسام الأخرى!

أما النحت اليونانى ففيه قوة ودقة ومهارة ، تجد القوة فى أكثر الآثار المعروضة ، وهذا طبيعى فى فن النحت . وتظهر الدقة بوجه خاص فى أثر أنطون سوخوس **Antoine Sochos** « أثينية » [٥٤] التى تذكر بآثار القدماء من اليونان فى زينة شعرها ومكر ابتسامتها . ويذكرنا بالنحت القديم العظيم أثر آخر هو « فتاة » لبلا رفتوبولو[٤٩] **Bella Raftopoulo**

---

(١) **Mark Gertler,** ***Fruit Sorters*** **[4]**

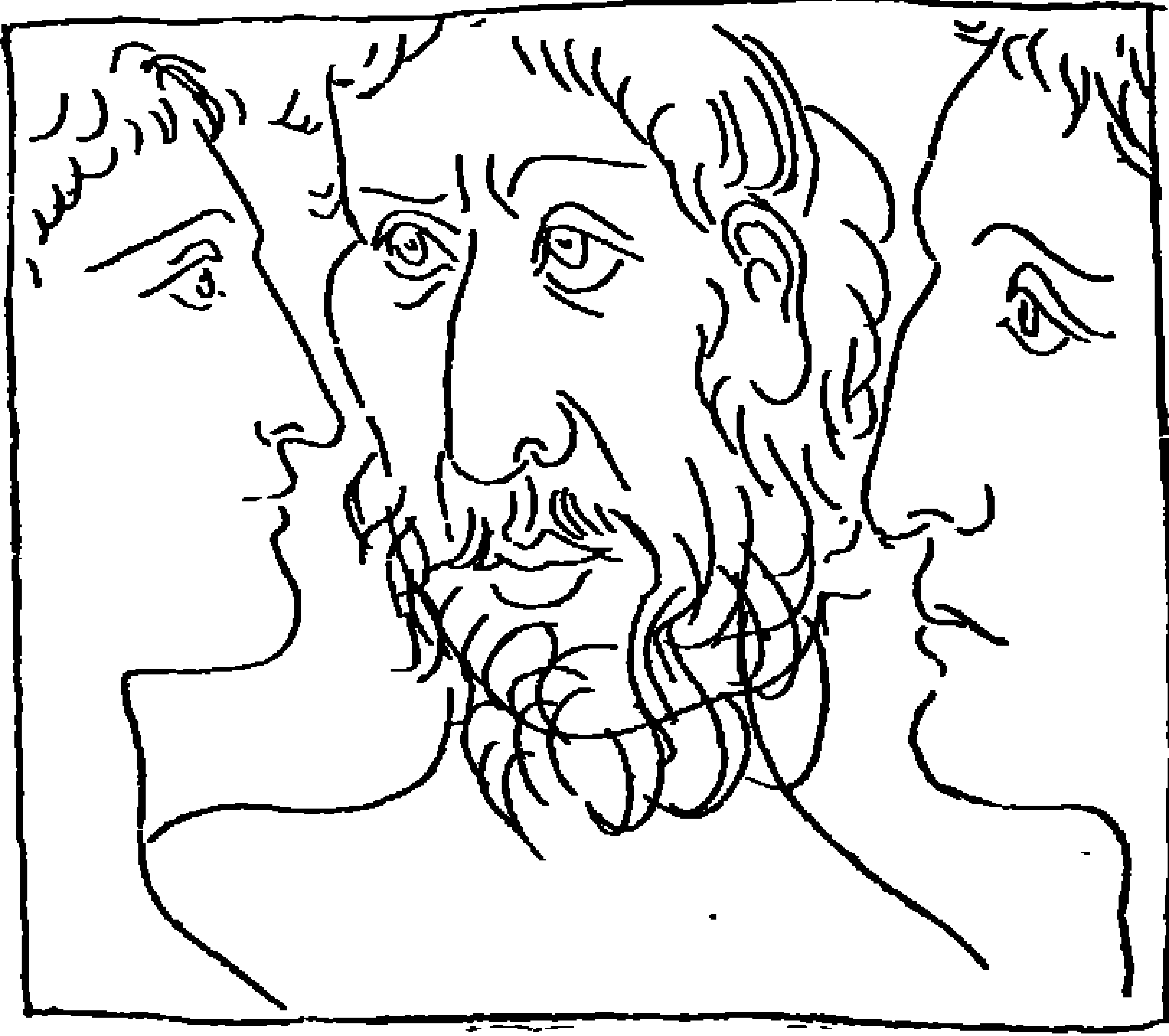
ويستحق هذا النحت إطالة النظر إليه. ويلاحظ الزائر أن هذه الفتاة تميل رأسها قليلا نحو الشمال ، فتثير التفكير فى بعض الآثار القديمة التى تمثل الإسكندر .

ولنختم هذه الشهرية بملاحظات سريعة عن المعروضات المصرية،نبدؤها بالأسف الشديد لنشر الكتالوج المصرى باللغة العربية وحدها ، وقد نشرت دول أخرى كثيرة كتالوجاتها وفيها قسم باللغة العربية وهذا حسن . فاذا أردنا من الأجانب الزائرين (وكلنا يعرف أن فى مصر الآن عدداً غير قليل منهم وأنهم أكثر زيارة للمعرض من المصريين مع الأسف أيضاً) أن يفهموا ويقوّموا جهدنا الفنى ، فمن الواجب أن نجعل لهم سبيلا إلى هذا ، فنبين لهم عن هذه المعروضات بلغة يفهمونها كما فعلوا بالنسبة إلينا.(١)

تنقسم المعروضات المصرية إلى ثلاثة أقسام : التصوير والنحت والصنائع الفنية . ونقول عن القسم الأخير إنه يبشر ببلوغ الإجادة فى الصناعة الفنية فى مدة نرجو أن تكون قصيرة . أما النحت المصرى ، فهو ممثل بآثار فناننا الكبير المرحوم محمود مختار . والقارئ يعلم أن قيمة مختار قدرت فى باريس قبل أن تقدر فى القاهرة . أظن أن كل المصريين ومحبى مصر ، شعروا بعاطفة لم تكن فنية فقط حين رأوا صورة المغفور له على باشا إبراهيم لمختار . إن هذا الأثر يمتاز من غيره بانسانيته ، إنسانية الفنان و إنسانية العالم . وفى قسم التصوير المصرى آثار كثيرة ،ولكن الجيدة قليلة . (ولسنا ندرى لماذا لم نر بين هذه المعروضات آثارا للأستاذ عبد الله حامد ، ومن عسى أن يكون المسئول عن ذلك ؟) وحسبى أن ألفت إلى لوحات محمود سعيد ، أستاذنا الأكبر فى هذا الفن . يسر الزائر أن ينظر ثانية أو ثالثة أو أكثر إلى لوحات محمود سعيد وخاصة « الدعوة إلى السفر » [١٢٠] وفيها هذا الابتسام المصرى القديم كأنه الهلال المتلئ . وانظر أيضاً إلى لوحة أحمد صبرى ، أشهر مصورينا للأشخاص : « توفيق الحكيم » [٩] وفى يده كتاب . . . لعله « حمار الحكيم » . وانظر أخيراً إلى لوحات هذا الملون العظيم ، محمد ناجى ، مصور الحبشة .

وما ينبغى لنا أن نختم هذه ،

(١) علمنا فى آخر لحظة أن الصيغة الفرنسية للكتالوج المصرى ظهرت بعد افتتاح المعرض بأسبوع .



١٥٣ ــ رءوس ثلاثة رجال لبيكاسو

الشهرية الناقصة دون أن نهدى أجمل الشكر إلى جمعية محبى الفنون الجميلة ، وبنوع خاص إلى رئيسها صاحب السعادة محمد محمود بك خليل الذى وقف جهده العظيم ونشاطه الخصب على تشجيع الفن وتحبيبه إلى القلوب . فنحن مدينون للجمعية ورئيسها بهذا المعرض الرائع الذى ستتلوه من غير شك معارض أكثر روعة وجمالا .

أمينة طه حسين

شهرية السياسة الدولية

تميزت السياسة الدولية خلال الشهر المنقضى بحادثين ، بل بحادث وحدث : حادث مؤتمر موسكو ، وحدث بيان ترومان ، وتميزت معها « السياسة المشرقية » بتضمن جدول أعمال مجلس جامعة الدول العربية الخطير من المسائل .

مؤتمر موسكو

ففى يوم الإثنين العاشر من شهر مارس اجتمع مؤتمر موسكو ، وهو مؤتمر وزراء الخارجية لدول الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية و بريتانيا العظمى وفرنسا ، للنظر فى مختلف الشؤون المتصلة بعقد معاهدتى الصلح مع النمسا وألمانيا ، بعد أن تم التوقيع بباريس فى العاشر من شهر فبراير على معاهدات الصلح مع توابع ألمانيا فى الحرب : إيتاليا وبلغاريا ورومانيا والمجر وفنلندا .

وكان المفروض أن مسألة الرور ومسألة السار ستكونان من مضاعفات العرض لتسوية الشؤون الألمانية ؛ لأن فرنسا تنادى بتدويل الرور حتى تحول دون استثمار ألمانيا مناجمها الغنية بالفحم والحديد فى سبيل صناعة الأسلحة وصناعة الحرب ، ولأنها تطالب بوضع منطقة السار تحت إدارتها كما كانت موضوعة إثر الحرب العالمية الأولى ، وهى مقتنعة أن عدول انجلترا عن استمرار الموقف من تلك المنطقة هو الذى أعان نفوذ هتلر على التمكين لنفسه فى الجماعة الجرمانية .

لكن أعمال مؤتمر موسكو لم تعرض لشئ من ذلك كله ، بل بدأت بعد إجراءات الترحيب وتبادل التحية والدعاء بالتوفيق بتذكير من جانب الاتحاد السوفيتى بمؤتمر موسكو السابق وباجتماع بوتسدام بعده ، وبأنهما يشيران إلى معالجة الوضع الديمقراطى للحكومة الصينية حتى تستقر فى الصين الأمور وتستتب الأحوال . ولم تستطع الدول الثلاث الأخرى أن تعارض الاقتراح السوفيتى ، و إن اكتنفه شئ

من المفاجأة ، لكن وزير خارجية الولايات المتحدة قد استمهل أربعاً وعشرين ساعة قبل أن يدلى برأيه النهائى فيه، وإن كان قد لوح باشتراطه حضور الصين أثناء عرض حالها . ثم رد من ناحيته بمفاجأة أخرى هى مطالبته الدول المحتلة لألمانيا والنمسا، وهى الدول الأربع العظمى جميعاً ، بتقديم بيان عن قوات احتلالها لا فى هاتين الدولتين فحسب بل فى سائر الدول التى حاربت الحلفاء فى أوربا . فرد له الرفيق مولوتوف صاعه بالاستمهال أربعاً وعشرين ساعة كذلك قبل أن يدلى برأيه النهائى فى الطلب الأمريكى .

وكان وزير الخارجية السوفيتية قد عارض فى حضور الصين أثناء مناقشة أمرها ، لكن الحكومة الصينية قد أعلنت احتجاجها على هذه المناقشة إذا هى لم تحضرها ، وأبلغت الاحتجاج إلى وزيرى خارجيتى الدولتين الأنجلوسكسونيتين بوساطة سفارتها فى موسكو . وقامت بذلك أولى المضاعفات التى واجهت المؤتمر . لكن لم يعدم المجتمعون وسيلة للتغلب عليها ؛ فقد قرروا المناقشة تنفيذاً لقرارى موسكو وبوتسدام السابقين ، كما قرروا أن تجرى المناقشة عن طريق تبادل المذكرات . وإذن فلن يجرى العرض للشؤون الصينية فى جلسات ، وإذن فلا ضرورة لحضور الصين بالذات .

على أن مضاعفة ثانية قد قامت قبل أن يجئ دور مناقشة الاقتراح الأمريكى الخاص بعدد القوات المحتلة للبلاد العدوة ؛ فقد هاجم الاتحاد السوفيتى الولايات المتحدة وبريتانيا العظمى إذ اتهمهما بممالأة النازيين فى منطقتى احتلالها ، وإذ اتهمهما أيضاً بابقاء آلاف النازيين فى التشكنات الحربية على قدم الاستعداد كأنهما تريدان أن تأتيا بهم حدثاً . فاستغل وزير الخارجية البريتانية هذا الاتهام وأشار إلى عدد الأسرى الألمانيين فى مختلف أراضى الدول العظمى ، وطالب بالادلاء بأرقام هذا العدد عند كل من روسيا وفرنسا وانجلترا والولايات المتحدة . فلاح أن العدد الأكبر فى ذاته لايزال فى روسيا ، دون اعتبار إلى نسبة القوات الألمانية التى كانت مشتركة فى مختلف الميادين .

وبينما يسود جو مؤتمر موسكو ذلك الاكفهرار الناشئ من تلك المضاعفات إذا بأمر يتم عليه الاتفاق فى اجتماع ودون مناقشة ، وهو شطب بروسيا من الوجود الجغرافى . فقد قرر المؤتمرون توزيع المقاطعات البروسية الباقية داخل

الحدود الألمانية على ما يجاورها من الوحدات بحيث لا تبعث إلى عالم الوجود تلك الدولة التي سببت الحروب الثلاثة الأخيرة في سنة ١٨٧٠ وسنة ١٩١٤ وسنة ١٩٣٩ . بل تلك الدولة التي عملت على تكتيل ألمانيا العظمى وفرض تعاليمها القاسية عليها وعلى العالم جميعاً .

بيان ترومان

ولم يكد ينقضي على انعقاد مؤتمر موسكو ثمان وأربعون ساعة حتى فاجأه الرئيس ترومان وفاجأ العالم كله معه بخطاب ألقاه في اجتماع عقده مجلسا الكونجرس الأمريكي وحضره جميع شيوخ الولايات المتحدة ونوابها ، وقد طلب فيه « الموافقة على عقد قرض بمبلغ أربع مئة مليون من الدولارات لمساعدة اليونان وتركيا » ، كما طلب تخويله سلطة إرسال رجال من المدنيين والعسكريين الأمريكيين إلى هاتين الدولتين يعاونون فيهما « على أعمال التجديد والانشاء » ، ويشرفون على طريقة استخدام المساعدة المالية التي يحصلان عليها .

وقد برر الرئيس ترومان مطالبه بانذاره أن « العالم يواجه اليوم حالة دقيقة تشمل السياسة الخارجية والطمأنينة الوطنية » . وذكر أن اليونان وتركيا ينبغي أن تظفرا بالمساعدة لكي تستطيعا المحافظة على استقلالها وسلامة أراضيهما. ولم يخف الهدف الذي يسدد له سهامه إذ أشار بعد ذلك إلى « أنه يدرك تماماً مدى ما سيعقب هذه المساعدة الأميريكية لليونان وتركيا من نتائج مضادة لروسيا » . وأضاف أن « حالة للفوضى والارتباك ستسود جميع أقطار الشرق الأوسط إذا وقعت اليونان تحت سيطرة الأقلية المسلحة » .

وقد أثار خطاب الرئيس ترومان اهتمام العالم كله وقلقه ؛ فقد أجمعت الاتجاهات المتباينة على أنه تهديد صارخ لروسيا ، وأنه إقدام جرئ على تهيئة أسباب حرب عالمية ثالثة . وهو على الأقل فرض للحصار على الكتلة السلافية ولا سيا إذا هو قدر توسيع دائرة المساعدات بحيث تشمل إيتاليا والمجر غرباً ، والصين وكوريا شرقاً ، وسوريا ولبنان والعراق وإيران جنوباً .

على أن التعقيب على هذا الحدث العالمي قد اختلف باختلاف البيئات

السياسية والاقتصادية والاجتماعية . أما جماعة الرأسماليين الأميريكية وجماعة المحافظين الانجليز فقد رحبوا به الترحيب كله . وقد رأى الأولون أنه يفتح الأبواب لرءوس أموالهم تستثمر فى تلك المناطق التى كانت روسيا قد أخذت تنافسهم فيها بعرضها سلعها ، ولا سيا بنزولها ، بأسعار تنقص عن الأسعار الأميريكية نقصاً عظيما . وقد رأى الآخرون أن فيه إنقاذاً لإمبراطوريتهم من التفكك ، وهم يؤثرون بطبيعة الحال أن يستولى عليها « أشقاؤهم أو أبناء عمومتهم » الأنجلوسكسونيون ما داموا هم قد فقدوا وسائل الاحتفاظ بها والتسلط عليها وقد نال منهم الضعف والافلاس .

أما أحرار العالم فقد وجدوا فى خطاب الرئيس الأميريكى أقوى ضربة موجهة إلى أمانى البشرية فى سبيل المناءة والسلامة ، كما وجدوا فيه معولا ينقض به الأنجلوسكسونيون على بناء الأمم المتحدة الذى لم يتكامل بعد .

وأما الاشتراكيون والشيوعيون فقد رأوا فيه رمياً من الأميريكيين إلى استعمار العالم . وقد وصفته اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعى البريتانى على حد ما أذاعته برقية لرويتر بأنه « تحد للقوى الديموقراطية فى العالم قد يؤدى — ما لم يحارب ويقضى عليه — إلى التدخل فى كافة الدول من أجل الأهداف الأميريكية التى ترمى إلى استعمار العالم » .

وأما روسيا المقصودة بذلك الخطاب بالذات فقد تلقته فى صمت دام يومين ثم انهالت صحيفتها « أزفستيا » عليه بأقسى عبارات النقد والوعيد . والمنتظر أن يعرب المارشال ستالين عن رأى الاتحاد السوفيتى عند ما يقابله وزير الخارجية الأميريكية لمناسبة وجوده فى مؤتمر موسكو .

وأما أهل الذكر فى مصر فينصحون بالوقوف موقف الحيدة من الكتلتين المتبارزتين حتى لا تصيبنا بالمجان ويلات الانضمام إلى ناحية إذ تعتبره الناحية الأخرى عداء لها ومخاصمة .

مجلس الجامعة العربية

وتشخص الأنظار فى بلاد المشرق كله إلى مجلس جامعة الدول العربية المنعقد فى القاهرة منذ اليوم السابع عشر من شهر مارس ، وقد حشد جدول أعماله بمشاكل تلك البلاد جميعاً . وقد يتوقف على مواقف المجلس ومندوبى

الدول الممثلة فيه مصير جامعة الدول العربية ذاتها .

فستعرض على المجتمعين مسألة إحالة القضية الفلسطينية إلى الأمم المتحدة ، وقد كان هذا الاتجاه هو الذى بدا فى دورة بلودان على أن تتقدم الدول العربية شاكية انجلترا صاحبة الانتداب ، فلاحقتها انجلترا حتى سبقتها غير مشكوة بل شاكية من التبعات الملقاة عليها .

وسيعالج المجلس مسألة الخلاف الطارئ بين المملكة الأردنية والجمهورية السورية ، وهو الخلاف الذى تجسم فى إغلاق الحكومة الأردنية قنصليتها فى دمشق . وهو يرجع فى ظاهره إلى ما تعتبره حكومة عمان إهمالا من جانب الحكومة السورية فى منع الحملات التى يقوم بها نفر من الأردنيين القاطنين دمشق موجهة ضد السلطات والأنظمة فى عمان ، ويرجع فى باطنه إلى مشروع سوريا الكبرى الذى يدعو إليه الملك عبدالله ويقاومه السوريون أشد المقاومة .

وسيعرض المجلس بخاصة للنزاع المصرى البريتانى ، وإلى الوساطة التى بذلتها سوريا وبذلتها لبنان، والتى يقال إن العربية السعودية قد بذلتها هى الأخرى ، إلى جانب تصريحات أدلى بها رئيس الوزارة العراقية ، ولم يلق شئ من ذلك كله ترحيباً من مصر بل لقى النقد واللوم والمؤاخذة . بل إن فى الجو المصرى لقلقاً يرجع إلى خشية المصريين ألا تكون تلك الوساطة صادرة من تلقاء تلك الدول العربية ذاتها، بل أن تكون حكوماتهامدفوعة من قبل « الغير » إليها دفعاً . وقد يكون من أثر ذلك القلق البادى إذا ثبتت أسبابه وتحققت دوافعه أن ترى مصر الانسحاب من الجامعة العربية ، وفى انسحاب مصر منها قضاء عليها فهى التى تضفى عليها شيئاً من المهابة .

محمود عزمى

شهرية المسرح

لن تقع حرب طروادة تأليف جان جيرودو[1]

تدور هذه المسرحية على مقدمات حرب طروادة التى خلدها أعظم شعراء الملاحم هوميروس فى الياذته منذ نحو ثلاثين قرناً .

وقصة حرب طروادة هى قصة كل حرب على الرغم مما نسجته الأساطير وأبدعه الخيال فى حكاية أسبابها وملابساتها . فما يعدو منشؤها قيام دولة قوية الشوكة عزيزة الجانب واسعة السلطان بأزاء يونان على الشاطئ الآسيوى المقابل من بحر إيجه ، وقوع عاصمتها طروادة على مدخل الدردنيل بحيث تسيطر على طرق التجارة بين بلاد بحر إيجه وبلاد البحر الأسود .

ولقد كتب المؤلف العصرى جان جيرودو مسرحيته عام ١٩٣٥ فى إبان تلك الوعكة النفسية المتخلفة من عقابيل الحرب العالمية الأولى وحالة التوتر العصبى المؤذنة بنشوب الحرب العالمية الثانية . فجاءت قصته عن طروادة بمناظرها وملابسها وأسماء أبطالها من قصص العصر القديم ، ولكنها بموضوعها وفحواها وأفكارها قصة العصور كلها . وهو يصور لنا فيها ما تضطرب به هذه الفترات من الصراع بين أنصار السلم الذين يغضون على القذى من أجله و يروضون أنفسهم على احتمال كل مكروه فى سبيله ، وبين دعاة الحرب الذين يحرضون على إضرام نارها وخوض غمارها ، ولو توسلوا إلى ذلك بالتهويل و إشاعة الأباطيل .

ولقد شاءت عبقرية جيرودو أن يكون داعية السلم فى تلك الفترة قائداً قديماً من مساعير الحرب ، هكتور ، بطل طروادة الأكبر وقد عاد إلى المدينة منتصراً بعد حرب ضروس دامية . لقد كره هكتور الحرب كما يكره المرء صديقاً له ظهر مينه وافتضح زغله وغشه .

على أن هكتور لا يكاد يعود إلى أسوار طروادة بجنده الظافرين المتعبين حتى يجد المدينة فى هرج ولغط . لقد اختطف أخوه الأصغر باريس زوجة

(1) Jean Giraudoux, *La Guerre de Troie n'aura pas lieu*

منلاس ملك أسبرطة ، هيلين الحسناء الإغريقية ، آية الجمال وصورة الكمال ، وأنزلها فى قصر أبيه الملك الشيخ بريام . فاذا أهل طروادة بها معجبون ، شبابهم وشيوخهم أجمعون ، قد راعهم ما رأوا من كمال جمالها ، فعلقت قلوبهم بها وانطوت نفوسهم على حبها ، ويبلغ إعجابهم حد العبادة وهيامهم حد الجنون . وترامت إلى طروادة الأنباء بأن الإغريق ثائرون لكرامتهم التى امتهنت ، وحرماتهم التى انتهكت ، وأنهم يتذاكرون فى أخذ الثأر ويفكرون فى حملة تأديبية لمقابلة الشر بالشر . فلا حديث فى طروادة إلا عن الحرب المنتظرة ولم تكد جيوش طروادة تستقر فى أسوارها وتستجم من مشاق الحرب السابقة وويلاتها ، ولما تجف الدموع فى عيون الطرواديات على من ثكلن فيها من إخوة وولد . ويتفق حديث الحرب هذا فى أبهى أيام الربيع والمدينة مخضرة الجناب ، مزدهرة الوهاد والنجاد ، تسبح فى غمرة من الضياء والبهاء توحى بحياة الدعة والقناعة واجتلاء الجمال والتملى بالسعادة ، كما عبرت عن ذلك أندروماك زوجة هكتور أبلغ التعبير فى قولها لأخته كاساندر المتكهنة :

أندروماك : « عجباً يا كاساندر ! لا أدرى وايم الحق كيف تستطيعين الكلام عن الحرب فى يوم كهذا . إن السعادة تتنزل فيه على الدنيا ! »

كاساندر : « مثل نزول الثلج تماماً » .

أندروماك : « السعادة والجمال أيضاً . أنظرى إلى هذه الشمس . إن فى أكناف طروادة منها أطباقاً من اللؤلؤ لا يجتمع مثلها فى قاع البحار . ولو قدر للناس أن يهتدوا يوماً من الأيام إلى طريق الحياة فى سلام ، فهذا هو اليوم » .

وفى هذا اليوم ، وتحت تأثير الظروف الملابسة ولا سيما إذا أدخلنا فى الحساب تقدم هكتور فى العمر وعلو سنه ، ووضعنا فى الميزان الجنين الذى تؤذن بوضعه امرأته — نقول فى هذا اليوم وتحت تأثير هذه الملابسات أظهر هكتور العزيمة الصادقة التى لا متزحزح عنها ولا متحول على إغلاق أبواب الحرب .

وليس لدينا فى صفة هذا التنكر للحرب أبلغ من قوله فى مناجاة له مع امرأته : « لقد كنت فيما مضى أتمثل فى الذين أصمد إلى قتلهم أضداداً على النقيض منى ، أما فى المرة الأخيرة فكنت كأنى عاكف على مرآة . كان الموت الذى أنا قادم على إنزاله

بالشخص الماثل بين يدى يبدو لى كأنه ضرب من الانتحار أنا قادم عليه » .

وهكذا بلغت كراهة هكتور للحرب ونفوره منها وتفتح ذهنه إلى أنها مسبة للإنسانية وكفران بنعمة الحياة .

وكان على هكتور لكى يقر السلام أن يزيل علة الخصام بين قومه الطرواديين وبين الإغريق الناقمين لاختطاف الشاب الأمير الطروادى لزوجة الأمير الأسبارطى .

فصرف هكتور إلى الأمر همته ، واستفرغ وسعه واستنفد طاقته ، حتى غلبت إرادته على إرادة باريس أخيه، وعلى إرادة أبيه ، وعلى الكثرة الساحقة من شيوخ طروادة المعجبين بروعة جمال هيلين ، ونزلت هيلين نفسها على إرادته ، وارتضت العودة إلى يونان مع رسول اليونانيين .

وهنا نتنفس الصعداء مستبشرين . لقد بطلت أسباب العداوة ، فلا جرم إذا قلنا مع القائل : « لن تقع حرب طروادة » .

ولكن حرب طروادة — على الرغم من ذلك جميعه — قد وقعت . أجل ! وقعت ودامت — كما روى لنا المؤرخ الأسبق — عشر سنوات ، واشترك فيها مع اليونان أحلاف اليونان ، يناصبهم مع الطرواديين أقوام من سائر الألوان .

فأية إرادة دفعتهم إلى الحرب إذن ؟

أية إرادة تدفع الأمم أجمعين إلى مجازر الحرب طوال هذه السنين منذ القدم إلى هذا الزمن الذى نحن فيه ؟

لقد جعل جيرودو هذه الإرادة فوق المؤامرات الحزبية ، وفوق الحكمة السياسية ، وفوق النظريات المثالية ، وفوق مشيئة البشر كافة . إنها المرض المستكن ، إنها الغريزة العمياء ، مرض الحرب وغريزة الحرب . وإن شئت العبارة عنها بكلمة جامعة من لغة المأساة الفاجعة فهى « القدر » . هى إرادة القدر .

ولقد كان هكتور بطل الحرب الداعى إلى حقن الدماء يحس فى إبان دعوته إلى السلم وتصميمه عليه بتلك الإرادة الخفية العليا القاضية بالحرب :

« لو أن الأمهات جميعهن يترن الأصبع السبابة اليمنى من أكف أبنائهن لرأيت جيوش العالمين تقاتل من غير الأصبع السبابة . . . ولو أنهن يترن أرجلهم اليمنى ، لسعت الجيوش بعضها إلى بعض كلٌ على رجل واحدة ... ولو أنهن فقأن عيونهم فصاروا عمياناً ، لما عدمت الدنيا جيوشاً ، ولرأيتهم يخبطون

خبط العشواء فى حومة الوغى يتحسس بعضهم مقاتل بعض » .

ومع إحساس هكتور بقوة القدر التى يصطدم بها فانه لم يضعف . واستقبل رسل اليونان وعلى رأسهم عوليس أمير إيتاك الداهية . وسكت القائد العظيم على الوعيد ، وصبر على الإهانة حتى الصفع ، وهانت عليهُ فى سبيل السلام سابقة أمجاده وسمعته بين قومه وكرامة شخصه وعزة نفسه .

وفى اللحظة التى تهيأ فيها عوليس للعودة إلى مركبه ومعه هيلين ؛ فى هذه اللحظة التى ستنتهى بها القصة نهاية سعيدة موفقة ، شاء القدر أن تقع الواقعة ، فاندفع إياس فى سكره وضم بيديه الغليظتين إلى صدره فى عربدة ماجنة أندروماك زوجة هكتور . وهنا رفع هكتور حربته . وإنه لا شك قاتل بها إياس ، ولتقع من بعدها حرب طروادة .

هذا هو المنتظر ، وفيه ولا ريب تصوير رائع لقدرة القدر . ولكن المؤلف لا يقنع بذلك ، إنه يريد أكثر من ذلك .

فقد ترك إياس يهرب . فانطلق لسان الشاعر المتحمس الشيخ ديموكوس يذيع ما وقع من عار ، ويستنفر إلى درك الثار . فيهوى هكتور إليه بحربته المرفوعة ، فيهوى الشاعر إلى الأراض صارخاً . فاذا بادر أهل طروادة إليه يستطلعونه ، ألقى إليهم الكذبة التى جرت وراءها النكبة : ألقى إليهم وهو يجود بنفسه أن القاتل إياس اليونانى ، فيلحق منهم بإياس من يقتلونه ، وتقع حرب طروادة .

وبذلك يبلغ جيرودو ما أراده من تصوير القدر فى أفظع صوره ، وهى صورة القادر الساخر .

فالرواية كما رأينا تعد بحق « أنشودة اليأس » على نحو ما وصفها بيير بريسون ، ولكنه مع ذلك يأس الشجاع لا تأنف منه الرجولة ولاتعافه النفس . ثم هى كسائر مؤلفات جيرودو قوية البيان ، أنيقة الوشى ، بارعة العبارات ، طريفة الأخيلة ، غنية بالأفكار وبدائع المعانى وبالتحليل النفسى وبخاصة للنساء ، مطبوعة بذلك الطابع الرائع من السخر الرهيب الجاد .

ولقد اضطلعت الفرقة الفرنسية التى تحيى الموسم التمثيلى الأجنبى بدار الأوبرا الملكية بتمثيل هذه المعانى الدقيقة والأفكار الرفيعة ، وتصوير هذا الفن الطريف البديع المبتكر للجمهور . وهى ولا وشك مهمة شاقة . ولكن الفرقة وفقت مع ذلك للاستيلاء على

مشاعر الكثرة من المتفرجين ، أما القلة التى لا تهتز للمعانى المجردة والمناظرات العالية فليس لهذه الفرقة ولا لغيرها من سبيل إلى إرضائها .

وقد اقتسم الأدوار النسوية فيما بينهم الأوانس والسيدات : ميشيل ألفا فى دور أندروماك الزوجة الفاضلة وقور الهيئة رصينة اللهجة ، وأليس سابرتش فى دور كاساندر المتكهنة بملامحها الحادة وجيدها المترفع ووقفتها المتصلبة القاسية، وجيزيل كاسادسى فى دور هيلين فى جمالها وسذاجة إحساسها واكتفائها بنفسها وقلة احتفالها بما حولها ، ومارى لويز جودار فى دور هيكوبا زوجة الشيخ بريام ملك طروادة فى حنكتها وخبرتها بطبائع النساء والرجال وصراحتها فى تسمية الأشياء بأسمائها وعرضها على حقيقتها . وأما شخصيات الرجال فقد كان أجذبهم للأنظار الفتى (جاك فرانسو) العارى البدن حتى حقويه فى جمال محاسره واعتدال قوامه وحركة الدلال فى مشيته وامتزاج التهور والانطباع فى لهجته ، و بريام (جان فرنييه) فى وقار شيخوخته وامتزاج البساطة والأبهة فى هندامه ، وديموكوس الشاعر الشيخ (جان بول سولينو)والمهندس (جان جاك ستين)، وترو يليس (أنطوان فليرى)، وعوليس (لوسيان باسكال) ، وفى وسط هؤلاء جميعاً وفى وسط الرواية كلها هكتور (جان مارشا) يدير الحركة من حوله فى يسر واقتدار .

ولقد صادف الاحتفال بتمثيل هذه الرواية الذكرى الثالثة لوفاة مؤلفها العظيم . ولعل الأكثرين كانوا يحسون وهم يصفقون للرواية أنهم يرسلون من الأرض المصرية تحية الصداقة والإعجاب خالصة زكية إلى ذلك الأديب المجاهد الراقد فى باريس رقدته الأبدية .

حمار بوريدان تأليف روبير دى فلير و ج . ا . كيافيه (١)

هذه طرفة مستملحة لطيفة من نوع المسرحية الباريسية الخفيفة . ولقد حرص المؤلفان فيها قبل كل شئ على ابتسامة المتفرجين ، على ضحكهم ، على ضجتهم بالضحك العالى ، على قهقهتهم الصاخبة ، فى فترات متعاقبة متقاربة .

فالرواية — مع اشتمالها على الكثير

(١) Robert de Flers et G.A. Caillavet, *L'âne de Buridan*

من صدق الملاحظة وعمق التحليل — قائمة على روح الفكاهة ، روح الفكاهة فيما يدور من حديث ، وفيما يلفق من مواقف ، وفيما يعرض من شخصيات .

فهذا بطل القصة جورج بولان له عشيقات ثلاث . ولا غرو ، فهو شاب وسيم الطلعة أنيق الهندام ميسور الحال ، ثم هو إلى ذلك جميعه وفوق ذلك جميعه ، قد رزق الموهبة التي لا تضارع فى اجتذاب النساء ، إذ كان محدود الأفق قليل الذكاء .

واتفق أن استأذن خادمه فى الغيبة بضعة أيام ، وأقام قريباً له فى موضعه ، فأخطأ لجهله وقرب عهده بخدمة السيد فى تبليغ مواعيده الغرامية ، فاذا العشيقات الثلاث يوافينه فى الدار فى يوم واحد ، وساعة واحدة .

فلم يجد له مخلصاً إلا الهرب وترك لهن التصرف وتسوية حسابهن بعضهن مع بعض .

وقدم جورج على صديقه لوسيان دى فرسان فى بلدة بعيدة عن باريس ، وكانت للصديق زوجة جميلة أوديت ، وخليلة ظريفة فرناند شانتال ، وفتاة يتيمة مشبوبة العاطفة يكفلها وهى ميشلين ابنة صاحب له كان من الرسامين .

فاذا هذا الهارب من العشيقات الثلاث يشتبك فى هوى أولئك الغوانى الثلاث .

ويتبين من تطورات القصة ومجرى وقائعها أن صاحبنا مخلص فى حبه للنساء ، ولكنه من ذوى الطبائع المترددة الحائرة لا يقطع برأى ولا يأخذ بعزم فى إيثار امرأة على أخرى ، ولا فى إيثار لفيفة تبغ من صنف على لفيفة من صنف آخر .

ومن ثمة تسمية الرواية بحمار بوريدان الذى أثر أنه انقطع عنه الماء والعلف مدة ، ثم جاءوه بالاثنين معاً ، فوقف حمار بوريدان موقف الحيران ، لا يدرى بأيهما يبدأ وهو الجوعان العطشان . وما زال المسكين فى حيرته حتى نفق وأدركته المنية فى وقفته .

على أن جورج كان أسعد فى الختام من حمار بوريدان . والفضل فى ذلك راجع إلى صاحبه لوسيان دى فرسان الذى أعان على زواجه بالفتاة ميشلين ، فأفاد من ذلك الزواج أن حفظ على نفسه زوجته وعشيقته ، كما أقام بذلك الزواج صرح السعادة لصديقه المتخبط فى حيرته وللفتاة المحبة المشمولة بعطفه وكفالته .

وكان جان مارشا فى دور جورج متفززاً بالحياة فى مرحه ، خفيف الظل

فى مجانته ، مضحكا فى ربكته ، مؤثراً فى حيرته . وكان باســكال فى دور الصديق مثال الرجل السياسى فى رصانتــه وكياسته فى أدق المواقف وأعقدها . كما أجادت جيزيل كاسادسى تمثيل الفتاة ميشلين المحبة الغضوب ، العنيدة العروب . ولا حاجة إلى ذكر إجادات ماريون دلبو فى تمثيل المرأة الماجنة ؛ فقد أقامت على ذلك الدليل أكثر من مرة .

عبد الرحمن صدقى

شهرية السينما

حد الموسى (شركة فوكس للقرن العشرين) [1]

هذا الفيلم يصور لنا قصة « حد الموسى » التى كتبها سمرست موم فى سنة ١٩٤٤ وعهد بها إلى دافيد زانوك لينتجها . وقد عجز كثير من واضعى السيناريو عن اقتباس تلك القصة للسينما، وزعم معظمهم أنها لا تصلح لأن تكون موضوع فيلم لأنه من العسير تصوير حياة شاب متصوف يبحث عن معنى الحياة . وأخيراً تقدم الكاتب السينمائى لامار تروتى وهو أحد المعجبين بسمرست موم ، وأخذ على عاتقه وضع سيناريو لتلك القصة ووضعه فعلا فى حين أخذ ادموند جولدنج المخرج يحشد العناصر اللائقة لتمثيل شخصيات القصة ، و إعداد مناظرها .

لنفهم معنى عنوان القصة يجب أن نرجع إلى تلك الحكمة التى صدر بها سمرست موم كتابه وهى : « من العسير أن يسير الإنسان على حد الموسى . كذلك قال الحكيم إن الطريق إلى الخلاص شاقة . » فالكاتب إذن يبحث فى روايته عن حل بعض المشاكل الإنسانية ، وهى المشاكل التى تعرض لبطل القصة لارى داريل والتى نجدها فى حديث يدور بينه وبين خطيبته إيزابيل . كانت إيزابيل تحث لارى على العمل . ولكنه أبى أن يقوم بعمل ما لأن ذلك يحول بينه وبين تأملاته ؛ فهو يريد أن ينصرف إلى التفكير العميق ، وأن يجوب الأقطار ليتعرف كنه الحياة ، ومعناها ، إن كان لها معنى ، وليتعرف أهى سلسلة من أخطاء القدر الأعمى . أدركت إيزابيل أن ليس لها محل فى حياة لارى حتى يعود إليه صفاء النفس ، وهدوء البال ، فأذنت له أن يرحل . سافر إلى باريس وأقام فيها مدة، ثم لحقت به خطيبته فوجدته على تلك الحال التى تركته فيها . فرفضت الزواج منه ، لا لأنها كفت عن الولع به بل لأن دخله ضئيل ولا يريد أن يزيده بالكد والعمل .

ثم سافر لارى إلى الهند بعد أن مارس

---

(١) The Razor's Edge (*Twentieth Century Fox*)

بعض المهن المضنية، وهناك عاش فى دير من الأديرة الصوفية وتفرغ لتأملاته بين أحضان الطبيعة . لم يدرك هناك كل ما كان يبحث عنه و إنما استطاع أن يجد راحة النفس فى عمل الخير وطيبة القلب والعطف على الغير . وأخيراً عاد إلى باريس حيث قابل إيزابيل التى كانت قد تزوجت من ثرى خانه الحظ فافتقر بعد الزواج . كانت لا تزال تكلف بلارى وتهيم به هياماً شديداً . فاعتقدت أن فى استطاعتها أن تستأثر به الآن . غير أن حبها الأعمى يفقدها معشوقها إلى الأبد . كانت لايزابيل صديقة فقيرة ومن ثم كانت وديعة الأخلاق رقيقة الشعور . وقد تزوجت تلك الفتاة، وكانت تدعى صوفى، عن حب وأنجبت طفلا . غير أن القدر شاء أن يموت الزوج والطفل فى حادث أليم ، وأن تمتحن الزوجة بداء الخمر . واستسلمت لدائها هذا حتى نبذها أهلها فسقطت شر سقطة وأخذت تختلف إلى منازل الدعارة . صادفها لارى وايزابيل فى أماكن اللهو فى مونمارتر ، فجالستهما ففكر لارى أن ينقذها من تلك البيئة ، ونجح فعلا فى أن يمنعها من الخمر ، وأخيراً قرر أن يتزوج منها ، وأسر إلى إيزابيل بمشروعه ؛ ولكن الغيرة تدفع تلك المرأة إلى أن تعرقل هذا المشروع فتأتى بصوفى إلى منزلها وتتركها فى الغرفة مع زجاجة الخمر ، ومن البديهى أن صوفى لم تقاوم إغراء الكأس فتستسلم لدائها وتفر هاربة .

كان هذا الحادث هو سبب القطيعة بين لارى و إيزابيل التى كافحت لكى تحتفظ بلارى ما وسعها الكفاح . وينصرف الشاب عنها ويعود إلى أمريكا لينقطع لحياة أمل وجهاد .

والشاهد يخرج من عرض هذه القصة وقد أضناه التعب من طول الفيلم وكثرة مناظره وطولها الذى لا مسوغ له مطلقاً . وأرى أن مثل رواية «حد الموسى» وهى تعرض آراء فلسفية ، سواء أكانت قيمة أم غير قيمة ، لا تصلح للسينما مطلقاً . فهى تتطلب لابراز آراء مؤلفها حواراً طويلا بين الشخصيات فى حين أن السينما للآن لم تسجل إلا حوادث ومناظر . وقد يكون المسرح أكثر ملاءمة لمثل هذا الحوار إن فرضنا أننا نستطيع تحويل المسرحيات إلى جدل فلسفى . ولم تبد آراء لارى ولا المشكلات التى أشقته طوال الجزء الأول من الفيلم واضحة جلية، فقد شابها بعض الغموض لعجز المخرج عن الابانة عنها فى تصويره للقصة . وقد يكون الكاتب مسئولا

عن هذا الغموض أيضاً . لقد خيَّل لنا أنه باحث عن كنه الحياة ومعناها ثم يعرض عن هذا البحث وينهى القصة بحثنا على حب الغير وطيبة القلب . أيظن أنه أتى بجديد فى قصته وقدجاءت المسيحية بكل هذا منذ ألفى سنة ؟

وقد اختير الممثل تيرون باور ليقوم بدور لارى ، ذلك الشاب الذى أقلقته مشكلة الحياة فارتمى فى أحضان الصوفية وصار يبشر بحب الغير . وقد يكون تيرون باور ممثلا فى رأى الأمريكيين مادام جميل الطلعة وسيمها أنيق الملبس . غير أنى لاأدرى لم أسند إليه هذا الدور وهو بعيد كل العبد عن تلك الشخصية التى حاول أن يخرجها لنا . كفاه أن يمثل دور لاعب الرجبى والبيز بول أو العشاق البلهاء . أما جين تيرنى التى قامت بدور عشيقته إيزابيل فقد كانت وسطاً بين الإخفاق والنجاح . كان لها فى بعض المواقف تعبيرات بغيضة إلا أنها نجحت فى إظهار تلك الرغبة البهيمية التى كانت تدفعها نحو لارى . ولا أرى بين الممثلين الثانويين فى الفيلم من يستحق الذكر إلا آن باكستر وقد قامت بدور صوفى ، فبدت فى أول الفيلم فتاة هادئة ، وديعة خجولا ، واحتفظت بهذا الهدوء وتلك الوداعة حتى حين أصبحت امرأةساقطة تعمل فى أماكن اللهو فى مونمارتر ، فأثبتت قدرتها على التمثيل المتقن والتعبير الصادق ؛واضطلع كلفتون وب بدور خال إيزابيل ، فوفق فى إظهار تلك الشخصية بما لها من مميزات ومعالم . نجح فى تصوير الرجل الأنيق المتحذلق ذى العادات الراقية والذوق المترف والذى يحرص على أن تكون له صلات بأرفع الشخصيات ، غير أنه قد غالى فى منظر الوفاة بعض الشىء فى صياحه وبكائه .

لكل نصيبه (فيلم برامونت) (١)

تقع حوادث هذا الفيلم أثناء الحرب العالمية الأولى فى بلدة أمريكية هادئة حيث كانت تعيش جودى مع أبيها الأرمل . تقابلت ذات يوم مع طيار ، فأحبته وأحبها من أول وهلة ، فقضيا معاً ساعات قلائل ، ثم لم تجمع بينهما الأقدار لأن الطيار رحل عن البلدة فى اليوم نفسه ولم يعد إليها إذ لقى حتفه فى الأعمال الحربية . وقد كان كلف جودى بالشاب شديدا إلى حد

(١) To Each his Own (*Paramount Picture*)

أنها ما كادت تقابله حتى أسلمت نفسها له ، فأنجبت منه طفلا . وقد حاولت جودى أن تنقذ سمعتها وسمعة أبيها ، فذهبت إلى المدينة عند الوضع وكافت إحدى ممرضات مستشفى الولادة أن تحضر الطفل إلى البلدة لتتركه على قارعة الطريق . وكانت تأمل أن تأخذه إلى دارها عندما يجده سكان البلدة . ولكن مشروعها لم ينجح لأنها اضطرت أن تتركه لصديقة لها كانت قد فقدت ابنها منذ عهد قريب . رضيت جودى بهذه الحال وخاصة أن وجود ابنها عند تلك الصديقة يسمح لها أن تراه وترعاه وتداعبه متى شاءت وكيف شاءت . استمرت الحال كذلك حتى فقدت جودى والدها ، ففكرت فى النزوح إلى المدينة ومعها طفلها، فذهبت تطالب بالطفل ، لكن صديقتها أبت أن تنفصل عنه وقد شغف بها معتقداً أنها أمه . رحلت جودى منكسرة النفس ولكن غير يائسة من استرداد طفلها . لا بد لها أن تكافح ما وسعها الكفاح ، ولابد أن تضحى ما استطاعت التضحية حتى يتحقق أملها وتنعم بالحياة مع ابنها. تواصل جودى حياة الكفاح والتضحية حتى تصبح من الأثرياء . وأخيراً تشاء الأقدار أن تنعم بولدها بعض الوقت إذ لم يطب للطفل أن يعيش معها وهو لم يألفها فينفر منها ويبتعد عنها ، وتشعر هى أنه فى شقاء متصل لابتعاده عن المرأة التى ألفها واعتقد أنها أمه . وأمام هذه الحقيقة المريرة تترك جودى الولايات المتحدة وتذهب إلى لندن حيث تعيش حتى الحرب العالمية الثانية . وفى ذات يوم تعلم أن ابنها قادم لتمضية إجازته فى العاصمة الانجليزية فتأمل أن يقبل دعوتها لتمضية أسبوع فى منزلها . غير أنها تجده مشغولا عنها بخطيبته فلم تسمح لها الظروف أن يضمها وإياه منزل واحد . ثم تعلم أنه يريد الزواج من خطيبته ، ولكن التقاليد العسكرية تحول دون هذا الزواج ، فتذلل له العقبات وتنظم له حفلة قرانه . وأخيراً لا يسع الفتى ، وقد عرف حقيقة شخصيتها، إلا أن يفوه لها بكلمة طالما انتظرتها منه وهى : أماه !

والقصة كما نرى تبتدئ فى ظروف عجيبة لعل المنطق الأمريكى يستسيغها، إلا أن منطقنا لا يقبلها مطلقاً . وقد تتهم بالرجعية ، ولكنى أوثر الرجعية على سلوك المؤلف فى تلك القصة . فكيف نستسيغ أن تستسلم فتاة مثل جودى ، وهى الريفية الهادئة الدمثة الأخلاق ، الفياضة الشعور ، لفتى من أول وهلة . ولنلاحظ أنها لم تقض مع

هذا الشاب إلا ساعات قليلة كانت هى الوحيدة فى حياتها . ثم إن خاتمة القصة كانت سريعة مليئة بالمفاجآت التى قد يستسيغها أيضاً المنطق الأمريكى فحسب . أما قصة الأم التى تكافح فى سبيل ابنها فهى قصة لا تخلو من جمال ودقة فى التحليل .

وقامت بدور جودى فى أداء متقن يدل دلالة قاطعة على دراية تامة بنفسية الأم الممثلة أوليفيا دى هافلاند ، فنالت بهذا الأداء المتقن جائزة التمثيل لسنة ١٩٤٦ .

رشدى كامل

تعتذر المجلة لاضطرارها إلى تأجيل نشر بعض المواد ومنها مقال هام للأستاذ محمد رفعت بك أحد كتابها الأصليين .

مِن هُنا وهُنالك

وثنيـــة إخوان الصفاء

نشر الأستاذ جبور عبد النور فى مجلة « الأديب » البيروتية [1] مقـالا ، بعنـوان « معالم الوثنية فى رسـائل إخوان الصفاء » ، حاول فيه أن يجعـل من إخوان الصفاء جماعة اتفقت كلمتهم على هدم الإسلام والرجوع إلى الوثنية القديمة و إلى الوثنية الحرانية بصفـة خاصة ، وحاول الـكاتب أن يدلل على ذلك كله بما فهمه من بعض نصـوص وردت فى الرسائل وأشار إلى صفحاتها فى الطبعة المصرية .

رجعت إلى النصوص التى ذكرها الـكاتب ، ولـكنى عجبت أشد العجب من أن الأستاذ جبور لم يكن دقيقاً فى نقـل النص ؛ فقد عمد إلى تلخيـص أجزاء من النص هى التى تتفق مـع القضية التى افترضها ، ودفع باقى النص الذى يدحض فروضه ويخالفها . هـذا أول ما ألاحظه على بحث الأستـاذ جبور . ملاحظة أخرى هى أن الأستاذ الـكاتب فهم النصوص على هواه هو ، لا كما أرادها إخوان الصفاء ، وحمل النصوص من المعانى مالا تتفق مع سياق ماورد فى الرسائل . ولعل للاستاذ الـكاتب عذره فى ذلك ، فدراسـة رسائل إخـوان الصفـاء من أشق الدراسات العربيـة وأعسرها ، والبـاحث للرسائل فى حاجة إلى مقارنة كل النصوص مقارنة دقيقـة ، وأن يربط بعضها ببعض ؛ فقد تجد مثلا فى الجزء الرابع شرح مافى الجزء الأول . فإذا لم يفطن الباحث إلى طريقـة الإخـوان فى الـكتـابة ، فقد لا يخرج بنتيجة من دراسته . أضف إلى ذلك كله أن بالرسائل بعض الرمـوز التى يصعب الوصول إلى معرفتها وفك أسرارها إلا إذا اطلع على التـأويل البـاطنى للإسماعيلية . فلا شك أن هناك علاقة وثيقة بين الاسماعيليـة و إخـوان الصفـاء ، فمعرفة أسرار الاسماعيليـة يؤدينا إلى معرفة وفهم نصوص رسائل إخوان الصفاء .

ملاحظة ثالثة هى أن بحث الأستاذ جبور قد ملئ بالمغالطات الجريئـة فى

---

(١) عدد يناير ١٩٤٧ ص ٢٥

سبيل الدفاع عن الفروض التى اقترضها . نرى ذلك كله واضحاً فى هذا البحث المنشور فى مجلة «الأديب» .

فنى الجزء من البحث الذى جعل عنوانه « فصل الملك عن النبوة » أراد الكاتب أن يوهمنا أن إخوان الصفاء هم أول من قال بفصل النبوة عن الملك ، وأنهم يخصون صاحب الشريعة بصفات معينة كما يجعلون للملك خصالا أخرى ، وفى ذلك تتضح وثنيتهم ! فلا أدرى ماهى الوثنية فى ذلك ! ولعل الكاتب لم يقرأ ما ورد فى القرآن الكريم عن سليمان وملكة سبأ ، وكيف فرق القرآن بين الأنبياء وملوك الدنيا ، وقد زخرت كتب التاريخ والتفسير بذلك كله ولم يقل باحث واحد بوثنية هؤلاء المؤرخين والمفسرين . ولكن الفكرة التى اختمرت فى عقل الأستاذ جبور جعلت إخوان الصفاء هم أول من فرق بين النبوة والملك ، وبذلك اتضحت فى عقائدهم الفكرة الوثنية لقولهم بهذا الرأى . أما قول إخوان الصفاء : « إن النبى محمد صلى الله عليه وسلم أقام بمكة فى أول مبعثه نحوا من اثنتى عشرة سنة يدعو الناس ويعلمهم معالم الدين حتى استوفى خصال النبوة وأحكمها ثم هاجر بعد ذلك إلى المدينة وأقام بها نحوا من عشر سنين فى ترتيب أمر الأمة وتحذير الأعداء وجباية الخراج والعشر ومصارعة الأعداء والمهادنة ... حتى أحكم أمر الملك » (١) فقد شاء الأستاذ جبور إلا أن يقتطع النص ويأخذ منه مايتفق مع ما افترضه ؛ فقد اكتفى بأن أشار إلى أن النبى صلى الله عليه وسلم فى الطور المكى كان نبيا بدون سلطان ثم أصبح فى الطور المدنى نبيا وملكاً . أما ما أدلى به « الاخوان » عن تعليل ذلك ومن أن الله جمع الملك والنبوة لسليمان وداود ويوسف ومحمد ، وحرص الإخوان على مصلحة الناس فى أن يستند الملك إلى الدين والدين إلى الملك ، إلى غير ذلك من الآراء العديدة التى وردت فى الرسائل فقد أبى الأستاذ جبور أن يتحدث عنها أو أن يشير إليها ، بل خرّج هذه النصوص تخريجاً يناقض ماجاء فى الرسائل وعلق عليها بقوله : « فهم إذن لا يرون أن الدين والدنيا قد اجتمعا فى شخص الخليفة ، كما يعتقد سائر المسلمين ، بل يسلمون بأن هذا الاجتماع هو أمر طارئ » . فالرسائل تتحدث عن الأنبياء والأستاذ جبور أبى إلا أن يجعله عن الخلفاء . وإذا فرضنا أن الحديث عن الخلفاء فهل

(١) الرسائل ج ٤ ص ٣٣

درس الأستاذ جبور التاريخ الاسلامى حتى يعلم أن سائر المسلمين لم يعتقدوا أن الخليفة يجمع الدين والدنيا ، فقد كثرت الفرق الإسلامية لخلافهم فى الخليفة .

وفى الفصل الذى سماه الأستاذ جبور « تفضيل المجوسية على اليهودية » نراه قد تعمد تشويه ما جاء فى الرسائل ؛ فقد استغل الكاتب المعنى الشائع للمجوسية دون تحقيق عقيدة المجوس ، تحقيقاً علميا . ولعله إذا قرأ كتاب « الفِصَل فى الملل » لابن حزم الأندلسى المتوفى سنة ٤٥٦ هـ . مثلا لأدرك أن عدداً من الصحابة والتابعين منهم على ابن أبى طالب وسعيد بن المسيب وقتادة وجمهور أصحاب أهل الظاهر قالوا إن المجوس أهل كتاب ، وقد أثبت ابن حزم ذلك فى كتب أخرى ذكرها فى كتابه هذا [١] ، ومع ذلك لم يأبه الأستاذ جبور بقول إخوان الصفاء عن عقيدة المجوس « بأنه الذى يريد الخير لنفسه ولأبناء جنسه كلهم ، ولا يريد لأحد من الخلق سوءًا لا لمن كان على دينه ويوافقه ، ولا لمن يخالفه ويضاده فى مذهبه، حتى ولو ظلمه وتعدى عليه ؛ لأنه يعلم أن فى السماء إلها خبيراً فاضلا عادلا حكيما عليما لا تخفى عليه خافية فى أمر خلقه ، وهو يجازى المحسنين باحسانهم ويكافىء المسيئين على إساءاتهم » .[٢] ومن ناحية أخرى لم أجد فى الرسائل مايشير ولو إشارة خفيفة إلى أن القصة رويت لتفضيل المجوسية على اليهودية كما تخيل الكاتب، إنما رويت القصة للتدليل على أن من اعتقد رأياً أو ذهب مذهباً وتصوره وتحقق به صارت أخلاقه وسجاياه مشاكلة لمذهبه واعتقاده ؛ لأنه يصرف أكثر همه وعنايته إلى نصرة مذهبه فى جميع تصرفاته ، فيصير ذلك خلقاً له ، وسجية وعادة يصعب إقلاعه عنها وتركه لها [٣] « وإذا فرضنا وذهبنا إلى أن الاخوان أرادوا التفضيل فانما هو تفضيل بين شخصيتين لا بين عقيدتين . والغريب أن يذهب الأستاذ الكاتب إلى أن القصة ختمت بتمجيد المجوسية فكانت أفضل الأديان ! بينما ختمت القصة فى الرسائل بأن أعيد اليهودى إلى أهله مكسوراً » وأن المجوسى حدث الناس بها فجعلوا يعجبون من أمرهما » . فواضح جداً الفرق بين الخاتمتين . ولا أدرى ما الذى دفع الأستاذ جبور إلى هذا التحريف .

---

(١) ج ١ ص ٩٢ الطبعة الاولى المصرية سنة ١٣٤٧ هـ .
(٢) الرسائل ج ١ ص ٢٣٧ — (٣) شرحه .

أما فى الجزء الذى كتبه بعنوان « هرمس وفيثاغورس » فلعل الكاتب قد تواضع لدرجة جعلتنا نشك فى سعة اطلاعه على ما خلفه علماء المسلمين . فالكتب العربية ذكرت أن هرمس هو نبي الله إدريس ، ولم يكن إخوان الصفاء وحدهم هم الذين ذهبوا هذا المذهب ، بل من المؤرخين من يجعل هرمس هو توت إله قدماء المصريين ، ومنهم من يسمى هرمس أخنوخ أو إدريس نبي العبرانيين ، وتكاد الكتب العربية التى سبقت إخوان الصفاء تجمع على أن إدريس (أو هرمس) هو منبع العلم وأول من تحدث فى الجواهر العلوية والحركات النجومية [1] فلا غرابة فى أن يتبع إخوان الصفاء رأيًا قال به علماء المسلمين قبلهم . وبمنطق الأستاذ جبور يجب أن يكون هؤلاء العلماء وثنيين . فانى لا أستطيع أن أقبل استنتاج الكاتب بأن إخوان الصفاء وثنيون لقولهم إن هرمس هو إدريس، أو قولهم إن فيثاغورس من حران بدلا من بلاد اليونان . قد اعترف إخوان الصفاء مراراً فى رسائلهم بأنهم يتبعون الفيثاغوريين فى آرائهم ، فكان الأحرى بالأستاذ جبور أن يبحث علاقة الفيثاغوريين بعقيدة إخوان الصفاء ، فان مثل هذا البحث جدير بأن يتشبث به كاتب بدلا من تعلقه بقولهم إن فيثاغورس من حران ، واستنتاجه أنهم وثنيون حرانيون لذلك .

ويزداد شك الأستاذ الكاتب وحيرته عندما يصل إلى الرسالة التاسعة من العلوم الناموسية والشرعية ؛ فقد فهم الكاتب أن الاخوان يقومون بجميع شعائر الدين الاسلامى الحنيف فروضه وسننه ، ويعرفون ماحلله الاسلام وما حرّمه فيقومون بهذه ويتركون تلك . ولكن عند الأستاذ الكاتب أن ذلك كله لكتم أمرهم عن العامة ! وفى الوقت نفسه يقول إن الاخوان يقومون بالشعائر الوثنية التى تبين طقوسها بجلاء فى عبادة الصائبة لاعتقادهم أنهم أحق الناس بالعبادة الفلسفية الالهية والأخذ لها والتجديد لمادثر منها . ولكن الكاتب لم يبين لنا كيف كان الاخوان يقومون بالشعائر الوثنية ، هل كانوا يقيمونها خفية أم على مرأى ومسمع من الجماهير ؟ الواقع أن الكاتب فهم ذلك لأنه لم يشأ أن يفهم النص بأكمله فاكتفى بجزء من النص وترك أكثره .

(١) الشهرستانى ج ٢ ص ١١٢ (على هامش الفصل لابن حزم) . والقفطى مادة إدريس وهرمس . وطبقات الأمم لصاعد .

ففى هذا النص من الرسائل إشارة صريحة إلى أن الاخوان علويون ، فهم أقرب الناس إلى النبى الكريم ، وأنهم أولى الناس بحمل شعائر الدين الاسلامى وأخص الناس به . ولكن الكاتب تغاضى عن ذلك كله فى سبيل التدليل على ما ألزم نفسه به من فروض ، ولو أدى ذلك إلى إهمال النص . وكذلك لم يشأ الكاتب أن يبحث معنى قولهم «العبادة الفلسفية الالهية» واكتفى بأن فسرها من عنده بأنها العبادة الوثنية وترك أقوال إخوان الصفاء أنفسهم فى شرح هذه العبادة بقولهم « الاقرار بوحدانية الله »[1] وأن العمل بالعبادة الفلسفية الالـٰهية إيمان ولا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون مسلماً والاسلام سابق على الايمان[2] وأن النبى صلى الله عليه وسلم كان إماماً للمسلمين والمؤمنين عارفاً بالعبادة الفلسفية الالـٰهية.[3] ولو اطلع الأستاذ على رسالة الجامعة من رسائل إخوان الصفاء وقارن بين نصوص الرسائل كلها ، لاستطاع أن يدرك أن المقصود « بالعبادة الفلسفية الالـٰهية » هو مايعرف عند الاسماعيلية والصوفية بعلم الباطن وأن العبادة الشرعية الناموسية هى علم الظاهر . ولعل الأستاذ جبور إذا أعاد قراءة الرسائل المطبوعة سيجد أنها مفعمة بالاشارة إلى الظاهر والباطن ، وإلى أن العبادة الفلسفية الالـٰهية هى العبادة بالباطن الذى قال به الاسماعيلية ومنهم إخوان الصفاء .

وقد بدا للكاتب أن الأفق القاتم قد انجلى له لحديث الاخوان عن الأعياد الاسلامية العادية والأعياد التى سماها بالأعياد الفصلية التى كان يتخذها القدماء . ولكن الأمر أبسط مما توهمه ؛ فقد ينجلى له الأفق القاتم لو لم يحمل النص أكثر مما يتحمله ، فقد قارن إخوان الصفاء الأعياد (الفصلية) بأعياد المسلمين بقولهم : «وإذا أنعمت النظر إلى أعياد الشريعة الاسلامية وجدتها موافقة لها (أى للأعياد الفصلية) وذلك أن نبينا عليه السلام سن لأمته فى شريعته ثلاثة أعياد ، فالأول منها عيد الفطر ، وهو أعظم فرح يكون بخروج الناس من شدة الصوم إلى الفطر كفرح أهل الأرض بقدوم الربيع والخصب بعد ذهاب الشتاء ، ثم عيد الأضحى وهو يوم تعب ونصب لأنه يوم الحج فيكون الوفد الشرعى فيه شعثاً غبراً ويحتاج فيه إلى إراقة دم ويكون فرحاً ممزوجاً

(١) الرسائل ج ٤ ص ٣٠١ — (٢) الموضع السابق — (٣) ج ٤ ص ٣٠٢

بغير ونصب ، فيكون الفرح دون الفرح الأول كفرح الفلاسفة بالعيد الثانى من سنتهم ، إذ كانوا يستقبلون الهجير والرمضاء والسمائم وشدة الصيف . واليوم الثالث فى السنة الشرعية يوم وصيته عند انصرافه من حجة الوداع بغدير خم ، وفرحه ممزوج لأنه خالط ذلك بنكث وغدر ، موافقاً للعيد الثالث الفلسفى المتقلب فيه الزمان من الصيف إلى الخريف ، فتناهى حال الثمار وأخذها فى النقصان والجفاف . واليوم الرابع هو يوم الحزن والكآبة فهو يوم قبض فيه النبى صلى الله عليه وسلم إلى رضوان الله ومحل كرامته صلى الله عليه وسلم وإن كان عيدا له لما وعده ربه تعالى بقوله « وللآخرة خير لك من الأولى » فهو بانتقاله إلى جوار الله وكريم فنائه عيد له غير أنه مشوب بمصاب أمته وانقطاع الوحى وفقدهم شخصه الكريم . »(١) ثم ذكر الاخوان أنهم اتخذوا لأنفسهم أعياداً خاصة توافق أيضاً هذه الأعياد الشرعية وهذه الأعياد الفصلية ، وهى خلاصة ما أرادوا ذكره عن الأعياد ، بخلاف ما فهمه الأستاذ جبور . ولا صحة لما ذهب إليه الكاتب من أن الاخوان « كانوا يصلون بصلاة قدماء اليونان ويدعون بالأدعية الأفلاطونية ويتوسلون بالتوسل الادريسى ويناجون مناجاة الأرسطاطالية » فقد وردت هذه الألوان من العبادة فى الرسائل منسوبة إلى قدماء اليونان وأنها عبادة الفلاسفة الالهيين . ولكن فات الأستاذ جبور أن يعرف ما الذى قصد إليه إخوان الصفاء بقولهم : «ولما تمت الفضيلة لواحد من أهله (أى من أهل النبى صلى الله عليه وسلم) وأصحابه قال مفتخراً : أنا أرسطاطاليس هذه الأمة .»(٢) فمن هذا النص الذى أهمله الأستاذ الكاتب نستطيع أن نذكر أن ذكر أفلاطون وإدريس وأرسطاطاليس فى النص السابق رموز أريد بها الأئمة من أهل البيت.(٣)

وقد ذهب الكاتب إلى أن إخوان الصفاء كانوا يحللون القرابين وذبح الحيوانات فى الهياكل قرباناً لمن يعبدونه . فهذا القول لا يتفق مع ماورد فى الرسائل ، وقد فسر الاخوان قربانهم بقولهم إنه « التقرب بما تقرب به إبراهيم من الكبش المنون به عليه فداء لولده الذى قد رعى فى أرض الجنة أربعين خريفاً» . ثم قولهم : «فان تمكنت

(١) ج ٤ ص ٣٠٦ — (٢) ج ٤ ص ٣٠٢
(٣) راجع الرسالة الجامعة لاخوان الصفاء .

أن تتقرب بكبش رعى فى أرض الجنة ولو شبراً فافعل ولا تقعد عنه واجتهد فى ذلك . . . »[١] وربما لم يستطع الكاتب أن يفك هذه الرموز أو أن يصل إلى حل هذه الأسرار ، ففسرها بما يتفق مع فروضه . ولو كان قداطلع على كتب التأويل عند الاسماعيلية او على رسالة الجامعة لأدرك أن لهذه الاشارات تأويلا باطنيا ؛ فالقربان عندهم هو العهد والميثاق ، والكبش هو حجة الإمام أو كبير دعاته ، وأرض الجنة هى أرض الدعوة [٢] ، وبذلك نستطيع أن نفهم أقوال إخوان الصفاء فى قربانهم على النحو الذى أرادوه هم ، لا على النحو الذى فهمه الأستاذ الباحث .

أما قوله : «وينتهون من ذلك إلى القول بأن الهياكل التى بناها الفلاسفة هى شبيهة بالهياكل الموجودة فى السماء» فهو تحريف لقول إخوان الصفاء « وبناؤهم الهياكل فى الأرض على مثال ماهى مبنية فى السماء » . فكلمة مثال هنا فى نص الرسائل لها مدلولها ، المصطلح عليه فى الرسائل وفى كتب الاسماعيلية . ذلك أن الاسماعيلية ، ومنهم إخوان الصفاء ، بنوا عقائدهم الباطنية (وهى العبادة الفلسفية الإلـٰهية التى شاء الأستاذ جبور أن يقول إنها العبادة الوثنية) على نظرية خاصة ، أطلقت عليها « نظرية المثل والممثول » .[٣] وتقوم هذه النظرية على أن كل ماخلقه الله من المحسوسات الظاهرة هى مثل ، ولها فى الباطن ممثولات ، وكل ما فى الأرض مثل وما فى السماء ممثول . وبناء على هذه النظرية ، وبتأويل الفلاسفة الإلـٰهين بالأئمة كما سبق القول من قبل ، تقول إن الأئمة مثل والحدود الروحانية ممثول ؛ فما يأتيه الأئمة فى الأرض من عبادات هى مثل لما يأتيه الحدود الروحانية فى السماء . وفى ذلك يقول المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى داعى الدعاة :

أقصد حمى ممثوله دون المثل
ذا إبر النحل وهذا كالعسل

ولا أوافق الأستاذ جبور فى قوله إنهم من عبدة الكواكب السيارة ، لا أوافقه لسبب بسيط وهو أنه لم يرد

(١) ج ٤ ص ٣٠٩
(٢) راجع تأويل قصة إبراهيم فى كتاب سرائر النقطاء لجعفر بن منصور اليمن ، وتأويل الحج فى كتاب تأويل دعائم الاسلام للقاضى النعمان بن محمد ، وفى المجالس المؤيدية لداعى الدعاة المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى . وكلها فتوغرافية مكتبة جامعة فؤاد الأول بالقاهرة .
(٣) راجع مقدمة ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة (تحت الطبع بشركة الكاتب المصرى).

نص ولا إشارة إلى ذلك فى الرسائل . و إن كان الأستاذ قد استدل بقولهم إن الكواكب السيارة لها تأثير فى عالم الكون والفساد ، فلعل الكاتب يوافقنى على أنه ليس إخوان الصفاء وحدهم الذين قالوا بهذه المقالة ، ولعله قد قرأ ما ورد فى مروج الذهب للمسعودى فقد أفرد فصلا خاصا بذلك . ووضع الأستاذ الكبير المرحوم نالينو المستشرق الايطالى كتاباً فى الفلك عند العرب ، وقد ذكر من قال بتأثير الكواكب فى عالم الكون والفساد . وكذلك نقول إن الحرانيين — الذين يريد الكاتب أن ينسب إخوان الصفاء إليهم — ليسوا وحدهم الذين ذهبوا هذا المذهب . واستدلال الكاتب بأن الاخوان من المثمنة ليس بصحيح ؛ لأن الناظر فى الرسائل يعتقد لأول وهلة أنهم مخمسة لا مثمنة .. والحقيقة كما قلت من قبل أنهم كانوا فى هذه الناحية فيثاغوريين لايرتبطون بعدد من الأعداد بل جعلوا لكل عدد أصلا من أصول عقيدتهم (١) .

و إذن نستطيع — مطمئنين — أن نرفض هذه الفروض التى افترضها الأستاذ جبور عن وثنية إخوان الصفاء والحرانية ، وأن نعيد ما قاله الباحثون السابقون عن إخوان الصفاء من أنهم من الاسماعيلية . ولعل الأستاذ جبور قد لمح إلى ذلك دون أن يشعر بحديثه عن العلاقة التى بين نصوص الرسائل ونصوص رسائل جابر بن حيان . وأن جابر بن حيان كان على صلة بالإمام جعفر الصادق الإمام السادس للشيعة الاثنى عشرية والخامس للشيعة الاسماعيلية ، فوجود هذه الصلة بين أقوال إخوان الصفاء وأقوال جابر تدعونا إلى الوقوف طويلا للبحث عن علاقتهما بعضهما ببعض وعلاقة الاخوان بالاسماعيلية . وهذا ماأرجو أن أتناوله فى مقالات أخرى .

محمد كامل حسين

---

(١) راجع مقدمة كتاب المجالس المستنصرية .

من وراء البحار

مصر والســــودان

تثير مطالب مصر من انجلترا ، تعليقات مغرضة فى الصحف والمجلات البريطانية ، قد يختلف كل منهـا فى نزعتـه ولهجتـه باختـلاف مذهب الصحيفة أو المجلة . ولـكنها تجتمع كلها فى تأييد وجهة النظر البريطانية . وقد رأينا أن ننقل نموذجاً من مجلة « العالم اليوم » التى يصـدرها المعهد الملكى للشؤون الدولية . وهى تعتبر من أكثر المجلات اتزاناً فى بحثها للشؤون الدولية . وقد تـكلمت فى مقالها الافتتاحى فى عدد شهر فبراير عن بريطانيا ومصر ، ومستقبل السودان ، فقالت بعد عبارة قصيرة ليست هى المرة الأولى التى تبين فيها أن مسألة السودان لم تكن حجر عثرة فى طريق الاتفاق مع مصر فقط ، بل هى الصخرة التى تتحطم عليها المجهودات فى سبيل الاتفـاق . ففى سنة ١٩٣٠ عدل عن محـاولات الوصول إلى الاتفاق وهى على أهبـة النجاح لسبب واحد ، هو استحـالة التوفيق بين وجهتى نظر الحـكومتين المصرية والبريطانية فى هذا المشكل. ولذلك كان مما يدعو للاغتباط فى سنة ١٩٣٦ ، أن وجد سبيل للاتفاق فى المعاهدة القائمة أمكن به نجاح المفاوضات فى شأن جميع المسائل الأخرى ، على أن تترك المسألة التى لا يمكن حلهـا لتـكون موضوعاً مستقلا للبحث فيما بعد . فقد اتفق الطرفان فى تلك المعاهدة على أن تظل إدارة السودان على حالتهـا الناشئة عن الاتفاق على الحـكم الثنائى الذى عقد فى سنة ١٨٩٩ مع «الاحتفاظ بحرية عقد اتفاقات أخرى فيما بعد » . لذلك استمر السودان يديره حاكم عام ذو سلطة عليا « يعين بناء على توصية الحـكومة البريطانية » . على أن مصر لم تنزل عن سيادتها عليه إذ أن المادة ١١ (فقرة ٣) تنص على أنه « يجب ألا يتعارض ما نص عليه فى هذه المادة مع مسألة السيادة على السودان » . وفضلا عن ذلك استطاعت مصر أن تزيل بعض الموانع التى فرضتها عليهـا الحكومة البريطانية بعد مقتل الحاكم العام فى سنة ١٩٢٤ ومنها إعادة فتح المناصب الادارية للموظفين المصريين .

على أن التسوية لم تؤد إلى أكثر من وضع الصعوبة على الرف . ومازالت

مصر مصرة على أن السيادة على السودان مرتبطة بالتاج المصرى . وهى تزعم أن وحدة وادى النيل ضرورية لأمنها وسعادتها ، على حين تتمسك الحكومة البريطانية بأن الاشتراك المصرى الانجليزى فى إدارة تلك البلاد هو بمثابة وديعة للشعب السودانى على قول مستر رمزى مكدونلد فى برقية أرسلها إلى القاهرة فى سنة ١٩٢٤ ، وصرح فيها أنه يجب ألا تثار مسألة السودان بل يجب أن تترك إلى أن يتم العمل فيه (أى إعداد السودانيين للحكم الذاتى) . وتؤيد الحكومة البريطانية الحالية هذا الرأى، وتلاحظ أنه عندما يحين الوقت لكى يقيم السودانيون الحكومة التى يرغبون فيها يكونون بالطبيعة أحراراً فى اختيار بقاء علاقته مع مصر أو عدم بقائها .

ومما يؤسف له فيما يتعلق بأمل الوصول إلى تسوية أن استمر الساسة المصريون واستمرت الصحافة المصرية مدة خمس وعشرين سنة ينادون بوحدة وادى النيل . وفى سنة ١٩٣٠ كانت النظرية التى استعملها النحاس باشا (وكان يومئذ رئيساً للحكومة) فيما يتعلق باتفاقية الحكم الثنائى هى أن السيادة المصرية على السودان لاتتجزأ بالرغم من هذه الاتفاقية ، إذ أن غرض هذه الاتفاقية إدارى محض لا سياسى . أما الزعماء الحاليون اليوم فيظهر أنهم يكتفون بالزعم أن السودان ومصر شئ واحد ، ولا يرون من الضرورى أن ينيروا أذهان شعبهم فيما يتعلق بالظروف التى عقد فيها اتفاق الحكم الثنائى . أى إن هذا الاتفاق قد تم بعد إعادة فتح السودان (الذى نجح فى الانتقاض على سوء الحكم المصرى) بحملة مؤلفة من جنود بريطانية وجنود دربهم البريطانيون ، وقاد هذه الحملة لورد كتشنر . ونتيجة هذا أن السواد الأعظم من المصريين لا يعرفون إلا أن البلاد السودانية كانت فى وقت ما جزءاً من أراضى الخديو ، وأن رخاء مصر يتوقف على مياه النيل إن لم تتوقف عليها حياتهم .

ومن المؤكد أن لمصر كل حق فى أن تطلب ضمانات كاملة لسلامة حدودها الجنوبية ، وأن تكون واثقة كل الثقة بألا تتعرض مواردها من مياه النيل للخطر . على أن هذه الأمور معترف بها تماماً فى بريطانيا والسودان . وقد عقدت اتفاقية مياه النيل فى سنة ١٩٢٩ بوجه خاص لكى تزيل كل خوف ، بأن أية مشروعات مستقبلة لرى السودان وحجز المياه فيه ، لن تعرقل على أية حال ماتطلبه مصر من

مياه . وقد نصت هذه الاتفاقية على إنشاء خزان جديد فى السودان تعود كل الفائدة منه على مصر . وتقرر فى هذه الاتفاقية مبدأ عدم اتخاذ أية إجراءات فى السودان تضر بمصالح مصر ، وأن يكون هنالك تعاون بين مصالح الرى فى البلدين .

أما فيما يتعلق بالمأزق الحالى فان مايسمى ببروتوكول السودان ، لم ينشر . ولكن من الواضح أن الحكومة البريطانية تصر على مبدأ أن يكون مصير السودان فى المستقبل من شأن السودانيين أنفسهم بالاختيار الحر . وفى رأى هذه الحكومة أنها لا تستطيع «أن تنزل عن حقوق شعب فى الاستقلال الذاتى بالاتفاق على ذلك مع طرف ثالث » . ومما يجعل هذا القول أكثر صواباً أنه قامت حركة وطنية استقلالية فى السودان نفسه . على أنه مما يؤسف له أن هذه الحركة يمثلها حزبان يختلفان اختلافاً كبيراً فى كثير من وسائلهما وأغراضهما . ولكن كلا الحزبين ينادى بأن يكون السودان مستقلا وبعيداً عن أى تدخل من بريطانيا أو من مصر .

حول الأديب الفرنسى كامو

أبدى مستر ماسون فى صدر مقاله عن كامو Camus فى مجلة « سكروتنى » الانجليزية ، عدد يناير سنة ١٩٤٧ ملاحظة تسترعى النظر ، هى قوله إن فى الأدب الفرنسى المعاصر ظاهرة عجيبة ، هى أن ثلاثة على الأقل من كتاب النثر قد نشر كل منهم بحثاً فلسفيا ، ومسرحية ، ورواية قصصية . فقد كتب مسيو ألبير كامو ، فضلا عن قصتيه « الغريب » و « رسائل لصديق ألمانى » ، مسرحيتين هما « سوء التفاهم » و « كاليجولا » ، ومقالا عن السخافة باسم « أسطورة ستيف » ، وجمعت له مجموعة مقالات لم يكن قد بلغ فيها مستواه الناضج ، صدرت تحت اسم « العرائس » . وبالرغم من أن مسيو كامو يقرن اسمه ببول سارتر وسيمون دى بوفوار على أنه من أتباع مذهب الوجودية ، فان هذا الوصف لا يدل على الحقيقة أكثر من القول بأن الكتاب الانجليز أودن وداى لويس وسبندر هم أنصار مذهب واحد . وكل مايشترك فيه هؤلاء الكتاب الفرنسيون الثلاثة أن لكل منهم فلسفة تظهر فى مسرحياته وقصصه . ولمسيو كامو الذى كان معلما للفلسفة آراء طريفة ، قد

لاتكون متناسقة كفلسفة صرفة ، ولكنها تمثل نظرة نحو الحياة والموت يشترك فيها كثيرون من الناس فى زماننا .

ولعله عمد إلى شرح هذه الفلسفة فى روايته « الغريب » ، ولكن فى هذه الرواية أيضاً فضيلة نادرة هى أنه فكر فيها وبناها من أول صفحة إلى آخر صفحة ، بل نجد أن الصفحة الأخيرة مرتبطة كل الارتباط بالصفحة الأولى . وفى هذه الرواية ميزة أخرى هى أن معناها الحقيقى لا يعرف إلا فى النهاية . و يجب قراءتها حتى هذه النهاية لكى يعرف مغزاها . فالمؤلف إذن قابض تماماً على مادته وهو يتناولها فى أسلوب بين متزن لا يعترضه حشو أدبى .

وقصة « الغريب » التى تروى على لسان بطلها ، هى قصة مرسو الذى يعيش فى الجزائر ويعمل عملا كتابيا بسيطاً . . . وقد وضع والدته قبل ثلاث سنوات فى دار للعجزة بمارنجو . وفى ابتداء الرواية تكون والدته توفيت ، فذهب يشيعها إلى مقرها الأخير . وعند عودته إلى الجزائر يذهب إلى حوض للسباحة ليقابل فيه مارى التى كانت تعمل على الآلة الكاتبة فى المكتب الذى يعمل هو فيه . فيذهبان فى المساء إلى رؤية شريط سنمائى هزلى ثم يبيتان معاً . وتبغى الفتاة الزواج منه فلا يمانع بالرغم من عدم تحمسه ، ولكن قبل حدوث الزواج يساعد مرسو رجلا يعرفه ممن يتاجرون فى النساء فى مشاحنة له مع إحدى ضحاياه ، وتتوطد بينهما الصداقة فيذهبان بصحبة مارى فى يوم السبت التالى إلى أحد المصايف . وهنالك يتبعهم بعض الأعراب الذين هم أصدقاء لأخى المرأة المعتدى عليها ، وينشب بينهما وبين الأعراب عراك يجرح فيه الصديق . على أن مرسو يتدخل بين المتعاركين ، ويستولى على مسدس صديقه حسما للنزاع . و يحدث بعد ذلك أن يخرج للنزهة، وكانت الشمس تسطع حارة ويتصبب من جسده العرق، فاذا به يعود إلى مقابلة أحد الأعراب الذى يرغب أن يستأنف العراك ، و يخرج هذا الأعرابى سكيناً فاذا مرسو يفرغ المسدس فيه و يرديه جثة هامدة .

كان من المستطاع أن تنتهى هذه القضية باعتبارها قتلا حدث مع ظروف مخففة . ولكن إجابات بطل القضية أمام قاضى التحقيق تصدم آراء القاضى المسيحية، فيأخذ فى التوسع فى تحقيقه ، و يرى حتى فى مسألة وفاة الوالدة معنى جديداً ، ويزيد المتهم عناداً وتمسكا بما يعتقد أنه الحق ، فيحكم عليه بالموت . وعندما يذهب إليه

القسيس قبل تنفيذ الحكم يأبى أن يقابله بل ينهال عليه ضرباً ، وتكون رغبته الأخيرة أن يشهد تنفيذ الحكم عليه جمهور ساخط .

قد تكون هذه القصة مقتبسة من إحدى الصحف كما فعل ستندال فى قصته «الأحمر والأسود» ، ولكن أبرز ما فيها ليس النضال بين بطلها وبين الهيئة الاجتماعية ومصطلحاتها ؛ فمرسو فى هذه القصة شهيد العقيدة لا شهيد الهيئة الاجتماعية ، ومأساته هى مأساة جميع الذين يشاطرون مسيو كامو رأيه .

فهنالك ثلاثة آراء أساسية يتجه إليها المؤلف فى كتابه : أولها أن بعض الأشياء التى تعتبر ذات أهمية هى فى الحقيقة عديمة الأهمية . وثانيها أن هنالك قيما خاصة ، ولكن ليس من الضرورى أن نأخذ بهذه القيم أو نهملها . ومن وراء الثقة بالنفس توجد عقيدة فى بعض القيم لا تتأثر حتى بالموت المحتوم .

وقبل مناقشة هذه الآراء يحسن أن نذكر أن بعض الناقدين يرون فى بطل الرواية أنه نضبت فيه جميع موارد الاحساس ، و يرى الآخرون أنه يفيض بالحياة الداخلية ، و يرى كاتب المقال فيه أن هذا اللاشعور منه هو طريقة تبعث على الاهتمام فى بطل الرواية ، و يجب أن ننظر إليه على أنه يمثل اتجاهاً جديًّا فى الحياة . ولقد حرص مسيو كامو على أن يكثر البطل من الحديث عن نظرته إلى الشئ العديم الأهمية ، ومن هذه الأحاديث نشعر بأن للبطل قيما خاصة فى الحياة ، أولها الطموح إلى الرجولة ، فان اضطهاده جعل منه رجلا وبطلا .

وليس من السهل أن نرى فى هذه القصة مأساة . أجل ! إن فقد المرء لحياة عشرين سنة هى مسألة مؤلمة لدى أولئك الذين يقيسون الحياة بهذا القياس ؛ ولذلك كان ما تقوم عليه هذه المسألة : هل هنالك فيما وراء موت البطل فى مقتبل العمر ما يدل على القدر المحتوم ؟ إن الأمر المحتوم فى هذه القصة على ما يظهر هو احتمال حدوث المصاب دائماً ، حتى الحياة لتظهر كفخ نصب لحيوان . ولكن لا يمكن الدلالة على أن مسيو كامو أراد شيئاً غير فكرة الموت المحتوم الذى يجعل الأمور متساوية فى الأهمية وعدم الأهمية .

و إذا سألنا ما هو اتجاه البطل فى هذا العالم لرأيناه القبول السلبى لظروفه . وفى المأساة التى تحل به كل التأثير الذى نجده فى خير القصص الأمريكية ، إلا أن فى الفلسفة الساخرة للمؤلف الفرنسى ما لا يوجد عند غيره من الكتاب .

من كتب الشرق والغرب

LE HEROS DANS LA VALLEE HEUREUSE

ETIEMBLE

البطل فى الوادى السعيد[1]

يتكلم الناس اليوم عن الرور بقدر ما تكلموا عنه عام ١٩٤٤ ، ويبذل فى إعادة إنشائه من الجهد أكثر مما بذل فى تخريبه . ذلك لأن هذا الوادى سيبقى كأحد الأماكن التى يقرر فيها مصير حضارتنا . واد غنى وواد مهول ، واد بائس فى ذلك الوقت الذى كان يدعى — ويا لغرابة ذلك — وقت السلام . وأكثر بؤساً — لو كان هذا ممكناً — فى وقت الحرب المعلنة حين كانت القنابل المنهالة بآلاف الأطنان تحتفر فيه آلاف الهوات المبتغاة . وكان طيارو الحلفاء ، الذين كانت تبحث عنهم فى يقظة القذائف والمدافع الثقيلة والمطاردات المعادية ، يطلقون عليه اسم الوادى السعيد .

كان جـول روا Jules Roy ضابطاً ، ثم انضم مبادراً إلى حركة فرنسا المحاربة ، فطار فوق ألمانيا كثيراً ، أكثر من زملائه . وحقا لقد كان العمل فى القاذفات الليلية رهيباً حتى لقد كان سلاح الطيران الملكى يحل من كل ارتباط حربى أولئك الذين يبقون على قيد الحياة بعد الطيران الثلاثين : إذ ثبت لقيادة القاذفات بعملية حسابية بسيطة أن قليلا جدا من الطيارين من يعود بعد طيرانه عشرين مرة ذهاباً وإياباً . ولكن كما يعرف المقامرون ما يدعونه « بالخوارق » ، وهى مجموعة أرقام تفسد عليهم حسابهم ، كذلك كان لمكتب قيادة القاذفات « خوارقه » وهم قواد الطائرات والطيارون الذين يبقون أحياء بعد أن يطيروا عشرين مرة فوق المحور . ولما أتم جول روا مهماته الثلاثين بانتظام ، علم هذا « الخارق » من رؤسائه أن عليه أن يواصل عمله المهلك لنقص فى عدد الرجال . ورغم ذلك فقد رجع من الوادى السعيد ، رجع محطم الأعصاب . ولما عاودته قوته واتزانه

(١) كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

قص علينا حياة الطيارين . فبعد أن كتب « أناشيد وصلوات لبعض قائدى الطائرات » ، ألف كتابه « سماء وأرض » . و « سماء وأرض » هو أيضاً العنوان الذى اتخذته مجموعة الكتب التى يشرف عليها فى طبعة شارلوت Editions Charlot وقد أضاف إليها منذ قليل قصة عن تجربة « الوادى السعيد » . ونال هذا المؤلف جائزة تيوفراست رنودو Théophraste Renaudot الأدبية لعام ١٩٤٦ ، وهكذا أثبت محكمو جائزة رنودو مرة أخرى أنهم أسلم ذوقاً من محكمى جائزة جونكور Goncourt .

وشفرييه ، الطيار الأول والشخصية الأساسية فى « الوادى السعيد » ، شبيه كأخ شقيق بشخصية باتريس فى « سماء وأرض » . وباتريس وشفرييه ، كلاهما شبيه بجول روا . فهما كما جاء فى رؤية يوحنا : « لم يحبوا الحياة خشية من الموت » . أو كما قال جول روا : « كانت فكرة الموت الوشيك تفسد كل شئ ». ولو كان الطيارون أقل تأثراً ، لسحروا عدداً أقل من النساء ، ولكن فكرة الموت الوشيك تفسد عليهم كل شئ حتى هؤلاء النسوة المتأهبات . أكانت تفسد كل شئ ؟ كلا . فالاخوة فى الشجاعة والرجولة تسيطر على المشاعر جميعاً وتفلت من ذلك الفساد . وهذا التعاطف القاسى الذى تعبر عنه كلمات عسكرية خشنة ، والذى لا يعرفه إلا أولئك الذين يواجهون الموت معاً ، هذا التعاطف يفيض على هذه الأقاصيص إنسانية ؛ فهو وحده ، بين تلك الآلات الميكانيكية الشنيعة التى تكون الطيران فى أيامنا ، الذى يؤكد للطيارين أنهم ليسوا بآلات أوتوماتيكية . ففى وقت السلام ، كان يستطيع الطيار فى الطيران التجارى ، أن يحتفظ بذاتيته . « وكان المرء يلقى حتفه لأن إطاراً انفجر ساعة الرحيل أو لأن محركا احترق أثناء الطيران ، ولكن ذلك هو الذى كان يعطى للحياة قيمتها . » قائد الطائرة وملاحها الجوى يعرفان أن شجاعتهما ومقدرتهما تواجه ضربات القدر وعناصر الطبيعة ، بقوى لا يمكن إهمالها . أما أثناء الحرب الهتلرية ، فلم يكن بين الطيار وبين الموت إلا قانون جاف من قوانين المتوسطات الحسابية ، أى نسبة مئوية معلومة من الخسارة ؛ فقد ولى ذلك الزمن ، زمن المبارزات الجوية بين المطاردات حيث كان يستطيع قائد الطائرة بشئ من المداورة ومن إحكام الهدف ، أن ينتصر ويخرج سليما . كان الانسان عندئذ سيد مصيره . أما اليوم

فنعلم ساعة الرحيل أن عدداً محدداً من الطيارين ، لا يزيد أو ينقص إلى اثنين أو ثلاثة ، لن يعودوا إلى قاعدتهم .

إذهب إذن وبيّن للمدنيين حياة الطيارين وظروفهم ! كتبت امرأة غبية إلى مورين ، صديق شفرييه : « أريد أن يكلل المجد هامتك » . فرد عليها مورين « أتتكلمين عن المجد ، إنه يعرفنا » . وذات يوم كانت إحدى الفتيات تهمس إلى شفرييه فى تبتل وذهول قائلة : « يا له من مرح ذلك الذى تستشعره وأنت تقذف برلين بالقنابل » . فلم يرد عليها « بل لم يرفع كتفيه » . ذلك لأنه مقتنع بأن أى شخص يستطيع أن يقع دون احتياط فى البطولة كما يقع فى بالوعة مفتوحة على حافة الافريز . قال لى مالرو **Malraux** ذات يوم أثناء حرب أسبانيا : « لقد رأيت فريقاً من أولئك الذين يدعون أبطالا ، رأيتهم فى الطيران . وهم جميعاً طفليون أو مصابون بداء الكذب » . أما أمام قيادة القاذفات فلم يكن هناك محل لأن يمثل الطيار دور البطل . فى كل صفحة نلقى الخوف « كان يدع ركبتيه ترتجفان . . . كان السهم يحتفر صدره وبطنه . جف عوده من الخوف وهو فى طائرته . . . أحس شفرييه فمه يمتلىء مرة أخرى بالمرارة . . . اختلج صوت المدفعى من الخوف والصراخ . . . كان شفرييه قد انغمر كالعادة فى لجة الفزع من التصادم . . . كل مساء يأتى يمزق أحشاءه . . . كنت خائفاً . . . الخ » الفزع ساعة الرحيل ، الفزع من الطيران جماعات ، والفزع من الليل وكل الأنوار مطفأة والطائرة تحمل ستة أطنان من القنابل قد تنفجر فى أية لحظة ، كان شفرييه يلوم نفسه أحياناً على كل تلك المخاوف ، ولكنه فى الأغلب كان يتقبلها إذ أنه رغم ذلك لم يكن ليدع مكانه فى الطائرة بأى ثمن كان . « ولم يكن يدرى كيف يتخلص منها دون أن يفقد نفسه فى الوقت عينه . » استسلام لا أمل فيه . . . ويحدث فى أحيان قليلة قبل الهجوم مباشرة أن يعرف الطيار تلك الهنيهة من السلام العظيم ، سلام يعرفه أولئك الذين يحسون استعدادهم للموت ، وتلك هى البطولة الحقة ، بطولة من لا يحس بطولته بل يتهم نفسه بالضعف . رجال أبطال حقا ، أولئك الذين « كانوا يؤدون مهمتهم دون اندفاع ، ويكادون أن يؤدوها دون إيمان ، ذلك لأن المهمة نفسها قد محت فيهم كل اندفاع وكل إيمان . » رجال يجدر بنا أن نفضلهم ،

لهذا السبب ، على القطيع الانسانى . وذلك الذى يقبل دون بغض ودون وهم « أن يواجه الموت القاسى ، موت قاذفات القنابل ، ماذا عليه لو لم يسيطر على بطنه أو على مثانته : ذلك الرجل هو البطل » . وتلك حال شفرييه .

لا أثر للاحتقار ولا أثر للكره فى حنايا نفسه . و إنه ليذكر عدوه القاتل النازى ، فى أشد ساعات القتال ، ويذكر طقطقة اللحم البشرى وهو يحترق فى طائرة المسرشميت . وهو يرثى له إذ يفنى فى سبيل قضية غير عادلة ، و يرثى له إذ لا يتقن مهمته إلا ضد الانسانية . وأما عن شفرييه فانه سيموت دون شكوى بشرط أن يصل «إلى سماء خاصة ، وأن يستنشق هواء خاصاً ، وأن يذوق خبزاً خاصا » ، هواء الحرية وسماؤها وخبزها . وترى شفرييه الضابط المحترف والذى كان كل شئ فيه يؤهله لكراهة الألمانى لكونه ألمانيا ، وللوطنية الضيقة الأفق ، وللخوف من الشعب ومن الطبقات الدنيا ، متحداً مع أعضاء المقاومة السرية ، وتراه يحس قدرته على محو قريته التى ولد بها وعلى اعتبار وطنه مقصوراً على البلاد التى بقيت حرة . « ففى اليوم الذى وافق فيه على محاربة فكرة ما ، قد وسع نطاق فكرته عن الوطن فعبر بها الحدود وخلصها من كل ما قد يحددها . وربما كان وطنى الحقيقى هو السماء لا الأرض ، كما قال لموزين » ، صديقه الأسوأ منه حظا والذى مات فى إحدى ساعات الرحيل .

وهكذا نرى مزية هؤلاء الرجال ومزية هذه القصة . أهى قصة ؟ كلا ، ليست كذلك لو اعتبرنا « ثيسيوس » لأندريه جيد و«الباب الضيق» قصتين . ولا هى برواية رغم ما نراه فى بدئها من حبك روائى وما نلمحه فى ثناياها من عودة ظهور بعض الشخصيات ، وهى ليست مجموعة من الأقاصيص . ولاقصة حياة ذاتية (أوتوبيوجرافى) ، وليست مقالا ولا مؤلفاً أخلاقيا . ولنقل إنها كتاب فحسب . وإنى أفضل هذا الكتاب على كتاب « قواد الطائرات فى الحرب» الذى كتبه سانت إكسوبرى قبل موته . فلقد رأينا فى آخر كتاب سانت إكسوبرى صحائف مدهشة فى تفسير أسابيع الهزيمة فى يونيه ١٩٤٠ إذ يراها كأنها عقاب سماوى ، فكانت بهذا تردد روح الهزيمة الفيشية . أما شفرييه فانه يرفض ذلك الدين الذى ساد أيام بتان ، ويبدو له أن فيه مساساً بالإله : « فان الله لا يفضل شيئاً على شئ . . . ولا يعرف حقل الرجل العادل بمقدار ما فيه من سنابل ،

ولا تروى مياه السماء أرض المؤمنـــين فحسب » . وإنى لأعترف بأنى أحب هذه الصراحة النيرة . فالقيم الأخلاقية لا تختار كأسعار البورصة بقصد المضاربة (وليس من المهم أن تصعد أو تنخفض) .

وربما لم يكن فى «الوادى السعيد» مزايا الأسلوب التى تكثر لدى مؤلف «الطيران ليلا» . فلغة سانت إكسوبرى أكثر طواعية لارادته وأكثر حساسية من لغة جول روا ، وهى لهذا تستولى علينا بطريقة أيسر . ومن ذا الذى ينسى بسمة التجارة فى « خطاب إلى أحد الرهائن » ؟ وإن سانت إكسوبرى لا يبدو غامضاً عندما يؤكد لنا أنه مستعد للقتال عن طيب خاطر « لينقذ صفة ما فى بسمة البحارة ، صفة فى بسمتك وبسمتى ، وبسمة الخادمة، لينقذ معجزة تلك الشمس التى جاهدت كل ذلك الجهاد منذ ملايين السنين لتنتهى أخيراً بوساطتنا إلى هذه الصفة لبسمة ناجحة » . وإن ترتيب الكلمات هنا ليساعد على إبراز المشاعر . ومن هنا يجئ خطر هذه الميزة للاحتفاظ ، إذ أنها تستطيع أن تجعل للأفكار السيئة سلطاناً علينا . ولا شئ من هذا عند جول روا ؛ فلغته ليست عاطفية ، ونادراً ما تكون ضعيفة بعض الضعف (« فى ذلك المساء لم يكن جو القداس غير عادى ») وهى دائماً مساوية لأولئك الذين تقص حياتهم وموتهم .

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

اتيامبل

COMMENTAIRES AUTOUR D'UN GRAND LIVRE :
LA PENSEE EUROPEENNE AU XVIIIe SIECLE
BERNARD GUYON

حول كتاب خطير

الفكر الأوربى فى القرن الثامن عشر(١)

فى صباح يوم من أوائل سنة ١٩٤٤ ، وفى باريس ذات الوجه العابس المكتئب ، باريس سنوات الحرب والاحتلال ، عند ما أُنبئت أن بول هازار قد فاجأته المنية ، تولانى ذهول واغتمام ، وانتاب قلبى حزن عميق . شعرت أن فرنسا ربما لم تفقد بفقده « رجلا عظيما فذا » ، وعقلية ملهمة وهاجة ، من تلك العقليات التى تقلب أوضاع حياتنا وتحول مناهج تفكيرنا ، تحيط بها هالة من نور العبقرية ؛ ولكنها فقدت رجلا يندر أمثاله بين الرجال ، جديراً بالاعجاب « شريفاً » بكل ما يتضمن هذا اللفظ الجميل من معان فى اللغة الفرنسية : من أمانة هى أقصى ماتكون عليه الأمانة ، إلى تعلق بالحقيقة هو أشد مايكون عليه التعلق بالحقيقة ، تلك الحقيقة التى فى سبيل السعى إليها والبحث عنها أنفق جل حياته . كان يعمل بعزم وكد لا يعرفان الفتور ، وكان متواضع الخلق ، معتدل الطبع ، بعيداً عن كل هوى حزبى ، صافى الذهن ، نافذ البصيرة ، على ثقافة واسعة كان لا يفتأ يزيدها وينميها . وموجز القول إنه من النفر الذين يرفعون شأن أوطانهم ، أكثر من العباقرة — وأغلب مايصدر الشر عن العباقرة — ويعلون قدرها ، وينمون ثروتها العقلية ، ويهيئون الفرص الجديدة لاستمرار كيانها ، وذلك بآثارهم التى يتكابدون المشاق وينفقون السنين فى إعدادها وإنشائها ، لا يسمع لهم صوت ، ولايعلم أحد عنهم شيئاً .

وكان بول هازار — عندما مسه جناح الموت القاتم — قد بدأ يخرج من هذا الصمت وذلك الخمول ، ويذيع اسمه وينتشر فى الأوساط الفرنسية ويتجاوزها إلى بلاد العالم أجمع ، وقد فتحت له الأكاديمية أبوابها ، على

(١) كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

أثر كتاب أصدره هو غاية فى الإبداع عنوانه : «أزمة الضمير الأوربى فى القرن الثامن عشر» ، يتضمن آراء من شأنها أن تحدث انقلاباً فى بعض الاتجاهات والأهداف التاريخية المتوارثة ؛ ولكنه قبل ذلك بسنوات طوال ، كان قد احتل أرفع مكانة من قلوب الطلاب ، فرنسيين وغرباء ، يقبلون عليه فى ازدياد مستمر ، ويستشيرونه ويستمعون إليه كل الاستماع ، يكنون له غاية الحب ، مفتونين بعلمه الذى كان يعرف طريقه إلى القلوب ، مأخوذين بواسع معارفه التى لم تكن يوماً من الأيام سبيلا إلى العدوان ، معجبين بحرصه على أناقة الأسلوب وسحر العبارة ، ذلك الحرص الذى يندر أن يوجد بين كبار أساتذة الجامعة .

كنت واحداً من السعداء الذين كانوا يتزاحمون ساعين إلى محاضراته فى السربون حوالى ١٩٢٢ ، والذين كانوا فيما بعد يحدقون به داخل قاعات الكوليج دى فرانس ، حيث كان يخلو إلى نفسه ، طارحاً عن ذهنه كل تفكير فى الامتحانات والتحضير لها ، ويواصل بحوثه العلمية فى ذلك الطريق الجديد الذى اشتقه وفرنان بلدنسبرجيه حديثاً ، أعنى طريق الأدب المقارن .

وكانت ندوته ، فى أيام الأحد ، ملتقى الشباب من فتيان وفتيات ، يأتون إليه من كل أنحاء العالم . ولست أعرف أحداً كانت أكثر بروزاً فى سلوكه منه تلك الصفة التى تعتبر على الرغم من بعض الظواهر ، لازمة من لوازم العقل الفرنسى ، أقصد القابلية للمؤثرات الخارجية .

كان أستاذاً قديراً، وهذا أمر جدير بالذكر ؛ لأن القديرين من الأساتذة آخذون فى القلة يوماً بعد يوم . لم يكن « بليغاً » فى بلاغة كوزان أو حتى فى بلاغة برونتيير أو جول ليتر، بل كان يعنى أكثر ما يعنى بتكوين عقليات . كان حازماً جادا ، يجمع إلى الحزم والجد دعابة القول . لا يشعر سامعه مطلقاً بالسأم والضجر . وكنا نخرج من محاضرته ظافرين بالوفير الجديد من المعلومات ،مفعمين بالغبطةوالانشراح . وهو إن تميز بشىء فعلى الأخص بلباقته فى الإرشاد والتوجيه ، يسدى الضرورى من النصائح . ويجتنب العاثر من الخطوات ، ويتحاشى كل مسعى غير مجد ، وذلك فى رقة لفظ وعذوبة منطق ، من غير ما تهاون أو تسامح مرذول . يشحذ العزائم الواهنة ، ويحد من زهو المغرورين ، ويبعث الثقة فى قلوب الوجلين المترددين ، وكان

يعرف أيضاً كيف يقضى حاجة من هو فى حاجة إلى المادة فى تكتم وحذر. إن بول هازار لم يكن عقلا كبيراً فحسب، بل كان أيضاً ذا قلب ذكى عظيم.

زرته قبل أن توافيه منيته ببضعة أيام، ولم يكن هناك ماينذر بالفاجعة الوشيكة. لا شك أنه مثل غيره من رجال الفكر الفرنسيين قد أثرت فى أعماق نفسه مصائب قومه، غير أنه كان يعلم أن لتلك المصائب نهاية قريبة. وكان صدره يجيش بالأمل، شأنه فى ذلك شأن كل ذوى البصيرة من أبناء الوطن. وقد انتهز فرصة هذه السنوات التى اضطر فيها إلى السكون، ليقبل على العمل بنشاط وحرارة كان لا يعهدها فى نفسه من قبل. وكان يتحدث إلى بحماسة الشباب عن مكتشفاته الحديثة فى تلك الميادين المظلمة من ميادين الفكر الصوفى فى القرن الثامن عشر، التى شرع الآن يجول فيها. وقد أبدى لى على الأخص اغتباطه بانتهاء الجزء الثانى من تلك اللوحة الفنية الضخمة التى بدأ العمل فيها منذ عشر سنوات خلت، والتى سيكون عنوانها: «حركة الفكر الأوربى فى القرن الثامن عشر».

وها هو ذا الكتاب يظهر اليوم، وقد وصل إلينا من فرنسا يثير فينا شعور الأسى والاعجاب معاً. وأريد الآن أن أقدمه فى كلمة وجيزة، وأن أجلو المسائل العقلية الجليلة الخطيرة التى يريدنا أن نتأمل فيها.

قصد بول هازار فى هذه المجلدات الثلاثة (ومنها واحد للشروح والحواشى، والأخيران للنصوص). إلى دراسة تطور الحركة الفكرية فى أوربا، مبتدئاً من حيث انتهى فى مؤلفه السابق، أى من ١٧١٥ — تلك السنة التى انفجرت فيها «الأزمة» بعد أن ظلت طويلا مكبوتة كامنة — إلى الساعة التى أشرف فيها جيل جديد على الظهور؛ ليتجه، عشية الثورة الفرنسية، بالمسائل القائمة اتجاهاً غير اتجاهها، ويحطم أصناماً غير التى حطمت ويعرض حقائق غير التى عرضت. فالمادة للمؤلف غزيرة مترامية الأطراف، ومع ذلك فمؤرخنا يمتلك ناصيتها، ويحيط بأشتاتها بسهولة تامة. وهو يظهر لنا بوضوح تاريخ الفكر فى هذه السنوات الستين، عبارة عن قصة مجهود ضخم انتهى فى آخر أمره إلى إخفاق ذريع.

مجهود ضخم هو فى الوقت نفسه هدمى وبنائى. وعملية الهدم فيه منصبة على الدين المسيحى، وكانت صيحة الهادمين: «لنسحق الرجس». كلنا يعرف ذلك، وتلك الظاهرة من تاريخ

هذا العصر ، معلومة لدينا أكثر من غيرها . ومزية بول هازار فى هذا الجزء من كتابه ، أنه يجعلنا نحس ، بالناحية الفاجعة الحادة ، لهذا النزاع الفكرى البعيد المدى ، الذى لم يكن، على حد تعبير الكاتب ، سوى « قضية الله » . ونجد ناحية طريفة أخرى فى كتابه ، هى أنه أخرج من الظلمة وخمول الذكر أولئك الذين طمستهم ظلما وجوراً عبقرية فولتير وديدرو وأمثالها ؛ لأنهم تولوا فى هذه القضية مهمة الدفاع ، نذكر منهم فريرون ، وياليسو ومن نهجوا نهجهما ؛ فقد بذلوا هم أيضاً جهداً محموداً ، لاينقصهم الذكاء ولا تعوزهم الشجاعة ولاتخذلهم حدة الذهن وسرعة الخاطر .

وعلى أية حال ، لايكفى أن تفصل الثوب وتقطع أجزاءه ، بل يجب أن تتم خياطته ؛ فماذا يستبدل بالمثل الأعلى المسيحى الذى رفض رفضاً نهائيا ؟ شرع الفلاسفة يبحثون عن مذهب إنسانى جديد ، مذهب إنسانى يكون الانسان فيه مركز هذا العالم ، ويقصى الله عنه إقصاء فعليا . لاشك أنه توجد أشكال متباينة للنظرية الإلـهية ، غيرأن هذه الأشكال كلها لا تجعل من الله إلا ذلك الكائن الأعلى القصى الذى لايهتم أدنى اهتمام بالأحداث الحقيرة التى تمر بهذا العالم الأرضى وهو ما يتخذه الدين الطبيعى إلـها له . إن هذا المذهب الانسانى الجديد يحصر جهوده ويوجهها نحو بناء مدينة للبشر ، وهو يستعين بالعلم لنشر السعادة فيها . فالعلم يفتح أمام الانسان آفاقاً لا حد لها من الاحتمالات ، فنرى بوفون يضع الانسان فى موضع المركز من عالم يكون هو ملكا عليه ، هذا فى حين يحاول مفكرون آخرون أن يبنوا الحق على أساس الطبيعة . ومؤلف « روح القوانين » الشهير له فى هذه المحاولة شأن عظيم . ويفكر غير هؤلاء فى مسائل الأخلاق ويخرجون من تفكيرهم بأن الأخلاق لابد أن تهدف كلها منذ اليوم إلى تحقيق السعادة ، وهم يردون إلى اللذة والشهوة اعتبارهما بعد أن أفهمتنا التعاليم المسيحية أن نحذرهما وأن نترفع عنهما . غير أن هؤلاء المفكرين يشيدون فى الوقت نفسه بالفضائل الجديدة من تسامح ومحبة للبشر ، ويجهدون أنفسهم فى سبيل تطبيق نظرية الأخلاق الطبيعية فى العلاقات بين سكان المدينة نفسها ، ويحلمون بالعقود الاجتماعية ، فى الوقت الذى يمجدون فيه مبادئ الحرية والمساواة ، ويحيطون مبدأ الملكية بنوع من الاحترام هوأقرب ما يكون إلى التقديس . والأمر الأخير

الذى لا يقل تأثرنا به عن تأثرنا بغيره من هذه المشروعات الطموح الواسعة. أننا بينما نرى الملوك لا يفتأون يشتبكون فى حروب تافهة دامية، نجد رجال الفكر يرسمون الخطط لتشييد سلم دولى، ويضع الأب دى سان بيير أسس أول عصبة للأمم.

يحشد بول هازار كل هذه الوقائع فى عدد من الفصول تمتاز بوضوحها وتركيزها، وتبدو فيها فكرة البناء فى مجموعها عند هؤلاء المفكرين من رجال القرن الثامن عشر، كوحدة متماسكة متناسقة، من غير أن يتخذ الكتاب لعرض ذلك صبغة الرسالة العلمية الجافة. ثم يدرس المؤلف فى سلسلة من الفصول التكميلية، ذيوع هذه الفكرة بفضل وسائل التعميم والنشر، فينسب بطبيعة الحال شأناً عظيماً لموسوعة ديدرو ودالمبير الشهيرة التى دارت حولها معارك حامية الوطيس.

وفى المجلد الثانى الذى يحتوى وحده على الجزء الثالث كله تحت عنوان « الانحلال »، يتناول بول هازار مسألة الإخفاق الذى انتهى إليه هذا المجهود الضخم. ويبدو لى هذا الجزء أكثر طرافة وأمتن من أى جزء آخر، كما يبدو لى أن الكاتب شاء أن يضمنه آراءه الخاصة تحت ستار الجمود الواجب على المؤرخ الذى يريد أن يقف بل هو واقف فعلا موقف الموضوعية من كتابه. وإن القارئ ليشعر من خلال بعض الصفحات اضطراب نفس قلقة تبحث عن الحقيقة. ويطلعنا المؤرخ، من غير أن يحرف فى النصوص أو أن يحملها أكثر مما تحتمل، ومن غير أى هوى وأى تعسف، يطلعنا أو بالأحرى يبرهن لنا — وقد استحال فى نفس الوقت فيلسوفاً — على الصعوبات، المعقدة التى كان يصطدم بها حلم الفلاسفة. وهو يرجع كل هذه الصعوبات إلى خطأ فى أساس فهم معنى كلمة « الطبيعة ». فهناك تعارض بين الطبيعة والعقل نشأ عنه النزاع الهائل بين أصحاب المذهب التجريبى وأصحاب المذهب العقلى. وهناك تعارض بين الطبيعة والطيبة شجر عنه الخلاف حول طيبة الرجل الهمجى ومنافع أو مساوئ الحضارة. ونحن مدينون بقصة « كانديد »، آية هذا العصر، للعراك الذى احتدم بين أهل التفاؤل وأهل التشاؤم، وهو واحد من أوجه النزاع الكبير بين فولتير وروسو. وهناك تعارض بين الطبيعة والحكومة الصالحة، أدى إلى البدعة القائلة بالاستبداد المستنير. وهناك تعارض بين

الطبيعة والحرية . ونجد مونتسكيو ، وقد بدأ على أساس تعريف للقانون يقوم على الجبرية ، يسائل : كيف يصل إلى نظام تسوده الحرية .

ثم يتابع بول هازار تحليله ويصور لنا مطالب رجل العاطفة وموقفه إزاء هذا الجفاف البادى فى مثل أعلى فوق عقلى . ويتناول فى الفصول الثلاثة الأخيرة من مؤلفه الرائع المسألة الميتافيزيقية الأساسية ، فيظهر لنا ما كان من أمر ثلاثة من كبار الفلاسفة الإلـهيين فى ذلك العصر : وهم : بوب ولسنج وفولتير ، وقد عجزوا عن أن يستبدلوا بالدين الذى يجدون فى هدمه ، ديناً آخر ، هو القدرية التى تدفعهم إلى مناهضة رجال الأكليروس مناهضة بلغت أقصى حدود السفالة ، وتذهب بهم إلى الإلحاد الصريح .

ونحن نرى من هذه النظرة التحليلية السريعة غزارة المادة فى هذا الكتاب . وأرجو أن أكون قد جعلت القارئ يلمس قوة التركيز والتأليف عند صاحبه ، والطريقة البارعة التى يمتلك بها ناصية مادته . أما الذى أرانى عاجزاً عن بيانه — مالم أستشهد بصفحات كاملة — فهى اللذة فى مطالعة الكتاب . وقد يبدو أحياناً أن هذه الصفحة أو تلك كلفت صاحبها عناء أكثر مما يجب فجاءت مهذبة فوق مايلزم . فالعيب الذى كان يخشى أن ينزلق إليه بول هازار هو المغالاة فى التأنق ، نتيجة الاهتمام المفرط برشاقة العبارة ، وقد وقع فى التجربة فكان يستجيب فى مؤلفه إلى هذا الإغراء . وكنا نود لو أنه أقلع قليلا عن أسلوب التكلف وأخذ أكثر بالأسلوب الطبيعى. غير أن من حقه علينا أن نبادر فنقول إن هذا العيب ليس فى الواقع إلا وجهاً واحداً لصفة نادرة تميز بها بول هازار ؛ فالعناية بتهذيب العبارة أصبحت من الندرة فى عصرنا إلى درجة أننا لا نستطيع أن نمر بدون حكم على هذه المآخذ الطفيفة .

والذى يجب أن نذكره قبل أن ننتهى من مديحنا هو ما امتاز به بول هازار من أمانة تامة فى الاستقصاء العلمى . وأخشى أن تفوت ملاحظة ذلك العدد الكبير من القراء الذين سيطالعون هذا الكتاب من غير أن يرجعوا إلى المجلد الثالث الخاص بالشروح والمراجع ، ويعتبر تكملة لا غنى عنها . ولا يسعنى إلا أن ألح فى توصية من سيثير فيهم مقالى رغبة الاطلاع على هذا الأثر ، أن يقتنوا كذلك المجلد الثالث . فهم لن يقتبسوا

منه درساً رائعاً فى منهاج النقد فحسب، بل سوف يقعون فيه على ذخيرة لاتفنى من الإرشادات النفيسة المتممة للبحث، كما سيجدون نقطة ابتداء تمهد لهم سبيل التعمق فى دراسة بعض المسائل التى عرض لها بول هازار، علهم يوفقون لحل جديد لها . وبمثل هذه البحوث المتصلة يتكوّن العلم ، فالعلم ليس بالأمر الجامد المستقر . إن العلم يصنع صنعاً .

ويبدو لى أن لكتاب بول هازار، على ما أحيط به من مظاهر الوقار والجد الملازمة لكل مؤلف تاريخى ، أقول يبدو لى أن لهذا الكتاب الذى يؤرخ لحركة الفكر الأوربى فى القرن الثامن عشر، قيمة عصرية حقة . ولهذا السبب فانى لا أعتبره أهم أثر أنتجه الأدب الفرنسي فى تلك الأشهر الأخيرة فحسب ، بل أقوى الآثار تنبيها للفكر وتحريكا للعاطفة .

ومن واجبنا ألا ننكر على أنفسنا أننا لم نكد نتقدم البتة منذ مائة وخمسين عاماً وها هو ذا الفكر الأوربى مافتئ يواجه المعضلة نفسها : هل نستبدل بالمسيحية ديناً جديداً ؟ أم نبعث فيها حياة أخرى ؟ وإن عملنا على إزالتها فبماذا نعوضها ؟ وإذا كانت الخطوب المروعة التى أوشكت أن تهدم صرح الحضارة الغربية إلى الأبد قد انتهت ، فان المشكلة لا تزال قائمة كما هى ، وعلينا نحن رجال اليوم تقع تبعة حلها على ضوء تجارب الماضى .

والكتاب يركز انتباهنا كله فى هذه المسألة الأساسية ، غير أنه يثير أيضاً من المسائل الأخرى مالا نستطيع أن نقف إزاءه جامدين ، فهو يقرب إلى أذهاننا ومشاعرنا تلك الحقيقة التى تدعى « أوربا » . وليس الفكر الفرنسى هو موضوع الدراسة بل الفكر الأوربى . ولا بد أن يشعر الشاب الفرنسى عند قراءة هذا الكتاب بلذة هى لذة من يكتشف اكتشافاً حقا ، وذلك يرجع إلى ما فى هذا الأثر من تغير فى وجهة التاريخ . وسوف يكوّن هذا الشاب لنفسه عن تاريخ بلده الفكرى آراء جديدة ، لأنه سيجد هذا التاريخ ممزوجاً بتاريخ البلاد المجاورة يلقنه ويأخذ عنه فى الوقت نفسه ، عن طريق محسوس أو غير محسوس ، ولكنهما يكونان جزءا من حقيقة واحدة .

وسوف يشعر هذا الشاب بالغبطة ويملؤه الزهو عندما يدرك أن فرنسا وأوربا كانتا فى ذلك العصر تمتزجان فى ميدان الفكر امتزاجاً كليا ؛ وللمرة الثانية من تاريخ الحضارة الأوروبية ،

تشرف فرنسا على القارة كلها ، أما المرة الأولى فكانت فى تلك الفترة الباهرة التى تقع بين نهاية القرن الثانى عشر وبداية القرن الثالث عشر ، والتى تعتبر بحق فترة إحياء ونهوض . ومما يثير فينا الاعجاب ، ويحبب هذه السيادة إلى قلوبنا على الأخص ، ويدعونا إلى الفخر بها جهرا ، أنها لم تشبها سيادة مادية ؛ فلا جيوشنا أغارت على أوربا ولا تجارنا غزوها ، بل رجال الفكر منا ورجال التربية ومتعهدو البساتين والطباخون فقط . وفى الوقت الذى كانت الهزائم المروعة تتلاحق على فرنسا ، الدولة الحربية البحرية المستعمرة ، وفى الوقت الذى كان فردريك الثانى ملك بروسيا ينكل بجيوشها فى روسباخ ، من الجميل حقا أن نرى أنوار المعرفة تنبعث منها كأسطع ماتكون ، وأن نرى فريدريك نفسه يجد غير لائق به أن ينظم شعراً لا يكون فرنسيا ، وأن نرى الأكاديمية التى أنشأها فى عاصمة ملكه قد اختارت لمباراة أدبية أقامتها موضوعاً عنوانه : « الأسباب التى تجعل من اللغة الفرنسية لغة جامعة عامة » .

ربما كنت قد أسهبت فى موضوع لايثير إلا اهتمام الفرنسيين ، فليغفر لى قارئى ذلك الإسهاب . أما بعد فليس موضوع مقالى إلا واحداً من موضوعات كثيرة يعرضها لنا هذا السفر النفيس مادة للتأمل . وإن هناك لموضوعات أخرى ليس إلى حصرها من سبيل ، ولكنى أرجو أن يكون ما ذكرت كافياً ليحفز القراء على مطالعته ، وهذا ماقصدت إليه من مقالى .

برنار جويون

نقلها عن الفرنسية إلياس نعمان حكيم

ظهر حديثا

على باب زويلة قصة تاريخية للأستاذ محمد سعيد العريان (دار الكاتب المصرى)

كتاب رائع بأدق معانى هـذه الكلمة وأوسعها وأصدقها فى وقت واحد، كتاب من هذه الكتب النادرة التى تظهر بين حين وحين ، فتحيي فى النفوس أملا ، وترد إلى القلوب ثقة واطمئناناً ؛ لأننا نشعر حين نقرؤه بأن الحياة الأدبية فى مصر مازالت خصبة قوية قادرة على الانتاج ، وعلى الانتاج القيم الممتع الذى لا تتردد مصر فى أن تفاخر به وفى أن تعرضه إذا عرضت الأمم الحية كتبها الممتعة وأدبها الرفيع .

كتاب لم يخرجه صاحبه إلا بعـد جهد أى جهد، واستقصاء أى استقصاء، وعناء عنيف لا يحب أن يحتمل بعضه كثير من كتابنا الذين يحبون الطرق المطروقة والسبل المألوفة ، ويكرهـون أن يشقوا على أنفسهم بالقراءة المضنية والبحث المتصل ، ثم بالتفكير فيما قرءوا والاستنباط مما بحثوا عنه ، ثم بالعرض المتقن لما استنبطوا وبالإبانة الرائعة عما أرادوا أن يقولوا لقرائهم .وكل هذا قد فعله الأستاذ محمد سعيد العريان دون أن يظهـر أحد على ما كلف نفسه من مشقة ، وما حمل عليها من جهد ، وما أخذها به من شدة فى القراءة والبحث والاستقصاء ، ثم بالفقه الجاد الحازم الذى لا يعرف ضعفاً ولا تخاذلا ولا إيثاراً للعافية ولا كلفـاً بالنجح اليسير .

وقد أراد الأستاذ العريان أن يعرض طرفاً من تاريخ مصر، من تاريخها العسير المؤلم الذى تكثر فيه الحوادث وتلتوى بالمؤرخين وبقـراء التاريخ جميعاً . وهذا الطرف الذى يمثل انقضاء سلطان المماليك فى مصر ، وزوال الاستقلال المصرى بأيدى الفاتحين من الترك العثمانيين . ويكفى أن أذكر هذا الموضوع ليشعر القارئ بعسره ومشقته ،ومايفرض على من يريد تحصيله وتمثله من جهد وعناء . ثم لم يرد الأستاذ العريان أن يضع كتاباً فى تاريخ هذا العصر من عصور مصر يعرض فيه الحوادث عرضـاً دقيقاً مستوفياً للشروط التى يحرص المؤرخون على استيفائها ، ولم يرد أن يتحدث إلى المؤرخين وحدهم ؛ وإنمـا أراد أن

يتحدث إلى المثقفين جميعاً ، فآثر مذهب القاص على مذهب المؤرخ ، وأعمل خياله فى الوقت الذى أعمل فيه عقله ، فأضاف بذلك جهداً إلى جهد وعناء إلى عناء ، ووفق فى الأمرين جميعاً توفيقاً أعترف بأنى لم أشهد مثله فى الأعوام الأخيرة التى خيل إلينا فيها أن الإنتاج الأدبى فى مصر قد أفسده حب السهولة ، وكاد يرده إلى العقم وكسل الكتاب والقراء جميعاً .

أما من الناحية التاريخية فقد بدأ المؤلف حديثه بتلك السنين المضطربة التى انتهى فيها ملك السلطان قايتباى بين طمع الطامعين من الامراء والولاة ورؤساء الجند من المماليك، ومضى فى طريقه حتى صور أبرع تصوير وأقواه ما كان من اختصام هؤلاء الأمراء والولاة والرؤساء حول العرش أولا ، وحول المنافع القريبة والبعيدة بعد ذلك ، وما كان من تولية وعزل ، ومن تتويج وخلع ، ومن أسر وقتل ، وما كان من كيد فى القصر وخارج القصر ، وما كان يجرى على ألسنة الشعب من حديث ، وما كان يضطرب فى قلوبه من أمل ، وما كان يخامر نفوسه من يأس ، حتى ارتقى السلطان الغورى إلى عرش مصر، فرد إلى الملك أمنه وإلى السلطان استقراره ، ولكنه روع النفوس وملأ القلوب هلعاً وفزعاً ولوعة وحسرة ، لإسرافه على الناس فى الظلم وإسرافه على نفسه فى البخل ، وتهالكه على جمع المال ، يأخذه بحقه ويأخذه بغير حقه ، ويطلق أيدى أعوانه فى أموال الرعية حتى يعم الفساد وينتشر الخوف ، وتظلم الحياة. ثم يستأنف الكيد حول هذا السلطان الشيخ فى القصر وخارج القصر ، وفى مصر وخارج مصر ، ثم ينتهى الأمر إلى الكارثة حين تشب الحرب بينه وبين العثمانيين ، وحين تنهزم الجيوش المصرية ، لا عن ضعف ولا عن جهل ، ولكن عن خيانة السادة والقادة والرؤساء . ثم تكون المقاومة الأخيرة الرائعة التى يبذلها شعب قد لقى من ظلم المماليك شرا عظيما ، ولكنه على ذلك مؤثر لاستقلاله حريص عليه ، يفضل أن يظلمه ملوكه وسلاطينه على أن يتحكم فيه الأجنبى ، ولا تطيب نفسه عن هذه الإمبراطورية العظيمة ذات الأطراف المترامية فى الشمال والجنوب وفى الشرق والغرب ، وذات الألوية المنتشرة على البحرين جميعاً . ولكن المقاومة لا تجدى على هذا الشعب البائس شيئاً ، لأن المماليك قد نحّوه عن الأمر ، فلم يعتمدوا عليه فى تدبير الملك ، ولم يقيموا سلطانهم على

إرادته ورضاه ، ولم يلتمسوا عنده الجنود المدربين ، وإنما استغلوه استغلالا ، ولم يحكموه لمصلحته هو ، وإنما حكموه لمصلحتهم .

هذا كله يصوره المؤلف تصويراً رائعاً، يروع بصدقه وقوته ودقته وقرب مأخذه وبعده عن العسر والالتواء . وأما الناحية الخيالية ، فليست أقل من هذه الناحية التاريخية روعة وجمالا ، ولعلها أن تكون أسحر منها للقلوب وأخلب منها للعقول . وأى غرابة فى ذلك وطبيعة الخيال البعيد القوى أن يسحر القلوب ويخلب العقول ويشغل القارئ عن نفسه أثناء القراءة وبعد انتهاء القراءة .

والكاتب يبدأ قصته فى ذلك الغور الذى كان مستودعاً يجد فيه المماليك مادتهم من الرقيق الذين يختطفون أو يختلسون أو يؤخذون عنوة ثم يجلبون إلى القاهرة ليتعلموا فيها فنون الحرب والحكم ، ثم ليصبحوا جنداً وقادة وأمراء وملوكاً وسلاطين ، وليديروا أمر هذه الإمبراطورية الواسعة البعيدة الأرجاء .

نحن إذن فى هذا الغور نشهد أمّا تعطف على ابنها الصبى بقلب يملؤه الحنان والحسرة . فهذا الصبى وحيدها وهو عزاؤها عن أبيه الذى ذهب يطلب ثأر والده ، فلم يعد إلى إمرأته منذ عشر سنين ، حتى يئست من عودته ، ووقفت حبها وأملها على هذا الصبى . فهى ترعاه يقظان ، وتحرسه نائماً ، وهى كذلك ذات ليلة إذ تحس نبأة ، فتخرج من خيمتها مستقصية ثم تعود فلا تجد ابنها ، لأنه قد خطف كما يخطف غيره من أبناء الغور . وقد أقسمت أمه لتسعين فى طلبه حتى تدركه أو يدركها الموت .

من هنا تبدأ القصة ، ومن هنا يسلك بنا الكاتب طريقين متوازيتين : إحداهما طريق الصبى طومان الذى يذهب به خاطفه إلى بلاد الروم ثم إلى الإمبراطورية المصرية حيث يباع لأمير القلعة فى حلب ، ثم يمضى مع سيده الذى يصبح عمه ذات يوم . وما أحب أن أفصل ذلك للقراء ؛ فقد ينبغى أن يلتمسوا تفصيله فى الكتاب. وما يزال الصبى طومان يمضى فى طريقه إلى المجد ، محتملا للخطوب ، مصابراً للأحداث ، مذللا للعقاب ، حتى يرقى عمه عرش مصر ، وحتى يصبح هو مستشاره وذراعه اليمنى فى تدبير الملك ، ثم خليفته على مصر حين يذهب للقاء العثمانيين ، ثم خليفته على العرش بعد أن يقتل فى الموقعة ، ثم زعيم المقاومة المصرية حتى يتفرق عنه الجند

منهزمين ، ثم طريداً يغدره أعرابى فيسلمه إلى سلطان العثمانيين ، ثم أسيراً يطاف به فى القاهرة ، ثم قتيلا قد علقت جثته على باب زويلة .

أما الطريق الثانية فهى طريق الأم التى خرجت من الغور تطلب ابنها ، فهى تمر ببلاد الروم ، ثم بالإمبراطورية المصرية ، وهى تلقى فى هذه الطريق أهوالا وأهوالا ، وهى لا تعرف مكان ابنها إلا بعد أن يقتل الغورى ويصبح ابنها سلطاناً . وهى تسعى لتلقاه ، وتبلغ مصر مع المنهزمين ، ولا تتيح لها الحرب لقاء ابنها على كثرة ما تحاول من ذلك ، ولكنها تراه ذات يوم وفى آخر طريقها وفى آخر طريقه جثة معلقة على باب زويلة .

وهاتان الطريقان لا تخلصان لطومان وحده ولا لأمه وحدها ، وإنما هما ممتلئتان بضروب مختلفة من الناس ، وبألوان متباينة من الأحداث والخطوب ، وبفنون متمايزة من الشخصيات : شخصيات الرجال الطامحين الطامعين ، والضعفاء الأذلاء ، والذين يترددون بين العزة والذلة ، والذين يكيدون فى سبيل المال ، والذين يكيدون فى سبيل الحب ، والذين يكيدون فى سبيل السلطان ، والذين يعيشون للذاتهم ، والذين يعيشون لعبادة الله والتخلص من أوزار الحياة الدنيا . وشخصيات النساء اللاتى يكدن ليدخلن القصر ، ثم يكدن ليبلغن العرش ، ثم تخرجهن الثورات من القصر ، فيكدن للعودة إليه ، وتنزلهن الفتن عن العرش فيمكرن ليرقين إليه مرة أخرى . كل هؤلاء وغير هؤلاء تكتظ بهم الطريقان .

والأشخاص فى هذه القصة كثيرون، قد تفرقت بهم الطرق والتوت بهم المذاهب ، واختلفت بهم وعليهم الأهواء ، وهم مع ذلك لا يصرفون القارئ عن قراءته ولا يردونه عن غايته ، وإنما يدفعونه إلى هذه الغاية دفعاً ، ليس منهم إلا من يثير فى القارئ عاطفة حب أو بغض ، أو رغبة فى الاستطلاع ، أو تذكراً لشخصيات أخرى من شخصيات التاريخ ، أو تفكراً فى بعض الأحداث ، والخطوب التى يشهدها هنا وهناك فى حياة العصر الحديث .

قلت لك إنه كتاب رائع بأدق معانى الكلمة وأوسعها وأصدقها فى وقت واحد .

وإذا كان الناقد مستشاراً للقراء ، وإذا كان المستشار مؤتمناً كما يقال ، فإنى أشير على القراء أن يقرءوا هذا الكتاب ، فسيجدون فيه أدباً رفيعاً

وتاريخاً صحيحاً وتحليلا دقيقاً وأسلوباً لا فى هذا الكتاب وحده ، بل رصيناً ، لولا هذه الإنات التى يسرف فى كل مايكتب ، وأكاد أُملى فى بها الكاتب على نفسه وعلى الناس ، كل مايقول .

طه حسين

كيريليانا دراسات مختلفة بمناسبة مرور ألف وخمسمائة سنة على وفاة القديس كيرلس الاسكندرى ، ٤٤٤ — ١٩٤٤ ، فى ٦٠٠ ص ، ٥و١٩×٥و٢٥ سم ، (دار الكاتب المصرى ١٩٤٧)

KYRILLIANA, ***Spicilegia edita Sancti Cyrilli Alexandrini XV recurrente sæculo*** **— Etudes variées à l'occasion du XVe centenaire de Saint Cyrille d'Alexandrie (444-1944).**

إن للمواظبة والأناة وطول البال جزاء فى هذه الدنيا سيما إذا تسلطت على موضوع علمى وتضافرت على تحقيق أمنية سامية انطوت فى سريرة القلب . لقد ظهرت فى خلال هذا الشهر « كيريليانا » وهو كتاب يجمع بين دفتيه عدة دراسات علمية من تاريخية ولاهوتية وفنية وأثرية لعدة علماء أجلاء قاطنين فى الشرق الأوسط بمناسبة مرور ألف وخمسمائة سنة على وفاة القديس كيرلس الإسكندرى (المتوفى سنة ٤٤٤) . فقد حالت ظروف الحرب دون إصدار هذه المجموعة سنة ١٩٤٤ ، ولكن لم تفل العراقيل عزم الأستاذ الأب سانى باستى مدرس اللاهوت فى الاكليريكية الفرنسيسكانية الشرقية فى الجزيرة ، بل زادته تمسكا بمشروعه الجليل . ولا غرو أن وجد لدى إدارة دار الكاتب المصرى خير معوان لتحقيق أمنيته ؛ إذ قامت هذه الدار بطبع الكتاب طبعاً أنيقاً يعد فتحاً جديداً فى باب النشر فى مصر . فلم يوجد حتى الآن فى مصر إلا مطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية لطبع الكتب العلمية التى تحوى ، زيادة عن اللغات الغربية الحديثة واللغة العربية ، اليونانية والقبطية والمصرية القديمة . أما الآن فقد برهنت دار الكاتب المصرى أنها جديرة بأن تقوم ، مع المعهد الفرنسى ، بمهمة طبع بعض الكتب العلمية التى تستوجب دقة فنية خاصة وتقديمها فى ثوب قشيب خلاب يتجلى فيه الذوق الفنى مع الدقة العلمية . وهذا مما يفرح له كل من يريد الخير لبلادنا ويرجو لها التقدم المتواصل فى نشر الثقافة العالية .

هذا من جهة الشكل . أما من جهة الموضوع فاننا نغتبط كل الاغتباط لإبراز سفر مثل « كيريليانا » إلى حيز الوجود . وهذا لأن القديس كيرلس الإسكندرى مصرى ولد ونضج وعمل فى القطر المصرى طيلة حياته . وكل ما يمت إلى تراثنا الثقافى والروحى بصلة لا يسعنا إلا أن نقبله بترحاب وأن نشيد به . قد حان لنا أن ننكب على تاريخنا فى مختلف عصوره، وأن نستشف من وراء ثناياه عظات عبراً تزيدنا ثقة بأنفسنا وتشارك فى تكوين شخصيتنا القومية العصرية . زد على ذلك أن الأبحاث التى وردت فى هذا الكتاب قد دبجتها أقلام شخصيات ممتازة فى ميدان العلم ، أخذ كل منها يحلل ناحية من نواحى شخصية القديس كيرلس أو يصف بعض مظاهر البيئة التى عاش فيها . ولئن أردنا أن نحلل كل هذه المقالات تحليلا مسهباً لضاق بنا المقام . فالكتاب أعظم من أن يوفى حقه فى أسطر . فهو يستحق أن يكون فى مكتبة كل من يهتم بتاريخ مصر الدينى وتراثها الثقافى . غير أننا استهوينا أن نشير ، ولوبطريقة عابرة ، إلى أهم مقالات هذا السفر الغزير المادة لعلنا نلفت نظر قراء مجلة «الكاتب المصرى» الغراء إلى بعض مواضيع من شأنها أن تثير اهتمامهم .

أما المقالات فهى مكتوبة بلغات ثلاث منها العربية ومنها الفرنسية ومنها الإيطالية مع بعض نصوص يونانية وقبطية . افتتح الكتاب سيادة القاصد الرسولى بكلمة غزيرة المعنى على إيجازها ، بهذا الأسلوب الأخاذ الذى هو سر طريقة المنسنيور أرثر هيوز وقد نوه فيها بضرورة اتحاد الكنائس ، عملا بكلمة السيد المسيح : « ليكونوا واحداً » .

ثم أدرجت فى الكتاب براءة البابا بيوس الثانى عشر — بالعربية والفرنسية — الخاصة بالقديس كيرلس فخر الكنيسة الشرقية ، والتى ظهرت سنة ١٩٤٤ . ثم أخذ الأستاذ الأب امبروجيو ريدولفى يوضح (بالايطالية) صورة القديس كيرلس الروحية على ضوء هذه البراءة وما سبقها من نصوص رسمية أخرى صدرت من السلطات الدينية الرومانية . أما موقف القديس كيرلس من المجمع الأفسسى فقد كان موضع اهتمام الأب نيرون اليسوعى ، أستاذ تاريخ الكنيسة فى جامعة بيروت . وقد حاول فى هذا البحث أن يدافع عن بعض مواقف غامضة للقديس كيرلس كانت قد أثارت شيئاً من الريبة لدى نفر من المؤرخين (مقالة بالفرنسية) .

ويلى هذه الأبحاث مقال طويل

غاية فى الدقة (بالعربية والفرنسية) لأبوين من رهبان حريصا فى لبنان ، عنوانه « القديس كيرلس ومعضلة اتحاد الكنائس » . وهو بحث تاريخى مستفيض آلى المؤلفان على نفسهما ألا يخوضاه إلا بروح خاصة دعواها « الروح الاتحادية » بخطتها التاريخية المحضة . وقد وصلا إلى هذه النتيجة : « إن حياة الكنيسة مدة القرون العشرة التى ظل فيها الشرق والغرب متحدين لا بد أن تقدم لنا أساساً راهناً ، متفقاً عليه ، نسند إليه جدالا جديا وفعّالا حول المعضلات الاعتقادية واللاهوتية التى تفصل بين الكاثوليك والأرثوذكس » . وقد أشارا إلى أن الفريقين يوجدان ، فى مسألة الاتحاد ، تجاه حكمين لا مناص منهما : مسألة خلاص النفس ، ومسألة إرادة الضمير يجب أن يتلاشى أمامهما جميع الاعتبارات العالمية . حبذا لو كانت تتحقق أمنية هذين الكاتبين النزيهين وأن يكون نداؤهما للوحدة مسموعاً لدى الجميع . . . وقد ألحق بالمقال مجموعة وافرة من المصادر التاريخية .

ويليها بحث بالايطالية لاهوتى للأب باستى فى آراء القديس كيرلس الخاصة بالمسيح . وللمرحوم الأستاذ هنرى مونييه **Henri Munier** ، سكرتير الجمعية الجغرافية سابقاً ، بحث بالفرنسية غير تام فى مسقط رأس القديس كيرلس (وهو على ما يلوح المحلة الكبرى) . وقد كرس الأب أبيل الدومينيكى ، الأستاذ فى المدرسة الكتابية بالقدس **Ecole Biblique de Jérusalem** مقالا مهماً بالفرنسية عن « صلات القديس كيرلس بفلسطين » . والأب أبيل أكبر إخصائى فى جغرافية فلسطين وتاريخها ، وقد توفر على دراستهما نيفاً وخمسين سنة ؛ وقد أصبح كتابه عن « جغرافية فلسطين » من المراجع التى لا يستغنى عنها فى هذا الباب .

وقد ساهم الدكتور دريوتون ، المدير العام لمصلحة الآثار المصرية فى هذه المجموعة ببحث (بالفرنسية) عن معلومات كيرلس الإسكندرى الخاصة بالديانة المصرية القديمة . وقد انتهى إلى أن المصريين المثقفين من أهل القرن الخامس كانوا يلجأون إلى مؤلفات اليونان الأقدمين للوقوف على أسرار آلهتهم القومية . والقديس كيرلس عندما كان يقتبس معلوماته فى الديانة القديمة من مؤلفات فلوترخوس وفورفوريوس لم يكن إلا متبعاً مألوف عصره .

وللأب نيولفو بحثان (بالايطالية):

الأول فى نظرية التهذيب والتعليم عند القديس كيرلس ، يدرس فيه تطور مدرسة الإسكندرية المسيحية ومقارنة منهج التعليم فيها مع طرق التعليم الأخرى . والآخر عن « كيرلس ودانت » حاول فيه أن يفحص عن مدى تأثر الشاعر الايطالى بالأفكار الشرقيـة خصوصاً بأفـكار مدرسة الإسكندرية والمذهب الـكيرلى .

أما تأثير القديس كيرلس فى طقوس الـكنيسة الشرقية فقد خصص له بحثان (بالفرنسية) : بحث موجز للأب طويل ، مدير المدرسة البطريركية للروم الـكاثوليك بالقاهرة ، عالج الموضوع من وجهة الـكنيسة البيزنطية ، ذاكراً فيه بعض النصوص اليونانية التى تتغنى بفضائل العالم الإسكندرى ، وبحث مسهب ، للأستاذ يسى عبد المسيح ، جمع فيه النصوص القبطيـة التى تعزى إلى القـديس كيرلس .

وأخيراً بحث بالفرنسية مسهب علمى متين ، مزين بصور تخطيطية دقيقة للأستاذ الدكتور إسـكندر بدوى من جامعة فؤاد الأول ، فى « الـكنائس المصرية الأولى إلى عهد القديس كيرلس » ، وقد قسمه إلى قسمين : قسم عام يتناول نظرة تاريخية شاملة وتعيين زمن الـكنائس وشروط بنـائها والعوامل التى أثرت فيها وتصميماتها العامة وطرق تشييـدها وزخرفتها ؛ والقسم الثانى يعالج بعض الـكنائس والأديرة التى لا تزال آثارها قائمة حتى اليوم فى مريوط وسوهاج ودندرة وصقارة وأبى منس ومصر القديمة . ولو سمحنا لنفسنا أن نبدى رجاء فهو أن يتحفنا الأستاذ بدوى ببحث عربى شامل للـكنائس والأديرة المصرية نحن فى حاجة إليه . والدكتور بدوى خير من يستطيع أن يقـوم بهذه المهمة .

هذه هى «كيريليانا» : تحفة كما يتضح من مجرد سرد المقالات . فاننا نرجو لها أحسن قبول ، مع الأمل أن تـكون رسالة خير بين أبناء الوطن الواحد ، موجهة إعجابهم نحو شخصية مصرية فذة من أجداهم ، مثـيرة انتباههم نحو تراثهم المجيد ، فاتحة باباً جديداً من الدراسات العلمية النزيهة الهادئة ، واضعة صفحة ناصعة فى تاريخنا الذى هو أعظم من أن تستنفد ذخائره عزائم أولاده أجمعين .

الأب قنواتى

تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى للدكتور حسن ابراهيم حسن

أستاذ التاريخ الاسلامى بجامعة فؤاد الأول . الجزء الثالث (مكتبة النهضة المصرية)

هذا هو الجزء الثالث من كتاب التاريخ الاسلامى ، أو الأجدر أن نسميه الموسوعة التاريخية ، التى أخرجها الدكتور حسن إبراهيم حسن ، أستاذ التاريخ بجامعة فؤاد الأول وعميد كلية الآداب السابق ، ليكون مرجعا جديداً فى التاريخ الإسلامى يضاف إلى الكتب القديمة التى تركها السلف أساساً ومرجعاً للتاريخ القديم . وهو يتميز عن هذه الكتب بحسن التبويب والتقسيم، وبالاجمال دون الاسترسال، وبالاقتصار على كل ما يفيد القارئ المثقف والمتعلم ، مع إهمال كل ما يشك فى صحته وكل مرجوح من الروايات ، هذا مع ذكر الأسانيد التى رجع إليها المؤلف ، وهى مئات الكتب العربية والأوربية ، والمخطوطات ، يذكرها المؤلف ويدعم آراءه فى كل صفحة من صفحات كتابه بهذه الأسانيد ، معاوناً القارئ بذلك على الاستزادة من التوسع فى أية مسألة إن أراد .

وقد صدر الجزء الأول من هذه الموسوعة فى سنة ١٩٣٥ وهو يبحث فى تاريخ العرب قبل الاسلام، والبعثة النبوية ، والخلفاء الراشدين ، والدولة الأموية ، والحضارة العربية فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين ، وكان مقسما فى خمسة أبواب . وقد علمنا أن هذا الجزء قد نفد وتصدر الطبعة الثانية منه قريباً بعد أن زيد فيه حتى صار عشرة أبواب وأدخلت عليه إضافات كثيرة .

وظهر الجزء الثانى من هذه الموسوعة فى سنة ١٩٤٥ وهو يعالج العصر العباسى الأول (من سنة ١٣٢ إلى ٢٣٢ هـ) ، وكان فى ثمانية أبواب .

أما الجزء الثالث من هذا التاريخ الذى صدر أخيراً فهو يبحث فى العصر العباسى الثانى (من سنة ٢٣٢ إلى ٤٤٧ هـ) وهو يشمل عهد المتوكل إلى قيام الدولة السلجوقية . ولم يقتصر فيه على تاريخ البلاد الشرقية وحدها ، بل تكلم عن مصر والمغرب والأندلس. وهذا الجزء من هذه الموسوعة يقع فى عشرة أبواب ، أولها عصر نفوذ الأتراك ، ثم عصر أمير الأمراء ثم عصر بنى بويه فى العراق ، ثم الكلام عن الدول المستقلة والحركات السياسية والدينية والعلاقات الخارجية

والحالة الاقتصادية والثقافة والفن والحالة الاجتماعية .

ولا نعود للتنويه بما فى هذا الجزء من الفهارس والمراجع التى تدل على دقة البحث وسعة الاطلاع ، مما يجعل لهذه الموسوعة قيمة خاصة بحيث لا يستطيع الاستغناء عنها كل باحث فى التاريخ . فالدكتور حسن إبراهيم حسن قد خدم التاريخ الإسلامى خدمة كبيرة بإخراجه هذه الموسوعة الكبيرة التى نرجو أن تتم فى القريب العاجل .

حرب البترول فى الشرق الأوسط للدكتور راشد البراوى (مكتبة النهضة المصرية)

هذا البحث الجليل يحيط بمسألة البترول التى أصبحت على قول المؤلف « ذات أهمية بالغة فى السياسة الدولية » . ولقد صار « التسابق على امتلاك موارده أو السيطرة عليها طابع العصر ، وهو تسابق تستخدم فيه كافة الأسلحة والأساليب » . وقد تكلم المؤلف فى الفصل الأول عن زيت البترول والشركات الكبرى ثم انتقل إلى بترول الشرق الأوسط وعالج الامتيازات الاحتكارية وبداية الصراع على البترول ، ثم احتكار البترول فى القطر المصرى ، ثم الموصل بين انجلترا وفرنسا وعودة الموصل إلى العراق ، والرأسمالية البريطانية وسيطرتها على بترول العراق وإيران ، والحد من الاحتكار الانجليزى والنضال على بترول الشرق الأوسط بين انجلترا وأمريكا ، واطراد هذا النضال وسياسة المحور ثم سياسة روسيا .

ووصف الكاتب فى نهاية بحثه الشائق الطريق أمام الشرق وبعض أساليب مكافحة شركات البترول .

حسنى محمود

فى مجلات الشرق

الأدب ينهار !

يشفق الأستاذ أديب مروّة أن يكون الأدب صائراً إلى الانهيار ، فى مقال له بمجلة « المعهد » التى تصدر فى صور — لبنان ، عنوانه « دولة الأدب ى طريق الانهيار » ، يقول فيه :

« ليس أهون على المتتبع فى أيامنا الحاضرة من ملاحظة انصراف الناس — على العموم — والرأى العام المثقف، عن مطالعة كل ماله علاقة بالأدب إلى ماتقدمه الصحافة من هذا الخليط العجيب من المعلومات والأنباء ، والحكايات الساذجة . . . هذه الألوان التى طغت على ما سواها من الأغذية الفكرية التى تتطلب شيئاً من التعمق والروية والتمحيص ، بما فى ذلك الأدب والشعر والفلسفة . . . »

ثم يوازن الكاتب بين عدد القراء الذين يقبلون على الآثار الأدبية الرفيعة والقراء الآخرين الذين يقبلون على طائفة من المجلات المصرية سماها بأسمائها ، فزعم أن الأولين لا يزيدون على واحد إلى كل مائة من قراء تلك المجلات المبتذلة الداعرة . ثم يأخذ بعد هذه الموازنة فى التماس أسباب هذا الانهيار الذى يصفه ، فيرده فى تحفظ إلى الأدباء الكبار الذين انصرفوا عن الأدب إلى الصحافة التماساً للرزق من بابه الواسع ، أو إلى طبيعة العصر الذى تسيطر عليه المادة من جميع نواحيه وشعاره السرعة ، أو إلى أثر السياسة التى استأثرت باهتمام الناس فى هذه السنين الأخيرة وصرفتهم عن الأدب بطبيعة الحال .

تعاون الصحافة العربيـــة

ونشرت مجلة «المعهد» فى العدد نفسه ما يأتى :

«شجعت مجلتا «الكتاب» و«الكاتب» زميلاتهما المجلات المصرية على الحد من أنانيتها بالتعاون مع مجلات الأقطار الشقيقة ، وقد اقتدت بهما بعض تلك المجلات ! أليس هذا فتحاً جديداً سجلت امتيازه هاتان المجلتان الراقيتان ؟ »

قبس من المغرب

وهاتان مجلتان قد وردتا إلىّ من المغرب ، وما قرأت شيئاً من مجلات المغرب منذ بعيد . وكلتا المجلتين تصدر عن تونس ، وكلتاهما مؤرخة ، (أكتوبر — نوفمبر سنة ١٩٤٦) ، ونحن الآن فى شهر مارس من سنة ١٩٤٧ . ما أبعد الشقة بين البلدين إذا كانت مجلات تونس لا تصل إلى القاهرة إلا بعد خمسة أشهر من صدورها هنالك !

وحدثت صديقى المغربى حديث هاتين المجلتين اللتين ظلتا فى حقيبة ساعى البريد بين تونس والقاهرة خمسة أشهر . . . فغامت على وجه صديقى سحابة من الهم وهو يقول متكلفاً الابتسام : إنك يا صديقى أسعد حظا من إخوان لك هنالك فى المغرب لم تصلهم رسائلك ولا جرائدك ، ولا مجلاتك ولا شئ من مطبوعاتك ، منذ سنة ١٩٤٠ . . . لقد وصل إليك بريد المغرب الثقافى بعد أن ناء بحمله ساعى البريد خمسة أشهر ؛ فليت المغرب يتلقى بريد الشرق الأدبى الذى يحمله ساعى البريد إليه منذ ست سنين أو يزيد ! إن المغرب يا صديقى لم يقرأ كتاباً عربيا واحداً من مطبوعات الشرق منذ سبع سنين ، إلا مايعرض له فى السوق السوداء ؛ وللكتب العربية فى المغرب سوق سوداء لعلها أكثر رواجاً من سوق الخبز فى اليونان ! لأن الفرنسيين فى المغرب ، يحظرون على المغاربة أن يقرءوا كتاباً عربياً فى ضوء النهار ! . . .

- فما أسعد حظى إذن وبين يدىّ عددا أكتوبر سنة ١٩٤٦ من مجلتى « الثريا » و « المباحث » .

أفيريد القراء أن أعرض عليهما بعض ما قرأت فى هاتين المجلتين الناهضتين ؟

بحسبى أن أنظر فى غلاف مجلة الثريا لأرى قلم « الرقيب » — حتى فى الصفحة الأولى من المجلة — قد عبث ما عبث ، فالتوت السطور وتباعد مابين الكلمات ، لأن هنا صورة زعيم من زعماء المغرب لا ينبغى أن يقال فى التعريف به إنه زعيم حزب « الشورى » أوحزب « الاستقلال » وكلمتا « الشورى ، والاستقلال » كلمتان بغيضتان إلى الاستعمار الفرنسى فى المغرب لا ينبغى أن تقع عليهما عين عربى هنالك ولا فى

دروس التهجى والمطالعة ؛ ومع ذلك ، فلا يزال هنالك أدباء وشعراء يكتبون وينظمون يقاومون القهر الفرنسى بقوة الروح العربى المتوثب ؛ ولا زلنا نقرأ مباحث ممتعة فى مجلة «الثريا» لمثل الأديبة الفاضلة عائشة بنت عمر عن « المرأة التونسية فى مفترق الطرق »، ولا نزال نقرأ شعراً فى مجلة «المباحث» للسيد على بن محرز يقول فيه :

الصبح تبين فرقده
والشرق توحد مقصده
فهلم نشارك وثبته
ونمد يداً لنعاهده
الحق تعزز جانبه
وأباة الضيم تعاضده
عاهدنا الله لننصره
صدقاً والفعل يؤيده

قل جاء الحق وصولته
فجر الاسلام بدا غده
بالعزم سنرفع رايته
وبناء النصر نشيّده

وظيفة الأديب

وفى عدد مارس من مجلة «الأديب» كلمة للأستاذ عبد الله برى عنوانها « وظيفة الأديب فى الشعب » يقول فيها :

« إن الأديب الشعبى مظهر من مظاهر التفوق فى معنويات الاجتماع ، فمن واجبه أن يفهم وظيفته فى البعث، ومكانته فى التدريب ؛ لكى يفهم الحى الناطق أن الأديب هو فوق النظام ؛ لأنه هو الذى وضع النظام، وأنه فوق الدولة ؛ لأن الدولة تتعهد السياسة وما فيها من فساد ، أما هو فيتعهد الأخلاق والمبادئ ، ولولا هذه لفسد ما فى الكون جميعاً .

« وليس كبيراً ألا يقدر الشعب مواهب الأديب ، وألا تمده الحكومة فى سعيه الخالق ؛ فوظيفته أن يبدع أمة فى طبيعتها احترامه وفهمه مادام يعرف كيف يؤدى رسالته الإنسانية تأدية كاملة . ورب أديب كان فى أدبه أكبر من حكومة وفى أخلاقه بمقدار شعب ! . . .

« على الأديب أن يتوقع من إنتاج أدبه إحياء أمة يحيا هو فى حياتها . وإذا آمن بغير ذلك ، تبدل احترامه إلى ازدراء ، وانقلب إيمانه إلى انتحار . . . »

فى مجلات الغرب

من موسكو

مجلة الآداب السوفيتية *Soviet Literature* عدد ٧ (يوليو ١٩٤٦)

فى الأدب — اقرأ فى هذا العدد صفحة بقلم الكاتب ألكسندر أنيكست عن الشاعر السكوتلاندى روبرت برنز Robert Burns . وهذا الشاعر الذى مات منذ قرن ونصف قد ظفر فى أثناء القرن الماضى فى روسيا بشهرة واسعة . والكاتب الروسى يعرض علينا تأثير هذا الشاعر فى روسيا ، كما عرض من قبل تأثير شكسبير[1] . وقد أثار روبرت برنز إعجاباً عظيماً فى بيئات الثائرين من الروس وهم الذين ترجموه لأول مرة . وقد نفى أحد مترجميه ميخائيل ميخائيلوف ومات وهو يعانى الأشغال الشاقة .

فى الفن — واقرأ فى العدد التاسع من هذه المجلة فى سبتمبر مقالا عن الشاعر الروسى مايكوفسكى Mayakovsky الذى انتحر منذ أعوام ، يعرض تطور هذا الشاعر فى التصوير الذى كان فنه الثانى وكيف استأثر به الشعر شيئاً فشيئاً . والكاتب يؤيد آراءه ببعض الصور ومن بينها صورة جميلة جدا لغلام ناشئ .

وتجد فى آخر العدد السابع من هذه المجلة حديثاً قصيراً عن النساء اللاتى يرأسن الفرق الموسيقية . ولا نكاد نعلم أن بلداً آخر غير روسيا يعرف رئيسات لهذه الفرق . وقد تطوعت إحداهن وهى فيرا رود Véra Rode فى الجيش السوفييتى سنة ١٩٤١ . فكلفت تنظيم فرقة موسيقية لفرقة الحرس التى كانت تعمل فيها . وكان هذا يقع لأول مرة فى التاريخ . وقد تفوقت فرقة الحرس فى موقعة موسكو ونالت وسام الشرف كما نالت السيدة الموسيقية وساماً أيضاً . ثم مضت مع الفرقة وشهدت معها جميع المواقع ، وهى تدير فرقتها الموسيقية فى ثياب السهرة وقد حلت صدرها الأوسمة .

---

(١) الكاتب المصرى عدد ١٧ (فبراير ١٩٤٧) .

من باريس

مجلة الفكرة *La Pensée* عدد ٩ (أكتوبر ، نوفمبر ، ديسمبر سنة ١٩٤٦)

وهى مجلة العقليين المحدثين ، واتجاهها يسارى جدا كما قلنا سابقاً.[1] فى السياسة — بمناسبة العام المئوى لظهور كتاب برودون Proudhon العظيم «منهج التناقضات الاقتصادية أو فلسفة البؤس» [2] ، نشرت مجلة «الفكرة» مقالا لجورج كونيو Georges Cogniot لم يتم فى هذا العدد .

وفى الصفحات التى تعرض علينا يدرس صاحب المقال ما يسميه «لغز برودون» . ويبدأ هذا البحث بملاحظات قصيرة فى تاريخ حياة الفكر الاشتراكى وفى مناهجه . ويذكر فى أول مقاله بعض الجمل التى كتبها برودون والتى كانت من أسباب شهرته ، التى أخافت أصحاب رءوس الأموال الفرنسيين فى القرن الماضى . كانت لبرودون صيحة الحرب ، التى قيل عنها إنها كزئير الليث الجائع الذى يريد ترويع الطبقة الوسطى ، وهى : «إنما الملك هو السرقة» . وقال برودون أيضاً : «إنَّ الصورة الوحيدة للحكم هى عدم الحكم» . ويختم جورج كونيو هذا القسم قائلا إن برودون يظهر مخيفاً أثناء ملك لويس فيليب وأثناء الجمهورية الثانية . ولكن يرى هو فى مذهب برودون تناقضات أى تناقضات ، وألغازاً أى ألغاز ! وأول دليل يعرضه علينا صاحب هذا المقال على تناقضات برودون هو أن الكتّاب والمفكرين ورجال السياسة الفرنسيين فى عهد فيشى استطاعوا أن يرجعوا إلى كتبه أكثر من مرة حين أرادوا أن يثبتوا أن سياسة الماريشال وأعوانه سياسة لها منابعها فى الفكرة الاشتراكية. ثم يلتفت ج . كونيو إلى حياة

---

(١) الكاتب المصرى عدد ١٤ (نوفمبر ١٩٤٦) .

(٢) نعتذر إلى قراء «الكاتب المصرى» (عدد ١٨ مارس سنة ١٩٤٧) من خطا وقع فى عنوان رسالة كارل ماركس التى أصدرها رداً على كتاب برودون . والعنوان الصحيح لرسالة ماركس هو «بؤس الفلسفة» يعارض به عنوان «فلسفة البؤس» . وهذا الخطأ الذى ننبه إليه لم يأت منا نحن ، وإنما جاء من المسيو روبرت آرون الذى نقلنا نصه حرفيا فى مجلة «لانيف» *La Nef* عدد يناير سنة ١٩٤٧ ، ص ٣٧ .

برودون ، ويجعل لهذا القسم من درسه العنوان الآتي : « البورجوازي الصغير الحالم » .(١)

ويعتقد الكاتب أن في هذا التعبير سر حياة برودون المتأرجحة بين الثورة والرجعية ، حياة رجل « محافظ ومناصر للتقدم في وقت واحد» كما قال برودون عن نفسه . وبعد تاريخ حياته ، يتجه صاحب المقال إلى طرق تفكيره ، ليعلم ويعلمنا ما هو الفرق بين برودون والاشتراكية العلمية . فالذي يفرق بين برودون وبين الاشتراكيين العلميين ، والذي يفرق بينه وبين كارل ماركس ، هو موقفه أمام المادية الاستنباطية . وهذا لأن برودون أبدلَّ الاستنباط بالتوفيق . ومصدر هذا في رأي جورج كونيو معرفة غير دقيقة بطرق الاستنباط عند مؤلف « فلسفة البؤس » . وهنا تقف القطعة الأولى لهذا المقال ، فلننتظر إتمامه لنعرف إلام يريد صاحبه . فالذي قرأناه للآن يشير إلى شيء من النقد اللاذع ضد برودون .

في الجدال — في نفس هذه المجلة شهرية تحت عنوان « جدال » ما أظن أنك تجد مثلها في المجلات الأخرى . وإحدى المجادلات التي تظهر في هذا العدد عنوانها « جان بول سارتر ، الماركسية ، والعلم »(٢) . بعد قراءة الصفحة الأولى من هذه الشهرية يستطيع القارئ أن يسأل نفسه : ولماذا سميت هذه الشهرية « مجادلات » ولم تسم « فلسفة » أو ، على الأقل ، « مناقشات ؟ » . فالجواب على هذا السؤال في الجمل الأخيرة للمناظرة بين ج . ب . سارتر وأندريه لانتين André Lentin (وهو محرر مجلة « الفكرة » الذي رد على مقالين لجان بول سارتر ظهرا في مجلة «العصور الحديثة» في نقد المادية الاستنباطية) . والجواب على هذا السؤال الساذج ، كما قلنا ، في لطف هذه الأسطر الأخيرة من المجادلة : « هذه هي السخافات البارعة التي يمكن أن تقيد في ثلاثة صفحات فقط . فأما البحث الكامل عما في المقال من أغلاط فيحتاج إلى مجلد ضخم من الحجم المتوسط . ومن حيث إن لدى مجلة « الفكرة » أشياء أخرى تستحق النشر فإننا نقف بالنفقات عند هذا الحد . »

---

(١) *L'utopiste petit-bourgeois*

(٢) *Jean-Paul Sartre, le Marxisme et la Science*

مجلة لارش L'Arche (عدد ٢١)

في الأدب — كلنا يعرف أن مسألة اليوم في أدب الغرب وفلسفته تدور حول ثلاثة أسماء هي : « كيركجارد ، هيدجر وكافكا ».[1]

وجعل مكس برود هذه الأسماء عنواناً لمقاله في هذا العدد من مجلة « لارش » . وهو مقال قد يهتم به الذين يعنيهم أمر هؤلاء الكتاب الثلاثة وإن كان شديد الغموض .

إقرأ أكثر من مرة مقالا قصيراً ولكنه بعيد المدى ، عنوانه « ظروف الشعر » وصاحبه الشاعر الفرنسي بيير ريفيردي[2] ، يحاول فيه أن يعطي عن الشعر تعريفات دقيقة ولكنها مقاربة ؛ لأن التحديد غير ممكن بالنسبة إلى موضوع مجرد كالشعر . وغاية بيير ريفيردي أن يقول ما هو الشعر وأين يكون ، بعد أن يبين ما ليس شعراً . فيرى أولا أن الشعر ليس في الأشياء ، إذ لو كان فيها لاستطاع كل واحد منا أن يجده وأن يكون شاعراً . « فالشعر عند الكاتب نقص ، أو فراغ في قلب الانسان ، أو بعبارة أدق ، هو قدرة الشاعر على أن يسد هذا النقص ويملأ هذا الفراغ . »

مجلة فونتين Fontaine عدد ٥٧ (ديسمبر ١٩٤٦ - يناير ١٩٤٧) .

في الأدب — بعد مجهود بيير ريفيردي في تحديد الشعر ، نجد نفس المحاولة بالنسبة إلى القصة في مقال كتبه جايتان بيكون[3] عن كتاب عنوانه « الزمان والقصة » لجان بويون[4] قسم الناقد مقاله إلى ثلاثة أقسام : في القسم الأول يعرض علينا تحديد القصة عند الكاتب ، فالقصة باختصار « هي التعبير عن الواقع » إنما الواقع الانساني كائن في الزمان ، فالقصة إذاً وصف له . وفي القسم الثاني من نقده

(١) Max Brod, *Sur Kierkegaard, Heidegger et Kafka*

(٢) Pierre Reverdy, *Circonstances de la poésie*

(٣) Gaëtan Picon, *D'une philosophie du Roman*

(٤) Jean Pouillon, *Temps et Roman*

هذا ، يجادل الناقد فى تعريف القصة بأنها التعبير عن الواقع . وحسبى أن أنقل جملة من ختام هذا الجدال لأعطى فكرة تقريبية عن رأى الناقد ، فهو يقول إن القصة « هى الميدان الذى يظفر فيه الكذب نفسه بحقه فى الوجود بحيث نرى فيه حقا كل تصوير خالص للانسان » . أما القسم الثالث فيبين فيه صاحب المقال رأيه هو فى المشكلة وبنوع خاص قلقه أمام هذه الفلسفة الجديدة للقصة . أليست هى صورة من النظريات الفنية التقليدية التى صورتها الفلسفة الخالدة والتى يرفضها الفنانون دائماً ؟

من لندن

مجلة هوريزن Horizon (فبراير سنة ١٩٤٧)

فى الأدب — إقرأ فى هذا العدد مقالا قيما عن الأديب والمؤرخ ليتن ستراكى لجون راسل[١] . يقول الكاتب عن هذا الأديب الكبير فى أول مقاله إنه ناصح وصديق لا بد منه للذين يقوّمون التقليد الانسانى فى انجلترا وفرنسا . وبعد أسطر قليلة يحاول فيها أن يصور هيئة ليتون ستراكى ، جعل يدرس شخصيته ، فيذكر قول ناقد فرنسى فى الدين عن بيل Bayle ويطبقه على مؤلف « الذبث و إسكس » « إنه لا يتهم الإله ، بل يربكه » . ثم يلتفت جون راسل إلى رأى ستراكى فى التاريخ ، فيرى أن هذا العلم عنده ليس شيئاً مكتوباً ، ولكنه شئ يدور حول الحديث أو بعبارة أوضح ، إن التاريخ عند ليتون ستراكى كان سلسلة من المناجاة بينه وبين أشخاص اختارهم ، فهو ، كما يقول الناقد ، « متخصص فى الإلف » intimiste وقد حاول المؤرخ البريطانى أن يؤلف مثل التراجم القصيرة التى ألفها الفرنسيون أمثال فونتنيل Fontenelle وكوندرسيه Condorcet . ولا سبيل إلى أن ننقل للقارئ ما يعرضه ناقد مجلة « هوريزون » فى براعة و إتقان . فحسبى أن أشير للقارئ إلى هذا المقال الشامل الممتع .

أمينة طه حسين

(١) Lytton Strachey, by John Russell

مجلد ٥ — عدد ٢٠ مايو ١٩٤٧

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصرى

شركة مساهمة مصرية

القاهرة

مدرسة الزوجات

يليها

روبير و چنفييف

تأليف أندريه چيد

تعريب صبرى فهمى

فتاة فى نشوة الحب ، ثم زوج فى يقظة العقل تتهم زوجها

دفاع الزوج عن نفسه

حكم الابنة على والديها

الثمن ٢٥ قرشاً
البريد ٢٤ مليما



٣١٢ صفحة

ه . ج . ولز

طعام الآلهة

وكيف جاء إلى الأرض

تعريب محمد بدران



الثمن ٣٠ قرشاً
البريد ٢٤ مليما



٣٢٠ صفحة

فرنسوا مورياك

والدة

تعريب محمد عبد الحميد عنبر و عبد المجيد عابدين



الثمن ٢٠ قرشاً
البريد ١٦ مليما



١٧٥ صفحة

الكاتب المصرى
مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين
سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصرى فى أول كل شهر عن دار الكاتب المصرى ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعتها .

الاشتراك

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان ، ١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو ما يعادلها. يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب المصرى . لا تقبل الاشتراكات لأقل من سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل ما يرد إليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة
تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤
الادارة : ٣٤-٤٥٠-٤٧٨١٥-٥٤٢٧٣



AL KATEB EL MASRI

Monthly literary magazine published by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)
Editor-in-chief : **Taha Hussein**

الكاتب المصرى



جمادى الثانية ١٣٦٦ — مايو ١٩٤٧

السنة الثانية — مجلد ٥ — عدد ٢٠

المعذبون فى الأرض

لم تنزل من السماء ، كما تنزل الملائكة ، رحمة وروحاً على الأرض . ولم تخرج من النهر ، كما كانت العذارى الحسان من بنات الماء يخرجن فى الزمان القديم من الجداول والأنهار ، ومن العيون والينابيع . ولم يحملها إلينا السحاب ، ولا أرسلها إلينا نجم من النجوم . وإنما نشأت فى القرية ، وفى أسرة بائسة شقية من أسرها ، كما ينشأ غيرها من عشرات العذارى ، بل من مئاتهن وألوفهن فى المدن والقرى دائماً . ولكنها امتازت من أترابها :

بوجه كأن الشمس ألقت رداءها عليه نقى اللون لم يتخدد

ولم يكن أحد يعرف من أين جاءت بهذا الوجه السمح الطلق المشرق النقى . فقد كان وجه أبيها جهماً غليظاً قد احتفرت فيه الأخاديد احتفاراً ، وفعل به البؤس والشقاء ، وشظف العيش الأفاعيل . وكان وجه أمها صورة رائعة للقبح ، إن جاز أن تكون للقبح صورة رائعة . وكان ضيق الحياة وخشونة العيش ، وهذه الضرورات المحرجة التى تدفع البائسين من العمل إلى مالا يحبون ، وترضيهم آخر الأمر عما يكرهون . كان هذا كله قد غشى وجهى هذين الأبوين بغشاء صفيق مؤلم من الكآبة ، والذلة ، والحزن ، والغفلة ، والغباء .

ولم تكن تمتاز باشراق الوجه ونقائه فحسب ، وإنما كان إشراق وجهها ونقاؤه مظهراً لصورة رائعة بارعة من الجمال والحسن ، قد أسبغت على جسمها

كله ، فكان شيئاً رائعاً متقناً كأنما صنع فى تمهل وتأنق وأناة ، كأحسن ما يتمهل المثال البارع ويتأنق ويستأنى بعمله ، فيخرج تمثاله آية فى الروعة وفتنة للعيون والقلوب جميعاً .

وكان صوتها ، إذا تكلمت ، رخصاً عذباً صافياً ممتلئاً ، لا تكاد الأذن تسمعه حتى يحضر فى النفوس هذا الوقت القصير بين انطلاق الفجر فى ظلمة الليل كأنه السهم، و إشراق الشمس على الأرض حتى تملأها جمالاً ونوراً .

كان صوتها يحضر فى النفس هذا الوقت القصير الذى يكون بين انطلاق الفجر وإشراق الشمس ، والذى يترقرق فيه نسيم رقيق عليل ، ويسقط فيه الندى كأنه تحية حلوة ، ملؤها الحياة والنشاط ، قد أرسلتها السماء إلى الأرض ، وتستيقظ فيه الطبيعة نشيطة متكاسلة مع ذلك : تتغنى الطير وتخف الأوراق ، وتهف الغصون ، و يهمس الضوء الفاتر إلى الأرض أن أفيقى وتأهبى ، فقد أوشك موكبُ الشمس أن يلم .

كان صوتها يحضر فى النفس هذا كله إذا تكلمت ، ولم تكن تتكلم إلا قليلا ، وكان صوتها ذاك الرخص العذب الصافى ، يلائم وجهها المشرق النقى ، وخَلْقها الرائع السوى ؛ فكان شخصها أشبه شئ بآية من آيات الموسيقى التى لا تلذ السمع وحده ، و إنما تلذ كل ما فى الانسان من ملكات الحس والشعور والتفكير . وكان الناس يتساءلون ، ولا يكفون عن التساؤل : من أين جاء هذان الأبوان اللذان آثرتهما الطبيعة بالدمامة والقبح ، بهذه الآية التى استأثرت بأرق الحسن وأنقاه؟ وكان فقيه القرية إذا ألح الناس فى التساؤل أمامه ، تلا عليهم هذه الآية من القرآن ، منكراً عليهم تساؤلهم و إلحاحهم فيه :« تولج الليل فى النهار ، وتولج النهار فى الليل ، وتخرج الحى من الميت ، وتخرج الميت من الحى ، و ترزق من تشاء بغير حساب » . ثم يقول لهم : ويحكم! ما تنكرون أن يهب الله الجمال للقبح ، وهو يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل ! إنكم لا تنكرون أن ينشق الليل المظلم عن النهار المبصر ، ولا أن ينهزم ضوء النهار أمام ظلمة الليل ، فلم تنكرون أن يهب الله خديجة هذه لأمها محبوبة لأبيها شعبان ؟

وكانت محبوبة هذه امرأة نَصَفاً ، تطوف بأهل القرية تصنع لهم الخبز ، وتصنع لهم من الخبز نوعاً خاصا هو هذا الذى يتخذ من الذرة رقيقاً مستديراً

واسعاً ، لا تحسن أن تصنع غيره من خبز القمح . فكنت تراها فى آخر الليل ملمة بهذه الدار أو تلك ، تهيئ العجين . وكنت تراها فى أول النهار جالسة أمام الفرن ، تدير بيدها السريعة الصناع قطع العجين ، فتسويها فى سرعة مدهشة على الشكل الذى ينبغى أن يسوى عليه ، ثم تقذفها إلى النار قذفاً خفيفاً رفيقاً ، ثم تستردها من النار وقد منحتها النضج الذى يجعلها سائغة فى الأفواه والحلوق والبطون . وكنت تراها حين يرتفع الضحى ويوشك النهار أن ينتصف عائدة إلى بيتها ذاك الوضيع الحقير ، وقد حملت أجرها طائفة من هذا الخبز تضيفها إلى طائفة ، وتعيش عليها مع زوجها وبنيها وبناتها ، يقنعون بهذا الخبز فى كثير من الأيام ، وقد يضيفون إليه هذا الإدام أو ذاك ، إن ساق الله إلى شعبان رزقاً ، أو تفضلت بعض الأسر الموسرة على هذه الأسرة المعسرة بشئ من طعام . فان لم يكن هذا ولا ذاك فالخبز وحده ، أو الخبز مع شئ مما تنبت الأرض وتصل إليه الأيدى القصار من البصل والفجل ، وهذه الأعشاب التى لا يتحرج البائسون من أن يستعينوا بها على الحياة .

وكان شعبان رجلا مقتَّراً عليه فى الرزق ، قد ورث عن أبيه مهنة لا تغنى من جوع ، كان بناء متواضعاً لا يقيم الدور التى تتخذ من الحجر والآجر واللبن ، وإنما يقيم البيوت والحجرات التى تتخذ من الطين الغليظ : تراب يجمع ويصب عليه الماء ، ويخلط به بعض الهشيم ، ثم تسوى منه قطع متلائمة أو غير متلائمة يضاف بعضها إلى بعض لتمتد فى الفضاء وترتفع فى الجو ، وتدور أو تستطيل حول رقعة ضيقة من الأرض ، حتى إذا ارتفعت فبلغت القامة أو أقل من القامة ، مد عليها شئ من سعف النخل ، فاستقام منها بيت أو حجرة يأوى إليها البائسون من أهل القرى ، فتقيهم أيسر ما ينبغى أن يتقوا من عاديات الطبيعة .

وأهل القرى لا يبنون هذه البيوت فى كل يوم ولا فى كل أسبوع ، وإنما يبنونها حين يتاح لهم البناء ، وحين تأذن لهم الظروف أن يتخذوا البيوت والحجرات ، أو أن يقيموا الغرفة فوق هذه الحجرة أو تلك ، أو فوق هذا البيت أو ذاك .

فكان يعمل اليوم أو اليومين أو الأيام القليلة ، ليظل بعد ذلك متعطلا

أياماً أو أسابيع . وكان يوسع على أهله بهذه القروش التى يغلها عليه عمله من حين إلى حين ، يكسوهم إن استطاع لهم كسوة ، ويمتعهم بقليل من الطيبات إن طالت يده إلى قليل من الطيبات . فلم يكن بد من أن يعمل الصبية حين شبوا ليقوتوا أنفسهم حيث يعملون ، وليرجعوا على أهلهم بفضل ما يساق إليهم من الرزق .

وكانت خديجة كاعباً ، تعمل فى دار من دور اليسار ، تقبل مع الصبح المسفر فتنفق ما تملك من نشاط فى خدمة أهل الدار ، وتعود مع الليل المظلم إلى بيت أبويها فتنفق الليل فيه . وكانت راضية بهذه الحياة باسمة لها على شئ من حزن كان يستقر فى قلبها ويتغلغل فى ضميرها ، ولا يبين عنه لسانها حين ينطق ولا وجهها حين يأخذ ما يأخذ من الأشكال . كانت تفكر من غير شك فى بؤس أبويها وإخوتها الصغار ، ولكنها لم تكن تعبر عن هذه الخواطر الكئيبة البائسة بلفظ أو لحظ أو حركة ، إنما كانت تخفى حزنها كما يخفى البخيل كنزه ، وربما نمّت بهذا الحزن نغمة ضئيلة مرة ، تغمر هذا الصوت المتلئ العذب فتترك فى نفوس السامعين أثراً غريباً . وربما نمت بهذا الحزن سحابة خفيفة رقيقة تمر بهذا الوجه المشرق الجميل ، مرا سريعاً لا يتيح للذين يرونها أن يفكروا فيها فضلا عن أن يسألوا عنها . كانت حياتها فى تلك الدار بهجة متصلة ورضا مقيما ، تقطعهما بين حين وحين وفى لحظات قصار جداً هذه النيمة التى تهم أن تنبئ بالحزن ، ولكنها تذوب قبل أن تنبئ بما همت أن تنبه إليه .

وكانت ربة الدار محبة لخديجة رفيقة بها ، عطوفاً على أهلها ، تبرهم كلما سنحت لها الفرصة ، وتحسن إليهم كلما أتيح لها الاحسان . وكانت كثيراً ما تدعو محبوبة إلى الدار وتكلفها بعض العمل اليسير الهين أو الغليظ الضعيف ، تأجرها على ذلك ، لا بالقروش التى تضعها فى يدها ، ولكن بالثوب تهديه إليها من ثيابها هى الخليعة ، أو من ثياب أبنائها وبناتها ، أو من ثياب زوجها ، وبالطعام تكلفها حمله إلى زوجها وبنيها ، وبالطرف تطرفها بها فى أيام الأعياد وفى أيام السعة والرخاء ، حين تلم أيام السعة والرخاء . ولكنها لم تكن تقف عند هذا النوع من البر ، وإنما كانت تحرص على أن يكون رفقها بالأسرة متجدداً ، وعطفها عليها متصلا .

وفى ذات يوم سمعت ربة الدار فى فناء دارها من نحو حظيرة الماشية صياح امرأة تصيح ، وبكاء فتاة تبكى ، وصوت عصا تلهب جسما بضرب متصل ، وصراخ صبية يجأرون بالشكاة ؛ فتخرج من حجرتها مسرعة ، ولا يروعها إلا محبوبة قد ألقت ابنتها على الأرض وأخذت بشعرها الطويل الجميل تجذبه باحدى يديها جذبا عنيفاً ، ويدها الأخرى ترتفع وتنخفض بغصن يابس من هذه الغصون التى تتخذ لإدارة الخبز فى النار واستخراجه منها ، وغير بعيد من هذا المنظر الأليم طبقان من خزف قد نحيا ناحية ، ومحبوبة تنظر إليهما وتسأل عنهما الفتاة ، بينما تمعن يدها فى جذب الشعر ، وتمعن الأخرى فى رفع العصا وخفضها .

قالت ربة الدار منكرة : ماذا أرى ! وماذا أسمع ! ثم أسرعت إلى محبوبة فردتها عن الفتاة وانتزعت من يدها العصا ، وإلى الفتاة فأنهضتها وفرقت بينها وبين أمها . ولكن محبوبة أمعنت فى بكاء متصل فيه شهيق وزفير .. ثم لم تلبث أن أخذتها نوبة عصبية ، من هذه النوبات التى تأخذ أمثالها من النساء حين يمعنّ فى الشهيق والزفير ، حتى اضطرت ربة الدار إلى أن تنضحها بشئ من ماء لتردها إلى الاتزان والسكون .

فلما ثابت محبوبة إلى نفسها واستنبأتها ربة الدار عن خطبها وخطب الفتاة ، سمعت منها كلاماً لم يكد يبلغ نفسها حتى انهلت دموعها له غزاراً : سمعت منها أنها وجدت فى زاوية من زوايا بيتها هذين الطبقين ، فلم تشك فى أن ابنتها تخون سادتها وتسرق ما فى دارهم من متاع . لم يبق إذن إلا أن تسرق ، فتخون من يحسنون إليها و إلى أهلها ، ويتيحون لهم حياة فيها شئ من نعمة ورضا! لم يبق إذن إلا أن تسرق فتدخل الشر على أهلها وتزيد عيشهم ضيقاً إلى ضيق ، وحياتهم شقاء إلى شقاء . من أجل هذه السرقة التى استكشفتها قتّر عليهم فى الرزق، فردت هى عن بعض الدور التى كانت تصنع فيها الخبز ، ولم يدع زوجها إلى بناء البيوت ولا إلى تسوية الطوب منذ وقت طويل . لقد كنا نسأل عن مصدر هذا الشقاء ، فقد عرفناه الآن . إن لنا ابنة سارقة تخون سادتها وتختلس ما عندهم من متاع .

قالت ربة الدار وقد كفكفت عبراتها : على رسلك أيتها المرأة ! فان ابنتك لم تسرق هذين الطبقين ، و إنما كلفتها أن تحملهما إليكم أمس مع الليل ، وفيهما

شئ من طعام ، كدأبى معها دائماً . وما أرى إلا أنها قد نسيتهما حين أقبلت على عملها مع الصبح . قالت محبوبة : فانها لم تحمل إلينا أمس طعاماً كما أنها لم تحمل إلينا طعاماً قط . وانجلت القصة بعد قليل ، وتبين أن خديجة كانت تستحى أن ترفض ما تكلفها سيدتها أن تحمل من الطعام إلى أهلها ، وكانت تستحى أن تحمل إلى أهلها هذا الطعام ؛ فكانت إذا خرجت بالطبق أو الأطباق تخففت مما فيها تهديه إلى الفقراء إن وجدت فى طريقها الفقراء ، وتلقيه إلى الكلاب إن لم تجد فى طريقها إلا الكلاب ، وتلقيه فى عرض الطريق إن لم تجد فى طريقها ناساً ولا كلاباً . ثم تضع الأطباق فى زاوية من زوايا البيت ، فاذا أصبحت عادت بها إلى الدار باسمة ظاهرة الرضا ، كأنها قد وسعت على أهلها بما حملت إليهم من رزق . ولكنها فى ذلك اليوم قد أعجلت عن حمل الطبقين ، ولم تذكرهما إلا حين رأت أمها مقبلة تحملهما وتسألها فى غلظة عنهما أين كانا ومن أين سرقتهما . ثم لا تمهلها ولا تنتظر منها جواباً ، وإنما تجذب شعرها باحدى يديها ، وتلهب جسمها بذلك الغصن اليابس فى يدها الأخرى ، ويأخذها الغضب فتصيح ، والفتاة يأخذها الألم فتبكى ، وكلما أمعنت الفتاة فى النحيب أمعنت أمها فى الصياح .

منذ ذلك اليوم عرفت ربة الدار أن خديجة خادم لا كالخدم ، وفتاة لا كالفتيات ، فآثرتها بالمودة ، واختصتها بالحب ، وكادت تتخذها لنفسها صديقاً . وقصت على زوجها القصة آخر النهار ، فرق للفتاة وأهلها ، وأوصى امرأته بها وبهم خيراً ، وتلا قول الله عز وجل : « للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسئلون الناس إلحافاً وما تنفقوا من خير فان الله به عليم . »

وفتيان القرية يتسامعون بقصة خديجة هذه ، ويتحدثون بما تصور هذه القصة من تعفف لا يجدونه عند الأغنياء ، ومن حياء نادر لا يجدونه فيما يشهدون من أمور الناس ولا فيما يقص عليهم من أحاديث الجدات . وفتيان القرية يتحدثون عن جمال خديجة الفاتن ، وحسنها الذى يسحر العيون ويخلب القلوب ويملك الألباب . وفتيان القرية يسرون فى أنفسهم حبا لخديجة وإعجاباً بها وطمعاً فيها ، ويعلنون بألسنتهم إطراء لخديجة وثناء عليها . والأمانى تلعب

بعقولهم كل ملعب ، وتسلك بقلوبهم كل سبيل . ثم يتقدم الخاطب ذات يوم من أسرة ليست عظيمة الحظ من الثراء ، ولكنها بعيدة كل البعد عن الإعدام . لها أرض تزرع غير بعيد من القرية ، ولها ماشية تخرج من الدار مع الصباح وتعود إليها مع المساء ، وتغل على الأسرة خيراً كثيراً .

والفتى قوى موفور الصحة ، عظيم النشاط ، جميل المنظر ، منطلق اللسان ، ولا سيما حين يأخذ زينته ويذهب إلى المسجد ليشهد صلاة الجمعة ثم يعود فيأخذ مع رفاقه فى ضروب من العبث وفنون من الحديث .

وأسرة خديجة تسمع أول الأمر ولا تصدق ، ثم تعرف بعد إنكار ، وتقبل بعد تردد فيه كثير من الأمل الذى يحيى النفوس ، والخوف الذى يميت القلوب . وما يمنع هذه الأسرة البائسة أن تجد فى هذه الخطبة روحاً من الله ، سيتيح لها رخاء بعد شدة ، وسعة بعد ضيق ؟ وما يمنعها أن ترى نفسها وبؤسها ، فتشفق من إصهارها إلى أسرة ذات سعة ويسار ؟ ولكن الفتى صادق محب ملح فى صدقه وحبه . وأسرته لا تعدل برضاه وسعادته شيئاً آخر ، فهى صادقة ملحة فى صدقها ، تبتغى الوسائل إلى إقناع البؤس بأن يصهر إلى النعيم .

وقد استقامت الأمور بين الأسرتين ، ولكنها لم تستقم فى نفس خديجة ، فهى تمتنع على هذا الزواج ، وتلح فى الامتناع ، تؤثر حياتها هذه التى تحياها خادماً على تلك الحياة التى تدعوها إلى الحرية والاستقلال بأمر نفسها والقدرة على معونة أهلها . وهى تمتنع وتمتنع وتلح فى الامتناع ، حتى تثير الريبة فى نفس أبويها ؛ فما ينبغى أن تصر على هذا الإباء إلا أن تكون قد قصرت فى ذات نفسها ، وفرطت فيما للشرف على الفتاة من حق .

ومحبوبة تفضى بسرها هذا البشع إلى سيدة خديجة فى صوت يقطعه البكاء وتغمره الدموع . ولكن سيدة خديجة تردها إلى القصد وتعيد الطمأنينة إلى نفسها البائسة وقلبها القلق ؛ وما تزال بالفتاة تلاينها حيناً ، وتحاشنها حيناً آخر حتى تختلس منها الرضا اختلاساً . وقد احتفلت أسرة الفتى ليوم الزفاف واحتفلت سيدة خديجة ليوم الزفاف أيضاً ، وهيئت الفتاة لهذا اليوم المشهود من حياتها كأحسن ما تهيأ الفتيات من بنات الطبقة الوسطى لمثل هذا اليوم . وأبت سيدة خديجة إلا أن يبدأ الزفاف من دارها لا من دار شعبان .

وفى ذات ليلة كانت محبوبة قد انكفأت على وجهها أمام بيتها الحقير ،

تريد أن تبكى فلا تجد الدموع ، وتريد أن تتكلم فلا تجد الألفاظ ، و إنما يتردد فى حلقها صوت خفى منكر ، إن دل على شئ فإنما يدل على خوفها وهلعها مما ستنكشف عنه ساعة من ساعات هذا الليل حين يدخل الفتى على زوجه . وهى كذلك ملقاة على الأرض يضطرب جسمها من حين إلى حين اضطراباً عنيفاً ، وتجرى فى أطرافها رعشة تخف لحظة وتعنف لحظة أخرى ، ويتردد فى حلقها هذا الصوت المنكر البغيض ، والفرح من حولها يملأ قلوب الشباب بهجة وسروراً .

ثم تنطلق الزغاريد كأنها سهام من فضة تشق ظلمة الليل الحالكة ، وتسمع طلقات للبنادق هنا وهناك ، ويظهر جمع من النساء والصبية قد نصبوا شيئاً يشبه أن يكون راية قانية ، وهم يهتفون بألفاظ ينكرها السمع و يمجها الذوق،وسهام الزغاريد منطلقة يتبع بعضها بعضاً ، كأنما تريد أن تمزق أحشاء الليل تمزيقاً ، وامرأة وقاح تهز محبوبة هزًّا عنيفاً وتزجرها زجراً مخيفاً ، وتقول لها فى صوت يسمعه الناس : أفيقى ! ثوبى إلى نفسك ! ماذا تخافين ؟ لقد بيضت خديجة وجهك ووجه شعبان .

وتثوب السكينة إلى محبوبة قليلا قليلا ، وقد أقامها النساء فأجلسنها وقدمن إليها شيئاً من ماء لتسترد صوابها كاملا وقوتها موفورة .

وتنقضى الليلة كما تنقضى ليالى الأعراس ، ويقبل النهار من غد ، ولكن خديجة لا تبدو للزائرات إلا مكرهة على ذلك إكراهاً . تسمع منهن كل شئ ولا تقول لهن شيئاً ، تحاول أن تمسك دموعها فلا تجد إلى إمساك الدموع سبيلا.

وهن يسألنها ، ويتساءلن فيما بينهن ما خطبها وما مصدر هذه الكآبة التى تغمر نفسها ، وهذه الدموع التى تغمر وجهها ؟ ومتى رأى الناس فتاة يملأ قلبها الحزن فى مثل هذا اليوم الذى تفيض فيه القلوب فرحاً وبشراً ! هن يسألنها فلا يجدن عندها جواباً ؛ لأنها هى لا تجد عند نفسها جواباً ، أو قل إن الجواب مستقر فى نفسها ، ولكنها لا تستطيع أن تبديه لأنها لا تستطيع أن تصل إليه ولا أن تظهر عليه . وهن يتساءلن فيما بينهن فلا يجدن جواباً لما يدور على ألسنتهن من سؤال . ولو جرت أنفسهن على سجيتها لاخترعن الجواب على تساءلهن اختراعاً . وأى شئ أيسر عليهن من الريبة تثار بالحق وبالباطل ! لقد رأينا الفتاة أمس تزف إلى زوجها شاحبة الوجه ممتقعة اللون

زائغة البصر ، لا تمسك نفسها إلا فى جهد ، كأنما كانت تساق إلى الموت وهى تنظر إليه . ولقد كانت أمها ملقاة على الأرض تضطرب اضطراب من مسها الصرع وركبها الشيطان . أليس فى كل هذا وفى بعض هذا ما يريب ؟ ولكنهن رأين الراية القانية ترفع فى ظلمة الليل وبين خفقان المصابيح .

والضحى يرتفع ، والنهار يوشك أن ينتصف ، وهذه سيدة خديجة قد أقبلت زائرة لها ، تحمل إليها التحية وتحمل إليها الهدية أيضاً ، فترى وتسمع ويروعها ما ترى وما تسمع .

ثم تخلو إلى الفتاة خلوة تطول شيئاً ، وتخرج من عندها متضاحكة تقول لمن حولها : عبث أطفال ، وحياء فتاة غافلة لن تلبث الأيام أن تذهب به كما تذهب بكثير من الأشياء .

ولكن الأيام تمضى ولا تذهب بشئ ، أو يخيل إلى من حول خديجة أن الأيام تمضى كما تعودت أن تمضى فى أعقاب الأعراس . فالفتاة هادئة مطمئنة وإن كان وجهها الصبوح قد فقد غير قليل من جماله وبهجته ، وغشيته سحابة مقيمة من حزن رقيق يزيدها إلى النفوس حبا ، ويزيد موقعها فى القلوب حسناً ، وإن كان صوتها الرخص العذب الصافى الممتلئ ، قد جرت فيه نغمة حزينة متكسرة ، تجعله ألذ موقعاً فى السمع ، وأسرع نفوذاً إلى القلب .

وزوج الفتاة سعيد مغتبط كأحسن ما يسعد الأزواج ويغتبطون .

وينطلق الفجر ذات يوم جريئاً يريد أن يمحو آية الليل ، وتغمر الأرض هذه الساعة الحلوة التى تكون بين انطلاق الفجر وإشراق الشمس ، والتى كان صوت خديجة يحضرها فى النفوس بما يملؤها من ترقرق النسيم ، وحفيف الأوراق وهفيف الغصون ، وسقوط الندى ، وغناء الطيور واستيقاظ الطبيعة . وفى هذه الساعة الهادئة الحلوة يخرج النساء والعذارى من أهل القرية ساعيات إلى النهر متغنيات جمال الحياة كأنه حلم يلم بنفوسهن فى آخر عهدها بالليل ، وأول عهدها بالنهار . ثم يعدن إلى القرية صامتات ، قد أخذ الابتسام يغادر ثغورهن قليلا قليلا ، وأخذت الكآبة تغشى وجوههن شيئاً فشيئاً ، وأخذ الهم يستيقظ فى قلوبهن فنوناً وألواناً ، وأخذن يتهيأن لاحتمال أثقال الحياة وآلامها ما غمرت الشمس قريتهن بنورها الملح الثقيل .

ذهبن إلى النهر فرحات مرحات ، وعدن إلى القرية كاسفات البال بائسات

النفوس . وافتقدت خديجة حين تقدم النهار قليلا فلم توجد ، وإنما وجدت على شاطئ النهر وفى مكان بعيد من حيث تعوّد النساء أن يملأن جرارهن جرة مملوءة وإلى جانبها بعض الحلى . والتمست خديجة فى النهار فلم يظفر بها الباحثون.

قالت سيدتها وهى تكفكف دموعاً تريد أن تنسجم ، وتثبت صوتاً يريد أن ينفطر : لقد أكرهت خديجة إكراهاً على الزواج ،ومس حياءها النقى ونفسها الطاهرة منه دنس . لم يستطع الحب أن يغسله فغسله الموت .

قال سيد خديجة : وصنع الله لأبويها ! فقد كتب على محبوبة أن تطوف ما عاشت بالدور تصنع لأهلها الخبز ، وكتب على شعبان ألا ينظف يديه ولا ثيابه من الطين .

طه حسين

تقرير ديوان المحاسبة

لما استكمل المصريون سلطانهم البرلمانى بنفاذ الدستور فيهم سنة ١٩٢٤ ، اتجه خاصتهم إلى الدعوة لاستتمام الهيئات المشرفة على صحة تطبيق الأحكام الدستورية والمعاونة على تحقيق الرقابة البرلمانية ، والواقية من طغيان الاجراءات الادارية ، فطالبوا بانشاء « محكمة دستورية عليا » تفصل فى دستورية التشريعات التى تصدر حتى من البرلمان نفسه ، و « ديوان محاسبة » يسهر على تمشى وسائل إيرادات الدولة ، وأساليب نفقاتها ، مع أحكام القوانين المالية ونصوص الدستور ، و « مجلس دولة » يقوم القضاء الادارى فيه المعوج من أوامر الادارة وقراراتها و يرفع عن الناس مظالم هذه الأوامر والقرارات .

وقد تلكأت مصر فى إنشاء محكمتها الدستورية العليا ، لكنها انتهت إلى إقامة صرح ديوان المحاسبة منذ أربع سنين ، ومجلس الدولة هذا العام . وفى حين أن القضاء الادارى بمجلس الدولة يتولى أحكامه مستقلا دون أن يرجع فيها لأحد ، ودون أن تعقب عليها هيئة ، فان ديوان المحاسبة يعمل فى الواقع عيناً للبرلمان و يرجع إليه بنتائج أعماله عن طريق التقارير التى يقدمها إلى مجلسيه عن الحساب الختامى للحكومة المصرية لكل سنة من سنواتها المالية .

وكان آخر هذه التقارير هو الذى قدمه رئيس ديوان المحاسبة محمد بهى الدين بركات باشا فى الثانى عشر من شهر يناير الماضى عن حساب ختامى الحكومة المصرية للسنة المالية ١٩٤٥ — ١٩٤٦ . وقد أخرجته المطبعة الأميرية بالقاهرة فى مجلد من ثلاث مئة وست وعشرين صفحة من قطع مضابط البرلمان الكبير . وقد تناول واضعه فيه بالبحث والملاحظة والتعليق الحساب الختامى عن تلك السنة المالية للحكومة المصرية وللجامعة فؤاد الأول وجامعة فاروق الأول ، كما تضمن التقرير فى ملحقات له نصوص كتب متبادلة ، وقرارات وزارية هى بعض أسانيده التى يحيل إليها فى سياق تقديمه الملاحظات والتعليق بالآراء .

أما التقرير عن الحساب الختامى للحكومة المصرية فقد تقدمته « مقدمة » ووزع بعدها على خمسة أقسام : الملاحظات العامة ، والايرادات ، والمصروفات ، والمخازن والأعمال الصناعية والمزارع الحكومية ، وحسابات التسوية . وأما تقرير الحسابين الختاميين للجامعتين فقد قدم لأولها بملخص للايرادات والمصروفات ووزع العرض فيهما على أقسام للايرادات والمصروفات والمخازن وحسابات التسوية . وأما الأسانيد فمتصلة فى عمومها بموضوع اعتبار بعض التبرعات من التكاليف ، وإعفائها من الضريبة ، وقد كان محل خلاف ، لا يزال بين ديوان المحاسبة من ناحية ، ووزارة المالية ومصلحة الضرائب من ناحية ثانية .

وإن المطلع على تقرير ديوان المحاسبة الأخير ، وهو الرابع ، ليعتبره بعد ١ استيعابه ورقة اتهام للأداة الحكومية فى مصر تسند إليها فوق التغاضى والتغافل جرائم « مخالفة قواعد الميزانية ، وتجاوز الاعتمادات ، والخروج السافر أو المقنع على قواعد الدستور المقررة بالمادة ١٤٣ منه » ، إلى جانب « تجاوز وزير المالية حدود سلطته » و « تخطى القوانين ومخالفة أحكامها بمجرد اتفاق موظف صغير أو كبير مع الوزير » ، كما تسند « النقص الفاضح فى السجلات » و « عدم توافر الدقة والنظام فى كثير من الحسابات بالفروع المختلفة » ، وكذلك « انطواء مسائل يخطئها العد فى كثير من الأحيان على اختلاس أو تزوير أو تبديد أو إهمال ترتب عليه أضرار بصالح الخزينة » والسكوت على ذلك كله رغم « كتابات الديوان المتكررة وصرخاته المتوالية » ووصفه الالتجاء إلى تغيير القوانين لأن المشرفين على تنفيذها ثبت عجزهم وقصورهم عن القيام بمهمتهم الادارية والفنية بأنه « سبيل ملتو للتهرب من المسئولية ولستر العيوب » .

وليس المقام مقام تحليل غائر للتقرير وذكر تفاصيل الأمور التى يدلل بها على صحة تلك التهم الخطيرة التى يسندها إلى الأداة الحكومية المصرية ، ولكنا نذكر على سبيل المثال ليس غير بعض الملاحظات التى تضمنها التقرير فى بعض بنود « ملاحظاته العامة » إذ دلل فى بعضها على « وقوع تجاوزات فى بعض أبواب الميزانية جملتها ١,٤٧٤,٧٨٥ جنيه دون استئذان سابق من البرلمان بشأنها » ، وفى هذا مخالفة صارخة لحكم صريح من أحكام الدستور ، ودلل فى بعضها الآخر على « عدم تضمين مجلد الحساب الختامى جميع متأخرات

الحكومة » ، و « تضمين فائض الميزانية مبالغ كبيرة تم تحصيلها فعلا لكن لم يثبت حق الدولة فيها بصفة قاطعة إذ لا يزال أمرها محل طعن أمام القضاء » بدل ترحيلها إلى حساب الأمانات تحت تسويتها إلى أن يفصل فيها القضاء نهائيا ، كما دلل على « فقد المستندات وضياع عدد من الملفات والوثائق الرسمية وما قد ينبئ عنه ذلك من إهمال أو تعمد إخفاء » ، وعلى « تأخر بعض الوزارات والمصالح فى إرسال مستندات الصرف الخاصة بها إلى الديوان لمراجعتها » .

وقد تناول التقرير فى أقسامه المتعددة كل تلك البنود بالتفصيل . وقد نقف والقراء معه عند تفصيل من تفصيلات بند « متأخرات الايرادات » وعدم تضمين الحساب الختامى جميع هذه المتأخرات ، وهو التفصيل المتصل بالسلطات البريتانية على التخصيص . فقد أثار التقرير إلى أن هذه السلطات قد شغلت منذ سنة ١٩٣٩ مساحات من الأراضى بمينائى الاسكندرية والسويس دون أن تحرر عنها عقود إيجار ، « ولم تقم السلطات المشار إليها بتسديد الايجار المستحق رغم المكاتبات التى وجهت إليها فى هذا الشأن » . وكذلك أشار التقرير إلى متأخرات إيجارات بعض المطارات التى شغلتها تلك السلطات ، كما أشار بعد ذلك إلى ما يكاد يتاخم الفضيحة من نوع تلك المتأخرات ، وهى المبالغ المستحقة لمصلحة السكك الحديدية والتلغرافات والتليفونات . فقد اتضح أنها تبلغ فى الظاهر ١,٥١٥,٣٠٠ جنيه ، وأن هناك « إلى جانب هذه المتأخرات الظاهرة مبلغاً يقرب من تسعة ملايين من الجنيهات لم يظهر فيها ، وهو عبارة عن الزيادات التى تقررت فى أثناء الحرب على أجور نقل البضائع والركاب ولم تدرج هذه الزيادة فى الفواتير التى أرسلت إلى القوات الأجنبية نظراً لأن أمر استحقاقها كان موضع خلاف بين مصلحة السكك الحديدية وتلك القوات » . كما اتضح أن « استمارات الجيش البريتانى تبلغ قيمتها مئات الألوف من الجنيهات قد أهملت مصلحة السكك الحديدية المطالبة بها ، وإنها حين بحثت عنها قد وجدتها مفقودة » .

ثم يعرض التقرير بعد عرضه لتلك «المتأخرات» إلى «المرفوعات والاعفاءات» . وقد اتضح مما ورد فى هذا الصدد أن « قد كان للسلطات العسكرية البريتانية النصيب الأكبر فى رقم المسموحات الجمركية إذ بلغت ١٢,٦٤٥,٤٧١ جنيه ، وهو ما يعادل ٠,٩٨ من مجموع المسموحات ، كما بلغ مجموع المسموحات التى

تمتعت بها هذه السلطات منذ سنة ١٩٤٠ إلى آخر أبريل سنة ١٩٤٦ مبلغاً قدره ٧٦,٢٠٧,٧١٧ جنيه » . وإلى هذا فقد « لاحظ الديوان أنه فضلا عما تتمتع به السلطات البريتانية من إعفاءات تم التعاقد عليها فى سنة ١٩٢١ وألحقت بمعاهدة سنة ١٩٣٦ ، فان وزارة المالية قد منحت السلطات العسكرية الأجنبية امتيازات وتسهيلات مؤقتة بلغ عددها اثنين وعشرين امتيازاً ، وكان من مقتضاها أن أعفيت تلك السلطات فى سنة واحدة من دفع نيف وثمانية وثلاثين مليوناً من الجنيهات » . وهى إعفاءات يلاحظ الديوان « أنها لم تعرض على البرلمان للحصول على موافقته عليها تطبيقاً لحكم المادة التاسعة من معاهدة سنة ١٩٣٦ ذاتها التى نصت على أن ما تتمتع به القوات البريتانية من إعفاءات ومميزات أنها قد قررت على سبيل التحديد » . وكذلك يضمن التقرير ملاحظاته إشارة «إلى إعفاء بريد أفراد الجيش البريتانى من رسوم التخليص» ويرى أن الاتفاق على هذا الاعفاء « مخالف للقانون رقم ١٠ لسنة ١٩٢١ الخاص بتقرير رسوم البريد ، فضلا عن أن المعاهدة المصرية الانجليزية المبرمة فى سنة ١٩٣٦ لم ينص فيها على أى امتياز أو تخفيض للرسوم البريدية » .

وقد عنى التقرير بين أهم ما عنى به بمصلحة الضرائب ومخالفة بعض تصرفاتها للقانون وللدستور واتصال غير واحد من هذه التصرفات بالسلطات البريتانية أيضاً . وذكر فى ذلك الصدد قرارات لوزير المالية باعتبار « التبرعات لاكتتابات الشكر للانتصار التى تقوم بجمعها هيئة من رجال الجالية البريتانية فى مصر ، والتبرعات الممنوحة لمساعدة منكوبى سوريا ولبنان ، والتبرعات لإقامة مؤسسة صحية تخليداً لذكرى المغفور له أحمد ماهر باشا بمدينة الاسكندرية من نوع التكاليف التى تحتسب ضمن المصروفات ولا تحصل عنها ضريبة » ، فى حين أن الديوان يذهب « إلى أن التبرعات مهما يكن نوعها لا يجوز أصلا تحميل حساب الأرباح والخسائر بها ؛ إذ أنها لا تعتبر من المصاريف اللازمة لاستثمار المنشأة وإنتاج الأرباح ، وأنها لا تخرج عن كونها وجهاً من وجوه استعمال الربح ، فضلا عن أن مصلحة الضرائب جرت على هذا المبدأ ذاته بالنسبة للزكاة الشرعية » ، والدستور ينص صراحة على أن « فرض الضرائب أو إلغاءها أو الاعفاء منها لا يكون إلا بقانون » .

وكذلك ذكر التقرير النقابة التجارية للمملكة المتحدة ، وقد امتنعت

هذه النقابة عن تسديد الضرائب المستحقة عليها مخالفة أحكام الأوامر العسكرية المقررة ، فكانت مسألتها بين المسائل التى لفت الديوان نظر وزارة المالية إليها والتى عالجها فى تقريره عن الحساب الختامى لسنة ١٩٤٢ — ١٩٤٣ .

وقد تبين للديوان أخيراً أنه تم الاتفاق بين وزارة المالية وممثلى الشركة « على أن تخضع أرباح الشركة ، عن العمليات الخاصة بالمشتريات والمبيعات المحلية لغير القوات المحاربة ، للضريبة على أساس أن الشركة ربحت فى هذه العمليات » ، كما تبين له أن هذا الرأى « قد استند فيما انتهى إليه من نتائج إلى ماثبت من أن أسهم الشركة ملك للحكومة البريتانية» . ويلاحظ التقرير « أن ملكية المنشأة ليست محل بحث فى هذا الشأن ، وأن طبيعة الأعمال التى تباشرها هى التى تحدد ما إذا كانت هذه الأعمال تخضع للضريبة أو تعفى منها» . وقد رأى الديوان من المناسب أن يشير فى ذلك الصدد إلى ما أورده حضرة المستشار الملكى المساعد للضرائب فى مذكرته المرفوعة بتاريخ ٢٤ يناير سنة ١٩٤٥ لسعادة وكيل وزارة المالية لشؤون الضرائب ؛ فقد قرر حضرته فيها أنه « ليست هناك معاملة خاصة بالنسبة للحكومات مادامت تقوم بأعمال خاضعة للضريبة ، ولا استثناء من هذه القاعدة العامة إلا للجيوش البريتانية فى مصر بمقتضى أحكام القانون الصادر بمعاهدة التحالف المصرية الانجليزية ، على أن يكون الإعفاء بالنسبة للأعمال التى تقوم بها هذه الجيوش لا التى يؤديها الغير لها ، كالموردين ومن فى حكمهم» ، كما نوه حضرته فى ختام مذكرته « بضرورة تنفيذ أحكام قوانين الضرائب ولوائحها بكل دقة على هذه الشركة » . وحرر الديوان لوزارة المالية كتابا بما تقدم « طلب فى ختامه المبادرة إلى استيفاء إجراءات الربط والتمويل الخاصة بتلك الشركة وفاقاً لما تقضى به أحكام قوانين الضرائب ، مع اتخاذ الإجراءات الكفيلة بصون حقوق الخزانة فى تلك الضرائب وسرعة تحصيلها » .

ونقف بالقراء عند هذا الحد من التمثيل . والتقرير عامر بحالات المخالفة ومواضع المؤاخذة . وقد قدم الديوان تقريره إلى البرلمان فوفته لجنة المالية بمجلس الشيوخ حقه من الدرس ، ووفاه المجلس كله حقه من التقدير ، ووفى رئيس الديوان ومعاونيه حقهم من الشكر . وسيبقى على البرلمان أن يسلح الديوان بما ينقصه من وسائل التحرى ومن تمكين هذه الوسائل من الفعل

والانتاج والحسم . والديوان يشكو من أن الوزراء يتغافلون عن إجابته جميعاً ولا يبدون رأياً فيما يكتبه إليهم ، و يرجو العمل على معالجة الأمر .

أما نحن فقد سرنا أن يتيح لنا رئيس تحرير « الكاتب المصرى » مطالعة تقرير ديوان المحاسبة إذ طلب إلينا أن نخص مقالنا هذا به . وقد سرنا أن يذيع « الكاتب المصرى » شيئاً عن ديوان المحاسبة حتى يقدر القراء شيئاً من فضله على عدل الأمور فى الادارة الحكومية المصرية .

محمود عزمى

حيرة الترك بين الشرق والغرب

خطب مستر ترومان رئيس الولايات المتحدة فى ١٢ مارس الماضى أمام الكونجرس أو المؤتمر الأمريكى الذى يجمع بين شيوخ الدولة ونوابها ، وطلب إليه الموافقة على عقد قرض بمبلغ أربعمائة مليون دولار لمساعدة اليونان وتركيا . وقد قال فى عرض خطابه : « إنه فى سبيل تقدم الشعوب فى ظلال السلم وإبعاد أسباب القهر والاستبداد ، نهضت الولايات المتحدة بدور رئيسى فى تكوين هيئة الأمم المتحدة . . . ولا يمكن أن نحقق أغراضنا إلا إذا عقدنا النية على مساعدة الشعوب الحرة فى المحافظة على نظمها الحرة وسلامة وطنها ضد الحركات العدوانية التى تحاول فرض نظمها الدكتاتورية عليها . . . فاذا أمسكنا عن مساعدة اليونان وتركيا فى هذا الوقت العصيب فسيكون لإمساكنا هذا آثار بعيدة المدى تصيب الغرب والشرق جميعاً . . . » وقبل ذلك بأسابيع قليلة تكلم مستر جيمس بيرنز الوزير الأمريكى السابق أمام لجنة الشؤون الخارجية لمجلس الشيوخ الأمريكى فقال : « إن ما قد تعانيه أوربا فى المستقبل من قلق واضطراب سيكون مصدره على الأرجح بلاد البلقان » . والخطابان يعيدان إلى الذهن القول الذى اشتهر فى الربع الأول من هذا القرن بأن بلاد البلقان إنما هى مستودع البارود الذى قد ينفجر فى أى وقت فتندلع نيران الحرب .

وقد اندلعت شرارة الحرب العالمية الأولى فعلا من البلقان عندما اغتال طالب صربى فى يونية سنة ١٩١٤ الأرشيدوق فرانس فرديننـد ولى عهد النمسا وزوجته فى أثناء زيارة رسمية لمدينة سراجيفو عاصمة البوسنة . واقتربت ساعة نشوب الحرب العالمية الثانية من غير شك حين اعتدت إيطاليا على ألبانيا فى أبريل سنة ١٩٣٩ قبل الحرب بين ألمانيا والحلفاء بأقل من خمسة أشهر . وها هو ذا الرئيس الأمريكى ومعه وزيره السابق ينذران بأن البلقان سيكون

من جديد موطن الداء ومصدر الشرر إذا ماتلبدت الغيوم فى جو أوربا السياسى وآذنت باقتراب عاصفة الحرب الهوجاء .

ولم يعمد الرئيس الأمريكى فى خطابه إلى الأسلوب الدبلوماسى المرن ولكنه جهر فى صراحة بأن المساعدة التى ستقدمها أمريكا لتركيا واليونان إنما يراد بها علاج مسألتين : الأولى فى اليونان وهي وضع حد لأعمال الإرهاب التى تقوم بها فئات مسلحة يقودهم الشيوعيون متحدين فى ذلك سلطة الحكومة ومهددين حياة الدولة ذاتها . والثانية فى تركيا وهى مساعدة تركيا على الوفاء بمطالبها العصرية التى لا غنى عنها للاحتفاظ بسلامة أراضيها ، تلك السلامة التى يتوقف عليها السلام العام فى الشرق الأوسط .

والمسألتان فى حقيقة الأمر متصلتان ويكمل بعضهما بعضاً . فالضغط على اليونان من ناحية الشيوعيين سيؤدى بطبيعة الحال إلى إحراج مركز تركيا وإحاطتها من معظم جهاتها بسور شيوعى حديدى قد لا تقوى على دفعه . والضغط على تركيا من ناحية المضايق ومطالب روسيا بشأنها إنما يراد به الوصول إلى اليونان وبحر إيجه ثم البحر المتوسط . وتركيا واليونان بحكم موضعهما الجغرافى تقفان حارستين فى مفترق الطرق بين الشرق والغرب ، وكلتاهما تحتل منطقة على جانب عظيم من الخطورة الاستراتيجية فى البحر المتوسط والشرقين الأدنى والأوسط والاثنتان قد اتجهتا فى سياستهما وجهة غربية ديمقراطية بعض الاتجاه جعلتهما غريبتين عن سائر بلاد البلقان التى اصطبغت جميعها باللون الشيوعى بعد الحرب العالمية الثانية وأصبحت موالية لحكومة الاتحاد السوفيتى التى تريد أن تأخذ طريقها ذلولا إلى البحر المتوسط ، فلا تقف تركيا أو اليونان حائلا بينها وبين ذلك البحر .

والحقيقة أنه لا يعترض طريق روسيا إلى البحر المتوسط فى زمن السلم أى حائل فى تركيا أو فى اليونان لا من حيث الملاحة التجارية ولا من جيث الملاحة الحربية . ولكن الدول حتى بعد إقرار السلم وميثاق هيئة الأمم المتحدة لم تفتأ تفكر وتدبر خططها وسياستها بعقلية الحرب . فاذا نشبت حرب أخرى واشتبكت فيها روسيا فان تركيا إن لم تكن متحالفة معها ستسيطر حتما على المضايق وتغلق فى وجهها بوابتى البسفور والدردنيل المؤديتين إلى البحر المتوسط . وقد تكون تركيا متحالفة مع الجانب المعادى لروسيا فتفتح البوابتين لأعدائها كما فتحتهما

فى أثناء حرب القرم ، وتتعرض بذلك أساطيلها وقواعدها فى البحر الأسود وقواتها فى جنوبى روسيا وغربى آسيا لأعظم الأخطار . وليس فى وقوف تركيا موقف الحيدة فى زمن الحرب ما يجنب روسيا موارد التلف والخسران التى تتوقاها ؛ فقد كانت تركيا محايدة فى الحرب العالمية الثانية ، ونال روسيا بسبب ذلك الحياد من الضر والعنت ماجعلها تنقم على تركيا وتسئ إليها حتى الآن ؛ فقد سدت تركيا المضايق حقا فى وجوه المتحاربين ، ولكن ألمانيا لم تلجأ فى حربها مع روسيا إلى القوة البحرية بل كان جل اعتمادها فى مواصلاتها على الطرق البرية والجوية ، على حين كانت روسيا فى حاجة ملحة إلى فتح المضايق حتى تستطيع أن تتصل بحلفائها لإسعافها بالأسلحة المختلفة والمؤن والذخيرة فى أيام محنتها عن طريق البحر المتوسط بدلا من استخدام طريقى البحر الشمالى وخليج فارس وكلاهما طويل موحش محفوف بالأخطار الحربية والطبيعية .

لذلك كان تشدد روسيا الآن وعدم سماحها لتركيا بأن تستأثر بمفتاح البوابتين المؤديتين إلى البحر المتوسط . ولذلك أيضاً كان تمسك تركيا بحقها الطبيعى تسندها بريطانيا والولايات المتحدة ، وكلتاهما تأبيان على روسيا أن تصبح لها قواعد فى البحر المتوسط توطد فيها نفوذها وتستطيع منها وقت الحرب أن تثب بسهولة إلى المواضع الاستراتيجية الحيوية فى منطقتى القناة والشرق الأوسط . ومن هذا يتضح أن المحنة الحالية التى توشك أن تتردى فيها كل من تركيا واليونان إنما سببها وقوفهما فى طريق عملاقين عظيمين يريدان أن يتسليا بلعبة سياسة القوة فى العالم . و إذن فويل للدول الصغيرة التى تعترض طريقهما وتحاول أن تحول دون أن يأخذ بعضهما برقاب بعض . فهذه الدول إذا انحازت إلى أحد الجانبين تعرضت لسخط الجانب الآخر ونقمته ، و إن هى هادنت أو حايدت الفريقين باءت بغضب الاثنين ، فهى فى الحالين الضحية وكبش الفداء !

ولقد كانت ظروف الحرب العالمية الأولى مؤذنة بقرب تحقيق أحلام روسيا والخلاص من عقدة المسألة الشرقية ، بالموافقة على إقامة قيصر روسيا بعد انتهاء الحرب على عرش الخلافة العثمانية فى مدينة قسطنطين ووضع المضايق فى يدها ؛ فقد ارتضى الحلفاء الثلاثة بريطانيا وفرنسا وروسيا ذلك الوضع لروسيا بعد الحرب ، وأكدوا ذلك بمعاهدة سرية بينهم عقدت فى لندن فى سنة ١٩١٥ . ولكن لم تكد تمضى سنة واحدة على هذا الاتفاق حتى قامت الثورة الكبرى فى

روسيا فأودت بكل ماخلفته حكومة القيصر من خطط ومواثيق ومعاهدات سرية كانت أو جهرية ، وأعلن الثوار على الملأ أنهم يؤمنون بالمساواة بين الشعوب ، ويستنكرون اغتصاب الأقاليم التى ليست لهم ، وأنهم لا يقرون المعاهدات السرية ويبرءون منها ومن شروطها . ومالبثوا أن شفعوا القول بالفعل ، فأعلنوا نزولهم عما وعدت به روسيا فى معاهدة لندن وفضحوا سرية المعاهدة فأعلنوا نصوصها، وبذلك قضوا بأيديهم على الآمال التى كادوا يحققونها بعد كفاح دام قرابة ثلاثة قرون . ألم تكن القسطنطينية والسيطرة على المضايق هى أول أهداف السياسة الروسية منذ اعتلى بطرس الأكبر عرش روسيا ؟ وهل كانت بيزنطة أو القسطنطينية التى وعد بها الروس إلا أرض المعاد ،التى سيورثها الله للأرثوذكس ولو بعد حين ؟

لقد أنكر الثوار الروس فى سنة ١٩١٧ ذواتهم ومصالحهم ، وسيطرت النظريات والمبادئ على تفكيرهم وعقولهم ، فأضاعوا الفرصة التى ظل الروس يترقبونها قروناً طويلة . وكانت ثمرة الإخلاص وإنكار الذات أن توثقت العلاقات بين تركيا وعدوتها التقليدية ، وارتبطتا بمعاهدة سنة ١٩٢١ وائتلفت سياستهما الخارجية ، وجعلت تركيا منذ ذلك الوقت توجس خيفة من دول الغرب وتظن بها الظنون ثم تولى منها فراراً .

وكانت الثورة الكمالية قد قامت فى يوم من صيف سنة ١٩١٩ ودوّت من هضاب الأناضول صرخة الأموات الذين بعثهم مصطفى كمال من قبورهم ، فكأنما نفخ فى الصور ، وكأنه يوم النشور ، فاذا الحياة تدب فى أجسام الموتى ، وإذا الهزيمة والجوع والضعف تتلاشى أشباحها أمام إرادة أمة قد صممت أن تحيا مستقلة عزيزة الجانب لا سلطان لأجنبى فوق أرضها وإن تألبت عليها جميع القوى الغاشمة .

وكانت الدول الغربية هى مبعث تلك القوى الغاشمة التى تآمرت فى سيفر سنة ١٩٢٠ على تمزيق أوصال تلك الدولة ، فأخذت اليونان تراقيا وجزر بحر إيجه ، وتسابقت إيطاليا واليونان إلى أزمير وغربى الأناضول ، وأعلن استقلال الحجاز وأرمينية وكردستان وانفصال الولايات العربية ، وتألفت لجنة دولية تشرف على القسطنطينية والمضايق ، وأخرى تشرف على الشؤون المالية . وبذلك استحالت تلك الدولة التى كانت ملء الأسماع والأبصار قبل مضى سنة

واحدة من إعلان الهدنة سلطنة حقيرة متخاذلة تحت حماية الدول ورحمتها .

فهل كان غريباً بعد ذلك أن تنأى تركيا بقضها وقضيضها عن دول أوربا الغربية ، وأن تجعل بينها وبينهم سداً منيعاً حتى لا تلدغ من جحرهم مرتين ؟ ولكن إذا كان الكماليون قد أشاحوا بوجوهم عن أوربا واستدبروا الغرب ، فانهم كذلك لم يأنسوا إلى الشرق ولم يأبهوا بمصاير العرب والإسلام . وقد كان فى مقدمة ميثاقهم الوطنى أن ينزلوا نهائيا عن الأقاليم التى تتكلم كثرتها اللغة العربية . وكان الأتراك فى قرارهم هذا معذورين ؛ فقد ضاقوا ذرعاً بمشاكل العرب وثوراتهم وناءوا تحت عبء الخلافة الإسلامية بأثقال شتت جهودهم واستنفدت أموالهم وعرضت مصالحهم الوطنية الخاصة للتلف والبوار . ولذلك نراهم أسقطوا من حسابهم بعد الانتصار سياسة الجامعة العربية أو الإسلامية التى استند إليها سلاطين آل عثمان فى كفاحهم ضد أوربا ، وخاصة فى عهد عبد الحميد الثانى . فكانت أماناً لهم من تألب دول أوربا عليهم عدة سنوات .

وبينا كان الكماليون يأتمرون بالخلافة ويتربصون بها الدوائر كان المسلمون فى أنحاء العالم الاسلامى يظهرون سخطاً شديداً وقلقاً مستمراً خوفاً على مصير تركيا والخلافة بعد الحرب . فكان موقف المسلمين إذ ذاك شبيهاً بموقف المواطنين الرومان المنتشرين فى معظم أنحاء العالم عقب غارات المتبربرين وسقوط روما فى القرن الخامس الميلادى ؛ فقد كانت الحياة من غير روما وحكمها أمراً لم تتحمله نصوص القانون الرومانى ولم تتصوره عقول الناس حينذاك . وكذلك ظن المسلمون بعد الحرب العالمية الأولى أن كيانهم الدينى يوشك أن ينهار إذا ضاع استقلال تركيا أو ذهبت منها الخلافة . حقا لقد سكت المسلمون حين قامت حركة الثورة أو النهضة العربية فى أثناء الحرب بزعامة الشريف حسين أمير مكة ضد الخلافة العثمانية ، ولكن ما كادت الحرب تضع أوزارها حتى علا الضجيج وارتفع صوت الاحتجاج عالياً من بين صفوف المسلمين ، وخاصة من الهند ، ضد ما كان قد بيته الحلفاء لتركيا غير مقدرين أن مصاب السلطنة والخلافة فى النهاية لن يكون عن طريق الحلفاء بل عن طريق الكماليين أنفسهم .

وكانت مفاجأة أليمة للعالم الاسلامى أن تصل أنباء إلغاء السلطنة العثمانية وإقالة السلطان محمد السادس فى نوفمبر سنة ١٩٢٢ ثم فراره

قبيل اجتماع الدول فى لوزان سنة ١٩٢٣ لإقرار الصلح بين تركيا والحلفاء . وفى هذا الصلح نزل الأتراك من تلقاء أنفسهم عن الولايات العربية ، وقد كانوا مستطيعين لو أرادوا بعد انتصارهم على الإغريق وإحباط مساعى الحلفاء ضدهم أن يحتفظوا ولو بالسيادة الروحية على ولاياتهم السابقة . ولكنهم آثروا أن يقطعوا مرة واحدة كل ما كان بينهم وبين العرب والمسلمين من أسباب .

وقد وجدت تركيا من روسيا — وهى تناضل أكبر سياسى الغرب فى المؤتمر — أكبر نصير وأفصح لسان يترجم للمؤتمرين عن أصدق أمانى تركيا بالاتفاق مع روسيا . وكانت نقطة الخلاف التى تهم روسيا والدول بطبيعة الحال هى مسألة المضايق . فقد أصرت بريطانيا وحلفاؤها على إعلان حرية المضايق فى السلم والحرب ، حتى تستطيع عند الحاجة أن تخترق أساطيلها المضايق وتهدد روسيا . وبعد جلاد وجدال ودفاع مجيد قامت به روسيا لتأييد حق تركيا القديم فى السيطرة على المضايق رئى أن تتحرر المضايق فى معظم أجزائها وأن يترك لتركيا حق مرور قواتها داخل المضايق وحق تحصين القسطنطينية وإبقاء حامية بها تتألف من ١٢٠٠٠ جندى ، وحظروا مرور السفن الحربية إذا كانت مجموع حمولتها تفوق حمولة السفن التابعة لأقوى دولة على البحر الأسود . فاعترض المندوب الروسى وقال إن هذا لن يمنع تجمع أساطيل أكثر من دولة واحدة تريد أن تخترق المضايق ، فأبت الدول تعديل الشرط . ورأى المندوب التركى عصمت إينونو الرئيس التركى الحالى أن يساير الدول الغربية ويمالئها بعد أن أجابت تركيا إلى معظم طلباتها فى أدرنة وتراقيا ومنطقة المضايق . وخرجت روسيا من المؤتمر غضبى من تركيا التى تخلت عنها فى أحرج ساعات المؤتمر ، فأصرتها فى نفسها ولم تنسها ، ولكن تركيا لم تبال وخرجت من المؤتمر موفورة القوة عزيزة الجانب مزهوة بانتصارها وبتودد الدول الغربية إليها . وما كادت تنتهى جلسات مؤتمر لوزان حتى جد الكماليون فى انقلابهم مولين وجوههم دائماً نحو الغرب ، فشفعوا إلغاء السلطنة بإلغاء الخلافة وإعلان الجمهورية التركية ، وساروا فى طريقهم جميعاً تسربلهم البذلات الأوربية خالعين طرابيشهم مزينين رءوسهم بالقبعات الافرنجية من كل رسم وصنف وعلى كل لون . وقد حرروا نساءهم وأنزلوهن حلقات الرقص ، واستصحبوهن إلى المقاهى والأسواق . ثم مالبثوا أن ألغوا الطرق الصوفية والتكايا ، وحرموا دراسة الدين . وبعد أن

كان دين الدولة الإسلام أصدروا فى سنة ١٩٢٨ قراراً بجعل الدولة مدنية علمانية، وأبدلوا بالحروف العربية الحروف اللاتينية، وسار كمال أتاتورك على رأس وزرائه وكبار موظفيه ومعه السبورة والطباشير ليعلموا الناس على اختلاف طبقاتهم وأعمارهم الكتابة بالحروف اللاتينية الغربية، التى اعتبرها الجميع كأنها السحر الذى سيحل لهم طلاسم النهضة ويفتح لهم أبواب الثقافة الغربية على مصاريعها. ولم يتجه الكماليون فى وثبتهم هذه إلا مرة واحدة ناحية الشرق، وذلك حين نقلوا عاصمتهم من القسطنطينية التى صارت إسطمبول إلى أنقرة فى قلب الأناضول إمعاناً فى التبرؤ من آثار السياسة الرجعية القديمة.

ولم يطل التجافى بين تركيا وروسيا، فقد قام خصام عنيف بين تركيا وبريطانيا بشأن الموصل، وكانت تركيا فى مؤتمر لوزان قد اشترطت فى مقابل النزول عن الولايات العربية التى كانت تابعة لها أن تحتفظ بالعناصر المسلمة غير العربية، وكان الأكراد الذين يسكنون حول الموصل من أقوى هذه العناصر. وكانت معاهدة سيفر التى لم يقدر لها التصديق والنفاذ قد منحت الأكراد استقلالهم؛ فبات الأكراد يتربصون بالكماليين الدوائر؛ فما إن أصدروا قرارهم بإلغاء الخلافة حتى قامت بينهم فى سنة ١٩٢٥ ثورة دينية جامحة لم يستطع الأتراك قمعها إلا بمشقة بعد ثلاثة أشهر. وأرادوا أن يأمنوا جانب الأكراد فى المستقبل فطالبوا بريطانيا بترك الموصل الذى كانت قد احتلته منذ ١٩١٨ وأدخلته فى حدود دولة العراق الجديدة. ولما استعصى حل الخلاف أحيلت المسألة إلى مجلس عصبة الأمم، وقد تكونت لجنة دولية وقررت فى النهاية ضم الموصل إلى العراق ما دام الانتداب البريطانى باقياً. وقد وقع هذا القرار على تركيا وقعاً أليماً، وأيقنت أن الدول الغربية تعتبرها كروسيا دولة ثائرة خارجة عن نطاق الغرب.

وكان ارتياح روسيا لخسارة تركيا فى نزاعها مع دول الغرب عظيما؛ فما كادت الأنباء تترامى به حتى أرسلت رسلها لعقد محالفة جديدة بينها وبين تركيا فى ديسمبر سنة ١٩٢٥ وبمقتضى هذه المعاهدة ضمن الفريقان بعضهما لبعض أن يلتزما الحياد الودى إذا هاجم أحدهما فريق ثالث وأن يلجآ إلى المفاوضة بطريق ما لحل مشكلاتهما التى يتعذر تسويتها بالطرق الدبلوماسية. ومنذ ذلك الوقت استقرت الحال فى تركيا، وقنعت بمعاهدتها مع روسيا غير ناظرة

إلا إلى مستقبلها لا بالغرب تحتمى ولا إلى الشرق تنتمى . وبذلك استطاعت تركيا الجديدة فى مدى اثنى عشر عاماً أن تفرغ لتنفيذ برنامج الإصلاح الكمالى الذى خلق من تركيا دولة فتية موطدة الأركان مرهوبة الجانب ، ومن الأتراك شعباً جديداً ناهضاً سرعان ما استرعى العالم بنهضته وحيويته .

وحين فرغت تركيا من تثبيت قواعد نهضتها الانقلابية فى بلادها وبدأت ثمار الاصلاح تنضج وتؤتى أُكلها ، كانت آثار النظم الفاشية والنازية قد سادت أوربا وآسيا ، وأصبحت آثارها ماثلة أمام أنظار الساسة فى كل مكان ؛ فقد تنمرت اليابان على الصين واغتصبت منها منشوريا فى ١٩٣١ متحدية فى ذلك عصبة الأمم . وبدأت إيطاليا تتحرش بأثيوبيا غير عابئة بمعارضة إنجلترا ومعها عصبة الأمم . وخرجت ألمانيا من عصبة الأمم فى سنة ١٩٣٢ ثم خرقت نصوص معاهدتى لوكارنو وفرسايل . عند ذلك بدا للشعوب جليا أن المواثيق والمبادئ التى أعلنتها عصبة الأمم لن تغنى فتيلا عن الحرب ، وأيقن كمال أتاتورك أن بلاده وشبه جزيرة البلقان كلها قد أصبحت مستهدفة لعدوان إيطاليا عاجلا أو آجلا ، وأن مصلحة البلاد العليا تناديه بأن ينبذ سياسة الانطواء والعزلة التى سارت عليها تركيا فى الماضى . وكانت بريطانيا تمهد الطريق بين دول البحر المتوسط لمقاومة العدوان الفاشى إذا أعلنت إيطاليا خروجها على سياسة التأمين الجمعى التى يقوم عليها ميثاق عصبة الأمم ، فتوثقت العلاقات بين تركيا و بريطانيا . ودخلت تركيا العصبة ووقفت وقفتها المشرفة الشهيرة فى دفاعها عن السلم فى السنوات القليلة التى سبقت الحرب العالمية الثانية . وكأنما أرادت أن تستغفر لخطاياها القديمة ، فقررت أن تحدث حدثاً سياسيا يؤمن قضية السلام العام من جهة ، ويصون مصالح تركيا والشعوب الصغيرة التى تكتنفها شرقاً وغرباً من جهة أخرى . وإنه لمن معجزات الزمن أن تقوم تركيا فى شبه جزيرة البلقان ، التى طالما سالت فى أوديتها الدماء أنهاراً من جراء الحروب والثورات التى اشتبكت فيها سلباً و إيجاباً ، بدور المصلح المخلص الداعى إلى الأمن والسلام بين هذه الشعوب التعسة . فبدأت تركيا بعقد معاهدة الصداقة مع الإغريق ، ثم أقنعت سائر دول البلقان بأن خلاصهم متوقف على اتحادهم واعتمادهم على أنفسهم ، وأنه لا فائدة ترجى لهم من الاستناد إلى واحدة من الدول الكبرى ، وأن مصلحتهم العظمى تقضى عليهم بألا ينساقوا أو ينزلقوا إلى منحدر المنافسات الدولية القائمة فى أوربا

الغربية إذ ذاك . وعلى ذلك تم الاتفاق على ميثاق البلقان سنة ١٩٣٤ بين تركيا واليونان ورومانيا ويوغسلافيا ، ولم يشذ عن الاتفاق سوى ألبانيا وكانت فى سياستها تابعة لإيطاليا ، وبلغاريا وكانت لها مطامع لايتيسر تحقيقها إذا حافظت الدول على الحالة القائمة .

ثم التفتت تركيا إلى الشرق وكانت علاقاتها مرضية بالدول التى استقلت كبلاد العرب والعراق ومصر و إيران والأفغان ، ولم يسؤها أن ينفصل عنها الشام ولبنان وفلسطين وشرق الأردن تحت انتداب إنجلترا وفرنسا ؛ فقد جاهدوا جميعاً وكافحوا كما جاهد الكماليون وكافحوا لأجل استقلال بلادهم والتخلص من ربقة الحكم الأجنبى . وبعد أن كانت هذه الدول مجرد ولايات أو إمارات أوممالك فقيرة متخاذلة متأخرة لا يؤبه لها كثيراً ، أصبحت هى كذلك فى مدى خمسة عشر عاماً بفضل نهضاتها الثقافية الاقتصادية دولا فتية محترمة مرموقة الجانب تؤمن بمستقبلها السياسى والاقتصادى ، وتحسب الدول الكبرى حسابها .

وعند ذلك ألمّ الحنين بتركيا إلى الشرق ، وعادت بها الذاكرة إلى سابق مكانتها فى قلوب المسلمين ، وأحست فى قرارة نفسها بأن الشرق هو صخرة الأمان التى يجب أن تلوذ بها تركيا إذا اكفهر الجو فى الغرب ولمعت بوارق الحرب حول المنطقة الخطيرة فى المضايق التى تسيطر عليها . ولكن كبرياء الترك وكرامتهم أبتا عليهم أن يعترفوا بالحقيقة كلها،فقرروا أن يكون اتجاههم شرقيا صرفاً لا إسلاميا ولا عربيا فوثقت علاقاتها مع إيران الجديدة ، وجعلت تسعى بالصلح بين إيران والعراق وأفغانستان . وأخيراً تم تأليف ميثاق سعد أباد قرب طهران فى سنة ١٩٣٧ بين تركيا والعراق و إيران والأفغان على الأسس نفسها التى قام عليها ميثاق البلقان . وكان الأمل معقوداً باشتراك مصر والعربية السعودية فى الميثاق . ولو فعلتها مصر لكان مركزها ثانويا فى الاتحاد ولقضى على فكرة الجامعة العربية وهى فى المهد . وانتهزت تركيا فرصة الاضطراب الدولى فى الأيام التى سبقت الحرب العالمية الثانية فدعت الدول لتعديل معاهدة لوزان فيما يخص المضايق ، لتسترد كامل حقها فى تحصينها وتسليحها ، حتى لايتعرض أمنها لعنت إحدى الدول المهاجمة كايطاليا . وقد أقرت الدول ذلك فى مؤتمر منترو سنة ١٩٣٦ وكان من صالح روسيا آنئذ أن تحول تركيا

دون تسرب أساطيل الأعداء إليها ، كما رأت إنجلترا أن يكون أصدقاؤها فى البحر المتوسط مسلحين وعلى أهبة الاستعداد لرد هجمات العدو المشترك . وقد نص فى المعاهدة ، استمالة لروسيا ، على أن لدول البحر الأسود حق مرور أساطيلها فى المضايق إذا اشتبكت فى حرب . ولكن المعاهدة أبقت حق التصريح والمنع بيد تركيا نهائيا تستعمله كما تشاء فى السلم أو فى الحرب ، وهو ما تعمل روسيا الآن لنقضه لجعل مهمة الدفاع عن المضايق محصورة فى أيدى دول البحر الأسود فحسب وفى مقدمتها طبعاً روسيا وتركيا ؛ إذ أن الدول الأخرى تابعة لروسيا فى سياستها .

ولما نشبت الحرب الأخيرة عانت تركيا منتهى العنت والشدة فى المحافظة على حيدتها ، ولكنها باءت من الحيدة بغضب روسيا وسخطها الشديد ، فقد نقمت عليها موقفها العدائى الجاحد فى إبان محنتها الكبرى ، فانقلبت الصداقة القديمة بينهما إلى عداوة أعادت إلى الذاكرة ما كان بين الدولتين قديماً من جفاء ومرارة وعداء مستحكم . وقد ظهرت آثار ذلك جلية فى إنذارها لتركيا بعدم تجديد معاهدة سنة ١٩٢٥ ثم برغبتها فى تعديل معاهدة منترو لا على أساسها الدولى الأول بل وفق مصالح روسيا وفى نطاق دول البحر الأسود فحسب .

ولما هاجمت إيطاليا وألمانيا شبه جزيرة البلقان فى صيف سنة ١٩٤١ وأخذت دولها تتساقط واحدة تلو أخرى فى أيدى المحور ، تلفت العالم ليرى أثر ميثاق البلقان بدخول تركيا الحرب إلى جانب الحلفاء ، ولكن سياسة الرئيس إينونو الرصينة الحصيفة أملت على تركيا سياسة الحذر والترقب . وحسنا فعلت تركيا ؛ فلو أنها دخلت الحرب وقوات المحور فى دفعتها الأولى لاستطاع الألمان بسهولة أن يخضعوها ويتخذوا منها معبراً إلى منطقة الشرق الأوسط ، ثم إلى قناة السويس وخليج العجم .

وكذلك افتقد الناس ميثاق سعد أباد ونقبوا عن آثاره حين أغار الحلفاء على إيران وعزلوا الشاه رضا بهلوى ليتخذوا من إيران طريقاً إلى القوقاز فروسيا بدلا من طريق المضايق التى سدتها تركيا بحيدتها ، أو بالحرى التى لم يستطع الحلفاء اختراقها لمناعة مركز الألمان فيها بعد إخضاعها اليونان وجزر بحر إيجه . وبحث الناس أيضاً عن بقايا الميثاق حين قام رشيد الكيلانى

بثورته الحربية فى بغداد واضطر الملك والوصى على عرش العراق إلى الفرار . وعبثا حاول المنقبون أن يجدوا أثراً للمواثيق التى جاهدت تركيا فى إبرامها ؛ فقد أكلتها نيران الحرب المخربة ومزقتها سياسة الحرب فيما مزقت شذر مذر :

وكانت تركيا كلما دنت ساعة الحرب زاد اتصالها بدول الغرب ، فعقدت مع إنجلترا فى سنة ١٩٣٨ قرضاً ماليا كبيراً أعقبه بعد شهور قليلة قرض آخر من الولايات المتحدة . وفى سنة ١٩٣٩ عقدت تركيا محالفتها مع بريطانيا لمدة خمسة عشر عاماً ، وبمقتضاها تعهدت بريطانيا بمساعدة تركيا إذا هاجمتها دولة أخرى ، على أن تقدم تركيا المساعدة لبريطانيا إذا هوجمت فى منطقة البحر المتوسط ومست فيها مصالح تركيا . وفى تلك السنة أيضاً تعاهدت تركيا وفرنسا ، وقد نزلت لها الأخيرة عن سنجق الاسكندرونة التابع أصلا لسوريا ، وذلك بعد نزاع دام بضع سنوات .

ولكن ما كادت تنتهى الحرب العالمية الثانية وتظهر بوادر النزاع بين تركيا وروسيا حتى عاد حنين تركيا إلى الجامعة الاسلامية أو الشرقية ، وبدأت تتحسر على الجاه والنفوذ الدينى الذى كان لها فى الماضى وبفضله استطاعت وهى حينذاك الدولة الضعيفة المتخاذلة أن تزعج روسيا وسائر الدول الأوربية المسيحية . فكم كان يكون جاهها وتأثيرها اليوم وقد تجددت قواها لو أن معها أصوات مئات الملايين من المسلمين الناهضين فى كل مكان والذين كانوا يدينون لتركيا بالخلافة !

ويبدو أن دول الغرب نفسها ، قد اقتنعت أخيراً بأن تركيا يجب أن تطل دائماً على الشرق ، وأن تعود كإحدى الدول العظمى حتى تقوى على مواجهة الضغط السوفيتى ، فى تلك المنطقة العظيمة الخطر بين الشرق والغرب . وهم يرون أن أى نظام دفاعى فى منطقتى الشرق الأدنى والأوسط لا ترتكز دعائمه على عزمات الجندى التركى المشهور سيكون حتما نظاماً هزيلا مصيره إلى الفشل لا محالة . لذلك نسمع الآن تصريحات من الرئيس إينونو ومن وزرائه يرددون فيها رغبة تركيا المخلصة فى عقد معاهدات صداقة مع دول الجامعة العربية وسائر الدول الشرقية ، وأنهم فى سبيل هذه الصداقة مستعدون أن يمنحوا السوريين التسهيلات الاقتصادية المطلوبة فى سنجق الاسكندرونة . وقد بدءوا فعلا فى هذا العام بعقد معاهدات مع العراق وشرق الأردن . وقد يكون

مشروع سوريا الكبرى — إذ صح — أحد أركان هذه السياسة العليا التى تحتضنها بريطانيا وتشجعها أمريكا مالياً وسياسيا .

ولكن الدول العربية الحديثة العهد باستقلالها هى لهذا السبب شديدة الحرص على تنمية قوميتها واستقلالها ، وهى تخشى إذا قويت تركيا أن تعود إليها النزعة السلطانية ثانية ولاتلبث أن تزحف إلى الجنوب . وقد أصبح العرب الآن من الكفاية والنضج السياسى بحيث لا يجوز عليهم أساليب الخداع والسياسة القديمة التى تنتهجها الدول الغربية لخدمة مآربها الخاصة . وخير لتركيا ولسائر الدول المتوسطة والصغرى أن تنبذ سياسة التكتل والمحالفات ، وأن تحتذى حذو الممالك الاسكندناوية فى حيدتها وتماسكها وتمسكها بمصالحها بين الفريقين المتنافسين . ولم يخدم تركيا الحديثة خير من سياسة كمال أتاتورك الذى فك وثاق تركيا من الغرب والشرق جميعاً وولاها الوجهة التركية الخالصة التى ترضاها فى ظل السلام العام .

محمد رفعت .

ذاهب مع الريح

أربعة أشهر قضيناها فى ربوع العالم الجديد . . .

آن أن نفكر فى الرحيل . . .

مضينا نلتمس وسيلة الانتقال إلى أوربة فعلمنا أن الأماكن فى البواخر والطائرات محجوزة كلها إلى ثلاثة أشهر . . .

لا مناص لنا إذن من البقاء ثلاثة أشهر فى بلاد العم سام . . . ثلاثة أشهر نقضيها لا مهمة لنا ولا عمل إلا محض الانتظار !

ذلك حكم قضت به علينا شركات البواخر والطوائر ، ولكن أليس لهذا الحكم من استئناف ؟

علمتنا المدرسة ونحن نتلقى علم الهندسة أن أقرب بعد بين نقطتين هو الخط المستقيم . . . . وها نحن أولاء نريد تطبيق تلك البديهية الهندسية فيما نريد من الانتقال ، فنتخذ الطريق المستقيم الرسمى فى طلب التذاكر ، فاذا أقرب مسافة بيننا وبين ما نريد هو ثلاثة أشهر طوال عراض ! . . .

وهالنا مأزقنا الحرج ، فخرجنا على تلك البديهية الهندسية نطلب ملتويات الطرق ، لعلها أقرب بعداً ، وأيسر جهداً . . .

دخلنا سوق الشفاعات والوساطات ، فخرجنا بصفقة الرابح ، وتوارت عن أذهاننا تلك البديهية الهندسية ، كأنما تلوذ بالفرار من خجل وخزى . . .

إننا على وشك السفر خلال أيام معدودات ، فلنكن على أُهبة ، حتى يبلغنا الموعد القريب . . .

وبعد أيام تلقينا نبأ من الشفيع الأعظم بأن الطائرة ستقلنا بعد أيام ثلاثة . . . فأمضينا هذه الأيام نطوف فى نيويورك طوفات عابرة ، هى تحيات وداع . . . وداع للمطاعم ، للمتنزهات ، للملاهى ، للطبيب : نتزود منه بتلك الابتسامة الخاطفة التى كانت كل ما فى جعبته حين قدمنا عليه من

تحية واحتفاء ، وهى اليوم كل ما فى جعبتة من نصح و إرشاد . . . وأخيراً وداع لذلك الصديق الكريم الشارع الخامس الذى صحبنا أربعة أشهر لم نلق منه إلا صدراً رحباً ، ومعيناً عذباً يفيض بالمباهج والمسرات !

فى صبح يوم السفر ، أطللت من نافذة حجرتى ، أتطلع إلى منظر ألفتـه حتى مللته : أبنية سوامق ، وطريق صادر وارد ، ومتنزه فى أقصاه صغير . . .

وقفت أرنو إلى ذلك المنظر المألوف لى ، فاذا به فى هذه اللحظة ينزع عنـه تفاهته وابتذاله . . .

إنه ليبدو لى كأنما يتجلى لناظرى أول مرة . . .

مفاتن جديدة ، تتوضح لى ، لم أعهدها من قبل . . .

لكأن الشارع كان يستر عنى جوانب منه ، ضن بها على . . . ولكأنه كان يدخرها لهذا اليوم ، بل لهذه اللحظات ، حتى أفارقه بشوق جديد ، وشغف مزيد !

أربعة أشهر ترادفت ، وعينى تتردد فى هذا المنظر ، دون أن آبه له ، واليوم وأنا على وشك فراقه أرانى متشبثاً به ، رانياً إليه ، أتملى محاسنه ومفاتنه ، كأنى أريد أن يحتويه صدرى ، لا يفلت منه شئ !

يالقلب الانسان ! . . . إنه يظل غافلا عن قيمة الشئ ، لا يفطن إليها إلا حين يتركها أو تتركه . . . إنه لا يكتشف الكنز إلا حين يضيعه !

أنت إذا ملكت شيئاً أهملته ، فكأنك تقول : فيم الاهتمام والتعجل ، وهو طوع يمينى ، وبين يدى من وقتى فسحة للتمتع به . . . فتنطوى الأيام بعـد الأيام ، وأنت عن شيئك غافل ، حتى إذا أحسست أنك موشك أن تفقـده ، تواثبت قواك من تلقاء نفسها تتشبث به ، وقد احتد شغفها ، واشتد كلفها ، وتستبين لعينيك مزايا يدهشك أنك لم تحس الانتفاع بها قبل . . .

وأقوى ماتكون هذه المزايا توضحاً لناظرك ، حين لا يستطيع الوقت أن يسعفك بفترة استمتاع وانتفاع ، فلا تملك إلا أن تدع ذلك الشئ ، وقـد أتبعته من قرارة نفسك حسرات تلو حسرات !

ظلت هذه الخواطر تعتلج فى رأسى ، فكبر على نفسى أن يكون بها كل هذا التشوق والتعلق بذلك المنظر ، فرحت أسائل القلب :

ترى ماذا يكون منى إن تلقيت الآن نبأ بتأجيل موعد السفر أربعة أشهر ؟

ترى هل أتخذ فى مسلكى نحو هذا المنظر شأناً غير ما كان من شأنى معه فى أربعة الأشهر الماضية ؟

أم يتكرر ما كان منى قبل ، فأغفل عنه ، ولا أكترث له ، حتى تحين ساعة الوداع ؟

. . . ركبنا السيارة ، قاصدين مطار لاجوارديا . . .

ما أشبه الليلة بالبارحة !

الطريق هو الطريق ، والمشاهد هى المشاهد ، ولكن شتان بين شعورين : شعور القدوم ، وشعور الرحيل !

دخلنا المطار ، وانتظرنا فى البهو الدائر يزخر بالناس بين رائح وغاد ، وبين جالس إلى أمتعته ، ومقبل على الميزان يستوفى إجراءاته . . .

ورحت أتطلع إلى تلك الرسوم العظيمة تزين جدار المطار . . . رسوم تسجل مراحل الطيران فى مختلف عهوده .

ولبثنا ننتظر ، وامتد بنا الوقت ، ولكن ما حيلتنا ، والجيش عليه أن يظل فى الانتظار ، وأن يكون متأهباً مرهف السمع ، يرتقب صوت النفير !

وحانت ساعة الفرج ، وسمعنا مضخم الصوت يقول :

— القاصدون باريس يتقدمون !

فتجمع الشمل ، وانتظم الصف ، وخرجنا إلى ذلك الممشى المظلل ، كأنه عريش بستان . . .

وما كدنا نبلغ أقصاه ، حتى لاح لنا « شمروخ » . . .

وقفت أتأمله لحظة . . .

أنت و « أبو الهول » صنوان ، يحمل كل منكما اسماً من مصر . . . ففيكما نفحة من الوطن . . . كلاكما فى وقفته المتطلعة شامخ مهيب ، وكلاكما فى مظهره الجميل سمح المحيا مفتر الثغر . . . إنه لفأل طيب ، فعلى بركة الله !

احتوانا صدر « شمروخ » والوقت ظهر . . .

إنه كأخيه « أبى الهول » فى وثارة مقاعده ، ونظام طاقاته ، وسائر شياته . . .

لوح النور هو هو ، يوصى بشد النطاق ، ويحظر التدخين . . .

وهذا الفتى الأمريكى وزميلته السمحة ، فى لبوسهما الرمادى الرسمى المهندم كأنهما طيفان من هوليود !

وأُقفل الباب ، ذلك الفاصل بين عالم الأرض والسماء ، بل إنه لفاصل يقرر مصاير الركب ، فكأن صريره إذ يوصد يقول :

ثمة حقبة متميزة من حياتنا قد ختمت بخيرها وشرها ، وصارت ماضياً مطوياً ، وها هى ذى حقبة جديدة تبدأ ، مابرحت مجهولة لنا ، وإن كانت مسطورة فى لوح القدر المغيب !

ورحت أتأمل تلك الفترة التى مضت من حياتى فى ذلك العالم الجديد ، وطافت بالرأس أفكار . . .

يقولون إن الحياة ماض وحاضر ومستقبل . . . ولكن فى هذا الرأى كثير من إلقاء الكلام على عواهنه دون دقة وتمحيص . . .

ليت شعرى : أى شئ هو الحاضر ؟ أين هو ؟

ماالحاضر إلا وهم مصور لو حاولت قبضه لما تحصل فى يدك منه شئ . . .

إنه ليمر بك خطفاً ، وينزلق عنك إنزلاق الزئبق الرجراج . . .

فليس فى مقدورك أن تدعى الاستمتاع بشئ منه إلا أن توهم نفسك إيهاماً . . .

إن خفقة القلب ، وفيها معنى الوجود . وسر الحياة — لا تكاد تبدأ حتى يبتلعها الماضى من فوره ، فكأنها قذيفة منطلقة يغيبها ذلك الفضاء العريض . . .

وإن الكلمة ، وهى ترجمان النفس وتعبير الشعور ، لا تكاد تنفرج عنها الشفتان ، حتى يتلقفها الماضى فيدونها فى سجله العتيد . . .

ذلك الماضى تنين هائل يفغر لك أفواهه يمنة ويسرة ، وتحدق بك مخالبه من كل جهة ، مرتصداً يقظان لكل إشارة أو عبارة ، ولكل حركة أو حس، منهوماً صديان لا يشبع مهما يطعم ، ولا يروى مهما يعب !

إنه لا يفتأ يقتطعك ويعتصرك حتى يحين وقت تفنى فى جوفه ، فتصبح نسيجاً فى جسمه ، ونقطة من دمه ، تصبح صفحة من الماضى !

وليت شعرى : أى شئ هو المستقبل ؟ أين هو ؟

سديم غامض ، مهما أنفذت فيه بصرك ، لم يستبن لك فيه قليل أو كثير . . .

مابرح هذا السديم فىطور التكوين لم يتخلق ، فهو فى ذمة أقدار محجبة تصوغه وفق هواها . . .

ليس المستقبل إذن إلا خيالا غامضاً جوهره الظنون !

الحياة ماض وحده . . .

إنه الحقيقة الثابتة منقوشة فى سجلك الصخرى لا تبلى . . .

فى مستطاعك أن تتحدث فى هذه الحقيقة حديث خبرة وعلم ، وتصفها وصف رؤية وتمعن ، ولا تملك أن تمحو منها مثقال ذرة ، وإن بذلت فى ذلك غاية الجهد . . .

ليس لك أن تستمتع بشئ سوى الماضى . . .

ليس الإنسان فى الحق إلا حشد ذكريات وذكريات !

ظل « شمروخ » يطير ، وأنا مستغرق فى تأملى ، تطوح بى الخواطر فى شتى الآفاق ، وقد أُلقى النظرة بعد النظرة من الطاق ، أشهد قطع السحاب تسبح فى السماء ، تارة تلتحم وتربد منذرة بوابل هتان ، وطوراً تتقشع لتأذن للشمس أن تبعث ابتسامتها تحيينا ، وتبث فى نفوسنا الطمأنينة والرضا . . .

وفى الساعة الخامسة مساء ، هبطنا مطار جندار . وظهرت السيارة الحافلة فامتطيناها تجوس بنا دروب تلك القرية الكئيبة المنعزلة ، هذه المستعمرة الجوية التى اتخذت محطا لرحال الطائرات ومثابة استجام . . .

وزاد هذه القرية وحشة وكآبة أن السماء كانت غائمة توالى رذاذها ...

وبلغت بنا السيارة مقصف المطار ، ذلك المبنى الذى يماثل بيت فلاح ثرى من سادة الريف . . .

وبعد أن طعمنا تناهى إلينا أننا فى المطار نبيت ، ولكن علينا أن نكون على تمام أهبة الرحيل ، فقد ياغتنا أمر بالمضى إلى ركوب الطائرة !

وأقلتنا السيارة الحافلة إلى ما يسمونه هنالك الفندق ، وما هو إلا ثكنة وحق السماء ، لا تَجَنِّى ولا مغالاة !

فى ذلك المكان حيينا حياة الجندى فى شتى مظاهرها : حجر بلغ بها التواضع حد الشظف ، وأسرّة عجاف لا يسترها إلا ما تمس إليه الحاجة من فرش ساذجة ، وضجعة ارتقاب وتوفز ، نتوهم فى الفينة بعد الفينة أننا مزعجون بطلب الرحيل !

صحوت فى الخامسة صباحاً ، كأنما عز على نفسى أن يوقظها آمر مسيطر. فاستيقظت هى ، تمثلا بقول القائل :

« بيدى لا بيد عمرو ! »

لا جديد فى شأن الرحيل . . . الجو عابس ، وبين السماء والأرض بريد لا ينقطع من رذاذ ، فكأنه يحمل إلينا رسالة الانتظار !

عدنا إلى مبنى المقصف ، لا عمل لنا إلا أن نطعم ونستريح وننتظر . . . من أسس الرحلة الجوية أن ننتظر ، وأن نروض أنفسنا دائماً على هذا الانتظار !

أمضيت الوقت على تلك المقاعد الوثيرة ، أنقّل بصرى فى الحاضرين ، وما فتئ الرذاذ ينقر زجاج النوافذ . . .

لكأننا نحن طلاب « شمروخ » فى جزيرة موحشة ، قذفتنا حطام سفينة محطمة إلى الشاطئ ، فبقينا نرتقب النجدة !

وكنت كلما برمت بالانتظار مضيت أسائل ضباط المطار ومن إليهم من الأعوان ، ولكن لا جديد !

ليس فى جعاب المسئولين من الجواب إلا ابتسامة غامضة ، وإيماءة خاطفة !

وأخذ الصحب يتجمعون للعب بالورق ، وانعقدت سحائب اللفائف ، وطالعتنا الكؤوس والأقداح تروح ملأى وتغدو فارغة . . .

إنى لأغبط هؤلاء اللاعبين ؛ فلقد اندمجوا فيما بين أيديهم ، فأنساهم كل شئ . . . نظراتهم مشرعة إلى الورق ، كلماتهم عاجلة يتطارحونها تارة فى ضحك وتارة فى عبوس ، حركاتهم آلية وهم يوزعون الورق فى مهارة كمهارة الحواة والمهرجين . . . إنى لأحسبهم قد سُحروا صوراً كتلك الصور الأنيقة الملونة التى تحلى ورق اللعب ، صور الملوك عليهم تيجان مذهبة ، والصبايا تزدان بالزهر الناضر . . .

ضجرت بهؤلاء اللاعبين فى موقف جد . . . فنهضت أتلفت حولى لأشغل نفسى بشئ ، فألفيت نثاراً من المجلات ، فأقبلت أقرأ : ثمة مقال تلوح طرافته ، قصة صحفى أمريكى يصف ما شهد فى زورة لإحدى المناطق الألمانية الخاضعة للاحتلال الروسى . . .

إن الصحفي ليطنب في الإشادة بما يلقى به الروسي ضيفه من كرم وحفاوة ، إنه لكرم يذكرنا سماحة الشرق والعربي في كتب الأولين ، أولئك الروسيون يقيمون مأدبة لذلك الصحفي الأمريكي ومن معه في التاسعة صباحاً ، مأدبة تزخر باللحوم والألبان والأشربة ، فلما أكلوا حتى أتخموا أخبرهم مضيفهم القائد الروسي أن ليس هذا إلا تصبيحة وعجالة ، فأما الفطور التام فهو في الحادية عشرة . . . في الحادية عشرة !

أمامك ساعتان أيتها المعدة لكي تهضمي ما أُلقي إليك من لحم ولبن وخمر ، وتشمري لما تفجؤك به المائدة الجديدة بعد . . .

وقد مضى اليوم سلسلة من المآدب موصولة الحلقات ، وكان مسك الختام عشاء حافلا في الساعة الأولى بعد منتصف الليل !

أما ألوان الطعام فكثيرة ، لا ينتهي لصحافها عرض . . . وكانت معارك الطعام تدور على نغمات الموسيقى ومطايبات الأحاديث !

أوربة اليوم بين منتصر ومنهزم ، أما المنتصر فيقضي يومه يفكر متى يهضم ما أكل ليستزيد ، وأما المنهزم فيقضي يومه يفكر متى يتبلغ بشيء يسكت به سعار الجوع !

حقا أن أوربة اليوم مجال لمجاعة شاملة ، وأن هذه المجاعة لتتمثل في نهم المنتصر ، كما تتمثل في حرمان المهزوم !

كان طريفاً أن يجري الصحفي الأمريكي على أسلوب الأرقام والإحصاء في التعقيب على تلك الضيافة ، وقد خرج من الحساب بأنه أنفق ٥٠ في المائة من يومه آكلا ، و٣٠ في المائة نائماً ، و١٥ في المائة متنقلا ، و٥ في المائة مقبلا على مهمته المجيدة التي رحل من أجلها في همة ونشاط !

وأنبهني مضخم الصوت يقول :

— ركاب « شمروخ » يستعدون للسفر !

فألقيت بنظرة على الساعة في معصمي ، فاذا بها قبيل السابعة مساء !

غيبنا جوف « شمروخ » واعتلى بنا صهوة الرياح يستقبل المحيط ، ويتأهب لاجتيازه قدماً لاريث ولا هدوء . . .

وكان الضباب ما برح مركوماً ، والرذاذ يداعب زجاج الطاقات ، ولكن « شمروخ » مضى يشق ذلك الحجاب الثقيل المعتم ، ويسمو إلى آفاق الصفاء

والنور ، و إذا بنا نلمح تحتنا بساطاً ناصع البياض ، كأنه غوارب موج ، أو بطاح مترامية من جليد لا يدرك نهايتها الطرف ، وعلى حواشى السماء يزهو وشى أرجوانى من صبغة الشمس فى لبوس المغيب !

كان « شمروخ » رشيقاً فى طيرانه ، فلبثنا نعبر المحيط فى سكينة وأمان ...

وتراخت الأعصاب بعد توتر ، فتهالكت على ذلك المقعد الطيع ، وقد أردته أن يكون فراشاً فكان . . . وجذبت الدثار على ركبتىّ ، وأسلمت للنوم جفنىّ ، وسرعان ما استجاب لى السبات !

وفى منتصف الخامسة صباحاً صحوت من نومى ، فألفيت الطائرة على مقربة من مطار شانون موشكة على التصويب . . .

كان أول صنيع لنا فى مطار شانون أن نصلح من ساعاتنا ، فتقدمنا بها نحواً من ثلاث ساعات . . .

أنت فى رحلات الجو كما تدين تدان ! . . .

هذه ساعات من حياتنا نخسرها اليوم ، وما هى إلا تلك الساعات التى استزدناها يوم ذهابنا إلى العالم الجديد !

قضينا ساعة فى المطار ، تناولنا فيها طعام الإفطار ، وعدنا إلى الطائرة نستأنف الارتحال إلى باريس . . .

وما هى إلا ثلاث ساعات حتى كنا فى مطار عاصمة الفرنسيين . . .

ها نحن أولاء نئوب إليك يا باريس بعد غيبة أربعة أشهر ، فكيف أنت ؟ وما حالك الآن ؟

لن تكونى لنا إلا محطة استبدال مطية بمطية ، فنصيبك منا نظرات المتعجلين ومرور الكرام !

كنا نحسب أننا سنقضى فى باريس يوماً أو بعض يوم ، فاذا بها تأسرنا عشرة أيام ثقال !

إنى لأسائل نفسى الساعة :

كيف قضيت تلك الأيام ؟

لقد كانت مثار إرهاق و إجهاد ، لم نطعم فيها الراحة إلا غراراً ، جو أحمق ، كأن به جِنّة ، لا قرار له على حال ، فمرة هو قيظ متلهب ، وحيناً هو أهوية وأمطار !

وهذا الكد بين مكاتب العملة وشركات الأسفار . . .

أعصاب متوترة ، ونفس ثائرة ، وحيرة فى موعد الرحلة ووسيلة الانتقال...
هل نسافر بالقطار أو بالطائرة أو بالسيارة أو مشياً على الأقدام ؟ يعلم الله !

فى تلك الأيام المضطربة التى عشناها كان لزاماً علينا أن نصطنع الحذر الشديد والتحيل الدائب . . .

وقد يغدو المرء على الرغم منه مخاتلا كذوباً ، فأوضاع الحياة ثمة لا تعين على حق وصدق وتصريح !

إن القيم الأخلاقية لتبدو لنا الآن غريبة الوجه ، لا تلائم ملابسات العيش وسوق الحياة . . .

هذه القيم تلين وتتلوى إزاء ما تقتضيه الحال الراهنة فى ذلك العهد العجيب . . .

على أن القانون يتجنى على الناس فيريدهم على الخضوع لسلطانه ، وإلا وصمهم بوصمة المروق على الأوضاع . ولو أنصف القانون لتبين له من أعذار هؤلاء الخارجين عليه ما يدعوه إلى الرفق والإشفاق !

شدّ ما يحلو لنا فى فسحة الحياة وطمأنينة العيش أن نتلهى بالحديث عن المخطئين المتجوزين الذين يتعدون حدود العرف والقانون والأوضاع ، وأن نتعوذ منهم كل التعوذ ، وأن نرميهم بمرذول النعوت ، وما ينبغى لأحد منا أن يأذن لنفسه بهذه الجعجعة والاستطالة ، حتى يرى نفسه قد باشر تلك التجربة ، وأحاطت به تلك الملابسات ، لينظر : أمستطيع هو حقاً أن ينجو من سلطانها عليه ، فان كتبت له النجاة ، وتيسر له التماسك والتمنع ، كان فى حل من أن يندد بمن شاء من صرعى الخطايا والذنوب !

تبدو لنا باريس بعد أربعة أشهر ، كما هى باريس التى مررنا بها من قبل ، إلا فيما ندر من الظواهر . . .

ولعل مؤتمر السلام الذى اختار مقرّه فى باريس قد أعان على أن تظهر المدينة على نحو لا يخلو من بهاء !

فقد تكاثرت سيارات الأجرة ، وعمرت الأندية بالأجانب من أعضاء المؤتمر ومن إليهم من أعوان وصحفيين وزوار . . . فكنت تلمح فى باريس أطيافاً من روائها فى ماضيها البعيد !

وربما كان أوضح معالم باريس هو سوقها السوداء . . . ولكنها اسم على غير مسمى ؛ فقد احتلت كل مرافق الحياة ، وأصبحت هى السوق الحرة التى لا مناص منها لمن يشترى ويبيع !

هذه السوق السوداء تتغلغل فى كل شئ ، وتنشب أظفارها فى كل مكان ، حتى إنها لتسلل إلى مؤتمر السلام !

فى المجالس الرسمية سوق بيضاء تتناقل فيها الخطب والمشاورات وتتداول الآراء ، ولكن بخطا بطيئة لا تبلغ غاية ولا تصيب هدفاً . فالبضاعة فى تلك المجالس الرسمية قليلة تافهة ، والعملة نادرة ، ولكن خلف هذه السوق الحرة الجامدة سوقاً سوداء رائجة البضاعة ، متوافرة العملة ، تعقد فيها الصفقات الكبيرة من الاتفاقات والمحالفات والخطط والمكايد ، على حساب الشعوب التى ألقيت إليها كؤوس من خمر المبادئ الرفيعة والمثل الانسانية تظل بها ساهية لاهية !

ويوماً وقع بصرنا على صديقنا الحوذى المخمور ، وهو على عرشه المتزلزل وارم الأنف ، فسألناه جولة فى غابة بولونيا . . .

إنه هو هو فى دكتاتوريته الحمقاء ، يفرض الأجرة كما يشاء . . .

وراحت المركبة تكركر بنا فى الطريق . . .

لم ينل منجل الحرب من غاية بولونيا إلا قليلا قليلا . . . ولكن شتان ما بين الغابة أمس واليوم ! . . . كأنى بها طريحة المرض ، مجهودة الأنفاس ، يعودها الناس جموعاً وفرادى . . . وإن نظرة واحدة إلى وجوههم وسماتهم وهيئاتهم لتوحى إلينا بما يكابدونه من إقفار وإجداب وعبوس . . .

إنه حقا لعراك عنيف ذلك الذى يعتلج اليوم فى صدور أهل باريس . . . إنها لحرب أخرى أشد من الحرب الماضية هولا ، تشنها فرنسا على البؤس والفاقة والهزيمة !

ثمة ابتسامات تتخايل على الوجوه ، ولكنها ابتسامات مجتلبة مزوّرة تشف عن هموم وحسرات !

وبدأ صديقنا الحوذى المخمور يتحدث ، ويسترسل فى الحديث ، كأنه يناجى نفسه . . . وكنا على مقاعدنا وراءه نصغى . . .

كان يشكو ويتذمر ، وينتحل المعاذير من دكتاتوريته فى المغالاة فى

الأجور ، وكأنما يأخذ علينا استكثارنا لما فرض من أجر ، على حين أننا لم نساومه فى شئ ، ولم نبد أقل اعتراض !

إنه ليدافع عن نفسه ، معاتباً مرة ومغلظاً فى القول أخرى . . .

إن روح التمرد تشيع فى نفسه ، ولكن على أى شئ يتمرد ؟ أمن أجلنا وقد أذعنا لمطلبه ؟ إنه ليتسخط على الزمن ، على ذلك الغلاء المتمادى . . .

لقد استرسل فى الكلام جريئاً محتد اللهجة . . . إنه لقول جرئ وايم الله !

حسب ذلك المأفون أن عهد التحرر من ربقة الألمان راجع إليه بفيض من الخير غزير ، فروّعه ألا يتحقق من ذلك شئ . . .

إنه لا يتورع عن أن يترحم على ذلك العهد السابق البغيض . . . كان فى ذلك العهد يملأ كرشه ، ويحصل على النبيذ بثمن قليل ، فيطعم هنيئاً ، ويشرب مريئاً !

بهذا القول كان يثرثر ، والعهدة عليه ، أخزاه الله !

لقد كانت عربة الأجرة هى الوسيلة الأولى للانتقال فى باريس عصر الاحتلال ، وكان سائقها « سيد الموقف » غير منازع ، لم يكن أمامه منافس فى الميدان ، فراح يصول ويجول وقد خلا له الجو ، فكيف لا يتغنى بمغانم تلك الأيام ، وكيف لا يتبعها واسع الرحمات !

لم يكن الحوذى نفسه هو الذى يتكلم ويتندم ، وإنما كان بطنه الخاوى هو الذى يعوى !

انسرحت أفكر فيما يقول الرجل . . .

أهكذا تذوب الوطنية فى أتون الأحشاء المتوقد ؟

أهكذا تتحلل المثل العالية فى قِدْر الجوع هذا التحلل الزرى ؟

ليس البشر جميعاً قديسين وأصحاب مثل رفيعة ؛ فان الدنيا تموج بتلك الحشرات التى تعيش لتأكل حتى تنبعج البطون !

ومهما يكن من أمر ، فقى حديث هذا الرجل معنى يجب ألا يكون نصيبه منا الغفلة أو الإغفال . . .

ليس لنا أن نزدرى فلسفة البطون . . . إن اللقمة لها مكانتها المرموقة فى تاريخ البشرية ، وإنها لن تفقد هذه المكانة على مر الأحقاب والدهور !

إنى لأرى فلسفة البطون تتدسس إلى كل شئ ، و إنى لأراها تدفع بالأفراد كما تدفع بالشعوب !

ليس الجوع أو خوف الجوع وما يتفرع عنه من التشهى والنهم والجشع إلا المحراك الأول فى قيادة الأمم وسياسة الدول ، وقد تحولت تلك الكلمات فى معجم الساسة إلى كلمات « المجال الحيوى » و « المنافذ على البحار الدافئة » و « المواقع الاستراتيجية » و « حرية مسالك المياه » وما إليها . . . وتفسير هذه الكلمات الجديدة فى معجم الحقائق المستورة هو معدة طاوية خاوية تبحث عما يملؤها ، فان امتلأت اشتد كلبها وتطلبت المزيد ، وكأنما تخشى أن يعضها سعار الجوع من بعد ، فهى تتمادى فى الأكل لا فتور ولا ونى !

وقد أدرك بعض عقلاء الساسة أثر البطن فى حكم الشعوب ، فاستبدلوا بالحكمة التليدة : « جوع كلبك يتبعك » تلك الحكمة الجديدة « أشبع كلبك يحبك ! »

فالحاكم الحصيف الذى يريد أن يسيطر وأن يتأمر ويأمن الخروج والعصيان ، يتوخى دائماً إشباع البطون ؛ فالتخمة تورث الكسل والفتور والتبلد ، وليس بعد امتلاء البطون إلا الجمود والخمود ، فيخبو الذكاء ، وتتعطل الفطنة ، وتستحب الراحة والدعة والاستسلام . . .

لا طاقة لبطين على ثورة ، ولا صيحة لمتخم وخيم !

تركنا باريس لحوذيها يوازن بين الحرية والرغيف . . . !

وأقلتنا الطائرة إلى جنيف بعد طيران ساعة ونصف ساعة . . .

رحلة كان مقدراً لنا أن يقطعها بنا القطار فى عشر ساعات ، ولم يكن لنا بدٌّ من أن نمضيها وقوفاً فى ممرات القطار مرهقين بالزحام بين كومات من الأمتعة والأناسى ، لا نكاد نظفر بكسرة من خبز ، أو جرعة من ماء !

بورك فيك يا نسور الجوّ من خلق الإنسان ، و إن كانت عثراتك لا تقال !

محمود تيمور

روابط الطبيعة والتاريخ فى وادى النيل

حديث الوحدة فى وادى النيل حديث يمكن أن يطول ، دون أن يمل الكتابة فيه الكاتبون ، أو أن يمل القراءة فيه القارئون . وهو مما يمكن أن يتناوله الباحثون من نواح وجوانب متعددة ، منها الناحية القومية الخالصة ، ومنها الناحية السياسية العامة ؛ ثم منها الناحية الدراسية التى تبحث عن الوحدة فتردها إلى أصولها فى البيئة وفى التاريخ ، وتكشف عن مقوماتها فى الطبيعة وفى حياة الناس . وقد تناول الوحدة فى المدة الأخيرة كثير من الكتاب فى الصحف والمجلات ، وفى بعض الكتب والنشرات ؛ وعمد هؤلاء الكتاب فى أغلب الأحوال إلى استعراض الوحدة ومظاهرها العامة . أو إلى إبراز ضرورتها والحاجة إليها بالنسبة لأهل وادى النيل فى الجنوب وفى الشمال. ولكن هناك ناحية تستحق البحث والتمحيص وتستأهل الدراسة والعرض ؛ تلك التى تمس الوحدة من حيث أساسها الطبيعى الذى ترتكن إليه ، ومن حيث طابعها التاريخى الذى تتسم به . فالوحدة فى وادى النيل أمر طبيعى، قضت به ظروف البيئة منذ بدأ الانسان يستقر على جوانب النيل ؛ وهى إلى جانب ذلك قد سارت مع الزمن ، وخلدت روحها خلود التاريخ ؛ وماذلك كله إلا لأنها من نتاج بيئة فرضت على جماعات البشر أن تعيش متحدة على ضفاف النيل ، وأن تعمل متكانفة متساندة متكاملة ، وأن تستجيب لدوافع البيئة فى الوحدة على نحو لا نظير لمثله فى أى إقليم آخر من أقاليم الأرض . ولعلنا أن نستطيع فى هذا المقال أن نلم بطرف أو أطراف قليلة من مقومات هذه البيئة النيلية ، ومن مظاهر ماترتب عليها من وحدة بقيت لأرض النيل على مر العصور ، وستبقى — إن صدقت فراسة العلم ، وهى صادقة لامحالة — ماعاشت سلالات البشر على ضفاف النيل[1] .

---

(١) للكاتب مقال آخر تتناول فيه وحدة وادى النيل من جوانب أخرى غير ما يتناوله اليوم . أنظر « الكاتب المصرى » فبراير ١٩٤٦ .

وقد ينبغى أن نبدأ حديث الوحدة ونشأتها واستمرارها فى وادى النيل بأن نعرض لبعض المصطلحات والتعريفات الجغرافية التى جرت بها أقلام بعض الكتاب فى غير كفاية من الدقة ، والتى ترتب على عدم العناية بتكييفها وتحديد دلالاتها غير قليل من سوء الفهم . . . فالكتاب كثيراً مايخلطون بين لفظى « حوض النيل » و « وادى النيل » ، على حين يفرق الجغرافيون بينهما تفريقاً ظاهراً ؛ فهم يقصدون بالحوض مجموعة الأراضى التى تغذى النهر بمياه الأمطار التى تسقط عليها ، وتلك التى يغذيها النهر بمياهه الجارية . و إذا طبقت هذه القاعدة على نهر النيل فان حوضه يشمل الحبشة وهضبة البحيرات ، وهما تغذيانه بمياه الأمطار ، كما تشمل السودان ومصر ، وهما لا تغذيانه إلا بقدر محدود ولكنهما تتغذيان بمائه وتعتمدان عليه. أما وادى النيل فيقصد به ، فى عرف الجغرافيين ، تلك الجهات التى ترتبط فيها حياة السكان إرتباطاً مباشراً وقويا بل حيويا بمياه النهر ؛ ويتخذ الارتباط صوراً وأشكالا متباينة ؛ فقد يتمثل فى أن السكان يرتوون بمياه النهر ويسقون منه مزارعهم لانعدام المطر أو قلة كفايته فى فصل من السنة أو طوال العام ؛ وقد يتمثل فى اعتماد السكان ، إلى حد قريب أو بعيد ، على صيد الأسماك وحيوان الماء من مجرى النهر ؛ كما قد يتمثل فى استخدام النهر كطريق للملاحة وشريان للاتصال ، إلى غير ذلك من مصالح الحياة وحاجاتها المباشرة . و إذا نحن طبقنا هذه القاعدة على نهر النيل وجدنا الحبشة تخرج من واديه و إن دخلت فى حوضه . فأهالى الحبشة لا يعتمدون على النهر فى الاستقاء أو فى الرى أو صيد النهر أو الملاحة ؛ و إنما تتجمع جداول النهر وتجرى روافده فوق أرض الحبشة دون أن تمس حياة السكان فى شئ ظاهر ، والمياه تنحدر فيها سريعة وتجرى متدفقة فى فصل الأمطار ، ثم تكاد ألا يكون بها ماء فى فصل الجفاف . ولو أن تلك الروافد العليا انعدمت أو لم توجد فى الحبشة إطلاقاً ماتغير مجرى الحياة كثيراً فى تلك البلاد . وغاية ماحدث أن جريان الروافد الحبشية قد زاد من قيمة تلك الهضبة بالنسبة لبلاد أخرى تقع داخل نطاق « وادى النيل » . وكذلك الحال فى الهضبة الاستوائية و إن اختلفت عن الحبشة بعض الشئ . ففوق الهضبة الاستوائية بحيرات متسعة ، وفيها بعض المجارى الصالحة للملاحة أو لصيد الأسماك ، وفى بعض الجهات تتصل حياة

السكان إلى حد ما بالمسطحات المائية والأنهر الجارية ؛ ولكن الحال هنا تختلف اختلافاً ظاهراً عما يكون عليه الارتباط بالنهر فى أرض السودان ومصر حيث يعتمد على النهر فى الاستقاء فى فصل معين من السنة أو طوال العام ، ويعتمد عليه فى الرى والزراعة إلا فى جهات خاصة من السودان الجنوبى فى موسم الأمطار . ويعتمد عليه فى صيد النهر فى الجهات التى تقل فيها الزراعة كما هى الحال فى أراضى منطقة السدود وبحر الجبل والغزال ، كما يعتمد عليه فى الملاحة والاتصال وربط أجزاء الوادى بعضها ببعض فى مصر والسودان على حد سواء . ولو أن النيل لم يجر فى مصر والسودان ماقامت حضارة ولا مدنية فى سهولها التى يزداد بها الجفاف وتسود الصحارى كلما اتجهنا نحو الشمال . لذلك كله فان لفظ « وادى النيل » إنما يقصد به مصروالسود ان مع امتداد يسير نحو الهضبة الاستوائية .

هذا التعريف الجغرافى للفظى الحوض والوادى ضرورى لتحديد مانقصد « بوحدة وادى النيل » . فلقد حاول بعض الناس عن جهالة حيناً وعن قصد سيئ حيناً آخر أن يشوهوا هذه الوحدة ؛ فقالوا إن المطالبين بها لابد أن ينتهى بهم الأمر إلى إدخال الحبشة ضمن نطاقها ؛ وهذا ما لا يوائم الواقع ما دمنا نطالب بوحدة الوادى دون وحده الحوض . والحق أن المطالبة بوحدة الحوض لا تستقيم ومقتضيات الطبيعة التى وحدت بين مصر والسودان فى الاعتماد على النهر فى حياتهما الماضية وحياتهما الحاضرة والمستقبلة ، والتى فرقت بين الحبشة وبين ما دونها من أرض الوادى فى أن الحبشة لا تعتمد على النهر وإن كانت تغذيه . ولقد كانت استجابة أبناء الوادى فى مصر والسودان لدوافع الوحدة السياسية خلال تاريخهم الطويل مقصورة على واديهم فى نطاقه الطبيعى ، أما الحبشة فقد رد أبناء الوادى إليها الجميل فمدوا إليها يد التجارة والثقافة فى عصر قدماء المصريين أيام كانت الحبشة تؤلف جزءاً من بلاد بنت ، ثم مدوا إليها صلاتهم الروحية فى العهد المسيحى، عندما انتشرت ثقافة المسيح عليه السلام وديانته من مصر إلى بلاد الحبشة عن طريق البحر الأحمر وربما كانت أيضاً عن طريق وادى النيل والنوبة العليا . ولكن هذه الصلات جميعاً من تجارية وثقافية وروحية بين مصر والنوبة من جهة وبين الحبشة من جهة أخرى لم تنته فى يوم من الأيام إلى صلات سياسية

أو وحدة شعبية أو قومية ؛ لأن الطبيعة لم تكن تستلزم ذلك ، والحاجة لم تكن تمليه لا على « أبناء الوادى » ولا على « أبناء الهضبة » .

وقد كانت الحال غير ذلك فيما يختص بالسودان وصلاته بمصر . فما كانت مصر ولا السودان إلا شطرين متكاملين من إقليم واحد ترتبط حياته بنفس المصدر ويستقى روحه من نفس الينبوع . ولذلك فان الوحدة الحضارية وما تمثلت فيه من صلات تجارية ومادية ، ثم صلات ثقافية وروحية ، كان لابد أن تنتهى إلى الوحدة السياسية ؛ تلك التى بدأت فى مصر وامتدت نحو الجنوب حيناً ، وبدأت فى السودان وامتدت نحو الشمال حيناً آخر . وما دام الأمر كذلك فان وحدة وادى النيل فى الأعصر التاريخية ، وكذلك وحدته فى هذا العصر الذى نعيش فيه ، إنما يقصد بها تلك الوحدة الطبيعية والدائمة بين شطرى الوادى فى الشمال والجنوب ؛ وهى وحدة تقوم على المشاركة الطبيعية فى مصدر الحياة ، وتستند إلى هذا الوادى العظيم ونهره الذى لا يمكن أن تدب حياة أو موت فى أحد شطريه إلا سرت مع مياهه إلى الشطر الآخر .

وهناك مغالطة أخرى جرت بها بعض الأقلام فى الآونة الأخيرة ؛ فكتب بعض المغرضين أننا إذا طالبنا بالوحدة فى وادى النيل فانما ينبغى أن نطالب بها أيضاً فى أحواض بعض الأنهر الأخرى ، ومنها الدانوب على سبيل المثال. ولكن القياس هنا مع الفارق الكبير جدا ، حتى بالنسبة لمن يقنعون من الجغرافيا بالبسائط أو بالقشور . فليس فى حوض الدانوب كله إقليم يعتمد على مياه النهر فى رى النبات والزراعة إلى أى حد ملحوظ ؛ وماء الدانوب لا يبعث الحياة فى جوف بادية ولا ينفخ الروح فى قلب فلاة كما يفعل ماء النيل ؛ بل إن ماء الدانوب لا يصلح حتى لمجرد الاستقاء فى حالته الطبيعية كما يصلح ماء النيل ؛ وليس لنهر الدانوب من الناحية الجغرافية الخالصة « واد » حتى يمكن أن نتحدث فيه عن الوحدة . ولئن كانت مياهه تستخدم فى الملاحة فما ذلك لربط أجزائه بعضها ببعض بقدر ما هو لاستخدام النهر كطريق للوصول من داخلية القارة إلى البحر الأسود . وفوق ذلك كله فان حوض الدانوب ينقسم من الوجهة الطبيعية إلى ثلاثة أجزاء على الأقل ؛ فقسمه الأعلى جبلى له حياته الخاصة وتاريخه الخاص الذى يتصل بقلب أوربا الجبلى ؛ وقسمه الأوسط حوض قائم بذاته يقال له حوض المجر ، وهو حوض كان فى يوم من

الأيام يمتلئ كله بالماء ، ويؤلف بحيرة كبيرة ملأتها الرواسب المتدفقة من جهات مختلفة ، وتحيط بالحوض الجبال والمرتفعات من جميع الجهات تقريباً ماعدا بعض المنافذ . وقد كان لهذا الحوض تاريخه الخاص وقوامه المستقل من حيث الطبيعة ومن حيث السكان والسلالات التى تعيش فيه ؛ بل إنه لا يزال إلى اليوم يفصل مابين صقالبة الجنوب وصقالبة الشمال ، ويفصل مابين أهل البلقان وأهل داخلية أوربا الشرقية والوسطى . ثم إن هذا الحوض ينتهى من الشرق بما يعرف بالباب الحديدى ، وهو خانق طبيعى يفصل مابين الدانوب الأوسط وسهول رومانيا حيث يجرى الدانوب الأسفل فى مناطق تختلف فى حياتها وتاريخها وسكانها عن حوض المجر إلى أبعد الحدود ؛ وهذا هو القسم الثالث فى حوض الدانوب . فهذه الحالة التى نشاهدها فى نهر الدانوب تكشف لنا كيف تختلف الطبيعة ويتغاير السكان ويتميز التاريخ وتتباين السلالات وتتنافر الثقافات ، ولا تأتلف المصالح ولا الغايات إلا فيما يتصل باستخدام النهر كوسيلة للمواصلات والنفوذ إلى بحر مغلق تقريباً كالبحر الأسود . وتلك حال لا يمكن أن يسلم جغرافى ، ولا حتى دارس عادى منصف ، بأنها تشبه من قريب أو بعيد ما نشاهده فى وادى النيل .

من هذه التعاريف والمقارنات نخرج بأننا إذ نتحدث عن الوحدة فى وادى النيل فانما نتحدث عن وحدة طبيعية ، قضت بها ظروف البيئة ذاتها ، ولاسبيل إلى جحودها أو المكابرة فيها ؛ وإذا نحن حاولنا ذلك فلن نغير من الواقع شيئاً ولن ننال الحقيقة بشئ . فالله الذى خلق فأبدع قد رتب الأمور على أن ينبنى بعضها على بعض ، وأجرى النيل على أن تتصل فيه أجزاء الوادى بعضها ببعض . وليس للانسان إلا أن يسعى فى ربوع هذه الوحدة القائمة ؛ والتى يشاء الله ويأبى إلا أن تكون دائمة مادام نهر النيل .

وفى أرض وادى النيل ، أو فى أجزائه السفلى على الأقل ، بدأت جماعات البشر — لأول مرة فى تاريخ الانسانية — تتعلم كيف تعيش متحدة ، وكيف تعمل متكانفة . فهذا النهر العظيم كان يأتى بالفيضان فى كل سنة ، فيغمر الأرض ويعدها للزراعة . ولكن الاستفادة من المياه فى الرى كانت لا تتم ، ولايمكن أن تتيسر ، إلا إذا ضبط الجريان ، وقسم الوادى إلى حياض تحدها الجسور ، وتجرى بينها الترع والقنوات ، تحمل الماء من النهر إلى الحوض ، ثم تعود فترده

من الحوض إلى النهر بعد أن يكون قد أرسب ما فيه من طمى يغذى تربة الحوض ويعدها للزراعة . وهذا العمل الهندسى كان يقتضى فى حد ذاته أن توحد جهود الجماعة وأن تنظم ، حتى يمكن التحكم فى مياه النهر وتسخيرها فى صالح المجتمع . وبذلك فان نظام الزراعة الذى بدأ فى مصر قبل أن يبزغ فجر التاريخ قد علّم الناس الوحدة والتضامن الاجتماعى ، كما علمهم حسن النظام وحب التكافل . وفوق ذلك فان فيضان النهر نفسه كان مصدر خطر مشترك بالنسبة للسكان جميعاً سواء منهم من يعملون فى الزراعة ومن يشتغلون بغيرها من حرف الحياة . فتضافرت جموعهم ونظمت حشودهم واتحدت سواعدهم فى إقامة الجسور الكبرى على ضفاف النهر ، وفى حراستها إبان ارتفاع مياهه ، ثم فى إقامة كومات التراب العالية لتقام عليها القرى فوق مستوى الفيضان . وبذلك كله كان وادى النيل الأدنى مدرسة طبيعية هائلة تعلم فيها الانسان أن يعيش متكاتفاً مع أخيه الانسان ، وتعلم كيف يخدم الجماعة ويستجيب لدوافع النظام فيها ؛ فنشأت الحكومات محلية أولا ، ثم نشأت إقليمية فى الوجهين القبلى والبحرى بعد ذلك ، ثم اتحد الوجهان فى مرحلة لاحقة ؛ حتى إذا ما تم ذلك سرت روح الوحدة مع وادى النيل ومياه النهر نحو الجنوب ، كما يسرى الدم فى العروق والشرايين . وتخطت الوحدة إقليم النوبة الشمالية، وهو إقليم صعوبة يضيق فيه النهر ولا تتيسر الزراعة والاستقرار ، حتى بلغت إقليم دنقلا فاستقرت فيه استقرارها فى مصر ذاتها سواء بسواء . فظهرت هناك مدنية لم يكن غريباً ولا مستغرباً أن تشبه المدنية المصرية أو المدنية النيلية الشمالية فى كثير جدا من الأشياء ؛ لأنها كانت مثلها من ثمار ذلك النهرالعظيم. وامتدت اتصالات أبناء الوادى من مصر فى أول الأمر ، ثم من مصر ودنقلا بعد ذلك ، حتى شملت الوادى فى وسط السودان وجنوبه ، وانتشرت بعض معالم الحضارة والمدنية الشمالية إلى أطراف الجنوب .

ومع ذلك فلم يكن عهد الفراعنة أول عهد اتصلت فيه روابط الحضارة والتجارة والمدنية والثقافة بين أدنى النيل وأعلاه . وإنما سبق ذلك عهد طويل يعرف بعصر ماقبل التاريخ كانت الحضارة فيه لا تزال فى دور التكوين. ويقال إن معالم كثيرة من مدنية مصر الأولى ،أتت فى الأصل من ناحية الجنوب مع هجرات القبائل الأولى من ذلك الاتجاه ؛ كما أن مصر ردت دينها —

إن صح أن يعتبر ذلك ديناً — فنفخت من روحها وأنفذت كثيراً من معالم حضارتها السابقة للتاريخ حتى بلغت أعالى النيل فى السودان الجنوبى . ولعل هذا أن يكون من وراء مانعرف اليوم من تشابه غريب بين نظام القبائل وأحكامها ومعتقداتها وعاداتها ، بل فنها وموسيقاها ، فى بعض جهات النيل الأبيض وبحر الجبل والغزال بل الهضبة الاستوائية الشرقية ، وبين ما كان معروفاً فى مصر قبل أن يطلع التاريخ ، بل بعض ما كان معروفاً من مصر فى المراحل الأولى من العهد التاريخى .

ولقد استمر هذا الاتصال المتبادل بين مصر والسودان أو بين شطرى الوادى خلال أعصر التاريخ . وكان فى بعض الأحيان يقوم على أساس العطاء من جانب مصر والتلقى من جانب السودان ؛ كما كان يقوم أحياناً أخرى على عكس ذلك ، فتعلو يد الجنوب ويفيض على الشمال من خيره وبركته ويفئ عليه من قوته ووحدته . ولعلنا لا ينبغى لنا أن نجاوز العهد القديم والتاريخ القديم دون أن نشير إلى ظاهرة من تلك الظاهرات المباركة التى تعلّم فيها الجنوب عن الشمال ثم فاق الأخ المتعلم أخاه المعلم ، فوعى الدرس فى وقت نسيه فيه ابن الشمال ، واستجاب للوحدة فخرج أميره بفنحى ففتح مصر حتى أقصى الشمال ؛ ولم يقابله الشعب فى الشطر الشمالى للوادى مقابلة الغازى ، وإنما قابله مقابلة المحرر من ربقة غلبة أجنبية أو شبه أجنبية ،والمنقذ من انحلال داخلى . وفى أعقاب ذلك جاءت الأسرة الخامسة والعشرون وملوكها من دنقلا ؛ وقد حكموا الوادى فى الجنوب والشمال . فان دل ذلك على شئ فعلى أن الوحدة فى العهد القديم لم تقم بالضرورة على أساس الغلبة من جانب مصر ، وإنما كان الحاكم يأتى من أى إقليم تتركز فيه القوة ؛ ولم يجاوز توحيد دنقلا مع الشمال ما حدث قبل ذلك من توحيد الدلتا مع الصعيد . ولا يمكن أن يقال عن نفوذ قوات الوحدة من الجنوب إلى الشمال أو من الشمال إلى الجنوب فى أقاليم وطن كبير واحد ، إنها قوات فتح وغزو . ومايصدق على عهد الأسرة الخامسة والعشرين يصدق على غيره من العهود التى حاول فيها أبناء شطر من الوادى أن يمدوا وحدتهم إلى الشطر الآخر . وقد لا يزيد ما حدث من انتقال قوات الوحدة فى داخل نطاق هذا الوطن النيلى الكبير بين مصر والسودان على ما حدث من جهاد الموحدين فى أقطار وأوطان كثيرة من العالم

القديم ، وما تكرر مثله إبان توحيد كثير من الأمم فى عهدنا الذى نعيش فيه . ومع ذلك فليس لمؤرخ أن يقول عن تلك الحركات المحلية والقومية إنها حركات فتح وغزو وعدوان .

وإذا نحن انتقلنا من العهد الفرعونى وما سبقه إلى العهود اللاحقة لمسنا آثار جهود أبناء الوادى فى الوصل بين شطريه بروابط الثقافة والمدنية والحضارة مادية ومعنوية . ففى العهد المسيحى مثلا تلقت مصر ديانة المسيح عليه السلام من الشرق ، ولكنها عادت فنشرتها نحو الجنوب . وما كانت تملك بحكم الطبيعة أن تحبس لنفسها هذا النور الجديد من الفكر الدينى ؛ بل انتقلت المسيحية مع ماء النهر حتى استقرت فى إقليم دنقلا ومروى ؛ وانتشرت من النوبة فى اتجاه إرتريا ، ثم مع النيل الأزرق فى اتجاه سنار . واستمرت المسيحية هناك إلى أن جاء الاسلام ، بل حتى بعد انتشار الدين الجديد . ويقال إن الكنيسة النوبية الجنوبية بقيت على شئ من الكيان إلى القرن الخامس عشر الميلادى .

ومقدم الاسلام ذاته وانتشار العرب إلى شمال السودان ووسطه ، وتعميرهم تلك السهول المكشوفة ، إنما تقوم شاهداً آخر على ما بين أجزاء وادى النيل من صلة تاريخية وروحية مكينة . فالعرب لم يعبروا البحر الأحمر مباشرة إلى السودان ؛ والدين الجديد لم يبلغ السودان من الجزيرة العربية رأساً ، كما حدث فى حالة بعض الأقطار الأخرى . وإنما دارت قبائل العرب حول البحر الأحمر إلى برزخ السويس ، وبلغت مصر واستقرت بعض الوقت على جوانب الوادى ؛ ثم انتقلت نحو الجنوب وهاجرت على طول الوادى ؛ وكان ذلك حوالى القرن الثانى عشر الميلادى وما يليه . وبعد أن بلغ العرب أرض دنقلا انتشروا فى اتجاهات ثلاثة ؛ فذهب فريق منهم نحو شرق السودان ومنطقة كسلا ، وذهب فريق آخر نحو كردفان ودارفور وما وراءهما إلى منطقة واداى وتشاد ، واندفع فريق ثالث نحو أرض الجزيرة وبلاد الفنج . ولكن الشئ المهم أن مصر كانت طريق الثقافة والعمران إلى السودان ، وأن هؤلاء العرب الذين صبغوا السودان بصبغتهم العربية الحاضرة إنما أتوا عن طريق مصر . ولم يكن فى ذلك شئ من الغرابة ؛ فقد قضت الطبيعة منذ البداءة أن يشارك السودان مصر فى كل شئ حتى فى تلقى العناصر الجنسية وتلقى الثقافة والنور من الخارج . ومصر لم تكن لتستطيع أن تحبس عن السودان ما تملك أو

ما تستعير ؛ فهو منها وهى منه ، وهما جميعاً من النيل الذى يصل ولا يقطع و يربط ولا يحل ، ويقضى بأن يسير التاريخ فى الشمال وفى الجنوب على نهج موحد لا سبيل معه إلى انفراد ولا إلى انفصال .

ومع ذلك فقد يسائل القارئ : ولماذا وقفت موجة العرب ولم ينتشر الاسلام ليغمر السودان الجنوبى بنوره ، ولو عن طريق الاحتكاك الثقافى إذا لم يكن التوسع الجنسى سهلا وميسوراً ؟ والجواب على ذلك عند أهل التاريخ ؛ فانتشار السكان انتشاراً طبيعيا لا يقوم على الغزو والفتح القاهر يتطلب قروناً طويلة ؛ كما أن انتشار الثقافة ذاتها يتطلب مثابرة ومداومة ودفعاً دائباً وتغذية دائمة ؛ ولكن موجة التوسع العربى وانتشار الاسلام عن طريق التجارة والاتصال الثقافى أصيبت بصدمة عنيفة فى الشرق الأدنى عامة وفى مصر خاصة عندما دخلت جميعاً تحت سلطان الدولة العثمانية ، فحل الأتراك محل العرب ، ودخل الشرق فى ظلمة شاملة وخبا نور المدنية بل كاد مشعل الثقافة أن ينطفئ ، فانقطعت حركة العرب من أساسها وتوقف سيل الاسلام فى منبعه ، ودخل السودان كما دخلت مصر فى دور مظلم لم يستطع معه تيار المدنية والوحدة أن يتابع سيره فى السودان إلى حوض الجبل والغزال ؛ واستمرت الحال على ذلك حتى جاء العهد الحديث .

وفى هذا العهد تجددت الحياة فى وادى النيل ، وجاء محمد على فبعث الوحدة والنهضة فى أرض مصر التى خرجت إلى المدنية وأخذت بأسبابها فى سرعة عجيبة . ولكن الشئ الطريف أن هذه النهضة المصرية لم تستطع ، وما كان لها أن تستطيع ، أن تنطوى على نفسها فى أدنى الأرض . فطبيعة الأشياء كانت تقضى دواماً بأن تسير الحياة مع النهر . وما يصيب مصر من نهضة لا بد أن يمتد إلى السودان . فذهب محمد على وذهبت معه مصر تتلمس تلك الوحدة الشاملة التى رسم الله حدودها مع حدود « وادى النيل » . ولم يسر أبناء الشمال مع النيل الأزرق والعطبرة إلى الحبشة ، و إنما ساروا مع النيل الأبيض إلى حوض الجبل والغزال ومشارف الهضبة الاستوائية ، وذلك كله طريق الحق الذى رسمته يد الله حين قضت أن ترتبط أجزاء وادى النيل ، وأن تبقى الوحدة السياسية فى حدود « الوادى » لا تتعداه إلى « الحوض » بمعناه الأوسع الأعم . والشئ الطريف أيضاً أن السودان قبل عهد محمد على كانت تعمره قبائل كثيرة متنافرة

متخاصمة ، لا تربطها حكومة مركزية موحدة ، ولا يسود أراضيها نظام إدارى موحد أو متقارب ؛ و إنما كان الانحلال السياسى قد أصاب السودان إلى حد أبعد مما أصاب مصر ذاتها أيام المماليك ؛ ولم تكن هناك حكومة ذات حجم معقول فى أى جزء من أجزائه غير أرض الفنج على النيل الأزرق وبعض جهات محدودة فى الشرق وفى الغرب . ومع ذلك كله فسرعان ما استجاب السودان لدافع الوحدة وداعيها ، كما استجابت مصر من قبل ، وانتهى الأمر بأن اتحدت أرض النيل مما أشاع النهضة فى أرجائها وأعاد للوادى بعض مجده التليد . وعندما أتم محمد على وخلفاؤه توحيد ربوع السودان مع مصر صار التاج رباط الوحدة المقدسة بين شطرى هذا الوطن العظيم ؛ بل صار رمز الوحدة ورمز النهضة فى وادى النيل من أقصاه إلى أقصاه . ومع ذلك فقد شاءت الأقدار أن يعيد التاريخ نفسه ؛ فبعد أن وصل أبناء النيل إلى مشارف خط الاستواء ، امتدت يد الشر والاستعمار إلى الشرق الأدنى من جديد ، وسقطت مصر فريسة فى يد من لا يرحم ولا يدع رحمة الله تهبط بالخير على الأرض أو تجرى بالقربى بين الناس ؛ وانقطع حبل الحياة بين الشمال والجنوب ، وخبا نور المدنية ، وكاد مشعل الثقافة ينطفئ من جديد ؛ فكانت القطيعة بين مصر والسودان ، ودخل الجنوب فى عهد من الفوضى والتقاطع يسأل عنهما أولئك الذين تسببوا فى القطيعة وشطروا الوادى شطرين ، ثم حاولوا أن يربطوا بينهما ربطاً مظهريا لا يمس الجوهر كما ينبغى أن يمس ، ولا يصل الحياة كما ينبغى أن توصل .

تلك قصة وادى النيل والحياة فى وادى النيل . قصة نهر أمر الله ماءه يجرى بين الجنوب والشمال ، وهدى الله أهله فاستجابوا لنعمته فى الخير ولبوا نداءه فى الوحدة ؛ وقصة حياة اتصلت فى الشمال منذ أقدم العصور وامتدت إلى الجنوب فأخذت عنه وأعطته واتصلت بينها وبينه أسباب الآخذ وأسباب العطاء فى غير منٍّ ولا تقتير ؛ فأخرج الله للناس فى التاريخ أمة وادى النيل ، عريقة كأعرق ما تكون الأمم ، مجيدة كأمجد ما تكون الشعوب . وتلقّى العالم عن هذا الوادى السعيد كيف يعيش الانسان متكاملا مع أخيه الانسان ، وكيف تتضافر الجهود فتجعل من هذا الوطن الأكمل كنانة الله فى أرضه . ولئن كان قد أتى حين ، أو أتت أحيان ، من الدهر انقطع فيها حبل التاريخ

وبدت وحدة الأمة كأنها قد قطعت أو تبددت ، فما كان ذلك إلا أمراً طارئاً موقوتاً تسبب فيه طغيان أتانا من الخارج أو انحلال أصابنا فى الداخل ؛ ولكن مصر . . . بل أستغفر الله . . . ولكن أرض النيل جميعاً كانت قادرة دائما على أن تجدد التاريخ ، قديرة دائما على أن تعيد بناء الوحدة ، تلك التى أنعم الله بها على أبناء النيل فى واديهم الخالد ؛ بل تلك التى رسمتها الطبيعة وأمر بها الله . . . وإذا كانت أرض النيل قد استطاعت أن تجدد وحدتها وأن تستعيد مجدها مرات ومرات خلال تاريخنا الحافل الطويل ، فما أحراها أن تفعل ذلك وأن تستعيده فى مستقبلنا القريب !

وما خاب منا من آمن بأن ما رسمته يد الله فلن تمحوه يد الانسان وإن طغى !

سليمان حزين

قبل السفر

دعاءَكِ إنى للدعاء لَسائلُ ... دعاءَكِ أضعافاً فإنِّىَ راحلُ

تعودتُ هذا منكِ فى كل خطوةٍ ... فكيف وسَيْرى مُبْعِدٌ متطاول

وأحْوجُ حىٍّ للدعاء مُغَرِّبٌ ... وحيدٌ ، كسيرُ القلب ، أرملُ ثاكل

دعاؤكِ أبغيه وإن كنتِ مَيْتةً ... رهينةَ رمس غيرَ أنىَ آمل

دعاؤك يا زوجى الحبيبة فى الثرى ... أحسّ به يغزو الثرى ويحاول

يُصَعِّد من تحت الجنادل عارماً ... قَوِىٌّ الصدى تنْمَدُّ منهُ الجنادل

وما أبتغى منكِ الدعاءَ لِطائلٍ ... فما لدعاءٍ بعد فَقْدِيكِ طائل

ولكننى عوّدتُ منك شمائلاً ... وما زلتُ تحدونى إليك الشمائل

برغمىَ أنْ تبْقَىْ بأرضى ، وأننى ... لأرضكِ وحدى نحو قومكِ راحل

عبد الرحمن صدقى

LES ORIGINES PROCHAINES DE L'EXISTENTIALISME
LA PHILOSOPHIE DE NIETZSCHE

ROGER ARNALDEZ

الأصول القريبة للوجودية *

فلسفة نيتشه

فلسفة نيتشه ناشئة عن فلسفة شوبنهاور التى كانت تجعل من الإرادة قوام العالم . ولكن على حين ينتهى شوبنهاور بفلسفته إلى تشاؤم ميتافيزيقى عميق ، فان نيتشة يعكس القيمة وينتهى، إن لم يكن إلى التفاؤل، فعلى الأقل إلى مذهب تأكيد وقوة يناقض المذهب الخلقى المؤسس على الشفقة والميل إلى الاضمحلال اللذين تتميز بهما آثار سابقه .

فقد كان شوبنهاور يعتبر الإرادة قوة عمياء لتقرير الذات تدرك غايتها بأن تبعث فى مجموع الأفراد الذين تتألف منهم الطبيعة رغبة فى الحياة لا تقل عن تلك الإرادة عمىً ومجافاة للعقل . وهذه الرغبة فى الحياة تظهر عن طريق الشهوات والأمانى التى تقلق الكائنات والإنسان بصفة خاصة . والتى تثير بينها العداوة فتدفعها إلى أن يبيد بعضها بعضًا فى سبيل البقاء . فالإنسان باعتباره فرداً يحاول أن يحافظ على نفسه وعلى نوعه ، تخدعه إرادته فتحمله على أن يعمل فى سبيلها وحدها . ومن ثم يستسلم للآلم . وليس من مخرج أمامه إلا فى أن يبيد رغباته بهدم نفسه ، أو فى أن يلغيها عن طريق الزهد الذى يفضى به إلى أن يترفع عن كائنه الفردى حتى يصل عن طريق التأمل الذى يعتمد على الخلق أو الجمال ، إلى إدراك الواقع الفريد غير المتجزئ الذى يؤلف العالم والذى يفنى الإنسان فيه .

وعن هذا الأساس يصدر تفكير نيتشه .

فالإرادة عنده ، ما سيطلق عليه اسم « إرادة القوة » ، هى مايقوم عليه

---

* هذا المقال كتب خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

العالم . والوجود فى نظره ليس خضوعاً سلبيا لهذه الحياة كأنما منحناها منحاً ، وليس هو استمتاعاً بها ، وليس هو أن نقبلها كأنما نحن إناء لها فتشيع فينا ، إنما الوجود هو إرادة الوجود ، هو تأكيد الذات . وقد أخذنا ابتداء من هذه المسألة نتبين اختلافاً جوهريا بينه وبين شوبنهاور الذى كان يعتبر الإرادة ، قوة طبيعية ، يعتبرها ماهية القوة ومادة محركة دافعة .

أما عند نيتشه فالارادة على العكس من ذلك ليست إلا فعلا حرًّا ، قراراً حازماً ، أو إذا أردنا أن نستعير عبارة قديمة فهى فعل خالص . وهى تشبه من بعض الوجوه حركة برجسون الخالصة من حيث إنها لا تحتاج إلى دافع أو محرك ، أى لا تحتاج إلى جوهر سابق لها يحققها . هنا تبدو وجودية نيتشه . ولكى نتبين طبيعتها على وجهها الصحيح سنفحص عن كثب هذه المقارنة التى استعرناها من برجسون .

الفكرة المتداولة عن الحركة تحمل قبل كل شئ على متحرك ينتقل ،ولكنه قبل أن يتحرك وُجد فى حالة سكون . مثال ذلك : عربة كانت ساكنة فى بادئ الأمر ثم أخذت تتحرك . فهذه الفكرة المتداولة تقوم إذن على أن الحركة رهينة بالمتحرك . و إذا كان المتحرك فى أول الأمر ساكناً فنحن منتهون إذن إلى أن نكوّن الحركة من السكون ، ابتداء من السكون . وهذا مايجيز مفارقات زينون فى إنكار الحركة .

لذلك يضع برجسون نظرية حدسية ، من الصعب جدًّا إدراكها ، عن حركة بدون دافع ، عن حركة تنفى كل سكون ، ولا تكون إلا حركة واندفاعاً ونشاطاً ، وهى الحركة الخالصة .

كذلك الأمر بالضبط فيما يتعلق بفكرة الفعل الخالص من حيث إمكان تطبيقها على الفعل الإرادى عند نيتشه . فالأفكار المتداولة تبحث وراء كل فعل عن فاعل له ، وراء كل تأكيد عن شخص مريد يوجد قبله دون أن يكون استعمل إرادته . ومن ثم كان من الصعب أن يفهم الظهور الفاجئ لهذا الأمر « كُنْ » Fiat الذى هو قوام الحركة الفعالة أى القرار أثناء اتخاذه . وكان يراد إيجاد حركة من السكون ، والآن يراد إحداث فعل إرادى مبتدئاً من ماهية سابقة له أو من جوهر موجود قبله لا تكون الإرادة إلا إحدى صفاتهما أو تلحقهما بطريقة سلبية . أما نيتشه فيذهب إلى عكس ذلك . ورغبة

منه فى تجنب هذا الأمر المحال فانه يفترض إرادة قائمة وفاعلة باستمرار، أى إن قوام وجودها اتخاذ قرارات ، فهو يوحِّد بين الفاعل والفعل الإرادى فلا يوجد فاعل خارج هذا الفعل ومتميز عنه ، بل يوجد هذا الفاعل وينشئ نفسه من طريق هذا الفعل .

وهذا التعديل الجوهرى فى وجهة نظر شوبنهاور عن فكرة الإرادة نفسها حمل نيتشه إلى إلغاء الأساس الذى بنى عليه أستاذه مذهبه فى التشاؤم . فلا يوجد فرد كالمتحرك تحركه الإرادة ويخضع بتأثير هذا الدفع لجميع ألوان الآلام السلبية .

وقد يخيل إلى الإنسان العادى بلا شك أنه لعبة فى أيدى أقدار تتجاوزه ، وأنه سلبي بحت ومدفوع فى شهواته بقوى تستولى عليه فى أعماق نفسه، ولكنه لا يستطيع أن يلائم بينه وبينها ملاءمة كلية تامة ، لأن آلامه تقوم بينها وبينه .

ومهما يكن من شئ فان فى فلسفة كل من نيتشه وشوبنهاور كائناً يضحَّى به فى سبيل الشقاء والألم . ولكن هذا الكائن عند أحدهما هو الفرد ، على حين هو عند الآخر الرجل العادى الذى يملك القوة التى تسمح له بأن يؤكد ذاته باعتباره فرداً . أو بعبارة أخرى يلتمس شوبنهاور العلاج للحالة الانسانية فيما دون الفردية ، فى التأمل المتصوف، فى الوحيد الفريد غير المنقسم ، على حين يلتمسه نيتشه فيما فوق الفردية ، فى القوة التى تكفل لذات الفرد الإنسانى وآلامه ، فى الفعل الإرادى ، فهذا الفعل وحده هو الواقع الحقيقى . وهذا الذى يريد هذه اللذات وهذه الآلام ويقرها ويضعها فى المستوى الأرقى للحقيقة الخالصة ، دون غشاء ودون إيهام . وقصارى القول يلتمس نيتشه هذا العلاج فى الانسان الأعلى .

فوجودية نيتشه أساسها إذن الاستبعاد المطلق لأى كائن يسبق وجوده الافعال ، وفى هذا — كما يظهر — هدم للنظرية الفلسفية القديمة ، نظرية الموضوع . فليس الإنسان موضوعاً لأفعاله ، كما أنه حين يفعل لا يأتى بشئ من شأنه أن يحسّن أو يزين طبيعته الشخصية . فليس هذا الانسان إلا ما فعل، وليس وجوده إلا عن طريق فعله ، يصبح هذا أو ذاك بفضل أفعاله . وهو لا يجمع صفات قد يزيد ثراؤه باقتنائها ، بل يتحول تحولا مطلقاً فى كل فعل من أفعاله ، يختلف عن نفسه فى كل مرة باختلاف أفعاله فيما بينها ، أى إنه غير

متأثر بالصفات والقيم الانتقالية التى يتقلدها وهو عابر ؛ لأنه سواء عليه أن يكون هذا أو ذاك ، وسواء عليه إذن ما تضفى عليه أفعاله . فالشئ الوحيد الجدير بالاعتبار دون غيره من الأشياء هو القوة التى تعلن عن نفسها فى كل فعل ، أو التأكيد الذى تشتمل عليه هذه القوة .

ومن ثم ينكر نيتشه بعنف كل حساب أو تدبير يواصل الإنسان بهما تقدير ما يربح وما يخسر من نتيجة أفعاله ؛ فالرجل الذى يتصوره نيتشه يناقض من جميع الوجوه الرجل المدبر الحكيم الذى يتولى إدارة روحه وثروته الروحية كما يتولى إدارة منزله ومزارعه ساعياً وراء الإنتاج والادخار . فنيتشه يرى أن الإخفاق النهائى الذى لحق بنابليون خير ألف مرة من نجاح الأعمال لرجل بورجوازى فى عصر جيزو .

فالإخفاق والنجاح لا تقدرها مباشرة قيمة العمل ؛ لأنه كثيراً ما تحقق التفاهة أغراضها لأن هذه الأغراض نفسها تافهة فهى فى متناول من يجعل منها غايته ، على حين يخفق غالباً أصحاب النفوس السامية ذات الأهداف الرفيعة الواسعة تلك التى لا ترمى إلى تحقيق أغراض فى مستوى أقدارها ، بل فى المستوى الذى تريد أن تبلغه هى . ولكن الذى يجب أن يحسب لأصحاب هذه النفوس فى حياتهم هو أنهم أرادوا أن يكونوا عظاماً ، لأن حياتهم فى الواقع لن تقوّم إلا بهذه الإرادة . والعظمة إذا اشترط فيها أن تكون تتويجاً لأمر يستر وراءه إرادة مطمئنة مستريحة فى المجد ، فلن تكون إذن إلا أحقر ألوان الزهو والغرور .

فلنحذر إذن العجب بأنفسنا . ويستعيد نيتشه الفكرة القديمة السابقة على سقراط عن الحركة العالية التى تسلب اللحظة الحاضرة كل واقعية . فما نستطيع الإعجاب به فى أنفسنا ، وما يجعلنا نباهى به حين نقول : إنا كذا وكذا ، ليس من كياننا الحالى فى شئ ، إنما هو ماض ميت متجمد مدفون . وإذا وقفنا لنمجد أنفسنا ، فلن نجد من أسباب للتمجيد إلا القيمة الميتة . ولن نستطيع إدراك القيمة الحقيقية إلا فيما يؤلف الحياة أثناء حركتها ، فيما من شأنه وحده أن يرفع من قيمتها ، وهو الفعل الإرادى .

وكل تفكير فى الذات خطأ يغض من قدر الانسان ، وتصوره أسطورة أورفيوس أبلغ تصوير . ينبغى دائماً أن نسير قدماً دون أن نلتفت إلى وراء ، وإلا فقدنا طلسم الحياة . والفلسفة التى تعكس الذات وتقيم الآلهة

الباطلة الزائفة وهى الماهيات الدائمة والجواهر والطبائع ، هذه الفلسفة مقضى عليها بلا رجوع .

نستطيع حينئذ أن نفهم المعنى العميق لمذهب قلب القيم ولمذهب الموجدة . فاذا عرض مذهب نيتشه الخلقى على أنه رفض لذلك الحسد الدنئ الذى يضمره ضعفاء هذا العالم للأقوياء ، وعلى رد الحقوق الطبيعية المقررة للأرستقراطية الإنسانية إلى أهلها . فقد هذا المذهب ما يرمى إليه من معنى ميتافيزيقى ، واقتصرنا بذلك على المظاهر الخارجية التى يرمز إليها .

ورسالة نيتشه ذات أفق فلسفى لا يقل اتساعه عن أفق الرسالة المسيحية التى تريد أن تهدمها وتقوم مقامها . فان فكرة الإنسان الأعلى تقوم مقام فكرة القديس . والانحدار إلى الانسانية البسيطة ، وهو نتيجة لهذا الزهو الباطل الذى يدفع الانسان إلى العجب بنفسه ومن ثم إلى الانصراف إلى نفسه أى إلى رجل خيالى ميت والتحول عن الاندفاع العظيم الذى يؤلف كنه الحياة ، هذا الانحدار شبيه من جميع الوجوه بانحدار آدم وزلته؛ فالانسان خاطئ إذن ، وهو مجرم يحد من موج الحياة ، بل يذهب إلى وقف هذا الموج فى نفسه وهو يبسط يداً آثمة إلى هذه القيمة الرفيعة التى كان ينبغى أن يخدمها وأن يبرزها جلية واضحة فى أفعاله الارادية . وهو هارب من الحياة كما يهرب الجندى من الجيش . فى حين أن الانسان الأعلى هو المؤمن الوفى الذى يواجه واجب الحياة المحتم ، وهو القادر على أن يلتزم دون حساب أو تدبير ، ودون أمل فى الجزاء ، لمجرد حب الحياة .

ومن ثم فالانسان الأعلى لايخضع للتردد المبتذل بين التفاؤل والتشاؤم . فهو لا يتوقع شيئاً من نتيجة أعماله . ولا يخضع للتردد المبتذل بين الخير والشر، فليس من أمر يذعن له إلا ذلك الذى يدفعه إلى أن يريد أن يحيا حياة كاملة . وهو إذ يختار هذا الاتجاه يصير المصدر الوحيد لكل القيم لأن اختياره ينفى قيام كل سلطة خارجية . وأخيراً لا يخضع للتردد المبتذل بين اللذة والألم ؛ فان كلا من هاتين الحالتين النفسيتين ، يمكن على حد سواء أن يستعمل كضخم للحياة من طريق قوته وعنفه ، فان الألم واللذة يتصلان فى حالاتهما القصوى وينتهيان إلى شعور حيوى قد أثير فى عنف شديد ، ولا تعارض بينهما ؛ فان عدم امكان الملاءمة بينهما لا يبدو إلا حين يظهران فى مظهرهما العادى المألوف .

مذهب نيتشه إذن مذهب بطولة . على أنه يحق لنا أن نسائل هنا : ألا يكشف هذا المذهب عن الوجودية الخالصة ، وذلك حين يدرج تحت اسم الحياة لوناً من ألوان الطبيعة لا يختلف عن الماهيات الكلاسيكية إلا فى قوة اندفاعه المطلقة ؟ فالحياة عند نيتشه هى الحياة البيولوجية ، تلك التى يدرسها العالم وعلى وجه خاص صاحب مذهب التطور . أو ليست تلك الفكرة البيولوجية فكرة مشتركة شاملة (إذا كان لنا أن نستعير عبارة سبينوزا) أى إن من شأنها أن تلائم كثرة من الكائنات ؟ والإنسان الأعلى الذى يقبل الحياة أيخلص لقيم تختلف عن تلك التى يخلص لها إنسان أعلى آخر غيره ؟ وبعبارة أخرى ألا يكون مذهب نيتشه الخلقى عاجزاً فى نهاية الأمر عن أن يبين ما ينبغى أن يكون للفعل الإرادى من مميزات خاصة ، ومن خواص تميزه كل التميز من غيره ؟ وهذا المذهب الخلقى البطولى ألا ينتهى إلى مذهب خلقى عام يخضع إذنِ لما وجهه كيركجارد من نقد إلى الأبطال وأمثالهم ؟

هذا الانحراف للوجودية عند نيتشه مرده إلى نفوره من كل لون من ألوان الضعف ، و إلى ما ورثه عن شوبنهاور . فقد ظن أن الأمراض والعاهات تنمى فى الانسان هذه الموجدة على الأصحاء المزدهرين الذين ضرب لنا سارتر مثلا عنهم فى كتابه « التأجيل » *Le Sursis* . فقد عرض علينا مريضاً فى مصحة يبتهج لوقوع الحرب لأنها ستصيب « الواقفين على أقدامهم » . ومهما يكن من أمر الموجدة التى يقول بها نيتشه والتى نقدها ماكس شيلر ، فان الشئ الذى لم يتنبه إليه نيتشه هو أن كثيراً ما تقوم فى المريض إرادة قوية فى طلب الحياة بحيث نستطيع أن نقول إن الحياة التى يحتفظ بها هذا المريض إنما هى أثر من آثار إرادته . وهذه حالة من الحالات التى كان يمكن اعتبارها تطبيقاً خالصاً لمذهب نيتشه ، والتى تحملنا على أن ندهش من أن ميل هذا الفيلسوف للقوة الجسمية وللحم والدم قد دفعه إلى إهمالها و إلى اعتبار أن الفعل الإرادى لا يعدو أن يكون انفجار حياة بلغت من الشدة والعنف مبلغاً كبيراً . على حين كان يجب عليه لو أنه بقى أميناً للوجودية أن يتبين على العكس من ذلك أن الحياة تعتمد على الفعل الإرادى وأنها رهينة به ، وأن الإنسان خالق ما فى نفسه من بشرية . ولكن لو أنه اتبع هذا الطريق لانتهى حتما إلى النتائج التى ذكرها شيلر فى كتابه « رجل الموجدة »

أى لاضطر إلى أن يعترف ببعض القيم الخلقية التى كان ينكرها : مثل الإذعان والتواضع والشفقة الخ . . . تلك القيم التى توصف بالقيم المسيحية والتى ذكرها الإنجيل . وبعبارة أدق فإن خطأ نيتشه يقوم فى اعتقاده أن الفعل الارادى لا يمكن أن يكون قويا عنيفاً إلا إذا اتجه فى الاتجاه الذى تمليه مقتضيات الحياة البيولوجية . وقد كان محقا حين قرر أن قيمة هذا العقل لاتقاس بالنتيجة التى يظفر بها صاحبه نجاحاً كانت أو إخفاقاً . ولكنه لم يواصل جهده ولم يتعمقه حين رغب فى تكييف الارادة باعتبارها عملا داخليا ؛ لأنه استمر يقيسها بعنصر خارجى عنها وهو الميل الطبيعى للحياة البيولوجية . فليست الحياة هى التى يجب أن تحدد للارادة اتجاه مراكز تطبيقاتها ، إنما الارادة هى التى يجب على العكس أن تحدد معنى الحياة وتبين اتجاهها . فالناسك الذى يزهد فى كل اللذات الحسية والشعورية ، والذى يتجه إذن عكس التيار الطبيعى للغرائز الفسيولوجية يوجه هو أيضاً حياته اتجاهاً خاصا ، ولكنه ليس الاتجاه المحدود الأفق الذى يستفاد من المعنى البيولوجى للحياة ، بل هو اتجاه أبعد مدى على أساس من الحياة الإنسانية أكثر سعة ، وقوة فعله الارادى يمكن أن تكون عظيمة ، بل هى فى الواقع عظيمة .

وقد يرجع موقف نيتشه أيضاً إلى مبدأ تفكيره فى مذهب شوبنهاور . فان هذا الفيلسوف يرى فى الكون قوة أساسية وهى الارادة التى تبدو فى مختلف الكائنات على شكل إرادة الحياة . والانسان إذ يتلقى فرديًّا هذه الغريزة العمياء التى تدفعه إلى المحافظة على الحياة وإلى إذاعتها ينخدع بإرادته انخداعاً يكون مصدر آلامه . وكأن نيتشه لم يزد على قبول التحدى مع احتفاظه بكل القضية . فان الانسان الأعلى هو الذى يعرف كيف يقر ما فى نفسه من إرادة فى الحياة ، فيتخذ هذه الارادة لحسابه ويستجيب للحياة . ولكن ينشأ عن ذلك أن إرادة الحياة أى القوة الحيوية لها بعض التقدم ، وأن الفعل الارادى لا يمكن ممارسته إلا فى سبيلها . فلا يمكن والحالة هذه أن نتصور رفض الارادة للحياة . والرجل الذى يصدر عنه هذا الرفض يعتبر فى رأى نيتشه رجلا ضعيفاً عاجزاً عن مواجهة الحياة وعن ابتلاء لذّاتها وآلامها ، لا ثائراً قويا يستطيع أن يوجد لنفسه حياة أخرى شخصية قوية ، وذلك بأن يقاوم ما فى الاتجاهات الحيوية العضوية من

دفع . وإلى هذا بالضبط يلجأ مكر الضعفاء ؛ فقد سموا قوةً هذه المقاومة الروحية التى ليست فى الواقع إلا وهماً باطلا . ولا شك فى أن هناك ألواناً من العزلة المعنوية لا تُخفى تحت ستارها إلا جبناً ، لا سيما إذا قصرت نفسها على مواقف روحية . ولكن لا ينبغى أن نخلط بينها وبين النضال الفكرى الحقيقى الذى تنكشف نتائجه فى الحياة كلها والذى يؤثر فى جميع ألوان السلوك بل فى أشدها اصطباغاً بالمادية . وعدم الاكتراث بالعالم والتسلل من مشكلات الحياة الواقعية يستحقان اللوم من غير شك . ولكن الرفض فى مثل هذه المواقف ، رفض متهرب يختلف كل الاختلاف عن الرفض الايجابى الذى تواجه به أحياناً مقتضيات الحياة الطبيعية .

هذه هى المبادئ الجوهرية المميزة لمذهب نيتشه بما تشتمل عليه من قيمة ومن مأخذ . والآن إذا استعرضنا النظريات الهامة التى شهرت فلسفة نيتشه استطعنا أن نربطها فى يسر بالأصول الأساسية وأن ندرك معناها الدقيق .

لا شك أن من المميزات الأساسية التى اتسمت بها المذاهب الفلسفية فى القرن التاسع عشر ميلها إلى التاريخ وإلى الاعتبارات المتصلة بالتطور . فالزمن بالقياس إلى هِجل هو الوسيلة التى يتجلى الفكر من طريقها والتى بفضلها ينشئ هذا الفكر نفسه فى مظاهره المتوالية . أما نيتشه فمن جراء تفكيره فى الفعل الارادى وعلى أثر الاتجاه البيولوجى الذى اتخذه هذا التفكير ، قد أنكر بشدة فكرة النضج المتصل للكائن الانسانى خلال العصور التاريخية المختلفة . فقد كتب فى مؤلفه « نظرات غير عصرية » ما يأتى : « من الجائز أن يعيش الكائن دون ذكرى تقريباً ، بل أن يعيش سعيداً ، والحيوان دليل واضح على ذلك . ولكن يستحيل عليه إطلاقاً أن يعيش دون نسيان . ولأوضح فكرتى فى شكل أقرب إلى السهولة أقول إن هناك حدًّا من الأرق والتذكر والحاسة التاريخية يلحق الأذى بالكائن الحى ويؤدى به إلى الهلاك سواء كان الأمر متعلقاً بانسان أو بشعب أو بثقافة » .

والمسئول عن هذا الانحطاط هو الفكر Geist فالفكر نصيب الضعفاء ، يجعلهم أبرع Klüger من غيرهم ، ويسمح لهم بخداع الأقوياء . ويقول نيتشه بهذا الصدد فى كتابه « أصيل الأصنام » : « أعنى بالفكر التدبر

والصبر والمكر والمداورة والسيطرة الكبيرة على الذات وكل ما هو محاكاة وتقليد » . يتضح لنا من ذلك كل أوجه الاتصال بين الفكر والزمن . فالتدبر والصبر وألوان الترتيب التى يجب أن تعتمد على الحساب والتدبير وسنوح الفرصة ، كل ذلك لا يتأتى دون مدة زمنية . وذلك لأن الضعيف الذى يشعر بالثقة فى نفسه محتاج إلى اتخاذ كل هذا الاحتراس ، إلى بناء كل هذه الأسوار التى يحيط بها نفسه وهى احتياطاته وحيله ومكايده . وتفكير الضعيف هو أن الزمن سيضنى القوى ، سيضنى قوة القوى التى يستعملها هذا القوى فى غير حذر ، على حين يستخدم هو الزمن لإقامة سور يقاومه به على مر الزمن . والعبارة الشهيرة « الزمن يعمل فى مصلحتنا » تتخذ هنا كل قيمتها ومغزاها .

وبعبارة أخرى يستخدم الزمن والتاريخ فى تحقيق السلطات « الزمنية » وفى جمع الأموال والثروة . والضعيف آخر الأمر هو الذى يتاح له من جمع المال والحلف ما يتقوم بهما ويعتمد عليهما. أما إذا اعتزل ولم تبق له إلا نفسه فلا يمكن تصور وجوده حتى فى نظره هو . وقد كتب رابليه : « جمع المال من خصال الوضعاء » . أما الانسان الأعلى الذى ينادى به نيتشه ، الإنسان النبيل فيرتفع عن هذه الفتنة . فالنضال الذى تقوم به إرادته يخلو من كل طمع فى الغنيمة . والخطأ الجسيم الذى يؤخذ على داروين أنه أسس نظريته على مبدأ « الكفاح من أجل الحياة » . ونحن نقرأ فى « أصيل الأصنام » : « يخيل إلىّ أن قضية « الكفاح من أجل الحياة » الشهيرة تبدو فى الوقت الحاضر مفترضة أكثر منها مثبتة.هذا الكفاح نصادفه ولكن على أنه حالة استثنائية . فالحياة لا تلوح فى مجموعها فى مظهر عوز ومجاعة ، إنما تلوح فى مظهر ثراء وفيض بل فى مظهر إسراف وتبذير . وحيث يقع النزاع يقع فى سبيل السلطة . . . ينبغى ألا نخلط بين مالتوس وبين الطبيعة . » ويتضح لنا هنا التنافر بين أسلوبين من التفكير متعارضين تعارضاً مطلقاً : أسلوب التفكير الانجليزى وأسلوب التفكير الألمانى . وينكر نيتشه فى اشمئزاز التفاؤل الأنجلوسكسونى الساذج السخيف الذى يعتقد أن التطور يحتفظ عن طريق الانتقال بأكثر الأجناس البشرية والأفراد تسلحاً للحياة . فالتطور والتاريخ وموضوعهما السوقة يحتفظان بما يؤلف هذه السوقة ، أى هذا القطيع الضخم من الضعفاء . ونظرية

داروين عن التطور تعتبر فى الواقع تقهقراً . فليس التاريخ إلا سلسلة من انحطاط طويل الأمد أهم مراحله هى إسرائيل والمسيحية والاشتراكية . ويقول نيتشه فى كتابه « إرادة القوة » : « أشد ما يلفتنى حين أُلقى نظرى إلى مآل الرجال هو أنى أرى فيه دائماً عكس ما يراه داروين وأتباعه أو ما يريدون أن يروه حين يقولون بتخير الأقوى وخير منتجات النوع وبتطور هذا النوع . ومانلمسه عن طريق التجربة نقيض ذلك تماماً ، وهو انزواء النجاح وعدم الحاجة إلى النماذج العليا الممتازة وتسلط النماذج المتوسطة بل الأقل من المتوسطة تسلطاً لا مفر منه . »

ولو أننا أردنا أن نلخص هذا الموقف اللاتاريخى المطلق الذى يقفه نيتشه لـكان أوضح سبيل إلى ذلك هذه الفقرة من كتابه « نظرات غير عصرية » : « اللاتاريخية شبيهة بطبقة من الهواء المحيطة التى فيها وحدها تتولد الحياة » . ولا ريب أن الانسان ليس غريباً عن التاريخ ؛ فان له تاريخه الخاص ، ولـكنه تاريخ عليه أن يصنعه هو . ونقرأ فى نفس المؤلف : « حق أن الانسان لا يصبح إنساناً . . . إلا بقوته على أن يستعمل الماضى ليجعل منه حياة ، وعلى أن يستخرج من الماضى ما يعمل فيه التاريخ **Geschichte** من جديد ولـكن إذا أسرف الإنسان فى التأريخ **Historie** حرم الوجود والـكيان » . واضح إذن الآن أن التاريخ الذى يرفضه نيتشه ليس إلا ذلك الذى يدعى إنتاج الانسان وانشاء القيم الانسانية . ولـكن نيتشه يحتفظ بالتاريخ إذا حمل على أنه الملـكة التى تـكون للأعمال اللازمنية فى استعادة ماض بأكمله تتولاه هذه الأعمال فتبعثه من جديد وقد تحول وزاد ثراؤه . فحياتنا لا تمتد فى التاريخ ولا تخط أثرها الفردى فى تاريخ عام ، ولـكنها توجد التاريخ بأن تقرر نفسها فى كل لحظة ، عن طريق استئناف كامل خارج الزمن وبالقدر الذى ترضى فيه أن توافق على الماضى ، أو على ماض معين هو الذى تختاره مع بقائها حرة فى اختيارها . حياتنا ليست إذن مرتبطة بالتاريخ على الإطلاق ؛ « فالتاريخ فى خدمة الحياة بالقدر الذى يكون فيه فى خدمة سلطة لاتاريخية » (المرجع السابق) . وهذه السلطة هى الارادة فى فعلها الخالص .

وكما رفض نيتشه واقعية جوهر سابق الوجود يكون موضوعاً لأعمالنا ، كذلك رفض واقعية التاريخ إذا اعتبر الأساس العام لرغباتنا وأفكارنا وحاجاتنا

ونياتنا ، ينبغى أن يخضع التاريخ للفعل الذى لولاه لهوى فى النسيان . ولكل إنسان تاريخ إن أراد ذلك . ولكن يجوز أن يريده بارادة ضعيفة ، يريده ليعتمد عليه فيخضع له بمجرد أن يكون أوجده . والذى ينبغى أن يكون هو أن يريد الانسان هذا التاريخ بإرادة قوية ليجعل منه أداة يستخدمها سلطانه .

ونظرية الرجعة الدائمة تبين بوضوح أننا لا نستطيع أن نقدم التاريخ على أنه تطور وتقدم وسعى إلى الأمام نحو مثل أعلى علينا إدراكه ، نحو نموذج للوجود علينا تحقيقه . وإذا نظرنا إليه خلال الانسان الأعلى فهو لا يعدو أن يكون مجموعة متوالية غير خاضعة للعقل والمنطق من المفاجآت التى تسقط على العالم فى الزمن القائم كأنها الصواعق ، وتترك أثرها فيه . وما من عنصر من عناصر الاستمرار يجدر أن يكون موضع اعتبار ، وليس ثمة مانع للصواعق يستطيع أن يوجه البرق فى اتجاه معين قد دبر من قبل . وعبثا يحاول المتبصرون أن يجمعوا كل الأحداث التى يحتال تبصرهم فى إدراكها فيوحدوا اتجاهها فى زمن مستمر غير منقطع لا فراغ فيه ولا اصطدام متحد الوتيرة ، أو إذا اختلف نسقه فلا يكون إلا اختلافاً طفيفاً . وعبثاً يحاولون أن يقنعوا أنفسهم أنه لا توجد مستحدثات مطلقة ، وأنهم باستمرار نزلاء مطمئنون فى عالم واحد أعدته لهم منذ الآن عناية إلهية وجهزته لهم فى سبيل تحقيق رفاهيتهم على أكمل الوجوه . ويأتى « السادة بالطبع » فيدخلون الاضطراب على كل شئ ، ويمنعون الضعفاء من مواصلة حلمهم فى الحياة التافهة . ونقرأ فى « أنساب الأخلاق » هذه الفقرة الرهيبة « . . . ذلك الذى جعلت الطبيعة منه سيداً ، ذلك الذى يظهر قويا فى أعماله وفى آثاره ، ماذا تهمه المعاهدات ؟ لا يمكن أن تدخل مثل تلك العناصر فى الحسبان ولا يمكن توقعها ، فهى تصل مثل الأقدار دون سبب ودون علة ، دون مراعاة ودون حجة . هى تلم فى سرعة البرق . . . »

على أن القوى السيد الذى حين يقارن بقطيع الضعفاء يختلف عنه كل الاختلاف إلى حد أنه لا يمكن أنه يكون منه حتى موضع بغض ، هذا القوى لا يخلو إلى نفسه مع ذلك فى عزلة مطلقة . حق أنه رجل العزلة وأنه يقيم « حيث تهب ريح صرصر عاتية » (زارادشت) . ويتجه الفكر إلى فينى حين يقول : « جعلتمونى أشيب قويا ومنعزلا » ، ينبغى أن نعرف كيف نخلو إلى أنفسنا ، ومما يتميز به الانسان الأعلى أنه يستطيع احتمال العزلة . ونجد هنا

شيئاً من روح باسكال لا سيما فى هذه الملاحظة : « اتضح لى شيئاً فشيئاً ما فى تكويننا وتربيتنا من نقص عام . فقد تبينت أن كيفية احتمال العزلة لا يتعلمها أحد ، ولايبحث عنها أحد » (فجر) . والعزلة هى دائماً القفر المروع الذى تقرر فيه جميع الأفعال . لأننا مهما استشرنا من إخصائيين ومهما فحصنا من أمثلة وسابقات فانه يأتى وقت نبقى فيه معتزلين دون أن نجد سبيلا حتى إلى مناجاة أنفسنا . إنما نحن فى حالة توتر تام لنقول نعم أو لا ، هاتين الكلمتين الفاصلتين . وأملنا فى النجاح وثقتنا بأن اختيارنا سديد لا يمكن فى هذه اللحظة الدقيقة أن يحتفظا بأية قيمة ؛ لأننا فى هذه اللحظة بالذات نقامر عليهما ونقامر فيهما . هنالك لا نستطيع أن نعتمد على شئ أو على أحد . ففى العزلة تنكشف مواقف التردد : « فهناك مواقف تردد قاسية مريرة ، وقليل من يملك من الشجاعة والقوة الخلقية ما يسمح له بمواجهتها ؛ فقد تكون راكباً من ركاب سفينة ، وتستكشف أن ربان السفينة والنوتى يخطئان أخطاء خطيرة ، وأنك متفوق عليهما فى فن الملاحة ، فتسائل نفسك حينئذ : لم لاتثير السَّفْر عليهما فتلقى بهما فى أعماق السجن ؟ ألا يلزمك تفوقك بذلك ؟ ولكن أليس من حقهما هما من ناحيتهما أن يسجناك لأنك تفسد ما يجب لها من الطاعة ؟ هذا رمز لمواقف أخرى أرفع شأناً وأشد قسوة يرد فيها دائماً نفس السؤال آخر الأمر وهو : حين تعرض مثل تلك الحالات فيم يمنحنا تفوقنا ثقة بأنفسنا ؟ » (فجر) . فوجه التردد بالقياس إليك يكون إذن بين أحد أمرين فتسائل : هل أخضع للقوانين العامة ؟ هل أحترم النظام المقرر؟ أم هل أتبع القانون الذى يمليه تفوقى أى القانون الذى تمليه قوتى ؟ ولكنك إذا شعرت بالتفوق فى نفسك واجترأت على أن توجه إلى نفسك هذا السؤال ، فإنك بذلك وحده تعتزل غيرك وتضع نفسك خارج المركز العام ، خارج القواعد الخلقية « الأخلاق هى غريزة القطيع بادية فى الفرد » (العرفان المرح) .

بقى إذن أن نعرف كيف نحتمل هذه العزلة وكيف نخوض غمار أمر لا فى سبيل غاية أو لادراك نجاح ، بل لمجرد امتحان القوة . وكل رجل فى ظرف من ظروف حياته يعرف العزلة والتردد بين موقفين ، وقليل من يعرف كيف يواجه مثل تلك المواقف أو من يستطيع ذلك . ولكن الذين يقوون على ذلك ، أولئك يجهلون ماعسى أن يكون « الخطأ ، أو التبعة ، أو المراعاة » (أنساب

الأخلاق) . « وقوام عملهم أن ينشئوا أشكالا مدفوعين فى ذلك بفطرتهم ، وأن يتركوا آثاراً عميقة . . . تسود فيهم هذه الأثرة الرهيبة ، أثرة الفنان ذى النظر الشديد القسوة » (المؤلف السابق) ، هم أثرون ، ولكن أثرتهم ليس مصدرها انعطافهم على أنفسهم وتمجيدهم لذاتهم ، هم أثرون مثل القوى التى تجهل غيرها من القوى ، إلا حين يقتضى الأمر هدمها . وعزلتهم تجعل منهم كائنات مطلقة . تجعل منهم كائنات مطلقة أو آلهة لا تنزل عن عزلتها ، ولكنها مع ذلك تحدث فى العالم لمجرد حضورها الفعال تعديلات عميقة الأثر ، لا سيما فى مواطن الضعفاء . فالحضور المستكبر المزدرى للانسان الأعلى ، حضوره « الغائب » سينزع القطيع من سعادته البليدة التافهة التى تشبه سعادة الأنعام ، إذ يوجد فيه ضمير السوء . « نعم يا صاحبى أنت ضمير السوء فى نظر أقربائك لأنهم ليسوا خليقين بك » (كذلك تحدث زارادشت) .

حينئذ يقوم الانسان الأعلى بدور مماثل لدور الرقابة التى يقول بها فرويد ، فهو يكبح فى الضعيف كل الحركات التى من شأنها بسط الذات ولا سيما غريزة الحرية . « لاينبت فيهم (الأقوياء) . . . ضمير السوء ، ولكن لولاهم لما ظهر هذا النبات الشنيع ولما وجد ؛ فإنه بسبب طغيان طبيعتهم الفنية ، وعلى أثر ضربات مطارقهم ، اختفت من العالم كمية هائلة من الحرية ، أو على الأقل اختفت عن الأعين مضطرة إلى أن تنتقل إلى حالة قوة مضمرة . غريزة الحرية هذه التى أصبحت فى حالة مضمرة على أثر القهر ، والتى اضطرت إلى الانكماش والارتداد ، و إلى الانزواء فى الداخل ، وهى لم يبق لها مجال تمارس فيه إلا داخل نفسها ، هذه الغريزة ، هذه الغريزة وحدها (ولم نلبث أن تنبهنا إلى ذلك) كانت فى مبدأ ضمير السوء . » ينقسم الانسان على نفسه ويفقد وحدة قوته الحيوية ، ولن يصل بعد ذلك إلى أن يطابق بينه وبين نفسه . ولايقتصر السادة على شن الحرب على الرقيق ، بل يوجدون النزاع والشقاق فى قلوب هؤلاء الرقيق أنفسهم . وضمير السوء هذا الذى يشبه إلى حد بعيد سوء النية التى يذكرها سارتر والتى تزيف الواقع الانسانى فى أساسه والتى تعتبر مصدر الموجدة والتبديل المطلق للقيم ليس إلا الضمير المنعكس الذى يضبط به الانسان اندفاع التيار الحيوى ، ولعله أن يكون الضمير نفسه ولا يزيد عليه شيئاً .

ابتداء من ذلك الوقت لن يسكن الانسان آثاره ، فسيقوم دائماً فاصل بينها وبينه ، وهو فاصل التفكير الذى صدرت عنه هذه الآثار ، فاصل الرجوع إلى الوراء الذى يتخذ للحكم عليها والتحقق منها أهى مطابقة مطابقةً تامة للغوض الذى فكر فيه الذهن طويلا . فان كل أثر خارجى لن يكون الا إمتداداً لأثر داخلى يواصله الانسان فيما بينه وبين نفسه وعلى نفسه . هذا الأثر الداخلى الذى يشكّل به صورته ويعذّب نفسه ، لأنه أصبح هو نفسه الموضوع الذى تمارس عليه سلطته المرتدة التى لا تستطيع أن تنمو نموًّا طبيعيا فى الخارج . والشئ الذى يحل محل الحياة فيصبح موضع الاعتبار فى رأيه هو الحياة الداخلية المشتملة على مثل أعلى للطهر والتسلل من الحياة الواقعة ، ولكنه فى الحق مثل أعلى للفرار والجبن . هذا الموقف الناشئ عن إرادة فاسدة عديمة الحيوية تنشئ هى أيضاً « قيما » ، ولكنها قيم خيالية معكوسة ليس لها أى طابع مطلق ولا تظهر إلا فى هذا الشقاق الداخلى ، فى التعارض بين الانسان وبين نفسه ، والتناقض بينه وبينها . وكل هذه القيم الجديدة لا توجد إلا على أنها مثل أعلى شاحب سلبى يرتسم على ظهر القيم الحقيقية التى تطرح فى الظلام والتى تسمى فى هذه المناسبات : الشر والقبح . وهى قيم احتجاجية ليست شيئاً فى ذاتها ، ولم تكن لتصير شيئاً لو لم تجد أمامها الحق الذى تحتج عليه . وهذا مصدر الاضداد المتقابلة التى تتألف منها الأخلاق : الخير والشر ، الجمال والقبح ، العدل والظلم الخ . . . والانسان إذ يعجز عن إقرار الحياة ينقسم بين واقعيتها المادية التى ينبذها مدفوعاً فى ذلك بالزهد والاشمئزاز ، وبين مثل أعلى لا يحققه ولكنه وهمٌ حيوى يعينه على احتمال مابقى من حياته التعسة .

أما السادة فيعرفون كيف ينتزعون أنفسهم من هذا المثل الأعلى الوهمى. « وحين يعمل الفكر بجد وحزم وأمانة يستغنى إطلاقاً عن مثل أعلى . والعبارة الشائعة التى تطلق على هذا الاستغناء هى « الالحاد » (أنساب الأخلاق). فليس الالحاد إلا الحرية المطلقة التى تترك للانسان فى عزلته حتى دون أن يبقى له العزاء فى أن يواجه نفسه ؛ لأنه لا يجد فى نفسه أية صورة من صور الإله حتى يطمئن لها و يرضى عنها . وهى عزلة فاجعة ! عزلة الرياح العاتية العنيفة ! ولكن هذا الالحاد هو بالضبط الذى « نتنفس مرتاحين فى جوه

نحن أصحاب الأفكار الروحية لهذا العصر » . ويضيف أيضاً : « إنه الكارثة التى يحتمها ضغط قوى على غريزة الصدق لأكثر من ألفى عام ، مما دفع هذه الغريزة فى نهاية الأمر إلى أن تحرم على نفسها كذب الايمان بالإله » (المؤلف السابق) .

وسواء بحث الانسان عن مثل أعلى خيالى ، أم استكشف فجأة بطلان هذا المثل الأعلى ووهمه ، فانه فى كلتا الحالين يبين عن رغبة أكيدة تصر على معرفة الحق . على أننا نشهد خلال القرون آثار هذه الرغبة وكأنها ريح تعصف بكل شئ ، فتهدم على التوالى العالم السخيف للآلهة الباطلة الزائفة التى يكون الانسان أوجدها لا لشئ إلا ليوهم نفسه أن فى هذه الآلهة الكنف والسند والهدى . « مات الاله » بهذا يتنبأ زارادشت . والرغبة فى الحق لها هى أيضاً زهدها ومثلها الأعلى فى الطهر . وهى تنتهى إلى عالم أجوف يصبح الميدان الواسع لسلطان الأقوياء . لأن الرغبة فى الحق لا تنتهى فى الواقع إلى أمر يستكشف ، أو إلى شئ يكون موضع حب أو تأمل ، أو إلى حل يأتى بالراحة والاطمئنان فى آخر الأمر ، أو إلى ضمان نهائى للانسان الراحل المتجول . هى لا تؤدى إلا إلى مشكلة أبدية . وشعور الانسان أنه لا يوجد شئ بالاضافة إليه إلا هذه المشكلة وهى معرفته أيستجيب للحياة أم يرفضها ، دون سبب ودون نصيحة ، هذا الشعور هو الذى يعتبر فى نهاية الأمر الواقع الانسانى الوحيد وأساس المغزى الذى سنطلقه أحراراً على وجودنا ، وهو لن يكون إلا معنى شخصيا مقصورا علينا . والانسان لا يعدو أن يكون كائناً ، ويعتبر هو نفسه مشكلة بالقياس إلى نفسه .

هذه النتيجة التى تظهر فيها بجلاء وجودية نيتشه من شأنها أن تذيع الفزع فى النفوس الضعيفة الوجلة . ولم يظهر مذهب قرأه الانسان فى مثل هذا الحرمان وهذه العزلة ، فلا تبقى له بعد ذلك إلا إرادته . ولنلاحظ أن هذه الإرادة ليست بحال من الأحوال شيئاً أو حالا ، إنما هى تؤول إلى فعل ينبغى أن يجرؤ الانسان على الاقدام عليه وعلى المجازفة فيه . والخطوط الأساسية التى تؤلف هذا المذهب فيما يتصل بالوجودية قوامها معارضة فكرة الجوهر وفكرة الحقائق الأبدية ، واستخدام حرية مطلقة تظهر عن طريق إرادة القوة .

وقد لا تكون وجودية نيتشه هذه مطابقة لكل فلسفته ؛ فان نيتشه

الذى عبر دائماً عن أفكاره عن طريق الاستعارات والأمثال لم يضع مذهبا مقرراً ، بل هو العدو اللدود للمذهب المقرر الذى يبدو فى أجلى صورة فى آثار هجل صاحب الرأى المناقض للوجودية مناقضة مطلقة . ومن ثم يمكن أن نجد خلال مجموعة آراء نيتشه أقوالا كثيرة نستطيع أن نصور بها مظهراً آخر من مظاهر هذا الفيلسوف . ولكن لم يكن غرضنا فى هذا المقال أن ندرس فلسفته دراسة تاريخية،وأن نعرضها فى جملتها عرضاً دقيقاً . إنما أردنا أن نبين أن فى آثار نيتشه مجموعة من السمات المتصلة التى تعتبر بلا شك أدلة على قيام فكرة وجودية فيها .

هذا المظهر من مظاهر الوجودية الذى يمثله نيتشه والذى نلقاه عند سارتر هو المظهر الملحد . وحين ندرس كيركجارد فى مقال تال سنفحص المظهر الآخر الذى يعتمد فى أساسه على التجربة الدينية ، والذى على الرغم من هذا الاختلاف الجوهرى يعرض أفكاراً مماثلة قد نقلت إلى أفق آخر ، ولكنها ملازمة حتما لكل فكرة وجودية ولا يمكن فصلها عنها .

روجيه ارنالديز

نقلها عن الفرنسية توفيق شحاته

شعرى الضائع

لستُ أدرى أينَ ضاعتْ هذه الأشعارُ منى
قلمٌ سَطَّرَ يوماً بعضَ أوهامٍ وَظنٍّ
وتخيّلتُ الذى سَطَّر (م) فنًّا أىّ فنٍّ
ثم محّتْه الليالى وهى تستضحكُ منى
بعضُ أشعارىَ ضاعتْ وهى يوماً ضيَّعتنى

ربما كانت دموعًا ولكم تَنثر عينى
ربما كانت رُؤًى بلـ ـهاءَ قد طافتْ بذهنى
ربما كانت كأحلا مى التى لم تُغنِ عنى
حبَبٌ طافَ بكأسى عندما كنتُ أغنىّ
وتلاشى مسرعاً من قبـ ـل أن تأخذَ منىّ
بعضُ أشعارىَ ضاعتْ وهى يوماً ضيَّعتنى

طائرٌ غَرّدَ يوماً بأهازيجٍ ولحنِ
فثنَى غُصنى إليه آهِ مِنْ هذا التثنى
ها فقد طار بعيداً وصداه عندَ أذنى
أىّ غصنٍ هو فيه لستُ أدرى أىّ غصن ؟
بعضُ أشعارى ضاعتْ وهى يوماً ضيَّعتنى

إنها خفقاتُ قلبي إنها لمحاتُ عيني
إنها أحلام نومي هلْ يعيها كلّ ذهن ؟
إنها فيما يظن النا سُ منْ هذا التجني
خطرتْ منْ غير إذن ونأتْ منْ غير إذن
بعضُ أشعاريَ ضاعتْ وهي يوماً ضيَّعتني

كلٌّ ما فيها ظنونٌ ذهبتْ مع بعض ظني
كيف أسترجع ما يضـ ـنى فؤادى ويُعنى؟
كيف أسترجعُ لحناً ضاعَ من صوت المغنّ ؟
كيف أسترجع طيفاً مَرّ فيما بين جفني؟
بعضُ أشعاريَ ضاعتْ وهي يوماً ضيَّعتني

أيها القلبُ ابقَ لى أنـ ـتَ فشرْيانُك دَنِّى
أنتَ كأسى وشرابى ونداماىَ وخِدْنى
كلُّ نبضٍ فيك لحنٌ يُخلد النفسَ ويُفنى
فيك أحلامٌ كثارٌ ورُؤًى يعشقنَ فنّى
كلُّ ما فى الكون تعبـ ـيرٌ عن الألفاظ يُغنى
بعدها لستُ أُبالى أىُّ شعرٍ ضاعَ منى
بعضُ أشعاريَ ضاعتْ وهي يوماً ضيَّعتني

محمد عبده عزام

أم العواجز

سبحان الذى وسع ملكه الخلق كله ، ولا اعتراض على حكمه . فلا أبتغى هنا إلا أن أروى قصة إبراهيم أبو خليل وهو يهبط درجات الحياة : كورق الشجر فى الخريف ، قد ترفعها الرياح قليلا ، ولكنها — حتى فى ارتفاعها — تنطق بالهبوط المكتوب عليها رويداً رويداً إلى أن تتوسد الثرى وتدوسها الأقدام . شهدته وهو ينزل آخر درجات السلم ، وقد علمت فيما بعد أنه يتيم وتلطم فى صغره (ولا أدرى أهو حضرى ، أم ريفى ، واعتقادى أنه من أولاد البلد) . واستفتح شقاءه بالخدمة فى المنازل ، ثم إذا به بائع ترمس على عربة يد صفت عليها قلل قناوية ، زينت حلوقها بالورد والريحان . وقد سمعت أنه فى بعد ذلك دكاناً صغيراً للعطارة ، ثم ارتد بائعاً متجولا كل بضاعته دبابيس و إبر مواقد الغاز ومشابك الغسيل يقفز بها من ترام إلى ترام . وفى حياته فترات متقطعة لم يصلنى خبرها ، وأغلب ظنى أنه ذاق لتشرده أحياناً لسعة الأسفلت فى قوه ميدان .

وكان قبل أن أعرفه بقليل يحتل فى الميدان ركن الرصيف الثالث المواجه لدكان التركى بائع الحلاوة الطحينية ، يجلس وأمامه « مشنة » فيها فجل وجرجير وكراث ، لا يزيد نداؤه عن قوله « الفجل ورور ، الجرجير العال » . لاينطق وجهه بأثر ما يدل على هذه العهود التى تقلب فيها ، وهذه المهن التى ظلت تركله واحدة بعد أخرى . فهؤلاء الناس يتقبلون الحياة كما هى ، لكل نهار قسمته ، وكل يوم ينقضى يموت — مثلهم — بلا تركة ، هم يدخلون الحلبة وقد مات إحساسهم : — أمن الجهل مات أم من البلادة أم من القناعة والرضا — فلا تطرف أعينهم للكلمات المنهالة عليهم . ولكن يجدر بك ألا تسارع إلى الحكم عليه فقد تكون ظالماً له ؛ فانك لو عرفته مثلى لوجدته رجلا سليم الطوية أنيساً مهذب اللفظ كريماً . ورغم ما يبذله من جهد ليتصيد لقمته ويقيم

أوده فان قلبه لا يعرف الحسد ولا الضغينة . تنبئك عيناه االلتان خيمت عليهما السحابات إن فى قلبه ميلا دفيناً إلى الفكاهة والدعابة ، وتأسرك نظرته لأن الابتسامة فيهـا تتملص من حجاب أثر حجاب ، فكأنك تشهد تصويراً سينمائيا بطيئاً لابتسامة العين كيف تكون . وكان إذا رفع وجهه إلىَّ ظلل عينيه بكفه ، فيخيل إلىّ أن العالم قد تضاءل إلى هذا الإطار الذى انفردنا فيه نحن الاثنين ، وأن حديثه مسارة خافتة فى خلوة .

يحتل أبو خليل مكانه المعهود قبل الظهر بقليـل ، فاذا جاء العصر ، حين تفرغ أو تـكاد « مشنة » النهار ، قام وسار متثاقلا كعادته ، وأخذ يجول فى الميدان و يمر على كثير ين من أصحاب الدكاكين ، ويتريث عند هذا أو عند ذاك ، فيسألونه عن حاله ، ويسألهم عن حالهم ، وبعضهم يتندر معه ، ويضاحكه . وكان له صديق يشترى منه رغيفاً يحشوه بالطعمية ويدسه تحت إبطه ، وصديق آخر يشترى منه أرخص السجائر ويضعها فى علبة من الصفيح فوق حزامه بين جسده وثوبه ، ثم يترك أصدقاءه إلى رصيف المسجد ليتنسم الهواء — كما يقول — وليتعرف على الوارد فى ذلك اليوم . فاذا بلى جديد ما يراه عاد إلى مكانه وجلس وبسمل وأكل غذاءه ، حتى إذا فرغ منه قبل يده ظهراً وبطناً وحمد الله ، وهيأ لجسده جلسة مسترخية وأشعل سيجارة يدخنها بلذة كبيرة ، فهو صاحب مزاج . . . ثم يختفى عن الميدان ولا يعود إلا قبيل الغروب ومعه « مشنة » المساء . أما عشاؤه فرغيف وقطعة من الحلاوة الطحينية يشتريها من جاره البحرى ثم يذوب من الميدان حين يخلو من المارة . ولا أدرى أين ينام . ولكنى سمعت أنه يشارك امرأة عجوزاً مقعدة هتماء فى حصيرة فى حجرة صغيرة تحت حنية سلم فى آخر زقاق فى نهاية الدحديرة . هل تزوج ؟ هل له أولاد ؟ هل له أقارب ؟ لست أدرى . إننى أحب أبا خليل فلا أريد أن أتحدث هنا عما سمعته عن علاقته العجيبة (ولابراهيم قلب شفيق) بتلك العجوز المقعدة المضنة ، ولا أريد أيضاً أن أتحدث عن خيانته لها بين الحين والحين إذا ما فتح الله عليه ، فى تل قريب من السيدة ، فلا أعلم أن نفسى تعاف شيئاً كما تعاف التحدث عن هذا الحى وأهله .

وذات يوم مشرق صاف ، أقبل أبو خليل على مكانه المعهود من الرصيف

فوجد الركن الآخر قد احتلته امرأة حولها ثلاثة صبية ، وعلى صدرها رضيع كأنما يشرب من صدرها خمراً فهو مغمض العينين نشوان لا يفيق ، والطامة الكبرى أنها جلست أمام « مشنة » مملوءة بالفجل والجرجير والكراث . ولما بدأت تنادى « زرع العصارى يا فجل ، الحزمة بمليم » ارتفع لها صوت مجلجل فى الميدان . يا فتاح يا عليم ! وجلس أبو خليل لحظة وهو صامت يرقبها ، ثم تنهد وانصرف عنها ، وأخذ ينادى هو أيضاً على بضاعته ، وحاول أن يرفع صوته فوق صوتها فلم يستطع وأخذته نوبة من السعال . أراد أن يكلمها ويسألها من أين أتت ولماذا وقع اختيارها على هذا المكان بعينه ، ولكنها لم تأبه له ، ولم ترد عليه . تبيع بيد ، وتفرق صبيانها بيد ، وتنقل بثنى ركبتها طفلها المخمور من ثدى إلى ثدى ، ثم تتحرك كالقعدة نحو قلتها فيتعرى فخذها قليلا . ولكن هيهات ! إن قلب أبى خليل ثائر لا يهش لها . لعلها إغارة مفاجئة ستنقشع غمتها فى الصباح . . .

ولكنه وجدها فى الصباح التالى أيضاً كالرصد أمامه ، وأخذ يتلفت إلى وجهها وإلى المارة وإلى جيرانه ، ويقوم ويقعد ، ويترك « مشنته » ويذهب يروى لأصدقائه هذا الخبر الداهم ، ثم يعود فاذا صوتها يجلجل فى الميدان كأنما تنادى على معشرها فى يوم الحشر العصيب .

واشترى أبو خليل فى تلك الأيام بدل العشر خمس سجائر .

انتهت حيلته وانصرف همه إلى مراقبة هذه المرأة الجسور التى هجمت عليه تنافسه فى رزقه . والغريب أنه بدأ يعجب بها ، وحاول أن يبتسم لها مرة ، ومضت الأيام فاذا « مشنته » تقترب قليلا من « مشنة » بدر ، كأنما يريد أن يقول لها « لنشترك معاً » ولكنه لم يقلها . وأحست بدر أن المقام قد استقر بها وإن ابراهيم صفر اليدين من السلاح ، بل أدركت أنها أصبحت ذات سلطان عليه ، فتنزلت ذات يوم وردت عليه ، ثم لم يمض طويل وقت حتى كانت إذا قامت لبعض حاجتها فى الخرابة المجاورة أوصته أن يجعل باله إلى أولادها . وطال غياب أبى خليل عن مشنته ، وتسكعه عند أصدقائه ووقوفه على باب المسجد هب النسيم أو لم يهب ، فى قلبه أمل خفى . لعل بدر هى رزقه الذى أمطرته به السماء ذات يوم على غير ميعاد . وليس أحب إليه من أن يسلم قياده لهذه المرأة الجريئة ويعيش معها فى كنفها ، إنها امرأة — كالرجل — يحق

له أن يباهى بها الناس أجمعين . سيتودد إليها ، وسيضاحكها ليضحك معها ، وسينتظر حتى تقضم هى أولا من الرغيف لقمة أو لقمتين ثم تعطيه إياه فيأكل من حيث رفعت فمها ، هى التى ستوقظه فى الصباح ، وتغطيه بالليل ، وإذا تخابث وغاب عند أصدقائه من أصحاب الدكاكين بحثت عنه وجرته إلى حيث يجب أن يكون . هكذا كانت تحدثه نفسه . ولكن هل يفاتحها ؟ إنه لا يجسر على ذلك ؛ فهو لا يعلم عنها شيئاً ، وليس فى الميدان من يعرفها .

وفى تلك الأيام اشترى أبو خليل غداءه من الطعمية نسيئة .

ولما اقتربت مشنته من مشنتها حتى تلاصقتا حدثته بدر ذات مساء — دون أن يسألها — عن حياتها ، فاذا بها أيضاً من المشاكل التى كتب على إبراهيم أن تكون نصيب روحه وعينيه فى هذه الدنيا . قالت له إنها حرة وغير طليقة ، متزوجة وتعيش كالأرمل ، فلها زوج غائب لا تدرى مكانه ، هو صعيدى يحمل على ظهره ربطة كبيرة من الفانلات والجوارب والفوط يدور بها على المقاهى ، يلازمها زمناً ثم يختفى فجأة ، وتسمع أنه سافر مرة إلى وجه بحرى ومرة إلى وجه قبلى ، ولا تدرى أهو يهرب منها أم من ثأر قديم يخشاه أم له هو ثأر يجرى وراءه ليسلم له شرفه . وقد مضى على اختفائه آخر مرة قرابة سنة ونصف سنة وهى لا تعلم أحى هو أم ميت ، والغالب أنه حى يرزق ، وإلا لجاءها نبأ وفاته لأن على ذراعه وشماً باسمه واسم بلده . أم تراهم سلخوا جلده ؟ أقاتل هو فى السجن أم مقتول لا يدرى أين قبره ؟ اختفى وترك لها أولادها ، فخرجت تسعى إلى رزقها ، وقادها حسن حظها إلى جوار رجل طيب مثل إبراهيم أبى خليل .

ومرت أيام أخرى فاذا الألفة بينهما تزيد ، وأخذت بدر تحنو على ابراهيم ، وتشترى له طعامه ولا تطالبه بثمنه ، لأنها خلطت مشنته بمشنتها ، ونقوده بنقودها ، والكل فى جيبها . وظنت أن حياتها قد انتهت إلى تلك الصورة ورضيت نفسها ذات يوم (ولا تسل أعن اختيار كان أم عن اضطرار ، فليس من اليسير أن تجد بدلَ الغائب صعيدياً آخر . . .) وقالت لإبراهيم : « لقد اتسخ ثوبك فتعال معى الليلة أغسله لك » .

وكان إبراهيم جالساً أمامها وظهره إلى الطريق ، وأخذ يحدثها وهو لا يشعر بمرور الناس ولا الزمن . . . ترى هل ما يراه حقيقة أم من وهم عينيه ؟ خيل إليه أن شفتيها تختلجان فجأة ، ولمعت أسنانها وتألقت عيناها ، لا السواد وحده

بل البياض أيضاً ، وسمرت نظراتها إلى ما وراءه ، فالتفت فوجد صعيدياً خان أبيض ظهره ربطة كبيرة يسعى إليهما بخطى وئيدة . نظرة واحدة جعلته علم ! صد القادم رجل خشن لا يرحم ولا يستسيغ الدعابة . . . وحط الرجل حـ أبي خليل القرفصاء وكان كل ما قاله لبدر :

— كيف الحال ؟

فأجابته :

— الأشيا رضا والحمد لله على سلامتك .

وأطرق الفتى الصعيدى قليلا ، ثم أدار رأسه ووجه نظرة واحدة إلى أبى خليل فاطمأن قلبه والتفت إلى زوجه يقول :

— لكل شئ أوان ، لكن الصبر طيب .

وقام برهومة ينفض التراب من على مقعدته ، وغاب عن بصرهما وابتلعته زحمة الميدان ومرت أيام كثيرة لم أره فيها ، قيل إنه أصيب بالحمى ، وقيل بل هى العجوز المقعدة قد علمت بخبر بدر فدست فى طعامه شيئاً انتظرت حتى بذلته لها شابة من جاراتها فلحقه منه أذى كبير .

غبت عن الميدان وأهله زمناً طويلا . ولما عدت إليه ومررت على الرصيف المواجه للتركى بائع الحلاوة الطحينية لم أجد بدرا أم العيال ولا إبراهيم ... ثم حدث ذات يوم أن بكرت فى الخروج لبعض أعمالى ودخلت الميدان قبل أن تفتح المتاجر ، وأخذت أسنانى تصطك من البرد إذ كنا فى شهر وصفه بين الشهور القبطية : قلب الشتاء طوبة ، الحفاة يدسون أصابعهم المتورمة تحت الابط ، ويسيرون كأنما تطأ أقدامهم العارية شوكا . . . ينبعث فى الميدان بين الحين والحين سعال أجش غليظ ، ثم يتلوه صمت ، ثم يسمع بوضوح — وهو همس — نتف من حديث بين أصوات لا يزال يثقلها النعاس وبلغم الصدر ، ورغم ماتقع عليه عين السائر من الغادين والرائحين فلا مفر له من الشعور بأنه فى مدينة مهجورة لا تعرف هؤلاء المارة ولا يعرفونها . وإذا بى فجأة أكاد أصطدم بإبراهيم أبى خليل : ثيابه رثة ممزقة ، ورأسه عار ، وأقدامه حافية ، يسير كالمترنح نظرته المعتمة هى هى ، وابتسامته لم تتغير . خرج فى تلك الساعة المبكرة ليؤدى وظيفته التى يجب أن تبدأ وتنتهى قبل أن تنتشر

الحركة فى الميدان . أصبحت له مهنة جديدة : هى البخور . وهو عمل لا يتطلب إلا كفة ميزان قديمة ، وسلسلة غليظة ، وبعض نشارة الخشب وشيئاً من فتات اللبان والشيح يضعها وكسر الخبز فى مخلاة تعلق بالكتف وربما ألقيت فيها أيضاً الملاليم والعشرينات الخردة . أدركت لحظة رأيته أن هذه هى المهنة التى ولد لها أبو خليل ، وكان يجب أن أتوقع أنه سينتهى إليها ؛ لأنها توافق طبعه ، فهى مهنة سهلة ينعم صاحبها بلذة التسكع ويتسلى بالتطواف على أشكال وأنواع من الناس . ثم إن دخلها ثابت — فهو من قبيل الاشتراكات ! — وليس لها سعر معلوم ، ولا تخضع لرقابة ولا تبور فيها بضاعة إذا كسدت . يعترف صاحبها أنه لا يرقى إلى مرتبة الباعة السريحة الذين يكسبون رزقهم بعرق جبينهم ، ولكنك لا تستطيع أن تتهمه بالشحاذة ، فها هو ذا أمامك خارج إلى عمله وعدة الشغل فى يده . وإذا كانت هذه المهنة هى هكذا عند عامة أصحابها إلا أنها شئ آخر فى نظر أبى خليل . فهو قد مل التجارة بأنواعها لأنها شد وجذب وخداع وحيطة ، ولكن البخور لا يرتكز إلا على العواطف وحدها ، وهو يؤمن أن تحيته التى يستفتح بها صاحب الدكان صباحه مجلبة للبركة لأنها صادرة من قلب صاف عطوف محب للخير . مسكين أبو خليل ! إنه لا يعرف الحياة ولا طبائع الناس . لازمته بعد ذلك أياماً كثيرة ، ورأيت بعينى الأسطى حسن الحلاق لا يرضى — فهو ليس بالأبله — أن يدفع إليه المليم إلا بعد أن يجره داخل الدكان ليبخر له المقعد والمرآة والطشت المقطوعة حافته بقدر رقبة الزبون . ورأيت صاحب المطعم الوطنى لا تقع يده إلا على طعمية واحدة بقيت من أمس أو أول من أمس . أما التركى فيعطيه المليم ويصرفه بحنق وضجر . ولما ألفه أكثر أصحاب المتاجر أصبحوا يعطونه المليم سواء تصاعد البخور أم لم يتصاعد ، فأهمل أبو خليل تجارته وأصبحت مجمرته منطفئة معظم الصباح ، أو إذ الاح فيها بصيص من النار لم ينبعث منها إلا دخان أسود كريه الرائحة تتأذى منه الأنوف . . .

وذات يوم مشرق صاف ، أحسست وأنا أسير إلى جانب إبراهيم أن الميدان قد سكن فجأة كما يسكن الجو قبل الأعاصير ، ثم أقبل من شارع مراسينا رجل له عينان براقتان كعينى الصقر ، ثوبه قد ضم سبعين رقعة ، وعلى رأسه عمامة خضراء ، له خطوة نشيطة مجدة لا تعرف الإعياء . قامته منتصبة ولسانه

لا ينقطع عن تلاوة الأدعية والأوراد ، وفى يده مجمرة ينبعث منها دخان أبيض جميل ذكى الرائحة ، بل إن سلسلتها صفراء لامعة . . . يا فتاح ياعليم ! صد أصحاب الدكاكين هذا القادم صداً عنيفاً أول يوم ، فهم زبائن أبى خليل وليس من المعقول أن يشتروا فى الصباح الواحد بركتين قد تفسد إحداهما الأخرى . . . ولكنه عاد فى اليوم الثانى والثالث والرابع ، ثم تناول أول مليم . . . ثم عاد ومر على كل دكان من جديد سواء رق له قلب صاحبه أم لم يرق . . . وقد سحرنى دأب هذا الرجل وقوة إرادته ، فتركت صديقى الأعمش وسرت وراء هذا القادم العجيب ، فاذا به يجرجرنى من السيدة زينب ، إلى ميدان باب الخلق ، إلى القلعة إلى السيدة عائشة ، ويشق القرافة إلى السيدة نفيسة ثم إلى السيوفية والخيمية وبوابة المتولى، ثم إذا به يأوى إلى مقهى صغير فى سيدنا الحسين ، ويخلع عمامته الخضراء ، ويجلس ليدخن الجوزة ، وجلست إلى جواره وأنا ألهث وأتصبب عرقاً . . . رأيته يسير ساعة من أجل الوصول إلى زبون واحد . . . ولم ألق فى حياتى من يسعى إلى رزقه بهمة هذا الرجل وصبره وجلده .

وترك برهومة مجمرته وأصبح يكتفى بالمرور وحده على أصحاب المتاجر علهم يذكرونه ويعطونه المعلوم . وتضاءل دخله ، واضطر إلى الوقوف وسط الميدان تارة ، وعلى باب الست تارة أخرى ، فاذا ببعض الزائرين يدسون فى يده ماتجود به نفوسهم ، إذ حسبوه شحاذاً يتعفف عن السؤال . والعجيب أن أبا خليل ربى له بعد قليل طائفة من الزبائن تخلص له ، وتبحث عنه ، حتى تعطيه مافيه القسمة . مسكين أبو خليل ! إنه لا يعرف الحياة ولاطبائع الناس . . .

وذات يوم مشرق صاف و برهومة فى مكانه المعهود إذ دوت بالقرب منه صرخة عالية طافت بالميدان كله « حىّ ! قيوم ! » وتجمع الناس حول المجذوب الذى صرعه الوجد ، ووقفت فوق رأسه إحدى لابسات الملس الأسود والمداس الأصفر وعقد الكهرمان الغليظ واندفعت تزغرد . . . واستفاق المصروع ولكن فمه مطبق لا ينبس ببنت شفة ، وعيناه المصابتان بالحول تحملقان فى وجوه المجتمعين حوله وقد اغرورقت فيهما الدموع . ثم رفع كفين ملأتهما خواتم زرق وخضر وحمر ومسح وجهه وتهيأ لجمع النقود . . .

ولما سمع أبو خليل فى الموعد عينه تلك الصرخة ذاتها فى اليوم الثانى والثالث ترك مكانه والتفت إلى المسجد وهو يتمتم :

« يا أم العواجز ! مدد ! »

كان قد مل الحياة ، وركبه الاعياء والضعف ، وزادت سحابات عينيه ، وانحنى ظهره . . . واتجه بخطوات متثاقلة إلى مقام أم العواجز ، حوله صفوف من الشحاذين قد جلسوا القرفصاء — حتى تخالهم هكذا خلقوا — وأسندوا ظهورهم إلى جداره ، يحيطون به إحاطة القمل بقبة الفقير . هيهات أن يجد له مكاناً بالدرجة الأولى بجوار الباب ، فتركه ودار حول المسجد حتى وصل إلى الميضأة وجلس على بابها . فالتفت إليه من يسبقه فى الأقدمية ووجه إليه نظرة نكراء : مفيش يكره الشحاذ إلا الشحاذ مثله . . .

وهناك تركت أبا خليل ونفضت منه يدى ، فقد أصبح من أهل دنيا غير دنيانا . فى دنيا لا مخرج لها ، بل لها باب واحد للدخول قد كتب فوقه : « باب الوداع » .

يحيى حقى

ماذا أفدت من هذا العمر

سن الستين أشبه الأشياء بالقمة نقف عليها فى سياحتنا على هذا الكوكب ونسائل : ماذا أفدنا من الماضى ، وماذا ننتظر من المستقبل ؟ وفى أعماق العقل الكامن وسوسة كأنها لغط فى النفس : سن الستين هى سن الإقالة : يجب أن تقال أنت من الحياة .

وفى هذا العام ١٩٤٧ الذى أتم فيه هذه السن أجدنى قد أخرجت كتاباً « كيف نسوس حياتنا بعد الخمسين » وكأنه احتجاج على الشيخوخة . ولو أن مى كانت حية لقالت لى على عادتها : ها أنت ذا تتشاءم وتحاول أن تتفاءل ، تحس الضعف فتتخذ القوة .

ولكنى كنت أجيب بأنى ما زلت أحس حماسة الروح بل غلواءه ، وانى أستطلع الدنيا كما لو كنت طفلا . وحسبى هذا برهاناً على أنى بعيد عن الشيخوخة .

وأعود إلى أيام الطفولة والصبا بل الشباب أيضا ، فأجد أنى من حيث التعلم المدرسى أو الجامعى قد عشت فى صحراء لم أنتفع بشئ منها . وإنما كان انتفاعى بما كسبت من تربيتى الذاتية : من جامعة الكتب فى اللغتين الانجليزية والفرنسية ، ومن سياحاتى فى أوربا ، وأخيراً ، ولهذا أكبر قسط فى تربيتى ، من اختباراتى الشخصية . وقد تكون الفترة التى عشتها وأنا على وجدان يقظ بالحوادث فذة من حيث إنها فترة الانتقال من مجتمع الأمس إلى مجتمع الغد ، ومن تحول الإنتاج من النظام القروى الزراعى إلى النظام المدنى الصناعى ، ومن الغيبيات إلى الماديات . والحق أنى لا أكاد أعرف عصراً تجمعت فيه عوامل اقتصادية واجتماعية انقلابية مثل عصرنا هذا . فان الفترة التى تقع بين ١٩٠٠ و ١٩٥٠ هى تاريخ بشرى يزيد فى مغزاه ونتائجه للمستقبل على القرون التى تقع بين ٥٠٠ و ١٥٠٠ . أجل ! لقد عشنا بسرعة

فى هذه الفترة بل هرولنا نحو المستقبل . وهناك من تخلفوا لأنهم لم يطيقوا هذه السرعة أو الهرولة ، فلهثوا وعرقوا ثم قعدوا . وبعد أن قعدوا واطمأنوا أخذوا يحفظون عن « ظهر قلب » قواعد الفعل الماضى فى حين بقينا نحن فى الهرولة نحو المستقبل . وليس شك فى أننا نعثر ؛ ولكن العثار مع السعى خير من السلامة مع القعود والركود .

والتربية الحقيقية ، وهى ثمرة العمر لكل انسان ، هى فى النهاية اختباراته طوال حياته . وليست هذه الاختبارات هى ما يقع لنا بل هى الرجوع والاستجابات لما وقع لنا . ونحن نختلف كثيراً فى هذا ؛ فان هناك من يستجيبون بالصدود والاعتزال . وهناك من يستجيبون بالإقدام والمكابدة ، وهؤلاء هم الذين ينتفعون بالاختبارات . أما المعتزل الذى يؤثر السلامة بالصدود والاعتزال والإحجام والانكفاف فهو ميت حتى لو طال عمره إلى المائة ؛ لأن الحياة لا تقاس بالطول وحده إذ أن لها عرضاً وعمقاً أيضاً . ولا يكون لها العرض والعمق إلا بأن ننغمس فيها ولا نقف على ساحلها متفرجين بل نقتحم عبابها ولو تعرضنا بذلك للموت المبكر .

وفى كل حياة من المصادفات ما يعد حسناً أو سيئاً ، وبعضها يقود إلى النمو والخصب ، وبعضها يؤدى إلى البوار والدمار . ومصر نفسها مصادفة سيئة لكل مصرى من حيث إنها مأساة جغرافية . إذ هى تقع فى ملتقى القارات الثلاث الكبرى ، كما أنها تقع فى طريق الملاحة بين آسيا وأوربا . ثم هى فوق ذلك تخلو من الجبال التى تيسر الدفاع ؛ ولذلك وقعت فى أسر الغزو المتكرر . وكان آخر غزاتها هؤلاء الإنجليز الذين أحالوها إلى عزبة للقطن ومنعوا عنها الصناعة والتعليم ، وأيدوا الرجعية وضربوا أبناءها المخلصين الثائرين على الاستبداد ، وعمموا فيها الفاقة والجهل والمرض .

ونحن المصريين جميعاً سواء فى هذه الكارثة ، كارثة هذه المصادفة التاريخية بغزو الانجليز لوطننا وبقائهم فيه أكثر من ستين سنة ، يفرضون علينا القيود ويقيمون السدود ويحالفون الرجعيين لقمع الروح المصرى . وكثير مما عانيته فى حياتى من المصادفات السيئة التى عطلت نشاطى وبعثرت قواى يرجع إلى هذه المحالفة القائمة بين الرجعيين المصريين والمستعمرين الانجليز فيما اتفقوا عليه من

قيود للحرية كانت تضطرنى إلى أن أدرج بدلا من أن أطير ، بل كانت تضطرنى أحياناً كثيرة إلى أن أقعد بدلا من أن أدرج . وهناك من الكتّاب فى مصر من استسلموا لهذه القيود وارتضوها ، بل صاروا يخيفون الجمهور من الحرية وينعون ما فيها من استباحات تؤدى إلى أخطار . ولكنى لم أدخل قط فى معسكرهم إذ لا أطيق العمل فى هذا الجو الخانق للضمير والذهن .

أما مصادفاتى الحسنة التى أخصبت حياتى فكثيرة ، أذكرها بالشكر للأقدار التى هيأتها لى . وأولها وأكبرها قيمة أنى لم أعرف قط الحاجة المالية ، وكذلك لم أعرف الترف المخدر . فأنا أتمتع بذلك القلق الذى يبعث على الاهتمام اليقظ المنبه ، ولكنه لايؤدى إلى الهم المرهق المجمد . ثم صادفنى مصادفة حسنة أخرى هى أنى عرفت اللغتين الفرنسية والانجليزية فى سن مبكرة . وقد وصلتا بينى وبين الثقافة العالمية العصرية . ولذلك ارتفعت اهتماماتى من المشكلات « القروية » الصغيرة التى تحفل بها صحفنا من جرائد ومجلات إلى مشكلات عالمية بشرية منبسطة الآفاق .

ثم هناك مصادفة أخرى مؤلمة للعالم منبهة لرجال الذهن . فأنى عشت عمرى فيما بين ١٨٨٧ و ١٩٤٧ فى عصر انقلابى انفجارى رائع من حيث الاكتشافات والاختراعات والثورات ؛ لأنه عصر المعارك التاريخية والصراع الخطير بين مجتمع آفل وبين مجتمع بازغ . كأن حوادث ألف سنة قد تجمعت فى بؤرة زمنية ، كما يتجمع ضوء الشمس من العدسة ، فصرنا نرى الانقلاب تلو الانقلاب . والعالم يعانى الآلام من هذه الانقلابات التى تنبه المثقفين إلى الدرس وتحرك ذكاءهم وتبسط لهم رؤيا زاهية للمستقبل لا يراها غيرهم فى السعادة القادمة من خلال المخاض الحاضر وآلامه .

وعندما أعرض لحياتى الماضية أجدنى ممتازاً امتيازاً واضحاً جدا بصفة طفلية هى الاستطلاع . وهذا الاستطلاع يحطم القيود التى وضعها العرف أو كثيراً منها ، فيتسع ميدان الاختبارات ويزيد بذلك الوجدان . وهذا الاتجاه نفسه ، أى الانتفاع بالاختبارات ، يغير القيم والأوزان بحيث إن ما يعده غيرى نكبة قد أعده أنا نعمة لأن له قيمة لا يراها هو فى التربية والتنوير والنمو . فقد وقعت بى كوارث وأحزان أمضت حياتى فترة . ثم اكتسبت من الكوارث نوراً وحكمة ، فاكتسبت من الأحزان حناناً ورقة ، لاأحب أن أفقدها . أجل ! لقد تضورت

من الألم حين مات ابن أختى وهو فى السنة الأخيرة بكلية الطب ، وبقيت فى نفسى لوعة تمزقنى كلما ذكرته . ولكن هذه اللوعة قد استحالت بالزمن إلى حنان رحيم لا أحب أن أفقده . وكذا الشأن فى جميع الأحزان الماضية تطفىء كيمياء الزمن نارها وتحيلها إلى ذكريات رفيقة تؤنس ماضينا . ولذلك أكنز هذه الذكريات وأستثيرها بعد عشرين أو ثلاثين سنة للذة لا للألم ، مع أن وطأتها حين وقوعها كانت بمثابة الصدمة التى تذهل وتجمد .

وأظننى أمتاز أيضاً بعقل حر مفتوح يحسن الضيافة للآراء الجديدة . وليس لى فضل فى هذا ، وإنما الفضل للغتين الانجليزية والفرنسية اللتين أتاحتا لى الاتصال الدائم بالثقافة الأوروبية العصرية . وهى تمتاز بالحرية المستفيضة كما يمتاز المجتمع الأوربى بحرية لا يعرفها المجتمع المصرى . ومن هنا أصبحت ثقافتى ارتيادية أتحسس الجديد فى الآراء وأعرضه على مجتمعنا كى أوقظه إلى الحياة العصرية . ومن هنا كان مايبدو من أنى يسارى متطرف ، مع أنى لو كنت فى مدينة أوربية لكنت أعد عاديا ليس بى أى تطرف . وليس شك أن بعض اتجاهى هذا يعود إلى أنى مسيحى لا أحس أنى مقيد بتقاليد الأكثرية فى مصر .

ولو سئلت ما هو « بيت القصيد » أو « إيماءة حياتى » كما تبدو من مؤلفاتى وسيرتى واتجاهى ، لقلت إنها الحرية . فانى أحب عرابى وفولتير لدفاعهما عن الحرية كل فى ميدانه . وقد ألفت كتابين عن حرية الفكر . وأحب كتاب «الجمهورية» لأفلاطون و « الانسان والسبرمان » لبرنارد شو ؛ لأنهما يتجردان من التقاليد فى بحث التأصيل البشرى . وأحب إبسن فى « بيت عروس » لأنه يبسط آفاقاً جديدة للحرية فى شخصية المرأة .

وأنا الآن فى الستين أعد نفسى صائراً ولست كائناً كما يقول أندريه جيد . ولذلك أعنى بأن أتعلم كلمة جديدة أو أشرع فى دراسة علم جديد أتغير أو أتطور به . وفى هذه الأيام مثلا أجد أنى مزحوم بدراسات كثيرة ، منها هذه السيمائية أى علم اللغة من حيث صحة التعبير وملاءمته . كما أن اهتماماتى بالسيكلوجية والتطور والاجتماع تجعلنى أشكو قلة الفراغ . وفى العالم الآن ثقافة جديدة قد تجرثمت فى بداية هذا القرن وهى الآن تتبلور وتتجوهر، هى ثقافةعالمية غير وطنية أحس أنى من أبنائها ودعاتها . وقد أثبتت لنا القنبلة الذرية ضرورة الاتجاه العلمى وخطورته معاً . لأن الحضارة القائمة ، حضارة السادة على هذا

الكوكب ، هى حضارة العلوم المادية ، والأخطار القائمة هى أخطار العلوم المادية . ولذلك فان الأمة التى تهمل العلوم إنما تهمل حياتها . وقد حاولت فى مصر طوال حياتى الماضية أن أعمم التوجيه العلمى بمؤلفات شعبية مختلفة . وكثيراً مانبتت الخصومات بينى وبين بعض الكتاب على هذا الأساس ، أى إنى كنت أنتقص قيمة مؤلفاتهم لأنها لم تكن تتجه الاتجاه العلمى أو على الأقل كانت تتجاهل الأسس العلمية وتستسلم لمزاعم غيبية تافهة . ولذلك تعد مؤلفاتى من أدوات التطور الذهنى فى مصر ، وليست كذلك مؤلفات كثير من الكتاب الذين عاصرونى . ففى الوقت الذى كنت أؤلف فيه عن «العقل الباطن» أو « نظرية التطور وأصل الانسان » أو « البلاغة العصرية واللغة العربية » أو « حرية الفكر » ثم « حرية العقل » أو « غاندى والحركة الهندية» أو نحو ذلك مما يوجه ويغير ، كان غيرى يؤلفون عن الخلفاء الراشدين أو الأمويين أو العباسيين ! أجل . كنت أنشد الآفاق وأرتاد المجاهل فى الوقت الذى كانوا هم فيه يشرحون لقرائهم قواعد الفعل الماضى ، مع أن هذه القواعد معروفة ، ومشروحة فى مئات الكتب القديمة ولا تحتاج إلى زيادة فى الشرح والايضاح . فان جميع الذين كتبوا مثلا فى ترجمة عمر بن الخطاب لم يكتبوا عنه بأوفى مما كتب ابن أبى الحديد منذ نحو ألف سنة . وجميع الذين يخرجون لنا من وقت لآخر تراجم عن أبى نواس أو المهدى أو المأمون لم يزيدوا كلمة عما كتبه مؤلف الأغانى أو غيره من المؤلفين القدماء . ولكن الجمهور الذى يتعطش إلى الثقافة العصرية كى يفهم الحضارة العصرية لايجد غير هذه الموضوعات القديمة ، فيبقى ، أى هذا الجمهور ، قديماً غير عصرى .

وهناك أشياء آسف لها كثيراً . منها أنى عطلت عن الكتابة إلا تحت اعين المراقبة نحو خمسة عشر عاماً فى الحربين الكبريين ؛ إذ حتم علينا الانجليز ألا ننشر حرفاً فى جريدة أو مجلة أو كتاب إلا بعد أن يقرأه رقيب . وقد قرئت لى كتب فى الأدب والعلم وحذف الرقيب منها ما شاء . . . وهذا التعطيل قد جمد فكرى مدة طويلة ؛ لأن قطع التفاعل بين المؤلف وبين الجمهور يجعل الثقافة محدودة . لأن الثقافة اجتماعية لا نهتم بها إلا فى مجتمع حى يوافقنا أو يعارضنا ، ولكنه فى كلتا الحالين ينبهنا . وقد قطع الاستعمار البريطانى بيننا وبين الجمهور هذه السنين الطويلة ، فقطع عنا بذلك التنبيه الذى

كان يحركنا إلى التفكير والدراسة الخصبة ، كما قطع عن الجمهور التنوير الذى كان يحتاج إليه .

وشئ آخر آسف له هو أن الحكومة المصرية ، بايعاز المستعمرين الانجليز أيضاً ، قد سنت قانوناً تستطيع أن تحرم به أى مصرى خارج القطر من رعويته المصرية ، ويكفى لذلك قرار من مجلس الوزراء بلا محاكمة أو دفاع . وقد منعنى هذا القانون من أن أترك مصر منذ عشرين سنة ، مع أن مثلى يحتاج إلى أن يزور أوربا مرة كل عام أو كل بضعة أعوام حيث يتجدد بالايحاء والتغيير الذهنى والترفيه النفسى . ولكن المتسلطين الذين يعيشون فى مصر بالامتيازات القديمة ، هذه الامتيازات التى هى فضيحة مصر الآن فى جميع المحافل المتمدنة ، يخشون رجلا مثلى يسارع إلى شرح الآراء الجديدة والإصلاحات العصرية . فما هو أن أضع قدمى فى باريس حتى أجد قراراً بحرمانى من الرعوية المصرية . وعندئذ يجب أن أتسكع سائر عمرى إلى أن أموت خارج وطنى بعيداً عن أولادى . ولهذا آثرت البقاء فى القاهرة على التسكع ، بلا وطن ، فى مدن أوربا . وظنى أن هذا القانون سيبقى إلى أن أموت . ولن أرى أوربا التى تشع أنوارها على هذا الكوكب .

وأخيراً أعود إلى السؤال الذى لا يفتأ يتكرر : هل ربيت نفسى ؟

وهذا السؤال يعيد إلى ذهنى وصف ه. ج. ولز للوزير البريطانى الكبير جلادستون بأنه لا يعد متعلما أو حاصلا على تربية . وذلك لأنه « كان يجهل الأثنولوجية أى علم وصف السلالات البشرية وخصائصها . وأن رؤيته للتاريخ كانت ناقصة لأنه لم يكن يدرى الصورة الحقيقية للجيولوجية أى علم طبقات القشرة الأرضية وتاريخ الأحياء ، كما كان يجهل الأفكار الابتدائية عن البيولوجية أى علم الحياة . وكذلك كان يجهل العلوم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية العصرية والآداب والفكر الحديث » .

وإذا قست نفسى بهذا المقياس الذى عينه ولز كى يبرهن على جهل جلادستون فانى أجد أنى حاصل على التربية التى قصدها ؛ لأنى أدرى كل هذه الأشياء التى ذكرها وأكثر منها مما يجرى على طرازها . والحقيقة أن الذين يستطيعون أن يسموا أنفسهم ممتازين بتربية صحيحة فى أيامنا قد لا يبلغون واحداً فى الألف . والبرهان على هذا أن الذين يفهمون مثلا النظرية النسبية

لأينشتين أو الطاقة الذرية قليلون جدا . وهذه القلة ترجع إلى أن وسائل التربية معدومة أو نادرة فى بقاع كثيرة . وذلك الذى يصل على الرغم من كل ذلك إلى تربية تكاملية حاوية بحيث تتسع عنده المعارف وتتكامل وتتناسق ، هذا الرجل يحتاج إلى أن يفنى العمر كى يحقق هذه الغاية . وطلب العيش يحول دون ذلك عند ٩٩٩ فى الألف من الناس .

والواقع أن الذين يقودون العالم منذ أيام جلادستون إلى الآن كانوا ولا يزالون فى عداد الجهلة . فقد روى ولز مثلا عن جلادستون أيضاً أن السر جون لبوك رافقه فى زيارة لداروين ، فكان طوال وقته يتحدث عن المشكلة البلغارية كأنها كل شئ فى وجدانه ، أى إنه لم يكن يدرى القيمة البشرية الكبرى لنظرية التطور التى أخرج داروين إنجيلها للعالم . ولكن أليس هذا حال الساسة إلى الآن ؟ هل وزراء بريطانيا أو فرنسا أو الولايات المتحدة أو مصر فى ١٩٤٧ أفضل من حال جلادستون فى ١٨٧٠ ؟

إن العالم منكوب بتقاليد فى التربية والتعليم. وفى المدارس والجامعات رواسب ثقافية تبلد الذهن بل تحول دون التفكير ،كأن هناك محظورات لايجوز التفكير فيها . اعتبر مثلا هذا الفقر المصنوع فى العالم ، فان الانتاج الزراعى ثم الانتاج الصناعى يكفيان ، مع التنظيم ، كى يعيش كل فرد على هذا الكوكب وهو موفر الطعام والكساء والمسكن ، آمن على نفسه وجسمه من المرض والجريمة ، متعلم أقصى تعليم ، مستمتع بالفراغ الذى يمكنه من زيادة معارفه . ولكن الساسة الذين يتولون شؤون هذا العالم لا يزالون فى مستوى جلادستون يهتمون بمشكلة بلغاريا أكثر مما يهتمون بنظرية التطور . والعجب أنك عند ما تبحث مشكلة بلغاريا تجد أنها نبتت من الجهل أيضاً ، وأن الذين يحاولون حلها جهلاء يثرثرون وهم يعتقدون أنهم يفكرون .

وقد سبق أن قلت إنى لا آسف كثيراً على أنى لم أتخصص ؛ لأن الإخصائيين ، كما أرى فى أخلاقهم ، لا يتوسعون أو يتعمقون فى الدراسات التى لا تمس العلم أو الفن الذى أخصوا فيه . وأعتقد أحياناً أن الزهو هو الذى يمنعهم من هذا التوسع أو التعمق ، وأنهم يحسون استكفاء ذاتيا لا يحتاجون معه إلى زيادة . وأقول فى نفسى عندئذ إنى لست كذلك وإنى لو كنت قد أخصيت فى علم تجريبى لما زهيت . ولكن هذا الفرض ليس سيكلوجياً لأنه يتجاهل العواطف الاجتماعية .

ولكنى لا أشك أنى بعيد عن الزهو فى غير تعمد أو تكلف ، وأن بعدى عن الزهو هو الذى يجعلنى أتابع الثقافة بروح الطالب ، وهو الذى يجعل أسلوبى خالياً من التفصح . وكثير من الكتاب يتفصح فى خيلاء وزهو لأنه يسلك فى حياته وأخلاقه سلوك الخيلاء والزهو . ولهذا السلوك أثره فى نفسه لأنه يحمله على الاستكفاء فلا يدرس ولا يتزيد من المعارف . ولذلك أستطيع أن أجزم بأن التفصح فى الكاتب برهان على كراهة التزيد أو التطور فى الدراسة . وليس هذا لأن التفصح يشغل وقته بل لأنه يكسبه زهواً فيقنع بالخيلاء والتبختر . وفى ذهنى الآن كاتب من هؤلاء المتبخترين يكتب من وقت لآخر عن الأخلاق. قعدت إليه ذات مرة أحدثه عن الأخلاق وأنها هى والاجتماع ثمرة الوضع الاقتصادى . فلم ألق منه غير الضحك . فانتقلت من البيئة إلى الوراثة وذكرت له كتاب كرافت أبنج عن « السيكوباثية الجنسية » فلم أستنبط منه غير الدهشة . أجل ! إن تفصحه المتحذلق قد حال بينه وبين تربية نفسه ؛ إذ هو قانع بهذه الخيلاء اللفظية وسيموت بها جاهلا لشؤون هذا الكوكب الذى عاش عليه .

ولذلك أعتقد أن أعظم الأهداف للتربية هو الاتجاه . أى كيف نتجه فى هذه الدنيا و بماذا نهتم ؟ نهتم باقتناء الفصاحة أم باقتناء المعارف ؟ بمشكلة بلغاريا أم بنظرية التطور ؟ نهتم بأن نكون وجهاء نسير فى خيلاء وزهو أم عقلاء نفكر فى سداد وفهم ؟

فى عصرنا هذا يجب أن نقيس التربية الحقة بأدق وأكبر من القياس الذى وضعه ه. ج. ولز. وعندئذ لا نجد أحداً ، ولا واحداً ، يمكن أن يقال إنه حاصل على تربية حقة . فان العلوم خاصة والثقافة عامة مشتتة غير منظمة ، وتحصيلها لهذا السبب شاق . وأعمارنا تفنى فى محاولات عقيمة و إن تكن مخلصة للتعلم : حتى إذا انتهينا إلى الطريقة واهتدينا إلى المنهاج وجدنا أن الشباب قد ولى .

وقد يبعثنا هذا إلى القول بأن العمر يجب أن يزيد حتى يبلغ المائة مثلا ، ونجنى فى العقود الأخيرة ماجهدنا لأجله واختبرناه فى العقود الأولى . ولكن قبل ذلك يجب تنظيم المعارف ومناهج الدراسة وترقية الصحافة حتى تعود جميعها أدوات ووسائل للتنوير . لأن الواقع أن بعضها الآن أدوات ووسائل لتبليد الأذهان ومطاردة الذكاء ، ونشر الظلام . والعالم حافل بالتباسات

واستغراضات للجهل الفاشى ، هذا الجهل الذى يجد دعامة بين المعلمين والأدباء والفلاسفة الذين يدعون إلى مزاعم وعقائد يوحون منها إلى القراء والمتعلمين بأنها آراء وحقائق . وقد سبق أن عانى جيته مثل هذه الحال حين قال : « ليس هناك أفظع من الجهل النشيط » .

وإذن أجيب على سؤالى : هل ربيت نفسى؟ بأنى مازلت « حائراً » فى سياق التربية . وأنى أسر حين أحس أن لى شخصية نيوروزية قلقة مستطلعة أطمع فىَ أكثر مما أستوعب ، وأن الثقافة تحتل المكان الأول من اهتماماتى . بل أحس أحياناً أنها الاهتمام الوحيد ، حتى إنى لألجأ نفسى من وقت لآخر بخطاب يرسله إلىّ صديق فأرجئ فتحه إلى الغد كى أتصفح كتاباً جديداً هذا اليوم .

وأسر أيضاً حين أجد أن القيم البشرية عندى تأخذ مكان القيم الاجتماعية . وعندى أن هذا الانتقال هو البرهان فى عصرنا على الحكمة والفهم . فان القيم الاجتماعية ، بالحاح العادات والتقاليد ، تغمرنا وتقيم فى نفوسنا « عواطف » تحملنا على السعى والجهد لما يسمونه « منافسة » وأحرى أن يسمى « محاسدة » لاقتناء أتومبيل أو عزبة أو لقب أو نحو ذلك مما يحملنا المجتمع على احترامه . وكثير من الناس يموتون شهداء هذا الجهد السخيف . وحين ننتقل إلى القيم البشرية نجد أن حياة الصحة والصلاح الاجتماعى والفهم والقناعة بالحاجات الضرورية والاستمتاع بما فى الدنيا من أطايبها المجانية خير ألف مرة بل مليون مرة من تلك القيم الاجتماعية . وليس فى الدنيا ما يعدل فنجاناً من الشاى أو كسرة من الخبز مع الجبن تحت ظل شجرة (كما قال الإمبراطور أوريليوس) أو قراءة كتاب منير أو الحديث إلى المجرة فى منتصف الليل فى الريف أو تحية الشمس فى بزوغها ، أو ، حين أكتب ، البحث عن بشائر المستقبل والتشبث بها وشرحها فى مقال أو كتاب .

وإذا سأل القارئ : ماذا تستنتج من اختباراتك ، وما تكهناتك للمستقبل بعد أن قضيت نحو أربعين سنة وأنت على اتصال وجدانى بالعقل العام على هذا الكوكب ؟

فأنى أجيب : بأن الحاضر يومئ إلى المستقبل إيماءة واضحة نراها بالعين وأحياناً نسمعها صاخبة بالأذن ، هى الاشتراكية التى سوف تعم الدنيا كلها . وليس هذا لأن الناس سيتحولون من أشرار إلى أبرار ، بل لأن الانتاج

الصناعى سيحتم ذلك . كما سيحتم توافر النقل وضرورة التجارة ، على أبعاد كوكبية، أن يحال العالم إلى دولة واحدة تتجه نحو ثقافة واحدة ولغة واحدة .

وهذا النظام الاشتراكى العام سوف يرفع المرأة من الأنثوية إلى الانسانية ؛ لأنه من جهة سيفتح لها أبواب العمل والاختبار والتعلم كالرجل سواء ، كما أنه من جهة أخرى سيغنيها عن عناء الواجبات المنزلية العديدة . وليس هذا لأنها ستترك المنزل بل لأن كثيراً من الواجبات المنزلية ينتقل بالحضارة إلى خارج المنزل . ويتضح هذا من المقارنة فى مصر بين المرأة فى الريف والمرأة فى المدينة . فان الأولى تعجن وتخبز وتحلب البقرة وتصنع الجبن وتخيط ملابسها وتحمل جرة الماء من الجدول وتجمع الوقود إلى غير ذلك من الواجبات التى لا تعرفها المرأة فى المدينة . ثم المقارنة بين المرأة فى القاهرة والمرأة فى نيويورك تزيدنا فهماً بأن الحضارة تلغى الواجبات المنزلية التى ترهق ربات البيوت الآن وتحول بينهن وبين العمل فى الخارج أو بين تربية أنفسهن . ولذلك نحن صائرون نحو تحقيق الرؤيا التى حلم بها إبسن فى شخصية « نورا » هذه الأنثى التى أصرت على أن ترتفع من الأنثوية إلى الانسانية .

وأستطيع أن أستنتج من حياتى الماضية أن أعظم العقبات التى تؤخرنا فى مصر كما تؤخر كثيراً من أمم آسيا وأوربا ، بعد الاستعمار ، هى هذه الرواسب من الثقافات والتقاليد والغيبيات الفرعونية والبابلية وأمثالها التى انحدرت إلينا . وهى تتخذ ألواناً من الصيغ والأساليب ، وتعترض عجلة التاريخ وتعوق التطور . والبيئة الصناعية وحدها هى التى تحطمها ؛ لأنها ، أى هذه البيئة ، لا تنهض إلا على العلم . وهو نار كاوية تحرق جميع هذه الرواسب وتبددها هباء .

والحضارة الجديدة المنتظرة هى الحضارة الصناعية ، هى الحضارة التى لا يبعد أن تلغى الزراعة من العالم . وليس هذا بالعمل العظيم المستخيل كما يتوهم بعضنا ؛ فان الكيمياء الصناعية تصنع الآن مركبات كيماوية عديدة كان صنعها قبل هذا القرن مقصوراً على الجسم الحى نباتاً كان أو حيواناً . فاذا استطاعت الكيمياء الصناعية أن تصنع مادة البروتين فان الزراعة تعود عناء لا ضرورة له بتاتاً . وعندئذ يحال العالم إلى حدائق وغابات تعنى بها الطبيعة وحدها . وإذا كنا نظن أن صنع البروتينات لايزال بعيداً فيجب أن نذكر الطاقة الذرية . لأن أى إنسان منا لو أنه ، قبل خمس سنوات ، سئل أيهما أقرب

إلى خيالنا : استخدام الطاقة الذرية قنابل للتدمير أو صنع البروتين كيمائيا ، لظن هذا الثانى أيسر بكثير من الأول .

وظنى أيضاً أن الزمن ليس بعيداً حين نشرع ، حتى فى مصر ، فى تطبيق نظرية التطور بالانتخاب التناسلى ، أى اليوجنية ، وفى العالم نحو أربعين دولة متمدنة تمنع غير الصالحين للتناسل من أن يعقبوا . والأمة التى تعارض فى مثل هذا الاصلاح ستتخلف فى ميدان التطور البيولوجى أى الرقى البشرى الصميم .

وأخيراً أقول إنى أرى إيماءة ثقافية جديدة هى التخلص من المذهب الانفصالى ، مذهب ديكارت ، بين الروح والجسم ، أو بين الحياة والمادة ، أو بين العقل والمادة ، إلى المذهب الاتصالى الذى يقول بأن القوة هى المادة المتدفقة والمادة هى القوة المتجمدة . وفى هذا القول وثبة ثقافية واسعة إلى المستقبل سوف تكون كبيرة الأثر فى الحضارة القادمة . وقد سبق للفيلسوف العظيم سبينوزا أن نبه إلى ذلك فى لغة فلسفية . ونحن نقتنع هذه الأيام بصحة تفكيره عن طريق العلم التجريبى ، ونصل إلى وحدة وجودية فى الطبيعة ثم نتدرج إلى ما يلائمها فى المجتمع .

وعندما أرتفع إلى هذا التفكير أحس أن كثيراً من الاهتمامات بل الهموم الوطنية التى حجبت النور وعكرت الصفاء اللذين كنت أنشدهما فى حب وولاء بشريين ، هذه الهموم تذوب وتتبدد . أجل ! إنى أحب أن أعترف . فانى ما كتبت كلمة واحدة ضد المستعمرين الانجليز إلا وأنا فى ألم وارتعاش وآسف أكثر مما أحس من غيظ وحنق وكفاح . وكذلك كان الشأن عندما كنت أكافح الرجعيين المستغرضين والجهلاء النشيطين من المصريين . فانى أخجل حين أقول إنى أحب جميع هؤلاء الانجليز المستعمرين والمصريين المستبدين . وفى نفسى رجاء بأن يتغيروا وأن يروا رؤياى وأن ينسلخوا من الاستعمار والاستبداد ، ويفتحوا عقولهم للثقافة الجديدة : للحرية والإخاء والمساواة . وجميعها مستطاع لو أنهم كفوا عن « الجهل النشيط » الذى يمارسونه .

وقد احترفت الثقافة وقضيت عمرى أقرأ وأكتب . وزادتنى هذه الحرفة ، وجدانا بالدنيا ، كأنى أحس أكثر وأرى أبعد ، حتى لقد صغرت همومى الشخصية إلى جنب اهتماماتى العامة . ودراستى للأدب وللفلسفة قد أوهجت خيالى وأحدّت

ذكائى . ثم انعكست هذه الدراسة إلى حياتى فأصبحت قيمى وأوزانى الخاصة قيماً وأوزاناً أدبية وفلسفية . ولذلك كثيراً ما أنصح للشبان بأن يقرءوا الأدب والفلسفة ، وأن يحاولوا كتابة القصة وقرض الشعر . لأنهم وهم فى هذا النشاط يتخيلون الحال المثلى ويصعدون بأذهانهم إلى السماء ويختارون أسمى المعانى وأنصع الكلمات . وكل هذا ينعكس على حياتهم الخاصة فيرتفعون عن التبذل ويحيلون الحياة إلى فن جميل .

ولو أنى مت ثم بعثت وخيرت فى الحرفة التى أحترف لما اخترت خيراً من أن أقرأ وأكتب . ولكنى مع ذلك سوف أموت وفى نفسى شئ من الطاقة الذرية . لأنه يجب على كل إنسان فى عصرنا أن يستوفى ثقافة علمية معينة يدرك منها هذا المنهج البشرى الجديد للتسلط على المستقبل . ولم أجد الفرصة لهذه الثقافة كما كنت أشتهى وإن كان حظى منها قد يحسدنى عليه غيرى . أجل ! لقد تركت الطاقة الذرية فى نفسى مركب نقص أعانيه كل يوم .

سلامه موسى

خليل مطران

لست أحسبنى مبتكراً أو مغالياً إذا قلت إن الاحتفاء بشاعر عربى قضى نصف قرن أو يزيد وهو يشدو ، لهو حدث جليل القدر عظيم الدلالة من أحداث الأدب فى العالم العربى ، بل من أحداث اليقظة العربية كلها . فقد عاصر هذا الشاعر نهضة العرب فى عنفوانها ، وعب من النبع الأدبى الذى أجرى فى عروقها سورة البعث ، وعرف رجالها ، وخاض غمارها ، وشارك فى ذلك كله بقلم صادق عف حصيف ، فكان لها على الأيام لساناً يتغنى أحياناً ، ويتأسى أحياناً ، وينذر أو يرشد أحياناً ؛ فهو ابن قرون متطاولة من الأدب العربى ، قد احتشدت لتنتفض انتفاضة البعث فى نصف قرن ، وهو رائد قرون من آمال ومنًى لاتزال فى ضمير المستقبل ، ولكنها احتشدت أيضاً لتولد فى نصف قرن . فهذا الصدر النحيل الذى وصفه الشاعر نفسه بقوله :

اللهَ فى صــدر وَهَى ... وتقوّست منه العظامْ
خاوٍ كجوف الغــار تمــلؤه المخــاوف والظــلام

قد انطوى على طيوف الماضى ومُنى المستقبل جميعاً ، فلما تفطرت فى فطرته السليمة أعارها من خياله أجنحة ومن بيانه قوة ، فاذا هى فى سماء الحياة شعر خالد .

بين نبع رأس العين فى بعلبك ، وأعمدة هيكل الشمس فى قلعتها ، رأت نور الحياة أول ما رأته ، هذه الفطرة العبقرية الشاعرة . وإذا لها من ذلك النبع الرقراق صفاء هو فى النفس صدق سريرة ، وإذا لها من تدفقه الهادئ من جوف الأرض ومن روعة تلك الأعمدة الجبارة ، عزيمة الجبار ولكن بغير صلصلة الحديد . ثم ترعرعت هذه الفطرة بين دوالى الكرم على منكبى « جارة الوادى » ، فتفتحت فيها أحلام الشباب وأزهار العقل ، فرقصت

وشدت ، ثم بلغت أشدها فى بيروت بين قنن لبنان العتاق ، وصفحة البحر الذى هرم الزمان ولم يهرم . وهناك تمرست أول ما تمرست بسورة الصراع الدائر الرحى يومئذ ، بين النفس العربية المنبعثة من طوايا التراث المسترد ، المتطلعة إلى الحق والحرية ، وبين قوى الظلم والجمود التى تحاول أن تلزمها الرغام . ثم شدّت رحالها إلى الغرب ، إلى باريس التى كانت يومئذ موئلا لفئة من أحرار العرب . فلم تكد تلقى عصا الترحال ، حتى وقفت حيرى حيال قرار خطير . ولكن حيرتها لم تطل . وما هى إلا هنيهة من الزمن ، عانت فيها عذاب الكفاح النفسى ، حتى حزمت أمرها على أن تختار . وقد كانت مخيرة فيما تأخذ وفيما تدع : أتغرب كما كانت تنوى أن تفعل ، إلى حيث يكفل لها العيش الرغد والراحة بل الثراء ، أم تشرق فتعود إلى ميدان النضال، وليس فى العودة من شئ مكفول سوى شدائد النضال وآلامه ! ولعل أنصع دليل على الخير المركب فى هذه الفطرة ، وعلى قوة المنى التى كانت تجتاح النفس العربية فى ذلك الحين ، أن فطرة الخليل اختارت أن تشرق ، مؤثرة غمرة الجهاد والكفاح ، على أفياء الثروة والراحة . وكذلك بت الفتى وهو فى باريس ، وعزم أن يعود إلى مصر ، مشيحاً بوجهه عن الشق الغربى من كرة الأرض . فلم يكد يطأ أرضها ، ويحس بعبق التاريخ يجرى فى عروقه مرة أخرى ، حتى انطلقت فطرته الشاعرة على سننها ، وإذا الآثار المنطوية فيها من بعلبك وزحلة وبيروت ، قد أخذت تمتزج بها وتشد من أزرها آثار الجهاد المصرى الرانى إلى نور الحرية والكرامة ، وآثار الجهاد العربى المشوق إلى بعث يعيد عصر المأمون وهارون الرشيد ، وآثار الحضارات القديمة، التى قامت فى هذا الوادى آية تجلو أسرار التاريخ النابض بالحياة المتجددة على الدهور .

وعلى أن خليل مطران كان صحفيا مبدعاً ، فى العقد التالى من سنى حياته وعلى أنه اشتغل بشؤون المال والاقتصاد والزراعة ، فان فطرة الشاعر العبقرى فيه وقفت مرة أخرى ، كما وقفت فى باريس من قبل ، حيال قرار خطير : أتجعل قبلتها فى الشعر أن تجارى الفحول من شعراء العربية أم تجعل قبلتها أن تتمثل خير ماجاء به الفحول ، ثم أن تنطلق فى آفاق الحياة الرحيبة ، حتى تتفتح للشعر العربى أبواب الآداب العالمى ، يأخذ منه ويعطيه سواء

بسواء؟ وفى البيان الموجز الذى صدر به الخليل « ديوان الخليل »، قال:

«عدت إليه وقد نضج الفكر واستقلت لى طريقة فى كيف ينبغى أن يكون الشعر، فشرعت أنظمه لترفيه نفسى حيث أتخلى، أو لتربية قومى عند وقوع الحوادث الجلى، متابعاً عرب الجاهلية فى مجاراة الضمير على هواه . . . مواقفاً زمانى فيما يقتضيه من الجرأة على الألفاظ والتراكيب . . . وذلك مع الاحتفاظ جهدى بأصول اللغة وعدم التفريط فى شئ منها إلا ما فاتنى علمه... ولم أكن مبتكراً فيما صنعت؛ فقد فعل العرب فى كل زمان قبلى، مالا يقاس إليه فعلى . . . فأصرح غير هائب أن شعر هذه الطريقة — ولا أعنى منظوماتى الضعيفة — هو شعر المستقبل لأنه شعر الحياة والحقيقة والخيال معاً ... »

وما كان النزاع الذى دار فى نفس الخليل فى الحالين، نزاعاً يسهل الفصل فيه . وكان الاختيار الذى آثره ووطن العزم عليه، غير مايؤثره السواد من الناس . وليس هذا بالشئ العجيب؛ فالخليل من الصفوة فى كل عصر وفى كل قبيل . والحياة منذ كانت الحياة، لم تتقدم خطوة واحدة إلى الأمام، إلا بفضل القلة المصطفاة من الأحياء التى تأبى المتابعة والمطابقة التامة، وتخرج على الكثرة التى قلما ترضى عنهما بديلا . فتسير هذه الفئة القليلة بالحياة صعداً يستحثها ناموس كناموس الجاذبية لا يرد، يأتيها نداؤه من وراء حجب الغيب، فتلبى النداء راضية مختارة . وهذا فى نظرى سر العظمة فى حياة الخليل وفى شعره . فقد كان فى وسعه أن يغرب وأن يثرى، ولو فعل لكان خليقاً أن ينظم شعراً حسناً، ولكنه اختار أن يشرق، فاذا حياته قد فنيت فى حياة الشرق العربى، أو هى اتسعت حتى تضم حياة الشرق العربى بين جوانحها . وكان فى وسعه أن يجارى الفحول أو يحاول أن يجاريهم، ولو فعل لكان خليقاً أن يستعيم له فى بعض الأغراض قصائد أو مقاطع من قصائد تعد فى الطبقة الأولى، ولكنه اختار أن ينظم شعراً «ليس ناظمه بعبده»، على مايقول، وأن يفتح للشعر العربى باب المستقبل حتى يكون « شعر الحياة والحقيقة والخيال معاً »، و إذا هو بما قد اختار، رائد له من مجد الرواد فضل الإقدام على المجاهل يرفع الستار عن مناكبها .

ولو طلب المال فى الغرب، وأوتى ما طلب، لكان فى وسع العالم أن يسلبه ما آتاه . ولو سعى وراء المتعة فى الشرق أو فى الغرب، ونالها، لكان نيل

المتعة كفيلا فى حد ذاته باضمحلالها . ولو حاول أن يجارى الفحول واستقام له ما يريد ، لما خرج عن أن يكون واحداً من عشرات أو من مئات ، يحذو حذوهم ويجرى على غرارهم . ولكنه أبى كل هذا ، وأركب النفس مركباً خشناً صعب المراس ، ولو هو لم يفعل سوى أن يحزم أمره على هذا الاختيار فى كلا الحالين ، ولو هو لم تواته فطرته الشاعرة العبقرية على آيات وروائع ، لكان حسبه فخراً أنه اختار كما اختار . فليس فى وسع أحد أن يسلبه فضل ما فعل .

ولذلك حين أعود إلى أوراق ديوان الخليل ، التى بليت بين يدى منذ بدأت أطالعها منذ ربع قرن أو أكثر وأقرأ فيها فى قصيدة المساء :

عمرين فيكِ أضعت ، لو أنصفتنى لم يجدرا بتأسفى وبكائى
عمرَ الفتى الفانى ، وعمر مخلدٍ ببيانه لولاك فى الأحياء
فغدوت لم أنعم كذى جهل ، ولم أغنم كذى عقل ضمان بقاء

أقول : ليس هذا المهرجان الذى حجت فيه العربية إليك ، ولا هذا التكريم السامى الذى أسبغه المليك عليك . سوى آية واحدة من آيات البقاء التى كتبت لشعرك ، مادام فى الدنيا عرب يتلون سورة أو يترنمون بقصيد .

والشعر سلّم يرتقى الناس عليه من القريب إلى القصى . ومن المدرك إلى الخفى ، ومن الحياة التى أسدل على وجهها برقع كثيف ، إلى الحياة فى جوهرها المطلق الرحب المنبسط أمام وجه الشمس . والشاعر يصنع لنا هذا السلّم من خيال يرى ما لا نرى ، وشعور يحس ما لا نحس ، وفكر يدرك الحقيقة المستترة وراء ظواهر الأشياء . وأنت تقف إلى جنب الشاعر فلا ترى مأساة الدهور فى الوردة الذابلة ، ولا صراع الحقيقة أو الظلم أو الفضيلة ، فى سيرة الرجل المسجى أو الجنين المجهض أو الشمس الغاربة ، ولا الآمال والمنى التى تموج فى صدور خلائق هى « عد الرمال » . حتى إذا نطق الشاعر رأيت بعينه ، وسمعت بأذنه . وأدركت بعقله ، وإذا ستار من الأستار المسدلة على روائع الكون ومعجزات الحياة ، قد رفع قليلا فرأيت مشهداً يفتن الألباب ، وألفيت ضياء يدنيك قليلا من فهم الحقيقة .

وشعر الخليل حافل بآيات رائعة على هذه الأغراض التى ينشدها الشعراء ، ولا تتم نعمتها العلوية إلا لكبارهم .

مختارات من شعر مطران

فى الكفاح

ليس بالكفء لعيش طيِّبٍ   كلُّ من شقَّ عليه العيش حرًّا

ليت البلاد التى أخلاقها رَسَبت   يعلو بأخلاقها تيّار طغيان
النار أسْوَغُ ورداً فى مجال عُلىً   من بارد العيش فى أفياء فينان

ولكنَّ قوماً يذودون عن   حقيقتهم من يد المعتدى
ويدفعهم حبُّ أوطانهم   ويجمعهم شرَفُ المقصد
وإن غالبتهم جيوش المنايا   تغالَبْ ، وإن جاهدت تُجْهِدِ

فى الدعوة إلى اليقظة

نمنا على جهل وقد   عاش الكرام ونحن لم
فإذا انقضتْ آجالنا   فمن الرقاد إلى العدَمْ
وإذا بُعثنا بعدها   فكأنها رؤيا حُلم

لا يعصم الأمم الضعيفة فطرةً   إلا فضائلُ بالتجارب تكسب
فتكون حائطها المنيعَ على العدى   وتكون قوتها التى لا تغلب

ولم أرَ شيئاً كفضلة ثابتاً   نَبَتْ عنه آفات البلى والمعاطب

فى صور الطبيعة والنفس

يا للغروب وما به منْ عَبْرةٍ   للمستهام ، وعِبرة للرائى
أوليس نزعاً للنهار وصرعة   للشمس بين جنازة الأضواءِ
أوليس طمساً لليقين ومبعثاً   للشك بين غلائل الظلماءِ
أوليس محواً للوجود إلى مدى   وإبادة لمعالم الأشياءِ
حتى يكونُ النورُ تجديداً لها   ويكون شبه البعث عود ذُكاءِ

وكم فى فؤادى منْ جراح ثخينةٍ يحجّبها بُرْدایَ عن أعين الناسِ
أرى روضةً ، لكنها روضة ذوت وأصغى وما فى مسمعى غير وسواسِ
وأنظر من حولى مشاةً وركّباً على مُزْجَيات من دخانٍ وأفراسِ
كأنى فى رؤيا يرفُّ الأسى بها طوائف جنٍّ فى مواكب أعراسِ

أنا الأسد الباكى أنا جبَلُ الأسى أنا الرمسُ يمشى دامياً فوق أرماسِ

وكان يهمُّ الصبحُ أنْ يتطلعا وينتضَّ أزرارَ السماءِ ليسطعا
ويرفعَ ثوبَ الليل عنهُ ليخلعا فلم يطوِ منهُ الذيلَ إلا وقد وعى
دماً طاهراً أجراهُ إثم فتى نذلِ

وإلى ذلك كله كان قلم الشاعر فى يد الخليل مزماراً يوقع عليه ألحان الوفاء لمن يرحل من لداته ، حتى صار ديوان مراثيه صفحة مشرقة من تاريخ هذه الحقبة الحافلة بالعظماء .

إلا أننى أحس أننى أظلمك أيها الخليل ، حين أقسّم وأبوّب وأستلّ من شعرك أبياتاً من هنا ، وأبياتاً من هناك ؛ فما كان البيت فى قصيدك غاية تحدو إليها ركائبك ، ولا كان المعنى الحاصل فى شعرك منفصلا عن المعنى العام الذي يضم الحياة كلها . ولكن ما حيلتى ! فلا بد لى من شئ كالوشور يحلل ذلك الضياء المتوهج المنبعث من فطرة شاعرة عبقرية . مازال سناها يغمر العالم العربى منذ نصف قرن أو يزيد .

فانفحنا أيها الخليل ، مد الله فى عمرك ، من جديدك ، أو انشر علينا من قديمك شعراً نسمو به فوق ذواتنا الصغيرة إلى مسابح النجوم .

« تالله ما ظُلَلُ الغمام معاقلٌ تَنْأى عليكَ ، ولا النجوم حصون»

فؤاد صروف

عالم البيت فى مسرحيات بلوتس

مما يقال عن بلوتس ، الكاتب المسرحى الرومانى العظيم (٢٢٧ — ١٨٤ ق . م) ، إنه كتب عن نفسه سطوراً أعدها للنقش على قبره جاء فيها : « منذ وفاة بلوتس غرق فن التمثيليات الهزلية فى حزن عميق ، فأقفر المسرح ، وهزم البكاء الضحك واللعب والمرح والشعر » . ونحن لا يهمنا أتكون هذه الرواية صحيحة أو ملفقة ، وحسبنا أنها تدل على اعتراف بلوتس بعبقريته ومنزلته فى عالم الفن . وقد استوحينا من هذه السطور فكرة العكوف على دراسة آثار عظيمة الشأن ، لكثرة ما انطوت صفحاتها من معان قيمة ، ولمدى النجاح الباهر الذى لازم تمثيلها ، ولخطورة المسائل التى أثيرت حولها على مر الأزمنة والأجيال . وما أكثر ما مثلت مسرحيات بلوتس بعد موته مثيرة فى كل مرة نفس الرضا والاستحسان ، حتى لجأ متعهدو الحفلات إلى الاكتناف باسم بلوتس كلما أقدموا على تنظيم مسرحيات لكتّاب لا يعرفهم الناس . ويقول عنه هوراس إنه كان ممن تهتم روما بدراسة آثارهم ، وتتسابق إلى الملاعب الضيقة لتنعم بمسرحياتهم . وكذلك يعترف له فارون ، وكيكرو ، ويلين بالسبق فى عالم الحوار ويعادلون بينه وبين نوابغ الفن الهزلى الجديد .

ولندع المشكلات العديدة التى عالجها النقاد بمناسبة مسرحيات بلوتس لتحديد عددها أو للكشف عن المصادر اللاتينية واليونانية التى استقى منها الكاتب بعض عناصر خاصة بالموضوعات والأبطال والمواقف الهزلية ؛ لأن هدف هذا البحث هو الوصول إلى الناحية الإنسانية ، قبل أية ناحية أدبية أو علمية . والشئ المجدى فى المسرحيات الهزلية بنوع عام ، سواء كانت من تأليف أريسطوفان أو بلوتس أو موليير ، هو أنها تتحف الشاهد أو القارئ بصورة صادقة للحياة . وهناك جوهر باق دائماً ، لا يمسه اختلاف العصور

والأجيال ، ولا تغير الأوضاع الاجتماعية والالتزامات الخلقية ؛ فالأبطال تتبدّل أسماؤها ، وتختلف مراتبها فى الحياة ، ولكن الحقائق البشرية ثابتة على ماهى عليه ، لا انحراف فى تيارها ولا اضطراب . أما اللذة التى نلمسها عند مطالعة مسرحيات بلوتس التى لم يعمل فيها الدهر ، ولم يلمّ بها النسيان ، فهى راجعة إلى التقارب ، المسلى حيناً والمخجل فى أكثر الأحيان ، الذى يجول بخاطرنا أثناء المطالعة ، بين العالم الذى نقله بلوتس إلى المسرح والعالم الذى نعرفه نحن ونعيش فيه . وأين السبيل إلى حياة لا تفرض علينا معاملة الأشخاص التى طوى عليها بلوتس صفحات آثاره ، من أهل السوء والفساد ، والبطل المغرور بنفسه المفتون بها ، والطفيلى الثقيل النفس ، والمادى الذى لا يؤمن إلا بماله ، والرقيق الماكر ، والمرأة الخليعة الخادعة ، والعاشق الخامل أو العنيف الغيور ، والأب القاسى أو الضعيف الخ . . .وينبغى ، إذا أردنا أن نجيد معرفتهم ، وأن نتبين ما لبعضهم من شخصيات وطبائع ، أن نحصرهم فى نطاق أضيق إلى حد ما من نطاق المسرحيات التى يظهرون فيها من وقت إلى وقت . ونحن نقصد فى هذا المقال عالماً بعينه فى مسرحيات بلوتس وهو عالم البيت ، أو بتعبير آخر : الحياة المنزلية الخاصة ؛ وأفراد الأسرة هم ، بطبيعة الحال ، أول من يواجهنا عند دخولنا بيتاً .

إذا نظرنا إلى الآباء وجدنا الطيب منهم مثل « هانون » (فى مسرحية القرطاجى) الذى يجد ويبحث ، ولا يستسلم لراحة ما قبل الاهتداء إلى ابنتيه ؛ ومثل « ديمونس » (مسرحية الحبل) الذى يهجر المكان الملىء بذكريات ابنته بعد أن فقدها ، وينتقل إلى عزبة نائية على شاطئ البحر . ويبدو لنا أن هناك بعض التشابه بين شخصية « أيجيون » (مسرحية الأسرى) وبين « ديمونس » وقد أثر عطفه الأبوى فى حياته اليومية ، فأصبح متسامحاً متساهلا مع رقيقه ، عطوفاً متقرباً إلى مواطنيه ؛ ولا عجب فى ذلك إذا فطنا إلى نفسية « أيجيون » وهو الأب المتألم الذى تمر بخاطره صورة ابنه الأسير فلا يفكر إلا فى تحريره . وقد يحدث أحياناً أن تسمو العواطف النبيلة بالآباء إلى حد يكاد ينسينا أننا فى صميم المسرحيات الهزلية . لنضرب لذلك مثل « فيلتون » (مسرحية الثروة) ، إنه يحث ابنه على الفضيلة ، وهو يؤثرها

على المال والجاه ؛ ولنسمعه يحدث ابنه قائلا : « إذا أردت أن تضمن لنفسك كمال الحكمة ، فلا تظن فى يوم ما أنك حصلت على قسط كاف منها » . وفى موضع آخر : « أضف بعض الحسنات إلى بعض ، فلن يصيبك أحد بسوء » .

غير أنه واضح أن بلوتس ينقلب على الآباء كلما تقدموا فى السن ؛فهم حينئذ مهما صنعوا مخطئون ، وعلى كل حال معرضون للنقد والسخرية . وقلما ينشأ خلاف بين هرم وابن فاسد أو مبذر حتى ينهض عبد ماكر ، فيندس بينهما ، فيخدع الأول ويسلبه قيمة ديون الابن المسرف ، ويستدرج الشيخ إلى أفدح الحلول وأثقلها . ونحن نسخر من « أوكليون » (مسرحية القدر) لكثرة مايساور نفسه من قلق وخوف وشك ؛ وفى مسرحية « الباكيس »، شيخ مستهتر اسمه « نيقربول » يجمع فى نفسه كل ما يمكن أن يتصوره الانسان من حمق وبلادة وبلاهة ، غير أنه يذهب إلى أبعد من ذلك ، فيقع فى شباك فاتنة من بنات اللهو والسوء ، فيذكرنا بتصرفه « ديفون » (مسرحية البائع) إذ أنه ، على كبر سنه ودنوه من الموت ، يظن أنه قد دب فى عروقه دم الشباب ، فيأتى من الأعمال ما لا يليق برجل فى سنه ؛ وأنت تسمعه مثلا يقص على أصدقائه تفاصيل مغامراته ، أو تراه يمكر على زوجه فى وقاحة وقبح ، وهو يقول : « لم يبق لى إلا القليل من العمر ، وأنا أريد أن أمضى هذا الوقت بين اللذة والخمر والحب » . وفى مسرحية « الحمّار » ، يهبط الفساد بشيخ إلى أسفل الذل وأرذله ، إذ ينقصه المال ، ويضيق برقابة زوجه فيتملق رقيقاً خسيساً ، ويتودد إليه ليشركه فى لهو ابنه ومجونه .

والأمهات فى آثار بلوتس كالآباء يختلفن كل الاختلاف فى أخلاقهن وعقلياتهن . فهناك الأم الساهرة على أبنائها مثل « أنومى » (فى مسرحية القدْر) ، إنها تسعى ما استطاعت ليتحقق أمل ابنها فى الفتاة التى يحبها مع افتقارها إلى المال ؛ ولكن حبها لا يفقدها قدرتها على إدراك الأمور كما يجب أن تدرك ، ولا يقوم عقبة فى سبيل حبها لأخيها موجادور ؛ فهى ، وإن كانت تؤثر أن يبقى أخوها أعزب ليعود ماله إلى ابنها ، تجد له امرأة غنية فى سن تناسبه ، لكنها لا تلومه على انصرافه عن الزوج التى اختارتها له ، وتعلقه

بفتاة فقيرة . أما فى مسرحية « أنفيتريون » فموقف « أكين » ، على دقته وشذوذه ، لا تشوبه شائبة ؛ فهى محتفظة بكرامتها من أول القصة إلى آخرها ، و إخلاصها لزوجها مما يزيد شكوكه إهانة و يزيد « أكين » غضباً وشقاء .

غير أن مسرحيات بلوتس لا تزدحم بأمثال « أكين » و« أونيمى » ، ويكفينا برهاناً أن نصغى إلى « أونيمى » وهى تتحدث إلى أخيها : « إن الذى يليق برجل مثلك يا أخى هو أن يقول الحق .من المحال أن يعثر رجل على امرأة كاملة » . والواقع أن المرأة فى نظر بلوتس هى فى الغالب عبارة عن عقاب يفرضه الرجل على نفسه عند ما يضحى بحريته فى سبيل بائنة يبتغيها ؛ ومن هنا كانت ثقة المرأة بنفسها ، واعتدادها برأيها ، و إيمانها بسلطانها . لتسمع مثلا « دوريب » (مسرحية البائع) تندد بزوجها : « ها هو ذا الرجل الذى ائتمنته على شخصى ومالى ،ها هو ذا الوحش الذى قدمت له مهراً جسيما » ؛ ولكن أين « دوريب » من « أرتيمون » (مسرحية الحمار) ؛ فقد برعت تلك الأخيرة فى فرض إرادتها على زوجها ، فلم تسلمه درهماً من مهرها ، ليقنع بما تنزل عنه له من حين إلى حين ، وقد سلمت مالها لرقيق يدبره ويستثمره ، ورجل مثل « موجادور » يعلم علما يقيناً أن ثروة المرأة الشخصية سلاح مرعب ؛ ولذلك نفهم لِمَ يعترض على الزواج من ثرية ،وهو يقول : « تخضع المرأة دون مهر لسلطة زوجها ، على حين تكون المرأة ذات المهر له مصدر شقاء وعذاب » ، وتفهم أيضاً لم تزوج من فتاة فقيرة . أما حديث « بريبلكتومين » عن المرأة (مسرحية الجندى الفخور) لحديث قاطع بأن المرأة الرقيقة حلم لا يتحقق ، ثم يقول : « إنه شئ محبوب أن يكون للانسان امرأة طيبة القلب ، ولكن أين يوجد على وجه الأرض مثل هذا الكنز ؟ » ونحن لسنا فى حاجة إلى تبيين مافى هذه الآراء من غلو وجور .

أما الشبان من فتيان وفتيات ، فبلوتس لا يظهرهم على المسرح إلامشغولين بالحب . والحب فى الواقع من أهم العوامل التى تكشف كل قناع عن الشخصية ، « فليزيتيل » (مسرحية الثروة) متيم ولكنه قوى النفس ، لا يحجم عن المجهود اللازم لاخماد لهيب الشباب ونزعاته ؛ وهو يتطلع إلى مثل عال يصرفه عن اللذة الرخيصة التى هى آفة الرجولة ، بل هو يقيم حساباً

ووزناً للأسباب المتضاربة المتناقضة قبل أن يقف عند حل معين ، فالحب فى نظره « مفسدة للاخلاق ، يجذب الانسان إلى هاويته ، فيجرده من ماله . » وليس « ليزيتيل » من عابدى الثروة ، المحافظين عليها ، ونراه على عكس ذلك ، يتزوج من فتاة دون مهر ليعين أباها الرجل المسرف . أما «بيستوكلير» (مسرحية الباكيس) فهو مثال الشاب الذى يفتنه الحب فجأة ، فى مستهل الحياة . ومع تأثره القوى بعظات مربيه الحكيم ، فانه يلعب بالنار إلى أن يحترق ، وبدلا من أن يتقى شر الفاتنة التى تستعطفه ، وتلتمس رعايته ليحميها من جندى تخشى بطشه ، نراه يجادلها ويناقشها ويفاتحها فى الخطر الذى يلحقه إن هو طاوعها وأذعن لإلحاحها ، جاهلا أو متجاهلا أن عمله لا بد مؤد إلى الهلاك . ولننصت إليه وهو يرد على « باكيس » التى ترجو منه ألا يتركها : « ما أنت فى حاجة إلى أن تطلبى إلىّ فى إلحاح أن أعود إليك ، وأنا لا أقوى على فراقك ، ولو عزمت عليه ، فقد أصبحت شيئاً هامداً تفعلين به ماشئت أن تفعلى ، مادمت أسير حبك » .

ونجد فى مسرحية « كركوليو » « فيدروم » وهو الشاب الهوائى الخجول، الذى ينتظر ساعات الليل ليلتقى بعشيقته وهى « عسل قلبه » ؛ أما الباب الذى تقف خلفه محبوبته « فأعز عليه من مقلة عينه » ؛ وهو عند مايتاح له أن يراها ، يتغنى أمامها بأنشودة العشاق ، ويأتى بالأساليب المألوفة ، فتارة يشقى وتارة يسعد ، وتارة يشكو وتارة يبتهج ، وهو دائماً مضطرب بين الحنين والحسرة .

وأقطع دليل على العذاب المضنى المهلك الذى يؤدى إليه الهيام ، هو ماحدث « لالسيزيمرك » (مسرحية السلة) ؛ بلغ به الحزن مرحلة الجنون ، فاضطره إلى الاعتراف بأنه : « معذب ، موزع ، مضطرب ، مصاب ، مقلب على كل وجه » وفى موضع آخر : « أريد وفى نفس اللحظة لا أريد ، هكذا يسخر الحب منى ومن قلبى » . وإذا حيل بينه وبين رؤية الفتاة التى يحبها ، تراه يفكر فى الاثم والانتحار ، ثم يقبض على خنجر ويصيح ، وهو على شكل لا يخلو من إثارة الضحك : « رحّب بى يا موت وضمنى إلى صدرك ؛ انى مقبل عليك كصديق ، ومسرع إليك بكل إرادتى » . ثم يطول عليه المقام ، فيغير نغمته ويسائل : « ترى ، أين أسدد الضربة ؟ هنا أو إلى اليسار؟ »

وما من شئ يهدد الصداقة ويعكر صفوها ، مثل الحب وما يبعثه من غيرة . يعهد « منيزيلوك » إلى صديقه « بيستوكلير » فى مسرحية «الباكيس» ، أن يفتش له عن عشيقته، ثم يسمع أنه عثر عليها وحررها واستأثر بها ، فييأس من الثقة والايمان ، ويثوب إليه القنوط ، ويذعن للشك ؛ ولكن تأتى الساعة التى يأسف فيها العشاق ، تحت تأثير السآمة أو الحكمة ، على مجونهم، فيكفوا عن الحب وجنونه . وفى مسرحية «البائع» ، يأسف « شارين » لأنه انزلق كغيره على منحدر الشر ، بعد أن فقد تقدير والده ومودته ؛ ولكن ساعات الأسف والتوبة قصيرة على كل حال ، ولا تلبث أن تتلاشى وتزول أمام أول مغامرة .

ومن المتعذر أن نطيل الحديث عن الفتيات ؛ فقد كان اختلاطهن بغيرهن من الناس نادراً وقتئذ فى روما ؛ فلا غرابة أن نرى فى مسرحية «البائع» فتاة ماهرة عاكفة على عملها مثل « باسيكونبسا » ، لا تخشى منافسة أية فتاة فى عمرها ، فيما يتعلق بطراز الصوف ؛ وهى فى حبها مخلصة لمن يقع عليه اختيارها . وكذلك تحاول « فيلينى » (مسرحية الحمار) ، فى مهارة واحترام ، أن تلوم أمها على الطريقة التى تسلكها معها ، إذ أنها تصرفها عن عاشقها ، مع أنها أعدت نفسها لقبول أية تضحية فى سبيل حبها : « سأعانى الجوع يا أماه ، إذا أسرتنى به » ، وهى تعبر عن شعورها وعطفها فى أساليب رقيقة عذبة فتقول : « إن الراعى الذى يعنى بقطيع سيده ، له شاة يتركها له مولاه لتكون أمله فى الحياة ؛ فدعينى يا أماه أخص أرجريب بحبى وليكن حبيب قلبى ، مادام هو الذى اصطفيته » .

و« سيلينى » (مسرحية السلة) شبيهة « بأسيكونبسا » و « فيلينى » ، فانها وهبت حبها لشاب دون غيره ، ولا تقوى على رد العذاب عن قلبها كلما غاب حبيبها : « إنه سيأتى ! ما أبطأ هذا اللفظ فى نظر المحب ، ولماذا لا تقول إنه آت ؟ » ثم تعلم أن « السيزمرك » مقبل على الزواج من بنت عمه ، فتحزن لهذا الخبر ، ولكنها تمضى تقول : « إنى أعزه مهما أقدم عليه من عمل » . وتلح على « جيمنازى » فى أن تحدثه فى هدوء ولطف وألا تقول له شيئاً يؤذيه .

إذا كان عالم البيت فى المسرحيات التى نعرض لها لا يحتوى إلا على آباء يمتازون بعطفهم على أبنائهم أو بنفورهم منهم ، و بحسن سلوكهم أو قبحه ، وعلى زوجات وأمهات كاللاتى رأينا ، وعلى شبان يلعب الحب على أنواعه فى حياتهم الدور الأول ، دون أن تتسرب إلى هذا العالم الضيق المحكم شخصية خفيفة الظل ، حلوة الحديث ، مشرقة الوجه ، غريبة الحيل — تعذر علينا أن نلمس مصدر الضحك والفكاهة والمرح فى مسرحيات بلوتس ؛ هذه الشخصية هى بالذات الشخصية التى فطن موليير إلى أهميتها فى عدد كبير من تمثيلياته ، أعنى الخدم والرقيق .

يضحكنا الرقيق بمداعبته من يقابلهم فى الحياة ، وهو يمكر ، وينصب الشراك ، ويدس لهذا ، ويأتمر بذاك ، ويخلق المصاعب لثالث ، وكل ذلك فى شئ من الحرية ؛ لأنه يسعى لغيره ولا يبتغى أية نتيجة أو فائدة من وراء عمله ؛ لا أثر إذن لمصلحة فردية فيما يفكر فيه ويقلبه فى ذهنه ، أو يرتجله لانقاذ موقف حرج ؛ وهو يتوقع فوق كل ذلك أن يكون الضرب بالعصا ، والتقييد بالسلاسل ، والعمل فى الطواحين ، جائزة نجاحه أو إخفاقه . وقد اختار الرقيق لنفسه لتهدأ ولباله لينعم ، ألا يعير أى اهتمام لتلك الأمور القاسية فى ذاتها .

يطيل « مسينيون » (مسرحية « المنكم ») و « ستروبيل » (مسرحية القدر) البحث فى مميزات الرقيق الكامل ؛ وهو فى نظرهما ، العبد الذى ينفذ لساعته ، وعن طيب خاطر ، أوامر سيده . تلك الأوامر التى لا بد له أن يتدرب على إدراكها ، أو بعبارة أخرى : يتمرن على التنبؤ بوقوعها ، ومن واجبه أن يتنبه إلى كل كبيرة وصغيرة ، ولا ينقطع عن التفكير فيها ، كما عليه أيضاً أن يدبر المال ويستغله باخلاص . والرقيق المثالى هو الذى يعيش دائماً فى خوف من التورط فى خطأ أو سيئة ؛ لأنه من الحمق أن يغفل عن العقاب الذى ينزل بالرقيق البليد أو السيئ السلوك .

ولكن من العبث أن نغلو فى حسن ظننا بالرقيق ؛ فاذا تيسر لهم أن يعرضوا على سادتهم ، ولا سيما الشبان منهم ، حلاً لموقف عسير مصدره فى أغلب الأحيان حاجتهم إلى المال ، فهم لا يخضعون فى ذلك لاخلاص يدفعهم إلى الخير فحسب ، بل لعقلية خاصة ، ولغريزة قوية تحثهم على المكر والخداع

والمغالطة من جهة ، وعلى مقاومة الصعاب والتغلب عليها من جهة أخرى .

والشخصية التى صورها بلوتس ببراعة فنية قلما نجدها عند غيره هى شخصية « إيبديكوس » فى المسرحية التى سميت باسمه . وإليك فكرة وجيزة عن الدور الذى يلعبه فيها : يبحث الشيخ « بريشان » عن فتاة غير شرعية أنجبها فيما مضى من الزمان ، فى حين يهيم الشاب « ستراتيبوكليس » بمغنيـة ، فيتدخـل الرقيق بينهما بحيله المألوفة وبلاغته المقنعـة ، فيوهم الشيخ بأن عشيقة ابنه هى الفتاة التى يبحث عنها ، فيعتقها الشيخ ؛ ثم يقع ما ليس فى الحسبان ، إذ أن « ستراتيبوكليس » يعود من سفر ، وفى صحبته أسيرة يحبها ، فيأمر عبده بأن يحصل له على المال اللازم لشرائها ، فيذعر « إيبيديكوس » ويضطرب ، وقد فهم من أول لحظة أنه لابد من أن ينقض حيلته السابقة ، وأن يهدم بيديه ما عمل على تشييده ؛ ونراه يسعى إلى الشيخ ، ويظهره على سر ابنه ، أىَ إن له عشيقة فى المدينة ، ربما ضحى بمال جسيم لتحريرها ؛ فيفزع الشيخ ، ويرجو عبده أن يمده بحل معقول ؛ فيطيل العبد التفكير ثم يقول: « اعمل كأنك تريد أن تحرر الفتاة لنفسك لتنعم بحبها ، ثم ارسلها حيث شئت بعيداً عن المدينة » . فكانت نتيجة ذلك أنه عهد إلى « إيبيديكوس » بذلك الإجراء ، فقدم لسيده الشاب المال اللازم ، ولسيده الشيخ فتاة محررة من زمن بعيـد . ثم يأتى منافس يريد أن يشترى عشيقة الشاب ، فيحاول العبد الماكر الماهر أن يبيع للمنافس الفتاة التى سبق أن قدمها للشيخ . وهنـا تفسد الأمور ، ويكاد السر يفتضح ، ويجد « إيبيديكوس » نفسه مهدداً من كل صوب . ولـكن ، لحسن حظه ، يتضح أن الأسيرة هى بالذات الابنـة غير الشرعية التى طالما بحث عنها الشيخ : فيهدأ بال « إيبيديكوس » ويفيض قلبه أملا فى الخلاص وهو يقول للشيخ : « لماذا تجهـد نفسك فى التفتيش عنى . . . هأنذا . . . لا أطلب أن تعفو عنى ؛ تريد أن تغلنى ؟ إنى أمد إليك يدى . . . أسرع وضع فيها الأغلال » ؛ فيختلط على « بريشـان » أمره ، ولا يتبين شيئاً من تلك الجرأة وذلك التهكم ، حتى يلمس عند عبـده حقيقة الأمر ؛ ويتعرف الشيخ على ابنته ، فيسرع لفك أغلال « إيبيديكوس» فيمتنع هذا الأخير حتى يلح « بريشان » ويتوسل إليه ، فلا يجد الشيخ مفرا من الاذعان ، بل إنه يحسن على عبده ، ويرد إليه حريته .[1]

من المتعذر أن نختم هذا المقال بحكم قاطع على مسرحيات بلوتس . وكيف يكون الحكم عليها بعد مجرد تعليقات على الشخصيات التى يتكون منها عالم البيت؟ وإن دلّ هذا البحث إلى شئ فانما يدل على قدرة بلوتس على الابداع الفنى وضمانه حركة وحياة للعالم الذى شيده .

ونحن نعلم جليًّا أن مسرحياته لا تخلو من بعض التناقض فى تحليل الشخصيات ، وأن الوصف فيها يكاد يكون كاريكاتوريا ، إن صح هذا القول؛ ولكن هذا لا يقلل من قيمة تصويره ووصفه وتحليله ؛ فهو دقيق حينما يلاحظ ويرقب من حوله ، وموفق عندما يتخيل ويتصرف ، وبارع كلما حاول أن يلهم الحياة لمخلوقاته ، فهو يفكر ويعمل ويتحدث ويشعر مع أبطاله كأنه واحد منهم ، وربما صادفهم فى مدن اليونان والشرق ، وعلى كل حال ، فقد تردد عليهم وألفهم فى روما . فأحسن إدراك أخلاقهم وشعورهم والأدوار التى يلعبونها فى الحياة ؛ ثم دوّن فى ذاكرته ، ثم فى آثاره ، الألفاظ التى يستعملونها ، والحركات التى يأتون بها ، والمواقف التى يختارونها ، متمشين فى كل ذلك مع الضرورة والحاجة والطبقات الاجتماعية التى ينتمون إليها .

وأنا أسلم أنه تعلم ، فى أغلب الظن ، فن المسرح ، ولا سيما العناصر الهزلية ، فى مدرسة من سبقه من الكتاب مثل منادر ، وفيليمون ، وديفيل ؛ ولكنه لم يلقنه أحد الشخصيات التى يدين بها لعبقريته ومواهبه الفنية ؛ ثم لم يعلمه أحد سر تفهمها وتصويرها بالدقة والبراعة التى يشهد له بها كل من تصفح مسرحياته .

ريمون فرنسيس

PORTRAIT DE L'ARTISTE
HENRI EL KAYEM

صورة الفنان

هو ذا ، على يمين جماعةٍ فى السامر مقبلين على سَمَرهم ، قصيرُ القامة رَبْعةٌ ، متشبثٌ بغليونه كما تعلق المنظر الطبيعى بمركب ، ضاحكُ السنّ ، لأن الضحك يشتمل أيضاً على اليأس .

☆

وهو صامتٌ طويل الصمت ، متطلعٌ إلى معرفة السرّ فى صمتك . قد أجمع العزمَ على مَضَض أن يكون فى جملةِ الزمرة ، ولكنه مع ذلك متحاملٌ على نفسه لكى يقترب من نفسك من حيث لا تشعر .

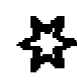
وهو أحياناً يتكلم ، ولكنه سرعان ما يذكر أن الكلام هو الطريق الأعظم للخيال ، وأنه فى الاستطاعة أن يقصّ على سامعه المُجامل المُواتى حكايةً لا آخر لها ، وأن الحكاية إذا انبسط حبلها كانت حبلَ بهلوان ناهيكَ به من حبل . فاذا هوى إلى الواقع اقترن ذلك منه بضحكةٍ مكتتمَةٍ مقتضَبة .

☆

ثم هذا هو كذلك ، فيما وراء ذلك . ظاهرُ الاذعان والتسليم ، أمامَ لوحة تصوير ، يُشهدكَ على ما فى هذه المهمّة من العُسر والمشقة ، ويسألكَ — وإنما نفسَه يسأل قبل سواها — ألم يكن من الأحجى والأرشد لو اتجه غير هذه الوجهة ونهجَ غير هذا النهج . وينظر البعضُ إلى هذا الاتّضاع على أنه كبرياء . ألا حيُّوا هذه الكبرياء التى تبسط يدها وتتصدق عليكم بدينار من الذهب النضار .

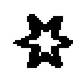


انحدر مُنْفَلِتاً من جبال المناطق الحارة ، جارياً حول تقاطيع جسم الأرض وأعطافها ، مزمجراً عند مساقط الشلالات ، هامساً بين أوراق الشجر ، معانقاً للبساتين ، معتدًّا بقوته ، حاملاً رسائل من بعيدٍ يؤديها للفلاح ، ويؤديها كذلك إلى عاشق الأحلام . ذلك هو النهر .

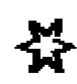


إنها هنا ، في كل مرحلةٍ من مراحل تطوّره ، كأنّ شيئاً لا يمكن الابتداء به من غيرها . وجهٌ وسيمٌ كان من حظ الرسام ، ليكون له معدنَ صفاء في أيام الشقاء .

وما أعرف شيئاً له من الروعة في حياة الإنسان ما لوجود الطفلة ، لا شيءَ أعجب منها ، هنا في أوحال أنوائنا ، وألوان المواثيق المختلفة في أقواس سمائنا . في قربها تنمحي كهولتنا ، لأن شبابها الناعم بمحض وجوده يكفل للزمن نظاماً عَجَباً .



في معرض عُرضت فيه تصاوير للأطفال ، استجمع الفنان قصةَ حياته مجملةً ، ضاحكاً من عبثهم بالمنظور ، متعجباً من أنه ما برح شديدَ القرب من دهشتهم الحائرة .



في الصيف ، استولت على الرياض فترة . وعانت زرقةُ السماء كل أنواع العَنَت ، وهذه سكينة الظهيرة كلالٌ وإعياء . وإذا كان الفنان راقداً في غرفته في الطابق الأول ، فان أحلامَه ماضيةٌ به إلى منظر الطبيعة منذ الماضي القديم السحيق : امرأةٌ منصوبةُ القامة واقفةٌ ، وصدرها مشرئبٌ في مهابّ الريح ، فخورٌ بأنها المرضع الرءوم لهذه الأرض .

هنري القيم

نقلها عن الفرنسية عبد الرحمن صدقي

BRITAIN, WAR-CHANGED AND CHANGELESS

HENRY BAERLEIN

بريطانيا التى غيرتها الحرب ولم تتغير*

من الطبيعى أن يسائل المرء بعد حرب كبيرة متى تعود الأمور إلى ما كانت عليه من قبل ، بحيث تكون فى الوضع الذى كان يعتقده عاديا . على أنه لو لم تقم الحرب ألا تتغير الأمور فى الدولة غير الراكدة بحيث يصبح ماهو عادى اليوم غير عادى فى الغد ؟ هنالك المثل الفرنسى القائل كلما بدت الأمور متغيرة كانت متماثلة ، فكيف نوفق بين هذه المتناقضات فى الظاهر ؟ إنا سنحاول إثبات أن بريطانيا اليوم تختلف عنها فى السنوات السابقة للحرب الأخيرة ، وأنها فى الوقت نفسه لا تزال هى بريطانيا تلك الأيام .

ماهى التغيرات البارزة التى سببتها الحرب ؟ أول مايبرز للعيان التغيرات المادية ؛ ففى لندن وفى غيرها من المدن الكثيرة جروح شريفة وأرض فضاء حيث كان يقوم هنا بناء وهناك آخر ، وساحات نمت فوقها الأزهار البرية التى هى أكاليل تبجيل للحداد . على أن هذا الدمار ليس هو أهم الخسائر الهامة التى تحملتها بريطانيا . فلقد كانت خسارتها فى قوى الرجال فادحة . ولاريب فى أن شباب الأمة كانوا السواد الأعظم من الضحايا التى قدمت على مذبح الأقدار ، فصار ما بقى من الأيدى لا يكفى للقيام بالأعمال . ثم فى الوقت نفسه ، لا يستطيع أولئك الذين خدموا فى الجيوش المسلحة ، وعاشوا عيشة تختلف كل الاختلاف عن دورة الصناعة المستمرة ، أن يوطنوا النفس على حياة تسير على وتيرة واحدة . فالجواد الذى ربى للسباق ليس أصلح جواد يشد إلى العربات . والكثير من هؤلاء الشبان نشأ فى وسط متضع وارتفع إلى مرتبة عالية فى الجيش . وليس عجيباً ألا يرغب بعض هؤلاء فى العودة إلى المكان الذى كانوا يشغلونه لو لم تقم هذه الحرب . وإنى لأعرف رجلا

---

* كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

كان يعمل فى حانوت أبيه الذى يبيع أدوات الطهى ولوازم البيت فى بلدة من البلاد الواقعة على شاطئ البحر ، وقد وصل فى الجيش إلى مرتبة كابتن ، وأبى أن يعود إلى مهنة البيع . غير أن ساقى النبيذ فى النادى الذى اشترك فيه ، ارتفع فى الجيش أيضاً إلى مرتبة كابتن ، ومع ذلك آثر أن يعود إلى عمله السابق . وبينما يضع على صدره شارة لا تمنح لغير الضباط ، نراه يقوم بعمله خير قيام كما يجب أن يفعل ساقى النبيذ دائماً فى الأندية ، وهو يخاطب رجالا هم أصغر منه سنا ، ولو استمرت الحرب لكان يصدر الآن إليهم الأوامر ، بكل مجاملة ، وكلمة « سيدى » تختم كل عبارة من عباراته . والواقع أن هذا المسلك يتوقف على طبيعة الشخص .

ذكرنا أنه لم يبق فى بريطانيا من الرجال ما يكفى للأعمال التى ينبغى القيام بها . فلنسائل إذن لماذا لا يظل النساء بعض الوقت فى عملهن ، وقد سبق أن حللن محل الرجال فى ميادين عدة داخل بريطانيا ؟ لقد نفذ هذا الإجراء لحد ما ، فقد استمر آلاف من الفتيات اللاتى عملن فى سيارات الأجرة فى عملهن بناء على رغبة السائقين الذين وجدوا منهن خدمة صادقة ، وتستطيع الفتيات القيام بهذا العمل بمثل الكفاية التى يظهرها الرجال . لذلك كان من حسن التدبير الاقتصادى أن يبقين فى هذا العمل ليقوم الرجال الذين شغل هؤلاء الفتيات مكانهم بأعمال غير ميسورة للنساء .

وفى بريطانيا اليوم عدد من أسرى الحرب يقومون بأعمال مختلفة كالزراعة مثلا ، ولا يرغب الزارعون فى كثير من الأحوال أن يستغنوا عن هؤلاء الأسرى ، لا سيما الألمان منهم ، الذين هم أكثر نشاطاً من غيرهم . والزراعة تشغل على غير مايعتقده الناس أكبر نسبة من العمال فى بريطانيا . ولايقوم الاعتراض على تشغيل الأجانب فيها كما هو الشأن مثلا فى صناعة التعدين. على أن فى هذه الصناعة نقصاً ظاهراً فى الأيدى العاملة ، فالكثيرون من العمال يأبون اليوم أن يربوا أولادهم على هذا النوع من العمل . وقد قوبل اقتراح تشغيل البولونيين فى المناجم بالاعتراض من نقابات العمال ومن البولونيين أنفسهم ، إذ أنهم لا يرحبون كثيراً بهذا العمل . ولكن جمعيات التعدين رضيت بهم الآن ، على أن يكون من المفهوم أنهم أول من ينحى عنه إذا كان العرض بين العمال البريطانيين يزيد على الطلب .

ومن التغييرات النفسية فى بريطانيا بعد الحرب تقلص الميل إلى العزلة ، لا بين الرجال والنساء الذين كان من نصيبهم أن يعملوا أثناء الحرب فى البلاد الأجنبية وحدهم ، بل أيضاً بين الذين أقاموا فى البلاد البريطانية . وقد أتيحت للبريطانيين الفرصة فى أنحاء كثيرة من بريطانيا لأن يتصلوا ببعض الحلفاء ، وحدث أن تم الزواج بين عدد كبير من النرويجيين والهولنديين وغيرهم من الحلفاء المقيمين مؤقتاً فى بريطانيا وبين عدد من الفتيات البريطانيات . وسيقيم بعض هؤلاء الأزواج فى بريطانيا ، وسيرى جيرانهم أن الأجانب قد يكونون من خيار الناس . ومن العوامل التى قاومت الميل إلى العزلة أن الحرب كانت حدثاً عالميا ؛ وكانت الصحف تنتقل بنا إلى سائر أنحاء الكرة الأرضية ، فصار أقل الناس ابتعاداً عن داره على علم ، لحد ما ، بأماكن كان يجهلها كل الجهل .

وأمام هذه التغيرات فى الطباع الوطنية البريطانية يجب أن نحسب حساباً للأمور التى بقيت وستبقى على ما يظهر ثابتة لا تتغير : مثال ذلك أن من العادات الثابتة فى المعهد الدولى بلندن منذ مائتى سنة أن تلقى محاضرة أسبوعية تستغرق ساعة واحدة تماماً . فاذا أراد المحاضر أن يتكلم أكثر من ساعة كان عليه أن يستأذن المستمعين . وقد حدث منذ سنوات عدة أن فلكى القصر كان يلقى محاضرة ، فنسى نفسه وهو يسرد أقوالا فى غاية الخطورة وتابع كلامه بعد فوات الوقت بعشرين دقيقة ، فأثار ذلك نقد الحاضرين . وقد وجه أحد زائرى المعهد سؤالا لأحد موظفيه — ولكل عضو أن يستصحب زائرا — هل عدل عن هذه المحاضرات فى الوقت الذى كانت فيه لندن هدفاً لأسلحة هتلر الكريهة ؟ فأجاب : كلا ! إن نابليون لم يقف محاضرات المعهد ، ولم يستطع هتلر وقفها .

ومثل حسن لهذا الاستمرار نجده فى محل كريد الشهير لحياكة الثياب وهو الآن فى جيله السابع ؛ فأصحابه كانوا أول من حاك أثواب النساء من الصوف . وقد انتقل رأس هذه الأسرة من الريف إلى لندن فى سنة ١٧١٠ . ومنذ بضعة أشهر كان أحد أفراد سلالته يتحدث إلى إحدى الصحف وقرأ عليه الصحفى عبارة أراد أن يضمنها مقاله ، وفيها يذكر « مجموعته الجميلة من ثياب سنة ١٩٤٧ » . على أن مستر كريد أبدى شيئاً من القلق لأن الصحفى لم ير

تلك الثياب ، ولكنه رضى أخيراً بالعبارة لأن أسرة الصحفى ظلت ثلاثة أجيال ترتدى الثياب من صنع كريد . فللصحفى إذن الحق فى إبداء هذا الرأى حتى قبل أن يرى ما سيظهر فى الموسم الجديد . ثم قال مستر كريد : « يجب أن تضيف لهذا القول أن نوع الأصواف الانجليزية التى ترسل للخارج لم يتأثر بالحرب مطلقاً » .

وقد يكون من فائدة بريطانيا أن تنظر إلى نفسها بالعين التى ينظر بها الأجانب إليها . وقد كان فى بريطانيا فى السنوات الأخيرة من الأمريكيين أكثر من غيرهم من الأجانب . وانتقد هؤلاء بعض الأمور ، ولو استطاعوا تغيير هذه الأمور لفعلوا ، ومنها عدم وجود وسائل التدفئة فى الدور . وذكر أحدهم أنه وجد فنادق لندن أكثرا ستعداداً بوسائل الراحة بعد أن زار بلاكبول ، غير أنه وجد فى الفندق الريفى من حسن المجاملة وعناية صاحب الفندق ماعوضه كثيراً ، فتلك الجهات البعيدة تكتسب عطفك بجميل العذر . وذكر أنه قابل فتى وفتاة فى عربة القطار ، فقدما له قطعة من الكعك ، فرفضها معتذرا متأثراً بفكرة الطعام المحدد للناس فقالت له الفتاة لا بأس إنها غير متقنة ، فأخذ القطعة ليثبت لها العكس فوجدها لذيذة جدًّا .

ولقد أتقن هذا الأمريكى وسيلة إلى غسل قمصانه . ذلك أنه يشترى قطعة من الصابون وشيئاً من الشكولاته ويتخذ مظهر الوداعة ، ثم يتحدث إلى صبى من خدام الفندق زاعماً أنه من أصل بريطانى وأنه ابتدأ تعليمه فى مدارس بريطانيا عندما كان صبيًّا أصغر منه . فلا يلبث هذا الغريب أن يكتسب عطف الصبى بهذا الحديث . وقد يقول له الصبى على سبيل المجاملة : « لا أظن أنك تتكلم الانجليزية كغيرك من الأمريكيين » . وعندئذ يحدثه عن مشكلته فيقول الصبى إن له أمًّا ، وأنه سيسألها هل تستطيع غسل بعض القمصان ، وحينئذ يعطيه شلنين ونصف شلن من النقود ، وقد يعيدها الصبى فى اليوم التالى قائلا إن أمه لا ترغب فى قطعة النقود ، وإنما تريد قطعة من الصابون ، وحينئذ يفسر له الأمريكى أن النقود ليست لأمه بل له ويرسل قطعة الشكولاته لأخيه ، وإذا القمصان تعود نظيفة . أما الأجر فيطلب إليه ستة بنسات عن القميص

فكان لا يدفعها بل يزيدها ثلاث مرات ، فصار عنده مورد من القمصان النظيفة .

أجل ! فبالرغم من الشدة السائدة فى الوقت الحاضر ببريطانيا وبالرغم من كل الأمور التى لم تتغير وما تم من تغيير فى السنوات الأخيرة . فان الحياة فى كثير من أنحاء العالم أقل متعة منها فى بلاد الانجليز .

هنرى بيرلو

نقلها إلى العربية ز. ى. ع.

تنبيـــــه

سقط عند طبع قطعة « صورة الفنان » المنقولة عن الفرنسية للأستاذ هنرى القيم الاشارة إلى أنها مقتبسة من كتاب له سيظهر فى باريس . وهو أثر لما علق بنفسه من صور الفنان المصرى العظيم محمود بك سعيد .

من هنا وهناك

مصطفى عبد الرازق فقيد العاطفية الذهنية

رزئت مصر ورزئ العالم الاسلامى فى فذ من أفذاذها القلائل بوفاة الشيخ مصطفى عبد الرازق ، فجزعت فيهما عليه القلوب . ورثاه فيهما صفوة من أصدقائه ومريديه . لكن مدركا بشريا ممتازاً أفسح أركاناً من مصر وأبعد مدى من العالم الاسلامى قد هلع لوفاة مصطفى . وأنا من الذين كتب لهم أن يقفوا على بعض جوانب اتصال ذلك المدرك بالفقيد ، فجئت أذكر هذا الاتصال وأسجل ذلك الهلع على فقده ، والمدرك الهالع إنما هو مدرك « العاطفية الذهنية » .

عرفت مصطفى منذ عهد الشباب أيام كنا نحصل العلم بباريس . وتوثقت بيننا عرى الأخوة طوال السنوات التى ترددت خلال أصبوحة كل يوم من أيامها وأمسيته على داره ودار آله حيث اكتملت مصريتى المتعقلة فيما كان يختلف عليها من عديد البيئات ومتنوعها ، بعد أن نشأت بين جماعة الطلبة المصريين بباريس ثم تدرجت فى نادى المدارس العليا بالقاهرة .

ولقد تعرفت فى مصطفى منذ عرفته روحه الشعرية متلألئة خلال ما كان يصدر عنه من إشعاع يفعل فعله الأخاذ فيمن يقتربون منه أو يتصلون به ، كما تعرفت فيما بعد أن نفسيته — وقد امتزج فيها قلبه بذهنه — قد انطبعت بطابع الشاعر الفيلسوف ، فحلا لى دائماً أن ألقبه « بموسيه مصر » على تميزه بأن رفعة إحساسه ورقته لم يدخل فيهما عامل من عوامل المرانة والاكتساب بل كانتا من خصائص طبيعته الأصلية المتجلية .

ولذلك فلشد ما كان ألمه يوم قسرته اعتبارات الأسرة التقليدية على أن يتولى منصباً تحده فيه القيود ، وهو المنطلق ، ويخضعه للعمل الآلى وهو المحلق فى سماء الوحى والالهام . على أنه لم يرض أن يقيد ولم يرض أن يخضع ، فكان يبادر ، بعد أن يفرغ من ساعات عمله بادارة المعاهد ثم بوزارة الحقانية إلى التناجى والاستلهام والكتابة ، ولقد حظيت بمشاركته فى بعض مقطوعات قصيرة نشرتها لنا « الجريدة » بتوقيع «اثنان» ، ولكن

حظوتى الكبرى كانت باستماعى إلى كثير مما دون وما لم ينشر بعد ، وقد تجلت فيه آيات الاحساس والابداع .

وسيعرف الناس يوم يكتب لتلك المدونات أن تنشر كيف ظلمت المقادير مصر والعالمين العربى والاسلامى إذ عرجت بمصطفى عن طريق عبقريته الواسع إلى درب الوظائف الضيق فحرمتها جميعاً خير النتاج الروحى والفنى . وقد فهم هو فرحى يوم تولى كرسى الفلسفة الاسلامية بكلية الآداب ، وفهم غضبى يوم ترك هذا الكرسى ليتولى منصب الوزارة ، كما فهم جزعى على صحته يوم أسندت إليه مشيخة الأزهر ، فتمثلت متاعبه التى لم تحتملها روحه الرقيقة السامجة .

هلعت « العاطفية الذهنية » لوفاة مصطفى . وقد أردت تسجيل هلعها وأنا أعرف أن مدركها ليس من مدركات هذا الجيل المفضلة ، ولكنى أناجى به جيل ما قبل الحرب العالمية الأولى ، وأذكره لأولئك الذين أخذوا معنا فى السربون و كوليج دى فرانس بتعاليم برجسون و كروازيه ودوركايم و ليفى برول ، وعلى هؤلاء وعلى مصطفى الحزن الأليم .

كلارا عزمى

جولة مستطلع

معرض للآثار الإسلامية *

يتوهم المتوهم أن الفن العربى الاسلامى ينحصر مداه بين تلك الخشبات المتداخلة والرخامات المحفورة والزجاجات الملونة والطنافس المزهرة والقباب المنحوتة وما يجرى مجراها جميعاً . وأن هذه الألوان متقاربة متشابهة ، إنما تصدر عن مبدإ واحد وتنتهى إلى غاية هى هى ، وأنها فى الجملة ضرب من البراعة أو الرشاقة ، ليس للشعور أصل فيها ولا للفكر مدخل إليها . والحق أن الفن العربى فى عهوده الوضاءة غنى بالأنواع والأشكال ، مترع بالاحساسات والمعانى ولا سبيل إلى كشف هذا إلا من طريق التصفح والتأمل .

هذا ، ولم تنشئ الدولة دار الآثار

* أنظر ص. ٧٢٩،٧٢٨ . من تصوير المتحف العربى .

العربية عبثاً ، فذلك هو الغرض من الانشاء . فأحسن بالأستاذ المستشرق جاستون فييت مدير الدار إذ يفطن لهذه الحقيقة ، فلا يقعد عن تهيئة المعارض السنة بعد السنة ، فيدفع إلينا متعة متواصلة فيها رقة وفيها بعد : تتلاحق إزاء أعيننا النهمة ألطف الآثار وأروعها فى نماذج مختلفة ومذاهب متفاوتة وعهود متباينة . ووراء كل ذلك تبصير وتهذيب وتثقيف .

ومعرض هذه السنة يجرى على نمط جديد ، إذ يضم نفائس يبلغ عددها نحواً من مائة وخمسين إنما كلها مطوى عن الأبصار غير منشور للجمهور inédits . وعهود هذه النفائس تتردد بين القرن السابع والقرن الخامس عشر للمسيح ، والنفائس منتقاة من مجموعات خاصة كالتى لصاحب السمو الأمير يوسف كمال ولصاحب المقام الرفيع شريف صبرى باشا وللمرحوم على ابراهيم باشا ولحرم أسعد باسيلى باشا والسادة جاك ماتوسيان و ر. عدس وبنسيلوم .

وأغلب هذه النفائس أوان من الخزف الايرانى وهى تنقسم قسمين : أحدهما عتيق مصدره البلاد الواقعة شمالىّ إيران ، والآخر مستحدث بعض الاستحداث موطنه مدينة قاشان التى عُرفت بغضائرها التى تدعى «القاشانى» أو « القاشى » فى لغة العامة على حد قول ياقوت فى « معجم البلدان » .

و يمتاز الخزف الايرانى بالتزويق المستدق المستغرب ، قد تخيله صاحبه التفافاً مرتعشاً ثم دس فيه برفق ألواناً نابضة قد تجد فى الذى اشتد منها مثل التموج الذى يبهرك فى الحجارة الكريمة وأما القاشانيات فهى أروع مظهراً وأدخل فى الصناعة المحكمة ، ولكنها ليست بذلك ألطف ولا أتم . و إنى أوثر سذاجة الأولى كأنما خشونتها تجذبنى أو كأنى ألمح فيها البداوة ونقاوة الفطرة .

وفى المعرض ، إلى جنب الخزف ، ألوان من النحاس والحلى والقصدير والنسيج تزينها الدقة فى العمل والحسن فى الصياغة والبراعة فى التأليف والحذق فى الحبك . ويلى هذا كله قوارير وكؤوس من الزجاج ، إذا نظرت إليها وبدا لك أن تطيل النظر سرحت كأنك تحلم حلماً ، وذلك للرقة الفائقة التى فى المينا وللخطوط الزخرفية التى تتعانق فى بطونها ورقابها تعانقاً ناعماً بل مفاجئاً .

والحق أن سر الفن العربى الاسلامى فى الزخرفة . ولى فى هذا حديث هيأته فى اللغة الفرنسية أجمل طرفاً منه ههنا فأقول : إن الزخرفة



١ — طبق من الخزف المطلي . ذو زخارف متداخلة .
الألوان الغالبة : الأسود والأصفر الذهبي . نيسابور . القرن ١٠ .
الارتفاع ٥ ، القطر ٢٠ . (من مجموعة جاك ماتوسيان .)



٢ — تمثال فارس يتدلى تُرسه خلف ظهره .
من الخزف المطلي بالأزرق الفيروزى . الرىّ . القرن ١٣ .
الارتفاع ٢٦ ، القطر ٢٢ . (من مجموعة ر . عدس .)

٣ — سلطانية من الخزف ذى البريق المعدنى .
الألوان : الأبيض والبنى . قاشان . القرن ١٣ .
الارتفاع ١٠ ، القطر ٢٢ . (من مجموعة ك . [illegible] .)

٤ — قارورة من الزجاج المزركش بالمينا .
الألوان : الأحمر والأزرق والأبيض . مصر . القرن ١٤ .
الارتفاع ٣٢، القطر ١٧ . (من مجموعة الأمير يوسف كمال .)

العربية الاسلامية ليست من الارتجال في شيء . فمن الخطأ الشائع أن يظن أحد أنها وليدة العبث . فان هذه الزخرفة مشتقة اشتقاقاً من العقيدة الاسلامية . فهى منطقية بل واجبة . ومن الخطأ كذلك أن يمتد الظن إلى أن العرب المسلمين عدلوا عن تصوير الأشكال الحية بسبب التحريم الذى ورد فى الحديث فمالوا إلى الزخرفة . فان التحريم لم يوجه الفن العربى إلا بعد نكبة التتر، قاتلهم الله ! والدليل ما وصل إلينا من الآثار القديمة التى مثلت فيها صور الأحياء ، بل الصواب — عندى — أن الزخرفة فى الاسلام وما يأخذ مأخذها أو يدخل تحتها مثل الاقتضاب فى التخطيط إنما انبعثت من التصورات الدينية ، ومن هنا طرافتها وقوتها ثم تأثيرها فى التزاويق التى تزين طائفة من الآثار المسيحية سواء فى مصر والشام أو فى بيزنطة وإسبانية.

وبعد ، لا يسعنى إلا أن أشكر للأستاذ المستشرق ج . فييت إقامة هذا المعرض اللطيف وأهنئه بنجاحه وأهنئ كذلك الأستاذ حسين راشد والدكتور محمد مصطفى أمينى الدار . فقد ألهمنى المعرض وألهم غيرى، بفضل ما ضم من أصناف الألطاف ، صوراً وفكراً تهز وتلذ .

فى المعرض الدولى للفن الحديث

هذا المعرض الذى أقيم الشهر الماضى فى القاهرة دل على أمرين سأقصر الكلام عليهما .

أما الأمر الأول فسلطان التصوير الفرنسى الحديث على قرائح المصورين كلهم وعلى مراقمهم أيا كان موطنهم. ولا عجب فى هذا ، فمعلوم أن باريس كانت منذ منتصف القرن الماضى مظهر المذاهب الجديدة فى التصوير تمثلاً وتفكراً وتأدية . وليس هنا مجال تبيان ذلك . وظلت باريس طوال قرن أو يزيد قبلة أهل الفن . ويؤيد هذه الحقيقة ما مثل لنا فى هذا المعرض . فليس فى التصاوير الزيتية التى للبلجيكيين والانجليز والأمريكين وغيرهم مأتى جديد ولا منحى غريب ، فى الجملة . والفرنسيون أنفسهم لم يخرجوا عن أساليبهم ولا عليها ، فلا تزال طرائقهم هى إياها لم يطرأ عليها تبدل حتى انحراف قد يحدث من جراء الحرب التى عانتها أوربة أشد المعاناة ، فكأن

الوعى الباطن لم يتحرك بعد ، تحركه فى ناحية من نواحى الأدب .

على أن الحكم لا يسير إلا على الذين عرضوا من المصورين الفرنسيين فهنالك أساتذة مثل Matisse ، و Léger ، و Gischia لم يرسلوا إلينا بشئ أو مثل Braque و Rouault و Picasso قنعوا بعرض تخطيطات ، وليست تخطيطة بيكاسو Picasso[1] بشئ إلى جنب ألواحه المشهورة .

ولا يسير الحكم كذلك على مصورى البلدان التى لم تشارك فى المعرض ، نحو إسبانية و إيطالية وألمانية، وكانت هذه الثلاث — ولا سيما الأولى — تأخذ من فرنسة وتعطيها أيضاً ، فهل ننسى أن بيكاسو صاحب المذهب « المكعبى » cubisme إسبانى المولد والمنشأ ، وأن المذهب « الاستقبالى » futurisme ولد فى إيطالية سنة ١٩١٠ ، وأن Kandisky الروسى اجتهد فى ألمانية وفيها نشر كتابه « الروحانى فى الفن » Ueber das Geistige in der Kunst (مونيخ سنة ١٩١٢) حيث حرر النشاط الفنى من التقليد وأدخله فى حيز المدكارت بالبصيرة .

هذا و إن كان التصوير الفرنسى غالباً على المعرض الذى بذلوه بالغاً الذروة فى الفن جملة ، فان المنسوجات الفرنسية لم أنشط لها قط . هذا قول قد يدهش ناساً ويثير ناساً ، بل قد يجر على صفة الجهل أو البلادة . ولكننا نحن أهل هذا الشرق ولدنا على تلك الطنافس والنسائج الفارسية والأرمنية والتركية وصاحبناها فعرفنا بها كيف يكون ائتلاف الرسوم وهدأة الألوان وحلاوة الأصباغ ونعومة الأصواف . أما هذه التآليف المستجلبة التى فى المنسوجات الفرنسية ، وهذه الألوان العنيفة والأصباغ المتنافرة وهذه الأصواف التى لا تتموج ولا تتطوس ، كيف تأخذ أعيننا وتفرح أنفسنا وترضى أذواقنا وتبعث متخيلاتنا .

ذلك هو الأمر الأول . وأما الثانى فان القسم المصرى حقيق بالالتفات . وقديماً بينت رفعة التصوير والنحت عندنا بفضل أفراد، وعللت تقدمهما على سائر الفنون كالشعر والمسرح . والحق

(١) نشرتها الآنسة أمينة طه حسين فى تضاعيف المقال الوافى اللطيف الذى خرج هنا الشهر الماضى .

أن التصوير فى هذا القسم يرجع فى أكثر جزئياته إلى مختلف المذاهب الفرنسية المعاصرة . فهذا يمضى على أسلوب **Roger de la Fresnaye** وهذا فى طريق « الضوارى » **Les Fauves** وهذا فى جهة **Dufy** الذى يصور مثل طفل ، وهذا لا يزال متشبثاً بالقواعد الأكاديمية . ولكن فى القسم ، إلى جنب براعة إمى نمر ومحمد ناجى وسعيد حامد الصدر ومحمد حسن وأحمد صبرى ، ترى إستحداثاً تستطيع أن ترده إلى الجو المصرى . وهو ماثل لك فى ألواح محمود سعيد التى عملها بين ١٩٣٠ و١٩٣٨ حيث التأليف القائم على إيقاع كأنه من نقر الطبل أو نفخ الزمر ، وحيث اللون النحاسى المسلول من رفيف البشرة المصرية سفعتها رياح الصيف . وهذا الاستحداث فى تماثيل مختار أيضاً ، فكأنها تلف فى ثناياها سرّ تربتنا الخالدة .

تكريم خليل مطران

لأربع وثلاثين سنة خلت كرمت الأقطار العربية شاعرها المتفنن المتصرف خليل مطران . وجرى التكريم فى مصر بهمة الأديب سليم سركيس رحمه الله . وقد اشتركت فيه الحكومة المصرية وأدباء مصر ولبنان وسورية . وفى ذلك اليوم رصن النثر وشرف الشعر . وما كنت لأحضر التكريم إذ كنت طفلا ، ولكنى قرأت بعد ذلك ما قيل فوزنته .

ثم فى هذا الزمن أدرك نفر من أعضاء النادى الشرقى القائم فى القاهرة أن الخليل لا يزال حقيقاً بعناية الأمم العربية . وما أجمل ما أدركوا وما أصوبه ! فخطر لهم أن يكرموه مرة ثانية وقد أرادوا أن يكون التكريم ضرباً من ضروب الهتاف ، فاستقامت الفكرة وزاغ المسلك وعذرهم أن مفهوم الأدب الخالص ليس فى متصوراتهم .

قرأت النثر الذى قيل سنة ١٩١٣ : كلمة الريحانى التى عنوانها « هجروها » وكلمات زيدان وجبران ومى وأنطون الجميل ، وكلها ماثلة حتى اليوم فى خاطرى . وقرأت الشعر ، ولا أزال أروى منه درراً . قال حافظ بعد أبيات تندى رقة وتطفر خيالا ، تمثل فيها روضتين تتناجيان :

فاذا لهجتان من لهجات الشر
ق قد شاقتا فؤادى فهاما

تلك سورية تفيض بيـــاناً
تلك مصرية تسيـــل انسجاما
فطنـــة عنـــد رقة عنـــد ظرف
عند رأى تخـــاله إلهـــاما
... ورأى الزهر ما رأيت فظن
الشمس رأد الضحى فشق الكماما
وسعى بالأريج والنفح والطيب
وأهدى عن الرياض السلاما

و إذا الشاعر يسمع الروضـــة المصرية تقول لأختها السورية :

قد سمعنـــا خليلكم فسمعنـــا
شـــاعراً أقعد النهى وأقاما
وطمعنا فى شأوه فقعـــدنا
وكسرنا من عجزنا الأقلاما
فمشى النثر خاضعاً ومشى الشعر
وألقى إلى الخليل الزماما

وقال شبلى الملاط يخاطب الشعر:

تتلامس الأرواح فيك وتشتكى
عند التفرق ثقلة الأجســـام

من قصيدة مطلعها :

لمشت إلى الأهرام أرض الشام
لوتستطيع جوى إلى الأهرام

وفيها يقول للخليل :

أما أنا فبلطف روحـــك شاعر
والشوق شوقى والهيـــام هيامى
فاذا سمعت النوح فهو صبابتى
و إذا استطبت الريح فهى سلامى

ثم قال شوقى و إسماعيل صبرى وحفنى ناصف والخليل نفسه ما قالوا من محكم الشعر وجيده .

ذلك ما قرأته . أما الذى سمعته من أيام فى دار الأوبرة الملكيـــة (٢٩ مارس ١٩٤٧) وقد نشرته صحف ومجلات ، فلا أذكر منه الساعة سوى كلمة وزير المعارف عبد الرزاق السنهورى الذى اجتهد فوصف ودقـــق فبلغ ، وكلمة أنطون الجميل وقد أرادها خفيفة ترقص فيها الذكريات النواعم وتتعانق ، وسوى أبيات انطلقت فى قصيدة عبد الرزاق محيى الدين مندوب الحكومة العراقية .

أقول إن أصحاب فكرة التكريم أحسنوا النية وإن المتكلمين من خطباء وشعراء دلوا على نبل ومروءة . ولكن الحفلة لم يجدر بها الخليل إلا بدءاً وختاماً : أما البدء فبالرعاية الملكية السامية ، وأما الختام فبشكر الخليـــل وكأنه — حفظه الله — تفطن للشعر الذى سيقال فيه فجاءت قصيدته بلاغة مقتضى المقام .

نحن الأدباء إنما نعد هذا التكريم تحية لطيفة شريفة هيأها نفر من

الناس ودعوا إلى المشاركة فيها طائفةً من الناس ، والفريقان ممن يسيل فى شمائله ماء الكرم . نحن الأدباء أدرى بخليلنا فهو أستاذنا وضريبنا وحبيبنا . فكيف لا يتكلم ، إلى جنب بعض المتكلمين ، لطفى السيد وهوالذى عاصر الخليل وعاشره ، وطه حسين وهوأول من جرؤ على غير استجراء فقال فيه إنه أكبر شعراء العصر ، ومحمود عزمى وهو البصير بسعى الخليل الصحافى العربى ، والمازنى وهو الذى أدرك بفضله أن شعرنا قابل للتجديد، وأين هذا وهذا من أدباء مصر ولبنان وسورية ؟ وكيف لا يتحدث نثراً أو شعراً من أخذ عن مطران وتأدب عليه واغترف من فيضه واهتدى برأيه : أليس أحب إلى الخليل أن ينهض أحد من مدرسته ، كما تقول اليوم — فيعلن فضله من أن ينشده قصيدة شاعر لا ينفك يقطع أبيات على طريقة بادت أو شاعر قد أصفى أو شاعر قد جف ؟ ثم أين الذى تكلم فى مطران الناثر المتمكن واللغوى المتعمق؟ وهل تعجب متكلم أن مطران لا يزال مبعداً عن المجمع اللغوى .

ليست غاية التكريم تصفيقاً . إن تكريم الأديب الفحل يكون بالنظر السليم فى آثاره مع استخراج طرائفها ودقائقها وخصائصها مع ألوان أثرها . وما أغنى مطران عن التصفيق وما ألصقه بقلوبنا نحن ! نقدره حق قدره ونحبه ونجله . فهل يوفيه حقه الأدباء فى هذه المجلة الموقوفة للأدب الصرف ؟

معرض الكتاب اللبنانى

ذلك معرض لم نعرف أول الأمر حقيقة شأنه . أمعرض هو للكتاب المطبوع فى لبنان أم للكتاب الذى يؤلفه لبنانى . أليس غريباً أن يختلط الأمر على المستوضح . أما سبب اختلاطه فأنك ترى جنباً إلى جنب كتباً للبنانيين أمثال ميخائيل نعيمة مطبوعة فى القاهرة وأخرى للبنانيين أمثال الفاخورى مطبوعة فى بيروت ، وثالثة لمصريين منحدرين من قريب أو بعيد من أصل لبنانى ، مطبوعة فى القاهرة . وأغرب من هذا ومن ذاك أنك تجد كتباً لغير اللبنانيين أصلا وفرعاً لسلامه موسى وهو مصرى قح وآخر ، نحو كتاب لقسطنطين زريق وهو فى السلك السياسى السورى .

خلط عجيب ! أتدرى ما وراءه؟ الاعلان المحض ، إعلان جماعة من الوراقين من هناك ومن هنا أيضا ، وربما لم يستأذن المؤلفون فى عرض مؤلفاتهم كأنما هم أدوات كتابة ، وقد اشمأز أحد مؤلفينا من ذلك التطاول فتقدم إلى صاحب العرض برفع كتبه فرفعت .

أهذا هو الكتاب اللبنانى ؟ بضعة مطبوعات ليست نقطة من بحر ، بل هى نقطة غامضة من بحر زاخر : بحر التأليف اللبنانى . حقاً إن من يتجر بتأمل المفكرين وجهد الباحثين وصبابة الشعراء وثقافة النقاد قد يغره الاقدام أحياناً .

وأعجب من هذا أن الزائر للمعرض يفاجأ بنشرة عنوانها « الكتاب اللبنانى » فيها سرد عجل لمجموعة من الكتب المطبوعة هنا وهنالك وهنالك ، وقد ألفها كتاب وشعراء لبنانيون وسوريون ومصريون . وإنما الغرض الظاهر من إذاعة هذه النشرة هو استعارة اسم لبنان لترويج مطبوعات تزين مكتباً أنشئ لتوزيع الكتب اللبنانية وغيرها فى القاهرة .

ولا بأس أن ينشأ مثل هذا المكتب ، بل أقول إن إنشاءه واجب ومرغوب فيه . ولكن لا تحسن الدعاية على مثل هذا النحو . فكان الأولى أن يقصر أصحاب هذا المكتب وأصحابهم من الوراقين عرض الكتب التى يتجرون بها وأن يكون المعرض باسم المكتب دون غيره وبين جدرانه . فاننا لا نرضى للثقافة اللبنانية أن تموه فى مصر . أمن المعقول أن يقام معرض للكتاب اللبنانى غير مرتب على تسلسل تاريخى أو ترابط فكرى أو تناسق مطبعى ؟ أمن المعقول أن تهمل تآليف الشدياق والشرتونى وإبراهيم اليازجى واسكندر المعلوف وأمين الريحانى وعبد الله العلايلى ونظرائهم من علية الكتاب وصفوة الباحثين ؟ أو من الجائز أن يغفل غافل عن دائرة المعارف للبستانى وعن مجلة الجنان ثم مجلة الأديب التى تكافح فى سبيل الأدب الخالص أى كفاح رعاها الله وأبقاها ، ثم أين مجلة المكشوف ومجلة الطريق وغيرهما مما يعمل فى جهد وثبات ؟ لم أصب ذلك كله فى المعرض وإن ذكر بعضه فى النشرة .

إن فى أدباء لبنان وعلمائه من يستطيع أن يقيم فى مصر معرضاً للكتاب اللبنانى يكون غاية فى الروعة والحسن .

بشر فارس

شهرية الفن

POETE PEINTRE ET PEINTRE POETE

HILDE ZALOSCER

شـــاعر رسام ورســـام شاعر *

من الفنانين من يسلكون فى التعبير عما يريدون أكثر من طريقة واحدة . وتلك الظاهرة ، ظاهرة الموهبـة المزدوجة ، ليست من الأمور النادرة . فان كثيراً من تراجم رجال الفن لتشهد على ما كان يساورهم من حيرة فى أى السبل يسلكون ، وعلى ما كان يأخذهم من تردد فى التعرف إلى حقيقة ميولهم . و إذا كان من النـادر أن نجد فناناً موسيقيا يعبر بوســائل التصوير ، إلى جانب الموسيقى ، أو يعبر بالشعر — مع استثناء الموسيقـار فاجنر — فاننا نرى الحـدود بين فن التصوير والشعر ، مطموسة غير جلية ، ونلاحظ أنه كثيراً ما يكون الشاعر رساماً أو الرســام شاعراً .

وعلى الرغم من أن وسائل التعبير فى كل من هذين الفنين تبدو متباينة كل التباين ، فان تغير كل منهما بفعل الآخر أمر جد ملحوظ .

ونحن إذا أنعمنا النظر فى الآثار التى ينشئها الفنان الثنائى الموهبـة ، اتضح لنا أن الأمر ليس مجرد توافر فى القـدرة والاستعـداد، وتبين لنـا على الأخص أن المسألة ليست ضرباً من ضروب التبادل والتكافؤ ، بمعنى أن الرسام من جهة ينظم الشعـر ، كما أن الشاعر من جهته قد يمـارس التصوير — إن هاتين الظـاهرتين لتختلفان اختلافاً جوهريا واضحـاً ، كذلك الأسباب والعوامل التى تدفع الرســام إلى الشعر أو الشـاعر إلى التصوير ، تتفـاوت فيما بينهـا تفاوتاً كليا صريحاً .

وهـكذا تـكون مسألة الإزدواج فى العبقرية ذات اعتبارين : الاعتبار

---

* كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

الأول يتصل بالظاهرة فى غرضها العام ، والاعتبار الآخر يتعلق بالاتجاهات الخاصة التى تظهر فى كلتا الحالتين ، وإن أول ما يسترعى انتباهنا هو أن عدد الفنانين من ذوى الموهبة المزدوجة لم يكن واحدا فى كل الأوقات ، فتارة نجد عصوراً خالية منهم تماماً ، فلا يكون الشاعر فيها إلا شاعراً ، ولا يكون الرسام إلا رساماً ، تعقبها عصور تختلط فيها الفوارق بين هذين الفنين ، فيكاد كل شاعر أن يكون فى الوقت نفسه رساماً أو كل رسام أن يكون شاعراً . هذا من جهة ، ومن وجهة أخرى تبدو لنا بعض الأزمنة أكثر وفرة فى الشعراء الرسامين من غيرها إذ تكون شخصية الرسام الشاعر هى البارزة . ونستطيع أن نقول بصفة عامة إن ظاهرة الموهبة المزدوجة تكون فى حالة الرسام الشاعر أكثر منها فى أية حالة أخرى .

وهنا يجمل بنا أن نقول إننا لانكاد نتناول مسألة الفنان المزدوج العبقرية، حتى تلتوى بنا الطريق شيئاً وتتجه بنا نحو مسألة غير الأولى ولكنها متصلة بها، تثير فينا ملاحظات جديدة كما تكشف عن نواح أخرى لابد من إيضاحها وتفسيرها . وقد يحمل ذلك بعضهم على الاعتقاد بأن الفنون المختلفة تفصل بينها حدود صريحة ، وأن كل فن بما له من وسائل خاصة فى التعبير يصل إلى نوع من الأسلوب لا نجده فى فن آخر ، وأن هذا الأسلوب يعتبر إلى حد كبير نتيجة وسائل التعبير ذاتها . ويخيل إلينا تبعاً لذلك أننا على حق إذا اعتقدنا أن هذه الوسائل ليست قابلة للتبديل ، ولكنها فى الواقع ليست كما نعتقد .

إن نظرة فاحصة سريعة تطلعنا على أن الفوارق بين الفنون كان يحرص فى بعض العصور على إبقائها أشد الحرص ، وهم يمارسون كل فن على أنه مستقل قائم بذاته له قوانينه الخاصة . فالنحت يسعى إلى إبراز الحجم ، والمعمار يعنى بتجسيم فكرة هندسية ومنظمة فراغية ، والتصوير ينقل على سطح ذى بعدين عالماً ذا أبعاد ثلاثة ، وذلك تبعاً لقواعد التصوير . ويتجلى هذا الاحترام للفوارق والحدود فى عصر النهضة الايطالية وفى القرن السابع عشر الفرنسى إلى درجة ما ، فلا تختلط الفنون ، بل يزاول كل منها داخل نطاقه ، فى حين أن الفن « الغوطى » والفن الشاذ Le Baroque تسودهما روح مخالفة كل المخالفة . ففن المعمار فى

هذه الحقبة من الزمن كان يؤلف بين مختلف الفنون الشقيقة كالنحت والتصوير، ويسخرهما ليستحدث من تضامنهما نوعاً من الأثر الفنى الجامع الشامل. كانت الفنون بجملتها تساهم خاضعة لقوانين واحدة، وكل فن لايحيا ولا تقوم له قائمة إلا داخل الكيان الفنى العام وبامتزاجه بالفنون جميعها. فينجم عن ذلك تهاون فى الأساليب الخاصة. فالمعمار يصاغ ويصب كالنحت، والنحت بالاضاءة المهذبة وبمزج المواد المختلفة يتخذ خصائص التصوير. وكما أن الجوقة الموسيقية على الرغم من تباين آلاتها، تحركها فكرة واحدة فتنشئ الأثر الموسيقى المؤتلف، كذلك فى الفن «الشاذ»، تعتبر الفنون من تصوير ونحت ومعمار، آلات متنوعة تنصهر كلها وتتحد فى الأثر الفنى العام.

إن هذا الامتهان، أو إن شئت فقل للتعبير عن هذه الظاهرة بعبارة ملموسة، هذا الخلط بين الفنون لا يوجد فى الفنون التشكيلية وحدها فقط، فالأثر الصحيح الكامل للأسلوب «الشاذ»، الأثر الذى يجسم روح ذلك العصر، أليس هو الأوبرا، تنصهر فيه وتمتزج فنون كالغناء والموسيقى والتمثيل، كما تنصهر وتمتزج فيه فنون كالرسم والنحت والمعمار، لتنشأ عنها آية ذلك العصر فى فن البناء. ولست أريد أن أقف هنا صورة من صور الفن أخذت قيمتها تضعف فى وقتنا هذا، ولكنى أريد أن أبين ما فى هذه الصورة من مميزات لنوع من الجمال، والأوبرا كما قلنا تصور لنا بصفة قاطعة هذا المزيج من الوسائل الفنية الذى تميز به ذلك العصر.

وفى القرنين التاسع عشر، والعشرين، حيث توجد مادة أغزر فى متناولنا، نستطيع أن نتبين هذه الاتجاهات نفسها. ففى العصر الرومانتيكى، ترجع الحدود بين مختلف فروع الفن للمرة الثانية إلى الإبهام الشديد، ونلحظ تغيرات من جهة ومن أخرى. ثم نلقى من جديد هذا التغير وذلك التبادل فى الوسائل الفنية بصورة ملحوظة جداً فى الفن التعبيرى L'expressionnisme.

والتصوير فى الرومانتيكية مثله فى التعبيرية، يقصد إلى الافصاح عن فكرة؛ فالوسائل التصويرية التى هى بطبيعتها وجوهرها جعلت لتصف الأشياء وتقربها إلى الحس، أضحت وهى ذات قيمة مجردة، فصلت عن

موضوعها الذاتى ، وأخذت ترمى إلى التعبير عن فكرة أو الترجمة عن شعور ، وصيغ اللون على حد التعبير إلى موسيقى (والدادائية Le Dadaïsme من جهتها تطمس الحدود بين الموسيقى والشعر ، وهى تكتسب أهميتها فى نظرنا لهذا السبب نفسه) والقصة الحديثة أيضاً تأخذ عن الموسيقى مناهجها فى التأليف ، فتبدو مثلا قصص فولكنر Faulkner مؤلفة كسلسلة متتابعة من أصوات عدة ؛ ونجد هكسلى Huxley فى قصة : «المتناقضات» *Point Counter Point* يسلك فى إنشاء أثره الأدبى طريقة تلحين الأنغام المجتمعة المتعددة . ويحمل بنا على ما أظن أن نحلل هذه التجارب ، مستحضرين بحث ليسنج Lessing فى موضوع « لاوكون أو عند حدود الفنون » ؛ ففى هذا البحث يضع عميد المدرسة الكلاسيكية الألمانية أسس الأسلوب ، ومن بين الفروض التى يذكرها ، يبدو أن أهمها هو الفرض القائل بتحديد الفنون ، وضرورة استقلال كل واحد منها ، فلا اختلاط ولا تداخل بين مختلف الميادين الفنية ، وتبدو جماعة لاوكون Laokon كمثال لفن فاسد يثقل فيه الطابع المسرحى المؤثر على أثر كان يحسن به أن يكتفى بوسائل النحت ، ويظل مخلصاً لما يتوافر فى تلك الوسائل من احتمالات جمالية خاصة (فنحن نرى إذاً أن مبدأ التداخل بين فروع الفن ليس حديث العهد) .

وتؤدى بنا هذه الاعتبارات إلى اعتبارات أخرى تتصل كلها بالمسألة الرئيسية ، أعنى العلاقة بين مختلف الفنون . لقد رأينا أن أجيالا بأسرها تصر على « خاصية » الوسائل الفنية، وتحرص كل الحرص على إقامة السدود النظرية خشية أن يفيض وأن يطغى فن على فن مجاور له ، كما رأينا أن بعض الفنانين — من وجهة نظرهم الفردية — يتبعون هذه الخطة نفسها . وعلى نقيض ذلك ، ترفع هذه الحواجز وتختفى عند بعض الفنانين وفى بعض العصور ، فتنصهر الفنون المختلفة وتتحد كلها فى صورة من الجمال جديدة . وهنا تبدو ظاهرة أخرى ، نود أن نسميها ظاهرة « الاستبدال » . ونحن نسأل : لأى سبب وبحكم أى قانون دفين تظهر الفنون المختلفة فى التاريخ على التعاقب ، تنبعث منها أشعة وضاءة ، ثم تختفى ليحل محلها فن آخر ؟ لماذا ترتفع الموسيقى فى بعض العصور إلى ذروة رائعة ، فى الوقت عينه الذى تجتاز فيه الفنون التصويرية

والآداب حياة الخمول والبساطة ؟ ماذا ترى يكون السبب الذى يحمل الفنان فى لحظة من اللحظات على اختيار هذه الوسيلة للتعبير بدلا من تلك ؟ فمثلا يتفق ازدهار الفنون التصويرية فى القرن الخامس عشر فى إيطاليا مع كساد موسيقى يكاد يكون تاما ، هذا فى حين أن الموسيقى كانت مزدهرة فى هولندا . ولكن عندما أصيب فن التصوير الايطالى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر بالفساد ، تقدمت الموسيقى على رأس الفنون كلها تحت رعاية بالسترينا Palestrina وفى هذه الفترة نفسها ، ظهر فى هولندا جيل من الرسامين أوتوا موهبة خاصة أمثال رمبرانت Rembrandt وروبنس Rubens ، وفرمير Vermeer ، ورويسدايل Ruisdael . . . نشروا فى أنحاء أوربا كلها النفوذ الفنى الذى تميزت به بلادهم ، على أن الموسيقى التى كانت مزدهرة فيما قبل ، كادت تختفى اختفاء كليا . وهذه الظاهرة نفسها — ولا بد أن نسميها ظاهرة لأننا لم نعرف لها بعد قانوناً منظما — هذه الظاهرة قد تبدت فى العصور الماضية . ففى النصف الأول من القرن الماضى سادت الموسيقى وساد الشعر فى ألمانيا فى حين ضعف فن التصوير وقلت أهميته ، وفى النصف الثانى من هذا القرن نفسه ، بلغ الفن التعبيرى الفرنسى حدا يكاد يكون فريداً فى نوعه ، أما الشعر والموسيقى فقد تأخرا إلى المرتبة الثانية .

إنها عجيبة حقا تلك الظاهرة ، ظاهرة الاستبدال ، وعجيب هذا التفضيل الذى يبدو فى بعض العصور لفن معين ، مع عدم الاكتراث بفن غيره ، إنها ظاهرة عجيبة نود لو عرفنا علتها . وقد يكون من السهل أن نفسر ازدهار الفنون على وجه العموم بعوامل اقتصادية وسياسية وجنسية . لا شك أن لهذه العوامل نصيبها ، ولا شك أن بعض الأجناس — ويفهم من كلمة الجنس معناها الجغرافى — تميل إلى الأخذ بوسائل معينة للتعبير . ونحن نعتقد أيضاً أن للألوان المختلفة من الإحساس ما يناسبها من ضروب الإنتاج العقلى . وعلى نقيض ذلك نجد العوامل السياسية الاقتصادية ذات تأثير مزدوج على حد التعبير ، فبقدر ما يكون صحيحاً أن فترات الرخاء والهدوء والاستقرار ينجم عنها ازدهار عقلى روحى ، بقدر ما يكون صحيحاً أن السنوات التى تحتد فيها الأزمات السياسية ، وتتعرض فيها الأوطان للغزوات والاحتلال ، تحرك فى الشعب

كل القوى الروحية الكامنة . فالكلاسيكية الفرنسية رمز واضح لفترة تاريخية عرفت بالتوازن التام ، فى حين أن التعبيرية — وهى ليست أقل قوة من الناحية الفنية — تفتحت وازدهرت على الرغم من حرب ١٨٧٠ — ١٨٧١ التى لم تكد تمسها فى شئ . ومن جهة أخرى نجد القوة الروحية فى الرومانتيكية الألمانية كأنها نتيجة مباشرة للحروب النابليونية . وتتكرر هذه الظاهرة فى غير أوربا ، فالفن البوذى بلغ أجمل ما بلغ أثناء حكم الملك آزوكا الذى تميز بالعظمة القومية ، على حين لم يزدهر الشعر فى الصين فى يوم من الأيام ولم يرق إلى مرتبة من السمو كما ازدهر وسما فى هذه الأزمنة الفاجعة حيث انتشرت المغامرات ، وتعرضت البلاد لغزوات البرابرة ، ودفعت بها الحرب الأهلية إلى الفوضى الصريحة .

لذلك لابد لنا من الاعتقاد أن ازدهار الفنون وازدهاءها يرجعان إلى أسباب وعوامل أخرى ، كما يجب أن نعلم أن القوى التى تولد عصراً زاهياً، أكثر خفاء وأبعد غوراً وأشد تعقداً .

وعلى أية حالة ، لا يكون النمو فى فروع الفن المختلفة على نسق واحد وفى سرعة واحدة ، ولا نستطيع أن نجزم بأن الروح السائدة فى وقت من الأوقات تبدو بشكل متساو فى جميع الفنون من تصويرية وأدبية وموسيقية ، بل الواضح أن لكل فن قانونه الخاص ونسقه الخاص ؛ والذى نلاحظه أن شكلا من الأشكال الفنية يكون لسبب لا نزال نجهله ، فى مقدمة الفنون ، وأن شكلا غيره يكون متأخراً ، ثم ينقلب الوضع فجاءة ، فيتقدم المتأخر ويصبح على رأس الحركة الفنية .

ونجد أيضاً ، كما سبق أن أشرنا ، فترات تاريخية تبدو فيها كل الحدود ملغاة ، فتتبين خلالها تحفزاً مشتركاً ونزعة واحدة ذات وسائل متعددة غير منتظمة . هل هذه الظاهرة التى تعاود الكرة خلال العصور دليل الانحطاط ؟ أم أنها تنبئ بمذهب فى الجمال جديد ، أو ربما كانت حركة التوائية رجعية فى مظهرها ، تطورية فى غرضها ؟ لا نستطيع لذلك جواباً . وعلى أية حال ، نعتقد نحن أن هذه الظاهرة ليست على الإطلاق نظرية فنية قابلة للجدل . إن وجودها وحده كاف لإقناعنا بها . وأما قيمتها الفنية فتتوقف على ما يصنع بهذه النظرية أتباعها .

ولهذا السبب نظن أن من حقنا أن نسائل أنفسنا هل انفصال الفروع

انفنية المتنوعة واستقلالها قضية أولية ، أم هو مجرد نظرية أخذت بها مدرسة من مدارس الجمال ؛ وسنضطر إلى العودة إلى هذا السؤال الذى يمس من قريب السؤال الذى ساءلناه أنفسنا عن المعنى السيكولوجى لهؤلاء النفر من الفنانين ذوى الموهبة المزدوجة.

كانت ظاهرة العبقرية المزدوجة نادرة فى العصر الكلاسيكى الألمانى ، أى فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، وهى الفترة التى بلغت فيها عبقرية جيته ذروتها ، وكان جيته الوحيد الذى شذ عن هذه القاعدة . أما غيره من الفنانين — وكان شأنهم فى ذلك شأن ليوناردو دا فنشى Leonardo da Vinci فقد طرقوا كل أبواب الانتاج العقلى والروحى ، مدفوعين بمبدأ « الكلية » L'universalisme ولكن الفنان المزدوج الموهبة — الرسام الشاعر ، والشاعر الرسام — لم يكن له فى حقيقة الأمر وجود ، بل على النقيض ، كانت الروح الكلاسيكية ، ويمثلها ليسنج ، تصر على احترام الحواجز الفاصلة ، فكان ميدان الشعر وميدان التصوير فى ذلك الوقت منفصلين انفصالا محسوساً واضحاً . وقد خضع التقليديون الفرنسيون لهذا النظام نفسه ، فابتعد عالم الصور عن عالم الأفكار ، وقل أن نرى كاتبا كلاسيكيا — فرنسياً كان أو ألمانيا — يدرس القيم التصويرية فى منظر طبيعى ، وقل أن نراه يصور لنا وجهاً بشريا . إن الأثر الكلاسيكى مستقل قائم بذاته، جوهره أدبى صريح . فاذا جاء العصر الرومانتيكى ، اختفت الحدود اختفاء ينذر بالخطر ،واختلطت أنواع الفنون ، وكثر الفنانون من أصحاب الموهبة المزدوجة ، حتى لتكاد ترى الرسامين فى ذلك الوقت شعراء أو كتاباً . وسواء أكان الفنان الرومانتيكى فرنسيا أم إنجليزيا أو ألمانياً فهو آخذ بمذهب العمومية . ونستطيع أن نقول إن الأديب الفنان هو فتح من فتوحات الرومانتيكية (الرومانتيكية فى معناها الواسع ، أى التى تصور إتجاهاً روحيا ، ولا ترمى إلى إنشاء مدرسة) . و بمجرد أن تطغى الحسية على العقل ، وبمجرد أن تتفوق الكلمة فى التعبير عن صورة من الصور يصبح الرسام كاتباً . وفى فرنسا يمتزج الرسامون والنحاتون والشعراء الرومانتيكيون امتزاجاً من القوة بحيث لانجد غرابة فى أن يترك جوتييه Gautier معمله فى ريو Riault لينضم إلى جماعة البلاس رويال La Place Royale كذلك لانستطيع

أن تقول عن شاتيون Chatillon إنه عندما يصور أبرع منه عندما يكتب . وقد كتب بول هويه Paul Huet إلى بودلير فى الثانى من سبتمبر عام ١٨٦٨ : « إن مصورى الطبيعة فى أيامى يدعون جان جاك روسو ، و برناردان دى سان بيير ، وشاتو بريان ، وجورج ساند . هؤلاء هم المعلمون ، هؤلاء هم المصورون . » وهم ليسوا مصورين بما أوتوا من أسلوب ، بل برغبتهم فى أن يصبحوا فنانين . ويتمثل ذلك فى قول فينى Vigny فى مذكراته ، وقد شغف كل الشغف بالألوان والأحجام : « لو كنت رساماً ، لوددت أن أكون رفائيل من النوع الأسود » (وصفة السواد لازمة للرومانتيكية) . وبودلير ينفس عن مرضه فى أشعاره وفى لوحاته القاتمة الرائعة ، كما يحاول ميريمى Mérimée فى كثير من الفن أن يثبت بالريشة ملامح كارمن . وقد ترك لنا فرومنتان Fromentin مناظر دقيقة الرسم رائعة ، فى الوقت نفسه الذى ترك لنا قصة حياة دومينيك العاطفية ، وغير هؤلاء نجد موسيه Musset وبيير لوتى Pierre Loti يستبدلان غير مرة بريشة الرسام قلم الكاتب أو الشاعر .

وفكتور هوجو ، على وجه الخصوص ، مع كونه زعيم المدرسة الرومانتيكية ، قد ترك لنا أثراً تصويريا جذيراً بأن نعنى به أشد عناية .

ويعتبر هوجو النموذج الأكبر للفنان الكاتب ، وذلك للطريقة التى يمتزج بها فن التصوير بآثاره ، وللأهمية التى يعلقها هو على هذا الفن ، الذى كان له شأن أى شأن فى نموه ونضجه .

كان هوجو دائم الكلف بالرسم ، والكراسات الموجودة فى متحف فكتور هوجو Musée Victor Hugo ، تشهد على ما كان من محاولات الطفل ، وهو بعد فى الثانية عشرة من عمره ، فى تثبيت بعض الرؤى الداخلية التى كانت تلازمه . ثم تأخذ الصناعة الفنية عنده فى التحول والتطور ، حتى يتم لها هذا التطور فيما بعد شيئاً فشيئاً وبغير عنف . وعلى أية حال نجد هوجو يستخدم فى كتابته نفس القلم الصلب الذى يستخدمه فى رسمه ، ثم يستبدل به فيما بعد ريشة الاوزة، وإن فى أسماء أساتذته الروحيين لدلالة كبيرة : فهو يأخذ عن رامبرانت Rembrandt الظل والنور le clair-obscur ، ويقتبس عن جويا Goya هذه الصور البشرية التى تكتنفها الأسرار ،

إلا أن للمنظر الطبيعى المكانة الأولى فى أثر هذا الرومانتيكى الحق . ومع أن البحوث الكثيرة تقيم الدليل على أن هوجو كان يدرس ويعمل وجهاً لوجه مع الطبيعة ، فان الرؤى الخارقة المضطربة ، والأقاصيص المرعبة التى ترويها له مربيته ، والرموز الغريبة هى التى كانت تلازم مخيلته : « برج الفئران » ، « المشنوق » ، « البرج القديم » ، « الموج » ، وغيرها من تصورات مروعة جاثمة تحت عنوان « مصيرى » *Ma destinée* . وهو لميله الشديد إلى التأمل ، ورغبته القوية فى اجتلاء الأسرار ، كان يحاول أن ينتزع من الطبيعة ومن نفسه هو مايطويان من خفايا ، فيترجم عن تصوراته برموز تعرض له بالرغم عنه وكأنها صادرة عن عقله الباطن ، وهو يجتنب الضوء القوى ، ويختار الضوء الغائم ، ويبحث عن الظلال ، وهو لذلك لقب « ترنر » الليل **Le Turner de la nuit**.

ويجتهد هوجو فى البحث عن وسائل فنية جديدة للتعبير عن إحساساته الخاصة ، التى لا تخلو أحياناً من الغرابة . وجاء له فى خطاب لبودلير (سنة ١٨٦٦) : « انتهيت بأن استخدمت فى رسومى الطباشير ، ومداد السبيا **La sépia** والفحم والهباب وكل المركبات الغريبة التى تستطيع أن تعبر على وجه التقريب عما يخالج بصرى وذهنى . » وقد استعمل هوجو البن نفسه .

وعلى أثر هجرته ، تقوى إحساساته وتلح عليه أشد الالحاح , وتصبح حاجته إلى التعبير عنها أقوى ماتكون ، وفى لحظة من اللحظات يقترب من حدود ما وراء هذا العالم . فاسمعه يقول : « إنى أريد أن أترجم عما أرى فى الظلام » . ويرى إميل برنار **Emile Bernard** أن هوجو كان يبحث فعلا عن ارتسامات لأفراد لا زالوا على قيد الحياة فيما وراء الأثير ، وهو يجد تسلية فى ملء مخطوطاته ببقعات الحبر ، رغبة منه فى أن يستكشف من خلالها رسالات أو رموزاً تأتيه من العالم الآخر . (وقد يدفعنا ذلك إلى الاعتقاد أن أصحاب مذهب السيريالزم **Surréalisme** وجدوا عند هوجو مادة يقتبسون منها .) وكل ما تقدم قمين بأن يجعل من فكتور هوجو حالة لها أهمية عظيمة وشأن كبير . وإذا كنا أطلنا هذا التحليل وأسهبنا فيه ، فذلك لأن هوجو يعتبر إلى حد ما نموذجاً ، وهو مثال كامل للشاعر

الرسام . والطبيعة التصويرية **visionnaire** التى يتميز بها فنه ، والناحية الرمزية التى تتصل اتصالا وثيقاً بذكريات طفولته ، كثيراً ما تقربه إلى الحالات العصبية المرضية **névrose** . ولكن لهذا السبب نفسه ، نجد أثره يكشف بسهولة عن هذه النفس الكبيرة المضطربة ، وما يضطرم فيها من نزعات عاطفية وثورات وجدانية .

ومع ذلك فما من مدرسة ساهمت أكثر من المدرسة الرومانتيكية الألمانية فى هذا المزيج بين أنواع الفنون ، وساعدت على إنماء الثروة الأدبية . إن هذه الفترة التاريخية الخاصة تخلق أو تجمع على رقعة من الأرض محدودة ، جيلا من الفنانين أضافوا إلى نبوغهم الفنى طابع الكشف البصرى **voyant** ، وكلهم إما من المتصوفة وإما من المصابين بالخبل العصبى ، وهم لا يقيمون اعتباراً إلا لحرفة الفن وحدها ، ولا يهتمون أكتبوا أم صوروا ، فالأمر الذى يعنون به قبل غيره ، هو أن يترجموا عن هذا الشعور الحاد الذى يبعثه فيهم سر الحياة ، وأن يعبروا بالأخص عما يخفق ويدب وراء ظواهر المادة ، وهم يحسون به إحساساً غامضاً مبهماً . وكلما زاد هذا الاحساس تغلغلا فى نفوسهم ، تضاءلت قوة العقل ، وأخذت قوى اللاشعور تطفح شيئاً فشيئاً . وربما كان ذلك هوالسبب فى شدة الاختلاف بين أسلوب الانشاء والابتكار عند الفنان الرومانتيكى وبين الأسلوب الكلاسيكى ، والأول يبدو لنا أقرب إلى الفهم من الآخر .

ويتضح اهتمام الكاتب بالفن الشقيق —فن التصوير— من الناحيتين العملية والنظرية ، فقد طالت مناقشات هولدرلين **Holderlin** ، ونوفاليس **Novalis** ووا كنرودر **Wackenroder** حول الأغراض التى يهدف إليها التصوير فيبتكر كل من تييك **Tieck** ، ووا كنرودر — وهما من أول مؤسسى المدرسة الرومانتيكية — فى قصتهما ، شخصية بطل رسام يجتهد فى البحث عن فن جديد . إذ أن المدرسة الرومانتيكية تهدف فيما تهدف إلى إحداث تعديل فى الدور الذى يلعبه الفن على وجه العموم ، فتتوالى النشرات ، التى على الرغم من إبهامها وتناقضها ، نستطيع أن نخرج منها بفكرة محورية ، وهى أن الفن قبل كل شئ مظهر من مظاهر الدين ، وهو الصورة المحسوسة لهذا الدافع المبهم وهذا الألم الملح الذى

لا نعرف كنهه والذى هو أساس الشعور الرومانتيكى . والسبيل الوحيد إلى الخروج من هذا الألم المقيم والفرار من ذلك الضيق الحاد ، هو حالة النعمة الالهية ، هو الشعور الدينى . فالى مثل هذه الحالة وذلك الشعور يتطلع الفنان، ومن هذه الرغبة نشأ ما يسمى بالحنين الرومانتيكى . وعلى ذلك يكون الرومانتيكيون من المتصوفة . وبطبيعة الحال لسنا نعنى بذلك أنهم يعتنقون عقيدة معينة أو أنهم يتبعون مذهباً حازماً مقرراً . فشعورهم الدينى يجمع فى الوقت نفسه بين الصوفية الكاثوليكية ومذهب وحدة الوجود الجرمانى Panthéisme . وبعودة الرومانتيكيين — عن طريق خفى — إلى القوى اللاشعورية ، تلك القوى التى أعقبت على التوالى مختلف الأشكال الدينية التى أخذ بها الانسان — بعودتهم إليها استطاعوا أن يصهروا كل هذه المذاهب ليرجعوا إلى الإحساس الأول . ألم يتغن هولدرلين Holderlin بالآلهة اليونانية! أو لم يبعث نوفاليس إلى الحياة الميثولوجيا الجرمانية ؟ والرسامون النازاريون Nazaréens ألم يأخذوا من جديد بالنظرة الساذجة العاطفية التى كان يتميز بها فرا أنجليكو Fra Angelico ، شأنهم فى ذلك شأن سابقى الرافائيلية Préraphaélistes الانجليز ؟ أو لم يعتنق الأشقاء شليجل Schlegel المذهب الكاثوليكى ؟

وقصة تييك Tieck ، وهى أول ثمرة من إنتاج الرومانتيكية الألمانية ، هى قصة الرسام فرانز شترنبالد Franz Sternbald والأثر الرئيسى لهذا الرسام الهائم ، هو أثر دينى ، رسم واجهة هيكل لكنيسة جبلية ، إلا أن فرانز ، عندما يعرض آراءه الفنية ، لايتحدث إطلاقاً عن صناعة التصوير ، بل عن الاحساس الذى يريد التعبير عنه وعن الفكرة التى يرغب فى ترجمتها ، وهذه الفكرة هى لون من الكاثوليكية العميقة الحلولية Panthéiste فهو يريد كما أراد هوجو ، أن يعبر بوساطة منظر طبيعى عن « ذلك الشعور باللانهاية ، عن هذا الميل إلى ما هو إلهى ، وهذا الاندفاع السامى لنفس فى حالة الانجذاب Extase . » ويقول لنا فرانز بصفة خاصة : « هلا استطعت ياصديقى أن تسجل هذه الموسيقى الرائعة التى أنشأتها السماء اليوم ؟ » . و يرى زلجر Solger ، شارح « الجمال » فى المدرسة الرومانتيكية ، أن الفلسفة والدين والفن ليست إلا وسائل متنوعة للتعبير عن نفس الاحساس الصوفى

فى الانسان . ومن البين أن مبدأ «الكلية» يفرض نوعاً من التقارب ، وهو يبيح التبادل بين الأشكال المتنوعة لمختلف الفروع الفنية .

وفى إحدى الدوريات الرسمية الرومانتيكية أصدر ولهلم Wilhelm وكارولين شليجل Caroline Schlegel تحت عنوان « لوحات » ، مقالا ضمنوه آراءهم فى الفنون التشكيلية ، ويبدون فيه بكل وضوح هذه الفكرة : « يجب أن نقرب بين الفنون وأن نبحث عن وسائل الانتقال والتطرق بينها . فقد تتحول بعض آثار النحت إلى لوحات ، وقد تصبح اللوحات قصائد ، والقصائد تنقلب إلى موسيقى . ومن يدرى ! فربما ارتفعت الموسيقى الكنسية الرائعة من جديد على صورة معبد مشيد فى الفضاء . » ثم يعود ولهلم شليجر فيكتب : « ليس نادراً أن تهب على الآثار العظيمة لكبار الشعراء روح من فن آخر . »

وكان هذا الموضوع من الموضوعات المحببة لتييك ، وكان دائم الرغبة فى تناوله ، وهو يقول : « كيف لا يباح للمرء ، فى هذا العالم المنقلب الأوضاع ، أن يفكر بواسطة الأنغام ، وأن ينشئ الموسيقى بالألفاظ والأفكار؟ آه ، يا إخوانى الأعزاء ، إن أغاب الأشياء فى عالمنا هذا ، يلمس بعضه بعضاً أكثر بكثير مما تظنون . » والظاهر أننا لا نستطيع أن نطالب بدقة أن يكون هذا المبدأ الفريد أساساً لكل الفنون ، غير أن الرومانتيكيين توصلوا إلى ذلك ، « فليست الفنون وحدها ، بل العلوم كلها أيضاً ، هى التى يجب أن تتحد وأن تهدف إلى غرض واحد » . فالفنان « الكلى » universel هو فى الوقت نفسه عالم . (وقد يحسن بنا أن نضع إلى جانب هذا الفرض فرض ليسنج الذى يتعارض معه كل التعارض .)

و إذا كان الكتاب فى ذلك العصر قد أطالوا التأمل والتفكير فى فن التصوير وأعلنوا اختلاط الفنون جميعها نظريا ، فقد حقق الرسامون فعلا هذا الفرض . فنجد كل الرسامين الرومانتيكيين العظام على وجه التقريب شعراء نابغين ، والكلمة هى كلمة الرسام الشاعر قبل أى إنسان آخر . وأهم هؤلاء وأعظمهم كاسبار دافيد فريدريش Caspar David Friedrich ، وكان يجمع بين الفنين فى درجة واحدة ، مثله مثل فكتور هوجو ، حتى لقد نسأل أنفسنا لماذا ذاع صوتهما فيما بعد ، أحدهما كرسام والآخر ككاتب . ربما اختار كلاهما إحدى الموهبتين للاتصال بمحيطه — أى للاتصال

الرسمي — محتفظاً كلاهما بالأخرى للتعبير عما أراد أن يكون سرًّا فيما بينه وبين نفسه . لن نعرف أبداً علة ذلك . ولكن الأمر الذى لا شك فيه أنهما أوتيا القدرة على التعبير بالفنين كليهما وبنفس القوة على وجه التقريب .

وفريدريش Friedrich الرومانتيكى كان مثل فكتور هوجو شديد الكلف بالظلام ، وقد اختار الغسق عنصراً لفنه ؛ وهو كالفنان الفرنسي يميل إلى العزلة والحزن ، ويسعى وراء التصور الداخلى . وكانت الفرقة التى يعمل فيها مغمورة بالظلمة ، ولوحاته يسودها جو باهت داكن ، لا أثر فيها لتألق الألوان وازدهائها ، مع ميل واضح صريح إلى مداد السبيا Sépia . والغريب فى الأمر هو هذا الاتفاق بينه وبين هوجو على التعبير بوساطة المنظر الطبيعى عن شعور الألم والحنين ، وهو يحمل الطبيعة معنى رمزيا بعيد العمق ؛ فالمناظر التى يصورها لا تقرب من الواقع ولا تراها العين ، بل يشعر بها هو وينتزعها من قلبه انتزاعاً .

وتتجلى ظاهرة العبقرية المزدوجة كذلك عند فيليب أوتو رونج Philippe Otto Runge وهو الرسام الذى تتمثل فيه الرومانتيكية الألمانية ، وقد اعتنق الحركة الجديدة عمليا ونظريا . ولم يكن يعبر بالتصوير والشعر فحسب ، بل كان مثل تييك ، مقتنعاً كل الاقتناع بأن الوسائل التى يستخدمها الفنان للتعبير ، إنما هى من الأمور الثانوية . ونقرأ له فى إحدى رسائله سنة ١٨٠٦ :

« إن هذه الاحساس بالاتحاد بين العالم وبيننا ، وهذه الغبطة وذلك الانشراح الذى نشعر بهما فى أعمق أعماق نفوسنا ، وهذا الائتلاف الرفيع الذى يهز فى نشاطه كل وتر من قلوبنا ، وهذا الحب الذى نستند إليه ويرشدنا عبر الحياة ، إن كل ذلك عينه هو الذى يعذبنا ويقلقنا ويثير فينا الشعور بأننا نجتاز اللحظة الأخيرة من حياتنا ، وعندئذ تنشأ فى نفوسنا فكر جديدة ، نترجم عنها بالألفاظ أو بالأصوات أو بالصور . »

وفى نظر الرسام رونج كما كان فى نظر الكاتب تييك ، فكرة دينية تكمن وراء كل محاولة للانشاء والابتكار . أما وسيلة التعبير فهى ضرورة من الضرورات . فلا ندهش إذاً عندما نرى تصوير رونج شاحباً عارياً ، تثقله الرموز ، وهو يضمن كل بحوثه الميتافيزيقية دراسة مستفيضة فى الرموز ، ينشئها فى صبر وأناة . ونتيجة ذلك أن الرسام رونج استطاع أن يعبر عن هذا « الائتلاف بين الكون وبيننا » ،

بوساطة الكلام خيراً مما عبر عنه بوسائل التصوير .

والأمر الجدير بالاهتمام ، أننا نلقى عند رونج هذا الاعتقاد العميق نفسه بأن الفن والدين ذات واحدة . حتى إننا قد نقول إن الحركة الرومانتيكية الألمانية ، هى قبل كل شئ مذهب دينى جديد ، (يعود فيه إلى الظهور فرض وحدة الوجود القديمة) ولا بد أن يكون التصوير فى مثل ذلك العصر ضعيفاً ، يحد من قوته ما كان يفتقر إليه من وسائل التعبير ، وهو مضطر لأن يعوض عن هذا النقص و إلى أن يوسع ميدانه ، وأن يفيض على الفنون المجاورة . وأن يقتبس عن الشعر والموسيقى ، الوسائل التى تساعد على أن يترجم بسهولة عن عاطفة من العواطف ، فكان الشعر والموسيقى يحملان إذن فى العصر الرومانتيكى عبء الروحية كله ، وتبتكر الرومانتيكية أعظم آثارها فى ميدانى الشعر والموسيقى ، ويتأخر التصوير ، وتبدو أهميته فى بحوثه أكثر منها فى قيمته الفنية الخالصة . وتعود هذه الحالة إلى الظهور فى انجلترا ، فنجد أهم الرسامين أمثال دانتى جبرييل روسيتى Dante Gabriel Rossetti ، ووليم بليك William Blake يتدربان على الشعر . و إذا كان روسيتى لم يتجاوز مستوى التصوير الرومانتيكى العام — وهو مستوى غير ذى قيمة تذكر — فبليك يروعنا بتخيلاته الهذائية التى نلمسها فى لوحاته ، وهى فى شعره أعنف منها فى تصويره . وهذه التخيلات الجاثمة تقربه من هؤلاء الرسامين والشعراء الذين يعتبر إدجار آلان بو Edgar Allan Poe أباً روحيا لهم .

وبانتهاء الرومانتيكية تختفى ظاهرة التلاقى والاستطراق بين الفنين ، تلك الظاهرة التى توجد الفنان الثنائى الموهبة . ويتميز النصف الثانى من القرن التاسع عشر بالواقعية Réalisme التى تمر أولا بالمذهب الطبيعى Naturalisme ثم تأخذ طريقها نحو المبدأ الانطباعى Impressionnisme تاركة خلفها تلك الظاهرة التى تعتبر فى نظرها ضرباً من الهواية . ويظهر مذهب روحى جديد تكون القيمة فيه للأسلوب والشكل والصناعة الفنية ، وسرعان ما يكتسح المذهب الأول الذى كان ينصب اهتمامه على الاندفاعات النفسية الداخلية . ويقول الفنان الانفعالى : « إن الالهام هو جملة مجهود أربع وعشرين ساعة . » ويصيح زولا ، وهو لسان الطبيعيين « الفن هو

الطبيعة » . وقد ترددت هذا العبارة مراراً حتى كادت تفقد معناها ، ولكننا إذا تأملناها عن قرب ، لمسنا الناحية غير الروحية فى ذلك المبدأ .

ومن هذه اللحظة انفصل ميدان التصوير عن ميدان الشعر انفصالا حازماً . وإذا غضضنا النظر عما كتب الفنانون من قصص حياتهم autobiographies وما أصدر بعضهم من رسائل عن فن التصوير ، فاننا نجد الرسام رساماً فقط وقبل كل شئ ، وسيزان Cézanne . يقصد مارجى Marguet فى قوله : « ليس فيه إلا البصر ولكن يا له من بصر ! » وأسلوب هذا الزمن نتيجة مباشرة لماديته . ويصبح الفن المختار فى تلك اللحظة ذاتها هو فن التصوير ، ويبتكر العصر أعظم آثاره فى هذا الفن الذى هو إدراك مباشر حسى للكون. والانفعالية ، إذا مارست الوسائل المباشرة التصويرية البحتة ، وإذا تحرت الدقة فى الصناعة الفنية ، فهدفها الوحيد هو استحداث صورة ملموسة ، موضوعية حسية لهذا الكون ، معرضة عن القيم العاطفية . والموضوع نفسه غير ذى أهمية ، والفكرة التى تكون من نتاج الخيال ، تستبعد لتأخذ مكانها فى مجالها الخاص . ولا ينظر نظرة الارتياح إلى هذا الرسام الذى « أعاد أربع عشرة مرة رسم صورة كومة من التبن » ، وقد استرسل فى رقيات غامضة مستغلقة . ثم « الفن للفن » ، والغرض الوحيد منه هو استشعار اللذة عن طريق الحواس . (وقلما استطاع أسلوب أن يصل كما وصل هذا الأسلوب الجديد إلى الهدف الذى سعى إليه ، وحقق غرضه تحقيقاً كاملا .)

ويدور الزمان الأزلى دورته ويعود عودته ، فينقضى هذا العصر ، ويأتى عصر جديد تستعيد العاطفة فيه حقها . لقد أفلست مادية القرن التاسع عشر إفلاساً فاجعاً ، وأصبح من المدرك أن خلف الظواهر ، فى ميادين متنوعة ، قوة كامنة تفعل فعلها . وعقلنا غير كاف لادراكها . وقد زعزع برجسون وفرويد الايمان بالقدرة المطلقة لارادة الانسان نفسه ، وظهر من النشاط الخلاق الذى نادى به برجسون ، و« اللاشعور » الذى ابتدعه فرويد ، أنهما أمران لكل منهما كيانه الخاص ، ونحن عاجزون عن فهم تصرفاتهما والتحكم فيها .

وعلى أثر الشعور بالكارثة وتوقع الأزمة الشاملة للقيم القديمة ، أتى جيل جديد فألقى جانباً هذه القيم ، متحدياً بعنف كلا من العقل والمادية ، منطوياً

على نفسه ، يبحث عن خلاصه فى ذات نفسه . ما أشبهه فى ذلك بالرومانتيكيين ! وما أشبه رسالته برسالتهم ! وتستبدل العناية بالشكل والأسلوب بمقتضيات الفن القديمة أى الانجذاب الروحى ، والنشاط الحيوى ، النشاط الابداعى الذىشرحه برجسون. وتظاهر الالهية فينا ، ذلك التظاهر الذى لا ندركه بغير إرادتنا .

وقد نشأت الحركة التعبيرية فى ألمانيا كما نشأت الرومانتيكية فيها ، والحركتان تتشابهان فى أن للعاطفة فيهما الشأن الأول ، غير أن شخصية الفنان تتغير فجاءة كما لو كان بفعل ساحر ، فنرى فىألمانيا: كوبن Kubin و كوكوشكا Kokoschka ، و فرانز مارك Franz Marc ، و اهرنشتين Ehrenstein و مونش Munch ؛ وفى فرنسا : كلوديل Claudel و كوكتو Cocteau ، وجوجان و بول فاليرى Paul Valéry ؛ وفى روسيا : شاجال Chagal ومايا كوسكى Majakowski ، وكانديوسكى Kanduisky ؛ نرى كل هؤلاء يستخدمون القلم مرة والريشة أخرى ، ورسالتهم أشبه برسالة الرومانتيكيين فهى ضرب من النبوءة ، وهى بذلك تتجاوز حدود التصوير ومقتضياته .

ويعتبر فان جوج Van Gogh سابقاً لهم ومتنبئاً ؛ لم يكن رساماً شاعراً ، بل نبيا فناناً ، وهو يمثل أصدق تمثيل نوع الفنان فى ذلك الوقت ، ونجد هذا « المهدى » يسعى وراء الوسيلة التى يعبر بها عما يحمل من رسالة، ومايفيض به من حياة ، و إلى جانبه أوديلون ريدون Odilon Redon ، وجيمس إنسور James Ensor وكلاهما رسام يدعى فىالوقت نفسه الجلاء البصرى ، وكلهم يغترفون من دخائل نفوسهم مادةفنهم ، ويبدعون صوراً من هذرهم وهذيانهم ، وكل واحد منهم شديد الايمان بأن له دعوة تصوفية يريد أن يبلغها . ولو شاء الفنان التعبيرى لقال كما قال رونج الرومانتيكى : « أغمضوا عيونكم عندما تصورون ».

وبطريقة خفية يلتقى المذهب الرومانتيكى بالمذهب التعبيرى ، ولا شك أننا بعيدون كل البعد عن الاعتقاد أن الأمر بينهما لا يزيد عن مجرد الاستعارة والاقتباس ، والأحرى أن هذه الظاهرة تنم عن العودة إلى طور من أطوار الضمير الانسانى . فكلا المذهبين يستعينان بالقوى الدفينة فى اللاشعور ، وكلاهما أضعفا من شأن تحكم الارادة الواعية ، فساعدا بذلك على انطلاق الاتجاهات اللاشعورية

انطلاقاً حرا . والحقيقة أن المنهج الكلاسيكي يتلخص فى أن الرومانتيكية والتعبيرية ليستا إلا مظهراً من مظاهر الرجوع إلى العاطفة عقب المذهب العقلى الموضوعى الذى كان سائداً فى الحقبة السابقة . وذلك يوضح للمرة الثانية ذلك الازدواج فى الانسان الذى يترجح بينها نمو الفكرة الغربى ، ويرتكز فى آخر الأمر عليها .

لم نحاول مطلقاً أن نضيف قسما جديداً إلى التقسيم الذى أقره علم النفس الحديث . غير أن شخصية الرسام الشاعر وشخصية الشاعر الرسام تختلفان اختلافاً أساسيا نستطيع معه أن ننظر إلى الأمر نظرتنا إلى نوع من الازدواج . وعلى أية حال لا يمكننا أن نرى فى هذه الظاهرة مجرد لون من ألوان التبادل أو ضرب من ضروب الوفرة فى المواهب . إن هذين اللونين من الشخصية ينمان عن تباين إن لم ينما عن تعارض فى الاتجاه الفكرى ، وكل منهما يطبع زمانه بطابع روحى متنوع ، مستحدثاً أسلوباً مختلفاً فى التفكير والابصار والشعور . وموجز القول أنهما أبدعا لكل عصر شخصية سيكولوجية خاصة به .

فى الأوقات التى يطغى عليها الفكر المادى ، ويتجه الفن إلى الحواس أو العقل ، يصبح التصوير هو الفن المفضل الذى يوافق خيراً من أى فن آخر ، التعبير عما يجيش فى العصر من روحيات . وازدهار هذا الفن يتوقف على نوع الرجل الذى ينتجه ذلك العصر ، وعلى الجو ، والبيئة الروحية التى تلائم غايات الفنون التشكيلية ووسائلها . وفى ذلك الزمن يخرج أولا رسامين نابغين ولكنهم رسامون فقط ، والادراك المباشر واشتراك الحواس يكفلان ذلك . ونجد دليل ما نقول فى التصوير الهولندى فى القرن السابع عشر ، والأسبانى أثناء حكم فيليب الثانى ، والفرنسى فى القرن التاسع عشر . ويتخذ الشعر فى تلك الأزمنة بصفة استثنائية وسائل التصوير . ليس الشاعر هنا رساماً غير أنه يعنى بفن التصوير ، هذا إذا كانت شخصيته من القوة بحيث تفيض خارج ميدانها ، أو إذا كان يجمع إلى الطابع العقلى إرهاف الحواس ، ويمثل جيته أكمل تمثيل هذا اللون من الشخصية السيكولوجية ؛ فالتجربة الحية الشخصية تتحول معه إلى تفكير ، بنفس السهولة التى يتحول بها التفكير إلى تجربة حية . والأثر الفنى يحتفظ دائماً بطابعه النفيس طابع الحياة والكلية ، الذى تبدو فيه جميع أجزائه مرتبطة إلى غير انفصال.

وحياة جيته يتمثل فيها هذا التوازن التام ؛ فقد اكتملت فيه كل الصفات اللازمة لأن يكون وزيراً أو عالماً ، شاعراً أو فيلسوفاً . ولكننا إذا استثنينا جيته ، نجد أن هذه العصور لم تكن لترتاح إلى اختلاط الفنون بعضها ببعض ، وكان جيته فريداً فى زمانه . والرسامون المعاصرون لرمبرانت والمعاصرون لسيزان يعتبرون القول أمراً زائدا لا داعى له . ووسائل التصوير هى الوسائل المناسبة التى هيئت للتعبير عن معنى الحياة الواقعية الموضوعية .

ولكن عندما تطالب المدرسة الرومانتيكية هى والمدرسة التعبيرية بجعل العاطفة والوجدان أساس كل إنتاج ، وعندما يسعى الأثر الفنى فى التعبير عن عاطفة لا فى نقل الطبيعة ، وعندما يستدعى الأمر أن يبث الفنان قلقه وأن يبكى يأسه ، هنالك يسود القول ، القول المفعم بتأثيره السحرى ، هى السكرة تسرى بفعل الرق ، والنشوة يهتز بها الذهن . ذلك هو زمن الشعر . و بما أن التصوير يكون الدافع إليه موضوعيا ، فهو غير جدير بأن يستوعب إحساس الفنان المباشر الواقعى للأشياء . ينطوى الفنان على نفسه ، وهو إذا أراد التعبير عن هذه العواطف المختلطة المضطربة وجد وسائل التصوير غير كافية ، بل وجدها عاجزة عن أن تترجم العاطفة فى انطلاقها وفى طابعها المؤثر . وصفة الاستقرار على وجه الخصوص فى هذه الوسائل لا تتفق مطلقاً مع الحركة التى تتميز بها روح العصر. ومن ثم يستعين التصوير بالقول . إن الفنان فى الأزمنة الرومانتيكية هو شاعر قبل كل شئ ، والرسامون كذلك هم شعراء ، وفى ظنهم كلهم أنهم المصطفون **les élus**.

و إذا أردنا تبسيط المسألة ، قلنا إن ازدواج الشاعر الرسام والرسام الشاعر تتلخص فى هذا التعارض : إنها تمثل حالتين من حالات الزمن ، أو بالأصح حالتين من حالات الإنسان . فالفنون التشكيلية توافق فكرة عصر مادى يميل إلى واقع ملموس موضوعى . والشاعر و إن ظل شاعراً ، يستطيع أيضاً التعبير بوسائل التصوير . ولكن الأمثلة لذلك نادرة ؛ لأن العصر يتطلب احترام الحدود الروحية ، وبالعكس فى الأزمنة التى تكون الأسبقية فيها للخيال والعاطفة ، وتكون السيادة فيها للشعر ، يشعر الفنان بقلة وسائله وضعفها ، فيستعين بالقول والمقابلة : شاعر رسام ورسام شاعر ، يعبر عنها تعبيراً أصح إذا قلنا : شاع

يمارس التصوير إلى جانب الشعر ، ورسام شاعر بكل معنى الكلمة . وهذه الظاهرة الأخيرة تتجاوز حدود المسألة الفنية الخالصة . وهى تمس قوى إنسانية أكثر غموضاً و إبهاماً ، وهى تتصل بالغريزة الدينية ، ولذلك توضع فى الاعتبار السيكولوجى . فما عسى أن تكون العلاقة بين هذه الظاهرة والمظاهر الأخرى للنشاط الروحي عند الانسان ؟

لقد استطعنا أن نلاحظ أن مسألة اختلاط الفنون بعضها ببعض تقترب من مسألة العاطفة الدينية . وعند دراستنا لهذه الظاهرة ، لم نشعر بهذه الحاجة تؤثر تأثيراً عنيفاً فى تطور أسلوب من الأساليب أو فى ما تصير إليه شخصية من الشخصيات الانسانية . فى تلك اللحظات التى يكون الاتجاه الروحى فيها — لسبب غامض — مشرباً بصوفية حادة دائمة العنف فى الانسان ، يصبح الفن صورة من صور الدين . ونشاطاً ميتافيزيقيا ، ويضحى الفنان من القوم المختارين الذين حملوا رسالة عليهم أن يؤدوها . فى هذه الحالة تصبح الوسائل من الأمور الثانوية ، ويستخدم كل شئ للتعبير عن الانخطاف الروحى . تختفى معالم لحدود ، وترتفع الحواجز . فقد أنجز وتم الأثر الفنى الشامل . ويظهر الرسام الشاعر ، والفنان المتعدد النشاط. وأوجه النشاط هذه هى نتيجة الانفعال الدينى . وسواء أكان ذلك فى الرومانتيكية أو فى التعبيرية ، فان الرسام الشاعر يظهر عندما تستعيد الغريزة الدينية مكانتها . فلا يعود الفن لوناً من ألوان التلذذ الحسى ، بل يكون « فعلا » دينيا .

ولا شك أن عذرنا معنا إذا كنا — لهذا السبب — نتابع استنتاجاتنا . نحن نعلم أن أول إنتاج فنى عند الانسان لم يكن متصلا اتصالا وثيقاً بالعاطفة الدينية فحسب ، بل كان الصورة التعبيرية الوحيدة لها . وفى تلك الأزمنة البعيدة بلا شك كان من المستحيل أن تفصل الأثر الفنى عن الدين ، ونحن مضطرون أن ندعو ديناً كل معتقد ، سحراً كان أو روحانيا animiste أو طوطمياً totémiste .

والأثر الفنى فى هذه الأوقات هو فى الوقت نفسه أثر معقد أشد التعقيد ، سواء فى ثروته الوجدانية أو فى طرق تعبيره . والحقيقة أن كل ألوان الفن كان لها نصيب فيه : من رقص ورقيات وموسيقى ، وتصوير ونحت وتمثيل . كانت هذه الفنون فى جملتها تصهر معاً وتستخدم فى التعبير عن هذا

الشعور الذى يدب فى مناطق من الحياة الروحية ، لم يسبر غورها ولم توصف بعد ، فى منطقة نائية حيث استقرت بذرة خفية تتطلع نحو النور .

فى هذا الزمن الذى كان الانسان فيه مستسلماً كله لعاطفة مثيرة مقلقة ، وهو يجسم هذه العاطفة ويثبتها فى أثر ، ندعوه أثراً فنيا ، هل كان لفروع الفن المختلفة وجود ؟ نسأل أنفسنا هـذا السؤال ونحن نعلم أن جوابنا عليـه بالنفى . إن تبويب أوجه النشاط الفنى المتنوعة كان غير مستطاع لأنه لم يكن موجوداً . كانت الفنون على تباينها ممتزجة ، متضامنة ، مشتركة فى الأثر الفنى ، ونحن نعتقد أن هذا التصنيف المطبوع بالطابع المدرسى الصريح ، هو نتيجة استقلال الفن . وهـذه الظاهرة على أية حال جاءت متأخرة . وهى ليست من الأوليات بل هى تصنيف صناعى ، وفرض من شأنه أن يقتلع إلى حد ما الجذر الحية للابتكار الفنى . وهذا التصنيف يظهر فى هذه اللحظة ، التى حرر فيها الفن وتخلص من هذه العلاقات الأصيلة وأصبح مستقلا عن الدين ، يكفى نفسه بنفسه فى بحوث تتعلق بالجمال .

ولـكن إذا عاد الابداع الفنى ، لأسباب مجهولة بعـد ، إلى مصادره الطبيعية ، و إذا عاد الفنان إلى ادعاء النبوة والرسالة ، فسيستعيد الفن لونه القديم ، ويتجه إلى التأثير فى حواس الانسان ، ويستخدم من جديد كل وسائل التعبير ، ويصبح كما كان فى أول نشأته شاملا ومعقداً .

هيلاريه ذالوشر

نقلها عن الفرنسية إلياس نعمان حكيم

شهرية السياسة الدولية

ساد الشهر المنقضى فى ميدان السياسة الدولية ثلاثة حوادث جسام : مؤتمر وزراء الخارجية فى موسكو ، ومضاعفات بيان الرئيس ترومان عن المساعدة المالية لليونان ، وعودة الجنرال ديجول إلى الميدان السياسى

مؤتمر موسكو

أما مؤتمر موسكو فقد انتهى بعد شهر ونصف شهر إلى ما كان النقاد السياسيون قد انتظروا انتهاءه إليه قبيل انعقاده . وكانوا قد انتظروا نجاحه فى المعاهدة النمسوية وإخفاقه فى المعاهدة الألمانية . لكن هاتين المعاهدتين وإن كانتا هما موضوع المؤتمر فى دورته المنقضية ، لم تكونا هما بالذات مظهر الجو الذي ساد المؤتمر ومظهر الدلائل على ما يكتنف العلاقات الدولية من ملابسات . إنما هى المواقف التى وقفها وزراء الخارجية بعضهم قبل بعضهم الآخر التى تحمل تعاليم ما يتلمسه المعقبون . وقد كانت تلك المواقف مؤذنة من اللحظات الأولى بانتشار روح الشك وإساءة الظن ، ولا سيما بين الوزير الأميريكى من ناحية والوزير السوفيتى من ناحية أخرى . وكان طبيعيا أن تنتشر تلك الروح منذ انعقد المؤتمر لأن الرئيس ترومان قد قذفه بعد ثمان وأربعين ساعة من افتتاحه بقنبلة بيانه عن المساعدات المالية الأميريكية لتركيا واليونان وبما تضمنه البيان من إشارات صريحة إلى أن الاتحاد السوفيتى هو المقصود من تلك الاجراءات بالذات .

وقد دلل على تلك الروح — إذا كانت هى فى حاجة إلى التدليل — ما أحاط بمقابلة المارشال ستالين لوزير الخارجية الأميريكية من ملابسات ؛ فقد كانت هى آخر المقابلات التى جرت بينه وبين وزراء الخارجية المؤتمرين ، وقد جرت بعد وقت قيل إنه انقضى فى التردد ، وفى تحديد شروط الاجتماع وما قد يدور فيه من حديث .

والى هذه العلاقة التى خيم عليها ماخيم من عدم الثقة المتبادل، استطالت الأحاديث على غير جدوى بين الجانب السوفيتى والجانب البريتانى حول تعديل معاهدة التحالف المعقودة أثناء الحرب تعديلا يتمشى مع الحالة الجديدة التى خلقها فى الميدان الدولى قيام الأمم المتحدة ووجود ميثاقها العتيد .

وحتى المعاهدة النمسوية التى انتظر المعقبون لها وحدها النجاح بين أعمال المؤتمر، لم يكن التوفيق فيها أمراً ميسرا . فقد تضمن تقرير وكلاء وزراء الخارجية الأخير عنها اتفاقهم على ثمانى نقط واختلافهم على ثلاث . وكانت النقط التى اتفقوا عليها هى موضوعات مجرمى الحرب ، ونقل الأشخاص الذين هم من أصل ألمانى من النمسا إلى ألمانيا ، وجلاء القوات المتحالفة عن النمسا ، وإعادة الممتلكات النمسوية التى أخذها الألمان من النمسا إليها ، ورفض مطالب النمسا من الأمم المتحالفة ، وممتلكات النمسا فى بلاد الحلفاء ، والعقود المبرمة بين النمسا وألمانيا ، والممتلكات الفنية والأدبية والصناعية . وكانت المسائل التى اختلفوا عليها مسائل الحدود ، والأشخاص المشردين ، والديون النمسوية .

وقد قوبلت تلك النهاية التى انتهى إليها مؤتمر موسكو حتى كتابة هذه السطور بنوع من خيبة الأمل فى انجلترا ، وبنوع من الغيظ فى أميريكا ، وبنوع من الألم فى فرنسا ، وإن لم يصدر إفصاح عن هذه الأنواع بصفة رسمية إلا عن انجلترا . فقد صرح مصدر رسمى فيها بأن « وزارة الخارجية البريتانية تشعر بخيبة الأمل للاخفاق الذى منى به مؤتمر وزراء الخارجية فى موسكو فى الوصول إلى اتفاق على أية مسألة من المسائل الكبرى ، وإن كانت بريتانيا تعتبر هذا المؤتمر كخطوة أولية لتسوية بعض المشاكل ، ولم تكن تتوقع أن يصل المؤتمر إلى أية تسوية نهائية للمسائل المعروضة عليه باستثناء مسألة النمسا » . واستطرد المصدر يقول : « إن الحكومة البريتانية لاتتوقع إمكان الوصول إلى أى اتفاق شامل فيما يختص بالمسألة الألمانية فى هذه الدورة من المؤتمر ، وإنه ليس هناك ما يدل على أن بريتانيا تنوى إدخال أى تعديل على سياستها فى ألمانيا أوسياستها الخارجية عموماً » .

مضاعفات بيان ترومان

وأمام مضاعفات بيان الرئيس ترومان عن المساعدة المالية التى يقترح تقديمها بشروط لتركيا واليونان فقد ظهرت فى أكثر من ميدان داخلى وخارجى ودولى .

ففى الولايات المتحدة ذاتها قامت فى وجهه معارضة من جانب بعض الشيوخ الذين رأوا فيه خروجاً على ميثاق الأمم المتحدة أدت إلى تعديله بحيث أضيفت عليه صفة الوقتية المعلقة على استطاعة المنظمة الدولية القيام بالمساعدة المقترحة .

وفى تركيا قام اعتراض على شرط الإشراف على طريقة التصرف فى المساعدة المالية ، إذ اعتبره الأتراك تدخلا فى صميم السيادة التركية وإعلاناً لعدم الثقة فى الادارة التركية ، وهما ما لايقبلونه .

وفى أوربا يتنقل مستر والاس نائب رئيس الولايات المتحدة فى عهد روزفلت ووزير التجارة المستقيل لخلاف بينه وبين وزير الخارجية السابق على سياسة أميريكا الخارجية ، مهاجماً بيان الرئيس ترومان فى مقالات يكتبها وخطب يلقيها . وقد وقعت بينه وبين مستر تشرشل مشادة أبرزتهما فى موقفين متناقضين التناقض كله .

وقد شاء مستر تشرشل أن يصف مستر والاس بأنه « شيوعى متستر » وقد رد مستر والاس على مستر تشرشل بأنه « عامل للحرب متستر »

وتدخل فى الميدان مستر ايليوت روزفلت نجل الرئيس روزفلت ، إذ خطب فى اجتماع عقد تحت رعاية « المواطنين الأميريكيين التقدميين » بمناسبة ذكرى والده وحضره سبعة آلاف شخص ، فوصف مستر والاس بأنه « مسيح سياسى » ذو بصيرة نافذة وعلى خبرة تامة بحلول السياسة العالمية والأميريكية . وقال إن الوكيل السابق للولايات المتحدة لا يهدف إلى شئ سوى السلام العالمى ، وإنه يحض شعوب العالم على مساعدة الشعب الأميريكى فى إجبار ساسة تلك الشعوب على الرجوع إلى مبادئ فرانكلن روزفلت .

وفى مجلس الأمن طلب الاتحاد السوفيتى معارضة المساعدة التى انطوى عليها بيان الرئيس ترومان لأنها منطوية فى نظره على مد اليونان بأسلحة قد

تفضى آخر الأمر إلى تعريض السلم والأمن الدولى فى جنوب أوربا الشرقى لنوع من الخطر . فرفض المجلس طلب الاتحاد السوفيتى من حيث المساعدة ، لكنه قرر أن حفظ السلم فى تلك الناحية من العالم وما يقتضيه من حماية لتخوم اليونان الشمالية أو الغربية إنما هو من اختصاص مجلس الأمن دون غيره فلا يجوز أن تستأثر به دولة أو اثنتان أو أكثر .

عودة ديجول إلى الميدان

وأما عودة الجنرال ديجول إلى الميدان السياسى الفرنسى فقد تجلت إثر خطب ألقاها لمناسبة ذكرى التحرر وهاجم فيها الدستور الفرنسى الجديد ودعا الفرنسيين إلى « التجمع » قصد تعديله . وهو إنما يعيب على الدستور الجديد تضييق سلطان السلطة التنفيذية عن طريق إخضاعها الكامل للجمعية الوطنية ، و إفساد التمثيل القومى عن طريق « الانتخاب بالقائمة » أى تمكين النظام الحزبى وطغيانه على إرادات الأفراد .

وقد انبرت الهيئات الفرنسية لمقاومة الهجوم الذى شنه الجنرال ديجول على النظام الفرنسى القائم . فعقب على خطبه رئيس الوزارة الفرنسية والرئيس السابق بلوم ، وهما من أساطين الاشتراكيين ، وعقب تووريز وهو السكرتير العام للشيوعيين، كما تناولت الصحف الموقف بالتعليق الجدى.

لكن الجنرال ديجول قد مضى فى سبيله ، وافتتح مكاتب لتسجيل أسماء أنصاره والتابعين ، فبلغ عددهم فى إحصائهم الأخير ثلاث مئة ألف . وهو بالنسبة لملايين الناخبين الفرنسيين عدد ضئيل ، وإن كان بعض المعقبين يخشون — إذا لم تتدارك الأمور — أن تنقلب الحركة الجديدة أداة عدم استقرار فى الكيان الفرنسى الداخلى .

محمود عزمى

شهرية المسرح

الروايات الختامية للفرقة الفرنسية

مطلع نجم عظيم

شهدنا هذا النجم منذ بداية الموسم يلمح في الحين بعد الحين لمحات بارقة خاطفة ، في قصة بول جيرالدي التحليلية الظريفة « لو أني أردت » ، ثم في تلك المأساة الرائعة القوية الزاخرة بالروح الشعرية والفكرة العالية الفلسفية التي أسماها مؤلفها جان جيرودو باسمها الغامض المتناقض « لن تقع حرب طروادة » .



وكان هذا النجم يتألق فيجتذب الأنظار ، ولكنه لم يكن يستأثر بها طول الوقت . لقد كان في الفرقة التي تحيي ذلك الموسم الفرنسي على مسرح دار الأوبرا الملكية أكثر من نجم متألق في منظومتي الرجال والنساء .

وبلغ الموسم منتصفه . ثم عرضت الفرقة على المسرح من برنامجها العتيد رواية لستيف باسير « سأحيا حياة حب عظيم » . وهنا ، هنا بعد لحظات قصار من البداية ، سطعت ميشيل ألفا النجم المتألق سطوعها العظيم . هنا انتفضت عن قوة كامنة انفجارية لم تدع من الشهود السامعين كياناً مهما تكن صلابته إلا زلزلته ، ولا قلباً مهما يكن بروده وجموده إلا هزته ، ولا نوطاً من نياطه إلا مزقته .

هي هنا في دور الفتاة المشبوبة القلب ، العارمة الحب ، ولم يكن حبها حلماً من أحلام العذارى بالزواج فحسب ، بل هو حب عظيم لأنها كانت

تحب فى حبيبها الحب نفسه . ولقد هبطت عليهما دوقة حسناء من ذوات الحظوة فى البلاط الملكى كما تنحط الداهية غير مرتقبة ولا مستنظرة ، فنازعتها هذا الحب ، واستعانت على ذلك بما تملكه من نفع للفتى وشفاعة لأسرته وكانت من الأسر المغضوب عليها المبعدة من بلاط شمس الملوك لويس الرابع عشر . وتتجسد ميشيل ألفا شخصية الفتاة كاود فى بساطتها وطهارتها وقوة طبعها التى تفردها عن عامة البشر . وهنا تظهرنا الممثلة العظيمة فى أسارير وجهها ولمحة عينيها وحركة جسمها المشدود الأعصاب ونبرة صوتها المنفعل الكظيم على مبلغ ألمها الغاضب وحدة غضبها الأليم . ويغلو بها الألم ويشتد قبضه على مخنقها فتتحصن منه أحياناً بالتهكم المرير . وهى تبدو فى ذلك جميعه وكأن نفسها تستعذب الألم الذى تلعنه .

ولعل أروع المواقف التى وقفتها ميشيل ألفا وأفجعها ، هذا الموقف الذى أبت فيه الفتاة أن تعتمد الغض من غريمتها وبخس قيمتها للغلبة على قلب من تحب والظفر بإيثاره . فهذه خطة ترتضيها محظيات البلاط ويبلغن بها المراد . ولكن فتاتنا لا تحفل النجاح وإنما مطلبها الحب فى تمام صدقه وكماله . ومن أجل ذلك اختارت الموقف الذى تتجلى فيه عظمة نفس المحب فى إذلاله النفس العزيزة أمام المحبوب ، إنها ستبكى بالدموع الغزار الحرار بين يديه وستصف له مبلغ حبها له ومقدار هيامها به .

وليس مثل ألفا فى تحميلها الجمل القصار أبلغ المعانى المؤثرة الكبار . وما أنس لا أنس صوتها تصيح بغريمتها التى تم لها الظفر بمن تحب : « إذهبى فالحقى به . إذهبى فالحقى به . » صيحة مفاجئة فيها قوة ، قوة اليأس كله .

ثم حوارها مع صديقها الشاعر الكهل فى ختام الفصل الثانى وقد ضاع كل رجاء :

هى : « من أجلك عدلت عما كنت عليه عازمة . »

هو : « ليكونن لك على ذلك حسن الجزاء . »

هى : « من يجزينى ؟ ... يجزينى الله ؟ »

هو : « أرجو ذلك . »

هى : « ولكنه لم يشأ هذا الذى جرى . . . إنه لأحرى بعدله أن لا يحيط علمه بما جرى الليلة هنا . »

وأخيراً — فى الفصل الأخير —

تتحقق الفتاة أن الفتى لا يزال يحبها على الرغم من زواجه بغيرها . فترضى بما قسم لها ، ويعاودها الايمان بالعناية ويعمر نفسها :

« لقد ساورتني الشكوك ، وصدر مني في حق الله تعريض وتجديف ولكنه هو الوهاب الكريم الذي حباني بهذا الحب ، وهو الذي جعل هذا الحب عظيما حتى خرج من أحبته بنصيب منه . »

وتأمر بأن تغلق عليها أبواب القصر لتخلو فيه بقلبها الكايم وحبها العظيم .

ويهمس صوت بين المغتبط والحزين ، صوت الفتاة ميشيل ألفا عميق الرنين ، بهذه الكلمة، كلمة الختام، وقد خيم في القصر الظلام :

« لم يبق لي بعد هذا أمنية أتمناها لقد بلغت ما أردت . »

وتنزل الستار بين عاصفة من التصفيق والتهليل لم يسبق لها مثيل . ويخرج المتفرجون وهم أجمعون لا يزالون تحت تأثير ما شهدوه مهتاجي النفوس جياشي الشعور . وذلك جله ، إن لم يكن كله ، من فيض هذه المرأة ، هذه الجنية العبقرية ميشيل ألفا . فلقد كانت مع إجادة من حولها من الممثلين والممثلات كافة ، هي المسيطرة على المسرح حتى في فترات غيبتها عنه .

ولقد أقسم من أقسم أنها في هذه الرواية قد استولت على الأمد وجرت إلى النهاية ، وبلغت الغاية التي ليست وراءها غاية . وأحسبني كنت من القسمين . فلما أن شهدتها بعد أيام معدودات في مسرحية بول كلوديل « البشرى المبلغة إلى ماري » ، ونظرت إليها في أطار فيولين المبتلاة القديسة بعد أن كانت كلود العاشقة الوالهة ، عجبت لها كيف خرجت من صورة إلى صورة ، في هذا اليسر وهذه السهولة .

ثم لم ألبث أن رأيت ما لم أقض منه العجب : رأيتها هي التي عهدتها قد انتهت إلى أبعد الغايات — تمضي في التفوق وراء ذلك أشواطاً ، حتى لقد فاقت نفسها أضعافاً .

هذه هي ميشيل ألفا . وإني — وايم الحق — لا أزخرف القول حين أقول إني كنت أشهدها في هاتين الروايتين وكأني أشهد في السماء عن كثب مطلع نجم عظيم .

عبد الرحمن صدقي

شهرية السينما

سعادة مغتصبة (شركة إخوان وارنر)[1]

والمعجبون بفن بيت دافيز التمثيلي وجدوا في هذا الفيلم ما راقهم واستمال نفوسهم . فهي تضطلع فيه بدورين مختلفين كل الاختلاف ، وقد أدتهما رغم اختلافهما وتباينهما أداء متقناً لم نألفه إلا من القليل من ممثلي هوليود . لقد أعجبنا بها في دور الفتاة الطيبة الطوية الرقيقة الاحساس الهادئة الأخلاق ، كما أعجبنا بها أيضاً في دور الفتاة التي تميل إلى الدعابة واللهو والمجون . فمع هذا البون الشاسع الذي يفصل بين الشخصيتين لقد أجادت بيت دافيز في إحيائهما . وهي في سبيل ذلك بذلت مجهوداً خليقاً بالثناء يسر لها الانتقال من شخصية إلى شخصية دون أن تسبغ على إحدى الشخصيتين صفات الأخرى . فبيت دافيز في دور بات الماجنة تختلف كل الاختلاف عن بيت دافيز في دور كيت الوديعة . وقد يكون تمثيلها وحده هو العامل الأساسي لنجاح هذا الفيلم الذي يقدم لنا قصة هاتين الأختين اللتين تنازعتا رجلا واحداً . لقد كانت كيت تحب الشاب بيل إمرسون حبا عظيما ، وكان الشاب يبادلها هذا الحب حتى علمت بات أخت كيت التوأم بأمر هذا الهيام، فتقربت إلى بيل وتسلطت على حواسه فانقاد لها وأسلم نفسه إليها ، وسرعان ما نسي غرامه وتزوج من هذه الفتاة الماجنة . وكيت كانت في حالة يأس شديدة مما يجرى حولها ولا تجد سلوى إلا في الرسم الذي كانت تهواه . على أن زواج بيل ببات لم يكن زواجاً موفقاً . فالمرأة لا تعرف الاخلاص بل هي تؤثر اللهو والمجون . فقد جعلت لنفسها عدداً كبيراً من العشاق حتى اضطر الزوج إلى الانفصال عنها و إلى طلب الطلاق منها . ثم تموت بات في عاصفة في عرض البحر ، وتنجو منها كيت بأعجوبة . وشاءت الأقدار أن يوجد في يد كيت خاتم بات . فيعتقد الكل أنها بات . فها هي ذي فرصة

---

(١) A Stolen Life *(Warner Bros)*

لكيت لتظفر بحب بيل وتعيش معه كزوجة . لم تكن كيت تعلم بما جرى بين الزوجين من شقاق أدى بهما إلى الانفصال . ومهما تبذل كيت من مجهود ومهما تكافح فى سبيل حب بيل الذى يعتقد أنها زوجته ، لاتنجح فى استرداد سعادتها المغتصبة. ولكنها أمام إخفاقها فى محاولتها تلوذ بالفرار وتعود إلى منزلها . غير أن الشك كان قد وجد سبيله إلى بيل ، فهو لم يعتد هذه الأخلاق السامية من بات ، فيدرك محاولة كيت ويلحق بها ليعيش معها .

والقصة متقنة الحبكة ، منطقية الحوادث ، حتى إنها أخرجت مرتين فى السينما ، وكانت الممثلة الانجليزية اليزابيث برجنر تقوم بدور الفتاتين فى أول مرة . إلا أن خاتمة القصة غير محتملة الوقوع ؛ فالأزواج عادة يعرفون زوجاتهم ولا يمكنهم أن يخلطوا بينهن وبين امرأة أخرى مهما كان الشبه عظيما . فلكل كائن حى مميزاته وعاداته ، والزوج هو أكثر الناس علماً بمميزات زوجته بحكم العلاقة التى تكون عادة بينهما . ففى الجزء الأخير من قصتنا هذه نجد بيل يعاشر كيت مدة طويلة دون أن يشعر بأى شك فى شخصيتها . وهذا بعيد الاحتمال .

و إخراج القصة لا يخلو أيضاً من إتقان ؛ فقد عنى المخرج بتفاصيل دقيقة فى المناظر ، وقد أجاد فى تصوير العاصفة البحرية حتى أسبغ على هذا المنظر طابعاً واقعيا جعل الشاهد فى لهفة شديدة . وقصارى القول أن هذا الانتاج جدير بأن يعد من أحسن إنتاج هذا الموسم تمثيلا و إخراجاً .

الوطن (أفلام راؤل بلوكان) (١)

وفيلم «الوطن» مقتبس من مسرحية تحمل العنوان نفسه كتبها فيكتوريان ساردو فى ١٨٦٩ وهى تدور حول ثورة هولندة على أسبانيا التى كانت تحتلها سنة ١٥٦٨ فى عهد فيليب الثانى ملك أسبانيا ونصير الكاثوليكية فى أوربا . كان الدوق دالب يحكم بروكسل حكما إرهابيا ، مما ولد فى قلوب المواطنين البغض له ولأسبانيا ودفعهم إلى الكفاح فى سبيل استرداد حريتهم واستقلال

(١) Patrie *(Les Films Raoul Bloquin)*

بلادهم . وكان يرأس حركة المقاومة فى المدينة الكونت دى ريزور وهو أحد النبلاء الهولنديين . وفى ذات يوم أتهم الكونت بأنه توجه ليلا إلى معسكر جيوم دوروونج . ولكن ينقذه من هذه التهمة شهادة ضابط أسبانى يقيم عند الكونت ؛ فقد قال هذا الضابط إنه رأى ريزور خارجاً عن حجرة امرأته فى تلك الليلة . و بما أن ريزور كان فى معسكر جيوم دوروونج فى هذه الليلة فقد أصبح على يقين من خيانة امرأته الأسبانية دولوريس . أما عشيقها فهو الشاب كارلو الذى كان موضع عطف الكونت وأحد رؤساء حركة المقاومة فى المدينة . وكارلو لا يريد أن يضحى باستقلال بلاده فى سبيل إرضاء نزوات عشيقته وقد كانت تريد أن تهرب معه فى الليلة التى كان جيوم دوروونج على أهبة الهجوم على المدينة ليخلصها من المحتلين و يرد إلى شعبها الحرية . فتفكر دولوريس فى خيانة زوجها لاحبًّا فى أسبانيا ، بل حباً فى الحب ، فتذهب إلى الكونت دالب وتطلعه على تفاصيل المؤامرة بعد أن يعدها بألا يمس عشيقها بأذى . ويقبض على المتآمرين و يحكم عليهم بأن يموتوا حرقاً .

وللقصة كما ترى من هذا الملخص قيمة عصرية . فهناك تشابه كبير بين حوادثها وبين حركات المقاومة التى نشأت إبان الحرب فى فرنسا ، وما اعترى هذه الحركات من صعوبات وما امتحن به أعضاء هذه الحركات من اضطهاد وعذاب . وهناك شبه آخر بين تعسف القوات الأسبانية وحكمهم الارهابى وبين تصرفات القوات الألمانية فى الحرب الأخيرة .

ودل إخراج القصة على ذوق فنى بارع ومهارة فائقة . فقد أظهر المخرج العناصر المؤثرة فى القصة بشتى الأساليب ، فمن موسيقى قوية التعبير إلى غناء بأصوات تتفق مع الموقف ، وضوء يتناسب وجلال المنظر . هذا عدا جمال التصوير حتى أن بعض مناظر الفيلم يمكن أن تعد لوحات فنية رائعة .

أما عن التمثيل فلا أريد أن أنسب نجاحه إلى بيير بلانشار فحسب ؛ فقد كان مع هذا الممثل كواكب آخرون لم يقل أداؤهم روعة عن أدائه هو . إلا أنى أرى أن بيير بلانشار بتمثيله قد ارتفع عنهم ورفع فنه التمثيلى إلى أعلى درجات السمو . فلا مغالاة فى أدائه ولا إسراف فى تعبيره ، بل لزم اعتدالا لا يلزمه إلا الفنان الجدير بهذا الاسم .

رشدى كامل

من وراء البحار

معالجة الفقر وزيادة السكان فى بولونيا

من الواجب على الدول التى تعانى مشاكل الفقر وتكاثف السكان ، مثل مصر ، أن تعنى بالوقوف على الوسائل التى تتخذها الدول الأخرى لمعالجة مثل هذه المشاكل . ولقد عمدت بولونيا أخيراً إلى وضع مشروع يستغرق إنجازه ثلاث سنوات ، لعلاج هذا المشكل الكبير ، وكتبت مجلة « العالم اليوم » الانجليزية عدد مارس سنة ١٩٤٧ فصلا فى هذا المشروع . وهى ترى أن هذا المشروع الذى قدم للمجلس الوطنى البولونى فى سبتمبر ١٩٤٦ ، يعتبر من أهم التشريعات التى سيكون لها أثر كبير فى حياة بولونيا وأنه أول تشريع اقتصادى فى أوربا الشرقية .

ولكى نفهم مغزى هذا المشروع ، يجب النظر إلى الحالة الاقتصادية فى بولونيا فيما قبل الحرب وما هى عليه الآن . وقد نص المجلس الوطنى عند قبول المشروع على أن « الغرض الأكبر للاقتصاد البولونى فى المدة التى يتناولها المشروع هو رفع مستوى المعيشة للطبقات العاملة فوق المستوى التى كانت عليه قبل الحرب » . ولعل بولونيا أشد حاجة إلى هذا الأمر من أية دولة أوربية أخرى . فقد كانت بولونيا قبل الحرب أمة فقيرة يزداد الفقر فيها انتشاراً بسبب ضغط السكان على الأرض . وكانت فيها أكبر مشكلة فى أوربا الشرقية هى مشكلة البطالة الزراعية الخفية . فربع السكان أو ثلثهم من العائشين على الزراعة يعتبرون زائدين عن الحاجة ، أى أنهم يستطيعون أن يهجروا الأرض دون إقلال للإنتاج الزراعى .

هذا الضغط على الأرض معناه الفقر المقنع بين الزارعين ، ولم يكن هذا الفقر ثابتاً بل كان يزداد ؛ فان عدد الذين يعيشون على الزراعة يزيد بسرعة أكثر مما يستطيع الزارع أن ينتجه . وهكذا كان يتضاءل إيراد الزارع وهذا يمنع الادخار والتقدم الفنى فى الزراعة ، وفى الوقت ذاته يوقف اتساع الطلب على المنتجات الصناعية .

وهذا التكاثف فى السكان الذين يعيشون على الأرض هو فى الوقت ذاته سبب ونتيجة لقلة رأس المال . واتساع

نطاقِ هذا التكاثف يقضى على تقدم الاقتصاد البولونى . وما جاءت سنة ١٩٣٠ حتى ظهر من الضرورى اتخاذ وسائل فعالة إذا أريد الخروج من هذا المأزق . ولكن الحالة الاجتماعية الاقتصادية لبولونيا فيما قبل الحرب لم تكن تسمح بايجاد علاج إلا فى فكرة المهاجرة الدولية . وقد بذل بعض المجهود فى العمل على الانتفاع بالمنطقة الوسطى الصناعية ببولونيا مع الاعتماد على القروض الخارجية ، ولكن هذا العمل لم ينظم ، ونشأ عن ذلك أن هذه القروض أفادت الصناعات المحتكرة التى كسبت كثيراً باستغلال المستهلك .

ولقد تغيرت الحال الآن ونقص عدد سكان بولونيا ثمانية ملايين عنه قبل الحرب . وقد خرب ٧٥ فى المائة من عاصمتها وارسو وانتقلت الدولة بأجمعها إلى الغرب ، وبذلك صار لها موارد صناعية كبيرة وشبكة للنقل كثيفة وساحل طويل . وقد تغير تكوينها الاجتماعى تغيراً تاماً ، وفقدت طبقة كبار الزراع والمالكين والجيش قواعدها الاقتصادية ، وصار الطريق ممهداً لاعادة البناء وإن كان هذا العمل كبيراً بسبب اتساع التدمير .

وقد يرى الزائر لبولونيا لأول مرة أن هذا التدمير فظيع للغاية لأن وارسو خربت تخريباً كبيراً ، فجميع القسم القديم من المدينة حول ساحة النصر هو عبارة عن أطلال ، وحى بارز لكوفكا هو عبارة عن واجهات حوانيت قائمة فى أسفل تلال ، وترى واجهة المحطة الكبرى معلقة فى الجو ، وكان ذلك نتيجة التدمير المنظم شارعاً فشارعاً وداراً فداراً ، ولم يبق لحى اليهود من أثر .

ولقد كان قرار إعادة بناء العاصمة قائماً على معنى عاطفى أكثر منه اقتصادى ، ولكنه أمر لا بد منه ، والعمل فيه يسير سريعاً على أساس تعاونى على اعتبار أن البلدية هى صاحبة الأرض . ويتبادر للزائر أن هناك نشاطاً يدل على حيوية كبيرة ، لا سيما عندما يرى النساء العاملات يقمن بطلاء الأبنية ، وعربات الفلاحين محملة بأدوات البناء ، والفتيات الشرطيات ينظمن وسائل السير .

لقد تغير الأساس الاقتصادى فى بولونيا إذ كانت خسارتها من السكان أكبر خسارة بين الدول الأوربية فيما عدا روسيا . وكان تعداد بولونيا فى سنة ١٩٣٩ خمسة وثلاثين مليوناً يعيش منهم إحدى عشر مليوناً وثمانمائة ألف فى الأراضى الشرقية

التى اقتطعت من إدارة بولونيا .

وقد عمل إحصاء للسكان فى فبراير سنة ١٩٤٦ فبلغ ٢٣ مليوناً ، ٩٣٠ ألفا ونزح أكثر الألمان فى المناطق التى ضمت إلى بولونيا وحل محلهم بولونيون ولا يزال هنالك تحول فى السكان نحو الأراضى الجديدة .

ولقد فقدت بولونيا ثلث مساحتها السابقة أى أنها فقدت ١٨١ ألف كيلومتر مربع من مجموع مساحة قدرها ٣٩٠ ألف كيلومتر مربع . ولكنها كسبت فى الشمال والغرب ١٠١ ألف كيلومتر مربع أى أن مساحتها نقصت بعشرين فى المائة مما كانت عليه . فالمساحة التى انتزعت منها هى أكبر قليلا من انجلترا وويلز ، والمساحة التى كسبتها هى أكبر قليلا من أسكتلندا وشمال إيرلندا . ومع ذلك فان القيمة الاقتصادية للأراضى التى ضمت إليها أكبر كثيراً من الأراضى التى خسرتها . فقد صار ما تمتلكه من صناعة الفحم ضعف ما كان لها ، ثم إنها كسبت أماكن صناعية عظيمة متقدمة جداً تتصل بطرق حديدية جيدة وقنوات إلى مينائى شتيتين ودانزج . ولم تخسر خسارة صناعية غير أنها فقدت أكثر آبارها من البترول وأملاح البوتاس .

وقد كسبت الزراعة البولونية بهذا التغير ، فان المساحة التى استولت عليها روسيا أكثرها أحراش ومستنقعات فى حين أن القسم الذى استولت عليه فيه مزارع منظمة كل التنظيم .

وعلى ذلك صارت علاقة الأرض بالسكان الزراعيين خيراً من قبل ؛ فقد كان عدد السكان الزراعيين ٢٠ مليوناً فنقص إلى ١٥ مليوناً فى حين أن الخسارة فى المساحة الزراعية هى السدس . وليس معنى ذلك أن حال الفلاح صارت خيراً منها الآن فلقد أصيب بتدمير رأس ماله ودخله ولكن عندما يتوزع السكان الزراعيون على الأرض يتحسن حاله .

على أن الحالة الزراعية سيئة الآن بسبب الخسارة فى المواشى ويقدر البعض أنه ليس من الميسور أن تسترد بولونيا مواشيها قبل خمسة عشر سنة إلا إذا التجأت إلى استيراد المواشى على نطاق واسع . ففى الأراضى التى كانت تكون جزءاً من بولونيا السابقة لم يبق من المواشى غير ٥٣ فى المائة مما كانت عليه فى سنة ١٩٣٨ ، وفى الأراضى الجديدة لا تزيد النسبة عنها قبل الحرب على ١٦ فى المائة .

ولقد أدى التنظيم الزراعى إلى تغيير فى البناء الذى تقوم عليه الزراعة فقد تقرر أن تقسيم جميع الأملاك التى

تزيد على ٥٠ هكتاراً (١٢٠ فدان) فى أراضى بولونيا القديمة ، ١٠٠ هكتار (٢٤٠ فدان) فى الأراضى الجديدة وقضى هذا التنظيم بضم المزارع الصغيرة فى وحدات اقتصادية كى تكون أصغر الملكيات يبلغ ١٢ فداناً فى المساحة .

على أن القاعدة الاقتصادية الآن هى الانتقال من الزراعة إلى الصناعة حيث بدت بشائر نجاح التنظيم الجديد . فلقد أدت الحرب إلى تخريب الصناعة البولونية ولكن المصانع فى الأراضى التى ضمت إلى بولونيا لم تتأثر بالتخريب بقدر ما تأثرت بالاهمال ، فاعادتها ميسورة . وهذه المصانع التى كسبتها بولونيا ستكون عاملا مهما فى رفع مستوى المعيشة .

والمشروع الجديد يضع هدفاً خاصاً بكل صناعة يجب بلوغه مع جمع الصناعات فى وحدات متقاربة حتى تبلغ فى سنة ١٩٤٩ إلى مستوى هو ١٥١ فى المائة فى سنة ١٩٣٨ .

ولما كانت هذه الأهداف تتطلب لتحقيقها استيراد بعض الضروريات فقد شمل هذا المشروع التجارة الخارجية فوضع لكل سنة ميزاناً تجارياً .

ولقد كانت تجارة بولونيا الخارجية قائمة فى الأكثر على الاتجار مع بلاد السوفييت فى سنة ١٩٤٦ . ولكن من المنظور أن تزداد تجارتها مع دول أوربا الغربية .

ويتوقف نجاح هذا المشروع على عاملين أولها كفاية النظام الداخلى وقدرته على العمل لازدياد الانتاج الصناعى والزراعى ؛ ويسند الصناعة الآن نقابات العمال ، كما يسند الزراعة حسن توزيع الأدوات الزراعية والظاهر أن الحكومة ستلقى نجاحاً وإن كان يحتمل أن تقوم صعوبات فى سبيل حشد الطعام للفلاحين .

والعامل الآخر هو التجارة الخارجية وهذه تتوقف على الحالة العامة فى العالم . فقد يحتمل فى حالة الفوضى الحالية ألا تستطيع بولونيا الحصول على الواردات الضرورية ، على أن بولونيا فى مركز قوى لأن لديها دائماً زيادة فى الفحم تقوم بتصديرها .

وبالجملة كانت التغييرات فى حدود بولونيا مما زادها مقدرة على محاربة الفقر بأن صارت نسبة السكان إلى الأرض خيراً منها فى الماضى وزادت مقدرتها فى الصناعة . وستكون عاملا مهماً فى الاستقرار السياسى والاقتصادى بأوربا الشرقية .

مصر والسودان والمعاهدة

فى العدد الأخير من مجلة « القرن التاسع عشر وما بعده » الانجليزية ، عدد ابريل ، بحث للفتنانت كولونيل بيردوود عن مصروالسودان والمعاهدة استعرض فيه علاقة مصر بالدول الأوربية لا سيما انجلترا وفرنسا منذ عهد محمد على إلى هذه الأيام التى يصف فيها موقف انجلترا بقوله : « لقد وصلنا الآن إلى الاعتراف بحق مصر بالتحرر الكامل فى محيطها الداخلى ، وقد سحبنا جيوشنا من الدلتا وتنازلنا عن حق حماية المصالح الأجنبية ، وأعلنا أخيراً عزمنا على سحب قواتنا من منطقة القنال فى تاريخ لايتجاوز سبتمبر سنة ١٩٤٩ .»على أنه يرى أن بعض المخاوف لا تزال قائمة بالنسبة للشريان الحيوى الذى يمر بأرض مصر . غير أن القوة الجوية قد غيرت جميع النظريات السابقة لدفاع الجيوش الأرضية ، ومن المؤكد أن الذين يتفاوضون فى عقد معاهدة جديدة مع مصر سيعملون على إيجاد محالفة عسكرية تؤدى إلى تأليف هيئة دائمة لتنظيم الدفاع المشترك عن تلك المساحة فى حالة تهديد مصر بواسطة دولة كبيرة أخرى . وفى هذه الظروف لا يمكن الفصل بين الدفاع عن مصر وعن القنال ، وما يتخذ من تدبير للدفاع عن أحدهما لا بد أن يشمل الآخر .

ولا شك فى أن هذه المشكلة كانت بسيطة نوعاً ما قبل التطور الحديث فى قوة إلقاء القنابل ، فان مياه القناة هى فى كل مكان منخفضة أكثر من الأرض المحيطة بها ووجود ثغرة فى جوانبه لا يسبب دائماً خطراً كبيراً ، ولكن إلقاء قنبلة ذرية على القناة مما يجعله عديم الفائدة إلى الأبد ، كما أن إلقاء قنبلة ذرية على القاهرة مما يقضى قضاء مبرماً على مصر بأجمعها .

ولعل البحث فى إلقاء القنابل الذرية مما يؤدى إلى مباحث عميقة ، وكل ما يجب ملاحظته أن العامل الأساسى فى حماية مصر هو القدرة على إصابة المطارات البعيدة ومصادر صنع القنابل الذرية . وفى المحادثات التى جرت بين الحكومتين البريطانية والمصرية ليس هنالك ما يحمل على الظن بأن هذه المسائل لا يمكن تسويتها تسوية مرضية . ولسنا نعلم المسائل التى أثيرت فى محادثات مستر بيفن وصدقى باشا فى أكتوبر سنة

١٩٤٦ ، ولكن من الراجح أنهما تناولا جميع وجوه الدفاع المشترك وقد يستنتج أنهما اتفقا على ذلك حيث إنه لم يثبت العكس .

فما هى العظمة التى يتنازع عليها الفريقان ؟ من الواضح أن مستقبل السودان هو موضوع الخلاف الهام بين الفريقين وهو موضوع ينطوى على مبادئ دولية ذات مغزى .

وقد بحث كاتب المقال فى شئ من الاسهاب عن السودان منذ عهد محمد على ثم خروج المصريين منه ثم إعادة فتحه وما كان من عقد الاتفاق على الحكم الثنائى . وهو يرى أن النص فى مقدمة هذا الاتفاق لم يكن موفقاً من الوجهة الانجليزية لأنه يضع الاتفاق على أنه مشاركة انجليزية فى عمل مصر وكان يحسن فى رأيه لصالح الانجليز أن يقضى النص بالمشاركة المصرية فى عمل قام به الانجليز ؛ فهذا الاتفاق حفظ موقف مصر الدستورى ومكانة التاج المصرى فى حين أنه ترك عبء إدارة البلاد وتطورها على عاتق الانجليز .

وهو يزعم أن موقف الانجليز من السودان مع ذلك سليم فهم لا ينكرون حق مصر فى أن تستمر على شركتها فى تلك البلاد بل هم يؤكدون فقط وفاقاً للرقى فى الأفكار الدولية الحديثة ، والعمل الذى جرت عليه جمعية الأمم من قبل ووريثتها الحاضرة ، أنه عندما يحين الوقت يكون للسودانيين حق الاختيار ؛ وهذا الاختيار إذا هم أرادوا قد يتخذ حتى شكل تقوية الروابط مع مصر .

أما الجانب المصرى فيجنح فى رأيه إلى اعتبارات المكانة والعاطفة ؛ فمصر تتخذ رأس مالها من الاصرار العاطفى على وحدة وادى النيل . وهذه الفكرة المفيدة فى الخطط الحربية السياسية لا تحتمل ضوء البحث . ففى السودان بين سكان وادى النيل نرى أهل الشمال يستطيعون أن يدعوا بعض التشابه الجنسى مع مصر إذ أنهم من أصل عربى واحد . ولكن فى جنوب الخرطوم حيث نرى الوثنيين يحلون محل المسلمين نجد قبائل أفريقية ليس لها أية صلة جنسية أو ثقافية بمصر . بل إننا فى الشمال نرى أن سكان وادى النهر خليط من الجنس النوبى والسودانى . وإذا ابتعدنا عن النهر وجدنا قبائل لا تعرف بوجوده . وهذا ما يسمونه وحدة الوادى .

وبعد أن ذكر أنه لا يوجد رأى عام سياسى فى السودان وصف ظهور حزبين فى تلك البلاد ، ثم قال : إن مصر فى اهتمامها العاطفى بمكانتها

الوطنية لم تجد الشجاعة لاعلان مشكلتها الحقيقية وهى مستقبل مياه النيل فان السودان المستقبل إذا كان معادياً لمصر يستطيع أن يكون خطراً على تقدم مصر بأن يحول دون التسهيلات لزيادة موردها من المياه . وليس الموضوع متعلقاً باحتمال منع المياه بقدر ما هو متعلق بالحصول على الكمية الضرورية من المياه فى الوقت المناسب . ثم إذا رغبت مصر فى أن تعد مليونين آخرين للزراعة وبذلك تستغل مياه النيل إلى أقصى حد فيجب أن تنفق وتشغل منشئات كبيرة للرى فى الأراضى السودانية . وقد تقوم مشاكل غامضة كحق قبائل أوغندة فى المرعى . وفى الوقت الحاضر تفقد كمية كبيرة من المياه فى مستنقعات السدود وهذه يمكن أن تسير إلى الملكال إذا أنشئ نظام صحيح للرى والصرف ؛ وهذه المياه لا فائدة منها للسودان . وهنالك اتفاق قائم على استعمال مياه النيل عقد فى سنة ١٩٢٩ وليس من المعقول مطلقاً أنه عندما يحين الوقت لنقل الادارة إلى يد سودانية مسئولة ألا تضمن بريطانيا مطالب مصر ضماناً كاملا بعقد اتفاق جديد ، فليس إذن فى هذه المسألة مالا يمكن تسويته ودياً تسوية معقولة حول مائدة مؤتمر . وإذا رغبت مصر فان موقفها يمكن حمايته بتسوية وضمان دولى . والتقدم بمثل هذا المطلب للأمم المتحدة يكون منطقياً أكثر من خطل الرأى فى التقدم إليها بموضوع السيادة المستقبلة . فميثاق الأمم المتحدة يقضى على أعضائه باحترام الحقوق الانسانية الأساسية وتقدم العلاقات الودية القائمة على مبدأ الحقوق المتساوية وحق الشعوب فى تقرير مصيرها . فاذن ليس نظام الأمم المتحدة هو المحكمة التى يحتمل أن توافق على محاولة إنكار هذه الحقوق على السودانيين .

وهو يزعم أن تأييد الجامعة العربية لم يكن حماسياً . ويرى فى ذلك دليلا على قوة قضية البريطانيين .

من كتب الشرق والغرب

OEDIPE OU THESEE

ETIEMBLE

أوديب أو ثيسيوس*

ترجم منذ قليل ونشر بالعربية في مجلد واحد مؤلفان لأندريه جيد : « أوديب » و « ثيسيوس » [1] . ولقد مر على ظهور « أوديب » ستة عشر عاماً ، أما « ثيسيوس » فلم يظهر في الفرنسية إلا حديثاً ، وهو مع ذاك اختيار موفق ذلك الذى يجمع في ثوب واحد لحظتين من لحظات تطور يمثل فيه أوديب وثيسيوس ، كلا منهما على حدة أولاً ، ثم هما معاً وجهاً لوجه أخيراً ، ضرورات يكمل بعضها بعضاً .

فأمام أبى الهول ولغزه « ما كائن يسير على أربع فى الصباح ، وعلى اثنين فى الظهر ، وعلى ثلاثة فى المساء ؟ » يجيب أوديب : إنه الانسان . الانسان هو الجواب على أسئلة الإنسان . وعلى كل فأوديب يمزج بين الانسان والفرد . وهو ، كما تشكو منه جوقة من رجال الشعب ، « فردى ممعن فى فرديته » . وأوديب الذى لا يعرف له أباً ، يفخر بأن سعادته وحالته من صنع يديه ، وأنه ليس مديناً فى ذلك لأحد : « لم توهب لى السعادة وإنما أخذتها » . وهو لا يحب العرافين ولا يرغب فى استشارة الآلهة « إن تيرسياس يثقل علينا بصوفيته وأخلاقياته » . وهذا الثائر يوافق رغم ذلك على أنه من المستحيل أن نمنع الشعب من إيثار المعجزات على التفاسير الطبيعية المنطقية . ويعترف : « من الخير أن يكون أمثالى فى الناس قليل » .

وهكذا يحكم أوديب على عرش طيبة ، ويخرج من نعيم إلى نعيم طيلة سنوات عدة ، ويتزوج من جوكاست ، فله امرأة وابنان وبنتان ، ويبقى

---

* كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

(1) نقلهما إلى العربية الدكتور طه حسين ونشرتهما دار الكاتب المصرى .

عرشه ثابتاً رغم الشقاء الذى تعانيه الكثرة . ثم إذا بوباء يحل ، ويقول وحى الآلهة كلمته وهى ليست أبداً : الانسان . فالآلهة تريد أن يعاقب قاتل الملك لايوس الذى كان يحكم طيبة ، قبل الملك الحالى . والبقية معروفة : فوحى الآلهة القديم كان يقضى بأن يهلك لايوس بيد ابنه ؛ فقرر لايوس التخلص من ذلك الابن اللعين ؛ ثم ألقى الطفل فاذا براع يتلقاه ويربيه ويعامله كأنه ولده ، ثم يشب ويكبر فاذا به يقتل فى الطريق رجلا مسنا أثقل عليه ، ثم يصل بعدئذ إلى طيبة والحزن مخيم عليها ، ويتزوج هذا الشاب الجميل من جوكاست . ثم يكتشف أوديب كل ذلك أثناء تحقيقه فى مقتل الملك لايوس . ولقد سبق أن تنبأ له كريون بذلك حين قال إن الله لا يلهم أولئك الذين ينظرون بعيونهم؛فأوديب ابن لايوس وقاتله ، وابن جوكاست وزوجها ، وأبو أنتيجون وأخوها ، أوديب الملك لم يكن يرى إلا سعادته ، ولقد عمى حتى تقبل القول بأن الله : « يوجد صلة خفية بين سعادة البعض وبين شقاء الكثرة » . وما يكاد أوديب يحس بأنه مذنب وقاتل حتى يفقأ عينيه . لقد سبق أن قال له تيرسياس : « إذا كانت عيناى مقفلتين فما ذلك إلا لكى تبصرعيون نفسى » . ولقد سخر أوديب من ذلك عندئذ . ولكنه عندما أمسى لا يبصر شيئاً أخذ يعترف بأنه هو الآخر « يشاهد الظلمة الالهية » . وذلك الذى كان يبنى سعادته على شقاء الآخرين ، ها هو ذا يتألم ليسعد الآخرين ؛ ولكن ظلامه لم يضئه إلا قليلا كما أشعره بذلك تيرسياس الذى لا يرحم ، حين قال له : « ما ينبغى أن تريد لهم السعادة وإنما ينبغى أن تريد لهم النجاة » . ويبدو أن الإله قد أوشك على الانتصار « خذ بحظك من الندم ، أقبل على الإله الذى ينتظرك . سيوضع عنك وزرك » .

ومن يكون فى جرم أوديب ولا يقبل ذلك العرض ؟ وهكذا ينتهى أمر أوديب بانتصار الكهنة .

ثم يفر من وطنه طيبة ، ويذهب إلى كولونا حيث كان ثيسيوس على وشك أن يلقاه . كان جيد يحلم منذ عهد طويل بكتابة لقاء البطلين وذلك ما تم فى كتاب « ثيسيوس » .

يقول ثيسيوس : « وإنه ليدهشنى ألا يتحدث الناس إلا قليلا عن التقائنا فى كولونا ، وعن هذه المواجهة بين مصيرنا فى آخر الشوط الذى كتب لكل واحد منا أن يقطعه » . وإنها

لصفحات رائعة الجمال تلك التى يبرز فيها جيد الرجل المقهور أمام الرجل المنتصر : يبرز فيها ابن لايوس أمام ثيسيوس . لقد استسلم أوديب لما يهيئ له النجاة . ولكى يشهد عظمة الاله ، رضى أن يعمى ناظريه ، ولكى يستغفر من أخطائه العظيمة أمام محكمة نفسه ، اختار أن يرتكب خطايا جديدة . ولكى يفسر لنفسه ما قدر لذريته من عار لجأ إلى « نوع من الإثم المستأصل » (لن يستطيع الانسان أن ينقى نفسه من دون معونة إلهية) . لقد اعتنق أوديب المسيحية .

« قلت حين أتم حديثه : أيها العزيز أوديب لا يسعنى إلا أن أثنى على هذه الحكمة التى تصطنعها والتى تتجاوز طاقة الانسان . ولكن تفكيرى لا يستطيع أن يرافق تفكيرك فى هذه الطريق . فأنا ابن هذه الأرض ، وسأبقى ابنها ، وأرى أن الانسان كائناً من يكون ومهما يكن حظه من هذا الإثم المستأصل ، يجب أن يلعب بالورق الذى أتيح له فى هذه الدنيا». تلك أقوال ثيسيوس قاهر المينوتور ، ذلك المينوتور الذى يحمله كل واحد بين جنبيه .

ويريد البعض أن يقول إن الحديث يصور جيد فى شخصيتين : جيد فى «اللاخلقى» *L'Immoraliste* وجيد فى «الباب الضيق» ؛ جيد فى « وهل أنت أيضاً كذلك ؟ » *Numquid et tu* وجيد فى «القوت» *Les Nourritures* وذلك خطأ . ويكون خطأ أيضاً أن نفترض أن جيد قد بقى متردداً بين إغراء هذين الصوتين . فاننا نعلم الآن رأى جيد فى الاءله ، وفى الانسان وفى السعادة وفى النجاة . ولقد فسر نفسه فى « الاله ، ابن الانسان » . وهو يحذر من أن يمزج فى الاله « شيئين مختلفين تماماً حتى إنهما يتعارضان » . أولا الاله الذى يمثل الكون جميعه والقوانين الظاهرة التى تحكم العالم ، إلهاً شبيهاً بزوس **Zeus** لدى اليونان ، أوشبيهاً بـ« الاله أو الطبيعة » *Deus sive natura* فى مذهب سبينوزا ، وثانياً « جماع كل مجهودات الانسان نحو الخير ونحو الجمال » . يقصد بذلك شيئاً يشبه المسيح أو يشبه بروميتيه **Prométhée** ومثل ذلك الاله « هو خير ما يصل إليه الانسان ، وكل الفضائل تساهم فى ذلك . ولكن ذلك الاله لا يسكن الطبيعة ؛ إنه لا يوجد إلا فى الانسان ولا يوجده إلا الانسان ، أوقل إنه يخلق فى الانسان . وكل جهد يقصد به إلى إبراز الاله بالصلاة إنما هو جهد ضائع » . وينتهى جيد إلى

أن يقول : ذلك وحده هو الاله الذى أستطيع وأريد أن أعبده .

وذلك الذى كان يرفض فى مبدأ الأمر الاختيار، انتهى بأن اختار بروميتيه ضد ذوس . وأمام أبى الهول الخالد أجاب هو أيضاً : الانسان بأكمله ولاشئ غير الانسان . وهو يقول على لسان ثيسيوس : « وأنا أسعى وحيداً راضياً إلى الموت . فقد ذقت نعم الأرض ، ويحلو لى أن أفكر فى أن الناس بعدى وبفضلى سيرون أنفسهم خيراً منا وأسعد وأدنى منا إلى الحرية . ولقد أبليت فى خدمة الانسانية المستقبلة ما استطعت . لقد حييت . » فلم يعد الأمر أمر النجاة وإنما هو أمر السعادة . وقد كتب جيد فى أحد كتبه الأولى : «البحث عن النجاة هو الأثرة » . وعندما ترك ثيسيوس النجاة ، لم يعد يريد إلا أن «يقيم مدينته» ، وأن يخلف وراءه أثينا .

أوديب أو ثيسيوس ؟ ليس جيد من أولئك المانويين **manichéens** الذين يقسمون العالم إلى قسمين . فلقد كان جيد كأوديب ، وإنه ليذكر باحترام ذلك المقهور العظيم ، وهو يقترب من الثمانين ، ولكن جيد لم يعد كأوديب . لقد استطاع تيرسياس أن يقهر أوديب ولكنه لم يستطع أن يقهر أندريه جيد .

اتيامبل

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

ظهر حديثا

مدرسة الزوجات يليها روبير و جنفييف تأليف أندريه جيد ترجمة الدكتور صبرى فهمى (دار الكاتب المصرى) .

هذا كتاب رائع ، أو قل هذا سفر رائع ؛ فانه مجلد واحد يشتمل على كتب ثلاثة للكاتب الفرنسى العظيم أندريه جيد . وروعة هذه الكتب تأتى من موضوعاتها أولا، ومن مذهب الكاتب فى إنشائها ثانياً ، ومن فنه فى هذا الانشاء بعد ذلك . وقد قال الأستاذ أتييه مؤرخ أدب أندريه جيد أن هذه الكتب الثلاثة تمثل عقل أندريه جيد وتفكيره ونزوعه إلى الاصلاح أكثر مما تمثل فنه وأسلوبه فى الانشاء .

ويخيل إلىّ أن الأستاذ المؤرخ الأديب قد أسرف على نفسه وعلى أندريه جيد فى هذا الحكم الذى لا يخلو من بعض القسوة . فليس بد من أن يكون هناك فرق بين كتاب أو كتب يقصد بها إلى الفن الأدبى فى نفسه ، إلى الفن الأدبى الذى لا يحاول إلا تصوير الميول والعواطف والأهواء ، فيلائم فى هذا التصوير بين جمال المعانى وجمال الألفاظ ، وينشئ هذه القطع الموسيقية التى تستأثر بالقلوب ، وتتيح للقارئ متعة فنية خالصة هى غاية الكاتب حين يكتب وغاية القارئ حين يقرأ ، و بين كتاب أو كتب أخرى ليس الفن فيها غاية من حيث هو فن ، وإنما هو وسيلة إلى حكم من أحكام العقل و إلى تقرير رأى أو آراء فيما ألف الناس من حياتهم الاجتماعية ، وفيما ينبغى أن يتركوا أو يستبقوا من هذا الذى ألفوه .

وأندريه جيد لم يقصد فى هذه الكتب الثلاثة إلى الامتاع الفنى الخالص ، وإنما قصد إلى لون من ألوان الاصلاح الاجتماعى ، وأراد أن يدعو إليه ، ويحث عليه ، ويرغب فيه ، ويعرضه للبحث والنقد والتمحيص . وهو على ذلك لم يستطع أن يخالف عن فنه ولا أن يتحول عن مذهبه فى الانشاء ؛ فهو لم يخرج لنا كتباً يرتب فيها النتائج على مقدماتها ويعرضها عرض الباحثين المفلسفين ، وإنما

اصطنع مقداراً يسيراً من الخيال لا يبعد عن مذهب المفلسفين من جهة ، ولا يورطه فى هذا المذهب من جهة أخرى . فعرض علينا فى الكتاب الأول « مدرسة الزوجات » فتاة فرنسية ساذجة نشأت فى أسرة من الطبقة الوسطى ، تحتفظ الأم فيها بالتقاليد الدينية احتفاظاً شديداً ، وينأى الأب فيها عن هذه التقاليد نأياً ظاهراً ولكنه لا يتبجح به ولا يغلو فيه . وقد لقيت هذه الفتاة شابا من طبقتها أحبها وأحبته وملك عليها أمرها كله ، ولكنها لم تكد تملك عليه من أمرها شيئاً . وقد فتنت به أشد الفتنة ، فأمنت له وآمنت به وفنيت فيه ، ولكنها لم تكد تزف إليه حتى أخذت خيبة الأمل تتكشف لها شيئاً فشيئاً ، وإذا بينها وبين زوجها خلاف بغيض يكاد يدفعهما ، أو قل يكاد يدفعها هى إلى أن تفارقه ، لولا شدة التقاليد . وهى تنتهى آخر الأمر من الضيق به والانصراف عنه ، إلى حيث تفارق الحياة كلها ؛ فهى قد تطوعت حين أعلنت الحرب للعمل فى بعض المستشفيات التى تعالج فيها الأمراض المعدية فلقيت حتفها هناك .

وهذا الكتاب يعرض علينا فى صورة يوميات ، تسجلها الفتاة منذ خطبها هذا الشاب إلى أن تزوجها ، إلى أن ظهر بينهما الخلاف ، إلى أن اشتد هذا الخلاف وانتهى إلى نتيجته المحتومة . وهذا المذهب نفسه ، مذهب اليوميات التى تسجل بين حين وحين وتصور العاطفة كما هى والرأى كما هو فى غير تكلف ولا تصنع ، أسلوب من الفن برع فيه أندريه جيد كل البراعة . فاذا لاحظت أنه لم يرد بهذا الكتاب أن يصور عواطف المرأة ، وإنما أراد قبل كل شئ أن يبين ما ينبغى أن يقوم عليه الزواج من الاخلاص الصريح والصراحة الخالصة والحب البرئ من النفاق كل البراءة ، عرفت أن اختياره لهذا الأسلوب ونجاحه فيه أبرع النجاح وأروعه آية من آيات الفن .

أما الكتاب الثانى « روبير » فهو دفاع الزوج عن نفسه بعد أن قرأ هذه اليوميات التى نشرت بعد وفاة امرأته، وفيه يعرض أندريه جيد مذهب الرجل المحافظ فى الحياة عامة وفى الحياة الزوجية خاصة ، ويدافع عنها دفاعاً متهالكاً لا قوة فيه ، ولكنه يصور تصويراً دقيقاً مذهب المحافظين فيما ينبغى أن تكون عليه المرأة من طاعة الزوج والخضوع له والاحتفاظ بالتقاليد والامعان فى الايمان بالدين كما تراه

الكنيسة لا كما يراه الرجل الحر . وقد ولد لهذين الزوجين فتى وفتاة . فأما الفتى فتأثر أباه وذهب مذهبه ، فأصبح أثِراً غالياً فى الأثرة ، متكلفاً مسرفاً فى التكلف ، وصولياً لا يحفل إلا بما يبلغه غايته . وأما الفتاة جنفييف ، فتأثرت أمها ونزعت نزعتها إلى الحرية ، ثم إلى التمرد الذى تعرضه الحياة فى بيئة يشتد فيها الخلاف بين الزوجين ، ويذهب فيها أحدهما مذهب النفاق على حين يذهب فيها الآخر مذهب الصراحة والاخلاص .

وهذه الفتاة هى التى ترسل إلى أندريه جيد الكتاب الثالث الذى يسمى باسمها ، تعرض فيه بغضها لمذهب أبيها فى الحياة ، وحبها لحرية أمها وصراحتها وسخطها مع ذلك على ما فرضت أمها على نفسها من خضوع و إذعان . وهذه الفتاة قد ولدت فى آخر القرن الماضى ونشأت فى أول هذا القرن ، ولم تتأثر بحرية أمها وحدها ، و إنما تأثرت معها بالمدرسة وبالبيئة الفرنسية الباريسية قبيل الحرب الأولى ، فاندفعت فى التمرد إلى غير حد ، أو قل إنها اندفعت فى التمرد إلى الحد الذى اندفع إليه أندريه جيد نفسه . ففيها سذاجة قوية صريحة ، وفيها إيمان بالنفس ، واعتداد بالرأى ، وبغض للاذعان ، وطموح إلى إرضاء الغريزة ، كل ذلك فى غير خبث وفى غير إيثار للشر ، و إنما هو التمرد وما يثير فى النفس من هذا الانخداع الجامح .

والفتاة من أجل هذا كله تتعرض لألوان من الفتنة ، فتوشك أن تتورط فى حب زميلة لها فى المدرسة لولا أن أمها تستنقذها من هذا الخطر . وهى تبغض الزواج أشد البغض ؛ لأنه يهدر حرية المرأة وكرامتها . وهى تخاف من الحب لأنه يوشك أن يهدر هذه الحرية أيضاً . وهى مع ذلك تريد أن تكون أمّا ، لا لأنها تعرف الأمومة وتقدر تبعاتها وتحب هذه التبعات ، بل لأنها جامحة ترى فى ذلك تحقيقاً لحريتها . وهى من أجل ذلك تعرض نفسها فى سذاجة غافلة على طبيب الأسرة وصديقها الذى يوشك أن يكون لها أباً ؛ لأنه صديق أبيها قبل أن يتزوج أمها . والطبيب أستاذ فى كلية الطب يعرف كيف يرد الفتاة إلى الرشد بسخريته الظريفة الرفيقة ، ونصحه الحازم الرشيد .

والفتاة تقص قصتها على أمها آخر الأمر ، وقد ذهبت لزيارتها فى ذلك المستشفى الذى كانت تعمل فيه ، فتسمع الأم وترتاع لهول ما تسمع أول الأمر ، ثم تطمئن الى أن ابنتها

قد ردت إلى الرشد ، ولكنها على ذلك ملتاعة لا تعرب عن لوعتها ، وإنما تفهم الفتاة هذه اللوعة ، وتعرف أن أمها قد أحبت هذا الطبيب ، وأن الطبيب قد أحب أمها ، وأن هذا الحب كان نقيا بريئاً لم يعرب قط عن نفسه ، لأن هذا الاعراب لم يكن يلائم الفضيلة ، ولا الخلق ولا الطهر ؛ فكلا العاشقين قد كان متزوجاً .

فهذه الكتب الثلاثة كما ترى تعرض قضية الزوجات ، أو قل تعرض قضية المرأة من جميع نواحيها ، أو قل إنها تعرض آراء أندريه جيد فيما ينبغى أن تكون عليه المرأة من حرية وكرامة واستقلال ، وفيما ينبغى أن يكون عليه الزواج من رعاية لهذه الحرية وحماية لهذه الكرامة ، واحتفاظ لكلا الزوجين بشخصيته كاملة نقية لا يفسدها خضوع ولا إذعان ولا نفاق .

وما أشك فى أن هذا الكتاب أو هذه الكتب ستثير كثيراً من الجدل فى نفوس الذين يقرءونها ؛ لأنها تعرض لموضوعات لا تخلو من دقة شائكة أحياناً . ولكن ما فائدة الكتب التى تقرأ فلا تثير فى النفوس حاجة إلى البحث والنقد والمعارضة والانكار ؟

وقد ترجمت هذه الكتب ترجمة دقيقة كأحسن ماتكون الدقة ،فى لغة قريبة يسيرة سهلة لا تشق على القراء وربما شقت على الذين يحبون الجزالة والرصانة بعض الشئ ، وربما كان الفرق بين الترجمة فى لغتها العربية ، وبين الكتب فى نصها الفرنسى أعظم مما ينبغى أن يكون . ولكن الشئ الذى لاشك فيه هو أن المترجم خليق بأجمل الشكر وأصدقه ؛ لأنه أهدى إلى قراء العربية كتباً سيجدون فى قراءتها متاعاً عقلياً وفنياً ، وسيجدون فى قراءتها بنوع خاص ما يخرجهم من هذه الحياة الراكدة التى نحياها فى هذه الأيام .

طه حسين

طعام الآلهة للكاتب الإنجليزى هـ . ج . ويلز (دار الكاتب المصرى)

من الملاحظ فى شأن الكتاب الذين يشغلون الناس فى حياتهم ويضعون حشداً من المؤلفات ، أنهم على أثر وفاتهم تمر عليهم فترة من الزمن ، قد تكون قصيرة تظل بضع سنوات أو طويلة تمتد إلى عشرات السنين ،

يهمل فيها الناس الاقبال فى شغف على مؤلفاتهم كما كانوا يفعلون . وكأن الزمن يتمهل فى هذه الفترة ويزن مؤلفاتهم بميزان ليصدر عليها حكمه الأخير .

وهذا ما حدث فى أزمنة قريبة للكاتب الفرنسى أناتول فرانس وللكاتب الانجليزى د . ه . لورنس ، وهذا ما يحدث الآن للكاتب الانجليزى ه . ج . ويلز الذى لم تمض سنة على وفاته .

ومن الطبيعى أن يضع الزمن فى الميزان أعمال رجل مثله ، كان دائم النشاط منذ اتخذ الأدب مهنته فى حداثته .

أخرج ولز من المؤلفات عدداً كبيراً ، واتسعت دائرة تفكيره حتى شملت مشكلات الانسانية ، بعد أن ابتدأ بداءة متواضعة نسبياً بمشكلات العلم ، متخذاً من هذه المشكلات موضوعاً لقصصه .

أجل ! بدأ ويلز كتاباته القصصية بموضوعات العلم ؛ فقد كانت دراساته متجهة نحو العلوم أكثر من الآداب ، ووجد فى هذه الدراسة لذة . ولكن مطالب الحياة صرفته عن هذه الدراسة قبل أن يذهب فيها إلى آخر الشوط ويجعل منها غرض حياته ، واتجه إلى الأدب وعكف على تأليف القصص .

وكان أول ما فكر فيه أن يعيش فى الجو الذى أحبه ، وهو جو لا تعوزه مادة الخيال والغرابة ؛ فظهرت قصصه العلمية التى منها « أول رواد القمر » و « آلة الزمن » و « بشر كالآلهة » ، و « جزيرة الدكتور مورو » و « حرب العالم » . وكانت معالجة الموضوعات العلمية على هذه الصورة الشائقة لدى الجمهور الانجليزى جديدة وطريفة حقا ، فأقبل الجمهور على كتبه إقبالا ، وسار بقدم ثابتة إلى مكانه فى مقدمة كتاب العصر .

وكان ويلز من وقت لآخر يجنح إلى القصص الخالية من غرائب العلم ، وكان يقتطعها من تجاربه والوسط الذى يعيش فيه ، ومن هذه القصص « الحب ومستر لويشام » و « سيرة مستر بولى » و « كيبس » وأخذ يترجح بين هذه الموضوعات الانسانية ، والموضوعات العلمية القريبة إلى قلبه .

وكانت الحرب العالمية الأولى مما جعله يتجه بكليته إلى المسائل الانسانية . ولكنه لم يكن يحصرها فى بيئته بل كان يهتم أشد الاهتمام بالمسائل التى تمس البشرية بأجمعها ، وأخذ يفقد اهتمامه بالقصة وإن اتخذها فى بعض كتبه ستاراً رقيقاً يخفى وراءه

آراءه . فنشر طائفة من الكتب منها « الطريق الذى يسير فيه العالم » ، و « بعد الديمقراطية » ، و « صورة الأشياء المقبلة » . وأخرج كتابه المعروف « خلاصة التاريخ » ، واشترك فى وضع كتب عن « علم الحياة » و « عمل الانسان وثروته وسعادته » .

وهكذا تطورت حياة هـ . ج . ولز فى كتاباته ، وظل يكتب ويؤلف إلى الأيام الأخيرة فى المسائل التى تهم الانسانية ، إلى أن انتهت حياته منذ سنة تقريباً ، وقد أشرف على الثمانين من عمره .

فأى هذه الوجوه الثلاثة من ولز سيحكم له الزمن ويكتب له البقاء : أهو ولز مؤلف القصة العلمية ، أم ولز مؤلف القصة الواقعية ، أم سيحكم الزمن لولز الكاتب الاجتماعى الانسانى؟

لسنا نستطيع التنبؤ الآن ، ولنترك ذلك لحكم الزمن . غير أن الأحوال تدل على أن القصص العلمية ربما كانت أقرب مؤلفاته إلى قلوب القراء ، وأقربها إلى تمثيل ولز فى خير عصوره . فقد كان العلم محبباً حقيقة إلى قلبه ، وكانت حماسة الشباب الناشئ واهتمامه يملآن قلبه ، ولم يكن بعد قد اتخذ لباس الواعظ كما فعل فى كتاباته الأخيرة ، ولم يكن قد زعم لنفسه النبوة والتقدير فى عالم متحول لا يثبت على حال .

وفى قصة « طعام الآلهة » التى نشرتها دار الكاتب المصرى نرى ولز فى مقدرته الحقيقية حين كان يجمع بين العلم والخيال . وهى قصة غريبة يقوم موضوعها على أن طعام الآلهة الذى تشير إليه أساطير اليونان وجد فى الأرض ، وجده أناس من البشر ، فكان لذلك نتائج غريبة تتركها للقارئ .

وقد أتيح نقل هذه القصة إلى العربية بقلم الأديب المعروف الأستاذ محمد بدران ، فكان فى ذلك ضمان لقراء العربية ، بأن يجدوا هذا الكتاب فى ثوبه العربى مطابقا كل المطابقة للأصل الانجليزى ، وقد نقل أسلوب المؤلف نقلا أميناً .

حسن محمود

لقيطة قصة للأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله (دار الكاتب المصرى)

أصدرت دار الكاتب المصرى حتى اليوم بضعة وعشرين كتاباً ، فى عام وبعض عام ، أكثرها مما ترجم عن الفرنسية ، أو الانجليزية ، إلا أربعة كتب مؤلفة — فيما أحصيت — هى كل ما اختارته للنشر حتى اليوم من بين المؤلفات التى قدمت للدار ؛ وهذه القصة التى بين يدى هى واحد من هذه الكتب الأربعة . . .

وليس هذا هو كل ما ينبغى أن يذكر — على الهامش — للتعريف بهذه القصة ؛ لقد كان لها السبق كذلك فى مضمار آخر ، حين أرادت السيدة هدى شعراوى أن تسدى إلى الأدب يداً من أياديها فسبّقت بين المؤلفين جائزة ، هى جائزة فاروق الأول للقصة ، يمنحها عن رأى مجمع فؤاد الأول للغة العربية، مؤلف أحسن قصة تقدم للمباراة .

فهى إذن قصة ذات شأن ؛ أو هى — على الأرجح — قصة ذات حظ ، وحسبها من ذلك أن تظفر بمثل هذا التقدير مرتين : مرة عن رأى مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، ومرة عن رأى الدكتور طه حسين بك .

على أنى أوثر أن أعرض هذه القصة على القراء عرضاً موضوعيا غير مكتف بما قدمت من أسباب التعريف بها ؛ فهى قصة لقيطة : فتاة من بنات الخطيئة ، امتدت بها أسباب الحياة ، فآواها ملجأ من ملاجئ اللقطاء ، إلى عشرات من أمثالها ومثيلاتها ، عاشت بينهم كما يعيش كل لقيط ولقيطة فى مثل ذلك المكان ؛ فلما أتمت المرحلة التى ينبغى أن تغادر فيها الملجأ لتتصل بالحياة والأحياء وتطلب لنفسها أسباب العيش ، أحست وجود نفسها إحساساً قويا باعد ما بينها وبين الناس وفرض عليها لوناً من العزلة وألواناً من الحرص والحذر وسوء الظن بالناس ، ولكنها مع ذلك لم تستطع أن تستر ماضيها — أو ماضى أبويها على الأصح — ولم تسلم من كيد الناس ؛ واكتنفتها أسباب الشقاء ، كأنما أراد القدر أن تكون كفارة تلك الخطيئة التى لم تقترفها ولم يكن لها بدفعها يدان ؛ وما زال الكيد يلاحقها حتى فرض عليها أن تغادر القاهرة التى عاشت بها بضع عشرة سنة منذ دفعت إلى الملجأ مضغة لحم فى قماط حتى بلغت مبلغها من

الشباب والجمال والأنوثة ، لتلتمس أسباب العيش ممرضة فى بعض مستشفيات الاسكندرية . ورآها طبيب شاب فى المستشفى الذى تعمل فيه فافتتن بها وأراد أن يتخذها زوجة ؛ وأحست الفتاة هوى إليه ، فآثرت — حباً له وإشفاقاً عليه — أن تسر إليه حديث ماضيها ؛ ونشأت الأزمة حين وقفت بينهما التقاليد بعنفها وقسوتها ، ووضع القدر سبابته على شفتيه يحذر الفتى ويحذر الفتاة . أما الفتاة فكانت مؤمنة بأنها لم تخلق للحب والزواج وتكوين أسرة وقد عرفت ما هى فى رأى نفسها ورأى المجتمع ، فاستشعرت الخوف من ذلك الطارئ الجديد الذى يهمس فى قلبها وقلب صاحبها بأغانيه . وأما الفتى فلم يكن يؤمن بهذه التقاليد ولم يشغله من ذلك الأمر إلا التفكير فى الوسيلة التى يستديم بها رضا أبيه وأسرته المحافظة ولو بالكذب والحيلة . . .

وراح الفتى يدبر أمره، ووقفت الفتاة تتربص وتنتظر ، لم يزايلها تشاؤمها ولم يستطع الحب أن يحملها على شئ من حسن الظن بالأيام ؛ وخيل إلى الفتى فى بعض مراحل تدبيره أنه قد وفق فيما أراد وتدانى له البعيد حين ظفر بموافقة أبيه وأمه ؛ وقال لفتاته : ها نحن أولاء قد ربحنا الجولة الأولى ! ولكن نتيجة الجولة الثانية لم تكن مما يتوقع حين نجمت أمور لم تكن فى حسبانه ولا حسبان صاحبته ، وإن كانت من سوء الظن بالأيام بحيث تتأهب نفسها فى كل لحظة لطوارئ الشر ؛ وآثرت الفتاة أن ينقطع ما بينها وبين فتاها ليصفو ما بينه وبين أهله ، وإن كانت هى الضحية . وزاد الفتى تشبثاً بها وإصراراً على تنفيذ ما اعتزم وإن انقطع ما بينه وبين أهله وبين الناس جميعاً . ونجمت أمور جديدة وزادت الأمور تعقيداً واستعصت على الحل ، وترقرقت فى العيون نظرات ، وتحيرت على الشفاه كلمات ، وأطبق الصمت الحزين على رجال ونساء ، ثم نطق القدر كلمته وانحلت العقدة !

هذا مجمل القصة ، وهى قصة بسيطة الموضوع ؛ كما قد يلاحظ القراء من هذا التلخيص ، ولكنها كما قلت قصة ذات شأن ، أو ذات حظ ، لا من حيث موضوعها ، بل من حيث الطريقة التى تناولها بها المؤلف والأسلوب الذى جلاها فيه ، والعاطفة التى تنبض فى بيانه ، وحرصه على دقة التصوير وبلاغة التعبير ، إلا قليلا من المواضع اضطره فيها التحليل فأسرف فى الوصف والتكرار وتجميل العبارة ؛ وإلا ما ألزم

نفسه من أسلوب فى الحوار جرى به فى القصة كلها على نسق واحد ، على غير ما يقتضيه الحوار من تنوع فى الأسلوب بتنوع الأشخاص الذين يدور بينهم الحديث ، وبتنوع موضوع الحديث ، حتى لا يبدو أثر الصنعة فيما يدور بين المتحاورين من فنون الكلام .

على أن الملاحظة الجديرة بالذكر فى الموضوع هى تلك الصورة التى جلا فيها المؤلف شخصية تلك « اللقيطة » فغلا فيما وصفها به من الذكاء والألمعية وطهارة النفس ودقة الحس وقوة الشخصية ، فجاءت صورة نادرة المثال أو معدومة المثال ، بين اللقطاء وأبناء الناس على السواء ! أفتراه قد أرادها كذلك : لقيطة من طراز خاص ليس مثله فى الأحياء ليقص قصة ويصف حادثة فحسب ؛ أم تراه أراد أن يقدم للقارئ «صورة عامة» لتكون قصته بَضْعة من الحياة التى يحياها الناس ليحملهم على أن يحسوا بما حولهم إحساساً قويا يثير فى أنفسهم مايثير من ألوان الفكر والشعور ؟

وإلى جانب شخصية اللقيطة التى أبرزها المؤلف فى هذه الصورة النادرة ، كانت شخصيات أخرى غلا ماغلا فى وصف بعض جوانبها ، ولكنه أغفل منها جوانب أخرى ذات شأن فى تحديد الشخصية . فثمة شخصية السيد الأمين ، وهو شيخ من أهل الدين والفضيلة ، آثر المؤلف أن يجعله من القصة فى مثل موضع القساوسة من المجتمع الأوربى حين يمسحون على رءوس الأشقياء ليهبوا لهم الطمأنينة والسلام الروحى ويحملوا عنهم خطاياهم أو خطايا آبائهم ؛ وهو عنصر لا نكاد نجده فى هذا المجتمع المصرى الاسلامى ؛ وقد كان لهذا الشيخ فى القصة دور ذو شأن ، ولكن المؤلف مع ذلك لم يحدد شخصيته تحديداً يضعه من نفس القارئ فى مثل موضعه من الحياة إن كان لمثله فى حياتنا موضع ، ومثل شخصية السيد الأمين ، شخصية الدكتور ك . فى عدم التحديد وقلة الوضوح ، إلى شخصيات أخرى كانت تبرز لموضعها من الحادثة ثم تختفى فلا يكاد يعرض لها ذكر إلا حين يريد المؤلف أن تذكر لينتقل بالقصة من مرحلة إلى مرحلة .

ولكن ذلك كله لا ينقص من قدر قصة قرر مجمع فؤاد الأول أن يمنح مؤلفها جائزة القصة لسنة ١٩٤٥ ، واختارها الدكتور طه حسين بك لتخرجها دار الكاتب المصرى هذا الإخراج البديع بين المطبوعات العربية الحديثة .

القواعد النحوية : مادتها وطريقتها للاستاذ عبد الحميد حسن وكيل دار العلوم

(مطبعة العلوم — القاهرة)

مؤلف هذا الكتاب هو أستاذنا عبد الحميد حسن وكيل دار العلوم وأستاذ الأدب بها ، وهو إلى أستاذيته فى الأدب عالم فى النحو ومحقق فى اللغة وشيخ من شيوخ المربين الذين عالجوا طويلا فن التربية (البيداجوجيا) علماً وعملاً ؛ وقد ندبته وزارة المعارف للمشاركة فى إلقاء طائفة من المحاضرات العلمية ، أو التربوية ، على طائفة من أساتذة اللغة العربية فى معهد الدراسات العليا الذى أنشأته وزارة المعارف فى عهد ما لتتيح لهؤلاء الأساتذة فرصة لمتابعة الدراسات الجديدة والآراء المستحدثة فى العلم أو فى الفن الذى يتصل بعملهم فى معاهد التعليم . وقد اختار الأستاذ عبد الحميد حسن أن يكون موضوع محاضراته لهؤلاء الأساتذة الطلاب فى معهد الدراسات العليا ، الحديث عن القواعد النحوية من حيث مادتها وطريقة تدريسها وكيف يتأدى بها النفع ؛ فمن وحى حديثه فى تلك المحاضرات إلى هؤلاء الأساتذة الطلاب ، كانت مادة هذا الكتاب .

وقد قدمت القول بأن الأستاذ المؤلف — إلى أستاذيته فى الأدب والنحو واللغة — شيخ من شيوخ المربين فى مصر ؛ بل لعل صفته هذه الأخيرة أظهر ، وهو بها أشهر ، وقد تخرج على يديه فى دروس التربية جيل من المعلمين فى أيديهم اليوم مقاليد التعليم فى مختلف معاهده ؛ لا جرم كان كتابه هذا الذى نعرضه اليوم ليس كتاباً خالصاً للنحو وقواعده ومادته ، فهو — إلى ما جمع من ذلك كله فأوعى — كتاب فى فن التربية ، يعالج فيه شيخ من شيوخ هذا الفن طريقة جديدة لتعليم اللغة بصفة عامة ، وتعليم النحو بصفة خاصة ؛ بل إن المؤلف لم يقتصر على هذين البابين فيما أبرز من خصائص علمه ، وهو أستاذ الأدب فى كلية دار العلوم ، فعالج كتابه إلى كل ذلك باباً من أبواب الأدب فيما أورد من تاريخ النحو وصلته بسائر فروع اللغة ، وتنازع الاختصاص بين هذه الفروع ، ثم شيوخ النحو وأصحاب المذاهب فيه ، وطبقاتهم ، وما اشتجر بينهم من ألوان الخلاف ، وتطورات هذه المذاهب على السنين ، وما ألف فى النحو من الكتب ، وطريقة المؤلفين فيه ، وصلة ذلك كله بطريقة

تعليم النحو والغاية منه على اختلاف العصور ، إلى غير ذلك من المباحث التى تدخل فى اختصاص أهل الأدب ومؤرخيه ؛ فأنت ترى من ذلك أنه كتاب قد جمع الخصائص العلمية لمؤلفه بين دفتين ، فهو كتاب فى اللغة ، وفى النحو ، وفى الأدب ، وفى التربية ؛ وإن كان على ما جمع من هذه الفنون لم يخرج عن موضوعه الأصيل وهو « القواعد النحوية : مادتها وطريقتها » ذلك لأن الأستاذ المؤلف إلى ما قدمت من صفاته : أستاذ من أساتذة المنطق !

هذا هو الكتاب الذى يقدمه الأستاذ عبد الحميد حسن اليوم إلى قرائه من أهل الأدب وأساتذة النحو وعلماء التربية ، ليلفتهم جميعاً إلى أمر ذى بال لم يلتفت إليه أحد قبل اليوم من المشتغلين بعلم العربية وتعليمها التفاتاً قوياً يحملهم على أن يتساءلوا فيما بينهم : لماذا نعلم النحو ، وإلى أى غاية نقصد منه ، وهل نحن بالغون بطرائقنا هذه فيه تلك الغاية ؟

وهى الأسئلة التى يفرضها هذا الكتاب على قارئه فلا يكاد يخلص منه حتى يعود إليه يلتمس فيه جواب ما سأل .

وإذن فهو كتاب يستطيع المشتغلون بعلم العربية وتعليمها — إذا أحسنوا الاصغاء إلى ما فيه من جديد الرأى — أن يجعلوه نقطة التحول إلى لون جديد من ألوان الدرس لعله أن يحملهم على التماس الأسباب لتجديد هذا النحو وطرائق تعليمه .

وإذن فهو كتاب فيه ثورة وتمرد على باب من أبواب العلم القديم ، ولكنها ثورة هادئة متزنة ليس فيها صخب ولا تحد ولا مجاهرة بالعصيان ، لأن مؤلفه هو الأستاذ عبد الحميد حسن الذى تلحظه فى أحفل المجالس بأسباب الصخب والثورة هادئاً سا كتا لا تكاد تطرف له عين أو تختلج شفة كأنما خلا المجلس منه . وهو فى هدوئه ذاك يفكر ويقدر ويزن الأسباب والنتائج ليخلص من كل ذلك إلى الرأى الهادئ المتزن كأنما قد استجمع له الفكر فى مجلس قد خلا إلا منه !

وددت لو أحسن الاصغاء إلى ما فى هذا الكتاب من جديد الرأى كل مشتغل بعلم العربية وتعليمها ؛ لننتهى عن قريب إلى الرأى فى أمثل الطرق للنهوض بهذه اللغة التى تموت كل يوم مائة مرة وتحيا على ألسنة الناطقين والكتاب من المتعلمين والجهال على السواء !

حديث فى الطب للدكتور مصطفى الديوانى (مكتبة النهضة المصرية — القاهرة)

مؤلف هذا الكتاب طبيب يمت إلى الأدب بسبب ، أو بتعبير آخر : هو طبيب يحاول أن يكون أديباً ؛ وهو طراز من أهل الفن لا يريد أن يقتصر على فنه وما يتهيأ له فيه من أسباب الاختصاص ، ولكن يريد أن ينفذ بفنه إلى فنون أخرى ؛ أو هو لا يريد أن يكون فنه خالصاً له وحده من دون الناس ؛ بل يريد أن يشاركه فيه غيره فيكون له وللناس ما يعلم من خصوصيات هذا الفن ، اعتداداً بعلمه ، أو اعتداداً بالناس وحرصاً على أن ينتفعوا بما يعلمه ، بكل وسائل الانتفاع ؛ فهو طبيب ، ولكنه لا يكتفى بأن يقتصر نشاطه فى التطبيب على الطائفة القليلة أو الكثيرة من المرضى التى تلتمس عنده أسباب الطب لأدوائها ، بل يريد أن يكون طبيباً للناس فى بيوتهم وإن لم يسعوا إليه ، وأن يقوم لهم أسباب العلاج أو أسباب الوقاية وإن لم يلتمسوا عنده أسباب العلاج أو أسباب الوقاية ؛ وعلى نهجه ذاك أصدر هذا الكتاب ليضيفه إلى ما أصدر من قبل من كتب فى هذا الباب .

ويضم كتاب «حديث فى الطب» طائفة من المقالات نشرها من قبل مفرقة فى طائفة من المجلات والصحف يحاول فيها حديثاً شعبياً مبسطاً لتعريف الناس بما لا بد أن يعرفوا عن طائفة من الأمراض والآداب الصحيةوأسباب التوقى والحذر فى الشئون التى تتصل بالصحة العامة ومسائل أخرى تتناول هذه الموضوعات من قريب أو من بعيد؛ ففيه حديث عن الفيتامينات ، وعن المسكنات والمنومات والملينات والمسهلات ثم عن طائفة من المباحث الجنسية ، وعن بعض ما تحتاج إليه الأم لبعض ما يعرض لطفلها ، إلى مباحث أخرى يجد فيها كل قارئ حاجته من « الثقافة الصحية العامة » أو بعض حاجته ؛ فهو كتاب من حيث الفكرة العامة ينبغى أن يحرص على العلم بموضوعه كل قارئ ؛ على أن الكتاب — وقد أسلفت الحديث عن مؤلفه — لا يخلو من بعض هنات شكلية يجب أن يتنزه عن مثلها كاتب يريد أن يعرض بضاعته على القراء .

محمد سعيد العريان

فى مجلات الشرق

الغد فلسطين العدد ٣٩ (مارس ١٩٣٧)

السينما العربية — يحاول المحرر أن يتحدث عن السينما العربية بوجه عام ، من حيث هى قصة و إخراج ، فيزعم أن السينما العربية لم تخرج حتى اليوم غير قصتين اثنتين لا غبار عليهما ، هما قصتا « ليلى » ، و « العزيمة » ؛ أما ما عداهما فشئ لا يؤبه له ولا يعد فى باب الإنتاج الفنى ؛ بل إن هاتين القصتين لم تسلما فى رأيه من العيب ؛ فأولاهما قد أخرجتها شركة مترو جلدوين ماير قبل أن تخرجها مصر إخراجاً لم يبلغ من الجودة إخراجها الأول ، والقصة الثانية — على أنها قد بلغت من الجودة مبلغاً ما فى الاخراج والتصوير والتمثيل والحوار والصوت والموضوع — قد خسرت فيها الشركة التى أخرجتها لأنها لم تصادف الاقبال الذى يفى بتكاليفها . . .

ثم يأخذ المحرر بعد ذلك فى الحديث عن موضوعات القصص المفضلة عند الشركات السينمية العربية والقاعدة التى يقوم عليها اختيار تلك القصص ، أو التى تمسخ على مقتضاها القصص الصالحة لتكون ملائمة لتلك القاعدة ، ثم يلخص كلامه فيما يلى :

١ — إن المخرجين الحاليين العرب يغيرون نهاية القصة بحيث يطعن هذا فى كيان القصة الفنى .

٢ — إن القصص التى يخرجونها لا موضوع لها ولا قصد ، فهى مجرد سرد حوادث يكثرون من إدخال المعجزات فيها .

٣ — إن المخرجين الحاليين لا يحسنون اختيار القصص ، مع أن الأدب العربى قديمه وحديثه غاصّ بكل حسن منها .

الأديب بيروت ، الجزء الرابع (ابريل ١٩٤٧)

العدالة والرحمة — من مقال للأستاذ فوزى غازى المحامى ، يحاول فيه أن يبين الصلة بين العدالة والحرية ، فيقول :

« إن عدالة لا تورق على أغصانها براعم الإحسان لا تعود على المجتمع بالسلام والطمأنينة .

«إن الانسان حب وعقل ، لكنه حب قبل أن يكون عقلا : حب باتحاد قلبه مع قلب أخيه ، وعقل باحترام مواهب أخيه وذاتيته ؛ و إذا لم يتحد الاثنان فى الفرد اختل التوازن فيه ، فأصبح آلة حاصدة أوقلباً حنوناً سموحاً يحيا بالعاطفة فتعم الفوضى فى المجتمع .

« وهكذا يبدو أن العدالة يجب أن تمزج بالاحسان لتستكمل ذاتها وحقيقتها . يثبت التاريخ أن الإنسان ما فتئ منذ أقدم عهوده يجعل من الإحسان هدفاً يعتمد الوصول إليه ، وأنه على دروب القرون والأجيال كان دوماً يرمى من الاحسان إلى العدل وبعبارة أعم : من الحب إلى العقل ؛ أى إنه كان كلما تطور وتنور ، يدخل فى شرعته وقوانينه ما كان يعتبره لا يخرج عن نطاق الرحمة والإحسان ؛ فضرب الرقيق كان مباحاً من العدالة غير محظور ، بيد أن الحب الدافق فى بعض الأرواح كان يحظر عليها حظراً معنويا الاقدام على مثل هذا الفعل ؛ لأن الإحسان والشفقة قد لا يرضيان عنه ؛ ولكن بينما كان قلب الإنسان وضميره هما رادعيه تطورت الأيام فاستبدل بالضمير والقلب يد المجتمع وعقله ، وأنزل العقوبة والقصاص بكل من تحدثه نفسه اقتراف جرم ضرب الأرقاء . »

يسار ويمين — وفى العدد نفسه من مجلة « الأديب » ، مقال للأستاذ عبد اللطيف شرارة ، عنوانه « حقائق ولكنها أوهام » يتحدث فيه عن حال الأمة العربية فى حاضرها ، ويناقش الأسباب التى يرد إليها ما يراه من فوضى فى العقائد ، وضغن فى الأفئدة ، واعوجاج فى السير، وخلط فى المقاييس وخبط فى ظلمات المعضلات . . . فيرى كل مايقال من أسباب لهذه العلل ، أوهاماً وأباطيل ؛ فليست العلة هى « مرحلة التطور » كما يزعم من يزعم ، وليست فى الموقع الجغرافى ؛ وليست فيما يتجاذب العالم الآن من تيارات أهل اليسار وأهل اليمين ؛ وإنما العلة فى تقاعس الرجال وتحكم الأهواء ؛ وكل مايذكر غير ذلك وهم باطل ، فهو ينقضه سبباً بعد سبب ، حتى ينتهى إلى مايسمونه مشكلة النزعات اليسارية فيقول:

« أما مشكلة اليمين واليسار فانها أعظم هذه « الموهومات » أثراً وتأثيراً، إذ انبعثت فى حياتنا وليس لنا يد فيها

ولا لقيامها مبرر فى أجواء تفكيرنا .

« ومن الطبيعى المعقول أن ينقسم الغربيون إلى معسكرين : يمين ويسار، لأن هذا النمط من المعسكرات الفكرية يأتلف فى جوهر تركيبه وقرارة مفهومه وحتى فى طريقة التعبير عنه ، مع تاريخ الغرب وعقلية سكانه وأطوار نشوئه ونموه ؛ وذلك لأن الحضارة المادية أخذت الحياة على أنها « دائرة » يتقلب فيها الأحياء ولا يخرجون منها ، فكان من المنتظر أن تنشأ عندهم فلسفة الحرية . والحرية فى عالم الحوادث والأشياء والوقائع ليست أكثر من فلسفة . وكان من المنتظر أيضاً أن يتصادموا ويتقارعوا فى إطار حضارتهم، فهم يعلنون عند نهاية كل قراع أن المدى الحيوى كان سبباً رئيسياً فى تصادمهم ، وأخيراً كان من المنتظر أن ينقسموا إلى يمين ويسار ؛ إذ ليس فى الدائرة حين نقسمها إلى شطرين غير هذين النعتين لشطريها .

« ولكن الحضارة الشرقية لم تأخذ الحياة فى يوم من الأيام على أنها دائرة بل كانت ولا تزال فى نظرها الأصيل « سلماً » يرتقيه الانسان ، ولا يأتلى يرتقيه ، إلى أعلى الدرجات ، إلى أكمل الكمالات ، إلى منبع الخيرات ، إلى سيد الكائنات ، إلى الله . ولذلك ، كان هذا الشرق مهد الأديان ، ومهبط الشاعرية ، وسرير الصوفية من أقصى الأيام إلى هذا اليوم ! »

مراحل التاريخ العربى — ولا أستطيع أن أدع هذا العدد من مجلة « الأديب » حتى أوجز لقراء هذا الباب حديثاً للأستاذ حنا نمر ، عنوانه « التاريخ العربى تحت مبضع العقل » يعيب فيه على مؤرخى العرب — من أقدم العصور حتى اليوم — أنهم نظروا إلى هذا التاريخ فى أكثره على أنه تاريخ أفراد لا تاريخ أمة ؛ وأثر هذا الطراز من البحث التاريخى فى رجال السياسة والاجتماع من العرب ، فوقع فى وهم عدد كبير من المصلحين والقادة أن فى قدرة كل واحد منهم أن ينهض بالأمة ، فما أفلحوا فى أداء رسالتهم ولا أفلحت بهم الأمة ؛ « لأن الأفراد لا يقدرون على قيادة الأمم إلا إلى حد محدود لا يستطيعون أن يتجاوزوه ».

ويخلص الكاتب من الحديث عن مقدار تأثير الفرد فى الأمة وتأثر الأمة بالفرد ، إلى الحديث عن مراحل التاريخ العربى كما يحددونها من

جاهليــة وأموية وعبــاسية ، فينـكر أن يكون هذا التقسيم صحيحاً ؛ لأنه ينسب المراحل إلى مؤثرات فردية لا إلى خصائص شعبية عامة .
ثم يقول :

« ونحن نرى أن التــاريخ العربي مر في أطوار وأدوار وعهود :

١ — عهد النزاع بين القبائل في الشمال .

٢ — عهــد الثقــة بالنفس والاطلاع على القـوى الـكامنــة في العرب أو ميـل القبـائل إلى الاتحــاد بعد يوم الفيل والـكلاب وذى قار .

٣ — عهد النزاع بين القــديم والجديد ، ويبتدئ قبيل الإسلام وينتهى بفتح مكة .

٤ — عهد الانتقاض والانتفاض ، عهد انتفضت به الرجعية قبل موتها ، وانتقض فيه أنصار التقسيم قبــل هزيمتهم وينتهى في وسط خلافة أبى بكر .

٥ — عهد الفتح وينتهى في أواخر خلافة عمر .

٦ — عهد الانقسام والخلاف على الغنيمة والملك وما رافقهما من بعث طراز قَبَلىٍّ جديد وينتهى في أوائل خلافة على .

٧ — عهد الخلاف بين القبليــة والقومية وبين الإنسانية والتمسك بتعاليم الـكتاب وينتهى في أواخرخلافة معاوية .

٨ — عهد انتصار القومية العربية وينتهى في خلافة عمر بن عبد العزيز .

٩ — عهد انقسام العرب واتحاد الفرس ونهوضهم بانتهاء خلافة السفاح .

١٠ — عهد النزاع بين العـرب والفرس وينتهى بقتل الأمين .

« ويتلو ذلك عهود نازع الأتراك فيهــا الفرس وانقسمت الأمــة إلى دويلات كان للقومية فيها الأثر الأقوى، وظلت القومية العربية ضعيفة تجاهد حتى بعثت قوية فياضة بعد الحرب العالمية الأولى . »

المرأة دمشق العدد الأول (ابريل ١٩٤٧)

المرأة العربية — هذا حديث جرى بين المحرر وسيدة أجنبية متزوجة بسـورى ، عن المرأة العربيــة كما تراها بعــد المخالطة والعشرة ؛ وكان أول الحــديث عن الشعر والشعراء والمـكان الذى وضع الشعر

العربي فيه المرأة ، فزعمت السيدة أن الشعر العربي لم يتحدث عن المرأة ، بل عن جسدها ؛ ولم يصور إنسانيتها ، بل أنوثتها ؛ بل آثر في تصوير هذه الأنوثة الصور التي تلهب الحواس ولا تلهب الأرواح . . . ثم هي تردّ هذه الآفة في الشعر العربي إلى الحجاب فقد أورث هذا الحجاب الرجال شعوراً بالحرمان ، « والمحروم لا يتحدث إلا عن الأكلة التي لم يذقها ! »

قال لها المحرر : « معنى ذلك أن الشعر لا يبلغ المكانة الصوفية إلا حين يشبع الشاعر ؟ »

« قالت بعناد : نعم ، لتشبع روحه على الأقل . . .

« إن هذه الفرقة بين الرجل والمرأة ، قد خلقت من مجتمعكم كائنات غريزية ، لا يكاد يقترب جنس من جنس حتى تستيقظ فيه أحط الرغبات . أنظر إلى شبابكم وإلى تلك النظرات الجائعة تلمع في عيونهم حين تقع على امرأة متبرجة بعض التبرج . إن صداقة الجنسين ستبقى معدومة في مجتمعكم ما دامت أرواح الطرفين لم تشبع .

« لقد تبلورت فكرة الجنس في مجتمعنا فتحدد لها زمان ومكان ، أما في مجتمعكم فهي لكل زمان ولكل مكان . . . حتى في الترامواي ، لا يكاد الشاب يعطي مقعده لسيدة حتى تراه يسترخي اشتهاء . ويزم شفتيه تظرفاً ويكثر من رفع يده إلى ربطة عنقه ليستلفت نظر السيدة إلى أناقته ، كأن النزول عن مقعد لسيدة يكفي للايقاع بها . . .

« إن شبابكم يفتشون عن الأنس فلا يجدونه إلا في جسم المرأة ، ويفتشون عن الحب فيطارحونه كل امرأة . . . لأن غذاءهم الروحي ناقص فهم في جوع روحي دائم . . .

« إنني لا أهاجم الشباب لأستثني الشابات بل أشمل الجميع . . .

«أعذرني ياسيدي إذا صارحتك بأنه ليس عندنا فتاة أو سيدة تسترق النظر من وراء الباب وتحدق في كل شاب . . .

إن عندنا صراحة تمنع مثل هذه السرقة ... سرقة المتعة الرخيصة . »

المنهل مكة المكرمة العدد الرابع (مارس ١٩٤٧)

خطوط الحياة — من مقال للأستاذ عبد القدوس الأنصاري ، عنوانه « جرب الطريق الآخر ! »

« في هذه الحياة جملة شبكات من

خطوط مختلفة الاتجاه والأهداف وثلاثة منها هي الخطوط الرئيسية :

« يعتاد سلوك الطريق الأول ، أولئك الواهنون الضعفاء الذين هانت نفوسهم ، وهؤلاء القوم هم حثالة الأمم . . .

« ويمتطي ثاني الطرق ، أولئك الأبطال المغامرون الذين لا يبالون بنصب جسومهم في سبيل الترفيه عن ضمائرهم وشعوبهم ؛ هؤلاء القوم هم الرواد وهم القادة في الأمم . . .

ويسلك ثالث الخطوط فريق ثالث يزعمون أن يمثلوا دورهم على مسرح الحياة ولكن ليس بين مقاعد النظارة وهؤلاء هم العاملون في الأمم .

يحسن بك — يا صديقي القارئ — إن كنت ممن يهفو إلى معالي الأمور أن تحدد مركزك حيال خطوط الحياة الثلاثة ؛ وإذا لم تصل إلى هدفك المنشود في طريق من طرق الحياة ، فحذار من أن تركبك هواجس الهم واليأس . . .

. . . جرب الطريق الآخر ! »

المواهب توكومان — الأرجنتين العدد الثامن (ديسمبر ١٩٤٦)

وهذه مجلة من مجلات الشرق ولكنها تصدر في الغرب ، في المهاجر البعيد ، حيث يعيش الآلاف من أبناء العربية كراماً موفورين قد تبوءوا مكانتهم مؤمنين بأن من حق العربي حيث كان أن يعيش ، وأن يسود . . . فعاشوا ، وسادوا . وهذه مجلة تنطق بلغتهم وتعبر عن خوالج أنفسهم ، يعبر بها البريد آلاف الأميال ، بين توكومان والقاهرة . . . رسالة من النازح إلى المقيم .

هذا المقال الأول يتحدث فيه الأستاذ يوسف صارمي محرر المجلة عن « نهضتنا الأدبية الحاضرة » حديثاً نجد صداه في القاهرة ، أو لعله هو صدى حديثنا عن نهضة الأدب ؛ وما خفقة قلب العاشق إلا صدى لخفقة قلب عاشق !

وهذه مقالات عن غوامض أبي العلاء ، وسوريا في ميدان الشرف القومي ، ومعرض الكتاب والشعراء ، وفجيعة شكيب أرسلان — إلى فصول ومختارات وقصائد ؛ فكأنما لم يبعد العهد ولم تتناء الديار .

أوسع الله للعربي وأبعد صيته !

فهرس المجلد الخامس

فبراير — مايو ١٩٤٧

دراسات أدبية

دراسات فلسفية

* كل مقال أمامه هذه العلامة كتب خاصة للمجلة بقلم كتاب أوربيين أو أمريكيين .

(١) Etiemble, *Troubadours et poètes hispano-mauresques*

(٢) Etiemble, *Roger Caillois théoricien d'un classicisme neuf*

(٣) Alexandre Koyré, *Condorcet*

(٤) Roger Arnaldez, *Les origines de l'existentialisme*

(٥) Roger Arnaldez, *Les origines prochaines de l'existentialisme. La philosophie de Nietzsche*

دراسات اجتماعية واقتصادية

دراسات تاريخية

دراسات سياسية

---

(١) ***Life in a neutral country: in Sweden today,*** **by Henry Baerlein**

(٢) ***Britain, war changed and changeless,*** **by Henry Baerlein**

دراسات فنية

قصص

شعر

(١) Hilde Zaloscer, *L'œuvre ultime des grands maîtres*

رثاء

من هنا وهناك

شهرية الفن

شهرية السياسة الدولية

شهرية المسرح

(١) Hilde Zaloscer, *Poète peintre et peintre poète*

شهرية السينما

من وراء البحار

من كتب الشرق والغرب

ظهر حديثا

---

(١) Etiemble, *Le héros dans «La vallée heureuse»*

(٢) Etiemble, *Œdipe ou Thésée*

(٣) Bernard Guyon, *Commentaires autour d'un grand livre «La pensée française au XVIIIe siècle»*

فى مجلات الشرق

فى مجلات الغرب

محمد عبد الحليم عبد الله

لقيطة

قصة

جائزة فاروق الأول للقصة

من مجمع فؤاد الأول للغة العربية

الثمن ٢٥ قرشاً
البريد ٢٤ مليما



٢٥٠ صفحة

